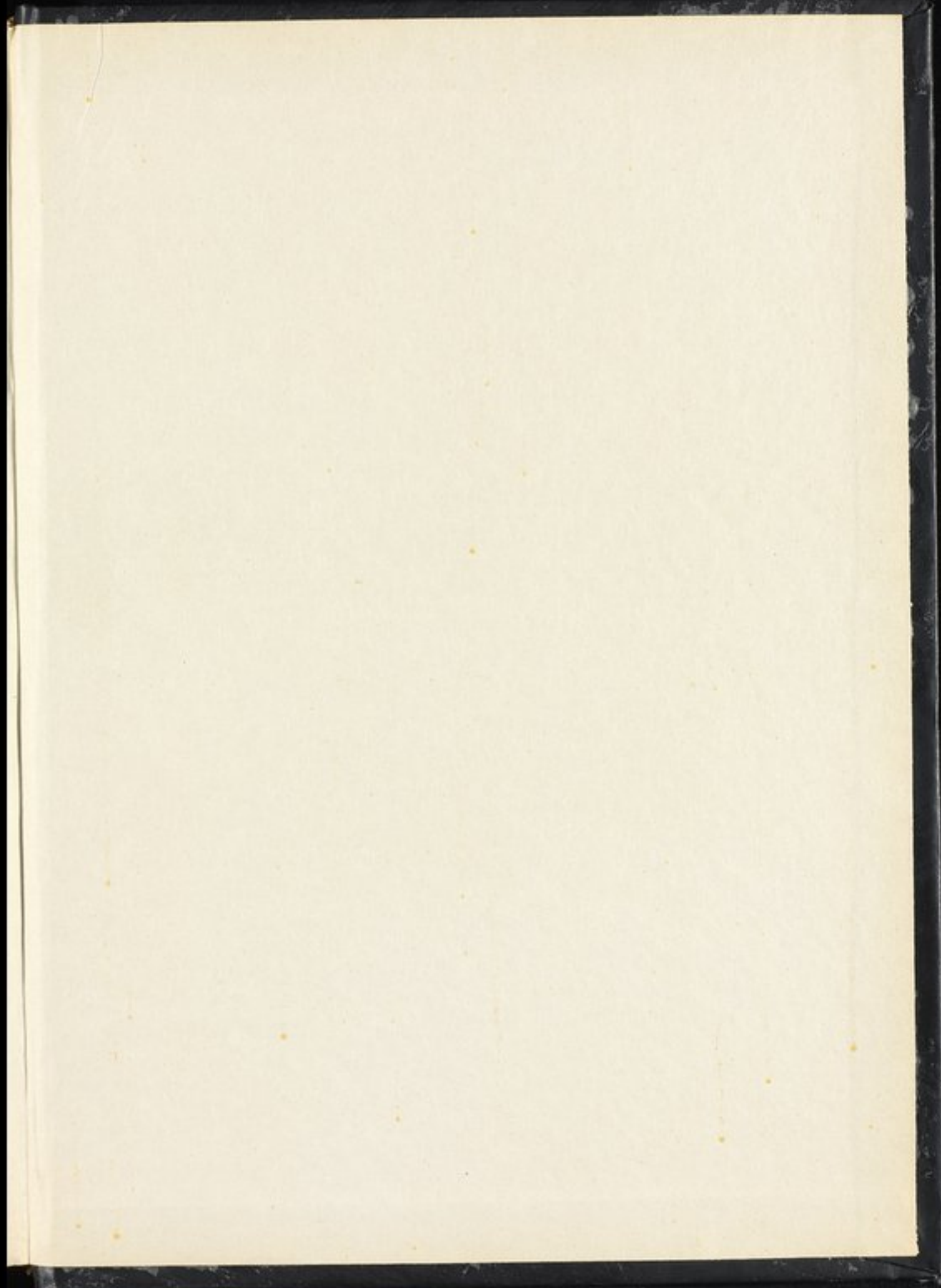


النجواهر
في تفسير
القرآن الكريم

١٧-١٥

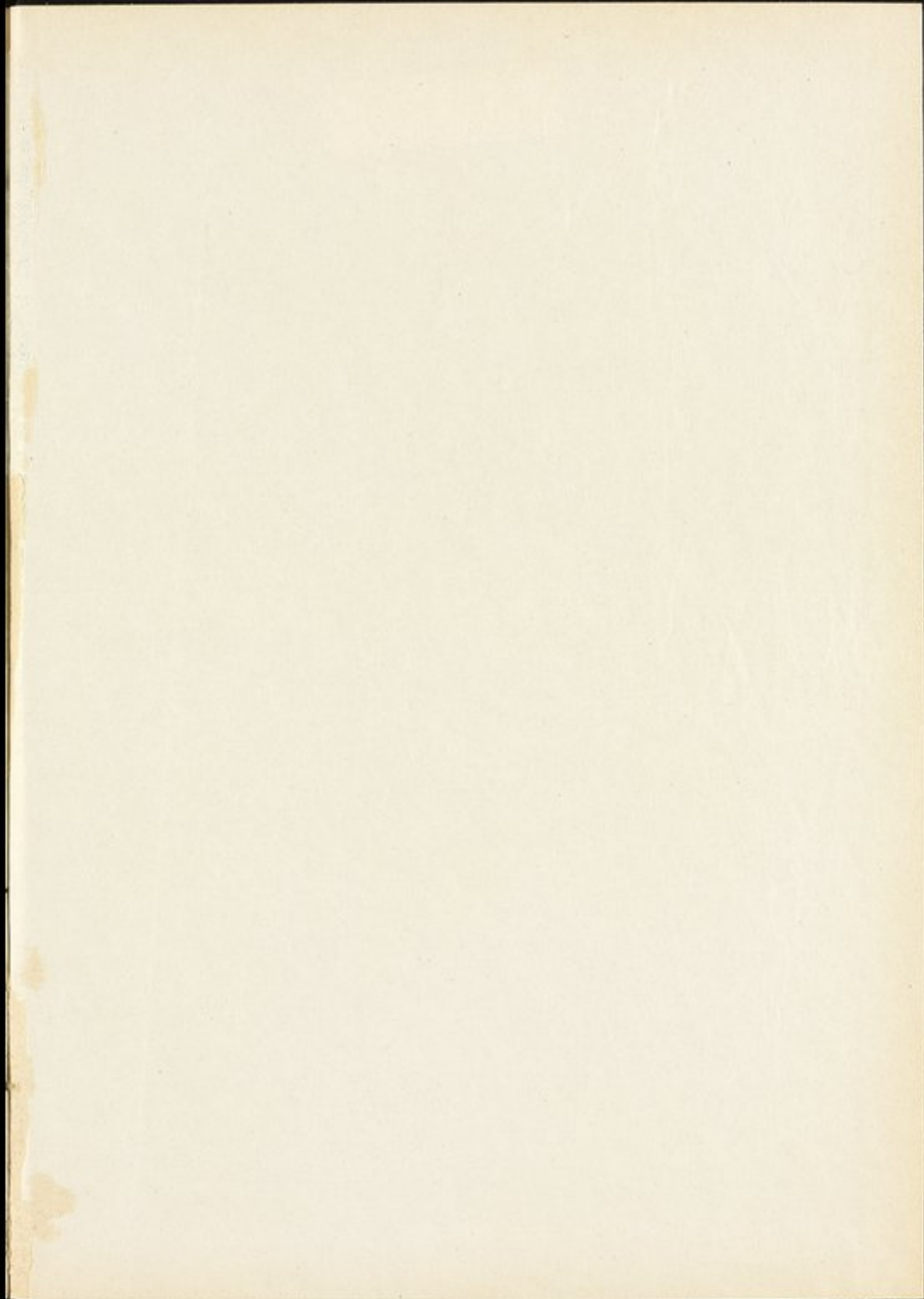
مكي مكتبة المطبعة
مستشرقون
الطبعة الأولى سنة ١٣٤٥ هـ



Princeton University Library



32101 079196257



الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المتمم على عماد بن أبي بكر بن عبد الله بن أبي بكر

تأليف

الأستاذ المحقق الشيخ طهطاوي جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياة آمين

الجزء الخامس عشر

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع مطبعة

مصطفى الباشا الحلبي وأولاده بمصر

مشارف محمد أمين عمران

(ARAB)
BP130
4
JSM
juv 15-16

« وَذَكَرْنَا فَإِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ »

(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(تفسير سورة الروم)

(وهي مكية إلا قوله تعالى « وله الحمد في السموات والأرض وعشيا

وحين تظهرون » فمدنية

(وآياتها ستون - نزلت بعد الانشقاق)

(مقدمة)

(مناسبة هذه السورة لما قبلها)

اعلم أن السورة المقدمة قد بدأت بالجهاد وختمت به فرد عجزها على صدرها : بدأها بأن الناس لم يخلقوا في الأرض ليناموا على بساط الراحة وإنما خلقوا ليجاهدوا حتى يلاقوا ربهم وأنهم يلاقون مصائب ومصائب من الأهل والأصحاب والأثم التي يكونون فيها ، وأخذ يقص ماجرى لنوح وإبراهيم ولوط وهود وصالح وموسى وما كان من صبر الأنبياء ، وخذلان الكافرين وضرب لهم مثلا بالعنكبوت وبينها وبين لهم أن المدار على العقل والحكمة والفهم في القرآن الخ ، وزهدهم في الدنيا وأمرهم بالصبر والتوكل فإن الرزق على الله كما رزق الدواب .

فأما (سورة الروم) فقد بدأها بأن محمدا صلى الله عليه وسلم تابع للأنبياء فإنه محسن كما أحسنوا ، فإذا كان الأنبياء قد جاهدوا ، وصبروا ثم نصرروا فإن محمدا صلى الله عليه وسلم قد جاهد وصبر ففاز ، فإذا كان آخر السورة هو ملخص ما فيها : أي إن قوله تعالى « والذين جاهدوا فينا » الخ هو ملخص ماجاء في السورة فإن أول الروم يفيد أن محمدا صلى الله عليه وسلم مثلهم ، ألا ترى أنه أخبر بأن الروم سيغلبون بعد أن غلبهم الفرس ، وأيضا أمته ستغلب الفرس في تلك الجهة . فهذان (نصران) نصر نبوي علمي ونصر حربي بالفتح .

فأصبحت هذه السورة متممة لما قبلها . ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم أخذ يقرر ويفصل ما ذكره إبراهيم في سورة العنكبوت « فانظروا كيف بدأ الخلق » الخ فهنا أخذ يبين ذلك فقال « أولم يسبوا في الأرض » الخ ، وقال « الله يبدأ الخلق ثم يجيده » الخ . وفصل ذلك أبهج وأجمل تفصيل فقال « ومن آياته أن خلقكم من تراب » الخ . إذن سورة الروم مفصلة لبعض ما أجمل في سورة العنكبوت تارة ومكلمة لتاريخ الأنبياء بذكر خاتمهم ونصره تارة أخرى اه .

﴿ تقسيم السورة إلى أربعة أقسام ﴾

(القسم الأول) في تفسير البسملة .

(القسم الثاني) في بعض سر «الم» .

(القسم الثالث) في إثبات النبوة بالإخبار بالغيب وفي العجائب الدالة على الوحدانية من أول السورة إلى

قوله تعالى « وله للثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

(القسم الرابع) في تذكير الناس بالنعم وبالنعم ليشكروا الله على الأولى ويخافوه على الثانية وآيات أخرى

لهاجة الجاهدين من قوله « ضرب لكم مثلا من أنفسكم » إلى آخر السورة .

﴿ القسم الأول: في تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » ﴾

استيقظت قبيل الفجر ليلة الجمعة (٦) من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٩ ونظرت بهجة النجوم وجمالها وعن عوانس أوانس يقطن لأرواح أهل الأرض (هلم إلينا) وفيهن الثريا ونجوم الجبار والجوساكن والدنيا هادئة فأعجبت منظرها وبهرت بحسنها وأدهشت بجمالها وصرت أقول في نفسي إن الناظر الجميلة تسأماها النفس إذا طال أمدها واعتيد نظرها . ولكن هذه الأوانس العوانس والخنس الجوارى الكنس بهجات الطلعة لنا ظرين وإن كثرت الناظرين ووافق للبندأ الخبر . إن كل مبذول متروك وكل ممتنع محبوب . ولكن هذه الحور القصورات في السماء تعرض كل ليلة على الناظرين وتجلى للعاقلين وهم منها لا يأمون ، وكلما ازدادوا لها نظرا ازدادوا لها حبا .

إن حجرة نوى فوق الدور العلوى من المنزل وأمامها فناء لاسقف له وقد اعتدت في زمن الصيف أن أنام في هذا الفناء لأقابل الهواء الجوى الخالص ولأتمتع الكواكب الجميلة البديعة ، ففي هذه الليالي كلما استيقظت قبيل الفجر شاهدت أربع مجموعات منها تسير من الشرق إلى الغرب . ولا جرم أن للنجوم أسماء اصطلاحية ذكرتها في الأجزاء السابقة وهذه الأسماء تختلف باختلاف الأمم من أهل الصين والهند والبابليين والعرب بحسب ماتخيل كل أمة من شئونها وما يغلب على خيالها مما لا محل للافاضة فيه كما تسمى عندنا النجوم المجتمعة كمنقود العنب بالثريا ويسميا قوم (الدساجة وأفراخها) كما تقدم ، فلما كان الأمر كذلك ظهرت لي هذه الكواكب في هذه الليالي بهيئة صحائف كتاب أمسك به صاحبه وطواه في يده وأنا وأهل الأرض في داخل ذلك المطوى وهو يدبره حوالينا من للشرق إلى المغرب فأولا تمر الثريا ، ويتبعها من جهة الشرق مجموعة كواكب كوفت ما يشبه الزاوية الحادة ومنثني الحطين جهة الغرب وسطح الزاوية جهة الشرق ثم يلي هذه الزاوية مجموعة جميلة من النجوم تظهر بهيئة خط منحني ظريف . يبع كقلادة الحسناء أكثر نجومه تشبه (كوكب السها) في قلة ضوئه ، ويتبع هذا الخط من جهة الشرق على بعد يساوى المسافة التي بينه وبين الثريا نجوم شديدة اللعنان من القدر الأول من نجوم الجبار ويسميا العامة في بلادنا بالميزان . ذلك لأنها مكونة من ثلاث نجوم على هيئة خط مستقيم وثلاث أخرى تكون خطا مستقيما مائلا على الأول ، فهذان الخطان يعطيان للخيال صورة ميزان الباعة في بلادنا ، فهو مكون من قضيب يحسكه البائع بيده (في داخله لسان الميزان) وقد علق فيه قضيب آخر

من وسطه يحمل الكفتين ، فهذه أربع مجموعات متتابعات أراها كل ليلة تمر فوق رأسى من الشرق إلى الغرب وأنا ألاحظها وكلما استيقظت كنت أراقب التريا التي هي قائمتها جميعا فكنت أعرف الوقت تقريبا بها وإن كانت كل ليلة تتقدم جهة الغرب قليلا وكنت ألاحظ نهر الهجرة بقرب هذه المجموعات في أكناف السماء ، فهؤلاء وهؤلاء جميعا يظهرن كل ليلة ويسرن فوق رأسى من الشرق إلى الغرب ، فقلت ياسبحان الله هذا كتاب كأنه يشير إلى آية « والسموات مطويات بيمينه » فهذه السماء من السموات مكونة من عوالم الأثير التي لا ترى وعدم رؤيتها لا يحرمها اسم الوجود . فهذه العوالم السماوية الموجودة فعلا بحسب مااتفق عليه الناس قد برزت فيها اللوامع والبدايع السماة نجوما وهي متلائمة منتظمة وهنا يعجب الانسان من سقف مرفوع بديع أزرق رصع بالجواهر ولم ير الناس سقفا مرصعا إلا إذا كان من مادة جامدة صلبة . أما السقف الذي لا تراه العيون ولا تتخيله الأفهام وإنما هو أمر أشبه بالخيال فكيف يرصع بالجواهر وكيف يثبت مئات الملايين من السنين . إن سقوف منازلنا كلها تنداعى إلى السقوط (وهي متينة البناء قوية للسادة) فكيف رأينا هذا السقف الذي هو أرق من الهواء وألطف من الضياء لا يمتريه السقوط ولا يحوم حوله الانحلال . إن هذه من معجزات الطبيعة وآياتها البديعة . إن من شأن السقوف أن تثبت وتسكن من يوم وضعها إلى يوم سقوطها . أما هذا السقف فهو فضلا عن دوامه آمادا وآمادا لا يهدأ ليلا ولا نهارا فهو معجز من (وجهين) ثباته مع لطف مادته ودورانه حولنا ، وهناك آية نالتة وهو أنه لوح منقوش بسطور من نور فهو رق منشور ومن أبدع البدائع أن الورق عادة أبيض اللون والكتابة بالمداد الأسود ، فالصحائف بيض والسطور سود أما هذه الصحيفة فهي زرقاء وتوشها بيضاء زاهرة ، إذن هذه الصحائف أبدع وعلما مكتوب بقطع من الألماس ومنظرها أبدع من منظر الحجر ، وأي نسبة بين جمال الجواهر وسواد الحجر . فأين التريا وأين الترى ذلك يحاكي الحقيقة لأن ماتع الكتب إنما هي نقوش دالة على ألفاظ دالة على معان يتخيلها الناس من خلال ذلك السواد الذي يتخلل بياض الورق ، ولذلك ترى علوم الناس فيها الحقيقة والخيال والقطعوع به والمظنون . أما مناظر هذه الصحائف السماوية فإن جمالها يحكى حقائقها من حيث الهجة والجمال ويشير إلى ماوراءه من أقدار عظيمة وأبعاد هائلة . فهذه الكواكب التي رأيتها الليلة كلها ثابتة ، ثم إنى فكرت في دورانها حولى كل ليلة وقلت إنى أصبحت موقنا بأن كل جسم أو وصف أو حركة في هذه الدنيا الجلية له غاية . فإذا كان جمال الزهرات وروائحها العطرية لم تخاق إلا لغاية وهي أن تجلب الحشرات بحسن منظرها وعاطر رائحتها لتترب الرحيق المختوم والعسل المحتجب في أسفل الزهرات ، ومتى نالت بجنتها فقد آمت عملها وهو الإلقاح الإناث بواسطة ذرات الإلقاح من الذكور ويكون ذلك العمل مفيدا لنفس النبات ولنفس الحشرات . فإذا كان هذا شأن هذه الدنيا فلا حركة ولا جوهر ولا عرض إلا لفائدة وغاية حميدة ، فما غاية مرور هذه الصحائف الزرقاء المرصعة بالجواهر الثمينة المختلفة الأشكال كل ليلة فوق رأسى في فناء حجرتى ؟ لم يضع في هذا السكون منظر ولا حركة لغير فائدة فكيف تضيع تمرات هذه الحركات حولى ولم أكد أم هذا الخاطر حتى وقع في نفسى أن الصحائف على (تسمين) صحائف صغيرة يحركها الناس بأيديهم ليقروها وصحائف كبيرة وهي هذه السموات اللطويات يمين كاتبها القدير الذي يعلم أن الناس لا يقدرون على تحريكها كما قدروا هم على تحريك صحائفهم ليقروها ، فحركها بيده هو فدارت حولهم فلذلك تمر على كل ليلة فخير بنا أن نقرأها . إن الانسان لضغفه لا يدري إلا ما يكتبه آدمي مثله ، أما كتاب السموات فهو (وإن كان مبذولا) لم يدرسه إلا قليل هم صفوة الانسان في الأرض ولهذا الكتاب منزلة أخرى وهو أنه منبع الهدى ومصدر الرزق؛ أما تأليف الناس فهو هدى ومصدر الرزق آت من غيره فتأليف الله جمع غذاء العقل وغذاء الجسم وهذا من أبدع الاقتصاد في العمل والأحكام

اللهم إني أخجل أن أرى كتابك مبدولا لي وأنت تدبره فوق رأسي كل ليلة وأنا عنه معرض ، كتابك للسطر بالحروف الكبيرة تلك الحروف التي يعجز عن درسها صفار العقول ويفرح بها المفكرون ، هذا الكتاب الذي تشرق سطوره ليلا وتضيء نهارا فإذا قلبته أمامي وأنا عنه ساه في الويل كل الويل .

فويل لمن نشر الله له صحائفه فأعرض عنها وهو يقول « والسماء بينناها بأيد وإنالموسعون » ويقول « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » ويقول « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة » الخ وكيف تفتح أبواب السماء لمن تمرصحاتها عليه كل ليلة وهو معرض عن جمالها غارق في بحار الأحوال المادية لا شعور له بما يراه ولا لذة له فيها يلقاه ، حبس في السائل الجزئية والأعمال الحيوية فهو نائم والدهر يقطن ، وما هذه الكواكب إلا حدائق تشاهد الأرواح بعد اللوت جمالها وتبهج بمنظرها ، وليست كل روح أهلا لرآها ، ولا كل نفس تقادرة على الابتهاج بمنظر حلالها كلا فأكثر النفوس الأرضية عنها لاهية ساهية ولا ترى النفوس بعد الموت إلا ماعشقتة في الحياة .
« إن الطيور على أشكالها تقع » « قل كل يعمل على شاكلته - ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

هذه نظراتي في تلك الليلة ، ثم إن الفسكرة عارضه ماقطعه وأخذت النفس تذكر شئونا أخرى فنظرت للنجوم ككرة أخرى فلم ألاحظ ذلك الجمال ولم أشعر بذلك السكال فعملت أن هذه حال جميع الغافلين . إن هذه النجوم لا يظهر جمالها وبهجتها إلا لنفوس صفت وعقول خلقت ، أما النفوس التي لم تعرف ماهو الجمال ولم تدرك ذلك السكال واختص عشقها بظواهر الشهوات فهذه نفوس محبوسة وقيل في أمثالها « لما بكث عليهم السماء والأرض » ويقال لهم على سبيل الاعتبار « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة » الخ . فمن أراد أن تفتح له أبواب السماء في الآخرة فليعلم أن مفتاحها اليوم معه فليقرأ قوله تعالى :
« وزيناها لناظرين » ولينظر اليوم هذا الجمال . وهل شعر بالحسن والجمال وفكر في هذه العجائب واشتاق إلى معرفة الحقائق وبحث في هذا الوجود وأصله وما المقصود منه وكيف نظامه وهل الرحمة عامة فيه ؟ ولم كان العذاب في الدنيا والآخرة حتم على قوم ؟ وإذا كان الله مبدع الأكوان هو الذي خلق هذه العوالم الجميلة ونسقا وأبدعها وجعلها غاية في الابداع والحسن والاشراق . فكيف يعقل أنه هو نفسه يذيق نفوسنا العدم ويوقننا في الندم ويقدر علينا الحسرات تلوها الحسرات . أفليس هو الفاعل المختار . هذه الخواطر تلها خواطر ثم أخذتني سنة من النوم تخيل لي كأنني في روضة فيحاء جميلة للنظر بهجة فيها من كل فاكهة زوجان ، وبينما أنا أمتع بمنظرها في النوم كما كنت أتبهج بمنظر النجوم في اليقظة ، إذ تمثل لي شخصان من نور أحدهما أكبر من الآخر منظرهما بديع بهيج وهما على هيئة الإنسان فأخذت أفكر في هذا للنظر ونسيت جمال الحديقة الغناء ، وأخذت أفكر في أمرها ولم ظهرا لي ؟ وما المقصد من هذا ؟ فأخذت أصغى لها لعلني أسمع قولها فأصيب منه حكمة ، فما خطر لي هذا الخاطر حتى سمعت الأصغر يقول لصاحبه : سيدي علمني بما علمك الله ، فقال سل ما بدا لك ، فقال إنا ونحن على هذه الأرض مع الناس كنا نسمعهم يذكرون الله بالرحمة والرأفة اللذين لاحد لها ، ولكن لماذا ترى اللوت والمرض والآلام المختلفة تعترى هذه النفوس الأرضية ، القرآن مبدوء في كل سورة « بسم الله الرحمن الرحيم » وهكذا الفاعلة فيها « الرحمن الرحيم » . إن الرحمة مكررة في جميع ركعات الصلاة وفي أول كل سورة والله تعالى يقول « ورحمى وسعت كل شيء » .
أليس الأطفال الذين يمرضون ولا ذنب لهم والبهائم التي تعمرى في مراعيها تمرض ، أليس هؤلاء من جملة الأشياء فإذا كانت الرحمة وسعت كل شيء فكيف لم تسع هؤلاء ؟ بل مارأينا أحدا في الأرض إلا شكوا وبكى وأن وقال (ابن الرحمة ؟) ولذلك قال المتنبي شاعرهم :

كل من في الكون يشكوددهه ليت شمري هذه الدنيا لمن

إني لو أردت ياسيدي أن أوفي اللقاه حقه لأعوزني لبيانه أيام وليال، لأن الرحمة وضدها قسيتها قصة الوجود كله، فإذا استوعبت القول فيهما وجب على أن أستوعب علوم الأمم والأفلاك والأرضين فلا كنف بهذا الإيجاز وأنت العالم، ولقد أوجب الله على الجيلاء أن يسألوا كما أوجب على العلماء أن يعلموا وأنا الجاهل وأنت العالم. فما أباذا إليك مصغ والله لا يضيع أجر المحسنين.

فما سمعت هذا القول دهشت من حسن الصادقة وصرت أقول في نفسي يا عجباً أنا الساعة أفكر في معنى (بسم الله الرحمن الرحيم) في أول (سورة الروم) ولم كررت في سور القرآن، ولم ملاً الله السموات بالجمال وهكذا الأرضين، ولكن الألم والنصب منصبان على كل حي في هذه الأرض، فهذا السؤال يوأنى فكرتى ويقرب من مطلبى، « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » فسأضنى لقولهما ومتى رأيت في القول حكمة حفظته وتلوت « وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلى آتيتكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » فمضى أن أتبس من هذا القول حكمة تفهمنى معنى (بسم الله الرحمن الرحيم) التي حررت في تفسيرها لما تأملت نجوم السماء. هناك أخذ العالم يفيض من علمه على فناء فقال له اسمع يا بنى أنت تعلم أن الرحمة مبدولة لكل شيء ولولاها لم يكن موجود لأن الرحمة بها الوجود وضد الرحمة به العدم وكثرة البذل توجب الغفلة. فالناس لما عمتهم الرحمة من كل جانب حتى غمرتهم أصبحوا لا يشعرون بها. ألم ترى إلى الناس والأنعام وإلى السمك فهؤلاء في الهواء وهؤلاء في الماء ولا يخطر لأحد منهم أنه يعيش في مادة تحيط به إلا للتعلين. إن الجاهل من بنى آدم لا يتقنون أن الهواء جسم من الأجسام مع أن حياتهم متوقفة عليه ولا يعرف الهواء غالباً إلا بلفت النظر وتوجيه الفكر. فأما العامة فلا يكادون يعرفون أن أنفاسهم التي تصل رئاتهم من جسم موجود، بل هي عادة اعتادوها، بل هذه الأرواح التي تعلقت بهذه الأشباح في الأرض وعقلت وأدركت بعض التعلين من بنى آدم لا يرون لها وجوداً مستقلاً عن الجسم بل يزعمون أنها صفة من الصفات الملحقات به تنفى بثنائه فلا وجود لها مستقل. الرحمة عمت الهواء والماء والأرض والأثير والكواكب. الرحمة أحاطت بالناس في داخلهم وخارجهم فنسبها أكثر الناس. وليس يعقل الرحمة الحقيقية إلا الحكما، وخدم وأكثر الناس جاهلون، فقال الفقى ولم لم يعقلها أكثر الناس. قال الأستاذ أنا أبين لك السبب، إن الرحيم الجاهل تكون رحمته خطراً. فالرحمة إن لم تكن مصحوبة بعلم لم تفد إلا الضرر. ألا ترى رعاك الله أن المرأة تود أن تكون ابنتها متمتعة بأنواع اللذات والشهوات وبمن تحب وهى من شدة رحمها بابنها تود لو تركت المدرس والطرس وأرخصى لنفسه الننان في باحات اللب والسررات، أما العلم والمدرس فانهما في نظرها القصير أمران ثانويان، وكل مؤدب أو ملك أو أمير ترك حبل الأمور على غاربها ولم يضع الأمور مواضعها اختل نظام رحمته وأصبحت تلك الرحمة عذاباً وإعيا، ألا ترى إلى ماقرره العلماء أن الناس إذا غمرتهم النعم ولم تؤدهم النوازل أصبحت تلك الرحمت عارا عليهم وخزياً مبينا وانحطت قواهم ونسكتهم البطنة وأصبحوا فرسة لتيرم.

فعل هذا لامناس لصاحب الرحمة من أن يكون علياً بمن يرحمهم حتى لا تكون الرحمة سبباً للخسران والهلاك إذا لم تكن بحساب والحساب لا يكون إلا بالعلم. فالرحيم العالم هو الذى لا يعطى إلا بحساب ليكون عدلاً في عطائه عدلاً في منعه ويكون العطاء إذ ذاك مع اللع أشبه بالنهار مع الليل: النهار والليل والصيف والشتاء لولا الحساب لكان نظام الأرض خطلاً وخطراً؛ ولكن تماقب الضياء والظلمة والحر والبرد جعل

أحوال أهل الأرض مساعدة على بقاء الحياة ، فتو لم يكن نهار لم تسكن حياة ، ولو لم يكن ليل لاختل نظام الحياة وهلكت النفوس . إذن الرحمة لانتم إلا بعلم والعلم به يكون البذل والنع وهناك يكون العدل . إن هذا العدل هو الميزان الذي توزن به الموجودات ، والرحمة إذا انفردت بنفسها عن العدل الذي يوجبه العلم كانت لاخير فيها وانقلبت عذابا ألما وهلاكا مبينا قال تعالى «ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما» فانظر لهذا العطف العجيب .

فقال الفقي وهل معرفة العدل يعوزها شد الرحال واقتحام الأهوال وتجنم الأخطار حتى لا يعرفه إلا الفضلاء الأخيار ، فقلت إى وربى إنه لحق كما تقول وإليك البيان :

قد علمت أن الرحمة شاملة لكل شيء . ولكنها محبوبة عن أكثر النفوس ، ولا ظهور لهذه الرحمة ظهورا حقيقيا إلا للعالم الحكيم وأنه لا بد لها من العدل ، ورحمة بلا عدل كجسم بلا روح . وإذن لا يعقل الناس الرحمة إلا إذا عقلوا العدل والعدل حارت فيه العقول وتاهت الأذهان . ألم تر إلى ماجاء في جمهورية أفلاطون وقد تباحث (سقراط) مع تلاميذه وأدلى كل منهم بحجته في معنى العدل . فمن قائل (إن العدل أن تعطى كل ذي حق حقه) فرد عليه قائل (وهل يعطى السيف لصاحبه الذي لا يعقل) ومن قائل (إن العدل هو ما اتفق عليه ذوو القوة والجاه وأرباب النفوذ فهؤلاء كل ماقلوه ينفذ والناس لهم مطيعون) فرد عليه قائل (ليس الحاكم الذي يسخر الجمهور لمصلحته ويتلاعب بهم أميرابيل هو ليس) وهكذا ، ولو أن جماعة الصوص لم يستعملوا نوعا من العدل لانفرط جمعهم وتفرقوا شذر مندر وهم خاسرون .

وهنا ذكر له ما تقدم في (سورة النحل) في تفسير قوله تعالى «إن الله يأمر بالعدل والاحسان» فقد جاء هناك ذكر العدل وأنه لا يكون باعطاء الإنسان حقه فرما أضربه ، وليس يجوز للإنسان أن يعطى السيف لما لكه الذي اختل عقله ولا أن يقول للذي أشرف على الهلاك الحق لئلا يكون هلاكا . وهنا ذكر أن حاكم الجمهور إذا لم يعدل فيهم وظلم فلسا نسميه أميرابيل هو ليس ، واللذة التي كان يتوهمها في ذلك لانها لأن سعادة كل مخلوق بما اختص به واختصاص الإنسان أن تكون نفسه قائمة بما يجب عليها مقومة لجميع صفاتها الخ . ثم ختم المقال بأن العدل في الأمة بأن تكون كل طائفة قائمة بما يجب عليها فالصناع والزراع يخضعون للجنود . والجنود يخضعون لرجال السياسة ، وهكذا الفرد الواحد تكون قواه العقلية محفوظة بنسب خاصة فلا تنظم إحداها على الأخرى فيكون عنيقا شجاعا مفكرا وهناك يكون العدل ، فالعدل هو الأتزان الذي يكون بين أفراد الأمة وبين قوى المرء الواحد فسكان أن القوة الشهوية لا تظنى على العنصرية بل تخضع لها والقوة العنصرية تخضع للقوة العاقلة في المرء هكذا يخضع الزراع والصناع للجنود والجنود يخضعون لرجال السياسة وهم الفلاسفة .

هذا ماجاء في كلام أفلاطون يابى وكل هذا في تعريف العدل الذي لانكون الرحمة بدونه إلا وبالا فلو أن ماء النيل فاض على أرض مصر ولم يحط بالجسور والقناطر لأغرق البلاد فهو نعمة انقلبت نعمة لعدم الحواجز والنظام ، وما للنظام إلا العدل ، فإذا كان العدل قد استحق هذا الاهتمام من الفلاسفة وقد شغل عقلاء الأمم جميعا في الأرض وإلى الآن لم يتموا دراسته ، فما بالك بالعدل الإلهي (وبعبارة أخرى) إذا كان أهل الأرض قاطبة لا يزالون يبدأون في البحث عن العدل حتى تنتظم الأمور السياسية فيها وهم إلى الآن لم يهتدوا فكيف تصل العقول إلى العدل الإلهي الذي به تعرف الرحمة وتستقر في العقول ، إن أهل الأرض قد صرفوا كل قوى عقول عظمائهم إلى تعرف العدل ولم ينجحوا إلى الآن تمام النجاح والأرض ذرة صغيرة طائرة في الجو من عوالم عظيمة لا تحصر فهؤلاء أنفسهم أى اثنين فوق هذه الكرة الصغيرة وهي الأرض لم تسكف مدارسهم

ولا حكوماتهم لمعرفة العدل الآن في هذه الأرض الصغيرة إذا رأوه معقدا صعب المنال كثير القيود كثير المسائل
 فما بالك بالعدل العام في السموات والأرض ، أفلا يكون أشد تعقيدا وأكثر صعوبة في الفهم . وهل أتاك نبأ
 الحرب الكبرى ؟ ألم تتم بعدها أم أوروبا كلها فقالوا بإبطال الحرب ومع ذلك تجدد الأمة الإنجليزية أعطت
 اليهود وطنيا قوميا في بيت المقدس إذلالا للعرب وإزاحة لهم فهذا عندهم هو العدل ، وفي هذه الأيام قام اليهود
 فبدوا بالمهجوم على العرب فلما قاومهم وعاملوهم بالمثل أخذوا يعاقبونهم فهذا عدل عند أمة في أوروبا ، لأن
 هذا رأى القوى والقوى لا يراد لما يقضيه عند أهل الأرض وهذا أحد الآراء التي ردها (سقراط) في محاوراته
 الأفلاطونية ، فرد الفقه على أستاذه قائلا ياسيدي إنى أعلم أن هذه الأمم الإسلامية لم تتم بما يجب عليها في
 استخراج ثمرات أرضها وثمرات عقولها ، فمن العدل أن يعمر الأقوياء تلك الأرضين ، فقال الأستاذ ولكن
 استعمار الأرضين ليس موقوفا على إهلاك أهل البلاد فلا بد من إقامة العدل بأن يرقى أهل تونس والجزائر
 ومراكش وسوريا وفلسطين لا أن يقف للمستعمرون لهم بالمرصاد ويمنعهم العلم . على أننا الآن لسنا في مقام
 شرح مسألة العدل في الأمم الأرضية ، فإذا كنت أنا وأنت قد تناقشنا في عدل أهل الأرض وكل مناله غرض
 يرمى إليه ، فهم إذن من باب أولى ، وهذا إثبات لقولى إن أهل الأرض إلى الآن لم يتمموا أمر العدل ولم تقو
 عقولهم على استكناه كنهه ، بل نحن أخذنا نتجادل لأجلهم فكيف إذن يصل عقل الإنسان وعقول كثير
 من الملائكة والأرواح الشريفة إلى حل مشكلة العدل في العوالم كلها وهو عدل الله ، وإذا رأينا الطبيب يقطع
 ضرر المريض ويؤلمه أشد الألم ويقطع عضوا من أعضائه والناس والمرضى وذووه راضون مستبشرون .
 وإذا رأينا الأمم يحارب بعضها بعضا فيموت الألوف وألوف الألوف فلماذا هذا ؟ لأن سفير إحدى الدولتين
 أهين بكلمة فتقول دولته لا بد أن أغسل العار وكيف تنسل العار ؟ تغسله بإرسال آلاف من الجيوش يقتل
 منهم مئات ومن العدومثات فيقول المهاجمون نحن عادلون لأن سفيرنا أهين فحياتنا وهي من الرحمة لابقاء لها
 إلا بأن يجندل في ساحات الحرب منها رجال ويقول أعداؤهم هؤلاء ظلمونا فلندافع عن أنفسنا والدفاع عدل ،
 إذن الحياة التي لا وجود لها إلا بالرحمة توقفت على قتل بعض الرجال كما توقفت حياة المريض على قطع عضو
 من أعضائه ، إذن قطع بعض أعضاء الجسم عند ظهور سببه وقيام الحرب عند حصول سببها وقتل بعض الرجال
 من تمام الرحمة في نظر هذا النوع الانساني سواء أخطأ القواد والأطباء أم أصابوا بالجروح ذن ونفس اللوث
 من تمام الرحمة والرحمة بغير هذين ضارة مؤلمة كما يضر النيل إذا لم يحفظ بالقناطر وبالجزور .
 هذه كلها آراء الناس في العدل . وما يدلك على أن آراء الناس في العدل تتغير من وقت لآخر ومن حال
 إلى أخرى أمران : (أولا) معاملة أهل الغرب لأهل الشرق التي سنذكرها قريبا . (ثانيا) مظاهر من
 الليل إلى ترك الحرب في هذه السنين بعد الحرب الكبرى في هذا الشهر (٥) سبتمبر سنة ١٩٢٩ التي للسيو
 (بريان) خطابا طويلا في الساعة ١١ والدقيقة ٤٥ صباحا في جمعية الأمم قوبل بالهتاف والاستحسان ، فمما قاله :
 (إن جمعية الأمم قد قامت بالواجب عليها وإنها جاهدت سنة فسنة لإزالة الحوائل العتية التي كانت قائمة في
 وجهها فالיום لا يحتقرها العالم ولكنه يعطف عليها على أننا نتساءل ماذا عساها تعمل بهذه الثقة التي وضعها
 العالم فيها ، إن هناك مسائل كبيرة ذات أهمية عظيمة لا يمكن التغاضي عنها دون أن تمس الجمعية مسا أديا
 شديدا ، وإنه ليسرني كمثقل للحكومة الفرنسية أن أتعاون مع زملائي الألمان . ولقد توصلنا الآن إلى أن
 تعتبر الحرب جريمة تستحق الاستنكار من جميع الأمم والشعوب . فإذا لم تتوصل جمعية الأمم إلى التذرع بالوسائل
 التي تمحو الحروب لا تكون قد قامت بما يجب عليها القيام به ، والذي يجب أن نتساءل عنه ماذا نحن فاعلون
 إذا أفضى التحرش والنمك إلى اشتعال الحرب . إن ماتم في (مؤتمر لهي) كان دليل الإرادة الصادقة في
 صيانة السلم .

ثم انتقل إلى السلام عن نزع السلاح فقال: (إننا قد خطونا في هذا السبيل خطوة واسعة ولا أنظنا توصل إلى الاتفاق والوثام بتحرير الرسائل التفراعية بل الواجب أن ننظر إلى المسائل وجها لوجه لئلا نجد مخرجا لنا من كل مأرق وإذا أردنا نزع السلاح فلا نستكتفي من ذلك بالنظر إلى المسائل الفنية بل يجب أن نعمل جميع المسائل السياسية بحسن الإرادة للتبادلة بين جميع الدول والواجب فوق ما تقدم أن نلقن الشبيبة كره الحرب وفضائمه، وإن لا تمنع بنوع خاص إلى النساء فأقول للأراذل دافن عن منازل سكن وأسكن والواجب على النساء عامة أن يروين ميدان السلام بدموعهن لا ميدان القتال، علمن أبناءكن حب السلام وعلمن أبناءكن احترام الأمم الأخرى غير أمتهن هو ذلك الواجب الذي يؤدي في تعليم الناشئة).

وذكر الخطيب (مؤتمر لاهاي) فقال (إننا كما جئنا نضع فكرة للصالحة فوق المسائل المالية، ثم تكلم عن الاتحاد الاقتصادي الأدنى فقال إن هذه المسألة السياسية لانتم إلا تحت رعاية جمعية الأمم حتى يكون بين جميع الأمم والشعوب الأوروبية صلات وروابط تسهل اتخاذ القرارات الحاسمة بالإجماع إزاء الحوادث الخطيرة على أن هذه الروابط لا تمس بسيادة أمة من الأمم وإننا أطلب من زملائنا أن يعرضوا هذه المسألة على حكوماتهم حتى يصل الجميع إلى حلها في الجمعية القادمة).

ثم ذكر حادثة الباخرة (لوتس) في الأستانة فقال (إن فرنسا لم تجد على نفسها غضاضة في عرض هذه المسألة على محكمة (لاهاي) فعلى الأمم أن تقيم لأنفسها قضاة لتتفادى عن معارك القتال وعلى الأمم أن توجه أظفارها إلى حل كل مسألة حلا سديا).

وختم كلامه بقوله (إننا يوم نعلم الناشئة حب السلام نوحده بين الأمم ولا نبقى وجها للتفريق والانقسام وفي ذلك اليوم تسود المحبة ويسود الأمان بين الأمم جميعا) وبعد هذا الخطاب وقف جميع من في القاعة يهتفون للمسيو (بريان) ومحبونه.

وقد خطب (الستر مكنونالد) اليوم في مأدبة الغذاء التي أديها الصحفيون لأعضاء مجلس جمعية الأمم فأشار إلى المفاوضات بشأن نزع السلاح البحري بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، فقال (لا ريب أن هناك مصاعب في سبيلنا وأمامنا مسائل من أشد المسائل تعقيدا يجب أن نحلها ولكن مشيئة الشعوب هي القادرة على كل شيء وهي التي يجب أن تقول الكلمة الأخيرة. وعلى كل حال فإن مسألة السلم الخطيرة ينظر فيها رجال من رجال السياسة المختصين).

وبعد أن تم ما تقدم أخذ يقول (يا بني هذه هي آراء أهل الأرض المساكين فهام أولاء عاشوا آلاف السنين ومئات الآلاف وهم يرون أن عدلا وهام الآن يقولون «إن الحرب ليست عدلا» فالحياة لا تتوقف على الحرب. إذن أمر العدل عند بني آدم أمر مشكل لأنزال العقول في أشد الحرج في حله والعقل الإنساني لا بد أنه سيجد كل الجهد في هذه القضية العظيمة عقدة العقد مشكلة المشاكل. إذن العدل عند الناس دخل فيه الحرب والسلم على حد سواء. فالقتل عدل وإيقاع الأرواح عدل عند أهل الأرض. هكذا الجراحات والآلام في الحروب عدل في موطن وسلامة الأعضاء وعدم الجرح عدل في موطن حر، إذن العقول الإنسانية قضت أن الحياة يعوزها آلام تتنابها إذ لولا الحروب لم تحفظ الدول (وبعبارة أخرى) إن رحمة الأمم يبقا حياتها قد تتوقف على موت أو جرح آلاف منها فأصبحت الآلام إذن من شروط الرحمة إذن الرحمة قد تناول الآلام فنقول: إن أمم الصنائع والعمال من حبس الجسد لهم عند العقاب وأحد الصرايب منهم لأجل الحماية وكظم غيظ العاقل وضبط نفسه عند احتدام القيت فكل هذه الآلام وجبت في السياسة تارة وفي عم الأخلاق تارة أخرى وهذه كلها آلام) ثم قال (إذا كان هذا كله معروفا عند الناس مع أمة منهم، وتصور

إدراكهم لأن عقولهم لاتصل إلا إلى مرافقها المناسب للكوكب الذي تمش عليه فإياك بالعدل العام والرحمة العامة . فقال الفقي إذن أنت تقول إن الله جعل نفس الألام رحمة مستدلاً بأن الناس مع قصر عقولهم بالنسبة للعوالم الأخرى استحسنوا في مواطن كثيرة العذاب والآلام ، فهي إذن جزء من الرحمة . فقال الأستاذ نعم فقال أريد أن تشرح لي هذا اللقاه شرحاً مستفيضاً لأجل أن أجمع بين قوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم) وبين آلام بني آدم والحيوان بحيث تستبر بصيرتي ولا يكفيني أن أقيس رحمة الله على رحمة أهل الأرض فقال الأستاذ اعلم يا بني أن هذه الأرواح التي خلقت في هذه الأجسام شريفة في أنفسها عزيزة وقد أنزلت إلى هذه الأجسام لتنمو فيها وتقوى وهذه الأجسام من الهويولي والهويولي ناقصة ليست ككامل الأنوار والأرواح فكان لزاماً لهذه الأرواح أن تقاس تلك الآلام . فقال الفقي ولماذا لم تبق تلك الأرواح في برازخها لتستبعد عن تلك الشرور ؟ فقال له لو لم تنزل في هذه الأجسام ولم تقاس تلك الشاق لبقيت جاهلة ، فالآلام هنا لترقيتها فهذه دروس ترقى الأرواح ، فقال الفقي فاذا ذكر لي هذه الآلام التي تترى أنواع الحيوان . فقال هي ثلاثة أنواع : (الأول) الجوع والعطش عند حاجة الأجساد إلى السادة والغذاء (الثاني) ألم الضرب والصدم والكسر الضر بأجسادها التلف لهياكلها . (الثالث) الأمراض والأسقام للفسدة لمزاج أجسادها وأخلط أبدانها .

﴿ الفصل الأول : في الكلام على الآلام التي تعرض لأبدان الحيوان ﴾

قد قدمنا أن هذه الآلام تنبأها كالجوع والعطش ، ونقول الآن : إن هذه الأجسام الحيوانية مركبات من جسم وروح والجسم مركب من أخلط كثيرة وتلك الأخلط سريعة الدوبان والسيلان فلا بد في بقائها من حصولها على اللادة والغذاء ، لذلك جعلت لنفوسها آلام عند حاجتها إلى الغذاء وللادة لتكون تلك الآلام باعثة لنفوسها لتنهض بأجسامها في طلب الغذاء ولو أن الجوع لم يسلط عليها ولا العطش وأخذنا بظاهر الآراء وقلنا إن الآلام ضد الرحمة وليست منها وعليه لا حاجة إلى آلام الجوع وآلام العطش لزم ذلك أن لا يتغذى الحيوان فيهلك فيكون عدم الألم في هذا المقام سبباً في الهلاك وهو ضد الرحمة ثبت إذن أن الرحمة تتوقف على الألم وبزواله تنقلب قسوة وإهلاكا . وإذن تبقى هذه إما بلا أجساد تتكامل فيها فتبقى ناقصة وإما بأجسام ناقصة مريضة إلى أجل مائمه يجرها الفناء ، ثم إذا تناول الحيوان الغذاء فلا بد له من لذة كما أنه لا بد له من آلام الجوع السابقة وهذه اللذة مقصودة ليأكل ما يلائمه مادامت اللذة فإذا أخذ ما يكفي هنالك تقول له تلك اللذة أنا أغادرك وأفارقك . هنالك يترك الطعام وعدم اللذة هو الذي نسميه الشبع فالألم أولاً بالجوع لطلب الطعام واللذة ثانياً لتكون كالمستشار لتعاطى أنواع الطعام ثم ذهب اللذة بالشبع وذلك لإيقاف الأكل عن أكله لئلا يستضر بازدياد تعاطى الطعام .

﴿ الفصل الثاني : في الكلام على الضرب والكسر والصدم والجرح والحرق والبرد والأمراض ﴾

والأسقام وكل ما يضر الجسد ويفسده ﴿

قال : اعلم أن هذه وضعت في الأجسام لتحميها تلك الآلام على حفظ أجسادها . إن الأجساد فاقدة الحيلة فهي والحجر والدر سواء عاجزة عن جلب النافع ودفع الضار . فإذا رأينا الحجر والدر رابضة في أماكنها ساكنة خاضعة لما يعثرها من الكسر والتفتيت وحوادث الأيام والليالي فإنا نرى هذه الأجسام الحيوانية تستيقظ من حال الغفلة ونعس وتشمع بما يضر بأجسادها وتتوقاه تارة بالفرار والانتحابس وأخرى بالمجاهدة أو الحيلة ولو لم تفعل ذلك لمهلك الأجساد في أقرب زمان وإنما فعلت ذلك النفوس لأجسادها وحافظت عليها لما ركز فيها من حب البقاء والوجود على آتم ما يكون لأن هذا هو الجبر ومن كراهية الفناء الذي يترتب على

هذا القصد والفناء شر . ومعلوم أنه لا عدم للأجسام ولا للنفوس مادام هذا العالم موجودا ثبت إذن أن الحكمة قضت أن الأمم مخلوق في الحيوان لقصد وحكمة « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون » .

ومن لطف الحكمة العجيبة ما تقدم في (سورة المؤمنين) من رسم يد الإنسان وأن لها (١٢) طبقة في كل ناحية (٦) طبقات، فالطبقة التي تلامس الهواء من الجانبين هي الجلد وهذا الجلد لإحساس له وقد كثر أعضاؤه من الخارج ، فالنار تحرقه والسكين تقطعه والحر والبرد يهلكانه هناك قبضت له طبقة تليه من الجانبين تحته وهذه الطبقة عبارة عن شبكة من الأعصاب فهؤلاء هم الجواسيس والعيون والبرد ، فحق لامست نار الجلد أو كسر أو ضرب تسلمت ذلك الإحساس تلك الأعصاب ووصلتها إلى المخ فأمر في أسرع من لمح البصر أعضاء الحركة بالمسارعة إلى دفع هذا الأذى .

فلما سمع الفق ذلك من أستاذه قال هذه علوم عجيبة وآيات غريبة عجت كيف أصبح الإحساس بالضرب والكسر والمرض والجوع والعطش سواء في أنها رحمة كلها .

وإذا ثبت هذا ثبوتنا يقينيا فإننا نصبح سعداء سعادة لا حد لها وأي سعادة للحي أكبر وأجل وأعظم من سعادة امرئ . أيمن بأن حياته في بد رحمة أعطاه الخيرات وجعل الثرور مكملات لها ولولاها لم يكن للغير بقاء ولكن أريد أن أسألك عما دار بيننا في أمر أهل الغرب وأهل الشرق . إنك يا سيدي حكمت على أهل أوروبا بأنهم ظلموا المسلمين باحتلال ديارهم في شمال أفريقيا وإدخال اليهود بلادهم في فلسطين وأنا أجبك بأن المسلمين أهملوا فإذا أفهمتي ذلك كنت أنا من اللوقين حقا ، فقال له يابني احتلال البلاد المحتل نظامها عدل على شرط أن تقوم عقول أهل البلاد كما تقوم أرضها (وجبارة أخرى) يجب أن يرقوا أهل البلاد ليكونوا إخوانهم ويصلحوهم ويصلحوا أرضهم وهؤلاء قوم محظنون لأنهم يحملون الإنسان أشبه بالحيوان المسخر ، فقال الفق لقد حكمت أن الضرب والكسر والجرح والمرض أمور اقتضتها صفات هذا العالم الذي نحن فيه والإحساس بها عدل من الله ولولا هذا الإحساس لهلكت ، فقال إن المقام ذو وجهين (الوجه الأول) فعل الله وهذا عدل فإنه إذا ساق أمة قوية لتحتل البلاد الضعيفة فعناه أنه فعل فيهم ما فعله بالحيوان من جوع وعطش وكسر وضرب فهؤلاء يجب عليهم أن يستيقظوا بهذا والله عز وجل إذا لم يرسل لهم تلك الأمم نزلوا إلى الخضيض فهذا الكسر والجرح والجوع ، فهذا الإبلام باذلال الأمم لهم يراد به جمع كلمهم (الوجه الثاني) معاملة هذه الأمم لمن دخلوا بلادهم ، فهذه الأمم الأرضية أكثرها ظلمة فظلمها لأنها ظلمت أن هذه غنيمة لهم . إذن الله عدل في إذلال الأمم الضعيفة والأمم القوية ظلمة لأنهم ممن قال الله فيهم « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » .

قال الفق فهمت ، وما أحسن العلم ، وقد بقي لي سؤال واحد وهو هل الفرحة التي احتلوا بلاد الشام وشمال أفريقيا وغيرها من بلاد الإسلام يطول أمدهم ، فقال كلامك كلا . إن الله عز وجل قد أبقظ المسلمين وهذا الإبقاء سيظهر أثره قريبا ، فقال الفق فقد تبين لي الآن أن من الناس من سعدوا سعادة دائمة بسبب هذا الإيقان ، وإذا اتابهم نوابغ عشت على عقولهم زمانا ما فانهم يتذكرون هذه السعادة الدائمة التي لا تموتهم أمد الحياة بل هي في حياتهم الدنيا كأنهم في حنة عرضها السموات والأرض . فقال الأستاذ : الحمد لله رب العالمين لقد فهمت يابني بسم الله الرحمن الرحيم لم كررت في أول كل سورة من القرآن والحمد لله رب العالمين .

وما كاد التلميذ يقيله يد أستاذه النورية حتى استيقظت وكنت ما رأيت . انتهى صباح يوم الأحد (٨)

شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ . وبهذا تم الكلام على القسم الأول .

(القسم الثاني : في تفسير «الم»)

لقد تقدم في سور كثيرة مبدوءة بهذه الحروف ذكر بعض الأسرار التي أبرزها الله في هذا التفسير
 ذم الإسلام تلك الأمم التي حملت أمانة كتابنا للقدس وحفظته حفظا حتى وصلت بها إلينا سالمة فرعى الله هذه
 الأمم هؤلاء الذين قاموا بحفظ الأمانة وأكثرهم كما وافي العصور المتأخرة في ضنك مشين .
 وصلت إلينا الأمانة فقرأنا القرآن فسمعنا الله يقول في أول البقرة «الم» فلم يفتح على كاتب هذا بشيء . في ذلك
 وما كان ليخيل لي أني أكتب حرفا واحدا في أسرار هذه الحروف لأن هناك انفاقا بل إجماعا عاما أنه
 لا يعرف هذه الأسرار إلا أناس مختصون وهؤلاء إذا ذكروها للناس فالناس لا يعقلون ما يقولون لعلوها
 على الأذهان ، وما كاد تفسير (البقرة) ينتشر بين الأمم الإسلامية حتى رأيت إقبالا عظيما فانتسرح صدرى
 وأيقنت أن الله عز وجل يريد بالأمم الإسلامية مقاما أعلى ومكانا أسمى فأخذت أجمع ما ذكره العلماء في سر
 الحروف ونظمته في [ثلاثة أسماط] :

(١) الأول ما قاله الصحابة كابن عباس رضى الله عنهما وذلك راجع إلى العبادة بأن يجعل هذه الحروف
 مذكرات بأسماء الله تعالى ونحو ذلك ، فإذن هذا الرأي وجه هذه الحروف إلى وجهة التذكر فهو راجع
 إلى العبادة .

(٢) وجاء قوم بعدهم فقالوا إن هذه الحروف من حيث صفاتها وأحوالها قد تظهر للعالم أنها ذات أمر
 عجب ، ذلك أنها هي نصف الحروف الهجائية . وقد وجدنا أنها قد اشتمت على أنصاف الصفات والأحوال
 وهذا عجب ، فإذا رأينا أن الحروف منها مبهورة ومهموسة مثلا فإننا نجد نصف المهموسة في هذه الحروف
 تماما وهكذا بقية الصفات ، ألا ترى أن المبهورة في الحروف كلها (١٨) وقد وجدنا نصفها وهو (٩) وهذه
 الحروف ، ومعلوم أن الحروف كلها (٢٨) وهذه الحروف التي في أوائل السور (١٤) إذن هذه الأربعة عشر
 قد أخذت قسطها تماما من الحروف المبهورة والحروف الشديدة ثمانية منها (٤) في فوائج السور وهكذا
 الرخوة والمنطقة .

وبالجملة فهذه الحروف في أوائل السور وجدنا أنها أخذت النصف من كل قسم من أقسام صفات الحروف
 وهذا أمر فوق طاقة البشر ، فكيف يكون هذا التصنيف في أحوال كثيرة لو لم تكن هناك عناية خاصة
 فهنا يمد معجزة فوق ما يتصوره العقلاء .

(٣) وهناك قوم ارتفوا عن هؤلاء فقالوا إن هذه الحروف فيها أسرار فوق ما تقدم قلنا ترى أن مفاصل
 لليدن فيها (٢٨) مفصلا وكل يد فيها (١٤) مفصلا وهكذا أخذوا يذكرون تشریح الجوان ويطبقون عليه
 مثل فقرات الظهر ونحوها ، وهكذا ذكروا أن لفة العرب فيها (٢٨) حرفا منها (١٤) تدغم في اللام و(١٤)
 لا تدغم وهي للسماة (الحروف القمرية والشمسية) وهي معروفة عند القراء وهكذا منازل القمر (٢٨) منها
 (١٤) فوق الأفق و (١٤) تحت الأفق إلى آخر ما سبق لك هناك .

هذا نموذج (الألوان الثلاثة) من الآراء التي تقدمت في أول (سورة آل عمران) وهناك أقوام ذكروا
 حساب الخيل وأخذوا يستخرجون أمورا لا سبيل لذكرها الآن .

وما كتبت هذا في أول (سورة آل عمران) فألمأت فكر لم يسعني كتابته فكنته فان الم ذكرت في
 أول الم ترى الذين أتوا نصيبا من الكتاب الخ ومعلوم أن هذه الآيات جاءت لمساءلة اليهود فهم اتسكروا
 على شفاعة آبائهم وهنئذ أن الله لا يعذب أباء يعقوب إلا بخيرهم البطار إلا أربعين يوما

وعلى أن آباؤهم يشفون لهم فأوعدهم الله عز وجل وسجل عليهم الحزى والعار والبوار وقال فيهم (وغرم في دينهم ما كانوا يفترون) ثم انزع الملك منهم وأسلمه إلى الأمم الإسلامية فسكان «الم» في أول السورة مذكرة لنا الآن نحن المسلمين بألا نتكل إلا على الله ونجد نحن بأنفسنا في العلم والعمل والرقى وإلا وقعنا فيها وقع فيه اليهود إذ ظنوا أن هذه الأمانى تنفعهم بلا عمل وهم نائمون ، ومعنى هذا كله أن (الم) جاءت في أول السورة مذكرة بأمر اليهود وذهاب مجدم السبب عن التواني والسكسل وعدم العمل . فالمسلمون إذا بقوا على ما هم عليه من الجهالة فليعلموا أن الله لا يبالي بالقوم الجاهلين النائمين . هذا ماخص ما تقدم هناك فافراه فإنه أوضح وأبين . ولما فكرت في (سورة البقرة) وجدت أنها كلها جهاد لأن أولها محاجة مع اليهود وتفرغ لهم وتوبيخ وفيها الصلاة والصيام والحج وتحريم الخمر واللبس وأحكام الزواج والطلاق وهكذا فهذه السورة فيها أم علوم الفقه الإسلامى وفيها آية « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف » وآية « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه » الخ .

ولا جرم أن الجهاد إما بذل النفس . وإما بذل المال . وإما بالعلم ، وإما بالعبادات وهكذا ، فالمذكور فى حيز (الم) جهاد الأعداء والجهاد بالعلم ، فانظر هناك تجد مسألة العزير وسماهه وكيف يقول الله له « وانظر إلى حمارةك ولتجملك آية للناس وانظر إلى العظام كيف نشزها ثم نكسوها لحما ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير » .

فلما رأيت ذلك هالنى الأمر وعجبت وقلت لقد تبين لى أن هذه الفوائخ أشبه بالفاتيح فإذا أدر الفتحاح فى القفل فتح الباب بدليل أننا نجد الآيات التى فى حيز (الم) هى التى نام عنها المسلمون فى القرون للتأخرة وكل هذه الآراء لم أكن لأفكر فيها ولا لأجد أو أبحث لأنها أمور ميثوس منها كما قدمت ولسكنها كانت تنقدح فى نفسى ولا تفارقها بلا عناية منى ولا سابقة طلب ووجدت هذه الفاتيح تشير إلى العلوم التى نام عنها المسلمون فالمسلمون اليوم يعوزهم الجد فى معرفة التشرىخ وغيره كما فى قصة العزير وإبراهيم فافراه هناك ويعوزهم أن يتركوا الاتسكال على الشيوخ وعلى أهم مسلمون ثم ينامون وذلك فى (سورة آل عمران) ثم فتح الله بأكثر فوائخ السور بعد ذلك فافراه فى أول (هود) و (يونس) و (الرعد) و (إبراهيم) و (الحجر) ولم يكن لى عند طبع (سورة مريم) علم بما تشير إليه حروف « كهيمص » وكان الفتوح بها فى سورة أخرى فسكتبها فيها ثم ترى الطاء والهاء فى (طه) وما تشيران إليه من العلوم التى تحتاج إليها هذه الأمة السكينة وهكذا (طسم) و (طس) فارجع إليها فى (الشعراء) و (الثلج) و (القصص) فهناك ترى مثلالطاء والسبين فى (الثلج) تشيران إلى الطائر وسلمان وهناك ترى الطيور وأشكالها وعجائتها وما ناسبها لهذا المقام ثم تقرأ (الم) فى سورة العنكبوت فتراها تحرض على معرفة كيف يدعى الله الحاقق ثم بيده ، فنظرنا فى بدء الحاقق فرأينا مدهشا لأننا وجدنا العناصر بينها نسب عجيبة فى الجدول المرسوم فيما تقدم فى السورة وقد كشفه (مندليف) الروسى ولقد وضع هناك قريبا غاية الإيضاح فوقنا على سر تقطع دونه الأعناق ، وهانحن الآن فى (سورة الروم) فوجدناها مبدوءة بنفس (لم) فبالعجب (الم) و (الر) كرر كل منهما فى سور وعند البحث وجدنا المعانى تختلف باختلاف السور فكل سورة فهامعان غير المعانى التى فى السورة الأخرى حتى إن الطاء والسبين فى الشعراء وفى الثلج وفى القصص تختلف إشاراتها باختلاف السور فافراه هناك وهانحن نجد آية « أو لم يتفكروا فى أنفسهم » الخ وآية « أو لم يسيروا فى الأرض » وآية « أو لم يروا أن الله يسط الرزق لمن يشاء ويقدر » .

فحروف (الم) تذكرنا بأن نبحث فى حقائق المخلوقات وأسبابها ونتائجها ونظامها كالمبحث المذكور فى تفسير المسئلة آنفا فإنك تجد ألم الضرب وألم الجوع وألم المرض لم تخلق لاذلالنا بل خلقت لمفئتنا ورحمتنا لأن

الله خلق السموات والأرض بالحق ولو كان خلق هذه الموالم مجرد إيلام الخلق لم تكن هذه الآلام موصلة إلى سعادات التائبين لكان هذا العالم مخلوقا بالباطل لا بالحق لأن خلق الحيوان لقصد الإيلام لا لتوجهه إليه العناية ومن عجب أن يكون تفسير البسملة هنا قد كفانا مؤنة شرحه مرة أخرى وذكرنا أيضا بالتفكر في أحوال الإنسيان من قعر وغنى فهي دالة على حكمة الحكيم . ومقصود هذا أن يكون للناس في أحوال أنفسهم عبرة كما لهم عبرة فيما حولهم وستقرأ في (سورة لقمان) آية «لعلهم يترأفون» أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأصبح عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» وآية «لم تر أن الله يولج» الخ، وآية «لم تر أن الفلك تجري في البحر» وإشارة (الم) ترجع إلى التفكير في النعم من حيث وصولها إلينا وكثرتها وتخصيص طائفة منها بالذكر وهي الشمس والقمر والليل والنهار وتماقها ونظيرها الفلك في البحر ، فهذه نعم عامة ذكرنا الله بها اندرسها وتنفع بها نفعا جسيما وعقليا لقوله في أول السورة «وأصبح عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» ولا جرم أن هذه هي العلوم المفقودة في بلاد الإسلام وهما هي ذه اليوم تحيا حياة جديدة في نفس الزمان الذي ظهرت فيه معاني هذه الفوائج بل المفاتيح كما قدمنا سابقا . وأما (الم) في أول (سورة السجدة) فقد أشارت إلى (علمين) علم التاريخ القديم ودراسة الأمم التي ملك أرضها المسلمون فأننا نجد أهل مصر والشام والمراق واليمن ونجد وشمال أفريقيا وأهل السودان المسلمين كل هؤلاء يجهلون الأمم التي سكنوا بلادها ، فأننا في هذه الأيام لانعرف في علوم قدماء المصريين إلا بتعليم الأوروبيين ومعلوم أن (شامبليون) العالم الفرنسي هو الذي كشف حروف لغة قدماء المصريين إذن أهل مصر بلادي لم يعرفوا تاريخ قدماء المصريين إلا من أهل أوروبا معرفة ضئيلة ولكن الله يقول «أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قباهم من القرون عثون في مساكنهم» فمن غنى في مساكن الفراعنة ونجهل علومهم إلا الزر اليسير، وهكذا أهل اليمن لا علم لهم بعلوم سبأ والتبابعة والأمم التي سكنت تلك البلاد وهكذا أهل الشام وأهل نجد وغيرهم فكل هذه الأمم واجب عليها وجوبا كفاثيا أن يدرسوا تاريخ الأمم التي كانت في بلادها لتتنفع بما جربت تلك الأمم ولتحتس ما وقع لها وإلا فلماذا يهيش الناس على الأرض .

إن الجهل أكبر العار «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» فهذه الاشارة في (سورة السجدة) جاءت لأجل قوله تعالى «أو لم يهد لهم» الخ، وهناك إشارة أخرى وهي الاعتبار بسوق الماء الى الأرض الجرز وهذا الاعتبار لا يتم الانتفاع به إلا بدراسة علم النبات وسائر علوم الطبيعة ومنها الماء وهكذا علم الكيمياء الضوية لأنها تبحث عن العناصر التي دخلت في تركيب الأحياء النباتية والحيوانية .

هذا ما فتح الله به القيلة مساء (١٠) سبتمبر سنة ١٩٢٩ وأنا على شاطئ النيل بجوار مصر القديمة والحدقة رب العالمين .

﴿اعتراض على المؤلف وجوابه﴾

لما اطلع على هذا أخطي العالم الذي اعتاد أن يناقش في هذا التفسير قال هذه الفوائج في هذا التفسير قد ظهر بعض عجائبها ولقد جاء اليوم ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولكن ماوقمت عيني على صفحة من صفحات هذا التفسير في أي جزء أو سورة إلا وجدت الكلام في العلوم والمعارف وحث المسلمين عليها فهذا نوع من التكرار حتى إن بعض الناس قال لي إن هذا الكتاب كله ماهو إلا التكرار فقلت حياك الله إن هذا الاعتراض بطلته أنت سنا نفهم الجهال فأما أنت فلا . قال هذا مقصدى . فقلت إن الناس على قسمين جهال وعلماء فأما الجهال فانهم لا يجنون لهذه الأقوال لغة ولا طعما بل يأتفون أن يقرءوها وذلك لأنها ليست من طباعهم ولا توافق أذواقهم فلذا قرءوا موضوعا ثم اطلعوا على نظائره في الكتاب قالوا إن الكتاب مكرر

(١) ولو كان الأمر كما زعموا لكان النخل والصب والزمان والنين والبرنقال والتفاح والشمس والبرقوق

وأمثالها مخلوقة عشا وهكذا التمسع والقدرة والعدس والقول. وبالجملة إن التواكد والحبوب والخضر أنواع كثيرة وكل نوع يستغنى به قوم عن البقية فاذن البقية مكررة لا قيمة لها .

(٢) ولو كان الأمر كما زعموا لكان القرآن كله مكررا لما نأجد فيه (٧٥٠) آية كلها في الكلام على خلق العوالم العلوية والسفلية . فيقول الله تعالى في (سورة البقرة) «إن في خلق السموات والأرض» النع وفي سورة (آل عمران) كذلك مع تنوع في التعبير وهذه القصص القرآنية مكررة كثيرا فلو كان الأمر كما قالوا لم يسر القرآن عقول الأمم ولم يجزم ولم يكن هو المعجزة الحقيقية في العالمين .

(٣) ولو كان الأمر كما زعموا لكانت جميع الأمم شرقا وغربا هازئة في جبرالدها ومجالاتها فان الأمة المصرية الآن تطلب من انكثرتا استقلالا وهام أولاد منذ نحو (٢٠) سنة يكتبون كل يوم في الجرائد المختلفة والمجلات التي تعد بالعشرات (الاحتلال . الجلاء . السودان . نحن والانجليز . المعاهدة بيننا وبين الانجليز وهكذا ويكتب الموضوع الواحد في عشرات الجرائد سنين وسنين والناس يقرءون ويفهمون ، ولم يقل عاقل إن هذا تكرر . كلام كذا وإنما هذه فكرة عليها الجهل ويغفرها العلم لأن البلاغة تقتضي القدرة على إيراد اللفظ الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة كالإطناب تارة والإيجاز أخرى والساواة آونة فافرا قوله تعالى «لم تر كيف فعل ربك بآدم ، إرم ذات الصدأ ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، ونحو الذين جاؤوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك بالمرصاد» .

فها أنت ذا تراه تعالى ذكر قصة عاد وثمود وفرعون في آيات قليلة وبموازنة هذا بما تقدم في سورة القصص تجد قصص موسى وفرعون جاء على سبيل الإطناب أما هنا فقاء على سبيل الإيجاز وكلاهما جميل فالإطناب لفهم والإيجاز للاعتبار والتذكيرة كأنه يقول أنهم عرفتم هذه القصص فاعتبروا بها فاني فعلت بهم كذا وكذا ، ثم قلت : واعلم أيها الأخ أن هذه الأساليب القرآنية لا يدر كنها إلا أولئك الذين درسوا علوم البلاغة وقرءوا كلام العرب ومارسوا النظم والنثر .

ما الناس سوى قوم عرفوا وسوام جميع المميج

غيره :

على نعت القوافي من معادنها وما على إذا لم تضمم البقر

ولا جرم أن الكلام يختصر ليحفظ ويطلب ليفهم ، ولقد قالوا إن الخطب يستعمل فيها الإطناب بحيث يكون الأسلوب مقبولا محبوبا فيشوق السامعين وانظر إلى قصص الأنبياء كيف ترى كل واحدة منها لم تخل من ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر . ذلك لتصل مقاصد الدين من طرق مختلفة لترسخ في الأذهان وكما كانت الطرق أكثر عددا كان ثبات المعنى في النفس أطول وأقوى وأرسخ . ويقرب من هذا النماية في الأمم ونشر التجارة أو السياسة فيها فلا شيء من هذا يتم إلا بنشره وتكراره بطرق مختلفة حتى يظهر أثره . وانظر إلى ذكر خلق السموات والأرض فانه مذكور في مواضع كثيرة جدا وله في كل موضع مقام غير ما في الآخر . وانظر إلى فوائغ السور والمعاني التي انكشف سرها اليوم على قدر طاقتنا وما تختمه فطرنا من المعاني . أليس ذلك أسلوبا جديدا لترقية العلوم في الأمم الإسلامية .

علم الله عز وجل أن أمم الإسلام ستنام عن العلوم أجيالا وأجيالا وتختر علوم الجبال والسمك في السماء والأرض وتنبذ العلماء القائلين بها كابن رشد والغزالي أو تجلبهم ولكنها لا تقرأ علومهم فألمهم أمم القرب أن عثروا بلادهم تارة ويغار بهم أخرى وأظهر لهم في هذا التفسير هذا الأسلوب العجيب أسلوب فوائغ السور

الشبر كله أو أكثره إلى علوم الكائنات وعلوم الأمم فهذا أسلوب رمزي والرمز له شأن ليس للاصريح بالحقيقة لأن الرمز مشوق للمرموز له . ومتى اطلع المسلمون على هذه المعاني التي ظهرت في هذه الفوائج لا يستقر لهم قرار ولا يصبرون على العار والجهل والقتل الحميم في بقاع الاسلام ويقولون إن الله جعل هذه الرموز التي ظهرت لنا الآن مفتاحا لعلوم الأمم فلفتح بها ولندخل من بابها ولندرسها ولم يبق بعد هذا للسليبي من عذر إذا جهلوا ولا من سلوة إذا كسلوا . وإني أقول إنهم سيكونون خير أمة أخرجت للناس .

وهذا الرمز مألوف عند الأمم قديما كما قدمته لك في سورة (آل عمران) وقلت لك ماملخصه :

إن النصرانية لما انتشرت في (مدينة الاسكندرية) كانت باللغة اليونانية وعنى اللغة الرسمية والسحكة في تلك اللغة اسمها (اكثيث) وهذه الحروف رمز لحس كلمات يونانية يتركب منها جملة (يسوع المسيح ابن الله المخلص) .

اللفظ اليوناني	الترجمة بالعربية
اكثيث	سمكة
(١) ايسوس	يسوع
(٢) (كريستوس)	مسيح
(٣) ثيو	إله
(٤) يوث	ابن
(٥) ثوتير	مخلص

فكلمة (اكثيث) أى سمكة مركبة من خمسة أحرف يونانية ، حرفها الأول من كلمة (ايسوس) أى يسوع ، وحرفها الثاني (كريستوس) أى المسيح ، وحرفها الثالث هو الحرف الأول من كلمة (ثيو) أى الله وحرفها الرابع هو الحرف الأول من كلمة (يوث) أى ابن وحرفها الخامس هو الحرف الأول من كلمة (ثوتير) أى المخلص فكانت كلمة السمكة باليونانية تذكارا عندهم ليسوع المسيح ابن الله المخلص وكان المسيحيون يعملون صور السمك الصغير للصنوع من الخشب والعظم للتعارف فيما بينهم خوفا من الوثنيين الذين كانوا يضطهدوهم ويقتلونهم) انتهى ماخصا من كتاب (الأدب والدين عند قدماء المصريين) .

اللهم إنك أنت النعم للعلم اللهم ، اللهم إنك أنت ألهمت الأمم قبلنا أن يكون الرمز أسلوبا من أسلوب العلم ورمزت بهذه الفوائج وألهمت أمثال ابن عباس رضى الله عنهما أن يجعل هذه الحروف رموزا لأسماء الله تعالى بحيث يكون كل حرف رمزا لاسم ، إذن الرمز مقبول عند الأمم قديما وحديثا . إذن ما جاء في هذا التفسير من بعض أسرار هذه الفوائج له نظائر في الأمم القديمة وأمم الاسلام . اللهم لك الحمد على نعمة العلم وعلى نعمة التوفيق . فقال صاحب ياسبحان الله « إن من البيان لسحرا » .

وإن هذا البيان قد سرتى وعرفت أن من يظنون هذا تكرارا فانهم قوم ليس لهم في هذه العلوم نصيب فهم إما فقهاء جامدون أو نحويون وأدباء قاصرون وهذا الكتاب إنما يعقله أولوا الأبواب ، وقيل : ولقد لحنت لكم لكتبها تفهوا واللحن يفهمه أولوا الأبواب قلت الحمد لله الذى وقنى لتبيان هذا القام وأفتنتك بما ذكرته فيه والحمد لله رب العالمين وبهذا تم الكلام على القسم الثانى من السورة .

(القِسْمُ الثَّالِثُ)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

الْم * عَلِيَّتِ الرُّوم * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ * مِنْ بَعْدِ غَيْبِهِ سَيُعْلَمُونَ * فِي بَعْضِ
 سِنِينَ اللَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ *
 وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ *
 يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ * أُولَئِكَ يَتفَكَّرُونَ
 فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا
 مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ * أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضِ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا
 وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ كَانَ
 عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوَأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَمْتِرُونَ * اللَّهُ يَبْدُو
 الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبَدِّسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ
 مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ *
 فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
 بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ * فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ
 تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ
 الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخْفِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ مِنْ أَيْمَانِنَا
 أَنْ تَخْلُقُكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَلْتَمِشُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
 أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *
 وَآيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَاتِ لِلْعَالَمِينَ • وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَابِتُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ • وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فِيخْبِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ • وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ
السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ • وَلَهُ
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٌ قَائِتُونَ • وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ
أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ •

اعلم أن فارسا غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى أو بالجزيرة وهي أدنى أى أقرب أرض الروم من
الفرس فقبلوا عليهم وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشمتموا بالمسلمين وقالوا أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن
وفارس أميون وقد ظهر إخواننا على إخوانكم وانظرون عليكم فزلت . فقال أبو بكر رضى الله عنه لا يقرن
الله أعينكم فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين ، فقال له أبى بن خلف كذبت اجعل بيننا الأجل
إلى ثلاث سنين فأخبر أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزايده في
الخطب وماده في الأجل فجعلها مائة فلوصل إلى تسع سنين ومات أبى من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم
بعد قوله من أحد وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية في السنة السابعة من نزول الآية فأخذ (أبو بكر)
الخطب من ورثة أبى وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تصدق به ، وقد استدلت الحنفية على جواز
المعقود القاسدة في دار الحرب وأجاب غيرهم بأنه كان قبل تحريم القمار ، ويقال إن سبب غلب الروم فارس
إذ ذاك أن (شهرمان) وهو القائد الفارسي كان قد أمخن في الروم قتلا وإهلاكا ، وبينما أخوه (فرحان) يوما
يشرب إذ قال لأصحابه رأيت كأنى على سرير كسرى فيبلغ الخبر كسرى فسكتب إلى (شهرمان) أن يقتل أخاه
فأبى وراجعه ثلاثا فعزله وجعل الأمر لأخيه (فرحان) وأمره بقتل أخيه (شهرمان) فلما قدمه للقتل قال له
اصبر وأراه كسب كسرى اليه ومراجعته إياه فتنازل عن الملك وأرجعه إلى أخيه (شهرمان) وأرسل إذن
(شهرمان) إلى ملك الروم فتقابل سرا وحاربا معا كسرى فغلبت الروم في تلك البلاد وانكسرت فارس
ثم إن الروم كانت تملك ريف الشام فغزاهم المسلمون وفتحوا بعض بلادهم في السنة التاسعة من نزول الآية .

﴿ ملخص هذا التاريخ ﴾

إن الروم غلبتها فارس في أقرب الأرض إليها ثم غلبتها الروم بعد ذلك بعد سبع سنين وأن الروم المالكه
لتلك البلاد قد غلبها المسلمون بعد نزول الآية بتسع سنين ، ولا جرم أن الأمرين معجزة ولا ينافى أحدهما الآخر
فإن الروم غلبوا الفرس وغلبهم المسلمون ولذلك قرئت الآية بوجهين .

﴿ التفسير اللفظي ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) سيأتى أن «الم» تشير إلى التحقق من علم الحكمة وذلك لأن قوله تعالى « واخلاف ألسنتكم
وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين » فيها هذه الحروف مفرقة تارة ومجمعة أخرى ، انظر فيما سيأتى وفيما سبق
آتفا (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) فعلى الأول يقرأ الفعل الأول

بالباء للمجهول والثاني للمعلوم وعلى الثاني بالعكس ولانفاة بين القراءتين والقرآن أنزل على سبعة أحرف
 فهنا حرفان كل منهما لم يأتى إلا فى الآخر ثم إن فى ذكر الروم وعدم التعرض لفارس حكمة بالغة وهى أن دولة
 الروم لا تزال قائمة للآن تناوى الإسلام فسمى الله هذه السورة باسمها ليكون تذكرة للمسلمين بأنهم لا يزالون
 يقاتلونكم ويذكركم بأعمالهم وهامهم أولاء. الآن رجعوا إلى الشام كره أخرى وإلى العراق التى هى أقرب الأرض
 إلى فارس وعسى الله أن يخرجهم منها كما أخرجهم سابقا ، هذا ما تشير له الآية (الله الأمر من قبل ومن بعد)
 من قبل غلب دولة الروم على فارس ومن بعدها فمن غلب فهو بأمر الله تعالى وقضائه وقدره أو من قبل أن
 يغلب المسلمون الروم ومن بعد أن يغلبوهم يأخذ بعض مدائنهم لأن الله عز وجل يداول الأيام بين الناس
 (ويومئذ) أى ويوم تغلب الروم المرس أو يوم يغلب المسلمون الروم (يفرح المؤمنون بنصر الله) من له
 كتاب على من لا كتاب له أو ينصر المسلمين على أهل الكتاب من الروم ومن النصر ظهور المعجزة النبوية
 بتحقيق هذا الخبر وزيادة اليقين (ينصر من يشاء) نصره على مقتضى الحكمة والنواميس التى سنها الله فى
 نظام الخليقة (وهو العزيز) ينتقم ممن يستحقون الانتقام بالنصر عليهم (الرحيم) بالمؤمنين رحمة خاصة وإن
 كانت رحمة تم كل مخلوق (وعد الله) أى وعد الله وعدا بظهور الروم على فارس أو بظهور المسلمين على الروم
 (لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الله لا يخلف وعده وإنما كان الناس لا يعلمون أن الله
 الله لا يخلف الميعاد لأن ذلك من الأمور التى تحتاج إلى دقة نظر وبصيرة وعلم وهذه بواطن الحياة الدنيا إن الحياة
 الدنيا لها ظاهر كما يرى الناس من أن دولة تغلب دولة فينتصر الفارسى تارة والرومى أخرى والمسلمون آونة
 وأن يأكل الناس ويلبسوا وما أشبه ذلك من الأمور الجزئية أما القواعد العامة التى يسير عليها نظام العالم
 فإن الناس لا يعرفونه لأن حواسهم لا تدرك أمثال ذلك وإنما تدركه العقول والبصائر ومن القواعد العامة أن
 الله لا يخلف وعده ومنها أنه مامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها وهكذا أما القاعدة الأولى فهى ظاهرة
 حلية واضحة فى أن النبات والحيوان كل منهما يخرج منه شئ إذا وضع وضعا مخصوصا خلق منه نظيره
 لا يحطى ، ألبة فالورد والنخل والحنظل يخرج منها حب ونوى متى وضعت فى الأرض خرج منها نظير أصلها
 ولم يحصل خطأ فى ذلك البتة ولو اختلف هذا النظام لسكان العالم الذى نحن فيه لانطاق سكناه ، وأما القاعدة
 الثانية فهى داخلية فى الأولى لأنه لما خلق الحيوان فى الأرض كان له رزق ولا فلامعنى للمخلوق ، فيجد
 الحيوان عند ظهوره فى الأرض وخروجه من بيضته أو من الرحم لبنا معدا لغذائه أو أغذية مناسبة له ثم يترقى
 بالتدريج فى هذه الدنيا حالا بعد حال ولم يخلف الله وعده مع حيوانه ، فكما سلط عليه الجوع والعطش خلق
 له الطعام والماء ، وإذا لم يكن فى الأرض ماء فى نهر أو بركة خلق له نبات يقوم مقامهما معا كما جاء فى
 إحدى جرائدنا المصرية بتاريخ (٥) مارس سنة ١٩٢٥ م . الموافق (١٠) شعبان سنة ١٣٤٣ هـ . تحت
 العنوان التالى :

(بقر لا يشرب)

فى جزر (هاواى) قطمان عظيمة من البقر والثيران يصدر جانب كبير منها إلى الخارج أو يرسل لحمها متلحا
 إلى البلدان التى تستورد اللحم ، غير أن هذه اللواتى لم تعتد شرب الماء لعدم وجود أنهر أو برك تلك الجزر
 فهى تعيش على مائتا كل من السكلا الأخضر وتمتاض عن الماء بأكل نبات الصبير وهو كثير السائلات شديد
 الرطوبة اه .

هذه البهائم لما خلقت فى تلك الجزيرة التى لا ماء فيها كان نفس خلقها على هذا النمط وعدا من لها
 بأنه عندها ويسقىها ، ولما لم يخلق لها أنهرها هناك خلق لها شجر الصبير وشجر الصبير يعيش على ماء هو

موحود في بلادنا المصرية ولكن أكثر الناس يجهلون أنه هو الذي يستخرج منه الصبر المشهور في علم الطب وهو مهمل عندنا بزراعته على القابر ويكتفى في أكثر حياته بالندى والهواء ، ولكن في تلك الجزيرة جمعه الله قائما مقام الأنهار والبرك وأرشد البقر إليه ليتم وعده الذي وعده لأن غريزة الحيوان تطلب حياة والحياة تطلب قوتا وماء فأتى الوعد بذلك للبقر لئلا يذكور ، ولعلك تقول إن كل امرئ منا يود أن يبقى إلى الأبد وإذا كان الله في وعده لبقر تلك الجزيرة . فلماذا لم يوف وعده لذلك البقر ولنا أن نعيش إلى الأبد وأن تكون حياتنا دائماً؟ وهلا جعلها دائماً؟ أقول . هذا هو قوله تعالى (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) لأن الآخرة هي باطن الحياة الدنيا فالناس يعرفون ما لديهم من أمور الحياة الدنيا أما أن نفوسهم لها بقاء بعد الموت وأنهم هناك لا يموتون فهذا غائب عنهم مع أنه باطن الحياة الدنيا ، فهذه الحياة لو لم تكن وراءها حياة أخرى لم تكن لها فائدة بل عدمها خير من وجودها وترى الناس عاكفين عليها وهم لا يحسون بالأخرى لأنها لا تقع تحت حواسهم ولذلك وعهم فقال (أو لم يتفكروا في أنفسهم) أي أو لم يتفكروا في أمر أنفسهم فليعلموا (ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) تنتهي عنده ولا يتبقى بعده (وإن كثيرا من الناس يلقاهم لسكروا) لأنهم لم يتفكروا في أنفسهم ولم يتفكروا فيها ودرسوا عجائبها لأدركوا أنها غير الجسم . وأن هذا الجسم سيزول وأنها باقية وهكذا السموات والأرض وجميع الأجسام إنما هي ظواهر تزول ويبقى باطنها وسرها وهي العوالم المدبرة لها كما تدبر أجسامنا بأرواحنا . فكفر الناس بقاء ربهم ناشئ من جهلهم أنفسهم . فإذا علموا أنفسهم وحقا تفهموا بقائه تعالى والعلم إما بطريق تصفية النفس وإما بطريق الفلسفة وإما بطريق تحضير الأرواح ، وقد مر في هذا التفسير كثير من ذلك ومنه الذي ذكر في سورة البقرة عند ذكر حمار العزيز وطير الخليل ، ولكن لا بد أن أريك صورة من نفوسنا فيما يلي :

(لطيفة : في قوله تعالى «أو لم يتفكروا في أنفسهم»)

لقد مضى ذكر تحضير الأرواح في سورة البقرة كما قدمنا وقد قلت لك هناك أن هذا العلم فيه الحق والباطل والصدق والكذب وقلت إن المسلمين مقصرون لأنهم أولى بهذا العلم ، فلا تدع هذا ولأذكر ما جاء في جرائدنا المصرية من علم الأرواح للعجب من الحكمة والعلم وكيف تظهر الحقائق اليوم وتأتي الأرواح وتكلم الناس وهذا ما جاء في جريدة السياسة يوم الأحد ٦ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ هـ و ١٥ أكتوبر سنة ١٩٢٤ م تحت العنوان التالي :

علم الأرواح

(مقدمة)

لا يخفى على الإنسان أنه مكون من (عنصرين) الجسد والروح . والأول فان والثاني باق . وقد اهتم العلماء بالروح وجسدوا لكشف أسرارها واجتهدوا لمناجاتها في عالمها الثاني فلاقوا معاناة كثيرة في ذلك ومنهم من نجح ومنهم من أخفق ، ولكنهم توصلوا أخيرا إلى غرضهم ، وإني لمورد شيئا عن الأرواح وعلمها واكتشافها .

(تاريخها)

أول من اكتشف سر الأرواح هو الدكتور (هايسلوب) وقد قال في كتابه ما يأتي (إنه في سنة ١٨٤٨ كان يعيش في مدينة روكستر في إنجلترا رحل يسمى الدكتور فوكس وكان له ستة أولاد أكبرهم انسان

تسمى إحداهما (كيت) والثانية (مارجريت) وفي صيف ذلك العام خرج هو وزوجه وأطفاله وترك في المنزل البنتين المذكورتين ، ففي الساعة الثامنة مساء سمع هاتان البنات صوت أوان تنكسر وأمتعة تنقلب فاستولى عليهما الدرع وأخذت الكبرى مسدس والدها من تحت وسادة فراشه وأخذت في البحث عن مصدر هذا الصوت المزعج فرأت في الدور الأعلى أواني الطبخ مكسرة وكذلك بعض الكراسي . ولكن أدهش الأختين أنهما وجدتا بعض الأثاث ناقصا وفي الصباح وجدوه في الدور الأعلى ، ولما كان مساء القدر زاد الصوت وتهم بمزاج المنزل فاضطرت هذه العائلة إلى مغادرة مسكنهم ، وبعد بضعة أيام سمع (السيرفوكس) أن هذا المنزل كان مقرا لعصابة لصوص وكثيرا ما قتل فيه رجال ونساء ، ولكنه لم يدرك السر في حدوث هذه الأصوات .

(عملية تحضيرها)

من أكبر علماء هذا العلم (السير أوليفر لودج) الذي اخترع الطريقة التي بها تحضر أرواح الأموات (بينما كان جالسا في (اسكوتلند) مع صديقين له حول مائدة خشبية وكان يتكلم في علم الأرواح ارتفعت إحدى أرجل المائدة فجأة فلم يهتموا بالأمر ثم أخذت ترتفع وتعود إلى مكانها محدثة صوتا كصوت آلة التلفاز ففطن (السير أوليفر) إلى أن الأرواح هي السبب في رفعها فأخذ يخاطبها بإشارة مخصوصة عليها لها وكانت ترد عليه باجابات صحيحة ، وفي سنة ١٨٥٠ اخترع طريقة أخرى لمحادثة الأرواح وهي عبارة عن صحيفة من الورق مكتوبة عليها الحروف الأبجدية على شكل نصف دائرة ونحتها أعداد من واحد إلى عشرة وفوقها مثلث خشبي محمول على ثلاثة أرجل (مائدة صغيرة) وأخذ يعلم الأرواح طريقة استعمال اختراعه هذا فنجح نجاحا باهرا مع العلم بأن المائتين الكبيرة والصغيرة خاليتان من المسامير .

(تحضيرها في فرنسا)

بوحد الآن في فرنسا في مدينة ليون امرأة عجوز اشهرت في جميع أنحاء البلاد بتحضير الأرواح والتكلم معها ، وكثيرا ما كتبت الجرائد الفرنسية وسردت بعض حقايقها ، وإليك واحدة منها :

في يوم ١٤ يولييه (عيد الجمهورية الفرنسية) سنة ١٩١٦ أتى لزارها جم غفير من وجهاء القوم من مدينتي (ليل وباريس) واحتفت بهم احتفاء عظيما وقدمت لهم فواكه فصل الشتاء فسألها بعضهم من أين الفاكهة ؟ فأجابته من جنوب أفريقيا ، فقال لا يمكنكى تصديق ذلك لأن طول المسافة كاف لإتلافها . فقالت إنني أحضرتها في مدة ثمانية أو أقل . فقال هذا محال . عند ذلك قامت ودعت ضيوفها إلى غرفة ذات نافذة واحدة خالية من الأثاث سوى بعض كراسي خشبية في أركانها وأحضرت روحا من الأرواح وطلبت منها إحضار فاكهة من جنوب أفريقيا كالتي أحضرتها في الصباح وكان الحاضرون فقط يسمعون صوت العجوز ولا يسمعون الرد عليه ، ففي الحال وجدوا أمامهم على المائدة فاكهة على أعصانها ، والسكى يصدقوا أنهم ليسوا في حلم قدمت لهم بعضها وأكلوا منها فخرجوا معجبين بمهارة العجوز دهشين بما رأوه . وأسرد أيضا بمناسبة ذكرها ما يأتي :

إنه في سنة ١٩١١ زارها أحد وزراءنا السابقين هو وقريب له فطلب منها تحضير روح قريب له مات منذ زمن ليس بعيد وكان يقصد في الحقيقة تحضير روح النبي صلى الله عليه وسلم فدأت عملية التحضير إلا أنها وجدت صعوبة كبيرة وعجزت أخيرا عن إحضارها بعد زمن يزيد عن نصف ساعة وقالت لمعالیه (بن الروح التي تطلبها ليست بروح رجل عادي بل هي روح علوية قد يتعدى على أعظم عالم روحاني تحضيرها ، فلتطلب روحا أخرى ففعلت أحضرها لك) ولما كان هذا الوزير وللأسف يشك في نبوة سيدنا محمد ﷺ صمم على إحضارها فحاولت ثانية وثالثة أخيرا وقالت (عاب على طي أن الروح التي تطلبها عالية جدا فلا يمكنكى أبدا إحضارها وفي

القالب أنها روح رجل مقرب من الله جدا أوتى أرسل في جزيرة اللرب فاطلب غيرها) فتبسم وأخبرها بالحقيقة وطلب إحضار روح والده ، ومن تاريخ تلك الحادثة آمن ذلك الوزير وحسن إيمانه .
(تحصيلها في أمريكا)

نشرت (جريدة الأهرام) في ٧ نوفمبر سنة ١٩٢٣ قصة وسيطة تيمش في نيويورك وقد تناقلتها أيضا التفرقات اللاسلكية في أنحاء المعمورة فقالت مانصه :

اشتهرت (مسز نومسون) في أمريكا كلها بأنها وسيطة لمناجاة الأرواح وقد أقبل عليها الناس من كل فج وصوب فرأوا منها العجائب وآخر ماجرى لها وتناقلته الأسلاك البرقية أنها وعدت (المستر جلاجر) بأن تظهر له روح والده في اليوم الذي عينته له ومعه ثلاثون من أصدقائه رجالا ونساء وكان أول ما فعلوه أنهم قتشوا الوسيطة تفنينا دقيقا وكفرها بأن تنزع ثيابها وترتدي رداء بسيطا لا يجيب فيه ، ولما تحققوا أنها فعلت ذلك ساروا إلى الغرفة للمعدة لمناجاة الأرواح ولم يلبثوا إلا قليلا حتى ظهر أمامهم شيخ وساروا إلى (المستر جلاجر) الذي استولى عليه الرعب ولم يعد يقوى على دفعه عنه ، ودارت حينئذ معركة شديدة بين الشيخ والمستر جلاجر تحاف الحاضرون العاقبة فأناروا المصابيح الكهربية ، وما كان أشد دهشهم لما رأوا في قم المستر جلاجر قطعة من قماش أحمر نبتت عنها رائحة طيبة أما الوسيطة فقد جعلت تصيح بملء فيها ثم أسرعت إلى ترك الغرفة .

تبين لنا من هذه القصة مقدرة الأرواح وعدم استعجال رؤيتها ولا تعجب أيها القارئ من رؤية الأرواح بالنظر المجرد مع أنها ليست بمادة بل هي خلقة من نور كما وصفها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم . ولكن لكي تظهر الروح لك قدرتها تتخذ شكلها الأول الذي يعلق بمخيلة الطالب حضورها وذلك لتثبت وجودها وحضورها أمام المخضر والمفرحين وقد حدث ويحدث مرارا وقوع مثل هذه الحادثة .

وقد وقعت في مدينة (بارمن) الحادثة الآتية (إنه في سنة ١٨٩٥ حدث في تلك المدينة أن رجلا من أترياء القوم يدعى السيو (فيكتور كشارل) كانت له ابنة جميلة توفيت فجأة يوم قرانها وبعد وفاتها بثلاثة أيام سمع والدها دقا عنى الباب الخارجى لغرفة لاستقبال فتفتح فإذا بطرفة صغيرة تحمل خطابا له رائحة جميلة فتناولها منها وانصرفت فدخل غرفة مكتبه ، فض الطرف وقرأ الكتاب وما كان أشد تعجبه لما وجد الخط خط ابنه المتوفاة وإمضاءها ، والكتاب يحتوي على نحيبها القلبية له ولأمها وتوصيتها لهما بالصبر والسلوان ووصف حالتها بعد موتها والنعم الحال بها وقد ذهب (للسيو شارل) في اليوم الثاني إلى التجمع العلمى الفرنسى وعرض على أعضائه الكتاب وسرد لهم الحكاية فقال البعض إنه مجنون والبعض الآخر الريب والشك في صدق هذه الرواية . أما الآن وقد تعددت مثل هذه القصة فلا يبعد وقوعها وستظهر في القريب العاجل أشياء تخص بهذا العلم مما يدهش العقول ويحير الألباب انتهى ماجاء في الجريدة المذكورة .

هذا أقل من كل ماجاء في العصر الحاضر من علم الأرواح الذى امتلات به الدنيا إلا بلاد الاسلام فانها هي وحدها القافلة الذائمة الساهية . وإن أردت المزيد فاقرا [كتاب الأرواح] تأليف فهو بوضع هذا العلم أيضا تاما وبين ما فى هذا المقام من النقص .

فهذا العلم نوع من التفكير فى النفس بل هو أهم فكير فيها ، ومتى عرف الناس ذلك وأيقنوا بأن لهم حياة بعد الموت عرفوا سر هذا الوجود وعلموا أن هذه العوالم مخلوقة لمقاصد سامية ونهايات شريفة وحكمة حقة ، وأن الأرواح بعد هذه الدار تكون على ما كانت عليه فى هذه الدنيا شرفا وضعة وعلمها وجهلا وصدقا وكذبا فيكون الجزء على مقتضى سابق العمل ، فان لم يفقهوا هذه الحقائق أفلا ينظرون آثار الأمم التى

قبلهم كيف هلكوا لما كذبوا رسالهم ، فليعتبروا بما يرون من عواقب الأمم الكذبة فاننا اهل كتابنا
لما كذبوا .

فها هنا (دليلان) دليل ترفه العقول بالتفكير في النفس ، ودليل أقرب منه وهو التفكير في عواقب الأمم
للكذبة ، فهذا لا يحتاج إلى علم النفس ولا إلى تخضير الأرواح ولا إلى الفلسفة وإنما يوزع النظر في عواقب
الأمم الكذبة فمن عجز عن الأول فكيف يعجز عن الثاني ودلائله مشاهدة في خرائب الأمم المهالكة رآه
الأحياء وهم غافلون وهذا هو قوله تعالى (أولم يسيروا في الأرض) إذا عجزوا عن السير في علم النفس (فينظروا
كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) هذا تقرير لسيرهم في البلاد ونظيرهم إلى آثار للدمرين من عاد وثمود وغيرهم
من الأمم القاهرة الغالبة . ثم وصفهم فقال (كانوا أشد منهم قوة وآثاروا الأرض) وحرقوها (وعمروها أي
لدمرون عمارة (أكثر مما عمروها) أي أكثر من عمارة عمرها أهل مكة (وجاءهم رسالهم بالبينات) بالمعجزات
الواضحات فلم يؤمنوا وأهلكوا (فما كان الله ليعذبهم) فيدمرهم من غير جرم ولا تذكير (ولكن كانوا أنفسهم
يظلمون) إذ عملوا ما أدى إلى تدميرهم في الدنيا (ثم كان عاقبة الذين أساءوا) أعمالهم في الدنيا الحصلة
(السوأى) أي العاقبة التي هي أسوأ العواقب في الآخرة هي النار التي أعدت للكافرين ، وللمن ثم كان
عاقبتهم إلى آخره ولكن وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أن الجزء من جنس العمل ولم يجلب للإنسان
شيء آخر من خارج نفسه وإلا كان ظلما فهؤلاء عاقبتهم الحصلة السوأى (أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها
يسهزون) أي ثم كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها فتلخص ما تقدم برهانان :
برهان علم النفس ومنه تخضير الأرواح . وبرهان النظر في آثار الأمم ونتيجة البرهانين قوله تعالى (الله
يبدؤا خلق ثم يعيده) أي ينشئهم ثم يحيمهم بعد الموت (ثم إليه ترجعون) للجزاء والعدل . ولقد تقدم
في (سورة العنكبوت) عجائب خلق العوالم في قوله « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم
الله ينشئ النشأة الآخرة » أي ليستدلوا بالنشأة الأولى على الآخرة وقد سار الناس في الأرض وقرءوا العلوم
وفهموها واطلعوا على علم الأرواح وفهموا منه بصيما من عالم الآخرة ، فاقتران النشأة الآخرة بالنشأة الأولى
لتلاحقهما واتصال كل منهما بالآخرى وقد علم الناس في الدنيا أن الوعد لا يخلف كما تقدم . فمواعيد الأيام
والشهور والسنين والحسوف والكسوف سارت مفهومة عند علماء الفلك بحيث يمكن للإنسان أن يعرف
أول السنة وأول الشهر وموعد كسوف الشمس وخسوف القمر بعد مئات الملايين من السنين وهكذا عرف
الناس كما أوضحناه في (سورة العنكبوت) كيف نظمت العناصر ورتبت في جداول بحسب ذراتها وكان
بين كل عنصر ما فوقه وما تحته وما وراءه وما أمامه نسب هندسية ونسب عددية كالنسب التي في علم الشعر وفي
علم الموسيقى وصفات مشتركة مع الصف الرأسي وأخرى مع الصف الأفقي كما أرى في الجدول هناك بحيث يعرف
علماء السكيبيا للعنصر النقص قبل وجوده ويعرفون مكانه من الجدول المذكور . إنه لا فرق بين الأزمنة
المتتالية وبين الأمور المفقودة في أن كلا يعرف قبل وجوده وذلك لحسن النظام والابداع . وإذا كان هذا
العالم بهذا الاتقان والنسق فهو منظم له نتائج صادقة مداومة قبل حصولها ومن النتائج رجوعنا بعد موتنا على
حسب المقدمات في هذه الحياة وهو قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة ينس الجرمون) يأسون ويتحجرون
كانقول ناظرته فأبلس إذا لم ينس وينس من أن يحتاج لولم يكن لهم من شركائهم شفعا) أي بمن أشركوهم
بالله شافعين يجيرونهم من عذاب الله (وكانوا بشركائهم كافرين) يكفرون بأنهم حين يشعرون أنهم أو كانوا
في الدنيا كافرين بسببهم . واعلم أنه قد كتب في الصحف شفعا وعلموا بنى إسرائيل بالواو والسوأى بالألف
قبل الياء إثباتا للمهزة على سورة الحرف الذي منه حركتها ، ثم فصل حال الطائفتين المؤمنين والكافرين

فقال سبحانه (ويوم تقوم الساعة يومئذ يفرقون) أي المؤمنون والكافرون (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون) أي في أرض ذات أزهار وأنهار يسرون سرورا تهللت له وجوههم وينعمون ويكرمون بالتحف (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون) مدخلون لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم ، واعلم أن ملخص ما تقدم أن الأمم يغلب بعضها بعضا ولكل وقت محدود على نظام القانون العام وهو أن لا يخلف اليعاد ، ومن القانون العام المذكور أن الحياة الآخرة تعقب الحياة الدنيا . ثم أعقبه (بدليلين) دليل الأتقى والبحث فيها ، ودليل التأمل في أحوال الأمم . وهاهنا رجع إلى مسألة إن الله لا يخلف اليعاد فذكر ذلك في [ثلاثة مواضع] تعاقب الليل والنهار وأنه لا يخلف الوعد في ذلك . وإخراج الحى من الميت والميت من الحى وأن الأرض تحيا بالنبات بعد موتها باليس والقحط . وهذه الأدلة الثلاثة ترجع لعدم الإخلاف في وعد الله . فسكا يستدل الناس بأنفسهم وبآثار الأمم على الآخرة يستدلون عليها بعدم إخلاف اليعاد وذلك بهذه الأمور الثلاثة الآتية وقد قدمت لك في (سورة الأنعام) أن هذا الدليل هو الذي ذكره سقراط لتلاميذه عند الموت إذ استدل على الآخرة أن الضد يعقبه ضده فالمرض والجهل والفقر والقدح يعقبها الصحة والعلم والنعى والعز فهكذا يكون بعد الموت حياة فذكرها الله سبحانه ها في مقام إثبات الطريق الموصلة إلى النجاة في الآخرة بالعبادة في الأوقات الآتية مع الفسح في تلك الأوقات وتعاقبها . فهأها صرب الطيرين بحجر ، فالآية فيها التسبيح والصلاة ومع ذلك يفكر المؤمن في تعاقب هذه الأشياء ، وهذا هو قوله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) أي فسبحوا الله والتسبيح تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير في الصلاة وغيرها . وقد سأل نافع بن الأزرق ابن عباس قائلا «هل تجد الصلوات الخمس في القرآن» قال نعم وقرأ هاتين الآيتين وقال جمعت الصلوات الخمس ومواقفها» قال العلماء وذلك أن قوله «تمسون» صلاة المغرب والعشاء وقوله «تصبحون» صلاة الفجر «وعشيا» صلاة العصر «وحيث تظهرون» صلاة الظهر وهذه الأوقات تتبدل فيها أحوال النور ، فمن عدمه بالظلمة وقت المغرب والعشاء إلى ظهوره بالفجر إلى نهاية إشرافه وقت الظهر إلى قرب اضمحلاله وقت العصر ليكون الإنسان متذكرا به في كل ظاهرة من ظواهر الحركات الفلكية ليرى عدم اختلاف اليعاد فيستدل على الآخرة ، وإنما جمعت الركعات سبعة عشر ليكون لكل ساعة من ساعات الليل والنهار ركعة فسكانه يسبح الله في كل ساعة وبقيت سبع ساعات هي متوسط ما يناله الإنسان كل (٢٤) ساعة . وإنما فرمت الصلاة بأحوال الأنوار الشمسية لأن هذه الأنوار مبدأ كل حياة على الأرض . فالرياح تهب بحرارتها والبخار يثور بآثارها من البحار والسحاب تساق في الجو بهذين العاملين الناجمين من الحرارة والنبات والحيوان والإنسان كلهما نواع لذلك . والألوان التي يفرح بها الناس ويميزونها بنفس الضوء ، فلا فلك تجرى في البحر ولا سحاب في البر ولا حب يأكله ولا فاكهة تنفك بها ولا ثوب تلبسه ولا حرير تزين به إلا وحرارة الشمس كانت سببه ولا هداية لطريق إلا بضوء الشمس ولا نظام للطرق في البحار وفي البر إلا بملاحظة الكواكب المحيطة بكرتنا . إن عبادة أمنا الإسلامية عبادة نتائجها الفلسفة نتائجها الحكمة .

فانظر كيف استبان في السورة المقدمة أن ملخص الأدعية الحث على جميع العلوم وانظر كيف كانت أوقات الصلوات مفتاحا لأصولها ومبدأ لأوائلها وتبراسا لطرفها ومهيما لعجايبها تلك وحدة ثابتة . الشمس واحدة والحرارة والنور منها اثنتان ومنها تشعبت أنواع الحيوان والنبات مع نظام العناصر السابق بحيث دارت الأفلاك وأرسلت الأشعة إلى هذه العناصر ، وما أشبه الحرارة والنور بالنفس الإنسانية والعقل الانساني . فلنا نفوس بها نشهى وبها نحس وبها تتحرك . فالنفس تبدأ الجس والحركة . ولنا عقول بها ندرك المسكيات

هكذا للشمس حرارة بها هذه الحركات ، وبها ضوء به يتهدى الناس في الطرقات ويعرفون الصور والأشكال
ولذلك تسمع قول الفلاسفة (النفس والعقل) فقالوا : إن العالم للدبر لنا فيه نفوس وعقول ، فالعقول مدبرة
والنفوس محركة أشبه بما رأينا في الشمس وفي نفوسنا . فما أجل الحكمة وما أبداع العلم وذلك بلسان الشريعة
للاللثة وهم درجات بعضها فوق بعض . ومنهم الأرضيون والسمويون . وقد ذكر بعض هذا في (سورة البقرة)
وهذا كله مستفاد من هذه الآية « فبجحان الله حين تمسحون وحين تمسحون وله الحمد في السموات والأرض
وعشيا وحين تظهرون » أي تدخلون في الظهيرة . وقوله « وعشيا » معطوف على قوله « حين تمسحون »
وأما قوله « وله الحمد في السموات والأرض » فهي جملة اعتراضية . ومضاهي يحمده أهل السموات والأرض
ولقد علمت أن أمتنا الإسلامية هي التي اختص نبيها صلى الله عليه وسلم بأن له مقام الحمد وأنه رافع لواء الحمد
وقد أمر بالحمد وبشر بأن أمة ستعرف آيات الله كما تقدم في (سورة النمل) ولا معنى للحمد إلا بعد معرفة
المحمود عليه ، فتكون نتيجة ذلك أن أمة الإسلام سيربها الله آياته فتعرفها والآيات هي سائر العلوم . انظر
كيف جعل الصلوات تبع الإضاءة والإظلام وكان يمكن أن تكون تلك الأوقات مطلقة يصلح للإنسان كما
يشاء فلما قيدها علم أن الضوء والظلمة لهما مزية ، وما مزيتها إلا أنهما مبادئ الحوادث ومبادئ العلوم
وبهما يعرف أنهما تابعان للشمس وحركتها فيعرف وحدانية الله وحسن نظامه في خلقه ، ويعرف أيضا أنه
لا يخلف للمعادلا في الأنوار والظلمات ولا في نسق العناصر للتقدمة في الجدول المذكور في (سورة العنكبوت)
« ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » فلا تفاوت بين حوادث الأنوار والظلمات من حيث تناسبها وصدق
موعدتها ولا في نظام العناصر من حيث وضعها المنتظم الذي اخترعه (مندلييف الروسي) وإن كان لم يزل نظامه
غير تام لقصور الناس عن الإحاطة به ومع ذلك أمكن أن يعرف ماغاب من العناصر بما حضر منها كما تقدم ،
وقوله تعالى (مخرج الحى من اللبث) كالإنسان من النطفة (ومخرج اللبث من الحى) كالنطفة والبيضة (ومجي
الأرض بعد موتها) يبسها وهذا يدل كما تقدم عن سقراط دلالة إفتاعية على الحياة الأخرى ولذلك قال :
(وكذلك يخرجون) من قبوركم على قاعدة أن الضد يتبع ضده . ولما ذكر سبحانه أنه يحيى الأرض بالنبات
ويحيى الناس والحيوان ، وأن الضد يعقب ضده ناسب أن يشرح [أحوال الإنسان الأربعة] وهي حال نشوته
وتنوعه إلى ذكور وإناث بينهما محبة ووثام وإلى أمم مختلفة اللغات والأحوال كلها من لون وغيره وإلى تنوع
أحوال الأرواح مع الأجسام من حيث اليقظة والنوم . ثم أتبعه بذكر ما يحيط به وهما [حالان : الأول]
أحوال الجو من مطر وبرد وتلج وصحو وحر وبرد ، وأخبارها بالبرق وإنزال المطر . الثانى أحوال العالم كله
فإنه كجسم واحد منظم بخدم بعضه بعضا . ففهم ذلك من نظر إلى أحوال الجو وأحوال الأفس في نشوتها
وتناسلها ونومها ويقظتها واختلاف لغاتها وألوانها . فالخمس التي قبل السادس لمعرفته سبحانه وتعالى ، ثم أعقبه
بالسابع وهو أن من في السموات والأرض منقادون له ، لأن هذا الاقبياد لا يفهم إلا بفهم الباحث السابقة
عند التحقق منها وهذا قوله تعالى :

- (١) (ومن آياته أن خلقكم من تراب) في أصل الانشاء ، أوفى هذه الحال بتغذيتكم من النبات ، والنبات
يتغذى من التراب والهواء ، والباء وأكثر المواد المركبة فيكم مخلوط مركب من التراب والباء وعناصر أخرى
(ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) تتبسطون في الأرض أى ثم فاجأكم وقت كونكم بشرا تنتشرون في الأرض .
- (٢) (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا) لأن النساء خلقن من جنس الرجال أى من شكل
أنفسكم وجنسها (لتسكنوا إليها) يقال سكن إليه إذا مال إليه وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الإلف
والسكون ، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر (وجعل بينكم مودة ورحمة) أى جعل بينكم التواد بسبب

الزواج فيحصل الإلف بين الزوجين ويكون الشبق في حال القوة مدعاة ليل كل منهما إلى الآخر سواء كان ذلك وقت إمرأة النسل أو في غيره لتدوم الحياة للنزلية على أمم نظام . ولما كان الشباب يتوارى تدريجاً والجمال يتبعه تحقيقاً كان كلما ولي الشباب توارى معه الجمال . فلا يزال الشباب في إديار والجمال في تغير حتى يجيء الشيخوخة وقد نهدت القوة في الرجال والجمال في النساء واستبدل الضمض ونجمد الوجه بهما . أقول لما كان ذلك قانوناً مسنوناً خلق الله منهما الذرية ذكورا وإناثاً ليحصل بينهما التفاهم والتحاب وللودة للأمر الأشرف وهو التربية والمحافظة على الذرية وحيثما تظهر أنوار الرحمة التي كانت متوارية وراء ظلمة الشبق والشهوة فلا تزال الرحمة تظهر والشهوة تختفي حتى تظهر نفس الحقيقة الواضحة وهي الرحمة الخالصة بين الزوجين بعد زوال ذلك الظلام الخالك الذي غشى عليهما . وإيضاحه أن محبة الزوج لزوجته أولاً تكون لمجرد الشهوة ، ألا ترى أنهما يقتلان إذا لم يسيدها ويتخاصمان ويفترقان فإذا وجدها مريضة أو قبيحة أو رأت أنه هو كذلك حصل النفور بدل اللودة ، فأما إذا كبرا لاسياً إذا كان لهما ذرية فإنه يحبها ويحبها ولو كان بهما مرض وقد تحقق كل منهما أن صاحبه لا جمال فيه ولا قوة ، فهذا هو الحكمة في التعبير بالرحمة بعد اللودة . إن هذه الحياة جعلت تفرقنا على الأخلاق العالية . ومن أحسن الطرق أن يحس الرجل بحاجة إلى المرأة تمسه هو وتغضى وطره فليس في أكثر الناس من يتزوج امرأة إلا لتضاه وطره وقليل منهم من يكون أول مقاصده الولد أو المساعدة للنزلية ، فالشبهوات إذن كالحب يوضع للطير فيصاد به هكذا هذه الشهوات توضع للذكور والإناث ليجمعوا فتكون الذرية والنظام للنزلي فالنتيجة الحقيقية هي الذرية وهذه الذرية يتعلمون علم الرحمة والشفقة فلا يكون لهما مقصد إلا تربية هؤلاء الذكور وهؤلاء الإناث وهذا ليس فيه شيء يرجع إلى نظام أجسامهما كما لم يكن للحيوان منفعة من ذريته . إن نظام هذا العالم راجع في نهايته إلى أن تتعلم علم الرحمة أي أن تكون نتائج أعمالنا للنزلية العامة وأول للنزلية العامة تربية الذرية . ولقد أودع في عقول الآباء أن أبناءهم ينضمونهم إلى كبرهم . وهذا أثر من آثار الضعف الإنساني . فنحن ملزمون أن نربي الأبناء سواء أكانوا ذكراً لنا فربي الكبر أم لا . والسائق الذي جعل في نفوسنا هي الرحمة بهذه الذرية ، وضربها الله في الآباء لتسوقهم إلى تربية أبنائهم وهذه مزية شريفة وضربها الله في الأرض ، فقد تدرج الإنسان من طفل يكفله أبواه إلى قوام على امرأة لمجرد شهواته لأنه ليس أهلاً أن يتصف بأن يكون قواماً على غيره لأنه لا يزال حديث عهد بالحضانة والتربية قال إلى من يقضى منه شهواته النفسية ثم ارتقى إلى تربية غيره وكفاله بلا أجر إلا ما تخيله في نفسه من أن الولد ذكر له أو يقوم بما يحتاج إليه في الكبر .

إن دراسة هذه النظم مربية لنوع الإنسان ، فليدرس المسلمون نظام الله في أرضه فهم مخلوقون في عالم كله جمال ونظام وحكمة فإن لم يفكروا فلا آخرة ولا دنيا . ولذلك ترى أن الأنبياء والحكماء الذين جاءوا إلى هذه الأرض لإصلاح أهلها قليلون جداً وإنما قلوا لأن هذه الأرض من العوالم التأخرة فلأتأتى إليها إلا أرواح جاهلة غبية لا تعرف إلا أنفسها وقد غفلت عن نظام العالم العام . فهذه الأرواح الأرضية لما وردت هذا العالم جرت على طباعها وأخذت الله يلها الرحمة العامة والمحبة الكلية تارة بنفس النظام الذي يعيشون فيه بأن يظهر للإنسان أنه لا مساعدة له بدون أمته وأن أمته لا سعادة لها إلا بالأمم ولا سعادة للأمم إلا بالعوالم كلها التي تراها والتي لا تراها ونارة بكلام الأنبياء والحكماء وطلبهم محبة الجميع والاحسان للجميع والتوجه لله الذي هو فوق الجميع ليكون نغزله إلى سائر الناس والحيوان نظر حكمة ورحمة عامة . فعلى هذا يكون الأنبياء والحكماء أشرف هذا النوع الإنساني لأنهم طهروا فيها لاسعاد الجميع واكتفوا من الدنيا بما هو ضروري فهؤلاء يرون في أنفسهم عطفاً على جميع النوع الإنساني وعلى الحيوان كما يرى الأب والأم حبا لأبنائهما

ولذلك يقول الله تعالى «التي أولى بالمؤمنين من أنفسهم» وأزواجه أمهاتهم» فالأنبياء آباء والأمم أبناء . هذا هو إيضاح معنى الرحمة في قوله «مودة ورحمة» فكأن أيها الذي أبا عليا ولا تقف عند الأبوة الجسمية . كن تابعا للأنبياء والحكماء ولا تقف عند الدرجة الدنيا .

واعلم أن أمة الإسلام يجوزها مرشدون وأنت لم تقرأ هذا التفسير إلا لما في نفسك من حكمة وعلم وشرف وإلا لصددت عنه وكرهته لأن الانسان لا يشق إلا ما كان من طبعه ، وإذا كان ذلك كذلك فإني أسألك بالله الذي أبدع هذا النظام وسوائك وعلمك أن تكون رحمة لهذه الأمة للسكينة الأمة الاسلامية التي تألفت عليها أم أوروبا وأن تهديها وأن ترشدتها فان مثل هذا التفسير لا يقرؤه إلا أكابرها وهؤلاء الأكابر يحرم عليهم أن يناموا فتنم عن ساعد الجد وانثر الحكمة بينهم على قدر عقولهم ، غلظ لبنا من هذا التفسير أو من غيره أو مما تعرف أنت وانثرها بينهم وجيبهم في العلم والصناعات ، ولتعلم أي قابلية السماء من سائر أقطار الإسلام فألقيتهم جميعا ليكون على هذه الأمة فإن القاعين بأمر الدين منوها العلم وجميع الأمم حولها يقرءون بحسب نظام الله في الأرض وفي السماء .

إن أعداء هذه الأمة ومرشديها قد اتفقوا على إذلالها فأعدوا لها بالحرب ومرشدوها جد الناس عن العلوم . واعلم أن الله أذن للإسلام بالارتقاء والسعادة ، ومن يواد ذلك نشر هذا التفسير ، وأنا بذلك موافق وسبكون في هذه الأمة حكما ، وعلماء وعارفين .

ولتعلم أن الله لم يرسل إلى هذه الأرض من الأرواح العالية إلا قليلا ليوقظوها لا يريدون جزاء ولا شكورا كما أن الشمس تحمل أشعتها بلا جزاء من الأرض لها ، هكذا الأنبياء والصديقون قليل ، وإنما قلل الله منهم لأنهم يخشون في الأرض فينصبوا وينصبوا ، لأن نظامها مبني على الشهوات وهم أقرب إلى البراءة منها فلذلك يكونون في ألم وتعب مدة حياتهم ليؤدوا الأمانة التي حملوها قبل مفادتهم عالم الأرواح وهم في عالم المر ، وليس يفهم هذا إلا بأعد أمرين : إما بسفاه النفس ، وإما بقراءة علم الأرواح ودراسة دراسة تامة .

(٣) (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم ولسانكم وأجناس نطقكم وأشكالكم واللوانكم) كالسواد في السودان والصفرة في الصين واليابان والبياض في أوروبا وأكثر بلاد الشرق واللون النحاسي كأهل أمريكا الأصليين وذلك في العموم ، والحقيقة التي لا مرية فيها أنه لا رجل ولا امرأة في الشرق والشرق يشبه لونه لون الآخر ولا نطقه نطق الآخر ، فترى اللغة واحدة واللون واحدا كالعربية والبياض ولكن لا ترى وجهين يتحدان بيضا ، ولا لسانين يتحدان منطقا . هكذا حمة الوجوه وشكل الأعضاء كلها كما سيأتي إيضاحه .

(٤) (إن في ذلك لآيات للعالمين) جمع عالم بكسر اللام ولقد نبغ العلماء في فن علم الثنات ومعرفة الحيوان وأصناف الانسان ، ولن يدرك عجائب ذلك وتأنجه حق إدراكه ومعرفة إلا العلماء به وبالاستنتاج منه بحيث يدوقون جمال هذه النظم وتتأثر به نفوسهم فيرون وراء هذا الجمال والنظام والابداع إثرائها به أبدعت هذه العجائب وبرون مادة واحدة أصلها الأثير تنوعت بحركات فكانت هذه الواليد ثم اختص كل مخلوق بصفات بحيث يمتاز عن سواه ثم يدعشون ، إذ يرون هذا العجايب والتناير الجزئي جعل لأجل أن تميز الأفراد بعضها من بعض ، فالاختلاف إنما جاء لهدايتنا المعرفة وفصل الأشياء بعضها من بعض ، فالنتيجة من ذلك هداية عقولنا لمعرفة الأشياء وكذلك الحيوان .

(٥) (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتعاؤكم من فضله) في النهار بمزاولة أسباب اللماش غالبا فيها (إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) صمغ تفهم واستبصار .

(٦) (ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً) أي إرأه تمم البرق كما يقولون: تسمع بالمعدي، أي سمعك خوفاً من الصاعقة وطمعاً في الغيث أي حال كونكم خائفين طامعين (وينزل من السماء ماء) مطراً (فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) يتفكرون بقولهم (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) أي تثبت بلا عمد بإقامته وتديره وحكمته لأن عوالمنا التي نسكنها ليست في مكان واحد بل هي تجري في الفضاء فالأرض جارية والسحاب يجري حولها والهواء تبع لها والشجر دائماً حولها، وهي والقمر والسيارات التي تتألفها بحرين حول الشمس والشمس ولو احقها تجرى حول كوكب آخر يظن أنه هو نجم في الجاني على ركبتيه وهو وأمثاله بحرين حول كواكب أخرى وهكذا إلى حيث تنقطع الفكر ونحن على الأرض لاندرى إلا هذه الآثار الغريبة الضئيلة، فإمسك هذه العوالم وإقامتها وتديرها وإحكامها من الآيات الدالة على إله دبرها (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أتمت نخرجون) معطوف على قوله «أن تقوم» أي ومن آياته قيام السموات والأرض ثم خروجكم من القبور إذا دعاكم دعوة فيقول أيها الموتي اخرجوا وذلك كقوله تعالى: «كن فيكون» .

(٧) (وله من في السموات والأرض كل له قانتون) . يتقنون لفعله فهم لا يجتمعون عنه . ولما كانت هذه العلوم السبعة توضح «كيف بدأ الله الخلق» وهكذا يبده وحيها بها كالأضاحق والاستدلال على قوله تعالى قبلها بقليل «الله يبدأ الخلق ثم يعيده» الخ أتبعها بما هو كالنتيجة لها فقال (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أي يخلقهم أولاً ثم يعيدهم بعد الموت وهو هين عليه أو هو أيسر عليه على حسب ما يرسخ في عقول المخاطبين أن من فعل شيئاً مرة كان أسهل عليه إعادته (وله للثلث) أي الوصف الموجب الشأن كالقدرة العامة والحكمة التامة (الأعلى) التي لا يساويه فيه غيره ولا يدانيه (في السموات والأرض وهو) في ملكه (العزير الحكيم) أي في خلقه . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة . وههنا (خمس لطائف) :

- (١) في قوله تعالى «ومن آياته أن خلقكم من تراب» الخ .
 - (٢) في قوله تعالى «ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم» .
 - (٣) في قوله تعالى «ومن آياته منامكم بالليل والنهار» الخ .
 - (٤) في قوله تعالى (ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً) .
 - (٥) في قوله تعالى «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده» الخ .
- أما (اللطيفة الرابعة) فلتقرأها في (سورة الرعد) فهناك شرح الرعد والبرق وهذه الحوادث الطبيعية .

﴿ اللطيفة الأولى : في قوله تعالى «ومن آياته أن خلقكم من تراب» الخ ﴾

لقد تقدم في (سورة القصص) ذكر منشأ العالم ومنشأ الإنسان وبيان الثواب والعقاب الذي ظنه حكاه اليونان بقولهم وأن ذلك معجزة للقرآن لأنهم طابقوا القرآن قبل نزوله وغاية الأمر أنهم أخطأوا للرسم في بعض التفاصيل كقولهم [إن المجرم من الناس يكون حيواناً ويكون هذا عذاباً له] ذلك لأنهم لبسوا أنبياء وقد أفروا بأنهم عاجزون عن إحقاق الحق في مثل هذه المسائل وذلك في المحاوراة التي ذكرها أفلاطون على لسان (طيباوس) من أتباع فيثاغورس مع سقراط أستاذ أفلاطون وسيأتي ملخص أكثرها في قوله تعالى « فطرة الله التي فطر الناس عليها» فأريد أن أذكر هنا ما قاله ذلك الفيلسوف في أمر الإنسان وخلقته وصحته ومرضه ذلك لأن مثل هذه الآراء تورث القاري لهذا التفسير يقينا لا يشوبه شك لأن القرآن بهذه الآراء يصبح مطابقاً لآراء أكاره حكاه الأمم كسقراط وأفلاطون . وقد تقدم أني نقلت لك عن علماء أوروبا في عصرنا

أن أهم علوم الفلسفة وهي الأمور العامة كالمادة والنفس وائقه ، وهكذا لم يصل فيه الأوروبيون الخاليون إلى مرتبة علماء اليونان هذا هو نص كلام سينسر الفيلسوف الإنجليزي الذي ذكرته في رسالتي للسنة [مرآة الفلاسفة] فإنه أعلن على رءوس الأشهاد أن علماء أوروبا جميعهم عالة على علماء اليونان في هذه المباحث وأن علماء أوروبا لم يرتقوا إلا في العلوم الجزئية . ويقول الفيلسوف (ستلان) للماصر فنا [إن الدهريين من أوروبا في زماننا لم يزالوا في رتبة ديمقراطيس من فلاسفة اليونان] وأقول وهو في مرتبة وسطى لم يصل لدرجة أفلاطون المحترم رأيه عند فلاسفة أوروبا وعند النصارى والمسلمين وعلماء الاسكندرية الأقدمين قبل الاسلام . فلا سمحك إذن مقاله (طباوس) للذكور لسقراط في خلق الانسان . ابتداء فذكر أن الأرض والماء والهواء والنار يستحيل بعضها إلى بعض ، وأنت تعلم أن هذه هي العناصر القديمة ، ومن عجب أن تكون العناصر التي عرفت في عصرنا ووصلت إلى (٨١) عنصرا أصبحت اليوم يرجع بعضها إلى بعض بعد كشف عنصر الراديوم ، فاعجب لنظام هذا العالم ولتطابق العلوم قديما وحديثا ، ثم قال إن المادة لها صور كثيرة فلا يصح أن نعتبر هذه الصور لأننا إذا أخذنا قطعة من ذهب مصورة أشكالا مختلفة لا يصح لنا أن نقول هي مثلث أو مربع عند الاجابة عن سؤال عنها . كلا . بل نقول هي ذهب ، فأما الاجابة بشكل من الأشكال فليست حقا هكذا المادة فهي لا تستقر على حال ولا شكل فلنقل هي مادة وهي أصل للوجودات وهذه الأشكال صور موجودات أزلية وهذه مصورة على صورتها والمادة لاصورة لها وهي نوع من الوجود عديم الصورة غير مدرك بالبصر مستعد لأن يقبل كل شيء له نسبة ما إلى الوجود المقبول وهي نسبة مبهمه عسدية الادراك . انتهى كلام أفلاطون .

ثم قال (ستلان) ناقلا عن (طباوس) إنه جعل تكوينها من أجزاء مختلفة مثلثة مفرطة ومن تركيب الثلثات بعضها ببعض نشأ للكعب ومن تركيب هذه الأجسام نشأت العناصر الأربعة . قال (ستلان) قلت وهذا القول يطابق بما عليه الطبيعيون في عصرنا هذا وهو أن أول ما تركب عليه المادة من بلور وما يشاكله يتركب على أشكال هندسية بسيطة تختص كل جسم بشكل معين وهي أصل يجتمع منها الأجسام الأخرى من معدن ونبات ، ثم ذكر الإحساس وكيف ينشأ عن تأثير تلك الثلثات وغيرها في أجسامنا وشرح اختلاف الاحساس من خشن ولين وبارد وحار ومؤلم وملاذ وقال إن الاختلاف في شكل الأجسام هو سبب اختلاف التأثير في أجسامنا . وقال : إن الألم إنما ينشأ إذا كان التأثير مفرط القوة ووجدت مقاومة من جهة الآلة وكان التأثير مضادا لطبيعتها فمن اجتماع هذه الأحوال يحصل الألم ، وإذا كان التأثير ملائما للطبيعة تحصل منه لذة ثم قال : ثم الإحساس . إذا وقع بسهولة فهو إذن ليس بملاذ ولا مؤلم ، وتكلم عن الحواس بعد ذلك .

ثم تكلم بعد ذلك في تصوير الإنسان على يد اللاتسكة فقال إنهم تسلموا النفس الأزلية التي خلقها الله للإنسان وألحقوا بها نفسا مائة جعلوا مركزها في الصدر ، أما الجزء الغضي منها ففي أعلى الصدر وأما الجزء الشهوي ففي أسفل البطن [يقول مؤلف التفسير : ومن عجب أن منذ (٣٠ سنة) ألفت كتاب (حواهر العلوم) وفيه مقالة في تصوير الإنسان وشرح عقله وجسمه وأنه ملك في الدماغ له جنود في القلب وعمال في البطن ولم أكن اطلعت على أمثال هذا وعسى أن أضعها يوما ما في هذا التفسير] ولهذا الكلام بقية تقدمت في هذا التفسير مثل الكلام على الأمراض والأدوية ، ومثل أن أمراض النفس تتبع أمراض الجسم وأن الرياضة البدنية والنفسية يورثان الصحة .

وقد ذكر أن الحيوانات كانوا آدميين نزلوا إلى مراتبهم بسبب شهواتهم ، وأن النساء كانوا رجالا جاروا

وظنوا أو جبنوا فأنحطوا إلى مرتبة السوء ، فان هذه الأحوال مفلورون فيها لأنهم لم يكن عندهم أتية
فذكروها بحياهم قائلين إن أصحاب الشهوات يصيرون بهائم وأصحاب القسوة أو الخور يصيرون نساء
ليقسموا العذاب على الأخلاق فهذا ليس إلا ضرب أمثال وظنون ، وهم يصرون بذلك وما عدا هذا فهنا
للقال في تفسير الآية نعمة عظيمة وآية من آفة لنا ودلائل على اجمال الإلهي وعلى الايمان في الصنع .

اللهم إنك أنعمت علينا بالعلم والقلم ، وإني أحمذك حمدا كثيرا على هذه النعمة وعلى أن شرحت صدرى
ورقتنى وأبرزت هذه العلوم التي كانت غبوة في بطون الكتب وسيف عليها للسلمون وسبكون هناك
أجيال وأجيال يرتقون ويرقون العلوم والأهم الإسلامية .

أيها الحكيم . إني أرى بجلي كثيرا من شبان الأمم الشرقية ستكون لهم صولة في العلم وقدم صدق وسيكون
في الشرق وفي الإسلام حركة لا يعرف مداها إلا الله وعظماء المسلمين بعد الآن قوم إلهيون حكام نابغون
في العلوم والفنون يرقون شعوبهم ماديا وأدينا ، فمن ذا الذي يقرأ هذا الموضوع ثم يترك جسمه بلا حركة
ورياضة أو يترك عقله بلا تهذيب ولا تعليم . اللهم إنك أنت للنم وظننك فيك جميل أن ترق هذه الأمم الآن
وذلك الحمد في الأولى والآخرة ولك للرجع والمآب . انتهى صباح يوم آخر رمضان للعظم سنة ١٣٤٧ هـ .

﴿ نظرة : في موازنة محاورة طباطبائي وسقراط مع ماورد في الصلاة في دين الإسلام ﴾

أقد ابتدأ المحاورة بالكلام على السموات ومبدأ العالم ثم تكلمنا عن الروح الانسانية وما معها من
الحيوانات إجمالا ثم أشار إلى علم الأخلاق وإلى جزاء الناس على التفريط فيها وجعل النقاب بالتناصح الذي
بأباه العلامة (ابن سينا) عقلا والإسلام تقلا ، ولكن هذا ماوصل إليه علم القوم إذ ذاك كما تقدم ، إنما الذي
يهمني الآن أن أنظر نظرة في الصلاة .

يبتدىء السلم صلاته قائلا « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ،
إن مستلقى ونسكى ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . ثم يقول
بعد الركوع « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء . بعد ، أهل
التناء وأنجد أحق ما لك الحمد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منمت ولا راد لما قضيت ولا
ينفع ذا الجرم منك الجهد) هله هي الأدعية التي يقولها للسلم قبل قراءة الفاتحة وبعد الركوع ، كل ذلك
وهو واقف .

يقف السلم فيوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض الخ ، ثم إنه بعد الركوع يقول : إن حمدي لك
بملا العالم العلوي والسفلي ، فالسلم إذن في وقوفه في الصلاة يفصل [أمرين] توجهها للذي فطر العالم العلوي
والسفلي وبعد التوجه يكون الحمد ، فهو لما توجه فهم أي درس هذا الوجود كما درسه (سقراط) و (طباطبائي)
ولما درسه علمه والحمد ينتج الحب والحب ينتج تسخير الجوارح بالطاعة واللسان بالتناء . لذلك تراء بعد التوجه
في أول الصلاة يقول (لك الحمد الخ) وهذا الحمد تابع للعلم والحمد تابع للمعلوم والمعلوم هو ما في السموات
وما في الأرض الخ ، فهو يحمد الله على ما علمه من عظمته لا على ما وصل إليه وحده . كلا لأن الحمد يكون على نعمة
وعلى ما علمه وتبني الحمد ولذلك كان الحمد ملء السموات وملء الأرض .

فتأله صاحبي : للفصل يحمد ربه على العوالم كلها لأنه علمها وعلمها أوجب الحب وتسخير الجوارح ولكن
ليس كل مسلم يعلم ما علمه (طباطبائي) فسقراط) فكيف يكون ذلك ؟ قلت إن الصلاة نوع من العلم لأن فيها
تذكرة والتذكرة أشبه بالتنويم ، فالإنسان بكثرة التكرار ترسخ المعاني في نفسه ورسوخها تنقلب إلى عواطف
فيكون الحمد إذن على معاني في النفس أشبه بالعواطف التي انصفت بها النفس . إذن للصلاة [معاني]

قسم علم كما يعلم سقراط فهذا حمده حمد حقيق . وقسم لا يعلم ولكنه حصلت له حكمة من تكرار هذه الأهمية
فهذا حمده شبه الحقيق وهذا قوله تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » فالعلم بهذه
للعاني للوقن بها يكون من الصديقين والصديقون يتبعون الأنبياء ، والأنبياء عابوا وهؤلاء أيقنوا أنهم يدرسوا .
أما الآخرون وهم العامة فهم آخر الأقسام فكفاهم الإيمان ، فهؤلاء الصديقون هم الذين قال الله فيهم « عهد
الله أنه لا إله إلا هو وللإسك وأولوا العلم فأعما بالقسط » وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم « ألم تر أن الله أنزل
من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها » إلى قوله « وإنما يخشى الله من عباده العلماء » فهؤلاء هم العلماء
للكورون في الآية ، وهؤلاء سيكترون في أمة الإسلام بعد انتشار هذا التفسير ، وسيقوم فيهم عيان
أط كياء ويحولون إنه من الجبن والمار والجهل أن نرى (طباوس) و (سقراط) يهجمان على الحقائق العلوية
والسلفية هجومًا ولم يسموا ما سمنا من قوله تعالى « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها »
ولا قوله تعالى « وزيناها للناظرين » ويقولون أيضا (عجبا كيف يقول طباوس) إن العين إنما خلقت لتنظر
السكواكب ونرف الليل والنهار ، وزيد علما وندرس الفلسفة وهي أجل نعمة أمم الله بها على الناس ، فمن
أحرى وأحق بدرس هذا العالم ، ولا بد من بند طرق آباءنا للتأخرين القيمة ، والسير في الطرق القويمة
« والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

هذا ما يقوله السلم في صلته وهو في حال وقوفه ، فإذا جلس للسلم بين السجدين لماذا يقول ؟ نسمة
يقول « رب اغفر لي وارحمني وارزقني واهدني وعافني » هذا قول للسلم بين السجدين ومعلوم أن الجلوس
بعد الوقوف . يطلب للسلم الغفران ، أي غفران الذنوب ، ولا جرم أن هذا راجع لتفسير في الأخلاق وذلك
بعد أن أكل الأمور العلوية وهو واقف ، فهو في حال وقوفه يدرس العوالم العلوية والسلفية كأنه يدرس
السموات والأرض ، فلما أن أتم الدراسة ترك عالم السموات ورجع إلى نفسه كما أن الله خلق العوالم العلوية
والسلفية ثم خلق الانسان ، فدعا الجلوس بين السجدين راجع لأحوال الانسان خاصة بعد الفراغ من
مدروس العوالم كلها . هذا هو الذي جاء في المحاورة . فهما ابتداء بدراسة العوالم ، ثم ختمًا للوضع بالبحث في
أخلاق الانسان وعقابه وثوابه ، إذن ما يقوله السلم في الوقوف ، وما يقوله في الجلوس هو ملخص العلوم العلوية
والعلوم العملية .

أليس من عجب أن تكون صلاة السلم هي ملخص علم الفلسفة ، أليس من عجب أن تكون الفاتحة
في أولها هي نفس ماجاء في أول هذه المحاورة من للكلام على السموات والأرض ونفس ماجاء في قول للصلبي
قبل قراءة الفاتحة وهو (وجهت وجهي للبع) وأن يكون آخر الفاتحة هو العبادة والاستعانة والهداية وهو
أقرب إلى ماجاء في الجلوس بين السجدين من طلب الغفرة على التنصير في تلك العبادة وفي الانحراف عن
صراط الدين أنهم عليهم ، والاقتراب من صراط غير النعم عليهم والضالين ؟ إذن هذا الدين الإسلامي إنما تظهر
ثمراته في أمم بعدنا وهذا يكون بأحد أمرين : إما أن يرتقى أبناء للسلمين متى قرءوا أمثال هذا التفسير ، وإما
أن ينشر في أمم أرقى من هذه الأمم ، فدين الإسلام لن يبقى كما هو الآن ، وإنما هو دين أمم ذوي عقول
غير هذه العقول ، هو دين أمم يجالون الحكمة ويفرحون بالعلم وتكون هذه الدنيا كلها كتابا يقرءونه .

هذا ما فهمته في صلاة العصر يوم الأربعاء ثاني يوم من شهر شوال ، سنة ١٣٤٧ هـ الموافق (١٣) مارس
سنة ١٩٢٩ م وكتبته عقب الصلاة وقد جاء في (مجلة الجديد) مانعه :

الإنسان آلة ميكانيكية عجيبة

(إحصاء حركة أجزاء الجسم)

ليس في الأمر غلو ولا مبالغة فإن هذه البيانات التي تقدمها هنا لك ستدلك على القوة الهائلة التي ينطوي عليها الجسم البشري لجسم الإنسان يحتوي على (٥٠٠) عضل وهذه العضلات تقوم بتسيير ١٥ كيلو جراما من الدم لتغذية هذه الآلة ومحركها الرئيسي أي (القلب).

والقلب وقطره لا يزيد على (١٥) سنتيمترا ، ينبض في الدقيقة الواحدة (٧٠) مرة و (٤٢٠٠) مرة في الساعة و (٣٦٧٩٢٠٠٠) مرة في السنة: وفي كل مرة من هذه اللرات يقذف القلب في الشرايين الصغيرة (٤٤) جراما من الدم أي مايلغ في اليوم الواحد (٤٤٣٥) كيلو جراما ، وجميع هذا الدم يمر (٣) مرات في الدقيقة . وتحتوي الرئة في الحالة العادية على خمسة لترات من الماء ، ويتنفس الإنسان بها (١٢٠٠) مرة في الساعة وهي تنقى في أثناء هذه الفترة (٦٠٠٠) لتر من الهواء فتغذي بها الكرات الحمراء الموجودة في الدم وتعدده بالفيتامين . أما البشرة أو الجلد الذي يغطي اللحم والعضلات والأعضاء الخارجية فتتألف من ثلاث طبقات يتراوح سمكها بين (٣) و (٦) مليمترات وكل سنتيمتر مربع منها يحتوي على (١٢٠٠٠) من اللسام التي تفرز العرق النقي . عن تأثير حرارة الجو . تم الكلام على اللطيفة الأولى .

(اللطيفة الثانية: في قوله تعالى «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم

وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين)

جاء في هذه الآية خلق السموات والأرض ثم تخصيص [أمرين] الألسنة والألوان بالذكر ، إن الذي يسمع هذه الآية لأول وهلة يقول لا حاجة في معرفة اختلاف الألسن والألوان إلى علم ، فما الداعي إذن لتخصيص العلماء ؟ مع أن ظواهر الألوان معروفة للجاهل والعالم بل الدواب تعرف اختلاف الألوان وتميز الأشجار والزرور بعضها من بعض ، فهذه للعرفة إذن ليست خاصة بالعلماء بل هي عامة لجميع المخلوقات فهي آيات للعالمين بفتح اللام وليست خاصة بالعالمين بكسرها .

هذا ما يتبادر للذهن ولكن عند النظر والفهم يرى الإنسان أن العامة في نظرم إلى هذه الألوان لا يجحدون فيها حكمة ولا علما فهم ينظرون لاختلاف الألوان نظرم لاختلاف مذاق الأغذية من حلو و مره و حارة و باردة ، وهذه وتلك لا تهيج فيهم هم ولا علماءهم معرفة الله ولا حب العالم الأعلى . إن معرفة الجاهل باختلاف الألوان معرفة جاهلة بديل أنها لا أثر فيها للتذكرة ولا للبرة ولا الحكمة فإن الجهلاء في كل أمة يعيشون ويموتون ولهم ألوان و زروعهم ولأمتهم وهم يرون نور الكواكب ساطعا عليهم ونور الشمس والأقمار وهم أموات في نهر الحياة همي أمام أهبج الجمال ، صم أمام أهمل النضات هؤلاء هم الجهلاء وصغار العلماء في الأمم كلها مسلمين وغير مسلمين . نبحت إذن عن سر هذه الآية من باب آخر عسى أن نجد مخرجا ونعرف بعض سرها ، وههنا أذكرك أنها الذكي بما سر في (سورة المؤمنون) عند قوله تعالى «وما كنا عن الخلق غافلين» فانظر هناك محابب اختلاف الألوان وأنها موضوعة بحكمة والذي عرف الحكمة هم علماء خلقهم الله في أرضنا صرفوا أعمارهم في بحث هذه الألوان هل هي مخلوقة لمجرد الصادقة العمياء أم هي موضوعة لغايات محققة ؟ فهناك ترى :

(١) الحيوان الذي رآه بعض العلماء الثريين في حديثه لما أخذ يسقطه بالبراة في جرة مملوءة ماء وملحا

وأخذت تلك الحشرات تتساقط وتقبض وتنقلع بشكل يضاوي وتصيح أشبه بالحصوات البتلة وكما تقلعت واحدة منها صارت في أقرب من لمح البصر كحصاة سوداء، من الصوان منشقة نصفين صفراء من الداخل كالحصوات هناك فصار هذا العالم لا يفرق بين الحصوات في حديقته وبين تلك الحشرات إلا بشق الأنفس بحيث يحتاج إلى أن يجربها بطريقة العس ، أما حاسة النظر فإنها لا تجر وإنما العس بالمبرة هو الذي كان الطريق الموصل لتمييز الحشرات من الحصوات فأخذ يبحث فما كان ليبحث في تلك الحصوات إلا على القليل من تلك الحشرات فهناك وثق ذلك العالم بأن هذه الألوان مقصودة لإضلال الطيور الآكلة لهذه الحشرات لأنها إذا قدرت أن تتغذى هو فهي على غش الطيور الآكلات لها أفدر .

(٢) ثم انظر هناك (حشرة العصا) فهي بتشبهها بالعصا أمنت من الخطر .

(٣) وهكذا (السوس) التي أعطى قوة الانسكاش عند مسه فلا يفرق الانسان بينه وبين كتل الطين والحجارة في الأرض .

(٤) وهكذا الحنافس التي تشبه حب نبات خاص .

(٥) وهكذا الفراش الذي يقع على الشجر وقد نشر جناحيه الأسمرين الكبيرين اللذين يشبهان الورق الجاف في شكله ولونه (انظر شكل ١٣) من صور المجلد الحادي عشر .

(٦) وهكذا تلك الحشرة التي تبيض أجنحتها حينما تقع على الشجرة فتري كأنها هي نفسها قطعة من عصا مكسورة وفي نهاية الجناحين رقعة صفراء مشابهة لطرف عصا مكسورة حديثا (انظر شكل ١٤) من صور المجلد المذكور .

(٧) وهكذا ترى في (شكل ١٥) من تلك الأشكال هناك في نفس السورة صورة دود الفراش الذي خلق مزوقا بزويق غير جميل وهو ظاهر يمتاز بتبينه الطيور الآكلة للدود ولكنها لا تأكله ؛ ذلك لأن الذي معناها عن أكله إنما هو كراهة طعمه فهو لما كان طعمه مكروها حفظ من الملاك واستبان وظهر بهيته لأعداء الدود وما حفظه إلا لعلمها بأن طعمه غير مقبول فلو كان طعمه غير كرهه لاقتضت الحكمة أن يحفظ بحفاظ آخر وهكذا من الأمثلة المذكورة هناك التي بلغت (٣٠) عدا وآخرها صورة حشرة أبي دقيق التي تقع على شجرة البقدونس (انظر شكل ١٦) هناك فانك لا تجد فرقاً بين ظواهر شجر البقدونس وبين تلك الحشرات هذا ما تقدم هناك فافترأ لتفهم قوله تعالى « وما كنا عن الحقائق غافلين » وتفهم ما هنا وهو قوله « إن في ذلك آيات للعالمين » بكسر اللام ومن هذا يستبين لك أيها الذي أن هذه الآيات لا يعقلها ولا يتأثر بها بحيث تصيح يقينا عنده إلا العلماء الدارسون لها أما غيرهم لا يكون دليلاً عنده لأنه لم يدرس الحقائق ولا تنظن أيها الذي أني أفت بك عندما كتبت هناك منقولاً عن الكتب الإنجليزية . كلا . وإنما ذكرت ما تقدم لأجعله كالمقدمة لما سترام هنا من العجب العجيب والسحر الحلال والجمال والنور والعرفان والبهجة .

وستشعر بعدما أسمعك ما أكتبه الآن بأن العلم لا حد له وأن هذه العجائب هي مقصود القرآن الشريف وستعجب من القرآن وكيف يذكر الله فيه العلماء ويخصهم بمعرفة الآيات في الألوان ثم لا يظهر ذلك إلا في زماننا هذا وستتبع كما انتهجت أنا وبتشرح صدرك بالعالم والعرفان التي لا تدهن تفوقها في هذه الحياة . إن كل مخلوق لا كمال له إلا فيما هو خاص به وكالفرس في الجرى والسكر والقرو كالسيف أن يكون مرهفاً فإن زلزالاً عن مستواها استعمال الأتقان في حمل الأثقال واستعمال الثاني استعمال السكين ، هكذا الإنسان لا كمال له إلا بالعالم وفيه لذته الخاصة به ، ومعنى علم أدرك جمال نفسه وهناك يرى قبل الموت أنه هو عالم جميل مشرق وأن هذه الدنيا نفسها ليست هي تلك الدار المملوءة بالأكدار والأحزان بل يرى الحكمة متجلية

في الجليل منها والحقير وتتوارى أمامه أنواع البحوس ويشرق هذا الكون له وتبسم له الكواكب والشمس والقمر ، وهناك يرى في كل ورقة وزهرة وحشرة جمالا ونورا ويصبح هذا الوجود في نظره جنة عرفان ونور وبهاء ، إذ تحس نفسه بجمال مجمله الناس حوله وهم غافلون وهذا قوله تعالى « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

وهاهنا حضر صديق العالم الذي اعتاد أن يسألني في أمثال هذا المقام فقال . ماذا أعددت لهذا المقام غير ما تقدم في (سورة المؤمنين) ولم أجد لك إلا مقالا أشبه بالفزل وإظهار السرور بالعلم فما الذي عندك فوق ما تقدم هناك ! لقد ازداد شتيا في لساعة وهل فيه صور أجمل وأبهى مما تقدم ؟ فقلت إى وربى إنه لحق . فقال أسرع برد جواب ما أنا باحث عنه فإر العلم ذات تشعشع

فقلت لقد علمت فيما تقدم أن الحيوانات حفظت من الهلاك بمشابهتها لما حولها من ورق و زهر قال نعم ؛ قلت فهاهنا سترى أعجيب وأبداع ما عرفه العقلاء في حسن تخلص الحيوان من الهلاك بنفس الألوان ، فهاهنا تقرأ كلام العلامة (الفرزدق ربه لى ولاس) في مقاله المذكور في المجلد الثاني في كتاب [علوم للجميع] . فقد أخذ يبحث في حيوانات الأقطار الاستوائية فدلته اختباره أن في ألوان الحيوان عجيبا لم يكن ليخطر ببال العقلاء . ذلك أن منها ماله صفة تلازمه وبها تتحاماها للهلكات ويتخطاه الردى ويعيش قرر العين في الغابات وفي نفس الأمكنة التي يعيش فيها ذلك الحيوان يعيش معه حيوان آخر لا يتصف بصفته التي بها تهاه الحيوانات الآكلة ولكنه يكون محفوظا من الهلاك مثله لأنه خلق مشاكلا له في ظواهر الشكل واللون وبهذا يحصل انتصاد في هذه المخلوقات وهذه تسمى [الحماية بالتقليد] .

فقال ظهر من هذا القول أن الحيوان من حيث التقليد على (قسمين) : حيوان له سلاح بحميه ، وحيوان آخر لا سلاح له يعيش معه ولكنه يشبه في اللون أو غيره ويحمى من الهلاك بهذه المشابهة . فقلت نعم هذا ما خصه . فقال زيد أن نعرف نوع الحيوان الذي له سلاح والحيوان الذي حمى بمشابهته له . فقلت الحيوان الذي يحفظ من الهلاك بسلاحه وغيره يحفظ بسبب مشابهة له في الصورة أهمه حشرة (أبي دقيق) وقد يكون ذلك في (الحنافس) وحشرات أخرى وفي الزواحف والطيور . فلنبدا بالكلام على حشرة (أبي دقيق) .

(حشرة أبي دقيق)

يقول الكاتب : إن في حشرات خط الاستواء كثيرا من حشرة (أبي دقيق) وهي مختلفات أشد الاختلاف في الحجم والصورة واللون وفي طريق الطيران . فبعضها يطير بسرعة مدهشة وبعضها يطير على طريق التمرح والتلوى ، إذ يرسم في طيرانه في الهواء خطوطا متكسرة وكثير منها قد ظهر بألوان بهجة بديعة تشر العاطرين وجمهور كبير منها يكون دائما قريبا من الأرض ولا يعلو في الجو وهو بطيء الطيران ومنها أنواع مزينة بزينة الألوان البديعة في غير ظاهرها وقد لون ظاهرها بلون الرخام الأسود بحيث لا يميزها من رآهلوقعت على ورقة أو غصن من أغصان الأشجار ، ثم خص أنواعا ثلاثا بالذكر من حشرة أبي دقيق وهي : (دائبة) و (هيليكونيدا) و (أكريدا) وليرمز لهذه الثلاثة بهذه الحروف (د) و (ه) و (ك) فهذه الأنواع الثلاثة لهذه الأسماء تظهر في مكان فتظهر أنواعها وأصنافها لا تحق وهي ظاهرة الجمال واسعة فلا لونها حتى تحتفظ من الهلاك ولاطيرانها سريع حتى تنجها من الخطر ؛ بل جمالها الباهر ولونها ظاهر يصحبها الكسل في الطيران وعدم الارتفاع إلى الجو وعدم السرعة ولم يظهر لها أى صفة من الصفات التي تحقق به الحيوانات عن العيون وألوان أجنحتها السفلى مشابهة تمام المشابهة لألوان أجنحتها العليا ، وبالجملة لم يظهر فيها أى دليل يدل على قصد الاختفاء وهذه الأنواع الثلاثة كأن بينها تحالفا عجيبا أو كأنها أصناف لنوع واحد من حيث الصفات وأهم صفاتها التي سفا

الكلام لأجله هي رائحتها التي تسلطها على أعدائها ، فهذه الرائحة مطردة في هذه الأصناف الثلاثة ومق وقع واحد منها بين أصابع سائده يلقى عليه حالا سائلا أصفر فذرا له ريح كريهة حادة حريفة فتلوث جلد سائده بأقبح المستفدرات ، وهذه الحال قد علمت فيما عاش منها في جنوب أمريكا وهو الذي رمزنا له بحرف (هـ) وفيما عاش منها في أفريقيا وهو الرموز له بحرف (ك) وفيما عاش منها في قارة آسيا وأستراليا وهو الرموز له بحرف (د) فيما تقدم .

فهذه الأنواع الثلاثة في هذه القارات الأمريكية والأفريقية والآسيوية والأسترالية كلها ذات صفة واحدة فذلك سميها متحالفة ، فهذا السائل الأصفر الحريف الحاد كريه ومؤذ للطيور ولكل حيوان يصيد الحشرات وعلى ذلك تكون هذه الأنواع الثلاثة من حشرة (أبي دقيق) في مأمن من هجوم الهلكات عليها بخلاف غيرها من سائر أصناف حشرة (أبي دقيق) الأخرى .

ومن العجيب أن هذا السائل الحريف الكريه الرائحة لا يختص بالحشرة التامة بل يكون في دودها الصغير فلا يقربه قاتص كما لا يقربها . إذن هذه الأنواع الثلاثة في أمان وقد أصبحت معلومة لكل ماحولها من الحيوان فأمنت المهاجمة وظهر لها علم براه من بييد ما يريد مهاجمتها فلا يقدم عليها وذلك العلم هو صورتها الظاهرة ولونها البهيج ونوع طيرانها الذي يدل على عدم الاكتراث بما حولها ولذلك رُدحم بها الغابات ويقل من حشرات أبي دقيق الأخرى .

ثم إن النوع الممنون له بحرف (هـ) في جنوب أمريكا والممنون له بحرف (د) في جزائر اللابو نراه في كل مكان هناك ويندر سواء من حشرات (أبي دقيق) وفي بعض الجهات لا يكون سواء ، ومن أعجب العجائب أن هذه الأنواع في تلك القارات لما أصبحت حشرة طليقة تملأ الأماكن لا يغلو منها مكان اتخذت العناية الإلهية تلك الأسلحة التي تستعملها تلك ذريعة لحفظ حشرات من أنواع أخرى من (أبي دقيق) بأن تجعلها على هيئتها فتحامها الهلكات وتتوارى عنها للزحجات وتخافها المهاجمات .

قد قلنا فيما تقدم إن (هـ) تكثر في قارة أمريكا وقد كان الذي علم من أصنافها سنة ١٨٧١ م (٤٠٠) صنف وبعدها بسنين بلغ ما عرف منها (٥٠٠) وهذا كما قلنا آمنة من المهاجم فكثرت جدا وهي مختلفات في اللون ، فمنها الأسود ، ومنها الأزرق ، ومنها المحلى بالصفرة والبياض ، ومنها مازوق محمرة وصفرة ، ومنها ما هو أصغر منقط بالصفرة وهكذا من بدائع الألوان ، ولكن الأمر الذي يدهش اللب أن يرى العلماء أن صنفا من حشرة أبي دقيق يسمى (ليبتلير) ورمز له (ل) يرى في مظهره أشبه بما رمزنا له بحرف (هـ) ولا يشابه من هذا الصنف إلا ما كان معه في مكان واحد بحيث يتشابهان وهما طائران تشابهان تماما وذلك عند نهر (تاجوس) (انظر شكل ١) في الصحيفة التالية .



(شكل ١ حشرة أبي دقيق السهام «ليبتيليز» التي عند (نهر تياجوس) الأهل هو الوزير
لا سلاح له ، والأسفل هو الأمير ذو سلاح)

وهذه بخلاف الحشرة الرموز لها بحرف (ل) التي عند أعلى (وادي الأمزون) فان الحشرة (هـ) ذات
الخطوط والنقط الحجر البرتقالية قد انصفت بنفس وصفها الحشرة التابعة لها الرموز لها بحرف (ل) وفي أعلى
الأمزون ترى الحشرة الرموز لها بحرف (هـ) التي تحمل السائل الأصفر ذات لون أسود بسمرة مع خطوط صفر
تبعها نوع من الحشرة الرموز لها بحرف (ل) الحالية من تلك المادة وقد تشابها في الحجم واللون والخطوط
(انظر شكل ٢) .



(شكل ٢ - حشرة أبي دقيق التي تعيش في أعلى (الأمزون) لا سلاح له والأهل هو الوزير
والأسفل هو الأمير ذو سلاح)

فهذان الشكلان الطائر الأسفل في كل منهما نلقبه باسم التبوع أو الأمير أو الأعلى منهما نلقبه باسم التابع أو الوزير ، فالأول يملك السلاح في كل منهما والثاني لا يملك ولكن بالمشابهة حفظ من الهلاك ، ثم إن الحشرة الرموز لها بحرف (هـ) وهو للتبوع أو الملك الكبير الحجم اللون بالسواد والصفرة مع بهجة الجمال في المظهر يصحبه في الهيئة المذكورة واللون الحشرة الرموز لها بحرف (ل) أيضا وفي كل من الغامبين يتبع الوزير أميره في مظهره بلا فرق (انظر شكل ٣) .



(شكل ٣ - حشرة أبي دقيق في بلاد أمريكا أيضا الأمير أسفل والوزير أعلى)

هذا ما علم في بلاد أمريكا ، أما بلاد أفريقيا فان فيها النوع الرموز له بحرف (ك) فيما تقدم بكثرة أصنافا وأفرادا والنوع الآخر أفرادا ولكن أصنافه قليلة . فهذا النوع قام في أفريقيا مقام الرموز له بحرف (هـ) في جنوب أمريكا ، فتم وضعت أحد أفراد هذا النوع بين أصابعك سلح تلك المادة الصفراء الحادة الحريفة المتينة فلوث الجلد فترميه حالا من يدك وعلى ذلك يكثر في تلك الأقطار وله تابع أو وزير كالذي حصل في الرموز له بحرف (هـ) في أمريكا وهذه صورته (شكل ٤) :



(شكل ٤ - حشرة أبي دقيق التي تعيش في أفريقيا وهي تكثر بجارية المسائل الأصفر الذي تلوث به من يحسبها فالأعلى هو الوزير والأسفل هو الأمير)

فالأول من أسفل هو الأمير والثاني من أعلى هو الوزير أو هما التبوع ، والتابع والتبوع هنا هو الرموز له بحرف (ك) كما تقدم وهذا النوع يعيش في شرق أفريقيا . وأعجب ما علم في أفريقيا حشرة تسمى (بيلو) إذا قلت الحشرة المسماة (دائر) (انظر شكل ٥) :



(شكل ٥ - حشرة (بيلو) التي قلت الحشرة (دائر) بقارة أفريقيا)

فترى الجناحين مستطيلين مسودين فيما تقط كثيرة إما زيتية وإما بيضاء في مقدم الجناحين ، أما مؤخرهما فقد زين بنطاقين عرضيين زيتيين . وترى في جنوب أفريقيا نوعا آخر شديد السواد يعيش في أماكن مختلفة هناك (انظر شكل ٦) .

وهذا أكبر شكلا وأبهى وأشد سوادا محلى ببقعتين كبيرتين جدا شديدتي البياض تشغلان أكثر من نصف الجناحين والأعلى هو الأمير أو اللبوع والأسفل هو التابع الذي لا يكاف حمل السلاح والأمير يملك تلك المسادة الصفراء القذرة الرائحة الخ وهذا أمر أعجب وذلك أنك ستري في الشكل السابع والشكل الثامن أمرا عجيبا ، فأما الشكل السابع فإن الأعلى منه الذكر والأسفل هو الأنثى من الحشرة السامة بابليو (انظر شكل ٧) :



(شكل ٦ - حشرة أبي دقيق شديدة السواد بأفريقيا)

ومق تأملت شكل الذكر وشكل الأنثى وجدت في مقدم جناحي الذكر بهجة اللون الأزرق اللامع المعدني المحلى بالنقط البيض الضاربة للزرقة . أما مؤخر جناحيه فأنهما سوداوان يضمران إلى السمرة أما الأنثى فأنها تخالف الذكر كثيرا فأنك ترى مؤخر جناحيها محلى بخطوط بيض ضيقة لامعة من الجسم ويقاطعها صف منظم من النقط البيض اه ههنا وصف الذكر والأنثى في هذا الشكل اللذين عريا من السلاح الذي يطردان به ما يريد إهلا كهما وقد أشبهنا في ذلك ماله سلاح يطرد به الأعداء . وذلك هو السائل الحاد الأصفر ذو الرائحة الكريهة كما تقدم وهو مافى هذا الشكل الثامن (انظر شكل ٨) .



(شكل ٧ - الأعلى هو الذكر والأسفل هي الأنثى وهما في صناتهما عجيبان بمشابهتهما للذكر والأنثى في (شكل ٨) الأعلى هو الذكر والأسفل هي الأنثى يعيشان في ملقا وفي بورنيو)

فهذا ذكر وأنثى في الشكل الثامن منعا هذا السائل القذر فأخافا كل حيوان يريد بهما سوءا فأعطى الذكر والأنثى في الشكل السابع كل الصفات الظاهرة في الذكر وفي الأنثى هنا حتى يكون ذلك سببا في بقائهما تبعا لماله سلاح وهذا عجب عجاب أن يكون شأن الألوان والأشكال محكما بهذه العناية البديهة العجيبة .

الذكر والأنثى في الشكل السابع لا قوة لهما على دفع الأعداء أو الحرب فلذلك أعطيا معا هذه المشابهة اللونية ليفرا من الهلاك . كل ذلك كنت أكتبه وصاحبي العالم يظن



(شكل ٨)

إليه ! فما قرأ هذا قال أقول بلا دليل ، أفرأيت إذا كان في المخلوقات ذكر ذو قوة وبطش وله قدرة على الحرب ولكن أتمه ضعيفة لاقدرة لها على الحرب من الأعداء فهل كانت هذه للشابهة تختص بها دون الذكر ؟ إذا رأينا ذلك أيقنا أن العناية التي نظمت هذه الأجسام ترى دقائق الأمور كما ترى جلالها ويتساوى عندها العظيم والحقير . نعم إن في مشابهة الزوجين في الشكل الساج للزوجين في الشكل الثامن دليلا ظاهرا وبها عاشا قررى العين كثيرى النسل سميدى فى (بورنيو) و (ملقا) وغيرها ولكن مخالفة هذه القاعدة فى المشابهة وقصرها على ما يحتاج إليها يكون أوفى وأتم وإذ ذلك نعرف معنى كون هذه العجائب آيات للمعلماء بها لمعرفة الصانع وبدائع حكمته . فقلت له قد كان ماقلتة حاصلًا . قال وكيف ذلك . قلت (انظر الشكل التاسع) :



(شكل ٩ - الأعلی هو الذكر والأوسط من الأنثى ونعت الأنثى (حشرة دانيز) وهي ذات السلاح
ومعشابهة الوسطى لها صارت محبة من الفتك بها)

فانظر إلى صورة الذكر فهي سوداء عملاء بأربع بقع بيضاوية الشكل بيضاء واضحة عملاء حاشيتها بزرقه
رجاجية تسر الناظرين ، أما الأنثى فهي مخالفة له من حيث إنها ملونة بالسمره البرتقالية المحلاة فى حواشها
بالسواد والبياض وبخلاف أبيض يمتزج القمعة السوداء من داخل الجناح ، فهذه الأنثى خالفت الذكر من نوعها

وواقفت في لونها حشرة أخرى من غير صنفها والسبب في ذلك أن الذكر سريع الطيران وهو دائما يلو في الهواء مرتفعا. أما الأنثى فإنها بطيئة الطيران، بل هي في أكثر الأوقات لا ترحم مكانها من الأرض إلى الهواء. ولما كانت هذه الأصناف تعيش في الأرض المراء بعيدا عن الغابات وكانت الأنثى منها لا بد لها من أن تضع بيضا على ورق الأشجار كان ذلك مع تقدم معرضها للخطر. لذلك اقتضت الحكمة أن تلون الأنثى بيون الحشرة الثالثة التي أعطيت السلاح الخيف فصار ذلك السلاح حماية لجامله وهية لما يشا كله « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

قال صديقي العالم : إن هذا العجب عجاب : لقد أقتنى هذا البيان وأنا به من المعجبين . وبهذا انتهى الكلام على حشرة أبي دقيق ، فلنتسرع في الكلام على الزواحف فنقول (انظر شكل ١٠) :



فهذا الشكل يحوي (ثعبانين) أحدهما وهو الرموز له برقم (١) ثعبان من ثعبانين بلاد أمريكا السامة والثاني هو (٢) مقلده ولا سم له فنجبا بالمشابهة وهذه الثعبانين رءوسها يضاوية الشكل أهليلجية وأجسامها محلاة بخوائم أو حلقات تحيط بها من رأسها إلى ذيلها . وهذه الحلقات منها السود ومنها الحمر أو الصفر وبها يكون الثعبان يديعا بهجا ويمتاز عن غيره من الثعبانين وهذا أشبه بلم يحمله الثعبان منذرا كل حيوان يهاجمه أن ارجع فاني أنا صاحب السم وإذن تكون تلك الزينة حافظلة لنفس هذا الثعبان ولما يريد تصده بسوء ويتبع ذلك أن مقلده في ذلك وهو الثعبان رقم (٢) صار حركه كحركه فلا يهاجمه مهاجم وهو يأمن أهلاك . فتمرة (١) هو الملك وتمر (٢) هو الوزير وهذا الثعبان الذي سمينه وزير لا سم له في فسك، فأما تمر واحد فهو صاحب السم القاتل لحفظه من الهلاك وحفظه مشابهة في تلك الهيئة العجبية « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

يقول الكاتب الإنجليزي . وكان أن حشرة (أبي دقيق) التي خلت من سلاح المقاومة وهو السائل القدر ذو الراحة الحادة بمشابهتها في شكلها لما أعطى هذا السلاح نجت، هكذا نجما هذا الثعبان الذي لاسم له بمشابهته للثعبان الذي عرف بأنه سام . إن في (أمريكا) نوعين أو ثلاثة أنواع من الثعبانين التي لاسم لها وقد نجت بمشابهتها بماله سم منها وتلك المشابهة لها طرق مختلفة وقد عرف منها نحو ثمانية أنواع بها تقلد اللاني خلت من السم الثعبان الذي له سم .

وهذا الذي في (شكل ١٠) المتقدم نوع منها ، فالثعبان تمر (١) يعيش في بلاد المكسيك على بمناطق عريضة سود فوق لون الحمره وكل منطقة منها مقسمة إلى ثلاثة أقسام بخوائم صفر ضيقة وهذه الأوصاف كلها قد تحلى بها الثعبان الذي لاسم له تمر (٢) .

ثم قال [نحن ليس في قدرتنا أن نورد ما هو أكثر غرابة وعجبا « من حيث الألوان اللندرة للأعضاء بظهورها ودلالتها على الخطر الذي يجانبها وحمايتها ماقلدها مما لاسلاح له » من الذي أوردناه من الكلام على الثعبان الأمريكية في هذا المقام] وبهذا انتهى الكلام على الزواحف وتقليدها إضفاء الخطر .

﴿ الكلام على الطيور للقلبات لتتقى الخطر وهي خاتمة الأقسام ﴾

(انظر شكل ١١) فالطير الأعلى على صورة الطير الأسفل وهذا الأخير ويسمى (فيلدين) عادة له جماعة كثيرة العدد قوية البأس فإذا اعتدى على واحد منها معتد اجتمعت تلك الجموع العظيمة وأوردته للهالك ولو كان المهاجم هو الصقر فما بالك بالفراب (انظر شكل ١١) .



هذا ما أردت تلخيصه من كتاب (علوم للجميع) المؤلف باللغة الإنجليزية في تفسير قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام .

ها هو ذا أيها المسلمون هو السر الذي ظهر اليوم في الأرض ، وعرفه الناس في اختلاف الألوان .

﴿ خطاب للمسلمين ﴾

(شكل ١١ - الطير الأعلى هو الوزير والأسفل هو الأمير ، الذي سلاحه أن له جماعة عظيمة تفنك بمن يقصده بأذى لحفظ الأعلى بمشاكلته)

أيها المسلمون . هذه الطيور وهذه الزواحف وهذه الحشرات التي رأيتم الأعاجيب فيها قد نقشها الله وزوقها تزويقا يظنه الجاهل لمجرد الزخرف والزينة ولكن العلماء هم الذين بحثوا حتى عرفوا أن الأنواع الثلاثة الممتازة من

حشرة (أبي دقيق) قد وهب الله لها هذا السائل القدر السكريه الرائحة لتعمر الغابات في أفريقيا وآسيا وأستراليا وأمريكا ، وقال لها تمتعي برياضي وارتمى في جناني أيها المخلوقات . ثم خلق أصنافا أخرى وجعلها في كنفها وتحت حمايتها ، ولكنها هي لا تعلم أنها حامية ولا الأخرى تعلم أنها تحت حمايتها . ههنا يعرف العقلاء تخصيص الذكور بالعلماء .

هنالك قال لي صديق العالم : ههنا حق لي أن أناقشك ، أولا : كيف ضاقت الأرض بما رحبت فلم تجد في تفسير الآية إلا كلام الفرنجية ؟ ، ثانيا : ما المفارق بين عجائب الألوان في (سورة المؤمنين) عند آية «وما كنا عن الحاقق غافلين» وبين عجائبها هنا ؟ ، ثالثا : ما الفوائد العلمية المترتبة على فهم هذه العجائب ؟ ، رابعا : ما الفوائد العملية للمسلمين ؟ .

قلت له : هذه الأسئلة التي أوردتها يظهر لي أنك أردت بذلك إيضاح للقيام لأهل العلم في الإسلام وإلا فما معنى قولك في السؤال الأول « كيف ضاقت الأرض بما رحبت الخ » إلى موقن أنك عالم أن العلم أمر مشاع بين الأمم ، فالفقه الذي عمهم بالماء والهواء وضوء الشمس والغذاء ، ورحمهم جميعاً هو الذي علم من يشاء العلم منهم ولم يقل أحد من علماء الإسلام أن العلماء مختصون بالمسلمين ، وأنت تعلم أن المسلم أيبحث له الفتناء من مال ومن نساء وغيرهما ، ولا جرم أن مال السكتاني حلال إذا جاءنا في الفتناء ، ومثل المال التفتيح بعكك العينين من هذه الطائفة لاخلاف بين المسلمين في ذلك . فقال هذا حق . قلت : فهل يبيح الله لنا الأموال والأعراض في الفتناء من القوم وبجرم علينا العلم ، العلم علو للنفس وشرف لها ، وللمال والذوات من مال إليها وقتته

ذلك وهلك ، والقرآن كله بدم ذلك ، أما العلم فهو مرغوب ممدوح ، فكيف نستبيح المال ونحرم العلم والنبي صلى الله عليه وسلم حذرنا من الفتنة والوقوع في الهالك من أجل الغنائم والافتنان بها كما تقدم في سور كثيرة فاقراء في (سورة النمل) عند آية « إن الملوك » الخ ونحوها . إن هذه العلوم قد استثارها آباؤنا في القرون الأولى ومنهم أخذ أهل أوروبا ، فإذا رأينا القوم قد كسوا تلك الأمانة بحمل ، جميلة وأمكنا أن ترجعها جازلنا ذلك بل وجب علينا وهول هذه بضاعتنا ردت إلينا - ها نحن أولاء في القرن العشرين نظرننا فوجدنا أننا الإسلامية في مجموعها قد انحرفت مئات السنين ونامت ، أفلا يجب على أنا وعلى جميع من هم مغمومون بأمثال ما نكتب الآن أن يبينوا للناس مزايا ديننا ؟؟ فقال لي : أهذا واجب عليك وجوبا عينيا ؟ قلت نعم . قال وما البرهان له ؟ قلت إن هذه العلوم كلها واجبة وجوبا كفاييا والأمة إذا لم يكن فيها أناس يكفونها ما تحتاج اليه وجب عليها أن تربي من تحتاج اليه بمقدار ما تحتاجه ، ومتى قصرت نزل بها القدر والموان ، وهذا هو الحاصل الآن ، فالذي يحق بالأمم التي أهملت أي علم أو أي صناعة تحتاج إليها ، واللسلون حاق بهم الموان لإهمالهم ذلك . ولقد قال علماؤنا « من وجد في نفسه استعدادا لعلم كعلم الفقه وجب عليه أن يتقنه » يريدون وجوبا عينيا ، فالعينية هنا جاءت من الاستعداد ، فكل من عرفوا ما أكتبه في هذا التفسير ، وكانوا قادرين على أي علم أو أي صناعة ثم ناموا عن ذلك عوقبوا لأنهم يعلمون . فقال : إذن صار ذلك كالحج قلت : كلا . الحج واجب عيني على كل من استطاع اليه سبيلا ، أما هذه العلوم والصناعات فالأمة مكلفة أن تعين جماعة تراهم أهلا لها وإلا عوقبت الأمة كلها ، ولذلك قال إمام الحرمين كما قلناه مرارا « إن فرض الكفاية أفضل من فرض العين لعموم نفعه إذا كان وعموم ضرره إذا لم يكن » وعلى ذلك يجب على المسلمين أن يقرؤا علوم الأمم كلها . إن الله عز وجل قد أحاط المسلمين بالمتنذرات من جهة ، وبالعلوم من جهة أخرى وسهل لهم حبلها فإذا أعرضوا عنها فهم غير شاكرين وهذا هو كفر النعمة وكافر النعمة بمقوت . إن الله فتح أبواب العلم للمسلمين اليوم فليلجوها . وأما قولك « ما الفارق بين عجائب الألوان في سورة المؤمن وبين عجائبها هنا ؟ » فأقول العجائب هناك قد أشرت لها في أول هذا المقال ترجع إلى أن الحيوان يشاكل ما حوله من شجرة أو ورقة أو زهرة أو يكون كعصا مكسورة ، فالحيوان بهذه المشاكلة يفش ما يفترسه فيعيش بهذا الإيهام ، أما الذي هنا فإن الحيوان يشاكل حيوانا آخر لا نباتا ولا ورقا ، هذا هو الفرق بينهما وكلاهما إبداع في التصوير ، وإغراب في الإبداع ، وإحسان في النقش ، وتفنن في ضروب الجمال والسحر الحلال « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

أما السؤال الثالث وهو « ما الفوائد العلمية المترتبة على ذلك ؟ » فهذه الفوائد غير خافية عليك ، فانظر رعاك الله إلى علم لم يكن عند الأمم فأصبحنا ندرس علم التوحيد دراسة لم يعلم بها السابقون . الله أكبر . هل يبقى عند أحد شك في أحسن الإبداع والنظام لما هذا التفنن والتصنيف والإغراب في الخلق وضروب الحكم . هل يبقى بعد هذا زيادة لمستزيد ؟ ألم تر نقوشا سودا وحمرا وصفرا في الثعبان ، وقد شاكل الأعرل من السلاح صاحب السلاح فنجنا من الهلاك ، ألم تر الطير الذي لا أقارب له تساعده على القتال قد لون بلون ماله أولئك الأقارب فنجنا بنفس هذه المشاكلة ، ثم كيف تلون الأنتى من حشرة (أبي دقيق) بتلك الألوان البديعة التي تشبه أثواب أغنى العانيات في بلادنا المصرية من حيث التطريز والإتقان ؟ أما ذكرها فلا لأن هذا اللون وضع لها ليحفظها بمشاكلتها لما له سلاح وهو السائل السكريه الرائحة ، ثم كيف رأينا النحسور والأنتى اللذين لا قوة لهما على قهر عدومهما من تلك الحشرات قد شابهها الذكر والأنتى بما له سلاح وقد حفظا بتلك المشابهة ، وهل يعرف المسلمون معنى قوله تعالى « أفمن يعلم أن ما أنزل إليك

من ربك الحق كن هو أسمى « إلا بأمثال هذا ، لم يقل الله أفمن يؤمن بل قال « أفمن يطمع » أليس هذا هو العلم ؟ نعم العلم أفضل من الإيمان وأعلى ، يقول الله تعالى « وقال الذين أوتوا العلم والإيمان « الع ، وقال تعالى « برفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات » وهذا هو الزمان الذي يتحتم فيه العلم .

إن للسليين الذين يكتشفون بالإيمان مغرورون ، أليس هذا هو العلم ؟ نعم بمثل هذا يوقن السلم إيقانا لا يتوره شك .

أما قولك « ما الفوائد العملية ؟ » فأقول : إن العلم دائما يعد العمل ، والأمة التي لا علم عندها لا عمل لها . اعلم أن الله عز وجل جعل هذه الأرض من العوالم التي ليست متقدمة ، ومع هذا قد جعل فيها نفوسنا من عالم أعلى فهذه النفوس في الأرض أشبه بضوء الشمس يختلط بالتراب فهو إذن بين (عاملين) عامل الشرف وعامل الحسة ، ولكن لما كان الله حكيمًا ورحيمًا كان من الحكمة أن يزعج هذه النفوس بعظام الأمور وهذا الإزعاج جاء لها على مقدار نقصها ، والدليل على نقصها إرسالها لهذه الأرض ، فالناس يحسون بالآلام من الحر والبرد والصواعق والزلازل والحشرات الآكلات لزرعنا ، والشاربات دماغنا في فراشنا والأمراض الظاهرة والباطنة . ولما كانت هذه كلها يتلقاها الناس كانوا تارة يحزنون ، وتارة يصبرون وألقى بينهم العداوة والبغضاء وأثار بعضهم على بعض أهما وأفرادا وأقارب في النسب وأشباهها في الصناعات والأعمال والصفات والسكن . وإنما فعل ذلك لتكون العداوة الموجبة للغليان الدم ، فلا يبدأ لهم بال مع أن للمصائب الطبيعية أكثر من هذه ، كل ذلك ليلو بعضهم ببعض . وهذا الابتلاء ليستخرج قوام ويستفهم من الأرض ليرفوا الحقائق ، ولو كانوا أعلى من ذلك أخلاقا لقل البلاء ولكن البلاء والاختبار عظيم على مقدار نقص هذه النفوس . وإنما جاءت هذه اللزعجات ليرتقوا إلى العالم الأعلى ، فإنهم منه جاؤا وإليه يرجعون .

فلما كانت هذه حال هذا الإنسان خلق في هذه الأرض التي جعلت الحيوانات فيها على هذا النمط ، فإن أرضنا من طبعها أن ما عليها من الحيوان التي بينها العداوة والبغضاء ، فنها الأكل ومنها للأ كول ، كل ذلك لحكم تقدمت في هذا التفسير . إذن هذا الإنسان عنصره شريف وقد أثرت عزائمه بالمزعجات مشاكلة لأنواع الحيوان . وهننا للإنسان (منهجان) منهج شريف ومنهج خسيس ، فأما النهج الخسيس فهو أن يبقى كالحيوان الذي وجد في الأرض معه قاتل ومقتول وحاسد ومحسود وهكذا . وهذه للرتبة قال الله له فيها « وخفوا حذركم » ومعنى هذا أن النوع الإنساني اليوم لا يزال طفلا غرا ، فلن ترى دولة من دول الشرق أو الغرب إلا والنفاق هو النهج السارى بينهم ، فالوزيران يجلسان معا وتضرب لهما اللوسيقى وهناك الجواسيس تبحث عن الحقائق ، فما من أمة إلا ولها جواسيس تنزبا بزى الأمم وتأتى بأخبارها ، فهذه الأمم الآن لم تزد قيد شعرة عن الحيوان في أخلاقه وعاداته ، فما هي ذه أنواع الطيور والزواحف والحشرات قد رسمت أمامك ورأيت أن الضيف نجما بسبب مشاكلته للقوى ، وقد كثر هذا جدا والإنسان لم يزد عن هذه قيد شبر ، فأعظم دولة ترسل من لديها أناسا مخبرين يترجون بزى غيرهم ملبسا ولغة وأخلاقا ويتم لهم ما يريدون .

وقد ذكرت في هذا التفسير ، أن اليابان في حرب الروس لونوا السفن بلون ماء البحر فلم يهتد إليها الروس فكانوا من المهالكين . إذن الإنسان في أعلى مراتبه اليوم لم يعمل في سياسته أكثر مما صنع الزواحف والطيور والحشرات ، فهؤلاء قوم ظلموا الحيوان فيما منح من هذه الصفات للنجبة له . أما لتنجح الأهل فذلك

أن هذا الإنسان يعلو عن الحيوانية، ويرتقى إلى عادات وأخلاق أرقى فيكون الناس كلهم عاملين في الأرض مجدين في منفعة المجموع ، بحيث لا تندر أمة من الأمم فردا من أفرادها بلا عمل ولا أرضا بلا زرع وتصبح الإنسانية أرقى من سابقتها . فقال صاحبي : وهل الله ذكر ذلك في القرآن ثم إنك تسكتب هذا للسلمين ، وهل للسلمون في يدهم ذلك ؟ قلت : إن الله يقول « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » فالإنسانية كلها اليوم في الدركات السفلى وكلهم متحاسدون منافقون ، كل دولة تنافق للأخرى وتظهر غير ما تخفي . والله عامل الأمم بهذه المزعجات لعلهم يرجعون عن هذه الأخلاق ، أي في هذه الحياة الدنيا وهذا دليل على أن هذه إنسانية لمسا يوم في نفس الأرض تكون أرقى منها الآن ويكونون أقرب إلى الإصلاح وذلك هو الزمن الذي ينزل فيه المسيح ، وذلك بالصفاء وبزول الدجالون من هذه الدنيا ، والدجالون اليوم في كل الأمم . فقال ولكن يقول الله تعالى « خذوا حذركم » . قلت : هذا الحذر لا مفر منه في الأمم الحالية . فقال ولكن السلمون لا يزالون بأولئك الجواسيس غالبا . قلت إن الأمة الإسلامية التي لا تنفقه أحوال الأمم حولها تكون عاصية ، فلا بد من معرفتها كل علم وكل صناعة وكل سياسة وتلبس لسكل حال لبوسها . والأمة للسائلة النائمة لا بد من هلاكها سريعا ، فليشاكلوا الأمم حولهم في العلوم والسياسات وليتقوا على أخلاق العفة والشرف وحينئذ يرتقون .

فليكن حذرهم في كل زمان بحسبه ، والجواسيس اليوم يكونون قوما من الممتازين في العلم والأخلاق فهم يحذرون ويكونون النتائج إلى الله بعد أن يحترسوا من كل صغيرة وكبيرة كما تفعل الأمم ، وكما هي حال هذه الطيور والحشرات والزواحف فوافق القرآن الطبيعة والشرع الوضع .

فأما ارتقاء الأمم كلها فهذا له يوم معلوم عند الله ، فليستعد له السلمون من الآن والله هو الولي الحميد . فقال صاحبي : بقى لي سؤال واحد . قلت ماهو ؟ فقال أراك تستنتج من نفس الناظر الحيوانية والنباتية وتستخرج منها قواعد وعلماء وهذا العلم يرجع موافقا للقرآن . قلت حقا لأن هذه أعمال الله وهذا كلام الله والأمة الإسلامية التي تظن أن فهم ألفاظ القرآن كافية لحياتها تموت بعد قليل ولا تعيش إلا بالعصية كما قرره ابن خلدون والعصية تنحل بعد قليل وتذهب . قال نعم . قلت فلا بد من قراءة هذا الوجود كله فإن دراسته ترقى العقول وهذه الدراسة نفسها دراسة للقرآن ،

إن كل ما نراه إن هو إلا شعائر الله . إن شعائر الله على (قسمين) شعائر للعامة والخاصة وهي كشعائر الحج وشعائر لا يعقلها إلا الخاصة وهي أمثال ما تلوته عليك الآن . أفلمست ترى هذه الشعائر العجيبة تسحر العقول وتدعش الأبواب وسيكون في هذه الأمم الإسلامية حكام عاشقون مربون لها منظمون لشؤونها لما يرون من هذه الشعائر ، فكما أن الأرض كلها مساجد لنا هكذا كل الأرض شعائر لنا ولكن هذه الشعائر لا يعقلها إلا قليل « وقليل من عبادي الشكور » .

وهذه الطائفة هي التي تفهم قوله تعالى « فأينا تولوا قوم وجهه الله إن الله واسع عليم » إن الأمم اليوم أخذت في الرقي السريع وقد ركبت الطائرات وتصارى بواهم يقولون بالسلام العام فلامتناس للسلمين من الإسراع في ذلك فإن وحدة الأمم هي التي أشار الله لها هنا فقال « فطرة الله التي فطر الناس عليها » وهذه الفطرة هي التي أذاعها نبينا صلى الله عليه وسلم بأن أمر بلال أن يؤذن في الكعبة بين رجالات قريش وهو القائل « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » وهو القائل « اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي » ويقول الله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم « الخ فهذا يوم سيأتي وكل آت قريب والفضل فيه للإسلام فليعلم ذلك السلمون . انتهى مساء الإثنين (٢٤) يونيو سنة ١٩٢٩ .

﴿ بهجة العلم في حشرة أبي دقيق التي تقدم ذكرها ﴾

اللهم إنك قد أودعت في عقول الأمم والأفراد بذور العلوم وأبدعت في استخراجهما من الأرض والعوالم حولها ، فها أنا ذا اليوم قصصت قصص حشرة (أبي دقيق) فيما تقدم وأن منها طوائف وطوائف متعاهدات متفتحات في إفريقيا وأمريكا وآسيا ، هذه الطوائف تشابهت في أن لها سلاحاً تحمله وذلك السلاح هو السائل الأصفر للقدر للملابس وأجسام ما يقصدها بسوء من إنسان وحيوان ، وأن هناك أصنافاً من الحشرات تحفظ من الهلاك بسبب المشابهة والمماثلة في الشكل واللون قهباها المهاجمات وتخافها وتتعاماها فتكون هي من الباقيين المحفوظين من الدمار والموت الزؤام . فهذه قد أدكرتني بما سمعته في قريتنا وأنا تلميذ بالجامع الأزهر أيام العطلة الصيفية إذ سمعت الفلاحين يقولون إن فلانا (من أقاربي) مد يده إلى حشرة (أبي دقيق) فألقت عليه مادة صفراء قدرت يده وثوبه لما أسرع أن أطلقها من يده ففرت فرحة بالنجاة وسعيدة بما لها من السلاح ، فلما أن وقعتي بحجب الدماء وعرفت هذا أيقنت أن بذور العلم مبثوثة في العالم كله ، فمن الناس من يجيب داعي الوجدان الثبت في النفوس من الله ومنهم من يتولى بركنه وهم من الباحثين عن الحقائق ساخرون مستكبرون فهذه الحشرة التي ألقت سائلها الأصفر القدر على ذلك الفلاح في قريتنا فبحث بابا للبحث في الحشرات ودراستها ولكن لمن فتحته ؟ فتحته في بلدة لا علم فيها ولا علماء ، لا يابهاون بمثل هذه المفاجآت ولا يشاقون لبحث ما يشاهدون ، ولكن العلم في الأمم الحية أظهر في هذه العصور أن هذه الحشرة فرد واحد من طوائف وطوائف في إفريقيا وأمريكا وغيرها وأنها يعوزها البحث والتنقيب ، ولكن الله عز وجل لم يذر الإنسان بلا تذكير فهو قد ذكر أهل بلدي وغيرهم بهذا فكانوا معرضين لأنهم ليس عندهم لذلك استعداد ، وهكذا نرى الناس يشاهدون شروق الكواكب وغروبها وجمال النجوم فلا يفكرون فيها ، ولكن هناك أناس يحثوا فرفوا! ويشاهدون أنواع الحيوان فلا يفكرون فيها والفكرون قوم مصطفون ويرى الرجل رؤيا فيقع كما رآها فلا يفكر في ذلك مع أن هذا مبدأ من مبادئ علم النفس ومفتاح علم بقاء الأرواح ومفتاح معرفة عموم علم الله ولكن لا يفتن لهذه الباحث إلا قليل ، فآله جعل بذور العلوم حاملة في جميع الأقطار ، وعند جميع الناس ولا يتفطن لها إلا الفكرون . انتهى والمحمد لله رب العالمين .

(درجات العقول ويان فهمها في هذه المعجائب)

اعلم أيها الدكي أن الله لما أبدع هذا العالم وأبرزه للعقول الإنسانية وللغرائز الحيوانية لم يسوي بين العقلاء في درجات الآراء . ذلك لأنه متكبر متعال . إنه تردى بالكبرياء وأثر بالعظمة فليس الجمال البديع معرضاً لكل ناظر ولا مطعماً لكل باحث ، وإذا أردت بيانا لذلك فارجع إلى ما ذكرته لك في (سورة الفاتحة) من اللؤلؤ الذي ضربته قترى هناك رجلاً وابنه ودابته في الحقل وكل من الثلاثة له غرض يريد ومقصد يتوخاه فلا مقصد للدابته من الحقل إلا أن تأكل البرسيم ولا غرض للصبي إلا أن ينظر بهجة الزرع وجماله الخ ولقنلاح رأى أعلى ثم المهندس فالعالم الطبيعي فالعالم الرباني . هذا اللؤلؤ قد استوفيت السلام عليه في (سورة الفاتحة) . ثم انظر إلى مثل آخر ضربته في (سورة المؤمنین) عند قوله تعالى « كل حزب بما لديهم فرحون » وهو مثل العميان الست الذين أخذوا يبحثون في حقيقة القبيل وكل منهم رأى فيه رأياً لا يعدو مالمسه بيديه من خرطوم أو ذيل أو ظهر الخ فهذان اللؤلؤان في (سورة الفاتحة) وفي (سورة المؤمنین) يظهران لك أيها الدكي أن هذه الدنيا معرض لكل عقل والعقول مختلفة والصور للمروضات فيها تتجلى لكل عقل بحسب درجته وهيئة

تريته فكما أن العيان الست في مثال القيل الذي جاء في كتب الإنجليز عن أهل الهند وذكره التزالي أيضا من علماء الإسلام حكم كل منهم على القيل بما أحست به يده، هكذا الكتاب في الشرق والغرب كل يحكم على المحسوسات بما وصل إليه علمه ولا يتعدى طوره، وكما أن السليم البصر إذا رأى القيل حكم حكما أعلى من حكم هؤلاء العيان وقال إن كل ما قالوه في القيل حق ولكنها آراء جزئية لا كلية هكذا أولئك الكتاب والمفكرون الذين يقرأ الناس كتبهم في عصرنا الذين أشبهوا هؤلاء العيان الست فوقفهم طائفة هم أولو العلم الذين وقفوا على الحقائق وإذا قرءوا كلامهم يعرفون منه درجتهم في العلم ويحكمون عليهم بما كتبوا وكما أن الله عز وجل قال في أهل الجنة والنار « وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم » هكذا الناس في الأرض فيهم اليوم طائفة امتازت بسمو العقل وسداد الفكر، فهذه الطائفة اليوم هي التي تعرف « كلا بسيماهم » وهؤلاء أنفسهم يكونون من أصحاب الأعراف يوم القيامة، فأصحاب الأعراف يوم القيامة يكونون في مكان عال مشرق على الطاقتين وهم الآن في الدنيا علوا في منزلة عالية من سمو الفكر وبهذا يميزون الكتاب ويرفون درجاتهم. هنا ما أردت أن أجهته مقدمة لما ستراه من عجائب الحكمة وبدائع العلم ولتكون أنت من أصحاب الأعراف في هذه الدنيا وتكون موثلا ومرجعا ترجع إليك الأمم الإسلامية في ظلماها الحالك فتهدبها إلى سبيل الرشاد.

فهاك ﴿ ثلاث مراتب ﴾ من مراتب الكتاب في عصرنا ﴿ المرتبة الأولى ﴾ اقرأ ما كتبت في (سورة الكهف) عند قوله تعالى - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها - وكيف قال العلامة (وليم) الذي ترجمت آراءه في الألوان « إن دراسة الألوان في الحيوان ليست سهلة الخ » وهناك ظهر العجب العجيب، ثم انظر ما كتبت في (سورة المؤمن) عند قوله تعالى « وما كنا عن الخلق غافلين » وتأمل الصور والأشكال هناك وكيف استدلل أولئك العلماء المرميون بهذه الصور على أن كل ألوان الحيوان إنما جاء بها لحايتها وليس ذلك تابعا للوسط، ثم انظر ما كتبت لك هنا وهي السور للتقدمة مع شرحها وبها عرفنا أن الحيوان قد يشاكل حيوانا آخر أشد بأما منه فينجو من الهلاك، فإذا رأى أصحاب الأعراف من النوع الإنساني هذه الآراء أيضا بأن هذه المخرجة من الكتاب طبقة ممتازة لأنهم رجعوا إلى الحكمة العامة في الوجود ودرسوه بعض الدراسة ﴿ للمرتبة الثانية ﴾ أن يحلل الكتاب هذه المشاهدات مجرد عجائب وقد غص النظر عن الحكمة العامة وهذه للمرتبة تظهر في أمثال ما كتبه صاحب كتاب [عجائب الخلق في الحيوان] وهو الروحوم جورجى زيدان فإنك حين تقرأ ما سأفصه عليك من الكلام على الحشرات الزهرية تجد أنه قد توسط في الأمر فلم يبحث البحث العلمي الذي بحثه علماء الغرب وأن هذه الألوان إنما خلقت لحماية الحيوان ولم يهتد إلى تحليل فهذا يدل على عدم كمال الاطلاع وهذا بيان ما قاله.

﴿ الحشرات الزهرية ﴾

وفق بعض الباحثين في طبائع الحيوان إلى اكتشاف حشرة من قبيل الجنادب اسمها العلمي فاسوموناس كارولينا تنفث باللباب ونحوه وتحتل في اقتناس فريستها حبة غريبة (انظر شكل ١٢) وذلك أن لها دين مستطيلتين تنبها من السجود ومنها اسمها عند الإفريج (الجنادب الصل) وكذلك يسميها أهل الترانسفال ويسميها غيرهم (فرس الشيطان) وهو الاسم اللاتقي بها إذ ليس فيها من ظواهر الصلاة غير السجود وفيها خلا ذلك فهي دويبة مفترسة ولها فتحة على الاحتال بما يدخله من التل ويدار حياتها اقتدارها



(شكل : ١٢ صورة الجنديب الصلي بشكل زهرة)



(شكل : ١٣ صورة الجنديب الصلي وفريسته في قبضته)

هذا ما جاء في كتاب (عجائب الحيوان) وأنت ترى أنه لم يرتق إلى درجة كتاب الأوربيين الذين بحثوا في الحقائق واهتدوا إلى أن هذه الألوان لم تكن إلا لأجل حماية نفس الحيوان . ولا جرم أن مثل هذه الباحث لا خير فيها إلا بمثل هذا الاستنتاج فإذا عريت عنه فقد أصبحت جيبا خاويا فارغا ولا فائدة منها إلا ما يستفيد الطفل من أعواد السكرت بوقدها ويفرح بمنظر نارها وما يستفيد من الطيارة التي يرسلها في الجو وما ذلك إلا مجرد النسبية أما العلم وأما الحكمة فلا والناس في كل أمة تابعون لآراء كتابهم مشغوفون بتقليد مثل هذا القول الذي انتشر في مصر وسوريا وبلاد العرب يخرج منه القاري وهو لم يزد حكمة ولا علما ولا كتابا منيرا وإنما تكون عنده معارف شتى لا تجمعها حكمة عامة تكون هدى للمبتدى ، نعم مالا يدرك كله لا يترك كله ولكن المتنبي يقول :

ولم أر في عيوب الناس عيبا كنتقص القادرين على الختام

(المرتبة الثالثة)

ما جاء في مجلة « كل شيء » تحت العنوان التالي :

على التظاهر بأى لون أرادته فتقف على الزهرة الحمراء وتلون بلونها حتى تظنها جزءا منها ، وإذا وقفت على الورق الأخضر تلونت باللون الأخضر ، وإذا كانت الزهرة من عدة ألوان تلونت بها جميعاً (انظر شكل ١٢) .

وقد تقف على العنق بين الأوراق فتتكيف بما يشبه الزهرة يتلها وسبلها وأسديتها تتخفي يديها وتدخل رأسها بين الأوراق وتبسط أجنحتها للخارج حتى تشبه الزهرة مشابهة كلية فتخدع الناس فضلا عن الحشرات والذباب فتضع الذبابة عليها أو يجانبها طعما في امتصاص الزهرة فتش هي عليها وتلتقطها يديها بين ثنيق السجود كما ترى في الشكل الثالث عشر) .

ومن غريب طبائع هذه الجنادب أنها تمكث على الأغصان أو بين الأوراق ساعات أو أياما متشككة بشكل الزهرة لا تبدى حركة تدل على الحياة الحيوانية كأنها تجمل نفسها جزءا من النبات الذي تقف عليه وتتحرك معه بحركة الريح كما تتحرك الزهور ولو كانت في مكانها بحيث يستحيل على غير التأمل أن يميزها عن زهور النبات ومنها نباتات عديدة تختلف طبائعها باختلاف الأقاليم أشهرها ما وجدوه أخيرا في (سنغافوره) و (بورنيو) من جزائر المحيط واسمه عندهم دربولاتيس وهو الذي نبههم إلى

هذه الطبائع في هذا النوع من الحشرات اهـ

(خداع الحيوان . أمثلة غريبة)

لو حاول أحد الفلاسفة أن يجد أصلا للآداب في الطبيعة يجعله أساسا للأخلاق العليا لأعجزه ذلك فإن في الطبيعة من الخداع والسكر والنش ما يدهش له الإنسان ، فبين السمك مثلا سمكة تعيش وكأن على رأسها (طاقية الإخفاء) إذ هي شفافة لا تظهر في الماء إلا خيالا ضعيفا ، وهي تستعمل هذه الشفوفة في الاقتراب من فريستها وقتلها ثم التهامها ، والأخطبوط يخدع فريسته بأن يفرز في الماء سائلا أسود حتى لا تراه ثم يلتف حولها وهي في عنائها فيقتلها ويأكلها ، وبعض طيور الماء يبيض على الشاطئ فلا يبنى عشا لبيضه وإنما يلقه بين مدر الشاطئ وحصاه فيمتزج لون البيض بهما بحيث إذا مر إنسان أو حيوان لما استطاع تمييز البيض مما حوله ، ومن ضروب النش التي تتبعها الحشرات مع العاصفر وتحتمى بها أنها في طورها الثاني عندما تخرج من البيض وتصير (دعمومة) تشبه الدودة تكون عندئذ طرية مملوءة بالدهن ليس فيها عظمة والطيور عندئذ تشبهها لقمة سائغة ولكن هذه الدعامة تبث لأنفسها قرونا زائفة ووجها مخيفا وأحيانا تشبه الثعابين فتخشها الطيور وتنخدع عنها حاسبة أنها شيء آخر غير تلك اللقمة الدهمة من الدهن (انظر شكل ١٤) و (شكل ١٥) .



(شكل ١٥ - على هذا الغصن حشرات تبدو كأنها غصون شائكة)



(شكل ١٤ - دعموس حشرة واقف بين الغصنين الكبيرين كأنه غصن آخر)

والفراش الذي يتطاير في الربيع حول الزهر يكون أحيانا كثيرة زاهي اللون فتراه العاصفر فتحط عليه ولكنه سرعان ما يرى ظلها ويحط على زهرة فيندغم لونه في لونها فتروح العصفورة وتنجي . وهي كالبلهاء لا تراه ووقت حصيد القمح نرى آلافا من الجنادب تنفر وتقفز فإذا حطت على الأرض اختفت لأنها غبراء مثل الأرض وأحيانا تبيض الحشرات على الأشجار فتراه للناظر كأنها أوراق حرقية تغطي البراعم ، وبعض الحشرات يحبه غصنا جافا مكسورا ، وأخيرا يعرف كل منا أن الحرياء تتلون بلون الوسط الذي تعيش فيه كي تخفي عن أعين أعدائها فهي خضراء بين أوراق الشجر غبراء على الرمل ، وكل هذا غش وخداع يقصد منه خداع العدو والقريبة معا (انظر شكل ١٦) و (شكل ١٧) .



(شكل ١٦ - حشرة تتراعى كأنها ورقة) (فراشة قد أنفنت محاكاة الورقة حتى في العروق)



(شكل ١٧ - حشرات تحاكي الزهر)

فهذه المرتبة الثالثة من الكتاب جاءت بتعليل لهذه الأشكال والصور والعجائب للقراء وإن أكثر القراء في بلاد الشرق اليوم قد نشأ بينهم الإلحاد، وقد نسبوا ذلك الإلحاد إلى علماء أوروبا فصارت هذه فكرة عامة فلذلك تجد هذا الكاتب في المهلة بدل أن يسمو بالقراء إلى آراء كتاب أوروبا ويذكر ما وصلوا إليه من سمو الفكر والعلم ويبين أن هذه الألوان خلقت لحياة الحيوان وليست مصادفة أو رمية من غير رام . يقول إن هذه الألوان في الحيوان أو المشابهات ما هي إلا غش وخداع ، وإذا أراد الإنسان أن يقلد عجائب الطبيعة في الأخلاق لمجد لإلغش والخداع وتكون النتيجة إذن أنه لا كمال في الأرض إلا لرجال السياسة والناقين والمخادعين والكاذبين وأهل الضلال .

فانظر أيها الزكي لأهل الشرق وأهل الغرب الآن واعجب لهذه المراتب الثلاث مرتبة في الغرب تقرب من نهاية الحكمة ومرتبتيان في الشرق . إحداهما لا تثبت ولا تثق . والثانية قلبت العلم جهلا والكمال نقصا وألبست الطبيعة ثوب النقيصة وتركت قراءها حيارى في الوجود لا يرون إلا ضروب الاختلاس وأفازين الأكاذيب تبعاً لما تعلموا من الطبقة الكاذبة الخاطئة وهذه الطائفة يحق لها أن تقول إن المرأة التي ترضع ولدها ابتغاء نفعه لها في المستقبل ثم فقدته فإن هذه العاطفة فيها خائفة كاذبة غاشة . فانظر كيف يسمي كتاب الإفريج هذه العجائب حمالة للحيوان وكيف يسميها كتاب الشرق غشا وخديعة . هذا ما أردت أن أبينه الآن في مراتب الكتاب في الشرق والغرب . ومن هذا تعرف أيها الذكي لماذا يحاطأ الشرقيون في الشرق الأدنى في درجات الرقى إلى العلاء ولماذا أسرع الغربيون . فالشرق اليوم قامت عنده فكرة خاطئة جاهلة وهي أن هذا الوجود كله خبط عشواء، وأن هذه الفكرة فكرة الغربيين وبكذبه ما تراه في هذا التفسير من آراء القوم « إن افه

لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال .
 فانظر أيها الذكي في هذه المراتب الثلاث ووازن بينها وبين أعمال القراء ، فالذين يقرءون المرتبة الأولى
 تجدهم قوما جادين في أعمالهم مرقين لمدينهم لأنهم يعتقدون أن هذا الوجود مبني على حكمة ونور ، فأما
 الآخرون فإنهم لا يرون في هذا الوجود إلا لهوا ولعبا لا عقل فيه يزنه ولا كمال ، فهؤلاء تجدهم في مصر
 وسوريا والعراق وكثير من بلاد الشرق لا يعملون عملا نافعا ويضيعون أوقانهم بلا عمل ومجلسون في مشارب
 القهوات ومحل التريجة، وهذا هو الذي قعد بالشرقين ، فكأن أيها الذكي نورا لأمتك مملا لها ناشرا للحكمة
 « مثل هذا فيعمل العاملون - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .

أتدري أيها الذكي مم أخذت هذه المراتب الثلاث ؟ أخذتها من قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات
 والأرض واختلاف ألوانك وألوانك إن في ذلك آيات للعالمين » بكسر اللام ، فجعل الله اختلاف الألوان
 آيات للعلماء الذين يقربون من المرتبة الأولى ، ومعنى هذا أنه ليس آيات لعيرهم من الطبقة التي لم تفكروا وهي
 الثانية ومن الطبقة التي جعلت هذه الأشكال والألوان غشا وخديعة ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ نور على نور في آية « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألوانك وألوانك

إن في ذلك آيات للعالمين » بكسر اللام ﴾

من القواعد الحكيمة في النبات أن اختلاف لونه يصاحب دائما اختلاف شكله وورقه ونمره وزمانه
 ومكانه وجميع أحواله . إذن ليس العجب والابتداء في الاختلاف خاصا باللون فإن كل اختلاف فيه إبداع وجمال
 فانظر رعاك الله كيف جعل الله ذكرا وأنثى وجعل آكلا وما كولا كالنمر والأسد والثور والغزال والعنز ،
 ومن عجب أن هذا التقسيم الأخير لا يختص بنوع ما من الحيوان فهو في الهواء وعلى اليابسة وفي البحر وكما
 يكون في ذوات الأربع والسمك ونحوها يكون في الحشرات ، ولست أريد الآن أن أذكر إلا ما حملت حكمه
 وظهر جماله في الإبداع وهو ما جاء في جريدة الأهرام في شهر سبتمبر سنة ١٩٢٩ م وهذا نصه :

الذئب في عالم الحشرات

أشياء حديثة في إنجلترا مفرخ غريب للحشرات تحت إشراف بعض موظفي الحكومة الذين يقضون
 أوقاتهم في محيوش من الجنود الصغيرة ذوات الست الأرجل، هي حشرات تفتك بالحشرات التي تتلف
 المزروعات ، وترسل هذه الحشرات المقاتلة إلى مختلف أنحاء الأمبراطورية البريطانية لمساعدة المزارعين على
 التخلص من شر الآفات . وتجري تجارب من هذا القبيل في ولاية كليفلورنيا بأمر يكاد يقوم الدكتور
 (ستانلي) أستاذ علم الحشرات في جامعة (كليفلورنيا) في مهمة تفريخ ملايين الملايين من بيض الذبابات السابحة
 بحجم البعوضة وهي من فصيلة الزنبار ويقال الزنير والزنور وتضع بيضا في بيض الحشرات الأخرى المؤذية
 ومق نطف فرخها بيضتهما في البيضة الأخرى وفنك بفرخ الحشرة الأصلية ، وقد اضطر الدكتور (ستانلي)
 من مدة قريبة أن يرسل مئة ألف بيضة من بيض هذه الحشرات تلبية لطلب مستعجل في البريد الجوي ضمن
 عينة صغيرة ، ومن جملة أعداء الحشرات المؤذية للزراعة حشرة تعد من أشرس الحشرات وأبرعها في ضروب
 الفال وهي أشبه بقنبلة صغيرة ذات أجنحة لونها كلون الفولاذ الأزرق المصقول يتخلله بقع برتقالية اللون
 وتعرف بالزنبار الحفار ، ومعروف عن هذه الحشرة أنها تهاجم حشرة أخرى أكبر منها نحو عشر مرات وكثيرا
 ما تنتقم العنكبوت الكبيرة المعروفة باسم (رانتولا) في الولايات الجنوبية الغربية وهذا سبب تلقيها بصفر
 الترانولا ويبلغ طول جسم هذا الزنبار (بوصة) وله خصر نحيف في دقة الحيط هو في الحقيقة الصديق الصدوق

للفلاح لأن معظم الحشرات التي يهاجمها هي من الديدان الضرة بالزراعة، وقد كتب للستر (وارد) الإنكليزي العالم بطبائع الحشرات يقول إنه وجد في أحد أجزاء مقاطعة (ديفونشير) ألوفا من (الزبار الحفار) ولم يشر بدودة واحدة وقد استدل من ذلك على أن الزناير أفنت الديدان كلها في العام الماضي وأتى الزبار الحفار هي التي تقوم بحفر الوكر وهي التي تقاوم الديدان وتفتك بها وتقع المارك عادة بجوار الوكر وتبدأ العمل في شهر يوليو وعند اشتداد الحر إذ تظل طائرة حتى تهبط على ضفة جدول أو جانب طريق حيث تكون الأرض صلبة قاسية وتشرع في الحفر كما تحفر الثعالب أو جارها أي أنها تحت التراب بيديها الأماميتين وتقذفه بيديها الخلفيتين ويستغرق حفر الوكر الذي يمتد غالبا إلى مدى ثلاثة بوصات طول النهار تقريبا ويكون عادة متسعاً من الداخل ضيق المدخل. ومتى انتهت من عملها تبحث عن حصوة تصلح سدادة لباب الوكر وقد تضي ساعة تأتي بحصوة تلو أخرى إلى أن تثر بالحصوة اللامعة لسد باب الوكر سدا محكما، وعند ما توفق إلى غايتها هذه تجول هذه الصيادة الباردة باحثاً عن طرائدها وحينما تشعر الدودة بدنو الزبار منها تضطرب وتحاول المقاومة فتقوس وتنفر وتسرع الزحف لتلوذ بالفرار ولكن أفي لها ذلك والزبارة تنقض عليها بسرعة البرق الحاطف وتقبض عليها بأرجلها فتكبلها وتدورها إلى أن تتمكن من إدخال حمتيها مفضلين وهو مركز جهازها العصبي وتلقحها بمادة مخدرة فتشل حركة الدودة، وقد تلقحها بآرتها هذه في عدة مواضع لتتأكد من بقائها حيث غير قادرة على الحركة مدة أسبوع أو أكثر وقبلما تشرع في جرها إلى الوكر تقلبها على ظهرها لكيلا تستعمل أرجلها للمقاومة، ومتى وصلت إلى باب الوكر تضع بيضة أو أكثر في جانب الدودة قبلما تجرها إلى داخل الوكر حيث تدخرها مؤنة حية لقراخها عندما تنقف بيضها ثم تنطلق لتأتي بدودة أخرى وهكذا حتى يفرغ بيضها ويمتلئ الوكر وحينئذ تشرع في سد باب الوكر بدقائق التراب التي تحيلها بمادة رطبة من جسمها وبعد ختم الوكر يوميئ أو ثلاثة أيام ينفس البيض ويخرج منه الفراخ فتأكل كل من جسم الديدان إلى أن تبلغ أشدها ثم تنسج لنفسها شرنقة تبقى فيها حتى شهر يونيو التالي إذ تخرج من الوكر زبارا كاملا قويا لتدخل محل آباتها التي يقتلها صقيع الشتاء هـ.

هذا ما ظهر أثناء طبع هذه السورة من العلم في آيات شعري ماذا يريد الله بهذه الأساليب من الحكمة؟ وماذا نفهم من هذه العجائب؟ نفهم أنه يقول لنا: أيها الناس. أيها المسلمون إما أن تتعلموا وإما أن ترحلوا من أرضي، هل عميت عن النظر إلى حكمة أفلا تقولون! سلطت الدود على زرعكم وقلت لكم «وإن من شيء إلى عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم» فهل سلطت الحشرات على زرعكم لإهانتكم كلا. وحق حكمتي ورحمتي التي وسعت كل شيء فكيف تسع رحمتي كل شيء وتعدى أشرف خلقي فأسلط عليهم كل هوام الأرض والحشرات كلا كلا. وعزتي وجلالي إنما سلطتها عليكم لتدرسوا والدرس يرقى عقولكم ويجعلكم اليوم في جنة العرفان العالية ويرفع نفوسكم عن الدنيا. وقد جاء في الأخبار «تداووا عباد الله فان لكل داء دواء» فكما جعلت لأمرضكم أدوية جعلت لأمرض نباتكم أدوية ملائمة وما هذا وذاك إلا لإشراق نفوسكم فهي المقصودة

إذا كان هذا الدمع يجري صبابة على غير ليلي فهو دمع مضيع

اللهم إنا نحمدك على نعمة العلم وعلى بهجة الحكمة فقد علمتنا ما لم نعلم إنك أنت العليم الحكيم

(السلام على اللطيفة الثانية المناسبة للطفة الخامسة)

في هاتين اللطيفتين (ثلاثة مقامات: المقصد الأول) تنوع المادة إلى صور كثيرة (المقصد الثاني) تنوع الصوت إلى لغات كثيرة وكيف كان الثاني نموذجاً للأول (المقصد الثالث) كيف كان الترتيب في الآية يشر بأحسن النظم في المدارس الشرقية والغربية التي هي قائمة الآن.

﴿التصنيف الأول : تنوع المادة﴾

اعلم أن هذا للتعام وهو مقام العناصر والمقام الثاني وهو الحروف قد ذكرتهما في (سورة البقرة) بطريق إجمالي ، فلنمد الكرة الآن لترى كيف كانت المادة أصلها عالم رقيق لطيف هو الأثير وهذا العالم لم يره الناس وإنما استدلوا عليه بأدلة طبيعية وكيمائية لانطيل بها ، فأروا أن هذه المادة منه تفرعت فهذا العالم المشاهد الذي يرضى والذي يستضى كلاهما برجمان لمبدأ واحد وهو الأثير . وهذا الأثير تنبعت منه المادة الأصلية وللمادة الأصلية هي كل شيء بل أرجحها بعضهم إلى حركات فيه ، وهذه المادة منها ما يثبت الضوء منه وهو الشمس ومنها شمسا ومنها ما يقبل الضوء كأرضنا . والضوء ماهو إلا حركات منتظمة وبها يكون الحر والبرد الخ ، وتنوع الحوادث على الأرض . والأرض والهواء والماء ما هي إلا عناصر قد شرحناها في الجدول السابق في (سورة النكبات) وقد علمت أن له حسابا ونظاما كما أن سير الكواكب له حساب فالأنوار تأتي إلى الأرض بحساب والعناصر لم تكن إلا بحركات المادة وتنوعاتها ، فتتوحد المادة كانت منه العناصر ولا معنى لتنوعها إلا تحرك ذراتها ، فلتعجب من الأمرين ليل ونهار بحساب . عناصر منتظمة من حيث جداولها بحساب فيألت شعري من كان يظن أن هذا العالم على هذا النظام ، من ذا الذي كان يظن أن عناصر المادة بينها هذه النسب ، تلك النسب التي أوضحها هناك ، تلك النسب التي قرنت بين عنصر وعنصر بل بين كل عنصر وسائر العناصر . إن العنصر الواحد له نسبة إلى ما فوقه وما تحته في الجدول . وكل صف منسوب إلى ما فوقه وما تحته . نعم هذا العلم وهو علم النسبة بين العناصر حديث ، ولكن ظهرت ثمرته في معرفة ثلاثة عناصر كانت مفقودة وخواصها التي بلغت (١٨) ومن ذا كان يظن في هذه المادة اللينة أن حركاتها منتظمة انتظاما أدق من انتظام كل ما نراه من الأوقات ومن قطع الشطرنج كالبيدق والشاه والوزير وأمثالها . إن الدقة هنا أحكم وأبدع . فهناك حركات الكواكب وخواص العناصر ومن بينها نشأت هذه الحوادث . ولا جرم أن من يعلم خواص هذين يعرف نتائجهما إلى الأبد . إن أدوار الفلك محسوبة معروفة وصفات العناصر معلومة عند مبدعها فتتأجها معلومة كليتها وجزئياتها . بمثل هذا كان العلماء يقربون إلى الناس علم الله بكل ما كان وكل ما سيكون .

﴿نتائج العناصر المركبة﴾

أما نتائج العناصر المركبة فهي واضحة ظاهرة كما تقدم في أنواع النبات والحيوان ، وهناك ماهو دقيق لا يعرفه إلا الذين برعوا في علوم الكيمياء وغيرها . ولأقتصر لك على مقال واحد وهو ما جاء في الأخبار اليوم بمهرينة الأهرام في يوم الخميس (٢) ديسمبر سنة ١٩٢٦ م - (٢٧) جمادى الأولى سنة ١٣٤٥ هـ تحت العنوان التالي وهذا نصه :

كشف علمي جديد

(استخراج البترول من الفحم)

أثارت الصحف الألمانية ضوضاء شديدة حول المحطبة التي ألقاها الدكتور (فريدريك بريجوس) في مؤتمر الفحم الدولي في (بسنبرج) وبسط فيها طريقته الجديدة للمادة (تحويل الفحم إلى سائل) وملخص هذه الطريقة أن الفحم مؤلف من جزء من الهيدروجين و (١٦) جزء من الكربون في مقابل جزء من الهيدروجين و (١٨) جزء من الكربون في البترول فيمكن لتحويل الأول إلى الثاني أن تزداد نسبة الهيدروجين إلى الكربون في الفحم (ضعفين بحيث تصبح (٢) إلى (١٦) ليتحول إلى بترول) ولما كان الفحم ليس من

السهل تحويبه إلى سائل عمد الأستاذ (ب. جيبوس) إلى ترميض الفحم لضغط يعادل مائة ضعف للضغط الجوي في حرارة مختلف بين (٣٠٠) و (٣٥٠) بميزان سلسيون، وقد حصل حيثئذ على مادة كالمجين صوب إليها الهيدوجين بواسطة طلمبة خاصة بعد رفع الحرارة إلى (٤٥٠) درجة فرأى أن الهيدروجين قد زاد مقداره بالنسبة إلى الكربون ، وأن الفحم بدأ يتحول إلى سائل ، فمن كل طن من الفحم يستخرج بهذه الطريقة (١٥٠) كيلو غراما من الغازولين و ٢٠٠ كيلو غراما من البترول الثقيل و (٦٠) كيلو غراما من الدهون و (٨٠) كيلو غراما من البترول السافي كما أن هناك سوائل أخرى أقل شأنا فاذن يكون نصف الفحم الذي يبالغ بهذه الطريقة يتحول إلى سوائل ، ويقال إن هذه الطريقة إذعمت ألمانيا فإن مناجم ألمانيا تزيد قيمتها ثلاثة أضعافها الآن وتستخى عن كل ما تأخذ من الأمم فإذا عميت هذه الطريقة ألمانيا تتمتع خمسمائة مليون جنيه (نصف مليار) ويقال إن المستقبل للسوائل القابلة للاحتراق ، وهذه الطريقة ستحدث انقلابا عظيما في أوروبا بحيث يمكن تدفئة المدن وتوزيع الماء الساخن على المنازل من المعامل التي تحول الفحم إلى بترول بطريقة الأستاذ بروجيوس « اه .

هذا ملخص ما جاء في الجريدة المذكورة ، وأنت ترى أني ذكرته هنا في التفسير وربما تعجب من هذه المفارقة فأقول لك . كلا . وانه ما هي مفارقة بل هي موافقة أشد للواقعة وإلغافاذا يظهر هذا الكشف اليوم سواء أم أم لم يتم ، كيف ظهر هذا وأنا أحضر التفسير للطبع ، أليس هذا أيها القطن عين ما ذكرته ؟ الله أكبر إنه مثل ضربه الله نفسه لما نطقت به هذه السور ، إنه من أسرار أوائل السور ، أوائل السور فيها الحروف مقطعة وقلنا هنا وفي السورة قبلها أن ذلك يقصد به الرجوع إلى أصول العلوم ، فكأن الكلام مرجعه الحروف المقطعة هكذا هذه العوالم مرجعها العناصر المختلفة . الله أكبر ، ظهر السر المكتون في القرآن في آخر الزمان وظهر أن المقصد من هذه الحروف في أوائل السور أن ندرس هذا العالم ونحمله إلى عناصره ، بل الله يشير بهذا القرآن إلى ما حصل فعلا في الدنيا ، فأنه رب العالمين والعالمون منهم قوم في الأرض وهام أولاء في ألمانيا وفي غير ألمانيا حللوا المركبات فأرجعوها إلى عناصرها ولما أرجعوها إلى عناصرها استخرجوا منها منافع لهم ولنا ، إن الله خلق عباده وأنزل لهم آخر الأديان وجاء صاحب الشرح صلى الله عليه وسلم أميا لا يقرأ ولا يكتب فنطق بهذه الحروف وبمجاهات في أوائله من القرآن هذه السور (التنكبوت والروم وقمان) (الهم) في هذه السور كما كررناه مرارا تشير إلى آيات في السورة اشتملت على الحكمة والبحث في هذا الوجود كما أوضحت لك فهذه الحروف للحكمة التامة التي ترجع الأشياء إلى أصولها الطبيعية ، والأمم اليوم لا ينتظم لها زرع ولا طب ولا حرب إلا بحساب العناصر كما يعرفه الأطباء وغيرهم . وهذه مسألة الفحم أنظر إليها تجد الفحم هو نفس البترول كلاهما مركب من هيدروجين وكربون واختلفت النسبة . ثم إن ما قدمناه قلناه عن الجرائد فالظاهر أنه يحتاج إلى تصحيح بعض الأرقام وهذا لا يضر أصل الموضوع فالفحم والبترول يرجعان لعنصرين اختلفت نسبتهما ، ومقارنت النسبة كالمطلوب حول الفحم إلى بترول . وإذا صح هذا أصبح الناس في رخاء وسعادة ، لماذا هذا ؟ لأن المركبات رجعت لأصلها وهذا هو زمان النور والفرقان الذي تشير له الحروف في أوائل السور . إن من أجل معجزات القرآن أن يظهر قوم يحللون المركبات إلى عناصرها ويعرفون نسبها ويتصرفون . وهذا هو سر القرآن . أما المسلمون الحقيقيون الذين وعدم الله بالنصر فهم أولئك الذين يأتون بعدنا ويقرؤون ما كتبته الآن ونحوه فيملون حق العلم أن دين الإسلام أفضل وأشرف مما عليه المسلمون الآن وأن هذا الدين يراد به أن يكون المسلم فوق كل علم وكل حكمة .

اللهم إن ديننا هو الدين الذي به تحول أرضك إلى جنات ونعيم باجتهاد علماء هذه الأمة في علومك التي

خبأتها لهم في أرضك وإذن تعود الأرض جنة للمسلمين ولغير المسلمين ويكون السلام العام في الأرض ويكون
هذا السلام سببه السلمون .

هذا هو التنوع في العناصر . أما التنوع في غيرها فلقد تبين لك فيما تقدم في هذا التفسير عند قوله تعالى
« وأنبأنا فيها من كل شيء موزون » وكيف كان تنوع الزهرات في مختلف الأشجار وقد رتبوا النبات على
مقتضاه إلى (٢٤) رتبة كل رتبة تحتها أجناس والأجناس تنقسم إلى أجناس أقل منها وهكذا حتى بلغت مئات
الألوف من الأنواع . كل ذلك بالتنوع في الزهر ولا تنوع في الزهر إلا بتنوع في الشجر ولا تنوع في الشجر
إلا بما دخه من العناصر في مواد التغذية التي لا سبيل لها إلا تلك الأنابيب الشعرية التي في عروق الشجرة
والفتحات التي في الورقات ، فتتوزع الفتحات في الورقات وفي العروق يتنوع بحسبه الغذاء الداخل في النبات
وبمقتضى هذا الغذاء يكون النبات وهذا من أعجب العجائب دقة في الصنع وإبداعا في الشكل ، وترى أوراق
النبات وأشكالها وألوانه وفروعه وطعمه ورائحته ، وطوله ومدته مكته في الأرض ومنافعه والأرض التي يصلح
فيها ، وما يناسبه من السماد وما يلائمه من الحيوان وما يكون منه من النافع كالدواء والغذاء واللباس والعطر
والزيت واللبن (كما تقدم ذلك) وما أشبه ذلك مما لا يحصى ، كل ذلك قد اختلف فيه النبات اختلافا عظيما
وترى أن ألوان النبات على وجه العموم الخضرة ، ولكن الدهش أن خضرة كل نبات لا تشابه خضرة الآخر
وانظر إلى نوع الحيوان قد اختلف ذلك الاختلاف وأكثر . ناهيك ما ترى من أن الصنف الأبيض اللون
لا ترى منه اثنين يشابه لونهما ولا شكل وجههما ولا بقية الأعضاء ومسألة خطوط الإبهام معلومة فلا تشابه
بين إبهامين وهكذا السكرات الدموية ، ولأكتف بما جاء في بعض المجلات العلمية بمصر تحت العنوان الآتي :

(تحقيق شخصية المجرم)

تعددت وسائل تحقيق الشخصية التي يستعملها المحققون في اكتشاف أسرار الجرائم العويصة حتى صار
من الصعب جدا على مجرم أن يفر من يد البوليس الذي يقنني أثره . فدور السوابق لهم الآن سجلات متقنة
فيها طوابع أصابعهم وطوابع مسام جلدهم . وما هو جدير بالذكر عن طابع الأصابع أنه لا يتغير ، ولو شيط
الجلد بالنار . وقد حاول بعض المجرمين أن يفعل ذلك فلم يمكنه إضاعة معالم أصبعه الثابتة في السجل . أما مسام
الجلد فقد كثر اعتماد المحققين عليها هذه الأيام لأنها أسهل في المراجعة . ويمكن أخذها من أي مكان من الكف
وطريقة المراجعة أن تكبر صورة الطابع بالقوتوغرافية ثم تطابق الخطوط أو المسام على الأصل ولا يوجد
اثنان في العالم يتفقان في خطوط الأصبع أو مسام الجلد ، مع أن الصورة القوتوغرافية للوجه كثيرا ما تختلط
بصورة أخرى حتى يصعب تمييز الأصل وذلك لأن الوجوه كثيرا ما تشابه أما نظام المسام والخطوط فلا تشابه مطلقا
عند شخصين . والأوروبيون لعنايتهم بالكلاب ، يحققون شخصيتها الآن بطبع أظفارها . فلكل كلب أنف خاص
له خطوط متميزة وكذلك الحال في سائر الماشية . ومن وسائل التحقيق فحص الدم فإن دم الإنسان يختلف عن
سائر دماء الحيوان وان اختلافا عظيما عند التحليل ولا يتفق إلا مع دم القرود العليا ، فإذا وجدت لطخة دم مهما
كان صغر حجمها على ثياب متهم وادعى أنها ليست دم الشخص الذي جنى عليه أمكن عند فحصها معرفة حقيقتها
وهل هي دم إنسان أو دم حيوان ؟ وأقرب الدماء إلى الإنسان في التحليل الكيمائي هي دماء (القرود العليا)
وبوليس (نيوبورك) يستعمل الآن جملة طرق في تحقيق شخصية المقتول فإن بعض المجرمين إذا قتلوا أحد
القسم أزالوا الحجم عن الوجه وهشموا العظام حتى لا تعرف شخصية الجنى عليه فيفضل المحققون في الاهتمام
إلى القائل ، ولكن في بوليس (نيوبورك) اختصاصيين يضعون على العظم نوعا من الصمغ اللين ويدهنونه

بألوان البشرة الطبيعية فيعود الشخص إلى هيئته الأولى ويمكن بذلك معرفته . أما الاهتداء إلى التزوير فقد كثرت الآن وسائله ، فمن ذلك أنه يوضع تحت السكرسكوب فيعرف اختلاف الجبر أو قوة ضغط القلم أو مقدار خدشه للورق ، ثم تؤخذ صورة الخط بالفوتوغرافية وتكبير فيعرف عندئذ اختلاف الطريقة في الكتابة لأنه مهما قلد الإنسان خط أحد الناس فإن طريقته لاتزال ظاهرة في الكتابة المقلدة . وأيضا يمكن فحص الجبر بتسليط الأحماض عليه فالجبر القديم لا يؤثر فيه الحمض كالجبر الجديد وهلم جرا انتهى ولاكتف بهذا القدر في العناصر .

﴿ عجيبة ﴾

انظر اختلافا لاحدله في الأشخاص من الانسان ومن كل حيوان وكيف أصبحنا نرى أن كل إنسان مثلا يستحيل أن يشارك غيره في صفاته الجسمية فنصور بني آدم من مبدأ الخليقة إلى يوم فناء العالم كيف اختلفوا في هذه الصفات والخطوط والأشكال ، وقس على ذلك علومهم وعقائدهم وإيمانهم وكفرهم وسعدهم ونحسهم فإذا كل امرئ يكون علمه منوعا تنوع جسمه كما تنوع لونه وصوته ومسامه . ههنا تجلت وحدانية الله إذ جعل الوحدة سارية في سائر المخلوقات . فكل منا واحد في نفسه جسما وصوتا ولونا وعلمنا وخلقا . فإذا أنا كنت واحدا أفلا يكون خالق العالم واحدا ؟ انتهى المقصد الأول .

﴿ المقصد الثاني ، الكلام على الحروف ﴾

الحروف الهجائية عبارة عن تنوعات الصوت في الهواء والصوت إنما حدث من التنفس والتنفس لغرض التغذية فهو في النبات لمجرد الغذاء وفي الحيوان له وبعض الأغراض بتنوعه . وفي الإنسان تكون لغات شتى على مقتضى الأمم وهنا وصل الصوت إلى أقصى منتهاه . ثمة الشعر والنثر في اللغات المختلفة المنفرعة من اللغات (السامية والطورانية والسنسكريتية) وهذه لها فروع في الشرق والغرب مثل السريانية والعبرية والحبشية والعربية والآرامية في اللغة السامية وغير ذلك . فانظر كيف تنوع الصوت الذي لم يدخل في الرثة إلا لإصلاح الدم إلى ما لا بعد من الكلمات باللغات المختلفة . وهذه الكلمات بإزاء الوجودات وفي نظيرها صور في النفوس الإنسانية لمعانيها . فانظر وتعجب من صوت في الشهيق والزفير يقوم مقام المادة في أحدث صور الوجودات فالمادة قبلت صور الأشياء في ذاتها ، والصوت أحدث هذه الصور في نفوسنا ، إن الصوت قام مقام المادة فكان منه الشعر اللطيف والغزل الرقيق والخطب المؤثرة والقصائد المحررة والأقوال الشارحة والكتب المصنفة والديانات المزلّة والفلسفة الرائعة وكان به نظام الدولة وإقامة العدل والمدن ومحاسن الآداب وتاريخ الأمم وحفظ الدم وصيانة الحقوق وتعليم الجاهلين وشكر العالمين .

وكما أن للمادة مروجا واسعات وتغور زهر باصمات وحدائق وجنات وأثمارا بهجات هكذا للصوت من القصائد حدائق ومن النثر شقائق ومن الخطب قصور ومن الشعر زهور ومن الحكم ثمار ومن الأمثال فاكهة وورمان ومن الغزل مروج ومن الآيات البنات بروج ، في المادة شعر رقيق وفي الصوت زهر أنيق . « فهما من كل فاكهة زوجان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » ولاناس في حدائقها مقاعد « وجنا الجنتين دان »

واعلم أن الله عز وجل جعل العالم (المادى والعنوى واللفظي) بينها تناسب واشتقاق وتضرع وانتظام في ذلك كله ، فإذا رأينا أن الجسم ينقسم إلى نام وغير نام ، والنام إلى ماله حس وحركة وإلى مالم ليس كذلك والذي له حس وحركة إما ناطق وإما غير ناطق ، فغير النامى هو المعدن وماله حس وحركة هو الحيوان ومالم ليس كذلك هو النبات والناطق هو الإنسان فيكون هكذا (جسم نام حساس ناطق) فهكذا ترى العلم

والحكمة معرفة الشيء على ما هو عليه بقدر الطاقة البشرية ، والشيء يقسم إلى العلوم كلها ويتبعها الصناعات فيقال هكذا (الشيء إما علمي وإما عملي) فالعلمي إما علم أعلى كعرفة الله والأرواح وتقسيم العلوم . وإما علم طبيعي ورياضي فالرياضي يشمل الأرنمطيق والهندسة والفلك واللوسيقى . والأرنمطيق من هذه الأربعة يشمل الحساب للفتوح وحساب الخطأين والجبر والمقابلة والتخت والليل والدرهم والدينار . والطبيعي يشمل صمغ الكيان والكون والفساد والسماء والعالم والآثار العلوية والمدن والنبات والحيوان والإنسان . هذا هو القسم العلمي .

أما القسم العملي فهو سياسة النفس وسياسة المنزل وسياسة المدينة . وسيأتي إيضاح ذلك كله وشرحه في (سورة لقمان) مفصلا تفصيلا تاما

فانظر كيف ترى أن الإنسان والحيوان والنبات والمعادن كأنها شجرة لها أصل واحد هكذا العلوم أيضا هي شجرة أصلها الشيء أي للوجود المنقسم إلى علم وعمل . وهكذا ترى العلماء في علم ما وراء الطبيعة يقولون «إن الوجود ينقسم إلى جوهر وعرض . والعرض يكون صفة ومقدارا كالبياض والاطول ويكون نسبة كالأبوة والنبوة الخ» وفرعوا فرعا شملت كل العلوم فهي من حيث النتيجة كالانقسام للتقدم بشكل مخالفه وكل الوجود تلازمه الوحدة . فالوجود كله واحد وكل كثيرة أوقلة منه يقال لها واحد . فالوحدة تسير مع كل موجود ويوصفها قليلا أو كثيرا . العالم كله واحد والوحدة ملازمة لكثيره وقتله . انظر إلى الألوان فهي مثل السواد والصفرة والبياض والنحاسية مثلا كأهل السودان والصين وأوروبا وأمريكا الأصليين حمر الوجوه . انظر كيف ترى أن النوع الأبيض من هذا الإنسان يتفقون جميعا في اللون ولكن يستحيل أن يكون بياض زيد كبياض عمرو وهذا هو العجب بل هذا هو الآية الإلهية . يسع البياض مثلا مئيات آلاف الآلاف من الناس ولكن لكل واحد في لونه هيئة تخالف لون الآخر . هذا معنى قوله تعالى «واختلاف ألسنتكم وألوانكم» فهذا هو اختلاف الألوان ومثله اختلاف العلوم واختلاف الأنواع والأجناس كما تقدم

وكما رأيت اختلاف الألوان واختلاف العالم هكذا ترى اختلاف اللغات كاختلاف الأصوات . ليس أحد من الناس يشبه صوته صوت الآخر ولا كلامه ولهجته كلام الآخر ولهجته . يمتاز كل امرئ في لونه وصوته وهيئة كلامه كما يمتاز في لونه وإن شارك الناس في البياض والصوت والسلام

هذه هي الحكمة الثمينة التي جاءت في هذه الآية ولولا هذا الجمال لم تميز الأشخاص . فبالوانهم الخاصة وأصواتهم الخاصة ولهجات حديثهم يختلفون فتميزهم لعيش معهم ، بل الله الذي أنعم كل شيء وهو الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى والمهداية هنا باختلاف مخلوقات فهو قد حسنها وهدى إليهم جمالها « فبارك الله أحسن الخالقين » وبهذا تم الكلام على الاختلاف في الألوان ونحوها .

﴿الاختلاف في اللسان﴾

الاختلاف في اللسان (قسمان) قسم قد تقدم وهو الأمور المتعارفة وقسم شرحه العلماء وهو (قسمان) قسم لفظي وقسم خطي . فالقسم اللفظي قالوا فيه : إن اللغات تفرعت من أصل واحد إلى لغات مرتقية وغير مرتقية . وغير المرتقية هي (أولا) الرنجية (١) وهي في الأرخبيل الهندي (٢) وفي أواسط أفريقيا (ثانيا) الأمريكية التي يتكلم بها أهل أمريكا الأصليين (ثالثا) اللغة المستعملة في البلاد الشرقية الشمالية الآسيوية في جزائر (سفالين) ونحوها (رابعا) اللغة الصينية وهي أحادية المقطع لافرق فيها بين الاسم والفعل والحرف أما المرتقية فهي إما غير متصرفة وإما متصرفة ، غير المتصرفة هي اللغات الطورانية كالتركية والمغولية والقفقاسية والإغزمانية . واللغة المتصرفة تنقسم إلى (قسمين) الآرية والسامية ، فالآرية هي (أولا)

الجرمانية وفروعها (١) الايسلاندى (٢) والنرويجى (٣) والسويدي (٤) والدانماركى (٥) والابجلىزى (٦) والمولندى (وثانيا) الصقلية مثل (١) السرية (٢) والبغارية (٣) والبوهيمية (٤) والبولونية (٥) والروسية (وثالثا) الهندية (ورابعا) الفارسية (وخامسا) الأرمنية (سادسا) اليونانية (ساجبا) اللاتينية الكلية .

(فروع اللغة الفارسية ثلاثة)

لغة للادين ولغة بنى ساسان ، والفارسى الجديد .

(فروع اللغة اللاتينية)

هى (١) الفرنسية (٢) والاسبانية (٣) والبرتغالية (٤) ولغة رومانيا المعروفة الآن فى البلقان . وبهذا انتهى الكلام على اللغات الآرية .

أما اللغة السامية فعلى (١) اللغة المصرية القديمة وقد قيل إنها أصل اللغات السامية ، وأقول قد قال لنا معاصر مدرسى اللغة العربية للرحوم كمال بك مؤلف قاموس اللغة المصرية القديمة مانصه :

إن اللغة العربية بحالها اليوم ناقصة ولا يكملها إلا لغة قدماء المصريين التى تزيد عليها كثيرا فأتى وجدت العربية مع الحذف والإبدال والتحريف بعض تلك اللغة . وشرح هذا شرحا وافيا رحمه الله .

(٢) واللغة البابلية والآشورية (٣) والحبشية (٤) والحيرية (٥) والسريانية أو الآرامية (٦) والفينيقية (٧) والعربية .

فسبحانك اللهم وبحمدك ، سبحانك ربنا قد علمت وأحسنت ونوعت . قلت فى كتابك «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم» اللهم إنك جعلت هذا العالم واحدا . لماذا ؟ لأنك واحد وهذه الوحدة جرت مع العالم كله كما جرت مع كل فرد فلقد رأينا امتياز الأشخاص فى كل نبات وحيوان ورأينا امتياز الأصوات والألوان واللغات . جعلت اللهم لكل علم من علوم الحكمة حدودا مخصوصة بحيث ميزنا علوم الطبيعيات وعلوم الرياضيات وفرعنا العلوم الجزئية كما فرعت أنت الجسم الواحد إلى أعضاء والأعضاء إلى أجزاء والأجزاء إلى ذرات صغيرة هكذا رأينا العلوم تختلف فيكون الرياضى كالحساب والطبيعى كالنبات ثم نرى صناعات تفرع على تلك العلوم كالزراعة والبزرة للنبات وكالطب والبيطرة للإنسان والحيوان وكالحدادة والتجارة للمعدن والنبات وهكذا مما قدمناه فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» وأصل هذه العلوم كلها الشيء . هكذا فى اللغات فقد رأينا نوع الإنسان كما اختلف فى ألوانه وجميع أحواله اختلف فى لغاته وجرت الله - شوطا كجبرى الألوان حتى وصلت إلى نحو خمسة آلاف لغة تقريبا . فى أوروبا نحو (٥٨٧) وفى آسيا (٩٣٧) وفى أفريقيا (٢٧٦) وفى أمريكا (١٦٢٤) لغة والانجليزية وحدها (٢٥) ألف كلمة ولغة غالاثمانية آلاف كلمة والعربية (٨٠) ألف كلمة . ويقال إن للشمع منها عشرة آلاف كلمة والإيطالية (٢٥) ألف كلمة والفرنسية (٣٠) ألف كلمة والإسبانية (٢٠) ألف كلمة : واللغة المستحدثة السبائة (الاسبراتو) (٣٢٠٠) مادة مقتبسة من اليونانية واللاتينية والجرمانية وقد ألحقوا بها (٣٠) لفظة تركيب مع ألقاها لتدل على نوع اللغائى الوضعية وهكذا (١٧) زيادة فى الصيغة لتقوم مقام التصريف فى اللغات الأخرى فتراكيبها ربما تبلغ عشرة ملايين كلمة وإذن تكون أوسع اللغات ثروة .

(حكتان فى تقارب اللغات . الحكمة الأولى فيما يعم اللغات كلها)

انتشر العلم وتعددت العاهد العلمية وأصبح من مميزات القرن العشرين تشعب اللغات وكثرتها حتى إنه يمكن أن يتاح لنا أن نصف هيئة المجتمع بحالته الراهنة من تعدد الألسن للتداولة ، بأنه قريب الاتصال

جرج بابل. ومن المعلوم أن كثيرا من هذه اللغات يرجع منشؤها إلى لغة أصلية واحدة، مثلا اللغة اللاتينية تفرعت منها اللغات الإسبانية والبرتغالية والفرنسية والإيطالية والرومانية وتسمى اللغات اللاتينية. وأما الانكليزية والألمانية والنمساوية والهولندية ولغات شبه جزيرة اسكندناوه والدانباركة، فترجع كل هذه اللغات إلى الأصل الجرمانى.

واللغات التي ذكرت ترجع مع اللغة الروسية واليونانية والفارسية إلى أصل واحد هو مجموعة اللغات الآرية التي تفرع منها بعض لغات في الهندوتسمى (الهندية الأوروبية) وبجانب هذه المجموعات توجد مجموعات لغوية أخرى وان لم يكن لها في عصرنا هذا من الأهمية ما لغيرها من اللغات سائلة الذكر إلا أنها مع ذلك كانت من اللغات الحية في الأزمنة الغابرة وبعضها للآن مازالت متداولة الأمر الذي يجعلنا نقدر حق قدرها بالرغم من تقادم العهد عليها ونختار منها مجموعة اللغات السامية التي نزلت بعض الكتب السماوية بها وهي لغات بنى سام وأعلى بها اللغات العربية والعبرانية والسريانية والآشورية والآرامية والسكندانية والحسرية والأبهرية الحبشية واللغة المصرية القديمة والقبطية الحديثة وكل هذه يرجع أصلها إلى بنى سام، وبالنسبة لقدم عهد تلك اللغات أصبح من المتعذر تحديد وقت انسلاخها من بعضها إذ كانت قبل التاريخ بألاف من السنين بيد أنه قد لوحظ بعض التشابه بين هذه اللغات وبعضها في النطق والمعنى ورسم الأحرف. وأن جل اهتمامنا في مصر يتجه إلى اللغة العربية التي هي لغة القطر واللغة الرسمية للبلاد، ولا يخفى أن مصر لغة وشعبا هي جزء من بنى سام إلى أن انسلاخها من الساميين كان قبل التاريخ، انتهى واقه أعلم.

﴿ الحكمة الثانية فيما يختص ببعض اللغات وبعض الأمم ﴾

قد جاء في كتاب (المد والجزر) ما يأتي :

قال جماعة من المؤرخين: إن التمدن العربي كان تمدينا إسلاميا صرفا والقرآن مصدر جميع العلوم التي عني بها المسلمون في أوج حضارتهم. فلتفسير آياته وسوره وجدت علوم الكلام وعلوم المنطق ولتفهم ما فيه من نظام وتشريع وجدت علوم الشرع والفقه ولم تكن غاية المؤرخين الأولين من العرب إلا تحديد وقت نزوله وتدوين الأحاديث النبوية. ثم ألبس الجغرافيون الأول أو علماء المسالك والأصاغر الذين مضوا من أقصى أفريقيا وآسيا لتأدية فريضة الحج ثم عادوا يصفون رحلتهم وما رأوه في البلاد البعيدة من الجديد غير للألوف. أم يكن غرض علماء اللغة إيضاح ما غمض من آي القرآن وتطبيق قواعد الصرف والنحو على نصوصه أم تطلب أرساد الفلكيين وعمليات الرياضيين لتحديد ساعات الصلاة وتوقيت مواعيد الحج والصوم. أم تستدع مسائل الوقاية الصحية والنظافة اهتمام الأطباء كما ظلت بعد تختمهم على البحث والتنقيب، نعم لم يهتم العرب في ذلك الدور بعلم من العلوم إلا لأن آيات القرآن قضت بعمرته لاجتلاء معنى غامض أو شرح قول مستفاد ومذاهب علماء الكلام هي التي نهت أبحاث الفلاسفة ومناظراتهم فكانوا بما نقلوا وما أوجدوا أساندة الفلاسفة الحديثة. سبق القول أن قد اشترك مع العربية لغتان أخريان تكونهما قوميتين نشرتا عقيدة دينية ومذهبا سياسيا بين شعوب مختلفة أى اليونانية واللاتينية فقد كانت اللاتينية مستعملة من كيبانيا في ايطاليا الجنوبية إلى الجزر البريطانية ومن نهر الرين إلى جبل الأطلس. واستعملت اليونانية من أقصى صقلية إلى شاطئ دجلة والفرات ومن البحر الأسود إلى تخوم الحبشة، لكن ما أضيقه انتشارا إذا ما قوبل بانتشار العربية التي امتدت إلى أسبانيا وأفريقيا حتى خط الاستواء وجنوب آسيا وشمالها إلى ما وراء بلاد (التر).

أما اللغة الفصحى فقد استولت على جميع أنحاء الشرق الإسلامي وإن لم تكن لها الغلبة كلغة كلامية على بعض اللغات في الشرق والشمال فقد أوجدت تبديلا محسوما في الفارسية والهندية والهندستانية والتركية

وقلت أفريقيا ولهجات التتر ، كذلك في اللغات الحديثة المشتقة من اللاتينية أو اللقبسات منها كالت كثيرة أصلها عربي ، لقد عدت اليونانية واللاتينية في صف اللغات الميتة منذ سقوط مدينتهما ، لما الذي حفظ العربية حية بعد زوال مدينة العرب بقرون سبعة ؟ إن الذي كان باعثا على تكوين المدينة العربية وهو الذي مازال حافظها إلى اليوم هو القرآن ، لذلك ستظل اللغة العربية حية مادام الإسلام حيا ومادام في أنحاء للسكونة ثلثائة مليون من البشر يضعون يدهم على القرآن حين يقسمون . انتهى ما أردته من الكتاب المذكور .

أقول . أليس من العجب أن الهواء الخارج من الرئتين الذي لم تكن وظيفته إلا إدخال الصالح للحياة وإخراج الضار لها قد نال وظيفة شريفة عالية غالية وهي الإفهام وحمل جميع العلوم وتنوع إلى نحو خمسة آلاف لغة وبعض اللغات قد تبلغ عشرات الألوف من الكلمات ، بأسبحان الله قد تنوعت اللغات كما تنوعت المادة لأن اللغات دالة والمادة مدلول عليها فتتبع الدال وتتبع المدلول ولولا حركة هذه الكائنات لم يتنوع الدال ولم يتنوع المدلول .

فيا ليت شعري ألا يعلم المسلمون أن هذا هو اختلاف الألسنة والألوان ، أفليس من العجب المهرز أن نرى أن الباحثين عن اختلاف اللغات هم الأوروبيون ، وأما اختلاف الألوان وتنوع العلوم فقد دون في كتب أسلافنا ولكن المتأخرون من المسلمين جهلوا النوعين . اللهم إنك جعلت اختلاف اللغات واختلاف الألوان من آياتك والمسلمون مازمون أن تقوم طائفة منهم بدرس تفرع اللغات وبدرس العلوم وتفرعها والصناعات المرتبة عليها ، وكيف يعرفون أنها دالة على جمال صنعك إلا بعد معرفتها ، اللهم إنك قد بينت على لسان رسولك ولكن المسلمين لا يفكرون ، وهذا التفسير قد وضع فيه كثير مما تركه المسلمون من علم أو عمل والله هو الولي الحميد . انتهى يوم السبت ١٦ من شهر مايو سنة ١٩٢٧ م

﴿ المقصد الثالث في نظام المدارس المفهوم من هذه الآية ﴾

إذا تأملت فيما كتبناه ألفت أني قدمت المادة والكلام عليها على أقسام الحروف ولكن في الآية قدم الله الألسنة على الألوان . أما تقديمي لذلك فلأن المادة أصل والصوت فرع ، فأما في القرآن فاسمع ما ألقى عليك : اعلم أن الله عز وجل علم أننا معاشر النوع الإنساني لا قبل لنا بجميع الحقائق إلا بالتعلم والتدريج فأعطانا الحروف الهجائية الناجمة من اللطاع الصوتية لتحليلها وتركيبها أولا حتى ندرب أنفسنا على تحليلها وتركيبها ثرا ونظما وكتابة وفهما وليس يمكن لأحد أن يعرف اللغة حق العلم إلا إذا حلل الكلمات إلى حروفها ورفض ونصب وركب الجمل وعرف نسبتها والموازنة بينها .

هذا هو الصراط المستقيم في تعليم جميع الأمم . يتدثون بالقراءة والكتابة ولا يشرعون فهم العلوم حتى يتنوا اللغة ، والعلوم التي عليها مدار الحياة ترجع إلى العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية وهذه لا تعرف إلا بتحليل الأشياء وإرجاعها لأصلها ولذلك تجد الناس كما أرجعوا الكلمات إلى حروف ليحرفوا اللغة أرجعوا للركبات جميعها إلى عناصر تبلغ (٨٦) فهذا التحليل بدونه لا تعرف حقائق الأشياء والذي سهل ذلك على الناس أنهم حللوا الألفاظ أولا فتعودوا على تحليلها فان الأسهل وهو تحليل الألفاظ مقدم على الأصعب وهو تحليل المادة في العلوم الطبيعية وحركاتها في العلوم الرياضية وهكذا يتدثى الناس بالعلوم الأدبية وفيها التثر والنظم والروايات وهكذا الحرفات التي تمثل فيها الحقائق بصور خيالية وكل ذلك باللغة ثم يشرعون في العلوم الطبيعية فتصقل العقل صقلا .

هذا هو نظام المدارس وهذا هو الذي ظهر في هذه الآية فانه قال سبحانه وتعالى « واختلاف ألسنتكم وألوانكم » قدم الألسنة ليفيد تقديمها في التعليم المدرسي على التعليم الطبيعي للنوء عنه بلفظ « ألوانكم »

وليكون التحليل اللفظي مقدما على التحليل للسادي وهذا التحليل مرموز له في أول السورة بلفظ «الم» فكأنه يقول إن اللغة مركبة من حروف هجائية هي هذه (الم) وتحليلها تدرسونها ولقد قدم سورة العنكبوت إذ ذكر (الم) وجاء فيها «قل سبروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق» وفي هذه السورة ذكر بدء الخلق وإعادة مرتين فقال «الله يبدأ الخلق ثم يعيده» وقال «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده» وفي الآيات التي بين هاتين الجملتين ذكر اختلاف الألسنة والألوان وأنها آيات للمعاني، وليس يعرف بدء الخلق إلا بالتحليل المرموز له بالحروف المذكورة في أول (سورة العنكبوت) وأول (الروم) فأما الألسنة المدلول عليها باللغات فأمرها ظاهر، وأما المادة فلا تعلم إلا بذلك وهذه مما يشير إليها (الم).

ابتدأ الله السورتين بالتحليل ليطلب من الناس تحليل العلوم وتحليل اللغات في الألسنة والألوان (وبعبارة أخرى) جميع العلوم وهكذا إذا سار الناس في الأرض فلا سبيل لهم كيف بدأ الله الخلق إلا بالتحليل المدلول عليه بذلك، وقد بينت لك تحليل المادة هناك كما أشار لك بلفظ (الم).

فأما السير الظاهري فإنه يستوى فيه الجاهل والعالم، فكأن الله يقول قبل أن تنطق بحرف من هذه السورة (اسمع التحليل وحلل) خلل الجمل وحلل الكلمات لتعرف معانيها وتراكيها وحلل معانيها فلا علم إلا بالوقوف على التفاصيل فذكر الألوان بعد الألسنة ترتيبا مدرسي، فأما الذين يقرءون اللغات وهم خلو من العلوم فأنهم يكونون قوما خياليين كأهل الأندلس نبغوا في الشعر واللغة وجهلوا العلوم فأخذتهم (أسبانيا) وأذا قوم سوء العذاب وهكذا أمة الإسلام اليوم لا علم عندها إلا قليلا وهم خياليون «إلا من رحم ربه» فعليهم أن يدرسوا العلوم الرياضية والطبيعية، ولعلك تقول هل الترتيب هنا يفيد ما ذكرت؟ إن هذا أمر بعيد، أقول على رسلك. أين أنت من ذكر خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة. ألم يقل للأتباع (نحن المهاجرون وأول الناس إسلاما وأحسنهم وجوها وأكثرهم ولادة في العرب وأمسهم رحما رسول الله صلى الله عليه وسلم. أسلمنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم فقال تعالى «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار») واستنتج من ذلك قوله (نحن الأمراء وأنتم الوزراء. إن هذا الأمر لا يصلح إلا لهذا الخي من مضر فإن نطق ناعق منكم وقع بين فسكى الأسد بجرعه المهاجر ويعارضه الأنصاري).

فانظر كيف استنتج من تقديم المهاجرين على الأنصار أن الخلافة فهم دون الأنصار. فانظر هذا الأمر الجليل العظيم كيف حرمت منه أمم وأمم من الأنصار في أجيال متعاقبة وحظي بها أبناء قريش. لماذا؟ لتقديم وتأخير، فلنقل هنا كذلك وإن العلماء هم الذين يدرسون الألسنة والألوان (وبعبارة أخرى) إن العالم الإسلامي هو من يدرس اللغة تمام الدراسة بعلمها المشهورة ويدرس العلوم الطبيعية بسائر ملحقاتها على ما تقتضيه سنة الدراسة في الأجيال المتعاقبة لأن الحكمة هي معرفة الأشياء بقدر الطاقة البشرية، فإذا استنتج الصديق من كلمين خلافة أعظم أمة في العالم فلنستنتج من نظيرتهما دراسة أعظم أمة في المستقبل إن شاء الله تعالى، وهي الأمة التي يظهر دينها على الدين كله وهي «خير أمة أخرجت للناس» وعلماؤها هم الذين يدرسون اللغة وسائر العلوم الطبيعية والفلسفية.

فلذا قال الله «ومن آياته خلق السموات والأرض» الخ فذلك ابتداء بذكر مأمته الأنواء ثم مأمته العناصر وبإشراق الضوء على عناصر الأرض تظهر المواليد الثلاثة ودراستها بتحليلها إلى عناصرها كالكلمات، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثانية المناسبة للخامسة.

﴿ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى «ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغواكم من فضله» ﴾

اعلم أن الإنسان له [حالان] حال يقظة وحال نوم ففي حال النوم يرى مزارع وطرفاً ومدارس ومساجد وأناساً وبأكل ويشرب وعجائب فإذا استيقظ لم يجد شيئاً من ذلك ، فالنوم بالليل يرينا العوالم التي لاحقيقة لها بالنهار فتق استيقظ الانسان أدرك الأ كاذيب الليلية ولا تظن إني في مقام الرؤيا الكاذبة أو الصادقة كلا بل كل ما تخيلناه في المنام فإننا نعده حقيقة ونحن في تلك الحال ولا يخطر ببالنا أن ذلك غير ذلك ولنا في المنام تعقل وجهل كما لنا في اليقظة كذلك . ألا ترى أننا كثيرا ما نرى أننا نكلم أصحابنا في مسائل علمية عقلية عويصة ألم نرى أن (ابن سينا) كان يحل أغلب العضلات العلمية في حال النوم ، فنحن في اليقظة نفكر وفي النوم نفكر وفيها أيضا تأتي بالحال الكاذب ونكذب في الحالين ، فحال النوم هي حالنا وحال اليقظة حالنا ونحن نحن في الحالين ، ثم إن حال النوم تنسخ حال اليقظة كما تنسخ النهار بالليل فأزال ظلامه ، إن ذلك من آيات الله لأن نفوسنا في المنام اخترعت أرضا وسما وعوالم وكل من الناس يخترع هذا الاختراع وهذا أمر عجيب جدا ، نحن في المنام لانكذب العالم الذي نكون فيه ، نحن نخترع عالما ونعيش فيه ، نسر ونفرح ونحزن فاذا استيقظنا لم نجد . عجبا أفليس هذا مما يذكرنا أن حياتنا بالنهار ربما كانت على هذا المنوال وأن حواسنا اخترعت هذه العوالم فاذا متنا وجدنا هذه العوالم لا أصل لها وأن ما نسقيه أرضا وسما وشمسا وقمرنا ونباتنا وحيواننا ونهرا وجبلا ما أكسبها هذه الصفات إلا حواسنا فاستبعدتنا فاذا متنا كانت لنا حواس أخرى فأدرت هذه العوالم بحال صدق من هذه . أو ليس هذا هو الذي ظهر في العلم الحديث في (نظرية اينشتاين) التي قدمنا ذكرها في هذا التفسير ، فهذا العالم قد نشر نظريته في أوروبا وقال كما قال غيره قديما وحديثا إن هذا العالم لا شيء فيه مما نراه وأن هذه الدنيا ما هي إلا حركات في الأثير وباختلاف الحركات كما وكيفما ظهر لحواسنا ما نحن ، فيه وإلا فالضوء والحرارة والثقل والخفة والصلابة وأمثالها هي خواص كسبتها للمادة بالنسبة لحواسنا لا لها في نفسها . أو ليس هذا يفهمنا ما روى (الناس نيام فاذا ماتوا اتبهوا) .

إن الله يقول هنا «ومن آياته منامكم بالليل والنهار» فاذا أخذ على ظاهر اللفظ عد معجزة لأن هذه هي النظرية الحديثة فإننا بالليل نيام وبالنهار في يقظتنا نيام لأن حواسنا اخترعت نهارا كما اخترعت مخيلتنا ليلا وهذا يعرفنا قوله تعالى « وما الحياة الدنيا إلا متاع الفرور » ولماذا لانعد هذا معجزة مع أن ظاهر اللفظ يقتضيه ولو على سبيل الرمز الذي هو من أقسام الكناية فنحن ننام بالليل وننام بالنهار مع ملاحظة الكناية في معنى النوم مادام العلم قد كشفه فهذه معجزة . ومن تأمل قوله تعالى « ألسنتكم وألوانكم » والعالمين جمع عالم (بكسر اللام) رأى أن هذه فيها (الم) على الترتيب مفرقة في الأولين مجموعة في الأخير وهكذا (سورة الضحى) جاء فيها « أولم يروا كيف يبدأ الله الخلق » فقها (الم) وكأنه لما قيل في أول السورتين (الم) يوقفنا الله لبحث العالم بهذه الإشارة لتكون علماء وتحلل العوالم لتكون حكما وهذا من أسرار القرآن التي ظهرت في آخر الزمان وأحدثت الوجهة واللفظ والرمز في السورتين معا والله أعلم . وههنا ثلاث عجائب :

(العجبية الأولى)

ما جاء في بعض الصحف المصرية تحت العنوان الآتي وهذا نصه :

(الانتقال الفكري - التليياتيا - النظر المضاعف)

(١) جاء في كتاب (أشباح الأحياء) ما يأتي :

كتب لنا المحترم (نومان) من خدمة البروتستانت في (ديغنبورت) قال « في شهر إدار سنة ١٨٥٤ كنت

مقيا (بأ كسفورد) فاعتراى ذات ليلة أم شديد في رأسى اضطلجت على أثره في فراشى دون خلع ثيابى وكانت الساعة التاسعة ليلا فبعد أن غفوت حملت بنفسى جالسا في بيت من تزوجت بها فيما بعد ولما انتهينا من الحديث ذهب كل إلى الرقاد فودعهم وحملت يدي الشمعة وانصرفت . ولما بلغت الدهليز لمت خطيبي صاعدة السلم وحدها وقد بلغت أعلاه فهرعت إليها يلح البصر وطوقت خصرها بذراعى وعندها استيقظت وجرس الساعة يدق العاشرة فتأثرت لهذا الحلم إذا كان غاية في الوضوح وكتبت لحطبيق أعليها به وقبل وصول رسالتى إليها جاءنى كتاب منها تقول لى فيه « هل كنت الليلة البارحة مفتكرا في محبة نحو الساعة العاشرة فانى عند صعودى السلم لارقاد سمعت خمس خطواتك ورائى وأحسست بذراعىك طوقا خصرى » وقد ذكرتها اليوم الحادث فلم تنسه بعد السنين الطوال اه

(٢) وجاء فيه أيضا مانسه . روى لنا (الستر موتون) سكرتير شركة البسيكولوجية ما يأتى :

توليت إدارة المدرسة الكبيرة سنة ١٨٧٢م وهناك صادفت لأو لمررة الأنسة التى صارت فيما بعد امرأتى وعند ما برحت منصبها أوصيتها لأسباب صوابية بعد مفاغحتها إحدى رفيقاتها فى المدرسة بأمر زواجنا وأن تتجنب مكاتبهن لهذه الغاية ، وبعد مضي ستة أشهر على زواجنا كنت إحدى الليالى على عادتى قاعدافى فراشى قرأ واذا بامرأتى هبت من رقادها قائلة حملت أنى ذهبت إلى المدرسة ودخلت غرفة أعرفها فى الطابق الأسفل فرأيت فيها أربع نسوة اثنتان من رفيقاتى والاثنتان الأخرى لا أعرفهما وكن يتحدثن ويضحكن وقد حملن بالذهب لرقاد فثبعتن ورأيت صديقتى (بيسى) قد دخلت غرفة النوم مع اثنتين من رفيقاتها ثم خلعت ثيابها واضطجعت فدنوت منها وأخذت بيدها قائلة «دومى على صداقتنا يا بيسى» ثم استيقظت وأنا متأكدة أنى كنت حقيقة فى مخادع المدرسة ، فقلت لها هذا علم بسيط ورهبان كان أوضح من غيره وبعدة ذهبت امرأتى لزيارة والسيها فأطلعنها هذه على رسالة جاءتها من إحدى صديقاتها فى المدرسة تنمسن أن تخبرها هل الأنسة ابنتها (وهى امرأتى) حية بعدام ميتة ؟ فظنرتى أن أذهب بنفسى عند صاحبة التحرير استوضحها عن داعى هذا التحرير ؟ فقالت لى إن الليلة الثلاثية كانت راقدة فى غرفة واحدة مع صديقتها (بيسى) وأن هذه صرخت فجأة من التمر فهرعت إليها لتسألها عن السبب فقالت رأيت الآن أمامى الأنسة (ك) وهى امرأتى قد أخذت يدي وقالت «دومى على صداقتنا يا بيسى» وغابت ، وفى ثانى يوم سرى الخبر بين الرفيقات ، فقال بعضهن هذا علم بسيط حملت به (بيسى) فى نومها وقالت أخرى . كلا . هذه رؤيا فى اليقظة تدل على موت صديقتنا وهذا ما حملن على إرسال الكتاب لتحقيق الأمر ، ثم استنطقنا عن وجود الرفيقتين اللتين كانتا مع (بيسى) وامرأتى لانهن وهما وعن موقع سريريهما فى غرفة النوم فكان ذلك كله مطابقا لما رأته امرأتى فى الحلم اه

(٣) ذكر العلامة الروسى (أكسكوف) من مستشارى حكومة القيصر سابقا الحادث الآتى فى كتاب له

فى هذا الموضوع ذائع الشهرة . قال مانسه :

(كانت أسرة (ك) مقمية فى مصيف لها فى (بانفوسك) فى ضواحي (بطر سبورج) وهى مؤلفة من الزوجين وامرأته وابنة صبية تدعى (فيرا) وغلالم فى ريجان الشباب برتبة ضابط بحرى وكان للأخوين تعلق شديد ببعضهما منذ نعومة أظفارهما ، فانفق للشاب وهو فى المصيف مع أبويه وأخته أن صدر الأمر إليه بالسفر شهرا فى عرض البحار فراققه آله إلى الرفأ وهناك تماهد الأخوان على مداومة الذكرى مدة التفراق وموت الأسابيع والرسائل تتوارد من الشاب تحرب عن سلامته وحينه إلى اللقاء إلى أن تغير الجو يوما وعصفت الرياح وهطل المطر كأفواء القرب فقلقت (فيرا) وتارت أعصابها وأخذت تتساءل كل لحظة عما حل بأخيها حتى انهرقت

عند الساء صحتها وانزوت في غرفتها لتسترخ . ولما كانت الساعة العاشرة سمع صوت مروع من غرفة الفتاة فأسرعوا إليها فإوها تتخبط وتصيح متشنجة وقد أصابها نوبة عصبية ولم يتمكنوا من تسكينها إلا بعد الجهد الجهد . ولما أفادت أخبرتهم قائلة « رأيت نسي وأنا يقظ في وسط شباب كثيف والعاصف نصف ردا . بما يصم الأذان وإذا بوميض برق أراني البحر يجمع بأمواله الزبدة ثم تلا ذلك لمعان نور أحمر رأيت على ضياله أخى يتخبط في وسط الأمواج ثم عادت الظلمة وعقبها جده هنية وميض برق آخر رأيت في خلاله أخى ممددا على صخرة وقد تضرع رأسه بالدم . باللهول » وفي ثالث يوم تقات البرائد خبر غرق الباخرة التي كان عليها الضابط الشاب بالقرب من (كروستاد) فأسرع للسيو (ك) إلى هذا القرية فوجد ابنه حيا يتألم من جرح في رأسه فأخبره أنه كان في إبان اشتداد العاصفة على ظهر الباخرة بهجس بيته وآله وقد وجه فكره خاصة إلى شقيقته يسألها أن تحصل لأجله وإذا بالباخرة ارتطمت بصخرة فارتجحت رجة هائلة سقط على أثرها في البحر وأخذ يمارك الأمواج لعله يتوصل إلى العودة للمركب ، وجد هنية رأى وميض نور أحمر يصعبه صوت طلق مدفع من الباخرة فلم أن لاسيل له إليها فلم أمره إلى الله وأيقن بالهلاك ، وإذا بضيابة لاحته من بعد وقد تجلى من خلالها شبح أخته (فيرا) تبسم له وتعد إليه فداعيا فأخذ يهجم نحو الشبح ولا يعلم كم دام ذلك إلى أن شعر بلطمة في رأسه وغاب عن الحس ، وفي ثاني يوم رآه بعض الصيادين ممددا على الشط مغمى عليه وفي رأسه جرح بليغ « اه .

(٤) هذا الخبر نشرته (مجلة الأخبار النفسية) في أحد أعداد سنة ١٨٩١ قولا عن كتاب أتاها من للسيو (ويلسوت) أحد أصحاب للعامل في مدينة (بريد جيورث) قال ما ملخصه :

(أبحرت على الباخرة (سبي أوف ليمريك) إلى مدينة (نيويورك) في (٣) تشرين الأول سنة ١٨٩٣ وفي مساء ثاني يوم ثارت عاصفة هائلة دامت تسعة أيام لم نرى خلالها سمرا ولا نجما ولا مركبا وفي الليلة الثامنة هذا البحر قليلا فتسكنت من الرقاد لأول مرة من ركوبى الباخرة فخلعت عند بزوغ النجم بأمرأتى التي كنت قادتها في (نيويورك) واقفة بياب غرقتي بقميص النوم وقد لحظت وجود شخص أجنبي معي في الترفة فترددت هنية ثم انسلت نحوى وقبالتى وبعد أن كلتني لحظة عادت بهنوء من حيث أنت ، ثم استيقظت حالا فوجدت رفيق محققا يصره إلى وهو يقول ما أسعدك زورك سيدة وتبلك وأنت نائم ، فاستغربت قوته واستنطقته بإلحاح فأخبرنى أنه كان على أمم اليقظة وقد رأى عيانا ما رأيت أنا في الحلم بكل عوارضه واسم هذا الرفيق (ويليام نيت) وهو رجل رصين صادق الشهادة ومن أهل التي لا يجب الهزل . ولما بلنا نيويورك بالسلامة اجتمعت بأمرأتى فكان أول سؤالها لى: هل تذكر زيارتى لك يوم الثلاثاء من الأسبوع الماضى قلت زيارتك لى ؟ كيف يكون ذلك وأنا بعيد عنك مسافة ألف ميل وأكثر في عرض البحر، قالت لا أجهل ذلك إنما يلوح لى أنى رأيتك في الباخرة ، قلت هذا مستحيل ومع ذلك أخبرينى عما حملك على هذا الظن قالت استحوذ على قلقي شديد وقت هبوب العواصف وكنت أفكر دائما فيك وفي الخطر المهدق بك إلى أن كانت ليلة الثلاثاء وقد سكنت العاصفة قليلا فلاح لى الساعة الرابعة أنى سرت إلى لفائك وقد جرت البحر الهائج حتى بلغت مركبا وطينا أسود تتجاذبه المياه فصعدت ظهره وتفقدت العرف إلى أن بلغت حجرتك وكان في معيتك شخص آخر متكئا على التخت الثانى الذى فوق تختك أخذ ينظر إلى بتجديق فترددت برهة في بادى الأمر ثم دنوت منك وضممتك إلى صدرى وانصرف . ثم استرسلت اسرأتى في وصف الباخرة وما عليها فكان ذلك مطابقا للحقيقة مع أنها لم تقع عينها عليها بنانا اه .

(٥) جاء في كتاب (فلاماريون) مانصه :

كتب إلى من (غاليسيا) الهامى الشهير الدكتور (رونيستانمايكي) يقول (قرأت من بضع سنين في مجلة انجليزية عن صديق لجون فرنسكلان) وهو أشهر رجالة حاول اكتشاف القطب الشمالى وهلك في رحلته (يدعى (والترسنو) أنه رأى ليلة في حله الصقع المجهول الذى هلك فيه الرحالة الشهير (فرنسكلان) ولما استيقظ صور البقعة التي رآها في حله بكل عوارضها مع القوارب وقطع الجليد والجليد المتجمدة وما جاورها ثم نشر هذه الصورة في جريدة أمريكية من باب الغرائب ، ولما اكتشفت بعد سنين آثار فرنسكلان ووفاته في الأسماع المتجمدة ورسم للصورون مكان الفاجعة جاءت رسومهم مطابقة بالتام لما كان قد صوروه والترسنو . انتهى والله أعلم .

﴿ العجيب الثانية ﴾

جاء في إحدى جرائدنا المصرية في شهر أكتوبر سنة ١٩٢٩ مانصه :

اكتشاف جريمة غريبة بعد عشر سنين

روى مكاتب (الديلي كرونكل) في برلين أن مزارعا ألمانيا يدعى (فردريك ديكرت) اختفى فجأة منذ عشر سنوات وكان جيرانه يعلمون أنه كان دائما في نزاع مع زوجته وأولاده وهم ثلاثة فقبض عليهم بنهمة قتل أبهم ولكن أطلق سراحهم لما لم يجد رجال البوليس بعد البحث والتحري دليلا يثبت إدانتهم وكان في القرية نجار قضى السنوات العشر في البحث عن جثة للزارع دون جدوى إلى أن صرح أخيرا بأنه رأى (فردريك) في المنام فأخبره أن جثته مدفونة في مكان معين في مزرعته . ويقول النجار إن هذه الرؤيا تكررت ثلاث ليال متوالية فلم يسع الرجل إزاء ذلك إلا أن ينهض من فراشه وسط الليل اليهم وأخذ يغفر في التقطعة التي أرشده إليها حتى عثر على هيكل عظمي على عمق أربع أقدام ، ثم واصل رجال البوليس بحثهم بعد ذلك فوجدوا ساعة فضية عتيقة مطمورة بجانب الجثة شهد سائقي القرية أنه أصلحها مرة لفردريك ديكرت فألقى القبض مرة أخرى على الزوجة والأولاد الثلاثة فاعترف أحدهم بأنه قتل والده دفاعا عن أمه وهي في خطر عظيم من جراء اعتداء أبيه وبعد أن قتله دفنه في هذا المكان مع أمه اه .

﴿ العجيب الثالثة ﴾

جاء في مجلة (كل شيء) مانصه :

تشتية الحيوان وهل هي ممكنة للإنسان ؟

(حيوان يبق (٣١) سنة بلا طعام أو هواء ويظل حيا)

في هذا العام منذ بضعة أشهر كان العمال في (نكساس) بأمريكا يكسرون حجرا فوجدوا في قلبه ضبا صغيرا حسبوه ميتا ولكنه تحرك وسمى وكان هذا الحجز في بناء مضى على بنائه (٣١) سنة وقد بشوا به إلى حديقة الحيوانات في (فيلادلفيا) وهو لا يزال حيا الآن . والشهور عند الأوروبيين أن الضفادع والملاجيم تبقى حية عدة سنوات وهي محبوسة وأن بعض الأحبار إذا كسرت خرجت منها هذه الأحياء وهي ضامرة الجسم مهزولة اللحم ولكنها حية ، وهذه القصة عن الضب الأمريكي لا تزال مثارا للشك بعضهم يصدقها وبعضهم يستبعد بقاء حيوان بلا طعام أو هواء (٣١) سنة . ولكن التشتية حقيقة لا يشك فيها أحد فهناك حيوانات كثيرة إذا أحست البرد عند هجوم الشتاء وقل الغذاء واكتست الأرض بالتليج انكفأت إلى جحورها وبقيت طول الشتاء أي نحو خمسة أشهر أو ستة أو سبعة وهي رابضة لا تتحرك ولا تأكل وكلنا يعرف أن الثعابين لا تسمى في الشتاء بل تتحوى في جحورها وتبقى كذلك إلى أن تحس الهدوء فتخرج . ومشهور عن النمل

في القطب الشمالي أنه يفعل ذلك وكذلك السنجاب والوطواط والفران ولكن التشية ليست عامة بين البومات
 أي تلك التي ترضع أولادها ولكنها تكاد تكون عامة بين الزواحف والحشرات ، وقد لحقت بعض
 الحيوانات مدة تشيتها فوجد أن السنجاب الذي يتنفس عادة مدة الصيف هو (٢٠٠) مرة في الحقيقة في وقت
 التشية لا يتنفس سوى ثلاث مرات أو أربع في الدقيقة بل أحيانا لا يتنفس سوى مرة واحدة كل دقيقتين ،
 ومعنى هذا أن الجسم لا يهترق منه إلا جزء قليل جدا بحيث أن مائة يوم من أيام التشية لا تساوي سوى
 يومين أو ثلاثة من مدة الصيف حين ينشط الحيوان ويسعى . وفي هذه اللة أي مدة التشية يأكل الحيوان
 نفسه فإذا كان آخر الشتاء نزل وزنه إلى النصف ، وكما يحدث هذا البطء في التنفس تنزل حرارة الحيوان
 إلى نحو (١٠) أو (١٢) فوق الصفر ، وتزول الحرارة يحمل الحيوان مستغنيا عن الغذاء إلا أنه ، وللحروف
 أننا جميعا ننام في الشتاء أكثر مما ننام في الصيف وأتأنا نزع أنفسنا من الفراش في الصباح نزعاً لأننا نستقيم
 إلى الصفه ونكره السى في البرد ولكننا في الصيف نبادر بالاستيقاظ ونستطيع كذلك المسهر ، ويقال
 إن الانسان الذي يعيش قريبا من القطب الشمالي يكثر من النوم في الشتاء بما يشبه هذه الحيوانات التي آلفت
 التشية فالإسكيمابيون والبوريات وهم القبول الروس يقضون معظم الشتاء في بيوتهم نائمين لا يستيقظون إلا
 ريثما يتناولون مزعة من شحم النعمة أو لحم السمك ثم يعودون إلى نومهم ، فالتشية تكون طبيعية في
 الإنسان والحيوان وهي وقوف أو بطء في الوظائف الفسيولوجية للجسم بل يمكننا من هذه الوجهة أن نقول
 إن النبات نفسه يعرف التشية فإنه يتجرد من أوراقه التي هي سبيل غذائه من الهواء ، وإذا كانت (٣١)
 سنة كثيرة على الضب فإنه مما لا يمكن الشك فيه أن الحيوان يمكنه أن يعيش بضع سنوات إذا أبط
 بالبرد الشديد وهو قائم نوم التشية بدون أن يهلك (انظر شكل ١٨) .



(شكل ١٨ - ضب أميركي يقال إنه قضى (٣١) سنة وهو حي لا يأكل ولا يشرب)

والأسمالك التي تعيش حول القطب الشمالي يدركها الثلج أحيانا فتجمد فيه فإذا ذاب عادت إليها الحياة .
 وفي النيل سمكة مشهورة تدعى (سمكة الطين) إذا انحسر الماء عنها اندست في الطين فيجب عليها وتبقى كذلك
 جامدة كأن لا حياة بها فإذا جاء الفيضان استيقظت وسبحت .

انظر شكل ١٩ في الصفحة التالية .



(شكل ١٩ - سمكة متجمدة في الثلج إذا
ذاب عنها عادت إليها الحياة)

قد علمت أيها الدكي كيف يكون نوم الإنسان نوما طبيعيا أو صناعيا مما يجعله هائما في عوالم أخرى تعطيه أخبارا ورؤيا صادقة وأخرى كاذبة، ثم كيف ينام السمك في الثلج أياما وأياما وأنت إذا قرأت ماجاء في (إخوان الصفاء) في هذا المقام وما قصه (العسوب) وهو رئيس النحل وملسكه (وهو مخطب في حضرة ملك الجن في تلك الرواية الخيالية البديعة التي جمعت أوصاف جميع الحيوان وأبانت أصفاه وأشكاله وأخلافه وعواطفه وتربيته لأولاده وتعنته ورأفته وذكاه وتصريفه لأموال الحياة) لا عتراك الدهش ولرايت العجب من (عسوب النحل) الذي ناب عن الحشرات في تلك الحضرة وأخذ يبين أن النحل ينام أيام الشتاء وأن النحل تجمع القوت ولكن لم يقل إنها تنام كالنحل ، وأبان أن الجراد في زمن الشتاء يموت . وأن دود القز ينام أياما ثم يستيقظ والزناير (الحر والصفروالسد) تنام أيام الشتاء كالنحل ولكنها لا تجمع لأنفسها قوتها مثلها كما تقدم في السمك النائم في الثلج ثم تستيقظ في فصل الربيع ، وأما البراغيث والبق والديدان فإنها عند تغير الزمان لا تنام بل تموت كما تقدم في الجراد، في هذا كله يفسر قوله تعالى هنا « ومن آياته منامكم بالليل والنهار » وذلك لأن النوم بقدر الحاجة فيكون للإنسان ساعات ولشرفة النحل ودود القز ودود سائر الحشرات أياما معدودات كما تقدم في (سورة طه) وغيرها إذ رأيت أيها الدكي هناك أن جميع الحشرات تنام وهي شرفة أياما وتنسج على أنفسها كرة تناسبها لافرق في ذلك بين دود القز والذباب وغيرها من مئات الألوف منها ثم تستيقظ كما يستيقظ دود القز وهذا مشروح شرحا تاما بالصور والأشكال. وعند الاستيقاظ تصبح طائرا يطير في الجو ، ويكون ذلك النوم لنفس النحل ولنفس الزناير بأنواعها شهور فصل الشتاء وهذا الأخير هو الذي أوضحه كتاب (إخوان الصفاء) .

هناك حضر صاحبي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير ولما اطلع على هذا القول حسن في تفسير الآية ، ولكن لو ذكرت لنا نص ما قاله (إخوان الصفاء) في هذا المقام لكان أمم للفائدة . قلت : قال ثم تكلم النحل وقام خطيبا مذكرا مسبحا ، وقال الحمد لله الواحد فاطر السموات وخالق المخلوقات ومدبر الأوقات ومنزل القطرات والبركات ومنبت العشب في الفسوات ومخرج الزهر في النبات وقاسم الأرزاق والأقوات نسبه في صباحنا بالغدوات ونحمده في رواحنا بالعشبات بماعلنا من الصلوات والتحيات كما قال الله تعالى « وإن من شيء إلا يسبح بحمده وإن لم تكن لاتفقهون تسبيحهم » .

أما بعد أيها الملك العادل . يزعم هذا الإنسى بأن لهم علوما ومعارف وفكرا وروية وتديرا وسياسة تدل على أنهم أرباب لنا ونحن عبيدهم فلو أنهم فكروا في أوامرنا واعتبروا أيضا أحوالنا لبان لهم من أمرنا وعرفوا من تصريف أحوالنا وتعاوننا في إصلاح شأننا أن لنا أيضا علما وفهما ومعرفة وتميزا وفكرا وروية وسياسة وتديرا أدق وألطف وأحكم وأتقن مما لهم . فمن ذلك اجتماع جماعة النحل في قراها وتعليقها عليها رئيسا واحدا واتخاذ ذلك الرئيس أعوانا وجنودا ورعية وكيفية مراعاتها وسياساتها وكيفية اتخاذها المنازل والبيوتات المسدسات المتجاورات المكتنفات من غير بركار ومعرفة هندسية كأنها أنابيب مجوفة مسدسة ثم كيفية ترتيبها البوابين والحجاب والحراس والمحتسين وكيف تذهب في المرعى أيام الربيع وليلالي القمر في الصيف وكيف تجمع الشمع بأرجلها من ورق الأشجار والعسل بمشائيرها من زهر النبات ثم كيف تخزنها في بعض البيوت وكيف تشد رأسها كأنها رهوس البراني مشدودة بالفراطيس وكيف تبيض في بعض البيوت وتمضن وتفرخ وكيف تأدى في بعض البيوت وتنام فيها أيام الشتاء والصيف والبرد والرياح والأمطار وكيف يتقوتون من ذلك العسل المخزون هي وأولادها يوما بيوم لا إسرافا ولا تقتيرا إلى أن تنقضى أيام الشتاء ونجى أيام الربيع وينبت العشب ويطيب الزمان ويخرج النبات والزهر والنور وكيف ترعى كما كانت عام الأول وذلك دأبها من غير تعليم من الأستاذين ولا تأديب من المعلمين ولا تلقين من الآباء والأمهات بل تعلمها من الله تعالى ووحيا وإلهاما وانعاما وتكرما وتفضلا علينا ، وأنتم يامعشر الإنس تدعون علينا بالركة وأنتم موالينا فلم ترغبون في فضالتنا وتفرحون عند وجدانها وتستشفون عند تناولها فمن كان ملكا كيف يحرم ويرغب في فضالة الخدم والحول ونحن مستغنون عنكم ؟ فليس لكم سبل إلى هذه الدعوات إذ الدعوى زور وبهتان . وأيضا أيها الملك لو علم الإنسى من حال النمل فإياها كيف تتخذ القرية تحت الأرض منازل وبيوتها وأزقة ودهاليز وغرفا وطبقات منعطبات وكيف تملأ بعضها حبوبا وذخائر وقوتها لشتاء وكيف تجعل بعض بيوتها منخفضة مصنونا كيلا تجرى إليها المياه وبعضها مرتفعا وتخزن الحب والقوت في بيوت منعطفات إلى فوق حذرا عليها من المطر وإذا ابتل منها شيء كيف تذر أيام الصحو وكيف تقطع حب الحسطة نصفين وكيف تقشر الشعير والياقلا والعدس لعلها بأنه لا يئيب مع التقشير ؟ وتراها كيف تعمل أيام الصيف ليلا ونهارا بائخاذ البيوت وجمع الذخائر وكيف تتصرف في الطلب يوما بيوم وإسرة في القرية كأنها قوافل ذاهبين وجائين وأنها إذا ذهبت واحدة منها فوجدت شيئا لا تندر على حمله أخذت منه قدرا ما وذهبت راجعة مخبرة للباقيين وكلا استقبالها واحدة شامتتها مما في فيها لتدلها على ذلك الشيء ثم ترى الكيفية كل واحدة منها على ذلك الطريق الذي جاءته من هناك ثم كيف تجمع على ذلك الشيء جماعة منها وكيف يحملونه ويحترزونه بجهد وعناء في المعاونة وإذا علمت أن واحدة منها توانت في العمل أو نسكست في التعاون اجتمعت على قتلها ورمت بها عبرة لغيرها . فلو تفكر الإنسى في أمرها واعتبر أحوالها لعل أن لها علما وفهما وتميزا ومعرفة ودراية وتديرا وسياسة مثل ما لهم ولما أفتخر علينا بما ذكر .

وأياها الملك لو تفكر الإنسى في أمر (الجراد) إنها إذا سمعت أيام الربيع من الرعى كيف تطلب أرضا طيبة التربة رخوة الحفرة وكيف نزلت هناك وحفرت بأرجلها محاليتها وأدخلت أذنانها في تلك الحفرة وطرحت بيضا فيها ودفتته وطاروت وعاشت أياما رأيا كأنها الطيور وماتت من بقاء وهلاك من حر أو برد وقت ثم إذا دار عليها الحول وجاءت أيام الربيع واعتدل الزمان وطاب الهواء فكيف ينشر من ذلك البيض المدفون مثل الدبيب الصغار على وجه الأرض وأكلت من ورق الشجر وسمنت وباضت مثل عام أول وهذا دأبها وذلك تقدير العزيز العليم ، فليعلم هذا الإنسى أن لنا علما ومعرفة وهكذا أيضا أيها الملك دود القز التي تكون على

رؤس الأشجار والجبال فانها إذا شبت من الرعى في أيام الريح وسجت أخذت تنسج على نفسها من لهاها
 في رؤس الجبال شبه العنق والسكن ثم تمام أياما معلومة فاذا انتهت طرحت يعضها في داخل ذلك السكن الذي
 نسجت على أنفسها ثم تقبها وخرجت منها وسدت تلك الثقب وخرجت لها أجنحة وطارت فيا كلها الطير
 أوامات من الحر والبرد والريح والطر ويقي ذلك البيض في تلك الجوزات محروزة أيام الصيف والحريف والشتاء
 من الحر والبرد والرياح والأمطار إلى أن يحول الحول ويحجى أيام الريح ويحضن ذلك البيض في الجوزات
 ويخرج من ذلك للثقب مثل الدبيب الضار وتدب على ورق الشجر أياما معلومة فاذا شبت وسجت نسجت
 على نفسها من لهاها مثل العام الأول وذلك دأبها أبدا (وذلك تقدير المزرع العظيم الذي أعطى كل شيء خلقه
 ثم هدى) إلى أمور مصالحها ومنافعها ، وكذلك أيضا لها تلك حال الزناير الصفر والحر والسود فانها تبنى
 أيضا منازل في السقوف والحيطان ومن بين أغصان الأشجار مثل ما يفعل النحل وتحضن وتبيض وتفرخ
 ولكنها لا تصبح القوت للشتاء ولا تدخر كغذ شيئا ولكنها تنفوت يوما بيوم مطاب لها الوقت ، فاذا أحست بتغير
 الزمان وحجى الشتاء ذهبت إلى الأهوار واللواضع السكنينة الدفنة ومنها ما يدخل في ثقب الحيطان
 واللواضع السكنينة الحصينة وتنام فيها أياما طولا للشتاء ، وإذا جاء الريح واعتدل الزمان وطاب الهواء نفع الله
 تعالى فيما سلم من تلك الجثث روح الحياة فضلت وبنت البيوت وباضت وحضنت أولادها مثل عام الأول فهذا
 دأبها (ذلت تقدير المزرع العظيم) وكل هذه الأنواع من الحشرات والهوام تبيض وتحضن وتربي أولادها بلم
 ومعرفة ودراية وشفقة ورحمة ورأفة وتحزن ولطف ورفق ولا تطلب من أولادها البر والمكافأة والجزاء ،
 فأما أكثر الإنس فيريدون من أولادهم برا وصلة وجزاء ومكافأة ويمنون عليها في تربيتهم أيام ولبن هذا من
 اللزومة والفضل والكرم والجود والسخاء الذي هو من شيم الأحرار الكرام من أرباب الفضل ، وعاقبا
 ينتخر الإنس علينا إذ ألدما كولاتهم فضالتنا وأحسن ملبوساتهم فضالة دود القز ، فهم في ما كولاتهم وما بوساتهم
 تحت متاولنا أيدي النعمة عليهم فكيف يدعون أنهم أرباب لنا ونحن عبيد لهم ، ثم قال النحل أما البراغيث
 والبق والديدان وما شاكلها من أبناء جنسها فانها لا تحضن ولا تلد ولا ترضع ولا تربي أولادها ولا تبنى البيوت
 ولا تدخر العشب ولا تتخذ السكن بل تقطع أيام حياتها مرفهة ومستريحة بما يقاسى غيرها من برد الشتاء
 والرياح والأمطار وحوادث الزمان ، وذا تغير عليها الزمان واضطرب السكبان وتقلب طبائع الأركان أسلمت
 نفسها للذوالب والحدثان واقادت للحمات ليلها قبيحا بالمعاد وتعلم أن الله تعالى منشئها ومعيدها في العام القابل
 لتكون كما أنشأها أول مرة ولا تقاول ولا تتكرك كما أنكرت الإنس وقالت (أنا لمردودون في الحافرة ، أمذا كنا
 عظاما نخره ، قالوا تلك إذن كرة خاسرة) فلواعتر هذا الإنس أيها الملك فيما ذكرت من هذه الأشياء من
 تصاريف أمور هذه الحشرات والهوام لعم وتبين له بأن لها علما وفهما ومعرفة وتمييزا ودراية وفكرا وروية
 وسباسة وتدبيراً . كل ذلك عناية من البارئ تعالى ، ولما افتخر علينا فيما ذكر أنهم أرباب ونحن عبيد لهم
 (أقول قولي هذا وأستغفر الله إنه هو الغفور الرحيم)

فلما فرغ النحل من كلامه قال له الملك بارك الله فيك من حكيم ما أعلك ومن خطيب ما أفصحك ومن
 سين ما أبلغك . انتهى

هذا ما أردت منه من كتاب (إخوان الصفاء) للدلالة على نوم بعض الحيوان في الشتاء شهورا كما نام
 بعض دودة أساييس كما نام الإنسان ساطات ، فهل لك أن ترى أعجب مما تقدم ، لقد علمت فيما مضى في هذا
 التفسير في مواضع مختلفة أن النبات له حياة وله إحساس وهو أيضا بنام وذلك ظاهر في زهره للشروح شرحا
 وإفيا فيما تقدم ، إنما الذي يجر له القلاء سجدا أن يقال أن الحبوب كالقمح والشعير والقدرة وهكذا مما لا عد

ه تنفس كما يتنفس النبات وكما يتنفس الحيوان وإذا كانت الجيوب تنفس فعندها نوع من الحياة إلا أن
حياة ولكنها نائمة ، إذن هي كالجنين في بطن أمه وكأصول القرمح في البيضة ، كل هذه عندها نوع من الحياة
إذن الجيوب نائمة ، فهل لك أن تسمع ماجاء في إحدى المجلات العلمية وهذا نصه :

الحياة حتى للحب

(كيف يمكنك أن تفسر ما رآه في كل يوم من الظواهر الكيميائية)
(كأن حتى يعيش ١٠٠٠ سنة)

رى أن يقول والحبوب تحيط بها أغلفة صلبة ويقرر العلماء أن في داخل كل حبة منها كائن حي كامل
في نواتها ، فهل تعتقد أن هذا الكائن الحي يمكنه أن يتنفس من وراء هذا الغلاف الصلب ؟ ولأريب في أن
يتنفس الكائن الحي الموجود في داخل الحبة مثل ومثلك ولكن بأسلوبه الخاص ، فهو يستمد الأوكسجين
من الهواء وبعد أن يتمثل في جسمه يرسله في الجو ثاني أوكسيد الفحم أي مثل الإنسان بالضغط ويستمر بفطرته
على هذه الظاهرة طالما يبقى في الحبة ولو أقل جزء من قوتها الحيوية أي أن لم تعطها بعض الجراثيم أو الحشرات
أو تحرق بالنار ، وقد يمتد أجل الكائن الحي الموجود في الحبة إلى (٨٠٠) سنة ولا ينقطع تنفسه الذي تقدم
شرحه ، فإذا وضعت الحبة في تربة صالحة إستمد منها ما يلزم من الغذاء وظهر في الوجود شجرة نضرة اه
(زيادة إيضاح قوله تعالى «ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتعاؤكم من فضله»)

يقول بعض علماء العصر اليوم إن الجيوب تنفس ولا عجب في ذلك فإنها تخالف الأحجار والعين . فذلك
لا يتنفس لما لأها جماد أمهذه فهي أصل النبات وجرثومته . وهل يكون الحي وهو النبات من غير حي وهو
الحي . كلا . بل الحب له حياة ضئيلة كحياة النائم . ولما كان نوم الإنسان هو المذكور في الآية وإنه من آيات الله
كان من حقنا أن نقول لافرق بين نوم ونوم في كونها كلها من آيات الله بل من أعجب آيات الله أن أصبحنا
رى حب القمح الذي تأكله له حياة وقد جعلناه من العوامل النائمة ، إذ من الحكم وعجائب العلم ما يفعله هذا
الإنسان ، إنه قد نظر فرأى الزناير (الصفير والحمر والسود) تمام زمن الشتاء كما تقدم ، ورأى بعض الحيوان
ينام يبرد الثلج شهورا فماذا فعل ؟ قال في نفسه . أولا يمكن أن أفضل ما يفعله الحيوان والحشرات ، ولماذا
لا أتم شهورا ؟ هنا لك قام البوزية والبراهمة بهذه التجربة فناموا ستة أشهر ، وقد طلعت على كيفية ذلك في
كتاب (رجا يوقا) لترجم من الهندية إلى الإنجليزية وتقلت عنه كثيرا في هذا التفسير ، لماذا يفعل هؤلاء
القوم ؟ يحسون النفس داخل تارة وخارجا أخرى بالتدرج أطول فأطول حتى تقدر النفس أن تتمك في
التنفس وهناك تصير الدورة السموية تحت إدارة الإنسان ، هنا لك متى أراد النوم نام وبقى نائما ستة أشهر كما
قلت لك وهذه قوة من هذا الإنسان قدر بها أن يغير عاداته بنفس النوم ، وهذا قول سبق بيته في سورة
الإبراء وفيها ذكر التجارب التي ظهرت في مصر من هذا النوع .

هذه تجارب أهل الهند قديما ولكن الإنسان الحالي نظر نظرة أخرى فقال الطير يطير والأرض والحبو
مخترت لي فلماذا لا أطير في الجو ؟ ولماذا لا أفضل في المادة ما أشاء ؟ ولا أتف مكتوف اليدين أمام الطبيعة
فلا تغير كل شيء .

هذا ولما كان نوم الإنسان يعقبه العمل قال الله تعالى « وابتعاؤكم من فضله » وهذا فتح باب التسكلام
على الحركة . فهنا (حالان) نوم بدم الحركة ويقظة بالحركة . وإذن وجب أن نذكر شدة من كلام الأطباء

في النوم وفي اليقظة تسهلا لقراء هذا التفسير في علم الصحة وتذكرة لمن يتفكرون . فلذا ذكر أولا ساعات النوم ثم تتبعها بما جاء في الحركات المختلفة النافعة لصحة الإنسان .

(الكلام على النوم وساعته وما يناسبه)

جاء في كتاب (التدبيرات الصحية) الذي ألفه طبيبان مصريان في علم الصحة للمدارس المصرية مانصه :

(النوم)

الإنسان في حاجة شديدة إلى النوم لأنه من ضروريات الحياة فلا يحيا بدونها كما دلت على ذلك التجارب في الحيوانات . فالكلب مثلا لا يعيش أكثر من خمسة أيام بدون نوم . والإنسان لا يمكنه أن يعيش زمنا طويلا من غير أن يأخذ حظه من النوم إذ يتغير لونه ويحصل له آلام في الرأس وضمف عن مزاوله أعماله لاضمحلال جسمه . وإذا استمر على عدم النوم انصرم جبل حياته .

(أوقات النوم وعدد ساعته)

يختلف احتياج الجسم إلى النوم باختلاف السن . فالطفل محتاج إلى النوم مدة أطول مما يحتاج إليها الشاب كما يظهر ذلك من البيان الآتي :

- الذين سنهم من (٤) إلى (٨) سنوات ينامون من (١٠) إلى (١٣) ساعة .
- الذين سنهم من (٩) إلى (١٣) سنة ينامون من (٩) إلى (١٠) ساعات .
- الذين سنهم من (١٣) إلى (١٦) سنة ينامون مقدار (١٠) ساعات .
- الذين سنهم من (١٦) إلى (٢٥) سنة ينامون مقدار (٩) ساعات .

يقول المؤلف ومعلوم أن الكلام خاص بتلاميذ المدارس ومعلوم أن كبار السن تنقص مدة نومهم ساعة أو ساعتين على حسب السن والأحوال .

فلسي يتمكن الإنسان من نومه المدة اللازمة له يجب أن يجعل النوم حتى يستيقظ من نومه مبكرا فيذهب إلى المدرسة في الصباح المحدد لها فإذا أطالت السهر ولم تنم المدة الكافية لسنك ضعف جسمك وعقلك فلا يمكنك فهم دروسك أو القيام بعملك . وإذا أصبت بأرق فاستشر الطبيب ليرشدك إلى ما يجب اتباعه كما أنه يجب ألا تنكث من ساعات النوم لأن ذلك يجلب الكسل وضمف الجسم وآلام الرأس وضمف شهوة الأكل فتصبح متأخرا عن اخوانك في الدراسة لتأخرتك في الذهاب إلى المدرسة وصعوبة فهمك فلا ينتظر منك حينئذ أن تكون نشيطا في مستقبل حياتك بل تعيش نكداء ، لأنهم عقب تناول العشاء لأن ذلك يسبب الأحلام للزعجة وربما أرققت وقد عرفت مضار الأرق فلا تنذهب إلى فراشك إلا بعد مضي ساعتين على الأقل من تناول عشاءك وإياك أن تنام عقب الانتهاء من مذاكرتك أو لعبك لأن ذلك ينجم عنه عدم راحتك في نومك ، فإذا استرحت قليلا نمت نوما هادئا واستيقظت قويا نشيطا ، اغسل وجهك ويديك وقمك وأسنانك وقدميك قبل النوم لكي تنام نظيفا مسترخيا وغير ملابك بسواها من الملابس الخاصة بالنوم ، ويجب أن تنام على جنبك الأيمن .

يجب أن تكون حجرة نومك بحيث يسهل تجديد هوائها بعيدة عن كل محل تنبعث منه رائحة كريهة وأن تغذ إليها أشعة الشمس نحو ساعتين كل يوم ولا تستعمل مصابيح الغاز أو الزيت أو الشمع في حجرة نومك وأترك إحدى نوافذها البعيدة عن مرقدك مفتوحة طول الليل ، ولا تخش البرد مادام جسمك مغفلى بضياء كاف للدفء .

﴿ فراش النوم ﴾

يوضع الفراش على شيء مرتفع عن الأرض مثل السرير ليكون الجسم بعيدا عن رطوبة الأرض ويتكون الفراش من حشية (مرتبة) وبخس أن تكون من القطن فوقها ظهارة (ملاءة) من النيل أو القطن لتحتفظها من الاتساخ وعليها وسادة مغطاة ولحاف أرقطيفة (بطانية) للغطاء وينصب على السرير كاه (ناموسية) للوقاية من الأمراض التي تنتقل بالبعوض .

﴿ تجديد الهواء في قاعات النوم والفراش ﴾

بعد النهوض من النوم صباحا تفتح نوافذ الغرفة جميعها وتزج جميع أجزاء الفراش وتنتشر على النوافذ وتترك القاعة على هذه الحالة نحو ساعتين يكون الفراش فيها معرضا لأشعة الشمس ثم يفض الفراش من الأتربة وينقى من الحشرات وغيرها . وبعد تنظيف القاعة جيدا يوضع الفراش على السرير وتغفل النوافذ إلا جزء من نافذة يترك طول النهار مفتوحا ، وقبل ميعاد النوم بساعة تفتح النوافذ ليتجدد الهواء ، ويجب غسل حشب السرير الذي توضع عليه الحشية (المرتبة) كل أسبوع وتعرضها للشمس لتنتقى من بيضات بعض الحشرات كالبق المنتشر في كثير من المنازل . انتهى الكلام على النوم وساعاته وما يناسبه .

﴿ الكلام على الحركات المختلفة النافعة لصحة الإنسان تفسيرا لقوله تعالى «وابتغواكم من فضله» ﴾

معلوم أن هذا الابتغاء إنما يكون بالحركة فليكن الكلام في أنواعها فنقول جاء في كتاب (قانون الصحة للزلية) تأليف الأستاذ (جون سايكس) مانصه:

﴿ الرياضة البدنية ﴾

من الحكم للأثورة ماورد (العقل السليم في الجسم السليم) ولذلك يلزم حفظ وظائف الجسم في حالة جيدة باستعمال الرياضة ، لحفظ العقل يكون باستمرار رياضة الجسم ، العضلات غير الإرادية تقبض وتنبسط بنظام خاص وذلك لحفظ وظائفها الطبيعية ، وتفيد الرياضة البدنية جميع الأشخاص مهما اختلفت سنهم إلا أنها تفيد أكثر في سن الطفولية ولذلك يلزم أن تكون الرياضة البدنية جزء مهما من الدراسة للبنين والبنات

﴿ فوائد الرياضة البدنية هي ﴾

- (١) جعل العضلات أشد صلابة ومتانة .
- (٢) زيادة التنفس وبذلك يزيد فعل الرئتين فيزيد تهوية الدم .
- (٣) تقوى القلب وتزيد سرعة الدورة الدموية فتعتدل الحرارة في جميع الجسم .
- (٤) تزيد فعل الجلد فيكثر التبخر من سطحه .
- (٥) سرعة الهضم وتحريض أعضاء الإفراز والأمعاء والكلى على العمل وبذلك تخرج جميع الإفرازات التي لا تفيد الجسم .
- (٦) وأخيرا تنشيط القوى العقلية .

وإذا عمادى الإنسان في الرياضة البدنية وتحمل منها أكثر من طاقته أضر بنفسه كثيرا بدل الفائدة التي كان ينتظرها ولذلك يلزم الإنسان التدرج في التمرينات البدنية حتى يصل إلى الدرجة التي تفيده منها لأن إجهاد الجسم فيها ينجم عنه أضرار عديدة ولاسيما الاجتهاد الذي يقوم به المتسابقون في الحفلات ، ولذلك يجب عدم الترخيص بالنسابق إلا لأقوياء البنية والذين تمرنوا على الألعاب تدريجا حتى وصلوا لدرجة الدخول في المسابقة وكلما تنوعت أنواع التمرينات كانت النتيجة مرضية .

﴿ أنواع الرياضة البدنية المختلفة ﴾

يمكن حمل الرياضة البدنية داخل المنازل أو خارجها ، وتمتاز الرياضة خارج المنازل عن التي داخلها بتغيير المناظر وتقاوة الهواء إلا أنه في فصل الشتاء يفضل عملها داخل المنازل ، ولكن يمكن الجمع بين الاثنين بأن يمضى الإنسان مدة من الزمن قدر ساعة يوميا خارج المنزل ويقوم ببعض الألعاب الرياضية داخله كالربيع وهو اللعب بالرباطع وهي أفعال التمرينات البدنية مدة عشر دقائق بعد حمام الصباح وذلك فيمكن للبدن على الخصوص لحرماتهم من الهواء النقي . والرياضة البدنية على أنواع كثيرة ، منها ما يقصد منه للتكسب كالنجارة والحفر والحفر وغيرها . يقول المؤلف وهذا قوله تعالى « وابتغوا من فضله » ، ومنها ما يقصد منه التسلية والصحة كالتمرينات البدنية .

﴿ العموم والتجديف ﴾

تتحرك أغلب عضلات الجسم في الحركات التي يقوم بها الجسم أثناء العموم ، والعموم يفيد لأنه يقوى البنية ويزيد في نظافة الجسم ويعلم الأطفال الشجاعة والاعتماد على النفس وإغاثة العرق ، والذين يجرهون العموم يسرون من التجديف وهو رياضة بدنية صحية تقوى عضلات الأطراف والجذع .

﴿ ركوب الدراجات ﴾

لا يفيد الصدر كالتجديف إلا أنه يفيد الإنسان من حيث التمتع بالهواء الطلق ويلزم الاحتراس من إجهاد الجسم في هذا التمرين فإنه ربما أضر القلب ، ويجب الامتناع عن صعود الجبال على الدراجات ، ولها ضرر آخر وهو الضغط على الأجزاء المرغوبة من جسم الإنسان .

﴿ المشي ﴾

للمشي أكثر أنواع الرياضة البدنية استعمالا وفيه تتحرك كثير من العضلات زيادة عن عضلات الساقين ويمتاز عن غيره من التمرينات بالتمتع بالمناظر التي لا يمكن الوصول إليها راكبا .

﴿ الجباز والتمرينات الحربية ﴾

تكسب الجسم صحة وتعلم الإنسان النظام وتغرس في نفسه ليل للعمل بنظام خاص وتملحه حب الاجتهاد بين جنسه .

﴿ ركوب الخيل ﴾

ركوب الخيل من أحسن أنواع الرياضة البدنية وأصحها لمن استطاع ذلك ويمكن معه الصيد باستعمال الأسلحة النارية ، ومن الرياضة البدنية كرة القدم والكرة والصولجان والكرة والضرب والشيش .

﴿ الصلاة ﴾

الصلاة مع كونها فريضة دينية لا بد من القيام بها فهي رياضة صحية تكسب الجسم نشاطا وهدوءا بحركات الركوع والسجود والتسليم اه .

هذا وإني أذكرك أيها الذي بما ذكرته في علم الصحة في سورة (طه) وفي سورة (الشعراء) فإنك تجد كلاما أولى وأتم في الرياضة البدنية التي تشر بها هذه الآية في قوله تعالى « وابتغوا من فضله » انتهى الكلام على القسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

(التقسيم الرابع)

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ
 فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ
 لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا
 لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا
 لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُبَيِّنًا إِلَيْهِ
 وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا
 شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ
 إِذَا أَدَّاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَعْتَمُوا
 فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ * وَإِذَا
 أَدَقْنَا لِلنَّاسِ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ *
 أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *
 فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّكَ لِيَرْبُؤُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ
 وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
 ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ
 مِنْ شَيْءٍ مُسْتَعَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي
 النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ
 كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ * فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقِيمِ مِنْ قَبْلِ
 أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ * مَنْ كَفَرَ فَقَلْبُهُ كَفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ
 صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِ يَتَّهَدُونَ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الْكَافِرِينَ • وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفَلَاحُ
 بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ، وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ
 فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ • اللَّهُ الَّذِي
 يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَنْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ
 مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ • وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ
 أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ • فَأَنْظِرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْبِي الْأَرْضَ بَعْدَ
 مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُخْبِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • وَلَنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا
 لَظَلَمُوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ • فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا
 مُدْبِرِينَ • وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ •
 اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا
 وَشِبْهَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ • وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ •
 مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ • وَقَالَ الَّذِينَ أَتَوْا آلِمِمْ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا
 فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ • فَيَوْمَئِذٍ
 لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَعْذِرُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ • وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ
 كُلِّ مَثَلٍ وَلَنْ جِثَّتْهُمْ بَايَعَهُ لِيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ • كَذَلِكَ
 يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ • فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفِّكَ
 الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ •

(التفسير اللفظي)

قال تعالى (ضرب لكم مثلا) منزعا (من أنفسكم) أي من أحوالها ، ولا جرم أنها أقرب الأمور
 إليكم (هل لكم) يا معشر الأحرار (بما ما كنتم أيمانكم) من ممالئكم (من شركاء فيما رزقناكم) من
 العفار والنقول والنفقة فهكزون لهم وهم فلا مستويين يتصرفون فيه كغيركم وهذا قوله (فأنتم فيه سواء
 تخافونهم) أن يستبدوا بالتصرف فيه (كخيفتكم أنفسكم) كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض ، المعنى هل
 أتم أي الأحرار تشركون معكم عبيدكم في أموالكم فيساوونكم في التصرف فيها ولا تصرفون فيها إلا بلذتهم

خوفا من لائحة تلمحكم منهم كما يخاف بضعكم بضا ، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم وأنتم وهم عبيد فكيف ترضون لرب الأرباب أن تجعلوا عبيده له شركاء (كذلك) مثل ذلك التفصيل (فصل الآيات) نيينها بالتجليل الكاشف للمعاني (لتوم بمقلون) يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال (بل اتبع الذين ظلموا) بكفرهم وإشراكهم (أهواءهم بشير علم) جاهلين ولا علم ردهم ، فأما العالم فرجما رده علمه إلى الصواب يوما ما (فمن يهدي من أضل الله) أي لا أحد يقدر على هدايته (وما لهم من ناصرين) يخاصونهم من الضلالة والعذاب (فأقم وجهك للدين) فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا ، وهذا استعارة تمثيلية لتوجه التام وعدم الميل عن الدين والاهتمام به اهتماما مصحوبا بمجد (حنيفا) أي حال كونك غير ملتفت عنه وهذا من بقية التمثيل إلزموا (فطرت الله التي فطر الناس عليها) خلقهم قائلين للتوحيد والإسلام غير منكرين له ولذلك قال : (لا تبديل لخلق الله) أي أن الله خلقهم قائلين للتوحيد والإسلام غير منكرين له لكونه مساوقا للنظر الصحيح فليس غوى منهم فإن الشياطين هم الغوون . وفي الحديث « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه إما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء أي مستوية لم يذهب من بدنها شيء هل تحسون فيها من جدعاء ، أي هل تشعرون أو تعلمون بهامن مقطوعة الأذن أو الأنف » وهذا الحديث رواية البخاري ومسلم وعجزها للبخاري وحده ، واعلم أن الإيمان (إيمانان) إيمان فطري وقد علمته ، فالعقل الإنساني كصحيفة بيضاء قابلة لتقلى ما يراد فيها فهو أشبه بالمادة التي خلقنا منها وكل ما يغرس فيه من حسن أو قبيح أو شريف أو وضيع ينبت كما تنبت الأرض حنظلا وفاكهة ودواء وسما ، فالأرض نوع التزروع فيها وهي قابلة لها والنفوس تزرع فيها البيانات والعلوم فتقبلها ، ولكن من صفات الفطرة والحلقة السكونية أن يكون الخير عليها أغلب ، ألا ترى أن نبات الأرض كله يصلح للمراعى فما لا يصلح لأكثر الحيوان يصلح لأقله فالسم قليل والنفع أكثر من الضر هكذا عقول بني آدم وقد خلقوا كجميع خلق الله فهم تامو بنية الجسم بيض الصفائف في القاب فقولته عليه الصلاة والسلام « كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء » معناه أن البهيمة تكون كاملة الأعضاء أيام ولادتها هكذا العقل صحيفته بيضاء لم ينفس فيها نفس على يغيرها وكما أن البهيمة لا تجتمع إلا بما يجدها من الخارج هكذا صحيفة العقل لا تدلس بالآراء الفاسدة إلا بمن يعلمها ذلك كالأبوين اليهوديين والنصرانيين ولو ترك الطفل وشأنه لعرف وحدانية الله . فهذا الاستعداد الفطري والإيمان الفطري لا اعتبار بهما في أحكام الدنيا وإنما يعتبر الإيمان الشرعي للمأمور به . ويروي أنه قيل لرسول الله أفرايت من يموت صفيرا قال الله أعلم بما كانوا عاملين ومعنى (لا تبديل لخلق الله) أي ما ينبغي أن تبدل فطرة الله أو تغير أي لا تبدلوا دين الله بالشرك ولا تخصوا البهائم فذلك تغير خلقها ولا يغير ربك ما جبل عليه الإنسان من شقاوة أو سعادة بل كل ميسر لما خلق له (ذلك) هو (الدين القيم) الحق المستقيم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن دين الله هو الإسلام وقوله (منيبين إليه) حال من فاعل أقم أي فاقم وجهك يا محمد وأمتك معك راجعين إليه من أناب إذ ارجع مرة بعد أخرى أو منقطعين إليه (واتقوا وأقيموا الصلاة) أدها في أوقاتها (ولا تكونوا من الشركين) ممن يشرك به غيرهم في العبادة ثم أبدل من قوله « من الشركين » قوله (من الذين فرقوا دينهم فجعلوه) أديانا مختلفة لا اختلاف أهوائهم ووقت عقولهم وقصور إدراكهم إذ سولت لهم أنفسهم أن الاختلاف في بعض الفروع يوجب الاختلاف في الأصول (وكانوا شيعة) فرقا مختلفة كأهل البدع في هذه الأمة (كل حزب بما لديهم فرحون) راضون لأنهم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه واطمأنوا لما علموا كثير من رؤساء الطوائف في الأمة الإسلامية اليوم : يقول الأستاذ لتلاميذه لتسكن وجهتكم كذا من أعمال البر ويفهمهم أن من عدام جهلة غير واصلين لله فتختلف الوجهة ويعفرون غيرهم من أهل دينهم فتتفرق الأمة ولات حين مناص ، واعلم أنه لا دواء للفرق المتشعبة في الأمة الإسلامية إلا بنشر العلوم الطبيعية والرياضية لأن هذه متى امتلأت بها

المقول أدركت جمال الله فشكل ما جاء بعد ذلك لا يؤثر فيها ولا يفرق وحدة الأمة ، فأما مادامت العقول خاوية
 والنفوس جاهلة فإن أقل تعليم يحول الإنسان عن بقية الأمة ، فإذا أمر بذكر خاص كسور يتلوها أو عبادة
 يتبعها إليها فإنه يغرم بها ويظن أن كل علم أو عبادة غير ذلك لا يدفع عارا ولا يذكي نارا ولا يرفع جارا فلا وسيلة
 لاتحاد الأمم الإسلامية إلا بنشر جمال النجوم وجمال النبات وبدائع المعادن ونظام هذا العالم في مدارس المسلمين
 فهذه هي « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » فأنه خلق هذه العوالم ومق عرفها الناس
 صارت معرفتهم متحدة فلا تغير وجهة عقولهم العامة كما لا تغير وجهة السنن التي سننها الله في خلق العوالم . إن
 الله هو الذي زين هذه الدنيا وهو الذي خلقها وهو الذي خلقنا ، فعلينا أن ننظر فيها خلق ونفرض بما أبدع
 ونسر بما أنشأ فلا تغيير لسنة الله في الخلق فإن القانون العام في نمو النبات وسير السكواكب لا يتغير فيه فالعلم
 به ثابت والدين يعرفونه تثبت عقيدتهم بربههم ويفرحون به فلا يلويهم عن وجهة الأمة العامة صارف لأهمهم
 ثبتوا على الحقائق التي لا تغير وجهتها والله أسأله أن يقيض لهذه الأمة من يرشدهم إلى هذه السبيل إنه لسميع
 العطاء (وإذا مس الناس ضر) شدة وبلاء (دعوا ربهم منيبين إليه) راجعين إليه (ثم إذا أذاهم منه
 رحمة) خلاصا من تلك الشدة (إذا فرق منهم برهم يشركون) أي فاجأ فریق منهم بالاشراك برهم لما
 عافاهم (ليكفروا بما آتيناكم) أمر للتهديد ثم التفت للمبالغة فقال (فتمتعوا فسوف تعلمون) عاقبة تمتعكم
 (أم أنزلنا عليهم سلطانا) حجة وعذر أي بل أنزلنا عليهم (فهو يتكلم) تكلم دلالة (بما كانوا به يشركون)
 أي يشركهم ويأمرهم به (وإذا أذقنا الناس رحمة) كالنعمة والصحة والثروة والقوة (فرحوا بها) بطروا
 بسببها (وإن تصبهم سيئة) شدة (بما قدمت أيديهم) بشؤم معاصيهم وجهلهم لسنن الحياة وعصيانهم أوامر
 الدين والحكمة (إذا هم ينظون) أي فاجؤ القموط من رحمته (أولم يرو أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر
 إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) فما لهم لم يشكروا في السراء ويحسبوا في الضراء كالمؤمنين فإن من فطر
 هذا العالم على وجه الكمال لا يزل الشدة بعباده إلا لما يعود عليهم بالخير كالتأديب والتذكير وابتلائهم وامتحانهم
 وتربيتهم فإنه برهم بالرحمة وبرهم بالتعذيب فلو أنهم شكروه عند السراء وتضرعوا له واحتسبوا عند الضراء
 لكان خيرا لهم ولكانوا منيبين لربهم في حال الضراء والسراء إن هؤلاء الذين يضرعون إلى ربهم عند
 الشدة فإذا أزالها عنهم أشركوا به وهؤلاء الذين يبطرون بالنعمة ويقنطون عند الشدة ليسوا منيبين لربهم
 وليسوا ملازمين الفطرة ، فلينبوا له في الرخاء والشدة فلا يعوقهم عن الإنابة نعمة تبطرهم بعد شدة ولا شدة
 تحدث في قلوبهم اليأس بعد رحمة بل عليهم أن يكونوا له في السراء والضراء منيبين ، إذا تقرر ماتقدم من أنه
 يجب الإنابة لله بحيث لا ييأس الإنسان إذا مسه شدة بعد رحمة ولا يبطر إذا زال عنه الضر وتمتع بالرحمة بل
 يجب أن يكون منيبا في الحالين أمر أن يكون واصلا للرحم محسنا لغيره إذا أنعم الله عليه كما قال تعالى (فآت
 ذا القربى حقه) كصلة الرحم ، وقد أوجب أبو حنيفة رضي الله عنه النفقة للحارم من هذه الآية (والمسكين
 وابن السبيل) أي المسافر والضيف (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) يطلبون ثواب الله بأعمالهم (وأولئك
 هم الفائزون ، وما آتيتم) أعطيتم (من ربا) من عطية تتوقعون بها مزيد مكافأة (ليربوا في أموال الناس)
 بأن يعطى الرجل غيره عطية ليثبه أ ثمر منها فهذا جائز لا حرمة فيها ولكن لا ثواب له يوم القيامة وهذا
 معنى قوله تعالى (فلا يربوا عند الله) فلا يكثر عند الله بالتضعيف ولا يقبله فإن ذلك ليس خالصا لله ويلحق
 بذلك الرجل يلتزق بالرجل فيخدمه ويسافر معه فيجعل له ربح ماله لا لتفاس عونه لا لوجه الله تعالى فهذا
 لا ثواب له (وما آتيتم من زكاة) أي أعطيتم من صدقة (تريدون وجه الله) بتلك الصدقة (فأولئك هم المضعفون)
 أي يضاعف لهم الثواب فيعطون بالحسنة عشر أمثالها ، والمضعفون ذوو الأضعاف من الثواب كالقوى وللوسر

لدى القوة واليسار (الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يبيدكم ثم يحياكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم
 من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون) وهذا ظاهر ، واعلم أن الآيات للتقدمة دلت على عدم نيات الناس
 وأنهم يبطرون في النعماء ويأسون في الشدة بعدها وينفقون المال لحطام الدنيا وكثير منهم لا يصلون الرحم
 وإنما يبدلون المال لشهواتهم فناسب أن يذكر بعدها أن أهل هذه الأرض مصابون باعتراهم النفس المشين
 كيف لا وقد (ظهر الفساد في البر) بالحرب والغارات والجيوش والطائرات (والبهر) بالسفن الحربية
 والطوربيد والقواصات الحارقة للسفن وقطع الأسلاك البرقية أيام الحرب (بما كسبت أيدي الناس) أي بكسبهم
 إياه تارة كما تقدم أو بشؤم نقصهم وطبيعة أرضهم وأنهم هكذا خلقوا في الأرض ليكون ذلك لهم ابتلاء وذلك
 كالطاعون وأنواع الحمى وتلك الحيوانات الدقيقة التي تسمى بالميكروب فإنها تملأ السهل والجبل وتحدث
 الأمراض والجدرى والحصباء وهذا ينزل الطاعون في نوع أو أنواع من الحيوان وكذا النبات فإن ما ينفع
 الناس منه يصاب بأفات تعرض له كما يصاب قطن مصر وعنب فرنسا وسائر الأشجار النافعة بالجوائح المهلكة
 والفاتكات كل ذلك لأن هذا الانسان أودع هذه الأرض وقد استحق هذا لنقصه وذلك لتدريبه وتهذيبه
 وإلا فلماذا يكون النبات الذي ينتفع به تسطو عليه عاديات الدهر والمدمرات للمهلكات من الجوائح ويخلق
 يجانبه نبات آخر يسطو على غذائه فيهلكه ولا يهلك هو ، ذلك لنقص هذا الانسان ويراد به كآله ، وملخص
 ما تقدم أن ظهور الفساد في البر والبحر إما بعمل الانسان وإما بعمل طبيعي خلق للمناسبة نقص الانسان ابتلاء
 له وامتحانا وقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذي عملوا) أي بعض جزائه وذلك لأن تمامه في الآخرة وهذا راجع
 لأحد القسمين وهو ما كان يفعل الإنسان (لعلهم يرجعون) عما هم عليه (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف
 كان عاقبة الذين من قبل) لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية وكيف هلكوا بذنوبهم (كان أكثرهم مشركين)
 فذلك أهلكوا بكفرهم (فأقم وجهك للدين القيم) البليغ الاستقامة وهو الإسلام (من قبل أن يأتي يوم
 لا مرد له) لا يقدر أن يرده أحد (من الله) متعلق بمرده أن لا يرده الله لأنه أرادته (يومئذ يصدعون)
 أي يتفرقون فريق في الجنة وفريق في النار (من كفر فعليه كفره) أي وبال كفره وهو النار المؤبدة
 (ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون) يسوون منزلا في الجنة ، ثم علل قوله «بمهدون» فقال (ليجزى الذين
 آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين) أثبت المحبة للمؤمنين والبغض للكافرين (ومن آياته
 أن يرسل الرياح مبشرات) بالمطر أي ومن آياته إرسال الرياح لتبشركم بالمطر (وليديقكم من رحمته) بالمطر
 والحصب (ولتجرى الفلك) بهذه الرياح (بأمره ولتبتغوا من فضله) يعني تجارة البحر (ولعلكم تشكرون)
 أي ولتشكروا نعمة الله فيها (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فاتقننا من الذين أجمعوا)
 بتدميرهم (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) مع إنجائهم من العذاب ، وفي ذلك بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم
 وللمؤمنين أنهم منصورون وقد تم ذلك فعلا ، وهكذا كل من قام بأمر عام لخدمة الأمة وإسعادها فإن الله سمعه
 وناصره وإن حقا على الله أن ينصره (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيسطه) متصلا تارة (في السماء) في
 سمها (كيف يشاء) سائرا أو واقفا ، مطبقا وغير مطبق ، مسيرة يوم أو أقل أو أكثر (ويجعله كسفا) قطعاً
 تارة أخرى (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله) من وسطه (فاذا أصاب به) بالودق (من يشاء من عباده
 إذا هم يستبشرون) يفرحون بالمطر (وإن كانوا) أي وقد كانوا (من قبل أن ينزل عليهم) المطر (من قبله)
 تكرر للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر (المبسين) لآيسين (فانظر إلى آثار رحمة الله) أثر الفيت
 من النبات والأشجار وأنواع الثمار (كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك) الذي قدر على إحياء الأرض
 (لهي للوحي) لتقدر على إحيائهم (وهو على كل شيء قدير ، ولئن أرسلنا ريحا) حارة أو باردة على الزرع

(فراوه) أى الزرع (مصفرا) متغير اللون بعد الخضرة (لظلوا من بعده) أى من بعد اصفرار الزرع (يكفرون) يحدون ماسلف من النعمة وهذا كإيضاح للآية المتقدمة «وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون» فها هنا أذقهم الرحمة بالمطر وبه حبيت الأرض فلما أرسل الريح على الزرع فاصفر كفروا (فإنك لا تسمع للوئي) وهؤلاء مثلهم لأنهم لا يسمعون الوعظ (ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) وهذا القيد إشارة إلى شدة إعراضهم لأن الأصم إذا أقبل ربما فهم بالإشارة وهؤلاء لا يفهمون بأى طريق (وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم) أى عمى القلوب (إن تسمع) أى ما تسمع (إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) منقادون لأوامر الله (الله الذى خلقكم من ضعف) أى ابتداءكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم (ثم جعل من بعد ضعف قوة) إذا بلغت الحلم (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) وهو تمام النقصان (يخلق ما يشاء) أى من الضعف والقوة والشباب والشيبة (وهو العليم) بتدبير خلقه (القدر) على ما يشاء (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون) يخلف المشركون (ما لبثوا) فى القبور (غير ساعة) وهذا استقلال لمدة لبثهم فى البرزخ مع طولها ، فهام أولاء صرفوا فى الآخرة عن حقيقة مدة مكثهم فى البرزخ (كذلك كانوا يؤفكون) يسرفون فى الدنيا عن الحق (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) أى قال الذين أوتوا العلم فى كتاب الله والإيمان بالله للفسكرين لقد لبثتم إلى يوم البعث فى قبوركم (فهذا يوم البعث) الذى كنتم تنكرونه فى الدنيا (والكنتم كنتم لا تعلمون) وقوعه فى الدنيا فلا ينفعكم علمكم به الآن (فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون) أى ولا هم يدعون إلى ما ينقضى إزالة عنهم من التوبة والطاعة يقال استعتبى فلان فأعتبه أى استرضانى فأرضيته أى لا تطلب منهم التوبة التى تزيل الجريمة لأنها لا تقبل منهم (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) يشير بذلك إلى إزالة الأعداء والإتيان بما فوق السكماية من الإنذار أى ولقد وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل فى غرابها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة للبعوثين يوم القيامة وقصصهم الخ (ولئن جهنم بآية) من آيات القرآن (ليقولن الذين كفروا) من فرط عنادهم (إنا أنتم) أى ما أنتم يا محمد ومن معك (إلابطون) مزورون (كذلك) مثل ذلك الطبع (يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) لا يطلبون العلم ويتمسكون بمقائد اعتقدوها والجهل للركب يمنع العلم (فاصبر) يا محمد على أذامهم (إن وعد الله) بنصرتك وإظهار دينك (حق) لا بد من إنجازها (ولا يستخفك) لا يحملتك على الخفة والقاقى (الذين لا يؤفون) بالبعث والحساب . انتهى التفسير اللفظى للقسم الرابع من السورة .

﴿ جوهرة فى قوله تعالى « فطرت الله التى فطر الناس عليها » ﴾

(فى هذه الجوهرة أربع لطائف)

(١) فى فطرة البحث عن أصل السالم والإذعان لحالته .

(٢) وفى فطرة العلوم الرياضية .

(٣) وفى فطرة العلوم للنطقية .

(٤) وفى فطرة مظاهر مخلوقات .

﴿ اللطيفة الأولى فى البحث عن خالق العالم والإذعان للربوبية ﴾

اعلم أن من فطرة الله تعالى الإذعان للربوبية ، فهذه فطرة لا تنفارق الناس مركوزة فى النفوس سارية فيها سريان الماء فى العود الأخضر والكهرباء فى كل جسم جامد وغاز وسائل ، ومن عجب ما أذكره لك الآن لتعشى كما دهشت أنا حتى أنى لما اطلمت على ذلك هذه الليلة وعلى ليلة الاثنين آخر شهر رمضان العظم

قبل نصف الليل لم أجد بدا من كتابتها فرحا بنعمة العلم وتبيننا لجمال الحكمة الإلهية ، ذلك أن الله يقول
 «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى» وهذه الآية
 قد فسرها العلماء (بأحد طريقين) إما بأن هذا تم فعلا وقد نسي الناس ذلك ، وإما بأن هذا مجاز يعرب
 عن الحقيقة ، وما الحقيقة إلا أن عقل الانسان يشهد بذلك لأن الأدلة في هذه الكائنات شاهدة بذلك ،
 فانظر ماذا جرى ؟ رأيت اللبلة المحاوره بين أفلاطون وطيلاوس ، وطيلاوس اسم حكيم من حكماء الفيشاغورسيين
 جعله أفلاطون للتكلم في محاوراته ، شرع طيلاوس يتكلم في أنه ينتهل إلى الله أن يلهمه الصواب من القول
 وأن يساعده هو ومن يسمعه في حسن الإلقاء منه وإحادة الفهم عنه والقبول ، ثم قال ماملخصه (إن الوجود
 قيمان) : قسم دائم وليس بمحدث وهذا يعرفه العقل لثباته على حال واحدة ، وقسم لا يدرك إلا بتخمين الوجود
 المشارك بالحس لأنه محدث ثم يفتى وليس له وجود حقيقي ، فهذا لا بد له من علة ثم إن الصانع إذا جعل نصب عينيه
 ما لا يتغير قط ، وحاول أن يحاكي صورته وقوته فلا بد أن يبلغ مصنوعه درجة عالية من الجمال بخلاف ما إذا جعل
 نصب عينيه مثلا فلانيا فإن مصنوعه يبقى دون مرتبة الجمال ، فإذا تقرر هذا فإن أول ما ينبغي الشروع في البحث
 عن السماء أو العالم أو كيف ما شئتم أن تدعى هو المسألة التي يجب دائما الابتداء بها وهي هذه أعنى هل كان العالم
 دائما ولم يكن له حدوث أم هو حادث وله مبدأ فأقول إنه حادث ، ومصدقه أن العالم مرئي وملسوم ومادى
 وكل ماله هذه الصفات فهو محسوس ، وكل ماهو محسوس فهو مدرك بالحواس فهو إذن حادث ،
 ثم أقول إن كل حادث لا بد له من علة ، فإذا سئل من هو صانع العالم وأبوه ؟ أقول إنه يصعب الوجدان ثم إذا
 وجدناه فإعلام الجمهور به ضرب من الجهل ، ثم ينبغي بعد ذلك أن نبحث عن المثال الذي اتخذته صانع العالم
 عند صنعه إياه هل هو المثال الدائم الغير المتغير أم هذا المثال الحادث فأقول إذا كان العالم جميلا وصانعه أكل
 للوجودات فلا شك أنه جعل نصب عينيه المثال الدائم الأفضل ، وإذا كان كلاهما مالا أتجاسر أن أقوله فهو قد اتخذ
 المثال الأسفل إلى أن قال «إن ما بين الوجود والحادث نسبة ما بين الحق والظن ، فلا يعجبك باستقراط أي غير
 قادر على أن أشرح لك الإله ومنشأ الوجودات شرحا شافيا متصلا في جميع أجزائه ، والأولى أن تقنع بكلامي
 إذا كان مشبها وألا تنس أن كلامنا للتكلم والمستمع من أبناء البشر فلا بد لنا أن نقنع في مثل هذا الموضوع
 بما هو أشبه ولا نطلب ما فوق ذلك ، ثم شرع يبين أن صانع العالم صنعه لأنه جواد وقد أراد أن يجعله خيرا
 على قدر الامكان ولا يكون فيه شر على قدر الامكان ، فهو أخذ الأشياء المضطربة فنظمها ثم أبدع العقل
 في النفس والنفس ذو الجسد ونظم العالم على أفضل صورة وأجمل شكل فإثم من ذلك أن تقول إن هذا العالم
 موجود متنافس وعاقل أوجدته الحكمة الإلهية : وقد اتخذ الله لهذا العالم صورة الحيوان اللطاق التي تشمل على
 صور جميع الحيوانات ، فالعالم حيوان عاقل مرئي يتناول سائر الحيوانات ، ثم ذكر تكوين هذا الحيوان
 من العناصر الأربعة باعتبار ما كانوا يعرفون وقد جعله بشكل كروي ، إذ هو أكل الأشكال وأفضلها ، ثم ذكر
 تكوين نفس العالم من العقل والمادة وشيء مشترك بينهما ، ثم أوجد الأيام والليالي عند تركيبه السماء وما هي
 إلا أجزاء الزمان الماضي والحال المستقبل ، وقد توهم لجهلنا أن مثل هذه الأجزاء لها نسبة إلى الوجود
 الأزلي كلا . فهو موجود أزلي لا غير لأن ماله تعلق بالزمان الماضي والمستقبل لا يناسب إلا ما يتغير في الزمان
 ويمر فيه ومنشؤه الحركة ، لكن الوجود الأزلي الذي لا يتغير فيه ولا حركة لا يمكن أن يذكر فيه ذلك ثم
 تكوير الأفلاك السيارة وقال إنها أجرام حية ذوات نفوس وبين حركاتها وتقدير الزمان بها وتقسيم الزمان
 على نسبة هذه الحركات على الأيام والليالي والأشهر والسنين ، ثم تكوين الكواكب ثم لما تم تركيبها جميعا
 الصانع وخطبها بهذه الخطبة ، ومما قل فيها (أنتم قد أحدثتم مع ذلك أنتم غير ماتين لأن إرادتي أقوى لكم
 من أن تكونوا قدماء من أصل نشأتكم والآن فانصتوا لي واعلموا ما أريده منكم ، أنه قد بقي أنواع من

الحيوان لم تخلق بعدولو لم تخلق لبقى العالم ناقصا، إذ لم يحتو على جميع أصناف الحيوان وهو لا يتم إلا بذلك فالو منحتم أنا الوجود والحياة لأصبحوا مثلكم لا يموتون ، فاجتهدوا أنتم في تصوير هذه الحيوانات على حلتو ماقلته في إيجادكم حتى يكونوا قابلين للموت ولا ينقص من العالم شيء ، أما من لهم جزء إلهي من الحيوانات (يريد الإنسان) فهو قادر على الأمر بالخير إذا اتبع وأنا أعطيكم بذره وأصله وعليكم بعد ذلك تأليف الجزء الليت بالجزء الذي لا يموت وجعلها حيوانات وتمييزهم بالغذاء اللازم وتلقيهم عند موتهم ، ثم ذكر بعد ذلك خلق الأرواح البشرية وأن الإله ركبها من العناصر التي ركب منها نفس العالم السكلية إلا أنها دون ذلك صنعا وكلا ، ثم جعل الأرواح في السكواكب . فمنها ما جعله في الأرض ، ومنها ما جعله في القمر . ومنها ما هو في السكواكب الأخرى فأوقفها على نظام العالم وعلى الترتيب الذي اقتضه حكمته وبين لها أن لجميعها أصلا واحدا لافرق بين روح وروح ولكن لا تتظلم من عدم المساواة بينها . ثم شرح لها أنها عند اقترانها بالأبدان إنما يلحقها التأثير من الحواس وما يتبعه من شهوة وغضب وخوف . فمن قهرها عاش مستقيما . ومن يذعن لها يكن عديم العدالة . ومن انتفع بحياته لإصلاح ضميره إنما يرجع كوكبه المختص به فيبقى فيه سعيدا . ومن قصر في ذلك فقد يصير أنثى في حياة ثانية . فإذا دام على الشر يصير حيوانا على شكل ما اعتاده في حياته من أنواع الخطأ ، فلا يزال يموت وينتقل من بدن إلى بدن إلى أن يرجع إلى الصلاح ويسخر مافيه من العناصر ويجعلها متفاداة لرئاسة عقله ثم ذكر تصوير بدن الانسان على يد الله وتصوير الآلات المختلفة فيه من البصر والسمع وغيره الخ . انتهى المقصود منه .

ولما اطلع على هذا أحد الاخوان قال ما مناسبة هذه القصة المخالفة للدين لهذه الآية ؟ قلت المناسبة أن الله عز وجل ألم أفلاطون وهو رجل ليس بنبي ولكنه مفكر بقله . أو لعله أخذ هذا القول عن نبي آخر فقد ذكر أن الله خلق أرواح الناس في السكواكب المختلفة وألقى عليها نصائح وحذرها من الخضوع للشهوات فهذا وان لم يكن عليه دليل هو من دلائل النبوة . كيف يلقي الله على قلب رجل قبل الاسلام بنحو (٩) قرون نحوى آية (وإذا أخذ ربك من بنى آدم) الخ .

أفليس هذا من العجب . فأما قولك أنه مخالف للدين فهذا لا يضرنا نقله ، بل هو يفيدنا فوائد عظيمة ويبين لنا مناهج أم قباننا نقل آباؤنا عنها وأخطوا في النقل ، فانظر العجب كيف يقول (إن هذا العالم حادث) في هذه الجملة . أليس هذا من العجب أن يكون هذا الرأي منقولاً بالنص عن نفس أفلاطون وهو عمدة فلاسفة اليونان ثم نسمع آباءنا ينقلون عن صفار علماء اليونان أن العالم قديم . أليس نقل الفلاسفة اليونانية إلى العربية أيام عز الدول الاسلامية كان فيه مصائب ومصائب ، فأين القدم إذن ؟ أليس ترا . يذكر أن الزمان لا يصدق إلا علينا نحن ، وهذا معقول لأن الله هو الذي خلق الزمان ، إذن من أين جاء آباؤنا ما يهزأ به أبو العلاء المرى بالديانات فيقول في معنى آيات .

(إذا كان الإله لازمان له ولا مكان فمعناه ليست لنا عقول)

فأما المخالفة للدين فهي في أمور منها (أنه جعل السكواكب غير مبنية مع أنها حادثة) فأقول السكواكب عنده تدبرها لللائكة وقد صرح هو بأن العالم كله حيوان حتى . وعندهم أن كل كوكب عاقل كأنه انسان فأما ديننا فانه يقول (إن لللائكة تدبر هذه السكواكب) ومن للعقول أن الخطاب لا يكون لنفس الأجرام ، بل هو لللائكة وهذا لا يتناقض ديننا ولللائكة كما يقول هو حادثون ولكنهم لا يموتون . وما ذكره أيضا أن الرجل الفاسق مثلا يرجع امرأة أو حيوانا ، فهذا ليس يقينا عنده ، بل هو يقول نحن نكفئ بما هو الأشبه فالقوم ليس عندهم نبي فقالوا باعتبار ما تخيلوه ، والاسلام أتى لنا بأمر يجعل بعد ذلك فذكر جهنم ثم هو ذكر

العقل والنفس والمادة وهذا حسن أيضا . إن سكان الكواكب أي الملائكة الدبرين يستقبلون الأرواح عند موتها وهذا هو نفس ديننا . وهذه الأرواح إن أحسنت رجعت إلى الكوكب الذي خلقت فيه وإن أسادت رجعت إلى حياة تصمة . ولا جرم أن هذا لم يجزم به وإنما قال لنا إنه هو الأشبه لأمثالنا نحن بني آدم في الأرض وأنه ذكر الجنة وأنها تكون في صورتها إذا صلحت أعمالنا .

وبالجملة إن ذكر هذا القول في مبدأ العالم وخلق الأرواح والأجسام وتعليم الأرواح قبل خلقها ثم مجازاتها بعد موتها جمع ملخص الكتب السماوية وهذا أمر عجب أن يصدر مثل هذا بالعقل قبل القرآن بنحو (٩) قرون . إن أمثال هذا أعده معجزة للقرآن قبل نزوله بل هو ملخص الآيات السابقة في هذه السورة . فانظر كيف يذكر الله أنه خلقنا من تراب وخلق لنا الأرواح والليل والنهار ونومنا فيهما واستيقاظنا وخلق السموات والأرض والبعث ، فهذه المقالة ترجع في طواها إلى هذه الآيات . ولعل هذا القول منقول عن أنبياء كانوا قبله والقرآن مصدق لما قبله من الديانات الخلقية اه .

(تذكرة)

هذه المقالة كلها تفسير لقوله تعالى « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » إن تفسير الآية اللفظي لا يفيد هذه العجائب . فأما ما كتبناه هنا فإنه قد ابتدئ فيه بذكر العالم الإجمالي أولا منذ خلقته ، وذكرت العناصر وعوالم السماء وعوالم الحيوان وعالم الإنسان وما علاقة الإنسان بربه وما علاقته بالأرواح المدبرة للكواكب ومم يتركب الإنسان وأنه مركب من مواد مائة أرضية وأمر إلهي دائم وبأعدادها صار هناك أعضاء حس وأعضاء حركة ومكان هو مقر الشهوة وآخر هو مقر الغضب ومنافع حجة في أعضاء الجسم من فرقه إلى قدمه . ثم ذكر المرض والصحة . فهذا المقال جمع ما بين التراب الذي نشأ منه الإنسان وبين روحه ثم انتشاره في الأرض . وبهذا وأمثلة تنشر العقول الخاملة في الشرق بعد موتها وتبعث من مرقدها ولا تنف عند حد في العلم والتعليم وارتقاء المدينة . ثم انظر إلى قول أفلاطون على لسان طباطوس : إن المادة لا صورة لها وهي نوع من الوجود عديم الصورة غير مدرك بالبصر مستعد لأن يقبل كل شيء له نسبة ما إلى الوجود العقول وهي نسبة مبهمة عندية الإدراك ووازن هذا القول رعاك الله بما يقوله علماء العصر الحاضر (إن المادة ماهي إلا نقط كهربائية يدور سألها حول موجها نحو ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية في العناصر المعروفة تقريبا وفي النور الشمسي مثلا من (٤٠٠) إلى (٧٠٠) مليون مليون مرة في الثانية) فهذا الدوران السريع يجعلها دوائر ضوئية وهذه الدوائر الموهومة بكثرتها واختلاف حركاتها تكون منها العناصر المختلفة ثم تسكور هذه العوالم العلوية والسفلية فانظره في (سورة النور) عند آية «الله نور السموات والأرض» في مقال تحت عنوان (قطرة ماء) فإنك تجد أن العلماء أجمعوا اليوم أن المادة هي ذلك الذي ذكرناه وأن الذرات بينها خلاه كالجلاء بين الأرض وبين الشمس والقمر . إذن للمادة أصبحت أخت العدم قديما وحديثا . وهذا معنى قوله تعالى « كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » ومن عجب أن يتفق العلماء قديما وحديثا على أن المادة معدومة . ويقول علماء العصر الحاضر (إن الأصل هو عالم يسمى الأثير لا يرى ولا يحس) إذن لافرق بين المحدثين والقديماء . فالحدث على نعمة العلم والحكمة انتهى عصر يوم الاثنين (١٩) من شهر رمضان المعظم سنة ١٣٤٧ هـ .

﴿ الطيفة الثانية في العلوم الرياضية ﴾

هذا ما خطر لي يوم عيد الأضحى سنة ١٣٤٧ هجرية

يقول الله تعالى «الحد فطّر السموات والأرض» فالسماء مغطورة والأرض مغطورة والحيوان مغطور والإنسان مغطور ولكل مخلوق حال خاصة جاءت له من أصل فطرته . وهذه الحيوانات مغطورة على أعمال برائزها التي فطرها الله عليها كما نرى الطيور مغطورة على الطيران وعلى بناء الأعشاش وتربية الدرية وبعضها مغطور على التفريد ، وبعض الحشرات مغطورات على الهندسة كالنحل والعنكبوت كما تقدم في هذا التفسير والإنسان له فطرة أوسع من فطرة الحيوان . إنه مغطور على القياس والاستنتاج والتفكير بحيث يستتج الأصعب من الأسهل ، والبعيد من القريب ، والقائب من الحاضر ، وعظام الأمور وجلالها من أقلها وأضعفها .

ألا ترى رعاك الله أنه استتج علم الهندسة من أمور معروفة تسهل على عامة الناس وجهلائهم ورعايم قراء يستتج من هذه القضايا الأولية الآتية أفانين الهندسة وبدائع النظم ، والقضايا الأولية الآتية وهي :

- (١) الأشياء للتساوية لشيء واحد متساوية .
- (٢) إن زيد على للتساوية متساوية صارت كلها متساوية .
- (٣) وإن نقص من للتساوية متساوية صارت الباقية متساوية .
- (٤) وإن زيد على غير للتساوية متساوية صارت كلها غير متساوية .
- (٥) وإن نقص من غير للتساوية متساوية صارت الباقية غير متساوية .
- (٦) والتي كل واحدة منها مثلان لشيء واحد بعينه فهي متساوية .
- (٧) والتي كل واحدة منها نصف لشيء واحد فهي متساوية .
- (٨) والكل أعظم من الجزء .
- (٩) وإذا كان شيئان كل واحد منهما أعظم من كل ما الآخر أعظم منه وأصغر من جميع ما الآخر أصغر منه فهما متساويان .
- (١٠) والنفي والإثبات لا يجتمعان .

هذه هي القضايا الأولية التي استتج العلماء منها الأشكال الهندسية في المقالة الأولى وهكذا فعلوا في الثانية والثالثة إلى المقالة الثامنة في الهندسة حتى أنهم بلغوا شأوا عظيما فيها ونظموا المدن والتمالك ، كل ذلك من نفس الفطرة . فالفطرة التي بها انبعث النحل والنمل والعنكبوت والأرضة إلى نظم أعمالها وهندستها وسياسة جماعاتها هي التي خلقت في الإنسان ففتحت له أبواب العلم على مصراعيه بما يشاهده في غدوه ورواحه مما يتبادر ، غاية الأمر أن الفطرة على [قسمين] فطرة جامدة . وفطرة قويمة كاملة . فالفطرة الجامدة هي الكاسية الخاملة التي لا تفكر فيها حولها ، والفطرة القويمة الكاملة هي التي تفكر وتستتج وتستخرج العلوم وللعارف مما حولها . والفطر كلها من الله وقد أرسل الأنبياء ليوقظوا الناس لهذه الفطرة . فإذا سمع المسلم قوله تعالى « فطرت الله التي فطر الناس عليها » اندفع إلى العمل والجد بالتشمير . إذن البيانات جاءت لسوق الفطرة وإيقاظها لا لكسائها وإنانها . فهذه القضايا التي في أوائل الهندسة بها استخرج القوم علومهم ونظموا دولهم . هكذا فعل علماء الطبيعة بطرق أخرى غير طرق علماء الهندسة فاستخرجوا من صفات الأمور عظامها ، فانظر رعاك الله إلى بعض ما فطر عليه هذا الإنسان .

- (١) يقيس محيط الدائرة وقطرها ويعرف النسبة بينهما .
- (٢) يقيس المربع ويستنتج قانونه .
- (٣) يقيس المستطيل ويستنتج قانونه .
- (٤) يقيس متوازي الأضلاع ويستنتج قانونه .
- (٥) يقيس المثلث ويستنتج قانونه .
- (٦) يقيس الأشكال المنتظمة للضلع من مربعة ومخمسة ومسدسة وهكذا .
- (٧) يمسح الدائرة ويستنتج قانونها .
- (٨) يمسح القطاع ويستنتج قانونه .
- (٩) يمسح المضلعات غير المنتظمة ويستنتج قانونها .
- (١٠) يمسح السطح الجانبي للأسطوانة القائمة ويستخرج قانونها .
- (١١) ثم يمسح السطح الجانبي للمخروط القائم ويستخرج قانونه .
- (١٢) ثم يمسح الكرة ويستخرج قانونها .
- (١٣) ثم يمسح حجم المكعب ويستخرج قانونه .
- (١٤) ثم يمسح حجم متوازي المستطيلات والمنشور القائم والأسطوانة القائمة والأسطوانة المائلة .

هذه المساحات في علم الطبيعة مركب بعضها على بعض كأنها سلام ، وهذه درجات بعضها فوق بعض لا يعرف الناس أعلاها إلا إذا توصلوا لها بأدناها ، فلا نعرف مساحة الأحيام إلا بمساحات السطوح وكل درجة مرتبة على ما قبلها كما في أحوال الإنسان طفلا ومراهقا وشابا نحا ، وكما في أحوال الأمم في رقيها ، وكما في انتقال الإنسان من حال إلى حال في أمور الدنيا والدين ، فلا تشرح لك أيها الذكي بعض ما تقدم لتتظر فطرة الإنسان وكيف سارت في السبيل التي سنها الله فيه ، وكيف جاء القرآن مؤيدا لهذه الفطرة وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما أرسلهم الله ليوقظوا هذه الفطرة لا ليخمدوها فيعاقظها كما حصل في العصور الأولى من الإسلام وأما الخلود فهو في العصور للتأخرة . ومعلوم أن الله خلقنا من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، ومن شأن هذا العالم أن الضد يكون بعد ضده . فإذا كان للسلفون الآن في حال ضعف فيكون من بعد ضعفهم قوة . وأي مسلم يقرأ ما نكتبه الآن في هذا التفسير ثم هو لا يبذل نفسه وماله في رقي نفسه والمسلمين . وكيف لا يفعل ذلك وقد علم من هذا التفسير بالبرهان العقلي والتقلي أن حب الله عز وجل ورضاه مرتبطان بالتفوق في البحث والتفتيح والدراسة والنظر في آيات الله وعجائبه ، ومن أحب أحدا أكثر من البحث في آثاره وأعماله . وهذه أجسامنا وأجسام العوالم حولنا كلها من آثار رحمة الله . فالمسلم بدراستها يقترب من الله في كل لحظة ونفس . والتقرب للذكور من (جهتين) جهة العلم الذي انصف به وجهة العمل وهو لتتفاح أمته بعلومه ومباحثه إذ يستخرج لهم من صغيرات الأمور كبيراتها ، ويقول للفسرون في قوله تعالى «ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون» إن الربانيين هم الذين يعلمون الناس واضحات المسائل من العلم قبل دقيقتها كما ترى في علم الطبيعة فضاء هذا الفن يبتدئون أولا بقياس محيط الدائرة وقياس قطرها فيجدون أن النسبة التقريبية بينهما $(\frac{3}{7})$ ثلاثة وسبع 22 على 7 أو 14 ر 3 أي ثلاثة و 14 من مائة وهذه النسبة يرمزون لها بحرف (ط) إذن طول المحيط يساوي القطر مضروبا في (ط) ومعنى هذا أن طول المحيط بمقدار قطره (٣) مرات وسبع مرة إلى آخر ما تقدم . أو طول المحيط يساوي (٢ ط) في نصف القطر ويرمز لنصف القطر (نق) إذن مساحة المحيط

تساوي (٢ ط) مضروبا في (نق) . (ثانيا) مساحة للربيع . أولا يرسمون مربعا (ابجد) بحيث يكون كل ضلع من أضلاعه (٥) سنتيمترات والسنتيمتر جزء من مائة من المتر ثم يقسمون (بج) خمسة أقسام متساوية فيكون كل جزء منها سنتيمترا واحدا . ثم يقيمون من نقط التقسيم أعمدة على الضلع المذكور ، ثم يقسمون الضلع (جـد) إلى (٥) سنتيمترات أيضا ويقيمون من نقط التقسيم أعمدة عليه فيرون إذن أن للربيع الذي تراه أمامك رها هوذا :



مثلا انقسم إلى (٢٥) مربعا صغيرا طول كل ضلع منها سنتيمترا واحدا فكل منها (سم) سنتيمتر مربع . إذن تكون مساحة للربيع المذكور تساوي (٢٥) سنتيمترا مربعا (٥ في ٥) سم ، فتكون النتيجة أن مساحة للربيع تساوي حاصل ضرب طوله في نفسه أي مربع طول ضلعه . (ثالثا) مساحة المستطيل وهو ما لم يتساو طوله وعرضه وزواياه قائمة مثل مساحة سطح الباب والشباك ومؤخر الكرسي ويفعلون به ما فعلوه في الربيع فينتج أن مساحة المستطيل تساوي حاصل ضرب قاعدته في ارتفاعه (رابعا) مساحة متوازي الأضلاع فيجد أعمال يجرونها مثل ما تقدم يجدون أن مساحته تساوي حاصل ضرب قاعدته في ارتفاعه ولا يتم ذلك لهم إلا بعد موازنته بالمستطيل المذكور قبله فهو مبني عليه فلا حاجة إلى الإطالة في ذلك ، ومتوازي الأضلاع المذكور لا يتكون أضلاعه صانعة زاوية قائمة مع بعضها ويكون كل ضلعين متقابلين متوازيين (خامسا) مساحة الثلث ومساحة الثلث بنوها على مساحة متوازي الأضلاع فيرسمون ذلك للتوازي ويجدون له قطرا يقسمه إلى مثلثين وكل مثلث مساحته نصف مساحة متوازي الأضلاع للتقدمه في القاعدة والارتفاع فتكون النتيجة أن مساحة للثلث تساوي القاعدة في نصف الارتفاع فهو مبني على متوازي الأضلاع ومتوازي الأضلاع مبني على المستطيل (سادسا) مساحة المضلعات المنتظمة فيرسمون سدسا مثلثا منتظما كسدسات بيوت النحل ويقسمونه إلى ستة مثلثات متساوية ويستنتجون من ذلك مساحة السدس المنتظم كله وهو ضرب نصف القطر في نصف طول المحيط وهذا واضح لأنه إذا كان المثلث يساوي ارتفاعه في نصف قاعدته وكان عندنا ست أنصاف قواعد فحاصل ضرب هذه الأنصاف في نصف القطر وهو الارتفاع المشترك بينها يكون هو مساحة السدس المنتظم ومثله مساحة جميع المضلعات المنتظمة . ولا جرم أن هذا البرهان منطبق تمام الانطباق على جميع المضلعات المنتظمة فالخمس ينقسم إلى خمس مثلثات والسبع إلى سبع مثلثات والقاعدة واحدة وهي ضرب نصف القطر في نصف طول المحيط (ساجا) مساحة الدائرة ، أنت ترى أن الضلع المنتظم قد عرفنا قانون مساحته ، ولا فرق بين ذي الأضلاع القليلة والأضلاع الكثيرة ، وما الدائرة إلا مضلع كثير الأضلاع لانهاية لعدد أضلاعه . إذن فنظف إن مساحة الدائرة تساوي ضرب نصف القطر في نصف المحيط كما قلنا في الأشكال للنتظمة إن مساحتها تساوي

نصف القطر في نصف أضلاعها أو مساحة الدائرة تساوي نصف حاصل ضرب نصف قطرها في طول محيطها .
 ومعلوم أن طول المحيط ٢ ط مضروباً في نصف القطر فيكون هكذا ، مساحة الدائرة تساوي نصف القطر
 مضروباً في ٢ ط مضروباً في نصف القطر على اثنين أو مساحة الدائرة تساوي (ط نق ٢) أي تساوي (ط) في نصف
 القطر مربعاً فيها نحن أولاً ، احتجنا في مساحة الدائرة إلى مساحة الأشكال المنتظمة وفي مساحة الأشكال المنتظمة
 إلى مساحة المثلث وفي مساحة المثلث إلى مساحة متوازي الأضلاع وفي مساحة متوازي الأضلاع إلى مساحة
 المستطيل . هذا من جهة ومن جهة أخرى استعملنا أول نظرية وهي مساحة محيط الدائرة وبوضع هذا مع
 ذلك حدث عندنا نصف القطر للمربع قفلنا (ط نق ٢) فهذه درجات بعضها فوق بعض كدرجات العلوم ودرجات
 الارتقاء في جميع أعمال الحياة كما قال تعالى « لتركبين طبقاً من طبقات » وكما قال تعالى أيضاً « فليرتقوا في
 الأسباب » فهذه أمور مرتبة منظمة أعلاها متوقف على أدناها كما تتوقف آراء الإنسان وعلومه بعضها على
 بعض . ولا جرم أن الله عز وجل أعطى كل إنسان في الأرض فطرة مشتركة مع الفطر العامة ولها اختصاص ما
 فإذا لم يعطها وفتح الله لها أبواب المعارف ولم يمنها تقليد أو كسل نالت درجات العلم درجة فدرجة منظمة
 انتظام هذه الأشكال بعضها على بعض . ولا ينال الإنسان العلم الأعلى إلا بعد معرفة الأدنى كما لم يعرف مساحة
 الدائرة إلا بعد مساحات الأشكال قبلها من محيط الدائرة والمستطيل والتوازي الأضلاع والمثلث والشكل
 المنتظم الخ . فاعلم ذلك وأيقن بأنك لا تنال علماً إلا بعد أن تعرف ما قبله ولن تنال الأعلى إلا بعد أن تنال الأدنى
 وإلا خر أعلاها على أدناها وذهب العلم أدراج الرياح . (ثامناً) مساحة القطاع فإذا وجدنا أن مساحة الدائرة تساوي
 نصف حاصل ضرب نصف القطر في المحيط فليسكن الجزء من الدائرة وهو القطاع يساوي نصف حاصل ضرب
 نصف القطر في طول القوس لأن القوس جزء من المحيط وهذا واضح (تاسعاً) مساحة المضاعف غير المنتظمة وهذه
 مبنية على مساحة المثلثات كما نبى ما تقدم عليها فيقسم ذلك الشكل الذي لم ينظم إلى مثلثات وبجمعها تكون
 مساحة ذلك الشكل . (عاشرًا) مساحة السطح الجانبي للأسطوانة القائمة كالأعمدة التي ترى في المنازل
 والمساجد ، ولا جرم أننا لو لفطنا حول الاسطوانة ورقة ثم بسطناها لم نجد لها إلا مستطيلاً قاعدته تساوي محيط
 قاعدة الاسطوانة وارتفاعه يساوي ارتفاعها ومعلوم أن مساحة محيط الدائرة [٢ ط نق] ولم يزدنا إلا الارتفاع
 (ح) فتكون مساحة السطح الجانبي للأسطوانة القائمة تساوي [٢ ط نق في ح] .

(١١) مساحة السطح الجانبي للمخروط القائم لما كان المخروط القائم في الحقيقة يرجع إلى قطاع دائرة
 قوسه يساوي محيط قاعدة المخروط ونصف قطره يساوي راسه وكانت مساحة قطاع الدائرة تساوي نصف حاصل
 ضرب قوسه في نصف قطره كانت مساحة السطح الجانبي للمخروط تساوي نصف حاصل ضرب محيط قاعدته
 في راسه أي أن مساحة السطح الجانبي للمخروط تساوي نصف محيط القاعدة في الراس أو (٢ ط نق) على (٢)
 في الراس أو (ط نق) في الراس وصورة المخروط أشبه بقمع السكر .

(١٢) ثم تمدى القوم في البراهين فعرفوا أن مساحة سطح الكرة (١٢) . تساوي (٤ ط نق) و
 (٢ نق) معناه نصف القطر مربعاً .

(١٣) وحجم متوازي المستطيلات والنشور القائم والأسطوانة القائمة يساوي في جميعها ضرب مساحة
 القاعدة في الارتفاع .

(١٤) وحجم للنشور المائل والأسطوانة المائلة يساوي كل منهما ضرب مساحة القاعدة في الارتفاع .

(١٥) وحجم الهرم القائم يساوي (١ من ٣) من مساحة القاعدة في الارتفاع ومثله حجم الهرم المائل

(١٦) وحجم المخروط يساوي (١ من ٣) من مساحة القاعدة في الارتفاع أو (١ من ٣ ط نق) على (٣)

النظمة وغير النظمة ، ثم يرى كل منا أن له (قوتين) : قوة عقلية وقوة إرادية ، فبقوة الإرادة نحكم على شهورنا وعواطفنا ونهذب أخلاقنا ، وبالقوى العقلية نحكم على المادة ، فبإرجاع المساحات المتنوعة إلى مساحات الخطوط المستقيمة بحكم قوانين العاقلة وإرجاع قوة الشهوة والنضب إلى حكم العقل إنما يكون بقوة عزيمتنا وإرادتنا ، إذن الذي يحكم العالم الداخلي في أنفسنا والخارجي في عوالمنا أمران : العلم والإرادة ، والعلم والإرادة فبنا من المواهب الإلهية النبذة من العالم الإلهي الأعلى والله هو الولي الحميد .

(نظرة أعلى في فطرتنا)

هذا عمل الفطرة في عواطفنا وفي عوالمنا حكمتها ولحمتها بالتهذيب في الأولى والقوانين في الثانية . إذن هذه الأجسام الإنسانية وهذه العوالم الجسمية ألواح جعلت لتقرأها أرواحنا بدليل أننا نرى هذه العوالم وهذه الأجسام في تغير مستمر كما أن الألواح للأطفال تسمى كتباً بينما تسمى كتباً في الكتيب يدوم الإثبات والمحو فدوام التبدل في أجسامنا وفي عوالمنا ماهو إلا علوم تظهر لنا قترسماً في أذهاننا ثم تتوارها أخرى وتفسونها بالباقية ، ألا ترى رعاك الله أننا نتذكر صوراً وأشكالاً كما اطلعنا عليها في الصغر فترأها الآن كما هي في أنفسنا ولا وجود لها في المادة .

سبحانك اللهم ومحمدك أربنا وعلتنا ولا سعادة لنا والله إلا بما في نفوسنا ، أما هذه المادة فما هي إلا ألواحنا وهذه الألواح كما تقدم (في سورة النور عند آية «الله نور السموات والأرض») ماهي إلا قطع ضوئية يجرى سالبها حول موجبها باختلافها تكونت العناصر ومن العناصر كانت المركبات ، إذن هذه المادة أشبه بالصورة المتحركة السبية (السينا) تد صر هذا الخيال عند حواسنا حقائق ثابتة رحمة من الله لنا ليعلمنا حتى نلتحق بالعالم الأعلى عالم السكالك والجمال ، لقد أجمع القدماء من علماء الفلسفة والمحدثون ألا وجود للمادة وكل ما نراه ماهو إلا صفات وظواهر كما يعرف هذا من قرأ فن اللغويات في الفلسفة القديمة أو أضواء وكهرباء ، تكافئة في الفلسفة الحديثة والكهرباء والأضواء ترجع إلى حركات والحركات إنما تكون في الأثير والأثير عالم أقرب إلى عالم الأرواح لا يرى ولا يلمس ولا يحس هذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها . فطرم أن يرتقوا في الأسباب حتى تصل النفوس إلى طالبها فتكون هناك سعادتها وما مثل سعادة الأتس في الأرض بالمآكل والملابس والملك والعز والغلبة والقهر بالنسبة لسعادة الروحانية إلا كنسبة الجهل إلى العلم أو نسبة المم إلى الوجود أو نسبة الوجود للمادى الموهوم إلى الوجود الروحي المحقق ، وما تنوع الذات في عالم المادة إلا ضرب مثل لتوعها هناك في عالم الأرواح .

أيها التكي متى عرفت هذا وأيقنت به فهمت قوله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعقلون) فليس ماترونه من التبدل والتغير المستمر محوا وإثباتاً لمبا ولهوا بل ذلك تعليم وتدريب لكم وليس تبدل الحوادث عليكم وتعاقبها إذلالاً لكم وانتقاماً بل تهدياً وتعليماً ، ولم أخلق هذه الفطر الوثابة فيكم إلا لغاية نافمة لكم ، أفلا ترون النحل وكثيراً من الحشرات ها أنا ذا قد كونت لها الأزهار بالألوان الجميلة لغاية حقيقية وهي أن تمشقها تلك الحشرات فتأني إليها سراها ثم تشرب منها العسل (لغائتين) : غاية منفعة النحلة ونحوها بحياتها ، وغاية إقناع النبات بفعل الحشرات فإذا كان هذا فعل بالفطرة الحيوانية ولا أعطي لها فطرة إلا لغاية نافمة لها ، فهل أعطى الإنسان هذه الفطرة الشريفة التي هي أرق من فطرة الحشرات إلا لغاية عالية ؟ فإذا طارت النحلة للزهرة الملونة باللون الجميل فالت العسل بهذه الطريقة أفلا يكون حكم وغرامكم بالاطلاع على العوالم العلوية والسفلية والبهجة بكشف الكواكب الجديدة في العصر وعدم وقوف نفوسكم على حال من تلك الأحوال الكثيرة دليلاً على أنكم متجهون

الله حال عالية شريفة تنتظركم ومقام سام شريف ، وهل يكون هذا إلا بالعلم . هذا بعض سر قوته تعالى
«ولكن أكثرهم لا يعلمون» لأن من جهل أمر الحشرات وإلقاها كأغلب أمم الإسلام اليوم فهو حرمي
أن جهل أن خلق السموات والأرض مبني على النظام وأن خلق الإنسان لغاية سامية شريفة عالية
وسعادة باقية .

فمن يعلم تمشي حيا به أبدا الناس موتى وأهل العلم أحياء

﴿ اللطيفة الثالثة في العلوم المنطقية ﴾

اعلم أن الله عز وجل أعطى كل شيء خلقه فهدي ، فشكل حيوان فطرته الخاصة به بحيث كانت تلك
الفطرة كافية بشئونه العامة والخاصة ، فلنحل فطرة بها بنى بيوتها وملأها بالعسل وربى ذريته ، وللعنكبوت
نسجها الخاص بها الذي يكون فيه مأواه وبه يصطاد الذباب وغيره من الحشرات وهكذا مما ظهر في هذا
التفسير في مواضع كثيرة . هكذا الانسان له فطرة بها يهتدى لئدى أمه ويمسكه ويمتصه ويسكن عند الجوع
ويضحك عند الفرح . وهكذا تسوقه غريزته وفطرته إلى قيامه بشئونه وأعماله جميعها فيستعمل سمعه وبصره
وفمه وذوقه ولمسه ، كل ذلك بفطرته بلا معلم يعلمه ولا مرشد يرشده ، وقد وجد الناس في عصرنا أنهم
عثروا في الآثار للتوغلة في القدم أن الأمم جميعها لها معابد وعبادات وصلوات وتوجهات إلى المعبود ، واختلافهم
إنما هو في أوصافه وعدده ولكنهم جميعا متفقون على وجوده ، إذن الاتجاه إلى موجود له سمو وعلاو مسلم
به في الفطرة وهذا معنى قوله تعالى «فطرت الله التي فطر الناس عليها» فإن هذا النوع الانساني قد اتفق تاريخ
أمم على أنهم جميعا كانوا يتسابقون إلى الاستعانة بالموجود الأسمى ، وفطرة الناس منحصرة في (أمرين اثنين)
لا ثالث لهما (الأمر الأول) إتمام الجسم والمحافظة على النسل ، فلا رجل ولا امرأة إلا دأبهما المحافظة على بقاء
أجسامهما وتربية ذريتهما ، هذه فطرة فيها ولولاها لحلت الأرض من نوع الإنسان وهكذا كل حيوان
(الأمر الثاني) المحافظة على إبعاد الروح وآية ذلك ما تراه من حفظ المرض والخوف من السمات والعار والحزى
والندم وما أشبه ذلك وهكذا ما ذكرناه من توجهها لمبدع السكون واعترافها به وعموم ذلك في كل زمان
ومكان قديما وحديثا حتى إن الحيوانات عند حدوث اللغات ترفع وجوهها إلى أعلى دلالة على أنها عرفت أن
هناك مصدر لوجودها تستقيث به ليس في هذه الأرض ، إذن الفطرة تشمل أعمال الروح وأعمال الجسم
إجمالا ، هذه الفطرة كما أهتمت النبي الثمام تدى أمه حفزت للراهي والشاب والشيخ أن يتعاطوا الطعام
والشراب والزرع والتجارة وجميع أعمال الحياة ، فالناس عاملون في الدنيا لطلب الرزق بفطرتهم كما تعمل
الطير سواء بسواء ، ولقد تجد أمة كالأمة للصيرية والمراقية نهرا يجري كالنيل والقرات فيستعملونه بأن
يسقوا أرضهم ويزرعوها وهنا يساعد تلك الفطرة مدبرون ومعلمون فيعلم الكبار الصغار كيف يحرثون
الأرض وكيف يولدون البذر وهذا بينه فطرة بعض الطير تساعد أولادها في غدوها ورواحها وتكون
قدوة لها ، وهذه الفطرة كافية للأتم في حال بدايتها وفي حال طفوليتها فتكون أعمالهم قليلة وطرق كسبهم
أقرب إلى البساطة وكلما كثر عددهم وازداد جمعهم صمت فيهم ملكات التفكير وازدادت طرق الأعمال فاحتاجوا
إلى إبراز ما كمن في فطرتهم من فنون العلوم كالمهندسة والحساب والجبر ورصدوا النجوم ليعرفوا طرق البر
والبحر ، هناك يستخرجون من الأرض والعوالم المحيطة بهم كنوزا كانت مخبوءة فيها على مقدار استخراج
القوى الكامنة في فطرتهم إلى حيز الوجود وذلك بالعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها (وبيانه) أن الإنسان يسمع
ويصرر السموات والبصرات ولكل حاسة محسوسات خاصة؛ فالألوان والبعد والقرب والشكل والقدر والسطح
وما أشبه ذلك تعرف بالبصر وأنواع الأصوات تعرف بالسمع ، فإذا كان المحسوس لا يعرف إلا بحاسة واحدة

وكانت الحاسة سليمة من الآلات فهذه الحاسة صادقة في حكمها عليه ، ألا ترى أن الصوت إنما يعرف بالسمع أما اللون والشكل مثلا فالسمع لا يدركهما هكذا الصوت لا يدركه البصر ، إذن هذان كل واحد منهما مختص بحاسة لا يشاركها سواها في إدراكه . إذن يصدق السمع في السموغ والبصر فيها اختص به من الألوان ونحوها .

﴿ التفاحة واللبن ﴾

فأما أمثال التفاح واللبن فإتينا لا يختصان بحاسة واحدة . فإذن لا يصدق العين في حكمها على التفاحة ولا في حكمها على اللبن ، ويانه أن الإنسان يشاهد التفاحة فيحكم عادة بأنها تفاحة ، وقد يكون غمطاً لأننا لو صنعنا تفاحة من الكافور ولونها بلون التفاح ورأيناها ثم شمناها لحكمتنا في أول الأمر خطأ أنها تفاحة مع أن هناك حاستين أخريين يجب أن تشهدا وهما حاسة الذوق وحاسة اللمس فإن حكمتنا فيها وإلا فلا . هكذا إذا صنعنا ما يشبه اللبن كالديق المخلوط بالماء فالعين تراه ويخيل للعقل أنه لبن فلا بد من حكم القوة الباقية مع العين ، فهنا ثلاث مراتب في الحكم : حكم بحاسة واحدة وحكم بحاستين وحكم بثلاث حواس . فإذا خالفنا هذه القواعد فإن العقل قد يحكم خطأ . ألا ترى أنه يرى السراب في وسط النهار فيحكم بأنه ماء والعين صادقة في أنها رأت لون الماء وهيأته فحكم العقل إذن بأنه ماء خطأ لأن الماء لا يعرف بحاسة البصر وحده فلا بد من انضمام حاسة اللمس إليه ليعرف أنه سائل وحاسة الذوق ليعرف أنه ماء وما دام ذلك متعذرا على من بالصحراء فحكمه معرض للخطأ . هذا مجمل الأدلة وهي في أحكام الحواس في محسوساتها .

﴿ مقاييس العقول التي تقيس بها المعاني فتعرف صادقها وكاذبها ﴾

للعقول الإنسانية المنبثقة من الفطرة مقاييس خمسة : مقياس يحكم حكماً قاطعاً . ومقياس يحكم حكماً ظنياً ، ومقياس يقيس ويصوب حكماً مما قبله . ومقياس يكون أقرب إلى الوم . ومقياس قصد أن يكون حكمه خطأ . فأما المقياس الأول فهو البرهان ، وأما الثاني فهو الجدل . وأما الثالث فهو الخطابة . وأما الرابع فهو الشعر . وأما الخامس فهو السفسطة . أما البرهان فذلك هو اللبني على ما شهدت به الفطرة في مبادئ أمرها بحيث لا يختلف فيها ولا يشبهه جميع الناس من جهال وعلماء وأغبياء وأذكياء مثل .

- (١) إن الواحد نصف الإثنين والكل أعظم من الجزء .
- (٢) والشيطان للساويان شيء واحد متساويان .
- (٣) والنفي والإثبات لا يجتمعان .
- (٤) وإذا أضفنا شيئين متساويين لشيئين متساويين كان المجموعان متساويين .
- (٥) وإذا طرحنا شيئين متساويين من شيئين متساويين كان الباقيان متساويين .
- (٦) وإذا أضفنا شيئين متساويين إلى شيئين غير متساويين كان المجموعان غير متساويين .
- (٧) وإذا طرحنا شيئين متساويين من شيئين غير متساويين كان الباقيان غير متساويين .
- (٨) وإذا ساوى شيئان نصف الشيء كانا متساويين .
- (٩) وإذا ملأ شيئان حيزاً واحداً على التعاقب كانا متساويين .

وهكذا ما ذكره (أقليدس) في أوائل الهندسة ، وهذه أمثالها هي للسميات أوليات لأنها تعرف في أوائل العقول ومثلها المحسوسات للتقدمة على شرط سلامة الحواس واستيفاء الشرائط التي أشرنا إليها . وهكذا

ما صدقه التجربة مثل العقابر الطيبة للسهلة والمخدرة والنومة والمطية حرارة أو برودة للجسم ، فهذه متى صدقت تجربتها عدت من المقطوع بها . وهذا التواتر الذي شهد به جموع يحكم العقل قطعا بصدقهم كما تقول في مصر إن في الأرض بلادا تسمى الصين أو اليابان أو فرنسا أو ألمانيا أو استراليا ومكة والمدينة واليمن فهذه تقطع بوجودها وإن لم نرها . وهكذا ما لا حفظناه مرارا وعقلناه مثل أن نرى أن القمر إذا كان مقابلا للشمس امتلا ضوءا وكما اقترب منها قل ضوءه ، ومتى كان مقارنا لها لم يكن له ضوء ، فهذا دلنا على أنه استمد نوره منها لأنه لما قابلها أشرق نورها عليه فلما صار بيننا وبينها فعلا كان وجهه للشرق في جهة الشمس لافي جهتنا ثم تكرر هذا حكمنا حكما يقينيا كما حكمنا في المبررات سابقا . وهكذا نلاحظ أن في باطننا آلاما نسماها جوعا وآلاما نسماها عطشا وأخرى نسماها شبقا وأخرى نسماها مرضا وهي كثيرة لاحد لها ، ونجد لنا غضبا وحسدا وحقدا ورغبة ورهبة وحبا وكراهة فهذه يقينيات .

فهذه كلها إذا جعلت مقدمات في أدلتنا اليقينية كانت معينة على صدق النتيجة . هذا هو السمي بالبرهان ولبه في القوة الجدل .

﴿ الجدل والحطابة والسفسطة والشعر ﴾

أما الجدل فهو ما يستعمله الناظر ان بحيث يورد كل منهما ما يسلم الخصم به كالمسلمات والشهورات كرجال الدين والمذاهب المختلفة في كل أمة فهؤلاء يكفهم في أدلتهم ما يوجب الظن والترجيح لا غير . وأقل من الجدل الحطابة ، فالخطيب يشوق السامعين بما يغلب عقولهم فيستعين بالأمثال المشهورة مثلا ويحبهم فيما يريد بالطرق للتوسطة بين الصدق والكذب كالأللوب الشعري وهناك ما يقصد به التحسين والتقييح . ولقد تكفل بهذا فن البيان بأمثال المجاز والكناية والتشبيه والاستعارة التمثيلية وما أشبه ذلك . فهذه كلها يقصد بها جذب الخطابين بالصور الجذابة ولا يراعى فيها الحقائق والسامع لها قد يحرف كذبها ولكن لها أثر في النفس وأدائها كلها للغالطة وهي السفسطة التي يستعملها رجال السياسة وأمثالهم بأن أتوا بأدلة تشبه الحق وقد أرادوا بها باطلا وقد شبهوها بالدينار ، فإن كان ذهبيا خالصا فهو مثال البرهان الذي لا يخاطر ضده بالبال ، وإن كان فيه زغل لا يعرفه إلا الحاذقون كان مثالا للجدل ، وإن كان زغله يعرف بسهولة كان مثالا للحطابة وإن كان نغما ساكنا كان مثالا للغالطة . وأما الشعر فهو يقصد به التحسين والتقييح لا البرهان .

فهذا كله ملخص من علم المنطق وعلم المنطق ملح العلوم كلها وما ذكرناه هو أحد قسميه السمي بالتصديق .
واعلم أن المطلوب علمه :

(١) إن كان أمثال هذه الشجرة أو هذه الدواة فهذا لا يبرهن عليه ولكن سبيل العلم إليه إنما يكون بالتحليل والتحليل قام به علم الكيمياء ، فترى علم الكيمياء قام بتحليل المواد فمرفت فيحللون الماء والهواء ويفصلون العناصر التي حواها كلاهما فيحكون حكما قاطعا .

(٢) وإن كان نوعا كالإنسان فلا سبيل للحكم عليه بالتحليل ولا بالبرهان ولكن بالتعريف وذلك بالحد أو الرسم للمروفين في المنطق وذلك بالجنس والفصل القريب في الأول بأن يقال هو حيوان ناطق أو بالجنس وحده أو بالجنس والفصل البعيد في الثاني .

(٣) وإن كان الطوبو جنسا فلا حكم عليه بمجرد ولا بتحليل بل بالقياس كحدوث العالم وكنتع العقابر وضرها وهكذا فهذه لا بد فيها من القياس .

(٤) وإن كان المطلوب إنما هو تمييز الكليات بعضها من بعض فلا سبيل لها إلا بالتقسيم كعرفة الفرق

بين لقادة ومقاديرها وأعراضها المحسوسة من أوصافها للنظورة والسموعة واللبوقة واللحوسة ومن نسبتها إلى غيرها كالأبوة والبنوة ومكانها وزمانها وفضلها في غيرها واتصالها لغيرها . فهذا كله لا يتم إلا بالتقسيم وله فن يسمى (فن القولات) من علم للنطق وهو أيضا من الفلسفة العامة . واعلم أن التلمين في مدارس العالم طائفة يستملون التحليل كما تقدم في علم الكيمياء بسائر فروعها فهذا بورنهم يقينا فيما يزاولونه وبه استتجوا منافع لنوع الإنسان وهذا من فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فإذا رأينا الله فطر الطفل على التقام ندى أمه وعلى إغماض عينه سريعا إذا أحس باقتراب جسم غريب إليها ، نرى الذين يحلقون للواد يعرفون حقاقتها بفطرتهم غاية الأمر أن الفطرة في الأول لا تحتاج إلى تعلم لاستخراج ما كمن في أنفسنا ، وهم أيضا يسمون الحكمة إلى (ثلاثة أقسام) اسم وفضل وحرف وهو من أنواع المنطق للتصديفة ، ونراهم أيضا يقرءون الهندسة وكلها براهين والبراهين أشرف أنواع القياس ، إذن العلوم التي يدرسها الناس مشحونة بعلم للنطق الذي به استخراج الناس المجهول بواسطة المعلوم وهذا الاستخراج سببه الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فإذا فطر الله الناس على استعمال الفاكهة التي يرونها في الجبال بلا زرع هكذا فطرهم على أن يستخرجوا من الأرض بالجد والبحث ما يوازي ما استملوه بلا جد ولا نصب ، وإذا رأيناهم أجابوا الأنبياء كنيينا صلى الله عليه وسلم إذا أحسهم دين الفطرة وقرأ لهم القرآن هكذا نراهم استخراجوا بقولهم وفطرتهم من هذا السموع ومن العقول اللوافية له علوما استبحر بها العمران وارتقت الأمم ، فشجر البادية استعملناه بفطرتنا وشجر حدائقنا استعملناه بعد الجهد والنصب بمساعدة فطرتنا والقرآن عرفنا منه حرمة وأد البنات بمجرد سماعه ولكن لا ننظم الأمم ولا الجماعات على طريق القرآن إلا بمجد ونصب وإعمال فكل بمساعدة فطرتنا .

﴿ مراتب الناس في الاستدلال ﴾

- (١) « مرتبة الصبي » إن الصبيان مطبوعون على القياس والاستدلال وتكون نتائجهم ما بين صادقة وكاذبة لعدم اختبارهم ، فإذا رأى الصبي نظيره في مكتب أو طريق حكم بأن له والدين وهذا الحكم صحيح لأنه استدلال بالمعلول على العلة لأن المعلول لا بد له من علة .
- (٢) إذا رأى زوجا وزوجة قال لها أين ولداكما وهذا الحكم يصدق ويكذب لجواز ألا يكون لهما ولد لأن العلة لا تنتج المعلول إلا إذا استوفت جميع شرائطها والزوجان لا يلزم من وجودهما وجود الولد لأنها يصلحان علة بشرائط خاصة ومتى فقدت لم يصلح أن يكونا علة .
- (٣) وهكذا كلما رأى ولدا ظن أن له إخوة كإخوته ودارا ودابة وجوعا وشبعا على حسب ما يقوم بنفسه هو في وقت الانصاف بذلك ، فإن جاع ظن جميع الأولاد جياعا وهكذا إن عطش وظن ذلك قس ولا يقلع عن ذلك إلا بعد أن يعقل ويدرك خطأه .
- (٤) ومتى كبر وأدرك خطأ تلك القضايا وجد في نفسه بقيتها مثل أن يعتقد أن للطرفي كل بلد حين يكون يبلده وهكذا الحر والبرد والصيف والشتاء وهكذا كله خطأ ، ففي الأرض شتاء أيام صيف بلادها وبالعكس وعلى ذلك قس وذلك بمنه التعلم .
- (٥) إن كل نتيجة لا بد لها من مقدمتين فأكثر في كل استدلال منطقي أو هندسي أو غيرها وقد تكون المقدمات كثيرة جدا مثل قولهم زوايا المثلث تساوي قائمتين لم تكن إلا بعد اثنتين وثلاثين شكلا وقولهم مربع وتر الزاوية القائمة مساو لمربع مجموع الضلعين الآخرين لم يتم إلا بعد (٤٧) شكلا وهذا الشكل عندئذ يسمى شكل العروس .
- (٦) وقد يكتفى في البرهان بالقليل من المقدمات . مثال ذلك الاستدلال على النفس فيقال (كل جسم

فهو ذو جهات) ولا جرم أن هذه مقدمة صادقة لا عوج فيها (وليس يمكن الجسم أن يتحرك إلى جميع جهاته دفعة واحدة) وهذه مقدمة أيضا صادقة في أولية العقول (وكل جسم يتحرك إلى جهة دون جهة فلهذا ما يتحرك) وهذا إثبات للنفس ، ويراد به ذلك إثبات أنها جوهر لا عرض فيقال (وكل علة محرّكة للجسم لا يخلو من أن تكون حركتها على وتيرة واحدة في جهة واحدة مثل حركة التثقل إلى أسفل والخفيف إلى فوق ، فهذه تسمى علة طبيعية ، وإما أن تكون حركتها إلى جهات مختلفة وعلى فنون شتى بإرادة واختيار مثل حركة الحيوان فتسمى نفسانية) وهذه قسمة عقلية مدركة حسيا (وكل علة محرّكة للجسم بإرادة واختيار فهو جوهر) فالنفس إذن جوهر لأن العرض لا فعل له .

هذا ملخص ما ذكره [إخوان الصفا] هنا ، وأنا أقول أيها الذكي هذه الألفاظ غريبة على هذا الكتاب وقد طال أمدها ولكن الأمر سهل ، فمعى هذا كله أن الإنسان قد يستدل بمقدمات طويلة وكل مقدمة تحتاج لما قبلها وذلك كأداة الهندسة فهي متصل بعضها ببعض حتى تبلغ الثبات ولكنها في آخر أمرها ترجع إلى ما يعرف في أوائل العقول مثل ما تقدم وقد تكون المقدمات قليلة كأن يقال في الاستدلال على النفس إن الجسم له جهات ست فلماذا يتحرك إلى جهة دون جهة فلا بد من سبب ، فإن رأينا تحرك إلى جهة واحدة على وتيرة واحدة سميناها علة طبيعية ، ومعنى هذا أن الذي حرك هذا الجسم ليس جنسا بل هو أمر معنوي وإن رأينا يتحرك إلى جهات مختلفات بإرادته واختياره سمينا ذلك المحرك نفسا وذلك كالحیوان والإنسان ولكن هذه القوة التي سميناها نفسا ربما كانت عرضا أعني شيئا كاللون والحفة والثقل وإذن يكون تابعا للجسم لأنه من أوصافه فنقول « كل شيء يحرك الجسم بالإرادة والاختيار لا بد أن يكون جوهر » أي إنه ليس عرضا لأن العرض لا فعل له وإلا لجاز أن يكون اللون يحقل ويفهم وهكذا الثقل والحفة وهذا تأباه القطر الإنسانية .

هذا كله من فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فالاستدلال بالبرهان والعرفة بالمنطق وتخري الصدق في التفريعات ، كل هذا من موجبات الفطرة فإذا رأينا قوما يعيشون في الأكوخ ويكتفون بالصيد ولا يعرفون الحرف ولا القناطر ولا الجمور قلنا هكذا رأينا في الحيوان أمثال الناس ترى ذريتها بغير وجود آبائها أي إن الحيوانية هناك ناقصة . هكذا الإنسانية هنا ناقصة لم تستحكم . وإذا رأينا أناسا شقوا الأرض وزرعوها وارتقوا قلنا هكذا رأينا الطير تحضن بيضها وترى ولدها وهذا كله سميناها فطرة ، فالطير ترى وتحضن بيضها بالفطرة كما أن الجراد ترك بيضه وقس وحده بالفطرة . هكذا هنا عاش الناس في الأكوخ بالفطرة مع تقسمهم وآخرون عاشوا بالعلم فحرفوا الأرض وزرعوها وشقوا الأنهار ونظموها كاحضنت الطيور البيض وربت أفراسها بالفطرة غاية الأمر أن الفطرة في الطير والإنسان للذي أكل من الفطرة في الإنسان الممجى كما أن الفطرة في الطير أكل منها في الجراد والناموس والذباب . ونسبة الطير إلى الآساد والوحوش أبعد جدا من النسبة بين الإنسان والتوحش وفي الدنيا في عصرنا الحاضر . إذن هذا الدين الاسلامي « فطرت الله التي فطر الناس عليها » فهو دين التوحشين لأن الوحشية من الفطرة ودين أصحاب المدن العظيمة لأن المدنية من الفطرة ولا يخرجها عن الفطرة ارتقاؤها كما لم يخرج السباع عن الفطرة ارتقاؤها عن الطيور لأنها تحمل ذريتها وترضعها فضلا عن أمثال الجراد والذباب والناموس التي لا ترى ذريتها أصلا ، فهذه الأنعام والسباع من فطرة الله وأهل المدن العظيمة لم يخرجهم عن الفطرة ارتقاؤهم عن الوحشين ، وهذا الدين فيه المواعظ للعامة وفيه البراهين للخاصة إتماما إلى ما قلناه ، وفيه عرش بلقيس وملك سليمان كما أن فيه مدح للوثنيين على أنفسهم والقائمين والقراء الذين لا يسألون الناس إلحافا اه .

هذا ما فتح الله به يوم الاثنين الخامس من شهر نولبر سنة ١٩٧٨ م والحمد لله رب العالمين .

(اللطيفة الرابعة : بيان فطرة الإنسان في مظاهر الخلوقات)

(بهجة العلم . يوم شم النسيم — ٦ مايو سنة ١٩٢٩ م)

في هذا اليوم بدت لي أعمال في مزرعتنا التي هي بالقرب من القاهرة وقد كررتها مرارا في هذا التفسير يا سبحان الله ، سبحانك اللهم وعمدتك لا تنفد عجائب صنعك ، لقد توجهت لهذا الحقل مرارا وفي كل مرة أشاهد في طريق عجائب تخالف ما قبلها مع أن الطريق لم يتغير وإنما الذي يتجلى في كل مرة يكون على حسب الفكرة التي تشغل العقل ، فمرة كنت أتفكر في العنكبوت التي ضربت خيامها في تلك الفيافي وقد مر ذلك في هذا التفسير . ومرة تفكرت في أمر الحشرات التي تقتل الأشجار . وقد قابلني هناك بعض عمال الحكومة لإبادتها وقد تقدم هذا في أول (سورة الأنفال) والحشرة تسمى (الهبكس) فراجعها هناك .

أما في هذه المرة فإني أخذت أفكر في الفطرة الإنسانية . إن الفطرة الإنسانية جعلت معيارا لهذه العوالم وبيانه أن الانسان لو فكر في العوالم وكيف تخلق وعلى أي أسلوب توجد ؟ لم يفضل حالا عن حال (وبعبارة أخرى) إن العوالم الحيوانية والنباتية لو خير الانسان في خلقها وتبيل له أيها الانسان أتريد أن تكون كل الحيوانات صغيرة الأحجام أم متوسطة أم كبيرة وهكذا النباتات . وبالنظر إلى ألوانها هل يجب أن تكون كلها بيضاء أم صفراء وهكذا مساكنها أن تكون في الجو أم في البحر أم فوق اليابسة . وفي أصواتها أن تكون غليظة أم دقيقة لطيفة أم متوسطة . لو سئل الإنسان هذه الأسئلة لم تكن له وسيلة في الإجابة إلا بعم اللطيف إذ يقول إذا سألتهموني عن اختياري فأنا أفضل ألا يدع خالق العالم حالا إلا أعد لها خلقا فلا يدع الصور الصغيرة ولا الكبيرة ولا المتوسطة في النبات والحيوان وتشغل هذه الخلائق الهواء والماء واليابسة . إن فطرتي تميل للعدل والعدل يقضى أن تعطى كل مرتبة ما يليق لها . فلا السواد من الألوان مثلا بتروك ولا الخضرة ولا غيرها ولا يحرم الماء ولا الهواء من هذه العوالم ويعطى كل مقدارا من الصور الصغيرة والمتوسطة حظه ولتكن جميع الأصوات في الوجود . فليكن صوت دقيق جدا وليكن متوسط وليكن عال ثم يقول الإنسان بحسب فطرته .

أما من جهة النشوء والارتقاء فأنا أهتم بأني أرى في كل مرتبة الخلق للناسب لها . فأرى كل معدن وكل نبات وكل حيوان ، ويهمني أن أرى جميع الدرجات بعضها فوق بعض لأن فطرتي تشهد أنه لا يصح خلود درجة من درجات الوجود من عوالم تخلق فيها فأرى سلسلة المعادن والحلقة المتوسطة بينها وبين النبات وهكذا النبات يهمني أن أرى كل درجة من الدرجات السفلى والوسطى والعليا وهكذا الحلقة المفقودة بين النبات والحيوان وهكذا الحيوان أحب أن أرى درجاته متناسبة صاعدة من أسفل إلى أعلى حتى أصل إلى الإنسان وهناك يهمني أن أرى هناك حلقة بين الحيوان والإنسان .

هذا هو الذي تشهد به الفطرة ومعنى هذا أن مذهب النشوء والارتقاء الذي شرحه (ملطياوس الحكيم) في حديثه مع (سقراط) هو الذي تشهد به الفطرة وهو الذي قال به (داروين) وليس هذا المذهب له بل هو قديم ولكن الفكرة في حد ذاتها يشهد بها النظام غاية الأمر أن بعض الجهال ظنوا أن القصد من هذا المذهب نفي الألوهية وأنه مذهب حديث ولكنهم لم يعلموا الفطرة الانسانية خاب فألمهم وصل سعيهم .
إن الفطرة شاعرة بهذه السلسلة التي يقول الله تعالى فيها « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » فليقل

(مبارون) و (لامارك) ذلك فهما لم يقولا شيئا جديدا وهذا تشهد به القطرة فالعوالم متناسبة أعلاها مرتبط بأدناها ، هذا أول الأمر وهذا آخره ، وما هذه الدرجات إلا كدرجات الإحساس في الإنسان التي تبتدىء بالأقل وهو اللمس وترتقى بالتذوق فالتشمع فالبصر ، هذه درجات بعضها فوق بعض شهدت بها القطرة وشهد بها الخلق أما كون أصلاها مشتقا من أدناها فأمر يفرح به سائر العلم الذين لا يفتنون ، وإنما ذكرت هذا في هذه السياحة لأنني ما كنت أتوسط تلك الأرض التي بمد بلدة المريج وأنا أمشي في الخيول حتى رأيت الجلاموس والقر والتمز والنم دائبة في رعيها ساعية في جلب رزقها من تلك الحشائش الطالعات في الأرض ، وبينما أنا أرى تلك الأنعام في مراتبها إذ شاهدت الحطاطيف طائرات في الهواء ذات النمين وذات الشمال ، وهكذا أنواع الصافير والقنابر والصفير اللينة والمدهاهد ثم الغربان والطارئ للسمي بالعز وهكذا أبو قردان . فهذه كلها كانت أفعالها وهي فرحات طربيات مغردات مبهجات ترتع في نعيم الحرية والسعادة . ولعمري كيف كنت أرى الغرباب الأسود وأبا قردان الأبيض يطيران وهما مقتربان ولا ينفى أحدهما على الآخر كما ينفى البيض في أمريكا بالولايات المتحدة على السود فيها ازدراء بهم واحتقاراً لشأنهم ، حقا « إن الانسان لظالم كفار » شاهدت الطائر السمي بالعز كبير الجثة طويل الأجنحة التي ابيضت من الأمام واسودت من الخلف ولم أره طفئ على أبي قردان ولا الغربان ولا الصافير احتقارا لشأنها بل يسمى لاصطياد الحشرات التي خلقت له فلم يعد مارسه له القطرة « إن الانسان لظالم كفار » .

﴿ هذه سطور الكائنات ﴾

كنت أقرأ هذه السطور المكتوبات التي كتبها الله لي ، كتبها لي وقال اقرأها فتقبلت الهدية من الله وقرأت ماسطره لي سبحانه ، وإنما قلت إن الله سطره لي لأنني نظرت الحيوانات التي أمدى إذا كل واحد منها مهم بشأنه عاكف على عمله ، ولم أر على حسب ما نظرت في أحدا منها مهما بما اهتمت به فأنا أقول إن الله سطر هذا لي على حسب ما طبعت عليه نفسي * ولقد ناس فيها يشتمون مذاهب * فمن كان من الناس على شاكلي فيحق له أن يقول إن الكتابة له أيضا ، فالسور المكتوبة والقراء يقرءون منها ما يوازي عقولهم ، فما أنا ذا أسمع أصوات الغناء من الصافير اللغنية كما أسمع تقيق الضفادع في الماء وتقيق الغرباب فأرى الاختلاف اقتضاه العدل الذي هو شأن القطرة ، ففي القطرة وجود جمال الأصوات وقبحها وصغر الأشكال وكبرها وتباين الألوان والأشكال والمعادن والأخلاق حتى يتم التوازن ويكون النظام ، فلئن ظهر على الأرض النيل العظيم الجثة والجمل ذو السنامين ليظهرن النمل الذي رقى جسمه ودق صنعه وحسن وضعه وجملت هندسته ، وبينما أنا سائر في الطريق أنظر هذه العوالم وكأني في جنة عرضها السموات والأرض وقد فهمت قوله تعالى « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » إذ رأيت النمل غاديات راجمات (وقد كنت إذ ذاك أكتب في تفسير سورة النمل عجائب صنعها وبديع إتقانها) فأخذت أتتبعها فوجدت لها منفذين تدخل فيما تحت نحلة هناك والنملات يسرن في طريق ذاهبات كأنهن صف الجنود متوجهات إلى ساحات الحرب فأخذت أتتبعها وعندت خطواتي إذا هي خمسون خطوة وفي أثناء تلك الخطوات كانت جماعات النمل تسير في طريق واحدة لاتعددها وهي قد ملأها من أولها إلى آخرها . وبعد هذه المسافة رأيتن مشرفات يحملن القوت من هنا ومن هناك ويقبلن على هذه الجماعات في طريقها ويسرن معها على حسب نظامها فوقت إذ ذاك أنكر في هذه الجماعات وأقول لقد قلت في هذا التفسير في (سورة النمل) أن أعظم جماعات النمل متوصل عددها إلى (٥٠٠) مليون نملة أما جماعات الانسان فإن أعظمها لم تصل إلى هذا العدد ، ولقد تقدم في هذا التفسير هناك أن لنمل حربا وأسرى وهذه الأسرى تخدم السادات وتطعمها وهذه السادات

صحيح علة على هؤلاء الأسرى وعليه يصبح السادة عاطلين وحقيق بهم النكال والويل كما ساق بالانسان إذا
كلان من الترفين فتشابه في الانسان وفي النمل وسائل الهلاك وأبواب العطب وأدلة الحصران .

فظلم جماعات النمل لمرها واستعمارها مهلك كما يكون ذلك أيضا منسدة للانسان كما دل عليه حال آباءنا
العرب إذ تنعموا فهلكوا وهكذا دولة الرومان ، هنالك نظرت نظرة في حال هذا الإنسان وقت قولها حقا
يا بني آدم . إن الأرض صنع الله والله متعن الصنع ، أعطى كل شيء خلقه ثم هده . ليس في قدرة النمل
مدينة أعظم من هذه . إن مدينة النمل محدودة ، ليس في نمل الشرق قدرة على معرفة نمل الغرب والارتفاع
بأعماله بل جماعات النمل المختلفة في بلدة واحدة لا قدرة لها على منفعة الجماعات الأخرى وليس بين المجتمعات
صلة ولا مخاطبة لأنها ليس في فطرتها ما هو فوق ذلك . أما هذا الإنسان فيظهر لي أنه إلى الآن طفل صغير هو
جهول ، إنه أعطى عقلا ولكنه إلى الآن لا يزال في حال التجربة ، أليس من العار أنه لا يزيد في مدنيته
عن مدينة النمل فهو ذو حرب وأسرى وظلم ثم ترف ثم هلاك ، إلى أشهد أنه وأشهد الناس جميعا وأبرأ من
هذه الإنسانية الجاهلة الظلمة الانسانية الفاسدة المشومة الغرة الجاهلة . وأقول ليس من العقول أن تنفي
هذه الأرض قبل أن يرتقى هذا الإنسان ويصل إلى منتهى درجات الإدراك ولا يكون ذلك إلا إذا أصبحت
كل الأمم يساعد بعضها بعضا شرقا وغربا لأن هذا هو الفارق بينها وبين النمل وأمثالها . ليس عند النمل طريق
حديدية ولا بريد ولا طيارات ولا مدارس ولا علوم ومع ذلك ترى لها مدينة لم يرتفع عنها هذا الانسان .
إن هذا الإنسان لا يزال في حال الطفولية وجدير بالكتاب والحسكاه أن يهدوه إلى فطرتهم .

هذا ما فهمته يوم شم النسيم . ولما وصلت إلى للزرعة وجلست تحت الأتلات بين المزارع والحقول تذكرت
آي منذ أسابيع كنت قد أتيت إلى هذه المزارع وقد مررت بمزرعة نخيل في الطريق ضحي :

والريح تعبت بالنصون وقد جرى ذهب الضحى في الروضة الفيحاء
فأرى الزهور عوانسا ووجوه ههنا أوانسا في الحلة الخضراء .
وغصونهن موانسا متعاقبات كل حين في صفاء ووظاء .

فحرك مني هذا النظر ما سكن وأخذت أفكر في أمر الرياح ومصدرها وأنها آتية بسبب حرارة الشمس
التي سلطها الله على الهواء والأرض فحرت الرياح عند خط الاستواء شمالا وجنوبا إلى (٣٠) درجة في الجانبين
وهناك تفرعت كل ربيع منهما إلى (فرعين) فرع يرجح إلى جهة خط الاستواء وهي الرياح التجارية وفرع
أخر إلى الجهة القطبية وهي الرياح العكسية أو الضدية . وهناك رياح أخرى تسمى القطبية تهب من جهة
القطبين كما أن هناك رياحا تهب من البر إلى البحر ليلا ومن البحر إلى البرنهارا وهناك أخرى تهب من البحر
إلى البر صيفا وبالعكس شتاء وهي الرياح الموسمية . فأصل هذا الاختلاف في الرياح جنوبا وشمالا وشرقاً وغرباً
أمر واحد هو الحرارة فبالحرارة واختلاف طباع الماء والهواء اختلف اتجاه الرياح فكان السحاب والطار
والزروع والشجر وغنت الأطيبار وبهرت الأزهار في سائر الأقطار .

علم الله أن الناس في هذه الأرض لا يحفظون الفطر التي خلقوا عليها لأن طبيعة هذه الأرض والبيئات
والأحوال العامة تقتضي أن يغيروا تلك الفطرة . وما هي الفطرة . هي أن يكون الناس مسلمين ولا معنى للاسلام
إلا الاتقياد لله ولأوامر الله والله أرسل رسلا كوسى وعيسى ومحمد وأتباع الأنبياء يعلمون أن كل من جاء لمنفعة
الناس ولم شعهم فأبت نفوسهم النحرقة أن تتبع الفطر فقال قوم لا تؤمن بمحمد ولا بعيسى الخ وقال قوم لا تؤمن
بمحمد ولكن تؤمن بعيسى وموسى الخ والذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قالت طائفة منهم نحن نكره
الطائفة الأخرى لأنها تخالفنا في بعض فروع الشريعة وهؤلاء وهؤلاء مثلهم في الدين كمثلهم في أحوالهم العادية

إلا ينم الله عليهم ثم يصيبهم الضر فيكون اليأس أو يكونون في شدة فينالون الرحمة فيضطروا وهذا معناه عدم القبات فخير لهم أن يكونوا مع الله في الشدة واللين والبصر واليسر فإن كان خيرا حمدوه أو شرا التجثوا إليه ودعوه هكذا في الدين فإن اليهود آمنوا بموسى وكفروا بمن جده إذ لم يوافق أهواءهم والنصارى آمنوا بيسى . وكفروا بمحمد لأنه لم يكن على هوى من يعاشرونهم وهكذا أهل كل مذهب من أهل البع الإسلامية . إن أهل الأرض يتبعون أهواءهم وأخلاقهم وما اعتادوه لا الحقائق ، كيف لا ونحن نرى أبناء كل أمة يتبعون آباءهم حدود النمل بالنمل والفنة بالفنة إن خيرا فخير وإن شرا فشر والإسلام لله والخضوع له أن يمجذ كل من نفع الأمم قديما وحديثا وألا تجعل الفروق القليلة سببا في الاقتراق وإلا فكيف افرقت طوائف المسلمين أحزابا وأحزابا وكيف كفر أهل الكتاب بمحمد صلى الله عليه وسلم إن ذلك دلالة على عدم الاتياد لله والطاعة له وإلا فإن الناس يقرءون علوم العلماء وأشعار الشعراء وحكم الحكماء في مختلف الأمم فكيف جعلوا الديانات مفرقة للناس وأصحاب الديانات يحبون الناس كلهم ونصائحهم تنفع الناس قاطبة غالبا بل كيف افرقت أتباع الدين الإسلامي فرقا ، أليس ذلك لجهلهم أنهم قد أخذوا في القرآن وفي الصلاة وغيرها وفي أكثر الفروع وإنما يختلفون في أمور جزئية فكيف يفترون بها إن ذلك كله للجهل الذي طمس على القلوب ومخالفة القطرة تقتضى النظر الصحيح ، فأهل الأرض إذا اختلفوا في الدين فإنما ذلك الاختلاف ناجم من تقليد واتباعهم أهواءهم وعدم نظرم الصحيح فطبيهم أن يسلموا . وينقادوا له ويكونوا كالمسلمين فهم يؤمنون بكل نبى ، هكذا فلتفضل سائر الأمم ، هذا هو دين القطرة . ولعلم أرباب المذاهب في الإسلام أن اختلافهم لا يوجب التفرقة بل هم أمة واحدة . وما دام النوع الانسانى هكذا فإنه كفور بنعم ربه غير شحيحور يتبع الأهواء . وسيكون له عواقب في عالم البرزخ والعوالم للتسابعة وهناك يتدرج في معرفة الحقائق ويحذب الجاحدون ، وينعم السالطون .

ولا يسيل سلامة الأمة الإسلامية إلا أن تعمم التعليم وتدرس جمات هذه العجائب الأرضية والسجوية ليرمض في الأذهان جمال الطبيعة والعجائب الإلهية فتشرق النفوس وتقترب العقول كما قدمناه في هذا التفسير انتهى الكلام على الطيفة الرابعة والحمد لله رب العالمين .

(جوهرتان)

(الجوهرة الأولى : في قوله تعالى « ظهر الفساد في البر والبحر » الخ)

جاء في بعض المجلات العلمية مانصه :

(نكبة العالم من الأسنان الدقيقة)

ترى القار فترديه بل قد تراه غير جدير باحتقارك . ولكن هذا الخلق الضئيل تعدد أقوى دول العالم أروع عدو للجنس البشرى وتشن عليه الحرب العوان في كل مكان لما ينشأ عنه من الأضرار العظيمة فهنا « السير وليام بول » يقدر ما تحذته القيران من الخسائر في انكلترا بمبلغ ٢٥٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيه ولذلك أصدر البرلمان الانجليزي قرارات شديدة في هذا الشأن . وإذا بلغت الحكومة عن أى شخص بأنه يوجد في ملكه قيران أرسلته مندوبا يكلفه باستئصالها فإذا لم ينفذ ذلك أرسلت أشخاصا يقومون بإعدامها وتتخذ ضده الاجراءات القانونية الزاجرة . وقد وضعت الحكومات الأمريكية جوائز لمن يصطادون القيران وبلغ ما قلته فتاة في ولاية « تكساس » في سنة ١٩٣٨ ٧٣٩٨ فأرا وقد أربى على ذلك ما اصطاده غلام على

مقربة من هنما لولاية حيث تتل في نفس اللمة ١٥٥٥٥٠ فأرا . ويقدر ما يتلفه الفأر في السنة بنحو ١٠ شلنات على الأقل وإذا تناسل فأران لمدة ثلاث سنوات نشأ عنهما ١٨ جيلا ويبلغ عند أفرادها ٤٨٢ ر ٣٥٩٨٠٩٠ فأرا . وإذا كانت نسكة العالم من الفيران في غاية الفداحة من الوجهة الاقتصادية فإن ماتلقفه بالجنس البشري من الوجهة الصحية يعد من أكبر الكوارث لأن الفيران تعيش في أفقر الأماكن فتخرج من جحورها للوثة إلى حيث توجد الأغذية فتترك جراثيمها في مواد الغذاء وتنتشرها في غرف الدور ، ويقرر الطب أن الجراثيم التي تحملها الفيران في فراؤها أظفح أنواع الميكروبات فإن منها جراثيم الطاعون وغيره من محدثات الأمراض ، وتمتد ضحايا الجنس البشري من جراثيم الفيران أكثر عددا من ضحايا الحروب التي ذكرها التاريخ ، فإن الطواعين والأوبئة التي كانت تخلى أوروبا من سكانها في القرون الماضية لم تنشأ إلا من الفيران التي كانت تنقل العدوى ، وقدر ضحايا أحد هذه الطواعين في يوم واحد (١٠٠٠٠٠) نسمة في مدينة القسطنطينية في سنة (٤٥٥) بعد الميلاد ، وكمن مرة حسدت الطواعين أهالي إيطاليا ، ولقد طاف الطاعون أرجاء أوروبا في القرن الرابع عشر وحصد أهلها حصدًا وصمى بالموت الأسود وبلغت ضحاياه (٢٥٠٠٠٠٠٠٠) نسمة وكان من ضحاياه في الهند وحدها في سنة ١٨٩٦ نحو (٩٠٠٠٠٠٠٠) نسمة .

ويذهب بعض العلماء إلى أن ما يحدثه الفأر من التلوث يرجع منى ما يقع من الأسود والنمور والذئب إلى آخر ما يوجد في العالم من وحش .

ويرى ساسة الدول وعلماءها أن مشكلة استئصال الفيران من البلاد يجب أن يعنى بها مهندسو المدن فإنهم إذا كانوا قد عالجوا البيوت الحديثة بأن بنوا سقفها بطراز مخصوص لا يسمح بعبثة الفأر يجب أن يصنعوا علاجا آخر لأرض المدن بحيث لا يمكن أن تتخذ فيها الفيران جحورا لها . وليس واجب الطبيب في هذا الشأن بأقل من واجب المهندس ، فقد ظهر أن المدن التي يعنى فيها بالأمور الصحية توجد فيها كيات قليلة من الفيران بخلاف القرى والمدن التي تهمل فيها الشؤون الصحية ، ولذلك فالتناوجه أنظار كل صاحب أسرة إلى استئصال جاني داره من هذا الحيوان للربيع لأنه لا يختلف في الحقيقة عن اللص القائل بيد أنه يقوم بهذين الوظيفتين في وقت واحد .

﴿ بسبب الفأر أيضا ﴾

يقرر معهد طبي في انكلترا أن زوجا من الفيران يتناسل في السنة الواحدة هو وأولاده وأولاد أولاده إلى أن صبروا في نهاية العام : (١٠٠٠٠) فأر ، وتبلغ قيمة ما يتلفه ألف فأر في السنة (١٥٠٠) جنيه وتقدر خسائر انكلترا من الفيران التي فيها (٧٠٠٠٠٠٠٠٠) جنيه كل سنة . انتهى ماجاء في تلك الصحيفة . ولما كان الفساد في البر والبحر ليس مقتصرًا على ماجاء هنا بل يتعداه إلى أمور كثيرة وجب أن أذكر لك ماجاء في كتاب [قانون الصحة للزلية] ثم أتبعه بجمال العلم والحكمة والإبداع والعجب العجيب ،

الأمراض المعدية

تنتقل هذه الأمراض بالماء والغذاء والهواء والتلقيح ، فمن الأمراض التي تنتقل عادة بواسطة الماء والأغذية : الدوسنتاريا والإسهال والكوليرا والحمى التيفودية وغيرها ، وأحيانا تنتقل بالبن كالقرمزية والدفتريا . ومن الأمراض التي تنتقل بواسطة الهواء أو اللامسة : الحمى التيفوسية والتهاب الرئة وجدري الدجاج والحصبة والاضلوزا والسعال الديكي والدفتريا والجدري وغير ذلك ، وهناك بعض أمراض تنتقل بواسطة الناموس

أو الحلق والبراضيت كحمى اللاريا والحمى الراجعة ، وينقل الطاعون بواسطة البراغيث من الجرذان . ومن الأمراض التي تنتقل بالتلقيح: الحمرة وحمى النفاس وتسمم الدم وجدري البقر وداء السكاب والتيتنوس والبرن والحفلم وغيرها ، وتقي الإصابة الأولى ببعض الأمراض المعدية من إصابة أخرى بها إما لأجل مسمى أو غير مسمى وذلك لوجود مضادات للميكروبات للسببية للمرض في الدم ونشأت من الإصابة السابقة وهذا ما يسمونه بالوقاية الطبيعية وعلى نسقها استنبطت الوقاية الصناعية بالتلقيح كما يفعل في طريقة الوقاية من الجدري بتطعيم اللادة الجدرية نفسها المحتوية على ميكروبياته فتولد في الجسم مضادات تقويه شر الجدري لو أصابه .

﴿ الأمراض المعدية الخطرة ﴾

هذه الأمراض هي: (الجدري . والقرمزية . والدفتيريا . والحمى التيفوسية . والحمى التيفودية . وحمى النفاس . والحصبه . والسعال الديكي . والجدري . والنكاف . والأرمداء المعدية . والسل . والسكولرا) .

﴿ الجدري ﴾

هو أشد الأمراض عدوى وميكروبياته توجد في قشور بثراته، وينقل بالملامسة والسياب والقراش وأدواته والهواء وذلك على الخصوص مدة التفلس أو التفشر ، ويسبق الإصابة عادة حمى شديدة مدتها من يومين إلى ثلاثة وفي . ولام شديدة في الظهر وفي الغالب تظهر البثور في اليوم الرابع ابتداء على الوجه والجبهة ، ثم على الأجزاء الأخرى من الجسم ، ثم تجف وتتفلس ثم تتبدى في السقوط وذلك من اليوم الرابع عشر من ابتداء الإصابة أو شهر من ابتداء العدوى وجميع مدة الإصابة تكون الحرارة مرتفعة وقد يظهر هذا المرض عند اللصعين أيضا ولكن بحالة خفيفة جدا .

﴿ القرمزية ﴾

مرض معد جدا وتنتشر العدوى على الأخص بالقشور التي تنساقط من الجلد على اللباس أو غيرها من الأشياء التي تمسها . ويظهر المرض بعد العدوى بيومين أو ثلاثة عادة وعلاماته: البرودة والحمى وفي أحيانا وطفح أحمر وآلام في الحلق، وقد تخف الحمى والطفح في الثلاثة أو الأربعة الأيام التالية وفي الأحوال الخفيفة يظهر المرض كأنه شفي تماما ولكن يلزم الاحتراس بالأخص من البرد خوفا من إصابته بمرض في السكلى ويبتدىء تفلس أو تفشر البثرات من اليوم العاشر إلى اليوم الرابع عشر وربما تأخر للأسبوع الثالث أو أكثر ، ويستمر هذا التفشر من أسبوع إلى ثلاثة أو أربعة ويلزم الاحتراس من العدوى في دور التفشر .

﴿ الدفتيريا ﴾

هذا المرض يعدى بافرازات الفم أو الأغشية التي تتكون في الحلق والأنف، ووسائل العدوى هي التقييل وأراني الشرب والسياب وأدوات الفرش ، والسعال يكون سببا في العدوى بإتخاذ بعض الفرزات والأغشية المعدية في غرفة المريض ثم جفافها على الأثاث والأرض وحينئذ تنتشر في الهواء بالكسب وبذلك تتكون سببا للعدوى مدة طويلة من الزمن ، ولذا يجب تطهير غرفة المريض وأثاثها ، ومن اللهم جدا أن تجمع كل الفرزات لإعدامها أولا فاولا ، وتحرق أيضا الأقمشة التي كانت تستعمل لمسح الفم والأنف مدة المرض . وتظهر (الدفتيريا) بعد العدوى بنهاية السرعة فقد تتكون الأغشية بعد مضي أربع وعشرين ساعة من الإصابة والذين يشكون من ألم في الحلق معرضون للإصابة أكثر من غيرهم ، وبعد الشفاء يصاب المريض أحيانا بمرض في السكلى أو بشلل موضعي أو عمومي أو بغير ذلك . وأهم الوسائل لمعرفة المرض بحيث الفرزات بالميكروسكوب (منظار معظم) للتحقق من وجود الميكروب الخاص .

﴿ الحمى التيفوسية ﴾

مرض معد جدا ، ويساعد على انتشاره ازدحام المساكن وإهمال التهوية والنظافة ، ومدة هذا المرض أسبوعان عادة ، ويظهر فيه من اليوم الرابع على الجلد بقع حمراء مستديرة ، وفي نهاية الأسبوع الثاني ينحط المرض بسرعة وينتهي النقح في آخر الأسبوع الثالث .

﴿ الحمى التيفودية ﴾

يعدى هذا المرض ببراز وبول المصاب ، ولذلك يلزم أن يضاف إلى هذه المفرزات مطهر قوى كحامض الفينيك أو محلول السلطاني لإعدام ميكروبها قبل إلقائها ، وينقل العدوى الماء والبن إذا اخلط بهما شيء من المفرزات السالفة الذكر ولذلك يجب تطهير ملامات الفرش أو لافأولا بالقائها في محلول مطهر ثم إغلائها ، ومدة هذا المرض عادة ثلاثة أسابيع ، ومن الصعب معرفته في دور التفريغ وهو من الأمراض الخطرة بالنسبة لارتفاع الحرارة وبالنسبة لما يحصل أحيانا من انتقاب الأمعاء من تقرحها ولذلك يجب ألا تعطى أغذية صلبة ، ويجب ألا يتحرك المريض إلى أن يدخل في دور النقح الذي يمكن أن يكون من (٥) إلى (١٠) أسابيع .

﴿ حمى النفاس ﴾

هي مرض خطر تصاب به النساء بعد الوضع ويتجنب حصوله بالاعتناء بالنظافة الشخصية التامة وتعقيم جميع ما يستعمل للولادة ، وينشأ هذا المرض من تسمم الدم بميكروبات خصوصية .

﴿ الحصبة ﴾

الحصبة مرض من أمراض الطفولية وأكثر حصولها من السنة الثانية إلى الخامسة وتظهر بعد العدوى بأربعة عشر يوما فيحصل ألم في الرأس وحمى ثم تظهر في اليوم الرابع من الإصابة بقع حمراء على الوجه والجسم وتزول في اليوم السابع أو الثامن بالتدرج وينتهي المرض بسقوط قشور نحالية من الجلد وربما استمر ذلك إلى الأسبوع الثاني أو الثالث وهي تعدي قبل ظهور الطفح وتستمر العدوى على الأقل إلى نهاية الأسبوع الثالث .

﴿ السعال الديكي ﴾

هو مرض شديد العدوى ودور تفريغ من عشرة إلى أربعة عشر يوما، ويمتاز بشهيق شديد يشبه في بعض الأحيان صوت الديك وهو معد بواسطة النفس وضرره كالحصبة في مضاعفات الرئتين ومدة المرض من ثلاثة إلى ستة أسابيع غالبا في الأحوال العادية .

﴿ الجدري ﴾

لا يعتبر من الأمراض الخطرة ولكنه من الأمراض الشديدة العدوى، وعدواه تحصل بواسطة الملابس وغيرها ومدة المرض ثلاثة أسابيع على الأقل .

﴿ النكاف ﴾

مرض معد غير خطر، علاماته ورم في مقابلة زاوية الفك السفلي في الغدة النكفية، ومدته من ثلاث إلى أربع أسابيع .

﴿ الأرماد المعدية ﴾

تنتشر عدوى الرمد الصديدي والرمد الفشائي (الدقتريا) والرمد الحبيبي بأصولها المعدية التي في إفرازاتها إذا تلوثت بها الأسابيع والمناديل أو أوراق التجفيف أو المناشف أو الهدات وغير ذلك فيجب الاحتراس من ذلك في المدارس .

﴿ السِّل ﴾

السِّل وعلى الأخص السِّل الرئوي يعدى وينتشر بواسطة البساق ولذلك يلزم الاحتراس من بساق المسالين، فمَنْ جف يكون ممدياً بمروره في السالك الهوائية . ولاجتناب العدوى يلزم للريض أن يصبق في إناء خاص محتو على عحول مطهر قوي ، وإذا بسق المسالين في متدبل يجب إغلاؤه في الماء أو إحراقه ، ولا يجوز نوم السليم مع مسلول أبدا .

﴿ الكولرا ﴾

تحصل العدوى في هذا المرض من انتقال ميكروباته التي في براز وقيء المصابين . فلا يجوز لمس المواد المذكورة وكذلك ماتلوث منها . وعلاماتها الإسهال والقيء والنفس وتشنج العضلات مع برودة وزرقة في الوجه واليدين والقدمين ، ويلزم عند ظهور الوباء اتخاذ الاحتياطات الشخصية الآتية .

- (١) إغلاء ماء الشرب ومنع استعمال المياه للتلوثة .
- (٢) تجنب أكل الخضر والفواكه غير المطبوخة .
- (٣) غمر الخضر والأثمار واللحوم في ماء مغلي مدة نصف دقيقة وقت إحضارها من الخارج ثم طبخها بأسرع ما يمكن وأن يوضع الحبز في الفرن ثلاث دقائق .
- (٤) إغلاء اللبن جيدا .
- (٥) غسل أواني الطعام في ماء مغلي وتنظيفها جيدا بقماش جاف نظيف ، وكذلك تنمر أدوات اللائدة من ملاعق وشوك وسكاكين وغير ذلك في الماء المغلي قبل استعمالها مباشرة .
- (٦) تغطية جميع الأطعمة لمنع تلوثها وبالأخص من الدباب .
- (٧) غسل الأيدي جيدا وتنشف بكل اعتناء قبل الأكل .
- (٨) تجنب أكل الأطعمة المسرة المضم .
- (٩) تطهر مراحيض المنزل كل يوم مرة مع الاعتناء بتطهير مقاعها .
- (١٠) يجب تهوية المنزل جيدا كل يوم والاعتناء بنظافته .
- (١١) غسل الأيدي جيدا عقب الخروج من للرحاض حالا وتطهيرها اه .

ولما اطلع على هذا أحد الأصحاب من أهل العلم . قال هذا حسن ولكن التفسير بهذا انقلب إلى علوم والعلوم لها كتب خاصة ، فإما أنك تعتمد إلى مقالات عامة في أمثال هذا المقام وتذكر ما يقوله الأطباء وإن كان متفق مصطفي فإنه ليس مما يلائم التفسير فقلت له : حياك الله أيها الأخ ، أنا أكتب في التفسير زهرات من العلوم ونمرات من الحكم وهذه الزهرات والنمرات هي للناسبات لتفسير القرآن بل لا يتضح المعنى إلا بها إن شاء الله (كتابين) كتابا كتبه بيده ، وكتابا أملاه علينا بالوحي . والكتاب الذي أملاه علينا بالوحي تلقاه بأسماعنا، والكتاب الذي كتبه بيده نراه بأبصارنا، ومن عجب أن الذي كتبه بيده بحجم ظاهر واضح ومع ذلك الوضوح أصبح عندنا في غاية الخفاء ، فالذي كشفته أبصارنا بحسنا هو الشديد الخفاء والذي سمعته آذاننا تلقاه ونفهمه ولكن هذا القهم فهم ضئيل ، نسبح الله يقول إن الفساد ملاء البر والبحر وما السبب ؟ فيقول « كسبت أيدي الناس » فالمسلم العادي الجاهل بل كثير من صغار العلماء إذا سمعوا بفهمون للمنى اللغوي ونسى اللغوي بكفى فيه القاموس ويكفي الرجل البدوي الذي يعرف اللغة العربية في جزيرة العرب ولكن « الحقائق » إن حقائق أمثال هذه الآية في الكتاب الوحي به الذي فهمناه فهما ضئيلا لن نعرفها

ولن نقلها إلا بدراسة الكتاب الذي كتبه بيده وهي هذه الأجسام والصور والأشكال والألوان والأحوال
 إذن فلندرس هذا الكتاب الذي كتبه الله بيده فنقول : الله أكبر جل الله وجل العلم . هانحن أولاء يا الله
 نظرنا في تلك للشاهد ففرحنا بملك وسعدنا بالنظر إلى حكمتك . وجدناك يا الله بنيت هذه الطبيعة على
 صراط مستقيم لا عوج فيه ولا خلل . أنت أيها الذي قارىء هذا التفسير قد قرأت قريبا الأشكال الهندسية
 التي يستعملها علماء الطبيعة فإذا وجدت ؟ أقول إنك وجدت فيها صراطا مستقيما . إذن الذي بعينه الله يكون
 على صراط مستقيم . ألم تر أن مساحة محيط الدائرة ومساحة سطح الكرة ومساحة الكرة ، كل هذه قد
 رجعت إلى أمر واحد وهو نصف القطر فحق مسخنا ما بعده ؟ فلو أنك أيها الذي عمدت إلى قطعة
 أرض ورسمت فيها دائرة ثم عمدت إلى المحيط ووصلت بين نقطتين منه بخط فهذا الخط هو القطر ونفرضه
 (٦) أمتار وهذا القطر نصفان كل نصف يصل إلى مركز تلك الدائرة ، ذلك للمركز الذي يكون على بعد واحد
 من ذلك المحيط وهذا القطر وجدنا أن المحيط قدره ثلاث مرات وسبعاً ، وبناء عليه قلنا إن طول هذا المحيط
 يساوي نصف هذا القطر مرتين مضروباً في ثلاثة وسبع وهو الذي عبرنا عنه بحرف (ط) فها تقسم ، فإذا
 أردنا مساحة سطح الدائرة فإننا نربع نصف هذا القطر فيكون (٩) ونضربه في (٣) وسبع فإذا أردنا
 مساحة سطح الكرة ضربنا هذا المربع في (٤) فيكون (٣٦) ثم نضرب هذا كله في ثلاث وسبع ، فإذا
 أردنا مساحة حجم الكرة كعبنا (٣) ومعنى هذا أننا نضرب (٩) في (٣) فيكون (٢٧) وهذا العدد يسمى
 مكعب عند (٣) ثم نضربه في (٣) وسبع فيكون (٨٤) وستة أسباع ونضرب هذا كله في (٤ على ٣) أي في
 واحد وثلاث فيكون ذلك مساحة حجم تلك الكرة .

فتبين من هذا كله أن نصف القطر هو الذي يمسح في الأحوال الأربعة والنسبة باقية وهي ثلاث وسبع
 وإنما اختلف الأمر في التربع والتكبيب ، فرى نصف القطر يمسح بلا تربع في مساحة ذلك الخط المنحنى
 ويربع في مساحة الدائرة وسطح الكرة ويكعب في مساحة حجم الكرة .

تباركت يا الله هذا هو صراطك المستقيم ، أنت خلقت المادة ، وماهى المادة ؟ ماهى إلا حركات في شيء
 ياربنا سميناها (الأثير) وما الأثير الذي تخيلناه إلا أمر نشبهه بخيالنا ، وهذه الحركات صارت ضوءا وكهرباء
 والكهرباء بسمها من الموجبة والسالبة تنوعت فصارت عناصر ، وبالعجب هذه العناصر التي زادت على
 ثمانين متروحة في (سورة العنكبوت) صلحت لأن تكون مواد غازية كالهواء والهيدروجين وكالكسوجين
 وغيرها ؛ فهذه كلها لأشكال لها بل هي ذرات متجاورة ميمناها غازا وهكذا السوائل بجميع أنواعها من
 ماء وزيت وعسل وهكذا ، ولا جرم أن أكثر المواد الجامدة الآن يمكن جعلها سائلة وجعلها غازية بأعمال خاصة
 إذن للمادة قابلية لتنوعات لا حصر لها ، فأنواع الغاز خفة وثقلا كثيرة وأنواع السوائل كثيرة ، هكذا أشكال
 المواد الجامدة فهي لا حصر لها . فأنت يا الله لما خلقت هذه للنادة وعلت أن أشكالها التي لانهاية لها في
 نظرنا ليس منها ما هو أقرب إلى منفعتنا من الأشكال المنتظمة كالخط للدكور والدائرة وسطح الكرة وحجم
 الكرة أفنت على عقولنا معرفتها وألممتنا استعمالها في جميع مرافق الحياة ، جعلت مساحتها كلها من واحد
 واحد فتعجنا كيف يكون نصف القطر في هذه الأحوال الأربعة كافيا في المساحة وكيف يشترك الخط
 والسطح والحجم في مساحة نصف القطر غاية الأمر أنه يكون لا تربع فيه في مساحة الخط وربع في
 السطح ويكعب في الحجم . الله أكبر . هذا هو الصراط المستقيم . صراطك الذي أبدعته في السادة . وهذا
 سر مصون . نعم هو مصون عن أكثر هذا النوع الإنساني . إن المهندس وعالم (الميكانيكا) أي فن الخيل
 وعالم الطبيعة كل هؤلاء يعرفون هذه المساحات وغيرها ولكنهم ينظرون إليها نظر السامة إلى الألوان التي

يتضمنون بها فلا سر فيها ولا حكمة ولكنها أمور طبيعية ، فلا يقولون إن هذه الأشكال مصطفاة مما لا يتناهى من أشكال الطبيعة التي هي غير منظمة واستخلصت منها أو أخرجت لنا وعلى منوالها رسمنا وصورنا ، ولا يجب أكثر هذا النوع الإنساني من أن نصف القطر فد كان سببا في معرفة الخط والسطح والحجم مع أن هذه أمور مختلفة في طبيعتها .

فيا سبحان الله . إن المناسبة بين السطوح والأحجام والخطوط وانحادها في تقديرها بمساحة نصف القطر كالمناسبة بين النبات والحيوان والإنسان . هذه كلها اشتركت في التغذية والتناسل والنمو والحس والحركة ولكن الحس والحركة في الحيوان أرقى والغضب يظهر في الحيوان والعقل يكون أظهر وأكثر في الإنسان فلهذا الاشتراك والتكامل في هذه الواهب إلا كالاتراك بين الخط والسطح والحجم في مساحة نصف القطر ويزداد مضاعفة في السطح ثم في الحجم كما ازداد الحس في الحيوان عن الإنسان وازداد الإنسان عقلا ، فقل الإنسان أرقى من غريزة الحيوان وعريضة الحيوان أرقى من إحساس النبات (المشروح في هذا التفسير سابقا) فإحساس النبات بسيط وإحساس الحيوان كأنه مربع له وعقل الإنسان كأنه مكعب . فصراط الله واحد في الطبيعة الجملدية وفي الطبيعة الحية . فالترتيب في السطوح نظير الغريزة في الحيوان والتكعيب في الأحجام نظير العقل في الإنسان . هذا خلق الله وصراطه . إذن صراط الله واحد .

(الناس خلفاء الله في الأرض)

ولما كان الناس خلفاء في الأرض كان عليهم أن يهتدوا بهديه ويسيروا على منواله في أحكامه . فهاك ما فعله الإنسان وما عاقبه الله به في الحياة الدنيا . انظر ماذا جرى ، خلقه في الأرض وقال لهم « ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون » . نظر الله عمل الإنسان فيها ، فإذا فعل هذا الإنسان ؟ أخذ يستخرج النافع من الأرض وارتنق في الأسباب . فظهر أقوام في الشرق وفي الغرب وكان منهم بدو وحضر وكما اجتمعت أمة وكان لها دولة عظيمة نسوا البداي الأولى وظنوا أن للدار في الحياة على التمتع بلا عمل وأخذ الملوك والأمراء والعظماء يستكثرون من السلاح والكرام ويستعمرون الأمم ، وما نتيجة ذلك إلا أن يخرج خلق جديد لاهم له إلا الشهوات وحشد المال وهناك تكون اللذات مقدم ، فلا يزالون يتزولون حتى يرسل لهم من بزبل ملكهم ، والذي يزبل ملك هؤلاء أقوام آخرون أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضارة (مثال ذلك) دولة الرومان فقد أهلكها البطنة والجشيم ولم يهاكها إلا أمم بربرية وحشية ودولة الإسلام فإنها لما استفحلت وعظمت وأمنت ونامت أرسل الله لها أمة وحشية وهم (التتار) فأزالوا ملكهم ، وهكذا أهل الأندلس أزال الله ملكهم بقوم أقرب إلى الوحشية منهم وهؤلاء في سكرهم وخمرهم وغزلمهم بعمهون .

فبينما ترى هذا الإنسان في بداوته مجدا في عمله قانعا بقوته معتدا بنفسه شهما كريما إذ هو نفسه قد انقض على أهل الترف والنعيم الذين أصبحوا لا يصلحون للحياة فاستحوذ على ما عندهم ثم انقمس هو في النعيم ، وقد أعد الله له يوما آخرين متوحشين فانتصروا عليه فسلبوه ملكه . إن الأمم العربية كانت في بداوتها همجية فلما أسلمت استحوذت على ملك الرومان والفرس الذين انقمسوا في الشهوات ولما صار هؤلاء منغمسين فيها كما يتهم سلف الله عليهم من هم متوحشون . إذن الأمم البربرية في أوروبا أزالوا دولة الرومان وعرب الحجاز واليمن عموا ما فعله برايرة أوروبا فأزالوا دولة الرومان من الشرق مع دولة الفرس . وهؤلاء العرب لما أصبحوا كالترس وكالروم السابقين اجتاحتهم التتار المتوحشون في الشرق والاسبانيون في الغرب . وهاهي هذه أوروبا اليوم أصبحت منغمسة في الترف والنعيم . وقد جاء يوم حسابها وظاهى ده مستعدة لذلك التنازل .

وترى أهل الشرق جميعا قاموا يتعلمون من عندها ويخرجون من حكمها دولة دولة لأن أهل الشرق الأدنى اليوم يريدون أن يأخذوا دورهم .

هذا هو تاريخ هذا الإنسان عامة وللسلمين خاصة ومنهم دولة بني عثمان في بلاد الترك ، فهذه لما أخذت الهول الإسلامية (التي جاءت بعد الأمم العربية مضمحل كالمجوقية وبعض الدول الفارسية) تنحل بسبب التخمه والترف دخل هؤلاء في الإسلام وهم على فطرتهم الوحشية في الجبال ووضعوا يدهم على الأمم الإسلامية وأذلوا الأمم العربية وحاربوا النجم ولم تقم لهذه الأمم قائمة والتعليم اضمحل وبق الناس قرونا على ذلك والتسى الأمر بأن اللوك الذين سموا أنفسهم خلفاء صاروا مترفين منغمسين في الشهوات فظلموا أمتهم وظلموا الأمم الإسلامية جمعا ، فاقضت أوروبا على السلمين في الحرب الكبرى وزالت الخلافة عنها .

وإني لأعجب كل العجب أن يكون هذا كله مصدق حديث رواء البخارى في باب الجيرة وللواحدة مع أهل الامة والحرب من كتاب الجهاد والسير وفي باب ما يخرج من زهرة الدنيا من كتب الرقائق وفي كتاب [رياض الصالحين] للامام النووي وقد عزاه إلى البخارى ومسلم في صحيحهما وهذا نصه :

« عن عمرو بن عوف الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بث أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه إلى البحرين بأني بجزية قنم بمال من البحرين فسميت الأنصار بقنم أبي عبيدة غواغوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فعرضوا له فبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأهم ثم قال أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قنم بئس من البحرين ، فقالوا أجل يا رسول الله ، فقال أبتروا وأملوا ما يترك فوالله ما أقرر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها قتلكم كما أهلكنكم » .

أقول فهل يعرف هذا الحديث إلا من درس التاريخ على النحو الذي نسبه به في هذا التفسير . أو ليس هذا الحديث قد جمع كل تاريخ الأمم ، ما تاريخ أمم الأرض ؟ هو تاريخ واحد ، استقلال في البداية ، وشطف عيش ، ثم ميل إلى الحضارة والترف ، ثم ذل وهكذا دواليك ، إن هذا هو تاريخ الأمم وهذا الحديث قد جمعه كله ، إذن ماذا فعله هذا الانسان ؟ خلقت له اللواهب وأعطيت له الأرض وقيل له أنت خليفة لربك في أرضه ففى العهد وجهل التصود من الحياة وجهل الثبات طاية ، فسكل هذا الانسان يسمى لأن يكون كالزناير يأكل عسل النحل أو كالبراغيث والقمل والبق لا تعيش إلا على أجسام الناس والحيوان . الانسان نسي عقله فهو لا يسمى إلا إلى أن يكون مسامحا للدماء . لافرق بين عباد الوثن وأتباع الأنبياء الذين طل عليهم الأمد قصت قلوبهم . وقصارى الأمر وحماة أن هذا الانسان يسمى جهلا أن يكون كالحشرات يعيش من كد غيره بل الحشرات أفضل من هذه الوجهة لأن البرغوث لا يعيش على جسم البرغوث بل على جسم نوع آخر كالإنسان : أما الانسان فخلق عليه قول الله « قتل الانسان ما أكفره » .

أنا اليوم أكتب في تفسير القرآن فسكلامي يكون عاما للمسلمين وغير المسلمين لأن القرآن للناس كافة لا للمسلمين وحدهم ففى الحق إذن أن أقول قولاً عاما منطبقا على الأمم كلها ، فأقول تبين من هذا كله أيها الناس أنكم لم تقوموا بالخلافة حق القيام لأن خليفة الله الذى هو قائم بالقسط فى خلق السموات والسطوح والخلوط ومساحاتها للنظمة والذى فعل ذلك النظام نفسه فى المخلوقات النامية ونسقه وأحد فى الجميع لا يخسر لسته لا يصلح لخلافته من يرجع إلى أخلاق الحشرات فى حياته ويكون جيدا عن الصراط المستقيم . أتدرون ماذا فعل الله بكم ؟ سلط عليكم الآفات فى الزراعة وفى حياتكم وأحوالكم جميعا فأمر أنواع البق والبراغيث والقمل أن تزعى أجسامكم والجراد والذود وأنواعا أخرى سلطت على زرعكم لآتى فعلت معكم ما هو أليق بكم وأتم أهل

٥ . فأنتم تسعون لأن تأكلوا مال غيركم . هذا هو تاريخكم ، إذن أنتم حشرات كالجراد والقمل فضلت عليكم هذه للزجاجات ظاهرة وباطنة والباطنة هي أنواع الحيوانات القدرية (البكروبات) التي تولد فيكم الطاعون والحمى التيفوسية والجدرى والقرمزية والدفتريا والحصبة والسعال الديكي والكاف والكوليرا الخ .
ها أنذا سلطت عليكم هذه المهلكات وأمرت الريح والماء والقيران وغيرها ففشرت ذلك بينكم ، أفلا تفقهون من عملي هذا فيكم أني أقول لكم بخطاب مفتوح : (إن لم تتحدوا جميعا بأهل الأرض على هذه المهلكات المتحدة عليكم فأنتم للتصرون الجاهلون ، وإن أخذتم جميعا في الشرق والغرب وتركتم ما كنتم في فطركم سمعتم سعادة لم يحلم بها الأولون) .

ألا ترون أن هذه كلها سلطها عليكم لتفعل معكم مثل فعلكم ، ولو أنكم رجتم عن هذه الأعمال لرضت عنكم الضنك . ألا ترون أن الحيات والتعابين السامة لا أخلقها إلا في اللواضع القنطرة ، فأما الأماكن التي ليست ملوثة بالقاذورات ولا هي برك ولا مستنقعات فأنى أجعل حياتها لاسم فيها ولا أذى . فمن أين يأتي السم والأرض صالحة هبة ؟ فهكذا أنتم يا بني آدم لو أنكم وجهتم عقولكم لاصلاح النوع الانساني كله فبدل أن يطرد الانجليز من يكون أسود اللون من أهل أمريكا من مطاعهم وأما كن لهوم ولهم احتقار لهم ويترك النوع الانساني لتعلم تعليم التوحشين من السودانين وغيرهم . يتحدون جميعا على ترقية أرضهم وجعلها جنة دنيوية فبدل هذا كله أخذ كل من وجد في نفسه قوة منكم يذله غيره ، كذلك انتقل الملك من أمة إلى أمة ومن دولة إلى دولة ولا سعادة لهذا الإنسان إلا أن يكون كل رجل وكل امرأة في الكرة الأرضية عاملا أي عمل كان وهناك تظهر عجائب هذه العقول وعجائب هذه الأرض والهواء والماء ، فأما ملادم الناس على هذا للنوال فان الماء والهواء - كما تقدم - وجميع ما على الأرض تتعاون على إذلالكم ، فثرون الهواء ينقل الأمراض ، ومثله الماء والذهب والبق والقيران والقمل وأنواع الطيور الهاجنة . هذه كلها جعلتها عذابا لكم حتى ترجعوا فتصالحونوا جميعا على تطهير أرضكم من أدرانها وعقولكم من جهلها وإلا فلا كرامة لكم عندي ، وأقول لكم (لما جهلتم كتابي الذي كتبه يدي ولم تفهموا لماذا خلقت الزلازل والحشرات والوباء والطاعون وأنواع الأمراض والآفات العارضة) أنزلت عليكم كتابا مسموعا أوجيته إلى رجل منكم قتلت فيه « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » فما أنذا فتحت لكم الباب ووعدتكم بالسعادة البلية والجسمية في الدنيا إذا رجتم ، فما أنا ذا استخلفتكم في الأرض لأنظر كيف تتعاملون فأحوالكم بأهل الأرض اليوم وفيها مضى تطبق على أحوال الحشرات تارة وعلى أحوال الطيور تارة أخرى ، ففي حال البداوة يكون لكم بعض الشبه بالطيور تأكل بعضها وفي حال التنم والحضارة تكونون كالوحوش كالخشرات تمشون من كسب غيركم وتتركون مواهبكم وأنا ما خلقت خلقا عبثا فأعمالى كلها للحكمة « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق » والحق هنا أن تشغل كل أمة فما استمدت له وكل فرد فما خلق له وتكون الأمم كلها متعاونة تعاون أعضاء الجسم الواحد ، وهذا هو العدل الذي رأيتموه في مساحات الخطوط والسطوح والأحجام ، هنالك تمشي الأمم والأفراد ولا تقتلهم البطنة والبطر ويكون الناس كلهم أمة واحدة كل لسلك مساعد وتزول الفوارق الكاذبة التي أزالها الإسلام فأذن بلال على الكعبة بمحضر من قريش يشير صلى الله عليه وسلم بذلك إلى زمان ارتقاء الأمم بعد زماننا إذ يجعل الأمريكيون والانجليز من احتقارهم للسود لمجرد لونهم ، إذن دين الاسلام جاء لترقية الإنسانية وإزالة الوحشية من نوع الإنسان ، هنالك تمتد آجال الأمم إذ القرية عامة ولا كسل ولا ترف ولا تنم وإنما هو العلم والعمل وهنالك يكون لسلك امرئ عمله ومن خالف قتل فلا أمة تكون عالة على أمة بل تشترك جميع الأفراد والأمم بقوانين صارمة حازمها وهنالك

يكون السلام العام ولا أحد إذ ذاك يقبل الصدقة لأن كل فرد عامل وعنى عمله وهنا مصداق الحديث الشريف
 الذي جاء فيه ما ملخصه : إن الصدقة يطاف بها على الناس فلا يقبلها أحد لأن المال يفيض فيضاً ، وإذن يكون
 الناس في عملهم خفاء الله في الأرض حقا على صراط مستقيم كصراطه في مساحة السطح والخط والحجم هيئة
 منتظمة لا تتغير . وهنا لا تثير لأحوال الناس من همجية إلى حضارة ، بل يستمر النظام على وتيرة واحدة نظامية
 كنظام التقدير الساحية فيما ذكرناه . انتهى صباح يوم الاثنين (٢٨) أكتوبر سنة ١٩٢٩ م .

(الجوهرة الثانية : في قوله تعالى «فاصبر إن وعد الله حق» الخ)

اعلم أيها اللطيف على هذا التفسير أن هذا الكلام لي ولك أيضا فإنك تجدنا ناسا قصر علمهم الطبيعي والرياضي
 فظنوا أنهم عرفوا كل شيء فينكرون هذا القرآن ويقصون عليك بعض ما عرفوه فإياك أن تركز إليهم واحذر
 أن يستخفوك فإن قرأنا طلب منا كل العلوم ، ومقى تحققت العلوم إجمالا وأحكمتها فأنت حكيم وهناك لا يخاف
 عليك من الاستخفاف . إن التعلم في هذا الزمان عرضة لهذا الاستخفاف فإن الدين يتجون دين الإسلام فالبا
 جهلاء بهذا الوجود في عصرنا ، لم ي أدركوا شيئا من العلم ظنوا أنهم عرفوا ما جهله الأنبياء وفأهم أن القرآن
 يطلب كل شيء ، فأصبح لكل من تعرض لهذه الفكرة أن يقرأ هذا التفسير ويتأمله ويصبر عليه وحينئذ
 يستحيل أن يستخفه الدين لا يوقنون . إن هذا التفسير به اليقين لثبوان للسلين الذين يعيشون بعدنا وهو
 الذي كنت أسمى له من مبدأ حياتي .

واعلم أن في هذا النوع الإنساني أناسا خلقوا مفكرين وفطروا على عشق الحكمة والنم فهؤلاء محمدتهم
 أغصهم في اليقظة أوفى للنم بأن يكونوا نورا لأمتهم وأهم منصورون فهؤلاء محتاجون للصبر حتى ينالوا
 ما يناسب عقولهم من النفع العام . واعلم أنه كما أن في الشجر زهرا يتبع ثمرا هكذا في شجرات الأمم أناس
 خصصوا بالفطرة لنفعها وهؤلاء تحت نظر الله في كنفه ومساعدتهم حتى لازم قضتها الحكمة الإلهية لأنهم أشبه
 باللائكة وبالشمس والقمر . خلقوا لنفع الناس وهم لا محالة نائلون ما أملوا إذا صبروا على ما يمتحنون في هذا العالم
 وهذه السورة فيها هذا المعنى لأنه سبحانه وعد نبينا صلى الله عليه وسلم أن الروم ستقلب القوس ليكون ذلك
 من دلائل النبوة وهو وعد من الله كما وعدك وعد المستعدين لنفع الأمم فقال في آخر السورة (فاصبر إن وعد الله حق)
 سواء أكان لك أولئك أم لم يكن فطروا على نفع الأمم العام . وإذا كان وعد الله حقا فالصبر لا بد منه حتى يأتي حينه
 فاحذر أن يستخفك الدين لا يقين عندهم . ولما كان اليقين لا يتم إلا بالحكمة وهي تمام العلم أتبعه بسورة تسمى
 باسم حكيم وهو لقمان عليه السلام ، وفي كلمة لقمان (الم) وفي كلمة الحكمة كذلك فالأولى غير مرتبة
 والثانية مرتبة فلذلك ولغيره مما يأتي ابتدأها بحروف (الم) انتهى تفسير سورة الروم في (٨) فبراير سنة ١٩٢٥
 والحمد لله رب العالمين .

(استدرالك)

قلنا فيما تقدم في صحيفة (٥٦) من هذا المجلد إن اللغات على (قسمين) قسم لعظمى وهو ما كان نهايته
السطر السابع عشر من صحيفة (٥٩) وقد فاتنا أن نضع القسم الخطي منها فإبنا أن نضعه في آخر تفسير
السورة إتماما لفائدة وهاهو ذا هذا الجدول (انظر شكل ٢٠) . .

(جدول رسم الأحرف العربية والبريانية والافرنجية القديم منها والحادث)
(مأخوذ من أحد النشرات العملية لبروكش باشا)



(شكل ٢٠)

(تبييه) الصواب أن خانة (١) هي لكتابة الأحجار وخانة (٢) هي لكتابة الورق لا كما ذكر أعلاه

تفسير سورة لقمان

(هي مكية)

(إلا من قوله تعالى « ما خلقكم ولا بشئكم إلا كنس واحدة إن الله صميع بصير » إلى قوله تعالى

« وأن الله هو العلى الكبير » لمدنية)

(آياتها أربع وثلاثون - نزلت بعد الصافات)

(وهي أربعة أقسام)

(القسم الأول) في تفسير البسمة .

(القسم الثاني) في معنى « ألم » .

(القسم الثالث) في المقدمة وحكم لقمان عليه الصلاة والسلام من أول السورة إلى قوله تعالى « إن أنكر

الأصوات لصوت الجبر » .

(القسم الرابع) من قوله تعالى « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأصبح عليكم

نصه ظاهرة وباطنة » إلى آخر السورة .

(القسم الأول : في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم)

اعلم أيها الذي أتيت في هذا التفسير عجبا . هذه البسمة قد فسرت في (سورة الفاتحة) وفي سورة (هود) من الربع الثاني من أرباع القرآن جاء في تفسيرها الأحاديث المأثورة على الرحمة للحيوان وختالا قد فصل الكلام تفصيلا في تلك الرحمة وما يجب على المسلمين من حفظ الحيوان ورحمته والرأفة به ، وجاء في (سورة الروم) السابقة أمر آخر وهو أن آلام الحيوان من المرض والجوع والكسر وغيرها لم تجعل إلا لرحمتها وذلك تبيان أن تلك الآلام جند من جنود الرحمات الواسعة التي انصف الله بها . وفي هذه السورة سقمع في تفسير البسمة معاني أخرى ، ولماذا هذا ؟ لأن الله عز وجل يريد أن يجعل للمسلم متفرقة على أوائل سور كثيرة لتلايل للسلم من قراءة كلام طويل في سورة واحدة لتفسير آية واحدة . وبهذا يبرق بعض السرف في تكرار هذه الآية في أول كل سورة ، فلا جعل تفسير البسمة هنا مقبلا إلى (ثلاثة أقسام : القسم الأول) في ذكر أسماء الله الحسنى التي منها اصطفى الله ثلاثة أسماء في آية البسمة (القسم الثاني) في أن معاني أسماء الله الحسنى كلها ترجع إلى ذاته تعالى وصفاته ، وآيات القرآن مفسلات لتلك المعاني التي تضمنتها الأسماء (القسم الثالث) في معنى (الله الرحمن الرحيم) وهي الأسماء التي في البسمة .

(القسم الأول : في ذكر أسماء الله الحسنى التي اصطفى الله ثلاثة أسماء منها في البسمة)

روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا إنه وتر يحب الوتر من أحصاها دخل الجنة هو الله الذي لا يلهي إلا هو الرحمن الرحيم تلك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع للمز للذل للذل السميع البصير الحكيم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ للقيب الحسيب الجليل الكريم الرقيب المحييب الواسع الحكيم الودود المحييد الباعث الشهيد الحق الوكيل

واجبة لما فطرت عليه نفوسنا ، وهي مفطورة على النفس والله هو للتصيف بالكمال . إذن الرحمة بالنسبة لله
واجبة إلى الإنعام وإقامة الخير مطلقا .

فيا سبحان الله . إنك يا الله قد أريتنا هذه للعاني في مخلوقاتك . إنك يا ربنا لما تصفت برحمة لم ندر كما
من نفوسنا أردت أن تظهر لنا آثار هذه الصفة في المخلوقات وفصلتها لنا تفصيلا . إنك قد أودعت الرقة
في قلوب الأمهات من الانسان والحيوان من ذوات الأربع والطيور وقلت لها أيتها الحيوانات إنك أن ضرطى
في ذريتك أو في بيضك . فإياك ثم إنك وإلا أزلت عليك عذابا ألما يستمر في باطنك وضررك بمقام
من حديد تجديدها في باطنك ، أيتها المخلوقات إن رحمى سبقت غضبى ، فليكن أن تعطى على ذريتك ، وإلا أزلت
عليك غضبى بالحزن والألم في نفسك وأخذت تدين حظك وتبكين على ما فطرت في تلك البرية .

إن هذه الرحمة لم أخص بها أكلة الحشائش من الحيوانات ، كالألم تروا أن السقور والشرايين
والأسود والنور ، تلك الحيوانات التي انتزعت من قلوبها الرحمة على الحيوانات للأكولة وألمتها أكلها ،
وما زعت الرحمة من قلوبها في ذلك الأكل عينا وباطلا لأنها لو رحمها فلم تأكلها لضاعت (مزيتان : للزيرة
الأولى) أن الحيوانات الكاسرة تموت عن آخرها (للزيرة الثانية) أن الحيوانات التي تأكل الحشائش كالنمل والذئب
والبق والوحش وغيرها لو لم تأكل بعضها السباع لملاّت السهل والجبل وعند ذلك لانتكفها حشائش الأرض
ونباتها وأشجارها ، فمن حكمت أن خلقت تلك الحيوانات الجريئة التي لا تمشي إلا بلحسان هذه الحيوانات
لتكون رحمة لأنفسها بالبقاء ولألكولات بحفظ اللوازنة لبقاء ذرياتها منبهة بسعادتها في القلوات ، ولو أن
الأرض كلها صلحت للزراعة ولم تقع فيها موانع ، وكفى الماء لربها لأبدعت للحياة أسلوبا غير هذا الأسلوب)
كلها قد فطرت على رحمة ذرياتها كما فطرت عليها آكلات الحشائش ، ففي هذه الحيوانات للفترة اجتمع
الضدان رحمة وغضب ، ولكن الرحمة سبقت غضبى ، فالأم تعطف على أولادها وبهذا العطف تحضر لمن الغزاة
والغزاة يموتها القضيبة . ولكن هذا الغضب ليس بالغضب للطلق لأنه لرحمة (الببوة) مثلا ورحمة ذريتها ورحمة
نوع الغزاة بتقليل عددها لتكفيهم حشائش البرية ولتكون اللحوم للأكولة متخللة أجزاء (الببوة) وأولادها
فيمنع فساد الجوارح بما يموت من تلك الحيوانات .

ومخلص ما تقدم أن الرحمة في الحيوان رقة والرقة ألم والإنعام على البرية وعلى الساكنين ونحوهم دافع
لهذا الألم فهي رحمة ناقصة والرحمة الكاملة تخلو من ذلك كله وهذه ليست في الأوص وإحسان أكثر المسلمين
وغير المسلمين رحمة ولكنها لمقابل في الآخرة ، وهذا أيضا قص ولكنه كال بوجه ما في نوع الانسان والرحمة
في قلوب الحيوانات الكاسرة والمفترسة لأولادها كرحمة الحيوانات للأكولة لأولادها سواء بسواء والحيوانات
الأكلة تجتمع في قلوبها الرحمة على ذريتها والغضب على الحيوانات للأكولة والرحمة سبقت الغضب في الجميع .
إذن الرحمة في الأرض واحدة وتنوعت أنواعا شتى ، ففي للراة والناقة والغزاة وفي الحمامة والدجاجة وأنثى
الصقور حمل وإرضاع وغيرها ، ومحافظه على البيض وعلى الفرخ عند خروجه من البيضة وترى الديك لا يبالى
بالبيضة ولا بالفرخ الخارج منها وذلك لأنه مشغول بالقوة الشهوية أما الرحمة فلا لأنها لا حاجة إليها إذ الفرخ
قوى عليه ويشه ولكننا نرى ذكر الحمام يداعد أناه ، لماذا ؟ لأنه رأى فرخه خرج ضعيفا لا يقدر على
إحضار قوته فركز في نفسه مساعدة أناه فساعدتها ، إذن الرحمة في الأرض قد وضعت بقدر ما إننا كل شيء
خلقناه بقدر .

إن هذه الساة وحدها تكفى العاقل الفكر أن يعتقد اعتقادا جازما أن الحياة كلها سعادة لأنها مبنية
على الحكمة وإذا أصابنا شر أو خير فهو بحكمة ، وإلا فلماذا نرى هذا النظام المتقن ، رحمة زعت من قلب

الديك لماذا؟ لأنها لا حاجة لها وإذا وجدت كانت حملات لا تفيلا لافائدة منها، فهذه وحدها كافية لسعادة القلوب في هذه الأرض. إن العلم اليوم صار مغاربا لمعاني أسماء الله الحسنى لأنها معبرات عن صفاته تعالى كالوجود والحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام.

هنا معنى كون الرحمة واحدة وقد تنوعت، ثم انظر إلى ما جد هذا من أنواع الرحمات للذكورات في هذا التفسير؛ انظر إلى السمك للرسوم للشروح في (سورة طه) فإنك ترى أن السمك لا يساعد ذكره أثناء كلا. ولا تصطف الأم على ولدها. كلا. إذن رقة القلب هناك على القرية وألم الآباء لآلام الأبناء معدومة لماذا؟ لأن الله تكفل بالأجنة، فإذا فعل؟ قال لأني السمك (أيتها الأني اذهبي إلى قرب الشاطئ. وضئ يضحك بقدر وأنت أيها الذكر اذهب إلى ذلك البيض وضع عليه مادتك الشهوية وعيشا أيها الذكر والأني في البحر فلا مغازلة ولا خطبة ولا زواج ولا نفقة ولا عدة ولا حيض ولا نفاس ولا أنجاب ولا قضاء ولا هامين ولا نصب ولا نصب ولا سوء معاشرية ولا خيانة بالزنا ولا سفاح ولا ذل مما أوجبت به قلوب بني آدم وأحرقت قلوبهم لحكمة علمها وعبرة أنزلها، ثم أنت أيها الجنين في البيض. أنت الذي جمعت فيك سر الذكر وسر الأنثى قم بسلام ومعك كيس مملوء من الأغذية فكل منه حتى تكبر ثم بعد ذلك استقل استقلالاً تاماً وكل من أعشاب البحار وأنا البر الرحيم بك، فإنك أكلت غيرك فأنت بنعمتي تربيت وإن أكلت غيرك فهي نعمتي عليك وعلى كل حيوان في البر والبحر).

فهذه الرحمة التي تراها في صور السمك المذكورة في (سورة طه) قد دخلت من اللؤلؤات التي أودعت في الحيوانات العليا، لأن الأمل يكلف بما لا يكلف به الأدنى، كما أن الأتباء عليهم الصلاة والسلام مأمورون بما لم يؤمر به من دونهم.

وهناك رحمات أخرى في الجراد وفراش القز ودوده إن الجراد تبيض في الأرض ويقال لها: أيها الجراد كلي واشربي هنيئا ولا تدخرى كما يدخر النمل والنحل لأنك لا تمشين إلى العام القادم، أما ذريتك فأنا لتكفل بها ضئ يضحك حيث شئت في أما كن أعدتها لك، إذا جاء أجلك فأنا لتكفل بها أحفظها حتى نرأى بني آدم في زرعهم وهم يجتمعون ويحاربونك ولكن هيات فأنت لا تزالين في الوجود مهما فعل الإنسان، فهذه الحشرات وأشغالها كالبق والبرغوث والنسب واشغالها لا تحفظ أولادها ولا رقة لها عليها ولا ألم.

قله عز وجل لما أرانا الرحمة في قلوبنا وفي قلوب الحيوان وعلم تصورنا حين وضعت اللغات وعلم أننا يوما سنكلم في رحمة تعالى قال: هاؤم اقرءوا رحمتي في سطور الكائنات، ألم تروا أنها ألم في قلوب الحيوانات العليا ولكن أمثال السمك والجراد والبق قد وجدت الرحمة على أولادها ولكن من عالم آخر غير عالمكم وتبدير محكم غير تدبيركم، فإذا كنتم علمتم علم اليقين أن الإعطاء قد ظهر في الأرض بلا ألم يصحبه فاعلموا أن تلك يفهمكم رحمتي، فرحمتي أسبقتها على العالم وليست كرحمتكم. إذن ظهر سر قول علمائنا رحمهم الله «إن الرحمة تطلق على الله مجازاً بحسب وضع اللغة فهي قد بحسب نتائجها لا مبادئها». إذن وضع اللغات السامية والتلوونية والآرية وما تفريع منها لم يكن إلا لأحوال هذا الإنسان لا لموجود فوق مداركه والله لما أراد أن يبرفنا ذلك وأن أسماءه تعالى لها معان باعتبار الغليات لا باعتبار ما وضعت له اللغة أرانا ذلك في تنوع الحيوانات أمادنا، وقال لنا هذه رحمتي فحملت بها أمثال الناموس التي ترونها في مائكم الآسن التي تحرقوه وأنا التي حملت البيض الذي يضعه ذلك الناموس برحمتي ولا ألم يصحب تلك الرحمة كالألم الذي تحسونه ليحسبكم على الإنعام على القرية وعلى الضفاد. إذن أقول إن للعاني التي عرفها العلماء في عقولهم أظهرها الله اليوم

في هذا التفسير، والحق يقال أن معاني أسماء الله تعالى للعبارة عن صفاته الوجودية التي انصفت بها ذاته العلية قد أصبحت تظهر آثارها في العلوم المنتشرة اليوم في الأرض ، فانظر يصرك أولا ثم يصورتك ثانيا أيها الذي واقرا أسماء الله في الشجر والحجر والبر والبحر والسماك والجراد والنمل والنزال ، انظر بقولك فسرى بصيرتك أن الشجر والحجر والشمس والقمر كلها مطور مكتوبات هيئات بمعنى الأسماء الحسنى والأسماء الحسنى مغبرات عن القدرة والارادة والعلم والحياة الخ .

﴿ الرحمة لاحد لها ولا سحر عليها ﴾

لقد عرفت أيها الذي كيف كانت الرحمة لاملزمة بين إنعامها وبين الألم للسبب لها وقرأت ذلك مجما في الجراد وفي السمك للذكورين في الحديث «أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والسكبد والطحال» وهاتان الميتتان قد جاءت فهما الرحمة بلا ألم ، وقد أحلا لنا ليكون من آثارها ما جاء في هذا القام إذ يتذكر السلم نعمة العلم التي جاءت مصاحبة لحل الأكل ولاجرم أن السكبد والطحال لها سر عظيم في الدورة السموية التي بها الحياة والحياة تلازمها الرحمة ورقة القلب فكأنه جمع في هذا الحديث الحيوانات التي فيها جسد الرحمة بلا ألم ، والحيوانات التي رحمتها ملازمة للألم ليكون الحديث مذكرا بكل ما كتبتاه هنا وإذن هذا الحديث الذي لم يخطر لي في هذا القام إلا الآن فيه سر هذا الموضوع كله . إذن هذه المعاني كلها أدمجت فيه ، فلما كانت الرحمة في الحيوانات العليا ملازمة لرقعة القلب ، فالرحمة في الحيوانات الدنيا تأتي من الله مباشرة ويقبها إلى ملائكته ولا يجعلها مصحوبة بألم . إذن لا سحر في الرحمة وطرقها مختلفات ، وهذا انضح في هذا القام وضوح الشمس في راجة النهار وهذا كله في الحيوان العام ، فانظر إلى الرحمة التي أجريت على يد الإنسان . الإنسان سخرت له الأنعام فركبها وأكل لحوم بعضها وقال حين ركبها وسبعان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وسخرت له الأرض فهو يزرعها ويستمر زرعها من نبات وشجر . وهذا هو الإنسان ولكن الله يقول له اليوم أنا وإن سخرت لك الإبل والبقر والغنم لتركبها وتكون زينة لك فليس هذا آخر رحمتي لأن هذه الرحمة مصحوبة بألم . الحيوان سخرته لك وهو رضى بالتسخير لأنه ضيف الإدراك يخاف منك ويرجو برك له وأنت ذو عقل أيها المبد فتخرج من هذا الحبس ؛ وإذا كنت أنا قد نوعت في الرحمة فلم أنصرها على نوع واحد في الحيوان ، فكندا أنا سأريكم أيها الناس شتم أم أبيتم إن سفرتم لا يتوقف على المواب بل هكذا قضيت بإظهار آثار النار والكهرباء وحملتكم بهما في البر والبحر وأن الزرع الذي تزرعونه ليس قاصرا على ما صنعونه اليوم كما ظهر في الطبيعة . كلا . ثم كلا . أتم تسخرون الحيوان لزرعكم كما تسخرونه لسفركم . أنا سخرت الرحمة في نحو الجراد وفي نحو الغزال فجعلتها في الأول بلا ألم يصحبها وفي الثاني بألم يصحبها هكذا أنواع في الثرع فلا أجله على وتيرة واحدة . فهذه للزراع التي اعتادها آباؤكم لها موازين محدودة وهذه للوازين والأصول متى عرفتموها ووضعتوها في الساء في أي أرض كانت ظهر لكم زرع خير من الزرع الطبيعي .

أيها الناس . هذا خلق الله . أنا الذي خلقت الإنسان ، وأنا الذي خلقت النبات ، وأنا الذي ألهمت علماء يقسم (القيولوجيا النباتية) بجامعة (كلفورنيا) بأمریکا أن يتوصلوا بالتجارب إلى أن يتجوا خضراوات وجوبا وزهورا وفواكه بأقراص كيميائية مركبات من هذه الأجزاء السبع وهي (النيتروجين والفسفور والفضيبيسا والحديد والبوتاسا والسكربت والسكلس والجير) وتلك الأقراص توضع في الماء في أحواض خشبية توضع في أي تقطة من الأرض في الرمل في الجبل فوق سفوف المنازل في أي مكان كان ، وهذه الأقراص للمركبات للوضوعات في ذلك الماء تغذي النبات فيخرج كاملا صغيا نافعا للإنسان ليست تلحقه الآفات التي تلحق زرعكم الآن وبه يمكن زرع الأرض كلها ويكون المحصول أضعاف ما عندكم الآن .

أبها الناس . إن هذا العمل عظيم به تزرعون الصحراء حتى أن مصر التي يبلغ مازرع من الأرض فيها جزء من ثلاثين فقط تصبغ بهذا العمل جنة أكبر عما هي عليه الآن ٣٠ مرة والثمرات أضفاف أضفاف ذلك كله ، وبهذا تزرعون الأزهار والقواكه في غير أوانها والقمح والشعير يزيد محصولهما (٥٠) في ثلاثة تقريبا وبهذا تزرعون الورد في المنازل في فصل الشتاء .

أنا ألفت هؤلاء العلماء في أمريكا فجزبوا خمسة آلاف تجربة في خمسة أعوام وهذا الكشف وصفه الله كتور (جاريك) رئيس قسم تدمرغ النبات في جامعة (كلفورنيا) بأنه أعظم منحة وأفضل هبة لقن الزراعة منذ بدء تطبيق علم تسميد المزروعات حتى الآن ، ويقول الله كتور (جاريك) للذكور (إن الحياض التي فيها للآله إذا وضع فوقها أعظية وفيها تقوب يخرج منها النبات وتصل جذورها بالماء في داخلها وتلك الجذور تغذي بالأقراص المذكورة ، وتلك الأقراص مقدرة في كل نبات بحسبه لأن أغذية النبات مختلفة مقاديرها باختلاف أنواعه كما تقدم في (سورة البقرة) فإن محصول سنتين اثنتين يأتي بنقطة تلك الحيضان وهي تمشي ٥٠ عاما وهذا يمكن زراعة جميع الأراضي القفرة في العالم كله) . ثم قال (والعمل الذي يتطلبه الزرع على هذه الطريقة الجديدة لا يبلغ عشر معشار ما يتطلبه خدمة الأرض) .

هذا ملخص للقال للشور في العالم وفي مصر يوم الخميس ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٩ م بجريدة الأهرام ولعلك ستراه بتأمله عند قوله تعالى في (سورة سبأ) «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول» الع إذ تذكر هذه القالة هناك ليعلم للسلون في أقطار الأرض أن التقليد ووقوف العقل في أمور الحياة الدنيا جهل محض وأنا خلقت فينا العقول لتسير إلى الأمام ولا تخف عند حد ما عرفناه ، ولما وقفت عقولنا خلق الله في العالم قوما آخرين وقال لهم فكروا وذلك إجابة لأمره تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إذ يقول له «وقل رب زدني علما» (اقرأ تفسير هذه الآية في سورة طه) .

﴿ للسلون أولى بهذه العلوم من جميع الأمم ﴾

اعلم أن هذه العلوم وورق الصناعة والزراعة وكشف عجائب الطبيعة هي الخاصة التي سيخص بها للسلون بعد ظهور أمثال هذا التفسير ، ألم تر أن السلم قد أمر أن يتخلق بما يمكنه من صفات الجلال ليقترب من الحق قريبا بالصفة لا قريبا بالمكان فيأخذ من الاتصاف بها شيئا من اللائكة القربين عند الله تعالى ، ولن يتصور أن يتلىء القلب باستعظام صفة واستشراقها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لتلك الجلال والجمال وحرص على التحلي بذلك الوصف إن كان ذلك ممكنا للستعظم فإن لم يكن بكافة فيمت الشوق إلى القدر الممكن منه لا محالة ، وهذه نفسا عبارة الإمام الفزالي ، ولا جرم أن الزراعة التي ظهرت في أمريكا والتي هي نعمة عامة تعطى عمرا ونجبا وفاكهة وأبا ونسما لا تحصى في أرض الله الواسعة ولا نصب فيها ولا تعب إلا أقل من حشر ما ينصب الناس فيه الآن . أقول إن هذه الرحمة من رحمة الله الواسعة التي لا حد لها فهو كما لم يجعل لها حدا في تربية الأمهات لتربيتها في ذوات الأربع والطيور والحشرات وجعل من التربية ما تربي بلا ألم في نفوس الآباء ولا الأمهات هكذا جعل هناك آلات وأدوات بها تسير من مكان إلى مكان ونسافر حول الكرة الأرضية بغير إجهاد الحيوان الذي سخر لنا بنص القرآن ، وهكذا جعل هناك زرعاً لا شقاء فيه ولا نصب ولا تعب ولا خوف من حر ولا برد ولا آفات زراعية ولا حرث ولا تقيح حشيش وهكذا مما يبلى به الإنسان وقال أيها الناس هذه نعمتي التي أنعمت عليكم بها وألقبها إلى عقولكم فاقبلوها .

هذه إحدى رحمت الله وإذا قبلها السلم وعمل بها فقد قرب من اللائكة الذين هم في قرب ربهم وهذا القرب بالصفة لا بالمكان ، وعلى ذلك يكون قول السلم (بسم الله الرحمن الرحيم) إن لم يكن عنده ولوع بأمثال هذا الذي ذكرناه ولم يحث للسلين عليه يكون سلوكه ناقصا .

ولما اطلع على ذلك صاحي العالم الذي يناقشني في أمثال هذا ، قال ما هذا الذي تقول ؟ أيتصف للعلم بصفة الله ؟ أليس هذا كثيرا ؟ وكيف يكون للعلم ناقصا كما تقول إذا لم يحصل كما تعمل أمريكا ، هذا أمر صعب . فقلت حياك الله . هذه اعتراضات لفظية يتعمق بها غيرك من صفات العلماء وجميع العامة الذين لا يعرفون من ديننا الحنيف إلا الألفاظ وأنا موقن أنك تقول ذلك لأجل تفهيم غيرك فقال : نعم فقلت اعلم أني لا أكتب مثل هذا إلا وقد أعددت له عدته . قال وما هي عدته ؟ قلت أقوال العلماء فإن الأمم الإسلامية اليوم كلها تتبع ما خطه سلفنا ورضي الله عنهم فإذا أسمنام ذلك قلنا (قد قطعت جبهة قول كل خطيب) قال فاصغيه الآن . فقلت العلامة الإمام الغزالي في كتابه [للقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى] ذل ما نصه :

(فصل : في بيان أن كمال العبد وسعادته في التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلل بمعاني صفاته .

وأسمائه بقدر ما تتصور في حقه)

اعلم أن من لم يكن له حظ من معاني أسماء الله تعالى إلا بأن يسمع لفظه ويفهم في اللغة تفسيره ووضعه ويصدق بالقلب وجود معناه في الله تعالى فهو مبغوس الحظ نازل الدرجة ليس بحسن به أن ينتجح بما ناله فإن سماع اللفظ لا يستدعي إلا سلامة حاسة السمع التي بها يدرك الأصوات وهذه رتبة يشارك البهيمة فيها وأما فهم وضعه في اللغة فلا يستدعي إلا معرفته العربية ، وهذه رتبة يشارك فيها الأديب القوي بل النبي البدوي ، وأما اعتقاد ثبوت معناه لله تعالى من غير كشف فلا يستدعي إلا فهم معاني هذه الألفاظ والتصديق بها وهذه رتبة يشارك فيها العاقل بل الصبي فإنه بعد فهم الكلام إذا أتى إليه هذه المعاني تلقاها وتلقاها واعتقدها بقلبه وصمم عليها وهذه درجات أكثر العلماء فضلا عن غيرهم ولا ينكر فضل هؤلاء بالإضافة إلى من يشاركهم في هذه الدرجات الثلاث ، ولكنه نقص ظاهر إلى ذروة الكمال فإن حسنات الأبرار سيئات القربين بل حظوظ القربين من معاني أسماء الله الحسنى (ثلاثة : الأول) معرفة هذه المعاني على سبيل للكشفة والشاهدة حتى يتضح لهم حقائقها بالبرهان الذي لا يجوز فيه الخطأ وينكشف لهم انصاف الله تعالى بها انكشافا يجري في الوضوح والبيان مجرى اليقين الحاصل للإنسان بصفاته الباطنة التي يدركها بمشاهدة باطنه لا بإحساس ظاهر وكتم بين هذا وبين الاعتقاد . للأخوذ من الآباء والمعلمين تقليدا والتصميم عليه وإن كان مقرونا بأدلة جدلية كلابية . (الحظ الثاني) من حظوظهم استعظامهم ما ينكشف لهم من صفات الجلال على وجه ينبعث من الاستعظام يشوقهم إلى الانصاف بما يمكنهم من تلك الصفات ليقربوا بها من الحق قربا بالصفة لا بالمكان فيأخذوا من الانصاف بها شها من اللائكة القربين عند الله تعالى ، ولن يتصور أن يعتلى القلب باستعظام صفة واستشراقها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لتلك الجلال والجمال وحرص على التحلي بذلك الوصف إن كان ذلك ممكنا للمستعظم بكمالها فإن لم يكن بكمالها فيبعث الشوق إلى القدر للممكن منه لا بمحالة ولا يغلو عن هذا الشوق أحد إلا لأحد أمرين إما لضيف المعرفة واليقين بكون الوصف للعلوم من أوصاف الجلال والكمال ، وإما لكون القلب بمنزلة شوق آخر مستغرقا به . فالنبي إذا شاهد كمال أستاذه في العلم انبعث بشوقه إلى التشبه والافتداء به إلا إذا كان مملوا بالجوع مثلا فإن استغراق باطنه بشوق القوت ربما يمنع انبعث شوق العلم ولهذا ينبغي أن يكون الناظر في صفات الله تعالى خاليا بقلبه عن إرادة ماسوى الله تعالى فإن المعرفة بغير الشوق وانكسر مهما صادف قلبا خاليا عن مسكة الشهوات فإن لم يكن خاليا لم يكن البفر منجما (الحظ الثالث) السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلل بمحاسنها وبه يصير العبد ربانيا أي قريبا من الرب تعالى فإنه يصير رفيقا للآل الأعلی من اللائكة فإنهم على بساط القرب ، فمن ضرب إلى شبه من صفاتهم نال شيئا من قربهم بقدر ما نال من أوصافهم للقربة لهم إلى الحق تعالى .

ثم أورد هنا شبهة ترد على خواطر الناس في كل عصر وهذه الشبهة قد خطرت لبعض قراء هذا التفسير وكتب في بعض المجلات العلمية معترضا ماقلته في (سورة الفاتحة) وأجبتة إذ ذلك بنحو ما سئمته الآن أفلا تصعب من صنع الله أن أرى نفس ذلك الإشكال ذكره الإمام الغزالي وأبدع في الإجابة وبه استبان أن أكثر هبات الناس لفظية سببا الجهل المطبق بمقتضى العلوم والاكتفاء بالألفاظ والنوم على وساد الراحة الوثير فانظر مايقوله الإمام الغزالي وهذا نصه (فإن قلت طلب القرب من الله تعالى بالصفات أمر ظاهري تسكاد تشتمر القلوب عن قبوله والتصديق به فزده شرحا نكسر به سورة إنكار الكافرين فإن هذا كالنكر عند الأكثرين إن لم تكشف حقيقته).

هذا هو السؤال وههنا أجاب بما يطول شرحه ولكن سأذكر لغواه وملخصه بعبارات تناسب ما نذكره في هذا التفسير بحيث يألفها ويفرح بها قراؤه فأقول:

اعلم أيديك الله أن للوجودات لا كامل فيها كالا مطلقا إلا الله فأما ما سواه فهي إما ميتة وإما حية والأحياء [ثلاثة أقسام] قسم أعلى وهم الملائكة ، وقسم أوسط وهو الانسان ، وقسم أدنى وهو الحيوان . (ويبانه) أن الحى هو المدرك الفعال ، فالإحساس والحركة هما اللذان بهما يمتاز الأحياء . ولا جرم أن إدراك الحيوان محدود ناقص . ألا ترى رعاك الله أن الدوق واللحم لا يحمل لهما إلا فها مسهما واختلط بهما وأن اللحم والسمع والبصر لا تدرك إلا ما قرب منها وهذا نقص ، فالكمال أن يدرك المدرك مالا حد لبعده ويكون القرب والبعد سواء في إدراكه . هذا من جهة إدراك الحيوان أما فعله فلا يتجاوز الشهوة والغضب ، فالحيوان آكل الحشائش والنبات لا حركة له إلا في طلب قوته وحفظ ولده وكل ذلك من فعل الشهوة وما يتبعها والأسد والفيل بالقوة الضخمية يقتنصان فريستهما والقوة الشهوية يزدردانها . إذن عمل الحيوان لا يتجاوز هاتين الحصلتين . أما الإنسان فلما كان أرضيا بحسبه سماويا بروحه صار مركبا من بهيمة ومملك فهو في أول أمره بهيمة وفي حال رقيه يرتقى عن مرتبة الهائم بالإدراك فلا يقف عند الحس والخيال بل يدرك العقولات والمقولات لانهائية لهما وما لا يقدر الانسان على إدراكه منها لا حد له وما يقدر على إدراكه منها أيضا لا حد له وإن كان ما يدخل في الوجود متناهيا وبهذه الصفة يقرب من الملائكة وأعماله إذن لا يقصد بهما إلا القرب من الله فهذا قرب من الملك بوجه آخر أما الملك فإدراكه لا يقتصر على ملامسه أو قرب منه بل القرب والبعد لا تأثير لهما إلا على الأجسام والأجسام أخس الموجودات وعمل الملك لا يكون إلا تقربا لله فلا شهوة هناك ولا غضب كما قدمنا . ارتقاء الانسان في العقولات وعمله للمصالح العامة تقربا إلى الله كلاهما يقربانه من الملك والمملك قريب من الله ، وهذا القول يثير شبهة وهي أن العبد يشبه الله والله سبحانه وتعالى ليس كمثل شئ . وهنا أخذ يدحض هذه الشبهة فلائمه كالحوى عبارته ومقصودها إذ أصوغها لك بالقالب المعروف في هذا التفسير .

اعلم أيديك الله أن علم البلاغة (ثلاثة) وهي المعاني والبيان والبديع ، فلا تخس الآن كلامي بعلم البيان وهو محصور في التشبيه والمجاز والسكنانية ، والتشبيه باب واسع لا آخر له وجميع اللغات تستعمله لتقريب المعاني ، والمجاز إما مرسل وإما استعارة مصرحة وإما استعارة مكنية ، وهاتان الاستعارتان مبنيتان على التشبيه إذن علم البيان أكثره يرجع للتشبيه ، فإذا قلت :

الحد ورد والوجوه دنا نير وأطراف الأكمف عنم

أو قلت : رأيت في الدار بدرا . أو قلت : الذي يحمي البلاد له لبد أظفاره لم تقم

فإنك في هذا كله لم تخرج عن التشبيه في المثال الأول ، لأن الانسان مشبه بالبدر في المثال الثاني الذي هو

استمارة مصرحة ومثبه بالأسد تشبيها مطويا في اللثال الثالث وهو استمارة مكنية . إذن التشبيه أصل عظيم في علم البيان وفي كلام العرب والمجم وهذا أمر مستفيض بين العامة والخاصة ، ولكن الحجاب إذا أسدل على القول ججها عن الأمور البديبية ، فانظر رعاله الله إلى قول النابغة يمدح النعمان لما وثى له به قال :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن التأتى عنك واسع

وقوله أيضا :

كأنك شمس ولللوكة كواكب إذا طلعت لم يسد منهن كوكب

فهل كان النابغة يبنى بذلك أن النعمان شمس مضيئة في الثاني وليل مظلم في الأول ؟ كلا . فالبداهة تنفي خلاف ذلك . وهل الحمد هو كالورد في أحسن أوصافه ؟ كلا . ثم كلا . وإنما الحمد أشبه الورد في صفة زائدة على الذات لا أنها هي الحقيقة . نعم إذا قال قائل لأهل أوروبا اليوم : أيها القوم كيف تظلمون الزوج ؟ إن الزوج آدميون مثلكم فالتلبي هنا رجعت إلى الحقيقة والحقيقة هنا هي الحيوانية والناطقية ، أما كون النعمان كالشمس أو كالليل أو كون الحمد كالورد فليس التشبيه هنا راجعا لحقيقة الذات بل لصفات خارجة عنها . إذن التشبيه (قمان) قسم يكون للدار فيه على الحقيقة الذاتية وهو قليل جدا ، وقسم يكون وجه الشبه في راجعا لأمر عارضة على الذات وهو الأعم الأكثر . إذن فلنرجع إلى المقصود فنقول : إن الله عز وجل مجهولة ذاته لجميع الناس فمحال أن يدركوها . هكذا صفاته . فالذات والملم والقدرة والسمع والبصر والكلام كلها لا يعرفها الناس وإنما عرفوها بالقياس على أنفسهم . إن الله عرف بمخلوقاته وفي المخلوقات آثار عرف الناس بها أنه قادر وعالم ولا ريب أن القدرة والملم لا يعرفهما الناس إلا بالقياس على ما في أنفسهم ولم يعرفوا ذاته تعالى ولا صفاته على وجه الحقيقة . إن من يعرف الحقيقة يتصف بنظيرها وذواتها وصفاتها ليست كذات الله وصفاته ، فالصبي إذا أردنا أن نصف له لذة الجماع يجب أن نقول له أصبر حتى تكبر وأنت تعرف تلك اللذة على وجه الحقيقة أو تقول له إنها كالسكر والحلوى التي تأكلها ، والمعرفة الأولى حقيقية والثانية ماهي إلتاشيه ، وفرق بين ضرب الأمثال وبين الحقائق ، فإذا قال الإنسان الله قادر فهذا اسم مشتق ومعنى عرف المشتق منه عرف المشتق ، والمشتق منه هي القدرة وقدرة الله لانعرفها بالحقيقة كما قدمنا لأنه يستحيل أن ترتقي حتى تكون لنا قدرة مثلها كما يستحيل أن ترتقي نفوسنا حتى تساوي ذات الله . إذن لانعرف ذاته بالحقيقة لانعرف صفاته كذلك فلم يبق إلا التشبيه فنقول نحن لنا قدرة ولنا إرادة ولنا علم وكلام فتقريب كلام الله على كلامنا وعلمه وهكذا كما قلنا للطفل إن لذة الوقاع كلذة السكر ولكن هذا الطقل سيرتقي حتى يصل إلى الحقيقة ، أما نحن فلا . هذا هو الفرق ، على أن النسبة بين الحلوى والسكر وبين لذة الوقاع أقرب جدا من النسبة بين قدرتنا وقدرة الله . وهنا نقول : هل من يقبض لذة الوقاع على لذة السكر للصبي ، أو من يشبه الورد بالحد ، أو من يقول إن هذا كالشمس أو هو كالليل ؟ أراد هؤلاء كلهم أن وجه الشبه راجع للحقيقة الذاتية . كلا . بل الإنسان يقول إن السواد كالبياض في كونه عرضا ومنظورا ولونا ولا يكون عطفًا وهما ضدان . إذن الضد يشابه الضد ولم يخرج عن كونها ضدتين ولم ينقص مقدار البياض ولم يترشح بسبب هذا التشبيه . هكذا في مقام الألوهية ، فالتشبيه الذي من هذا القبيل ليس محظورا ولو كان محظورا لكان الناس جميعا مشبهة فانهم موجودون والله موجود ولنا سمع وله سمع ولنا قدرة وله قدرة وهكذا ، فقوله تعالى «ليس كمثل شيء» لا يشمل هذه التشابه الوصفية التي هي أبعد مما بين لذة السكر ولذة الوقاع وإنما النبي منصب على الاتصاف بالحقائق الذاتية كشال الزمبي مع الأوروبي فيها تقدم .

﴿ به يكون قرب العبد من ربه إذن ؟ ﴾

فإذا أقبل على العبد باب معرفة ذاته تعالى وصفاته لأنه لا مطمح له في الوصول إلى ذلك فليس له إلا أن يعرف آثار الصنعة . وعلى مقدار ما يعرف من الجمال والبهاء والحسنة يكون اقترابه من ربه وبهذه متفاوت أقدار الناس في معرفة ربهم عز وجل ، فأرفع الناس قدرا وهم الأنبياء والأولياء جميعا يتفاوتون في المعرفة من هذه الوجهة وهم درجات لا حصر لها وتفاوتهم في المعرفة أوسع نطاقا من تفاوت الأغنياء في الملك لأن الأجسام محصورة والمقولات لا حصر لها ، وهنا بيت القصيد . فانظر في مصنوعات الله عز وجل كالتى في هذا التفسير وغيره تجعل العبد رهانيا مشرق النفس قريبا من ربه قريبا بالصفة لا بالمكان . إن المرأة لا تعرف من زوجها إلا ما وصل لها من اللال ومن اللذات المحسوسة . فأما علمه فهي في غفلة عنه وهكذا خادمه . فأما التلميذ فإنه على مقدار ما كسب من علم أستاذه يكون حبه . فإذا كان الأستاذ يعرف عشرين علما والتلميذ يعرف علما واحدا فمعرفة له جزئية على مقدار ما عرف . وكما ازداد علما بأن قرأ علوما أخرى عليه ازداد به معرفة ويمتددار المعرفة يكون الحب ، وهذه المعرفة بالنسبة لله كما قلنا ليس معناها معرفة الحقيقة بل معرفة آثار الصفات التى تبرعها الأسماء المشتقة منها لا معرفة نفس الصفات الإلهية كما أن الناس لا يعرفون حقيقة الموت إلا إذا ماتوا ولا يعرفون حقيقة الجنة ولذاتها وجورها وقصورها إلا إذا ماتوا ودخلوها لأن أوصاف الجنة ذكرت لنا على مقتضى ما ندرك نحن من اللذات؛ فصورنا تلك الصور بالألفاظ على مقدار ما نعرف نحن من لذاتنا في الدنيا كما وصفت لذة الوقاع للطفل بالسكر فإذا كانت الجنة التى هى من مخلوقات الله ومن الحوادث لا تعرف وصفها إلا ضرب أمثال بعيدة عن حقائقها التى يقر بها حديث « في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » فكيف يمدح الدنيا والآخرة فهو أرفع من أن يعرف إلا ضرب الأمثال ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ تذكرة ﴾

مدح أحد الشعراء خليفة من خلفاء بنى العباس فوصفه بأنه في الشجاعة كعمرو ، وفي السباحة كحاتم ، وفي الحلم كأحنف ، وفي الدكاء كإياس فقال :

إقدام عمرو في سباحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
ثم أحس بأن ذلك ربما يكاد ينتقد فقال :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا عجيبا في الندى والباس
فإنه قد ضرب الأقل لنوره مثلا من الشكاة والنبراس

فهذا الشاعر شعر بما يشعر به أكبر الحكماء من انتقاد صفات العلماء والعامه على مجرد الألفاظ بلا تحقيق ولا هدى ولا كتاب منير .

وبالجملة لمعرفة ذات الله وحقائق صفاته مستحيلة ، ولا اتسع لمعرفة الله إلا في معرفة أسمائه وصفاته : أى آثارها من عجائب آياته في ملكوت السموات والأرض وخلق الأرواح والأجساد وفي الاطلاع على بدائع الملكة وغرائب الصنعة بمعنا في التفصيل ومستقصيا دقائق الحكمة ومستوفيا لطائف التدبير ومتصفا بجميع الصفات الملكية القربية من الله تعالى نائلا لتلك الصفات نيل أوصاف لها . هذا ولأخلص لك اللقائم بما يأتى :

(أولا) إن رحمة الناس جعلت مثلا لرحمة الله مع ما بينهما من البون البعيد .

(ثانيا) إن العلماء ذكروا أنها في حق الله مجازية لأنها راجعة إلى القايات وهو الإنعام .

(ثالثا) إن نظام الطبيعة وحسن الصنعة الإلهية في الإبداع قد جاءت بمقتضى أقوال العلماء إذ جاءت
لرحمة في الحشرات ونحوها ولا أم معها وهكذا الآلات التي بها الانتقال والسفر لا أم لحيوان فيها فهي
رحمة اتنى معها تسخير الحيوان وهكذا اخترع علماء أمريكا لنظام الزراعة الجديد ليس فيه ألم للبهائم التي
اعتاد أن يسخرها الإنبيان .

(رابعا) الكامل التام الكمال ، هو الله والثلاثكة مبرءون من حصر الإدراك ومن الأسباب للمورثات
لنقص في الفعل كالنضب والشهوة والإنسان إذا أشبههم فقد قرب من ربه وذلك بالمقولات والنظر في محامد
الصنعة الإلهية وبكسر الشهوتين .

(خامسا) قرب العبد من الله قرب بالصفة لا بالمكان ، وليس معنى هذا أن العبد مماثل لله فهذا خطأ
وإنما للمائلة للمنوعة هي للمائلة في حقيقة الذات والصفات ، فليس مشاركة العبد لله في أنه رحيم وصبور
وشكور وصحيح وبصير وعالم وقادر وحى وفاعل موجبا للمائلة وإنما الذي يوجب للمائلة أن يشارك العبد
ربه فيما يختص به وهو أنه للوجود الواجب الوجود بذاته التي عنها يوجد كل ما في الإمكان وجوده على أحسن
وجوه النظام والكمال .

(سادسا) وما تقدم يعرفنا قول الجنيد (لا يعرف الله إلا الله تعالى) وقيل لدى النون وقد أشرف
على اللوت ماذا تشتهي ؟ فقال أن أعرفه قبل أن أموت ولو بلحظة ، قال الإمام الغزالي (وهذا يشوش على
النفوس وإنما الذي يوضع اللقائم أن تقول إن من يقول لا أعرف الله صادق ومن يقول لا أعرف إلا الله صادق
إذ لكل منهما معنى غير معنى الآخر) .

(سابعا) كما لا يعرف الله وصفاته ألبتة لاستحالة الوصول إلى الألوهية فضلا وإنما يعرف بالآثار . هكذا
لا يعرف اللوت ولا الجنة ولا النار إلا بضرب الأمثال على مقدار عقولنا فإذا متنا عرفنا اللوت وأدركنا الجنة
وفهمناها ، فأما ضرب الأمثال فليست تفيد علما بل مجرد تخيل كما تتخيل صفات الله بالقياس على أنفسنا .

(ثامنا) نحن الآن في تفسير البسطة وقد عرفت أيها الذي معنى الرحمة في ضمن ما تقدم وأول الأسماء
في البسطة (الله) وهذا الاسم أعظم الأسماء النعمة والتسمين لأنه دال على الذات الجامعة للصفات الإلهية كلها .
وسائر الأسماء تدل آحادها على آحاد المعاني من علم أو قدره أو فضل أو غيره ، وهذا الاسم لا يطلق على غير الله
تعالى . فهذا السببان بهما يكون هذا الاسم أعظم هذه الأسماء . ثم إن معاني سائر الأسماء يتصور أن يتصف
بها العبد بثبوت منها حتى ينطلق عليه الاسم كالرحيم والعليم والحليم والصبور والشكور وغيره .

والرحمن مشتق من الرحمة وهو أحسن من الرحيم ولذلك لا يسمى به غير الله . إذن الرحمن يكون في
السعادة الأخروية لأن العباد لا قدرة لهم عليها ، وحظ العبد من اسم الرحمن أن يرحم عباد الله تعالى الغافلين
فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله بالوعظ والنصح بطريق اللطف دون العنف وأن ينظر إلى العصاة بين
الرحمة لا بين الإيذاء وأن تكون كل مصيبة تجري في العالم كمصيبة له في نفسه فلا يألوه جهدا في إزالتها بقدر وسعة
رحمة ذلك العاصي أن يتعرض لسخط الله تعالى ، وحظه من اسم الرحيم الأبدع فاقه لاحتاج إلا بسدها بقدر
طاقته ، ولا يترك قبرا في جواره وبلده إلا يقوم بتمهده ودفع فقره إما بماله أو جباهه أو يسمي في حقه بالشفاعة
إلى غيره فإن عجز عن جميع ذلك فيعينه بالدماء وإظهار الحزن لسبب حاجته رقة عليه وعظما حتى كأنه مسامح
له في ضرره وحاجته ، وحظ العبد من لفظ الجلالة التأله . قال الإمام الغزالي (أعني به أن يكون مستغرق
القلب والهمة بالله تعالى لا يرى غيره ولا يلتفت إلى سواه ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه ، وكيف لا يكون كذلك

وقد فهم من هذا الاسم للوجود الحقيقي الحق وكل ماسواه فان وهالك وباطل إلا به ، فيرى أولا نفسه أول
حالك وباطل كأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال «أصدق بيت قاله العرب قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل ضم لا محالة زائل»

فإذا فهمت هذا فأعرف بقية أسماء الله تعالى على هذا النمط مثل أن تقول «الملك» هو الذي يستغنى
في ذاته وصفاته عن كل موجود ويحتاج إليه كل موجود. وهذا المعنى لا يتصور في العبد وأعظم من اتندوا بالله
في هذا الوصف بقدر طاقتهم (إذا ملكوا عهواتهم وأهواءهم وجميع جوارحهم، واحتاج إليهم الناس في الهداية
ولم يحتاجوا لهم إليهم) ثم الأنبياء ويليهم الأولياء الذين تعلموا من الأنبياء . قال ولقد صدق بعض العارفين
لما قال له بعض الأسماء سئى حاجتك ؟ حيث قال أولى تقول ولى عبدان هما سيداك قال ومن هما؟ قال الحرص
والهوى لقد غلبتهما وغلباك وملكتهما وملكك ، وقال بعضهم لبعض الشيخ : أوصنى قال صكن ملكا
في الدنيا ملكا في الآخرة ، ومعنى هذا قطع طمعك وشهوتك عن الدنيا فإن الملك في الحرية والاستغناء .

هذا وليس يجوز لى ولا يسع أن أتوسع في هذا اللقاع أو أن أفسر بقية الأسماء فإنه خارج عن المقصود
لأننا الآن في تفسير البسمة بطريق خاص غير تفسيرها في مواضع أخرى من هذا التفسير . ولكن أختم المقال
بما وعدت به من أن الأسماء كلها ترجع إلى ذات وسبع صفات قد جاء في الكتاب المذكور أن الاسم :

(١) إما أن يدل على الذات مثل (الله . الحق) .

(٢) وإما أن يدل على الذات مع سلب مثل (القدوس والسلام والنفى والأحد) ونظائرهما فإن القدوس
هو لسلوب عنه كل ما يخطر بالبال ويدخل في الوهم، والسلام هو للسلب عنه العيوب، والنفى هو للسلب عنه
الحاجة، والأحد هو للسلب عنه التنظير .

(٣) وإما أن يدل على الذات مع إضافة (كالمولى العظيم والأول والآخرة والظاهر والباطن) فإن المولى والعظمة
والأولية والآخرة وهكذا كلها بالاضافة إلى أمور أخرى . فالأول مثلا هو السابق على الوجودات والآخرة
هو الذى إليه مصير الوجودات وهكذا .

(٤) وإما أن يرجع إلى الذات مع سلب وإضافة (كالملك والعزى) فالملك لا يحتاج إلى شيء ويحتاج إليه كل
شئ . والعزى هو الذى لا نظير له وهو بما يجب نيله والوصول إليه .

(٥) وإما أن يرجع إلى صفة (كالمعلم والقادر والحنى والسميع والبصير) .

(٦) وإما أن يرجع إلى العلم مع إضافة (كالخبير والحكيم والشهيد والمصطفى) فالخبير يدل على العلم مضافا
للأمور الباطنية ، والشهيد يدل على العلم مضافا إلى ما يتأهده . والحكيم يدل على العلم مضافا إلى أشرف
المعلومات . والمجس يدل على العلم من حيث يحيط بمعلومات معدودة .

(٧) وإما أن يرجع إلى القدرة مع زيادة إضافة (كالقهار والمقتدر ولتين) لأن الاقتدار تمام القدرة وللتانة
هدتها والقهر تأثيرها في التدوير بالقلبية .

(٨) وإما أن يرجع إلى الإرادة مع إضافة أو مع فعل (كالرحمن والرحيم والودود) فإن
الرحمة ترجع إلى الإرادة مضافة إلى قضاء حاجة المحتاج الضعيف . والرافة شدة الرحمة وهى مبالغة في الرحمة
والودود يرجع إلى الإرادة مضافا إلى الإحسان والإنعام وفعل الرحيم يستدعى محتاجا وفعل الودود لا يستدعى
ذلك بل الإنعام على سبيل الابتداء يرجع إلى الإرادة مضافا إلى الإحسان وقضاء حاجة الضعيف وقد عرفت
وجه ذلك فيما تقدم .

(٩) وإما أن يرجع إلى صفات الفصل (كالخالق والبارئ والصور والوهاب والرزاق والفتلح والقابض

والباسط والحافض والرافع والمز والذل والعدل والقيت والهييب والواسع والباعث والبدى* والعيد والهيى
واللميت والقدم والمؤخر والوالى والبر والتواب والنتيم والقسط والجامع واللانع والفتى والهادى ونظاره* .

(١٠) وإما أن يرجع إلى الدلالة على الفعل مع زيادة (كالهيد والكريم واللطيف) فان الهيد يدل على سمة
الاکرام مع شرف القدات والكريم كذلك واللطيف يدل على الرفق فى الفعل فلا تخرج هذه الأساس وغيرها
عن مجموع الأقسام العشرة فقس ما أوردناه بما لم نورده فان ذلك يدل على وجه خروج الأساس عن الترادف
مع رجوعها إلى هذه الصفات المحصورة المشهورة . انتهى باختصار من الكتاب المذكور .

يقول المؤلف . أنا أكتب هذه المقالة ليلة الخميس (١٧) أكتوبر سنة ١٩٢٩ م ولعلك تقول أيها الذكى
لقد جاوزنا فى تفسير القرآن ثلثيه . فلماذا لم يشر (الله الرحمن الرحيم) على هذا الوجه والتطويل إلا فى هذه
السورة ، ولماذا أعقبنا ذلك بإجمال تفسير الأسماء كلها على وجه الاختصار ولم اختص هذه السورة
بذلك مع أن هذا كانت الأولى به سورة الفاتحة . فاذا كانت الاجابة على ذلك بأن كل سورة تأخذ
بسمتها بعض العلوم فهذا لا يجدى لأن السؤال لم اختص هذه السورة بذلك ؟ والجواب عن ذلك أنى أنا
لم يحظر بيالى هذا السؤال إلا بعد تمام ما تقدم . والذى ورد فى خاطرى فى الجواب عن ذلك الآن أن ذلك لم
يكن قصدا منى ولا أنا الذى خصصت هذه السورة بذلك . وإنما الحكمة فى ذلك أن هذه (سورة لقمان)
وأنه فيها يقول «ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله» الخ . ولا جرم أن الحكمة هى العلم بأشرف المعلومات
كما تقدم وأشرف المعلومات معرفة الله عز وجل وصفاته وأفعاله . فأنه عز وجل هو الذى
حرك قلبى وأجرى بذلك قلبى . وأنا لا أقصد هذه الفكرة وإنما عرفت ما آمنت هذه المقالة
ذلك ليتفكر قارى* هذا التفسير فى أسماء الله وفى صفاته وفى أفعاله ويرى جهل ذلك فى البسمة حتى لم بأشرف
العلوم وهو الحكمة التى أعطاه الله لقمان . وهنا يدخل روضة العلوم الحكيمية . فاذا قرأت أيها الذكى
فى أثناء هذه السورة حكم الحكماء وعلم العلماء فى معنى الحكمة فهأنت ذا قرأت أشرف علوم الحكمة .
وباليت شعرى إذا رأينا علماء اليونان قد جمعوا علوم الحكمة كلها فى عشر كلمات سموها (القوليات) وهى
(الجوهر والكم والكيف والاضافة والزمان والمكان والملك والوضع والفعل والاتصال) وقد تقدم شرحها
فى أثناء هذا التفسير . فكيف جهل أكثر المسلمين أن أسماء الله الحسنى وهى عشرة فى عشرة إلا واحدا
قد جمعت العلوم كلها بطريقة ألطف وأعلى وأجمل فان معانى هذه الأسماء ترجع إلى القدات والصفات الالهية
وأنه هو العلم للأسم والعالم كله آثار صفاته . فاذا قلنا فى غير هذا المكان إن الفاتحة تشير إلى جهل العلوم وهى
أفضل من تلك القوليات لأنها سهلة جملة لتتبد بخلاف القوليات فهى معقدة ولا تصلح للتعبد . فهكذا هنا
تقول هذه الأسماء كذلك تصلح للتعبد كما أن فيها أصول العلوم . انتهى والحمد لله رب العالمين .

ملخص سورة لقمان

(الذى تضمنته الرحمة فى بسم الله الرحمن الرحيم فى أولها)

تقدم الكلام على الرحمة العامة فى سور كثيرة لاسيا فى أول (سورة الروم) وأول هذه السورة واسبابان
من جملة ذلك كله أن الآلام والمرض والكسر والجرح كل ذلك لم يقصد منه إلا الإنذار . إذن الرحمة لا بد
لها من جنود وهى تلك الآلام وقد تم شرح هذا فى أول (سورة الروم) لأنه لوحظ هناك قتال الفرس
والروم والمسلمين ، فهناك ويل وحرب وحوادث فهى مقبسة على آلام الأفراد . إذن آلام الأفراد والآلام

الأم جيبها من الرحمة العامة ، فكما أننا نرى الجرح والكسر والاحساس بالحمى ونحو ذلك كلها منسبته منسبته بالهلاك إن لم يتلاف أمرها كما أن الجوع مندر بالهلاك أو المرض إن لم يتدارك الجسم بالغذاء هكذا أحوال الأمم فالعلم كله على قاعدة واحدة ووتيرة ثابتة يسير على منوال واحد من حيث إن كل أم شرطي وجنسي من جنود الرحمة .

هذا أصبح لمن قرأ هذا التفسير بما هو مبهر من عليه لاشك فيه وعليه قس ما ستره من الرحمة في نفس هذه السورة التي ابتدئت بالبسملة الشجرة بالرحمة فيما يقرؤه الناس فيها . ويانه أن تقول : يا سبحان الله . الله خلق الخلق ووجههم إلى مقاسمهم ، فلم كان إنزال الكتب السماوية والإنذار والتحذير ، فهلا كان توجيههم كتوجه الحيوان بالقرائن فلا نسمع وعيدا ولا زواجر ولا أمورا مشكلة ولا خلافا ولا تكفيرا ولا شيئا مختلفة في كل أمة من الأمم قديما وحديثا . والجواب على ذلك أن تقول :

اعلم أشمك الله الحكمة أن العقل الإنساني من السعة والجولان والحواطر ما ليس للحشرات والطيور فهي فيما يبدو لنا ليس لها من الحرية الفكرية ما لنا . فلهذا العقل من التحليق في جو الأفكار ما يجعله ذا طرق متباينة لا طريق واحد ، فهو إذن يمتريه الصحة وللرض في الآراء كما يمتري الجسم صحة ومرض جسميان ؛ فكما قدر لهذا الجسم أمراض من داخله وأخرى من خارجه وأحيط في الأول بالحيوانات الكاسرة والأعداء والحشرات وتخله في الثاني ميثاق من الجيوش الجرارة من الحيوانات الدرية فتتك به تارة وتحافظ عليه أخرى وكلها ذات حياة حقيقية ، هكذا قدر لعقله (جيشان) جيش من الحكمة والارشاد والإصحاب والعلم يهديه إلى الهدى . وجيش آخر من قرناء السوء ظاهرا وباطنا يسولون له ما يريده ويوقسه في هوة الهلاك . وكأنا أعوزنا في الجسم الأطباء والتقارير لنصر الجيوش الجرارة من الكرات البيضاء المحافظة عليه القائلة لجيوش الجدرى والحمى والحصباء الخ . هكذا أعوزنا في طب العقل والروح كتب وعلوم وأساندة وأنبيا ينصرون جيوش النور التي تحيط بالمرء في بيته وخامته جبلته على جيوش الرذيلة والذنوب التي تحيط به كل حين من أنصار السوء والآراء الخبيثة التي ملكت قياده . فإذا جاء في أول هذه السورة «بسم الله الرحمن الرحيم» فالرحمة فيها مذكرة بالحكمة ، وما هي الحكمة ؟ هي التي سترى تقسيمها قريبا إلى عملية وعملية والعلمية منها الرياض والطبيعية والإلهي والعملية ترجع إلى الأخلاق ونظام النزول ونظام الأمم وقد تفرغ على علوم الطبيعة جميع الصناعات إذن الحكمة المذكورة في هذه السورة هي جميع النعم الظاهرة والباطنة ولذلك أعقبها بقوله «وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» إذن الرحمة في هذه السورة موجهة لاسبغ النعم علينا ظاهرة وباطنة وذلك بالحكمة فنصمها الظاهرة علوم الكائنات الطبيعية التي ستقرؤها هنا . ونعمها الباطنة منها علم الأخلاق . هذا هو السر الذي أنزله الله في هذه السورة . وهذه الحكمة بأقسامها هي الجيوش الجرارة القائلة لجيوش الجهل والأدوية للزينة لأمراض الجهل وخراب العمران . الله كأنزل الأغذية والأدوية لنمو الأبدان وإرجاع صحتها أنزل الحكمة العلية لارتقاء النفوس وتهذيبها وتقومها . فالنفس والجسم في ذلك سنان كلاهما تموزه رحمة الرحمن الرحيم لا اعتداه وحقاه . فيارب أنت أنصت علينا بالعلم وبدأت السورة بالرحمة وأرقتنا أن الرحمة هنا ترجع للحكمة فإنك بدأتها بقوله (تلك آيات الكتاب الحكيم) فكان هذا براعة استهلال استهللت به السورة لتدل القارئ أن هذه الرحمة ذكرت هنا للحكمة التي منسبها وذكرنا (فريقين) فريقا اهتدى وأحسن ، وفريقا يمشي بالظلم والباطل فهو جيد عن الحكمة ثم وصفت نفسك بالزينة والحكمة فكتابك حكيم وأنت العزيز الحكيم . هناك استعدت قوس قراء كتابك لتتقيا ، فبدأت بذكر خلق السموات والأرض بلا حمد وتكلمت بصيب لمز في الأرض طاعة ، ثم ذكرت الجبال وإنزال الماء من السماء وإخراج النبات ، كل هذا خلقتة

حكمة . هنالك أخذت تصف حكمة لقمان وأنها ترجع إلى علوم وأعمال فهي من نور حكمت التي ذكرتها وأنبعتها بأن نعمك أنت أسبغت على الناس ظاهرة وباطنة وأن عليك لا حصر له ، ثم ذكرت سير الشمس والقمر والفلك في البحر ووعدت وأوعدت وكل هذا يحويه علم الحكمة وينقله الحكماء وكل هذا تتضمنه الرحمة في قولك (بسم الله الرحمن الرحيم) .

وبالجملة فإن أجسامنا في الدويان والملاشاة ونفوسنا دائماً في الاضطراب والوساوس والشكوك والأوهام فالروح والجسم متفقان إذن في الاضطراب ولا يمسك الجسم عن سيلانه وذوبانه إلا الأغذية والأدوية ولا يمسك النفس عن اضطرابها وأوهامها إلا علوم الكائنات الرياضية والطبيعية والإلهية وعلوم الأخلاق والسياسات العامة والخاصة كل هذا من رحمتك المذكورة في البسملة ؛ فبعلوم الكائنات غذاؤها وعلوم الأخلاق دواؤها وهذه هي الحكمة التي أنزلت لها (سورة لقمان) . فهل من سبيل إلى سعادة هذا الإنسان إلا بالوصول إلى ما استقر من الحكمة في هذا المقام بحيث يصبح المكروه والمحبوب معا جندين من جنود الرحمت في «بسم الله الرحمن الرحيم» وأي سعادة في الدنيا والآخرة أعظم من أن تصبح النفس مطمئنة إلى أن المقادير كلها رحمة وأن كل ما يصيبنا من مكروه هو مقدمات ضرورية للرحمة كما سبق تقريره ؟ أوليس من أعظم بل أعظم سعادة لسكان هذه السطور وإخوانه قراء هذا التفسير أن يصبح نفوسنا مستقرة على أن كل مافي هذا العالم وما في نفوسنا من المكروهات أعمدة تقام عليها الرحمت . اللهم إني أحمدك على ما أنعمت به من العلم الآن وعلى ما أربته لي في المنام منذ (٤٠) سنة .

ذلك أني كنت إذا ذاك مجاوراً بالجامع الأزهر وتوجهت إلى قريتنا (كفر عوض الله حجازي) أيام العطلة وبينما أنا ذات ليلة مساء أمشي في بعض الحقول قريبا من القرية وأنا أفكر في شرور هذا العالم وكيف تخفق فيه ثم نمت تلك الليلة إذا قال يقول لي اقرأ قوله تعالى « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكني منكم من أحد أبداً » وقوله تعالى « ياأبنت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » الخ فاستيقظت وأدركت أن المقصود أن تعذب رحمن وأن مافي قصة الإفك من الإيذاء ونحوه كلها رحمت لمن أودوا وأن التزكية والتنظير يكونان يحدثان المصائب والآلام ، ولقد تبدت هذه المعاني في علوم الأمم الحكمية وظهرت في هذا التفسير ، فالحمد لله الذي نعمته تم الصالحات . انتهى القسم الأول من السورة ليلة الاثنين (٤) نوفمبر سنة ١٩٢٩

﴿ القسم الثاني ﴾

(الكلام على معنى «الم»)

تقدم الكلام على هذه الحروف في أول (آل عمران) ولكن ربما كانت الإشارة هنا فوق ما تقدم هناك إلى قوله « ألم تروا أن الله سخر لكم مافي السموات وما في الأرض وأسخر عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » وإذن تكون (الم) هنا وفي (الروم) وفي (المنكوت) لمت نظر للأمة الإسلامية المستقبلية إلى دراسة كل العلوم الكونية في السماء والأرض فإنك رأيت أن (الم) جاءت في المنكوت في قوله « ألم تروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده » وفي (سورة الروم) قال « واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك آيات للعالمين » (وهنا قل) « ألم تروا أن الله سخر لكم » الخ فشكل هذه السور جاءت فيها الحروف الثلاثة مرتبة متصلة تارة ومتفصلة أخرى في موضوع واحد وهو الاظفر في العوالم المحيطة بنا ، فتارة تذكر على طريق كيف كان يبدئ الخلق وتارة ذكرت بطرق اختلاف الألسنة والألوان ، وتارة على سبيل أن النعم ظاهرة وباطنة

إن الله يذكرنا بهذه النعم من كل وجوهها بدءا وإعادة وظاهرة وباطنة وكثيفة في مادة أولطفة في صوت وهو اللفظ للمادة ورمز لذلك العلم بالنطق بالحروف إشارة إلى تحليل العوالم والوقوف على الحقائق الثابتة وهي مرتبة بحيث تكون اللغات مقدمة على العلوم لأنه ذكر الألوان بعد اللغات لتصل العقول بالحقائق بعد الخيال في اللغات كما ذكر اليقظة بعد النوم فتظهر به الحقائق وتزول أضغاث الأحلام وليتأمل المفكرون في هذه السور :

(١) كيف ابتدأ السورتين بمثل ماختمهما فذكر في أول العنكبوت الجهاد وختمهما به فقال «والذين جاهدوا فينا» وابتدأ (سورة الروم) بالوعد بخلبة الروم الفرس أو المسلمين الروم وختمها بقوله «فاصبر إن وعد الله حق» .
(٢) وكيف كانت السورتان السابقتان كما قلنا لحوز العلم والحكمة وكيف قال في آخرها (ولا يستخفك الذين لا يوقنون) .

ذلك أن الإنسان إذا لم يكن ثابتا في إيمانه بالحكمة استغله كل ما يطرأ عليه من أقوال الذين لا يقين عندهم وهذا شأن أكثر المتعلمين اليوم يقرءون ولا يقين عندهم لأنهم ليسوا ثابتين في الحكمة ولا يهتدون بسنن الحقائق التي يدرسون فتورها وظواهرها كما قال سبحانه في (سورة الروم) « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا » فلهذين السببين أتى بهذه السورة ذكرا حكمة لقمان مشيرا إلى أن الإنسان لا يصد عن الحفة وعن الشك إلا عماد الحكمة باليقين فلذلك أتى بهذه السور فهي تمام الحكمة ودراسة حكمة الحكماء حتى يقف على سر هذا الوجود . هذا وأذكرك أيها الذكي بما تقدم في (سورة الروم) من بعض أسرار (الم) في هذه السورة . انتهى القسم الثاني من السورة .

(القسم الثالث)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

الم • تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ • هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ • الَّذِينَ يَقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ • أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
هُمْ الْمُقْتَدِرُونَ • وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ • وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَتلى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَمْ
يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ • إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَصَلُّوا الصَّلَاةَ
لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ • خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ • خَلَقَ السَّمَوَاتِ
بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَآلَتِي فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ
وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ • هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا

خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ • وَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ
 لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ • وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ
 وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ • وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ
 أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي عَامَتَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ • وَإِنْ
 جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَيْمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا
 وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ • يَا بُنَيَّ
 إِنهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ
 يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ • يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ • وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ
 فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ • وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ
 مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ •

(التفسير اللفظي)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم تلك آيات الكتاب الحكيم) معناه ظاهره مما تقدم في نظيره (هدى ورحمة للحسين) نبي هو
 هدى الخ، ثم بين هؤلاء الحسين فقال (الذين يقيمون الصلاة) صلة بينهم وبين ربهم (ويؤتون الزكاة)
 صلة بينهم وبين الخلق مع مراعاة الإخلاص لله (وهم بالآخرة هم يوقنون) حق ينالوا جزاءهم فيها (أولئك
 على هدى من ربهم وأولئك هم الفلاحون) لجمعهم بين العلم والعمل (ومن الناس من يشتري لهو الحديث)
 ما يلهي عن الحديث النافع كأن يأتي بالأحاديث التي لأصل لها والأساطير والحرفات والمضاحيك وفضول
 الكلام كالنضرب الحارث كان يشتري كتب الأعاجم ويحدث بها الناس ويقول إن كان محمد يحدثكم بما
 ونمود فأنا أحدثكم بحدث رسم واسفندار والآكامرة، وربما اشترى الفتيات وأمرهن بمعاشرته من أسلم
 ليحمله على ترك الإسلام (ليضل عن سبيل الله بغير علم) أي ليضل عن قراءة كتاب الله وهو غير عالم بفضله
 ومكانته العالية (ويتخذها هزوا) أي ويتخذ السبيل سخرية (وأولئك لهم عذاب مهين) لأنهم أهانوا الحق
 باختيارهم الباطل (وإذا تلى عليه آياتنا ولي مستكبرا) لا يجابها (كأن لم يسمعها) أي تشبه حاله في ذلك
 حال من لم يسمعها وهو سامع (كأن في أذنيه وقرا) ثقلا ولا وقر فيها (فبشره بعذاب أليم) أي أعلمه بذلك
 (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم، خالدون فيها وعد الله حقا وهو العزيز الذي لا يظلم شيئا
 فيضنه) الحكيم الذي لا يفعل إلا الحكمة (خلق السموات بغير عمد ترونها) قد تقدم تفسيرها في سورة

الرعدي (وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي) جبلا شوامخ تقدم شرح هذا في سورة الأنبياء وغيرها وتبيان معنى الرواسي في علم طبقات الأرض حديثا وهو معجزة ظهرت في العصر الحاضر ، كراهة (أن تميد بسكم) أي تميل (وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبثنا فيها من كل زوج) أي من كل صنف (كريم) حسن ، ومثل المطر والنبات قد تقدم في كثير من السور وهو في البقرة وغيرها (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) أي ألهتكم التي تزعمونها (بل الظالمون في ضلال مبين) وهذا إضراب عن التبيكيت إلى إثبات أنهم ضالون ضلالا ظاهرا . ولما كان القول للقدم اشتمل على ذكر من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم أعقبه بذكر النعم الظاهرة في السموات والأرض والنعم الباطنة بالعلم والحكمة في قصة لقمان ثم أردفها بأنه أسبغ علينا النعم ظاهرة وباطنة على الترتيب الذي تراه وهذا مبدأ قصة لقمان (ولقد آتينا لقمان الحكمة) العلم والعمل به ولا يسمى الرجل حكما حتى يجمعهما ، وسيأتي الكلام على ما قاله العلماء فيه ، وقوله (أن اشكر لله) أن بمعنى أي الفسرة ، ومعلوم أن الشكر ثناء باللسان على الله تعالى وإصابة الحق وحب الخير للناس بالقلب وتوجيه الأعضاء وجميع النعم لما خلقت له ، فسرت الحكمة بالشكر لله ولا جرم أن الشاكر لله هو من جمع الحاصل المذكورة في القلب واللسان والجوارح وجميع النعم فيكون حكما في قوله وفعله ومعاشرته واعتقاده وصحته (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه) لأنه مرق لها (ومن كفر) النعمة (فإن الله غني) لا يحتاج إلى الشكر (حميد) حقيق بالمجد ومحمود من أهل السموات والأرض ثم ذكر بعض حكمه التي هي من جملة الشكر لله منه وهي نعمة اللسان العبر عن حكمة الجنان وهي نصيحته لابنه قال تعالى (و) اذكر (إذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني) تصغير إشفاق (لا تشرك بالله) وقد كان كافرا فيقال إنه أسلم (إن الشرك لظلم عظيم) فانه تسوية بين من لانهمة له ومن له جميع النعم ؛ ثم ذكر الله جملة معترضة بين وصايا لقمان تذكيرا للناس بأن الوالدين اللذين يتلوان الله في التعظيم والإجلال لا يصح أن يطاعا في الإشراف بالله ، فانه يوصى عليهما ويوصى أن لا يعصى سبحانه بسببهما لأنه خالق الجميع وهذا قوله (ووصينا الإنسان بوالديه حماته أمه) حال كونها تهن (وهنا على وهن) ضعفا على ضعف يزياد كلما ازداد الحمل ثقلا (وفصاله) وفطامه (في عامين) وقوله (أن اشكر لي ولوالديك) فيه مثل ماتقدم فهو تفسير للنوصية كما كان ماتقدم تفسيرا للحكمة ، وصى الله الإنسان بشكره وشكر والديه (إلى الصير) فأجازيك على الشكر والكفر (وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم) أي باستحقاق الإشراف تقليدا لهما (فلا تطعهما) في ذلك (وصاحبهما في الدنيا) صحابا (معروفا) يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم (واتبع) في الدين (سبيل من أناب إلى) بالنوحيد والإخلاص (ثم إلى مرجعكم) أي مرجعكم ومرجعهما (فأنبشكم بما كنتم تعملون) بأن أجازيك وأجازيهما على الإيمان والكفر (يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل) أي أن الحصلة من الإساءة والإحسان إن تك في الصغر مثلا كحبة الخردل (فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض) أي في أخفى مكان أو أعلاه أو أسفله على الترتيب (يأت بها الله) يحضرها فيحاسب عليها (إن الله لطيف خبير) يصل علمه إلى كل خفي كما رأيت في وزن العناصر وانتظامها وجمال إتقان نسبها في [سورة العنكبوت] فهناك تبين سر هذه الآيات وأن الحبة من الخردل وأقل منها آلاف آلاف في الصغر قد وضعت بحساب ونظام كما عرفته وأن الله يأتي بها كما عرفت في [جدول مندليف الروسي] فإن للذرات أوزانا في العناصر لا تدع صغيرا ولا كبيرا إلا أحاطت به والعنصر الذي لا يراه الناس وجيء به بضعونه في موضعه من الجدول لدقة الحساب الإلهي . فإذا كان هذا فعل العلماء من أهل الأرض وقد هداهم النظام الإلهي في الذرات فما بالك بمن حسب ذلك ونظمه قبل خلقهم ؟ فهذا تعرف « إن الله لطيف خبير » لأنه عالم بكنه كل شيء ، ولقد تقدم شرح هذا المقام في أول [سورة

آل عمران [وغيرها وذكرت هذه الآية نفسها هناك (يابى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن النسكر)
تكيلا لعيرك بعد كمال نفسك (واصبر على ما أصابك) من الشدائد كلها لاسباب في الأمر بالمعروف والنهي عن
النسكر (إن ذلك) أي الصبر وما تقدمه (من عزم الأمور) أي معزومات الأمور أي مقطوعاتها أو خبير
الأمر أو حزم الأمور (ولا تصعر خدك للناس) ولا تعرض عنهم تكبرا ، وقرىء تصاعرا أي أقبل على الناس
بوجهك ولا تولم شق وجهك وصفحته كما يفعله التكبرون (ولا تمش في الأرض مرحا) ولا تمش لأجل اللرح
والبطر (إن الله لا يحب كل غفور) والقخور راجع لقوله ولا تصعر خدك ومختار راجع للمشي مرحا
(واقصد في مشيك) توسط بين الدبيب والإسراع ، وقد قالت عائشة رضي الله عنها : كان عمر إذا مشى أسرع
وقال صلى الله عليه وسلم « سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن » فاذن يكون إسراع عمر معناه أنه لا يدب ديب
المهاجرين كدبيب النصارى في ذلك الزمان ولا يسرع كخبب اليهود (واغضض من صوتك) واقصص منه (إن
أنكر الأصوات) أوحشها (لصوت الخمر) والخمر مثل في الدم وأول صوته زفير وآخره شهيق . انتهى التفسير
اللفظي للقسم الثالث من السورة .

ولنذكر هنا (اللطيفين : الأولى) في معنى قوله تعالى « وإذ قال لقمان لابنه » الخ (والثانية) في الكلام
على لقمان عليه السلام .

(اللطيفة الأولى : في معنى آية « وإذ قال لقمان لابنه » الخ)

ابتدأ لقمان فنصح ابنه بنصائح مبتدئا بأهمها وهو التوحيد ، فأمره ألا يشرك به وعلل ذلك بأن الشرك
خلاف العدل وأعقب ذلك بوصف الله بصفة العلم العام للعالم العلوي والسفلي وأنه لا تخفى عليه خافية في صخرة
أو سماء أو في أرض فهو يعلم كل خافية ويقدر أن يأتي بأدق الأشياء أين كانت . ولما أتم ذلك أخذ يأمره
بتكميل نفسه وذلك بالعبادات التي أهمها الصلاة لمن يعلم ما في قلبه ولا يخفى عليه خافية ، فلما عرف ربه وكل
نفسه لم يبق بعد ذلك إلا إفاضة الخير على الناس وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن النسكر ، فإن العظيم من يكون
مثلا أعلى للناس ينفع نفسه وينفعهم فيكون كالسكواكب المشرقة على الناس . ولا جرم أن الهداة معرضون
لأذى الناس فلذلك أمره بالصبر على ما يصيبه منهم وما يتبلى به في جسده أو ماله أو أهله فمن لا صبر له لا يكون
كاملا ثم مدح الصبر مدحا كبيرا ، فإذا كمل الإنسان وكمل غيره واعتصم بالصبر على أذاهم فإنه لا جرم يستهدف
لذنوب عظيمة وهي الخيلاء والكبرياء فأمره بعدم التكبر وعدم الخيلاء والاعجاب بالفس فيقول من دامنى
علم وعمل وهداية للناس وصبر تام ، فمن في الناس مثلى . ولما كان الإنسان قد يحمله طلب السكال على
الإسراع في قضاء الحاجات فيحشى لها مسرعا وقد يحمله الإعجاب والكبرياء أن يدب ديبيا متعاطما أمره أن
يكون مشيه وسطا والوسط حسن في كل شيء . وهو العدل . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى .

(اللطيفة الثانية)

اضطربت أقوال علماء التفسير في لقمان من هو ؟ ومن أي الأمم هو ؟ تبعنا لعلم التاريخ وأقاصيص الأمم
ودياناتها . فبنوا إسرائيل عدوه من أنفسهم وقالوا إنه كان في زمن داود وإنه خير بين النبوة والحكمة فاختار
الحكمة ، وقال قوم إنه كان عبدا حبشيا ، وقال قوم إنه كان خياطا ، وقال آخرون إنه نجار ولم يذكر وامن
أي الأقوام هو ، وآخرون قالوا هو راعي غنم ، وقال قوم كان عبدا أسود عظيم الشفتين .
فهذه الأقوال منقولة عن الأمم التي قبلنا ولكن الجميع منفقون أن حكته ذاعت في الأمم كلها وذكرها
بعضها . واعلم أن هذا الحكم الذي ذاع ذكره في جميع الأمم قال عنه اليونان إنه منهم وهذا كتابه بين يدي
فأريت مشابهة بين الحكم المنقولة عنه وبين ما ذكره القسرون منها ، وكانوا يسمونه (ايثوب) من قرية

تسمى (امرئوم) وكانت ولادته بعد تأسيس [مدينة روما] بمائتي سنة ، ويقولون إنه كان من سقط اللناع في
الجسم مشوه الخلفة والوجه معقود اللسان ، ولما اشتراه أحد الفلاحين أرسله إلى الحقل ليربح الناس من
قبح وجهه ولكن الله لما خلط القبح في وجهه عوضه حكمة في عقله كما عوض العمى عن البصر ذكاء في
الأفئدة ، ولقد بقى هذا العبد معقود اللسان أمدا طويلا ولا يتكلم إلا بالإشارة ، وبينما هو نائم ذات ليلة
إذ رأى ملكا جاءه في صورة إنسان وحل العقدة من لسانه ووهبه علم الحكمة ، فلما استيقظ أحس بانطلاق
لسانه وصار من فرحه يحدث نفسه فسمعه رئيس الخدم يتكلم مع نفسه بفصاحة فذهب إلى سيده وقال هذا
العبد خبيث لأنه يدعى انقاد لسانه وهو فصيح فأمره ببيعه ، فلما عرضه على تاجر ليشتريه أعرض عنه احتقارا
لشأنه ، فقال له [ايثوب] اشترني وأنا أنفك ولا أضرك بشيء ، فان كان لك أولاد تخوفهم بي كأتى عفريت
من العفاريت ، فاشتراه بثمن بخس ، وأخيرا باعه هذا لرجل فيلسوف وله معه نوادر .

﴿ النادرة الأولى ﴾

سأل الفلاح في البستان الفيلسوف (سيد ايثوب) فقال له . لماذا أرى القطعة التي لا أخدمها من هذا
البستان تنبت أكثر وأكبر من القطعة التي أخدمها ، فقال الفيلسوف سيد ايثوب (لقمان) هذا فعل الطبيعة
فضحك (ايثوب) وأخذ سيده على جانب وقال له قل للفلاح إن هذه مسألة صغيرة لا قيمة لها وعبدى هو
الذى يجب عليها ففعل سيده فذهب (ايثوب) للفلاح وقال له إن الأرض تشبه امرأة ذات أولاد فتزوجت
برجل آخر ذى أولاد من امرأة غيرها فمى تلتفت إلى أولادها ليكونوا أحسن من أولاد الزوج .

﴿ النادرة الثانية ﴾

إن امرأة سيده غضبت فاشترى أصنافا من الحلوى بإرادة صلحها وقال أعطها لحييتي فأعطاه لكلبة
عند سيده وكان يحبها ، فلما رجع سأل زوجته عن الحلوى فقالت لم يأتني شيء فسأل لقمان فقال أنا أعطيتها
لحييتك كما أمرت لأنها تتحمل الدل والإهانة وتضرب ثم ترجع لك ، فأما المرأة فانها غير حبيبة لأنها تطلب
الطلاق لغير سبب .

﴿ النادرة الثالثة ﴾

إن زوجة سيده غضبت وأبت الرجوع من بيت أهلها ، فقال له اشتر أشياء لولجة وادع لها من أحببت
وأشع أنك تريد الدخول بامرأة غيرها فلا بد أنها ترجع عناداً أو غيره .

﴿ النادرة الرابعة وقد ذكرها الفسرون ﴾

جاء لسيده ضيوف أعزاء فقال له اشتر أحسن كل شيء فاشترى السنة الدواب كالثور والكبش والجاموس
وأمر الطباخ أن ينوع الطعام ، فلما أكل الضيوف شعروا لأنهم وجدوا أول الطعام وآخره اللسان ، فقال
له ألم أقل لك اشتر أحسن كل شيء ؛ قال وأى شيء أحسن من اللسان ، هو رابطة العائلات ، ومفتاح العلوم
وآلة الحق ، وبه تبنى المدن وتضبط ، وبه يحصل التعليم وإتمام الحجة ، والحكم في الأمم . فقال لك الحق .
وفي اليوم الثاني دعاهم وقال اشتر أقبح كل شيء في السوق ، فأعد الطعام كاللحم الأول . فلما سأله قال إن اللسان
أقبح كل شيء . هو أبو التناقض ورأس المشاكل والندائى ومنبع الشقاق والحروب وإن قيل عنه آلة الحق
فهو آلة الغلط والخبث ، وبه تخرب المدن ، وبه السب ، وبه العار . فقال بعض الضيوف إن هذا في إمكانه أن
يقنع كل فيلسوف . ثم علا أمره وعظم شأنه حتى صار يحضر مجالس الأعيان ويشاورونه في أمر الحرب والصلاح
وله حيل في ذلك عظيمة جدا وكما أخذ سيده من مشكلات حتى إنه اعتقه . وقد كان في أهل ساموس فتحرك
يوما ملك (الديان) على أهل (ساموس) وأرسل لهم رسولا يخيفهم من بطشه فيدخلون تحت طاعته فالوالله

وخافوا من الحرب فقال لقمان [إن الدهر فتح للناس طريقين : طريقا للحربة كثير الصعوبات والأهوال
ولكنه هين العاقبة . وطريقا للاستعداد أوله سهل وآخره لا يطاق] فرجع السفير وأخبر الملك فطلبه فأرسل
إليه حفرة لمارآه وكان أراد قتله ولكن حكمه وحسن تخاصه جعله يفتونه وبقي عند ذلك الملك لمدة ألف
حكايات على السنة الحيوانات ستأتي وتركها عند الملك . وأخذ يسبح في الأرض فقابل ملك بابل وغيره ونال
شهرة عظيمة ونالت حكمه ذبوعا في الأرض ومن هذه الحكايات كتاب [العيون اليراقظ في الأمثال والمواعظ]
وهي مائتا حكاية على السنة الحيوانات ترجمها المغفور له المرحوم محمد بك عثمان جلال وطبعت بالقاهرة سنة
١٣٢٤م سنة ١٩٠٦م بمطبعة النيل بمصر أولها (الصرار والنملة) وآخرها (الرجل والحية) وفيها حكم بديعة ومنها
(حكاية العراب والثعلب) و (حكاية الضفدعة) و (حكاية بطة الأتقال وبطة المال) و (حكاية السكب والتدب الخ)
وهاك الحكاية الأولى :

﴿ الصرار والنملة ﴾

(حكاية موضوعها صرار أودى به الجوع والاضطرار)
وكان قضى الصيف في الغناء وما سعى في ذخيرة الشتاء
وحين جاء زمن الثلج ومنع القوم من الخروج
شاهد بيته بلا مشورة فراح يوما يطلب المعونة
وقال للنملة أنت جارتى مالى سواك في قضاء حاجتى
هل تصنعين معى المروفا لا ذقت من أيامنا صروفا
وتفرضينى صواغا غله وطبقا ومتردا وحله
فان أنى الصيف قبل المصباح أردتها عليك قبل الريح
قالت له النملة وهى تجرى عنذك يا مسكين مثل عذرى
ماذا فعلت فى حصيد قدمضى قال لها كان زمان وانقضى
قالت وما ادخرت فيه لاشتا قال لها مستهزئا ميكتنا
كنت أغنى للحمير القمص قالت له يا صاحى الآن ارقص
واعلم بأن السعى فى الذخيرة يدفع كل غمة وحيرة
والدرهم الأبيض وهو فى يدي ينفعنى فى كل يوم أسود

﴿ الحكاية التى قبل الأخيرة : وهى حكاية الرجل وزوجته والى ﴾

حكاية عن رجل وزوجته إذا نسبتها فبنت عمته
يحبا للسكين حبا جما ويحتنى منها الأسى والهنا
فطلما سبته أو ذمته وقلما ناجته أو ضمته
وزوجة عاشت بلا محبة فتلك كالنعجة أو كالدبه
قال لفاء اللى ذات ليله وجر من بعد العشاء ذيله
فألتب المرأة خوفا نعلها وأقبلت تجرى تضم بعلمها
فضمها لصدرة وقال باللى كل ليلة تعالى

قربت لي كثيرة النصار
فاسرق جميع ما ترى في الدار
فسرق اللص جميع ما رأى
وانقض عنهما مساء ونأى
وقصها الزوج على في الغد
فقلت مامن عجب يا ولدي
الا ترى أن امرأ قد عشقا
غانية وبينها قد سرقا
وجاءها وقت الحريق والضرم
فسلت له قيادها وضم
فالخوف قد يكون للوصل سبب
وربما أخيف ظني فانقلب

(ذكر الحكمة: في ذكر لقمان الحكيم مع أن أمره غير بين من حيث النسب)

اعلم أن الله عز وجل لما ذكر نعمه الظاهرة ونعمه الباطنة . فالأولى بما في السموات والأرض . والثانية بالحكمة والعلم اختار للثانية رجلا لا يعرف نسبه على التحقيق تنزاعه الأمم ليرينا أن الحكمة ليس لها مكان وأن الله يأمرنا أن نأخذ الحكمة أنى وجدناها من عبد وحر ومعلوم الأصل ومجهول وقديم وحديث وبهذا نعلم أن النفوس الإنسانية كلها متعاونة قديمها وحديثها وأولها وآخرها وحيلها وقبيحها وسيدها ومسودها على العلم ونشره . وأن نفوس الأولين مشوفة لتعليم نفوس الآخرين بالسكتب والتأليف والنقش على الأحجار وبالأخبار . كل ذلك ليعلمنا الله أن الأرواح جميعها متصلات من ملك ونبي وحكيم وعالم وأن ما رآه من اختلاف الناس وأن زيدا يكره دين عمرو لأنه ليس من معتقدى ذلك الدين وما أشبه ذلك . كل ذلك نقص في نوع الإنسان فعلمهم جميعا أن يأخذوا الحكمة أنى وجدوها لأنهم لله راجعون وهو الحق ولا يقوم شيء إلا بالحق وأن عالم الأرواح أشبه بعالم الأجسام من حيث التعاون والارتباط . فاذا رأيت الشمس تضيء على الأرض بلاجزاء ولا شكور والأرض وما عليها كل يعين الباقي كما سترى إيضاحه فيما سيأتى وأن زيدا لا يعيش إلا بنظام دولته وأسرته وحكومته وأمم الأرض المساعداً لأمته والشمس والأرض ودورانها على الشمس وهكذا عوالم متلاحقة متعاونة « وأن إلى ربك المنتهى » .

فالعلوم ترسل من العقول الكبيرة إلى الصغيرة ومن التقدمة إلى المتأخرة لتلاحق الأرواح وتخاب النفوس وأن العظيم العلم حريص على سعادة الجاهلين . ولما كانت الأرواح بهذا الوصف أمرنا الله في الصلاة أن نسلم على عباد الله الصالحين وأن نصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وآله وأن نذكر إبراهيم وآله وأن نسلم في ختام الصلاة على كل روح بيننا وشمالا ذلك لقصة بين الأرواح ، ويقول « اهدنا الصراط المستقيم » ويقول « الذين أنعمت عليهم » ويقول « اهدنا فيمن هديت » وذلك كله ليستأنس بالأرواح قبل مقابلتها بالموت . ثم الكلام على لطيف القسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

(القسم الرابع)

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَآ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ
ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ • وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ
يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّمِيرِ • وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ

الْوَتْقِ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ • وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ إِنَّنَا مَرْجِمُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا
 كَانُوا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ • نَعْتَمُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَنْصُرُهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ • وَلَئِنْ
 سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ •
 اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ النَّبِيُّ الْحَمِيدُ • وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ
 أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ •
 مَا خَلَقْتُكُمْ وَلَا بَعَثْتُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ • أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ
 اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى
 وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ • ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ
 اللَّهَ هُوَ الْبَدِيءُ الْكَبِيرُ • أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ • وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلْمِ دَعَوْا اللَّهَ
 مُخْلِصِينَ لَهُ الْاَدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ
 كَفُورٍ • يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ
 عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْفُرُورُ •
 إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا
 تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَى أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ •

(التفسير اللفظي)

قال تعالى (المزوا أن الله سخر لكم ما في السموات) من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والطرر
 (وما في الأرض) من الشجر والدواب (واسبح عليكم نعمه) وآتمها عليكم (ظاهرة وباطنة) محسوسة ومعقولة
 وما تعرفونه وما لا تعرفونه (ومن الناس من يجادل في الله) في توحيدِهِ وصفاته (غير علم) جاء من دليل
 (ولا هدى) من رسول (ولا كتاب منير) أرله الله وإنما ذلك بالتقليد (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قلوا
 بل تتبع ما وجدنا عليه آباءنا) تقليدا يتبعونهم (أولو كان الشيطان يدعوهم) الضمير لآبائهم (إلى عذاب السعير)
 أى إلى الكفر والشرك وكل ما يجب به العذاب (ومن يسلم وجهه إلى الله) أى يخلص دينه لله بأن يفوض أمره
 إليه ويقبل عليه بكايته كما تقول أسلمت المتاع إلى الزبون (وهو محسن) في عمله (فقد استمسك بالعروة
 الوثقى) فهو كمن يتدلى من جبل فتمسك بأوثق عروة من عرى الجبل للتدلى منه (وإلى الله عاقبة الأمور)

فهي سائرة إليه فيجازي كل على ما فعل (ومن كفر) ولم يسلم وجهه إلى الله (فلا يحزنك كفره) فهو لا يضرك
 (بإيا مرجعهم فنبتهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور) أي يعلم ما في صدور عباده فيفعل بهم على حسب
 (متمهم) زمانا (قليل) في الدنيا (ثم نضطرهم) نلجئهم (إلى عذاب غليظ) شديد (ولئن سألتهم من خلق
 السموات والأرض ليقولن الله) لأن الدليل واضح (قل الحمد لله) على إزاتهم الحججة وإلجائهم إلى الاعتراف
 (بل أكثرهم لا يعلمون) أن ذلك يلزمهم وإذا نهبوا إليه لم ينتهبوا (فه ما في السموات والأرض إن الله هو
 العني) عن حمد الحامدين (الحمد) المحمود بحمده من في السموات والأرض وإن لم يحمده هؤلاء وهو مستحق
 للحمد ، قال المفسرون لما نزلت بمكة «ويستلونك عن الروح» الآية وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم
 إلى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا بلغنا أنك تقول «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» أتينا أم قومك؟ فقال صلى الله
 عليه وسلم : كلا عني قالوا ألسنت تتلو فيها جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شيء فقال صلى الله عليه وسلم من
 في علم الله قليل وقد أتاكم بما إن علمتم به انتفعتم به فقالوا كيف تزعم هذا وأنت تقول «ومن يؤت الحكمة فقد
 أوتي خيرا كثيرا» فكيف يجمع علم قليل مع خير كثير؟ فنزل قوله تعالى (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام)
 تبرى أقلاما (والبحر بمده) عطيه للدد (من مده سبعة أبحر) أي مدادا والحلائق يكتبون به كلام الله (ما نعدت
 كلمات الله) لأنها لانهاية لها (إن الله عز رحيم) لا يعجزه شيء ولا يخرج عن علمه وحكمته أمر بعد أن ذكر أنه
 أنه خلق نعمًا كثيرة ظاهرة وأنه أجرى الحكمة على لسان لقمان وأتبعهما بأنه أسبغ النعم ظاهرة وباطنة وأنه
 له ما في السموات وما في الأرض ، بعد ذلك كله ناسب أن يبين أن تلك النعم والمخلوقات لا تخص كمال سبحانه
 « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» ولما كانت تلك النعم غير محصورة ربما ظن الإنسان أنها مبعثرة لا قانون
 لها وأنه يصعب على الله قيادتها فقال (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) أي إلا كخلقها وبعثها إذ لا يشغله
 شأن عن شأن (إن الله سميع بصير) يسمع كل مسموع ويصير كل مبصر (ألم تر أن الله يولج الليل في النهار
 ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل من النيرين (يجري إلى أجل مسمى) إلى منتهى معلوم
 (وأن الله بما تعملون خبير) فهو يعلم سير الشمس والقمر والكواكب وحسابها وحساب عناصر الأرض والنتائج
 الحاصلة بينهما ومنها أنتم وأعمالكم (ذلك بأن الله هو الحق) المستحق للعبادة (وأن ما يدعون من دونه
 الباطل) أي لا يستحق العبادة (وأن الله هو العلي الكبير) للترفع على كل شيء المنسلط عليه (ألم تر أن
 الفلك تجري في البحر بنعمة الله) بإحسانه في تهيئة أسبابه (ليريسكم من آياته) دلالاته (إن في ذلك لآيات لكل
 صابر) على المشاق فيتعن نفسه في التفكير في الآفاق والأنفس (شكور) يعرف النعم ومعطيها . وكل ما يرد
 على الإنسان في الدنيا لا بد فيه من أحد أمرين : إما صبر إن كان مبغضا . وإما شكر إن كان محبوبا ،
 فأشرف النوع الإنساني لا يتخلون من صبر وشكر في جميع الأوقات (وإذا غشهم موج) أي علام وغطام
 (كالظلل) كل ما يظل من جبل أو سحاب أو غيرها (دعوا لله مخلصين له الدين) لأن الفطرة إذذاك زال عنها
 ما يضاها من الهوى والتقليد (فلما نجاهم إلى البر فثم مقتصد) مقيم على طريق القصد الذي هو التوحيد
 (وما يحمد بآياتنا إلا كل ختار) غدار فإنه نقض عهد الفطرة (كفور) للنعم (يا أيها الناس اتقوا ربكم
 واخشوا يوما لا يجزي والدك والدك وأبوك ولا يقضي عنه ولا يقضي (ولامولود هو جازعن والده شيئا) ومعنى هذا أن
 الشفقة والرحمة في الوالد والولد أوفر من غيرها . فالوالد والولد كل منهما عادة يجزي عن الآخر في الدنيا فأما
 يوم القيامة فكل يقول نفسى نفسى (إن وعد الله حق) لا يمكن خلقه (فلا تنرنكم الحياة الدنيا ولا ينرنكم
 بالله الفرور) أي الشيطان بأن يرجيكم التوبة والغفرة فيجسركم على المعاصي (إن الله عنده علم الساعة)
 علم وقت قيامها (ويزل العيث) في إبانة المقدر له والمهل المعين له في علمه (ويعلم ما في الأرحام) أذكر أم أنت

أنا أم ناقص (وما تدري نفس ماذا تكسب غدا) من خير أو شر ، وربما تعزم على أمر وتفعل خلاه
(وما تدري نفس بأى أرض تموت) كما لا تدري في أى وقت تموت (إن الله عليم) يعلم الأشياء كلها (خير)
يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها . انتهى التفسير اللفظي للقسم الرابع من السورة .
روى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «مفاتيح الغيب خمس : إن الله عنده
علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدري نفس بأى
أرض تموت إن الله عليم خبير » ١ هـ .

﴿ شذرات على هذه الآية ﴾

(الأولى) جاء فى الإسرائيليات التى كان يقصها بنو إسرائيل على شعبهم أن ملك الموت مر على سليمان
فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه فقال الرجل من هذا ؟ قال له ملك الموت قال كأنه يريدنى وسأل سليمان عليه
السلام أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل ، ثم قال ملك الموت لسليمان كان نظرى إليه ودوامه تعجبا
لأنى أمرت بقبض روحه ببلاد الهند وهو عندك فوصل إلى الهند فى الوقت المعلوم فم أمر الله .
(الثانية) أن النجم يحسب الحسوف والكسوف وغيرها فيكون حقا ، فهذا إنما يقول بالقياس
والنظر وما يدرك بالدليل لا يكون غيبا ، ومنه ما يعرف ظنا والظن غير العلم .
(الثالثة) رأى المنصور فى نامه صورة ملك الموت وسأله عن مدة عمره فأشار بأصابعه الخمس فبرها
المعبرون بحمس سنوات وبخمس أشهر وبخمس أيام فقال أبو حنيفة رضى الله عنه هو أشار إلى هذه العلوم
الخمسة لا يحلها إلا الله .

(الشذرة الرابعة) قد جاء فى علم الأرواح الحديث أن الأرواح لا تعلم مستقبل الناس القريب ولا البعيد
ولما سئلت عن ذلك قالت لأن الأمور فى العالم الأرضى مرتبطة بأمور أخرى أقرب إليها وهناك أمور بعيدة
لا تدرك ، فالأرواح الجاهلة تخبر بالعلامات القريبة وهى تعجز عن البعيد فتخطئ . فى خبرها ولما سئلت لها إننا
نظن أن أناسا من أهل الأرض يخبرون بموعده الساعة واليوم الذى يموتون فيه ويقولون قد أخبرنا فى المنام
به أجابت الأرواح قائلة أولئك قوم علم الله أنهم لا يخبرون للموت وقد زهدوا فى الدنيا فخبرهم بذلك فيستبشرون
بالموت وهؤلاء قليل فى النوع الإنسانى .

﴿ لطيفة فى قوله تعالى « وأسئخ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » وفى قوله « ما خلقكم ولا بعثكم

إلا كنفس واحدة » وقوله « ولولأن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده

سبعة أعجم ما تفتت كلمات الله إن الله عزيز حكيم »

لقد قدمت لك فى أول السورة أنها حدثت بحروف (الم) وقلت لك إن هذه إشارة منه تعالى إلى أمر
عظيم فى هذه السورة مبدوء بهذه الحروف وفيه إسباغ النعم ظاهرة وباطنة وقد تبعه أن خلقنا وبشا كنفس
واحدة وأن كلمات الله لا تنفذ ونعمه لا تحمد . ولا جرم أن هذا أمر عظيم لا بد من التثمير والجد فى التفكير
حتى يتضح فأريد الآن أن أسمحك قولاً يظهر منه أمران : النعم التى لا تنتهى وانتظامها كأنها نفس
واحدة فأقول :

أنت تعلم أن النعم التى تحيط بنا كثيرة ولست أريد التطويل بذكرها فإنها بشرحها كل العلوم فلا أذكر
لك أربع نعم فقط : وهى الغذاء والدواء والكساء والبناء . ولست أنمض إلا للغذاء . وأترك البقية وأذكر
منه قبضة من القمح تصنع رغيفا بخبز فنأكله فنجعل هذا الرغيف محل عشا فقول إن هذا الرغيف له خازن
وعاجن وناخل وطاحن ومغربل وخازن وبائع ومخمس الثبن من القمح فى الجربن ودارس وحاصد وساق

وزايع وحارث هذه ثلاثة عشر صنعا إجمالا ، فلندع هؤلاء كلهم ولنفض الكلام على الآلات التي يعملون بها ولا نذكر منها إلا الحديدية التي في المحراث (السلاح) فنقول :

هذه الحديدية لا بد لها من حداد سواها على مقدار الحرارة ونجار ركب الحشب القوس عليها وتاجر جلب الحديد من أرض بعيدة وعامل حفري للناجم فاستخرج منها الحديد . فلترك هؤلاء كلهم وتنكأ على التاجر من بينهم فنقول إن هذا التاجر لا يمر بالطرق البرية والبحرية إلا إذا كانت مأمونة ولا أمان إلا إذا كانت الأمم التي على وجه الكرة الأرضية منتظمة الحكومات قائمة بحراسة الطرق ، ولولا ذلك ما أمن التجار الطرق ولم يجلبوا ذلك الحديد من أرضه . فلولا حسن النظام والأمن في أكثر الأرض ما انتظم أمر التجارة ولم يصل الحديد للفلاح وهو في حقله ، ثم إن هذه الأمم على الأرض لانظام لها ولا نبات إلا إذا كانت الأرض جارية بنظام حول الشمس حتى يسكون الليل والنهار منتظمين فلو اختلت المواعيد لم يكمل نظام أهل الأرض ولو وقعت الأرض فلم تدر حول نفسها لتقبل ضوء الشمس لمات كل من على الأرض إذ لا يكون إلا ليل في جهة ونهار في أخرى ولو أن الأرض لم تدر حول الشمس دورتها السنوية لم يكن صيف ولا شتاء ولا اختل أمر الحياة ولم تعرف السنون والحساب ، فهذا كله لا بد منه لانتظام أمم الأرض لتحفظ التاجر في طريقه بالحديد المذكور ، ثم إن الشمس تجري حول كوكب آخر لا بد من نباته وإلا لا دخل أمرها هي وما حولها من الكواكب وهكذا إلى حد يقطع الفكر دونه . كل ذلك لحفظ الأمم على الأرض . وأيضا لو لم تسكن الكواكب السيارة في مداراتها الخاصة بهالم تعرف الطرق البحرية لأن الريان يرصد تلك الكواكب فيتهدى برصدها إلى الطريق فانظر كيف اشتركت الدول والأرض والشمس والكواكب وانتظام أمكنتها ومداراتها في حفظ التاجر الذي أحضر الحديد للمحراث الذي يحراث القمح لغذائك .

هذه بذرة يسيرة من سلسلة النعم التي جعلها الله للرجيف قبل أن يكون لديك . ولم نذكر الريح والمطر ولانظام الحكومة التي يكون فيها الحقل ، ولا هؤلاء العاملون الذين ذكرناهم ، ولا ما يلزم كلانهم من غذاء ودواء وحكومة حتى يعيش فيخدمك كل هؤلاء . ضربنا الذكر صفحا عنهم لأن هذا لا يتناهى الكلام فيه فلنبعث إذن في الرجيف بعد وجوده لديك .

إن الإنسان يأخذه بيده ويمضغه ولا بد من أسنان طواحن كما يطحن الحب بالحجارة وحادة كالسكين لتقطع وهي القواطع ومحدود به كالرمح للتنزيق بحيث تكون كل طائفة لوع من اللأ كور وإلا تعطل الأكل ولم تكن الثمرة المطلوبة ، ثم يجري من تحت اللسان عينان تخرجان مادة لعابية تساعد على هضم الطعام ثم يكون اللسان مستعدا لتحريك الطعام من جانب إلى جانب ، ثم يمر الطعام فيجد أمامه الحلقوم المفتوح الذي يخرج منه النفس الوارد إلى الرئتين في الصدر فيمر عليه ولوبق مفتوحا لمات الإنسان حالا ولم يش فحاق له صمامة تسمى (صمامة الزمار) فتق أحست باللقمة أفبات إلى الزمار حلا فقطته فتمر اللقمة إلى المريء ولذلك يجد الإنسان نفسه غاصا بالماء أو بالطعام إذا كان يتكلم وهو يأكل فإن الكلام يعوزة النفس والنفس يؤخر الصمامة فيندفع شيء من الطعام في الحلقوم فيتأذى الإنسان ، فإذا مر الطعام إلى المعدة قابله هناك سوائل فيها كالتق في القم يقال لها (العصير العدي) لتساعد على هضم الطعام ، فإذا استحال إلى السكيموس ونزل إلى الأمعاء وجدها تبلغ في الطول (٧) أمتار وبعض سفمترات منها (٦) للأمعاء الدقاق ومتر واحد وبعض سفمترات للأمعاء الغلاظ ، وفي أثناء ذلك يصير كيلوسا مستعدا لأن تجتذبه الشرايين ويستحيل دما شيئا فشيئا فيجري إلى السكبد ومنه إلى القلب وهناك أربعة تجاربف أعليان يسميان (الأذينين) وأسفلان يسميان (البطينين) تصغير أذن وبطن والدم يجري في هذه الأربعة بنظام بهامات بين كل أذين وبطن

وهناك يلاقى مع الهواء الجوى في الرئتين فيأخذ منه الهواء المادة الفحمية أى التى احترقت فى النسيج الجسمى لأن الدم يجرى فى سائر الشرايين والأوردة وهى متفرعة فروعاً وراها فروع تدق شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى مالا يدركه الطرف من الفروع الشعرية ، وهذه كلها تعطى الأنسجة دماً يتقلب إلى لحم وعظم ودهن وظفر وجلد وشعر وصفراء وسوداء وبانغم وكبد وطحال وحالب وقلب وورثة ومعدة ومخ وعصب وعظام وهسكدا ولا يتحول الدم إلى شئ* من هذه إلا بعملية كيميائية بحيث يحصل الاحتراق والاحتراق يتبعه مادة محترقة ، ذلك هو الكربون الذى لو ترك نوانى ملأت الإنسان .

فمن الحكمة إدخال الهواء والهواء يلاقى الدم فى الرئة فيعطيه مادة الحياة وهو الأكسوجين وبأخذ منه مادة الموت وهو الفحم أى (الكربون) وهذا الفحم متى تسلمه الهواء سار به فى الجو وأعطاه للنبات فكان منه الخشب والورق والعشب والفاكهة والأب . ففساد أجسامنا صلاح نباتنا وصلاح نباتنا صلاح أجسامنا فما به فساد يصالح فيرجع لنا صلاحاً كره أخرى .

إنى لعلى يقين أنك أيها الدكى الآن عرفت النعم الظاهرة بقسمها وهى التى خارج أجسامنا وهى التى داخل أجسامنا ولم أذكر لك منها إلا الرغيفاً واحداً وهذا الرغيف قد اشتركت فيه العوالم كلها الأرضية والسموية حتى وصل إليك وهكدا اشتركت فيه سائر أعضاء الجسم حتى صار لها دماً وعظماً ومخاً وطبقات العين من صلبة ومشيمية وشبكية وسائل زجاجي وجلدية وتسمى (عدسية) ورطوبة مائية وعكسوتية وفرجية وقرنية شفافة وفوق ذلك كله اللتحمة . فهذه كلها نسيج نسيج من الدم والدم يجرى فى الجسم ويعطى كلا مايناسب من المواد التى حملها من العناصر الأرضية ومركباتها . ألسنت بهذا عرفت كيف كانت النعم لانهائية لها . وإذا كان الرغيف الواحد حرناً فى أمره حتى اشتركت فيه العوالم العلوية والسفلية وجميع أعضاء الجسم وهكدا النبات من حيث إنه بأخذ الفحم . بهذا عرفت الأمرين : كون النعم لانهائية لها وكون العالم الذى نحن فيه كجسم واحد والله هو المدبر له ، فهو واحد ونحن فى ذلك الجسم العام وأرضنا وشمسنا أشبه بعضو صغير منه ونحن ودولنا عبارة عن ذرات فى ذلك العضو ولنا اتصال بالجميع . إن تكرار هذه المعانى يعرفنا مركزنا فى الحياة ويفهمنا نظام الوجود ويعرفنا معنى قول الناس (وحدة الوجود) .

إن وحدة الوجود لا يفهمها أحد إلا الذين يقطعون العمر بالنفكير ، وإياك أن تقول إنى عرفت وحدة الوجود بمنال مثل هذا ، بل لا بد من عشقتك أولاً للعلوم ثم البحث فيها والنظر وتكرار ذلك لأن مثلاً وأمثلة لا تكفى لإشراق هذا النور فى القلب . أليس من العجب أن النمل الذى ندوسه بأقدامنا خلق ليقتل الدود الذى ينخر أشجارنا فتحفظ تلك الأشجار من العطب ، فتحن فى مساكننا ودورنا تعيش تحت السقوف ولا ندري أن النمل هو الذى حفظ لنا بعض الخشب لأنه كان يقتل الدود كما تراه فى (سورة البقرة) هناك . فظهر معنى إسباغ النعم ظاهراً وباطناً ، وظهر معنى كون خلقنا وبعثنا كنفس واحدة ومعنى كون نعم الله لا يحصى الكاتبون ولو كان البحر بمده سبعة أبحر والأشجار كلها أقلام . ما أجل العلم وما أهدى الحكمة « وفوق كل ذى علم علم عليم » .

وإنى أسأل الله تعالى أن يعنى بهذا القول قلوباً ويرقى به أعماً ويفتح به عيوننا . ولتعلم أيها الدكى أن للمسلمين لم تدخل عليهم الأمم من كل جانب إلا بجهلهم العلوم ، ولو علموها لحفظوا عقولهم وديارهم وأمواهم ونظموا مدنهم ، فان أمثال هذه المباحث إذا درست دراسة نظامية انفتحت لها العقول وذكت بها البصائر وارتقت ونشطت من عقاها وطلبت العالى وحفظت الثغور ورقت نظام الجمهور . وستقرأ النعم الباطنية عند الكلام على لقمان قريباً فى آخر الكلام على هذه السورة .

(ذكر العجائب في أسماء السور)

لقد سميت السور بأسماء تذكر للمسلمين بما تفيدهم ، فسميت سورة الأنبياء والحج ومنها المؤمنون والنور والفرقان والقصص والنمل والشعراء والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة الخ .
فالأنبيا قد تبين لك فيها أنها تجمع خصائص الأمم حتى يأخذ المسلمون بجميع فضائلهم كما قدمته وإذن تكون مدينة أرقى من كل مدينة لو فهمت . والحج معلوم أمره لأنه يجمع الأمة ، وأما المؤمنون فالمقصد من التسمية بها استكمال الإيمان بحصال السكّال . وفي التسمية بالنور تشويق المؤمن لربه وأنه لا يمكن أن يعرف جل جلاله إلا بالطف وأجمل الأشياء التي تراها وهو النور فقال سبحانه « الله نور السموات والأرض » والنبي صلى الله عليه وسلم قال في حق الله « إنه نوراني أراه » ورأى أنوار ليلة الإسراء عظيمة والفرقان لتبليان الحقائق بالنور العلى . والقصص للاعتبار . والنمل ليكمل للمسلمين عجائب الحيوان فإنه في سورة النور قال « ومنهم من عصى على أربع » فذكر لفظ النمل ليعين ما يعنى على ست وهي سائر الحشرات ومنها النمل ، والشعراء سمى بها ليأفت نظر المسلمين إلى الشعر وأنه وسيلة لا تتبجج وهو ظل غير ظليل من استظل به هلك . والعنكبوت تذكرة بالحيوانات العنكبوتية ذات الأرجل الثمانية ، والروم ليذكر للمسلمين بهم فاتهم أعداؤهم إلى يوم القيامة فليحترسوا منهم . ولقمان لإذاعة الحكمة بين الأمم بغض النظر عن أقدارهم وأنسابهم والسجدة لتعليم العبد كيف يقرب من ربه ، والأحزاب ليصرف الانسان أن الأحزاب إذا تألبوا على محض نصره الله . وسورة سبأ تذكرة للأمة العربية بسابق مجد سبأ وأنهم كانت لهم دولة ولكنها رجعت القهقري بإهمالها . فمن العار على أمة الإسلام أن لا يكون مجدها كأمة جاهلية هنالك ، ولتذكير الناس بسد العرم والمدينة العظيمة ليبنوا كما كانت تبني أوائلهم ، انتهى الكلام في أسماء بعض السور في الربع الثالث من القرآن .

(الكلام على ذكر لقمان خاصة)

لقد تبين لك فوائد أسماء السور في العلم . ولما كانت السورة التي نحن بصدددها هي (لقمان) أحببت أن أخصها بالبحث فأقول :

لقد اطلعت على نعم الله التي أسبغها علينا ظاهرا فيما تقدم وقد وعدتكم أن أذكر شيئا من النعم الباطنة هنا وهأنذا منجز الوعد فأقول :

إذا كانت النعم الظاهرة قد اتصلت من مبدأ الأجسام الإنسانية في داخلنا وأدهشنا كثرتها ثم إنها امتدت في الخارج إلى كل ما حولنا حتى وصلت إلى مالا تدركه أبصارنا وعقولنا من عوالم متتالية متتابعة متواصلة ممتدة إلى عالم أرقى وأرقى ، فهكذا النعم الباطنة فهي تبتدىء من داخل نفوسنا فتري عقولا مشرقة ونفوسا صافية وللعقول حواس ظاهرة وحواس باطنة والنوعان يستنتج منهما علوم ومعارف تشمل العالم القدي تقدم ذكره في العجائب الظاهرة ، وليس المقام مقام الإطناب في العلوم فني هذا التفسير ما يكفيك إذا رجعت إلى ماضي ولكن المقام مقام أن الآية ذكر فيها النعم الظاهرة وقد قرنت بالنعم الباطنة بعد أن ذكرت العجائب السماوية والأرضية وذكر لقمان ، فلقمان يشار به للنعم الباطنة وههنا بيت القصيد فلننظر في الأمر ونقول :

عرفت قصص لقمان وعرفت أنه قد فتح الله عليه بالأمثال على لسان الحيوان وقرأت بعد هذا وأنا الآن أزيدك فأقول : كم من قارىء للقرآن يمر على هذه السورة مر التسميم على المشيم . كم من قارىء يقرأ القرآن وهو غافل ناظم جاهل . ذكر الله لقمان وذكر أنه آتاه الحكمة . فأى حكمة ؟ هي حكمة الأمثال على ألسنة الحيوان وإلام ترى تلك الأمثال ؟ ترى للأخلاق ، للمعاشرة ، للسياسة لنظام الدولة ، للجد ، للاجتهاد

لطلب العلم : للاحتراس من الماكرين ، وهكذا . ذلك ما رمى إليه تلك الأمثال . إذن القرآن يحضنا على
حكمة لقمان وهو كما عرفت مجهول الأصل ، مجهول الحال ، أنبي هو أم حكيم ؟ على خلاف بين الناس ،
وحكمته راجعة لحسن السلوك ولكن ليس هذا كل النعم الباطنة المذكورة في الآية بل هذه بعضها . إذن تقول :
لقد تقدم قبل هذا ذكر العنكبوت وذكر النمل تسمية ودراسة في نفس السورة . ذكر الله الحيوان
والنبات في أكثر السور السابقة تكرارا كما قدمناه وقد منا أن ذلك لمعرفة علومها وللاستفاد بها . فالاستفاد .
كأفان الله تعالى « والحيل والبغال والحمير انزكبوها » وأمامها فواضحة من كثير من الآيات كقوله تعالى
« قل انظر ماذا في السموات » وكقوله « أولم يتفكروا » الخ وأمثال ذلك . فإذن الحيوان يعرف إما
للتفكير في علومه . وهذا من علم الطبيعة وإما لمناعمه وهذا فيها أيضا مع مشاركة الجهال في بعض تلك
النافع . وإما بضرب الأمثال بها كما في أمثال لقمان . فسبحانك اللهم . أتزت الحكمة على قلب لقمان والهمته
أمثال الحيوانات لتعلمنا السير في الحياة ونفس هذه الحيوانات متع لأجسامنا ولأغذيتنا ولحلمنا وهي هي غذاء
لعقولنا ونمو لثروتنا وارتقاء لمدينتنا . فالحيوان :

(١) مثال تفقهه عقول الحكماء لأخلاقنا .

(٢) ومنفعة للغذاء والحل والعاش .

(٣) ورقى للعقول بعلوم الطبيعة .

إذن في الحيوان (ثلاث خصال) اثنتان منها عرفت قبل سورة لقمان واثالثة بسورة لقمان . بهذه
يوصي الله الأمة الإسلامية قائلا [آتيت لقمان الحكمة والحكمة مستخرجة من الخلقوات التي أمامكم]
فالدينا كأنها لوح وصور الحيوانات حروف وكلمات ولا يعقل ذلك إلا الحكماء . وهم هم الذين يشكرون الله فإن
شكر الله بمعرفة عمله وقبول صنعه .

هذا هو الذي تفيد قصة لقمان ولذلك سميت السورة باسم لقمان تنويها إلى ما ذكرناه وتبييننا لما
الدهر طواه .

وعلى ذلك يكون السلمون مقصرين في ترك العلوم وحكمة الحكماء ، إر هذا كلام الله وهو الذي يؤتى
الحكمة من يشاء وقد شوقنا إلى الحكمة وقال « ولقد آتينا لقمان الحكمة » إن الله لم يقف باب الحكمة
إنه فتحه على مصراعيه ، إنه هو الذي علم لقمان ويعلم السلم ويشوق السلم إلى قراءة الحكمة ، فكما
حكمة قرأتها فتعلم أن الله شوقك إليها وهو الذي ألهم فائلها على شريطة أن تكون صادقة لاتناق العقل
ولا الدين . وحسن بك إذا قرأت في أمثال (لقمان) حكاية الغراب والتماب وأن التعلب أخذ يتعلق للغراب
وأخذ منه غذاءه :

فاعتبر الغراب من ذى النوبه وتاب ولكن لات حين نوبه

أو قرأت حكاية السكب والذئب وقول الذئب للسكب الذي بذله صاحبه :

وبالغنى لم بك لى اقتتان مادام فيه الذل والهوان

أو قرأت حكاية الجدوى والتمعة والمجلة والسبع إذ استبذ بالجميع وأخذ الغزاة التي لم يصددها هو فكان
هذا المثل :

فاجتنبوا السلطان عند الشركه فليس فيها للتشريك بركة

أو حكاية الذئب والحروف إذا ادعى الأول عليه دعاوى كاذبة ثم أكله بالقوة :

وقل لأهل العقل والفنوه أحسن ما احتج القى بالقوه
 أو حكاية الذئب والبطة إذ أغاتته وطلبت الأجر فقال احمدى الله على السلامة :
 وأدرصت حقائق المعانى والشهد ليس من فم الثعبان
 أو حكاية السبع والحمار إذ نهق الحمار فخافت الحيوانات فاقترسها السبع ثم قال للحمار محتررا له :
 جنسك معروف بغير قافية كثير صوت وقليل العافية
 أو حكاية الحصان والذئب وقد أراد الذئب أكل الحصان مدعيا علم الطب فرفسه الحصان وهو يعالج رجله
 وهكذا فى الناس كل من بدأ بالحيت لا يخرج إلا نكدا
 أو حكاية (الثعلب والغيب) وأنه أراد أكله فلم يستطع لارتفاعه عنه فأخذ يذم الغيب بعد اليأس منه
 فقال القطف :

طول لسان فى الهوى وقصر فى الذئب
 أو حكاية الطاوس إذ أراد تقايد الببل فى صوته ، فقال صاحبه كفاك ما زينت به ولكل طير نعمة
 خاصة به ثم تنف ريشه وجرده لعدم عفته، وهكذا القى بحسد الفقير على أى نعمة .
 تلك عيون جفنها خراب وإنما يماؤها التراب
 أو حكاية الغراب للقلد للنسر إذ هجم على كبش فأخذه الراعى بيده هو وأولاده .
 وقصها على قلت سيدى ما أضيع البرهان للقلد
 هذه بعض الحكايات التى نقلت عن لقمان عليه السلام .

﴿ جوهرة فى أن الكلام على ذى القرنين يشبه بعض المشابهة الكلام على لقمان ﴾

ارجع إلى ما تقدم فى (سورة الكهف) عند الكلام على ذى القرنين فقد ذكرت لك هناك أن الحضر
 عليه السلام لما أقام جدار العلامين اليقبيين ولم يأخذ أجرا يشبه ذا القرنين لما أقام السد ولم يأخذ من الذين
 طلبوا ببناءه خرجا وإنما قبل منهم الاعانة بالقوة وحدها لا بالمال وأبنت لك أن هاتين القصتين إنما نزلنا للأمم
 الإسلامية لتتدى بهما ففساعد المحتاجين من الأمة ولا تأخذ أجرا منهم كما فعل الحضر ونساعد الأمم بما
 إذا كنا ملوكا ولا تأخذ من تلك الأمم أجرا . وملخص هاتين القصتين أن نسكفل الأفراد ونسكفل الأمم
 قدرنا وتتغف عن المال ما استطعنا . هذا ما ترى إليه القصتان . هذا ملخص ما ذكرته هناك .

وقد ذكرت فى غير ما موضع أن القرآن لا يجعل حقائق التاريخ هى المقصودة بل يعمد إلى المقاصد
 والتأنيج ويشير لذلك قوله تعالى «سيقولون ثلاثة راجعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب الخ»
 ونرى القرآن لم يبين العدد حرصا على المقصود من التنزيل وهى (الموعظة الحسنة) وما عدا ذلك فهو كالتفسير
 فلندعه ونصل إلى الباب . هذا ما يؤخذ مما ذكرته هناك . وذكرت فى الكلام على ذى القرنين قولنا مطولا
 فى تعيين الأمة التى نسب إليها هى أمة اليونان أم أمة العجم ؟ وهناك حلت أسماء الأمتين بقدر الامكان فوجدت
 أن ذى القرنين واضح فى العجم وهناك (أدواء) كثيرون فى نظم واضح هناك ثبت أن (ذا القرنين) من العجم
 ولكنه مبهم لم يبين ، وإنما لم يبين للحكمة للتقدمة إذ أننا لانهم بذاته نفسه وإنما نهم بنعته الذى تشبهه
 به . ولا جرم أن صفته القرآنية هى الأخلاق العربية التى نزل القرآن موافقا لأجسامها ، منابذا لسفاسفها ، فالعرب
 فى البداية مقطورون على إعانة الضعيف والتجاوز عن الأجر فى مقابلة المعروف ، وهذه صفات شريفة أتيتها
 القرآن وأبقاها . وهذه الصفات لا تتوقف على أن تعرف عين الذى انصف بها أهو يعنى أم هو يونانى ؟
 وإذا كان عنيا فأى الأدواء هو ؟ كل ذلك لا يهتم به التنزيل كما علمت .

هذا ملخص ما تقدم وهو موافق لأمر قصاص سواء بسواء ، طمأن قد ادعته غير أمة والقرآن ترك الأمر ولم يبين من أي الأمم هو كما لم يبين ذا القرنين .

هذا ما كنت وصلت إليه في (سورة الكهف) وكتبته هناك . أفلا تسمع اليوم ما نصح الله به وأنتم علينا فلمصرى لم يكن ليخجل لي إذ ذلك أن أطلع في موضوع ذي القرنين على بيان أبيه وكال أجل وحكمة أرفع وسعادة أم وبهاء أوفى ونور باهر وعلم ساحر وزهر عاطر .

كيف لا وقد عثرت في كتاب (الأدب والدين عند قدماء المصريين) للؤلف حديثاً في زماننا أن قدماء المصريين اتخذوا القرنين رمزاً لهم في أعلامهم على شكل قرني الكباش بلون لامع ووضعوا رسم القرنين على رأس الميوب (أمون رع) لأنهم رأوا أن الكباش كثير التناسل والبركة وقد لقبوا بهذا اللقب ملوكهم لأنهم من نسل ذلك للعبود في عرفهم وهاك نص ماجاء فيه :

(القرنان)

أخذ المصريون القدماء رمزاً لهم في أعلامهم على شكل قرني الكباش بلون لامع ووضعوا رسم القرنين على رأس للعبود (أمون رع) .

(استطراد)

بمناسبة ذكر القرن رأينا أن نستطردهنا بذكر اللغات الكثيرة التي وضعها اللغة العربية للفظ (قرن) خصوصاً أنها مستعملة الآن في معان عدة يحتاج إليها الإنسان أحياناً كثيرة نذكر منها ما هو متداول استعماله فقول (القرن) معناه في اللغة العربية العظم النابت في أعلى رؤوس كثيرة من الحيوانات الوحشية وللأسنة كالقرو والقرن ووجهه قرون ، والحيوان المعروف بالسكر كدن (وحيد القرن) لأن له قرناً واحداً في مقدم رأسه ينطح به الفيل فيشق . ومن العجيب أنه مخالف لسائر الحيوانات لأن له مع القرن حوافر مع أن القرن والحافر لا يجتمعان في غيره . والقرن أيضاً ضفيرة شعر الرأس ومنه قولهم (له قرون طويلة) والقرن الحصلة من الشعر وإن لم تكن مضمورة . وقرن الجبل أعلاه . وقرن السيف حده . وقرن القوم سيدم . وقرن الشمس حاجبها وقد قيل ما يبدو منها عند طلوعها . القرن مائة سنة ومنه قول المؤرخين القرن التاسع أو العاشر مثلاً وكقولهم كان فلان في قرن فلان أي في عصره ومدته . القرن الليل (الرواد) الذي يكنحل به وهو أيضاً اسم جبل مشرف على عرفات . وقرن النوى طرفه . وقالوا قرني الأرض أي مشرقها ومغربها . وعلل بعضهم تسمية (إسكندر بن فيليب المقدوني) بذي القرنين أي صاحب قرني الأرض بمعنى مشرقها ومغربها ؛ ولكن الصحيح أن السبب في تسميته بذلك أن قدماء المصريين كانوا قد وضعوا في رأس للعبود أمون قرني كباش كما تقدم لأنهم رأوا الكباش كثير التناسل والبركة ، ولا تزال صورة هذا للعبود موجودة على هذا الشكل بالمتحف المصري بالطبقة السفلى وسط الطريقة الشرقية ، ولما كان عصر الملك (تانتوت أمن) من الأسرة الخامسة والعشرين لقب نفسه بالسيد ذي القرنين (نب أبوي) جرياً على مبدئهم من أن الملوك من سلالة هذا للعبود وهم أحق بأن يتخذوا شعاره ، ثم لما استولى (إسكندر المقدوني) على مصر ورأى أنه قد آل إليه ملك هؤلاء الفراعنة أخذ هذا اللقب عنهم ليثبت به نفسه أمامهم في عقائدهم وشعارهم) ٥١ .

وأنا أحمد الله حمداً يوافي نعمه ويكافي مزيده ، لا أحصى ثناء عليك ، أمت كما أئنت على نفسك اللهم إني أحمدك على نعمة العلم ونعمة التوفيق ، سبحانه اللهم وقتت وعلت فإني كتبت ما تقدم في (سورة الكهف)

بطريق الاستنتاج . فلما قرأت ما تلوته عليك الآن وجدت أن ذا القرنين مبدؤه مصر ، ومصر قرية من اليمن وأهل اليمن سموا بالأدواء ، ومن الأدواء ذوا القرنين كما تقدم هناك ، ثم جاء إسكندر للقدوني فسمع بلدى القرنين فسمى نفسه به . إذن أصبح (ذو القرنين) لا يختص باليونان ولا باليمن ولا بمصر . فقوله تعالى (وسألونك عن ذي القرنين) وإجابته تعالى بقوله (قل سأتلوا عليكم منه ذكرا) يشير إلى ما قلنا فإنه قال (سأتلوا عليكم منه ذكرا) فأنا لا أدون حوادث التاريخ التي تحوم حول كل من سمى بهذا الاسم بل أتلوا عليكم ما يكون ذكرا لكم وحكمة وعلما لأن القرآن لهذا أزل أما التاريخ فقير مقصود لذاته ولا قائمة في تحقيقه ولا غرض في تفصيله . وإنما أذكر لكم صفات السكالك والجمال التي انصفت بها (وذو القرنين) سواء أكان باليمن أم بمصر أم باليونان فتعيينه لا يفيد . وعلى هذا ربما كان (ذو القرنين) المذكور في القرآن من قدماء المصريين وربما كان من أهل اليمن فأما كونه من اليونان فلا لأننا قدمنا أن تاريخ الإسكندر ليس فيه تلك الفضائل التي ذكرها القرآن . وإنما كتبت هذا هنا لمناسبة ذي القرنين لقمان . وقد جاء ذكرها معا في كتب التوحيد كما قيل :

وذو القرنين لم يعرف نبيا كذا لقمان فأحذر من جدال

هذا ما أردته في هذا اللقمان واقف أعلم . أقول إذا قرأت ذلك كله فقل سبحانك اللهم سبحانك ، أنت الذي خلقت الروح وخلقنا الطيور ، أنت يا الله خلقت القلوب وأنت الذي ألهمتها أن تصور الحكمة من صور الطيور ، إنك يا الله قد علمتنا في القرآن أن للقلوب لاجبي وأكثر سور القرآن مشحونة بنم للقلوبين . مشحونة بالمعانيدين والجاهلدين الذين يفتنون ولا يفكرون . وأنت يا الله الذي ألهمت عبادك هذه الصورة الحكيمية التي توافق كتابك وفيها إنباش للنفوس وإحياء للقلوب أنت الذي آرت القرآن لعلنا الحكمة والقرآن أشار إلى ما صنعتهم لقرأه ونعمهم والقرآن فتح لنا الباب وقال ادخلوا فمن سمع القرآن وعقله دخل الباب واحتمل الحكمة ومن لم يدخل ولم يفهم وقف وقال كفاني التزم بألفاظ القرآن . لك يا الله الحقول والحيوان ولك الإنجيل والقرآن ولك قلوب نوع الإنسان وأنت دلتنا بالقرآن على الروح وعلى الحيوان وعلى ما أنتجته العقول فتحت لنا الطرق ولكن الجهال أفلوها أمام السدين . أنا موم طويلا . لا ، بل كقوم ردفوم في الحدود وأوقفوا أو با على ما يرم ليحرسوها خيفة أن يرجع أحدهم لكونه دفن خطأ في لحده فعلوا ذلك وهم لا يشعرون وقد آن أوان مجدم وأيام سعدم وسيكون فهم مرشدون صالحون وحكام محققون وعلماء نابغون .

ولما اطلع على هذا صاحب العالم الذي اعتاد أن يناقشني في الأمور الهامة في هذا التفسير قال لقد أحسنت فيما كتبت من حكم لقمان ومن أمر ذي القرنين وبهما تشابه أو اسكن الآن أريد أن تذكر عشر حكم أخرى منظومة من الكتاب المتقدم ذكره لتسكون تمكئة للقارئين وموعظة للمؤمنين فقلت نعم سأذكر لك (عشر مواعد) كما قلت وهاك بيانها :

(الحكمة الأولى في الحمار حامل للحم والحمار حامل السفنج)

حمار بولاق له حمير وفي البلاد شغلته كثير
حمل جحشا حمل ملح قاسي وكان لا يرى ولا يواسي
وحمل الآخر بالسفنج وقال سبحان الإله المنحي
حامل السفنج صار يسي وحامل الملح التيق قطعا
وعين أقبلا على المعادي ونزلا للآء يطن الوادي

امتلاء السفنج صار متفلا وللح حين فاب خف عملا
 قنطس الحامل للسفنج كمنطسة البذرة في النارنج
 ولقت الماء عليه بالكسا ففارق الدنيا وعاف النفا
 وطلع للراح وهو ينوق وهكذا رب أسير يتوق
 فاحضر على أهوالها ولاضجر فربما فاز الفنى إذا صبر
 وربما جاءك بعد الياس روح بلا سكند ولا التماس

﴿ الحكمة الثانية في شجرة البلوط والسنبلة ﴾

حكاية عن شجر البلوط نقلها عن شيخنا السيوطي
 قال إلى سنبلة من فول ليتك في العلو تحكي طولى
 ليتك لو غرست تحت رجلى وكنت فارغت الحمى من أحلى
 وكنت في أمن من العواصف قالت له مامسى من تلف
 إنى إن كنت تحيف القامة وفي الهوى لأملك استقامة
 فإن ما عندى من اللدونه وقت الرياح يوجب اللرونه
 وأتى تهبها على أمثالى وبالرياح فقط لا أبلى
 وبيننا الاثنان فى تنازع إذ نضجت منافع الزراع
 واغرت الأفانق والبطاح وجلجلت في الشجر الرياح
 وقد أصابت قامة البلوط ونزلت به إلى الهبوط
 وسنبل القول يعيل تارزه ويتنى أخرى مع الإمارة
 ولم يصبه من أذى ولا ضرر وربما كان الهلاك في الكبر

﴿ الحكمة الثالثة في البقلة ﴾

حكاية وقعت في سالف الأمم عن بقلة خدمت شابندر العجم
 وغرها الرز والإقبال فارفعت فى رنية لهجد والأنساب والشيم
 باطلما ذكرت أن أمها فرس قد ألبستها للوالى أشرف العجم
 وأنها ذكرت من قبل فى كتب وضمها صاحب التاريخ بالقلم
 وبعد ما خدمت توما الحكيم رأت ذادونها فبدت تشكوم من الخدم
 وحين شابت وفى الطاحون قد دخلت

وأصبحت شجعا فى حيز العدم
 والذل أورثها ضعفا وألبسها حلل الجراح على ثوب من الورم
 قد فكرت فى الحمار النحر والدها وحققت نسا عنه من القدم
 وسلت ليلالى عند شدتها إن الشدائد لا تبقى على الشمم

﴿ الحكمة الرابعة فى الضفادع وزواج الشمس ﴾

صمت عن لقمان أنه حكى وبالذى رواه قد تمسكا
 وقال بن الشمس يوما قالت نفسى إلى حب الزواج مالت

فخرجت تشكولها الضمادع وهي تقول كيف بصدنع
 أما إذا هاجز جوك أهلك ثم دنا في الجو منك بملك
 لا بد من أن تلهي قموما وتحرق الضفدع والجاموسا
 إنك في جو السما وحيدة وعن بحار أرضنا بيصدة
 ومع هذا فاللظى لا يغنى فكيف ذالو تلهين ألما
 تنشفين البحر والأنهارا وتحرقين الليل والنهارا
 أسألك اللهم لا تضدر وأنت يا لقمان لا تنفر
 فالشمس كالظالم إن زوجها أنتج ألفا مثله وأخرجا

﴿ الحكمة الخامسة ﴾

(حكاية الكلب الذي ترك الرغبة واتبع خياله)

كلب على التهر رأى رغيفا فجاءه من جوعه ملهوقا
 ونزل اللآه وصار يسبح وفي الهوا على الكلاب ينبع
 ومذدنا منته رأى خياله فترك الرغبة جهلا ياله
 واتبع الخيال وهو الجاني ظنا بأنه رغبة ثاني
 فكبر التهر وثار اللوج ومن يد الكلب ثلاثي الزوج
 واضطر للرجوع والنجاة محبة في طلب الحياة
 وازداد من غروره ضلالا لا حصل العين ولا الخيالا
 ومثله بين الوري كثير من شأنهم في العيشة الغرور
 ما حصلوا بالجهل في أي زمن لاعب الشام ولا كرم العين

﴿ الحكمة السادسة في الشيخ وحمارة ﴾

شيخ له جحش ومر في الخلا به على روض تجلى وأنجلي
 أطلقه في الروض حتى يرعى من الحشيش ولديذ للرعى
 فانشرح الجحش به وقمصا وفي الهوا برجله قد رفضا
 وبينما الجحش به يدب إذ جاء من بطن القياي دب
 عاينه الشيخ فراح يمشي وقال قم واجر بنا يا جحشي
 قال له الجحش ولم قال الهدو من يلقه فشمه مبسدا
 فضب الجحش بلا تاني وقال قم يا ابن الكرام عني
 فالموت لا يكون إلا مرة وللموت خير من حياة مرة

﴿ الحكمة السابعة : حكاية الرجل والبرغوث ﴾

حلل من الرجال يستغيث في فرشه يأكله برغوث
 فهم يشكو بصياح عالي وهو ينادي سيد اللوالى
 يتحول بل من خلق الربيه بعونك ارفع هذه البليه

وأنت يا أستاذ يا شيخ العرب خذ أسير في الحديد والحشب
ويا عفي من أذى البرغوث خذ عني الكرب وكن مغني
قالت له زوجته ما نابك ومن أذى البرغوث ما أصابك
امسك بين الأصبعين باليد وانظر به لا تستث بأحد
عجائب عجائب عجائب إنك والله العظيم خائب
مثلك في الناس كثير العدد في كل حلة وكل بلد
من طبعهم وأبهم حب الكسل

أنيك عن أخلاقهم إذا تسل
في أي عارض صغير زائل رجون في تصرفه كل ولى
إن العظيم يدفع العظيما كما الجسم يحصل الجسبا

﴿ الحكمة الثامنة : حكاية الثعبان والمبرد ﴾

حكاية الثعبان ذي حكاية قد بلغت من حسنها النهاية
أذكره إذ مر وهو آتي بمبرد لرجل ساعتي
وكان جوعانا فرام يقرضه فلا تعفه فهلسنا غرضه
قال له للمبرد يا ثعبان ما تبغني قال أنا جوعان
قال له كل إن يطعمك نابك والله قد شرفني جنابك
فإنما تأخذ من مماطى ما يأخذ الريح من البلاط

﴿ الحكمة التاسعة : حكاية الديك الحصى والصقر ﴾

حكاية إن تستمعها ترقص

عما جرى للصقر والديك الحصى
الديك يوما فر فوق السطح خوفا من الطباخ وقت الصبح
ووقت تطلبه الصغار وهو بخوف ماله قرار
حق لقد غرره بالصقر وأصموه صيحة الطيور
ومع هذا لم يسلم أبدا ولم يقرب بل نأى وأبعدا
فجاء الصقر وقال هل صمم في أذنيك أيها الديك الأصم
كم ذا بنادون وأنت غافل إنك يا حقل الدجاج جاهل
وإننا يا معشر الصقور أعقل ما جد في الطيور
نسطاد في البر وبعد نرجع وإن تناديننا الرجال نسمع
قال له الديك كذاك أسمع وبدل الأذنين عندي أربع
لكن تأمل وانظر للنادي فانه من أعظم الأعدى
هذا هو الطباخ يا ابن ودي برغب في ذبى وأكل كبدى
إنك لا تؤخذ مثل للشوا دع عنك تخفى وذوق طم الهوى

﴿ الحكمة العاشرة : في حكاية السكبين وجيفة الحمار ﴾

كلبان كانا عند شط النهر فاسمع حديثا لهما بالشعر
 قد نظرا رمة جهش عاقه بالماء والطير عليها جائمه
 وأخذت تبعدها الريح فقال كلب منهما نباح
 تعرف ماذا في اللباه فصنع شربها والجهش بعد بطاح
 قال له أخوه يا حبيبي صدقت ليس ذلك بالعجيب
 وإن شربناه بتلك الهمة ينتف هذا البحر تحت الرمة
 وزلا في البحر شربا شربا طورا بلعق ثم طورا عبا
 حتى استلا كلاهما وانكبسا وفارقا الدنيا وعافا النفسا
 وقد رأيت في الرجال مثل ذا

من مبه الطيش فأورث الأذى
 يطلب نيل المجد والقغار ورأه قدر من القغار
 لا عقل فيها بل بها مأمول يطمع فيه وهو مستحيل
 فبئس العادة فاحذرها كثرة وقس بما رأيت مالم تره

فقال صاحبي . إن هذه الحكمة عجيبة . فهل من مزيد ؟ فقلت كفي من القلادة ما أحاط بالعنق ، ومن لم ينتفع بالقليل لم يفده الكثير . فقال ولكني أريد أن تبحث في حكم لقمان عن بعض الحكم التي مرت في (سورة الروم) وهي قوله تعالى لا ظفر النساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس الخ فإنك هناك ذكرت أن أعمال الناس وحريهم وظلمهم أنتج هذه السائب في الأرض كالطاعون والحصباء الخ فهل في كلام لقمان ما يشير لذلك . فقلت نعم وذلك في الحكاية الآتية وهي :

﴿ حكاية الصياد والطائرة ﴾

قد نسب الصياد بالنبال طائرة كانت بسطح عالي
 فوقت لوقتها وصاحت وسكبت دموعها وناحت
 ونظرت السهم وهو فيها وأخذت تعضه بنفها
 وهي تقول كيف يا ابن آدم أكون عونالك في سفك دمي
 سهك قد أرشت من جناحي

وحكيف أنخت به جراحي
 ماذا فعلت يا غي فيكا حتى أذوق الموت من يدك
 لكن ربي ذو انتقام أبدا لم ينج قط من يديه أحدا
 أقاسم أعداء فوق الأرض

وبعضكم يسمى لقتل بعض
 وكل باغ شأنه التمدى فهو إذا لواقع من بعدى

فأبغى داء مائه دواء ليس للملك معه بقاء
وليس من عقل الفق وكرمه
إفساد شخص كامل لقرمه

فما سمع هذه الحكاية قال إذن هذا تحريم للحلال ، هل يحرم الصيد ؟ قتل هذا ضرب مثل والأمثال
تراد غاياتها لا مانع منها ؛ فقال لقد ازدادت دهشني من هذه الأمثال . قتلته اقرأ قوله تعالى « تلك
يؤتهم خاوية بما ظفروا » فهذا عين التل وهذا هو قوله تعالى « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا
العلم » ولقد رأيت كثيرا من هذه الحكم في كتب الأوربيين . فقال حسن وكفى هذا . قتلته الحمد لله
رب العالمين .

(كتاب كلية ودمنة)

ومن هذا القبيل كتاب [كلية ودمنة] انتهى إليه الحكيم (بيدبا) الفيلسوف للملك الهند للسي
(ديشليم) إنه ينحو منحى كتاب لقمان ، إنه يصوغ الحكمة على لسان الحيوان ، فإذا قال الله (ولقد آتينا
لقمان الحكمة) فليس معناه أنه لم يعط الحكمة لسواه . كلا ، ثم كلا ، إنه قال (يؤتى الحكمة من يشاء
ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) إن الله لم يمنح لقمان بالحكمة ، بل إنه جعلها في أناس اختارهم
هو من أمم شتى ومنهم (بيدبا) المذكور ، إن الله لم يعط الحكمة للأمم السابقة وللساد الأول من أممنا الإسلامية
ويحرم للمسلمين اليوم منها . كلا . ثم . كلا . إن الله خلقنا وهو الذي خلق الحيوان والنبات والعقول والهيا
الحكمة وعقولنا مستعدة لها . فلما أن قرأ ما أجراه على قلوب الحكماء من الأمم والحكماء من الإسلام ليكون
في الأمة حكما في مستقبل الزمان وهذا الذي سيكون . إنه لا فرق بين حيوان في القفر ونبات في المرج وعقل
في الإنسان ، إن الله شوقنا إلى دراسة كل هذا . لماذا ؟ ليكون فينا نابغون وهو لا يعطى الحكمة إلا لمن هو
أهل لها ولا أهل لها إلا من قبلها واستعد لها والاستعداد من أهم للزُهلات له قراءة الكتب ونظر العالم
ودراسة عقول السابقين واللاحقين . فإذا قرأ المسلم (باب الأسد والثور) من ذلك الكتاب عرف سر
السياسة وكيف يكون القدر وكيف يحتمل للفتاب على الإفساد بين الأصحاب والايقاع بالشر بينهم وكيف أمكن
دمنة أن يوغر قلب الأسد من الثور ويهلكه وكيف ظهر الأمر بمددك وشهد الشهود على (دمنة) أنه غدار
وأن الثور لم يذنب لحكم عليه القضاة بالقتل فقتله الأسد .

وإذا قرأت (الحمامة المطوقة) عرفت كيف يتحد المختلفون في الطباع والأخلاق والأحوال ، وكيف
يكون الاتحاد سبب نجاحهم ، وكيف أتحدت الحمامات للفتقات النوع على التخلص من الهلاك فتجنن .
وإذا قرأت (باب اليوم والغربان) عرفت كيف تكون حيلة المتخالفين من أهل السياسة وأن تملق العدو
لا ينبغي أن يقر به وإن أظهر تضربا وملقا ، وكيف مكر الغراب بجماعة اليوم فهلكت .

وإذا قرأ الإنسان (باب القرد والفيل) عرف مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها فإن
الفيل طلب من القرد قلبه بإشارة زوجته فاحتال القرد عليه وخدعه ثم فر وتمت حيلته وندم الفيل .
وإذا قرأ (باب الناسك وابن عرس) عرف مثل الرجل العجولان في أمره من غير روية ولا نظر في المواقف
وكيف قتل الناسك ابن عرس الذي نجى ولده من الحية وهو مخضب الفم بالدم فظن أنه قتل ابنه ، فلما علم
أن ابنه حي وأن ابن عرس هو الذي نجاه بقتل الثعبان ندم .

وإذا قرأ (باب ابن الملك والطارئ فزرة) وأن ابن الملك قتل ابن الطائر المذكور لما زرق في حجرة فجاء
الطارئ (فزرة) ففقا عين ابن الملك ثم طلب الملك من الطائر المذكور أن يصاحبه ثانيا فأفهمه الطائر أن ذلك
مستحيل لأن الأعداء الذين بينهم (ترات) يجب أن يتقى بعضهم بعضا .

وهكذا أبواب أكركاب الأسد وابن آوى وباب اللبوة والأسوار والشهر وباب الناسك والضيف وباب
السلخ والصائغ وباب ابن الملك وأصحابه ، فهذه جملة أبواب الكتاب إذا قرأها السلم فإنما قرأ حكمة الحكماء
وليس من حكمتهم بل هي حكمة آتاموها الله كما أن النبات لله والحيوان لله وقال تعالى « وأنفقوا مما رزقناكم »
فكما أن اللال من عند الله فالحكمة من عند الله ونحن عباده ، والله تعالى يقول « قل من حرم زينة الله التي
أخرج لعباده والطيبات من الرزق » فهل يبيع الله لنا الزينة والطيبات من الرزق ويحرم علينا العلم والحكمة
أحل الله لنا الرزق والزينة ، بل أحل لنا غنائم الأمم إذا حاربناهم حرباً شرعياً أن نأخذ ما لهم ، فهل يبيع
لنا ذلك ويحرم علينا اجتناء علومهم وحكمتهم ؟ كلا كلا . بل الله سبحانه وتعالى طاعة يهدنا في متاع الدنيا
ويرغبنا في زاد الآخرة ، وزاد الآخرة لا يكون إلا بالعلم والعمل تابع له .

فمن يعلم تعش حيا به أبداً الناس موتى وأهل العلم أحياء
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

(حكمة قدماء المصريين)

وهل أتاك نبأ حكمة قدماء المصريين . إن هؤلاء قد ظهرت حكمتهم في هذه الأيام وقد فتحت كنوز
وظهرت رموز وأثيرت من القبور عجائب وصناعات ، وكذلك ظهرت كتابات على الأحجار وفي ورق
البردي ، قد قصدها الناس من كل فج عميق كما استبان في (سورة البقرة) عند قوله تعالى (إن في خلق السموات
والأرض ، والكلام على قوله (محبوبهم كحب الله) فترى اليوم أهل أوروبا وأمريكا يقصدون بلادنا
من كل فج عميق ليشهدوا حكاما يقرءونها وهالك منها (فصلين : أحدهما) ماجاء في جرائدنا المصرية يوم
الجمعة (٩) فبراير سنة ١٩٢٣ م تحت العنوان التالي مانصه .

(أقدم كتاب في العالم)

منذ (٥٥٠٠) سنة عثر أحد الفلاحين على أوراق بردية وهو يحفر مقبرة بناحية (زراع أبي النجا بطيبة)
فباعها للعالم الأثري الفرنسي (بريش دافين) الذي أذاعها سنة (١٨٤٧) ثم قدمها هدية لدار الكتب الأهلية
بباريس لذلك اشتهرت بورقة (بريش البردية) وهي أقدم كتاب في العالم لأنها كتبت منذ (٥٥٠٠ سنة)
وقد كانت كتب الأولين كلها من هذا النوع وهي تشتمل على ١٨ صحيفة مكتوبة بالحظ الهراطيقى بالحبر الأحمر
والأسود متضمنة نصائح ومواعظ وحكا وضمها (رجلان : الأول) يدعى (فأفة) وهو وزير الملك حوني من
الأسرة الثالثة (والثاني) يدعى فتاح حنب وهو وزير الملك أسي من الأسرة الخامسة ، كتبها وله من العمر
(١١٠) سنوات ، اقتبسها من السلف وجعلها موعظة للخلف ، ولذا قال لابنه : إذا سمعت هذه الحكم
السامية عمرت طويلاً وبلغت أوج السكال وتدرجت إلى معالي الملا والمجد (ثم اعتنى بترجمتها من اللغة المصرية
القديمة إلى الفرنسية العالمان شاباس ديفرى وباللاتينية العالم لوث وبالألمانية العلامة بروكش باشا وبالإنجليزية
الأثري (لسترجن) ومن هؤلاء نقلت إلى العربية) .

ولأهمية هذه النصائح الدرية اعتنى بها الإنكليز اعتناء عظيماً حتى قرروها في برنامج الدراسة للأطفال
فأكتبها البيادى الشريفة التي أشربتها قلوبهم في الصغر فسادوا العالم وقادوا الأمم وذلك بفضل اتباعهم
مناهج أجدادنا العظام التي دونوها لنا وكنزوها لأجلنا فكان نفعنا لغيرنا . وباجتدائها لاهتدينا إليها واقتدينا
بها فنحن أحق بها وهذا بيانها :

(نصائح فلما الحكيم للصري القديم)

- (١) اسلك طريق الاستقامة لكلا ينزل عليك غضب الله .
- (٢) احذر أن تكون عبدا في الخصام فتستوجب عقاب الله .
- (٣) الابن الذي ينكر الجليل يحزن ولديه .
- (٤) متى كان الإنسان خبيرا بأحوال الدنيا سهل عليه قيادة ذريته .
- (٥) إن قليل الأدب ليلد ومذموم .
- (٦) إذا دعيت إلى وليمة وقدم لك من أطيب الطعام الذي تشربه فلا تبادر إلى تناوله لكلا يعتبرك الناس شرها ، واعلم أن جرعة ماء تروى الظمأ ولقمة خبز تغدى الجسم .
- (٧) احفظ هذه النصائح واعمل بها تكن سعيدا ومحموذا بين الناس .

(أمثال «فلاح حنب» الحكيم للصري القديم)

- (١) إن التعرف بأعظم الناس نعمة من نعمات الله .
- (٢) لانوقع الفزع في قلوب البشر لكلا يضربك الرب بعصا انتقامه .
- (٣) إذا شئت أن تعيش من مال الظلم أو تتعنى منه نزع الرب نعمته منك وجعلك فقيرا .
- (٤) إن الله يمز من يشاء ويزل من يشاء لأن يده مقاليد الأمور فمن العث التعرض لإرادته تعالى .
- (٥) إذا كنت عاقلا قرب ابنك حسبما يرضى الله تعالى ، وإذا شب على مثالك وجد في عمله فأحسن معاملته واعتن به ، أما إذا طاش وساء سلوكه فهدب أخلاقه وأبعده عن الأشرار لكلا يستخف بأمرك .
- (٦) إن تدبير الخلق بيد الله الذي يحب خلافه .
- (٧) إذا نلت الرفعة بعد الضعة وحزت الثروة بعد العانة فلا تدخر الأموال بمنع الحقوق عن أهلها فإنك أمين على نعم الله والأمين يؤدي أمانته ، واعلم أن جميع ما وصل إليك سيقفل منك إلى غيرك ولا يبقى فيه لك إلا الذكر .
- (٨) ما أعظم الإنسان الذي يهتدى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .
- (٩) من خالف الشرائع والقوانين نال شر الجزاء .
- (١٠) لا ينجوا الأثيم من النار في الحياة الآخرة .
- (١١) إن حدود العدالة ثابتة وغير قابلة للتغيير .
- (١٢) إذا دعاك كبير إلى الطعام فابل ما يقدمه لك ، ولا تطل نظرك إليه ، ولا تبادره بالحديث قبل أن يسألك لأنك تجهل ما يخالف مشربه بل تكلم عند ما يسألك حينئذ بعجبه كلامك .
- (١٣) إذا كلفك كبير بحاجة فأجزها له حسب رغبته .
- (١٤) إذا تعرفت برجل رفيع في المقام فلا تتعاطف عليه ، بل احترمه لركزه .
- (١٥) إذا جلست في مجلس رئيسك فاستعضر السكال والصمت فلا تتوفق في الكلام لكلا يمارضك من هو أكبر منك نفوذا وأكثر منك خبرة ، واعلم أن من الجهل أن تتكلم في مواضع شق في آن واحد .
- (١٦) لا تنق كثيرا عن عمله متى رأيت مشغولا فإنه عدو لمن يعوق أعماله .
- (١٧) لا تخن من اتسمك ليزداد شرفا ويعمر بيتك .

- (١٨) من الخلق أن يتشاجر المرءوس مع رئيسه فإن الانسان لا يعيش عيشة راضية إلا إذا كان مهتما لطيفا ظريفا .
- (١٩) إذا دخلت بيت غيرك فاحذر من الليل إلى نساته فكم أناس تهاوتوا على هذه اللذة القصيرة التي تمر كالخلم فأودت بهم إلى المخاطر والهالك ، واعلم أن بيت الزاني آيل للخراب والزاني نفسه أيضا فاقد الرشيد ومحقوق عند الله والناس ومخلف للشرائع والنواميس .
- (٢٠) إذا كنت عاقلا فقدر منزلك وأحب زوجتك التي هي شريكك في حياتك وقم لها بالموثقة لتحسن لك المعونة وأحضر لها الطبيب وأدخل عليها السرور ، ولا تكن شديدا معها ، إذ باللين تملك قلبها وقم بمطالبتها الحقة . يدوم معها صفاؤك ويستمر هناؤك .
- (٢١) لا تعجب بملك لأن العلم بحر لا يصل إلى آخره أى متبحر مهما خاض فيه وسبح ، واعلم أن الحكمة أعلى من الزمرد لأن الزمرد نجده القملة في الصخور بخلاف الحكمة فإنها نادرة الوجود .
- (٢٢) لا تترك التحلى بحيلة العلم ودمائة الأخلاق .
- (٢٣) إذا كنت زعيم قوم فنفذ سلطتك الخوالة لك وكن كاملا في جميع أعمالك ليذكرك الخلف ولا تسرف في اللواهب والنعيم التي تعود إلى الكبرياء وتؤدي إلى الكسل .
- (٢٤) إذا كنت قاضيا فكن لين الجانب مع التقاضين ولا تجعل أحدهم يتردد في كلامه ولا تنهره ودعه يتكلم بحرية لكي يصبر عن مظلمته بصراحة ، أما إذا لم تنصفه فيكون سببا لسوء سمعتك ، فحسن الإصغاء أفضل طريقة لكشف الحقيقة .
- (٢٥) ليكن أمرك ونهيك لحسن الإدارة لا لإظهار الرياسة والإدارة .
- (٢٦) لا تمجدك لئلا تضل .
- (٢٧) لا تكن يابسا فتكسر ولا لينا فتعصر .
- (٢٨) إذا شئت أن تطاع فسل ما يستطيع .
- (٢٩) إذا حكمت بين الناس فاسلك طريق العدل ولا تتحيز لتريق دون آخر وإلا نسبوك للجور والتعسف .
- (٣٠) إذا عفوت عمن أساء إليك فاجتنبه ولكن اجعله ينسى إساءته إليك حتى لا يذكرها مرة ثانية .
- (٣١) بقدر الكد تكتسب الثروة فمن جد في طلبها أنجح الله مسعاها .
- (٣٢) اجهد دائما في عملك ولا تترك فرصة اليوم للغد فمن جد وجد .
- (٣٣) إذا كنت منتظما في حياتك صرت غنيا وحسنيت سمعتك وتحسنت صحتك وطار صيتك وملكيت حاجتك ، أما الذي يتقاد لشهواته فإنه يصير ذميا سمحا وعدوا لنفسه .
- (٣٤) إذا وقعت أمام الحاكم فاحفض جناحك واحن رأسك ولا تمارضه وجاوبه بوداعة لينجذب قلبه إليك .
- (٣٥) إذا فاه أخوك بالشر فازجره لتكون خيرا منه .
- (٣٦) اصغ لكلام غيرك فإن السكوت من ذهب .
- (٣٧) لا تحترق قبرا وإذا زارك فلا تتركه سدى لئلا تخذه ولا تنصبه . ولا تحترق رأيه فإن هذا ليس من شيم الكرام .
- (٣٨) احذر من تحريف الحقيقة بين الناس لئلا تزرع الشقاق بينهم .

- (٣٩) لا تخبر أحدا بما صرح به لك غيرك لئلا يفضك الناس .
 (٤٠) من ساءت سيرته ضل الصراط المستقيم .
 (٤١) إذا كنت في مجتمع فاسلك دائما حسب قوانينه .
 (٤٢) إذا عاشرت قوما فاجذب قلوبهم إليك .
 (٤٣) ليكن كلامك دائما سديدا مفيدا .
 (٤٤) إذا شئت أن تسلك سبيل الرشاد فابتعد عن الشر واحذر الطمع فإنه داء دفين لادواء له والنصف به قليل الحظ لأن الطمع مجلبة الشجاء والشقاق بين الأهل والأقارب وهو سبب كل الشرور والذائل ، أما القناعة فهي أساس النجاح والفلاح ومصدر الخير والبر .
 (٤٥) لا تطرف في الكلام ولا تصغ إلى الوقاحة لأنها صادرة عن التميع والفيظ ، وإذا تطرف أحد أمامك في الكلام فأطرق رأسك إلى الأرض لترشده بذلك إلى طريق الحكمة .
 (٤٦) من يزع بنفسه في متاعب الدنيا ويستغرق فيها كل أوقاته لا يجد لذة في حياته .
 (٤٧) من يكف طول نهاره على شهواته ضاعت مصالح بيته .
 (٤٨) إذا شئت أن تعرف طباع صديقك فلا تسأل أحدا عنه ، بل استتج ذلك بانفرادك معه في المحادثة المرة بعد المرة ولا تفضبه رفق أخبرك عن أصل ماضيه عرفت جميع أخلاقه ، وإذا فاتحك الحديث فإبره ولا تجعله يتحفظ في حديثه وإياك أن تقاطعه في الحديث أو تزدر به ، وبهذا يمكنك أن تستطلع جميع أحواله .
 (٤٩) كن بشوشا مادمت حيا .
 (٥٠) من زرع الشقاق بين الناس غاش حزينا ولا يصعبه أحد .
 (٥١) من طابت سيرته حمدت سيرته .
 (٥٢) متى كبر الإنسان في السن عادت إليه حالة صغره ، فيحتمش بصره ، وينقص سمعه ، ويصمت له ، ويستخف كلامه ويظلم عقله ، وتضعف ذاكرته ، وتخور قواه ، وتقف حركة قلبه ، وترق عظامه . وبهزل جسمه ، ويفقد ذوقه . وشبهه حقا إن الشيخوخة آفة الإنسانية ، انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني

(أقدم كتاب في العالم أيضا)

نصائح الحكيم المصري القديم . (آني)^(١)

لجليده خونسو هتب في عصر مصر الذهبي في عهد الملك العظيم (توت أنخ أمون) أي منذ ٣٣٠٠ سنة تقريبا :
 (١) أحلص لله تعالى في أعمالك لتتقرب إليه وتبرهن على صدق عبوديتك حتى تنال رحمته وتلحظك عنايته فإنه يمد من تواني في خدمته .

(١) نقل عن ورقة بولاق البردية التي عثر عليها (مارييت باشا) مؤسس مصلحة الآثار المصرية في أحد مقابر النهر البحري بطيبة بالأقصر سنة ١٨٧٠م المحفوظة بالمتحف المصري بالطبقة العليا بالقاعة حرفس وترجمها من (الخط الميراطيق) إلى الفرنسية العالمان الأتريان شاباش ودي روجيه ، وللإلانية العالم الأتري (أرمن) وللانكليزية الأستاذ ماسيرو ، وللعربية أخيرا أنطون أفندي زكري الأمين بالمتحف المصري ، وقد اشتهرت بورقة بولاق البردية ، حفظت بالمتحف المصري وتمت أن كان في بولاق وهي تشتتل على ٩ صحائف .

- (٢) لا تتقرب إلى ربك بما يكرهه ولا تبحث أسرار ملكوته فهي فوق مدارك العقول واحفظ وصاياه وإرشاداته فإنه يرفع من عهده .
- (٣) احترم الأعياد وأدشعارها وإلا قد خالفت أوامر الله .
- (٤) لا تستعمل الفوضى والضحيج في بيت الله أيام أعيادك وادع ربك تضرعا وخفية بقلب مخلص فذلك أقرب للإجابة .
- (٥) إذا استشارك أحد فأشر عليه بما تقتضيه الكتب للنزلة .
- (٦) تهذب النفوس بالحسنات والترقيات والسجود .
- (٧) من أهم زورا فليرفع مظلمته إلى الله تعالى فإنه كفيل بإظهار الحق وإزهاق الباطل .
- (٨) اجعل لك مبدأ صالحا وضع نصب عينيك في جميع أحوالك غاية شريفة تسعى إليها لتصل إلى شيخوخة حميدة وهي لك مكانا في الآخرة فإن الأبرار لا تزعمهم سكرات الموت .
- (٩) صن لسالك عن مساوى الناس فإن اللسان سبب كل الشرور ، وتمر محاسن الكلام ، واجتنب قبايحه فإنك ستسأل يوم القيامة عن كل لفظ .
- (١٠) تزوج حديث السن لترى لك ولدا في ريمان شبابك يكون سببا في احترامك وإجلالك وبرهاننا على صلاحك وتفواذك .
- (١١) لا تهمل الترحم على والديك وتمر لهما من أعمال الخير والبر أكثرها نفعا وأرجاها قبولاً . ومقنت لهما بهذا الواجب قام به لك ولدك .
- (١٢) إن الله سخر لك أماكيدت كل مشقة حين حملتك وولدتك وأرضتكَ ثلاث سنوات وربتك ولم تأنف من فضلائك ولم تسأم معاناة زيبتك ولم تسكل أمرك لغيرها يوما ما وكانت تبر أسانفك وتواسيهم كل يوم ليعتوا بتعليحك والآن صار لك أولاد فاعين بهم كما امنف بك أمك ولا تنضيا لكلا رضع يديها إلى الله فيستجيب دعاءها عليك .
- (١٣) أرك لأخيك البيت المشترك بينكما متى رأيت ما ينصك حرصا على الرابطة العائلية ولستبقاء لموده حتى يكون معوناتك في مصالحك الأخرى المشتركة معه .
- (١٤) إذا كانت زوجتك كاملة مدبرة فلا تعاملها بالخشونة والغلظة وراقب أطوارها لتكتشف أحوالها ولا تقصر معها في النضب لكلا تزرع شجرة الشقاق والنزاع في بيتك فتكون ثمرةا التخصم فإن كثيرا من الناس يضمنون أساس الخراب في بيوتهم لجهاهم حقوق المرأة .
- (١٥) إذا كنت قوى الإرادة فلا تدع للمرأة تتسلط على قلبك .
- (١٦) إذا وقعت عينك على جارتك فإذك أن تنهذى أو تعتمد رؤيتها تابعا واحذر أن تخبر بذلك غيرك فتستوجب الهلاك .
- (١٧) إياك أن تميل إلى امرأة قلبك بدينك وشرتك ولا تحدث ضميرك بشأنها فإنها كالماء العميق الذي لا يعرف له قرار . وإذا كاتبك امرأة تعرف أن زوجها غائب عنها لتوقفك في شبابك عليك أن تصبو إليها لكلا توقع نفسك في جبال الهلاك إن الشهوات طريق للوقبات .
- (١٨) لا تدخل بيت السكر ولو أفادك مجدوا شرفنا .
- (١٩) لا تردد على محال الطهور احتراما من عواقبها الوخيمة لأن لشراب الخمر فلتات يستفزع صدورها

من نفسه متى أدق . وهو دائما مبتدل محتر عند الناس حتى حين إخوانه الذين يشكركونه
في غروره وشروبه .

- (٢٠) النظام في البيت يكسبه حياة حقيقية .
 (٢١) اسلك سبيل الاستقامة دائما تصل إلى الرب العلية .
 (٢٢) كن عسما شجاعا فإن الجبان لا يستفيد من الحياة غير ما وهب الله له .
 (٢٣) لا تجلس في حلال وقوف من هو أكبر منك سنا ولو كنت أرقى منه رتبة .
 (٢٤) ازم بيتك ولا خادره إلا لوجب . وإذا لقيت في طريقك من يشجأه لك فقص طرفك عنه . وزر
 أصدقاك وأحبابك .
 (٢٥) إذا فاتتك فرصة فزرب غيرها .
 (٢٦) لا تنشر الأسافل لا تذهب هيبتك .
 (٢٧) لا تكثر الكلام ولا تتظاهر بالمصاحبة في التحقيق وتكلم بحجتك بعد التروي والتفكر فذلك
 أدعى لخلاصك .
 (٢٨) لا تجرح بكلامك شعور الناس فيسئان بك .
 (٢٩) لا تنطق بالشر فتعود عاقبته عليك .
 (٣٠) إذا قاومت نفسك في سراتها استطعت ردها عن شهواتها .
 (٣١) إنك لا تجني من الشوك العنب .
 (٣٢) ليسكن حديث كل إنسان في شؤنه ولا يشتغل بشئون غيره .
 (٣٣) إذا تخلفت بالاطف والسكينة صرت محبوبا عند الناس ووجدت منهم عضدا ونصيرا في جميع شئوك .
 (٣٤) ليست السعادة بالثروة وحياسة الأموال إنما هي في استتارة العقول بالفضيلة والتحاق بالقناعة
 والرضا والكفاف .
 (٣٥) من تعود الجهد والنشاط لا يحتاج إلى حث واستنهاض .
 (٣٦) إذا رأيت مالا رضاء في مجتمع فاجتنبه ولا سيما إذا كنت لا تستطيع الخلب على عواطفك .
 (٣٧) إذا خاطبك رئيسك بحدة واتصال فابتعد عنه حتى يسكن غضبه واستعمل الآين والرفق مع كل
 من يخاطبك بهيج . فهذا هو الدواء الوحيد لذهاب غيظه . وعلى العموم إن الكلام الآين
 يجذب القلوب .
 (٣٨) لا تستسلم إلى اليأس والقرظ مهما قام في سبيلك من العقبات والشدائد .
 (٣٩) ازم الصمت إذا لم يكن داع لك الكلام .
 (٤٠) إذا اتخذت وكبلا فانتخبه أمينا عاقلا وثق به مع مراقبته ، فإذا كان حازما نسب لك هذا المزم .
 (٤١) لا ترق بالناس المجهولة مبادئهم ولو خدعوك بتقديم أنفسهم لخدمتك متظاهرين بالإخلاص فإنهم
 يجرونك إلى الحراب العاجل .
 (٤٢) تنبه إلى أعمالك ولا تنهون فيها فإن النهان عاقبته الحية والفقر .
 (٤٣) إذا كنت متبحرا في العلم فاتقش علمك في صحيفة فؤادك .
 (٤٤) إذا وليت منسبا فأظهر براعتك فيه فتؤهل نفسك لأرقى منه .
 (٤٥) العالم ذو منزلة عند الكبراء ، إن كان قديرا ، فمن العلم ثروته وهدى العلم حمايته .

(٤٦) إذا جاء ضيف فأزله منزله من التحية والإكرام وتلطف معه لتعرف الغرض من زيارته ، ثم حادته ببشاشة ولا تسمح له بالتطرف في الحرية حتى يخرج عن حدود الاحتشام .

(٤٧) إذا أكلت وحوالك من ينظر إلى طعامك فأطعمه منه ولوشيثا يسيرا ، فكم رجل كان في نعمة ورفاسة فأصبح في بؤس وتماسة ، والنعمة لا تدوم إلا مع المحسنين .

(٤٨) لا تكن شرها فإن الإنسان لم يخلق ليأكل بل يأكل ليحيا حياة طيبة يجعلها طريقا للحياة الأبدية .

(٤٩) كل شيء يأتي عليه الدهر لا بد أن يتغير وضعه حتى يفتي أثره ، ومن كان مطيته الليل والنهار فلا بد أن يتهار ، فكم تغيرت الأنهار بالجزر واللد من مبدأ خلقها ، وإذا كان التغير والتحول من لوازم الطبيعة فلا يوجد رجل واحد ذو إرادة ثابتة .

(٥٠) الحب أعمى لأنه يصور قبيح المحبوب جميلا لشدة ميل النفس إليه ، فهذه وما قبلها ١٢٠ حكمة وقد جاء في كتاب [الأدب والدين عند قدماء المصريين] غير ما تقدم مانصه .

﴿ ورقة لندن البردية . أمثال وحكم مزوية عن الأديب المصري القديم (أمثت بن كائمت)

منذ (٣٠٠٠) سنة تقريبا ، وجدت على الورق البردي المحفوظ بالمتحف البريطاني

وتاريخها يرجع إلى الأسرة الثانية والعشرين

(١) احفظ هذه الوصايا واعمل بها تمش سعيها ولا تهملها لئلا تحل بك النكبات والصاب .

(٢) لا تسرق مال غيرك لئلا يقبض الله روحك في لمة بصر ويبدد أموالك ويغرب بيتك وتصير عبدة لمواطنيك ومضغة في أفواههم في حياتك وبعد مماتك .

(٣) إذا أذل القنى فتميرا أذله الله تعالى في هذه الدنيا وأذاه عذاب النار في الآخرة .

(٤) اجتنب سيء الخلق فإنه أحق بموت من الله والناس .

(٥) سبع الله تعالى واعص الشيطان .

(٦) لا تغالط شريكك أو زميلك في الحساب فينضك الله وتشهر بالفساد والحياة .

(٧) لا تظهر أمام الناس غير ما تبطن فتخدعهم واجعل باطنك كظاهرك فإن الله يبغض الكذوب الخادع .

(٨) تيرابا محرز من حلال خير من ألف نملسك من حرام .

(٩) لا تصيح أبامك في محال الخمر لئلا تعجل حتفك .

(١٠) اعلم أن لقعة خبز تأكلها في بيتك في حرية والطمشان خير من أفخر طعام تأكله في قصر غنى بذل وهوان .

(١١) لا تشغل قلبك بحب المال ولا تهلك قواك في تحصيله فإن الرزق مقسوم وميسر لصاحبه بالحظ والنصيب

(١٢) لا تفرح بمال الظلم فإنه سريع الزوال .

(١٣) لا تذكر أحدا بسوء واجعل كلامك دائما في الخير وابتعد عن الشر .

(١٤) كن دائما كريما مهذبا تكن محبوبا ومحموذا عند الناس .

(١٥) لا تعتمد رؤية جارئك وإلا كنت كالذهب في خبثه .

(١٦) ولا تشته مال غيرك .

(١٧) لتكن جميع أعمالك سالحة في هذه الدنيا .

(١٨) احذر من الأشرار واحذر عداوتهم .

(١٩) لا تصد على مزرعة جارئك ، وإذا أدت الحال إلى النزاع فخير أن تغلس منه بحسن النظام .

- (٢٠) كن ثابتا في أعمالك ثبات الصخرة في مكانها لا يزغرك ثوب في هذه الحياة الدنيا .
- (٢١) إذا أطعت رئيسك جذبت قلبه إليك ، واكتسبت ثناءه ، واكتسبت شر عتفه وشدته .
- (٢٢) لا تصادق على قول الكاذب لئلا يصدقك الناس بسببك فتكون شرار منه .
- (٢٣) إذا كنت محبوبا ومحودا عند الناس وأنت فقير خيالك من أن تكون مقفوتا ومبدولا مع غناك .
- (٢٤) لا تستمر في مضجعتك حتى مطلع الفجر .
- وجاء في صحيفة (٢٩) من هذا الكتاب أيضا ما نصه :
- (ورقة ليد البردية منذ ٣٥٠٠ سنة)
- (١) لا تجعل كل همك في تحصيل المال فإن الله يعطيه لمن يشاء .
- (٢) إن الله يعطى القوة للماقل لتدبير شئونه .
- (٣) يرضى النبي الله إذا أشبع الفقير لأنه ائتمنه على نعمه .
- (٤) من أعطى الفقير أرضى الله عليه .
- (٥) لا تخدع أحدا فيخدعك الناس .
- (٦) لا تكلم الشرير ولا تعامله .
- (٧) تعرف الأمين إذا أودعته مالا .
- (٨) تعرف العادل إذا قلده منسبا .
- (٩) تعرف الصاحب عند الشدة .
- (١٠) تعرف ابنك متى احتجت إليه .
- (١١) الكثير الكلام تسهل معرفة باطنه .
- (١٢) لا تعامل الكذوب فتسبب لنفسك إحنا .
- (١٣) لا تقلد حقيرا أو صغيرا على اللئاصب فيستخف بك الناس .
- (١٤) الرجل الصالح دائما يتذكر آخرته .
- (١٥) أيام العاقلة كثر للعاقل .
- (١٦) أعدت الجنة لمن بضحي حياته للفقير .
- (١٧) ليست سعادة الإنسان في تغذية جسمه بل في تغذية روحه .
- (١٨) اللباقة تقضى ألا تفخر بعتاك أمام الفقير وألا تظهر الفرح أمام الحزين .
- (١٩) لا تحرم الفقير من مالك في حياتك حتى ترحم به بعد مماتك .
- (٢٠) لا تنتب أحدا ولا ترفض نصيحة من حنكته التجارب .
- (٢١) لا ترفض كلام العاقل ولا كلام الرجل للزهر عن الغرض .
- (٢٢) لا تكن مكثارا للكلام بل اصغ دائما لمن يكلمك ولا تقاطعه .
- (٢٣) لا تتشاحن مع من لا يحرف قدرك .
- (٢٤) لا تنطق بهجر القول في بيتك لئلا يقتدى بك أهلك .
- (٢٥) لا تعلق قلبك بأمرأة تذهب بحياتك .
- (٢٦) المرأة الجميلة توصف بالعقل إذا لم تعمل إلى السكر .
- (٢٧) المرأة العاقلة تسعد زوجها ، والمرأة الشريرة تجمله دائما فقيرا .

- (٢٨) ابتعد عن كل طريق يفريك من الشيطان .
 (٢٩) قليل في حوزك خير من كثير يبعد تناوله .
 (٣٠) لا تطمع في ادخار المال لأنك تجهل هذه الحياة ، ستترك غدا مالك فيمتنع به غيرك .
 (٣١) لا تقدم على أذى ولو أدى لتليكك الدنيا وما فيها .
 (٣٢) لا تم في ارتكاب المحرمات فإنها تضع نصيبك في العالم الثاني .
 (٣٣) العاقل من ادخر للمال أيام البؤس .
 (٣٤) لا تعنف سيء الخلق أمام الناس كلابيبيك . انتهى ما أردت ذكره من حكم قدماء المصريين .

﴿ بهجة الحكمة في قوله تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة) الخ ﴾

(مقدمة)

هذه الآية أفهمتنا سر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء . أوتي لقمان الحكمة ويقول الله تعالى « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » إذن الحكمة ليست خاصة بلقمان ، الحكمة نور من الله كنور الشمس والقمر والكواكب ولو حصرت في لقمان لكان ذلك مخالفا لأموس الله في عوالمه فهو واسع الرحمة روف بالناس . إذن الحكمة يعطيها الله لمن يشاء ، يقول الله (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) فما هو ذا سبحانه مدح الحكمة بأنها تفتح الخير الكثير . إذن أصبحت الحكمة من علوم الدين الإسلامي ، ومعنى هذا أن كل حكمة ألهمها الله لأي امرئ في الأرض من عرني وعجمي قديما وحديثا هي من علوم الإسلام وكنتي بهذا حكمة وعلم . وإياك أن يصدك عن هذا أيها الذي ما يقال لك إنه لم يرد في كتاب الله ، أو يقال لك إذن إذا خالفت الحكمة كتاب الله فلا تتبعها فهذا قول من لا يحصل عنده فأما ورودها في كتاب الله فهماي ذه الآية التي نحن بصدها ، وأما مخالفتها لكتاب الله فهو مستحيل لأننا قلنا إنها حكمة والحكمة لا تقبل التقض ولا الشك وما كان معقولا موافق لكتاب الله تعالى ، فأما ما لا يقبل العقل فليس حكمة والقرآن حض على التعقل والتفكير (مثال ذلك) جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والنفسية فهي حكمة والحكمة خير كثير ودين الإسلام يدعو إليه . إذن المسلمون يقبلون كل حكمة من أي أمة من أمة من أرض وتكون تلك الحكمة علما من علوم الدين . وهذا أصل بديع أوردته الله في هذه السورة - حتى إذا قرأنا حكم قدماء المصريين وآدابهم ورأيها معقولة قلنا هذه الآراء تردد لصدى صوت الإسلام وهي من ديننا لأن ديننا جاء لتعليم العالم كله ورسولنا خاتم النبيين والله يقول « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله - فالديانات والمقولات كلها قد أتحدت في هذا الاسلام ، فالاسلام كما جمع الديانات جمع العلوم ، وليس معنى جمعه للعلوم أنه شرحها فهذا مستحيل ولو شرح الديانات في آلاف المجلدات لم يكن ديننا بل هو شيء آخر غير الدين نسميه بحسب ما نراه ، وإنما معنى جمعه للعلوم أنه يدخلها في ضمن معتقداته وأعماله . إذن السلم في المستقبل بعد هذا التفسير يقرأ كل حكمة وكل علم في الشرق والغرب . ويقرأ علوم الألمان والإنجليز وأهل سويسرا والرومان ويدرس علوم حكمائهم ثم يصبح هو له رأى خاص في ذلك كله فيكون إذن بمن أوتي الحكمة وإذن له خير كثير . فإذا الله عز وجل لم يفتح على الناس كلها بالحكمة ويحرم للمسلمين منها . كلا . إن الله يقول « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا يحسب لها » والرحمة ليست خاصة بغير السلم ولا الحكمة ، بل السلم أولى بها من كل الأمم لأنه يدعو الناس إلى سعادتهم وإلى رقيهم .

يا أمة الإسلام ، أنت بعد اليوم راعية الأمم ، مهدبة الشعوب ، إن آباءنا بعد الصور الثلاثة التي هي خير الصور قد تفرقوا شيئا وذاق بعضهم بأس بعض فلم يتفرغوا لإسعاد الأمم تفرغا تاما « ثم خلف من بعدهم خلف أساعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فتشوق يلدون غيا » وأنا أرجو أن يكون خلفنا خيرا من سلفنا الأفريين فيقرءون حكم الأمم وعلومها وسياساتها وصناعاتها وهم يتقصون. أن ذلك من الدين ويقرءون « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » ويقرءون « قل هو يستوي الدين يعلمون والدين لا يعلمون » .

إذن لاجابة إلى أنبياء بعد نبينا ، لماذا ؟ لأن الأنبياء . يأتيون لتذكير الناس بما نسوا وانه سبحانه أخير أنه اختص أناسا بالحكمة يخلفهم حيث يشاء . والحكمة اللقاة على الناس في الأزمان المختلفة قد أصبحت جزءا من علوم الاسلام . إذن كل حكمة صدرت من حكيم أيا كان هي إسلامية ، إذن إرسال الرسول بعد هذه الآية عيب ، فإذا قيل إن الأمم تختلف أطوارها باختلاف أزمانها قيل لنا وما فائدة الحكمة التي يلقها الله على قلوب عباده . ولا جرم أن هذا هو كمال الإنسانية لأنها إذا كان تعليمها بواسطة حكمتها للبعين لوصية نبي كان ذلك ارفي وأشرف من إرسال رسول لأن الرسول إنما يرسل لقوم ناقصين جهلوا الحكمة . أما هذه الأمم فإنها تعترف بالحكمة وتعمل بها وتقول هي من وصايا كتابنا وديننا وهذا معنى كونه بقرآن رحمة للعالمين . ألا ترى أننا إذا رأينا رجلا منا نظر إلى الثياب والحقول والمعادن فقال هذه لكم فانتفعوا بها وعلنا كيف يكون ذلك قلنا هذا الرجل رحمة لنا ، فإذا رأينا آخر حرم علينا ذلك الانتفاع أو منعنا منه فالتنا قول ذلك الرجل نعمة لا رحمة . ولا جرم أن نتائج العقول كنتائج الأرض ، فإذا سمعنا الله يقول « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » وسمعناه يقول « ولقد آتينا لقمان الحكمة » وسمى سورة باسم لقمان تشريفا للحكمة أيقنا أن هذا الدين يسوقنا إلى الحكمة جميعها برغبة وشوق وهذه الحلقة الواحدة جعلت ديننا يتطلع كل علم في الأرض وكل حكمة . إذن تقول هذا الذي رحمة لأنه أشبه أفضل الرجلين في مثالنا إذ به أغنمنا كل فرصة للانتفاع بالمنافع الأرضية، فهكذا هنا في الحكمة فإنها قد أصبحت جزءا من ديننا وليس ينقصنا إلا المجالس العامة التي سأذكرها حتى ترقىها وتنفعها .

هذا معنى كونه بقرآن رحمة للعالمين وأنى رحمة أعظم من الحكمة العامة . وبناء عليه تصبغ الأمم الإسلامية في المستقبل خيرا من تلك الأمم الحالية رافعة للإنسانية خافضة للهجيرة .

ولعلك تقول إذن كل مسلم له الحق أن يتبع أى حكمة وينسى القرآن . أقول لك أنسيت قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم وبما رزقناهم ينفقون » .

ليكن هناك مجلس عام في مكة وغيرها . وهذا المجلس لا يصح التثامه إلا بعد شيوع التعاليم العامة في بلاد الإسلام . وهذا المجلس ينظر في الأمور العامة لأمم الإسلام ولا يصلح لهذا المجلس إلا من قرأ فوق علوم الإسلام علوم الأمم والرياضيات والطبيعات لا غير لأن الدين لا يقرءون تلك العلوم مجهلون بنظام الله ونظام الأمم والجاهلون بذلك لا يصلحون للقيادة في هذه الشعوب ، وهؤلاء الأعضاء ينتخبون من المجالس العلمية الخاصة في كل إقليم من أقاليم الإسلام ، فهؤلاء هم الذين لهم الرأى الحق وهم هم الحكماء الذين قال الله فيهم « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » وهذا الخير الكثير يفيض منهم على الناس . إن الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك .

قل لي رعاك الله ، أليس هؤلاء الذين سيكونون بعدنا خيرا من أولئك الذين ناموا على الوضوء والنجاسة والطمارة والخبز والنفاس والبيوع وتركوأبية كتاب الله وراء ظهرهم كأنهم لا يعلمون . اللهم إني أحمدك على العلم والحكمة . أنت اللهم للمعم للفضل الرؤوف الرحيم .

﴿ بهجة الحكمة أيضا في هذه الآيات ، وبيان أنها تشمل سائر علوم الحكمة وأنها مقسمة
« ستة أقسام » ثم أذكر نموذجا مما أستجته عقول الفلاسفة قديما وحديثا وأنه تمصيل لهذه
الآيات (كما ذكرت سابقا آداب قديما للصريين التي ظهرت حديثا) وأجمل ماجاء عند فلاسفة
اليونان والرومان وهكذا . ثم تقف ببيان الطرق التي استعملها أبائنا في التشويق للفلسفة
بالحكايات اللطيفة والروايات الظرفية ﴾

يقول الله « ولقد آتينا لقمان الحكمة » آتى فعل ماض وآتا فاعل والحكمة مفعول ، فهذه الحكمة
آتاها الله لقوم في الزمان الماضي ، ولا جرم أن النكلم على لاضى ما هو إلا تاريخ . إذن هذه الآيات بها
يقص علينا الله تاريخ الفلسفة لأن الحكمة بالعربية هي الفلسفة باليونانية . وحينئذ ننظر هل هذه الآية
فيها أقسام الحكمة التي عند الأمم . فنظرنا فوجدنا أن هذه الآيات فيها :

- (١) توحيد الله « يا بني لا تشرك بالله » الخ .
- (٢) وأنه عالم قادر « يا بني إنها إن تك » الخ .
- (٣) وأنه سخر لنا ما في السموات والأرض وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة وهذا في قوله تعالى « ألم
تر أن الله سخر لكم » الخ .
- (٤) وأن يكون عابدا « يا بني أقم الصلاة » .
- (٥) ذا أخلاق حميدة « واصبر على ما أصابك » « ولا تصعر خدك للناس » الخ .
- (٦) علما نفعه للناس « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » الخ .

إذن ملخص الآية أن يعتقد المرء أن ربه واحد . وأنه عام القدرة والعلم ، وأن نعمه سابقة ، وأن جميع
السموات والأرضين مسخرات لنا ، وأن يكون المرء حسن الأخلاق كالصبر وعدم الكبر ، وأن يفيض على
الناس بما آتاه الله فأنعمه عامة فليكن العبد متنعما بقدر توفيقه .

فهذه الأقسام التي عددنا ستة ، يجب أن نعرض عليها أجمل ما جاء في تاريخ الفلسفة الحديث فإن
واقفتها كان ذلك فتوحا جديدا في الإسلام وكان هذا دليلا جديدا على أن أمة الإسلام في القرون المتأخرة
كانت عاجزة عن دراسة هذا القرآن وأن الأجيال القليلة ستعلم علم اليقين أن حكمة الأمم هي الحكمة القرآنية
وإليك البيان .

فيا أله أنت خلقت أما قبلنا وأودعت في عقولهم حكما فأخذنا نقرؤها اليوم ونظرنا في كتابك فدهشنا
باربنا وأى دهش . وكيف لاندعش ونحن نسمع الناس قديما وحديثا يقولون : الدين يخالف العلم ، فإذا
كانت هذه الآيات منطبقة على آراء الأمم لما أكذب القائلين . وما أجهل أما نقرأ القرآن ونجهل علوم الأمم
يقرءون سورة لقمان ويسمعونك تمدح الحكمة وكأنهم في واد والقرآن في واد . فما أنا ذا أجزى* بنيد من
تاريخ الفلسفة ولكي لا أجهد أذنياء القراء بعوجات المسائل بل أصطفي اللب وأبذل القشر وأبتدى* بالكلمة
التي اعتاد الناس أن يعملوها مرادفة للحكمة وهي الفلسفة .

إن كلمة الفلسفة أصبحت اليوم تطلق عند الناس فيما كان من قبيل المناقشات التي لانفع فيها أو من قبيل
ما خرج عن متناول العقول وهذا خطأ ، وإنما هي الحياة أمران متلازمان ، فإن الإنسان منذ خلق ورأى
شمسه وقرا ونجما وسحابا تنهت قرواه وفسكر في السكون ومبدئه ونهايته وظن المخلوقات السكينة آلهة كثيرة
ثم اهتدى ووجد أر. الإله واحد . يقول الأستاذ (كنجهمام) في كتابه (مسائل الفلسفة) مانصه :

لكل إنسان (ولو لم يكن له نصيب وافر من التلميم) نوع من الفلسفة . فله رأيه في معنى الحياة وطبيعتها وغايتها . وفي الوجود والعدم . وفي العقل والجسم . وعلاقة كل واحد منهما بالآخر . وفيما قد يصيب الإنسان في هذا العالم من سعادة أو شقاء وقر أو غنى وصحة أو ضعف ، وفي الحياة بعد الموت ، وفي الخير والشر والطيب والحديث من الأفعال ، وفي الإله وصفاته وعلاقته بالطبيعة عامة من جماد ونبات وحيوان ، ولا شك أن هذه فلسفة . غير أن عقله لم يتناولها بالتحليل والتجسس ولم يعم الدليل على صحتها .

لقد جعل (فرانسيس بيكون) العلم ثلاثة أقسام : قسم يتعاق بالذاكرة ، وآخر بالمفكرة ، وثالث بالقوة الخيالية ، والذي يتعلق بالقوة الخيالية هو الشعر واللوسيقى والنفس والتصوير لأن هذه ترجع إلى الخيال والقسم المتعلق بالذاكرة هو التاريخ والتاريخ الأثرى وبشرى : فالبشرى هو التاريخ المعروف ، والأثرى هو المذكور في الكتب السماوية ، ومن التاريخ البشرى تاريخ العلوم الرياضية والطبيعية وهكذا ، لجميع ما يدرس في مدارس العالم من الطبيعة والفلك والحساب وأشغالها كلها داخلات في قسم التاريخ مندرجة في ضمن أعمال الذاكرة ، فأما العلم المتعاق بالمفكرة فهو نظام الطبيعة ومعرفة الله ومعرفة النفس ، وهذا القسم هو المسمى فلسفة ، فإدراك ارتباطه - والم بعضها ببعض وتحقيق ذلك الارتباط ونسبة ذلك إلى الحقائق العقلية التي غابت عن الحس ومعرفة النفس وقواها والنطق وعلم الجمال وعلم الأخلاق والسياسة . كل ذلك داخل في علم الفلسفة .

هذا رأى (فرانسيس بيكون) فياسبجان الله ، إذا كانت هذه هي أقسام الفلسفة عند (بيكون) وهذا هو الرأى الحديث فلننظر في القرآن وفي الأقسام الست المتقدمة في هذه الآيات . أليست هذه الأقسام هي عين القسم الثالث من المذكور في الآيات المتقدمة . يقول الله « ألم نروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ولا جرم أن ما في السموات وما في الأرض السخر لنا لم يخرج عن الأقسام التي قالها (بيكون) أليست العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية التي جعلت علومها هي مقدمة للفلسفة مما في السموات والأرض ومن نعم التي أسبغها علينا ظاهرة وباطنة فهي تم ظاهرة لأجسامنا وتم باطنة لعقولنا بالحكمة . ألم تذكر هذه في حيز الكلام على الحكمة ، أليس نظام الطبيعة ونفس الإنسان مما في السموات والأرض الخ .

هذا ما نقوله من حيث الرأى الحديث للتقسيم العام ؛ فإذا أردنا أن ننظر آثار العقول فما كفا :

(١) « شذرة من فلسفة الصين - رأى (كنفيوشس) هو فيلسوف صيني »

وجد القوم معرضين عن إصلاح أنفسهم فقال لهم : إن في هذه الموجودات علما روحيا لا يحيط به عقل الإنسان ولا يدركه فهمه ، ألا أدلكم على عالم آخر أمام أعينكم وفي استطاعة كل واحد منكم مهما كان ضيق العقل قبيل التكاه أن يبلغ بابه ؟ ذلك هو عالم الواجب الذي يسلك بصاحب سبيل السعادة والواجب هو ما يتطلبه منك يومك وساعتك .

(٢) « شذرة من فلسفة الهند »

لقد تقدم في سورة (آل عمران) وغيرها ذلك كثيرا .

(٣) « شذرة من فلسفة اليونان »

لقد تقدم كثير منها وسنشرحها شرحا وافيا عند قوله تعالى . « فاعلم أنه لا إله إلا الله » ولا أكتف الآن منها بما قاله (اكنافنس ٥٧٠ - ٤٨٠ ق م . تقريرا) .

ولد هذا الفيلسوف في (ابونيا) ولما احتلها الفرس هاجر منها مع من هاجر ، وما زال يضرب في الأرض

ورحل من مكان إلى مكان حتى أتى عما القيسار في (ألبا) جد أن زار (صقلية) وبلاد اليونان ورأى فيها
 أعطاطا في الأخلاق وصلالا في العوائد الدينية ، وانبرى لهومر وهزبود وأعى عليهما باللائمة وسخر من
 شعرهما واستخف بأرائهما لأنهما يصفان الآلهة بأوصاف شائنة كالسرقة والزنا والحداع ونحوها . وأعلن أن
 الله لا أول لوجوده ولا مثيل له وجميع العوالم في قبضة يده ، لا شريك له في ملكه ، فهو الواحد الذي يصف
 بجميع صفات الكمال لا إله إلا هو تعالى عن شبه الحوادث ، فليس له يد ولا عين ولا أذن ولكنه يسمع
 ويرى ويطن ويدبر شئون العالم بحكته وعلمه ، وقد يتبادر إلى ذهن القارىء أن هذا الفيلسوف وصل إلى
 الايمان الحقيقي بوحدة الله ، ولكن كلامه مضطرب يدل بعصه على أن الإله والعالم شيء واحد وعلى أنه
 أعظم الآلهة . وقد يشعر من عباراته بالتعدد اه .

أليس هذا القول الذي عرفه هذا الفيلسوف بقله بلا وحى ولا نبى هو الذي جاء في هذه الآيات في قوله
 تعالى «ولقد آتينا لقمان الحكمة» إلى قوله «يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم» .

يا سبحان الله ، هذا نبى عربى في جزيرة قمره أنزل الله عليه الوحي بما كدر فيه وجد ونصب فيلسوف
 زه الله بقله ، سبحانك اللهم آزلت القرآن وتلطعت وقصصت لنا قصة التوحيد عن لسان فيلسوف حكيم ،
 زهدنا أن نكون فلاسفة حكماء وتقول لنا أنا قلت لبيكم ولكم «فاعلم أنه لا إله إلا الله» وقد عرف هذه
 الحقيقة قبلكم حكماء رمزت لكل منهم بلقمان ، فهم وحدوني ولم أوح إليهم ، فكروا بإعبادى واعرفوني
 بقلولكم كما عرفني هؤلاء لأن هذه حكمة وحى خير كثير ، فهذه الفلسفة التوحيدية التي نبت التمدد ونفت
 الأقسام هي نفس القسم الأول من الأقسام الستة في الآيات المتقدمة .

ومن عجب أن الفلاسفة الطبيعيين من الأمم السابقة الذين يقولون إن العوالم كلها ترجع إلى ذرات دقيقة
 جدا تصادم وتتكون منها جميع هذه العوالم ، فهؤلاء اضطروا أخيرا أن يبحثوا عن الخير والشر وماهية
 السعادة وسبيل إدراكها فعرفوا الشر بأنه كل ما يصدم النفس ويسبب اضطرابا في ذراتها ذات الحركات المادية
 المؤتلفة ، ولهذا يجب على الإنسان أن يجتنب كل التجارب التي تثير فيه أنواع الشهوات المختلفة وضروب
 الاضمالات القوية ، وعندما أن السعادة غاية الحياة وقد قالوا إنها ليست في امتلاك اللذات والضياع الواسعة
 والقاطر القنطرة من الذهب والفضة ، وإنما مقامها للقدس ومقرها الأمين تفكك التي بين جنبيك ووسيلتها
 الذكاء والحكمة ، وأجدر شيء بالإنسان أن يرغب في الجميل اللائق ويستمتع به ويتغلب على شهوات نفسه
 ويكتفي بالتقليل من العيش ويكف عن فعل الشر وإرادة الشر .

أست ترى هذا للذهب داخلا في قوله تعالى في هذه الآيات السابقة «ولا تصغر خدك للناس ولا تمش
 في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور» ، واقصد في مشيك واغضض من صوتك» الخ فان هذه
 ترجع إلى الأخلاق وهذه الفلسفة شرحها . إذن هذه في القسم الخامس المتقدم من الأقسام الست .

وإذا تبنا الفلاسفة وجدنا سبدم (سقراط) الذي وقف حياته على الفلسفة . وهالك شذرة من تاريخه

(سقراط - ٤٧٠ - ٣٩٩ ق م)

هو زعيم الفلسفة اليونانية وشيخ للفكرين وللثلاث الأعلى للبطولة والنبوغ ، ولد في عصر كانت (أثينا)
 عوج فيه رجال الأدب وأساطين العلم وأبطال السياسة ومصافح الخطباء ، وتلقى الترية الأثينية حين كان
 غلاما ولم يمنعه نسيه أن يصل إلى منصب من أكبر المناصب في (أثينا) .

وقف يوما أمام القضاة وقد اتهمه أعداؤه بأنه مخالف لدينهم ، مفسد لشبانهم ، فقال «لو أنكم قلتم
 باسقراط إننا لن نسمع دعوى (أنتس) هذه المرة ، وسندعك تغدو وتروح في ربوع (أثينا) ولكن على

شرط أن تترك تعاليجك وأبحاثك وفلسمتك ، فإن وجدناك بعد اليوم مشتغلا بمناقشة الشبان والبحث معهم في مسائل فلسفية ما كان لك من الموت منجى. لو أنكم قلتم هذا لقلتم لكم أيها الأثينيون اني أحترمكم وأحجم وأعرف لكم منزلتكم ولكني أؤثر طاعة الله على طاعتكم ، ولن أكف عن الفلسفة والاستبانة في الحق وإسداء النصح إليكم ما دام في عرق يبيض ونفس يتردد بين أحشائي حتى إذا لقي الرجل أخاه قال له في صراحة أليس من العار أن تكون (أثينا) عظيمة عامرة ولا يبنى أهلها إلا بالمال وحب الشهوة ويتركون الحكمة وسبيل الحق ولا يهتمون بتهديب أنفسهم .

وقد حكى لنا التاريخ أن واحدا من أصحاب (سقراط) المخلصين له وجه إلى كاهنة (دلفي) السؤال التالي [هل بين بني الإنسان أحد أعقل من سقراط ؟] وكان الجواب [حقا إن سقراط أكثر الناس علما وحكمة] فلما بلغ (سقراط) الجواب دهش له وكان بين أمرين لا ثالث لهما ، فاما أن يكذب قول الإله وهذا ما لا يستطيع فعله وإما أن يتقدم في نفسه العلم والحكمة وهو لا يرضى ذلك لأنه يجهد كثيرا من الحقائق ولهذا أخذ يتقل من مكان إلى آخر ويقصد الذين اشتهروا بالعلم والحكمة ويناقشهم في المسائل المختلفة حتى يعرف مبلغ ما وصل من العلم . وتبين له في النهاية أن الجهل المطبق يثلب على قلوب الناس وأسماعهم عن إدراك الحقائق وخدمهم حتى اعتقدوا في أنفسهم العلم وهم عنه يبيدون . وعندئذ أدرك (سقراط) أن الناس مغرورون كاذبون في دعوى العلم . أما هو فجاهل معترف بجهله . ولعل هذا هو السبب الذي جعله عند الله الحكيم للفردي . لذلك لم يترك مسألة إلا حاور فيها . فقد تناول السياسة العامة والآراء الشائنة في زمنه ، وللبادئ الخفية ، ونظام الحكومة ، وأساليب التربية والقرض منها ، والموت وما بعده ، والنفس وما أعد لها من نعيم مقيم أو عذاب أليم ولقد له الحوار فيها كلها وتشعبت به الطرق حتى أن الانسان ليجد صعوبة في تحديد موضوع فلسفته .

وانظر إلى نوع محاوراته . فإليك ما دار بينه وبين أحد تلاميذه .

(محاوره بين سقراط وتلميذه سمياس)

(سقراط) وما رأيك يا سمياس فيما يأتي [هل تعتقد أن هناك شيئا اسمه العدل للطاق . والجمال للطاق والحير للطاق ؟] .

(سمياس) نعم إن لهذه الأشياء وجودا .

(سقراط) هل رأيت واحدا منها جيتك ؟

(سمياس) كلا .

(سقراط) هل تفهمهما بإحدى الحواس ؟ وهل ندرك للماني الذهبية وتأملها بحسونا ؟ أليس من الضروري أن نفض الطرف عن حاجات البدن وقت التفكير ؟ ألسنت تعتقد أن للماني الذهبية وحقائق الأشياء إنما تتجلى للانسان إذا تجرد عن عالم الحس والمشاهدة واعتمد على العقل الخالص .

(سمياس) لقد وقتت إلى الصواب فيما تقول .

(سقراط) إن هذا يحتم على الفلاسفة الذين ينشدون الحكمة أن يفكروا في السبل التي تصل بهم إلى غاية مسترشدين بهدى العقل الخالص . وليس في استطاعتنا أن نصل إلى الغاية مادامت الأجسام مقترنة بالنفوس فإن تحصيل حاجات الجسم يشترق في الوقت كله ويوقنا عن التفكير ومتابعة البحث وراء الحقيقة والآلات والمعال تمرينا بسببه . هذا إلى أنواع من البلاء والهن

تدفعنا إليها الشهوات والمطالب المادية . وإذا كان لنا أن نحصل العلم ونسرك الحقائق فإن ذلك لا يكون إلا إذا تجردت النفس عن جميع الشاغل الدنيوية وتحصيل حاجات البدن اه .

هذه شذرات من فلسفة (سقراط) فإذا نظرنا إلى صبره وأناته وأمره ونهيه فهذا كله جاء في قوله تعالى « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك » .

أليست هذه فلسفة (سقراط) رجل يأمر وينهى ويصبر على الأذى حتى ذاق الموت في سبيل هداية الناس . إذن الآية أدخلت فلسفة سقراط فيها . وإذا فكرنا في أنه هو أول من حقق مسألة وحدانية الله وأنه يحيط بالعوامل الكلية والجزئية . فهذا أيضا من القسم الأول والثاني من أقسام الآيات للتقدمة . وإذا فرغنا من الكلام على فلسفة (سقراط) فلنتبعها بفلسفة تلميذه أفلاطون فقول :

(أفلاطون ٤٢٧ - ٣٤٧ ق م)

ولد في (أثينا) وهو من نسل (سولون) الحكيم للشرع المشهور ، وفي أيامه نشأت الحرب (البلوبونية) قبل أن يولد هذا الفيلسوف بنحو أربعة أعوام ، دارت رحاها بين (أثينا) و (أسبرطة) ثم امتد لها حتى شملت بلاد اليونان جميعها واستمرت زمنا طويلا يقرب من ربع قرن وصحبا ما يصعب الحروب العامة من سفك الدماء وإزهاق الأرواح وتخريب الأبنية وتبديد الثروة وتغيير أنظمة الحكم ، وكان من جرأتها أن فقدت (أثينا) تلك الميزة السامية التي كانت لها بين الولايات اليونانية .

شب أفلاطون في هذا العصر وجرب ويلات الحرب وشاهد كثيرا من النزعات السياسية وعرف ما يقاسي الناس من أنواع الحكومة . ولم يفته أن ينتفع بهذه التجارب ويسوقها للإيضاح في كتبه ، ولو أنك تأملت كتابه [الجمهورية] لتبين لك أن الأمثلة الكثيرة التي يؤدي بها دعواه مستمدة من تجاربه للتعديده النواحي وانقطع للتعليم مدة (٤٠) عاما كان في أثنائها يجيدا عن الأمور العملية ومشاعل السياسة ومستترقا في تأملاته ونظرياته الفلسفية . ولعل هذا هو الذي جعل فلسفته منقطعة الصلة بالحياة وضاربة إلى الجانب الخيالي على العكس من فلسفة (سقراط) ابن الشعب وربييه . ولما استكمل إحدى وعشرين سنة من عمره مات ودفن بالبساتين في (أفاديميا) وتبع جنازته كل من كان بأثينس .

وقد كان يرى أفلاطون أن المجتمع الكامل يتكون من (ثلاث طبقات : الأولى) طبقة للتشجيع وتشمل الزراعة والصناع ووظيفتها تحصيل الغذاء ومؤن الجملة (الثانية) طبقة الجند وعملها توسيع رقعة المملكة وحفظ كيانها ودفع الغارات عنها (الثالثة) طبقة الفلاسفة . ولها الزعامة الفكرية وولاية الحكم وعليها أن توفق بين العناصر المختلفة حتى ينقطع كل واحد لتأدية الواجب عليه . وإذا ذلك يسود العدل وتحقق السعادة : هذا هو العدل في المجتمع . أما في الفرد فهو ائتلاف قوى النفس وتعاونها وقيام كل قوة بعملها . ولتس قوى ثلاث قياسا على المجتمع (أولها) القوة الشهوانية وعملها تحصيل حاجات الجسم من طعام وشراب وفيها سباح وميل إلى الشر ومركزها البطن وفضيلتها العفة (وثانيتها) القوة الفضية ووظيفتها الدفاع عن الجسم وحفظه من الأذى ومقرها القلب وعدتها الشجاعة والصبر (وثالثتها) القوة العسكرية وموطنها الرأس وهي التي تسجل الحقائق وتدبر شئون الإنسان العامة والخاصة وفضيلتها الحزم والحكمة . وإذا تأملنا الناس وجدناهم (ثلاثة أصناف) فنصف تنطلي عليه القوة الشهوانية ويقضى حياته في تحصيل المال وما يقبضه من اللذات . ونصف تسوقه القوة الفضية إلى محبة الخصومة واستكمال أسباب الشهرة وبعد الصيت . ونصف تدفعه القوة العسكرية إلى استجلاء الحقائق . ولكل نصف من هؤلاء نوع من السرور يستمتع به . ولو أنك سألت واحدا من كل صنف عن منافع ما باقى في حياته من سرور لوجدته يفضل حياته على غيرها . فجامع المال

يرى في انقطاعه إلى عمله سرورا لاحد له . ومحب الشهرة يريد أن يمال عرصرزائل وأن العلم تباطل إلا إذا كان من ورائه شهرة واسعة وذكر بعيد ، وطالب العلم يحقر المال والشهرة معا ويجد السعادة في استجلاء الحقائق والوقوف على أسرار الله في خلقه، وإذا كان الأمر كذلك فمن أين لنا أن نقبل الرشدين النروهنندي إلى مكان السعادة ؟ إن صحة الحكم تتوقف على سمة التمييز ورفق للدارك والحكمة ، فطالب العلم هو الذي يستطيع أن يقضى في هذا الموضوع بالعدل ، فقد تملك الأشياء وجمع المال وهو صغير، وجرب احترام الناس له وأفاده علمه الحكمة ، وعلى ذلك أحسن أنواع السرور ما يبعث في النفس ويملا جوانبها إذا وجدت قوة العلم ، وحياة العالم مليئة بالسرور الذي لا يقبه ألم . أما الذين لا يعرفون للحكمة طعما ، ولا يذوقون للفضيلة حلوة ويقضون حياتهم في الاستكثار من ألوان الطعام والشراب وصنوف اللذائف فإتهم كالأنعام يمشون بطونهم ويتساقطون ويشعرون بقوة في جسامهم فيعتدى بعضهم على بعض ويقتلون حتى لا يبقى منهم باقية .

هذا ما أردت ذكره في فلسفة (أفلاطون) فلا تبعه بذكر [للذهب الأبيقوري] وينسب إلى أبيقور (من ٣٤١ - ٢٧٠ ق . م) ويتأخص في أن الخير الأسمى نوع من السرور يملأ النفس ، وفي أن السرور (فشان) جسمي مملوء بالاضطراب سريع الزوال ، وعقل هادي دائم ، ولا يستطيع الثاني إلا من قللوا رغائبهم وجعلوا مطالبهم محصورة في الضروري دون سواء وقد أساء فريق من الناس فهم هذا للذهب وظنوا أنه يدعوهم إلى الأخذ بأنواع السرور والتمتع باللذة العاجلة فاستباحوا لأنفسهم كل شيء وجروا وراء شهواتهم البهيمية . وأختم القول بما جاء في حكمة الرومانيين على لسان حكيمهم (سنيكا) وهذا نصه :

سأقابل الموت بوجه باسم ، وأرى مشاهد الحياة ، وما يجلبه القدر ، خيره وشره ، مطمئن النفس ، هادي البال ، وسأقوم بنصيب من أعباء الحياة مهما كان ثقيلًا مستمينًا بما لي من قوة عقلية إذا وهن الجسم وعز التصبر ، وسأحقر الفنى واليسار سواء أكان لي منه نصيب أم لم يكن ، ولن يملأ قلبي السرور إذا أقبلت الدنيا على غيرها . ولن تفيض النفس أسا إذا أدبرت عنى وتولت بزيتها ، وسأعتبر جميع بقاع العالم وطني ووطني ملكا لبني الانسان جميعا . وسأذكر دائما أني خلقت لتعري وأشكر الله على ذلك إذ ليست هناك غاية أشرف من هذه فقد وهبني للجماعة ووهبت الجماعة لي وسيدفعني إلى خير العمل ضميري وذمى وسأصفح عن المذنب قبل أن يسألني الصفح . ولن يغيب عنى أن الدنيا بأسرها مدينتي التي ولدت فيها . وسأجيب داعي الموت طائعا وأشهد الناس جميعا أنني أحب طهارة الضمير ونيل الغاية اه .

هذا ما اصطفته من فلسفة الأجيال الفاتنة وهي كلها في تهذيب الأخلاق ومعرفة العالم ونفع الأمم ، وتأمل كلام (سنيكا) فهو ينطق بقوله تعالى في هذه الآيات « واصبر على ما أصابك » وقوله « ولا تصمر خدك للناس » النخ . وههنا أقول لأمم الاسلام هذه عيون حكمة الأمم التي عرفوها بقولهم ، فلما جاء الاسلام وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم القرآن أدرك هذه المعاني أصحابه كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم فنفخوا الأمم شرقا وغربا ثم نام المسلمون نوما عميقا ، نبي جاءه وحى لحص فلسفة الأمم التي لم يقرأ عنها حرفا ولم يدرس كتابا فهز الأرض هذا بجله وأصحابه بعده ، أليس هذا هو قوله تعالى « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » فهؤلاء الفلاسفة عرفوا الصبر والثبات ومحاسن الأخلاق وحب الله ونفع الناس والخوف من ربه بمجرد محمهم بالعقل فلما جاء نبينا صلى الله عليه وسلم أوحى الله إليه هذا كله ، إذن هذه أكبر معجزة ولقد تبين لي حقا وصدقا أن الأجيال القليلة بعد هذا التفسير هي التي فهمت معنى قوله تعالى « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » وهم هم الذين يقولون آية « ولقد آتينا لقمان الحكمة » وهم المؤمنون الأعلون شرقا ، فياليت شعري ماذا حل بآبائنا الأولين بعد العصور الأولى ، كرهوا العلم وكرهوا الحكمة فانقطعت سلتها بينهم وفرت هاربة إلى أوروبا وبقى الصوفية وعلما ظواهر الدين و « سيجعل الله بعد عسر يسرا » .

وللنجيم من بعد الرجوع استقامة وللشمس من بعد الغروب طلوع

ولما وصلت إلى هذا المقام اطلع على هذا أخى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى في هذا التفسير فقال لقد أحسنت صنعا وأجدت وضعا وأبنت كيف كانت نتائج العقل الانسانى في القرون الأولى هي هي نتائج الوحي المنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم وكيف يفهم الناس « ولقد آتينا لقمان الحكمة » وكيف يدركون مغزى « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » وأنى ليدهشنى أن أرى أبا بكر وعمر وأمثالهما ساروا في حياتهم وطرق أعمالهم على النهج الذى رسمه القرآن وكانت النتائج أشبه بما يقوله هؤلاء الحكماء ، فها هو ذا عمر رضى الله عنه قد جاهد فى الله والحق حتى قتل أبو لؤؤة غيلة ، ومثله سيدنا على لقيامه فى أعماله بالقسط والعدل قتل غيلة ، وهانحن أولاد نرى (سقراط) قام بالحق حتى حكم عليه بالقتل لالتقى سوى أنه يعلم الناس الحكمة ، وهكذا نجد (سينكا) الرومانى عاهد الله ألا يقول إلا الحق وألا يبالي بالمرض ولا اللوث ولا الفقر ولا يفرح بالثنى وهكذا .

إن هذا والله هو العلم وهو الصدق إذا لم يكن فى دين الاسلام سوى (سورة لقمان) لكفت فى صدق النبوة أولا وفى نظام الأمة ثانيا . فياغفلة الأمم الإسلامية التأخرة ، وياحسرة على السليين ما بأنهم من عالم إلا كانوا به يستهزئون .

ثم قال : «والآن خطر لى سؤال أحب أن أسألك ، فقلت حبا وكرامة ، فقال هذه هي الحكمة التى أتجتها عقول الأولين وهذا هو دين خاتم المرسلين ، هما اتفقا أصولا ، فلذا رأينا أمثال أبى بكر وعمر قد شادادولة ونظما أعمالا وأدارا دولاب نحو نصف الكرة الأرضية ولم نر لسقراط ولا لأفلاطون ولا لأرسطاطاليس مثل هذا العمل العظيم ، ولقد اطلمت على جمهورية أفلاطون وقد سبق فى هذا التفسير حمل منها كالتى جاءت فى (سورة النحل) عند قوله تعالى « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » التى فيها علم غزير وبحت وتنقيب ولكن لم نجد لذلك عمرا كالتى رأيناها فى أمم الإسلام ، فقلت ان هذا السؤال حسن وكثيرا ما يخطر لى ، وأجيبك عليه بعون الله ، إن دين الاسلام (قمان) . إسلام وإيمان ، فالإيمان يرجع للواطن كالصدق والإخلاص واليقين وما أشبه ذلك ، فإن الإنسان متى أيقن بأن له خالقا وله أوامر جد فى التشهير عسى أن يلقاه ، فأما الإسلام فهو العبادات من الصلاة والصوم والزكاة والحج والنطق بالشهادتين ، فهذه الظواهر تجمع الناس فى عمل واحد فهم يصلون معا وتكون الزكاة رابطة بين الثنى والفقير والحج يجمعهم ، فهذه الشرائع الظاهرة التى يكلف الناس بها نتائجها نظام الدولة والملك ، فأما إصلاح المواطن وحده التى شاركت الفلسفة فيه الدين فهو لا يبدو إزالة الجهول ، فأما إصلاح الظواهر ونظام الأمم فهذا دواؤه : فإذا أرادت أمة إسلامية أن تلم شعبا وتقوم من رقدتها . فها هو ذا الباب مفتوح على مصراعيه ، وها هو ذا عبد العزيز بن السعود والنجدى يقوم بنشر شعائر الإسلام كأيام الصحابة ، فها هو ذا عزى الجانب مرهوب مع أن الأمم كلها مدججة بالسلاح والكرام والحمد لله رب العالمين ، كتب يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٩٢٩ .

﴿ زهرة من بساتين الحكمة ﴾

وهى فيما كان يلقبه آباؤنا الأولون على مسامح الشبان لعشقوم فى الحكمة ومحييوم فى جمال هذه الدنيا وبهائتها وعجائب الله عز وجل أيام صولتهم فى إبان دولتهم وقيام عزم وظهور مجددم فى العالمين ، فهناك ماجاه فى (إخوان الصفاء) المؤلف فى القرون الأولى صفحة ١٩٦ فى المجلد الرابع فى الطبعة الهندية فلا تحسه لك حتى تأخذ زبدته ولبه وترى بقشره « والله هو الولى الحميد » .

قال : ذكروا أن ملكا من ملوك الهند كان واسع الملكة عظيم السلطان وكان يبذل الأستام ولا يعرف الأنبياء ولا اليوم الآخر ولا رب الأرباب ولم يرزق بولد إلا في كبره وأخبره النجمون بأنه يطول عمره وينال ملكا وسلطانا وسلطانا لا يشبه ملك الأرضين ولا سلطان الجبانيين ، بل ملك السمايين وسلطان الروحانيين فلما تربى ذلك الغلام وترعرع أفرد له أبوه منزلا وبني له قصرا أسكنه فيه ووكل به الحفظة وشحنه بالخدم ومنع أن يصل إليه أحد من العامة ، فلما نشأ الغلام وترعرع رزق من الفهم والدكاء ما لم يرزق أحد غيره من أهل بيته ، ثم علم آداب أبناء الملوك من القراءة والكتابة والشعر والفصاحة والنحو واللفظة والحساب والنجوم والهندسة وما يليق بأولاد الملوك من العلوم والآداب ، وكان صافي النفس حى القلب ، كثير التفكير في ملكوت السماء وأمر الصانع وكيفية المبدأ وأمر المعاد وأحوال القرون الذين مضوا وانقضىوا ، أتى إلى ماذا صاروا وإلى أين ذهبوا حتى منعتة الفكرة عن الأكل والنوم والتمتع ببلدات النعيم في الدنيا وشهواتها فأسهر ليله وأطال نهاره وتحنى أن يجد أحدا يسأله عما في نفسه ويذاكره بما في قلبه فلم يجد أحدا حتى فشا حديثه في الناس وكثر الثناء الجليل عليه ، وانتشر ذكره في الآفاق ، فسمع خبره حكيم من حكماء بلاد (سرنديب) فطمع في رشده ورجا أن يكون هاديا رشيدا وفيلسوبا حكما يقصد نحو بلاده واحتال حتى دخل إليه ففرح به الفتي ، وكان مما جرى بينهما أن قال له [أخبرني لم يذم الحكماء أمور الدنيا ويهدون في نعيمها وهي دارهم التي نشئوا فيها ومسكن آباءهم الذين ربوهم] . فأجاب لأنها تصغر في أعينهم إذا شاهدوا أمر ملكوت السماء ويستقلون نعيمها في جنب ما يعرفون من نعيم أهل الآخرة كما صغر حال ذلك المسكين في أعين الملك ووزيره قال كيف الفتي كان ذلك ؟ قال الحكيم ذكروا أنه كان ملك من ملوك الهند عظيم الشأن عزيز السلطان واسع الملكة حسن التدبير والسياسة عادل السيرة في الرعية ، وكان مع ذلك يعبد الأستام تقليدا . يقرب لما القربان ويعظم شأنها ويحسن إلى أهلها على عادة جارية قد اعتادها من الحدائث والعيا من غير فكر وروية في شأنها وكان له وزير خير عارف بصير قد عرف ملكوت السماء وبناء اللأ الأعلى وأمر المعاد والمبدأ وكيفية الوحي للأنبياء عليهم السلام وعلل سنن الديانات ومرامى رموزات النواميس وأسباب أحكام الشرائع وما الغرض الأقصى منها ؟ وما حقيقة معانيها وخفيات أسرارها ودقائق إشاراتها وما قصد واضعوها وما النفع العاجل منها ؟ وما المطلب والغزى في الأجل منها . ثم إن ذلك الوزير مكث دهورا طويلا يطلب الفرصة لحطابه إلى أن انفق أن قال له الملك ذات ليلة بعد ما فرغا من النظر في أمر الرعية وتبدير السياسة [هل لك أن نخرج الليلة متنكرين لعرف حال المدينة وتنجس أحوال الرعية ، وننظر إلى آثار المطر وكيفية حال البلاد ومصالح العباد فخرجا يطوفان حول المدينة متنكرين نينا كما كذلك إذ هما بضوء من بعيد فامتدنا نحوه حتى دنيا منه فإذا هما بمزبلة شبه راية عظيمة عليها جيف مرمية وسماد طرية منقنة الرائحة وإذا في أسفلها ثقبه شبه المغارة وإذا في أقصى داخلها رجل قاعد مشوه الخلق على دكة قد أصلحها من بين سماد ورماد تلك المزبلة وقد فرش تحته من خرق تلك المزبلة شبه بساط وعليه مدرعة قد خاطها شبه مرقعة وفي رجله تبان (١) وعلى رأسه شملة مثل ذلك وإذا بمحذاته امرأة تشبه في الخلق والتشوه وعليها كسوات شبه درع وخمار ومقنعة مثل ما عليه من خرق تلك المزبلة وإذا بين يديها سراج من خرق فوق آجرة شبه منارة وبجنبه جرة مكسورة فيها دردى كالحل وقد مزجه بيسير من ماء وإلى جنبه سلة خوص فيها ناقت كرفس وكراث وييد كل واحد منهما مشربة مكسورة يغترفان من تلك الجرة ويشربانها وإذا على غده قصبه قد مد عليها خيطا شبه قوس النذاف

(١) التبان كرمال سروال صغير يستر العورة .

وهو ينقر عليها بقضيب في يده ويخني بأبيات غير موزونة خارجة من الإيقاع وإذا به يذكر في تلك الآيات حسن تلك المرأة ويصف جمالها وشدة عشقه لها وإفراط محبته إياها وإذا بيدها خشبة غربال مكسورة قد مدت عليها قطعة جلد غير مدبوغ جائفة منتنة الرائحة شبه الدف وهي تنقر إذا غنى هو وترقص وتثنى بين يديه وإذا شرب كل واحد منهما سار صاحبه وحياء بتأفة من ذلك الكرفس والسكرات وهي تثنى عليه بالحسن والجمال كأنه يوسف الصديق وتسميه (شاهنشاه) ملك السلوك وهو يسميها كديانوية سيدة النساء ويشرب ويسر بها ويثنى عليها ويصفها بالحسن والجمال ما يقصر وصف الحور العين في جنب ذلك وإذا شربا سأل الله ألا يعدهما ما هما فيه ولا يغير ما بهما من نعمة وأن يقيهما على تلك الحال أبدا ما بقي الدهر . فلما أبصر الملك والوزير ما هما فيه من اللذة والسرور والفرح طال وقوفهما متعجبين من حال ذنك المسكينين ثم قال عند ذلك للملك للوزير ما أظن أني في طول حياتي وعز سلطاني ونعيم ملكي وأيام شبابي ومجالس الهوى مع تمكني من شهوتي بلغ مني الفرح واللذة والسرور ما يصف هذان المسكينان الحقيران الوضران من حالهما ومع هذا كله أظن أنه لا يفوتهما هذه الحال كل ليلة إن أرادا لأنه لا يعرض لها شيء من العوائق التي تعرض لنا من الأشغال للامانة عن فراغ مجلس اللذة واللهو مثل خروج الخوارج في أطراف المملكة واضطراب النواحي وشغب الجند وطلبهم الأرزاق وما شاكل ذلك .

ولكني أظن أنه لو كان هذان المسكينان دخلا منازلنا وألبسا ثيابنا وأبصرا مجالسنا وذاقا من طعامنا وعانينا أحوال ملكنا وشاهدا عز سلطانتنا وعرفا لذة نعيمنا مرة واحدة مقدار ساعة ثم ردا إلى حالهما لما تنهيا بالعيش بعد ذلك ولا وجدا لهذه الحال الشكرية التي هما فيها لذة أبدا وصغر في أعينهما ما هما فيه من اللذة والفرح والسرور ، فلما فرغ الملك من هذا الخطاب وسمع الوزير قول الملك قال الوزير لذلك أخاف أيها الملك أن تكون فيما نحن فيه من عز سلطانتنا ونعيم ملكنا ولذيد شهواتنا وسرورنا بأحوالنا وفرحنا بما خولنا مغرورين كغرور هذين المسكينين بما هما فيه ونحن محقرون وجميع أحوالنا في أعين قوم آخرين كاحتقار هذين المسكينين بالنسبة لأحوالنا ، فلما سمع الملك قول الوزير استكبره واستعظمه ، فقال له وهل تعلم في الأرض اليوم مملكة أوسع من مملكتنا أو سلطاننا أعز من سلطانتنا أو بلدنا أكثر نعمة من بلدنا أو مروءة أحسن من مروءتنا ، قال له الوزير لا ، قال الملك فمن هؤلاء القوم الذين زعمت أنه يصغر حالنا في أعينهم ويستحقرون أمرنا قال قوم يقال لهم النساك فقال الملك أين بلدهم ومن أي ناس هم قال من قبائل شق متفرقين في المدن وفي الآفاق والبلاد يجمعهم دين واحد ومذهب واحد ورأي واحد قال صف لي مذهبهم وحالهم قال هم أمناء الله في خلقه وخلفاء أنبيائه وأئمة لعباده وليس في الناس منهم إلا نفر يسير لأنهم في الأنام كالملح في الطعام ، بسؤالهم ينزل الله القطر من السماء والبركات في الأرض وبدعائهم يرفع الله عن العباد القحط والعلاء والوباء ومنهم حفاظ كتب الله وعلماء تأويلها فقال للملك ومن أنبياء الله فقال الوزير هم طائفة من بني آدم اصطفاهم من عباده وقربهم وناجاهم وكشف لهم عن مكتون أسرار غيبه وجعلهم أمناء وحيه وسفراء بينه وبين خلقه أرسلهم من عالم الأرواح القدي في ملكوت السماء إلى عالم السكون والفساد في الأرض وأنزل معهم الكتاب ليدعوا عباده إلى جواره في الجنة التي كان أبوهم آدم فيها ، فقال الملك وما آراء هؤلاء الأنبياء قال آراؤهم يعرفها أتباعهم وأفضل أتباعهم فتیان أدكياء لهم نفوس صافية وقلوب واعية بريثون عن الآراء الفاسدة غير معتادين للعادات الرديئة أو مشايخ مهذبون في العلوم الرياضية ، محبرون الأمور السياسية ، محبون للعلوم الإلهية ، غير متعصبين في المذاهب المختلفة والآراء المتناقضة ، أو نفوس ملكية لها هم عالية في طلب مراتب الملائكة والأمور السباوية والمفولات الروحية والوجود المحض والبقاء الدائم والدوام السرمدي . قال له أخبرني ماذا يصفون الحكماء من أصناف الخلاق هكذا

قال يقولون لا يعلم عددهم إلا الله كما لا يحصى عدد الخلائق الذين هم في الأرض من أجناس الحيوان من الأنعام والسباع والوحوش والطيور والهوام والحشرات والدواب وحيوان الماء والبحار أجمع وأصناف بني آدم من أجناس الأمم من: الترك والحبش والزيج والتوبة والعرب والعجم والفرس والروم والهند والسند والصين والنبط والزلطو والأكراد وأجوج ومأجوج والسيسان وأمم أخرى غير معروفة عند كثير من الناس وكل هؤلاء مختلفو الألسن والألوان والأخلاق والطباع والعادات والأعمال والأفعال والصنائع والآراء والمذاهب من أهل المدن والقرى والسواحل والجزائر والبراري نحو من سبعة عشر ألف مدينة تملكها نحو من ألف ملك . هذا في الربع المسكون من الأرض . على أن الأرض مضمرة بجميع ما عليها من البحار والجبال والبراري والأنهار والعمران والحراب ما هي في فسحة سعة الهواء إلا كحلقة ملفاة في بركة صحراء وفضل سعة كل واحد من الأفلاك التسعة على الهواء كفضل البرية على تلك الحافة ؛ أفترى أيها الملك أن الخالق تعالى ترك تلك الآفاق الواسعة مع شرف جوهرها وشرف جوهر تلك الأجرام وطيب نسيم تلك الأمكنة فارغة خالية لم يعمل فيها أهلا وسكانا وخلائق تليق بها وهكذا أنه لم يترك البحار الأججاج الأمواه حتى خلق في قرارها الزاخرة أجناسا من الحيوانات وأنواعا من السمك والحيتان وهكذا جوهر الهواء الرقيق لم يترك فارغا حتى خلق فيه أجناسا من الطيور كما يسبح السمك في الماء وكذلك هذه البراري اليابسة الجافة لم يتركها خاوية حتى جعل فيها أجناسا من الوحوش والسباع والأنعام وكذلك الآجام والآكام ورموس الجبال وبطون الأودية وشطوط الأنهار حتى خلق في لب النبات وفي ثمر الشجر وفي جوف الحب حيوانات مختلفة الصور والأشكال . انتهى ملخصا من كتاب « إخوان الصفاء » والحمد لله رب العالمين .

(آثار الحكمة في الأمم الحاضرة)

لقد تبدت لك أيها الدكي آثار الحكمة في الأمم القديمة ورأيت دواضنضيرا وعلما غزيرا نبغ من قلوب اصطفاه الله وقال لنا « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب » وقال « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب » .
حيا الله الحكمة والعلم ، أسبغ الله النعم على الناس ظاهرة وباطنة وملا الأصفاع في زماننا بالحكمة فهل في شرعة الإنصاف أن يكون للمسلمون أول أمة نبغت في أن نحسن من مهاجمة جنود الحكمة بلادها لتعمر أحياءها ونصرتها شياطين الإنس والجن على انهزام تلك الجيوش الجرارة التي أرسلها الله في كل مكان . للمسلمون وحدم هم الذين قهروا الحكمة وصدوها عنهم . نعم قبلوا أن يقرءوا ألفاظ حكمة لقمان ولكنهم امتنعوا امتناعا عن تناول معناها . أفلا ترى أيها الدكي والأسى عملا الأفتدة أن هذه الأمم الاسلامية فعلت ما تفعله حشرة (الأرضة) التي سيأتى شرحها في (سورة سبأ) إذ تذهب جنودها إلى الأشجار العظيمة الباسقة وسقوف المنازل وشبايكها فتأكل ما في داخلها ولا يبقى إلا ظواهرها تدليسا على أهل المنازل والحقول حتى إذا جلس الإنسان إلى جانب تلك الأشجار مثلا رآها بمجرد اللامسة تنهار انهارا لأنها من داخلها خاوية .

هذا والله مثل أضربه للأمم الإسلام من حيث الحكمة . البلاد جاهلة خالية من الحكمة ولكن الناس يقرءون القرآن ويقرءون سورة لقمان أي يقرءون ألفاظها ولكنهم لا يعبرون معانيها التفاتا وبالعمى والعمل تكون الحياة ولا آخرة إلا بدنيا وأين دنيانا ؟ ترك المسلمون علوم الحكمة كلها واكتفوا بالتمنى بألفاظها في القرآن فأحكموها الظواهر وختل البواطن . اللهم إليك المشتكى . أنا من الأمة المصرية التي تبلغ الآن ما يتوف عن (١٤) مليوناً حكمهم لم يتعلموا ولم يتعلم في بلادى إلا أمة القبط الذين لم يبلغوا مليوناً

ويكادون يكونون جميعا متعلمين رجالا ونساء ، فأما المسلمون فقد يمر الإنسان في بلاد كثيرة فلا يجد فيها من يحسن الكتابة والقراءة اللهم إلا قارىء القرآن بلا عقل ولا فهم . لم يتعلم من المسلمين اليوم أكثر من بضعة أفراد في المائة والبقية جهلاء مع اشتهاى مصر الآن بأن التعليم فيها راقى . وهذه هى الحقيقة المؤلمة . فإذا كانت نسبة المتعلمين فيها اليوم عدالأصابع فى المائة فهذه أكثرها أبناء الأقباط الذين هم الأفلون . أما الأكترون فإنهم جاهلون .

كل ذلك بسبب ما رسخ فى العقول من آراء صغار الشيوخ الجهلاء وبعض رجال الصوفية الذين اتخذوا التصوف حرفة يعيشون بها . هذه هى الأمة الإسلامية الآن .

أيها اللدكى . لانتعجب إذا أممعتك ما جاء فى جرائدنا المصرية عند كتابة هذا الموضوع فى حوادث فلسطين فهل تصدق أن أمة من أمم أوروبا تأتي باليهود للشنتين فى الأرض وتجعل لهم وطنا قوميا فى فلسطين مسكن للعرب إلا إذا كان أبناء العرب جهالا ، فهم فى نجد والحجاز واليمن ومصر وشمال أفريقيا والسودان لارابطة تربطهم ببعضهم ولا بأمم الإسلام الأخرى . ذلك كله من عدم الحكمة التى قال الله إنها خير كثير ومن عدم العلم الذى لم يسو الله بين المتصف به وغير المتصف به بل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لنا ذلك لتكون على بينة . حقا أسكن الإنجليز اليهود فى بلاد فلسطين . لماذا ؟ لأن أمة العرب لاسلاح عندهم كسلاح أوروبا وأوروبا متحدة علينا . لماذا لأننا جهلاء . فاقرا ما سأكتبه هنا الآن ولا تعجب لأن الله يقول « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيا ففسقوا فيها لحق عليها القول فدمرناها تدميرا » وإياك أن تظن أنى أكتب هذا وأنا يائس كلا . والله لو تطرف اليأس لقلبي ما كتبت حرفا ولكنى أقول إن هذا التفسير وأمثال هذا التفسير وأحوالا أخرى سترفع هذه الأمة إلى العلاء مرة أخرى ولكنها ستكون فى المستقبل أعلى وأغلى وأدوم . فهالك ماجما فى جريدة الأهرام فى يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٩ م وهذا نصه :

حوادث فلسطين

(التحقيق فى حوادث فلسطين والحقائق التى ظهرت للآن)

أثبت التحقيق الذى تقوم به الحكومة فى فلسطين إلى الآن ما يأتى ملخصا عن تقرير رفع إلى حكومة فلسطين:

(١) إن الدين قتلوا وجرحوا من العرب فى القدس أصيبوا برصاص بنديقيات ومدسات وشظايا قنابل يدوية .

(٢) إن اليهود وحدم كانوا يستعملون القذائف اليدوية .

(٣) إن أول امرأة قتلت هى امرأة على مطاوى ، وأول طفل قتل هو طفلها ، وأول عائلة هوجمت

منفردة هى هذه العائلة .

(٤) إن حوادث الخليل لم تبدأ إلا بعد قتل العائلة العربية المنفردة فى القدس وذبوع خير الفطائح التى

اقتربت معها وأن تقرير الأطباء البريطانيين الرسمى أثبت أن قتلى اليهود فى الخليل لم يمثل بهم .

(حول رجال التحقيق)

راجع الجمعية الإسلامية بحيفا جماعة من عربان الحمدون وأبلغوها أن البوليس فى (زمارين) قد دام بيتى محمد المحمود وحسن السليم من عرب الحمدون أيضا للتفتيش عن الأسلحة ولما لم يجد شيئا ألقى القبض على الرجلين وزجهما فى غياهب السجون وأخذ يسيمهما كثيرا من أنواع العذاب ليدفعهما إلى الإقرار بأن

لديهما الأسلحة التي يزعم وجودها . ولاحال أوفدت الجمعية الإسلامية من قبلها الدكتور رشدي افندي التيمسي لمعاينة الرجلين فأبى بوليس زمارين السماح له بذلك لولا أن تصادف وجود قومندان البوليس تيودور عبود هناك فأذن له فأجرى معاينة الرجلين بحضوره فإذا به يكتشف آثار فظيعة من الضرب والتعذيب تشعر منها الأبدان فوضع بذلك تقريرين مفصلين ختمهما بقوله « إن الرجلين سبقيان معطلين مدة عشرة أيام يلزم بعدها معاينتهما ثانية لينظر في حالة العوارض المرضية المحتملة حدوثها » .

وكتب أحد سجناء الخليل الوطنيين يصف الآلام المبرحة التي يقاسمها ومن معه والعاملة السيئة التي يلاقونها من سجانهم قال « مضى لي ١٦ يوما وأنا موقوف لسبب لا أدريه ، وإنما بلغني أن أحدهم قد وثى بي بأني كنت أحض الأهلين على قتل (الستر كفرانا) ضابط البوليس في أثناء الاضطرابات ؛ وقد بقيت الثلاثة الأيام الأولى بدون طعام وشراب حتى كدت أهلك جوعا وعطشا لولا أن قدم لي مأمور السجن في اليوم الثالث قطعة من الخبز الجاف وبعد إلحاح شديد جاء إلى طبيب مع ضابط وطبق لمعاينتي ، فبعد أن نظر آثار الضرب للبرح والتعذيب القاسي ظاهرة على جسدي لم يسهه إلا أن يحول وجهه عني متمتا قائلا « لا حول ولا قوة إلا بالله » وكذلك اقتصر وجه الضابط من هول ما رأى » .

أما باقي السجناء ويبلغ عددهم للثنتين فلا تسألوا عن حالتهم للؤلؤة فقد حشروا في غرف ضيقة وهم ينامون أكديسا وكلهم جائع ويلاقون صنوقا من العذاب . ويقال إن حالة اللوقوفين العرب في السجون الأخرى لا تقل عن حالة مسجونى الخليل وزمارين .

﴿ عطف السلطة على اليهود ﴾

طلب غرامة المندوب السامى من وزارة المستعمرات أن تصادق على صرف عشرة آلاف جنيه لمنسكوبى اليهود ، وقد وافقت الوزارة على هذا الطلب وصرفت منه بصورة مستعجلة مبلغ ألفي جنيه كأن غرامة المندوب السامى قد صادق على قرار إعفاء بلدية (تل أبيب) اليهودية من مبلغ (٧٥) ألف جنيه كان دينا عليها لخزينة البلاد كما أنه عمم على كافة دوائر الحكومة نشره جاء فيها أنه يرغب في أن تساعد هذه الدوائر للتوسلات والسلطات اليهودية على عمل الإسعاف والبناء الجديد الذى أصبح ضروريا بعد الاضطرابات الأخيرة . هذا عدا أن هناك نحو (٩) آلاف يهودى في القدس وأكثر من ألف يهودى في حيفا من سكان المستعمرات الذين تعتبرهم الحكومة لاجئين وهم في الحقيقة نجدات جاءت لمقاتلة الوطنيين . وهناك أيضا مطالب بالتعويضات عن الخسائر قدمها اليهود وينظر فيها للستر ابراسون الصهيونى القمع . وهناك دعاوى واتهامات من اليهود على العرب ينظر فيها للستر (بيتوتش) رئيس النواب العامة وللشريع الفلسطينى الصهيونى .

هذا ومن حوادث عطف الحكومة على اليهود أن مفاوضات جرت بين الجمعية الصهيونية والحكومة فرغامة المندوب السامى بعدها أن ترسل قوة إلى غزة مع منسكوبى غزة اليهود الذين لجئوا إلى (تل أبيب) في الاضطرابات الأخيرة ليتفقدوا بيوتهم ومحلانهم ويحضروا ما فيها إلى (تل أبيب) حيث قرروا أن تكون سكناهم نهائيا . ولذلك روع الغزويون عند ما رأوا رجال البوليس يرايطون في بعض شوارع البلد يحملون العصى الطويلة ثم فهموا السر عند ما رأوا القطار يصل مقلا عددا من اليهود محرهم الجند الأنجليز فيذهبون إلى بيوتهم ويأخذون ما فيها ويعودون من حيث أتوا .

﴿ معاملة العرب في فلسطين واحتجاج اللجنة التنفيذية في القاهرة ﴾

تلقت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى تقارير مطولة من جميع أنحاء (فلسطين) تبنت بالوثائق والأرقام أن السلطة تقبض على العرب زرافات زرافات مستندة على أقوال الصهيونيين حتى غصت السجون

بالأبرياء وأنها تتعامل للمتقنين بقسوة لا مثيل لها وتهاجم القرى الآمنة وتسوق سكانها إلى السجون بلا مهرد حتى استولى الرعب على أهالي البلاد وسادها حكم الإرهاب من أديانها إلى أقصاها مما اضطر كثيرين من سكان البلاد إلى اللجوء إلى الجبال . وعلى أثر ورود هذه التقارير أبرقت اللجنة التنفيذية إلى الندوب السامي في فلسطين الاحتجاج التالي .

« نخامة للندوب السامي بالقدس . كانت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني تأمل في نجاتكم أن تظهروا من المدل في مطامعة العرب ما يدعو التأثير السيء الذي أحدثته منشوركم الصادر على عجل في أول سبتمبر ، ولكن الأنباء التي ترد إلينا بلا انقطاع من جميع أنحاء فلسطين تدل على أن هذا الأمل لم يحقق لسوء الحظ . فاعتقال العرب زرافات لمجرد افتراءات خصومهم وقبل كل تحقيق ، والقسوة التي يعامل بها المعتقلون في معتقلاتهم والظلم الواقع على قرايم الآمنة والرعب الذي استولى على نفوس الأبرياء من جراء سلوك البوليس وتوالي اعتداءات الصهيونيين . كل ذلك كنا نرجو من نجاتكم تلافيه مراعاة للمدلل وحفظا لسمعة بريطانيا في الشرق ، فاللجنة التنفيذية تخرج بشدة على هذه الأعمال المخالفة للمدلل والقانون وتلفت نظركم بالحاح إليها آملة من عدالتكم الإسراع في وضع حد لها . »

السكرتير العام

ولما كتبت هذا حضر صاحبي الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير فقال هذا حادث يبكي ويحزن ويجعل في القلب يأسا . فقلت أين أنت من قوله تعالى « ولا تياسوا من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون » هذه أمراض تناب الأمم ، ولولا هذه الأمراض لم تستيقظ الأمم ، نحن نجوع وجوعنا ضربة لازب لسعتنا ، الجوع ألم ولكن هذا الألم نعمة وعدم هذا الألم نعمة ، الأمة كلها جسم واحد وإصابة فرد أو أفراد منها إصابة لأعضائها وبهذه الإصابة يكون الألم وهو كآلم الجوع ، فلا سييل لرقى الأمة واستيقاظها إلا بألم تحس به الأمة في أفرادها كما يحس الإنسان بألم في أعضائه . إذن هذا الألم بالتمدى على فلسطين نعمة لا قسوة ، ولن يكون نعمة إلا إذا أدرك للسلمون الخطر وأخذوا يتعلمون الحكمة والعلوم وإلا كان نعمة ، وهذا إن شاء الله لا يكون كما قدمناه . ولقد جعل الله الجوع لسان صدق يخبرنا بالحاجة إلى الطعام فنحن نأكل اتقاء ألم الجوع واستلذاذا بالطعام ومضى أخذنا حاجتنا سمعنا ناديا بنا دينا من الداخل أن اتركوا الطعام وهو للسي بالشيء ، هذا هو الجوع لللازم للإنسان ولكل حيوان عند افتقار الجسم لما يقويه ، وهناك ألم أعظم للمحافظة على الجسم كله وهو المرض الكثير الأنواع يظنه الناس نعمة ولكنه نعمة ، إنه كالجوع فنسبة آلام المرض إلى تماطى الهواء كنسبة آلام الجوع إلى تماطى الغذاء ، ولو أن الناس لم يجوعوا لم يأكلوا ولم يتألموا من المرض لم يتداؤوا ، فالألمان نذيران وما عليهما إلا البلاغ ، ومن اطلع على طبقات اليد وهي (١٢) في (سورة المؤمنين) مرسومة وقرأ أن تحت طبقة الجلد طبقة الأعصاب (وما الأعصاب إلا جنود الجسم) أدرك السر للسون وعرف أنه لولا هؤلاء الجنود ماتت أكثر الحيوان بالموارض ، فهذا النذير هو العاصم من تمام الالتاف ، ثم إن الجوع كالشرطة لحفظ الجسم من داخله ، وألم الأمراض الذي تحمله الأعصاب وتوصله إلى محل الإدراك من الجسم أشبه بالجنود المحاربين ليدافعوا عن الدولة ، ثم إن الأمة كالجسم والأفراد كالأعضاء والأخبار للنشورة في الجرائد مثلا كالإحساس الساربي في الأعصاب إلى مركز الإحساس في المخ ، فألم العرب وبصية للمسلمين اليوم يألمون لما أصاب طائفة منهم بجهة فلسطين ، فإذا فعلوا ما فضل الجائع من الأكل والرييض من التداوي فقد أفلحوا وهم فائزون . ومثل الجوع والمرض النيرة والحسد والتبقة وأمثالها كالدواة فهذه كلها خلقت للمسابقة في الحياة .

قال صاحبي أراك انيوم تلهج بالحكمة كثيرا فهل للحكمة مفضل في مثل هذه الحوادث ؟ وأي مناسبة بين

استيطان اليهود ربوع (فلسطين) وبين الحكمة ؟ قتلت الحكمة تقدم إضاحها وبيان أنها نظام العلوم كما أن الشمس نظام المجموعة الشمسية ، فمن الشمس تستمد السيارات ومنها الأرض ومنها يكون الليل والنهار فهكذا الفلسفة أو الحكمة كما تقدم عن (يكون) الفلاسوف إذ جعل العلوم الرياضية والطبيعية مسماة باسم التواريخ وجعل نظام الطبيعة وعلم النفس والأخلاق ونظام الملوك والسياسة وعلم الجمال كلها علم الحكمة وهكذا معرفة صانع العالم الخ فالحكمة تشرف على العلوم وتنظمها . إذن لا بد لها من العلوم والعلوم بها حفظ كيان الأمم . فلو عرف المسلمون العلوم كما عرفها اليهود المشتقون النابغون في حوز المال والاقتصاد والعلم والحكمة ما حقرهم الانجليز وأزلوا اليهود بساحاتهم ، ولكن هو الجهل الخيم في ربوع الإسلام قد فتك بهذه الأمم وأطمع فيها الأمم الحكيمة التي سلطها الله علينا لإيقاظنا .

فقال صاحبي . إن اتصال الحكمة التي شرحتها هنا تفسيرا للإية بأحوال الأمم الإسلامية وغيرها ما هو إلا قول مجمل . فلو أنك ذكرت طرفا عما أبدعت الحكمة في الأمم الآن لكان لها أثر وكان ذلك نورا ربهجة وجمالا . قتلت انظر ما يلي :

﴿ عجائب الضباب في العصر الحاضر . وقدرة الإنسان على الطواف حول الأرض في أقل من شهر

وعجائب « جراف زبان » وغيرها ﴾

ها أنا ذا أحدثك عن بعض نتائج العلوم الطبيعية في رقي الأمم وغلبها وقد حرمتها للمسلمون (انظر ماجاه في تفراف من برلين في ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٩ حين كتابة هذه الأسطر وهذا نصه :

(نتائج تجربة الضباب الصناعي)

[أجريت التجربة الثانية بنشر الضباب الاصطناعي في (ترافيموند) وقد حلت في الجو سبع طائرات لمراقبة فعل الضباب ، ولما بدأت التجربة أطلق ضباب كثيف ، فبعد اثني عشرة دقيقة غطى جوا الأماكن التي أطلق فيها حتى اضطرت السيارات إلى الوقوف عن السير لعدم تمكنها من رؤية الطريق ، وظهر للطائرات المراقبة أن هذا الضباب يستر وجه الأرض حتى لو كانت هناك طائرات مهاجمة لما استطاعت أن تصيب هدفا] اه
ولئن عجبت مما تقدم ليزيدنك عجبا ما يأتي فقد جاء في مجلة كل شيء ما نصه :

﴿ تاريخ التطواف حول العالم ﴾

(من ماجلان إلى أكثر أول رحلة حول العالم تستغرق أكثر من ثلاث سنوات وآخر رحلة تم في بضعة أيام)

بمناسبة رحلة (جراف تسبلن) الأخيرة حول العالم)

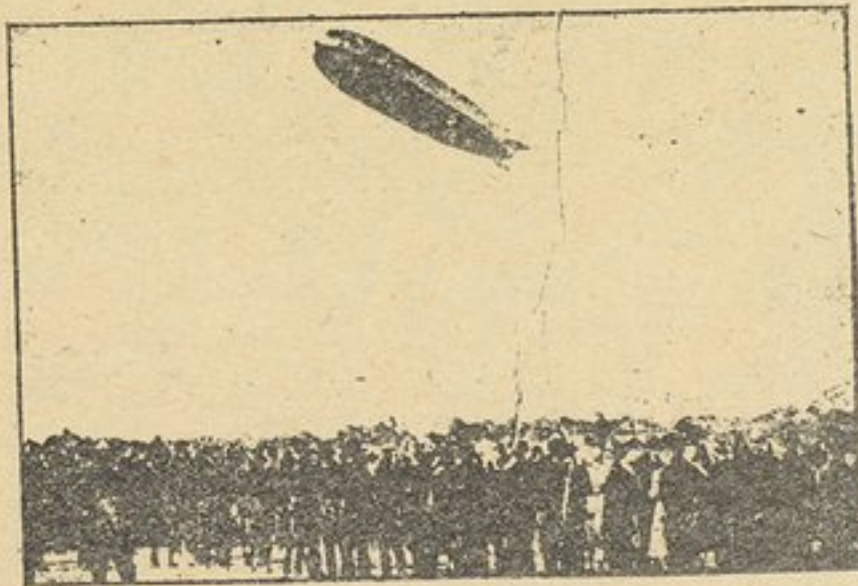
دار البلون الألماني (جراف تسبلن) حول العالم في بضعة أيام وكان يحمل المسافرين من قطر إلى قطر أو من قارة إلى قارة وما زال في مطافه حتى رجع إلى (فردر يكسمافن) البلدة التي خرج منها واتجه نحو الشرق ، وما زال في هذا الاتجاه حتى بلغها ثانيا ، ومثل هذه الرحلة تذكر الإنسان بتلك المحاولات النظرية والعملية التي حاولها كثيرون لإثبات كروية الأرض والدوران حولها بالاتجاه في ناحية واحدة ثم الارتقاء العظيم في السرعة وأول المحاولات العملية في الدوران حول الأرض كانت محاولة (ماجلان) الأسباني الذي خرج من أشبيلية (البناء الإسبانية) فقد غادر (ماجلان) هذه اللبنة في ١٠ أغسطس سنة ١٥١٩ ومعه خمس سفن بها ٢٣٧ رجلا ، وما زالت السفن تتجه نحو الغرب حتى بلغت جنوب أمريكا وهناك درت حول الجزء الجنوبي من أمريكا حيث مضيق (ماجلان) الآن ثم أجهت نحو الغرب حتى بلغت جزر (فيليبين) وهناك قتل (ماجلان) في شجار مع الأهليين ، وكانت الأمراض تفتك بالبجارة ولذلك لم يجد إلى (إشبيلية) سوى سفينة واحدة ولم يبق من البجارة سوى ١٨ رجلا من (٢٣٧) ولما بلغوا البناء الإسبانية نزلوا من السفينة

يحملون الصمغ وساروا إلى الكنيسة حيث صلو الله شكرا على نجاتهم . وقد احتاجوا لنضاء ثلاث سنوات وقصة وعشرين يوما في الدوران حول العالم وبعد نصف قرن تقريبا خرج (السير فرانسس دريك) الإنجليزي في خمس سفن أيضا وكان رجاله (١٦٨) فأخذ طريق (ماجلان) الأسباني ودار حول جنوب أمريكا ثم سار في المحيط الهادى إلى أن بلغ (جاوة) ودار حول جنوب (إفريقية) حتى بلغ سيرا (ليون) ثم انجبه نحو الشمال حتى بلغ إنجلترا التي خرج منها وعاد ومعه من التجارة خمسة أشخاص فقط ، واحتاجت رحلته إلى أقل قليلا من ثلاث سنوات . وألف (جول فرن) قصته للسماة (حول العالم في ثمانين يوما) وفرض أن للسافر يستعمل كل أنواع المراكب من سفن إلى عربات إلى فيلة إلى زلاقات .

وجاء عصر (الطائرات والبلونات) فجعل الناس ينسون البواخر والقطرات وصاروا يعدون الأيام لتطواف حول العالم بدلا من السنين أو الأشهر ، وآخر من استعمل الطائرات والبواخر والقطرات هو (أدوارد ايفانز) ورفيق آخر له طافا حول العالم في (٢٨) يوما و(١٤) ساعة و(٣٦) دقيقة و(٥) ثوان ، وكان متوسط سرعتهما (٣٠) ميلا في الساعة وكان ذلك في سنة ١٩٢٦ ،

وفي سنة ١٩٢٨ طاف (هنرى ميرز) وهو أمريكي حول العالم في (٢٣) يوما و(١٥) ساعة و(٢١) دقيقة و(٣) ثوان ولم يحسب للآن عدد الأيام والساعات التي قطفها البالون تسبلن في تطوافه حول العالم وإنما المقروض الآن أن السبق في المستقبل سيكون للطيار الذي يستعمل البالون فوق المحيطات ويستعمل الطائرات فوق اليابسة ، فالطيارة أسرع من (البالون) ولكنها غير مأمونة مثله في الأسفار الطويلة فوق المحيط الهادى أو المحيط الأطلنطى .

وقد عاد للنطاد الألماني (جراف زبلن) إلى (فردريكهافن) بعد أن طاف حول العالم وفتح فتحا مبينا في عالم الطيران ، وتراء في الصورة عند وصوله إلى المطار وقد وقتت الجنود صفوا لتمتع الجماهير التدمسة على النطاد عند هبوطه (انظر شكل ٢١) .



(شكل ٢١) (جراف زبلن)

ثم انظر ما نشر يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٨ م وهذا نصه :

(أجهزة البحار)

تحت هذا العنوان نشرت جريدة (الإيفن بوست) النيويوركية برقية تلقها من (برلين) ناخصها فيما يلي «للتصور القارى عمارات من البوارج الحديثة تتقدم بسرعة إلى الأمام نحو ثغر العدو ثم تنتشر على سطح الماء في صفوف منظمة تاهباً للقتال ولا تلبث أن تصوب نيران مدافعها إلى المدينة فتدمر العمارات بقنابلها تمهيداً ثم تنقلب إلى الوراء متراجعة أمام حركة مضادة من بطاريات ساحلية وللتصور فوق هذا تحطم البعض وغرق البعض الآخر من تلك البوارج ولكن دون أن يقتل أو يخرق إنسان، ومع هذا فإن بارجة قائد الأسطول تقف على بعد مئات الأميال من البوارج المحاربة وتتلقى أخبار الحركة بواسطة الراديو من طائرات حلقة فوق البوارج ثم تبعث إليها بتعليمات لإدارة حركتها بواسطة الراديو كذلك وبدون أن تنامر بحيات نوتى أو ضابط من القوى المهاجمة .

إن ما تقدم بسطه هو الحقيقة لما يمكن أن يحدث في الحروب البحرية القبلية وهذا بناء على الاختراع المدهش الذى أسفرت التجربة عن نجاحه فإن الطراد (زهرنجن) الألمانية القديمة وحملتها أحد عشر ألف طن قد ركبت فيها أجهزة كهربائية سيرتها بسرعة كبيرة فى طول البحر الشمالى وعرضه دون أن يكون فيها أى إنسان . وقد عادت هذه الطراد إلى المرفأ الذى غادرته فى الموعد المحدد لمودتها دون أن تضل الطريق ولم يطراً عليها أى خلل أثناء رحلتها . ويؤكد الخبراء الفينيون أن الاختراع الألمانى الجديد سيؤدى إلى إحداث انقلاب عظيم فى نظام الحروب البحرية القبلية . وقد أجمعوا على أن الطراد (زهرنجن) فى اليوم أصحوية البحار لما تشتمل عليه من الآلات الكهربائية الحديثة التى تديرها نحو الاتجاهات المطلوبة بواسطة مركبة فى غرف للواقف وهى بمثابة اليد التى تحركها والسواعد التى تديرها نحو الاتجاهات المطلوبة بواسطة التعليمات التى تتلقاها من سفينة أخرى أو من طائرة حلقة فوقها على مسافات فى الجوبعيدة ، وهكذا تكون الأساطين البحرية القديمة التى تشير إلى وجود سفن بدون (نوتية) وسيورها بدون قيادة قد تمثلت فعلاً للعيان عندما قامت الطراد (زهرنجن) برحلتها الأولى فى البحر الشمالى وبمناورة حربية قبالة ساحل (هيوجلندا) أما النفقات لتجهيز هذه الطراد بالآلات الحديثة فبلغت (٥٠٠) ألف دولار . وأذاعت حكومة ألمانيا أن القرض من عملها هذا هو أن تكون (زهرنجن) هدفاً لتجربات الأسطول الألمانى . وفى بيان لوزارة البحرية الألمانية أن النتائج التى ظهرت من التجربة الآفة الذكر تفوق كثيراً ما كانت تنتظره لأنها لم تدل على تسيير البوارج الحربية والبواخر التجارية بدون نوتية وقائد فقط . بل دلت على إمكان إطلاق الدافع من البوارج بمنتهى الدقة فى إصابة الرمى بواسطة الأجهزة الكهربائية . ويؤخذ من الفكرة التى أذاعتها وزارة البحرية الألمانية بشأن التجربة للطراد (زهرنجن) أنه بعد أن ركبت فيها الأجهزة الكهربائية الحديثة ركبت ظهرها جميع ضباطها ونوتيتها وعدد كبير من الضباط البحريين الذين حضروا لمشاهدة التجربة ثم أبحرت الطراد وبمناورة السفينة (بليتز) التى رافقتها على مسافة (٥٠) ميلاً ، وعندما وصلت إلى عرض البحر انتقل من كان على ظهر الطراد (زهرنجن) إلى السفينة (بليتز) وإذ ذلك بدت (زهرنجن) للعيان كأنها سفينة مهجورة لا حياة فيها ثم بدأت التجربة بأن ضغط قائد السفينة (بليتز) على زر فى جهاز خاص داخل سفينة وسرعان ما تصاعد الدخان من مداخل (زهرنجن) وأخذت تتحرك ثم زادت سرعتها فى وضع دقائق إلى مسافة (١٠) أميال فى الساعة ثم ضغط القائد على زر آخر فتحولت (زهرنجن) عن وجهتها وأخذت تدور على محورها ثم وقفت وتراجعت إلى الوراء ثم تقدمت إلى الأمام فالبحريين فالتجال حسب الاشارات التى

كانت تتلقاها من قائد السفينة (بليز) وحدث أثناء هذه الحركات المختلفة أن تصاعد من جوانبها جلاء دخان كثيف أخفاها عن الأبصار ثم تصاعد من ظهرها سهم نارى رهزاً إلى إطلاق مدافعها ، وبالإجمال أن التجربة استغرقت مدة ساعتين والطرادة (زيهرنجن) قائمة بمناورات تشتمل على جميع الحركات الحربية البحرية بمنتهى الدقة والنظام . أما التفاصيل الفنية الخاصة بالأجهزة الكهربائية الحديثة فلم تزل سرّاً من الأسرار التي تحرم ألمانيا على كتبها كل الحرص اه

وقد جاء في جريدة الأهرام يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٢٩ م ما نصه :

﴿ رحلة للنطاد تسبلن إلى القطب الشمالى ﴾

لم يصل (النطاد تسبلن) من رحلته حول الكرة الأرضية حتى انجهدت الأنظار إلى الرحلة التي عزم على القيام بها إلى القطب الشمالى في شهر إبريل القادم ، وسيبدأ الدكتور (أكنز) بعد عودته إلى برلين في التأهب لهذه الرحلة وإعداد معداتها ، ولا يتظر أن يصحبه فيها إلا عدد قليل من الذين يكون وجودهم في النطاد مفيداً .

أما شركة (هرست) التي تكفلت بالتقسيم الأكبر من نفقات النطاد فقد قررت انتداب اثنين من مراسلها ولا يكون للصحف الأخرى كلها غير مندوب واحد . وسيصافر النطاد من ترونسو (نروج) متجها نحو الجانب الأمريكى من القطب إلى أن يصل إلى الاسكا حيث يعد له مكانا للنزول ، وستكون بلدة فيريانكس في (الاسكا) القاعدة الحقيقية لرحلة النطاد فيقيم فيها بضعة أيام ثم يحلق فوق القطب فإذا وجد مكانا يصلح لأن ينزل فيه على الجليد فعل ذلك لتمكين العلماء من القيام بأبحاث مفيدة . ويعود النطاد بعد طوافه حول القطب الشمالى إلى (فيريانكس) ثم يتجه نحو الجانب الأسيوى . وسيقوم بحركة التفاف تنهى في برديسو وتبلغ مسافة هذه الرحلة (١٨) ألف كيلو متراً وتستغرق من (٢٠) إلى (٢٥) يوماً . وسيقل النطاد معه علاوة على المؤن اللازمة وأدوات الراديو والآلة أجهزه كاملة تمكن كلا من ركابه من الحياة في القطب كالعربات الصغيرة والكلاب والأسلحة وأدوات نقالة للتغراف اللاسلكى وما شاكل ذلك مما يحتاج إليه الركاب إذا طرأ عطل على النطاد . وستكون الغاية من هذه الرحلة درس الحالة الجوية في الجهات القطبية توطئة لإنشاء خط جوى يصل أمريكا بأوروبا وآسيا بطريق القطب الشمالى . وسيؤس البعثة التي تعنى بهذه الأبحاث الأستاذ نالكس يساعده الأستاذ برسون والسكبتن برونس . ويعتقد الدكتور (أكنز) أن النزول على الأرض بجوار القطب ممكن بشرط ألا تكون الرياح شديدة اه .

هذا ما وصل إليه العلم الآن من استخدام الضباب وجعله حصوناً بدل الحصون الحجرية ومن الطواف حول الأرض والسير فوق القطب بالطيارات . أفليس لهؤلاء القوم الحق أن ينظروا للأمم الجاهلة نظراً إلى أمر ضئيل لا يؤبه له . للنحل حمة وللزنبور حمة أشد وللعز والقران وللأسد صولة وأنيابه المهسدة وأظفار لم تقم والإنسان سلاحه يستنتجه من الحكمة التي حض الله عليها . طمع العلماء في أوروبا بعد ما تبينت لهم هذه العجائب ورأوا أن المستقبل غير الحاضر وأن العلم إذا سار على هذا للنوال أخرج أممالم يحلم بها الدهور . فانظر ماجاء في بعض المجلات العلمية التي تخرجها دائرة (مجلة الهلال) وهذا نصها :

﴿ قوى الطبيعة لا تنفد ﴾

(القوى التي في أشعة الشمس ، وفي باطن الأرض ، وفي المياه المنحدرة)

كلما انقضى عام شعر العالم بحاجته إلى قوى جديدة يستخدمها في إدارة آلاته وفي إيجاد الحرارة والنور ولقد ثبت أن الفحم والزيوت لا يكفيان كثيرا ولا طاقة لهما على احتمال طلباتنا المتعددة . وقوى الطبيعة لا تقتصر على الفحم والزيوت فقط إذ هناك أيضا المياه المنحدرة والرياح المتناوحة ، وقد عرف أجدادنا قيمتها فاستخدموها في إدارة الطواحين وتسيير السفن ، ولكن هناك قوى أخرى في بعض عناصر لم تستثمر كما يجب فرض (الراديو) قوة إلا أن الناس يجهلونهم وقد يحلون لغزها بعد مضي عدة قرون . وأشعة الشمس قوة لا يستهان بها ، ونحن إذا وقفنا إلى تسخيرها ربنا كثيرا واستفينا بها عن قوى أخرى مهددة بالزوال وباطن الأرض يضطرب بالقوى الهائلة ، فهل من سبيل إلى إخراجها والتمتع بغيراتها وبركاتها ، ولقد وقف بعض العلماء جهودهم على درس مسألة الحرارة الأرضية السكامة فتوصلوا إلى نتائج قد يظهر أثرها في المستقبل القريب ، ولاريب أن مجال العمل في ذلك المضمار واسع أمام دولة إيطاليا ؛ فأرضها نارية وبراكاتها أصدق برهان على ذلك . وفي الواقع أن إيطاليا استخدمت بعض القوى الطبيعية فظفرت بما لم تظفر به دولة سواها .

وفي مقاطعة (كرسكانيا) بين مدينتي (تبرا) و (سينا) في الإقليم الواقع حول (فولتيرا) تنبعث العيون بالماء الحار المثلج . وناء تلك العيون خصائص عظيمة فاستعان الطليان بالبخار البركاني الذي استخرجوه من بعض ثقوب عميقة مجاورة على تبخير الماء وبذلك أخرجوا منه حمض البورسيك ، وكانوا فيما مضى يستخدمون البخار البركاني في إيجاد الحرارة فقط . أما الآن فحركوا به الدينامو واستخرجوا الكهرباء فكأن البراكين وما يتصل بها تقوم الآن بمهمة الفحم أو الزيت وذلك تقدم عظيم في عالم الصناعة . ولعل الناس في الأزمان القادمة لا يفرقون كثيرا إذا نصب معين الفحم أو الزيت من بين أيديهم إذ سيجدون في الحرارة الأرضية أو في أشعة الشمس نعم العوض اه .

﴿ ماذا سيحدث في عام ٢٤٢٨ ؟ ﴾

(الكيمياء تخلق رجالا ونساء)

قال المستر (ه . ت . ف . رودز) السكرتير العمومي لجمعية الكيمائيين البريطانيين ما يأتي :
إن كيميائي عام ٢٤٢٨ سوف يصنعون رجالا في معاملهم لا تختلف عنا في شيء لأن علم الكيمياء كشف الآن عن خواص التحليل والتركييب واستطاع أن يبنى ويخلق أشياء ثمينة من مواد ضئيلة حقيرة ، وترى أثر ذلك في صناعة الصبغة والحرير .

وعلماء الكيمياء يعملون الآن كيف تتكون (البروتو بلاسم) المادة التي هي أساس الحياة وملاكمها وهي كربون وهيدروجين وتروجين ، ولا يستبعد أن كيمائي الأجيال المقبلة يخلقونها ويصنعون منها حياة ، وعلى مر الأيام سوف يكتشفون طريقة يعالجون بها (البروتو بلاسم) لتخرج أناسا مثلنا ، فإذا تحقق ذلك الأمر واستطاع الإنسان أن يخلق أناسا دفننا الأخير إلى عالم الصناعة والزراعة وما إلى ذلك واقتصرنا نحن على البحوث العلمية علنا نمر على فتح جديد اه .

هذا ما يتخيله القوم ، وأشد الحيات إغراقا في الوهم أن يكون هناك إنسان على يد إنسان . وهذا من الحيات التي لا يمكن تعقلها ولو أمكن حصولها لم تزد على ما يفعله الزراع فإنهم يضعون البزرة في الأرض فيزرل

للطير عليها فتنبأ وتتمو بعمل خارج عن طاقتنا ، وليس هذا خلقا منا . كلا . ثم كلا . فهذا مع أنه خيال أو وهم أو فكرة خطرت ليس من عملنا بل هو من عمل الإله عز وجل كظهور النبات والحيوان لما نحن بخالق هذا الحيوان ولا هذا النبات مع إننا نحن الذين تنهدهما بل نحن نعلم التلاميذ وما نحن لهم بخالقين بل نحن نلد الأولاد وما نحن لهم بخالقين .

قال صاحي هذا البيان حسن ولو أنك تركته بلا بيان لظن الجهال أن ما كتبه القوم ونقله قد أرسلك وأنت تؤمن بأن الإنسان الجهول الكفار السكين الضعيف يخلق ويرزق ، فأنت بهذا ألجأت الأفواه التي يستخدمها الحقد والحسد فتعرض بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير .

هذا وإن هذه التبذ التي ذكرتها الآن حسنة جميلة تشوق للسجين وتزيدم حبا في العلم والحكمة فالأجمال لا تشوق فيه ، فها أنا ذا أطلب منك نبذة أخرى من هذا القبيل وكنتي ، فقلت انظر ما نشر في إحدى جرائدنا المصرية يوم ١٧ - سبتمبر سنة ١٩٢٩ م وهذا نصه :

(المكتب الدولي للصحة العامة بباريس)

وجه رئيس اللجنة الدائمة للمكتب الدولي للصحة العامة بباريس الدعوة إلى وكيل وزارة الداخلية للشئون الصحية لحضور جلسات هذه اللجنة التي ستعقد بباريس في اللمة (٢١) إلى (٣٠) أكتوبر سنة ١٩٢٩ مندوبا عن الحكومة المصرية في اللجنة المشار إليها ، وستناول البحث الموضوعات الآتية :

- (أولا) تطبيق معاهدة سنة ١٩٢٦ الصحية الدولية والمسائل المتعلقة بها وهي :
- (١) تقرير مجلس الصحة البحرية والكورتيبات بمصر عن الحج إلى مكة المكرمة سنة ١٩٢٩ ومتابعة درس المسائل المختلفة المتعلقة بالحج كجواز سفر الحاج ومراقبة الحجاج المارين من بعض البلاد مراقبة صحية وغير ذلك .
- (ب) الشروط التي يسير بموجبها العمل فيما يختص بشهادة إبادة الجرذان أو الإغفاء من إبادتها (المادة ٢٨ من المعاهدة) وإبادة الجرذان في السفن الجديدة .
- (ج) إرسال البلاغات الصحية بواسطة التفريغ اللاسلكي (وضع أورنيك موحده لهذا الغرض) .
- (د) الشروط الواجب توفرها في حواجز الجرذان لاعتبارها وافية بالغرض الذي أنشئت لأجله .
- (هـ) الاحتياطات التي يمكن اتخاذها لمنع ما قد يحدث من انتشار الأمراض الوبائية بواسطة الطيارات .
- (ثانيا) تقرير لجنة الأفيون عن المسائل المقدمة للمكتب الدولي للصحة العامة تنفيذاً لأحكام معاهدة سنة ١٩٢٥ بشأن الأفيون .
- (ثالثا) (الحى الصفراء) معلومات جديدة عن السم النوعى وطريقة انتقاله . وعن تأثير المرض من الوجهة الوبائية وطرق الوقاية منه .
- (رابعا) معلومات حديثة عن تأثير الكوليرا والطاعون من الوجهة الوبائية ومنشأ الإصابة بهما وعن مفعول اللقاح ضد الطاعون .
- (خامسا) الجدري والقاح المستعمل ضده والإصابات التي تعقب التطعيم به .
- (سادسا) التدرن: نسبة الوفاة بالتدرن بين الأطفال المقيمين في وسط ملوث بهذا المرض وإكساب اللعنة ضد التدرن . معلومات خاصة في الأوساط الصناعية .
- (سابعا) الحى للموجة وقوة باشليس بايج فيما يتعلق بإحداث المرض في الإنسان والوقاية منه .

- (ثامنا) التهاب مقدم مادة النخاع الشوكي السنجابية الحاد . تأثير المرض من الوجهة الوبائية وسبب الإصابة به .
- (تاسعا) الالتهاب السحائي الناتج عن ليكروب النوعي لهذا المرض وتأثيره الحالى من الوجهة الوبائية وطرق الوقاية به .
- (طاشرا) المستشفى المصرى عدد المستشفيات وتوزيعها الجغرافى بالنسبة لعدد معين من السكان . (حادى عشر) استعمال الملونات والمواد الحافظة للأغذية .
- (ثانى عشر) بحث مقارنة بين نسبة الوفيات فى لندن والريف بشأن الاحتياطات الواجب اتخاذها لتحسين الحالة فى الريف .
- (ثالث عشر) الصحة الاجتماعية : التشريع الخاص بالمدن وبالأمراض الزهرية والاسعاف الطبى للشعوب للتوطنة .
- (رابع عشر) تعدد حدوث إصابات الزهرى الأولى فى الوقت الحاضر وتناقص الاحتياطات الوقائية التى اتخذت ضد الأمراض الزهرية .
- (خامس عشر) الاحتياطات الواجب اتخاذها ضد التسمم بالكحول اه .

أفلا ترى أيها الذكى أن هؤلاء القوم كما نبغوا فى إحداث الآلات للمهلكة هكذا هم نبغوا فى علم الطب وعلم الطب فرع من العلوم الخاصة بالجسم الإنسانى والجسم الإنسانى والنفس الإنسانية يذكران فى العلوم الطبيعية عند القدماء ، فأما عند المحدثين فلقد أريتك ما ذكره العلامة (يكون) أن علم النفس من العلوم الفلسفية، أما علم التشريح فمن العلوم السميآت بالتاريخ الطبيعى، فأهل أوروبا بهذا الكتب يبحثون عن الصحة العامة فى الأرض كلها وحكومتنا المصرية تشاركهم . أفليس من العار على أمة محمد صلى الله عليه وسلم الهى نشر العلم فى الأرض كلها أن تكون ذبلا للأمم وعالة على دول أوروبا ، أفلا يحق لهم إذا رأونا عالة عليهم أن يفعلوا معنا ما يشاءون ؟ هاهم أولاء يخافون أن تكون الطيارات من الناقلات للوباء كما تقدم ذكره فى هذا التفسير . إن البراغيت تتركب متون الفيران وهذه تنقلها من منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قرية لتوزع الأمراض عيانا على الناس بلا تمييز بين صالح وطلح ، فهكذا هنا الطيارات يخافون أن تفعل هذا الفعل فهاهم أولاء منه محترسون . ومن عجب أن هؤلاء يطلبون مشاركة الأمم . عمل والله عظيم . ولو أن دين الإسلام وجد إنما بعد القرون الثلاثة الأولى تحمل هذا الدين وتفعل فعله صلى الله عليه وسلم إذ كان يود أن يحمل الناس أمة واحدة كما تقدم فى أول (سورة العنكبوت) عند قوله تعالى « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه » وأنه أرسل إلى الملوك والأمراء شرقا وغربا يطلب أن يكونوا معه بيدا واحدة . أقول لو أن الإسلام وجد أمة على هذا النمط لكانت هى القائمة بالنفع العام (وبعبارة أخرى) لحفقت الصبء عن أهل أوروبا فى حفظ الإنسانية ولكان لها مركز سام شريف يمنع الأمم من التدخل فى شئونها ولكن « لله الأمر من قبل ومن بعد » .

فقال صاحبى العالم المتقدم ذكره . إن اتصال هذه الأعمال الصناعية من حرية وطبية بالعلوم والحكمة لا يزال يحتاج إلى بيان . قلت حقا وهذا البيان سيأتى إن شاء الله فى (سورة محمد) صلى الله عليه وسلم عند قوله تعالى « فاعلم أنه لا إله إلا الله » الغ إذ سأذكر هناك إن شاء الله (رسالة مرآة الفلسفة) التى أشرت لها سابقا فى هذا التفسير ، وقد كنت أريد كتابتها فى آخر (سورة النمل) أو فى آخر (سورة القصص) ولكن وجدت أن ذلك يورث السامة هناك فأخترتها إلى تلك الصورة الآتية :

تقال صاحبي هذا حسن ولكن هي أليق بهذا المقام . قلت نعم ولكن هذا الوعد قد تقدم في (سورة النمل وغيرها) فلا أخله . فقال إني عدت منك أن تلك الرسالة تشتمل على مقدمة ويا بين والقدمة مشتملة على قواعد تنفع في فهم هذا الوجود (الباب الأول) في ذكر مذاهب الفلاسفة إجمالاً . (الباب الثاني) في تقسيم العلوم ، وإني أرى أن تذكر الباب الثاني هنا لأنه أمس بهذا الموضوع لأنه جمع أقسام علوم الحكمة قديماً وحديثاً إجمالاً ، غاية الأمر أن القدماء جعلوها كلها حكمة ، واخديثين سموها العلوم الجريمية (تواريخ) والعلوم السكلية سموها فلسفة ، ومثي ذكرت هذا التقسيم اتضح لنا كيف يكون الضباب الذي حجب السفن مفرعاً على العلوم وكيف تكون الصناعات كالطب والزراعة والحياكة والنجارة والحداثة مفرعة على العلوم ، فالأول تبع علم الانسان ، والثاني تبع علم النبات . والثالث تبع قسم من النبات . والرابع تبع قسم آخر من علم النبات . والخامس تبع قسم من علم المعادن . وهذه العلوم كلها طبيعية والعلوم الطبيعية من الحكمة على رأى القدماء أو من مقدماتها الجريمية على رأى (بيكون) الانكليزي كما تقدم الذي اتبعه جميع أهل العصر الحاضر . ومن هذه الصناعات الضباب المتقدم وعلم الطيران بقسميه وهي (البالونات) التي ترتفع بالغازات الخفيفة كالهيدروجين والطيارات المرتفعت بالمحركات . فالأولى ارتفاعها إلى أعلى بالحفة كسقوط الحجر إلى أسفل بالثقل . والثانية بآلات محرركة كما يطير الطير . وهذا كله من علم الطبيعة والكيمياء لأن الغازات من الثاني والمحركات من الأول وبهذا يكون السير إما على اليابسة أو في سائل أو في غاز .

ثم قال : إذا كتبت هذا هنا كان ذلك نعم التدخيرة لقراء هذا التفسير وتحضر لهم صورة واضحة للحكمة المذكورة في الآية وبها يفرح المسلمون بل هم بذلك سريعا يرتفون . قلت أنا الآن انشرح صدري لأن أكتب تقسيم العلوم هنا وأدع آراء الفلاسفة ليذكر هناك في تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهناك يثاب إن القسم الثاني قد ذكر في (سورة لقمان) وهذا القسم الذي أنقله الآن من (رسالة مرآة الفلسفة) نقلتها فيها من كتابي بهجة العلوم في الفلسفة العربية وموازتها بالعلوم الحديثة . وهذا نص ما جاء فيها ملخصاً :

الفلسفة العربية

(مقدمة)

(في قبول الفطرة الإنسانية للفلسفة وفي تاريخ علومها)

بسم الله الرحمن الرحيم

جبلت النفوس على حب الاستطلاع وشغفت بالبحث عما تشاهده من مناظر بهجة ومحاسن باهرة ، وشاقها ذلك السقف الرفوع ، اللزج بالنجوم للتلافة ، المختلفة الأشكال ، الجميلة الألوان ، السارة للناظرين ثم راعها ما على الأرض من زينة وجمال وحسن وبهاء واعتدال وكال من سحاب ماطر وبرق لامع ورعد قاصف وهواء لطيف ، ونور شريف وجبال شاهقات وأنهار جاريات وبحار واسمات ومعادن نافعات ونبات تتبوق الأوراق بديع الأزهار يانع الأثمار زين الأرض بمحاسنه وزوقها بأنيق بدائمه عاش به الانسان والحيوان فسكان منه غذاؤها ودواؤها وبهجتها . وأودع فيه من انعامه والشهوة له ماساقها إلى السمي والبحث عنه كل حين .

الحيوان مكنت بما لديه من غذاء حاضر وجلد قوي ووبر وشعر وصوف وأنياب معددة ومخالب قانصة وقوة جثمان وعدو سريع وإلهام يهدي إلى سبل العاش .

أما الإنسان فإنه خلق طاريا ، كثير الحاجات ، يسيئ لغذائه وملبسه ومسكنه وتعليمه وسفره فضفه ظاهر ووهته حاضر . لذلك اقتضت الحكمة أن يمتاز بالعقل فيسمى به لمكربيه من الغذاء والدواء واللباس والسكن والتعليم والتهديب والماشرة ونظام الجمية الانسانية ، فما أكثر حاجة الإنسان ، وما أخرج به إلى العلم وللعرفة وما أقل حاجة الحيوان ، وما أحرأ بالحرمان من معارف الإنسان ، إن النتائج تقبع المقدمات والخارج على حسب النبات ، فمن كفاء غيره السعى والطلب عاش خاملا ومات جاهلا ومن قام بأمر نفسه وسمى لها سميا أكتسبها قوة وأناها حرية وكانت حرية بالإجلال والإعظام .

هذه هي اللزية التي اختص بها الإنسان وبها سعادته ، ألا ترى أن كمال كل شيء فيها اختص به ، فالفرس كاله في العدو السريع وأن يكون مكررا مفرا مقبلا مدبرا مسا . وإذا عجز عن ذلك نزل إلى مرتبة الخمر وعمول معاملتها في الحمل والأعمال الخاصة بها . هكذا السيف كاله أن يكون صارما سريع القطع فان تنزل عن هذه الدرجة الرفيعة استعمل استعمال السكين ونبتة الشجعان ومخرج من اللبدان . هكذا الإنسان لم يعمز إلا بالعقل والعلم فإذا ما كان غافلا نزل إلى رتبة أدنى من الحيوان ، أولئك كالأنعام بل هم أضل منها لأنها كاملة في ذاتها لقيامها بما يناسبها فاذا انحط إليها الإنسان وشاركها في منازلها فهو في خسران مبين .

إن الفطرة الإنسانية شاهدة بما قلنا فإنه وإن نال الإنسان ما يبتغيه من المال وما يحب من الجساء لا يفتأ يفرح بمحو الحديث وجمال العلم وتاريخ الفضلاء ويشتاق لذلك ويحرص عليه . ولقد زرى أكثر الناس جهلا وأبعدهم عن العلم مجلسا إذا عبروا بالجهول عدوه إنما عظيما وناووا من غيرهم وشاكسوه وذلك لأن فطرتهم شاهدة أن كالمهم بالمعرفة وتقصم بالجهل .

وترى الصبي يسأل أبويه عما حوله ليحرف أسباب الأشياء ومسببها ، كل ذلك شواهد ناطقة على ما قرناه وترى جميع الناس في مشارق الأرض ومغاربها من أي دين أو نحلة يجاون العظماء ويعظمون الحكماء وإن كانوا هم أنفسهم جاهلين لما ركز في طبائهم ووقر في نفوسهم من شرف العلم وجماله واختصاصه بالإنسان . تطابقت فطرة الإنسان وحاجته ، فكاله النفس بالتم وسعادته في الحياة بالعلم ، نظر الإنسان فرأى في نفسه شهوات لازمة وحاجات قائمة وعادات متراكمة فاحتال في تهديها وجد في تكميلها فكان علم الأخلاق ثم رأى زوجة وولدا وخدما فكانت سياسة المنزل ثم كان اجتماع أهل المدينة وكان لابد لهم من نظام وقوانين وحكام فكان سياسة المدينة .

قرأت الأمم العلوم الرياضية لتعرف السنين والحساب والعاملات ثم الطبيعية لتستخرج بها مالى الأرض من منافع ، ونظرت في العوالم فأفترت بالله نظمها وحكيم أبداعها . أهل المدينة كلما كانوا بالعلم مغرمين . وعلى الفضيلة عاكفين ، كملت مدنيتهم وازدادت سطوتهم ، وكما غفلوا عن ذلك ساءت حالهم وبئس المعبر .

وأقدم أمة عرفها التاريخ في الحكمة قدماء المصريين وهكذا السريان يونان وقي على آثارهم السكندانيون ثم العرس واليونان . وقد حمل الحكمة من هؤلاء أساطينها مثل (سقراط) وتلميذه (أفلاطون) وتلميذه (أرسطو) ولقد كان هذا أرسخهم في العلوم ولذلك يسمى المعلم الأول .

ولما انقضت أمر اليونانيين وصار الأمر للقيصرة نالوا من حكمة اليونان حظا عظيما ونبغ فيهم نابضون مثل (سنيكا) و (شيشرون) ولما تنصروا وهجروا تلك العلوم بقيت كتبهم في خزائهم . ثم جاء الاسلام وظهر أهله عليهم وامتد سلطانهم . وعظمت شوكتهم ودانت لهم الأمم شرقا وغربا فاشترأبوا إلى ما نالتهم الأمم السانعة من روائع الحكمة وبدائع العلم والإحاطة بما في هذا الوجود على ما يقتضيه العمران ويتطلبه

لذلك وتمتد به الدولة . وكان خالد بن يزيد بن معاوية ويسمى حكيم آل مروان رجلاً فاضلاً عابداً
للعلوم فأحضر جماعة من الفلاسفة وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة وغيرها من اليوناني إلى العربي وهذا
أول نقل في الإسلام .

ولما نسخت الدولة العباسية الدولة الأموية ودانت لها البلاد واستتب للملك أرسل أبو جعفر المنصور إلى
ملك الروم أن يرسل له كتب التعاليم مترجمة فبعث إليه بكتاب (أقليدس) وبعض كتب الطبيعيات وقرأها
السلطان وفهمها وزادوا حرصاً وشوقاً إلى علوم الحكمة كما روى « منبهمان لا يشعان طالب علم ومطالب
مال » فلما كان أيام المأمون وقد كان أشرب قلبه حب العلم وأغزم بالحكمة أرسل إلى ملك الروم في
استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي وبث الترجمين لذلك فأخذ منها واستوعب فترجموا منها
الكثير وتلقاها النظار من أهل الإسلام بالقبول وعكفوا عليها ونسخوا في فنونها . ولقد خالفوا المعلم الأول
في كثير من السائل وردوا عليه ودوتوا في ذلك السواوين وكثرت التأليف ، ثم إن العلماء الذين ترجموا
الكتب للمأمون كحنين بن إسحاق وثابت بن قرة جاءت كتبهم مخالفة مخلوطة غير ملخصة ولا محررة ولم توافق
ترجمة واحد منهم الآخر فبقيت تلك التراجم غير معمول بها ولا نافعة إلى زمن منصور بن نوح الساماني
فالتحق من أبي نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي للتوفي سنة ٣٣٩ هـ أن يجمع تلك التراجم ويحذف
من بينها ترجمة ملخصة محررة مهذبة مطابقة لما عليه الحكمة فأجاب الفارابي وفعل كما تقتضيه وصحى
كتابه بالتعليم الثاني فلذلك لقب بالمعلم الثاني وبقي هذا في خزانة المنصور إلى زمن السلطان مسعود من
أحفاد منصور بن نوح كما هو مسودا بخط الحكيم الفارابي إذ لم تكن له عناية بجمع مصنفاته وإنما
يطلب عليه السياحة على هيئة الصوفية مع الزهد والقناعة . وكانت تلك الخزانة بأصفهان وتسمى « جوان
الحكمة » وكان الشيخ أبو طي الحسين بن عبد الله بن سينا الطبيب الفيلسوف للولود (سنة ٣٧٥ هـ)
التوفي سنة ٤٢٨ هـ (سنة ١٠٣٦ م) وزير للمسعود وتقرب إليه بسبب الطب حتى استوزره وسلم إليه خزانة
الكتب فأخذ الشيخ الحكمة من هذه الكتب ووجد فيها بينها التعليم الثاني والحس منها [كتاب الشفا]
ثم إن الخزانة أصابها آفة فاحترقت وقد اتهم بعض الناس الرئيس بأنه أحرق الكتب لئلا يطلع الناس
على الحكمة التي نقل عنها وهذا باطل لما يرى في (كتاب الشفا) من تصريحه بأنه تلخيص التعليم الثاني .
ومن الحكماء في هذه الأمة أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الفيلسوف من أمراء بني كندة ،
وكان من الكرميين لدى الخلفاء من المأمون إلى التوكل ، ولد سنة ٢٤٠ في البصرة ثم سكن بغداد واشتغل
بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية وتأليف كتب في الفلسفة والرياضات والطب والمهنية والموسيقى . وعدد
مؤلفاته (٢٦٥) وأكثرها ضائع الآن .

ومن الترجمين ابن البطريق في أيام المنصور بن يحيى الذي نقل المحسني وإقليدس للمأمون وحسين
ابن بهريق فسر للمأمون عدة كتب وكثير غيرهم . هؤلاء في الشرق (١) أما في الغرب فكان القاضي
أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالأندلس ، فهؤلاء نشروا كتبهم فأرثت الدولة واستبحر
العمران حتى إذا تغير الزمان وقلب ظهر المجهن وذهبت الدولة نادى ابن خلدون في مقدمته بالويل والثبور
وقال « أيها الناس لا تنفخوا عن الصنائع والعلوم فقد ركبت ربح مدينتكم وخر عليكم السقف من فوقكم
فأصبحت من الخامدين » .

(١) انظر ملا كاتب جلبي وابن أبي أصيمة والقفطي إن أردت الاستيعاب اهـ .

ولما فتح الترك (القسطنطينية) وقد نالوا حظاً وافراً من العلم حرم بعض علماء الدين كتب الحكمة على المسلمين فماتت نفس الحضارة هناك إلى الترويب ونادي طلمهم (ملا كاتب جلبي) للتوفيق في القرن الحادي عشر للمجبري بالويل والثبور وقال ما ملخصه [كان شرف الرجل في الأعمار السابقة بمقدار تحصيله وإحاطته بالعلوم العقلية والتقليدية] وكان في الدولة غول ممن جمع بين الحكمة والشريعة كالعلامة شمس الدين الفناري والفاضل قاضي زاده الرومي والعلامة خواجه زاده والعلامة علي قوشجي والفاضل بن المؤيد وميرجلبي والعلامة ابن السكال والفاضل ابن الحناني وهو آخرهم . ولما حل أوان الانحطاط ركبت ربح العلوم وتناقصت بسبب منع بعض المفتين من تدريس الفلسفة وسوقه إلى درس الهداية والأكل فاندست العلوم بأسرها إلا قليلاً من رسومه فكان اللولي للذكور سيبيا لاقرض العلوم من الروم كإقبال العلامة شهاب الدين الحفاجي في خبايا الزوايا وذلك من جملة أمارات انحطاط الدولة اه .

فانظر كيف شكا علماء العرب والترك قديماً من الجهالة العمياء والداهية الدهماء الحائلة بالأمة الإسلامية من ترك العلوم الفاسفية . ولما كانت الأمم الإسلامية اليوم مستعدة لنهوض الساري في أمم الشرق وأخذت تجد في أسباب الرقي وأولها أمتنا المصرية فإنها قد استيقظت من رقادها وقامت من نومتها من أطم للصلح الكبير للنفوس له الحجاج محمد علي باشا رأيت أن أؤلف كتاباً يجمع شتات العلوم الحكيمية الباقية في الكتب للوروثة عن القدماء خالصاً من الشوائب ، سهل العبارة ، حاوياً خلاصة الفن لا هو بالطويل للمل ، ولا بالقصير المخل ، واصلاً القديم بالحديث بحيث يعرف القاري إلى أين انتهى القدماء ، ومن أين ابتدأ المحدثون ، ليستفي به عن سواء فإن بعض الكتب القديمة متاحة القهم جيدة النور على للتوسطين فأقول ومن الله التوفيق :

(تعريف الفلسفة)

قد استبان في المقدمة أن الإنسان محب للبحث والمعرفة ، مغرم بالاطلاع وكل له غرض يسعى ليدرك على مقتضى همته ومقصوده ودرجته في الفهم ، وليس يعرف من هذه الصفة الشريفة إلا من غمرته اللذات واتمس في العداوات لاستعبده الشهواتان البهيمية والسبعية ، فينحطون إلى أسفل الدركات في البحث ويصكفون على معرفة عيوب الناس والحكايات البتلفة ويتسلون بذلك عما تطالبهم به نفوسهم من المعرفة والطم ويسرون بلب أعراض الباحثين ليكون ذلك تمزية لهم وليسدلوا أستاراً وحجبا على مطالب أنفسهم وهم لها ظللون .

لا يفتأ الإنسان يسأل ؟ من أين وإلى أين ؟ ولم ذلك ؟ طلب دائم . قال أرسطاطاليس [إن النهضة أول باعث على الفلسفة] والكلمة للستم " نند الأمم وهي (فيلسوف) تدل على ما تقدم ، فإن كلمة (فيلو) معناها محب و (سوفيا) معناها الحكمة ، فالفيلسوف محب الحكمة . وقد أطلق لفظ فيلسوف في هذا العصر عند العامة ببلادنا على من يربح في علم أو نبغ في قوة الحجة والجدل أو أنكر الديانات أو أخذ بزم علماء زمانه ويقدم في كفاءتهم في المجالس فيقول الناس لولا أنه أعلم منهم ما سفه أحلامهم ولا رمام بكل كربة سخطه . ويقابل لفظ الفلسفة عندنا الحكمة . ويقال [الفيلسوف الحكيم] .

الحكمة لا يتصف بها إلا من استكمل قوى العلم بالرياضيات والطبيعات والإلهيات والعمل بالأخلاق وتدبير للنزل وتدبير للدنية أو السياسة العامة . وباطل ما دار على ألسنة الناس في زماننا من العاني السابقة ولم يزل هذه المزية إلا قليل والتعريف للشهور لعل الحكمة أنه علم يبحث عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية وللمتبر في تلك الطلقة أواسط الناس الذين لا هم في غاية العلو ولا في نهاية السفلى .

وأنت ترى أن هذا التعريف لا يشمل إلا القوة العلية فمن كان عالماً بتلك العلوم فهو حكيم . وقد خرج منها النقل بالأخلاق وتدير للفرز والسياسة . وقد جعل الرئيس (ابن سينا) ذلك العمل غاية للحكمة العملية . واعلم أن الحكمة لها (ثلاث درجات : الأولى) حب البحث . (الثانية) استكمال الصلح (الثالثة) المنهل به وهو الثمرة . والتعريف للتقدم شمل أهم هذه الدرجات وهو العلم . وقد جاء في [إخوان الصفاء] ما يشمل للدرجات الثلاث وهو أن الفلسفة أولها محبة العلوم . وأوسطها معرفة حقائق الوجودات بحسب الطاقة الإنسانية وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم . وليس للعلم أن يعرف الإنسان كل شيء وإنما يزاول للعارف ويحيط بالكليات في العلوم التي سبقتها ثم يختص بجزء كالتطب أو الهندسة مثلاً . فأما أولئك الذين يترددون بلا نظام مسائل شتى في المجالات والكتب فقط فهم عن الحكمة معرضون لأن العلوم الجزئية والمسائل الداخلة فيها لا نهاية لها . ولو أن أمراً قرأ علم الحيوان أو النبات وأضاع فيه عمره لم يحط به ولم يأت على آخره وإنما بقرأة العلوم الجامعة الآتية يصبح هذا العالم عنده حاضر في عقله بصفة عامة حتى إذا صادفه شيء من مسائل العلوم الجزئية زادته علماً وعرف مكانتها من نفسه وضمها إلى أخوانها ، وليس يكون ذلك النظام إلا بالأطلاع على علم الفلسفة ودرس علومها ، ومماثل الحكماء مع العلماء والأمم إلا كمثل اللوك مع الوزراء والأسماء وبقية الدولة أو كمثل رئيس الجيش بالنسبة للقواد .

(أقسام العلوم الحكيمة)

العلوم الحكيمة (أربعة أنواع) : الرياضيات والنظريات والطبيعات والإلهيات ، فالرياضيات (أربعة أنواع) : الأرقامطيق وهو علم العدد ، والجو مطربا وهو الهندسة ، والأسطرونوميا ، واللوسيقى .
والإرقامطيق هو علم العدد وماهيته وكيفيته وخواصه . وهذا العلم أصل الحكمة ومبدأ المعرفة ويدين فيه النسب العددية والهندسية والتأليفية وتربتها التوصل إلى حقائق للعارف وتبين أن هذه العوالم المختلفة الأشكال ، والصور والصفات إذا جمعت على النسبة للتعادلة انتظمت واتحدت وكان منها ثمرتها وتناجها للرجية أما إذا جمعت على النسبة التي لم تمتدل فإنها تتنافر وتتباعد ولا تتفق ، فاعتدال الأشياء بالنسبة الصحيحة واختلافها بالنسبة الختلفة . وفيه ذكر الحساب الذي لا يهمل به إلا الفلاسفة وليس لكتاب السواوين فيه من خلاف اه .
ومنفعة هذا العلم أنه يعود التهن على النظر في المبررات عن المادة ولو احقها ولذلك كانت القدمات تختمه في التعليم على سائر العلوم وأن الأعداد كما نشأت من الواحد وهو ليس بعدد هكذا نشأ العالم عن الله . ومن الكتب المختصرة فيه سقط الزند في علم العدد ومن التوسطة الأرقامطيق الذي من كتاب الشفاء ومن للبسوطة كتاب نيفوماخس الجهراسيني . وهذا الفن يدخل فيه براهين الحساب وقد ألف فيه للتقدمون وأدخلوه في التأليف ولم يفرده بالتأليف كما فعل (ابن سينا) في الشفاء والنجاة وغيره . أما للتأخرون فهو عندم مهجور وليس يتداول لأنهم أخذوا ما يحتاجون إليه منه في الحساب البرهنة حسب كما فعله (ابن البنا) في رفع الحجاب مثل التوالي العددية والتوالي الهندسية . وأما للهجور فمثل ما يأتي هنا . إن عدد (٥) دائر أي يحفظ الأحاد والعشرات وهي (٢٥) إذا ضرب في نفسه مرات بالتما ماباغ ، وإن هذه الخاصة لا يشاركه فيها سواه .

(الهندسة) .

وأما الجيومطربا فهو فن الهندسة ويان ماهيتها وكية أنواعها وأحوال التقدير ولو احقها وأوضاع بعضها عند جيني وموضوعه الجسم التعليمي والسطح والخط ولو احقها من الزاوية والنقطة والشكل . وأول مترجم من اليوناني للعربي في هذا العلم (كتاب الأركان) لإقليدس أيام أبي جعفر للنصور . واختلفت نسخته باختلاف المترجمين كعنين بن إسحاق وثابت بن قرة ويوسف بن الججاج ويحتوي على خمسة عشر مقالة وقد

اختصره الناس اختصارات كثيرة كما فعله ابن سينا في تعاليم الشفاء ومثله (ابن الصلت) في كتاب الاقتصاد .
وكما أن فن خواص الأعداد للتقدم يرقى الذهن في فهم الأمور العالية والمجردات من المادة ويوقظ الذكر
هكذا الهندسة يشرق عقل المشتغل بها ويستقيم رأيه لما يرد عليه من البراهين البينة والأحوال للنظمة والأشكال
التقنة والعقل يتاد ما عود ويكون مزاجه بحسب ما ارتسم فيه وهو هنا الدقة والنظام والصدق والحق كما أن
الجسم يصح ويستقيم إذا جاد غذاؤه وتباعدت عنه أسباب الفساد .

(علم الفلك)

وأما (الأسطرونوميا) فهو علم النجوم وصفة البروج وسير الكواكب ويتبين فيه تاريخ آراء الفلاسفة
في العصور المختلفة في سير الشمس ويبين ما ذكره القدماء من الرايين ، الرأى القائل بدوران الأرض حول الشمس
والرأى القائل بدوران الشمس حول الأرض وأدلة الفريقين للبسوة في المواقف ويان ترجيح الرأى الأول
وأن ذلك كان قبل ظهوره للأفريقيج بنحو مائة وخمسين سنة ، ويبين فيه حساب الشمس والقمر والسنين
الشمسية والقمرية وسير الكواكب والفصول الأربعة ، ويذكر للذاهب الحديثة بطريق الإجمال من أن
في العالم شمس كل شمس لها سيارات ونحن في مجموعة من تلك المجموعات وبعضهم كان يلحق بهذا الفن علم
تخطيط البلدان .

(الجغرافيا)

وهو صورة الأرض والأقاليم السبعة والدرجة الأرضية التي تنتهي إليها ومعرفة الجبال والبراري والأنهار
والمدن والقرى ومسالكها وعلم الهيئة عند القدماء والمحدثين إنما يتم بالرصد وكلما أتمن ازداد العلم وكلما قل
كان العلم على حبه ، وكتاب المجسطى الذي ألفه بطليموس جامع لمقصود هذا العلم وقد اختصره (ابن سينا)
في الشفاء وابن رشد وابن السمع وكذلك ابن الصلت في كتاب الاقتصاد .

(الموسيقى)

وأما الموسيقى فهو علم يتبين فيه قوائين النغمات والألحان وتأثيرها في نفوس السامعين تأثيرا بينا يضارع
ما تفعله العقاقير الطبية في الأجسام الحيوانية ويبين فيه النسب العدديّة والتأليفية ونغمتها التوصل إلى حقائق
للعارف وتبين أن هذه العوالم المختلفة الأشكال والصور والصفات إذا جمعت على النسبة المتعادلة أخذت وكان
منها نغمتها وتأنجها المرضية . أما إذا جمعت على النسبة التي لم تتعدل فإنها تتنافر وتتباعد ولا تنفق . فاعتدال
الأشياء بالنسبة الصحيحة واختلافها بالنسبة للحرقة . وفيه ذكر الحساب الذي لا يهتم به إلا الفلاسفة وليس
لكتاب الدواوين فيه من خلاق . وهذا الفن كفن الشعر تركب أصولهما من (ثلاثة) : السبب والوئد
والفاصلة (الأول) مثل : (هل . بل) (والثاني) مثل : (نم . بلى) ومثل : (نحن . وكنت . وشئت) (والفاصلة)
مثل : (فهمت . ورضيت) . والذي تركب من الفناء في اللغة المرية ثمانية أنواع : الثقيل الأول وخفيفه
والثقل الثاني وخفيفه . والرمل وخفيفه . والمزج وخفيفه . وسنفسله . وهذا الفن يحتاج إلى (ثلاثة علوم) : النحو
والحساب والشعر . وألف فيه أبو نصر الفارابي وابن سينا في جملة كتاب الشفاء وصفى الدين بن عبد المؤمن
وثابت بن قرة الصابي وأبو الوفا البورجاني .

ومنفعة هذا العلم بسط الأرواح وتعديلها وتقويتها تارة وقبضها تارة أخرى . أما الأول فيكون في الأفراح
والحروب وعلاج المرضى وبه يظهر الكرم والشجاعة ونحوها . وأما الثاني فيكون في الآم وبيوت العبادات
فيقبض النفوس عن هذا العالم ويحركها إلى مبدئها فتفكر في العواقب وهذا آخر ما يحدث من الصناعات
في السولة لأنه كالمى وأول ما ينقطع من العمران عند اختلالها .

(ملحقات الرياضيات)

قد تفرع عن الارتماطيق من العلوم: علم الحساب للفتوح. والتخت. والليل. وعلم الجبر. والقابلة وعلم المهرم
والهيبار وما شابه ذلك وتفرع عن الهندسة علم: البنكومات (آلات قياس الزمن) وعلم جبر الأفعال. وعلم
استنباط المياه. وعلم الآلات الحرفية. وعلم الساحة. وعلم مراكز الأفعال. وعلم المرايا المحرقة. وعلم عقود الأبنية لمعرفة
أوضاع الأبنية وشق الأنهار. وتقنية القنا لعمارة المدن والقلاع. ويتفرع على علم الفلك: علم الزيجات والتقاويم.
(تنبيه) الفيلسوف إنغا يدرس العلوم الأصلية. أما الفروع كعلم الساحة وعلم الآلات الحرفية فإنما تدرس
في مدارس خاصة للأعمال النافعة. انتهى فن الرياضيات.

(المنطق)

(وهو القسم الثاني من علوم الفلسفة الأربعة)

لتنطق قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود للعرفة للماهيات والحجج للقيدة للتصديقات
والطرق للوصول للتصور والتصديق، إما أن تكون صحيحة وإما أن تكون فاسدة وتميز أحدهما من الآخر
إنما يكون بتلك القوانين، وقد كان للتقدمون يتكلمون به جملة لم تهذب طرقة ولم ترتب أصوله حتى ظهر
(أرسطو) فهذب مباحثه ورب مسائله وجعله أول العلوم الحسكية والنظر في هذا العلم على (قسمين): نظر
في صورة القياس، ونظر في مادته، فالنظر في صورة القياس يكون (أربعة أقسام: القسم الأول) الكليات
ويسمى إيساغوجي وهي الجنس والفصل والنوع والخاتمة والعرض العام. (القسم الثاني) الأجناس العالية
وتسمى (قائيفورياس) وهي القولات العشرة مثل: الجوهر والكيف وكل واحد منها إسم لجنس من
الأجناس وجميع ما في العوالم من أجسام وعناصر وصفات وأحوال داخلة تحت هذه الألفاظ وبمعرفة يتصرف
عقلاء المنطق بالدليل في كل ما شاهدوه أو عقاوه وإليها ترجع جميع الأجناس وفضولها وأعراضها وخواصها.
(القسم الثالث) القضايا التصديقية وتسمى (باريميناس وأنواعها) ويان النقيض والممكن والمتع
والعكس والإيجاب والسلب. (القسم الرابع) القياس ويسمى (أنولوطيقا الأولى) والنظر فيه على (قسمين):
الأول) في صورته من أنه حلي وشرطي وصورة إنتاجه سواء أكان ظنيا أم يقينيا أم غيرها وأنه ميزان
الحكمة يزن به الحكماء حججهم في الناظرات والآراء والمذاهب، وضمه الفلاسفة إحقاقا للحق وإزهاقا للباطل
وهذا آخر النظر للمنطق في صورة القياس وهو ينتج إنتاجا صحيحا إذا استوفيت الشرائط ويكون على حسب
قاعدة التي صيغ منها فقد يفيد اليقين وقد يفيد الظن وقد يكون كاذب النتيجة وإن وقع في الوم أنها صادقة.
(القسم الثاني) النظر في مادة القياس وهو (خمسة أنواع: النوع الأول) البرهان ويسمى (أنولوطيقا
الثانية) وسنذكر له شروطا ككونه ذا مقدمات يقينية كالبدهيات والشاهدات والمجربات، ويذكر في هذا
للقام للضرات والحدود لأن المطلوب بالبرهان اليقين في التصديقات وبالحدود اليقين في التصورات فبسلها
القدماء في كتاب واحد. (النوع الثاني) الجدل وهو لا يقصد منه اليقين وإنما يراد منه قطع للشاغب وإفحام
الخصم ويستعمل فيه السمات والشهورات كالمناظرات الفقهية للذهبية، كل يرد على صاحبه باعتبار ما هو
مسلم عنده. (النوع الثالث) الخطابة وهي القياس للقياد ترغيب الجمهور وحملهم على الراد منهم كجميع مقالات
الوظائف الحاتمة على الصدق ونحوه إلخ. (النوع الرابع) السفطة وهي القياس الذي يفيد خلاف الحق ويضالط
به الناظر صاحبه وإنما يتم لأنه يعرف به قياس للخالطة فيحذر منه كقولك في صورة فرس هذا فرس وكل

فرس صاهل . (النوع الخامس) الشعر . وهو القياس الذي يفيد التخييل والتشبيه خاصة للإقبال على الشيء والتفرد منه كأن تقول في العسل هذا في الزناير فينفر منه السامع .

(ضرب مثل لمادة القياس وصورته)

ولنضرب مثلا لمادة القياس وصورته بالدينار وقشه . إن الدينار للمصنوع من ذهب له مادة وصورة ، فالصورة هي الإستدارة والنقش وجمال الصنعة وللمادة هي الذهب والفضة . والذهب إما أن يكون إبريزا لاغش فيه . وإما أن يكون قليل الغش وإما أن يكون ذهباً كثيراً الغش وإما ألا يكون ذهباً أصلاً هكذا الاعتقاد وهو مادة القياس إن كان لا يخطر بباله فهو البرهان كقولك عدد (١٦) عدد مربع مجذور وكل عدد مربع مجذور إذا زيد عليه جذراه وواحد فهو مجذور وإذا نقص منه جذراه إلا واحداً فالباقي عدد مجذور ينتج عدد (١٦) وإذا زيد عليه جذراه وواحد فالعدد المجتمع مجذور وإن نقص منه جذراه إلا واحد فالباقي مربع مجذور . فهذا قياس حملي مقدمته يقينتان وتبيجه كذلك . وإن كان الاعتقاد مقاربا لليقين مقبولا في الظاهر ولا يشعر بإمكان تقيضه لإدقيق الفكر فهو الجدل . وإن كان ظنياً إقتناعياً مع خطور تقيضه بالبال بسهولة فهو الخطابة . وإن كان مشبهاً لليقين أول للشهور في الظاهر وليس كذلك بالحقيقة فهو السفسطة .

ثم إن الخامس وهو القياس الشعري ليس يدخل في إفادة يقين ولا ظن ولا مخالطة فالمخاطب قد يعلم حقيقة وإنما يذكر لترغيب الجمهور أو لتفخيره أو تشجيعه كما ينفر من الحلو الأصفر بتشبيهه بالمذرة وكما ينفر من شرب العسل في المهجم النظيف . ومن هذا القبيل الحوض على الفتك بقول القائل :

ليت هذا أجزتنا ماتعد وشفت أضنا بما نجد

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

فهذا القول حمل سامحه على الإسراع بالفتك بأعدائه ، وكالحوض على النهور وعدم الحزم في الحرب كقول النبي رحمه الله تعالى :

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

فإنه جعل الحزم جبناً كما ذكره الامام الفزالي ولذلك فتكت بقائه يد النون واغتاله غوائل اللوت وهو يناوي من هم أقوى منه بطشاً وأكثر جمماً وأوفر عدداً فطاح بتهوره ووروى في الرمس وذلك جزاء للهورين انتهى القياس الشعري .

هذا ، ولقد ترجمت هذه كلها في المسلة الإسلامية ، فترجم القولات (حنين) وفسرها (فرفوربوس) والفارابي . وترجم حنين القضايا من اليوناني إلى السرياني . ونقل (مقي) نقل إسحاق إلى العربي وشرحه الفارابي وتداول المسلمون هذه الكتب بالشرح والتلخيص . وألف فيها الفارابي وابن سينا في كتاب الشفا وابن رشد .

ولقد تصرف للتأخرون في للنطق فقلوا الحدود من البرهان إلى السكليات الخمس وحذفوا للقولات العشرة ولم يشعروا بماوم للادة الخمس كما هو متداول الآن في الأقطار الإسلامية مع أن للنطق بغير ذلك شجر بلا نحر وسراب ببيعة بحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئا ووجد الجهل عنده فأوقعه في الخبال ثم إن هذه الصورة المنقوصة من للنطق أطال للتأخرون فيها الكلام كأنه علم مستقل بنفسه مع أنه آلة لغيره . وأول من فعل ذلك الإمام فخر الدين بن الخطيب ومن بعده (أفضل الدين الحونجي) وبيدس في زماننا كتاب إساغوجي لأثير الدين الأبهري التوفي في حدود المائة السابعة الهجرية وكتاب الشمسية في القوائد للنطقية لمعرب بن علي الكاظمي القزويني من أهل القرن السابع للهجرة تليد (نصير الدين الطوسي) للطبوعة ولها شراح كثيرة ، وكتاب الحبيصي وغيرها من الكتب فيجب المدول عن هذا النهج إلى ما هو آتم وأكمل . انتهى الكلام على العلوم للنطقية .

﴿ اتقسم الثالث العلوم الطبيعية من العلوم الفلسفية العلية ﴾

العلم الطبيعي ما يبحث فيه عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون في العوالم العلوية والسفلية من السموات والناصر وما يتولد عنها من نبات وحيوان وإنسان ومعادن وما في الأرض من زلازل وعيون وما في الجو من سحب وبخار ورعد وبرق . وقد ألف فيه (أرسطو) وقد ترجمت كتبه مع غيرها من العلوم أيام للأمون وحذا الناس حذوها كابن سينا في كتاب الشفا وفي النجاة والإشارة . ويخالف (أرسطو) في كثير من المسائل بخلاف (ابن رشد) فإنه لم يحص كتبه تابعا له غير مخالف، وقد شرح كتاب الإشارات للإمام ابن الخطيب والآمدى ونصير الدين الطوسي .

﴿ أقسام العلوم الطبيعية ﴾

العلوم الطبيعية (ثمانية): سماع الكيان، السماء والعالم، السكون والفساد، الآثار العلوية، المعادن، النبات، الحيوان الانسان :

(١) سماع الكيان : يبين فيه الميولى والصورة والحركة والزمان والمكان وما يخص الجسم من الأعراض الزائلة واللازمة .

(٢) السماء والعالم : يبين فيه هيكل العالم ونظامه العام في أفلاكه وكواكبه وطبقاته .

(٣) السكون والفساد : يبين فيه كيف يتكون المعدن والنبات والحيوان من العناصر ، ثم يبين رأى الحديث القائل (إن للمعادن السبعة غير مركبة من العناصر) ثم ينظر أى الرأين أقرب للصدق .

(٤) الآثار العلوية : يبين فيه ما في الجو من حوادث الحر والبرد والسحاب والمطر والتنج والبرد . والرعد والبرق وقوس قزح والمهالات ، وكيف كان منشأ السحب من البخار ثم يدفعها الهواء إلى الأودية فتصدها الجبال فتعطر على اليابسة ، وغير ذلك من النور والظلمة وتصاريح الرياح من الأنهار والبحار ، وما يكون منها من النجوم والضباب والظل والندى والشهب وذوات الأذنان وما شاكل ذلك .

(٥) تسكون المعادن: بما في التراب والطين والأرض السبعة كالسكباريت والأملاح والشبوب والزجاجات أو في قعر البحار كالدر والمرجان ، أو في كهوف الجبال وجوف الأحجار وداخل الرمل كالتهب والفضة والنحاس .

(٦) علم النبات : يذكر فيه أجناسه وأنواعه وخواصه ومنافعه ومضاره ، وأن مرتبة النبات متصلة بالمعادن من أدناها مرتبطة بالحيوان من أعلاها ، ويان أن منه ما ينبت في البرارى والقفار ومنه ما ينبت على رؤوس الجبال ، ومنه ما ينبت على شطوط الأنهار ، ومنه ما يكون في الأجسام ، ومنه ما يترسه الناس في القرى والبساتين ، ومنه ما يكون تحت الماء ، ومنه ما ينبت على وجه الماء ، ومنه ما ينسج على الشجر ، ومنه ما ينبت على وجه الصخور ، وهكذا من الأحوال والأوصاف والأشكال والأزهار والأوراق والقضبان وما أشبه ذلك ، ويبين فيه القوة الجاذبة والمانسة والمضامة والدافمة والنامية والناذية والولادة وما أشبه ذلك من الأوصاف الظاهرة والباطنة .

(٧) علم الحيوان وعجائبه وطبائمه . إنه متصل بالنبات من أدناه مرتبط بالإنسان من أعلاه ويان أن الحيوانات الناقصة الحلقة مقدمة بالوجود على الحيوانات التامة الحلقة، وأن حيوان الماء متقدم بالوجود على حيوان البر ، وأن الحيوان متقدم بالوجود على الإنسان ، ثم يان أن الذى تله أعلى

من التي تبيض والتي تبيض أعلى من التي تتكون في الفونات ولا تبيض سنة كاملة لأنها يهلكها
الجر والبرد . وكيف كان بعضها آكلا كالأسماك وبعضها مأكولا كالأرانب والفزلان . وما حكمة
ذلك ؟ وما فوائده ؟ ثم يبان تناسلها وتوالدها واختلافها في ذلك وتربيتها أولادها وانحاضها
ويبان سكان الماء والهواء والبر والتراب كالسمك والظير والأنعام والحوامد وبين قوة الحس
والحركة في مائر الحيوان .

(أ) الإنسان : وتركيب جسده ، ويبان حواسه الحس من السمع والبصر والنم والدوق واللس
وأن صور حساتها تصل إلى الحس المشترك في الدماغ ويبان أن تلك الحواس جنانية من جهة الظاهر
معنوية روحية من جهة الباطن لاتصالها بالأجسام أولا وبالحواس المشتركة أخرا . فأما الحس المشترك
الذي هو كالمرکز للحواس للؤدية إليه فهو معنوي روحاني . ثم يبان أن معارف الإنسان من (ثلاث
طرق) : الحواس والنقل والبرهان الذي يختص به العلماء والحكماء . وأن للدركات بطريق الحس
(عشرة أنواع) وبطريق الدوق (تسعة أنواع) وبطريق الشم (اثنان) وبطريق السمع (خمسة)
وبطريق البصر (عشرة أنواع) جميع ما تدركه الحواس ست وثلاثون نوعا من للدركات ويبان
أسباب خطأ الحواس وكيف احتاجت إلى العقل ليزيل سبيلها وتستبين السبل وتظهر الحقائق
وغير ذلك من عجائب العلم وبدائع الحكمة . ثم الكلام على إجمال العلوم الطبيعية .

(القسم الرابع العلم الإلهي أو السكبي)

.. وهو علم يبحث في كل الموجودات من حيث تمييزها وتكوينها وتحقيق حقائقها وما يمرض لها ونسب
ما بينها وما يخصها من حيث هي موجودات وهو أنواع :

[النوع الأول] في الأمور العامة مثل الوجود واللاهية والوحدة والكمية والوجوب والإمكان والامتاع
والقدم والحدث والأسباب واللسيات .

[النوع الثاني] النظر في مبادئ العلوم كلها وتبيين مقدماتها .

[النوع الثالث] النظر في إثبات وجود الإله الحق والدلالة على وحدته وفردته بالربوبية وإثبات صفاته
ويبان أنها لا توجب كثرة في ذاته .

[النوع الرابع] النظر في إثبات الجواهر المجردة من العقول والنفوس واللائكة وما أشبه ذلك .

[النوع الخامس] أحوال النفس البشرية بعد الموت ومفارقها الهياكل الإنسانية وحال للباد وكيفية
ارتباط الخلق بالأمر .

هذا آخر القسم العلمي ، وهذا العلم يسمى أيضا (علم طوواء الطبيعة) ولخصه (ابن سينا) في كتاب
الشفاء والنجاة والإشارات وكذلك لخصه ابن رشد من علماء الأندلس . ولقد حدث في الأمة الإسلامية بدع
ومقالات خالطت العقائد فأورثت شيئا أدت إلى انقسام الأمة شيئا وأحزابا كل يؤيد رأيه ويقوى مذهبه ،
ومن أسباب ذلك انتشار الفلسفة اليونانية ، ألا ترى أن الإمام الغزالي ألف كتابا سماه (تهافت الفلاسفة)
يدحض به بعض المسائل الفلسفية وهي قليلة جدا ، ثم هو أيد أن باقها موافق للدين غير مخالف له ورد عليه
ابن رشد بكتاب سماه (تهافت التهافت) ثم جاء آخر ووضع كتابا ليحكم بينهما ، فهذا وأمثاله أدى إلى تمدخل
مسائل العلم الإلهي في علم الكلام للمسي بلم التوحيد أيضا الذي وضعه علماء الاسلام لرد الشبه والبدع التي
استهوت الكثير من الأمة الاسلامية ، ولقد تجاوز المجد قوم من الدين لا تحقيق عندهم فظنوا كل ما نسب
لفلسفة زورا وذلك منهم جهل وقرور ، ولقد صار علم الكلام قنا يهوى كثيرا من علوم الفلسفة كما ترى

في كتاب التواقف وأمثاله ، وتمام مزجوا العلم الطبيعي بالإلهي وأصبح من لا علم عنده يظن أن علم الكلام والعلم الإلهي واحد وليس كذلك . إن علم الكلام أدلة شرعية جاءت عن صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، أما أدلة الإلهيات فانها صادرة عن العقل البشري بعد قراءة الرأى والطبيعي . فأما تحلل مسائل الفلسفة من الطبيعي والإلهي في علم الكلام والاستدلال بأدلتها فذلك ليس مقصودا لذاته ، وإنما ذكر ليقوى ماورد بالدين السمعي فتكون تلك الأدلة العقلية لتقوية العقلية وإلغام الحصر وإثبات العقائد عند من لا يصدق بالسمع وإنما دعا للتكلمين إلى ذلك مقالات الذين ادعوا الفلسفة وهم لم يستوعبوا فاضروم بأدلة من القليل الذي استهوام ، وعلى ذلك كان إدخال الطبيعيات والإلهيات في هذا العلم وتصحيح مسألهما وإبطالها ليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس أنظار التكلمين ، وإنما للوضوح هو الرد على المعارضين وللحديث ، ثم إن الصحابة والتابعين كانوا على سنن الحق وطريق الهدى والإعراض عن زخرف الدنيا . ولما كثرت الإقبال على الدنيا اختص أولئك للثبتون باسم الصوفية نسبة لبس الصوف كما قيل فكان لهم كلام في المهاديات والأذواق واللقامات والكشف وعلم التيب والتصرف والشطحات والقول بوحدة الوجود كما في كلام ابن دهقان والوحدة كما في كلام الطبري في كتاب (اللقامات) وغيره ، وتبعهم ابن العربي وابن سبعين ومن بعدهم كابن المظني وابن الفارض والنجم الاسرائيلي في قصائدهم وكلامهم ككلام الإسماعيلية للتأخرين من الرافضة القائلين بالحلول ، وبأن الأئمة آلهة لأن سلف الطائفتين كانوا قد اختلطوا من قبل هؤلاء فتدخل للذهبان وتشابه الرأيان فهؤلاء الصوفية خلطوا كلام علماء الكلام الإسلامي بالعلم الإلهي الفلسفي من الوجدانيات الثبوتية الخاصة بهم وليس عليها دليل سمعي ولا عقلي ، ثبت إذن أن العلم الإلهي مستمد من العقل وعلم الكلام مستمد من الشريعة وعلم التصوف مستمد من ذوق أربابه وليس للدليل العقلي ولا النقل فيه من سبيل ، فهنا تحقيق للتمام ، فأذن هذه العلوم الثلاثة متباينة .

(العلوم العملية)

أما العلم العملي فهو (ثلاثة أقسام : الأول علم الأخلاق) في البحث عن (القوى الثلاث) الشهوية والنفسية والعاقلة ثم العفة للشهوة ، والشجاعة للنضب ؛ والحكمة للعقل ثم العدل وما يتفرع على ذلك كله من الرذائل والفضائل من البخل والتبذير والكرم والحلم وما أشبه ذلك . (الثاني) علم تدبير المنزل في معرفة معايشة أهل والحكم وسياستهم ونظامهم مثل أنه يجب على رب الأسرة أن يسير معهم على نمط واحد وتبصرة لا يغيرها حتى لا يندم إذا تمرت أخلاقهم إلى غير ذلك . (الثالث) السياسة المدنية ، هو علم يبحث فيه عن أنواع الجامعة الانسانية كالجنس والدين والوطن والفة وذلك الجامع للأمة ، وكيف كانت هذه تنافي حال المدينة القاضية ثم النظر في أن سياسات الأمم مبنية على عقائدها ، ثم بيان المدينة القاضية وللشعرفة والجاهلية مما أوضحه القارابي في كتابه كتيبان أن نظام المدينة القاضية يرجع إلى نظام الجسم الإنساني مقياسا عليه في الأعضاء الخادمة والمخدومة للفصلة في علم التشريح ، وبيان أن نظام الأمة يرجع إلى الزراعة والتجارة والصناعة والإمارة وأن الإمارة على العامة للوظائف وعلى الخاصة للحكام وعليهما معا للأنبياء وعلى الأجسام فقط للملوك والأمراء انتهى الكلام على العلوم العملية .

فهذه (سبعة عشر علما) أربعة في الرياضيات . فالنطق ثمانية في الطبيعيات والعلم الإلهي فالعلوم العملية الثلاثة وإلى هنا تم الكلام على (سورة لقمان) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة السجدة

هي مكية

إلا من قوله تعالى « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » إلى قوله تعالى « ولنذيقنهم
من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون » (مدنية)

(آياتها ثلاثون - نزلت بعد المؤمنون)

هذه السورة قسبان

(القسم الأول في تفسير البسملة)

قد تقدم في (سورة الفاتحة) الكلام على الرحمة العامة وفي (سورة هود) الكلام على رحمة الحيوان
وتفسير بعض الأمم الإسلامية في رحمته بسبب الصيد بلا قيد وبلا شرط وهناك الأحاديث الواردة في تلك
الرحمة ، وفي (سورة الروم) بيان أن ما يمتري الحيوان من الألم والمرض والجوع والعطش ، كل ذلك يقصد به
نعمه فالجوع هو اللغة التي يخاطب بها الحيوان لياكل والمرض إنذار ليطلب الدواء وهكذا ، وفي (سورة
لقمان) استبان الكلام على معاني (الله . الرحمن . الرحيم) وأن الله والرحمن اسمان خاصان بالله تعالى ، وبيان
أن من عرف أسماء الله ولم يفهم معناها أو فهمه بلا بحث فهو جاهل ، بل هو لم يفتق في ذلك البدوي القح
في البداية وإنما معرفة أسماء الله تعالى يجب أن نلاحظ فيها معرفة الآثار التي تقتضيها تلك الأسماء . ومن اطلع
على ما جاء في هذا التفسير أو أكثره حصل عنده علم لاشك فيه ووثق وثوقاً بالمشاهدة أن الرحمة عامة شاملة
وأن هذا الوجود منظم نظاماً مدهشاً ، وأن هناك عناية تفوق كل وصف وتقدير ، فهذه وحدها تكون
السعادة النفسية والحسنة العقلية العملية ويكون هذا الاعتقاد كالمحسوس للشاهد ، بل كالتضايا البديهية التي
لا تقبل الشك . وهناك ترى كيف تؤثر تلك المشاهدة في الآثار رحمة في قلب المؤمن فإن من أعجب بصفة
لا محالة يود الانصاف بها ، وعلى ذلك تراه يعطف على الفقير والمسكين كأن ذلك غريزة فيه لأن الصفة التي
شاهد آثارها قد أثرت فيه فهو لذلك رحيم ، وهذا هو التخلق المطلوب إذ يتخلق بأخلاق اللائكة فيقرب من
ربه ، وهناك ترى البحث الهام (كيف يتخلق العبد بأخلاق ربه والله ليس كذلك شيء ؟) وبيان أن هذه
الشبهة إنما تحضر عند العامة وصغار العلماء وهي شبهة واهية داحضة لأن الله موجود والناس موجودون ،
حي ونحن أحياء . وهكذا نقول في الصبر والشكر والقدرة والعلم والسمع والبصر والكلام . كل ذلك
لا ينكره مسلم في الأرض ، فهذه الصفات مشتركات بين العبد والرب ، فلو كان هذا الاشتراك يوجب المماثلة
المنوعة لكان جميع المسلمين مشبهة وهو باطل ، إذن المشاركة المنوعة هي التي تكون في نفس مقومات
القوات وذات الله وصفاته لا يعرفها إلا هو . وإذا كان الساحر لا يعرف سحره على وجه الحقيقة إلا ساحر مثله
فما بالك بالنبي صلى الله عليه وسلم وما بالك بالله تعالى ، فإذا كان الناس جميعاً قد يشعرون من النبوة بعد الأنبياء
فلا يمكن أن يدركوا معنى النبوة على وجه التحقيق ، وإذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم وجميع الناس
في الأرض لا يمكن أن يتصفوا بصفة الله ولا يكونون آلهة فحال عليهم أن يعرفوا الذات الإلهية ولا حقيقة الصفات وإنما
تتجلى لهم المعاني التي دلت عليها الأسماء الدالة على الصفات السبع وعلى الذات الواجب الوجود الخ . وعلى مقدار
علمهم بتلك المنوعات يكون إشراق نفوسهم كل بقدره . راجعه هناك فإنه واضح ولكن لا بد أن أوضح ما لم أكن

لأوصفه هناك فإن صاحبي العالم الذي اعتاد مناقشتي في هذا التفسير قال لي إنه ليحسن بك أن تبين معنى كون النبي ربه
 ربه ورحباً في قوله تعالى «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم»
 وهاها في البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) فآله رحيم والنبي رحيم والله سميع وبصير ونحن كذلك . فقلت
 إن الشمس سراج كما قال الله تعالى «وجعلنا سراجاً وهاجاً» والسراج أيضاً ما نوقده في منازلنا . قال نعم . قلت
 فالذي في منازلنا سراج يوقد إما من (البترو) وهو السائل المستخرج من الأرض ، وإما من الغاز المستخرج
 من الفحم ، وإما من شمع العسل ، وإما من زيت الزيتون وغيره ، وإما من شحم الحيوان ، وإما من
 الكهرباء . فكل سراج في الأرض إما من معدن أو نبات أو حيوان وأنت تعلم أن الأرض قطعة من
 الشمس وأن كل نبات وحيوان مستمدات أنوارها وحرارتها المهزونة فيها من نور الشمس مع أنا نسمى ذلك
 سراجاً والشمس سراج . فإذا كانت الشمس الحادثة تسمى سراجاً باسم القنديل الذي نضعه في منازلنا وما
 القنديل إلا أثر من آثار الشمس وضوؤه بالنسبة لها كالعدم بالنسبة للوجود . أو كالحبال بالنسبة للحقائق .
 أفلا يسهل هذا المثال علينا كيف يكون الله رحباً والنبي صلى الله عليه وسلم رحيم . وكيف يكون الله سميعاً بصيراً
 ونحن كذلك ؟ وهنا ظهر اللقاع ظهور الشمس لأولئك الذين لا يفقهون العلم إلا بضرب الأمثال ؛ وبهذا زالت
 الشبهة التي تنشئ على عقول أكثر الناس وهذا قول الله تعالى «ليس كمثل شيء وهو السميع البصير» فقدم
 للماتلة في الحقائق الذاتية ، وليس إثبات السمع والبصر فمقتضيا للماتلة بل ذلك مجرد مشاركة في أوصاف
 نسبة صفات العبد فيها إلى صفات الله تعالى كصفات سراجنا إلى الشمس . فسراجنا ثمرة من ثمرات الشمس وهو
 بالنسبة لها كالحبال بالنسبة للحقيقة هكذا قدرتنا وعلنا وكلامنا وحياتنا فكلمها على هذا الخط مشاركة في الاسم
 وضرب مثل لا غير . وإنما ذكرت هذا الملخص هنا لنعلم أن ما أكتبه الآن غير ما تقدم كله . ولأقدم لك مقدمة
 فأقول أنا أكتب هذا المقال ليلة الاثنين ٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٩ م أذكر فيه مازاولته من العمل يوم الجمعة
 (١٨) أكتوبر سنة ١٩٢٩ م وإنما أذكر ذلك لأنني كنت في نفس العمل أفكر في هذه العاني ياسبعان
 الله اللهم إني أحمدك وأشكرك على نعمة العلم والحكمة . خرجت من القاهرة صباح ذلك اليوم ولست أقول
 إلا ما قلته من قبل وهو أنني إذا تركت قطار سكة الحديد الواصلة من القاهرة إلى محطة للرج أنتهز فرصة
 الذهاب إلى مزرعتنا وأمشي على قدمي علماً مني بأن الله عز وجل هباً لي هذه الفرصة لأنتهزها طلباً للصحة
 واستنشاقاً للهواء ونظراً للحقول ودرسا يقرؤه السالمون . فهذا الشيء تكون صحة البدن ودرس العلم . ويبانه
 أنني في ذلك اليوم لم أزد أن أسير في الطريق للسلوك ولا أدرى لم هذا الليل فإني كثيراً ما أميل إلى السير في وسط
 تلك الأرض تحت النخيل تارة وفوق الأعشاب تارة أخرى . إن هذه الأرض سبخة وكنت أشاهد فوقها
 مواد ملحية طافية فوقها تارة وتارة أجدها . آسنا أشبه بالزيت في لونه وأكثر الأرض مغطاة بحشائش ترعاها
 الغنم والبقر والجاموس . وهنا أخذت أتأمل في هذا الوجود وأقول هذه الأرض لاتصلح للزرع . لا يمكن زرع
 القطن ولا القمح ولا الأرز ولا برسيم البهائم . فهي أرض قال الله فيها (والذي حثت لا يخرج إلا نكدًا)
 ولكن ما أشد دهش العاقل إذ يرى أن الحشائش التي تنبت فيها تخرج قوية خضراء لا تبرح الأنعام تتردد
 عليها صباحاً ومساءً لاتضرها وكلما أكلت منها حشائش نبت غيرها على الأثر ولم يبق يضرها ولا حرقها ولا سقيها
 أحد ولا تضرها الحشرات ولا الحر ولا البرد ولا الآفات السابوية والأرضية ونظرت في تلك المجاري (التي تتخلل
 تلك الأرض المملوءة بالماء الآسن الذي جاء من سقي الأرض بالماء ويسمونه الرشاح : أي الذي جعل
 لاجتماع الماء الذي تغسل به هذه الأرض السبخة عسى أن تصلح للزراعة فيما بعد) نباتاً مرتفعاً قوياً متيناً
 أجمل وأهين من مزارع الفلاحين في الأرض الطيبة وقد سمدوها بالسماد وحافظوا على مواقيت سقيها . فهذا

النبات الذي يسمون بعضه (الديس) وبعضه يسمونه (البردة) النبات في ذلك الماء الآسن في تلك الهري لا يمتريه اصفرار ولاضعف مثل مايمتري المزارع التي قام الناس بحفظه ، هاهنا تذكرت الرحمة التي وسعت كل شيء . وأن الله لا يندر شيئا في الوجود بلامنفعة . فإذا رأينا الزرع لايجود ولايشمر أحسن نمر إلا إذا سمد وخير السجاد ما كان من جوف حيوان . فهذه القاذورات التي يألف الناس منها هي التي عليها مدارثروتنا وحياتنا ، فإذا كان الأمر كذلك فيما ازدريناه مما خرج من الإنسان والحيوان ، فهكذا فعل في الأرض السبخة فقال لنا الأرض الطيبة لكم فاعملوا فيها ، أما الأرض السبخة وهي الخبيثة فهي الحيوان والحيوان لاقدرة له على التسميد والسقي فأنا الذي زرعت الأرض له وجعلت هذه الحشائش ذات قوة لتحتمل مايعمل من ظمأ ومن ماء ، ومن حر ومن برد ولايجوزها سجاد ولايؤذيها دوس الحيوان صباحاومساء عليها فأنا المتكفل برزقها ، فهكذا كانت حكمتي فحكمتي أن أجعل البرد على قدر الغطاء ، وههنا تذكرون أيها الناس أن من النبات مالا يعيش إلا في الماء وهو الأرز ، ومنه مايعيش في الماء وغيره كنبات على شاطئ النيل ، ومنه ما لايعيش إلا في البر ويسقى وقتنا بعد وقت ، فأنا لطيف أعطى لكل مقام مقالا .

أقول : خطرت في نفسي هذه المعاني فحمدت الله عز وجل إذ جعل نظري عبرة وصمقي فكرة ، فبينما أنا كذلك أفكر في هذه الرحمة الواسعة التي شملت الإنسان والحيوان إذخطر لي أن في كتاب [علوم للجميع] الذي ترجمت منه كثيرا في هذا التفسير نباتات مرسومة نابتة تحت الماء على أعماق مختلفة ، فما أنا ذا الآن أراجعه والرسوم أممي ، فأنا الساعة أشاهد العجب ، أشاهد في الجلد الثالث مقالا عاما في نبات البحر وحيوانه وإنه لاخذ لوجود الحيوان في البحر ، وقد وجدوا الإسفنج على بعد (١٠٠٠) قامة عند شواطئ البرتغال والبرازيل ، أما في شمال المحيط الباسفيكي فإنه يكون على عمق (١٨٧٥) قامة وعلى بعد (٢٩٠٠) قامة بساق طوله ستة أقدام ، وترى عمق المحيط الاطلانطي قد يبلغ (٣٨٧٥) قامة فأكثر ، وفي البحر الأبيض المتوسط يصل العمق إلى أربعة آلاف قامة فأكثر ، وترى في صحيفة ١٦٥ من ذلك الكتاب في الجزء الثالث صورة شجرة نوع من (الزيق) نابتة في قاع البحر ، وبعد ذلك ترى شجرة عجيبة يسمونها (بنت البحر) بهيئة غريبة بحيث تميل أعضائها إلى الجوانب وتظهر للناظر كأنها طبق يضاوي الشكل ، وهكذا من النباتات العجيبة النابتة في قاع البحر وفوقها ألف قامة أو ثلاث آلاف وهكذا . كل تلك ماء فوقها وهي خضراء بديعة قوية متينة . كل ذلك أذكره لمناسبة هذه الناظر التي شاهدها في العراء وأنا ذاهب إلى مزرعتنا ، أشاهد رحمة الله في تلك الأرض السبخة وأشاهدها في حقولنا ونحن نصب ونسحب وكأن الله يقول لنا : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر مايشاء إنه بعباده خير بصير » الله خير وبصير وهذه الخبرة والبصر أعطى كل شيء خلقه ثم هدى فقال أيها الفلاحون انصبوا واتعبوا فإن أجسامكم وعقولكم إذا لم أشغلها بذلك انحطت وسفلت وجعلت الحياة لا تنطق ، لذلك جعلت ما كلكم وملابسكم كلها بنصب ونسب وهذه هي الرحمة ، أما أنت أيها البهائم ، وأنت أيها الطيور ، وأنت أيها الأسماك في البحار فاعلمن جميعا أنني أنا الراحم لكون نفسي فأنت الحشائش في الأرض السبخة وأنت حشائش وأشجارا في أعماق البحار التي تبلغ آلاف القامات ليكون ذلك منعمة لخلقاتي الحيوانية في الماء ، فهذه رحمتي ، وهنالك أخذت الحظ أن كثيرا من أسماء الله الحسنى تطبق على تلك الناظر ، فإني رحمن رحيم وهو ملك لأنه يحتاج إليه كل أحد وليس محتاجا هو إلى أحد فنجد حاجات الفلاح والبهائم والأسماك كلها متجهة إليه ، وهو بها قائم وهي كلها آمنة في سرها فرحة بحياتها وهو مؤمنها ، فإني هو (المؤمن) الذي يعزى إليه الأمن والأمان فإني أمر في تلك الأرض السبخة الواسعة فأرى أسرابا من الحطاطيف تطير بفرح وسرور . وهكذا أنواع العصافير والغربان

والغواب ترعى وهي آمنة مطمئنة وهو (السلام) لأنه سلمت أفعاله من الشر وكل شر في الوجود لم يخاق إلا
 لحبر كامن فيه ولا يعقل هذا إلا من درس أكثر هذا التفسير أو قرأ كتبنا نظيره وهو (العزير) الذي يقل
 مثله وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه، ولا جرم أن جميع الخلق محتاجون إليه في كل لحظة وهو (الجبار)
 فهو الذي ينفذ مشيئته على سبيل الإيجاب في كل أحد ومن ذلك مخلوقات البر والبحر التي ذكرتها لك ، وهو
 (الخالق البارئ* الصور) فهو الذي قدر هذه النباتات وعلى مقتضى التقدير (بعثت يكون هذا في الأرض السبعة
 وهذا في الماء، وهذا في الأرض الطيبة وهذا في البحر) يوجد ذلك النبات وليس للإيجاد تمام إلا بالتصوير
 فهذه المعاني واضحة في هذه المشاهدات (الخالق البارئ* الصور) وهكذا إلى آخر أسماء الله الحسنى وعلى ذلك
 أبداً قفس . ولما كان وقت المغرب نظرت وأنا في القطار إذا الشفق في الأفق بعد الغروب . فماذا رأيت ؟
 رأيت منظراً بديعاً بهجاً ، شفق لونه الصفرة البهجة التي ينظرها ابتهجت نفسي ، ولكم من ناظر الشفق ويعوزه
 هو الإشفاق عليه ، ذلك لأن ما اعتاده الناس غالباً لا يحسون بحاله . وأكثر الناس مغمورون في الجمال
 ولا يشعرون به . هنالك أخذت أفكر في نفسي كيف أحست بالجمال في الشفق بعد الغروب ، ما هو الشفق ؟
 إن هو إلا شعاع جرى من الشمس تحت الأفق وانتشر فوقه محتلطاً بالهواء الجوي ، ثم ما هو الهواء وما هو
 الضياء ؟ الهواء مادة مركبة من عناصر قليلة مثل (الأكسجين) و (الأزوت) وهناك مادة الفحم وبخار
 الماء . ولا جرم أن ذلك كله إما عنصر أو راجع للعناصر والعناصر جميعها ضوء والضوء حركة . إذن كل هذا
 حركات، ونفس ضوء الشمس المذكور هنا ما هو إلا حركات فيما سماه الناس (الأثير) وهكذا الزرع والشجر
 والحيوان وأجسام الناس . كل هذه ما هي إلا عناصر (اقرأ ما تقدم في سورة النور عند آية النور وقرأ
 الكشف الحديث هناك موضعاً في قطرة ماء) إذن هذا الكون كله ضوء والضوء حركات والحركات
 في الأثير ، والأثير (كما اتضح وضوحاً تاماً عند علماء الأمم عموماً) أمر فرضي فرضوه ولم يعرفوه ، ولكن
 لنا الحق نحن (إذا عجز جميع العقلاء فعلاً) أن نقول فلنسم هذا الذي به كان الخلق (رحمة الله) لأننا
 لا نعرف الأثير بل هو فرض فرضوه فقط ولتقريباً ^{بموت} تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا
 فيه » الغي وهذه خير ما يقال في هذا الزمان .

فإذا كانت المادة لا وجود لها وما تحلوه فسموه (الأثير) أمر موهوم ، إذن يكون أصل هذا العالم أمر
 يرجع إلى آثار الرحمة وإلا فنحن ننظر لهذه الصور الأرضية والسموية بعبوننا فتراها ظاهرة ونفسها ونشمها
 والحقيقة أنه لا شيء هناك (كما هي نظرية اينشتاين) الذي تقدم في هذا التفسير وأن الكون سكون في سكون
 وما هي إلا حركات والحركات باختلاطها وبتنوعها صارت أشكالاً . إذن الفضل كل الفضل لأرواحنا وحواسنا
 وعقولنا فهي التي ظهرت لها هذه المشاهدات وصارت فيها على هذا النمط .

الله أكبر . إذن درس النهار في الحشائش وتذكر الحقول وأشجار البحار العميقة ظهرت ثمرته بعد
 الغروب إذ كان الشفق هو الذي ذكرني أن كل ما رأيت في النهار ما هو إلا حركات لا ترى وبالتدريج شع منها
 حصل تنوع صار نباتاً وحيواناً وأرضاً وسماء . إذن للدار على إحساس حواسنا ولاعبرة بالخارج فلو أحست
 نفوسنا وحواسنا بأمر سار أو صارتم الأمر ، وعليه أصبح أمر الموت أمراً سوريا لاغير ، لأن الناس الآن
 ليسوا في مادة بإجماع علماء الطبيعة في عصرنا وبالموت قد تجردوا بما توهموه مادة . إذن نحن بالموت نخرج
 من الوهم الذي غشى على عقولنا . إذن العلم الحديث أظهر لنا سر ما يروى « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا »
 وبهذا تفهم ما تقدم في هذا التفسير عن أفلاطون إنه يرى [أنه إذا كانت المادة لا نبات لها فهي لا يصح أن
 تكون مناط العلم لأن العلم ثابت في نفوسنا وهي غير قارة وغير القار لا يكون . مناط القار الثابت]

فلا محلمس عنده إلا بأن يقال إن المادة صورها صور مطابقة (لمثل) معنوية جوهرية لطيفة سماها الناس (المثل الأفلاطونية) .

ولقد طال الجدال فيها بين علماء الأمم . ولكن الذى يهمنا الآن أن نقول : إذا كانت المسادة يقول فيها أفلاطون إنها لا يصح أن تسمى موجودة فضلا عن أن تكون مناطا للعلم حتى اضطر إلى تلك المثل . أفليس من العجب أن علماء العصر الحاضر قد نقوها بتاتا . كأن الرجل كان ذا نظر ناقب حتى ظهر الآن ظهورا عليا كلامه .

فهذا بلا رب يفسر قوله تعالى « كل شيء هالك إلا وجهه » وإذن نقول . إذا كانت السموات والأرض وما فيها لا تصلح مناطا للعلم وليست موجودة موادها وإنما للوجود ماهو إلا ظواهر اخترعتها حواسنا : أى أن هذا وجود بالنسبة لحواسنا لا غير فهو وجود نسبي . إذن للوجود الحقيقي هو الذى يبنى التعويل عليه ، والوجود الحقيقي هو الله . والله لم نعرفه إلا بآثار صفاته ، وصفاته ظهرت بأسمائه التسعة والتسمين ومنها (الله الرحمن الرحيم) فى أول هذه السورة ، وهذا بعض السر فى تكرير البسملة فى أول كل سورة . فهذا التكرار عند الجاهل أشبه بما ينظره كل يوم فى الحقول والحدائق والفلوات من العجائب فلا يفتلها ، أما العالم فإنه يقول . كلا . ألم يظهر عند العلماء قاطبة فى عصرنا أن المادة لا وجود لها ، وهذه الظواهر موجودة عند حواسنا وحواسنا هذه الظواهر معهامنسوبة إلى من نظمها ، وهو الثابت الدائم وصفاته التى رأينا آثارها . إذن بها نستغنى عن (المثل الأفلاطونية) وهذا هو سبب تكرار هذه الأسماء الثلاثة فى أول كل سورة . يقول : أيها الناس الخالق كلهم من رحمى أما الأثير فكلمة جوفاء . ألم تقرأوا « ورحمى وسعت كل شيء » ألم تقرأوا « ربنا وسعت كل شيء . رحمة وعلما » فالرحمة لا بد معها من العلم حتى تتم نتائجها على الوجه الأكمل ، فقولى « رحمة وعلما » يفتيك عن المثل الأفلاطونية وعن العالم الأثيرى ، فتكل هذه فروض لادليل عليه اوينى عن هذا كله أن تقولوا « رحمى وعلما » .

أقول : يعجبني قول من قال فى عصرنا [إن العوالم ماهى إلا فسكر مجسم] أى أشبه بخيالنا إذا تجسم ما فيه أمام أعيننا لا غير « فتبارك الله أحسن الخالقين » وهو أرحم الراحمين .

اللهم إني أحمدك على العلم وعلى الحكمة ، أحمدك على أن مانزاه فى الزارع مفسر لمعنى الرحمة ، ويقول علماء التربية فى عصرنا [إن العلم والدراسة كلما كانا أقرب إلى الأحوال المشاهدة والأمور المحسوسة المحيطة بالناس كانت أقرب إلى رقى الأمم ، وكلما كلفت العلوم متباعدة عما يزاوله الإنسان كانت أقل فائدة وأبعد عن رقى المعلمين] وهذه الفكرة هى التى أوضحتها العالم فى علم فن التعليم (البيداجوجيا) الذى أوفدته حكومتنا المصرية فى هذا العام سنة ١٩٢٩م لدراسة أحوال الأمة المصرية من حيث التعليم فذكر أن التلاميذ إذا دخلوا المدرسة فقد انقطعت صلتهم بأحوالهم المعتادة الخ .

فهل تحب أيها الذكى أن أقص عليك ماخطر لى يوم الأربعاء ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٩م وإنما أقصه عليك تبيانا لمعنى الرحمة وبجارية أخرى تفسيرا للبسملة . هذا الخاطر خطر لى فى القاهرة لافى الحقل كالخاطر المتقدم . ذلك أى كنت متوجها إلى محطة القاهرة ماشيا على قدمى كما كنت أمشى فى الحقل قبل ذلك فأخذت أفكر فى معنى الرحمة وأقول سبحانك يا ربنا أنت القدوس السلام . أنت الرحيم . أنا الآن أمشى فى شوارع القاهرة الجميلة ولكنى أعتقد أن هواء هذه الشوارع ملوئ من المواد القحمية فهو ضار لصحتى . أنت خلقت ذلك الضرر فى أنفاسنا وجعلته سببا للأمراض وللوت بحيث لو نام جماعة كثيرون فى حجرة ضيقة وأفتلواها لبالى فإن وجوههم تصفر ويضعفون كما هو معلوم فى كل أمة . إذن سيرى على القدمين فى الحقول صحى

وفي اللبن قليل الفائدة لأن الفائدة من المتى هو كثرة التنفس ولا فائدة في التنفس إلا في الأكسوجين وهو المادة الحيوية التي تدخل في أجسامنا وتسرى في دماننا . أنت ياربنا لم ترد بهذا الضرر إلا الخير . ذلك أنك خلقت هذه الأرض وأوسعها وخلقتنا عليها ، وكان سن سياستك في خلقنا أن جعلت ذكرا وجعلت أنثى جريا على نظامك في النبات والحيوان . فالإناث يلدن والآباء يربون ، وهناك تولى للنازل ووضعت في نفوس الأبوين رافة ورحمة بالثيرة ولكنك وضعت النبطة والحسنة والحقد والضغائن بين بعض الثيرة . فالشفقة في الأبوين لعناية بالثيرة والبغضاء والشحناء والمداوات في الثيرة والأقارب نسمة كبرى ، لأن هذه العداوة وهذه المنافسة وهذه الثيرة وهذه النبطة ماضى إلامسوقة إلى تدير العيش ونظام الأسرات . وبهذه المناجزة والمشاحنة والمقاطعة يتفرقون وتفرقهم هو عين الرحمة ليجد كل واحد لنفسه ولا يتكل على غيره . وأيضا ليتفرقوا في أرض الله فإذا بقوا في مكان واحد ، قل الغذاء وكثرت الأنفاس والمضار والأمراض . إذن الحكمة قضت بالهبة وقضت بالعداوة رحمة بالناس في الأمرين فيتفرقون ويستخرجون من الأرض النعم الجزيلة . سبحانه اللهم أودعت الرحمة في قلوب الأبوين لتدسوقهما لثيرة الثيرة ، وألقيت العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة في قلوب الثيرة والأمم ليتفرقوا في الأرض ويستخرجوا منافعها ويتنافسوا كما يقول الشاعر :

عدائي لهم فضل على ومنة فلا أبعد الرحمن عن الأعدايا
هم بحثوا عن زلتى فاجتنبني وهم نافسوا فاجتنبت العاليا

وهذان البيتان مع غيرهما تقدما في هذا التفسير وقد خستهما ، العداوة اشتركت في ترقية النوع الإنساني غاية الأمر أن العداوة ليست مقسومة قدامتها بل لتبرها كما أن الجوع لم يقصد منه إضرارنا بل قصد منه الحث على ارتقائنا ، ولا عمل لعلم الأخلاق إلا تهذيب الهبة وتهذيب العداوة فلا إفراط في الأولى لكلا يكون الليل المجهف بحقوق غير المحبين وتهذيب العداوة بحيث تقف عند حددها فلا إفراط ولا تفريط . هذه وظيفة علم الأخلاق مهما طال الخطب فيها فهو مشذب لما فينا من الأحوال كما يشذب البستاني شجر البستان .

ثم إن الأمم لما ارتقت في عصرنا الحاضر ازدحمت المدن بالسكان وعرفوا مضار الازدحام . إذن هناك (زاجران) للناس عن الازدحام (الزاجر الأول) ماغرس في النفوس من العداوات والمنافسات وغيرها (الزاجر الثاني) ماطبع عليه الهواء الجوى من التعفن بسبب الازدحام وامتلائه بالحيوانات الثيرة والمواد الضمنية القاتلة للتنفسين من الأحياء للزدحمين .

وإن أردت ، إلا البيان فاسمع ماجاء في (الزاجر الأول) من كتاب « إخوان الصفاء » ثم اصمع بعد ذلك ماجاء في (الزاجر الثاني) من آراء علماء الإحصاء في العالم التمددين الآن . أما ماجاء في (إخوان الصفاء) فهاهو ذا نصه :

﴿ فصل : في بيان كمية أنواع الحشرات والشرور في هذا العالم ﴾

اعلم أن الخير والنشر على (أربعة أنواع) فمنها ماينسب إلى سعود الفلك ونحوه ، ومنها ماينسب إلى الأمور الطبيعية من الكون والفساد ومايلحق الحيوانات من الآلام والأوجاع ، ومنها ماينسب إلى مافي جبلة الحيوانات من التآلف والتنافر واللودة والتباغض ومافي طباعها من النازع والتغالب ، ومنها ماينسب إلى مايلحق النفوس التي تحت الأمر والنهي في أحكام النفوس من السعادة والنحوسة في الدنيا والآخرة جميعا ، ثم اعلم أن لهذه الأنواع من الحشرات والشرور التي ذكرناها أسبابا وعللا يطول شرحها ، وقد ذكرنا طرفا في [رسالة الملل والمعلولات] ولكن نذكر في هذا الفصل منها ما لا بد منه فنقول :

إن الحيرت التي تنسب إلى صعود الفلك فهي بناية من الله تعالى وتصد منه لاشك فيه . وأما الشرور التي تنسب إلى نحوس الفلك فهو عارض لا بالقصد ، مثال ذلك إشراق الشمس وطلوعها على بعض البقاع ثمرة وتسخينها الماء مدة ومغيبها عنها تارة أخرى كما تبرد تلك البقاع مدة ما فهو بناية من الله تعالى وواجب حكمته لما فيه من الصلاح والنفع للعموم كما قال تعالى « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون » وقال « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » وإنما ذكر الله تعالى إنعامه على عباده وإحسانه إليهم وأفضاله عليهم ، فأما الذي يعرض لبعض الحيوانات وبعض النبات من الحر للفرط والبرد للتلف في بعض الأوقات وفي بعض الأحيان وفي بعض البقاع فليس ذلك بالقصد الأول ، وهكذا أيضا حكم الأمطار وإنما يرسلها لكيفا يحوي بها البلاد ويصلح بها شأن العباد فإن عرض من ذلك أذية لبعض الحيوانات أو تلف النبات أو تجزئت به المجازر فليس ذلك بالقصد الأول ، وعلى هذا القياس حكم جميع ما ينسب إلى نحوس الفلك من الأمور المارضة للحيوان والنبات والمعادن ومواليد الناس وما يحكم في تحاويل من السنين وأحكام الترابيات وما شاكل ذلك وما ينسب إلى نحوس الفلك من الشرور والفساد جميعا عارضا لا بالقصد الأول . وأما الحيرت التي تنسب إلى الأمور الطبيعية فهي كون الحيوان والنبات والمعادن والأسباب المعينة لها على النشوء والبلغة لها إلى أتم حالاتها وأكمل نهايتها فهي كلها بقصد من الله تعالى وعناية من فضله وإنعامه . وأما الشرور التي هي الفساد والبلى التي يلحقها بعد الكون والفساد والأسباب التي تعوقها عن البلوغ إلى النمام والكمال فهي عارض لا بالقصد الأول ولكن بالقصد الثاني . وذلك أن هذه الكائنات التي دون فلك القمر لما لم يمكن أن تبقى أشخاصا في الهبولي دائما في هذا العالم تطلعت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن يكون بقاؤها بصورها وإن كانت الأشخاص في الدواب والسيلان دائما والمثال في ذلك صورة الإنسانية التي هي خليفة الله في أرضه فإنها باقية منذ خلق الله تعالى آدم أبا البشر إلى يوم القيامة وإن كانت الأشخاص في الشهاب والحي . فهكذا حكم سائر الحيوانات والنبات والمعادن وأنواعها باقية بصورها وإن كانت الأشخاص في السيلان والدواب . وإنما كان ذلك بواجب الحكمة لأن في القوة فضائل وخيرات بلا نهاية لا يمكن خروجها من القوة إلى القمل والظهور دفعة واحدة في وقت واحد لأن الهبولي لا تتسع لقبولها إلا شيئا بعد شيء على التدرج وبحر الأوقات والزمان دائما أبدا . والمثال في ذلك أنه لو خلق الله بني آدم كلهم من مضي منهم ومن هو موجود الآن ومن يحيا من بعد إلى يوم القيامة في وقت واحد لم يمكن أن تسمم الأرض برحبها فكيف حيواناتهم ونبات غذائهم وأمتهم وبما يحتاجون إليه في أيام حياتهم ؟ فمن أجل هذا خلقهم قرنا بمدقرون وأمة بعد أمة لأن الأرض لا تسمم والهبولي لا تحملهم دفعة واحدة ، فقد تبين بما ذكرنا أن النقصان ليس من قبل الله تعالى وعلته أخرى أيضا لأسباب الشرور . وذلك أنه لما كانت هذه الكائنات يبتدئ كونها من أقصى الوجود وأضعف القوى مترقية إلى أتم الحالات وأكمل الغايات بأسباب معينة لها على النشوء والنمو وبلغة إلى أكل غاياتها بعناية من الله تعالى سميت تلك الأمهات خيرات ، وكذلك كل سبب عارض بلوغها عن ذلك يسمى شررا وهي عارضة لا بالقصد الأول والمثال في ذلك ما تقدم ذكره من أمر الشمس والطر .

﴿ فصل : في بيان القصد الأول والقصد الثاني على قول الحكماء ﴾

أما الحيرت التي تنسب إلى جلة الحيوان وما في طباعها وأخلاقها وأفعالها بقصد منها وإرادة فهي بالقصد الثاني لا بالقصد الأول . ثم اعلم أن معنى قول الحكماء القصد الأول والقصد الثاني ، فالفرق بينهما هو أن ما كان من قبل الباري تعالى من الإبداع والإيجاد والاختراع والبقاء والتمام والكمال والبلوغ وما شاكل ذلك

من الأوصاف يسمى القصد الأول . والقصد الثاني هو كل ما كان من قبل قصص الميولي أنه لم يحي منها إلا هذا ولم يقبل إلا هذا وما شاكل ذلك من الأوصاف .

وأما بيان أنواع الشرور والنسب إلى بعض الحيوانات وإلى الجيلة المركوزة فيها فنقول : إن الشرور التي تنسب إلى جيلة الحيوانات وما في طباعها هي ثلاثة أنواع : فمنها الآلام التي تعرض لها دون سائر الموجودات ، ومنها العداوة التي في جبلتها ، ومنها أفعالها التي بقصد منها وإرادة . فأما الآلام فتكون من (ثلاثة أوجه : أحدها) ألم الجوع والعطش عند حاجة أجسادها إلى اللادة والغذاء (والثاني) ألم الضرب والصدم والكسر الضر بأجسادها للتلف لها كلها (والثالث) ألم الأمراض والأستقام الفسدة لمزاج أجسادها وأخلط أبدانها إلى آخر ما تقدم (في سورة الروم) في تفسير البسملة ثم قال بعد كلام طويل مانصه :

(فصل : في بيان الشرور التي في جيلة الحيوانات المختلفة الصور والأشكال التي هي بالقصد الثاني)
أما الخيرات التي في جيلة الحيوانات وأخلاقها التي هي الإلف والمحبة والشفقة والعداوة والغلبة والقهر فهي أيضا بالقصد الثاني . وذلك أنه لما كانت الحيوانات مختلفة الصور والأشكال والطباع والعادات والأخلاق والأفعال لأسباب يطول شرحها ، وقد بينا طرفا في [رسالة العلل والمعولات] جعل بين بعضها وبعض ألفة ومحبة ومودة لكبها يكون ذلك سببا لاجتماعها واتفاقها لما في ذلك من صلاح الكل والنفع على العموم ، وجعل أيضا بين بعضها وبين بعض نفورا وعداوة ليكون سببا لتباعدتها وتفرقها لما في ذلك أيضا من صلاح الجميع والنفع العام . مثال ذلك إلف بعض الحيوانات للإنسان واتباعها للطاعة كالقمر والنعم والحيل والبغال والخير والجمال والفرس لما في ذلك من صلاح ونفع للناس مما هو معروف مشهور فلا حاجة إلى تفصيل كيفية ذلك . ولما لها أيضا من النفع في مراعاة الناس بالعلف والسقي والسكن من الحر والبرد ومنع السباع عنها ومداراتها من الآفات العارضة لها وما شاكل ذلك . ومثال نفور بعض الحيوانات من الإنسان وتباعدتها عن طاعته مثل السباع والحيات وجملة الحيوانات القليلة النفع الكثيرة الضر لما فيه من صلاح الكل والنفع العام . وعلى هذا القياس حال سائر الحيوانات بعضها مع بعض فيما بينها من الإلف والمحبة والبغض والعداوة لما فيها من النفع والصلاح . وأما الشرور التي تنسب إلى بعض أفعال الحيوانات بالقصد منها والإرادة فمنها أيضا عارضة من أجل الميولي التي هي مادة لأجسادها وقوام لها كلها . وذلك أن النافع لما كانت مشتركة بين الجميع وكانت في جبلتها طلب للنافع ودفع للضار بالقصد الأول من الله تعالى كما تقدم ذكره وقمت بينها هذه المنازعة في طلب تلك النافع ودفع تلك للضار بالعرض لا بالقصد . وأما علة كون الحيوانات بعضها آكلة وبعضها مأكولة فقد بينا طرفا منها في [رسالة الحيوانات] والحمد لله رب العالمين .

هذا ما أردت تلخيصه من [إخوان الصفاء] وأما ما أشار إليه من الكلام على أكل الحيوان بعضه بعضا فانظر ما جاء في [رسالة العلل والمعولات] فهذا نص المقصود منه :

(١) إن الله تعالى لما خلق أجناس الحيوانات التي في الأرض وعلم أنه لا تدوم بذاتها أبد الآبدين جعل لكل نوع منها عمرا طبيعيا أكثر مما يمكن منه ثم يجيء الموت الطبيعي إن شاء أو أبى ، وقد علم الله تعالى بأنه يموت كل يوم منها في البر والبحر والسهل والجبل عدد لا يحصى إلا الله تعالى . ثم جعل بواجب الحكمة جثة جيف موتها غذاء لإحيائها ومادة لبقائها لئلا يضيع شيء مما خلق الله تعالى بلا نفع ولا فائدة وكان في هذا منفعة لأجسادها ولم يكن فيه ضرر على الوقي .

(٢) « وخصه أخرى » لو لم يكن الأحياء تأكل جيف الموتى منها لبقيت تلك الجيف واجتمع منها على عمر الأيام والدهور كثير حتى تمتلئ منها الأرض وقمر البحار وتمتن ويفسد الهواء والماء من تنن روائحها فيصير ذلك سببا لكونها هلاكا للأحياء ، فأى حكمة أعظم من هذه ؟ إن البارئ تعالى جعل في أكل الحيوانات بعضها بعضا من النعمة للأحياء ودفع المضره عنها كلها وإن كانت تنال بعضها الآلام والأوجاع عند الذبح والقتل وليس قصد القابض والقائل من ذبحها وقبضها إدخال الألم والوجع عليها بل لينال النعمة فيها لدفع مضره بها .

(٣) ثم إن الله جعل الناقص منها علة للكامل وسببا لبقائه والأدون خادما للأشرف ومعينا ومسخرًا له ، ويبان ذلك من النبات الجزئي أنه لما كان أدون رتبة من الحيوان الجزئي وأتقص حالة منه جعل جسم النبات غذاء لجسم الحيوان ومادة لبقائه وجعل النفس النباتية في ذلك خادمة للنفس الحيوانية ومسخرة لها وهكذا أيضا لما كان رتبة النفس الحيوانية أتقص وأدون من رتبة النفس الإنسانية جعلت خادمة ومسخرة للنفس الإنسانية الناطقة، وهذه الحكومة التي ذكرناها كلية بينة ظاهرة للعقول السليمة فنقول على هذا الحكم والقياس لما كان بعض الحيوانات أتم خلقه وأكل صورة كما بينا قبل هذا جعلت النفس الناقصة منها خادمة ومسخرة للثامة منها الكاملة وجعلت أجسادها غذاء ومادة للأجساد الثامة منها وسببا لبقائها لتبلغ إلى أتم غاياتها وأكل نهاياتها كما جعل جسم النبات غذاء لجسم الحيوان ومادة لبقائه وسببا لكامله ، وكما أنه لما كانت النفس النباتية إذ هي أدون رتبة من النفس الحيوانية جعلت خادمة للنفس الحيوانية ومسخرة لها في رتبها غذاء لها ومادة لأجسادها . فهكذا جعل حكم نفوس الحيوانات الناقصة خادمة لنفوس الحيوانات الثامة الحلقة الكاملة ومسخرة لها لكيما تربي جسمها وتميها وتسلمها إلى الحيوانات التي هي أكل منها وأشرف ليكون ذلك غذاء لأجسادها ومادة لأبدانها وسببا لبقاء أشخاصها زمانا ما أطول ما يمكن وعلو لتوالد نسلها وبقاء صورتها لأن هيوالى الأشخاص دائما في الدواب والسيلان فيحتاج إلى بدل ما يتحلل من الأشخاص فإذا قد تبين بما ذكرنا ما العلة في أكل الحيوانات بعضها بعضا . فالأسباب إذن ثلاثة : الأولى الرمز بلا فائدة ، والأبىفسد الجو ، وأن يكون الأدنى خادما للأعلى . انتهى من [إخوان الصفاء] والحمد لله رب العالمين .

وأما ماجاء عن علماء الإحصاء في عصرنا في (الزاجر الثاني) وهو تعفن الهواء بالازدحام وأن هذا السبب والذي قبله جعلهما الله مهمازين يسوق بهما الناس للتفرق على وجه الأرض ليم العمران . فهالك ماجاء في إحدى جرائدنا المصرية يوم الثلاثاء (٢٩) أكتوبر سنة ١٩٢٩م وهذا نصه :

﴿ من سنة ٢٠٠٠ الى سنة ٢٥٠٠ ﴾

يقول الإحصائيون إن سكان العالم يزدادون ازديادا متواصلا وأنه سيأتى يوم تضيق عليهم الأرض برحبها . أجل إن هذا اليوم لا يزال بعيدا عنا ولا يبصر نوره إلا أحفاد أحفادنا . فسكان العالم يبلغ عددهم الآن مليارا وتسعمائة وستين مليونا . وسيصبح في سنة (٢٠٠٠) ستة مليارات . ولا بد من القول إن هذا العدد هو أقصى ما تستطيع الأرض أن تعوله . ومن حسن حظنا أن ما تنتجه الأرض من الطعام والشرب يزيد على حاجتنا إليه . ويقول العارفون [إن أعقابنا يستطيعون بما سيكون لديهم من الوسائل العلمية في الزراعة أن ينتجوا غذاء لثمانية مليارات من البشر] وعليه لا خوف على الأجيال الآتية من الموت جوعا ولكنها لا تبقى على ما هي عليه الآن من السمة في العيش لأنه لا يبقى إلا كيلومتر واحد لكل مائة وأربعين نفسا . وإذا اعتبرنا الأراضي

الطامة رأينا أن متوسط عدد السكان في الكيلومتر الواحد من الأرض العامرة يبلغ (٢٣٧) أى أكثر مما في نيويورك فإن متوسط عدد السكان في هذه المدينة العظيمة (٢١٧) في الكيلومتر المربع . وقد أصبح الموقف حرجا في أوروبا، فإن مساحتها التي تبلغ (٣٧٥٠٠٠٠) ميل مربع لا تنتج من الغذاء إلا للحماة وخمسين مليوناً من البشر وفيها الآن منهم (٤٨٠) مليوناً . أما أمريكا الجنوبية ففيها أراض واسعة مهجورة سيكون لها شأن كبير في المستقبل وسيتحول قسم كبير منها إلى أراض منتجة بقوة اليد العاملة .

وليس الحرف على الجنس البشرى من الهجاعة بل من تكاثر عدد الناس وتزاحمهم على شواطئ البحار وعلى قمم الجبال وفي السهول والأجاص والغابات . ومن الراجح أنه لا يبقى غابات ولا آجام في سنة (٢٠٠٠) فنزل جميعها وتشيد عليها مدن كبيرة تأوى إليها الملايين من البشر .

وقد تتخذ الأرض شكلا خاصا وتمتلئ من السكان بين سنة (٢٠٠٠) وسنة (٢٥٠٠) وهذا مجال للافتكار في حالة أصحاب البيوت في ذلك الحين فإن أزمة الساكن تبلغ معظمها فلا يكتفون في المكاتب المخصصة للإبحار بالسؤال عن الحى الذى يطلبون فيه مسكنا بل يبحثون في المصور الجغرافى العالمى للاهتداء إلى ضالهم المنشودة فيأتى أحدهم مثلا إلى أحد هذه المكاتب ويطلب أن يستأجر شقة في أوروبا فيجيبه أحد الموظفين في المكتب بعد أن يلقى نظرة على الجداول والدفاتر التى لديه [يشق علينا أن نتعذر عن تعذر إجابة سؤالك فلم يبق عندنا شقق للإبحار في أوروبا ولكن عندنا شقق تلائمك في الأناضول] .

وليس الغذاء شيئا مذكورا بالنسبة إلى الهواء الذى سينقص الناس حينئذ ، ولا أعنى بذلك الهواء الذى يستنشقونه في محال العمل والسارح والشوارع ، بل أعنى الهواء الطليق الذى يخرجون إلى العراء لاستنشاقه في العزلة فإنهم أنى وأيان ساروا يلقون الناس أمامهم يملئون البقاع والبطاح والهضاب والأغوار والأنجاد وقد طربنا عدد سكان المعمورة في (٥) فنضرب أيضا المضايقة التى سيلقونها حينئذ في (٥) ويكون سببها تكاثر عدد الناس .

يقول الآن سكان المدن [لا نحب أن ننزه في الشوارع الكبيرة في أيام الأحاد لأن فيها عددا كبيرا من الناس . وخير لنا أن نقصد إلى الضواحي والرياض حيث روح النفس بالهواء العليل] .

ويقولون أيضا [لا نبتغى الذهاب إلى دور السينما في هذه الأيام لأنها مكتظة بالنظارة] ولكنهم بعد سنة (٢٠٠٠) يفوهون بمثل هذا الكلام في كل مكان يزلونه فأبان ذهب الإنسان يرى أناس يتزاحمون بالمناكب ويقولون [إن رجال المستقبل البعيد لا يكفهم ما عندنا الآن من الوسائل الطبيعية للمعيشة فسيحتاج الواحد منهم إلى أعصاب أمتن من أعصابنا ورئتين أقوى من رئاتنا وقدمين أشد من أقدامنا وذراعين أشد صلابة من أذرعتنا] اه .

إن ما تقدم نظرية نشرها الأستاذ (البرخت بنك) وهى والحق يقال نظرية تدعو إلى إعمال الفكرة وإطالة الروية .

أقول . أنا الآن لم أكتب هذه المقالة إعجابا بها ولا اعتقادا فيما قيل فيها ، ولكنى ذكرتها لتعلم أن النوع الإنسانى قديما وحديثا يعلم أن الازدحام يورث الأمراض بالموت وأن هذا السبب هو الدافع الأقوى لتفرق الناس حول الأرض . فإذا تفرق الناس على الأرض سببهم أمران : أمر نفسى وهى العداوات والمشاجرات وأمر جسمى طبيعى وهو تعفن الهواء بالازدحام واستضرار الناس فيكون التفرق ثم الاستمتاع بالحيرات والنعم .

لذلك أيها الدكي وقتت في تفسير البسمة هنا وفيما تقدم قريبا على شذرة من رحمة الله التي وسعت كل شيء وولذلك أيضا تعرف كيف أدرك آباؤنا الأولون منذ ألف سنة بعض هذه الحكم ودونوها في (إخوان الصفاء) وكيف وصلوا إلى الحقائق وصولا لم يظهر نظيره فيما جاء عن الفرنجة مما بيناه لك هنا، فالبارتان أمامك وأنت تدرك يداهتك وذوقك ومعرفتك الفرق بين الحكمتين وتجب إذ ذاك من الأمم الإسلامية التي خلفت تلك الأمم في الألف سنة الماضية كيف ذهبا عما في هذه الكتب ولم تنشر هذه الآراء في أمنا الإسلامية، وذلك بسبب بعض رجال الدين الجهال وبعض رجال الصوفية الذين وقتت عقولهم كما فهموا من شيوهم فأوحوا إلى تلاميذهم الذين غفلونهم أن العلم خاص بما لقنوه لهم . هناك أخذ العلم يهرب من بلاد الشرق إلى بلاد الغرب ، ولكن ليستبشر المسلمون اليوم قراء أمثال هذا التفسير فهم يجمعون بين خلاصة القديم وخلاصة الحديث ، وسيكونون « خير أمة أخرجت للناس » وإذا قرءوا « بسم الله الرحمن الرحيم » عرفوا معنى الرحمة كما أوردناه . انتهى القسم الأول من السورة والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٩ .

(القسم الثاني)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ
دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ
يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
الْمُزَيَّرُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ
نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مِمَّا تَشْكُرُونَ * وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ
جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى
رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ * وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا
فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ
الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا

إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ • إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا
 ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ • تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ
 عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ • فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ
 مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعْيَنَ جَزَاءُِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ • أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا
 لَا يَسْتَوُونَ • أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَصَلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ • وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا
 وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ • وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ
 الْأَلَذِّ ذُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لِمَالِهِمْ يَرْجِعُونَ • وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ
 أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ • وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ
 فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ • وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا
 لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ • إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا
 فِيهِ يَخْتَلِفُونَ • أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ • أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ
 فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ • وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا
 الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ • قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ
 يُنظَرُونَ • فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ •

(التفسير اللفظي)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) قد تقدم بعض سر (الم) في [سورة الروم] والإشارة بها هنا للحض على النظر في أحوال
 الأمم السابقة وعجائب الطبيعة وذلك في قوله تعالى « أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون
 في مساكينهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون . أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز » فاذن هذه
 السور متلاحقة موسى فيها على النظر في كل كائن طبيعي أو صناعي ، وقوله (تنزيل الكتاب لاريب فيه
 من رب العالمين) أي منزله الكتاب لاريب فيه حال كونه من رب العالمين (أم يقولون) أي بل يقولون

أى للشركون (افتراه) أى اختلقه محمد من تلقاء نفسه (بل هو الحق من ربك) وههنا ست مراتب :
 الإشارة إلى الإعجاز ولذلك هو منزل من الله ، ثم قرره بنفى الرب عنه ، ثم أضرب عن ذلك إلى التعجب
 من قولهم فيه على خلاف ما تقدم ، ثم أثبت أنه الحق ، ثم ذكر القصود وهو الانذار ، فالأول بذكر «الم»
 والثاني بذكر أنه منزل من رب العالمين ، والثالث بنفى الرب ، والرابع بقوله « أم يقولون افتراه »
 والخامس بقوله (بل هو الحق من ربك) والسادس بقوله (لتندر قوما ما أتاكم من نذير من قبلك)
 لأنهم أهل فترة (لعلهم يهتدون) بانذارك إياهم ، وقوله تعالى (الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما
 فى ستة أيام ثم استوى على العرش) قد عرفت فى سورة الفرقان ما الحكمة فى ذكر ستة أيام ، وكيف كان
 العدد للذكور من عجائب الحكمة تخصيصه ، وفى سورة يونس وهود الاستواء على العرش ، وفى سورة
 العنكبوت والروم عجائب هذه الدنيا ونظام العناصر التى بلغت فوق الثمانين . وكيف كان بينها نسب عجيبة
 فوق مستوى الفكر إذ كان كل عنصر منسوباً لما فوقه فى الجدول وما تحته وما عن يمينه وشماله إلى آخر
 ماضى . وهذا سيدهش العقلاء عندما يرون أن بين العناصر نسبة عجيبة كالنسبة العددية والنسبة الهندسية
 والتشابه فى الصفات الكيماوية من جهة والصفات الطبيعية من أخرى . وإذن تعلم أن عالمنا مخلوق من الجمال
 والبهاء والحسن كعالم الكواكب (مالك من دونه من ولى) ينصركم إذا جاوزتم رضاه (ولاشفيع) يشفع
 لكم (أفلا تتذكرون) الواعظ (يدبر الأمر) يحكم الأمر وينزل القضاء والقدر (من السماء إلى الأرض
 ثم يرجع) يصعد (إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة بما تعدون) أى يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة
 ثم يصير الأمر كله إليه ليحكم فيه فى يوم مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة . وقد جاء أن يوم القيامة خمسون
 ألف سنة فى سورة المعارج وتكون على بعض المختصين من عباده بقدر صلاة للكتابة أو كما بين الظاهر
 والصر (ذلك عالم اليبس والشهادة) فيكون تديره على مقتضى الحكمة (العزيز) الغالب على أمره (الرسيم)
 للعباد فى تديره . ولما ذكر العلم والقدرة المصحوبة بالرحمة أردف ذلك بما نشأ عن تلك الصفات من الآثار
 الثريفة منفصلاً لما أجمل من التدير ، إذ بين تدير الإنسان ثم عروجه ليعرفنا نسخة من التدير العام فقال
 (الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان) أى آدم (من طين . ثم جعل نسله) ذريته لأنها تنسل
 منه أى تنفصل (من سلاقة) أى من نطفة تنسل من الإنسان (من ماء مهين) أى ضعيف (ثم سواه)
 سوى خلقه (ونفخ فيه من روحه) أضاف الروح إلى نفسه لتشريفها (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة
 قليلاً ما تشكرون) أى تشكرون شكراً قليلاً . وهذا هو بعض تدير الأمر الخاص بالإنسان لأنه أهم لتذكرة .
 وأما عروج الأمر إليه وصعوده فى قوله (وقالوا أنذا ضللتنا فى الأرض) أى صرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض
 لا يتميز منه (أننا لخلق جديد) استفهام إنكارى . ثم أضرب عن ذلك إلى أنهم ليسوا بكافرين بالبعث لحسب بل
 كرههم شامل لجميع ما يكون يوم القيامة فقال (بل هم بلبقاء ربهم) الذى هو أهم ما فى يوم القيامة (كافرون)
 وهاهنا ابتداء إضاح عروج الأرواح فى قوله (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون)
 للحساب والجزاء . وهذا نهاية الكلام فى العروج والصعود . ثم أعقبه بذكر الطائفتين المجرمين والمؤمنين
 فقال فى الأولى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم) من الحياء والحزى قائلين (ربنا أجزنا)
 ما وعدتنا (وصمنا) منك تصديق ما أتت به رسلك (فارجعنا) إلى الدنيا (نعمل صالحاً إنا موقنون) إذ لم
 يبق لنا شك بعد العاينة وجواب لو محذوف تقديره رأيت أمراً عظيماً (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها)
 ما تهتدى به إلى الإيمان والعمل الصالح وإنما تديرى للمخلق ونظامى لاتخير فيه ، وكيف يتغير وهو النظام التام
 فإنى أضع كل نفس فى مرتبتها على حسب استعدادها كما أضع فى جسم الإنسان العين فى موضع لا يصلح له الظفر

والأصبع ، وكذا للعدة في موضع لا يصلح له القلب ، هذا هو نظام الله . وهذا قوله تعالى (ولكن حتى
القول مني) ثبت قضائي وسبق وعيدي وهو (لأملأن بهم من الجنة) وهي النفوس التي لا أجسام لها
وهي لا تزال ناقصة كهيئة الأشرار من بني آدم (والناس أجمعين) وإنما ملاءها بهم لأنهم مستعدون لها
ولا يصلحون لدخول الجنة كما لا يعيش الناموس ، ولا الدباب إلا في الأماكن القذرة لتخلص الجو من العفونات .
ولو جعل الناموس والدباب في التصور النظيفة للوقت النقية ما عاش فيها إذ لا يجد له فيها غذاء ولا فائدة .
هكذا هؤلاء إذا رأوا العالم للضوء للشرق والأنوار الثلاثة والحياة الطيبة في الجنة لم يتبها لهم دخولها وعجزوا
عن ذلك فمثلهم كمثل السمك لا يعيش في البر وكمثل ذوات الأربع لا يعيش في البحر . هذا معنى قوله « الفرز
الرحيم . الذي أحسن كل شيء خلقه » فهذا هو حسن الخلق ، فالحسن في الجنة وفي جهنم وفي الحشرات
في الأرض وفي الحدائق ، واعلم أنك لا توقن بما قلته إلا بدراسة العلوم ، ومن كان ذا فطنة كفاء هذا التفسير .
ثم أبان بعض الأسباب الموجبة لدخولهم جهنم وما [سبيان : الأول] عدم التذكر [والثاني] الذنوب أي
ظلمة الفكر علما وعملا بالجهل والذنوب ، فأشار إلى الأول بقوله (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا) لأنكم
تركتم مواهبكم العقلية فلم تناولوا الحكمة (إنا نسيناكم) جعلناكم كالمنسى التروك (وذوقوا عذاب الخلد
بما كنتم تعملون) السيئات كما تركتم العقول ، وإنما كرر الذوق لتمدد الذوق ولأن العذاب على الجهل وعلى
الذنوب يتنوع كما تتنوع الآلام في الدنيا بتنوع المرض . وأشار إلى الفريق الثاني بقوله (إنما يؤمن بآياتنا الذين
إذا ذكروا بها) وعظوا بها (خر وسجدا) سجدوا لله تواضعا وخشوعا وشكرا على ما رزقهم من الإسلام (وسبحوا
بمحمديهم) وزهوه مما لا يليق به وأثنوا عليه حامدين له (وهم لا يستكبرون) عن الإيمان والسجود (تتجأ
جنوبهم) ترتفع وتنحى (عن المضاجع) أي اللواضع التي يضطجع فيها وهي الفراش . وهؤلاء هم النهجدون بالليل
حال كونهم (يدعون ربهم خوفا) من سخطه (وطمعا) في رحمته أي لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم
في رحمته (وما رزقناهم ينفقون) في وجوه الخير (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم) لملك مقرب ولأنه مرسل
(من قرة أعين) مما تقر به عيونهم (جزاء بما كانوا يعملون) أي جزوا جزاء عدلا . ولما أخفى القوم
أعمالهم أخفى الله لهم الجزاء بحيث لا يعلم أحد كما كانوا يخفونه في الدنيا . ثم بين الفرق بين الطائفتين وأنها
لا يستويان (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا) أي كافرا (لا يستويان) حمل الأول على لفظ من والثاني على
اللفظ (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات التآوي) يقال إنها الجنات التي يأوي إليها أرواح الشهداء
ويقال إنها عن عيين المرش (نزلا بما كانوا يعملون) أي عطاء بأعمالهم والنزل عطاء النازل ثم صار عاما
(وأما الذين فسقوا فمأواهم النار) أي ملجؤهم ومنزلهم (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم
أي تفرل لهم خزنة النار (ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) ثم بين سبحانه أن عذاب الآخرة
للكفور له مقدمات في الدنيا وفي القبر لأن الذنوب مستوجب لتأنيبه عاجلا وأجلا فقال (ولنديقنهم من العذاب
الأدنى) كما عذب أهل مكة بالجذب سبع سنين إذ دعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعلها الله عليهم سنين كسفي
يوسف . وكما يندب الناس في الدنيا بالهن والأهوال والأمراض وهم في ذلك غير موقنين بثواب ولا آخرة
فيكون العذاب أليما لا يخفف له (دون العذاب الأكبر) أي عذاب الآخرة (لهم يرجعون) يتوبون
(ومن أظلم ممن ذكر آيات ربه ثم أعرض عنها) فلم يتفكر فيها كالوليد بن عقبة فاجر عليا يوم بدر فزلت
هذه الآيات (إنا من المجرمين منتقمون) ولا جرم أن من كان أظلم منهم أحق بالانتقام (ولقد آتينا موسى
الكتاب) كما آتيناك (فلانك في حمية) في شك (من لغاته) من لغاتك الكتاب فانا آتيناك الكتاب كما
آتيناه فليس ذلك بيدع وهذا كقوله تعالى « قل ما كنت بدعا من الرسل » (وجعلناه) أي للنزل على

موسى (هدى لبني إسرائيل . وجعلنا منهم أئمة يهدون) الناس (بأمرنا) بتوفيقنا (لما عبروا وكانوا
بآياتنا يوقنون) لأنهم نظروا وعقلوا (إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة) أى يقضى ويحكم (فبما كانوا
فيه يختلفون) من أمر الدين ، جهلوا وكفروا وعموا عن الحقائق (أولم يهد لهم) أى أو لم يبين الله لهم (كم
أهلكنا من قبلهم) أى من قبل أهل مكة (من القرون) الماضية (بمشون في مساكنهم) أى بمر أهل
مكة في متاجرهم على ديارهم . وقوله (كم) مفعول أهلكنا (إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون) صماح تدبر
(أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) التى جرز نباتها أى قطع وأريل وكل أرض يابسة غليظة لا نبات
بها جرز (فنخرج به زرعاً) أى بذلك الماء زرعاً (تأكل منه) من الزرع (أنعامهم وأنفسهم) كالتبن والورق
والحب والفاكهة (أفلا يبصرون) فيعرفون كمال قدرته تعالى (ويقولون متى هذا الفتح) النصر كقوله تعالى
«ربنا انتح بيننا» (إن كنتم صادقين) فى الوعد به (قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم
ينظرون) وذلك يوم القيامة يوم يفصل بين المؤمنين وغيرهم ويوم فتح مكة ويوم بدر وحقق ذلك فلن
الذين قتلوا يوم بدر وغيره لم ينفعهم شيء بل مانوا كفاراً (فأعرض عنهم) ولأنبال بتسكديهم (وانتظر)
النصر عليهم (إنهم منتظرون) العاقبة عليك . انتهى التفسير اللفظي .

﴿ لطائف هذه السورة ﴾

- (١) فى قوله تعالى «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة»
- (٢) فى قوله تعالى «الذى أحسن كل شيء خلقه» الخ .
- (٣) فى قوله تعالى «تتجافى جنوبهم عن المضاجع» إلى قوله «جزاء بما كانوا يعملون» .
- (٤) فى قوله تعالى «أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون» إلى قوله «أفلا يبصرون» .

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

إن هذه اللطيفة يراد منها (أولاً) معرفة نزول الأمر الإلهى من حضرة القدس الأعلى إلى غاية تمامه
وكاله (ثانياً) رجوع الأمر إليه سبحانه وتعالى (ثالثاً) بيان جمال الأمر وحسنه ونظامه (رابعاً) ذكر
القصود من ذلك وهو نشأة الإنسان ثم عروجه إلى خالقه . وهذه للتقاصد الأربعة فى الآية مرتبة على ما
ذكرناه . فانه سبحانه هو الأول من حيث أنه خلق ونظم والآخر من حيث رجوع الأمر إليه أيضاً . ولأقدم
مقدمة فى الكلام على الله من حيث تقدسه وتنزيهه فأقول :

إن الأمم قديماً وحديثاً لا يبرحون يفكرون فى الحق سبحانه وتعالى . ومعلوم أنه ليس بجسم ولا عرض
فى جسم منزّه عن الحوادث . فهم إذا ذكروه حضر فى أذهانهم النور وذلك مشهور فى الديانات . ومعنى
ذلك أن الله إذا ذكر يخطر بياهم النور ، فالنور مضروب مثلاً لتداته . وكيف يكون النور هو
الله والنور حركات فى الأثير وحركات الأثير تختلف فى السرعة ، والنور له مقادير خاصة متى وصل إليها ظهر
النور فى العين ومتى قل عنها أو أكثر لم يكن نور فإذا ن نور مذكر باقه عند الأمم القديمة بل كان الصابون
يبيدون السكواكب . ورى ذلك فى لغة المائلة الآرية أو الهند الجرمانية العظمى فإن الله عندهم هو النور
أو الشمس وتجد اللفظة الأصلية للنور (ديف) ومعناها النور أو اللامع ويشق منها عند الشعوب المذكورة ألقاظ
للدلالة على الله . ففى لغة السنسكريت (ديفاس) أو (ديواس) أو (ديوا) ويعبرون عن السماء بلفظة (ديوس)
وعند اليونان (ديوس) وعند اللاتين (دووس) إلى آخر ما تقدم فى (سورة النور) فارجع إليه إن شئت .
فانظر كيف رجعت الأمم القديمة وألم علمائها ولو كانوا ضالين أن يعبروا عن الحقائق جل وعلا باسم

النور وهذا اللقمان يناسب ما تقدم في (سورة النور) من قوله تعالى «الله نور السموات والأرض» وإنما ذكرناه هنا لأنا صبحنا في دائرة الوجود كما ستري .

ولما كان الله هو الأول والآخر حسن أن نذكر ما يناسب اللقمان من قدسه وقول العالم في جماله وكلامه . ولما كانت تلك الأمم قد سارت على الدرب ولكنها أخطأت النهج جاء الاسلام فقال الله فيه «الله نور السموات والأرض» وأعقبه بقوله «مثل نوره» الخ فأدخل فيه المثل وقال في نهاية الآية «ويضرب الله الأمثال للناس» الخ ، وفي الحديث «قيل له عليه الصلاة والسلام هل رأيت ربك؟ قال نوراني أراه» وفي حديث الإسراء «لما قرب صلى الله عليه وسلم من سدرة المنتهى غشى السدرة من النور ما حجب بصره من النظر إليها» وفي كتاب مسلم «أنه حجبا من نور لو كشف لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» وفي بعض روايات الحديث «سبعين حجبا من نور» قال ابن رشد إن هذا المثل شديد المناسبة لله سبحانه وتعالى لأنه يجتمع فيه أنه محسوس تعجز الأبصار عن إدراكه وكذلك الأفهام مع أنه ليس بجسم والوجود عند الجمهور إنما هو المحسوس والمدوم عندهم هو غير المحسوس ، والنور لما كان أشرف المحسوسات وجب أن يمثل به أشرف الموجودات . وهاهنا أيضا (سبب آخر) وذلك أن حال وجوده من عقول العلماء والراسخين في العلم عند النظر إليه بالعقل هي حال الأبصار عند النظر إلى الشمس بل حال عيون الحفائش وكان هذا الوصف لا تقا عند الصنفين من الناس، وأيضا إن الله تبارك وتعالى لما كان سبب الموجودات وسبب إدراكنا وكان النور مع الألوان هذه صفته أعني أنه سبب وجود الألوان بالفعل وسبب إدراكنا ورؤيتنا لها فبالحق مسمى الله تبارك وتعالى نفسه نورا ، ولقد سكت الشرع عما هو فوق ذلك فإن البحث العلمي يقضي أن الله ليس بجسم ولا عرضا في جسم ولكن لا يعقله إلا من أدركوا ذلك بالبراهين وعرفوا حقيقة النفس الإنسانية وأنها مجردة عن المادة ثم ينتقلون إلى ما هو أرقى من ذلك هذا ما نخص ماقاله رحمه الله تعالى . فصرحتنا الطهارة ورد فيها التعبير عن الذات العلية بالنور وذلك مقبول عند العوام بلا بحث وعند الحواسب على سبيل المثل، وورد «إن المؤمنين يرون ربهم كما يرى القمر ليلة البدر» فالعامة لا يجوز للعالم أن يبحث معهم في أكثر من هذا ، فأما العالم فإنه يفهم أن العروج إلى الله إنما يكون بانكشاف الحقائق وإدراك الدقائق حتى يعرف الإنسان ربه . فالنور أحسن مثال في كل مقام عند العامة وعند الخاصة ، فينتج من كل ما تقدم أن العلم وانكشاف الدقائق هي للعارج لمعرفة الله تعالى ولقائه والحظوة بشرف الوصول إليه وإذن فلنبحث في اللقمان الأول من اللقمان الأربعة في اللطيفة الأولى وهو مقام تنزل العالم من مقام القدس إلى تمام غايته فأقول :

يقول الله تعالى «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض» إن تنزيل الأمر من السماء إلى الأرض يقضي البحث في [غرضين : الغرض الأول] النظر في منشأ هذا العالم من مبدئه فإن أصله الأثير وفيه تكونت المادة الأولى التي اضطرب العلماء في معرفتها وقر قزازهم أنها حركات في الأثير ، فكل عنصر من العناصر المعروفة يخالف الآخر في نوع حركته التي هي في تركيبه وباختلاف هذه الحركات اختلفت الحواسب واختلفت المركبات ، إن هذه العناصر لم تظهر في بادي الأمر ، إن الشمس كانت كرة نارية وبقيت هكذا ملايين من السنين وهي تدور بحركات دورية كاهو العول عليه الآن ثم انفصلت منها السيارات الدائرة حولها ومنها الأرض وذلك بالتبريد المستمر لتلك الحرارة ، وهذه الأرض خلق عليها العدن والنبات والحيوان والإنسان بالتدريج فهذا الترتيب هو المقصود من الغرض الأول في هذا البيان [الغرض الثاني] أن هذه العوالم أثناء تنزلها من العالم الألطب إلى العالم الأكتف جاءت صفا صفا ، ومعنى هذا أنها ليست في مرتبة واحدة فان العناصر ومركبات العناصر ليست كلها في درجة واحدة في صفاتها بل اختلفت الصفات لاختلاف الأغراض .

فإذا عرفت تنزيل الله للموالم من حالها الأول حال البساطة والنور إلى حال الكثافة والتركيب طبقا عن طبق ودرجة بعد درجة حتى تصل إلى الحال الإنسانية والإنسان يصل إلى حال الموت فإن العالم أشبه بالحيوش مختلفة وكل منها له تمايم مخصوصة وحركات تناسبه ، أو كالتمايز في مدرسة وكل منهم له استعداد خاص ودرجات في العلم تخالف إخوانه فيكون لهم ترتيب حسب درجات علمهم فإذا خرجوا من المدرسة كان لكل منهم شأن على حسب تعليمه ، ولأوضح لك ذلك (بأربعة أمثلة) من علم الطبيعة حتى ترى جمال الله وحكمته وكيف جعل الأحياء مختلفة ليرحمنا بها ولو كانت متفقة في تنزلها لنا لهلكنا . واعلم أن هذه المسائل الأربعة الآتية يدرسها علماء الطبيعة ولكنهم لا يفتنون إلى هذا الجمال والنور الذي سأذكره لك ، إن علماء الطبيعة لا يهتمون منها إلا ما يهيم الطبيب من جسم المريض . يبحث فيه عن علة بداؤها ولكن لا يخطر بباله النظام والجمال في تركيبه كما لا يخطر ببال الزراع بهجة النظام الداخلي في الزرع بل كل منهم مهتم بما فيه عمله . وإياك أن تظن أن ما أذكره من عوالم مسائل الفن بل هو من متناول أكثر الأفهام فأقول :

انظر إلى الحديد في شبك منزلك . والنحاس في أوانيك ، والذهب والفضة في نقودك ، والرصاص في البنادق وفي أنابيب الماء الجاري في منزلك . إن هذه المعادن ينتفع بها الناس كما ينتفع الزراع بزراعته والطبيب بقشره للجسم ولكنهم قط لا يفكرون في نظامها إلا قليلا ، وأما فكر الكيميائي فللدراية البحتة . إن هذه المعادن تختلف من حيث قوة اللتانة ومن حيث قابليتها للطرق أي لإحالتها إلى صفايح ومن حيث توصيلها للحرارة ومن حيث صهرها (انظر هذا الجدول) :

صهرها	توصيلها للحرارة	اللتانة	للعدن
٢٥٠٠	١١٢٩	٢٥٠ كيلو جرام	الحديد
	٧٩٢٥	» ١٣٧	النحاس
	٨٢٤	» ١٢٥	البلاتين
١٠٠٠	١٠٠	» ٨٥	الفضة
٤١٢	٥٣٢٢	» ٦٨	الذهب
	١٩٢٣	» ٥٠	الخارصين
٣٢٤	٨٢٥	» ٥٥	الرصاص
٩٥			الصوديوم
٦٢٥			البوتاسيوم
٤٠			الزئبق

وقابليتها للطرق على هذا الترتيب (ذهب . فضة . ألومينيوم . نحاس . رصاص . خارصين . بلاتين . حديد) لعلك تريد إيضاح هذه الجداول ، فاعلم أن اللتانة هي ما يكون في الفلز من المقاومة عند قطع سلك منه قطره اثنان من المليمتر ، ويلزم لقطع كل فلز وزن مختلف مقدر بالكيلوجرام ، فلو أنك أتيت بسبعة أسلاك كل منها قطره مليمتران ، وهذه الأسلاك السبعة من المعادن المذكورة فإنه يكفي (٥٥) كيلو جراما

لقطعه إذا كان رصاصا والحديد يلزم (٢٥٠) كيلوجراما لقطعه فيكون الحديد أمتن من الرصاص نحو (٤٥) مرة ، ومن الخارصين نحو (٥) مرات . ومن النحاس نحو مرتين ، ومن الفضة نحو ثلاث مرات . ومن الذهب نحو أربع مرات . فأما توصيل الحرارة فان الفضة أكثرها توصيلا لها . فإذا جعلناها مائة أى جعلنا قوة توصيلها للحرارة مائة درجة فالنحاس نحو ثمانين من هذه المائة والذهب نحو النصف والخارصين نحو الخمس والحديد نحو العشر والرصاص قريب من العشر والبلاطين كذلك .

وأما قابليتها للطرق بأن تجعل صفائح فالذهب أولها وهكذا ما بعده والحديد آخرها . وأما صهرها فان الزئبق أسرعها صهرا والصوديوم ضعفه تقريبا والرصاص مقداره ثمان مرات والذهب . قدره نحو عشر مرات والفضة قدره (٢٥) مرة لأنها ألف درجة بميزان الحرارة المعتاد والزئبق (٤٠) به ، والحديد قدر الفضة مرتين ونصف ، والعبرة في الصهر وحده بميزان الحرارة للعلوم . وههنا أيضا أمر خامس وهو التطاير فالزئبق يطير على درجة (٣٦٠) والصوديوم على درجة (٨٠٠) والخارصين على درجة (١٠٠٠) بميزان الحرارة للعلوم . فإذا ميزان الحرارة معتبر في الصهر وفي التطاير ويصير في توصيل الحرارة وفي الطرق وفي التانة النسبة بينها كما وضعناه .

فانظر أيها الدكي إلى الحديد مثلا . ألا ترى أنه أمتنها كلها . ألم تر أنه أمتن من الرصاص (٤٥) مرة كما قدمته لك ، ثم إنه هو نفسه لا يصهر إلا على درجة (٢٥٠٠) فهو أبجدها عن أن يسيل وأيضا توصيله للحرارة ضئيل فهو نحو عشر الفضة في التوصيل وهو آخرها في الترتيب لقابليته الطرق ليجمع صفائح . إذن الحديد هو أمتنها وأبجدها عن الصهر ومن أقلها توصيلا للحرارة وأقلها كلها للطرق . أفلا ترى أن هذه اللزايما فيه جعلته عاما في كل الصناعات وعلى ذلك نراه كثيرا في الوجود ، ألسنت ترى أن الحكمة متقنة بحيث يكون ما منفعته أكثر والناس إليه أحوج في الأمور العامة كثر وجوده .

هذه هي العلوم وهذه هي الحكمة . انظر إلى الذهب . انظر إلى جماله ، إليك أن تقول إن جماله ما يفهمه العامة وبعض الخاصة من شكاه البهيج ولونه الظريف للفرح . كلا . ولا من غلونه وارتفاعه . كلا . إن كل ذلك إلا متاع يشترك فيه الناس ولكن الجمال هنا ما نسجمه من صوته الرخيم ووجهه الجميل في العلم ، فلو أنه نطق لقال : أنا أقل متانة من الحديد نحو أربع مرات ، إن التانة كالحديد في قوته لا منفعة لها عندي . وإنما متانتى على مقدار الحكمة ، ألسنت زينة للعنايات ، وتقودا في المعاملات . فما عندي من التانة يكفيني فهل أحمل أثقالا أو أجعل في سقف أو في محراث ؟ أو أى آلة من الآلات ؟ لذلك لم تكن التانة إلا على مقدار النفعة والعمل ، ثم إنى أول قابل للطرق والفضة جدى ليسهل على الناس جعلى تقودا وحليا ، فلو أنى عصيت عن ذلك ولم أقبل الطرق ولم أسهل على الناس كالحديد لتعطلت تقودم وزينتهم . هكذا الفضة بعدى فأما توصيل الحرارة وصهرى فانهما على قدر الحاجة ، لذلك ترانى في المعادن تحت الجبال وفي الرمال أقل وجودا ولو كثر وجودى لضاعت معاملات الناس ! ولم يجدوا حكما يحكم بينهم في معاملاتهم ، إنى وضعت على قدر الحاجة في الأرض ، فأنا القاضى في المعاملات والفضة عندكم قليل على قدر الحاجة وحفظ النظام ، فأما الفضة فإنها في معدنها أوفر لشدة حاجة الناس إليها في المعاملة ولاضطراب الناس إليها في صغيرات الأمور ودقيقتها . ويقول النحاس : أنا أقل متانة من الحديد ، وأنا من أسرع الفلزات كلها توصيلا للحرارة وإنما كان ذلك لأصلح لطبخ الطعام وغلى الماء ، فأنا سريع التوصيل لها ، وأست سريع الصهر ، أما الماء فانه يخل ويصهر في الأمتة التي تصنع منى ، فأنا سريع التوصيل لأحيل غيرى من لحم الحيوان والحضر والماء وجميع ما يصنع الناس في فهو محمول إلى صور أخرى ، أما صورتي النحاسية فهي باقية ، فالتوصيل للحرارة سريع

وصهرى غير سريع ، لذلك كنت أناثا ومتاعا إلى حين ، وكثر وجودى ، فأنا أكثر من الفضة ومن الذهب لحاجة الناس إلى .

إن هذا هو الذى تنطق به المعادن إذا نطقت . إن هذه هى الحكمة التى يسمعها الحكماء إذا مروا فى هذه الأرض ليحملوا ذلك إلى عالم آخر ينظرون فيها ويتفكرون على ما فيها من هذه النظم الشارحة للصدور للسمعة للمقول « إن ربك حكيم عليم » وبهذا تم الكلام على اللقمة الأولى .

﴿ اللقمة الثانية : رجوع الأمر إلى الله تعالى ﴾

اعلم أن هذا العالم كله سائر من الكثافة إلى اللطافة كما أنه تنزل من اللطيف إلى السكثيف . فانظر كيف ترى الإنسان وهو بعض هذا العالم قد خلق من المواد اللطيفة الأرضية ثم إنها تلتطف فيه حتى يرى منها مواد كالزجاج فى العين ومواد أخرى فى المخ . وهذه الوسائط قبل أن يتخيل ويعرف هذا العالم ويتصور السموات والأرض فيصبح عقله كأنه العالم كله . أليس العالم بعد أن كان كثيفا فى خارج الحواس أصبح عالما لطيفا داخل النفس بل هو اللطيف من الأثير بل هو أشبه به لما كان فى علم الغيب وكأنه رجع سيرته الأولى وإن كان هنا مختلفا باختلاف العقول لتقصها وهناك لانتير لنظامه . فهذا هو اللقمة الثانية .

فاللقمة الأولى يشار إليه بقوله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » وقد عرفت التدبير بالنشوء أولا وترتيب الدرجات ثانيا . واللقمة الثانية « ثم يرجع إليه » وذلك بالرجوع إلى العالم اللطيف ومبدأ ذلك الرجوع تمقلنا وفهمنا فى الأرض وعملنا . وهناك بعد الموت مفاوز ومسالك يختلف الناس فيها اختلافا كثيرا وهم سائر ون وسياتى شرحه .

﴿ اللقمة الثالثة هو الجمال ﴾

والجمال قد عرفت أنه فى حسن الوضع وإتقان الصنع وإيجاد النسب بين المخلوقات كما سمعته فى حديث الذهب والحديد والنحاس ، وأن الإنسان يسمع نطق تلك المعادن إن كان من أولى العلم العاقبين ، فهذا هو حسنها اه .

﴿ اللقمة الرابعة . نشأة الإنسان وعروجه ﴾

وهذا هو قوله تعالى « وبدأ خلق الإنسان من طين » إلى آخر هذا اللقمة كأن الله عز وجل بعد أن ذكر العالم إجمالا من حيث تنزله من الألف إلى الألف بالتدبير وعروجه ثانيا أراد أن يبين لنا ما بهمنا نحن فى الأرض ويقول إن اللهم للإنسان البحث فى حاله هو فإنه نموذج العالم كله . فلئن تنزلت الموائم من كونها أثيرا إلى أنها صارت سموات وأرضين إلى معدن إلى نبات إلى حيوان . فأنتم كنتم نطقا فصرتم أجنة فولودين فرضنا وأطفالا فراهقين ولكم سمع وأبصار وعقول فهذا النشوء فيكم كنشوء العالم الذى حولكم « ما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة » .

ثم إنكم بعد ذلك تخرجون إلى العالم الأعلى فان فيكم الروح وهى تنمو كما رأيتم الجسم ينمو . ألا ترون إلى الأطفال لا ينظرون إلا إلى شهوراتهم . ألا ترون إلى الشيوخ والسكران فى السن . ألا ترون أنهم يهتمون بأبنائهم وبناتهم . أليس ذلك رقا فى العواطف وحبا وكالا ، ذلك نموذج لرقى الأرواح فى الأرض ثم إنكم تسبرون فى الأرض وأنتم مختلفون فى طبائكم . فكما أنكم ترون أن الزئبق أسرعها صهرا بحيث يذوب على درجة (٤٠) بميزان الحرارة للعتاد والرصاص مقداره ثمان مرات والذهب قدره نحو عشرين مرات والفضة قدره (٢٥) مرة والحديد قدره نحو (٦٣٥) بحيث يحتاج إلى حرارة الزئبق مضاعفة اثنتين وستين مرة ونصفا هكذا يكون الناس وهم سائر ون إلى ربهم فمنهم البطيء كالحديد وهم كثير كما كثر الحديد ، ومنهم السريع وهم

يصلون كما يقل الذهب والناس في الأرض سائرون إلى السكّال ولكن درجاتهم كدرجات المعادن كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «الناس معادن كعادن الذهب والفضة» وهذا هو سر الحديث وبه تفهم قوله تعالى «قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون» وهذا الرجوع مقدر بألف سنة وبخمسين ألف سنة وبأقل وبأكثر ، والمعبرة في ذلك باستعداد الإنسان نفسه ، إن نفس الإنسان فيها ذلك وفيها استعدادها فهي إما كالذهب استعدادا وإما كالحديد وإما كالزئبق في السهولة . وترى الصالحين للأهم أشبه بالراديوم الذي يحول المعدن إلى معدن آخر وهم قليل وترى الحكماء يقولون عن العلماء على ترتيب المعادن .

إن الناس اليوم يشاهدون نظام المعادن مفروسا في فطرم فيه يختلفون . وبعد الموت يرى الإنسان إلى أين وصل . بل لو آتاه الله ذكاء لعرف في الدنيا أن الوصول لله على مقدار العلم والحكمة والبعيد عنه على مقدار التمسك بالأرض وحبها . وهذا المقياس هو الأصل والناس درجات فيه . فهذا هو الجهاد الذي يخص كل نفس . فإذا جاء يوم القيامة وقفوا هناك للحساب وكان طول الموقف لكل على مقدار ما كسبت كما تنفذه الآيات والأخبار فمن مقدار صلاة ركعتين إلى ألف سنة إلى خمسين ألف سنة « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » ولنذكر هنا (شذرتين) .

﴿ الشذرة الأولى ﴾

اعلم أن الصلاة فيها ما يذكر الإنسان بالنشأة الأولى وبالنشأة الآخرة يقول المسلم « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا » وهذا هو قوله « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » ويقول للمسلم أيضا « إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » وهذا هو العروج إلى الله . ويقول المسلم « الحمد لله رب العالمين الخ » وهذا هو تدبير الأمر وتنزله ، ويقول « اهدنا الصراط المستقيم » ويذكر النعم عليهم والتغضوب عليهم والضالين وهذا هو المثال للضروب فيما تقدم بالمعادن واختلافها وأن الأكثر للأعمال الجسمية كالحديد والحاس والأقل العلم والخلوص من المادة كالذهب والراديوم ، ويقول المسلم « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة الهيا والمات ومن فتنة المسيح الدجال » وهذا أشبه بتسليط الحرارة على المعدن حتى يذوب ، وهذه الأدعية تسلط على الأرواح عسى أن تصفوا فتخرج من المادة فلا موت ولا حياة جسمية ولا كذب ودجل كما هو حاصل الآن في الأرض بين الشرق والغرب من الأكاذيب والضلالات والجهالات والظلم وهكذا ما بعد الموت فيدعو المسلم أن يخلص من هذه الأرض بالعمل الصالح والسكّال .

﴿ الشذرة الثانية ﴾

(محاورة بيني وبين بعض أصدقائي من مفتشى وزارة المعارف)

قال لي إذا كان أكثر الناس فاسقين جهلاء فأين ارتقاؤهم ؟ إن ذلك أمر درسته في أوروبا وفي الشرق « إن الناس جميعا لا يسرون إلا على حسب الصالح لا الأخلاق ، بل الصالحون فنش عنهم تجمد في قلوبهم خبا وشهوة إلا قليلا ، قلت هكذا يكون النظام . فقال إذن أين الرقى ؟ قلت الرقى بهذا يكون . قال وكيف ذلك قلت إن هذه النفوس المنحطة هي شياطين الإنس وهم كشياطين الجن قال وأي ذنب جنوه قلت للقيام ليس مقام ذنب بل هو نظام . فقال بين ماتقول . قلت أأست ترى للذباب فائدة وهكذا الناموس إنهما يلتقطان العفونات من الأرض والرطوبات إنهما خلقا ليطوفا بأعناق البرك والرطوبات فيصنو الجوسم ينقلان العدوى من زيد إلى عمر وليوت من لم يكن مستعدا للبقاء ويحيا من هو أهل للبقاء وهذا حسن في النظام ، وترى العين الفذرة يضع فيها الذباب بيضه فيصير دودا يقاطا للناس أن ينظفوا أما كنهم وأجسامهم

فكأنه يقول « أنا آكل القذى من أعينكم حرصا عليكم ولكن لا بد من الفائدة لي وهي أن أرى أبنائي في أعينكم ولو أضرها ذلك لأن النعم بالفرم ، وها أناذا عملت لي ولكم فلو نظفتم أجسامكم وثيابكم ما أذيتكم . فقال . هلا كانت العملية كعملية علم الجبر إن الزائد والناقص يتأحيان فلا قاذورات . ولا ذباب . ولماذا هذا قلت له إذن يكون معنى كلامك أن الحياة لا يكون فيها هذه القاذورات قال نعم . قلت ولا يكون فيها نمل والنمل يأكل الدود والدود يأكل الحشبة وبسبب النمل تعيش أنت تحت هذا السقف فإن الحشبة إذا كان متينا كالسنتف فإن الفضل فيه إنما هو للنمل الذي يأكل الدود الذي يضره قال كان يكفي أن يخلق الخلق بلا دود . قلت أنت تريد ألا يكون هذا الوجود . قال وكيف ذلك ؟ قلت لأنى الآن أرى في جسمي معطل تعمل صناعات تمد بالآلاف فكأنك تقول يجب ألا تكون عين ولا أذن ولا أسنان ولا ريق ولا معدة ولا أمعاء ولا كبد ولا طحال لأن أكثر هذه إنما هو للعمل في الطعام . ولماذا يكون الطعام ونحن نجد أن السبار الذي يزرعه الناس على مقابرهم يعيش بالهواء وبالبخار فيه ولا يحتاج إلى الأرض ولا الماء . فكأن خيرا لنا أن نعيش كما يعيش ذلك النبات . وإذا قلت ذلك فإنك لا تريد أن أكون إنسانا بل أكون نباتا وأيضا لا تريد أن يكون هذا العالم الذي أعيش فيه عالما منظما بل تريد أن يرجع إلى السكون والموت فإن هذه الأعمال معناها الحياة وما تقوله موت . والحياة تقتضى الماء والهواء والماء تبقى منه رطوبات وهذه الرطوبات لا بد لها من ناموس يلتقطها ودود في الأشجار فإذا نمت الرطوبات لثعناها أنك لا تريد أن يكون في الأرض ماء والماء من لوازمه أن تبقى له آثار في الأرض . وإذا كان الذباب ومثله ضروريا في عالمنا الناقص الأرضي فلنقل كذلك إنه يلزم شياطين الإنس والجن وما يفعل الشياطين إلا أنهم يمرضون العقول ويؤخرون ارتفاع الناس وهذا مقصود من العناية الإلهية فإن النفوس للنحلة في أرضنا أشبه بالحديد أو الححاس لا بد منها . فتأخير هؤلاء عن الرقي من متممات العالم الأرضي ، وأن الدول القوية تؤخر الضعيفة وتمنع عنها العلم ، وهذا فعل شياطين الإنس والوجود يحويه كما يحوى شياطين الجن .

فلا سمع ذلك صاحب سر سرورا عظيما وقال هكذا يجب أن يكون يقين الإنسان ، يجب أن يكون يقينه مبنيا على الحكمة كما سمعت . ثم قال وما نتيجة ذلك كله . قلت نتيجة الصعود إلى عالم أعلى فإن الناس يسرون في عوالم ورائها عوالم وأن الجنات درجات بعضها فوق بعض ، وقد قال علماؤنا في قوله تعالى « ولدينا مزيد » هو زيادة الانكشاف ولقاء الله وأهل الجنة يرون ربهم من وقت إلى وقت على مقدار ما كانوا يذكرونه في الدنيا ثم يرتقى منهم طائفة فيعادرون هذه الطبقات ويكونون أعلى منها في عالم كعالم الملائكة وهو عالم الله من عالم الجنة للعتاد عند العامة . قال وهل قال ذلك أحد من المفسرين . قلت نعم قال الفخر الرازي في قوله تعالى « والنازعات غرقا » والناشطات نشطا ، والساجعات ساجعا ، فالساجعات سبعا ، فاللدبرات أمصرا فالروح إما أن تخرج بشدة ، وإما أن تخرج بسهولة ، وهي اللبر عنها بالناشطات نشطا ، ثم إنها تسبح في تلك العوالم ثم تسبق ثم تتكون في عالم كعالم الملائكة بحيث يكون الإنسان في الدنيا يؤهل بعض أفراد منه إلى عالم على مقدار علمه وخلقه والباقي أقل من ذلك ولا يسعد الإنسان بلقاء الله على الوجه الأكل إلا إذا أحب نوع الإنسان كله وسعى له في الخبر على مقدار مكانه وأحب العلوم وهو مفرم بها . فهذا الإنسان ربما يكون في مصاف تلك الأرواح « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ الطليفة الثانية في قوله تعالى «الذي أحسن كل شئ خلقه» ﴾

اعلم أيها الدكي أن في هذا المقال (مقامين ، اللقائم الأول) في إحسان خلق النبات (اللقائم الثاني) في إحسان خلق أفضل الحيوان وهو الإنسان .

﴿ اللقائم الأول في إحسان خلق النبات ﴾

تباركت يا الله ، أحسنت كل شئ، ومن أحسن وأبهر ما أحسنت من مصنوعاتك مناظر النبات الجميلة
الهيئة الحسنة الأشكال التي إذا نظرها الحكيم للفرح بالجمال أشد قول ابن الفارض رحمه الله :

تبارك الله ما أحلى شمائله	فكم أماتت وأحيت فيمن مهج
وأرحم البرق في مسراه منتسبا	لثوره وهو مستحي من القلج
تراه إن غاب عن كل جارحة	في كل معنى لطيف رائق بهج
في نعمة العمود والنهى الرخيم إذا	تألفا بين ألحان من المهرج
وفي مسارج غزلان الخمائل في	برد الأصائل والإصباح في البليج
وفي مساقط أنداء القمام على	بساط نور من الأزهار منتسج
وفي مساحب أذيا النسيم إذا	أهدى إلى سحيرا أطيب الأرج
لمأدر ما غربته الأوطان وهو مسمى	وخاطري أين كنا غير متزعج
فأله ادرارى وحي حاضر ومتى	بدا فنخرج الجرعاء منرجى
ليهن ركب سروا ليلا وأنت بهم	بسووم في صباح منك منبليج
فليصنع الركب ماشاءوا بأنفسهم	هم أهل بدر فلا يخشون من حرج

كأنى بابن الفارض وقد بهره البرق في مسراه والتزال في مرعاه وللطر في مجراه والندى في مجلاه والزهر في بهاه ، قد رسمت هذه المناظر في لوح خياله فامتلا جمالا وابتهج إشراقا فنطق بما قرأته الآن .

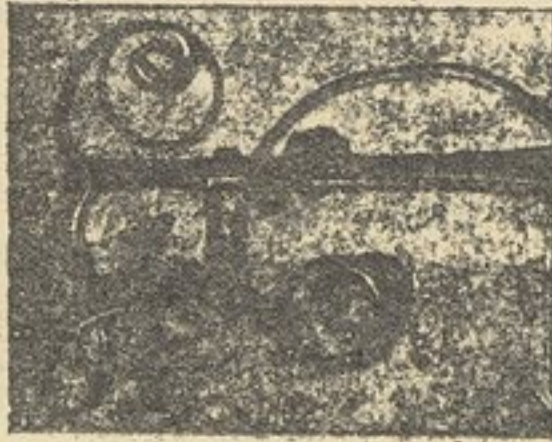
وها أنا ذا أيها الدكي أرسم لك صورا بهجة جميلة حسنة المناظر بديمة المحاسن لينشرح صدرك برآها ، وتبهج روحك بمنظر حلاها ، والمناظر التي تراها الآن هي (قسمين : القسم الأول) ما أسر العين بهجته (والقسم الثاني) ما يتهجج القلب بحكته ، فالقسم الذي أسر العين بهجته ما نظرته في بعض الجملات الطلية وهي «حجة الجديد» (انظر الأشكال الآتية) :



(شكل ٢٢ - ما أبداع أن تنقش هذه الحلية من الخشب أو الحجر أو الحديد
ولكنها ليست بحلية بل هي ورق شجرة سكيفرانا ويلسكومانينا)
وقد كبرها الصور ثمانى مرات)



(شكل ٢٣ - نبات ال (فورسيثيا) وله شكل سنان الرمح)



(شكل ٢٤ - هذه الحلية البديعة لم يصنعها فنان ماهر بل هو من صنع الله ، إنها
سيفان وجذور نبات القرع ، مكبرة أربع مرات)



(شكل ٢٥ - نبات أميركي يعرف بشعر العذراء. واسمه العلمي (ادباتم يديانم) وقد كبره
للصور ثمانى مرات ، ألا ترى هذا النبات الغريب فتظنه قضبان الحديد التي كانت تسور
الحدائق والتصوير في القرن الخامس عشر)



(شكل ٢٦ - نبات ال (دلفنيوم)
وشكله يحاكي (النبجات) التي
كانت تستعمل قديما

(شكل ٢٧ - هذه صورة ورق قد جف على عود، ولك أن
تتخيلها مقبض سيف أو حلية تنقش على الأسلحة ويعرف
باسم «حوض فينوس» مكبرة أربع مرات)



(شكل ٢٨ - ماذا ترى ؟ أحلية لإحدى نوافذ
القرن الثالث عشر، أم شجرة من شعاب الماء ؟ لا هذا
ولذا ذلك بل هي ورقة من شجرة «إرينجوبورقي»
قد كبرها المصور خمس مرات)

(شكل ٢٨ - صورة سنان
رمح من صنع الله)



(شكل ٣٠ - نبات «اسبهيم فليكس ماس» مكبر أربع مرات
الاتراه يشبه حلية صليب الأسقف وسواها)



(شكل ٣١ - صورة غصن من شجر «الزيبب الأسود» ولعمري إن حلية تصنع على طراز
هذا الغصن الزهر لتدل على ذوق سليم وجمال فن ظاهر ، مكبرة خمس مرات)



(شكل ٣٣ - نبات السرخس)

(شكل ٣٢ - روح الرقص وشكله ،
نبات البيث « خائق الدئب »)

وبهذا انتهى الكلام على القسم الأول من المناظر التي أسر العين بهجتها .

(القسم الثاني ما يفتح القلب بمكته)

وذلك مثل ما جاء في كتاب الأستاذ (بول برت) في العلوم الطبيعية الذي كان أستاذا في (السوربون) بفرنسا ، وقد ترجمته إلى الإنجليزية زوجته (مدام بول برت) فالقسم الأول يعرفه الإنسان بمجرد النظر إليه أما هذا القسم فلا بد له من علم وحكمة ودرس وطول تجربة ، وفي هذا العصر قد قرب رسم الصور العاني الدقيقة التي سترى بعضها هنا ، فانظر كيف يقول في (صفحة ٨٥) وما بعدها ما ترجمته من كلامه في علم النبات قال عند الكلام على ساق الشجرة وقد رسم هذا الرسم (شكل ٣٤) .



(شكل ٣٤ - (١) القلب)

(ب) الخشب (ج) القشر)

لتكلم أولا عن جنس الشجرة ونشقه ، فإننا نراه مقما (ثلاثة أقسام) (١) و (ب) و (ج) فالقلب (١) وهو أبيض وناعم ، ولبه الخشب (ب) وهو صلب وبليه (ج) وهو القشر وهو أخضر ولطيف وفي الإمكان أن يشق فيجعل سيورا وهذا الامتحان في الشجرة الحديثة

العهد من أشجار (الكثرى) التي نبتت في العام للآضى من جذور شجرة قديمة العهد أهلكتها برد الشتاء القارس وساقها بلا ريب لدن طوى ولكن إذا نظرنا إلى هذا الشكل الذي يمثل شجرة قديمة (انظر شكل ٣٥) في الصفحة التالية .

- (أ) قلبها الذي لا يزيد بازدياد العمر .
- (ب) الحشب للركب من دوائر ملتف بعضها على بعض وكل دائرة تقابل سنة من سنى الشجرة .
- (ج) القشر .



(شكل ٣٥ - رسم قطعة من ساق شجرة الكثرى القديمة)

وإنما رسمناها هنا للموازنة بين الحديث والقديم من شجر الكثرى ويلحق به غيره ، فأول ما نلاحظه في هذا الشكل أن جذع الشجرة الكبيرة أكبر من جذع الشجرة الصغيرة فإن قطر الكبيرة يبلغ نحو ٤٠ بوصة ، ومن المدهش أن تقول إن قلب الشجرة الكبيرة لم يكن أكبر من قلب الشجرة الصغيرة ، وهذا وإن كان يدهشك هو الحقيقة عينها فليس للقلب نمو والشجرة دائماً البناء ، أما القشر فإنه لاهو أخضر ولا ناعم ولكنه خشن وأغلظ من السابقين هناك سأل أحد تلاميذه قائلاً : هاهو ذا قطع من جذع الشجرة القديمة هل تقدر أن تعد هذه الدوائر المنتظمة للشمسة أمامك كم فيها يا جورج ، فقال هذه نحو (٦٥) ياسيدى فقال الأستاذ ولماذا تقول إنها (٦٥) يا بني ؟ فقال لأن الحلقات (وهي تعد بكل سهولة عند القلب) مندرجة مضبوطة أشد الضبط بالقرب من القشر بحيث لا تتمكن من تمييزها إلا بصعوبة عظيمة . فقال الأستاذ ولماذا هذا ؟ فقال التليد إذا أصغيم إلى ماسأشرحه الآن ظهر لكم الجواب ، إن كل دائرة من هذه الدوائر تدل على سنة واحدة من حياة الشجرة ، وإذا كانت هذه الدوائر (٦٥) فهذا عدد سنى عمر هذه الشجرة ، ولأرب أن ماتنموه الشجرة في كل سنة لا بد أن يتخذ له مكاناً وهذا المكان لا يخلو إما أن يكون بقرب القلب وهذا لا يمكن لأن هذه الدائرة إذا خلقت بين القلب وبين الدوائر الخشبية (وهي كلها صلبة لتقدم مدتها) حصل هناك تشقق فيها وتلف وإما أن يكون بين الحشب وبين القشر . وهذا هو الحاصل فعلاً ، إذن الدائرة الجديدة تكون بعد آخر دائرة وتحت القشرة وههنا أفاد بعض الطلاب وهو ابن نجار أن هذه الدائرة الجديدة التي تتولد بين القشر وبين الحشب تكون لينة بخلاف القلب فإنه يابس جداً ذلك لأن الأخير قديم العهد والأول حديثه وعلى ذلك يكون إيقاد النار بالقلب آتم من إيقادها بالدائرة الجديدة لأن القلب كثير الاندماج غزير اللادة بخلاف الثاني ، ثم انظر الأشكال الآتية :



(شكل ٤٠)

(شكل ٣٩)

(شكل ٣٧)

(شكل ٣٦)

إيضاح الأشكال السابقة إجمالاً

- (شكل ٣٦) (١) الخشب (ب) القلب .
 (شكل ٣٧) هو شجرة النخل وهي اسطوانية الشكل مستو أعلاها وأسفلها .
 (شكل ٣٨) جذع النخلة وهو مقطع الجريد .
 (شكل ٣٩) جذع النخلة المقطوع عرضاً ، فلا قلب لها ولادائرة خشبية يوافق أحدها الآخر ولا تشر لها .
 (شكل ٤٠) جذع النخلة المشقوق طولاً مظهراً المادة البقية للقوية له .
 ولما كانت هذه الصور يعوزها الإيضاح وجب أن أذكر ما قاله المؤلف في شأنها فأقول :

هيكل شجرة النخل

ثم قال المؤلف ههنا عن أولاد قدامنا الكلام على شجرة الكثرى وتاريخها الطبيعي ونمائها فلأنتهين معكم شجرة أخرى تختلف كل الاختلاف عن جميع الشجر وهي (شجرة النخل) ، ومن سوء الحظ أن هذه الشجرة لا تنمو إلا في البلاد الحارة ، فإذا أردنا شجرة من هذا النوع فلأمناس لنا من استحضارها من البلاد الحارة وستسألون قائلين لماذا خصصت شجرة النخل بالبحث ؟ ألم يكن لك في أشجارنا الكثيرة في بلادنا ما يكفي للدراسة ؟ حسن جداً أيها الأبناء ، ولكن مافصلته لكم في هيكل شجرة الكثرى ينطبق انطباقاً تاماً على جميع الأشجار التي تنبت في بلادنا .

- (١) فسكلها ذات جذع أعظم عند قاعدتها منه عند قمته فهو جذع مخروطي الشكل كما يقوله علماء الهندسة .
 (٢) وأيضاً لسكل منها قشر على ظاهرها .
 (٣) وخشب تحت القشر وهو في قلب الشجرة أصلب منه في البنى بين القشر والقلب وهذا الخشب حلقات متوافقات منتظمة .
 (٤) وقلب ، ولسوق جميع هذه الأشجار .
 (٥) أغصان .
 (٦) أو فروع خارجات من .
 (٧) البراعم اللاتي يكن عند آباط الأوراق .
 (٨) وهكذا لمن حبوب ذوات طقتين .

(وصف النخل)

أما النخل فإنه يختلف كل الاختلاف عن ذلك كله وذلك لسبب يجب على أن أخبركم به ، ومن حسن الحظ أنني قد هيات لي الفرص أن أحوز صوراً له تساعدكم على أن تفهموا ما وصفته لكم . فانظروا إلى هيئة شجرة النخل (شكل ٣٧) ألسم ترونها تختلف عن أشجار غاباتنا اختلافاً مبيناً (أولاً) أنكم لاترون غصناً ما على جذعها وإنما ترون على أعلاها حرف (١) فقط خصلة من الجريد والحوص الطويلات القويات للتينات (ثانياً) إن الجذع حرف (ب) من قمته إلى قاعدته معتدل المقدار متساوي الأجزاء فهو إذن اسطواني الشكل لا مخروطية فهو كهيئة الداخن . ثم إنكم ترون تحت الجريد والورق عرايين مدلاة وهي نمرات النخل النافعات . وإنكم إذا أردتم أن تعرفوا طول هذه النخلة فاحكموا عليها بموازنتها بهذا العرني الذي

تروته على ظهر الجبل . إذن علوها (٤٥) قدما (ثالثا) إنها لشذلة طويلة ولكن بجانبها شذلة صغيرة جدا وهي حرف (ج) لا تزيد على تسعة أقدام ارتفاعا . ولكن جذعها في غلظه كجذع أختها الكبيرة . ومن العجب العجيب أن الشذلة تنمو طولا ولكنها لاتنمو عرضا ولا تزيد عن الحالة الراهنة ، وهذه ظاهرة أخرى بين شجرة النخل وما لدينا من الشجر مثل الصنوبر وشجر الدرادر والتفاح وهكذا ، ثم انظروا إلى جذع النخلة في (شكل ٣٨) إنكم لتجدون عليه سلاسل منتظمة تشبه السلام . فهاهنا إلا آثار الجريد الذي أزيل عن الجذع في سنين مختلفات ولم يبق من الجريد إلا ما فوق القمة ، فهذه هي الحصلة الحصية البهجة التي تزدهى الشذلة بحليتها وبجمالها . إن هذه الشجرة لا برعم لها إلا ما في ثمتها كما رأيت وهناك فقط يكون ثمرها وأثمارها . فهناك لا ترى عمليا جانبيها . فلا يكون جريد ولا أغصان .

(الجذع)

فهنا بنا الآن نمتحن هذه القطعة الصغيرة من جذع النخلة المشقوقة عرضا (شكل ٣٩) المتقدم مآدق نسيج قوامها المحكم الصنع للتفنن الأجزاء . هاهنا لا قلب ، لاحلقات خشبية دائرات بعضها على بعض ، لا تشر ولكن بدل الوضع المنتظم الذي اعتدنا أن نراه في الأشجار نرى هنا كتلة ناعمة يبدو بها مالا يخصى من القطع السود الصلبة اللآني وضعت وضعا لانظام له . ولكن لننظر ما هذه القطع السود ؟ إننا لأجل أن نحققها وجب علينا أن نقطع الجذع في الوسط (شكل ٤٠) طولولا عرضا لتقف على حقيقتها . انظروا إلى هذه المادة اللبغية الصلبة السوداء التي ترونها ممتدة في وسط المادة الناعمة التي تشبه قلب أشجارنا فيما قدمناه شها قليلا أو كثيرا . فهذه المادة هي التي تظهر هيأتها أشبه بنقط سود في القطعة المقطوعة عرضا التي امتحناها قبل هذه (شكل ٣٩) للتقدم) إن هذه المادة اللبغية إذا نظرنا لها نظرا سطحيا تظهر كأنها وضعها غير منتظم وأنها تضل في وسط هذه الكتلة الناعمة اللآني وضعت هي فيها وتخلتها ، ولكن إذا دققنا النظر فإننا نلاحظ أن هذه الخطوط اللبغية تأتي أولا من تحت قحف الجريد على ظهر النخلة وتمتد في داخل الجذع ، ومن هناك ترجع ثانيا إلى سطح الجذع وهناك يكون انتهاؤها .

إن هذه المروق اللبغية ليست شيئا أكثر من خشب النخلة المرطب ترتيبا غريبا خاصا كما رأيت .

إن هذه المروق اللبغية الكثيرة العدد لتعطي جذع النخلة قوة المقاومة الكافية لأن تستعمل استعمال الخشب في منافع الناس ، وعلى ذلك يكون هناك فرق كبير جدا بين النخلة وبين (شجرة الحور) مثلا في (أمريين) مظاهرها وتركيبها . ثم إننا بيننا نرى البذرة في (الحور) وفي كل ما شاكله في التركيب لها فلقتان نرى أنها في النخل لها فلقة واحدة ، وعلى ذلك يجعل النبات كله (قسمين) ذو الفلقة الواحدة وذو الفلقتين .

بمعجزة نبوية وعجيبة محمدية

(في النخل وموازته بالأشجار)

أيها المسلمون . هاهو ذا العالم الفرنسي نظري في الأشجار وهو يدرس لتلاميذه كما نظر علماء النبات في جميع الكرة الأرضية . هؤلاء الذين حدثوا بعد آباءنا الأولين وتلقوا مبادئ العلم عنهم كيف نبغوا في العلم ثم كيف كان هذا العالم هو المؤلف للكتاب بالفرنسية وزوجته هي للترجمة له باللغة الإنجليزية لغة قومها . فواجبا الرجال والنساء معا يتعاونون على العلم ونحن قوم لم يتعلم أكثر رجالنا في الشرق وجميع النساء فلماذا

يقول ؟ يقول إن شجرة النخل تخالف جميع الأشجار في هيئتها وفي جذعها وإنه اسطوانى الشكل وإنه لا أضخان له إلا في أعلاه . وفي أن الخشب في جميع الأشجار قد جعل بدله هنا ألياف . وفي أن القلب في الأشجار جرم . بدله هنا بمادة ناعمة . وفي أن الألياف القائمة مقام الخشب لم تكن حلقات بعدد السنين كما في الخشب كلا بل وضعت وضعا غريبا .

هذه هي آراء علماء النبات في كرتنا الأرضية ، فلننظر إذن في حديث البخارى في كتاب العلم قال حدثنا قتيبة ، حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل السلم فحدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي ، قال عبد الله ووقع في نفسى أنها النخلة فاستحييت ، ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله . قال هي النخلة » . ثم قال باب طرح الإمام السائلة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم . حدثنا خالد بن مخلد حدثنا عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل السلم فحدثوني ما هي قال فوقع الناس في شجرة البوادي ، قال عبد الله فوقع في نفسى أنها النخلة ثم قالوا حدثنا ما هي يا رسول الله ؟ قال هي النخلة » اه .

ها أنا ذا أيها الذي ذكرت نص ما في البخارى فقد ذكرها في كتاب العلم وكرر الحديث لاختلاف الرواة . فانظر كيف ذكره في باب العلم وكيف استدلل به على طرح الأستاذ الأسئلة على تلاميذه أولئك أو الحليفة على رعيته .

عجب وألف عجب . نرى الأستاذ الفرنسى أظهر أن للنخلة ما ليس للشجر فهو يخالفه من الوجوه المذكورة سابقا فأفردا بالذكر .

فها هنا (ببيان من العلم : الباب الأول) علم النبات وأن النخلة تخالف كل شجر في الأرض حتى أت هذا العالم الفرنسى لما لم يجد شجرة نخل في بلاده استحضرها من مصر عند الحرم موضع نباتها وعلم التلاميذ وهم يشاهدون صورتها (الباب الثانى) أن النبي صلى الله عليه وسلم في أسلوب تعليمه استعمل السؤال والجواب وهذا هو الأسلوب الذى يشهد أذهان التلاميذ في علم (البيداجوجيا) وهكذا فعل هذا الأستاذ الفرنسى في الفرق بين النخلة وبين جميع الأشجار ، أما أنا فأقول : إن الله لما علم أننا نحن المسلمين سنكون جهلاء بكل علم في الأرض ونذر العلوم تفر إلى أوروبا ، فمنا ما أحرق أيام خراب الأندلس ومنها ما بقى عند الفرنجة فتعلموا وارتقوا حتى إذا كانت هذه الأيام أحاطت بنا هذه الأمم من كل جانب فأخذنا نلم شعثا ونقرأ كتبهم وإني أنا وأمثالى سنقرأ أمثال هذه السائلة في كتب الفرنجة ، أقول إنه تعالى لما علم ذلك ألهم رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحدث أصحابه في شجر البوادي وفي النخلة حتى إذا قرأنا كلام الفرنجة في علمهم الواسع الذى يطلبه القرآن في النبات وغيره واطلعنا على هذا الحديث تحسنا على مجد ذهب وأمم هلكت ولا نصيب لها من دينها فهسل في خطة الإنصاف أيها الأمم الإسلامية أن يحرمكم صغار الشيوخ والجهلاء من الأمراء من أن تفتحوا أعينكم لأشجار هي في نفس بلادكم وأنتم أحق بدراستها ودراسة غيرها من النبات في الأرض من الفرنجة فتمروا عليها معرضين وهي تنبت في جزيرة العرب وصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم من نفس بلادكم وقد أنزل عليه « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يحطون » وأنزل عليه أيضا « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة » الخ وأنزل عليه أيضا « الذى أحسن كل شئ خلقه » وهذه هي المحاسن الباطنية للأشجار ، ولم يكتف الله بذلك بل ألهم رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعطى أصحابه - وهم لامدارس عندهم ولا قراءة ولا كتابة - درسا في النبات كله وفي النخل ، وهذا الدرس فسر القوم

في أشجار الجوادي. إن هذه النبوة والله يشهد لم يتم حاملوها بما يجب لها وإلا فكيف يمر هذا الحديث على المسلمين هروفاً وقروناً ولا يظن أحد لدرس علم النبات ومن فطن له وللعلم الأخرى كان رشد كفروه وقالوا له أنت ملوك من الدين . اللهم إن هذه النسبة الإسلامية بهذا الجود المعب قد جعلنا سبعا نكث لنا عظة لنكث لأبنائنا هذا القول حتى لا يقعوا فيها وقع في الآباء بسبب جهل كثير من شيوخهم واتكالمهم على مشايخ طرقهم وأنا يارب قدايت ماض بقدر طاقتي وأنت لا تكلف نفساً إلا وسعها ، فألمهم أناسا يهدون هذه الأمم ويعلمونها ويرشدونها إلى سواء الصراط ، فلم يبق في القوس منزع ، ولا عطر بعد عروس ، وحم الأمور واشتد الخطب ، وأنت تؤتي الملك من تشاء وتزعج الملك ممن تشاء . وأنت على كل شيء قدير . انتهى يوم الاثنين ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٩ م والحمد لله رب العالمين .

(بهجة العلم في هذا القام)

ها أنت ذا أيها الذكي شاهدت الرضوم الجميلة البديعة في القسم الأول والحكم المستخرجة بالدراسة من القسم الثاني . فياسبحان الله ويسعدانه . إن السلم في أقطار الأرض شرقاً وغرباً يمر بالأشجار في الحقول والحدائق والطرقات وبراها تمد له أيديها تارة بالأزهار وتارة بالفواكه والخمار وتارة بالروائح العطرية وتارة تعطيه خشباً لصنع أبوابه وشبابيكه وأسرته وكراسيه وسفنه وكثير من آلائه . أحياء الله العلم ، فياليت شمري كيف يمر المسلمون على هذه العجائب وأكثرهم لا يشعرون أنها عجائب . كلا . وكيف يشعرون وهم لا يطون من الثمر إلا لذته ولا من الخشب إلا أن يكون سقواً لمنازلهم وسفناً لمسافريهم وعمداً لحياهم وآلات لأعمالهم ، أما الجمال وأما الإبداع فهم عنهما معرضون .

أيها الناس : إن الله قادر أن يعطينا ذلك بلا عمل ولا نصب كما أعطى (حشرة أبي دقيق) ورق قطننا عصرنا تأكله أكلًا ، ونحن الزارعون « ولا يظلم ربك أحداً » فهو الزارع وهي الآكلة وعمل الخلق من آثار رحمة الله . فإذا لماذا جعلنا الله في وسط هذه العجائب . إنما فعل ذلك ليوقظنا إليها ويحثنا عليها ؟ وإلا فما هذا الجمال ؟ وما هذا الحسن . وما هذا الإبداع ؟ أو اه ، أهو رمية من غير رام حتى تكون عنها معرضين كلا والله فهذا مستحيل بعد ما ظهر ظهور النجم في هذا الكتاب بأجلى برهان وبالحس والعيان .

انظر أيها الذكي إلى مارسمته لك هنا آتفاً من تلك الصور النباتية البديعة ، فما هذه الزينة ، وما هذا الزخرف ؟ ثم تأمل قطع الخشب من الكثرى وكيف كانت الشمس وهي تجري في السماء بحسب ظاهر النظر قد تركت في بواطن الأشجار آثاراً وقد ارتسمت دوائر وراها دوائر حافظات بأعدادها كروالسنين ومرور الشهور والأيام .

كم جلس بنو آدم في وارف الظلال تحت الأشجار والنبات تتلاعب بالأغصان وتتلف على الأوراق والشجرات تمايل ذات اليمين وذات الشمال وضوء الشمس قد ملأ الحقول والبقاع وكنا تلك الشجرات ملاءة بيضاء مركبة من (سبع طبقات) ذات ألوان من الحمرة والصفرة إلى آخره كلهن منسوجات نسيجا عجيبا وبه صرن لونا واحدا وهو ذلك الجلباب البديع ، كل هذا وابن آدم لا يعلم أن في باطن هذه الشجرة دفتر يحصى فيه حركات الشمس وتكتب فيه السنون سنة بعد سنة . وإذا أحصى الله كل شيء عدداً فما هو ذا أرائنا الإحصاء واضحا في حقولنا وبساتيننا ، وكل في الأرض من كتاب نسمع بيد القدر وأحصى السنين الشمسية في مشارق الأرض ومغاربها ، فكل شجرة كتاب حساب كما أن كل طبقة من طبقات الأرض عند علماء (الجيولوجيا) سجل سجلت فيه القرون التي قطعها أرضنا في تاريخ حياتها البعيد المدى ، إن هؤلاء العلماء يستنتجون من هذه الطبقات وتركيبها مقدار عمر الأرض كما يقدر علماء النبات فيما رأيت مقدار عمر نفس

الشجرة بالسنين ، فصر الأرض وعمر الشجرة تاجان لمسير الشمس الظاهري حول الأرض . وإذا معنا الله يقول « وكل شيء أحصيناه كتابا » فما هو ذا أبرز لنا من الإحصاء ما يواتى عقولنا ويكون كمنوفج لما عنده في الوح المحفوظ . أفلا يحق لي بعد هذا البيان أن أقرأ « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ظهر الجمال في ظواهر النبات بالإبداع والحسن والزينة ، وظهر الإبداع في بواطن النبات والأرض ، وهذه نعم تذكرنا بالنعم الباطنة في نفوسنا من الصحة والعلم والسرور والبهجة « ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » .

(فصل)

ها أنا ذا أكتب صباح يوم الجمعة (٢٧) سبتمبر سنة ١٩٢٩ م وهذه السورة وما معها مقدمات للطبع . فها هو ذا حضر صاحبي . قد حضر الآن وقرأ ما كتبتة فقال بإسبحان الله ما أجل هذه الصور وما أبداع هذه الأشكال . لقد سرت بها القلوب وانشرحت الصدور وحق لي أن أذكر أول قصيدة ابن الفارض التي تمثلت بأياتها هنا وأنشد :

ما بين معترك الأحداق والهج أنا القليل بلا إنم ولا حرج
ودعت قبل الهوى روي للشهدت عيناى من حسن ذلك للنظر البهج
فه أجفان عين فيك ساهرة شوقا إليك وقلب بالغمام شجي

ومنها :

أهفو إلى كل قلب بالغمام له شغل وكل لسان بالهوى لهج
وكل سمع عن اللاهى به صمم وكل جفن إلى الإغفاء لم يبع

ومنها :

عذب بما شئت غير البعد عنك تجد أدنى حجب بما يرضيك مبتهج

ومنها :

من مات فيه غراما مات مرتقيا ما بين أهل الهوى في أرفع الدرج

ومنها :

أعوام إقباله كاليوم في قصر ويوم إعراضه في الطول كالبحج
فان نأى سائرا بامهجق ارتحلى وإن دنا زائرا بامقلق ابتهجي

فلما فرغ صاحبي من إنشاد هذه الأبيات من نفس تلك القصيدة قلت له كأنك تحفظ هذه القصائد ؟ قال أكثرها وذلك من أيام صغرى ، قلت . بن الأمم الإسلامية بعد العصور الأولى لما ذهبت دولة العرب وانتقل لل ملك من أمة إلى أمة وتحكم بعض صنار العقول من الفقهاء والصوفية في عقول هذه الأمة للسكينة ومنعوا دراسة العلوم الحكمة تحول أصحاب العقول الكبيرة إلى علم التصوف فظهر فيهم أمثال الأستاذ عبي الدين ابن عربى ومن نما نحوه كابن الفارض ودرجت الأمة على ذلك واكتفوا بهذه الوجدانيات وناموا عن نفس العلوم وبدائع التكوين ومجال النظر في السموات والأرض واتبع الخلف السلف و« كل حزب بما لديهم فرحون » أذلك خير أم الابتداء أولا بالنظر في عجائب النبات والسحاب والشمس والقمر إذ يقول الله تعالى « إنا جعلنا ماطى الأرض زينة لها » ويقول « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » وهل زين الله أرضه وسماه للعيمان ؟ أم أبرزها للغانقين ؟ كلا ، فإنه يقول « وزيناها للناظرين » فإذا رأيت أيها الدكي ميلا إلى النظر وفرحا بالعلم فاعلم أنك أنت من القصودين بهذه الناظر وبهذه الزينة ، وستكون أمم الإسلام بعد هذا التفسير أسبق الأمم إلى هذا الجمال البديع وإذن يكونون « خير أمة أخرجت للناس » .

الله أكبر لا ترف العروس لبعلمها إلا بعد إصلاح شأنها وتزيينها بالحلى والحلل وإلا فلا عرس ولا زفاف .
القاعدة واحدة جمال في المرأة فزفاف فوثام قدرية وحياة . وجمال في السموات والأرض وزينة بالآيات
والشجر فحب بالجمال فلم بالنظام ففرام بصانع هذه الخلوقات . فلا غرام إلا بعلم ولا عشق إلا بعد النظر . فأما
عشق الحسان فما أيسره لكل إنسان وحيوان ، وأما عشق المعاني والبدايع فما أبعد عن عقول صفار
الأحلام ومرضى النفوس عباد الأوهام .

ثم قلت فليبدأ السلم بهذا الجمال الظاهري وليدرس تلك العلوم . وهنا لك بحق له أن يترنم بأبيات ابن
الفاارض التي ذكرناها . ولست الآن في مقام أناس اصطفاهم الله فلم يحتاجوا لهذه العلوم لأن نفوسهم صافية وقد
أفيض عليها العلم . فنحن لم نؤلف هذا التفسير لهذه الطبقة فإنها من طور آخر وإنما هذا التفسير للعموم الأمم
الإسلامية ، أما هؤلاء فليسوا في حاجة إلى كتب يقرءونها ولا مدارس يدخلونها بل كآتهم ليسوا من عالمنا
ورسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كان يخاطب العموم .

فقال صاحبي والله لقد أجت على ما اعترضت به عليك في سرى فما كاد ذلك يجيش بصدرى حتى
كأنك أحسست به فبادرت بالجواب ولكني أريد أن أسألك في الصور التي نقلتها في مظاهر النبات الآن . إنك
تقول إنك نقلت صورها من مجلة مصرية نقلت نعم . فقال وكيف ترسم تفسير القرآن صوراً رسمها أناس
في مجلات ونشروها بين العام والخاص . أليس هذا داعية للازدراء والانتقاص . أليس الذين قرءوا تلك المجلات
ورأوا تلك الصور فيها يقولون إن هذا التفسير ليس بعيد المدى ولا هو عظيم الشأن . وكيف يضع للؤلؤ فيه
صوراً اطلع عليها الجهلة و صفار العقول . ولو كان التفسير ذا بال لم يرسم فيه إلا ما يفهمه الطغام ولا يعرفه إلا
أولوا الأبواب . إن كل مبذول مرغوب وكل ممنوع مقبول .

فقلت إن ما ظننته أيها الأخ مانعاً أراه أنا موجبا . ألا ترى رعاك الله أنه كلما كان الشيء أكرم للحياة وأقوم
لهذا الوجود كان أكثر انتشاراً وأكثر صوراً . وكلما كان أقل لزوماً للحياة كان أقل وجوداً فهناك الشهوات
الإنسانية والحيوانية والصور النباتية والحيوانية بذلت الشهوات لكل حيوان . فنجوع وشبق لازمان لهذه
الحيوانات ولولاها لم يعيش حيوان ولا إنسان بل القوة الغضبية لم تندر حيواناً ولا إنساناً إلا لزمته قلة وكثرة
محافظة على الأبدان بل إن القوة الشهوية بنوع ما مركوزة في النبات بها امتص من الأرض ومن الماء والهواء
الغذاء بل إننا نرى له أترا ما من القوة الغضبية وإن كانت غامضة علينا . ألم تره مدججا بالسلاح كالشوك في
شجر السنط والقرطم وغيرها من الشجر والنبات ذلك ليدراً عنه ما يهلكه ويصد ما يقصده بالأذى من الحيوان .

هذه حال القوة الشهوية والغضبية . إنهما عامتان وعمومهما لبقاء كل نبات وحيوان وإنسان فهما إذن
نعمة وحكمة كبرى لا يعقلها إلا الحسكاه للفكررون وليس للوعاظ والخطباء فهما من نظر إلا فيما يتجلى للناس
من سوء استعمالهما كالسرقة والقتل في الشهوة والغضب اللذين جعلنا نعمة أولاً وبالذات ، فاعجب للجمال
المحبوب عن الجهال في قوتى الشهوة والغضب العامين ، وأعم منهما الضوء والحرارة والهواء والماء والتراب ثم
الجبر والحديد والنحاس . فهذه عامة على مقتضى الحاجة إليها . فلا غرو إذا رأينا القرآن يقرؤه الأطفال
في المسكن والجهلاء والعامة في سائر الأزمنة والأمكنة والجهات لعموم الحياة عمت الشهوات والهواء والماء ،
ولعموم الحاجة إلى العلم والحكمة عمت قراءة القرآن وأكثر القراء في الأرض لا يعقلون . فلا بدع إذن إذا عم
الجمال في صورة النبات والحيوان وبرز ذلك الجمال للجهال والعلماء على حد سواء . فكما عمت الشهوات سائر
الأحياء لينالوا نصيبهم من الحياة بلا استثناء هكذا نشرت صور الجمال في جميع الأصقاع براوحها وسماها وأرضا
ليقول الله للناس هذه هي صور الجمال أبحثها لكم فلا يغفل اليوم ولا تبذير ، أنا سويت بينكم أيها الأحياء في سوقكم

لحياتكم بمهماز الشهوات وسويت بينكم في سوقكم إلى بهجة العلم بنشر صور الجمال في النبات والحيوان والنجوم والشموس . عمت الشهوات وعم الهواء والماء فكانت الحياة وانتشرت صور الجمال فبرز في أرضكم رجال حكام علماء فلا حكم إلا وهو مفرم بالجمال فإذا قد الجمال انقرض من الأرض الحكماء .

يقرأ القرآن الجهلاء والعلماء كما ينظرون صور الجمال والإبداع ولكن القراءة شيء والفهم شيء آخر كأن نظر الجمال شيء والإعجاب به بعد الإحساس أمر آخر ، عموم الصور أمر اقتضته الحكمة كما أن عموم قراءة القرآن كذلك وإن لم يبقه القارئون فإذا رأينا بذور النباتات ملأت السهل والجبل وإن لم يرها الناس لشدة الدقة والصغر وليست تنمو وتثمر إلا في الأماكن الصالحة لها كالأرز لا ينمو إلا في الماء وكالقمح لا ينبت إلا في الحقول تسقى وقتا بعد وقت وكنوع من النبات في طرفه الأعلى ما يشبه الشعرات البيض أو الريش الأبيض يبلغ طول ذلك نحو قدمين وارتفاع النبات نحو ثلاثة أمتار وهذا نراه على شاطئ النيل بجهة مصر القديمة فهذا ينمو ويميش في الماء وفي اليابسة . فبذور هذا النبات وغيره من الحشائش في اليابسة عملاً السهول والقفار ولكنها لا تنبت إلا في أماكنها الصالحة لها وكثرة البذور تشبه الحيوانات كثرة النوية في ماء الرجل وكثرة حبوب الطلع في أعضاء التكبير في النبات فتلك الكثرة فيهما جعلت للاحتياط في إيجاد الحيوان والنبات ذلك لأن عالمنا الأرضي عالم متأخر فاحتيط له حتى لا يحرم من الحياة فكثرت أسباب الحياة في أرضنا وهذا هو العجب العجيب . أقول فإذا رأينا الأمر هكذا فهكذا فانقل في حفاظ القرآن وفي العباد (بتشديد الباء) الذين يقرءون القرآن في الصلاة ، فكثرة هؤلاء ككثرة البذور وكثرة الحيوانات النوية . فما كثر أولئك إلا ليتحقق وجود بعض المفكرين والحكام كما عرفت الحياة بكثرة أسبابها التي لا تحصى وهكذا عموم صور الجمال ونشرها في الكرة الأرضية والكرات السماوية لا يقصد بها إلا أن يكونوا يفتخرون بها فيهلك الآلاف والآلاف من الحيوانات النوية والبذور النباتية في سبيل خلق حيوان واحد ونبات واحد كهلاك آلاف آلاف الصور الجميلة في إيجاد حكم واحد في أمة من أمم الأرض يملؤها جمالا وكالا ويحبوها عزاء وإقبالا .

وهذا هو عين جوابي لك أيها الأخ ، فليس عموم الصور في المجالات المنشورة في الأقطار الإسلامية بمنافع من رسمها في هذا التفسير بحجة الابتدال فلو كان هذا مانعا من النشر لسكانت قراءة القرآن في الطرقات وعموم قراءة الفاتحة بين رجال الطرق في كل مناسبة يقرءونها وأكثرهم لا يقولون معناها مانعة من اعتباره كتابا مقدسا فهو مقدس وإن قرأه صغار العقول كما أن السماء جميلة والأرض مزينة بالنبات والحيوان وإن برزت للجاهلين .

عمت صور الجمال في أرضنا وعمت قراءة القرآن عند المسلمين لتقام الحجة على الأرواح عند مفارقة الأبدان إذ يرتفع أرواح بأجنحة العلم والأخلاق فوق الملا فيقول آخرون لماذا ساد هؤلاء علينا ؟ فيقال بالعلم والحكمة سادوا ، فيقال ولماذا حرمنا من ذلك فيقال لهم صور الجمال وعموم البيانات والعلوم لم تدع عندها لاعتبار ولا حجة يحتاج بها القاصرون . طال الجمال وإن عم والعم وإن ملاء الأصقاع والدين وإن قرأه الحماص والعام يعوزها كلها الاستعداد ، فالاستعداد هو الذي جعل الناس في مراتبهم وأزله منازلهم في الدين والدنيا ، فكمن من جمال يراه الناظرون بهجة تسمى عنه عقول القاصرين ، وكم من قارئ لسور القرآن غافل عن معانيها وقليل من يتعظ بها وهم شاكرون .

فسكا أن قراءة القرآن في المقابر والطرقات وبألسنة الجهلاء ليست بمزربة بأمثال النزالي والرازي وابن رشد في الشرق ولا بأمثال (توماس كارليل) و (عبد الله كويل) و (هنري الفرنسي) و (الورد هيدلي)

في القرب إذ قال هؤلاء (إنه فوق متناول الفلسفة والعلم وإنه هو مناط السكّال والجمال) هكذا ليس عموم الصور النباتية والحيوانية في الأسقاع والحقول والغابات ودوس الناس عليها وعلى ما جبل من الحشرات ، وهكذا عموم صورها التي صورت بالصور الشمسية المنتشرة في المجالات . بجزرية بما أرسمه منها في هذا التفسير فهنا لها مغزى أشرف من مغزاها عند الجهلاء كما أن القرآن معنى عند الحكماء للتقدمين فوق ما يعرفه جهلة السليين أسعافا مضاعفة ، وكما أن الحشرات من النمل والنحل لها مزايا عند العلماء بها يجهلها جميع العامة من نوع الانسان .

إن الجاهل يضحك من العلماء ، ولو أنك قلت لعامى : إن فة حكمة في النمل وإن للنملة (٤٠٠) عين كما تقدم في سورة النمل لعدّها منك خرافة وسخر واستهزأ وهو من الكذابين ، ولولا الاستهزاء والاحتقار لم يكن الناس طبقات .

فقال صاحب إن للعامى الحق كل الحق أن يستخر من قول العالم إن للنملة (٤٠٠) عين وإن للذبابة أربعة آلاف عين كما تقدم في هذا التفسير لأنه لا دليل لها عنده ولم يجالس العلماء وه الحق في الإنكار بل إذا صدق كان عندها . فقلت ليس كل ما يظهر برهانه بمكذوب . ولو أن الناس جميعا عولوا على ما قويت صحته وظهرت براهينه لهلك نوع الإنسان وأصبح في مرتبة الحيوان ، فليست نتائج الزراعة ولا التجارة ولا الصناعة ولا السياسة يتقينية . لا يقين في هذا كله . ولو كانت النتائج يقينية لم نسمع بهلاك دولة بسبب واقعة حربية اكتسحتها ولا بزراع هلك زرعه بأفة سماوية ولا بتاجر غرقت بضاعته في البحر بزوجة جوية ولا بصناعة أصبحت في السوق مزجاة فأفلس سامعها ، فهذه النتائج لم يكن لأصحابها فيها إلا الظن فلو كان الناس لا يثبتون إلا باليقين لمسكوا .

ومن هذا الباب كثر الفقراء في نوع الانسان لأنهم أرادوا اليقين في المكاسب . اقترام لا يخاطرون في متاجر عظيمة ولا مكاسب رفيعة حرصا منهم على الدرهم والدينار الذين عندهم وطلبوا يقين المكاسب ، فالحيطة مخاطرة لا أقل ولا أكثر ، وما نوع الناس وما ميزم مراتب إلا ما فهم من استعداد في الفطرة ضعفا وقوة . فلئن أحجم القاصرون من نوع الإنسان عن المخاطرة بالأفئس والأموال في سبيل المجد والشرف في الحياة وفرحوا بما عندهم من المال القليل للثيقين صننا منهم بما لهم وأنفسهم ليحجمن الجهال عن البحث في عيون الفئمة وعيون الدبابة إذا سمعوا قائلا يصف لهم ذلك . وذلك لأنهم فرحوا بما عندهم من العلم واستغنوا عن سواء كما فرح ذلك الفقير بماله وقوته ولم يندلها في المكاسب البعيدة طلبا لليقين ، فالمال الذي حازه ذلك الفقير متيقن عنده وجوده والمكاسب يعوزها سعى ومناظر الحشرات والخلوقات ظواهرها متيقنة عند الجاهل ولكن بواطنها التي يسمع عنها ليست متيقنة بعوزها البحث وهو لاهمة له في ذلك ولا شوق . وليست تمت للمكاسب ولا الحقائق العلم إلا نفوس اصطفها الله . فهؤلاء قواد الأمم في المال والعلم وهم يقلون فيها كما يقل للثوك ورؤساء الجمهوريات وقواد الجيوش «ووبك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون» .

كل له غرض يسمى ليدركه والحري يجعل إدراكه الملا غرضا

«وقليل من عبادى الشكور» وبهذا تم الكلام على (بهجة العلم) في اللقمان الأول وهو إحسان خلق النبات والحمد لله رب العالمين .

﴿ اللقار الثاني في إحسان خلق افضل الحيوان وهو الإنسان ﴾

لقد تقدم في (سورة المؤمنين) رسم القطاع للعمودى لجسم الإنسان اللشتمل على عشرين عضوا وفيه مجاورة الأعضاء بعضها لبعض ثم جهاز الحركة اللشتمل على (٢٩) عضوا وهكذا صورة اليدين وطبقاتهما (١٢) وصورة العين والأذن والأولى فيها (١٩) جزءا مشروحا والثانية فيها (١٣) جزءا كذلك وصورة الدورة الدموية . فاذا علمت هذا فانظر لما أقوله لك الآن واعجب من جمال الله تعالى وحكمته تميحا لما تقدم .

(١) واعجب من جهاز التنفس إذ ترى :

(١) الرئتين والشعب والقصبه الهوائية . (٢) والحويصلات الرئوية وأوعيتها الدموية الشعرية .

(٣) وتركيب الرئتين .

(ب) (١) ومن أعضاء المضم . (٢) وهيئة الجلد .

(ج) والمجموع العصبى .

(د) وعضو الذوق وهو اللسان .

(هـ) وعضو الشم وهو الأنف .

(و) وعدد الأسنان وبعض صورها .

فها هنا (سنة فصول : الفصل الأول) في جهاز التنفس (الفصل الثاني) في أعضاء المضم . (الفصل الثالث

في المجموع العصبى . (الفصل الرابع) في اللسان . (الفصل الخامس) في عضو الشم . (الفصل السادس)

في الأسنان وعددها . كل ذلك ملخص من كتاب [قانون تدبير الصحة] تأليف الدكتور (جون سايكس) .

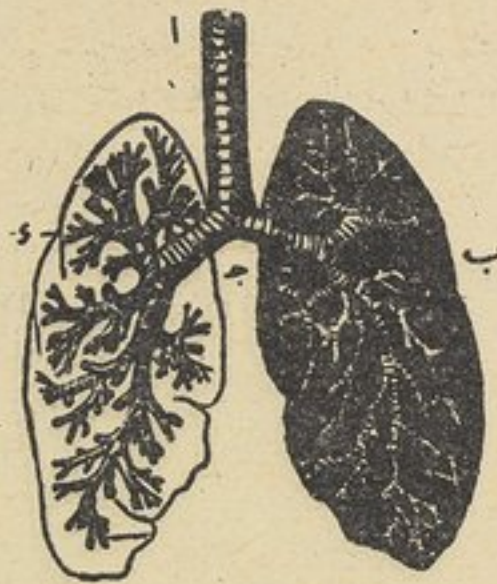
﴿ الفصل الأول : في جهاز التنفس ﴾

(أعضاء التنفس)

يدخل الهواء من الأنف أو الفم فيصل الحلق ويمر بالحنجرة ثم بالقصبه الهوائية ومنها إلى الشعب التى تنقسم إلى فروع صغيرة تنتهى فى تجاويف صغيرة تسمى بالحويصلات الرئوية وهى تشبه العنبيات المهيوفة وتجرى فى جدرانها أوعية دموية وهى التى يحصل فيها التبادل بين غازات الدم والهواء ويدخل الهواء إلى الرئتين بحركة تسمى بالشهيق ويخرج منها بحركة أخرى تسمى بالزفير وذلك بانسساط وانقباض جميع جدران الصدر الحاجز من أسفل والأضلاع والمضلات التى تحركها والتى بينها من الجواب والأمام . انظر أشكال (٤١ و ٤٢ و ٤٣) .

﴿ ميخانيكية التنفس ، أو كيفية التنفس ﴾

يدخل فى تركيب الحنجرة والقصبه الهوائية والشعب ماعدا الدقيق منها حلقات أو قطع من حلقات غضروفية وبهذا لا ينطبق بعضها على بعض بل تبقى دائما مفتوحة ومحتوية على هواء .



(شكل ٤٢ الحويصلات (شكل ٤٣ تركيب الرئتين)
الرئوية) وأوعيتها الشعرية
(الدموية)

(شكل ٤١ - الرئتان والشعب والقصبه الهوائية)

(١) القصبه الهوائية (ب) الشعبه اليسرى (ج) الشعبه اليمنى (د) الأنابيب الشعبيه الصغيره .

﴿ الفصل الثاني : الجهاز الهضمي ﴾
(أعضاء الهضم)

تتكون هذه الأعضاء من الفم والأسنان وغدد اللعاب ، ومن البلعوم والمرى ، والمعدة والكبد والبنكرياس والأمعاء الدقيقة والغلاظ التي تنتهي بالمستقيم ، ويطن الجهاز جميعه غشاء يفرز مخاطا ويندمج فيه أو تحته غدد عديدة تختلف في تركيبها بنسبة وظيقتها (انظر شكل ٤٤) .

الغذاء مركب من عناصر كيميائية يحولها الهضم إلى مواد سهله الامتصاص بواسطة الأوعية الشعرية للجهاز الهضمي فتصل إلى الدم وتمتص الأوعية الشعرية الينفاوية المواد الدسمة وتصبها في القناة الصدرية وهذه تصبها في الوريد تحت الترقوة اليسرى ، ويؤثر في الغذاء أثناء الهضم قبل استحالته نهائيا إلى مادة قابلة للتشيل جمله من أعمره هضمية وهي اللعاب وعصير المعدة والصفراء وعصير البنكرياس .

شكل ٤٢ (١) جدر الحويصلة الرئوية (٢) الأوعية الشعرية الشريانية .

(٣) الأوعية الشعرية الوريدية .

شكل ٤٣ (١) الشعب الصغيرة (٢) حويصلات رئوية .



(شكل ٤٥ - رسم
قطع من الجلد)



(شكل ٤٤ - رسم أعضاء الهضم)

﴿ الكلام على الجلد ﴾

كما أن السطح الباطن لأعضاء الجسم مبطن بفشاء عظامي فظواهر الجسم مغطى بالجلد ، والجلد يحتوي على طبقة سطحية تسمى بالبشرة وأخرى تحتمها تسمى بالجلد الحقيقي وتحتها طبقة من نسيج خلوي تعرف بالطبقة التي تحت الجلد ، والمادة اللوونة للجلد توجد في أعماق جزء من الطبقة السطحية التي طبقاتها السطحية يتقلص دائما ويتكون منها أيضا الأظافر والشعر ، ويرز سطح طبقة الجلد الحقيقية في البشرة على شكل زوائد تسمى بالحلمات وفيها توجد جسيمات المس وفيها تنتهي أعصاب الإحساس للجلد ، وفي طبقة الجلد الحقيقي توجد شبكة من الأوعية الشعرية (انظر شكل ٤٥) .

ويخزن الشحم في الطبقة التي تحت الجلد ليقوم بوظيفة وقاية الجسم ، ويوجد بها أيضا غدد العرق التي تخرج إفرازها (العرق) بواسطة فتحات دقيقة على سطح الجلد ، وقد نشعر به أولا نشعر لقلته .

- شكل ٤٤ (١) القناة الهضمية للرئ . (٢) المعدة . (٣) الاثنى عشرى .
(٤) الأمعاء الدقيقة . (٥) الأمعاء الغلاظ . (٦) الأعور .
(٧) الأمعاء الغلاظ . (٨) المستقيم . (٩) الكبد .
(١٠) المرارة . (١١) القناة الصفراوية .
(١٢) البنكرياس . (١٣) الطحال . (١٤) الكليتان .
(١٥) الحالبان . (١٦) المثانة .

- شكل ٤٥ (١) (البشرة) الطبقة السطحية للجلد . (٢) شبكة مليجي .
(٣) الجلد الحقيقي أو الأدمة . (٤) الطبقة تحت الجلد . (٥) خلايا دانية .
(٦) حلمات الجلد . (٧) الحلمات العصبية . (٨) الحيوط العصبية .
(٩) (١٠) غدد العرق وفتواتها وفتحاتها . (١٢) الشريان لبصلة الشعر .
(١٣) لبلة الشعر . (١٤) ساق الشعر . (١٥) الشعر .
(١٦) الغدد الدهنية .

(الفصل الثالث : المجموع العصبي)

يتكون المجموع العصبي من النخ والمخيخ والنخاع
الاستطيل والنخاع الشوكي وهي الأعضاء المركزية
وتمتد الأعصاب منها لجميع أجزاء الجسم وهي الأعضاء
الدائرة والأعصاب إما حساسة أو محركة . (انظر
شكل ٤٦) .



(شكل ٤٦ - المجموع
العصبي)

فالحساسة هي التي تحمل التأثيرات الدائرية إلى
الأعضاء المركزية ، والمحركة هي التي تحمل التأثيرات
من المركز إلى أجزاء الجسم فتحركها أو توقفها ،
وهناك أعصاب بمبائولية تخرج من عقد عصبية
موجودة على جانبي العمود الفقري وتتصل بالنخاع

الشوكي بفروع دقيقة ، ووظيفتها تنبيه العضلات غير الإرادية للأعضاء وتنظيم الوظائف التي لا يشعر
بها الإنسان .

(الفصل الرابع : في عضو اللسان)
(حاسة الذوق)

عضو الذوق هو اللسان ، ويحتوي على جسيمات الذوق في حلقاته ، والأشياء التي تذوق تكون حلوة
أو مرة أو حامضة أو ملحية مثلا ، وإذا أريد معرفة طعم الشيء جيدا يذوق ذائبا ولا يعرف طعمه إذا كان
حارا جدا لأن الحرارة الشديدة تميمت حاسة الذوق (انظر شكل ٤٧) .

- | | | |
|----------------------------------|--|-------------------------|
| شكل ٤٦ (١) الدماغ . | (٢) الشق العظيم للنخ . | (٣) النخ . |
| (٤) العنق المؤخر للنخ . | (٥) قاعدة النخ . | (٦) المخيخ . |
| (٧) البصلة الشوكية . | (٨) النخاع الشوكي . | (٩) أعصاب الجذع آتية من |
| (١٠) أعصاب الذراع . | (١١) العصب الزندي . | النخاع الشوكي . |
| (١٢) عصب الإبهام . | (١٣) العصب القدم السفلى للساق (١٤) العصب الحلقى العلوي للساق | |
| (١٥) العصب الحلقى العلوي للساق . | (١٦) العصب العلوي القدم للساق | |



(شكل ٤٧ - رسم اللسان) (شكل ٤٨ - رسم الأنف)

﴿ الفصل الخامس عضو الشم ﴾

عضو الشم هو الأنف وفيه الانتهاءات العصبية الخاصة بذلك ، وتؤثر الأجسام الغازية أو الصلبة في حاسة الشم بفترات دقيقة جدا ، والسوائل لا تشم جيدا ما لم تكن طيارة أو بها مواد طيارة كالروائح الذكية ولا تشم جيدا إذا كان الأنف رطبا ومصابا بزكام (انظر شكل ٤٨) .

﴿ الفصل السادس : في عدد الأسنان ﴾

عدد الأسنان عند الأطفال الذين دون السابعة من العمر عشرون سنا وتسمى بأسنان اللبن ، وتسقط هذه الأسنان في السنة السادسة أو السابعة ويخلفها تدريجيا إلى الثامنة عشرة تقريبا من عمرهم اثنتان وثلاثون سنا (ست عشرة في كل فك) وتركب أسنان كل فك من قواطع عددها أربعة ، وهي لتقطيع الأغذية ، وأنياب عددها اثنتان وهي لتجزيق الأغذية وأضراس عشرة لطحنها وتسمى هذه الأسنان بالثابتة .
فإذا لم تحفظ الأسنان في حالة مرضية اختلت عملية الضغ ، وينتج من ذلك عسر في الهضم ، وبعض الأطعمة الصلبة تضر الأسنان كتكسير البندق بها أولى الأسلاك أو اختبار المعادن ، لأن ذلك يفصل عنها طبقة اللينا التي تغطيها وتجعلها في استعداد للتسويس بسهولة . انتهى ما أردته من (كتاب قانون الصحة) .

- شكل ٤٧ (١) قاعدة اللسان . (٢) اللوزتان . (٣) لسان الزمار .
(٤) أسلة اللسان (فته) . (٥) الحلقات الحيطية . (٦) الحلقات الفطرية .
(٧) الحلقات الكأسية .
شكل ٤٨ (١) الحفرة الأنفية . (٢) فروع من العصب الشمي . (٣) العصب الأنفي الحلقى .
(٤) العصب الأنفي . (٥) قبوة القم .
(٦) العظام والحلايا العظمية للحفرة الأنفية .

روضات الجنات

في تفسير قوله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يرج إليه » إلى قوله تعالى « ثم سواء ونفخ فيه من روحه » وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلا ما تشكرون »

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والحكمة ، ولك الشكر على ما أوليتنا من آلائك وحبوتنا من فضلك ، وأذعت الحكمة في ربوع بلاد الإسلام بعد ما جمدت القرائح وماتت الهمم واندرست العلوم وعم الوجوم وصارت علوم الحكمة أشباحا بلا أرواح فهم الجهل وساءت الحال ؛ فهامى ذه أيامها قد أقبلت وبشارها تهرى في بلاد الإسلام . فهي التي بها أدركنا بعض أسرار كتابنا في هذه الأيام على مقدار طاقتنا، وأى حكمة أشرف وعلم أطل من معرفة نفوسنا وجمالها ومناسبتها للعوالم المحيطة بنا تفسيراً لقولك « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » وقولك « ثم سواء ونفخ فيه من روحه » . ذكرت ذلك تنميماً لما ذكرته في السورة السابقة من حكمة لقمان . أنت جعلت تلك السورة باسم لقمان وقويت على آثارها بسورة (السجدة) التي كلامنا فيها ولم تشأ أن ترهق العقول بحملها في سورة واحدة فأخذت تشير لنا هنا أن وضع العوالم الأرضية على طراز وضع السموات ، وهذا من أجل علوم الحكمة التي سنشرحها هنا .

أدب اللغة العربية : أدبيات اللغة

وموازنة هذين الطين بما قاله الحكماء أن الإنسان عالم صغير على مثال العالم الكبير مطابقة لهذه الآيات

لقد جاء في العلوم اللسانية في اللغة العربية علم يسمونه « أدب اللغة العربية » وهذا العلم يقرأ في كتاب الأمامي لأبي علي ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الأغاني للأصبهاني وكتاب العقد الفريد لابن عبدبر ، وكتاب اللؤلؤ السائر لابن الأثير ، وملخص هذا الفن يرجع إلى الأحاديث المستملحة والأشعار وسير الشعراء والخطباء ومجالس الملوك وطريف التاريخ .

أما علم أدبيات اللغة فهو علم مستحدث لم يعرفه أهل الشرق إلا في زماننا هذا نقلوه عن أهل أوروبا من الإنجليز والفرنسيين والألمان وأمثالهم ، وملخصه أن يدرس الشاعر ويعرف تاريخ حياته وأحواله ويثبته وما الذي أثر فيه حتى نطق بهذه الأشعار ، وما أثر حكومته فيه ، وهل كان هناك ضغط عليه أو ذل أم كان في غبطة وعدل ؟ وبهذا يكون درسا أخلاقيا سياسيا إجتماعيا وتكون نتيجته إصلاح المجتمع الإنساني بمعرفة آثار التقديمين عزا أو ذلا ورفعة وانحطاطا حتى كانت نتائج تلك الأحوال أحوالا منظومة . فهذه الآثار بزنون ذلك المجتمع البائد ويحثون في إصلاح المجتمع اللاحق .

هذه هي أدبيات اللغة التي يدرسها الأوروبيون ، وليس في ذلك اهتمام بالحفظ كما يهتم علماء أدب اللغة عند أسلافنا بل المهمة منصرفة في هذا إلى التعمق والتفكير « ولكل وجهة هو موليها » فأدب اللغة العربية يعلم الفصاحة والبلاغة والخطابة والشعر وحفظ الحكم والأمثال ولكن صاحب هذا العالم كلف عليه لن يكون وزيرا خطيرا ولا أميرا عظيما وإنما يصلح أن يكون جليس الأمراء ومسير العظماء كما اتفق للأصمعي في الشرق وأمثاله ولن يصلح أن يكون أميرا يصلح أعماله المحمودة . ولقد أصاب (كافر الإخشيدى) إذا أبي

أن يستعمل التنبي في عمل من أعمال الأمة للصبرية لأن الشاعر غير الحكيم فهذا خيالي وذاك مفكر . ونظام الدولة لا يصلحه الشاعر ، وإنما يقوم به المفكر ولذلك سقطت الأندلس لما تولى وزارتها أمثال (لسان الدين الخطيب) وابن جهور وأمثالهما (انظر هذا في سورة الشعراء عند آية « والشعراء يتبعهم الغاؤون » الفخ) هذا هو الذي أريد أن أجمله تنظيرا لأجل ما في الحكمة وهو معرفة الإنسان نفسه وموازتها بالعوامل العلوية والسفلية . انظر إلى ما ذكرته لك في آخر السورة السابقة من أقسام الحكمة وتفصيل علومها ونعم الله التي أسبغها على عباده ظاهرا وباطنا . تأمله وانظره ، فهذه ملخصات علم الحكمة كما أن النحو والصرف والمعاني والبيان والبدع والخط والتاريخ وما أشبه ذلك كلها علوم اللسان العربي ، فكما كان هناك علوم لما تنطق به من القول هكذا هناك علوم لما خلقنا فيه من الكائنات . وإذا وجدنا لعلوم اللغة أدبا وأدبيات هكذا وجدنا لعلوم الحكمة العامة ما يشبه ذلك وإن لم يسموه أدبا وأدبيات . وهم قد فعلوا به ما فعلوا في آداب اللغة ولكن أدب اللغة الذي هو نمرات علوم اللغة علم يقرأ في المحافل والمجالس في العالم قاطبة ، أما نظيره من نمرات علم الحكمة فليس يعرفه إلا الفوقة الأكابر وأعظم الأمم وهم « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » . قوم قلوبهم مشرقة والعالم كله يسبح لديهم كأنه نسخة صغيرة مختصرة . وما هي النسخة المختصرة ؟ هي أجسامهم التي فيها نفوسهم . فهذه الأجسام التي تنبأها بها المرأة وتزينها بأنواع الأصباغ والحلي والحلل ويتبارى أكثر الرجال في لثامها وشهواتها ومل بطونها كسائر الحيوانات ويقتنون على اقتناء الأموال لأجلها هي هي أنفسها كتاب مكنون يقرأ فيه صاحبه علوم العوالم كلها . علم الله ضعف هذا الإنسان وقد جعل بين العوالم مناسبات ، وأودع في الأشكال ألوانا لا بأسكلها وحرم على السوقه مجالس الملوك ، فمن باب أولى يمنع الجهال وصغار العقلاء من الأُنس به ومشاهدته ، وإذا كان الملوك الذين هم من ضعاف خلقه لن مجالسهم السوقه لعدم المناسبة والمقاربة فكيف برب العوالم كلها ؟ فليس يليق لمشاهدته إلا النفوس التي حازت وصفين معا ، صفاء الأخلاق وإشراف الحكمة ، وأجل الحكمة هذا الكتاب وهو الجسم الإنساني الذي هو صورة مصغرة للعوالم كلها .

واعلم أيها الذي أن هذا القول يسمعه العامة وأكثر المعلمين في ديار الإسلام وأنصاف المعلمين في المدارس الذين درسوا ظواهر العلوم فتنبوا نفوسهم عن سماعه ويحسبونه أقوالا لا طائل تحتها ، ومعلوم أن من جهل شيئا عاداه ، وأقرب الناس إلى فهم ما أقول الآن من قرؤا علوم الحكمة سواء أكانت قديمة أم حديثة ، أما علماء الأدب أو أدبيات اللغة أو علماء الفقه والأصول للمقتضون عليها فهؤلاء في معزل عن فهم هذه العقول ولكن أرجو أن أوفق إلى أن يكون ما أكتبه الآن قريبا من فهم سائر طوائف الأذكياء في العالم الإنساني لا سيما المسلمين .

جاء في « إخوان الصفاء » وهو الكتاب المؤلف في القرن الرابع الهجري (٥١) رسالة في فنون الفلسفة وذلك أيام ازدهار العلوم وصوله الدولة العباسية وارتقاء الأمم العربية ، ولقد اخترت في هذا التفسير من كل شيء أحسنه قديما وحديثا ، فهامى ذه الرسالة التي عنوانها « قول الحكماء الإنسان عالم صغير » فهذه الرسالة وأمثالها قد جعلت كأنها أدبيات الحكمة ، فسترى أن القول فيها لا يقتصر على الملك ولا علم للمدن ولا النبات ولا الحيوان كما أن علم أدب اللغة لا يقتصر على الشعر ولا على النثر ولا على الخطب ولا على الخط ولا على التاريخ بل تجرد هذه العلوم كلها قد استعان بها الأديب فيه ، هكذا هنا في هذه الرسالة التي سألخصها لك الآن بأسلوب هذا الكتاب ليأنس بها الأذكياء . ويفرح بها العقلاء .

واعلم أنار الله قلبك بالحكمة أن الناس منهم الصبيان والعقلاء والعلماء والحكماء . ولكل طائفة من

هذه الطوائف آراء تخالف الطائفة الأخرى . فالصبيان عقلاء بالقوة فإذا بانفوا صاروا عقلاء بالفعل والعقلاء بالفعل علماء بالقوة ومتى تعلموا صاروا علماء بالفعل والعلماء بالفعل حكماء بالقوة وفلاسفة فإذا قرءوا الحكمة صاروا حكماء بالفعل والحكماء هم مصايح الأمم يبرونها بعد عروج أنبيائهم لربهم وتشرق أنوارهم على أهل الكرة الأرضية ، وأرجو أن تكون أيها الذكي منهم حتى تلحق بالنبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وأمثال هذه الرسالة وما تقدمها من فنون الحكمة والعلوم في هذا الكتاب تنقل العلماء إلى درجة الحكماء والتفاوت بينهم يكون بالتوفيق والإلهام والإشراق الإلهي والاستعداد النفسى وصدق العزيمة والتقوى ومحاسن الأخلاق .

لقد نظر الحكماء في هذا الجسد وفكروا في تركيبه وحسن هندامه وجندرته ونظامه وأخذوا يخاطبون الناس بما شعروا به ، فأولوا أخذوا يضربون له الأمثال ليفهم أكثر الناس . وثانيا غاصوا على جواهر الحكمة وعلومها ونظموها في قلادة وجمالها حلية لميكال الانسان ، فالأول تعريف للتوسطين ، والثاني تعليم لمن هم أرقى عقولا وأذكي أفهاما ، فهاتنا (فصلان) فصل الأمثال الضرورية للنفس مع الجسد ، وفصل قياس الجسد على نظام العوالم العلوية والسفلية وهى العلوم التى تقدم تفصيلها فى السورة للتقدمة .

(الفصل الأول فى الأمثال للضرورة للنفس مع الجسد وهى (١٢) مثلا)

(المثل الأول) قالوا لما كان الانسان جملة مجموعة من جسد ظلماني ونفس روحانية صار إذا اعتبر حال جسده ومافيه من غرائب تركيب أعضائه وفنون تأليف مفاصله يشبه كأنه دار لساكنها .

(المثل الثانى) إذا اعتبر حال نفسه وعجائب تصرفاتها فى بناء هيكل جسده وسريان قواه فى مفاصل بدنه يشبه كأنها ساكن فى منزله مع خدمه وأهله وولده .

(المثل الثالث) إذا اعتبر الإنسان ، وجد بنية جسده مع اختلاف أشكال أعضائه وافتتان تأليف مفاصله يشبه دكانا لصانع .

(المثل الرابع) هكذا إذا اعتبر نفسه من أجل سريان قواها فى بنية هيكل جسده وعجائب أفعالها من اعضاء بدنه وفنون حركاتها فى مفاصل جسده يشبه كأنها صانع فى الدكان مع تلامذته وغلانته .

(المثل الخامس) إذا اعتبر بنية جسده مع كثرة تأليفات طبقات بناء هيكله ، وغرائب تركيب مفاصل بدنه وكثرة اختلاف أعضائه وتشعب فروع عروقها وامتدادها إلى أطراف أعضائه ، وتباين أوعيته التى فى عمق جسده ، وتصرف قوى النفس يشبه كأنه مدينة مملوءة أسواقها من الصنائع .

(المثل السادس) إذا اعتبر من أجل تحكم النفس على أحوال الجسد وحسن سياستها وسريان قواها وتصرفاتها فى بنية هذا الجسد يشبه كأنها ملك فى تلك المدينة بمنوده وخدمه وحاشيته .

(المثل السابع) إذا اعتبر حال الجسد وتكوينه وحال النفس ونشوتها مع الجسد يشبه الجسد الرحم والنفس كالجنين .

(المثل الثامن) إذا اعتبر الجسد من وجه آخر وجد أنه كالسفينة والنفس كالملاح والأبحال كالأمتة للتجار والدنيا كالبهار والموت كالساحل والآخرة كمدينة التجار واقه تعالى الملك المجازى هناك .

(المثل التاسع) إن الجسد كالدابة والنفس كالراكب والدنيا كالمدان والعاملون كالسابق .

(المثل العاشر) إن النفس كالخارث والجسد كالمرزعة والأعمال كالحب والتمر والموت كالحصاد والدار الآخرة كالبيدر .

(المثل الحادى عشر) إن النفس كالصبي والجسد كالكتب فيدرس فيه عجائب الأعضاء وتشرحها وغرائب صنعها وبدائع أشكالها .
 (المثل الثانى عشر) إننا إذا اعتبرنا تركيب الجسد وسريان قوى النفس وتصرف أحوال الإنسان فيه وجدنا أنه دقت مملوء من العلوم ويقال إنه مختصر من اللوح المحفوظ . انتهى الفصل الأول في الأمثال الضرورية للنفس مع الجسد .

﴿ الفصل الثانى : فى قياس الجسد على نظام العوالم ﴾

لقد ضربت الحكماء لذلك أمثالا كثيرة ، وزيد أن تذكر من ذلك طرفا مرموزا مختصرا حسب ما يليق بنا .

﴿ الإنسان مختصر اللوح المحفوظ ﴾

(حكى) أنه كان ملك من الملوك حكيم من الحكماء سيد من السادات، وكان له أولاد صغار محبوبون له مكرمون عليه فأراد أن يؤدبهم ويهذبهم ويروضهم ليقومهم قبل إصاله إلى مجلسه لأنه لا يليق بمجالس الملوك إلا المهذبون بالآداب والرتاضون فى العلوم ، المتخلقون بالأخلاق الجميلة ، المبرهون من العيوب فرأى من رأى الراسى الراسين أن يبنى لهم قصرا على أحكم ما يكون من البنيان فأفرد لكل واحد منهم مجلسا، وكتب كل علم أراد أن يعلمهم إياه فى جوانب ذلك المجلس ، وصور فيه كل شىء أراد أن يهذبهم به تم أجلسهم فى ذلك القصر وأفرد كل واحد منهم فى حصته للعدة له ووكّل بهم الحشم والجوار والقلبان وقال لأولئك الأولاد : انظروا إلى ما صورت فيه لكم بين أيديكم وافردوا ما كتبت فيه من أجلكم وتأملوا ما بينت لكم وتفكروا فيه لتعرفوا معانيه وتصيروا من ذلك حكماء أختيارا فضلا أبارا فأوصلكم إلى مجلسى فتكونوا من ندمائى مكرمين سعداء متعنين أبا ما بقيت وبقيت معى ، وكان مما كتب لهم فى ذلك المجلس من العلوم أن صور فى أعلى قبة المجلس صورة الأفلاك وبين كيفية دورانها وأبراج طلوعاتها وكذلك الكواكب وحركاتها وأوضح دلالتها وأحكامها وصور فى صحن المجلس صورة الأرض وأقسام الأقاليم وخطط الجبال والبحار والبرارى والأنهار ، وبين حدود البلدان والمدن والساكن والمالك وكتب فى صدر المجلس علم الطب والطبائع وصور النبات والحيوانات والمعادن بأنواعها وأجناسها وأشخاصها وبين خاصيتها ومنافعها ومضارها وكتب فى الجانب الآخر علم الصنائع والحرف وبين كيفية الحرث والنسل وصور المدن والأسواق وبين أحكام البيع والشراء والريح والتجارات وكتب فى الجانب الآخر علم الدين واللذات والشرائع والسنة وبين الحلال والحرام والحدود والأحكام وكتب فى الجانب الآخر السياسة وتدير الملكة ، وبين كيفية جباية الخراج والكتاب والتداوين ، وبين أرزاق الجنود وحفظ الرعية والنفوس بالجيوش والأعوان ، فهذه (ستة أجناس) من العلوم يراض بها أولاد الملوك وهذا مثل ضربه الحكماء ، وذلك أن الملك الحكيم هو الله تعالى والأولاد الصغار هى الانسانية والقصر الذى هو القللك بأسره والمجالس التفتة هو صورة الإنسان والآداب المصورة هى عجيب تركيب جسده والعلوم المكتوبة فيه قوى النفس ومعارفها . ونحن نبين هذا فضلا فضلا فيما بعد بأوجز الوجوه .

وهاهنا شرع بين الأنواع الستة من العلوم وسأشرحه لك شرحا مختصرا تبتهج به نفسك وينشرح صدرك ولكنه بدأ أولا بمقدمة ذكر فيها فضيلة جوهر النفس فأبان أن منزلها عند الله كبيرة لأن نسبة الأجسام إليه جيدة ونسبة النفس إليه قريبة لأنها حية بذاتها وعلامة وفضالة والمادة بخلاف ذلك

ولما كان الله عز وجل لا يشبه له ولا نظير ولا مثيل ، ضرب لنا الأمثال فقال « مثل نوره كشكاة » فلنفس على هذا المنوال ونضرب المثل لله بالشمس والضوء بالعقل والنفس بضوء القمر ، ومعنى هذا أن الله

الذي لا مثيل له ولا شبيه كالشمس والعقل العام كضوئها والعقل الصام خلقت منه النفوس الجزئية الأرضية وكما أن ضوء القمر من نور الشمس هكذا النفس قبض من العقل ، وكما كانت نفوسنا أعلم وأحكم وأعدل كانت أقرب إلى تلك العقول التي هي قريبة من ربها وبضدها تتميز الأشياء ، كما أن القمر إذا امتلأ من نور الشمس نظكى ضوءه وضوؤها وصارت هناك مناسبة . ولن تنال النفس الإنسانية تلك المرتبة وتحظى بتلك الزية فتتم فضائلها وتحاكي العقول العالية المجردة القريبة من الله للشبهات ضوء الشمس بالنسبة للشمس إلا إذا عرفت ذاتها وحقيقة جوهرها . ولن يتم للنفس الإنسانية حقيقة جوهرها إلا إذا عرفت أحوال عالمها وأحوال عالمها كلها مصورة في الصورة الإنسانية لأن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم وجعل صورته مرآة لنفسه ليرى فيها صورة العالم الكبير . قال وذلك أن البارئ جل جلاله لما أراد أن يطلع النفس الإنسانية على خزائن علومه ويشهد بها العالم بأسره علم أن العالم واسع كبير وليس في طاقة الإنسان أن يدور في العالم حتى يشاهده كله لتقصير عمره وطول عمران العالم فرأى من الحكمة أن يخلق لها عالما صغيرا مختصرا من العالم الكبير وصور في العالم الصغير جميع ما في العالم الكبير وأشهد بها إياه فقال عز وجل « وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ » قالوا بجمعهم (بلى) فمن كان منهم شاهدا عالما عارفا بحقيقته كانت شهادته عليه حقا ومن كان جاهلا كانت شهادته مردودة لأنه قال عز وجل « إلامن شهد بالحق وهم يعلمون » ألا ترى أنه لا يقبل لإشهاد أهل العلم ثم اعلم أن افتتاح جميع العلوم في معرفة الإنسان نفسه ومعرفة الإنسان تكون من (ثلاثة أوجه : الأول) أن يعتبر أحوال جسده وتركيب بنيته وما يتعلق عليه من الصفات خلوا من النفس (والثاني اعتبار أحوال نفسه وما يوصف من الصفات خلوا من الجسد (والثالث) اعتبار أحوالهما مقترنين جميعا وما يتعلق على الجملة من الصفات . انتهت المقدمة .

وهاهنا أن أن أشرح لك أيها القدي اعتبار أحوال الإنسان بأحوال الفلك فأقول ناخبا منجى علم الفلك الحديث سبحانه اللهم وعمدك وتعالى جدك ولا إله غيرك ، جسمي يا إلهي على نعط المجموعة الشمسية وهل هذا الجسم الذي أشق في تحصيل ما يحتاجه هو صاحب هذا السكال ؟ إذن كل ما ابتلينا به من هموم الحياة والشقاوة والإستكثار من اللذات والمال والجاه والمداوات والحروب ما هي إلا هجج حجبنا وسدود جعلنا أنت سبحانه بيننا وبين معرفة هذا الجسم الممتلئ جمالا وحكمة . أنت يا الله الذي رحمتنا بجملنا بجمال هذا الجسم لأن هذا الجمال وهذا الإبداع الذي سأذكره فيه يجعلنا نعتقد أننا أعظماء وكبراء وإذن لانسى لسكال أنفسنا ولو أن كل امرئ في الأرض عرف ما سأذكره الآن في جسمه لأصبح مشغولا بجماله معجبا بهاته لا يطلب له كالا . فهناك محتاج إلى من يذكره بأنك جئت لهذه الأرض لتكون أكل من هذه الحال . فإياك أن تنثر بأنك قد أعد لك منزل لا ينزله إلا من هم مثل اللاتسكة السكرام لأن هذه المنزلة العالية صغيرة بالنسبة لعوالم أعلى منا فبدل أن يقال له هذا حكم عليه أن يسعى في تحصيل الرزق ومدافعة الأعداء هنالك ينسى هذا الجمال في جسمه ويحصل أخلاقا وأعمالا ترقى نفسه فوق منزلها حين سكنت هذا الجسم . وأما جمال هذا الجسم المحكم فذلك لأن روحه قبسة من نور الله . والنسوب لله رب العالم لا يسكن إلا مكانا يناسب ذلك المقام وإذا كان وزراء الملوك لا ينزلون إلا القصور للنسبة لهم فليكن للنسوب لإقامة الأنوار الإلهية أولى بأن تكون مرتبته أشرف المراتب في سكناه هذا هو السبب في أحكام وبدائع الهيكل الجسمي بدون عمل من الناس بل هبة من رب العالمين . ولذلك نجد أكثر أهل الأرض يجهلون غرائب الجسم التي سأذكرها هنا ومن عرفها فهم كفاء التشریح تكون معرفته أشبه بمعرفة الإنسان علم النحو أو الصرف . وكما أن معرفة النحو والصرف

لاتفيد جمال أدب اللغة وبهاؤها هكذا معرفة تشريح الجسم لا يفيد نظامه للقياس على نظام الفلك وعوالمه .
والذي يحظى بهذا في العالم كله قليل جدا وهذا القليل وهم حكماء الأمم لا يحطون هذه النعمة إلا بعد أن أصبحت
العبادة والتفكير ديدنا لهم وصفة لازمة فلا يخاف عليهم من ترك الأعمال بناء على ما عرفوا في أنفسهم من
الجمال بل يعملون في خدمة الإنسانية وترقية العقول كما تفعل الأم مع ذريتها لا تطلب جزاء ولا شكورا .
فهذه الطائفة التي ارتقت عن هذا الإنسان وهم خواص الحكماء في أرضنا هذه وقد أدركوا جمال أجسادهم
وأن نظامها كنظام العالم كله يصبحون كالمتطورين على العلم والعمل فلا يفرحون بأفقه التروير ولا يكون للشيطان
عليهم سلطان .

(طبقات جسم الإنسان وطبقات المجموعة الشمسية)

إذا عرفت هذا أيها التلميذ فهناك نظام جسم الإنسان وقياسه على نظام المجموعة الشمسية اللهم إنك أنت
جعلت الشمس مركزا وأدرت حولها كواكب في تسع مدارات وهي عطارد والزهرة والأرض والمريخ والشتري
وزحل . وهناك كوكب بين كوكبين من الكواكب المتقدمة في مدار خاص قد حطمت أجزاءه وتلك القطع
الطائرات منه لا تزال إلى الآن تدور في مداره وقد تقدم شرحه شرحا مسهيا في هذا التفسير ثم أورانوس وبتون
فهذه الكواكب التسع تجري حول الشمس في مدارات وتلك المدارات يحيط بها طبقات الأثير وتلك الطبقات
طبعا تسع طبقات عينتها تلك المدارات . فأنت ياربنا لما جعلت المجموعة الشمسية على هذا النوال جعلت
جسمي على مقتضاها حدو القنة بالقنة .

ألا ترى أيها التلميذ أن جسمي وجسمك مركبان من نفس هذه الطبقات التسع وهي العظام واللح والحم
والعروق والدم والصب والجلد والشعر والظفر . فمثل اللحم في جوف العظام مخزونا لوقت الحاجة ولحم
الصب على الفاصل كما يمكنها فلا ينفصل ، وحتى خلل ذلك باللحم صيانة لها ومد في خلل اللحم العروق
والأوردة الضاربة لحفظها وصلاحتها وكسا الكلى بالجلد سترا لها وجمالا لها وأثبت الشعر والظفر من فضل
تلك المادة اللارها فصار مماثلا لتركيب الأفلاك بالكمية والكيفية جميعا لأنها تسع طبقات وهذه تسع جواهر
وتلك بعضها في جوف بعض وهذه مثال ذلك .

هذه أيها التلميذ طبقات جسمي وجسمك ، فإذا كانت الشمس أحيطت بهذه الطبقات فما هي ذه نفسي
أحيطت بهذه الطبقات المماثلة لها من حيث هذا الاعتبار .

(بروج السماء ونظيرها في جسم الإنسان)

ثم انظر معي إلى جسمي وجسمك باعتبار بروج السماء بعد اعتبار طبقاتها فإننا نجد الله يقول « ولقد جعلنا
في السماء بروجاً وزيناها للنظرين » ونجد الأمم كلها اعتبرت الفلك مقاما (١٢) قسما كل قسم يسمى برجاً
تنزله الشمس في (٣٠) يوما . ولما نظر الحكماء في جسم الإنسان وجدوا فيه العينين والأذنين والنخرين
والثديين والفم والسرة والسيلين فهذه (١٢) تقبة ثم نظروا فوجدوا البروج ستة منها شمالية وستة منها
جنوبية فهكذا وجدوا تلك التقب في الجسم ستة منها في الجانب الأيمن وستة في الجانب الأيسر تماثلها في
الكيفية والكمية جميعا والفم به الغذاء للناس في الحياة الدنيا والسرة كان بها غذاء الطفل في الرحم
هذا ما يقولونه ، ولكن الفم والسرة والسيلان لباسا للجانبين ولعل الكلام باعتبار الأكثر وقد
ترك ذلك لحكم اقتضاها النظام ولا يمزج عنك أيها التلميذ أن هذا أشبه بالأدييات في اللغات لا يبنى التعمق
فيه وإنما هو أشبه بضرب الأمثال وكفى فيه للقاربة .

(الكواكب السبعة وآثارها الجسمية والروحية وموازنتها بهوى الإنسان الجسمية وقواه الروحية)

إن في الفلك سبع كواكب سيارة وهذه الكواكب أخرجت منها الأرض ، لأن هذا المقام يراد به ذكر
العوالم التي تفيض بأنوارها على أهل الأرض التي تعيش عليها وليس منها أيضا الشمس لأنها ليست من
السيارات ولأنها هنا أشبه بالنفس صاحبة هذه الملكة فالسيارات فوق الأرض وتحتها حول الشمس (٧)
وهي التقدمة بإخراج الأرض منها وإخراج ذلك الكواكب التي خرب من آلاف آلاف السنين فهكذا في
الجسد (سبع قوى) لآحداث آثار جسمية وسبع أخرى لآحداث الهداية كما أن الكواكب محدثات آثارا في
الاجسام بأضوائها وآثار في النفوس لهدايتها ففي مقابلة آثار أضواء الكواكب الجسمية لإصلاح العوالم
الأرضية خلقت للانسان القوى السبعة الجسمية وهي الجاذبة التي تجذب الطعام كما يحس به الآكل عند إزدراد
الطعام والماسكة التي تمسك الطعام في المعدة إلى حين وهناك تتولاه الهاضمة لهضم الطعام فإذا فرغت من
عملها تولته القوة الدافعة فتدفعه من المعدة إلى الأمعاء وهناك يكون خالص الطعام بعد دفع فضلاته معدا
لتغذية الجسم فيسير مع الدورة الدموية للتغذية . وهذه هي القوة الغازية . ومتى تغذى الجسم بخلصة الطعام
فلا بد من نموه . وهذه هي القوة النامية بها يمتد طولها وعرضا وعمقا بنظام بدعي . ولما كانت الأجسام تنفي
أعدت شيئا مادة من خالص الدم وهو الذي لتكون منياصورة حتى آخر ليقى النوع .

فهذه هي القوة المصورة ، فهذه هي القوى السبع الجسمية في مقابلة قوى الكواكب من حيث أفعالها
في الأجسام . فأما السبع التي في مقابلة الهداية بأضواء الكواكب فهي (الباصرة والسامعة والذائقة والشامة
واللامسة ثم القوة العاقلة والقوة الناطقة) ولكل حاسة من الحواس الخمس مجريان عن يمين وشمال في البدن
فالباصرة في العينين والسامعة في الأذنين والشامة في المنخرين واللامسة في اليدين والذائقة الشهوية مجراها
في الفم والفرج ، والقوى الكبير بخلاف شهوة الفرج . ولعل أمثال هذا الجواب يناسب ما تقدم في
إليها الضعيف والقوى والصغير والكبير بخلاف شهوة الفرج . ولعل أمثال هذا الجواب يناسب ما تقدم في
البروج من حيث مقابلتها بقب البدن ، وها هنا ذكر لكل حاسة من الحواس الخمس الملكة التي تعمل فيها
تحت أمر النفس ، فالقوة الباصرة تولت إيصال أخبار الحيوانات وغيرها الحيوانية كالطبل والرعد
والحجر والحيوانية منطقية وغير منطقية كسهيل الخيل والمنطقية دالة وغير دالة . والقوة الباصرة تأتي بأخبار
(عشر ممالك) وهي (الأنوار والظلمات والألوان والأشكال والسطوح والأحجام والقرب والبعد والحركات
والسكنات) .

فهذه للمالك تولت أخبارها القوة الباصرة ، فهذه القوة أشبه باليدبان الواقف على باب قصر الملك
أو صاحب البريد إلى الملك يأتي بالأخبار إليه كما أن القوة السامعة تولت إيصال أخبار الأصوات ، ومن عجب
أن كلا منهما لا تشارك الأخرى في عملها ، فالباصرة تجهل الأصوات والسامعة لا علم عندها بالألوان والأنوار
ولكن القوة للتخيلة في مقدم الدماغ هي التي تتقبل أخبار هذه الممالك العشر ، كما تقبلت من القوى السامعة
عالم الأصوات وهي التي توصلها إلى صاحب العرش وهي النفس ، ومثل هذا يقال في القوة الشامة والذائقة
واللامسة ، فلشامة الروائح الطيبة والنتنة وما تحتمها مما لا حصر له ولا أسماء للشمومات على كثرتها إلا بنسبتها
إلى حاملها كرائحة المسك والورد وهكذا ، فهذه الممالك لا حصر لأفرادها كما لا حصر لأفراد الألوان في العالم
والأشكال والسطوح وألفاظ اللغات وأصوات الأحجار والأشجار وهكذا ، ولذائقة ومجراها اللسان الحلاوة
والمرارة وأولهما ملائمة للطبع . وثانيتها منافرة أشد للمنافرة ، وهناك وسائل وهي (٧) الخوصة والملوحة
والدسومة والعفوصة والحرافة والقبوضة والعذوبة . والقوة اللامسة ومجراها اليدان لها عشرة أنواع (الحرارة

والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والحشونة والصلابة والرخاوة والتخل والحفة . ولكل واحد من هذه أنواع وتحت الأنواع أصناف وهكذا مما لا يحصى .

أفلا يعجب الإنسان من أمر نفسه الجالسة على عرش مملكته ، وقد فوضت أمرها إلى خمسة أمراء لكل أمير ممالك ونواح كثيرة وليس يعرف أمير ما عند غيره من الأمراء .

(الكلام على القوى الخمس الباطنة)

إن للنفس الإنسانية خمس قوى آخر نسبتين إلى النفس غير نسبة هذه الخمسة التي تقدم ذكرها وسريانهن في أعضاء الجسد بخلاف سريان أولئك ، أفصلهن لاتبه أفعالها . وذلك أن هذه الخمس هن كالشركاء للتعاونات في تناولهن صور المعلومات بضمين من بعض ، وثلاثة منها نسبتها إلى النفس كنسبة الندماء من الملك الحاضرين مجلسه دائماً للطلعين على أسرارهم اللعينين له في خاصة أفعاله ، وهي القوة للتخيلة التي مجراها مقدم الدماغ والثانية القوة للفكرة التي مجراها وسط الدماغ والثالثة القوة المحافظة التي مجراها مؤخر الدماغ وواحدة منها نسبتها إلى النفس كنسبة الحاجب والترجمان عن الملك ، وهي القوة الناطقة المهيرة عن معاني ما في فكرها من العلوم والحاجات ومجراها في الحلقوم إلى اللسان . وواحدة منها نسبتها إلى النفس كنسبة الوزير إلى الملك المعين له في تدبير مملكته وسياسة رعيته ، وهي القوة التي بها تظهر النفس الكتابة والصنائع أجمع ومجراها في اليدين والأصابع . فهذه القوى الخمس هي كالتعاونات فيما يتناولن من صور المعلومات (بيان ذلك) أن القوة للتخيلة إذا تناولت رسوم المحسوسات من القوى الحاسة إذ أدركت وأدت إليها فإنها تجمعها كلها وتؤديها إلى القوة المفكرة التي مجراها وسط الدماغ حتى تميز بعضها من بعض وتعرف الحق من الباطل والصواب من الخطأ والضار من النافع ثم تؤديها إلى القوة المحافظة التي مجراها مؤخر الدماغ لتحفظها إلى وقت الحاجة والتذكار ، ثم إن القوة الناطقة تتناول تلك الرسوم المحفوظة وتعبّر عنها عند البيان للقوة السامة من الحاضرين في الوقت . ولما كانت الأصوات لا تمكث في الهواء إلا ربنا تأخذ الأسماع حفظها ثم تضمحل اقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية واحتالت الطبيعة بأن قيدت تلك الألفاظ بصناعة الكتابة . وذلك أن القوة الصناعية إذا أرادت تقييدها صاغت لها صوراً من الخطوط بالقلم وأودعتها وجوه الألواح وبطون الطوامير ليقب العلم مفيداً فائدة من الماضيين للتأخرين ، وآثراً من الأولين للآخرين ، وخطاباً من الغائبين للحاضرين ، وهذا من جسم نعم الله تعالى على الإنسان ، كما ذكر في كتابه فقال : « اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » وبهذا تم الكلام على الحواس الخمس الظاهرة ونظائرها الباطنة .

فأما القوة الناطقة لمجراها الحلقوم إلى اللسان ، والقوة العاقلة مجراها وسط الدماغ ، ونسبة القوة الناطقة إلى القوة العاقلة كنسبة القمر إلى الشمس ، وذلك أن القمر يأخذ نوره من الشمس في جريانه في منازل القمر الثمانية والعشرين والقوة الناطقة من العقل تأخذ معاني ألفاظه بجريانه في الحلقوم فيعبر منها بثانية وعشرين ونسبة (٧٨) حرفاً للقوة الناطقة كنسبة (٢٨) منزلة للقمر . انتهى الكلام على موازنة أطباق الأفلاك والبروج والنازل والكواكب لنظائرهما في جسم الإنسان وهو المقصد الأول من المقاصد الست .

(المقصد الثاني)

(الموازنة بين تركيب جسد الانسان ، وطبقات الموائم السفلية وهي الأرض والماء والهواء

وفوق الجميع للشرقات النيرات)

فكما أن الكواكب والشموس والأقمار أعلى هكذا الرأس في أجسادنا أعلى موازية للشرقات النيرات لما فيها من الحواس والعقل ، والصدر يوازي الهواء الذي هو أسفل تلك للشرقات . وما النفس إلا جزء

من الهواء متصل به كما أن العين متصلة بشعاع الكواكب في الرأس ، والبطن لما فيه من الرطوبات يوازي الماء وهو تحت الهواء ، وما تحت البطن إلى القدم يوازي الأرض لأنه عليها استقر الثلاثة للثمة كما استقر الثلاثة الأخرى على الأرض . وكما أن من هذه الطبقات الأربع تتحلل البخارات وتتكون الرياح والسحاب والأمطار والحيوانات والنبات والمعادن ، كذلك بهذه الطبقات الأربع تحلل البخارات في بدن الانسان ، مثل ما يخرج المخاط من المنخرين والدموع من العينين والبصاق من الفم ، والرياح التي تتولد في الجوف والرطوبات التي تخرج مثل البول والغائط وغيرها . فبنية جسده كالأرض وعظامه كالجبال والنع فيه كالمعادن وجوفه كالبحر وأماؤه كالأنهار وعروقها كالجداول ولحمه كالتراب وشعره كالنبات ومنبته كالتربة الطيبة وحيث لا ينبت الشعر كالأرض السبخة ووجهه إلى القدم كالعمران وظهره كالخراب وقدم وجهه كالشرق وخلف ظهره كالغرب ويمينه كالجنوب ، ويساره كالشمال وتنفسه كالرياح وكلامه كالرعد وأصواته كالصواعق ، وضحكه كضوء النهار وبكاؤه كالطرر وبؤسه وحزنه كظلمة الليل ونومه كاللوت ويقظته كالحياة وأيام صباه كأيام الربيع وأيام شبابه كأيام الصيف وأيام كهولته كأيام الخريف وأيام شيخوخته كأيام الشتاء وحركانه وأفعاله كحركات الكواكب ودوراتها وولادته وحضوره كالطوالع وموته وغيبوبته كالغوارب . انتهى المقصد الثاني .

﴿ المقصد الثالث ﴾

في أن العناصر التي على هذه الأرض من خواصها الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، وهذه الصفات يشاركها فيها الإنسان .

﴿ المقصد الرابع ﴾

في أن المعادن يحصل لها كون وإفساد ، هكذا الإنسان .

﴿ المقصد الخامس ﴾

إن النبات يتغذى وينمو ويولد ويموت والإنسان شاركه فيها .

﴿ المقصد السادس ﴾

في أن الحيوان يحس ويتحرك والإنسان شاركه فيهما ، وزاد على ذلك بالعقل والنطق .

﴿ زيادة شرح لبعض ما تقدم ﴾

ذلك أن الحيوانات لها أنواع كثيرة ، ولكل نوع منها خاصية دون غيره . والإنسان يشاركها كلها في خواصها ، ولكن لها خاصيتان تعدها كلها وهي طلبها للنافع وفرارها من الضار ، ولكن منها ما يطلب النافع بالقهر والغلبة كالسباع ، ومنها ما يطلب النافع بالبصيرة كالكلب والسنور ، ومنها ما يطلب بالحيلة كالعنكبوت وكل ذلك يوجد في الانسان ، وذلك أن اللوك والسلاطين يطلبون النافع بالغلبة والسكديون بالسؤال والتواضع والصناع والتجار بالحيلة والرفق . وكلها تهرب من الضار والعدو ولكن بعضها يدفع العدو عن أنفسها بالقتال والقهر والغلبة كالسباع ، وبعضها بالفرار كالآرانب والظباء والطير ، وبعضها يدفع بالسلاح والجواشن كالقنفذ والسلحفاة . وبعضها يتحصن في الأرض كالفأر والهوام والحيات ، وهذه كلها توجد في الإنسان . وذلك أنه يدفع عن نفسه العدو بالقهر والغلبة ، فإن خاف على نفسه لبس السلاح وإن لم يطقه فرمته فإن لم يقدر على الفرار تحصن بالحصون ، وربما يدفع الإنسان عدوه بالحيلة كما احتال الغراب على البوم في كتاب (كلية ودمنة) انتهى الكلام على مشاركة الإنسان للحيوانات كلها في الطلب والهرب .

فأما مشاركته لها جميعها فيما تختص به ومشاركته لسائر الكائنات في خواصها فاعلم أن لكل نوع من الحيوانات خاصية مطبوع عليها وكلها توجد في الإنسان . وذلك أنه يوجد شجاعا كالأسد وجبانا كالأرنب

وسخيا كالديك وبخيليا كالسكب وعقيفا كالسمك وغورا كالغراب ، وحشيا كالنمر إنسيا كالحمم محتالا كالتملب
سلبيا كالقنم سريعا كالغزال بطيئا كالذب عززا كالقيل ذليلا كاللجل لصا كالعقق تائها كالطاوس هاديا كالقطاة
ضالا كالنعامة ماهرا كالنحل شديد كالنتين مهينا كالعنكبوت حلما كالجلج حقودا كالخمار كدودا كالثور شموسا
كالبلبل أخرس كالخوت منطقيا كالهمزارداستان والبيغاء مستحلا كالذب مباركا كالطيطوي مضرا كالقار جهولا
كالخزير مشوما كالبوم ثقاعا كالنحل .

وبالجملة ما من حيوان ولا معدن ولا نبات ولا ركن ولا فلک ولا كوكب ولا برج ولا موجود من الوجودات
له خاصية إلا وهي توجد في الإنسان أو مثالاتها كما يتناقل من كل شيء طرفا ، وهذه الأشياء التي ذكرنا في
أمر الإنسان لا توجد في شيء من أنواع الوجودات التي في هذا العالم إلا في الإنسان ، فمن أجل ذلك قال
الحكماء (إن الإنسان وحده بعد كل كثره كما أن الباري جل ثناؤه وحده قبل كل كثره) ومن أجل ما
عددنا من عجائب تركيب جسد الإنسان وغرائب تصاريف نفسه ، وما يظهر من جملة بنيته من الصنائع والعلوم
والأخلاق والآراء والطرائق والمذاهب والأعمال والأفعال والأقوال والتأثيرات الجسمانية والروحانية صموه
(عالم صغيرا) .

ولم يقتصر القدماء على موازنة جسم الإنسان بالأفلاك والكواكب والبروج والعناصر والمعادن والنبات
والحيوان بل تمدوا في ذلك حتى قالوا إنه لا يموت كما أن الملك لا يموت فهو كما يشبه الهيمة والنخلة هكذا يشبه
الملك لأنه ملك بالقوة إذا كان حكما فإذا مات صار ملكا بالفعل ، وهكذا استمر القوم في درس أعضاء الجسد
الإنساني والعوالم العلوية وغيرها حتى إنهم غاصوا في باطن الهيكل الإنساني على (القلب والطحال والكبد
والمرارة والمعدة والدماغ والرئة) ووازنوا هذه السبعة بالشمس وزحل والمشتري والريخ والزهرة وعطارد
والقمر . فسلك واحد من تلك الأعضاء عندهم فيه خواص نظيره من الكواكب ، فالقلب يجري الدم منه
إلى أطراف الجسد في الأوراد والشرايين فهو كالشمس الشرق نورها على جميع المجموعة الشمسية والطحال
فيه الخلط السوداء على حسب اعتقاد المتقدمين وهو بارد يابس فيجري مع الدم فيه يكون سمود رطوبة الدم
وتماسك أجزائه ، كما أن زحل فيه روحانية تنبت في العوالم تورث حفظ الأجسام وتماسكها ، وجرم الكبد
مناسب لجرم المشتري من حيث أن المشتري له روحانية يكون من آثارها النظام والترتيب والاعتدال .
وجرم المرارة كجرم المريخ الذي يشعاع روحانيته يظهر المهيم العالية والعزمات وبلوغ النهايات هكذا الصفرة
يخرج منها الخلط الصفراوى ويجري مع الدم فيلطف الأخلط لتصل إلى غاياتها ومنتهى نهاياتها . وهكذا
المعدة كالزهرة . فالمعدة فيها القوة الشهوية المطالبة دائما بالغذاء الذي هو مادة الجسد وبه تكون الحياة ولذة
العيش وقوام البدن والزهرة لها روحانية تنبت منها إلى عوالم كثيرة وبها زينة الوجودات ومحاسن الكائنات
وبها الفرح واللذة والسرة في العوالم الروحانية والجسمانية والدماغ فيه الشعور والحس والفكر والروية
والفهم ومثله عطارد فشعاعه الروحاني ينبعث منه الحس والشعور في جميع العالم الإنسي والجنى واللائكة
وهكذا الرئة كالقمر وذلك أنه ينبعث من جرمه مع شعاعه قوى روحانيته وتسرى في عالم الأركان تارة وفي
عالم الأفلاك تارة أخرى كما هو بين ظاهر ، وذلك أن جرم القمر نصفه أبدا ممتلئ نورا ونصفه الآخر مظلم
وهو تارة يقبل بوجهه المعتلى من النور نحو عالم الأركان من أول الشهر وتارة نحو عالم الأفلاك من آخر
الشهر . ويعرف حقيقة ما قلناه وصحة ما بيناه الباحثون في علم المحسطنى والهيئة . فهكذا ينبت من جرم الرئة
قوة تجذب الهواء تارة من خارج الجسد وترسله إلى القلب ومن القلب تنفذه في العروق الضواري إلى سائر
أطراف الجسد ، وهو الذي يسمى النبض وبها يكون حياة الجسد وتارة ترد من ذلك الهواء من داخل وبها

يكون التنفس والأصوات والكلام أجمع ، فاتق به أيها الذي من نوم الغفلة ورفدة الجهلة وفقك الله وجميع
السليين للسداد وهداك إلى سبيل الرشاد إنه رءوف بالعباد . اهـ .

هذا ما أردته من [إخوان الصفاء] مع الحذف والزيادة والشرح والإيضاح والتقديم والتأخير والإيجاز
تارة والإطناب أخرى ليشاكل ما ذكر فيه أبحاث هذا الكتاب ليناسب الأمم التي نعيش معها وأسلوبها ، ولقد
بدلت أسلوب الفلك القديم بالأسلوب الحديث ولكنني عند الكلام على موازنة الكبر والطلحال الفخ بالكواكب
لم أجد له نظيرا في علوم أهل زماننا في العوالم التي تحيط بنا فنقلته مختصرا على علته التي تحيط بنا .

وذلك لأن الطحال عند أطباء زماننا لم يجدوا له أولا وظيفة ، ثم قالوا إنه تربي فيه الكرات البيضاء
الساعدة للكرات الحمراء لتعارب الحيوانات النورية المهاجرة . وهكذا علم أحكام النجوم اليوم غير شائع وهو
علم ظني لا يقيني . فأشال هذا نكتبه مع ما قبله ليطلع أهل العلم في بلاد الإسلام وغيرها على مبلغ ما وصل إليه
القدماء من الحكمة والإبداع . وكيف جعلوا الجسد الإنساني نموذجاً للعالم كله من كوكب وفلك وبرج وعنصر
و معدن وحيوان ونبات وملك .

فياليت شعري كيف يفهم المسلم قوله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » إلى قوله « ثم سواء
وتفخ فيه من روحه » أو يفهم قوله تعالى « الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر
بينهن » أو قوله « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » إلا بأمثال هذنه الباحث والعلوم العجيبة ، أو قول المسلم في
الصلاة في الرفع والاعتدال « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من
شئ . بعد » وقوله في الركوع « خشع لك سمعي وبصري وعمي وعظمي وعصي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين »
وقوله في السجود « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق
صمه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » وقول الصلي في صلاة الفجر « فلك الحمد على ما قضيت ولك
الشكر على ما أنعمت به وأوليت » اهـ .

اللهم إني أعجب من هذا التناء في صلواتنا كيف كان هو ملخص علوم الحكمة وملخص رسالة [الإنسان
عالم صغير] فالسمع والبصر والشم هي المذكورات في الآية هنا وهو قوله تعالى « وجعل لكم السمع والأبصار
والأنفذة » الفخ فكأن المسلم وهو في الرفع والاعتدال يشرح أطباق السموات والأرض اللاتي توازي طبقات
جسمه التسع للتقدمة من العظم والدم وهكذا إلى الظفر ، ومن الرأس والصدر والبطن وما تحت ذلك ، وهي
الأربعة للوازية لطبقات الأرض والماء والهواء والأضواء ، وكأنه وهو في ركوعه وسجوده يشير إلى الحواس
للوازيات إلى السيارات ، ويزيد طبقات الجسم أيضا كما يذكر العظم والعصب وهكذا وكأنه وهو في قنوت
الصبح يعبر عن ملخص معنى هذه الآية هنا إذ يقول الله تعالى « قليلا ما تشكرون » وهناك يقول « ولك
الشكر على ما أنعمت به وأوليت » .

إن الصلي بوقوفه وركوعه وسجوده وجلوسه يوضح معنى كونه عالما صغيرا ، فإنه لما كان تناوّه على الله
باللسان مشيرا إلى قسمين من الأقسام الست في رسالة [الإنسان عالم صغير] وهما السموات مع كواكبها
وإلى قسم ثالث وهو طبقات العالم السفلي أشار إلى عالم الحيوان بالركوع ، لأن الحيوان كالراكع وإلى عالم النبات
بالسجود لأن النبات رأسه كالساجد ، وإلى عالم العادن التي يقبل السكون والفساد كما يقبله الإنسان بمجموع
الحركات الدالة على ذلك التغير المستمر ، فصلاة المسلم نسخة مضغرة من العوالم تذكر السليين جميعا بدراسة
أنفسهم حتى يسودوا في الدنيا ويلحقوا بالعالم الأعلى وهم في أعلى عليين .

هنا ولا بد قبل ختام هذا اللقاه من ذكر معجزة نبوية وحكمة إسلامية في تفسير هذه الآية « وجعل لكم

السمع والأبصار والأفتدة قليلا ما تشكرون» فقد جاء في (الرسالة الثالثة عشرة) من إخوان الصفا تحت العنوان التالي مانصه:

كيفية نشوء الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية الطبيعية

اعلم أن من سنة الناموس والآداب الحسنة تناول الطعام الذي هو غذاء الجسد بثلاثة أصابع ، فهذه السنة كآتها إشارة من واضع الناموس للنفوس والتنبيه لها وحث على أنه واجب طلب العلوم من (ثلاث طرق) لأن العلم غذاء النفس كما أن الطعام غذاء الجسد وأحوال النفس مماثلة لأحوال الجسد لشدة اقتران مابينهما ، فأحد الطرق التي تتال بها النفس العلوم قوة الفكر الذي تدرك به النفس الموجودات المعقولات ومن هذه الطريق أخذت الأنبياء عليهم السلام الوحي من اللائكة . . والطريق الثاني السمع الذي به تقبل النفس معاني اللغات وما تدل عليه الأصوات من الأخبار الغائبة . . والطريق الثالث النظر الذي به تشاهد النفس الموجودات الحاضرة فهذه الطرق الثلاث يجب أن يتناول العلوم بها كما نهينا وكما نهينا الله عز وجل إذ قال «وجعل لكم السمع والأبصار والأفتدة قليلا ما تشكرون» ودم من لا يتنفع بالنعيم فقال «لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل» وقال أيضا «صم بكم عمى» فهم عمى عن الحقائق بكم عن الدقائق ، عمى عن البصريات المعنوية العقلية بين القلب . وليس يريد بها أنهم من حيث أنهم لا يسمعون الأصوات ولا يبصرون الألوان ولا يعرفون ولا يفقهون أمر الناس بل إنما ذمهم من حيث أنهم لا يعقلون أمر المعاد كما قال تعالى «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» .

واعلم أن العلم قنية للنفس كما أن المال قنية للجسد لأن المال يراد اصلاح أمر الجسد ، والعلم يراد اصلاح أمر النفس . فممن لم تتل النفس العلم من هذه الطرق الثلاثة وذلك تناولها بثلاثة أصابع إلا من طريقة واحدة أي بأصبع واحد ، فمثل كمثل المريض الذي ليس له حظ من ماله إلا الثلث لأن المريض واقف بين رجاء الحياة وخوف المات ، وهذا مثل أهل التقليد الذين لا يعرفون أمر الدين إلا من طريق السمع فهم موقوفون بين الشك واليقين والشك مرض النفوس واليقين صحبها ، فهو لاء ليس لهم من العلم إلا الثلث من أجل مرض نفوسهم . انتهى .

أقول هذا الكتاب ألف منذ نحو ألف سنة . وفي أكثر هذه اللدة كان المسلمون محصورة علومهم في المذاهب التقليدية .

فبالت شعري هل تعاهدوا جميعا على نبذ الحقائق حتى أصبحنا عالة على أمم الأرض الآن . نعم ظهر فيهم نابغون ولكنهم مقتوم وكفروهم وحقروا آراءهم ، ولكن الآن أنا أبشركم أيها المسلمون أن ذاك زمان مضى وانقضى .

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا وطالع السعد في أفق الملا سعدا

والدليل على ذلك أنني أكتب الحكمة في هذا التفسير ولاأخذ النقية بالباسها لباس التصوف بل الحكمة هنا واضحة والمسلمون قبلوها فبشرى ثم بشرى للمسلمين . انتهى صباح يوم السبت ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٩

كشف واستبصار

(في معنى « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » الخ)
(كتب قبيل فجر يوم الأحد ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٩)

كنت أصلى العشاء في أواخر الليل وقرأت (سورة الملك) فلما وصلت إلى آية « قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » كررتها مرارا لأنها هي الآية التي وردت في المقالة السابقة ولا تزال عالقة بالذهن . هنالك عجبت من تكرير القرآن لهذه الثلاثة في القرآن ، وكيف يتبعها بقوله « قليلا ما تشكرون » أو بقوله « لعلكم تشكرون » ثم كيف قدم السمع على البصر مع أننا بالبصر نرى الشمس والقمر وندرك كل ما على الأرض وتذكرت مقاله (طهاوس الحكيم) فيما مضى من هذا التفسير : إن الله خلق البصر لنذكر به الليل والنهار وفتح لنا أبواب الفلسفة والحكمة . وهذا وحده أجل نعمة في هذه الأرض ، إذن البصر مقدم على السمع ، فلم قدم الله السمع عليه في هذه الآية : ولماذا يكون هذه الحواس بلفظ واحد ، وترتيب واحد في الآيات المتقدمة ؟ والإجابة على هذا تستبين لك من وجهين : (الوجه الأول) لم قدم السمع على البصر والقواد ؟ مع أن البصر والقواد أهم من السمع (الوجه الثاني) لم تكرر هذه الآيات في سور كثيرة حتى هذا النمط .

(الوجه الأول : لم قدم السمع على أخويه)

اعلم أن الله عز وجل جعل العلم لنا في هذه الدنيا من (طرق ثلاثة) كما تقدم سابقا (١) طريق الألفاظ (٢) وطريق صور المعاني الواصلة من البصر (٣) وطريق البحث العقلي المستخرج للمعاني الكمية من الصور الذهنية ، وهذا واضح مما تقدم . فالألفاظ أشبه بالنواب والوكلاء . فالمعاني في النفس سواء أكانت من طريق البصر أو من طريق العقل يعبر عنها بالألفاظ . فالألفاظ إذن عالم قائم مقام عالم البصريات والشمومات والمذوقات واللحوسات والمقولات (وبعبارة أخرى) العالم عالمان : عالم طبيعي وعالم وضعي اصطلاحى . والعالم الطبيعي البصر والمذوق والشموم الخ والمقول والعالم الاصطلاحى هو عالم الألفاظ العبر عن تلك المعلومات كلها . فالألفاظ في الهواء عوالم قامت مقام العوالم كلها قائمات بأذهاننا فإذا كانت الخيلة والفكرة والحافظة قد صورت فيها جميع العوالم الحسية والمعنوية فما هو ذا اللسان عبر عنها كلها وقذفها في الهواء وجرت فيه وحفظها بأمانته أى العلوم حتى وصلت إلى الآذان . وهذه الألفاظ ما هي إلا اصطلاح اصطلح عليه الناس ، فلفظ شجرة وحجر ونور كلها أصوات اصطلاحنا على دلالتها على المعاني القائمة بأذهاننا الصورة بصورتك الثلاثة فهنا لفظ دل على صورة في الذهن وهذه الصورة دلت على ما رآه بأعيننا أو عقلنا بأدلتنا . هذه هي وظيفة السمع . فوظيفة السمع المتعلقة بوظيفة اللسان والرسول بينهما الهواء وهو أمين . والدلالة هنا وضعية السمع لا طبيعية فلو أن السمع زال من الوجود ولم يخلق الله الأسماع لم يخلق إذن الألسنة . لأن اللسان خلق لنسمع به ، فإذا فقد السمع فليفقد نطق اللسان وليخصص هذا اللسان بحاسة الذوق لا غير ، أما الإفهام والتعليم فلا ، فإذن يكون الناس جميعا صما بكميا ولكنهم مبصرون وإذن لا نبى يرسل ولا عالم ولا حكيم ولا خطيب ولا كتاب يؤلف ، فإذن تكون الإنسانية غير الإنسان بل تكون إلى الحيوانية أقرب . إذن خلقت الآذان وخلق اللسان لنسمع هذه الأصوات الاصطلاحية ومتى سمعناها أخذنا ندرس هذا الوجود بأبصارنا (وبعبارة أخرى) إن السلم يسمع القرآن يذكرنا بالآداب والعبادات والمخلوقات . هنالك يفتح لنا (أمران) الأبصار والبصائر . فبعد أن كان

للمسلم يرى الأشياء ولا يفكر فيها ، فبعد سماع الآيات يجهد في الابصار اجتهادا أشد ويستبصر ويفهم ما أبصره .
فهذا وجه تقديم السمع على أخويه والله أعلم .

(الوجه الثاني)

(في بيان حكمة تكرار هذه الثلاثة في القرآن وأن شكرنا عليها قليل)

علم الله قبل خلق العالم وقبل إزال القرآن أن المسلمين سيترهم ما اعتري الأمم السالفة من ظهور وشيخ في العالم الإسلامي يقولون لتلاميذهم : كرروا هذه الأوراد صباحا ومساء ، وإياكم والعلم ، فيعيش التلميذ على هذا ويموت . أويقولون : متى قرأتم التوحيد والفقهاء فهذا كاف ، أويقولون : متى أخذتم شهادة العالمية فقد كنتم فالتصديروا في المجالس . وهذا هو القصد الأسمى من الحياة ، أويقولون : إن الكتب المصطلح عليها بين أهل البلاد في الدين كافية .

أقول علم الله ذلك بل هو الذي رتب هذه العفول على ما علم « ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك » لذلك أنزل لهذا الماء العيا دواء وأخذ يذكركنا به في مواضع كثيرة « فذكر إن نعت الذكرى » « إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » « وذكر فإن الله كرمي تنفع للمؤمنين » .

ولا جرم أن هذا الكتاب مؤلف للمؤمنين . فالتذكير بهذه النعم نافع لهم وأنا موقن بذلك . ذلك أن المسلمين متى قرءوا هذا القول هنا يقولون « لا تكفينا قراءة الأوراد وحدها فهي لم تجعل إلا لحبس النفوس الشريرة عن أذى الناس بالقيبة والنجاسة والإضرار بالناس وفرق بين حبس المجرم وبين تعليمه ، فهل السلم الذي جعله الله من « خير أمة أخرجت للناس » يحبس لتكتفي شره . إنه وضع في الأرض ليكون خيرا وأفضل من جاء إلى الناس فيها لا أنه شرير نجسه في قفس الأوراد صباحا ومساء ، ونقول له لا تعد الورد أو هذا الحزب وكرره صباحا ومساء . نعم الذي لا يصلح لشيء في الإسلام تأمره بذلك ، فأما أكثر المسلمين فهم أقل ما فيهم أنهم كعباد الله في الأرض خلقهم الله وخلق لهم الأسماع والأبصار والأئدة ، فلماذا يقصر على مجرد اللفظ بالورد وعلى مجرد سماعه ويحجب بصره عن النظر وعقله عن الفكر .

فلما اطلع على هذا صديقي العالم الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير قال حيالك الله . أما البيان فهو جميل ولكن عندي شبهة قلت وما هي ؟ فقال الله يقول « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ولكنك في بيانك هذا قلت إنهم قد حبسوا في الألفاظ أو في علوم ضئيلة وأكثر كلامك في التفسير ينحو هذا النحى ، فالحق والحق أقول إن هذه الشبهة أنت الذي أثرتها في نفسي وفي نفوس كثير من القراء . أليس وعد الله سقا . وعدنا الله أن نكون خير أمة أخرجت للناس ولكنك أبنت أننا لسنا خير أمة أخرجت للناس بل نحن قوم أعظم ما فينا أننا نسمع ولا نعقل كما قال الله تعالى « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها » ثم شبههم بالأنعام فقال « أولئك كالأنعام بل هم أضل » غاية الأمر أنك أبنت أنهم يسمعون وحسبكت بأن الأبصار والعقول غير مستيقظة . قلت إن الخير في الأمة من أيام النبوة إلى الآن ولكن كلامي منصب على الأكثر ومع هذا كله نحن « خير أمة أخرجت للناس » فقال هذا هو التناقض بعينه ، وما أنت في هذا إلا مقلد وللقلد يعتد للتناقضين . قلت بل موقن . فقال « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » قلت له حيالك الله ، أليس الإسلام قد انتشر بالأمة العربية ، قال نعم ولكن ذلك زمان مضى وانقضى . قلت أصبر قليلا ولا تجعل . اعلم أن الأمة أشبه بجسم واحد ، فالأمة الإسلامية من المصور الأولى إلى الآن جسم واحد ، وهذه الأمة الآن في سنتها الرابعة عشرة فالقرن في حياة الأمة أشبه بسنة كما ستره في [سورة سبأ] عند الكلام على التقليد في آية « ولو ترى إذ الظالمون موقفون عند ربهم » الخ ففيه في القرن الأول والثاني

كانت في الرضاع والرضاع حولان كاملان والرضاع كان من نفس الأنداء العلمية الإسلامية والعلم عبر
عنه بالبين في حديث الإسراء لهذه النكتة فإنه صلى الله عليه وسلم اختار اللبن ونبذ الحمر في ذلك الحديث وأمه
شربت هذا اللبن ولبن الأم يخدم الطفل سنتين وبعدهما يتولاه المملون فالأمة في القرنين الأولين نشرت الدين
إلى قلب البلاد الفرنسية وإلى داخل بلاد الصين . ذلك لأنها قامت بنشر الدين . فلما انقضى القرنان وقفت
الفتوحات وأخذت الأمة تقرأ العلوم وترجم الكتب من اليونانية وغيرها إلى العربية ، هكذا الطفل بعد
مدة الرضاع يتعاطى الطعام مما يحيط به على حسب البيئة التي هو فيها ولكن هذه الأمة بيمه لأن نبيا صلى الله
عليه وسلم رفع إلى السماء والأمم كلها تتحضر لها وتتأومها قبض الله لها أئمة مجتهدين وحكاما وعلماء صاروا يلقون
إليها نبذ من العلوم كما يعطى الطفل أنواع الطعام بعد القطام . ومعلوم أن اليتيم تتقاذفه الحوادث فحصلت
هذه الأمراض في جسم هذا الطفل ولكن أصله كريم . فأخذ يكبر وإن كان جسمه هزيبا . ولكن حدثت
حوادث رجت الأرض رجا ، هي حوادث الحرب الكبرى في زماننا فاستيقظ هذا الطفل للرايق من القتل
والإذلال والدافع والتنازات الحاققة فرجع عنه إلى خالقه فأجاب: أيها الراهق لا تخف إن وعدى حق ، والآن
وإن كنت لم تبلغ بالسن قد بلغت بالحلم والباوغ بالحلم يرجع في الطفل لقوة الجسم ، أما هنا فهو لقوة العلمية العقلية
التي حدثت في مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وبلاد السودان والشام والفرس والعراق والهند
وبلاد جاوه فإن هذه الأمم كلها استيقظت مرة واحدة وأصبحت كلها تنطق بلسان واحد : العلوم العلوم .
الفكر الفكر ، والدليل الذي ألمسه أنا بيدي هو هذا التفسير ، فلقد قبله المسلمون جميعا مع أن القرآن فيه
قد ابتلع العلوم التي في الشرق والتي في الغرب حكمت حكما لا أشك فيه أن هذا الراهق بلغ الحلم وأن هذا
الراهق كان ضعيفا مريضا لأنه يتيم واليتيم إذا بلغ الحلم زال عنه وصف اليتيم . وأنا أرفع صوتي بهذا المسلم
فأقول : أيها الأمة أنت قد ارتقيت بقية وزال عنك الآن الوصمة السابقة والمرض والضعف فان هذا التفسير
وأمثاله لم يصادفه ما صادف كتب الإمام الغزالي رحمه الله تعالى إذ أحرقت أيام علي بن تاشفين في بلاد المغرب
كما سأوضحه في [سورة سبأ] ولا ما صادف كتب ابن رشد إذ ابتلى رحمه الله بالأيذاء وانتقل علمه من بلاد
الإسلام إلى أوروبا فمناقبنا الله بجهلنا . أما الآن فهذه الأمة قد عقلت وفهمت . وإنما فعل الله ذلك انتهاجا
لسنته وجريا على طريقته ، فهو هكذا خلقنا من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، وهذا الضعف في الأمة
الإسلامية بسبب الضعف قد انتهى اليوم . فنحن خير أمة أخرجت للناس غاية الأمر أنا كنا مرضى وضعفوا
جهالا فعوفينا وأدر كنا وبلغنا . ولا جرم أن للريض إذا شفي يعتبر بما آذاه من المرض بالتجارب فيحترس
بما وقع فيه ، أفلا تذكر أن الرجل الذي يأكل للمأكل الدجاجة إن عاش ولم يمرض مات جفاة لأن جسمه
لم يقدر أن يستخرج منه الفضلات بطريق الجروح ونحوها وأن الرجل الذي يأكلها ثم مرض فإن حياته
تطول لأنه هو القوي لأن من تخرج منه الفضلات خير ممن بقيت في جسمه تلك قواه فيموت ، فرض الأمة
الإسلامية السابقة ثم رجوعها إلى الصحة دليل على متانة تركيبها ، فهي إذن أشبه بغير الرجلين السابقين
والأمة في أول أمرها أتخمتها الغنائم ونخرقت لنحكم الأمم شرقا وغربا ثم كانت هذه الحرب العالمية ، والأمة
العربية على وجه الخصوص التي نزل القرآن بلسانها هي أول الأمم التي شرفها الله بأنها « خير أمة أخرجت
للناس » لأنها تفرقت في الأرض لنشر الدين ثم غلبت على أمرها في زمن صفها ، وهما هي الآن أخذت
ترجع كرة أخرى لمجدها وذلك بطريق السمع والأبصار والأفتدة والشكر ولهذا كررت الآية في سور كثيرة
قال تعالى مثلا في [سورة الملك] « وهو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفتدة قليلا ما تشكرون »
وسيا في لهذا اللقمان [صاح في [سورة سبأ] عند آية « ولو ترى إذ الظالمون « الخ كما قلت لك [وفي سورة
الزخرف] في أولها عند قوله تعالى : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » .

فلما سمع صاحبي العالم ذلك قال لقد تلج صدرى وانشرح لما ذكرته من أن الأمم الإسلامية اليوم قد أصبحت مشبهة لمن بلغ الحلم وأنها أخذت تعقل واستدللت بما علمت من أحوالها ولكني أقول إن هذا الدليل يعوزه دليل آخر ليسكونا شاهدين على هذه القضية ، يقول الله تعالى « وأشهدوا ذوى عدل » وهذا شاهد واحد ، وخير الشواهد ما كان من التاريخ في هذا المقام ، فلو أنك بحثت عن طمة ذات دين اعترافا ما اعترى أمتنا من هذا الضعف ثم أخذت تعقل في القرن الرابع عشر بعد فراق نبينا لها بطريق أرقى من سابق أيامها كان ذلك شاهدا حسنا في هذا الموضوع . فقلت لقد طلبت منى مرتقى صعبا وأمرا عسيراً فإن ديانة البوذية قديمة العهد وبنو إسرائيل مشتتون في الأرض مقطعون قطعاً فلا تهتدى لبحث تاريخهم ولم شعهم ، على أن دين موسى دين قويم لا يعمى لأنهم حصروه في بني إسرائيل فليس لدينا إلا دين المسيح الذي نسخ بعد نزوله بست قرون إذ نزل الدين الإسلامي فهؤلاء النصارى لما جاء الإسلام كان الباباوات يتحكمون فيهم وقدموا في هذا التفسير ، وأن بابا (روما) كان هو الذي يعزل ويولي ملوك أوروبا وأذلهم وقهرهم وقد ضرب (ملك جرمانيا) رجله وقد أوقفه ثلاثة أيام وهو يتزل فلا يفر له ولم عذب ولم قتل . كل هذا تقدم في (سورة التوبة) ولا زالوا في هذا الدلحى كانت الحروب الصليبية وحروب الأوروبيين مع أهل الأندلس الذين حقروا علم الحكمة وأهل أوروبا قد ستموا حكم رجال الدين فكان المسلمون أشبه بالطفل الذي بلغ سبع سنين أو ثمانيا وأهل أوروبا أشبه بطفل قد بلغ الرابعة عشرة فأخذوا علوم المسلمين وارتقوا بعد أن حقروا المسلمون كما يحقر الطفل كل ما لم يكن حلوى يأكلها ويحقر الديك الجوهرة ويلتقط الحبة لا غير . وعليه نقول إن أوروبا المسيحية حوالي القرن الرابع عشر من تاريخ دينها أخذت ترتقى في حياتها والمسلمون اليوم أخذوا يقرءون علومهم وهم في قرعهم الرابع عشر كما فعل أولئك سابقا . فهذا هو دليلي . إذن المسلمون اليوم أخذوا في الرقى لأنهم أشبه بمن بلغ الحلم في سن (١٤) كما فعلت أوروبا من قبل ، والمقام ليس مقام نسخ الدين وعدم نسخه وإنما المقام في أن التاريخ أخذ يعيد نفسه ويفعل للمسلمين ما فعل المسيحيون من الرقى العظيم اهـ .

ثم إنه لما اطلع على المقال المتقدم في جسد الإنسان وموازيته بالعالم السجوى والأرضى قال لقد ظهر بهذا من العلم ما كان محبوا عن الكثيرين من أمم الإسلام فإن كون الإنسان نموذجا للعالم يظنه من لا تحصيل عنده أمرا خياليا « كسراب يقيعه بحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » ولكن ظهر الآن أنه حقيقة ثابتة وأن الله عز وجل رحمة منه بعباده جعل أجسامهم وأرواحهم عنوانا ونموذجا للعوالم كلها حتى تخضرفي عقولهم بأقل نفثرة فتسكون العوالم كأنها حاضرة عند الإنسان ، وهذا خير ما جاء في هذا التفسير بل خير ما يعرفه الناس من العلوم ولكني أريد منك درسا مختصا الآن على هذا المقال بحيث نفهم به من جسم الإنسان وروحه قبل فوات الفرصة :

- (١) نظام علم التوحيد .
- (٢) ونظام الملوك والأمراء أورؤساء الجمهوريات مع ممالكهم وتصور امتحانهم لها .
- (٣) ونظام الحكماء مع أممهم أيضا و امتحانهم لها ودراسهم لنظمها .
- (٤) وهل هذا الجسم الإنساني يعطينا نموذجا لاحتلال الدول القوية بلاد الأمم الضعيفة؟ وأي نموذج لذلك في جسم الإنسان .

هذه هي النظم الأربعة التي أردت أن أعرفها من نظام الجسم الإنساني حتى تكون العلوم بسبب النظام الأول حاضرة عند الإنسان ، وسياسة الدول كذلك بالثاني وسياسة الحكماء وسياسة الأمم الغالبة مع المغلوبة بالثالث والرابع وإذن نفهم قوله تعالى « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

﴿ النظام الأول ﴾

قلت: أما نظام التوحيد فهو يرجع إلى جميع العلوم ، أما التوحيد الجدلي فهو للعامة وصغار العلماء ، وقد مر كثير منه في هذا التفسير بل هذا التفسير أعان الله عليه لهذا وأمثاله ، ولكن أقول منه الآن قلا من كل إجابة عن سؤالك .

إن العاقل ينظر إلى نفسه فيجد له روحا لم يرها وعقلا مدبرا وحافظة وذاكرة وعجيلة وحسا مشتركا ، كل هذه لم يرها ولكنها تتصرف في جميع أمور حياته ، فروحه وهي رئيسة هؤلاء وهو لم يرها ضربها الله مثلا «وله للثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» لسلطانه في العوالم ولم يره أحد ، وهذه القوى للتصرف في جسمه ضربها الله مثلا للملائكة الذين أوجب علينا أن نؤمن بهم ليفتح لنا بهذا الإيمان هذه العلوم ، والحواس الخمس التي تشرف على العوالم الخارجة للسخرات للعقل ولجنوده الباطنة لكل حاسة منها مملكة لا تعرفها الحاسة الأخرى ، فالبصر يجمل : الحلو والمر . والسمع يجمل : الأخضر والأحمر الخ . والدوق يجمل : النور والصوت والنفحات وهكذا ، إذن هذه ممالك متجاورات لكل مملكة أعمال لا يمكن حصرها كما مر شرحه في موضوع الجسم العام وهي في حسابها ونظامها ترجع إلى الروح الدبيرة التي لم ترها . والروح وحدها لها الأمر فهي تخاطب البصر الذي مقره العين ظاهرا بمخاطب في أهر الألوان كقوس قزح والأنوار الكوكبية بما لا تخاطب به الدوق الذي مقره اللسان بحسب الظاهر في أمر الحلاوة والمرارة : والحرافة والعذوبة واللوحه وأمثالها وبما لا تخاطب به السمع في أمر صوت الرعد وأصوات الرياح والأمواج وتستفهم الروح من العين عن البرق ومن الأذن عن الرعد ومن الدوق عن العسل ومن اللس عن الحرارة في الجو أو البرودة فالحرارة وقوس قزح والرعد التي تظهر في الجو آيات مفصلات على الآيات البديعات في الأجسام من قوة اللس في اليد والبصر في العين والسمع في الأذن .

هذه هي حال الروح مع عالمه وهذا هو إيضاح المثل الإنساني الذي ضربه الله لنظام عالمه ، فهو يعلم نظام السمك في البحر ونظام حيوان البر وكل منهما لا يعلم شيئا عن الآخر إلا قليلا . ولقد خلق ممالك في الأرض وكل منها ذات قوانين لا تسرى إلا في بلادها وهم بها راضون . وهكذا أرسل رسلا وكل له شرع وجميعهم يرجعون في حسابهم إلى ربهم على مقتضى شرائعهم التي لم تنسخ قبل خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم كما رجعت عوالم الأبصار والأسماع والأذواق إلى الروح والعقل وأدت حسابها وأخذت الروح تنظم عوالمها على مقتضى النتائج الواصلة إليها وهكذا خلق عالم الأرض وعالم الريح وعالم زحل وعالم الكواكب الباقية وعالم السم (جمع سديم) وعالم المجرات . وكل عالم يجمل ما عند الآخر ولكنها كلها متجهة إلى ربها كما أنجمت الحواس التي وكلها العقل والروح بالعوالم الخارجة إلى العقل والروح فأدت حسابها وامتحناتها . وإنما قلنا إن كل عالم يجمل العالم الآخر ، لأن ذلك كأهل الأرض فإنهم يبحثون عن عالم للريح ويجدون في الوصول إلى مخاطبتهم ومع ذلك وجدوا الطريق وعرا فرجعوا بحفي حنين كما أن العين لو كانت مستقلة لقاتل أنا أجهل علوم اللغات والأذن لو نطقت لقاتل وبلى ما أعظم جهلي بعلوم الناظر والألوان . انتهى الكلام على نظام التوحيد والمثل الذي ضربه الله بأجسامنا لنظامه في عوالمه .

﴿ النظام الثاني ﴾

(وهو أن الله جعل الجسم الإنساني مثلا للأمرء والملوك ورؤساء الجمهوريات مع ممالكهم ورعايهم) انظر إلى القوى الباطنة الإنسانية والقوى الظاهرة والمعلومات الإنسانية تجدها هي بنصها وقصبا منطبقة على الممالك ، فكأننا نجد الدولة فيها وزراء ومجالس نواب ورجال استشارة هكذا نجد بجانب العقل الحاكم

في الإنسان قوى باطنة من حافظه ومتخيلة ومفكرة وذاكرة مطابقة لما نراه في دواوين الحكومات من العقول الراجحة والنفوس المفكرة والدفاتر المسجلة والنظم الثابتة وأن كل دائرة من دوائر الحكومات تجهل ما عند الدائرة الأخرى ، ألا ترى رعاك الله أن وزراء الزراعة ووزراء المالية ووزراء المعارف لا يعلم كل ما عند الآخر إلا قليلا ، ولكن الملك والأمير أورئيس الجمهورية أو مجالس نواب الأمة هؤلاء هم المحاسبون للطلعون على كل نظام على حدته وليس لأحد من أرباب تلك النظم أن يتعدى حده . فلا يتدخل وزير الزراعة في أعمال وزير المعارف لتلا يحصل الاختلال في نظام الدولة كما لا يتدخل العبد في علم للموسيقى والألحان وفي علوم اللغات

﴿الكلام على النظام الثالث وهو نظام حكماء الأمم معها﴾

فكما رأيت نظام الأمراء مع الدول هكذا ترى نظام الحكماء مع الأمم ، حكماء الأمم هم المشار إليهم بما روى « إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يحدد لهذه الأمة أمر دينها » ولقد بعث الله في الإسلام رجالا معروفين وعندهم ومن آثارهم تلقينا العلم فهؤلاء هم حكماء الأمة الذين يدرسون نظمتها ويمطون لها تعاليم توافق عصرهم لأن كل عصر له مقام معلوم مع اتصال الأعصر كلها بالشريعة الرسومية والطريقة للمهودة ، فالحكيم الحقيقي لأمة الإسلام هو الذي يدرس جميع النظم بقدر إمكانه ، ومق ظهر أنه موافق للإصلاح التي أتى الله به في قلوب الناس فأخذوا برأيه وساروا على سبيله واتبعوا طريقته وفكروا بمقولهم في آرائه ثم انتهجوا سبلا بحسب عقولهم واجتهادهم على مقتضى ما يرونه ، فإذا رأينا الأمم قبلت حكمة حكمائها ونصائح فضلائها وأعظمهم كان ذلك دليلا على حياتها وإن هي غمطت حقهم وأنكرت فضلهم وخاصمتهم وأهانهم دل ذلك على أنهم آخذون في الاضمحلال لأن الحكماء منزلهم من الأمم بمنزلة الإبصار من الجسد ، فإذا نبذت الحكماء فقد أصبحت عمياء والأعمى لا يهتدى إلى السبل فهو محتاج إلى الهداية ، وهذا بينه مثل هذه الأمم الإسلامية للتأخرة لما غربت شمس حضارتها وولت أيام شبابها وأدبرت سنين سعادتها وأقبلت أيام هرمها ودنت من موتها بالمرض الزمن الذي شل أعضائها وذلك أيام الدولة العباسية لما قتل بعض ملوك بني عباس ابن السكيت مثلا وأيام دولة المرابطين إذ أحرق بعض (بنى تاشفين) في المغرب كتب الغزالي وأذل بعض ملوك الموحدون العلامة ابن رشد وجبسه وحرقه في أعين لأمة وهكذا فعل ملوك بني عثمان مع هذه الأمة كلها بعد ذلك فإن السلطان سليم نقل الصناع للصيريين الحاذقين في صناعاتهم لما فتح مصر وأخذهم إلى بلاده ولما توسطوا البحر غرقت المراكب بهم فانتت الصناعات من مصر علما منه بما للصناعات من آثار في قوة الأمم . وهكذا جمال الدين الأقفاني لما كان في الأستانة أتاه مرض السرطان هو والكاتب المشهور (محمد نديم المصري) .

ولقد أشاع الناس أن ذلك بأمر الخليفة العثماني ، والأمة متى ذهب بصرها ولم يبق إلا اسمها عاشت عمياء لا تبصر عليه تصبغ وليس عندها من العلم إلا نلته لأن قوة التفكير ضائعة لأنها محصورة ، وقوة البصر لا وجود لها لأن الحكمة هي البصائر للناس وهي التي أزل الله لها (سورة لقمان) وهو القائل « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الأبواب » والحكماء إذا جهلهم أمم الإسلام كما حصل فعلا فقدت بصرها فأصبحت تتخبط في ديجور الظلام ، وإنما الذي عندها من العلم هو القرآن يحفظه الأطفال ويبشون أطفالا وهم كبار ، أما الأبصار وأما العقول فهي المحتوم عليها ، وعليه نقول لننظر في النظام الرابع .

﴿النظام الرابع وهو نظام الأمم القوية المستعدة للأمم الضعيفة﴾

إن الأمم التي أصبحت عمياء بسبب احتقار حكمائها والفكرين من أبنائها كالأمم الإسلامية في القرون الأخيرة تصبغ لاعلم عندها إلا ما سمته والعقول محبوبة ، ولا جرم أن اللسان إنما يعبر عما في العقل والعقل جاهل فتكون كتبها غير معشقة للحكمة وخطباؤها لا يؤثرون في الشعوب إلا آثارا قليلة على مقدار بضاعتهم

الزجاجة ، وهذه الأمم إما مريضة أمراضا تشبه أمراض السل والجدرى والحصباء وإما ميتة ، وللرضى يعوزهم أطباء يستفيدون منهم تقودا ويعطون لهم عقاقير وأدوية ، ولا جرم أن العقاقير والأدوية قد ثبت أن ضررها أكثر من نفعها إذا اعتمد الناس عليها وتمادوا فيها كما تقدم في سور كثيرة كسورة (طه والشراء والبقرة والأعراف) بشهادة أعظم أطباء ألمانيا والنمسا وغيرهم ، والأموات يعوزهم من يدفونهم بعد موتهم إراحة للناس من رمهم الصارة بالهواء وقد اعتاد الناس أن يتخلصوا من رمم للوقى إما بأكل أجسامهم إن كانوا بوذيين أو بإبقائها وتحنيطها إن كانوا من قدماء المصريين وإما بدفنها في الأرض إن كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهود ، والنتيجة لذلك كله أنهم تخلصوا من رمم أجسامهم الذين لم يكونوا ليحبوا مفارقهم في هذه الحياة هكذا الأمم القوية من رأت أنما ضعيفة فلا مناس لها من (أحد أمرين) : إما أن تحتل بلادها إن كانت مريضة وتدعى أنها تداوبها وهذا هو البلاء اللين. وذلك ككثير من الدول للمستعمرات لبلاد الإسلام . وإما أن تهلك حريتها ونسلها وهذا هو الحاصل الآن في بلاد أمريكا فقد انقضت الشعب الأصلي وهم سكان الأرض الأولون وهكذا أهل (استراليا) فهؤلاء وهؤلاء تعتبرهم ميتين أمام الفاتحين . ويقرب منهم أهل الأندلس الذين تفرقوا عشرين دولة كما تقدم إيضاحه في هذا التفسير عند آية « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » في (سورة النمل) فهؤلاء كانوا كجسم تمزق عشرين قطعة فلا بد من دفنه فبطشوا بهم بطش الجبارين . إن أكثر الأمم الإسلامية المستعبدة اليوم ليسوا بميتين وإنما هم مرضى وأدواؤهم (أحد أمرين) : إما عقاقير الفاتحين وأدويتهم وهذا يحدث في أجسامهم أمراضا جديدة كما قرره كبار الأطباء وشرحناه في هذا التفسير . وإما بالأدوية الطبيعية التي تشابه الاستشفاء بالهواء النقي والماء والأغذية والرياضات المختلفة وهذا هو الدواء الوحيد الناجع في المرضي وهذا هو الدواء الوحيد لأمم الإسلام المتأخرة . وما هو ذلك ؟ هو قراءة أمثال هذا التفسير من كل ما يرجع الأمة إلى حال فطرتها وإلى النظام الذي كان في عصر الصحابة والتابعين من دراسة هذه الدنيا والنظر فيها وفي القرآن . فهذا هو الدواء الذي جعله الله عز وجل لهذه الأمة في هذا الزمان « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم »

ها هنا سألتني قائلا: هل تسمح لي أن أذكرك بأمر هام في هذا المقام ؟ قلت جبا وكرامة ، فقال يؤخذ بذكرته فيما تقدم قريبا أن الإنسان لوح محفوظ . فذكر هذا في التفسير يجعل في النفوس اقتبانا ويذكرها بهؤلاء الأقوام الذين يجلسون في حلقات القوم وينطقون بألفاظ لا هم يفهمون معناها ولا السامعون . اللوح المحفوظ هو لوح الله لالوح هذا الإنسان الذي هو جهول ظلم . وهل ترى أنت أن اللوح المحفوظ نزل من عند الله إلى الأرض واختلط بهذا الطين وأصبح في هذه الظلمة ؟ وأبضا إذا كان اللوح المحفوظ عند الله واحدا فكيف أنزله إلى الأرض فصار آلاف آلاف الالاف بعدد الناس ؟ وإذا كانت هذه النفوس هي ألواح الله فأين البهجة والرواء والجمال والمظلمة التي يتذكرها الإنسان في ذلك اللوح . اللوح المحفوظ فيه علم ما كان وما يكون فهل أنا وأنت نعرف ما كان وما يكون ؟ هذا القول بعد هذا البيان يلقى إلى الجهلاء لا إلى العلماء وهذا التفسير يكتب للطبقة الراقية للعامة والجهلاء . ثم سكت فقلت هل في نفسك شيء ؟ فقال وهل ماصمته لا يبكني في الإعراب عما جاش بخاطري ، فقلت حياك الله وبياك .

اعلم أن هذا الإنسان أمره عجب . إن الناس يعيشون ويموتون وهم هم أنفسهم لا يدركون أنهم نور وبهجة وكال وحكمة . يعيش بنفسه أن هذه الأجسام الإنسانية والأرواح الحائلة فيها وكثرة عددها على الأرض أشبه بجبات اللقاح الكثيرة في النبات فإنها لا فضل لها في إلحاق الإناث إلا آحادا منها ، وهكذا الحيوانات النوية في ماء الرجل فإنها تعد بالآلاف ولكن واحد منها وحده هو الذي يتحد بالخلية النوية التي أقيمت من ماء الأنثى فيكون الحمل كما تقدم في (سورة طه) .

أعجب من هذا الإنسان ، هو يأكل ويشرب وينام ويتعلم ويقبل ويتذكر وينسى ، وهو نفسه نموذج الجمال والحكمة ثم يموت وهو لا يعلم من هذه الدنيا المحزنة إلا أنه قامى الأهوال وأغرم بالأموال وعذب بالأبناء والبنين ودولته حاربت دولاً أخرى ثم مات ، هذا هو الانسان .

خطاب لنوع الإنسان

أيها الناس : لو أن عقولا كبيرة خلصت من أجسامها ثم نظرت هذا الإنسان يعيش ويأكل ويشرب ويكسب ويحارب وينصب ويشتهي رأت أمرا عجيبا ، فماذا ترى ؟ ترى أن الأرض والكواكب وما على الأرض من المخلوقات إن هي إلا حركات في الأثير ، وما هو الأثير؟ هو موجود أدهش العلماء ، وأول من تخيله (إسحاق نيوتن) وقد أجمع هو والبناء بعده أنه ليس مادة، ولكنه هو اضطر أن يقول [إنه ذرات ضئيلة جدا] وقد جعل هذا مجازا فقط ، ولقد عبر عنه (هو يجنس) بشوله (موجات) وهذا من أقوال الفلاسفة فيه وآخرهم (اينشتين) العالم الألماني في زماننا فانه يقول [هو خيال من الفضاء ، والوقت يصعب على غير التعمق في الرياضيات فهمه] .

هذه أقوال ثلاثة من تسعة أقوال يقولها العلماء في الأثير الذي هو أصل للعادة التي منها هذا الإنسان . فأخبرها أنه خيال يفهمه المتعمقون في العلوم الرياضية . إذن الأثير أمر موجود وليس بمادة والتعبير عنه بيد عن العقول . وغاية الأمر أن العلماء وصفوه (بعشرة أوصاف) نذكرها هنا لتكون مبدأ منه نبحث في الإنسان وكيف صار لوحا محفوظا . وهذه العشرة هي :

- (١) إنه شفاف .
- (٢) عديم الاحتكاك بالمواد .
- (٣) عظيم الكثافة .
- (٤) تام المرونة .
- (٥) عديم الحرارة .
- (٦) عديم الصوت .
- (٧) موصل جيد للجاذبية والنور والأمواج الكهربائية والمغناطيس .
- (٨) وهو وسيط لتلاصق دقائق المادة وتماسكها .
- (٩) وهو وسيط للألفة الكيميائية .
- (١٠) وهو بلاكل فراغ .

هذه هي الصفات العشر التي يعرفها علماء زماننا للأثير الذي هو أصل للمادة التي خلق منها الإنسان الذي يقال إنه لوح محفوظ تتوقف معرفة لوحيته وحفظها على هذه اللقدمات في زماننا . ويقول العلماء : إن معنى كون الأثير عظيم الكثافة أنه لو فرض وتحول إلى مادة تراها ونسبها لكنت كثافتها في الليتر الواحد للكعب بمقدار (ألف طن) ومعلوم أن الطن الواحد وزنه نحو (٢٢) قنطارا فيكون الليتر للكعب وزنه (٢٢) ألف قنطار ، والمرونة المذكورة تساوي ضرب هذه الكثافة في مربع سرعة النور ، هذا ما يقال في الأثير ، فهذا الأثير عجب كيف يكون غير مادة ثم تكون هذه حاله فيكون الليتر للكعب بمقدار هذا الوزن .

أقول إنما قالوا هذا لأنهم رأوه يتحمل من الأثقال ما لا حد له . فهذه جاذبية الشمس للأرض فهي تأتي بواسطته وهكذا النور والكهرباء والغناطيس . وهذه لها أفعال هائلة قوية فأى موجود يتحمل هذه كلها أمد الدهر إلا إذا كان بهذه المقادير وهذه المقادير ليس يحسبها إلا أرباب الفن . فهم هم الذين لهم هذا الحساب المتقدم .

هذا آخر ما عند العلماء في الأثير ، فهو موجود قوى متين عظيم يحمل ما لا يحمله المعدن التي تراها فلتنقل للبحث الآن إلى المادة التي خلقت من هذا الأثير (إنهم يقولون ما للمادة إلا حركات في الأثير) أو هي كهرباء موجبة وسالبة يدور سالبها حول موجبها (انظره في سورة النور عند آية « الله نور السموات والأرض ») وما هذا الذي نراه من جبل وشجر وشمس وقر وماء وأرض إلا حركات قد اختلفت كمياتها وكيفياتها وباختلافها نظرناها مناظر مختلفة . ولما كانت كذلك لم نزلها استقرارا فهي سريعة التغير ، فالأرض والكواكب كلها متحركات لاتقف في مكان لحظة واحدة والإنسان والحيوان والنبات متحركات دائما إما في نومه وإما في ذبونهن وذهابهن من الوجود ، فهذه العوالم التي يعيش الناس فيها كلها متغيرات وتقدم قول أفلاطون إن للمادة لاثبات لها فليست تستحق اسم الوجود وليست تصلح مناطا للعلم لأن العلم ثابت والمادة لاثبات لها فكيف يتعلق بها العلم ؟ فإذا كانت هذه الدنيا على هذا النمط ورأيتها روح عالية وهي تنظر لها من بعيد فإنها ترى أن هذه الأرض وما حولها أشبه بالنار بل إن باطن الأرض نار وسطحها نار قد دبرت ولكن بأدنى عمل تنقد نارا فالأشجار والنبات والحيوان قابلة للاشتعال والحجارة تنقد نارا بالقدح لأنها جميعها نار تجمدت كباطن الأرض وكقرص الشمس بحسب ما يتجلى لنا منها والنار سريعة الحركة لاقرار لها وهذه الروح العظيمة ترى آثار الناس في أخلاق النائم والحشرات والإنسان . الناس في حرب وضرب وعداوات وشهوات وقران وحزن وموت وحسرات وخصومات . فكل هذه نيران محرقة بل نفس الحب والشوق نوع من الحرارة ، فهذه العوالم تحترق نارا إما ظاهرة وإما باطنة غاية الأمر أن الذين يعيشون فيها لا يعلمون أنهم يعيشون فيها يشبه النار وقد غفلوا عنها كما يغفلون عن أنهم يعيشون في وسط جسم هو الهواء فلا يفطن له إلا العلماء . وهاهنا وصلنا إلى النقود فلنتنظر في هذا الإنسان . هل امتاز عن هذه المخلوقات بشيء ؟

ننظر فراه - وإن كان متغيرا من صفه إلى كبره - ثابتا ثابت رضوى . يأكل ويشرب ، ويفرح ويحزن ويغم ويسر ويلد ويولد ويجهل ويعلم ويعرض ويصيح ويفتقر ويفتنى ويجمع ويفترق ويحب ويكره ويحز ويذل ولكن هذه الحوادث كلها تخزن عنده في خزانة لا هو يعرفها ولا أحد من الناس معه فإنه بعد أن تمر (٨٠) سنة على حادثة رآها في صفه يصفها وصفا دقيقا كأنه يشاهدها بل إن الكبير السن يكون أنبغ في الوصف والد كرى حتى وصف قبيل فيه (إنه كنعق) بضم الكاف وسكون النون أعنى أنه يقول كنت وهذه النسبة شاذة لأنها نسبة للفعل مع الفاعل . فهذا الشيخ والمهرم يقول كل منهما (كنت فعلت كذا وكذا في زمان كذا) فمن أين أتى بهذه الأوصاف إلا إذا كانت هذه الروح العجيبة لها خزانة معنوية لا يمكننا إدراكها قدر ثبتت فيها هذه الحوادث وكتبت وأخذ الإنسان ينقل عنها . الأرض والسموات وما على الأرض كلها ألواح ولكنها ليست محفوظة ، فالشجر والماء وظواهر الأرض كلها متغيرات لاثبات لها . أما هذا الإنسان فإنه لوح محفوظ هو مسجل . هو كتاب يسجل الله فيه الحوادث الأرضية والسموية تسجيلا جزئيا لا كليا . فهذه ألواح صغيرة جعلت لهذه الأجسام الصغيرة وما هي إلا كسراج صغير من البترول والشحم وضع العسل والزيت في أرضها ، فالحفوظات والمعلومات الخزونات فيها لاتعدو أنها أشبه بالسراج الذي نوقده في منازلنا بالزيت أو بالشحم ولا جرم أن سرجنا نورها ضئيل كذلك المعلومات التي عندنا لأن علومنا غير حقبة على حسب معدن

هذه النفوس . وهل ضوء البترول كضوء الكواكب والشموس . أفلا نقول على سبيل القياس في أمثال هذا المقام إن هناك نفوسا أرقى من نفوسنا عقولها وعلومها أشبه بضوء شمسنا مثلا بالنسبة لضوء مصباح البترول في منازلنا . وبعبارة أخرى إن علومنا بالنسبة لعلوم تلك الأرواح تكون قليلة مختلطة على وزن مصباح البترول الذي هو ليس شيئا إلا أنه من الأرض والأرض من الشمس فتكون أرواحنا مشرفة عليها أرواح أكبر منها عندها علوم أوسع والله فوق الجميع لا يعلم علمه أحد . ولوحه المحفوظ فوق هذه الألواح كلها فلا هو كلوحنا الضعيف ولا كلوح الأرواح العالية لأنها ضئيلة بالنسبة له تعالى . ثم إن الأرواح العالية المحيطة بعلومنا لانعرفها إلا بالقياس على أنفسنا قياسا مع الفارق . ثم نقول : إذا كان الأثير الذي هو أصل المادة قويا متينا إلى هذا الحد أفليست أرواحنا والأرواح التي هي أعظم منها أمتن وأمن من الأثير فالأثير عظيم القوة مع أنه لا يثبت له أفلا تكون أرواحنا التي هي ألواح محفوظة أمتن منه وهي باقية بعد الموت ولها محفوظاتها ؟ أقول بعد هذا كله . إخواني سكان هذه المعمورة من أبناء آدم . أليس لي الحق بعد هذا كله أن أقول إننا جميعا نعيش ونموت وكأنا ألواح يقرؤنا سوانا لأنحن ، فنحن مقرئون لا قارئون . نعم نحن نقرأ ألواحنا غير محفوظة وهي المخالقات أماننا في كر القدادة ومر العنى ، وهذه المخالقات منع بقاءها تقاب الشمس وطلوعها من حيث لا نعلم . فنحن نخزنها وبهذا الخزن نكون أرقى منها . فإذا خزنا هذه المحفوظات عندنا وعلنا أن الملح والجسم يتغيران كل ثلاث سنين مرة حكمنا وجزمنا أن عندنا لوحا محفوظا حفظ العلوم عندنا والحوادث الجزئية وأن هذا الحفظ ليس يكون بلا علة والعللة فيه أنه باق في سطور النفس للانتفاع به إما في الحياة وإما بعد الموت ثم إننا نلاحظ أن هذا الإنسان كله مقبل لعظمائه سائر على خطواتهم فهو أبدأ مقبل للتأبين فيه أولمن لهم السيطرة العلية ، فالقانون أو الصناعة يبرزها واحد فتنبه أجيال . أفلا نقول إن أكثر الناس تابعون لاتبوعون ونقول ما هو أليق بمقامنا . إذا كان أكثر الناس لا يعلمون فإن قليلا منهم من تظهر لهم حقائق نفوسهم ويدركون المقصود منها ويعرفون نسبة نفوسهم إلى العوالم وأنها باقية لبقاء معلوماتها . وإنما قل هؤلاء في الإنسان وقرءوا أنفسهم لأننا أسأفنا أن هذا الإنسان يقل فيه التابعون في الفنون فأجدر بالندرة من يدرك هذا السر للصون إذن ثبت بالدليل الإقناعي أو القياس التمثيلي أن النادر من نوع الإنسان من يدرس نفسه ويعرف بعض سرها ويقبل أن الإنسان عالم صغير هو ظل للعالم الكبير .

وبهذا وحده يفهم الناس قوله تعالى في هذه الآية « ثم سواء ونفخ فيه من روحه » فإضافة الروح إلى الله يفسرها ما ذكرناه في هذا المقام تفسيرا مقدرًا بمقدار تصور نفوسنا الأرضية « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم - وأن إلى ربك المنتهى » والحمد لله رب العالمين . كتب قبل وبعد فجر يوم الاثنين ١٦

ديسمبر سنة ١٩٢٩ م

﴿ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » الخ ﴾

ورد في البخارى ومسلم عن ابن عمر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ السورة التي فيها السجدة فيسجد ويسجدون حتى ما كان أحد يجرد مكانا لوضع جبهته في غير الصلاة » .
وفي البخارى ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا » ٥١ .

يقول بعض العلماء « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » نزلت في انتظار صلاة العتمة . ويقال كانوا يصلون بين المغرب والعشاء وهي صلاة الأوابين . ويقول عطاء لابنم الإنسان حتى يصل العشاء الأخيرة والفجر في جماعة .

وفي حديث مسلم « من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله » .

هذه أقاويل ولكن أشهرها أن المراد بذلك صلاة الليل ولكل فضل ، ألا ترى إلى حديث مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد القرينة صلاة الليل » وإلى حديث البخاري ومسلم عن عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم الليل حتى تورمت قدماء ، فقلت لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال أفلا أكون عبدا شكورا » اهـ .

ومعنى هذا أن الإنسان يجب أن تكون عبادته لله ليتقرب إليه أي تكون العبادة حيا لا خوفا والشاكر للنعمة صاحب مهودة وهذه هي الهبة فلا معنى لحياة تكون كلها خوفا فيكفي الإنسان من الخوف ما أوجه الإيمان وليصدق إلى العلوم بالهبة وأن صلاة الليل تحدث شعورا نورانيا وإشراقا خاصا به تستعد النفوس للعلم والطمع هو اللقاه الأعلى وبه لقاء الله اهـ .

وقال صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة غرقا يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام » أخرجه الترمذي . وجاء تفسير قوله تعالى « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم » الخ من رواية البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . اقرأوا إن شئتم : فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » اهـ .

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾

(في قوله تعالى « أو لم يهد لهم كم أهلكنا » الخ وقوله « أو لم يروا أنا نسوق الماء من الخ)
ولقد تقدم في أول السورة أن (الم) تشير إلى أمر مهم في السورة وهو النظر في آثار الأمم وآثار رحمة الله وعلى ذلك تصبح هذه السور المتلاصقة للبدوة بهذه الحروف (الم) تدعو حينئذ إلى علم الكائنات ونظام الأمم وهذا هو الأمر الذي نام عنه المسلمون وأضاعوا بلادهم وخربوا حصونهم ، فباعجا لأمة الإسلام الساهية النائمة ، يوجهها الله على ترك النظر في القرون الحالية وعلى ترك النظر في الحقول والزارع والأمة ساهية لاهية نائمة . اللهم إني شرحت هذا للقام في السور السابقة . فتبين في هذا الكتاب نظام الحقول والزرع وعجائب الزرع ليفرح الشبان المسلمون ويحفظوا بلادهم ويرقوها ويتمتعوا بنعمة العلم والحكمة . وكذلك جاء فيه ما يفيد النظر في آثار الأمم السابقة ونظام المدن في الشرق والغرب . فليعلموا أن أمريكا ذهب أهلها الأولون وأفانام الأوربيون لأنهم لم يقاوموا تيار المدنية بل للندية أفنتهم وليس يبقى في الأرض بعد الآن إلا أمم قوية تعمار أرض الله وتستخرج كنوزها ، فإن لم يفعل المسلمون ذلك غضب عليهم غضبة فلا يرضى عليهم بعدها وينقل هذا الدين لقوم آخرين .

أيها المسلمون : كيف يتمتع أهل ألمانيا بجمال الطبيعة وأنتم محرومون ؟ وكيف علمهم الأساتذة في كتبهم أن يخرجوا صيفا للنبات البعيدة ليكثروا في الهواء الطلق أياما وأياما ، وكيف يخرجون أيام الثلج للتراكم في الشتاء إلى الآكام والجبال والقفار للكسوة كسا غليظة من القطع الثلجية وبرون في هذا سرورا وحبورا وجمالا ، وذلك كله للرجال والنساء على حد سواء . أليس هذا قوله تعالى « قل سيروا في الأرض » وقوله « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا » وقوله « أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز » فهذا وأمثاله

يشعر بإعاش النفوس وإخراجها من حضيض النوم والكسل إلى النشاط والجهد والعمل . انتهت اللطيفة الرابعة .

﴿ بهجة الحكمة : في قوله تعالى «وأما الذين فسقوا فأوامم النار» الخ ﴾

اعلم أن هذه الأرض نار متجمدة ، وكما أن جهنم فيها أما كن باردة وأخرى حارة هكذا أرضنا فكأن أرضنا جهنم مصفرة ، ولقد تبين لي أن الناس في هذه الأرض معذبون عذابا ممجلا وم لا يملون أنهم معذبون ، وعذاب الناس في الدنيا نموذج ومقدمة لعذاب الآخرة ، ألا ترى أن أكثر آيات العذاب في القرآن جاءت لإهلاك الأمم في الدنيا بالصواعق والحسف تارة وبالإغريق بالماء وبالإهلاك بالحواصب تارة أخرى .

سمع الله يقول لنا «أغرقوا فأدخلوا نارا» لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم» ويقول : «سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم» .

إذن الأرض قطعة من النار متجمدة فعذابها مخفف ملطف ، فإذا مات الناس ظهرت لهم جهنم الحقيقية ألت ترى أن باطن الأرض ملتهب وما هي إلا كالبطيخة سواء بسواء ، فالقشرة التي نعيش عليها كانت نارا فأصبحت جامدة لملاقتها للجو ، وهذا القام مستوفى في غير هذا المكان كسورة (آل عمران) وهذه القشرة تحتها نار متقدة . نعم إن علماء عصرنا قالوا [لكنهما مع هذا متجمدة أيضا مع شدة التها بها لشدة ضغط القشرة عليها] مخالفين في ذلك علماء السابقين ، ولقد ذكرت لك هناك أنها وصلت في حرارتها بمقدار نار الدنيا نحو (٧٠) مرة كما ورد في الحديث وقلنا إن هذا من آيات النبوة . ولما كان هذا شأن أرضنا ألقينا ما عليها يلتهب متى قربنا منه اللهب كالأشجار والنبات والقمح ، بل الطين نوقد عليه النار فيصير محرقا وتبقى الحرارة كامنة فيه تتقد شررا عند القدح ، وفي الأحجار شرر يستخرج بالقدح . والله يقول « إن الله سريع الحساب » ومن سرعة الحساب ما جاء في قوله تعالى « سراييلهم من قطران » وستقرأ في أول (سورة النبأ) تفصيل الكلام على أن القمح يستخرج منه القطران . وقد تقدم ذلك أيضا . وهذا القطران قد استخرجت منه أمة الألمان مئات الألوان وهي التي تراها في الملابس والأزياء وبها تنفق الأموال جزافا في الأسواق شرقا وغربا للزينة وهذه الزينة هي التي بها استنزفت الثروة ، وبها وحدها استعبد الغربيون الشرقيين ، أولئك الذين جنهم كجنة المسيح الدجال ، ظاهرها جنة وباطنها نار . فترى الرجال والنساء يلبسون أفخر الثياب بألوان زاهية من قطران القمح كاستراه موضعا في أول (سورة سبأ) كما قلنا ثم يتأديان في تبذير مالهما ومال الأمة والأفراد قهلا وتذلل بذمة التجارة ، وهذا هو سر حديث الدجال الذي نهينا فيه عن دخول جنته وأمرنا بدخول ناره وأن جنته نار وناره جنة ، ألا ترى أن هذا من سرعة الحساب ؟ وترى أحدنا إذا أكثر من الكلام أو الأكل أو شهوة الفرج أحس بألم في النفس وهو لا يعلم أن ذلك عقاب سريع تفسيرا لقوله تعالى « إن ربك لسريع العقاب » وهذا العقاب السريع تذكرة بالعقاب الكبير وهو مخفف سبعين مرة ، فلئن عذب الناس بهذا العذاب الخفيف في الدنيا فهذا سينموا فيكون سبعين ضعفا أو نحوها كما في الحديث . وأذكرك بما نقلته عن نابغة المند (غاندي) الزعيم الشهير في آخر (آل عمران) وفي خلال (سورة النساء) من أن التجارة هي التي بها هلك أهل الشرق واستعبدوا وأن الاستقلال في السياسة مع الاستعداد بالتجارة لا يثبت له وفي استبعاد التجارة القتل والهلاك ألا ترى أن هذه الآراء في زماننا تفسير لقول الله تعالى « إن ربك سريع العقاب » ولقوله « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

ومما يجانبني أن أمتنا المصرية أكثر الأمم ولوجا لنار الفرنجة بالتغالي والتهافت على الزينة والترف ، وهام

لولا أخذوا يسكرون في الخلاص من ذل التجارة وذل الاحتلال اللذين هما العقاب السريع الذي يقبه عذاب أشد «واقه غفور رحيم» .

عجب أن تكون النار واللأء عليهما حياتا وسعادتا، فلولا الحرارة في أرضنا ولولا اللأء فيها ما عشنا طرفة عين فيامتزاج الحرارة الشمسية واللأء تنمو نحن ونشمو نباتا ولكن اللأء إذا طغى علينا أهلكتنا والنار إذا طغت تحرقنا . فما به الحياة هو نفسه به الهلاك ، إذا لم يكن ماء كان القحط وإذا لم تكن حرارة معتدلة كان البرد المهلك فباعتدال الحرارة واللأء نعيش وبالإفراط والتعريط فيهما نهلك عذاب الأمم في القرآن بالإغراق أو بالصواعق فهل من عجب إذا كانت أصباغ القطران وهي الألوان في التجارة اليوم من أنواع العذاب المعجلة لما فيها من الإفراط والإسراف الذي يزيد النفوس حسرة على مالا ينالون من تلك اللابس فيفقدون أموالهم فيدلون ثم يستبدون أفرادا وأما . انتهى ليلة الخميس قبل الفجر في ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٩ م .

(خاتمة السورة)

(في مناسبة السورة لما قبلها ، وفي أن مانسكتبه في هذا التفسير هو من مقصود القرآن وبعض

أسراره التي ظهر بعضها ، وسيظهر أكثر من هذا بعد مفارقتنا هذه الدار على أيدي قوم أبرار)

اعلم أيها المكي أن الله قد جعل سورة السجدة بعد لقمان تذكيرا لنا بأن سعادة الدنيا والآخرة لن تتم إلا بالعلم أولا والعمل ثانيا على ترتيب (سورة الفاتحة) فأولها ذكر العوالم وهو العلم وآخرها العبادة والهداية وهو العمل فلقمان كأول الفاتحة والسجدة كآخرها ، فالعلم أجله علم الحكمة ولقمان حكيم ، وقد شرحت بحمل الحكمة هناك ، فأما العمل فمن أمه السجود الذي وردت فيه أحاديث كثيرة فانظر ما جاء في (الإحياء) بحث عنوان (فضيلة السجود) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما تقرب العبد من ربه إلى الله بشيء أفضل من سجود حتى» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من مسلم بسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة» وروى «أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مرافقتك في الجنة . فقال صلى الله عليه وسلم ، أعني بكثرة السجود» وقيل «أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجدا» وهو معنى قوله عز وجل «واسجد واقترب» وقال عز وجل «سماهم في وجوههم من أثر السجود» وهو نور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر ، وقيل هي الغرر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء ، وقال صلى الله عليه وسلم : «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول يا ويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فعصيت فلي النار» .

ويروي عن علي بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجادة ، ويروي أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لا يسجد إلا على التراب ، وكان يوسف بن أسباط يقول : يامعشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فما بقي أحد أحسنه إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بيني وبين ذلك . وقال سعيد بن جبير : ما أسي على شيء من الدنيا إلا على السجود . وقال عقبه بن مسلم : ما من خصلة في العبد أحب إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل ، وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل منه حيث يحمر ساجدا .

هذا نص ما جاء في الإحياء ومعلوم أن في الإحياء أحاديث ضعيفة ولكن أجاز العلماء إيراد الضعيف في فضائل الأعمال ، انتهى والله أعلم .

فلما اطلع على هذا صاحبي قال يا سبحان الله . نعم هذا حسن ولكنه حسن في ذاته . أما هذا التطويل في التفسير فليس تفسيراً بل هو علم وخير لك أن تقول هذا كتاب علوم لا كتاب لتفسير القرآن . فقلت بل هذا تفسير . فقال قل ما تشاء ولكني على رأيي . فقلت انظر أيها الأخ إلى نظام الطبيعة . أليس هذا النوع

الإنسان؟ كلما تعمق فيه أتى ب فوائد جميلة، نحن كما نكتفي ركوب الدواب فتممها في بحث اللادة فاستخرجنا الكهرياء والغناطيس فكانت أنفع كما الفناء وهكذا اللاحق من النافع الطبيعية أشرف وأرقى من السابق وأعم نفعا فقال أريد بهذا أن تطويلك في التفسير وإدخالك عجائب الجسم الإنساني والروح فيه وانتظامها ومشابهاها للكواكب وللننازل وللعوالم الأربعة وهي الأرض وما فوقها . ولما خلق فوق الأرض من معدن ونبات الخ . أريد بهذا أن تقول إن هذا التطويل وشرح العوالم كلها وقياسها على جسم الإنسان ثم العروج من ذلك كله إلى معرفة عظمة الله في ملكه التي شرحتها آنفا . أقول أريد أن هذا العمل منك خير من الاختصار على التفسير اللفظي للقرآن وفهم بلاغته وصرفه ونحوه ورد الاعتراضات الواردة في مصطلحات العلوم على الآيات ، ثم إنك تجعل هذا كله تفسيرا لقوله تعالى « الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ، ثم سواه وتفتح فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » .

إذا كان هذا رأيك ، وأن ما فعلته أنت أفضل من غيره مما ذكرته لك وأن نسبة هذا القول منك إلى نظام التفسير اللفظي وما يحيط به فيما تقدم كنسبة نور الكهرياء ومنافع الآلات الحديثة إلى آلاتنا القديمة وأدواتنا الموروثية . أقول إذا كان هذا رأيك فلتعلم أني خالفتك وجميع المسلمين على خط مستقيم . يا عجايبك وألف عجب ، عندي على رد قولك ألف دليل ودليل . ألم تسمع ما قيل : وخير ما فسرته بالوارد : أين أنت من تفسير الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين والملاء والمجتهدين . ألم تعلم أن التفسير بالرأى ممنوع ، أنت مفسر بالرأى لا غير والله شهيد على ما أقول . فوائده إذا أنا كنت هذا فلينتظن به كل الناطقين بالضاد ولتعلن نأه قريبا وبعد حين والله هو الولي الحميد .

قلت له : أولو جشك بشي . ميين ، فقال وأي بان حد وأنى لك أن تدحض هذه الحجج الدامغة ولكن سأسمع ما تقول ، فإن كانت لديك حجج فأنت بها إن كنت من الصادقين ، قلت سألتخص لك ماجاء في (الإحياء) في [الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل] وإن كان قد تقدم بعض في هذا التفسير ، فقد لا بأس بإيراده ، فقلت هذا نص ماقاله :

لعلك تقول عظمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرآن وما يشكك لأرباب القلوب الزكية من معانيه فكيف يستحب ذلك ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المفسرين المنسوبين إلى التصوف في تأويل كلمات في القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين وذموا إلى أنه كفر ، فإن صح ماقاله أهل التفسير فلامعنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره ، وإن لم يصح ذلك فلامعنى قوله صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » فاعلم أن من زعم أن لامعنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو محرم عن حد نفسه وهو مصيب في الإخبار عن نفسه ولكنه مخطئ . في الحكيم برد الحق كافة إلى درجته التي هي حده ومحطه ، بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن مقسما لأرباب الفهم . قال على رضى الله عنه : إلا أن يؤتى الله عبدا فهما في القرآن ، فإن لم يكن سوى الترجمة للنقولة فما ذلك الفهم ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « إن القرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا » وبروي أيضا عن ابن مسعود موقوفا عليه وهو من علماء التفسير في معنى الظاهر والباطن والحد والمطلع . وقال على كرم الله وجهه : لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير طائفة الكتاب . فما معناه ؟ وتفسير ظاهرها في غاية الاختصار ، وقال أبو النرداء : لا يفقه لرجل حتى يجمل للقرآن وجوها . وقد قال بعض العلماء : لكل آية ستون ألف فهم ومابقي من فهمها أكثر . وقال آخرون : القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم إذ كل كلمة علم ، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف . إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد مطلع . وترديد رسول الله صلى الله عليه وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم » عشرين مرة لا يكون إلا لتدبره باطن

صاتها وإلا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لا يحتاج مثله إلى تكرير . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن ، وذلك لا يحصل بمجرد تسميه الظاهر .

وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته وهله العلوم لأنها لها ، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها والقامات في التصق في تسميه راجع إلى فهم القرآن ومجرد ظاهر التفسير لا يشير إلى ذلك بل كل ما أشكل فيه على النظر واختلف فيه الخلائق في النظريات والمقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها ، فكيف ينفي بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره وذلك قال صلى الله عليه وسلم «اقرأوا القرآن والنسوا غرائبها» وقال صلى الله عليه وسلم في حديث على كرم الله وجهه «واللهي بشئ بالحق نبيا انفترقن أمق عن أصل دينها وجماعها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار ، فإذا كان ذلك فليسكن بكتاب الله عز وجل فإن فيه نبأ من كان قبلكم ونبأ ما يأتي بعدكم وحكم ما بينكم من خالفه من الجبارة قصمه الله عز وجل ومن ابني العلم في غيره أضله الله عز وجل وهو جل الله للتين ونوره للبين وشفاهة النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه لا يوجع فيقوم ولا يزيغ فيستقيم ولا تنقض عجايبه ولا يخلقه كثرة التردد» الحديث .

وفي حديث حذيفة «لما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والفرقة بعده قال قفقت يا رسول الله فإذا تأمرني إن أدركت ذلك؟ فقال : تعلم كتاب الله واعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك ، قال فأعدت عليه ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم ثلاثا تعلم كتاب الله عز وجل واعمل بما فيه فيه النجاة» وقال على كرم الله وجهه : من فهم القرآن فسر به جمل العلم . أشار به إلى أن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا» يعني الفهم في القرآن . وقال عز وجل «فهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما» سمي ما آتاها علما وحكما وخصص ما انفرد به سليمان بالنطق له باسم الفهم وجمله مقدما على الحكم والعلم ، فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالنا وأن المتقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه ، فأما قوله صلى الله عليه وسلم «من فسر القرآن برأيه» ونبيه عنه صلى الله عليه وسلم وقول أبي بكر رضي الله عنه : أي أرض تفتني وأي سماء تظلمني إذا قلت في القرآن برأبي ، إلى غير ذلك مما ورد في الأخبار والآثار في النهي عن تفسير القرآن بالرأي فلا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على العقل والسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم ، أو المراد به أمرا آخر وباطل قطعاً أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما يسمعه لوجوه (أحدها) أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسندا إليه وذلك بما لا يصادف إلا في بعض القرآن ، فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغي أن لا يقبل ويقال هو تفسير بالرأي لأنهم لم يسمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم (والثاني) أن الصحابة والمفسرين اختلفوا في تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها وسماح جميعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم محال ولو كان الواحد مسموعا لرد الباقي فتبين على القطع أن كل مفسر قال في المعنى بما ظهر له باستنباطه حتى قالوا في الحروف التي في أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها قيل إن (الرس) هي حروف من الرحمن ، وقيل إن الألف الله واللام لطيف والراء رحيم وقيل غير ذلك والجمع بين السكك غير ممكن فكيف يكون السكك مسموعا (والثالث) أنه صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس رضي الله عنهما وقال «اللهم فقهه في الدين وعلله التأويل» فإن كان التأويل مسموعا كالتزويل ومحفوظا مثله لما معنى تخصيصه بذلك (والرابع) أنه قال عز وجل «لعلله الذين يستنبطون منهم» فأثبت لأهل العلم استنباطا . ومعلوم أنه وراء السماع . وجملة ما قلناه من الآثار في فهم القرآن يناقض هذا الجبال ، فيطل أن يشترط السماع في التأويل وحاز السكك واحد أن يستنبط من القرآن قدر فهمه وحد عقله .

وأما النهي فإنه ينزل على أحد (وجهين: أحدهما) أن يكون له في الشيء رأى وإليه ميل من طبعه وهو ما فينا أول القرآن على وفق رأيه وهو ما ليحتج على تصحيح غرضه ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لسكان لا يلوح لمن القرآن ذلك للمنى، وهذا تارة يكون مع العلم كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه، وتارة يكون مع الجهل ولكن إذا كانت الآية محتملة فهمه إلى الوجه الذى يوافق غرضه ويرجع ذلك الجانب برأيه وهو ما فيكون قد فسر برأيه أى رأى هو الذى حمل على ذلك التفسير ولو لا رأيه لما كان يرجح عنده ذلك الوجه، وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما يريد به كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار فيستدل بقوله صلى الله عليه وسلم «تسحروا فإن في السحور بركة» ويزعم أن المراد به للتسحر بالتذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل وكالذى يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله عز وجل «أذهب إلى فرعون إنه طغى» ويشير إلى قلبه ويوسىء إلى أنه المراد بفرعون، وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في القاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع وهو ممنوع وقد تستعمله الباطنية في القاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فيزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة به، فهذه القنون (أحد وجهى المنع) من التفسير بالرأى ويكون المراد بالرأى القاصد للوافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح والرأى يتناول الصحيح والقاصد والوافق للهوى قد يخص باسم الرأى (والوجه الثانى) أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسباع والنقل فيما يتعلق بفرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والبدلة وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة من يفسر بالرأى، فالنقل والسباع لا بد منه في ظاهر التفسير أولا ليقى بمواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط والفرائب التى لا تفهم إلا بالسباع كثيرة [٥١].

فلما سمع صاحب ذلك قال والله لقد أوجبت علم وفهم. قلت إذن أقول لك ما وقع فى نفسى منذ أيام الصبا ذلك أتى رأيت هذه الأمم الإسلامية كثيرة الاختلاف، وقد ظنوا أن هذا الخلاف يفصل بينهم فقلت فى نفسى إن التفسير على هذا النمط يكون أشبه بالقدر طبخت فيه جميع اللذاهب، فهل يقدر الشافعى أو الحنفى أو الحنبلى أو الشيعى أو الزيدى بل واليهانى والأحمدى. أقول هل يقدر أحد من هؤلاء أن يقول إن عجائب صنع الله عز وجل وجمال حكمته تناقض مذهبه؟ كلا ثم كلا. ألت توافقنى وأنا منشرح الصدر مبهج النفس موقن بما أقول إن أمثال هذا التفسير مما يكتبه العقلاء فى الإسلام اليوم أشبه بما جاء فى حديث حذيفة إذ يقول له صلى الله عليه وسلم «تعلم كتاب الله وأعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك» ولما أعاد عليه ثلاثا الحديث أعاد إليه الجواب ثلاثا وذلك فى مقام المخرج من الاختلاف والفرقة، فإذا رأينا المسلمين اليوم مفترقين فإننا نقول هذا الانشقاق وهم. فهاهو ذا القرآن فوق مذاهبكم، فالحق والحق أقول: إننى واثق بما أقول موقن أن الله عز وجل أراد ارتقاء هذه الأمة ولم شعثها وستجتمع قلوب المسلمين على أمثال هذه المعانى فى أمثال هذا التفسير، فقال هذا البيان قد شرح صدرى. فقلت الحمد لله رب العالمين. انتهى تفسير سورة السجدة.

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الخامس عشر من كتاب (الجواهر) فى تفسير القرآن الكريم

وبليه

الجزء السادس عشر: وأوله تفسير سورة الأحزاب

فهرس

الجزء الخامس عشر

من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صغيفة

- ٢ (مقدمة) في مناسبة السورة لما قبلها . آخر ما قبلها وأوله جهاد . هكذا أول هذه السورة .
- ٣ تقسيم السورة إلى (أربعة أقسام : القسم الأول) في تفسير البسملة وابتدائه بمنظر التريا وما معها من النجوم وهي أربع مجموعات . وبيان أن هذه الصفائف الدائرة حولنا مطويات يمين كاتبها وهو يدبرها حولنا لنقرأها علما منه أننا إن تقدر على تحريكها كأنحرك صفائفنا السوداء التي كتبناها نحن ، وفيه فصلان : (الفصل الأول) في الكلام على الآلام التي تعرض لأبدان الحيوان .
- (الفصل الثاني) في الكلام على الضرب والكسر والصدم والجرح والحرق والبرد والأمراض والأقسام وكل ما يضر الجسد ويفسده .
- ١٢ (القسم الثاني) في تفسير ألم وبيان ملخص ماجاء في (سورة آل عمران) من معاني هذه الحروف وأنها ثلاثة أقسام .
- ١٤ اعتراض على المؤلف بتكرار الأقاويل في التفسير والجواب عليه بان قصص القرآن وكلام رجال السياسة وخطبهم وجرائدكم تكون في الموضوع الواحد سنين وسنين وهكذا .
- ١٧ (القسم الثالث) من الأقسام الأربعة لهذه السورة من أولها إلى « وهو العزيز الحكيم » وهو مشكل وتفسيرها تفسيراً مجملًا .
- ١٨ التفسير اللفظي من أول السورة إلى قوله تعالى « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .
- ٢٠ لطيفة في قوله تعالى « أولم يتفكروا في أنهم هم » وذكر تاريخ (علم الأرواح) . وبيان كيفية محادثة الأرواح .
- ٢١ الكلام على تحضير الأرواح .
- ٢٣ تفسير قوله تعالى « أولم يسبروا في الأرض » تفسيراً لفظياً إلى « وأما الذين كفروا وكذبوا » .
- ٢٤ التفسير اللفظي لقوله تعالى « نسبحان الله حين تمسون » الخ . وبيان أن (١٧) ركعة هي الواجبة بالليل والنهار .
- ٢٥ تفسير بقية الآيات والبحث في معنى عجائب قوله « وجعل بينكم مودة ورحمة » وأن الزوجين يتماشقان لمجرد الشهوة أولاً وهذا الحب مقدمة لحب أعلى منه بقرينة القرينة وللشاركة في نظام النزل .
- ٢٧ تفسير لفظي لآية « ومن آياته خلق السموات والأرض » إلى « وهو العزيز الحكيم » .
- ٢٨ (خمسة لطائف : الطبيعة الأولى) في قوله تعالى « ومن آياته أن خلقكم من تراب » وبيان ما أعلنه (ستلانه) و (سبنسر) أن علماء أوروبا في فلسفة النفس ومبدأ العالم عالة على علماء اليونان ، وذكر محادثة (طبائوس الحكيم) إذ ذكر خلق الماء والهواء الخ وأبان أن المادة منتيرة .
- ٣٠ نظرة في موازنة (طبائوس وسقراط) مع ماورد في الصلاة في ديننا .
- ٣٧ الإنسان آلة ميكانيكية عجيبة . إحصاء حركة أجزاء الجسم .

- ٣٢ (اللطيفة الثانية) في قوله تعالى «ومن آياته خلق السموات والأرض . واختلاف ألسنتكم واللوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين» .
- ٣٤ الكلام على أنواع ثلاثة من (حشرة أبي دقيق) وأشكالها .
- ٣٦ رسم (شكل ١) وفيه حشرة لاسلح لها وهي الوزير وحشرة لها سلاح هي الأمير وقد تشابها فنجبا مالا سلاح له بمشابهته بما له سلاح عند (نهر تياجوس) .
- (شكل ٢) حشرة أبي دقيق التي تعيش في أعلى نهر الأمازون
- ٣٧ (شكل ٣) الحشرة أيضا التي تعيش في أمريكا .
- (شكل ٤) الحشرة التي تعيش في أفريقيا .
- (شكل ٥) الحشرة التي تعيش بقارة أفريقيا أيضا .
- ٣٨ (شكل ٦) الحشرة الشديدة السواد التي تعيش بأفريقيا أيضا .
- (شكل ٧) أيضا .
- (شكل ٨) أيضا والجمع عيشتهن في (ملقا) وفي (بورنيو) .
- ٣٩ (شكل ٩) أيضا وهي ذات سلاح .
- ٤٠ (شكل ١٠) ثعبان لاسم له أشبه ماله سم .
- ٤١٤ الكلام على الطيور للقلبات لتتق الحطير وهي شائعة الأقسام (شكل ١١) .
- خطاب للمسلمين
- ٤٥ (بهجة العلم في حشرة أبي دقيق) وفي أن الطوائف الثلاث من (حشرة أبي دقيق) متعاهدات على أن يحملن سلاحا واحدا في قارات الأرض .
- درجات العقول وبيان فهمها في هذه المعاني .
- ٤٦ الكلام على الحشرات الزهرية وأشكالها .
- ٤٧ (شكل ١٢) صورة الجندب الصلي بشكل زهرة .
- (شكل ١٣) صورة الجندب الصلي وفريسته في قبضته .
- ٤٨ خداع الحيوان . أمثلة غريبة .
- (شكل ١٤) ديموس حشرة واقف بين الفصنين الكبيرين كأنه غصن آخر .
- (شكل ١٥) حشرات تبدو كأنها غصون شائكة .
- ٤٩ (شكل ١٦) حشرة تترامى كأنها ورقة وفراشة قد أنقنت محاكاة الورقة حتى في المروق .
- (شكل ١٧) حشرات محاكي الزهر .
- ٥٠ نور على نور في آية «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم واللوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين» . بيان أن الذهب من طام الحشرات .
- ٥١ الكلام على اللطيفة الثانية المناسبة للطينة الخامسة . وفيها ثلاثة مقاصد .
- ٥٢ المقصد الأول تنوع المادة .
- (كشف علمي جديد) استخراج البترول من القمح .
- ٥٤ تحقيق شخصية المجرم .
- ٥٥ المقصد الثاني الكلام على الحروف .

- ٥٦ الاختلاف في اللسان .
- ٥٧ حكمان في تقارب اللغات : الحكمة الأولى فيما يجم اللغات كلها .
- ٥٨ الحكمة الثانية فيما يختص ببعض اللغات وبعض الأمم .
- ٥٩ القصد الثالث : في نظام المدارس المفهوم من هذه الآية .
- ٦١ (اللطيفة الثالثة) في قوله تعالى « ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله » وفيها ثلاث عجائب العجبية الأولى الانتفال العسكري .
- ٦٤ العجبية الثانية اكتشاف جريمة بعد عشر سنين .
- العجبية الثالثة تشقية الحيوانات وهل هي ممكنة للإنسان .
- ٦٥ (شكل ١٨ صورة الضب الأمريكي) الذي قضى ٣١ سنة وهو حي لا يأكل ولا يشرب .
- ٦٦ (شكل ١٩) سمكة متجمدة في الثلج إذا ذاب عنها عادت إليها الحياة .
- ٦٩ الحياة بحق للحب . ويان أن الحي الكائن يعيش ألف سنة .
- ٧٠ الكلام على النوم وساعاته وما يناسبه . وأوقات النوم وعدد ساعاته .
- ٧١ الكلام على فراش النوم . وتجديد الهواء في قاعات النوم والفراش والرياضة البدنية وفوائدها .
- ٧٢ أنواع الرياضة البدنية المختلفة ، العموم والتجديف ، ركوب الدراجات ، المشي . الجباز والتجربينات الحربية ركوب الخيل ، الصلاة .
- ٧٣ (القسم الرابع) من السورة أوله « ضرب لكم مثلا من أنفسكم » إلى آخر السورة .
- ٧٤ التفسير اللفظي .
- ٧٧ تفسير قوله تعالى « ظهر الفساد في البر والبحر » الخ .
- ٧٨ جوهرة : في قوله تعالى « فطرت الله التي فطر الناس عليها » وفي هذه الجوهرة أربع لطائف :
- اللطيفة الأولى : في البحث عن خالق العالم والإذعان للربوبية .
- ٨٢ اللطيفة الثانية : في العلوم الرياضية .
- ٨٨ اللطيفة الثالثة : في العلوم المنطقية .
- ٨٩ التفاحة واللين .
- ٩٠ مقاييس العقول التي تقيس بها الماني فتعرف صادقها وكاذبها .
- الجدل ، والخطابة ، والسفطة ، والشعر .
- ٩١ مراتب الناس في الاستدلال .
- ٩٣ (اللطيفة الرابعة) بيان فطرة الإنسان في مظاهر الخواص .
- ٩٦ جوهرتان : الجوهرة الأولى في قوله تعالى « ظهر الفساد في البر والبحر » . ويان نسكة العالم من ذوات الأسنان الدقيقة .
- ٩٧ الأمراض للعدي .
- ١٠٧ سورة لقمان وتقسيمها أربعة أقسام : القسم الأول في تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » التي فسرت في سورة الفاتحة وفي سورة هود .
- ١٠٨ القسم الثاني والثالث : يان أن معاني أسماء الله الحسنى كلها ترجع إلى ذاته وصفاته والقرآن مفصل لمعاني الأسماء ، واختصاص الله الرحمن الرحيم بالقول في هذا المقام ، وذكر الأسماء التسعة والتسعين هنا .
- فصل : في بيان أن كمال العبد وسعادته في التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلل بمعاني صفاته الخ .
- ١١٧ يان أن الله أعظم الأسماء .

- ١١٨ تلخيص اللقائم كله في ثمان مسائل .
- ١١٩ موازنة بين أسماء الله الدالة على صفاته التي لا تنضم إلا بآثارها في الوجود ، وبين اللقومات العشر عند اليونان وأن هذه الأسماء تتأبجها العلوم واللقومات كذلك .
- ملخص سورة لقمان .
- ١٢١ القسم الثاني . الكلام على معنى «الم» .
- ١٢٢ القسم الثالث من أول سورة لقمان إلى قوله تعالى « لصوت الخبير » مشكلاً .
- ١٢٣ التفسير اللفظي من أول السورة إلى قوله تعالى « لصوت الخبير » .
- ١٢٥ لطيفتان : اللطيفة الأولى في معنى آية « وإذ قال لقمان لابنه » .
- اللطيفة الثانية في لقمان من هو ؟ ومن أي الأمم هو ؟ الخ .
- ١٢٦ (نوادير لقمان) وذكر النادرة الأولى والثانية والثالثة .
- (النادرة الرابعة) مسألة اللسان والضيوف ، ثم إيضاحه بتأبج استبعاد الأمم .
- ١٢٧ حكاية الصرار والنملة .
- ١٢٨ الحكمة في ذكر لقمان الحكيم مع أن أمره غير بين من حيث النسب .
- (القسم الرابع) من السورة أوله « ألم تروا أن الله سخر لكم » إلى آخر السورة .
- ١٢٩ التفسير اللفظي .
- ١٣١ شذرات على آية « إن الله عنده علم الساعة » الخ .
- (لطيفة) في قوله تعالى « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » الخ .
- ١٣٤ ذكر العجائب في أسماء السور كالتلخ والنحل والشعراء والعنكبوت ولقمان وهكذا .
- ١٣٥ إجمال حكاية : الكلب والذئب ، الجدوى والنعجة والسيب ، الذئب والحروف ، الذئب والبطة ، السبع والحمار ، الحصان والذئب ، الثعلب والغيب ، الطاوس ، القراب للقلد .
- ١٣٦ ذو القرنين والشابهة بينه وبين لقمان وأن جهل أمته كل منهما لعرف أن المدار على صفاتهما . ويان أن اسم ذي القرنين جاء في آثار قدماء المصريين بالكشف الحديث يرجع لقرن الكباش كثير التناسل .
- ١٣٨ الحكاية الأولى في الحمار حامل للحم والحمار حامل السفنج .
- ١٣٩ حكاية شجرة البلوط والسنبلة .
- (حكاية البقلة) إذ افنخرت بأن صاحبها عظم اللقائم فلما كبرت دارت في الطاحون .
- الضفادع وزواج الشمس .
- حكاية كلب ترك الرغيف .
- حكاية الشبغ وحمارة وابنه .
- الرجل والبرغوث .
- ١٤١ حكاية الثعبان والبرد .
- الديك الحصى والصقر .
- ١٤٢ حكاية الكلبين وجيفة الحمار .
- الصيد والطائرة .
- ١٤٣ كتاب (كليلة ودمنة) والكلام على يدبا الفيلسوف ودبشليم ملك الهند وباب الأسد والثور والحمامة للطوقه واليوم والفربان والقرود والفيل والناسك وابن عرس وابن الملك والطائر فزة وهكذا .
- ١٤٤ (الفصل الأول) أقدم كتاب في العالم .
- حكمة قدماء المصريين .

- ١٤٥ ذكر نساخ (قالنا الحكيم) المصري وهي سبع .
 ذكر أمثال (فتاح حنبل) الحكيم المصري وهي (٥٢) حكمة ، أولها في فضيلة التعرف بأعظم الرجال
 وآخرها في آفات كبر السن .
- ١٤٧ الفصل الثاني نساخ الحكيم المصري (آني) وهي (٥٠) حكمة أولها الإخلاص لله وآخرها بيان أن الحب أعمى .
- ١٥٠ حكم الحكيم المصري (أميت بن كاتحت) وجدت في (ورقة لندن البردية) منذ ثلاثة آلاف سنة وهي
 أربع وعشرون حكمة .
- ١٥١ (ورقة ليد البردية) منذ (٢٥٠٠) سنة وهي أربع وثلاثون حكمة .
- ١٥٢ بهجة الحكمة في قوله تعالى « ولقد آتينا لقمان الحكمة » .
- ١٥٤ بهجة الحكمة أيضا في هذه الآيات .
- ١٥٥ شجرة من فلسفة الصين .
 شجرة من فلسفة الهند .
 شجرة من فلسفة اليونان .
- ١٥٦ الكلام على الخير والشر . وذكر سقراط .
- ١٥٧ محاوره بين سقراط وتلميذه (ميماس) .
- ١٥٨ بيان أن أفلاطون من أهل أثينا وقد اتقطع للعلم (٤٨) سنة فأبرز الجمهورية :
 طبقات الشعب كطبقات الجحيم : زراع ، جند ، فلاسفة ، كالبلطن ، والصدر ، والدماغ .
- ١٥٩ ذكر (ايقور) و (سنيكا الروماني) .
- ١٦٠ (زهرة من بساين الحكمة) وهي حكاية ملك الهند مع وزيره .
- ١٦٣ آثار الحكمة والعلم في الأمم الحاضرة
- ١٦٤ حوادث فلسطين .
- ١٦٨ (شكل ٢١) رسم جراف زبلن .
- ١٦٩ أعجوبة البحار هي (زهرنجن) الألمانية .
- ١٧٠ الكلام على رحلة المنطاد زبلن إلى القطب الشمالي .
- ١٧١ قوى الطبيعة لا تنفد .
- بيان أن الكيمياء تخلق رجالا ونساء .
- ١٧٢ الكلام على المكتب الدولي للصحة العامة بباريس .
- ١٧٤ الفلسفة العربية .
- ١٧٧ تعريف الفلسفة وتفسير معناها .
- ١٧٨ أقسام العلوم الحسكية : القسم الأول الرياضيات .
- ١٨٠ القسم الثاني المنطق بقسميه .
- ١٨٢ القسم الثالث : العلوم الطبيعية من العلوم الفلسفية العلمية .
- ١٨٢ أقسام العلوم الطبيعية .
- ١٨٣ القسم الرابع : العلم الإلهي أو السكلي .
- ١٨٥ تفسير سورة السجدة وهي (قمان : القسم الأول) في تفسير البسملة .
- ١٩٠ فصل : في بيان كيفية أنواع الحيرات والشرور في هذا العالم .

- ١٩١ فصل : في بيان القصد الأول والقصد الثاني على قول الحكماء .
- ١٩٥ القسم الثاني : السورة بنامها وقد وضع مشكلا .
- ١٩٦ التفسير اللفظي .
- ١٩٩ لطائف هذه السورة أربع . (اللطيفة الأولى) فيها تنزل الأمر الإلهي ورجوع الأمر إلى الله .
- ٢٠٦ (اللطيفة الثانية) في قوله تعالى «الذي أحسن كل شيء خلقه» الخ .
- ٢٠٧ شكل ٢٢ وهو ورق شجرة مكبر أربع مرات وهو هندسى بديع .
(شكل ٢٣) نبات فيه شكل سنان الرمح .
- ٢٠٨ (شكل ٢٤) سيقان وجذور القرع مكبرة أربع مرات .
- (شكل ٢٥) نبات يسمى شعر العذراء بأمر يكا يشبه قضبان الحديد التي كانت تسور الحدائق والقصور في القرن الخامس عشر .
- ٢٠٩ (شكل ٢٦) نبات شكله يشبه النجف .
- (شكل ٢٧) ورق جف على عود كأنه مقبض سيف أو حلية تنقش على الأسلحة .
- (شكل ٢٨) صورة سنان رمح من عند الله .
- (شكل ٢٩) نبات كأنه شعبة من شعاب الماء أو كأنه حلية للنوافذ .
- ٢١٠ (شكل ٣٠) نبات كأنه حلية صليب الأسقف .
- (شكل ٣١) شجر الزيبب الأسود وهي حلية بديعة .
- ٢١١ (شكل ٣٢) نبات هو روح الرقص واسمه خائق القثب .
- (شكل ٣٣) نبات السرخس ، وهو بحث في جنح شجرة الكثرى وفي الشكل (٣٤) .
- ٢١٢ (شكل ٣٥) قطعة من ساق شجرة الكثرى وبيان وصفها ثم الأشكال من (٣٦) إلى (٤٠) وهي عبارة عن النخلة الصغيرة والكبيرة ووصف طولهما .
- ٢١٣ إيضاح الأشكال وهي (٥) من شكل ٣٦ إلى شكل ٤٠ .
وصف هيكل شجرة النخل .
- ٢١٤ معجزة نبوية .
- ٢٢١ (القسم الثاني) في إحسان خلق أفضل الحيوان وهو الإنسان ، وفيه أن الذي يذكر هنا (٦) فصول (الفصل الأول) في جهاز التنفس وفي كيفية دخول الهواء من الأنف إلى الرئتين .
كيفية التنفس وأن الهواء يدخل الحجر فالتصبة الهوائية فالشعب الخ .
- ٢٢٢ (شكل ٤١) الرئتان والشعب والقصب الهوائية :
(شكل ٤٢) الحويصلات الرئوية .
- ٢٢٢ (شكل ٤٣) تركيب الرئتين .
- الفصل الثاني الجهاز الهضمي .
- ٢٢٣ (شكل ٤٤) رسم أعضاء الهضم .
- الكلام على الجلد وبيان تنازله العرق .
- (شكل ٤٥) رسم تطلع من الجلد .
- ٢٢٤ الفصل الثالث المجموع العصبي وهو اللغز والنخاع .

- ٢٢٤ (شكل ٤٦) المجموع المصبي .
 الفصل الرابع عضو اللسان .
 ٢٢٥ (شكل ٤٧) رسم اللسان .
 (شكل ٤٨) رسم الأنف .
 الفصل الخامس عضو الشم .
 الفصل السادس في عدد الأسنان .
 ٢٢٦ (روضات الجنات) وفيه بيان أدب اللغة وأدبيات اللغة والفرق بينهما الخ .
 ٢٢٨ بيان أن هذا المقام يرجع إلى فصلين :
 الفصل الأول : الأمثال الضرورية للنفس مع الجسد .
 ٢٢٩ في قياس الجسد على نظام العوالم .
 بيان أن الإنسان مختصر اللوح المحفوظ .
 ٢٣١ طبقات جسم الإنسان وطبقات المجموعة الشمسية .
 بروج السماء ونظائرها في الإنسان .
 ٢٣٣ الكلام على القوى الخمس الباطنة .
 للقصد الثاني في الموازنة بين تركيب جسد الإنسان وطبقات العوالم السفلية .
 ٢٣٥ صفات للمادن والنبات والحيوان كلها في الإنسان .
 ٢٣٧ كيفية نشوء الأنفس في الأجساد البشرية الطبيعية .
 ٢٣٨ (كشف واستبصار) في معنى قوله تعالى «وجعل لكم السمع والأبصار» الخ ولم قدم السمع على أخويه مع أيهما أفضل ؟
 ٢٣٩ (حكمة) في تبيان تكرار هذه الثلاثة في القرآن وأن شكرنا عليها قليل .
 ٢٤٢ كيفية استنتاج نظام علم التوحيد، ونظام الملوك والممالك، ونظام الحكماء مع أهمهم ، واحتلال القوى أرض الضعيف .
 ٢٤٣ الكلام على النظام الثالث وهو نظام حكماء الأمم معبراً
 بيان أن الأمم القوية تمتنع الضعيفة قياساً على جسم الإنسان إذا خلصت منه الروح .
 ٢٤٥ خطاب لنوع الإنسان .
 ٢٤٧ اللطيفة الثالثة في قوله تعالى «تجاني جنوبهم عن الضاجع» الخ الآية .
 ٢٤٨ اللطيفة الرابعة في قوله تعالى «أولم يهد لهم كم أهلكنا» الخ الآية وقوله تعالى «أو لم يروا أنا نسوق الماء» والأحاديث الواردة في قيام الليل .
 ٢٤٩ (بهجة الحكمة) في قوله تعالى «وأما الذين فسقوا» الخ . وبيان أن الأرض نار متجمدة وقشرتها بردت وأهلها معذبون في الدنيا عذاباً مخفياً .
 ٢٥٠ خاتمة السورة في مناسبة السورة لما قبلها الخ .
 ٢٥١ اعتراض على المؤلف بأن هذا ليس تفسيراً بل هو علوم وكان يكفي التفسير اللفظي الخ .
 ٢٥٢ تفسير القرآن بالرأى على وجهين .

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

لشمس علي عجمي بنع المكنون وغريب الدبابة

تأليف

الأستاذ الحكيم شيخ طنطاوي جوهرى

للمدرسة الجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
تتبع الله المسلمين بانه آمين

الجواز الثاني عشر

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بطبعة

مصطفى الباقى الحلبي وأولاده بمصر

بمباشرة محمد امين عثمان

« وَذَكَرْنَا فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ »

« قرآن كريم »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الأحزاب

(هي مدنية)

(وآياتها ثلاث وسبعون . نزلت بعد آل عمران)

وهي ثلاثة أقسام

[القسم الأول] في تفسير البسملة .

[القسم الثاني] في مقدمة السورة ، وفي مناسبتها لما قبلها ، وفي غزوة الأحزاب من أول السورة إلى قوله تعالى « وأرضنا لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديرا » .

[القسم الثالث] في أحكام أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وما أشبه ذلك من قوله تعالى « يا أيها النبي قل لأزواجك » إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

سأذكر هنا تفسيرها من وجهين : الوجه الأول يبان كيف كانت الرحمة فيها ملئمة سورة السجدة السابقة على هذه لتوازن الرحمة فيها هناك بالرحمة في هذه السورة وأن ذكرها في أول كل منهما لمناسبة الرحمة التي جادت في أثناء آيات السورة وما قدمناه في أول سورة السجدة في تفسير البسملة لم نذكر فيه يبان هذا المعنى ، بل ذكرنا هناك أولا الفرق بين صفة العبد وصفة الرب وضرينا مثلا بالبرق والشمس وأبنا الرحمة في الحقول والطيور والأنعام والأشجار في البر والبحر ومعاني أسماء الله الحسنى في نفس الحقول ، وأن الانسان ينهض من عجائب المادة ، وأن الشرور كلها مقدمات للرحمات ، وأن الشرور لم تكن إلا بالقصد الثاني لا الأول ، وأن العداوات وامتلاء الجو بالمواد الفاسدة إنما ذلك ليتفرق الناس على الأرض فتكون الحياة والسعادة هذا هو الذي تقدم في تفسير البسملة في سورة السجدة . ولما تم الكلام على سورة السجدة وجب أن نبين

كيف كانت الرحمة في البسملة مثيرة لما فيها من الرحمت والنعم ، لذلك نقول :
تقدم في تفسير البسملة في أول سورة الروم ما يتبجح به النفوس ، وتشرح له الصدور ، وتطمئن له
الألباب من الحكمة العجيبة والآيات البديعة إذ استبان هناك أن آلام الكسر والضرب وآلام الجرح والجوع
وآلام سائر الأمراض إن هي إلا مذكرات ومنبهات لما يجب عمله من الدواء والغذاء .

وأقول الآن : إن ذلك البيان هناك مناسب لاعتباره قتال الأمم في تلك السورة جراحا وأمراضا لها .
وتقدم في سورة لقمان في تفسير البسملة هناك أن العقول مضطربات اضطراب الأجسام ، فالجسم والروح فرسا رهان في الدوبان
وللأشياء والأغذية والأدوية للأجسام والعلوم الكونية أغذية الروح وعلوم الأخلاق وتهذيب النفوس أدويتها
وهذا هو الذي جاء في سورة لقمان ، أما في سورة السجدة للتقدمة فإني أقول ما يناسب ما جاء فيها من الرحمت .
ابتداء سبحانه بذكر أن الكتاب لا يرب فيه ، وبذكر خلق العوالم في أيام معدودات . ثم إنه أخذ يدبر تدبير
للكل المستوى على عرشه ، لرعيته العظيم الجلال فلا يعوزه نصير وليس لشفيح عنده مقام إلا باذنه ، واسع العلم
وقد استوى عنده الباطن والظاهر والقائب والحاضر ، بخلاف مالوك الأرض فهم لا يطمون القيب ، وهو غالب قاهر
عزيز الجانب . ذو رحمة واسعة ، لم يدع في ملكه مخلوقا إلا أحسن صورته وزوقه وجندره وسواه ، ومن
أعجب العجب أن هذا الإنسان البديع الصنع ، الجميل الوجه ، الواسع العقل ، الحسن الإتيان ، لم يكن إلا
من طين وذلك الطين محن بماء وامتزج به المسواه والنور وعناصر كثيرة ، وبإرسال أنوار الكواكب
للشرفات وأهمها الشمس ودورانها حالا بعد حال ، سويت خلقته ونظمت أعضاؤه ، فالسموات والأرض
للكوكبات في أول السورة ودوران الكواكب بتدبير من استوى على عرشها ، ذلك كله مقدمات وأسباب
جعلت لإبداع النظام وإظهار الحسن والجمال في صور الانسان ، ومن هذه الأجسام الانسانية اتخذت خلاصة
مالية بها كان النسل أجيالا وأجيالا ، ومن أبداع ما في تلك الصورة الانسانية الحواس التي جعلت في هذه
الأجسام في مقابلة الكواكب في السماء ، فالكواكب تشرق بنورها تضيء السبل والحواس بها يمتاز الظلام
من النور والحلو من المر والطيب من الخبيث . فتدبير الملك للمستوى على عرش هذه الأكوام قضى أن يكون
في جسم الإنسان نظير ما في الجسم العام . الجسم الكلي مشرق بالنور وبالأرواح العالية وهذا الجسم الحيواني
والانسانى له مشرفات مبنيات لما هو في حاجة اليه ومن أهمها الأسماع والأبصار .

ولا عجب في ذلك فإن الأصول تتبعها الفروع ، فكما كان في الكواكب أنوار هكذا في أرضنا أنوار : إما
من الأرض بالبتروول والغاز ، وإما من النبات كالزيت ، وإما من الحيوان كالشمع والشحم ، وإما من الكهربياء
وهكذا ، فهذه أنوار جزئية تحاكي الأنوار الكلية للشرقة من الشمس . فهنا شبه القرع وهي الأرض أصله
وهي الشمس . بعض للشابهة ، وهكذا ما في الأرض من صناعة غالبا إلا وهي في حاجة إلى آلات بدورات
كما تدور الأرض حول الشمس . الأرض تدور حول الشمس كما تدور الشمس ، وتدور حول نفسها
لتقتبس الأنوار منها ليحييها ما عليها ؛ فهكذا ترى الإنسان يدبر نواعير وسواقي ومجلات القطر الجارية في الطرق
الحديدية ومجلات أخرى في آلات الحرث والطحن والدرس والحياطة ، وهكذا جميع أحوال الحياة آلاتها
كلها دوائر دوران الأرض حول نفسها ، فالأرض تدور لأجل اعتماد الحياة لما عليها والآلات تدور
لإكمال تلك الحياة بالصناعات المختلفة ، إذن لا عجب إذا قلنا إن في جسم الإنسان والحيوان حواس مشاكلة
لما في السماء ولكن المشاكلة هنا لحواس الملائكة . ومعنى هذا أن الأرض كما كان فيها أنوار كأنوار الشمس
تضيء بالليل كالكهربياء هكذا فيها نفوس تدبر لها حواس مشاكلة لما في تلك العوالم الكوكبية من ملائكة

مدبرات لها ، وكل هذه للماني تؤخذ من قوله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » فهناك شمس مدورات
دائرات تديرها أرواح عالية أضواؤها منتشرة لإيجاد وإسعاد مخلوقات على أمثال أرضنا هكذا هنا مصابيح كما
تقدم ونفوس بنى آدم مدبرات وآلات مدورات دائرات لإحداث صنائع ، فالتدبير الثاني يشبه التدبير الأول
فالتدبير إذن من السماء إلى الأرض .

ومن عرف الأنوار الكلية في السموات والأنوار الجزئية في الأرض وفي جسم الإنسان فهو حري أن
يشكر مبدعها بالعلم والحكمة أولا ثم بالعمل بحيث يكون هو نفسه مشرق نور للناس نافعا لهم وإلا لكانت
روحه أدنى مرتبة وأخس من حواصة من حواصة التي تبين له ما هي منوطة به من الفرق بين الحر والبرد والر
والخار والبارد .

وما يدعش له اللب وتحار فيه العقول أن هذا النوع الانساني قبل الشكر لجهله بهذه النعم وغفلة حماة
عن هذا الابداع ، وقد ظن هذا الجهول أننا خلقناه وخلقنا السموات والأرض عبثا بلا فائدة . كلا .
فالتقصمات لما تناجها فاذا أنكر البعث فذلك لضلاله ، وسيفتق هذا السكين خاضعا ذليلا خاشعا أمام خاتمه
وهو كليل الطرف حسير ، وهناك يقول: ها أنا ذا أبصرت وصممت فارجني لأعمل صالحا ، ولكن ليظن الناس
آتى وضعت كلا في مركزه وجعلت له سيلا يسلكها وطريقا يسير فيها ، فالمؤمن نفسه استعدت للإيمان والكافر
لا يخالف استعداده وأنا عدل أضع كل امرئ فيما استعد له ، ولو كان هذا ظلما لكانت المدة والأحشاء في
الحيوان مظلومة بالنسبة للحواس . كلا . فكل رتبة وخاصة بها انتظم العالم ، وللمؤمنين علامات منها أنهم
يحبونى ولذلك يودون أن تراح الأستار بيني وبينهم فلذلك يقومون بالليل ليأتوني وهناك أعطيهم في حال
التهدد أنوارا وأسرارا وحبا لا يعرفه سواهم ، وقد أخفيت لهم ما لا يبصرونه أحد ، بخلاف أصحاب النار وهذا قانون
عام في الأمم . ويقول : ألم تر إلى بنى اسرائيل وقد كان منهم هداة صبروا فقالوا إذا أيقنوا .

فلما اطلع على هذا صاحي العالم قال حسن ما لحصت به أكثر هذه السورة ولكن أين أهم ما يدور البحث
عليه فيها . قالت: ثلاث مسائل: تسوية خلق الإنسان وموته وبعثه ، ولا جرم أن هذه الثلاث متلاحقات
متصلات أخذ بعضها برقاب بعض . فلا تحدثك عن التسوية أولا ثم عن أخواتها ، الله أكبر ، هاهو ذا جسمي
م ركب ؟ أم ماركب منه القمح والأكسوجين والهيدروجين والنتروجين وهو الأوزوت ، هذه الأربعة
أعمدة تقام عليها هياكل كل حيوان ونبات في الأرض وما هو القمح (الكربون) ؟ إن هو إلا جسم إذا
عرسناه للنار أخذ مع الأكسوجين فأصبعا جسما غازيا يشبه الهواء في أنه غاز ولا يشبهه في طبعه فهو جسم
سام محرق ، وأما الأكسوجين فهو جسم غازي يشبه الهواء من حيث هيئته ولا يشبهه من حيث
طبعه ، فادخل أى معمل من معامل الطبيعة في الشرق والغرب وقل لهم أروني الأكسوجين حينئذ يرونك
زجاجات فيها غاز كالهواء تماما . فهناك إذا أوقدت شمعة وأدخلتها في زجاجة من تلك الزجاجات انقادت
حالا وأضاءت ضوءا مشرقا وإذا أدخلت هذه الشمعة المتقدة في قارورة لاشي فيها سوى للهواء فإنها يقل ضوءها
لا أنه يزدهى كما هي الحال في زجاجة الأكسوجين ، وأما الهيدروجين فهو شفاف كالأكسوجين ولكنه
أخف منه بل أخف من جميع العناصر المعروفة ومتى أخذ بالأكسوجين تكوّن الماء ، وأما النتروجين
فهو مثلها معا من حيث إنه غاز شفاف ولكن خواصه تختلفهما معا . وإذا أخذ بالأكسوجين تكون من
اتحادهما حوامض شديدة الفعل ومن أهمها وأعظمها (الحامض النتريك) أى ماء القضة أى الذى يذيب القضة
ويذيب أكثر المعادن ويميت الأنسجة الحيوانية والنباتية ، هذا هو النتروجين فهو باتحاده مع الأكسوجين
يكون متلفا مهلكا بخلاف الهيدروجين فإنه باتحاده مع الأكسوجين يسطى الحياة وذلك هو الماء : الله أكبر

سبحانك اللهم خلقتنا وعلتنا من أجل التعليم ، فاذا سمعنا في الأناج أن لك ملكا نصف جسمه من تلج ونصفه من نار فلا التلج يطفى النار ولا النار تذيب التلج ، فهأى ذه أجسامنا معاشر أهل الأرض فيها عناصر منها ما يهلك ومنها ما يحيى وهى مجتمعات فى جسمى ، ولا جرم أن شرط الأحياء والامانة موجود وهو الاتحاد ، فهذه العناصر الأربعة نتحدة فى جسمى . فالأكسوجين متعدد بالأيديروجين وبهما معا كان الماء فى جسمى والنيروجين متعدد بالأكسوجين وبهما معا ماء النضة ، وهذا هو الكنز الذى كشفه الألمان أيام الحرب العظمى فإتهم استعمالوا هذا المركب وهو (حامض النيتريك) فى القنصات والهللكات فى الحرب ثم حولوا ذلك كله بعد الحرب إلى سماد .

عجبا يارب ، جسمى فيه مابى الحياة وهو الماء من أكسوجين وأودروجين ، وجسمى فيه مابى الموت وهو الأكسوجين للتحد مع النيتروجين فكان منهما ماء النضة وهو (حامض النيتريك) ذلك للهلاك للبيت محرب الحصون والقلاع ثم إنه تحول إلى سماد فيكون مصلحا للزرع جالبا للرزق ، وهالك مخلص تلك للركبات :

(١) الأكسوجين مع الهيدروجين يكون منهما الماء .

(٢) الأكسوجين مع النيتروجين يكون منهما ماء النضة .

(٣) الأكسوجين مع الفحم يكون منهما غاز سام .

(٤) الهيدروجين بالكربون يتكون منهما غاز قابل للاهتعال .

فليس فى هذه التحدات مافى حياة إلا حال واحدة وهى اتحاد الأكسوجين بالأودروجين والبقية مهلكة سامة محرقة ، فلما اجتمعت الأربعة حدث منها أمر عجب . حدثت حياة دأمة بالتناسل والنظام اليهشى ، فباعجا تسوية وانتظام وإبداع وبهجة منظر وحسن اتساق نشأ كله من مواد سامة مهلكة : إذن الحياة مشتقة مما به الموت . فبالعجب غازات سامة تتحد وتتكاثف فتصير أشكالا منظمة فيها عقول منظمة لهذا العالم ، هذه تسوية الإنسان وهذا قوله تعالى «ثم سواه وخلق فيه من روحه» وأنا أيها الذكى بهذها البيان لم أعطك سرا ما من أسرار التكوين لأن ذلك السر لم أطلع عليه ولو اطلمت عليه لمنت من إفشائه لك لأنه فوق متناول العقول . فلما علاقة الروح الحية للشرقة النور للنبعة من جانب ذى الجلال القدى بهذه اللواد السامة وأى شىء هو غاز الاكسوجين والادروجين والاوزت والفحم حتى تطمن النفس فيها وتسكن . سبحان من علمنا وأعلمنا على عجائب أجسامنا ، أنا أكتب هذه الساعة وأنا أعجب من جسمى المصنوع من أجسام هوائية غازية لا تستقر على حال مهلكة ، فيا أيها الروح الساكنة فى جسمى هاأناذا أخاطبك وأنا القائل وأنا السامع لأن لى لسانا ولى أذنين ، فأنا القائل باللسان وأنا السامع بالأذن . فأقول لك أنت لست من هذا العالم ، انه عالم مضطرب قد استقررت فى هذا الجسم المضطربى للنبية أجزاءه ، وهل هو إلا تلك العناصر المفرقة المهلكة جنودتها ونظمتها يد فاهرة غالبية إلى حين ثم ترجع هذه العناصر إلى حالها مع جنسها ، ثم ينك أنت ترجعين إلى عالمك تستقرين هناك فسمعك وبصرك اللذان جلالك ماها إلا بصب نور من نورك قد نفاها لك فى الأرض وتعام نورك يكون بعد الموت ، ألم تسمى قوله تعالى «وجعل لكم السمع والأبصار» الخ وتوه حكاية عن الأرواح فى تلك الحال إذ تقول «ربنا أبعثنا وممنا فارجمنا نعمل صالحا إنا موقنون» إذن سمعك وبصرك الآن ليسا كسمعك وبصرك هناك ، فالسمع والبصر هناك يورثان اليقين لأن السمع أتم والبصر أتم لانزاعهما من هذه العناصر المتشاكسة المتعاربة المهلكة .

هذه ياروحى أسرار ما تحسبن فىك من لتهوالم . والالم واللثة إحسان ناربان . تألمين بالجوع وبالعطش

ويؤذي الأعداء وبالأضرار وتستلذون بالفناء والماء والنصر البين ، وما اللذة والألم إلا لفتان من اللغات التي أزلت في هذه الأجسام ولطلي نطق وإفصاح أصرح وأبين من إفصاح اللسان ، اجتمعت هذه العناصر في جسمي وأسكنت فيها فأخذت هذه العناصر تنطق لك بتعلق فصيح جد أن كانت بكاء خرساء وهي ملقاة في الأرض . فقالت لك تارة احذري البرد وتارة أخرى احذري الحر ، فاحساسك بالبرد نطق أفصح من نطق اللسان وإحساسك بالحر كذلك ، وهكذا ذوقك الطعام والشراب واستلذاذك بهما إفصاح وتبيان لك .

فهذا استبان أن كل ذلك رحمت لأنها بيان وكلام ، فاللذة كلام والألم كلام وجميع النعم والنعم واللوت والحياة كلها كلمات مفصحات مبيئات مذكرات . وأي رحمة أجل من الذكرى والبيان إن حياتنا كلها رحمة استوى فيها الألم واللذة وموتنا رحمة لاخراجنا من هذه اللواد المضطربة ، هذا هو بعض سر التسمية في أول هذه السورة ، فهذه العوالم في جسمك وفي خارجه ناطقات اليوم مفصحات مبيئات ، ألم تترنى « قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » هذا نوع من النطق ، نطق جاء من الكائنات بلا حرف ولا صوت ونحن نسمعه لامن طريق الأذن بل نسمعه من سائر أجسامنا .

اللهم إنك علمتنا وأربيتنا نطق المخلوقات ، وأفهمتنا زرا يسيرا من كتابك وفهمنا ذلك الكلام الصحيح الذي أودعته في أجسامنا وفي الطبيعة وأدرتنا بعض سرمانطقت به الجلود والأيدي والأرجل إذ يقال لتجلود « لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » فهامى ذه الأشياء تنطق للبار والقاجر منا وكل يسمع ذلك النطق ولكن لا يعقله إلا الأفلون . وهذا سر قولك « قليلا ما تشكرون » .

لا يحيط بما تنطق به هذه العناصر إلا أرواح أرق من أرواحنا القاصرة لأنها أرواح جزئية فلذلك احتجنا لمن يذكرنا من الأنبياء ولمن يعلمونا من الحكماء ولمن يداوون أجسامنا من الأطباء وهكذا تختص كل طائفة بعمل عسى أن يقربوا من السكال ومأم يبالغيه في هذه الأرض فكان لا بد عندنا من كل علم ولا بد من طوائف تخصص لها ، كما أنه لا بد بعد الموت من نفوس أعلى منا تقرأ نفوسنا وأخلاقنا وتاملنا على مقتضى ذلك في تلك الدار بأمر خالقها وعلمها بسبب ضعفنا عن الاستيعاب لأننا محبوسون في أقفاص ناربية ممية منقسنا عن تمام الحرية والاستقلال ، ومنا في هذه الأرض من اختصوا بدرس الجلود والأيدي فعرفوا مسامهما وخطوطهما فشهدت على المجرمين في هذه الحياة الدنيا كما تقدم في هذا التفسير . وهذا أمر شائع في جميع حكومات العالم ومنها حكومتنا المصرية . شهدت جلودنا في حياتنا الدنيا ، وشهدت خطوط أيدينا وذلك من التسوية العجيبة . أليس أمر هذا القرآن عجبا ؟ يذكر التسوية في خلق الانسان هنا ويذكرها في (سورة القيامة) في قوله تعالى « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » ويقرأ هذه الآية أحد علماء الألمان في هذه السنين فيسأل لم أسلمت أيها العالم ؟ فيجيب قائلا قذأت في القرآن المنزل على ذلك النبي العربي الأسمى « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » وقد أصبحت جميع الحكومات لا يستقر قرار الأمن فيها إلا بدراسة نظام البنان ومسامها ، ولم يجد الناس رجلين في الكرة الأرضية تتشابه أناملهما في مسامها ونظامها ، فلم اختص البنان بالذكور وعلم البنان ، لم يكن يعرفه الناس إذ ذلك ولم تدركه الحكومات السابقة ؟ بل لو عرفوا ذلك لم يعرفه أهل الحجاز ومنهم هذا النبي الأسمى ، فهذا القول إنما جاء من مصدر أعلى من عقولنا التي في الأرض فلذلك آمنت به وصدقت . انتهى كلامه .

وهذا الإفصاح والبيان من العناصر في أجسامنا يدخل فيه جميع خواص العقاقير في الأدوية ونواميس الوجود فإذا خرجنا من هذه المادة أشرقت عقولنا وظهرت لها الحقائق على ما هي عليه كل على قدر طاقته القاجر والصالح

وهذا قوله « ربنا أجرتنا وصمنا فأرجتنا نعمل صالحا إننا موقنون » أي أما في الحياة فإنا كنا صبورين ولم ندرك سر الوجود ولذلك يقال هناك أيضا « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ويقال « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

هذه شذرة من قصة هذا الإنسان ومبدأ خلقته وأجراله وموته وبعثه ، والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ٦ من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٩ ميلادية . انتهى الكلام على البسمة مع تلخيص سورة السجدة .

فلننظر في الكلام الآن على تفسير البسمة في أول (الأحزاب) الموازنة بين السورتين من حيث الرحمة التي تضمنتها البسمة وتخللت آيات السورة .

لقد تكررت البسمة في أول كل السورة ودرج للمسلمون قديما وحديثا على التسمية في طعامهم وشرابهم ثلاثمائة وألف سنة ، فترى جهلاءم وعلماهم كبارهم وصغارهم لا يملكون عملا إلا بالتسمية ، سنة محمدية وشريعة إسلامية طلبا لثواب الله وتقربا إليه وزلفى لديه ، فذلك سنة من خير السنن ، وخاصة من أجل الحاصل .

لقد تقدم الكلام على البسمة في الفاعحة وفي غيرها من السور مثل (الروم) و(لقمان) و(السجدة) ولكن بقي لها بقية لا بد من تداركها . وحكمة يجب إظهارها ، ونعمة حق على إبدائها لهذه الأمة السكينة المضطربة لنشوء الجهاد وظهور الحطال في آراء عانتها ، والتفلة في نظام دراستها ، والنوم على التقليد الأعمى ، وتفويض ذلك الكسل والجهل اللين الذي هو من محمود لا بارد ولا كريم . أبت النبوة المحمدية الشريفة أن تاندنا تتخبط في ديجور الظلام فعلتنا أن الأعمال لا تصح إلا بالنيات وأن لكل امرئ ما نوى ، وما هي النية ؟ هي رغبة العلم وولادة الفهم فمن تعلم فهم ومن فهم أحب ومن أحب الكمال ومحاسن الفضائل شاقته ومن اشتاق م بالعمل ونواه وهناك تكون الأعمال على مقتضى تلك النيات والمعارف السابقة ، فليس في مجرد التسمية بلا علم بمواطن الرحمت ومحاسن الجمال في مخلوقات وبهجة العوالم الربانية والآيات الحسنية والابديع وحسن التصور والتنسيق ، منتهى مقاصد النبوة ولا يبلغ ما تريده من العلماء الثاملين . لأن اكتفينا من المعاني في صلته وصيامه ومأكله ومشربه بالتسمية والحمد للفظيين لنقولن للماء الأمة وعقلها ونابضها ليكن الدرس وأعمال الفكر ومعرفة الجمال في هذه العوالم حتى توقنوا بالرحمت إيقانا علميا تفصيلا كالذي في هذا التفسير .

علم الله أن المسلمين سينامون نحو ألف سنة عن التفكير في مخلوقاته وينمون جميل صنعه فأزل البسمة في أول كل سورة وكررها مائة وأربع عشرة مرة في القرآن ويكررها المسلمون في صلواتهم قراءاتها تبدا وقتلنا كفى . لا تقوم الأم بمجرد الكلمات وإنما قيامها بما تضمنته من المعاني وما حوته من حكمة ومعنى جميل لما وقف أكثر التقيين من العامة وصغار العلماء على القشور وجمدوا على الألفاظ جمودا معياني أكثر الناس في العصور المتأخرة روح معنى التسمية واكتفى الخطباء على المنابر والوعاظ في الساجد بذكر نعيم الجنة وعذاب جهنم حتى استقر لدى كثير منهم أن ربنا تجب العبادة له خوفا من ناره وخشية من سطوته حسب لاجبا فيه ولا إبتهاجا برحمته الواسعة فأصبح للسلم إذ ذاك ما بين حاكم يسطو عليه لإخافته مثل ما حصل بصر أيام الممالك البرية والبحرية وغيرهم من أبنائهم الذين فتكوا بأبناء البلاد أيام حكم الترك إلى أن أباهم محمد علي باشا ، وما بين خطيب لا يجد سبيلا للوعظ غير جهنم في الآخرة بحيث لا يرى ما أمامه من الرحمت ولا ماحوله من النعم التي أسبغها الله على الإنسان والحيوان ، وما بين للمم واللؤدب الذي يضربه بالصا أيام

التعليم . ياسبحان الله إن الأمة أيام تهقرها يكون أمثابها في الدين وفي الحكومة وفي نظام التعليم على
وتيرة واحدة ، فلقد صور الحكومات عن تمام النظام لأجد لها مناصب من الاضطهاد ، ولجله العلم لا يعرف
غير الصا ولسوء الملكة وقلة العلم يقتصر الوعاظ في أكثر أقوالهم على التحذير من عذاب جهنم
ويشترى القرار .

علم الله ذلك لأنه قدره قبل أن يخلق العالم فأنزل البسملة في أول كل سورة وعممها بالسنة الشريفة
الحمدية ليقول لنا اليوم :

[أيها المسلمون . لئن كنت أنا ذا رحمة وغضب في الآخرة بالجنة والنار لقد أسبغت النعم عليكم في الدنيا
ظاهرا وباطنا وأحطتكم فيها بالمنفردات والخواف والآخرة في نعيمها وجسيمها نتيجة حياتكم هذه فمن غفل عن
رحمتي الواسعة في الدنيا وجهل ما أحطته به من الجمال والنعم فإني عدل حكيم أذله في الدنيا جزاء وفاقا ، وليس
هذا الاذلال للانتقام . كلا . وإنما هو نتائج . ألم تقرأوا « يعطى كل ذي فضل فله » فكيف أهب رحمتي
لمن لم يكن أهلا لها . بل كيف أسبغ نعمتي على من لم يطلبها ؟ ولا طلب إلا بنية ، ولا نية إلا بالعلم ، فالعلم
بالمخلوقات حولكم يجعلكم لها عاشقين والعشق تتبعه نية التحصيل والنية يتبعها العمل] .

هذا سر من أسرار تكرار البسملة في أول كل سورة ، وإنه ليخيل إلى الآن أن عقلا كبيرا من العقول
العظيمة في البرزخ اطلع على هذه الأمة الإسلامية فقال عجباً أليس في هؤلاء رجل رشيد ، كرر الله البسملة
وكررها عنهم وخاصتهم ، ألم يتفكر منهم رجل في حكمة هذا التكرار ، أليس التكرار لعظم المقدار
والحاجة إلى هذا التكرار ، تكرار القرآن ليس كتكرار كلام البشر . فأين الباحثون عن حكمتهم ؟
هنا كررت آية « ويل يومئذ للكافرين » في (سورة المرسلات) . ذلك لأن جرم التكذيب عظيم .
وكررت آية « فبأى آلاء ربكما تكذبان » في (سورة الرحمن) لأن أمر النعم عظيم وهو كتكرار
البسملة في أول السور . تهويل العقاب على التكذيب ناسبه تكرار الآية للتقدمة وجمال النعم والرحمات
عظمت العناية بها في (سورة الرحمن) وغيرها فتكررت آية الآلاء وجعلت البسملة في أول كل سورة
من القرآن .

رتب الإمام الشافعي رضي الله عنه أعضاء الوضوء كما رتب في الآية وهذه دقة في الملاحظة واستمساك
بالدين ، فهل في خطة الانصاف ومهيب العدل ونور العقل أن يحصر أوائلنا هذا الحرص على آية التزليل حتى
إهم بوجود فرائض لأمر معنوي وهو التقديم والتأخير . ثم إننا نحن المتأخرين نرى آلاء الله قد عمدت السكرة
الأرضية ونسب البسملة وآية الآلاء تكرر تكرارا كثيرا ثم لا تفكر في الحكمة ولا تقول لماذا هذا
التكرار ولم يقف مسلم عالم من أهل الاسلام يوما ويقول تقديم وتأخير في آية الوضوء أنتج وجوبا شرعيا ،
وتقديم وتأخير في آية ذكر الله فيها المهاجرين والأنصار احتج بها أبو بكر الصديق يوم سقيفة بني ساعدة وقال
« أسلمنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم فنحن للمهاجرين وأنتم الأنصار ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء الخ »
وبنى على ذلك أمرا واقعا وهو خلافة الخلفاء الأربعة والأمويين والعباسيين وبنى الحسن والحسين وغيرهم من
آل البيت وبعية فريش . كل ذلك لتقديم وتأخير . يحصل هذا كله أيام آياتنا الأولين . ثم إننا اليوم نسب
البسملة تذكر فيها الرحمة مكررة مرتين وفيها كلمة الرحمن التي لا تطلق إلا على الله . ونسب آية سورة الرحمن
المكررة . ومن عجب أن آية الآلاء المكررة عشرات المرات لم تكن إلا من السورة العنوية باسم (الرحمن)
والرحمن المذكور في البسملة . إذن هذه النعم المذكورة في (سورة الرحمن) إيضاح لمعنى البسملة كأن الله يقول
البسملة المكررة في غدوكم ورواحكم تفسيرها يكون بنعمي ، وابتدأها بأعظم نعمة وهي :

(١) تعليم القرآن ، فأعظم نعمة إذن هو العلم .

(٢) ثم خلق الإنسان والشمس والقمر والنجوم والشجر والسماء والأرض والفاكهة والخل والحب والشارق والمغرب والبحار واللؤلؤ والمرجان والفلك في البحر .

يا عجباً . أيها المسلمون . أليست هذه النعم في [سورة الرحمن] والرحمن اسم من أسماء ثلاثة في البسملة فوا أسفاه على أمة ضاعت ودول هلكت ونعم ذهبت . الرحمة التي في البسملة فصات في [سورة الرحمن] ولقد ابتدأها الله بنعم الدنيا ثم أتبع ذلك بنعم الآخرة ، وتخلل ذلك التخويف بالعذاب في آيات قليلة ليدلنا أولاً أن نبتدئ بتعليم الناس هذه النعم الدنيوية مثل ما في هذا التفسير . أقول أنا بأعلى صوتي أيها المسلمون يجب وجوباً لا شبهة فيه أن أول تعليم الملم من الآن يكون في كتب يذكر فيها جمال هذه العلوم بحيث يلد الطالب منظرها وجمالها من شجر وحجر وكوكب ونهر . هذا واجب في الكتب وفي الحقول وعلى شطوط الأنهار كما أنزل الله في [سورة الرحمن] في سورة الرحمن ذكر الله نعم السموات والأرض والبحار وليس معنى هذا أن نكتفي بمعاني هذه الآيات . كلا . وإنما المقصد أن ندرس علوم السموات والأرض بهيئة جميلة لاسمها لأطفالنا الصغار ، لا أننا نقول لهم أيها الأطفال المساكين احفظوا سورة الرحمن ونحوها بحسب بل نربهم صور ما ذكرنا من الجمال والبهاء والأزهار والأنهار ونفهمهم ذلك بعبارة رشيقة جميلة ثم نتبع ذلك بذكر الآية وإذن يكون أدينا ماوجب علينا . الله أكبر . أفليس تكرار البسملة في أول السور وتكرار آية الآلاء في [سورة الرحمن] وسرد نعم الدنيا أولاً ثم نعم الآخرة في نفس السورة التي ابتدئت بالرحمن . ثانياً أقول أليس ذلك كله يوجب علينا أن نفعل ما تقدم في تعليم الناشئين ويكون ذلك الوجوب ألزم وأثم بحسب الدليل وبحسب النتيجة من وجوب ترتيب أعضاء الوضوء ومن وجوب كون الأمراء من قريش اللذين استنتجنا من مجرد التقديم والتأخير وإذا وجب ذلك اليوم بهذا الدليل فليس لنا فضل في استنتاجه لأنه آيات واضحات لا يعوزها إعمال فكر . في آيات [سورة الرحمن] مستندات إلى ذلك الاسم التي في البسملة يكرره المسلم صباحاً ومساءً في عذوه ورواحه . فأما أبو بكر رضي الله عنه والشافعي فقد أتيا بما يندق عن الأفهام لعظم منحة الله لهما . والله ذو الفضل العظيم .

اللهم إنك أنت الذي صرفت عقول الأمم الإسلامية المتأخرة المتفرقة في الأرض بعد القرون الثلاثة التي هي خير القرون عن الحطة التي في التعليم التي يقتضها القرآن لأنك عدل . فانك أبحت الغنائم لهم ليصرفوها في منافع أهل الأرض . وحاد الخلف عن طريق السالف الصالح فلم يفعلوا ما فعله أبو بكر وعمر وعثمان وعبي من التجاني عن المال والزهد فيه وصرفه في مصارفة الخفة وهي إسعاد أهل الأرض وعمارتها لأنهم خلفاؤه فيها . وعكف الذين سمو أنفسهم خلفاء بعد تلك القرون وكذلك الأمراء التابعون لهم على الحر والفسوق وأشاعوا ذلك وأذاعوه في أواخر دولهم في الشرق وفي بلاد الأندلس في الغرب . لذلك صرفت عقول الأمة عن هذه المباحث العالية غالباً لأن الأمم التي تقرأ العلوم الأرضية والسموية تفتح لها أبواب الرحمة على مقدار ما يتعلمون ويعملون . فأعطيهم نعماً علمية وعمالية على مقدار أخلاقهم ولم تفتح الباب لهم على مصراعيه لكلا يستبدوا بعبادك فانطبق على كثير من متأخريهم آية « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » ، وتنادوا في ذلك حتى أحرق (علي بن تاشفين) من المرابطين كتب الفرائي وأدى المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الرابع من خلفاء الموحدين ببلاد المغرب ابن رشد . ذلك الذي نادى بأعلى صوته بين المسلمين يقول [أيها المسلمون . علم التوحيد على هذا النمط صار بكم أمميين لماذا حدثتم عن طريق القرآن الذي وصف هذه الأفلاك والأشجار ، وما هذه الطرق العقيمة في وحيد .

وهل من جادة الصواب أن يكون التعريف أخفى من العريف والله يدركه العاى بغيرته . وهذا التوحيد المزوج بالفلسفة الصعبة يشكك المسلم في دينه [ثم أخذ ينشر آيات من القرآن من [سورة النبأ] ليدهم عن طريق التوحيد الحق . وقد نقلت ذلك بالتطويل في كتابي [نظام العالم والأمم] فأقرأه هناك .

فهذا العالم المخلص للأمة الإسلامية هو وأمثاله اضهدم المسلمون ، فلما مات بعد أن أخرج من محبسه بسنة طلق المسلمون علوم الحكمة وصاروا غالبا صوفية ذوى وجدان منذ سبعة قرون . ذلك أن تلاميذ ذلك العالم حملوا علمه إلى أوروبا كما أوضحته في غير هذا المقام من هذا التفسير حتى إننا نحن الآن قد حرماننا من أكثر كتبه فإنا وإن عثرنا على خمسة كتب مطبوعة بالعربية مثل (التهافت) و(فصل القول) و(الكشف عن مناهج الأدلة) والقسم الرابع من كتاب (ما وراء الطبيعة) و(بداية المجتهد) فإنا حرماننا من كتبه التي باللاتينية أو العربية وهي (٢٨) كتابا كلها في الحكمة ذكرها الأستاذ (لطفى جمعه) الهامى في كتابه (تاريخ فلاسفة الإسلام في الشرق والغرب) لا نطيل بذكرها . انتشرت كتبه في أوروبا إذ ذاك وأخذت القوم يدرسونها ثم انتقلوا من هذه الكتب إلى أصولها وهي باللغة اليونانية ثم ارتقوا بعد ذلك فأخذوا يفكرون بقولهم ويستنتجون من نفس الطبيعة . الله أكبر . هذا مقصود القرآن وهذا معنى « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ترك متأخرو المسلمين النظر في جمال الله ولم يسموا نصيح حكماهم فهربت الحكمة إلى أوروبا فمقلوها وفهموها وانتقلوا إلى أصولها في اليونان ثم إلى الأصل الحقيقي وهو هذا العالم الذى خلقه الله فرتبوا تعاليمهم على مقتضاه ودرسوا لصبيانهم في مدارسهم على مناهج هي بعينها التي ذكرها الله في سورة الرحمن وهي الآلا . أى آلا . الله في الأرض والسماء من شجر ونبات ونهر وحجر ونجم . فهذا هو الذى يدرسه الأمريكى والانجليزى والألماني والمجرى واليونانى والصينى الآن . لماذا هذا كله ؟ لأنهم فكروا في الدنيا ، ولماذا لأنهم اطلعوا على أصول فلسفة اليونان التي بنى عليها فلسفته ابن رشد ، التي استقرت من مكانها بسبب ظهور خاتم الأنبياء الذى أرسل رحمة للعالمين . يا محبا . نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » فهو رحمة لأنه علمنا وتعليمه آثار فلسفة أهل الأرض وامتدت الحركة العلمية إلى وقتنا الحاضر فقرأنا كتب أوروبا فوجدنا تعليمهم على مقتضى [سورة الرحمن] . فأقرأ أيها الذكى كتبهم تجدها كسورة الرحمن التي هي في الحقيقة كيان لاسم الله الرحمن التي يتبرك بها المسلم كل صباح وكل مساء ، فهو صلى الله عليه وسلم رحمة من الله الرحمن الذى علم القرآن وشرح في نفس هذه السورة محابب السموات والأرض .

إني أنا وأنا أكتب هذا القول في غاية العجب ، فوالله لم تسكن هذه الموافقات ومحابب الحكمة القرآنية لتخطر لى عند ما أمسكت بالقلم ولكن الله عز وجل هو الملمب التفضل ، بأمثال هذا عرفت أن في القرآن من السر ما لم يحلم به الآن « إن ربي لطيف لما يشاء » .

ومن أطف ما في القرآن والعبادات أن القاعة مبتدأة بالثناء على الله وذكر رحمته وهو كابتداء [سورة الرحمن] والرحمات المفصلة فيها ، وتجد المسلم في التشهد يصل على نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى إبراهيم ليكون ذلك أولا مزرعة للثواب الراجع للعباد من طريق العبادة للخاصة والعوام وتذكرة عند العلماء بأجاء إبراهيم لئلا فطر السموات والأرض بعد نظره في السكواكب ، فهو على منهج [سورة القاعة] نظير أولا وعبادة آخرا . وبهذا كسر الأصنام وهذه الملة ملة إبراهيم ولتلك درج على طريقه نبينا صلى الله عليه وسلم فكسر الأصنام ، فهذا تذكرة بأمرين : الابتداء بمحاسن الطبيعة كالتخليل ونبد العادات الجامدة والارتقاء بالعقل كالتخليل ومحمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ تلخيص ما تقدم ﴾

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبي العالم الذي اعتاد مناقشتي في التفسير فقال لقد أجدت فيها شرحاً هنا فانك قد أثبتت أن النظام عند متأخري المسلمين كان استبدادياً غالباً، فظلم من حكاهم وجهل من خطبائهم وغباوة من صفار اللعدين، يضر يون صفارهم بالعصى وأن هؤلاء لم يفتحوا لكثير منهم باب الرحمة على مصراعيه لأنهم حادوا عن طريق آباءهم لأنهم جعلوا أن حكم الأمم لشهوات أنفسهم، وأنهم تهادوا في الجبل حتى أدلوا حكاهم. وأن ابن رشد أفاد كيف يتعلم الأطفال في مدارسهم وأن تعديسه على نمط القرآن وأن علمه انتقل إلى أوروبا ولما قرأوه فهموا وقرءوا أصله باليونانية ثم فكروا بأنفسهم. وهامى ده تعاليمهم الآن أصبحت هي نفس ما طلبه (ابن رشد) من المسلمين بقراءة هذه العوام الهيطة بأهل الأرس وهي هي نفس ماجا، في سور كثيرة ومنها سورة الرحمن. والله تعالى جعل النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، وهذه هي الرحمة العامة إذ تعلم أوروبا الآن وأمريكا واليابان بالطريقة الحديثة بسبب ابن رشد وغيره من المسلمين الذين لولاهم لم يرجع هؤلاء القوم إلى كتب اليونان ولا إلى العقل الإنساني والاحتماد القردى وهذه من أجل المعجزات في زماننا. وكل هذا تقتضيه البسمة ولما تكررت في سور القرآن وما فعلوه موافق لما فهمته أنت الآن من وجوب ابتداء التعليم شراً في الإسلام في كتب جميلة فيها صور العوام السماوية والأرضية تبياناً لمعنى سورة الرحمن وسورة التباوع غيرها وهذه الكتب تكون فيها مواضيع مختلفة جميلة يفرح بها الشبان ثم يخرجهم الأسانيد فينظرون نفس هذه المناظر بأنفسهم في الحلوات وشطوط الأنهار والحقول. هذا يؤخذ من كلامك. ولقد جعلت لك في ذلك إمامين أبا بكر الصديق رضي الله عنه والشافعي عما استنتجنا من تقديم وتأخير (مسألتين) سياسية وعملية وأثبتت أن دليلك أنت لا يعوزه طول تفكير لوضوحه. أما دليلهما فصيها دقة لا يعرفها إلا من على شاكلتهما.

أقول، والله إن هذا كله حسن ونعمة عظيمة لأن المسلمين اليوم هم الأمة الوحيدة في العالم التي تتباعدت عن طريق كتاب الله تعالى في أساليب التعاليم؛ وأنا أقول والله ما من عالم أو أمير أو عاقل في أمة الإسلام يقرأ هذا إلا وهو يسارع حالاً إلى هذا النظام لأن هذا القول حجته قائمة وتناغمه واضحة ولكني أسألك سؤالين: الأول أنك قلت إن الترجمة لما قرءوا فلسفة [ابن رشد] رجعوا إلى أصلها باليونانية، والرجوع لليونانية جعلهم ينظرون بمقولهم. فهل الرجوع لمثل هذه الأحوال لا يبد منه. الثاني: أنك قلت إن كتب الترجمة في تعليم أطفالهم جميلة ترجع إلى سور القرآن بوجه عام وإلى [سورة الرحمن] بوجه خاص وهي مبتدأة بالرحمة المذكورة في البسمة التي كلامك الآن فيها. وأن من قرءوا على هذا النمط يفتح الله لهم أبواب رحمته في الدنيا على مقتضى ما وصلوا إليه، فأريد أن تذكر نموذجاً من كتبهم. ثم إن المقام طال ولكن المقام يحتاج إيضاحه إلى إجابة على هذين السؤالين. فقلت أما رجوع الترجمة إلى الفلسفة اليونانية فهو واجب على كل من قرءوا الفلسفة العربية. فقال وماذا؟ قلت لأن كتبهم كثيرة وعلماهم أكثر والترجمة يدخلها التحريف بل التخريف. فلذلك وجب الرجوع إلى أصل اليونانية على من درس الفلسفة بالعربية متى أمكن ذلك في ذلك الزمان. فقال هل تذكر مثلاً واحداً مما جاء في العربية ضاراً بالقول مع أنه باليونانية كان نافعا. فقلت أظن أن هذا يخرجنا عن الموضوع. فقال ولكن هو حسن ومفيد الآن. فقلت أنت تعلم أن الفلسفة التي نقلت إلى العربية من اليونانية قد جاء فيها إن العالم قديم. فقال هذه محور فلسفتهم فقلت: هذا من محزبات الدهر. فقال وكيف ذلك. قلت ألم تقرأ ما ذكرته سابقاً عن طيباوس الحكيم مع سقراط فإنه برهن على أن العالم حادث مع أن الرجل قبل البلاد بخمسة مائة سنة. ولو أن هذا القول نقل

إلى اللغة العربية لم يكن هذا الخلط في علم التوحيد والجدال ، ولم نسمع أبا العلاء يقول وهو لا يعلم برهان طباوس ما معناه :

قلوا إله بلا مكان ولا زمان ألا تقولوا

هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول

قال إبي والله هذان البيتان أسمعهما من جميع الشبان في الأندلس ومحال شرب القهوة والمحور والمطاعم الفرنجية في مصر والشاب منهم معجب بعباسه ومآكله الفرنجية وفسوفه وخمره فهو فرح طرب لأنه عثر على كرتين وهو أن الديانات كلها خاطئة بسبب هذين البيتين . فقلت ولكن هذا القول الذي قاله علماء التوحيد هو نفسه الذي قاله طباوس فيما تقدم وقد رأيتاه نحن في كلام الفرنجة الذين اطلعوا على الفلسفة باليونانية . ألم تر إلى طباوس فيما تقدم كيف يقول [إن العالم حادث] والله لم يكن في زمان ولا في مكان لأن الزمان ماهو إلا بحركات الفلك فإن الليل والنهار نعرفهما بالشمس ولا شمس ولا ليل قبل خلق الأفلاك وهكذا لا يمكن لأن المكان ماهو إلا سموات وأرضون ولا سموات هناك ولا أرضين . وهذه المسألة أصبحت اليوم معروفة لأن علماء العصر الحاضر كلهم أجمعوا على أن هذه العوالم كلها كانت غازا منتشرا ثم صارت سموات وأرضين . ورأى طباوس هو رأى علماء العصر الحاضر . إذن كون الله لا يحكم عليه زمان وليس في مكان قضية واضحة ظاهرة لأنه لم يكن زمان قبل هذه الأفلاك ولا مكان . إذن هذان البيتان اللذان جعلنا للتمسك والسخرية خاطئان خياليان والعقل هو الذي يحكم على أرباب الخيال . فلولا اطلاع القوم على آراء اليونان باللغة اليونانية لم نعرف ماذا قالوه وبه أدركنا الحقيقة ودفعنا تلك الآراء التهكية التي يقسلي بها صغار العقول من الشبان والشابات في بلاد الإسلام . هذا جواب سؤالك الأول .

وأما نموذج كتب المطالعة لأطفالهم تطبيقا على ما تقدم وموافقة للقرآن ولسورة الرحمن وللبسملة لكون نبيا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين . فإن ما تقدم في هذا التفسير فيه غنية لأولى الأبواب . وسرى في [سورة يس] عند آية « سبحان الذي خلق الأرواح كلها مما تبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون » رسم ورقة شجرة وكيف كان فيها آلاف وآلاف آلاف من الفتححات ونحتها ما يشبه الحجرات . وأن الحيطان الشفافة والسقوف المرصوفة بما يشبه اللبنة في أبنيتنا العتادة . وفي وسط تلك الحجرات مادة سائلة يعوم فيها مادة حصراء تلون تلك السقوف . فهناك ستشاهد تلك الحجرات البهجة التي تعد عثات الألوف في الورقة الواحدة وترى أن الورقة هي رثة النبات وإبداعها في غاية الاتقان والجمال والغرابة فكيف تكون عشرات الملايين منها في شجرة واحدة ؟ ثم كيف تكون هي معدة لتغذية الشجرة بالمواد الكربونية على شريطة أن يساعدها ضوء الشمس .

فلما سمع صاحبي ذلك قال هذا أمر عجيب جدا ولكني الآن أسألك في أمر غير هذا . أسألك في نفس كتب الأطفال ، وأما هذه فإنما هي تعاليم السكار تناسب أمثال هذا التفسير فلنرجعها إلى أن نطلع عليها في [سورة يس] فقلت هاك نموذجاً وهو كتاب صغير يسمى (القراءة للوكية) كان يدرسه التلاميذ في بلادنا المصرية في عهد الاحتلال على أساليب تعاليمهم في بلادهم . ولست أذكره إلا على سبيل المثال فإنني أريد أن توضع كتب الدراسة في بلاد الإسلام بعد الدرس والتفحص من ذوى العقول الكبيرة الذين اصطفاهم الله من قراء أمثال هذا التفسير . فهناك مواضع ذلك الكتاب بحسب ترتيبها .

(١) العنكبوت (٢) الصي والعصفور (٣) الأرنب (٤) العنزان (٥) التيسير في الاستيقاظ من النوم (٦) النحل (٧) نظم في النحل (٨) الأوز (٩) قل الصدق (١٠) أنعم صباحاً أيها الطائر (١١) الذئب

(١٢) صدى الصوت (١٣) أنم صباحا أنم مساء (١٤) القظوظائر الكنارى (١٥) الزنبار والنحلة (١٦) الحصان
 (١٧) الكلب والمصباح (١٨) معلومات عامة نافعة فى الحيوان (١٩) الجمل (٢٠) تاريخ كلب (٢١) القانون
 الذهبى (٢٢) الحمار (٢٣) قصة النعجة والحمل ولدها (٢٤) الدب الأحمر (٢٥) الأسد والفأر (٢٦) الحروف
 (٢٧) القراب والابريق (٢٨) الجندى والحصان (٢٩) الدب الأبيض (٣٠) الثعب والعنبر (٣١) معارف نافعة
 (٣٢) الدب فى المدرسة (٣٣) القيطس ، وهو حوت عظيم جدا (٣٤) الأرب والساحفة (٣٥) السريع
 والبطىء (٣٦) الصبي والحوخ « البرقوق » (٣٧) العصفور الدورى (٣٨) الأسد (٣٩) النمر (٤٠) الفهد
 (٤١) حمار الحبشة (٤٢) المعادن (٤٣) الأطفال (٤٤) الملك والملكة (٤٥) طائر بحرى (٤٦) نبات
 الشاى والقهوة .

هذه المواضيع هى مواضيع الكتاب الانجليزى المذكور ولم أترك منه إلا عدد الأصابع لعدم أهميته .
 فهذا أيها الأخ هو النهج الذى نهجه القوم فى مدارسهم لأطفالهم بحيث يشرحون الحيوان أو النبات ثم
 يستخرجون بعض حكمه كأن يذكرهم بنشاط النحلة وانتكال الأرنب على سرعة جريه واجتهاد الساحفة
 وكأن يذكرها عند ذكر عوم صغار الطيران الله هو الذى علمهن بلا أساندة وهكذا فلا يتبون كتابا صغيرا
 مثل هذا حتى يكونوا قد علموا مبادئ العلوم بحكايات ومناظر مشوقة وأحسوا الحيوان والبحث فيه وعكفوا
 عليه وتعلموا أخلاقا بما يذكرهم به المدرسون .

فما سمع ذلك صاحى قال لقد أحسنت إنما إحسان وشرحت صدرى . والكنى أسألك آخر سؤال ، وهو لم
 اخترت هذا الموضوع فى هذه السورة فى تفسير بسمليها . قلت إن فى هذه السور آية « ما كان محمد أبأ أحد
 من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » وفيها آية « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا
 وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » وفى سورة التوبة أنه صلى الله
 عليه وسلم « بالمؤمنين رؤوف رحيم » فهو رؤوف رحيم وهو رؤوف رحيم ، وأول السورة بسم الله
 الرحمن الرحيم . فالله رحمن رحيم وهو رؤوف رحيم ، بل هو خاتم الأنبياء مرسل للناس قاطبة
 وباب رسالته مفتوح لجميع الأمم فيكون لهم رحمة . فتفسير الرحمة فى هذه السورة بإظهار العلوم الخزونة فى
 خزائن الأمم الأوروبية منذ أيام اليونان ونشرها بين المسلمين وتعلم المسلمين للأوربيين ثم تنفيح هؤلاء لها بالبحث
 ثم رجوعها ثانية لنا الآن لتستيقظ بعد نومنا العميق . كل ذلك رحمة بنا نحن المؤمنين بل رحمة بالعالم قاطبة
 فهو آية أخرى يقول « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

فقال صاحى : هذه رحمة للناس صلى الله عليه وسلم فأريد الساعة أن تذكر لى رحمة بالحيوان حتى يعلم
 المسلمون أن درس المسلمين على منهج يقرب من النهج المتقدم خير وأعظم .
 فقلت جاء فى كتاب [تيسير الوصول إلى جامع الأصول] ما نصه :

كتاب الرحمة : وفيه ثلاثة فصول

(الفصل الأول : فى الحث عليها)

عن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الراحمون يرحمهم
 الله تعالى . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء . الرحم شجرة من الرحمن من وصاها وصله الله ومن

صطب قطعه الله تعالى « أخرجه أبو داود إلى قوله من في السماء والترمذي بنامه (الشجنة) بكسر الشين المعجمة
وفتحها بعدها جيم : القرابة المشتبكة كاشتباك العروق .

وعن جرير رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » أخرجه
الشيخان والترمذي . وفي أخرى لأبي داود والترمذي عن أبي هريرة رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم
« لا تنزع الرحمة إلا من شقي » .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي رضى الله عنهما
وعنه الأقرع بن حابس ، فقال الأقرع إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا ، فنظر إليه رسول الله
صلى الله عليه وسلم ثم قال من لا يرحم لا يرحم » أخرجه الحجة إلا النسائي . وزاد رزين « وأملك إن كان
الله نزع منكم الرحمة » .

(الفصل الثاني : في ذكر رحمة الله تعالى)

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما قضى الله الخلق ، وعند مسلم :
لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمى تغلب غضى » أخرجه الشيخان
والترمذي . وعند البخارى رحمه الله في أخرى « إن رحمى غلبت غضى » وعند الشيخين في أخرى « سبقت
غضى » .

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده
تسعة وتسعين وأزل في الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن
ولدها خشية أن تصيبه » أخرجه الشيخان والترمذي .

وعن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله مائة رحمة ، فمنها
رحمة يتراحم بها الخلائق بينهم وتسعة وتسعون ليوم القيامة » أخرجه مسلم . وله في أخرى « إن الله تعالى خلق
يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض ، فجعل منها في الأرض رحمة واحدة
فيها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض فاذا كان يوم القيامة أكملها الله تعالى
بهذه الرحمة » .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يسي فاذا امرأة من
السبي تسعى قد تحلب ثديها إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته فألقت به بطنها فأرضعته . فقال صلى الله عليه وسلم
أنرون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ قلنا لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه ؟ قال فأنه تعالى أرحم
عباده من هذه بولدها » أخرجه الشيخان .

(الفصل الثالث : فيما جاء من رحمة الحيوان)

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بيننا رجل يمشى بطريق اشتد عليه
العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج وإذا كلب يلهث بأكل الترى من العطش . فقال الرجل لقد
بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى فنزل البئر فملا خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب
فشكر الله تعالى له فففر له ، قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرا ؟ قال في كل كبد رطبة أجر » أخرجه
الثلاثة وأبو داود . وفي أخرى « إن امرأة بغير رأيت كلبا في يوم حار بطيف يثر قد أدلع لسانه من العطش
فترعت له موقها فففر لها به » لثت الكلب وغيره : إذا أخرج لسانه من شدة العطش والحرو وكذا أدلع لسانه ،

والترى : التراب الندى والرادهنا التراب مطلقا ، والسكبد الرطبة : كل ذات روح ولا تكون رطبة إلا إذا كان صاحبها حيا ، والبنى : المرأة الزانية ، واللوق : الخف .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه الشيخان ، (خشاش الأرض) هو امها وحشراتنا .

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما ، قال « كان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدف أو حائش نخل ، فدخل حائطا لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه فسكت ، فقال من رب هذا الجمل ؟ فقال فني من الأنصار هو لى يارسول الله . فقال أفلا تتقي الله في هذه البيعة التي ملكك الله إياها ؟ فإنه شكى إلى أنك تبغمه وتدببه » أخرجه أبو داود ، الهدف : ما ارتفع من الأرض من بناء وغيره ، وحائش النخل : نخلات مجتمعات ، والحائط : البستان . وذفرى البعير : اللوضع الذي يعرق من قفاه خلف أذنيه ويجعل فيه القطران وهما ذفريان ، وتدابه : تبعه بكثرة استعماله .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تتخذوا ظهور دوابكم منابر إنما سخرها الله لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض فاعلموا فاقضوا حاجتكم » أخرجه أبو داود . (شق الأنفس) جهدها وشدة ماتلاقيه عند مقاساة الأمور الصعبة .
وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبيه رضى الله عنه قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فرأينا حمرة معها فرخان لها فأخذناهما فجاءت الحمرة تعرش ، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رفع هذه بولدها ردوا ولدها إليها ، ورأى قرية نخل قد أحرقناها فقال من أحرق هذه ؟ قلنا نحن ، قال إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار » أخرجه أبو داود .

(الحمرة) بضم الحاء المهملة وتشديد الميم : نوع من الطير في شكل العصفور ، وقوله (تعرش) بالعين المهملة والشين المعجمة أى ترفرف وترخى جناحها وتدنو من الأرض لتقع عليها ولا تقع ، وروى تفرش بالفاء من فرش الجناح وبسطه .

وعن محمد بن إسحاق ، عن رجل من أهل الشام يقال له أبو منظور عن عمه عن عامر الزام أخى الحضرم قال « إنا لبيلاذنا إذ رفعت لنا رايات وألوية فقلت ما هذا ؟ قالوا لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنتيه وهو جالس تحت شجرة وقد اجتمع إليه أصحابه جلست إليهم فذكر النبي صلى الله عليه وسلم الأسقام والأمراض ، فقال إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله عز وجل منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه وموعظة له فيها يستقبل ، وإن المنافق إذا مرض ثم أعفى كان كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه فلم يدر لم عقلوه ولم أرسلوه فقال رجل ممن حوله يارسول الله وما الأسقام والله ما مرضت قط ؟ فقال له قم فليست منا » أخرجه أبو داود ، والألوية جمع لواء : وهى الراية الكبيرة دون الأعلام ، وأعفاه وعافاه بمعنى واحد .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قرصت نملة نبييا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فحرق فأوحى الله تعالى إليه أن قرصتك نملة أحقرت أمة من الأمم تسبح » أخرجه الخمسة إلا الترمذى (وقرية النمل) مسكها . اه ماجاء في الكتاب المذكور .

ثم قال صاحبى : لقد استوفيت هذا المقام وشرحت صدرى . فقلت الحمد لله رب العالمين :

كتب فى ليلة الخميس (٥) سبتمبر سنة ١٩٢٩ م وبهذا تم الكلام على القسم الأول فى تفسير البسطة .

(القسم الثاني)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنْ كَانَ عَلَيَا حَكِيمًا *
وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا * مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ
الَّذِينَ تَزَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلِكُمْ
بِأَفْوَاهِكُمْ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ
فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ، وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا
أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ
مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ، وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ
مَسْطُورًا * وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ
أَبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * لِيَسْتَلِلَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابًا أَلِيمًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ كُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ
وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا *
هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا * وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ
لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ
إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا * وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَفْطَارِهِمْ سُلُبُوكُمْ لَقَاتَلُوا لِتَوَّاهَا

وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا • وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَذْبَارَ
وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا • قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا
لَا تُحْتَمُونَ إِلَّا قَلِيلًا • قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَمَصُّكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ
بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا • قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمْ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ النَّاسَ إِلَّا قَلِيلًا • أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ
فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْتَمِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ
فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ
اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا • يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ
الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَلُونُ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ
مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا • لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا • وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا • مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ
صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا •
لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ
غَفُورًا رَحِيمًا • وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا • وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا • وَأَوْزَنَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا •

(التفسير اللفظي)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها النبي اتق الله) أي يا أيها الخبر عنا للآمنون على أسرارنا اثبت على تقوى الله ودم عليها (ولا تطع
الكافرين والمنافقين) ولا تساعدهم على شيء واحترس منهم . روى أن أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل

وأبا الأعرور السلي قدموا المدينة بعد قتال أحد فزّلوا على عبد الله بن أبي وأعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه، فقالوا ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تنفع ونشفع وساعدتم للناقضين على ذلك فهم المسلمون بقتلهم فزلت : أى اتق الله فى تقض العهد ولا تطع الكافرين من أهل مكة والناقضين من أهل المدينة فيما طلبوا ولذلك لما قال عمر ائذن لى برسول الله فى قتلهم قال إني أعطيتهم الأمان . قال عمر اخرجوا فى لعنة الله وغضبه (إن الله كان عليا) بالمصالح والفساد (حكيا) لا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة (واتبع ما يوحى إليك من ربك) فى الثبات على التقوى (إن الله كان بما تعملون خبيرا) أى لم يزل عالما بأعمالهم وأعمالكم (وتوكل على الله) وكل أمرك إلى تديره (وكفى بالله وكيلًا) حافظا موكولا إليه الأمور كلها: أى اكتف بالله وكيلًا . وإذا كان الله لك وكيلًا فلا تخف من أحد فهو ناصرك فلست فى حاجة إلى الناقضين والكافرين إذ لا يجمع بين المتضادين إطاعة غير الله وإطاعة الله إذ ليس للإنسان قلبان حتى يطيع بأحدهما وبعض الآخر . وإذا كان للإنسان قلب فحق أنجه لأحد الشقيين صد عن الآخر ، فطاعة الله تصد عن طاعة سواه وهو يقوم بأمر من توكل عليه ، هكذا ليس يجمع الزوجية والأمومة فى امرأة والبنوة الحقيقية والتبني فى إنسان واحد ، فإذا ظهر الرجل زوجته أى قال لها أنت على كظهر أى فلذلك حكم سيأتى فى [سورة المجادلة] فلما أن تحرم عليه إلى أداء الكفارة وإما أن تطلق ، فهذا القول ليس بحق إذ لا يجمع كونه زوجها وكونها أما، فلما أن تكون زوجة وإما أن تكون أما . هكذا التبني لا يكون ابنا حقيقة . وذلك أن زيد بن حارثة وهو رجل من كلب سبي صغيرا فاشتراه حكيم بن حزام لعنته خديجة فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له فطلبه أبوه وعمه غير فاختار رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتقه وتبناه ، وكانوا يقولون زيد بن محمد فلما تزوج صلى الله عليه وسلم زينب وكانت تحت زيد قال الناقضون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عنه ، فقال الله ليس يجمع النقيضان بنوة ولا بنوة فزيد ليس ابنا بل هو دعوى جمعه أدياء وهو فعيل بمعنى مفعول وهو الذى يدعى ولدا وهذا الجمع شاذ لأن بابه ما كان بمعنى فاعل كسقى وتقى وأشقياء وأتقياء وهذا قوله تعالى (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن) فى تظاهرون قرأت وفى معنى التجنب فعدى بمن (أمهاتكم وما جعل أدياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم) لاختيصة له فى الأعيان كما يقول الهادى (واقه يقول الحق وهو يهدى السبيل) والله يقول ماله حقيقة مطابقة له وهو يهدى السبيل إلى الحق . وسيأتى بعد تمام السورة فى الرسالة المسماة [السر العجيب] حكمة زواج النبي صلى الله عليه وسلم زينب وحل زواجها وما يترتب على ذلك من نظام التشريع مع الحكمة فى تعدد الزوجات فى الإسلام وزوجات النبي صلى الله عليه وسلم (ادعوم لآبائهم) أى انبوم إليهم (هو أقسط عند الله) وهذا تعليل له (فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم أى فهم إخوانكم) فى الدين ومواليكم) أى فسموم بأسماء إخوانكم فى الدين وأولياكم فيه وقولوا هذا أخى ومولاي بهذا التأويل (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) ولا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك محظنين قبل النهى أو بعده نسيانا أو سبق لسان (ولكن ما تعمدت قلوبكم) أى ولكن فيما تعمدت قلوبكم الجناح (وكان الله غفورا رحيا) لغفوه عن الخطى . ولما كان المؤمن أخا للمؤمن فى الدين كما مر وكان صلى الله عليه وسلم ليس أبا زيد بن حارثة أعقب ذلك بتبيان منزلة النبي صلى الله عليه وسلم من الأمة كلها . يقول الله ليس محمد أبا محتصا بواحد منكم بل أبوته عامة وأتم إخوة فى الدين وأزواجه أمهاتكم بل هو أولى بكم من أنفسكم لأن أهل الأرض خلقوا فيها وهم غافلون عن العالم العلوى الذى هو الحياة الحقيقية فأزل اللانسة بالوحى على الأنبياء فهم فى الحقيقة آباء لكم ومحمد صلى الله عليه وسلم منهم وأبوة الأنبياء أشرف من أبوة الآباء إذ بها الحياة الحقيقية والأخرى بها الحياة القانية، لذلك كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهى منزلة لم ينلها الآباء الجثمانيون، فإذا حضهم على الجهاد فذلك

لاوتقائهم الروحي وهذا قوله تعالى (التي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) لما تقدم بيانه، فإذن كيف يستأذن الناس آباءهم وأمهاتهم لما أمرهم صلى الله عليه وسلم بزوجة تبوك وهو أشفق من الآباء بل هو أولى بالمؤمنين الخ (وأزواجه أمهاتهم) منزلات منزلهن في التحريم واستحقاق التعظيم. روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرءوا إن شئتم - النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم - فأبما مؤمن ترك مالا فترته عصيته من كانوا ومن ترك ديناً أو ضياعاً بفتح الضاد أى عيالا فليأتني فأنا مولاه » ومعنى عصبة البيت من يرثه سوى من له فرض مقدر. وقد تقدم في [سورة النساء] وهذا قوله تعالى (وأولوا الأرحام) وذوو القربات (بعضهم أولى ببعض) في التوارث (في كتاب الله) أى فيما فرضه الله (من المؤمنين والمهاجرين) أى وأولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين والمهاجرين بحق الهجرة وذلك نسخ لما كان في صدر الإسلام من التوارث بالمهجرة والموالاتة في الدين فهذه الآيات فيها رجعت الأمور إلى نصابها فليس للانسان وجهتان معاً مع أن له قلباً واحداً ، وليس للمرأة أن تكون أما وزوجة ، وليس الدعوى ابناً ، وليس للمهاجر والمؤمن أولى بالميراث من ذوى الأرحام (إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً) لما نسخ الله الميراث بالحلف والوفاة والهجرة وأصبحت الوراثة بالقرابة أباح الوصية لهؤلاء كما أباحها لغيرهم بالثلث فقال ولكن أن توصوا لمن تتولونهم من المعاقدين أى ولكن توصيتكم لهؤلاء مشروعة أو جائزة (كان ذلك في الكتاب مسطوراً) أى كان ما ذكر في الآيتين ثابتاً في اللوح المحفوظ. ولما كان ما تقدم مفيداً أن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم لأنه برفهم إلى عالم الأرواح أعقبه بذكر الأنبياء السابقين الذين هم آباء للأمم السابقين فقال (و) اذكر (إذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) على الوفاء بما حملوا (ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) فهؤلاء أشهر أرباب الشرائع وآباء الأمم ، وقدم عليهم إيداناً بأن أمته ستكون أرقى الأمم أدباً وأخلاقاً لأن رقى الأمة تبع لنبيها (وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً) مؤكداً وإعماً فعلنا ذلك (ليسأل الصادقين عن صدقهم) فيسأل الأمم كما يسأل الأنبياء ، فالأنبياء صادقون في التبليغ والأمم التابعة لهم صادقة في تصديق الأنبياء . فكل هؤلاء مسئولون . فالأنبياء عما قالوه لقومهم والصدوقون لهم عن تصديقهم وهل قاموا بما وجب عليهم ؟ فأثاب المؤمنين (وأعد للكافرين عذاباً أليماً) واعلم أن سؤال الأمم عن صدقها يدعو إلى السؤال عن أعمالها لأن الإيمان وحده لا يكفي كما قال تعالى « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناؤهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » وعليه لا بد من الأعمال والجد ومن أهمها الجهاد والجهاد أمر عام يشمل فروع الحياة كلها . فالعلم جهاد والأعمال كلها جهاد وقاتل العدو جهاد . لذلك أعقبه بذكر غزوة الخندق وهى الأحزاب . والكلام عليها منحصر في [ثلاثة فصول: الفصل الأول] فى ملخص الكلام عليها [الفصل الثانى] فى تفسير الألفاظ [الفصل الثالث] فى ربط هذه الغزوة بما قبلها من الآيات وأنها أشبه بما كان فى الأمم السابقة من امتحان الأمم وتذكيرها وقفا لما جاء فى قصص الأنبياء فى القرآن .

(الفصل الأول)

إن نفرا من اليهود قدموا على قريش فى شوال سنة أربع من الهجرة بمكة فدعومهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا لهم إن دينكم خير من دينه ثم جاءوا غطفان وقيسا وعيلان وحالفوا جميع هؤلاء أن يكونوا معهم عليه فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان وغطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر والحارث بن عوف ومسر بن ربيعة بن نؤيرة بن طريف وغيرهم . فلما سمع رسول الله صلى الله

عليه وسلم بذلك خط الخندق حول المدينة بإشارة سلمان العارسي وهو يومئذ حرّ ، إذ قال يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا ضربنا خندقا علينا فعمل في رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلمون وأحكوه وقد أقطع لكل عشرة أربعين ذراعا فخرجت لهم صخرة بيضاء من بطن الخندق فكسرت حديدكم وشقت عليهم . فلما علم بها صلى الله عليه وسلم أخذ العول من سلمان وضربها به ضربة صدعها وبق منها برق أضاء ما بين لابتها يعني المدينة حتى كأنه مصباح في جوف بيت مظلم فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر السلمون وهكذا مرة ثانية وثالثة فكانت تضيء وكان التكبير . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت ضربتي الأولى فبرق البرق الذي رأيتم أضواء له منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب . وأخبرني جبريل أن أمق ظاهرة عليها . ثم ضربت ضربتي الثانية فبرق البرق الذي رأيتم أضواء لي منها قصور قيصر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمق ظاهرة عليها . ثم ضربت الثالثة فبرق البرق الذي رأيتم أضواء لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمق ظاهرة عليها فأبشروا . فاستبشر السلمون . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده . فقال المنافقون ألا تعجبون بمنكم وبعدم الباطل وبخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا فزل ما سيأتي : وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض - الخ : ونزل ، قل اللهم مالك الملك الآية .

ولما اجتمع هؤلاء الأحزاب الذين حزبهم اليهود وأنوا إلى المدينة رأوا الخندق حائلا بينهم وبينها فقالوا والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها . وهناك كانت مصادمات بين القوم كرا وفرا . فمن الشركين من كان يقتحم الخندق فيرمى بالحجارة ويقتل . ومنهم من كان يقتحمه بفرسه فيصيه الموت وهكذا . ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلمه أنه أسلم وأن قومه لم يعلموا بذلك فقال صلى الله عليه وسلم إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة فأتى قريظة وقال لهم لا تعاربا مع قريش وغطفان إلا إذا أخذتم منهم رهنا من أشرفهم يكونون بأيديكم تقيه لكم على أن يقاتلوا معكم محمد الأنهم رجعوا وشتموا حربهم فأنكم لا تقدرون عليه . وذهب إلى قريش وإلى غطفان فقال لهم إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رهنا يدفعونه لمحمد فيضرب أعناقهم وهم يتحدثون معه على قتالكم لأنهم ندموا على ما فعلوا معه من نقض العهد وتابوا وهذا هو المخرج الذي اتفقوا عليه . فهناك تخاذل اليهود والعرب وحصل الفشل بسبب ذلك . وفي ذلك الوقت بعث الله ريحا في ليل شاتية شديدة البرد جعلت تكفأ قلوبهم وتطرح آياتهم وقد قام صلى الله عليه وسلم يصلي هونا من الليل ثم يلتفت ويقول هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم فعل ذلك ثلاث مرات ولم يبق رجل واحد من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد فدعا حذيفة بن اليمان فذهب إلى القوم فسمع أبا سفيان يقول يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والحف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فأتى مرتحل . فلما رجع أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت أنيابه في سواد الليل . انتهى الفصل الأول .

﴿ الفصل الثاني ﴾

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود) أي الأحزاب المتقدم ذكرها وهم نحو اثني عشر ألفا (فأرسلنا عليهم ريحا) هي ربيع الصبا (وجنود لم يروها) لللائكة وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم في ثلاثة آلاف والخندق بينهم ومضى على الفريقين شهر لا حرب بينهم إلا الترامى بالنبل والحجارة حتى أرسل الله عليهم الريح كما تقدم فأخسرتهم وسفت التراب في وجوههم وأطفات نيرانهم وقلعت

خيامهم وماجت الخيل بعضها في بعض فقال طليحة الأسدي أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالتجاء التجاء كما تقدم
(وكان الله بما تعملون) من حفر الخندق (بصيرا) رايها . وقوله (إذ جاءوكم) بدل من « إذ جاءتكم »
(من فوقكم) من أعلى الوادي من قبل الشرق وهم بنو غطفان (ومن أسفل منكم) من أسفل الوادي من
قبل الغرب وهم قريش (وإذ زاغت الأبصار) مالت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصا (وبلغت القلوب
الحاسر) هذا إما تمثيل أو أن الرئة تنفتح من شدة الروع فتسكاد ترتفع إلى رأس الحنجرة ويرتفع القلب
بارتفاعها إليها . والحنجرة منهي الحلقوم وهو مدخل النفس الذي وراء المريء وهو مدخل الطعام والشراب
(وتظنون بالله الظنونا) الأنواع من الظن . فالظن يعلم أنه امتحان فيخاف الزلل ، والمناقق وضعيف القلب
يقولان ما حكي الله عنهما . وألف الظنونا أثبتنا بعضهم تشبيها للفواصل بالقوافي ولم يردّها بعضهم وهو القياس
(هنالك ابتلى المؤمنون) فظهر الخلق من المنافق والثابت من المزلزل (وزلزلوا زلزالا شديدا) من شدة الفرع
(وإذ يقول المنافقون) عطف على الأول (والذين في قلوبهم مرض) هم قوم لا بصيرة لهم في الدين كان
المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم (ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) كما تقدم (وإذ قالت طائفة منهم)
وهم عبد الله بن أبي وأصحابه (يا أهل يثرب لا مقام لكم) أي يا أهل المدينة لا قرار لكم هنا (فارجموا) من
عسكر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة (ويستأذن فريق منهم النبي) وهم بنو حارثة (يقولون إن بيوتنا عورة)
أي ذات عورة أي خالية من الرجال نخاف عليها سرق السراق (وما هي بعورة) بل هي حصينة (إن يريدون
إلا فرارا) أي ما يريدون بذلك إلا الفرار من القتال (ولو دخلت عليهم) المدينة أو بيوتهم (من أقطارها)
من جوانبها سواء أكان الداخل هم الأحزاب أم غيرهم (ثم سئلوا الفتنة) أي الردة ومقاومة المسلمين
(لآتوها) لأعطوها (وما تلبثوا بها) أي وما لبثوا بالمدينة بعد إعطاء الفتنة (إلا قليلا حتى يهلكوا)
(ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأديبار) وهم بنو حارثة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين
فشلوا ثم تابوا ألا يعيدوا مثله أبدا (وكان عهد الله مسؤلا) عن الوفاء به مجازي عليه (قل لن ينفعكم الفرار
إن فررتم من الموت أو القتل) فان لكل امرئ موته سبق بها القضاء فلا بد من نفاذه على حسب ما سبق به
القضاء من قتل أو غيره (وإذن لا تمتعون إلا قليلا) أي وبعد الفرار لا تمتعون إلا مدة آجالكم وهو قليل
(قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا) أي يصيكم بسوء (أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون
الله وليا) ينفعهم (ولا نصيرا) يدفع الضر عنهم (قد يعلم الله الموقين منكم) الشيطيين عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم وهم المنافقون (والقائلين لاخوانهم) من ساكني المدينة (هلم إلينا) أي ارجعوا إلينا ودعوا محمدا
صلى الله عليه وسلم فلا تشهدوا معه الحرب فانا نخاف عليكم الهلاك والقائلون هذا القول هم اليهود أرسلوا إلى
للمناققين فقالوا لهم ما الذي يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبي سفيان ومن معه فانهم إن قدروا عليكم هذه المرة
لم يبقوا منكم أحدا وإنما نخاف عليكم وأنتم إخواننا وجيراننا فهلوا إلينا فأقبل عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه
يشطون الناس فلم يزدوا للمؤمنين إلا ثباتا واحتسابا . وقوله (ولا يأتون البأس إلا قليلا) أي لا يأتي الحرب
المنافقون إلا إتيانا قليلا حال كونهم (أشحة عليكم) بخلاء عليكم بالمعاونة النفسية والمالية (فاذا جاء الخوف
رأيهم ينظرون إليك تدور أعينهم) في رءوسهم من الخوف والجبن (كالذي يمشي عليه من الموت) أي كدوران
عين الذي قرب من الموت وغشيته أسبابه فانه يذهب عقله ويشخص بصره فلا يظرف (فاذا ذهب الخوف) أي
زال (سلفوكم) آذوكم ورموكم في حال الأمن (بالسنة حداد) ذرية تفعل فعل الحديد إذ يطلبون الغنيمة ويقولون
إنا شهدنا معكم القتال فلسنم أحق بالغنيمة منا . وقوله (أشحة على الخير) حال أي خاطبوكم حال كونهم أشحة على
المال كما هم أشحة بأنفسهم ومالهم فلا قتال لديهم ولا إغراق وهم شديدا الحرص على الغنيمة (أولئك لم يؤمنوا)

حقيقة بل هم مسلمون بالطواهر (فأحبط الله أعمالهم) أى أبطلها باضمارهم الكفر (وكان ذلك) إحباط أعمالهم (على الله يسيرا) هينا (بحسبون الأحزاب) لجبنهم وجزعهم (لم يذهبوا) أى لم ينهزموا ولم ينصرفوا مع أنهم قد انصرفوا (وإن يأت الأحزاب) كرة ثانية (يودوا لو أنهم بادون في الأعراب) أى يتمنى المنافقون لجبنهم أنهم خارجون من المدينة إلى البادية عائشون بين الأعراب ليأمنوا على أنفسهم ويعزلوا ما فيه الخوف من القتال (يسألون) الركبان والقادمين إليهم من المدينة (عن أنباثكم) عما جرى عليكم (ولو كانوا فيكم) ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال (ماقاتلوا إلا قليلا) رياء وسمعة (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) أسوة القدوة وهو المقتدى به والمؤتى فاقتدوا به اقتداء حسنا فانه كبرت ربايته وجرح في وجهه وقتل عمه ، وأذى بضروب الأذى فصر ، وقوله (إن كان يرجو الله واليوم الآخر) متعلق بقوله « حسنة » أى حسنة لمن يرجو ثواب الله ونعيم الآخرة (وذكر الله كثيرا) وقرن بالرجاء كثرة الذكر وهى تؤدى إلى ملازمة الطاعة (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله) إذ قال تعالى « أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم » الخ ، وأيضا « أحسب الناس أن يتركوا » الخ ، وقال صلى الله عليه وسلم « سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم » وقوله أيضا « إنهم سائررون إليكم بعد تسع أو عشر » (وصدق الله ورسوله) وظهر صدق خبر الله ورسوله (وما زادهم) الحطوب والبلاء (إلا إيمانا وتسلما) أى إيمانا بمواعيد الله وتسلما لمقاديره (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) من الثبات مع الرسول والقتالة لتكون كلمة الله العليا (فمنهم من قضى نحبه) أى فرغ من نذره ووفى بعهده وصبر على الجهاد حتى استشهد والتعب الذى هو بمعنى النذر استعير للموت لأنه كئذ لازم فى رقبة كل حيوان ، وذلك مثل حمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر (ومنهم من ينتظر) الشهادة كعتبان وطلحة (وما بدلوا) العهد (تبديلا) شيئا من التبديل كما بدل المنافقون . روى « أن طلحة ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حتى أصيبت يده فقال صلى الله عليه وسلم أوجب طلحة » فمخلص ما تقدم أن قوما صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقوم بدلوا بنقض العهد (ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم) فيهديمهم إلى الإيمان (إن الله كان عفورا رحما . ورد الله الذين كفروا بغيظهم) ولم يشف صدورهم فهم فى حنق (لم ينالوا خيرا) ظفرا (وكفى الله المؤمنين القتال) بالريح والملائكة (وكان الله قويا) فى ملكه (عزيزا) فى انتقامه (وأنزل الدين ظاهروهم من أهل الكتاب) أى عاونوا الأحزاب من قريش وغطفان وهم بنو قريظة (من صياصيم) من حصونهم جمع صيصية وهى ما يتحصن به ، ويقال أيضا لقرن الثور والظبي ولشوكه الديك لأن ذلك كله للتحصن من العدو (وقذف فى قلوبهم الرعب) الخوف (فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) . روى « أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التى انهزم فيها الأحزاب فقال يا محمد أتترع لأمتك والملائكة لم يضعوا السلاح ؟ إن الله يأمرك بالسير إلى بنى قريظة وأنا عامد إليهم فأذن فى الناس أن لا يصلوا العصر إلا ببني قريظة فاصرم إحدى وعشرين أو خمسا وعشرين ليلة حتى جهدم الحصار فقال لهم تنزلون على حكمي فأبوا فقال على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم ونسائهم ، فكبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة قتل منهم ستائة أو أكثر وأسروا منهم سبائة » . واعلم أن هذه الرواية ذكرها المفردون ولم ترد فى الصحاح كلها ثم قال تعالى (وأورثكم أرضهم) مزارعهم (وديارهم) حصونهم (وأموالهم) تقودم ومواشيهم وأثاثهم (وأرضاً لم تطئوها) بعد كخيبر ومكة وفارس والروم والقسطنطينية وغيرها من كل أرض تفتح للمسلمين (وكان الله على كل شئ قديرا) فيقدر على ذلك . روى البخارى عن سلمان بن صرد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين أجلى الأحزاب « الآن تروم ولا يزوجتنا ، نحن نسير إليهم » .

وروي البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » انتهى الفصل الثاني في تفسير الألفاظ .

﴿ الفصل الثالث : في اتصال هذه القصة بما تقدمها في أول السورة وفي سور القرآن كله ﴾

لقد ذكر الله في القرآن قصص الأنبياء وأمرهم أن يذكروا قومهم بأيام الله ومنهم موسى عليه السلام وقصته ذكرت غير مرة في القرآن وآخرها ذكرا ما جاء في آخر ﴿ سورة السجدة ﴾ قبل هذه إذ قال تعالى « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مربة من لقائه » الخ . ثم جاء في أول هذه السورة ذكر موسى إذ قال « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح » الخ . ثم سوى بين الأنبياء وتابعهم في سؤالهم عن عهودهم التي عاهدوها ، فالأنبياء مسئولون لتوبيخ المكذبين والمؤمنون مسئولون عما عاهدوا الله عليه هل صدقوا وثبتوا في إيمانهم فجاهدوا وصبروا أم هم مناقون مذنبون ، ولقد جاء في [سورة إبراهيم] « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكركم بأيام الله » فذكركم بالشدائد التي لاقوها من فرعون ، وبالنعمة التي أنعم بها عليهم كخروجهم من ذل العبودية وأنهم ورثوا الأرض التي وعدوا بها ، هكذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يذكر المسلمين بغزوة الأحزاب والإنعام عليهم بنجاتهم منهم كما أنعم على بني إسرائيل بنجاتهم من فرعون ، فانظر كيف يقول لموسى « وذكركم بأيام الله » ويقول الله للمسلمين في القرآن « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم » ويقول موسى « يا بني إسرائيل اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون » وهنا يقول الله سبحانه « اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها » .

إن السورة قد ابتدئت بذكر الدوام على طاعة الله وعدم الميل مع المناقضين والكافرين أي اتحاد الوجهة النفسية والعملية في الاعتقاد وفي الدعوى وفي الزوجة ، فإن اعتبار الزوجة أما واعتبار الدعوى ابنا جمع بين المتناقضين كاجتماع طاعة الله وطاعة غيره . إن الله تعالى أرسل الرسل وهم صادقون وأتباعهم مسئولون عن عهودهم فهل يوفون بعهودهم ، أم يكونون كالمناقضين الذين يجمعون بين المتناقضين ؟ قول مصدق وعمل مكذب كما يجعل الدعوى ابنا والزوجة أما . إن هذه القاعدة عامة في الرسل وأتباعهم وهكذا هذه الأمة . إن الله لا يترك الناس أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . إن الله ابتلى المسلمين بالغزوات ومنها غزوة الأحزاب فمنهم من صدقوا ما عاهدوا الله عليه ومنهم من بدلوا ، فهنا الامتحان والابتلاء في الاسلام تطبيق على القاعدة العامة في قوله « وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . ليسأل الصادقين عن صدقهم » .

يقول الله . إن هذه القاعدة عامة في الأرض فلا بد أن تنالوا حظكم منها فننظر أتصدقون ، وإذا كنا « آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » . هكذا باعده ستكون أنت وأتباعك من صبروا منهم يكونون أئمة . وقوله « فلا تكن في مربة من لقائه » فيه إشارة إلى هذا المعنى من طرف خفي كأنه قال آتيناك الكتاب كما آتيناك وسيكون لك نصر وأتباع هداة كما نصرناه وأبدناه .

﴿ أمة الإسلام اليوم ﴾

فعلى المسلمين أن يتدبروا هذه الغزوة ويتفكروا فيها فانها لم تذكر في القرآن لمجرد التبرك . إن الله خلق الناس على هذه الأرض ليعدهم إلى الرقى إلى عالم أرقى من هذا العالم ولا رقى إلا بأمرين : تهذيب جسمي وتأديب عقلي ، فلا بد من نعم وخير وشر وعزّ وذل وصحة ومرض ، وللره بين ذلك يرني ولا علم

له بالزينة ويؤدب ولا علم له بالتأديب . إن كل عمل نعمله في الحياة يعدنا عن المادة ويقرنا من عالم الأرواح
فكل صناعة تتقنها وعلم ندرسه وعمل نتقنه يرقى نفوسنا فيجعلها صانعة ذات حكمة ما . وقد جاء الإسلام
وأمرنا الله بالجهاد وأمر نبينا نفسه أن يجاهد فكانت حياته كلها جهادا . فقلنا أن تقديدي به . علينا أن
تكون حياتنا كلها جهادا يحرم علينا التواني والكسل . الجهاد يستلزم جميع العلوم والصناعات . يستلزم
علم الرياضيات والطبيعات والإلهيات . يستلزم علم السياسات وعلم الاقتصاد وعلوم الحرب كلها واستخراج
المعادن من الأرض وعلم الزراعة وعلوم العالم قاطبة . إن العلوم كلها والصناعات أشبه بحلقة مفرغة لا يندري أين
طرفاها . فإذا اطلعت على ما كتبت في [سورة البقرة] عند قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وأن
العلوم كلها والصناعات لا ينفك بعضها عن بعض عرفت أن الجهاد يكون بها كلها وأن الأمم عليها أن تخص كل
امري في الصناعة أو العلم الذي هو أليق به . فالجهاد في الإسلام يشمل جميع دوائر الحياة . ألا ترى إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم كيف قال لنعيم بن مسعود لما جاءه وقد أسلم سرا « إنما أنت فينا واحد نقتل عنا »
فخصه بما هو أقوى عليه وهو التخذيذ وقد نفذ الأمر فذهب إلى بني قريظة وإلى قريش وخطبهم وأوقع
بينهم الفشل . أليس هذا بعينه هو علم السياسة . أليس علم السياسة اليوم هو هذا بعينه . أليست الأمم تفتح
للمدارس لتربية الشبان لأمثال هذا . أليس هذا من الجهاد ؟ لا بل هو سر الجهاد . أو ليس صانع المدفع
وسائق القطر وسفير الدولة وكناب الجيش وأمثالهم مجاهدين . إن الجهاد يشمل سائر فروع الحياة ومتى بطل
فرع منها بطلت كلها . فإذا لم يكن قطرات تسير بالجنود لم يكن جهاد ولا قطرات إلا بالحديد ولا حديد إلا بالتجارة
ولا تجارة إلا بالزراعة ولا زراعة إلا بالأمن ولا أمن إلا بحكومة منظمة ولا حكومة منظمة إلا بملاقاتها مع
الأمم ولا علاقة لها مع الأمم إلا بحفظ كيانتها والتب عن حياضها .

اللهم إن هذا هو دينك . وإني قد أوضحت الأمر في هذا التفسير . وإني قد أدبت ماعلى ، فألهم اللهم
قراء هذا التفسير وأمثاله أن يجاهدوا فيك حق جهادك ويرجموا مجده هذه الأمة ويكونوا رحمة للعالمين ويعدوا
الأمة لمستقبلها الزاهر وسعدها الباهر ومجدها الفاخر ويعلموا الأمة أنها خنقت لانارة البصائر وتطهير السرائر
وإقامة الشعائر وإسعاد الأمم وحفظ الدم وأنهم خلقوا ليكونوا رحمة للعالمين وهذا نتيجة ظهوره على الدين
كله لأن الله لا يظهر دينا على الديانات إلا إذا كان رحمة عامة وهذا هو ديننا في مستقبل الزمان ، انتهى القسم
الثاني من السورة .

(الْقِسْمُ الثَّلَاثُ)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكِ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَمَا لَنْ أَمْتَعَكُنَّ
 وَأَسْرَحَكُنَّ سَرَّاحًا جَمِيلًا * وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ
 لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَاعَفْ
 لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ
 صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا * يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ
 النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا *
 وَقُرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ
 اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا *
 وَأَذْكُرَنَّ مَا يُثَلَّى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا *
 إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَائِتِينَ وَالْقَائِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ
 وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِعِينَ
 وَالصَّائِعَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ
 لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا * وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ وَلَا الْمُؤْمِنَةِ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ
 يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا * وَإِذْ
 تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي
 فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْيُنِنَا قَدْ قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا
 زَوَّجْنَا كَمَا لَمْ يَحْوَ لَاحِيًا لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ
 وَطَرًا، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ
 فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ
 وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا * مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ
 رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبَّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي
 عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا *
 تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا
 وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ
 اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا * وَلَا تَطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى
 بِاللَّهِ وَكِيلًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ
 تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَحوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا *
 يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَخْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ
 اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ
 مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ
 دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ
 عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ
 ابْتَمَيْتَ بِمَنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَأُ عَيْنَهُنَّ وَلَا يُحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا
 ءَاتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا * لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ
 بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ
 اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ
 طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِلِينَ لِإِنَّاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ
 لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا
 سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ
 أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ
 اللَّهِ عَظِيمًا * إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ
 فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ

وَلَا مَأْمَلَكْتَ أَيَّمَاهُنَّ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا • إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ
يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا • إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا • وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيِرَ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا • يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ
قُلْ لِأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْرِينَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ
فَلَا يُؤْذُونَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا • لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ
فِي الْمَدِينَةِ لِنُفْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَاجِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا • مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخَذُوا
وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا • سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا • يَسْئَلُكَ النَّاسُ
عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا • إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ
الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا • خَالِدِينَ فِيهَا أَلَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا • يَوْمَ تَقْلُبُ
وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ • وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا
وَكَبَرَاءَنَا فَأَصَلَّوْنَا السَّبِيلَ • رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكَبَرَاءَنَا فَأَصَلَّوْنَا السَّبِيلَ • رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا
وَالَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَىٰ فَهِيَ آهُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ
وَجِيهًا • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا • يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا • إِنَّا عَرَضْنَا
الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ
إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا • لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ
اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا •

إن القسم السابق قد مضى في جهاد الرجال وحفظ الثغور . فلما تم الكلام عليه أخذ سبحانه يشرح
جهاد النساء كأن يتركن الفاحشة ، وأن يقنن لله ولرسوله ، وأن يغيض أزواج النبي صلى الله تعالى عليه وسلم
على الأمة العلم الذي عرفه من النبوة ، وكان يأمرن جميع النساء بالحجاب الشرعي والآداب العامة وما أشبه
فذلك من كل حكم يختص بالنبي صلى الله عليه وسلم أو بأزواجه أو بما يحوم حول ذلك من احترامه وحفظ حرمة
واجتناب أذاه ،

وفي هذا فتح باب للجهاد الأكبر بعد إتمام الكلام على الجهاد الأصغر كما قال صلى الله عليه وسلم «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس» فان التدبير المنزلي ونظام العائلات وإقامة الشعائر كل ذلك جهاد عظيم أكبر من جهاد العدو . ألا ترى إلى قول (أرسطاطاليس) للاسكندر (إن الناس يحتملون الشدة ولكنهم لا يحتملون الرخاء) يريد أن الناس يقدرون على مكافحة الحروب ولكنهم إذا أبطرتهم النعماء لا يتحملونها بل تفتت قواهم وتضيع نخوتهم ويذهب عجزهم ولذلك أكد عليه أن يراعيهم في أحوالهم ويشغلهم فان لم يشغلهم أيام الأمن هلسكوا وضاعت دولهم ، فهكذا ههنا لما أتم الله الكلام على الجهاد أخذ يشرح الآداب المنزلية والأحوال الاجتماعية ، فاذا لم تنظم فلا حياة للأمة .

ولقد مضى مثل هذا في (سورة البقرة) فانه بعد أن ذكر أحكام الطلاق والعدة والرضاع والحجر واليسر واليتامى وما أشبه ذلك من كل عمل للناس في أممهم ، أعقبه بذكر القتال فقال «ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف» الخ فهناك ذكر القتال بعد النظام الداخلي وهنا عكس الأمر إشارة إلا أن كلا منهما في نفسه مطلوب في وقته لا فضل للأخر عليه ، فان لم يكن نظام داخلي فلانظام للحرب ، ومن أهملوا الدفاع عن مدنهم اختلت أحوالهم وضاعت مدنهم ، وفي هذا القسم فصول :

﴿ الفصل الأول في خطاب النبي ﷺ لأزواجه بازهد في الدنيا ، والإخلاص لله وأن وزرهن وأجرهن ضعف غيرهن ، ووجوب ملازمتهن البيوت ، وعدم التبرج وإقامتهن الصلاة . وإيتائهن الزكاة ﴾

قوله تعالى (تردن الحياة الدنيا) أى السعة والتنعم فيها (وزينتها) زخارفها (أمتعن) أعطى المنفعة . ومعلوم أن المنفعة تستحب لكل مطلقة إلا المفوضة قبل الوطء (وأسرحكن سراحا جميلا) طلاقا من غير ضرار وبدعة (أجرا عظيما) أى تستحقه دونه الدنيا وزينتها (فاحشة) كبيرة (مبينه) ظاهر فيها (ضعفين) ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه لأن الذنب منهن أقبح فزيادة قبح الذنب تنبع زيادة فضل الذنب والنعمة عليه ولذلك جعل حد الحر ضعفى حد العبد ، وجعل ذنب العالم أشد من ذنب الجاهل ، وعونب الأنبياء على مالا يعاتب عليه غيرهم (وكان ذلك على الله يسيرا) لا يمنعه عن التضعيف كونهن نساء النبي (ومن يقنت منكن) ومن يدم على الطاعة (نؤتها أجرها مرتين) مرة على الطاعة ومرة على طلبهن رضا النبي صلى الله عليه وسلم بالقناعة وحسن المعاشرة (وأعتدنا لها رزقا كريما) فى الجنة (لستن كأحد من النساء) أصل أحد واحد بمعنى الواحد ، وهو فى النفى عام للذكر والمؤنث والواحد والكثير ، أى لستن كجاعة واحدة من جماعات النساء (إن اتقين) مخالفة حكم الله ورضا رسوله (فلا تخضعن بالقول) فلا تجبن بقولكن خاضعا لنا مثل المريبات (فيطمع الذى فى قلبه مرض) فجور (قولا معروفا) حسنا بعيدا عن الريبة (وقرن فى بيوتكن) من وفر يقر وقارا أو من قر يقر مع تصرف بحذف الأولى من راءى اقررن وتقل كسرتها إلى القاف فتحذف همزة الوصل ، ويصح أن يكون من قار يقر إذا اجتمع (ولا تبرجن) ولا تتبخترن فى مشيتكن وتتسكرن أو لا تظهرن زينتك وتبرزن محاسنكن (تبرج الجاهلية الأولى) تبرجا مثل تبرج النساء فى أيام الجاهلية القديمة وهى جاهلية الكفر قبل الاسلام ، أما الجاهلية الأخرى فهى جاهلية الفسوق فى الاسلام (وأطعن الله ورسوله) فى سائر ما أمركن به ونهاكن عنه (الرجس) الذنب المدنس لمركن (أهل البيت) نصب على النداء أو اللدح (ويطهركن) من المعاصى ، واعلم أن تخصيص أهل البيت بجلى وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم أجمعين لم يتم عليه دليل ، وإذا ثبت الأحاديث الواردة فى ذلك فعلى لاتفيد التخصيص وقوله (من آيات الله والحكمة) أى من القرآن والسنة (إن الله كان لطيفا) عالما بخواص الأشياء (خبيرا) عالما بحقائقها

أى هو عالم بأفوالكن وأقوالكن . انتهى تفسير ما يحتاج إليه من الألفاظ في هذا الفصل من قوله تعالى «يا أيها النبي قل لأزواجك» إلى قوله «إن الله كان لطيفا خبيرا» .

﴿ لطيفة ﴾

ورد أن سبب نزول آية التخيير أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأذن يوما لأحد بدخول منزله إلا أبا بكر وعمر فدخلا فوجداه جالسا حوله نساؤه وهو واجم ساكت فأخذ عمر يضحك ويقول: يا رسول الله لقد رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقلت إنها فوجأت عنقها فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال هن حولى كما ترى يسألنني النفقة ، فقام كل من أبا بكر وعمر إلى عائشة وحفصة يوبخانهما ويضربانهما ويقولان تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماليس عنده ثم اعترك رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه شهرا أو ٢٩ يوما حتى نزلت هذه الآية «يا أيها النبي قل لأزواجك» إلى قوله «للحسنت منسكن أجرا عظيما» قال فبدأ بعائشة ، فقال يا عائشة إنى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تهجلى فيه حتى تستشيرى أبويك ، قالت وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآية ، فقالت أفيك يا رسول الله أستشير أبوي ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكر لمن الله فترى «لا يجعل لك النساء من بعد» .

﴿ حكم الآية ﴾

إذا خير الرجل امرأته فاخترت زوجها

- (١) لا يقع شيء عند عمر وابن مسعود وابن عباس وأكثر الأئمة .
- (٢) ويقع طلاق واحدة عند زيد بن ثابت ، وفي رواية عن علي .
- (٣) وإن اختارت نفسها وقع طلاق واحدة رجعية عند عمر بن عبد العزيز وابن أبي ليلى وسفيان والشافعي رضي الله عنه .
- (٤) وطلاق بائنة عند أصحاب الرأي ، وفي رواية عن علي .
- (٥) وثلاث طلاقات عند زيد بن ثابت والحسن ومالك .

﴿ الفصل الثاني : في الصفات التي يجب على الرجال والنساء أن يكونوا عليها من المسلمين ، وفي قصة زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم من قوله «إن المسلمين والمسلمات» إلى قوله «وكفى بالله حسيبا» ﴾

هنا ذكر الله عشر صفات للرجال والنساء ، وهي (الاسلام) وهو الاتقياء لحكم الله (الإيمان) أى التصديق بما يجب أن يصدق به (القيوت) أى اللداومة على الطاعة (الصدق) فى القول والعمل (الصبر) على الطاعات وعن المعاصى (الخشوع) أى التواضع لله بالقلوب والجوارح (التصدق) بما وجب على الانسان من ماله وبما هو مستحب (الصيام) المفروض أو هو وغيره (حفظ الفرج) عملا يجعل (كثرة الذكر لله) بالقلب واللسان ، فهؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات العشر «أعد الله لهم مغفرة» لما اقترفوا من الصغائر لأنهن مكفرات لها «وأجرا عظيما» على طاعتهم .

﴿ ذكر أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها وزواجها لزيد بن حارثة ثم طلاقها منه

وزواجها للنبي صلى الله عليه وسلم ﴾

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بنت عمته أميمة على مولاه زيد بن حارثة فأبت وأبى أخوها عبد الله ، ولقد كانت رضيته في أول الأمر إذ ظنت أنه صلى الله عليه وسلم خطبها لنفسه ، فلما علمت بالحقيقة أبت وهذا قوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) أي وما صح لرجل مؤمن ولا امرأة مؤمنة (إذا قضى الله ورسوله) أي رسول الله (أمرا) من الأمور (أن تكون لهم الخيرة من أمرهم) أي أن يختاروا من أمرهم ما شاءوا بل عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه والخيرة ما يتخير (ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً) بين الانحراف عن الصواب . واعلم أن الله عز وجل يعلم مستقبل الأمم الإسلامية وأن للنسب دخلاً عظيماً ، وأن الأمم يعترها الاضمحلال والحرب بسبب تفرق أهوائها ، وتفرق أهوائها إنما يكون بالدواعي للشبهة وأنه لا مصيبة أنسى ولا فتق أوسع ولا صدع أعظم من تصدع السلمين وتفرق شملهم وتفرق كلتهم باتباع ذوى الأنساب التصليين بدوى الشرف والعلم لاسباب التصليين بصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم . علم الله ذلك فقطع الأمر قبل حصوله وبته قبل وجوده وأظهره بمظهر لا مدخل للشك فيه ، إذ أوحى إلى نبيه أنى مزوجك زينب ابنة جحش بعد أن يطلقها زيد ، ألا وإن الله يعلم أن ابناً سيكون لأسامة اسمه زيد وأنه سيكون له القدر المعلى في النزوات أيام أبي بكر ، فلو أن الأمر بقي بلا إيضاح عملي وتشریح فضلي لجاز لأسامة أن يدعى الخلافة وسيأتى تفصيل هذا وأمثاله في (رسالة تعدد الزوجات) التي ستذكر في آخر هذه السورة .

أقول : لما أوحى الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن زينب ستكون زوجته ألقى الكرامة في قلب زيد لما كانها كارهة له ، فلما جاء زيد وقال إني أريد أن أطلقها قال له « أمسك عليك زوجك واتق الله » فتابه الله تعالى وقال له لم قلت « أمسك عليك زوجك » وقد أعلنتك أنها ستكون من أزواجك وهذا قوله تعالى (و) اذكر (إذ تقول للذي أنعم الله عليه) بالاسلام (وأنتمت عليه) بالاعتناق والتبني وهو زيد بن حارثة حين قال لك إني أريد أن أفارق صاحبتي ، وقلت له أراك منها شيء ، فقال لا والله يارسول الله ما رأيت منها إلا خيراً ولكنها تعظم على بترفها وتؤذي بلسانها (أمسك عليك زوجك) زينب ، وهو مقول لقوله تعالى (واتق الله) في أمرها فلا تطلقها ضراراً وتملاً بتكبرها (وتخفى في نفسك ما الله مبديه) وهو أنك ستكفها وأن زيدا قبل ذلك سيطلقها (وتخفى الناس) تعبيرهم إليك به (وإنه أحق أن تخشاه) إن كان فيه ما يخفى قري من هذا أن الله عابته على إخفاء ما أعلمه الله وهو أنها ستكون زوجته ، وإنما أخفى ذلك استحياءً أن يخبر زيداً أن التي تحتك وفي نكاحك ستكون زوجتي وذلك مقدمة لذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس أباً أحد من الرجال .

روى مسلم عن أنس قال « لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد اذهب فاذا كرهها على ، فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها فأبلغها ، فقالت ما أنا بصائمة شيئاً حتى أوامر ربى فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بنير إذن ، قال أنس فلقد رأيتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطمعنا الحبز واللحم حتى امتد النهار فخرج الناس وبق أناس يتحدثون في البيت بعد الطعام فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل حجر نسائه واتبعته وهو يسلم عليهن فانطلق يدخل البيت وذهبت لأدخل معه فالتقى السريين وبينه ونزل الحجاب » انتهى للقعود من الحديث ملخصاً .

ولقد كانت زينب تقول للنبي صلى الله عليه وسلم إنى لأدلى عليك بثلاث ، مامن امرأة من نسائك تدل
 بهن : جدى وبندك واحد ، وإنى أنسكنيك الله فى السماء ، وإن التصير جبريل عليه السلام وهذا قوله تعالى
 (فلما قضى زيد منها وطرا) حاجة بحيث ملها ولم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها (زوجنا كها) أى
 جعلناها زوجة لك بلا واسطة نقد (لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أديعائهم إذا قضوا منهن وطرا)
 لأن حكم النبي صلى الله عليه وسلم وحكم أمته واحد إلا فيما خصه الدليل (وكان أمر الله مفعولا) قضاء ما ضا وحكمه
 نافذا (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) قسم له وقدر كما تقول فرض له فى الديوان كذا ومنه فروض
 المسكر لأرزاقهم ، سن الله ذلك (سنة الله فى الدين خلوا من قبل) من الأنبياء وهو نفي الحرج عنهم فيما
 أباح لهم (وكان أمر الله قدرا مقدورا) قضاء مقضيا وحكما مبتوتا ، ثم وصف الذين خلوا بقوله (الذين
 ييلفون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله) تعويض بعد التصريح (وكفى بالله حسيبا) كافيا
 للخوف أو محاسبا فينبغى أن لا يغشى إلا الله .

(لطيفة)

هذه الآية تفرض على الناس الشجاعة الأدبية ، وقول الحق ، وإعلان الأمة بالحقائق ، وإذا أمر النبي
 صلى الله عليه وسلم بأن لا يكتم أمرا لابد من ظهوره ، لا ضرر فى كتمانها ، فكيف يكتم الناس العلوم ولا يظهرونها
 للأمة وهاعن أولاء الآن فى زمان أحوج إلى إظهار الحقائق فى كل زمان .
 يا أمة الإسلام . نزلت هذه الآية وعوب النبي صلى الله عليه وسلم فى أمر لا ضرر فى كتمانها . انظروا
 انظروا . كم مصيبة نزلت بالإسلام والعلماء يخافون أن يجهروا بالحقائق . إن الله جعلنا تابعين للنبي صلى الله
 عليه وسلم فأنه هو الذى يؤمننا من المخاوف . قولوا للمسلمين كفى سخولا وجهالة كفى نوما . فكروا فى هذه الدنيا
 ونظامها . افروا العلوم التى عرفتها الأمم . إن القرآن طافع بها . قولوا للرؤساء كفى تعاطفا . كونوا أيها
 الرؤساء خادمين للأمة . كفى تخاذلا ونهاونا . لاتصالوا بالأنساب لتجعلوا الناس عبيدكم حتى أصبحت عبيد
 الفرنجية . قولوا لأبناء النبي صلى الله عليه وسلم الذين لهم ملك أن لا ينأوا عن رقى الأمة فإن هذا الملك لن
 يدوم وستأخذ الفرنجية لجهل الشعب . حرام أن يجعل الناس جهلاء لأجل أفراد من الأمة . الشعب كله يجب
 أن يتعلم . يجب التصريح بذلك وإذاعة الحقائق ، وإلا فالعلماء معاقبون أشد عقاب ولا سبيا من قرأ مثل هذا
 التفسير فإنه مسئول عن إذاعته بين الناس .

(الفصل الثالث : فى فضل النبي صلى الله عليه وسلم وعموم رسالته)

(من قوله تعالى « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » إلى قوله « وكفى بالله وكيفا »)

قال تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) على الحقيقة فإذن لا تثبت حرمة الصاهرة كما فى زيد بن
 حارثة ، وهو وإن كان أبا للطاهر والطيب وإبراهيم والقاسم فهم لم ييلفوا الحلم (ولكن رسول الله) فهو
 إذن أبو أمته من حيث إنه شقيق ناصح لهم واجب التوقير والطاعة عليهم (وخاتم النبيين) فهو آخرهم الذى
 ختمهم أو ختموا به . قال ابن عباس يريد لو لم أختم به النبيين لجعلت له ابنا فيكون بعده نبيا ، وعنه قال
 إن الله لما حكم أن لاني بعده لم يعطه ولدا ذكرا يصبر رجلا (وكان الله بكل شئ عليما) فيعلم من يليق بأن
 يختم به النبوة ، وكيف ينبغى أن يكون شأنه . يقول مؤلف هذا التفسير إن تكرار القول فى عدم نبوة زيد
 وخلق السبب العملى للوجوب لذلك دو شأن عظيم فى قضية النبوة لولا هذا التأكيد والتكرار والتقوية لادعى
 قوم أن زيدا نبى بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن الله احتاط لذلك أشد الاحتياط . ومن العجب
 أن أمة الإسلام مغرمة بالأنساب وبالأشخاص فى بعض الجهات وهذا من أضل الجهالات التى ابتلى بها

السلون . فكم دخل في آل بيت النبوة من دعى . وكم ادعى قوم أنهم من السلالة الهاشمية وبنوا على ذلك الرياسة على الناس وأضلوا كثيرا إذ لم يكونوا أهلا للرياسة بالعلم والعمل للزهدين لها . إن فضل المؤمن بعلمه وبتأقعه وبعده ، والنسب أمر ثانوى . إن الله لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وقد أمرنا أن نحمده على ذلك لأن الولد يشغل عن غيره فلا ولد ولا شريك ولا ناصر له بل هو رب العالمين ، فهو عدل حكيم ، ولما أراد تكميل رسوله صلى الله عليه وسلم قال « ما كان محمد أبأ أحد من رجالكم ولكن رسول الله » وإنما هو أب لجميع منه يستضىء كل مستعد للاضائة فأما الأبوة البشرية فليس فيها هذا النظام إذ قد يلد الفاضل فاسقا ولتلك أعقبه بقوله (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) . قال ابن عباس « لم يفرض الله عز وجل على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ثم عنده أهلها فى حال العذر غير الذكر فإنه لم يجعل له حدا ينتهى إليه ولم يعذر أحدا فى تركه إلا مغلوبا على عقله » وأمرهم به فى الأحوال كلها فقال تعالى « فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم » وقال تعالى « اذكروا الله كثيرا » يعنى بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى الصحة والسقم ، وفى السر والعلانية . وقيل الذكر الكثير أليساه أبدا (وسبحوه بكثرة وأصيلا) أول النهار وآخره خصوصا ، والقصود من التسيب أن يكون الذكر على وجه التعظيم والتزنية عن كل ما سواه ، والقصد من ذكر طرفى النهار المداومة لأن ذكر الطرفين يفهم منه الوسط أيضا ، ويدخل فى ذلك صلاة الصبح والعصر ، ومن أدخل فى الأصيل صلاة الظهر وما بعدها إلى العشاء فقد توسع فى المعنى ويدخل أيضا « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » ويكون من التذكير هنا أن الطاهر والجنب والحائض والمحدث يقولها (هو الذى صلى عليكم وملائكته) الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة استغفار للمؤمنين ، ومن رحمته تعالى إشاعة الذكر الجميل للعباد فى عبادته والتناء عليه (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) يعنى أنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة أخرجكم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان (وكان بالمؤمنين رحيما) حتى اعتنى بصلاح أمرهم واستعمل فى ذلك ملائكته المقربين (تحييم) أى تحية الله تعالى للمؤمنين (يوم يلقونه) يوم لقائه عند الموت وعند الخروج من القبر وعند دخول الجنة (سلام) أى سلم الرب عليهم ويسلمهم من جميع الآفات . روى عن ابن مسعود قال « إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام » واعلم أن السلامة من الآفات فى هذه الدنيا مستحبة ولذلك جعلوا مبدأها عند الموت اللهم إلا قوما أدركوا سر هذا الوجود ودرسوه وعرفوا أن الرحمة تهمر ظاهره وباطنه وظاهر الآخرة وباطنها وفهموا ذلك وتحققوه حتى صار بمنزلة بنفوسهم ، فمثل هؤلاء يرون الوجود كله سعادة ، وكل ما يحل بهم أو يغيرهم أو يسمعونه من أنواع الآلام فإتهم يفهمونه كله على وجه يشرح صدورهم ، ويرون أنه حكمة تامة ونظام جميل ، ويوقنون أنه ليس فى الإيمان أبعد من ذلك ، وهؤلاء قد سمعوا السلام من الله فى الحياة قبل الموت فى هذه الدنيا وأنسوا بربهم ولكن هذا الوجدان عزيز الوجود لأنه يعز على الناس أن يعقلوا شياطين وجنا وأبالسة ونيرانا جهنمية ويقولوا إن هذه رحمة ، فأما أولئك الأفذاذ فلم يدراسة أنهم ومعرفة أمم وعلم أكمل وعرفان أعم ويصبح الوجود عندهم كأنه إنسان واحد وحيوان واحد ، وهذه من لوازمه أو عمل من أعمال هيئته لا بد منه « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » وقوله (وأعد لهم أجرا كريما) هو الجنة (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا) على من بثت إليهم بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتهم وضلالهم وهذه حال مقدره (ومبشرا) لمن آمن بالجنة (ونذيرا) لمن كذب بالنار (وداعيا إلى الله) أى إلى توحيد وطاعته (بإذنه) بأمره (وسراجا منيرا) يستضاء به فى ظلمات الجهالات ويقتبس من نوره أنوار البصائر ، فراقب أحوال أمتك (وبشر المؤمنين بأن لهم من

الله (فضلا كبيرا) على سائر الأمم فاهم سيغفرون نظام النوع الإنساني من الظلم إلى العدل كما في نهضة الإسلام الأولى ، وسبيلحون شأن الأمم للنهضة في الضلالة في مستقبل الزمان بعد زماننا كما قال تعالى « ليظهره على الدين كله » وبهذا يكون ثوابهم في الآخرة عظيما (ولا تطع الكافرين والناقين) ودم على مخالفتهم (ودع أذام) إنداءهم إياك ولا تحتفل به (وتوكل على الله) فإنه يكفيهم (وكفى بالله وكيفا) حافظا وموكولا إليه الأمر في الأحوال كلها .

﴿ لطيفة ﴾

اعلم أن الله عز وجل لما قرر أمر النبوة وأن محمد صلى الله عليه وسلم ليس بأحد من الرجال، وأن النبوة أبوة عامة ، وأكده ذلك بالقول وبالفعل لقطع أطماع الرجال في الاعتزاز بذلك أعقبه بذكر ما به يتفاضل الناس وتعظم أقدارهم ويشرفون في الدنيا والآخرة فأمر بذكر الله كثيرا وتسيحه وأنه سبحانه يرحم المؤمنين رحمة خاصة بالهداية وأنه يعيهم بالسلامة والأمان ويدخلهم نعيما مقبلا، وأنسح ذلك بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم أنه سراج والسراج يقتبس منه السراج ، فالأنبياء يستضاء بهم وتعرف بأنوارهم للشكليات في دياجي ظلمات الجهالات كما يستضاء بالسراج في الطرقات ويقتبس من أنوارهم كما يقتبس من السراج سراج أخرى ، ولذلك نجد العلماء في كل أمة تابعين لأنبيائهم مقتبسين من أنوارهم مرشدين لأنهم وليس الأب الجسمي كذلك ، إن الأب الجسمي يلد ابنا وولادة مادية ، والأنبياء يلدون ولادة نورية ، هذا هو الذي يرشده ذكر السراج في هذا اللقمة ، فالأنبياء يلدون بهذا المعنى وخلفاؤهم هم المقتبسون منهم وعليه فليس أحد أولى بالأنبياء ممن اقتبسوا من أنوارهم وإلا فإن نوحا قد كفر به ابنه وقال الله له « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » فرجعت ولادة الأنبياء إلى الاقتباس منهم وإلى الاهتداء بهديهم ، فمن اكتفى بالنسب الجسمي للأنبياء فهو ضال مضل كاذب على الله ، فإذا ادعى أحد إخواننا وأبناء أعمامنا الشرفاء أن النسب وحده يرفعه عند الله فإن هذه الآية تكذبه وإلا فلماذا هذا التأكيد كله والتذكير ، فلا شرف لامرئ إلا باقتباس من الأنوار العلية ، ذلك هو الشرف الحقيقي في الدين « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

إن العرب في لجاهلية وأكثر الناس في هذه الحياة الدنيا شرقا وغربا لا يصدقون بعالم غير عالم الأجسام ولا يعقلون أن هناك أرواحا لطيفة تدبر أهل للأرض وتهديمهم ، فانظر كيف ذكر الله هنا أنه هو يرحم المؤمنين ورحمته عامة لهم ولغيرهم من حيث الحياة الجسمية، فأما رحمة الهداية فهي خاصة بهم، فهكذا أرشدنا إلى أنه سبحانه لم يدع هذا العالم بلا أرواح شريفة تقوم بالتدبير والتعليم كما نرى أضنا على هذه الأرض تقوم بالأعمال الجسمية والعقلية ، إن جميع الأرواح لها عمل فلا شيء في الوجود معطل ، وإذا كانت أرواحنا اليوم قائمة بتدبير هذه الأجساد فإن لها بعد الموت أعمالا تناسب تربيتها في هذه الدنيا ، فالضالون هنا يضلون غيرهم إما طبعيا وإما قصدا لقصد الشر والابذاء ، وهكذا النفوس الطيبة هنا ترجع إلى عالم الأرواح وهي في مركزها الذي خلقت فيه في الدنيا من حيث الاسطلاح والتعليم بالالهام والتي قبلها بالوسوسة .

ولم لك تقول ومالا ولهذا البحث ، إن الآية فيها ذكر اللائحة وإنهم يصلون على المؤمنين أي يستغفرون لهم ، فأى مناسبة لذلك ؟ أقول لك على رسلك . اعلم أن هذا القرآن نزل للناس بأمر غائبة عن العقول لا يصدقها الناس تصديقا حقا ولسكنهم يؤمنون به إيمانا والإيمان شيء واليقين شيء آخر ، ولقد ظهر اليوم في العالم الغربي هذا العلم . وقد تقدم في هذا التفسير أني نقلت لك ما ذكره العلامة (أولفرلودج) الذي هو أشهر عالم طبيعي في أوروبا إذ قال [إنه أصبح موقنا بسبب تحضير الأرواح أننا نعيش في عوالم من الأرواح نسبتنا إليهم كنسبة النحل إلىنا من حيث الإدراك والعقل ، وهم يهتمون بأمرنا ويسعون في مصالحنا ، وعلم

الأرواح اليوم شاع وذاع بأوروبا ، وقد اتضح فيه أن أرواحنا بعد الموت صائرة إلى نحو ذلك فهي إما ماهرة للخير أو ساعية للشر فكأنها ملحقه بعالم اللائكة وعالم الشياطين ، وتجد نظير هذا في تفسير الإمام الرازي في سورة إبراهيم وسورة النازعات إذ قال في الثانية [إن الروح الانسانية هي التي تصير من المدبرات أمرا] أي أنها قد تلحق بعالم اللائكة ، وقد قسم العلم الفيلسوف (الان كارديك) الأرواح إلى طبقات ثلاث وهي الأرواح السفلية والعلوية والنقية ، وقال إن السفلية هي التي في مؤخر الدرجات والمادة متسلطة عليها ، فهي في الحياة محبة للشر والفساد وفي الموت ملقية للشر والعداوات بالسوسة ، فقال في العلوية إنها متسلطة على المادة ومحبة للخير . ومنها الصالحة وهي تحب الصلاح العام وعمل البر وإلهام البشر أفكارا صالحة ومعارفها محدودة وأدبها أكثر من علمها . ومنها الأرواح الحكيمة وهي ذات أخلاق حسنة ولكن علومها أوسع . ومنها الأرواح الرفيعة وهي التي جمعت بين الكمال العلمي والأدبي ، وهذه لاتعطي تعليمها إلا لمن يطلب الحق بخلوص نية وقال في النقية إنها هي التي بلغت ذروة الكمال ونجرت من كل نقص ولم يعد للمادة أدنى تأثير فيها فأصبحت ناظرة لله مغتبطة به ، ولن ينجبها الانسان إلا إذا كان ذا فضيلة سامية وقلب مجرد من كل أمر ذميم ونقص أرضى مادي ، واستنتج العلماء من ذلك أنه ليس كل إلهام نأخذ به لأن معارف الأرواح اللطيفة ليست في درجة واحدة فكم من إلهام ناقص يضرب العمل به . هـ .

هذا ما يدور في محافل العالم الأوروبي اليوم ، فانظر كيف يخبر الله أن اللائكة يصلون علينا أي لاخر اجنا من الظلمات إلى النور ، وانظر كيف ترى أن علماءنا رحمهم الله قالوا [إن هناك وسوسة وإلهاما من اللائكة] وكيف يقول الإمام الرازي والغزالي ورجال إخوان الصفاء [إن أرواحنا ملحقه بعد الموت بعالم الشياطين واللائكة إلهاما ووسوسة] وكيف يقرر ذلك نفسه العلامة (الان كارديك) في أوروبا والسلمون لا يعلمون .

انظر كيف يظهر سر القرآن في أوروبا والسلمون في الشرق نائمون ، كيف يقول (كارديك) المذكور [إن الأرواح النقية التي لم يبق لها مأرب في المادة تمانين الله وهي به مغتبطة] يقولها هذا الافرنجي من علم الأرواح وهو لم يسمع قول الله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » فعبّر الله سبحانه عن نقاوة الروح من كل رجس بتضارة الوجوه ، ومعنى نظرت الوجوه نظرت الله فكان أرواحنا ترتقي من عالم إلى عالم درجات وراء درجات وتتخطى في الجنان درجة بعد درجة حتى تصل إلى أعلى الدرجات وتتكون إلى ربها ناظرة ، وفي أثناء مرورها على النيران تتكون موسوسة شريرة ، وفي أثناء مرورها على الجنان تتكون ملهمة للخير معلمة وتصعد إلى أن ترى ربها ، ولا معنى لرؤية الله والنظر إليه إلا بزيادة الكشف العبر عنه في الحديث بأننا نراه كما نرى القمر ليلة البدر ، فالعامة يظنونونه نظر بصريا والخاصة يرونه أرقى وأوسع من نظر البصر بل نظر البصر ضعيف ضئيل مادي ، أفليس السلمون أولى بهذه العلوم وبمعرفة الأرواح حتى يدركوا سر هذه الآية .

أما أنا فأقول : الحمد لله الذي جعل في قديمائنا من بحثوا ودققوا وذكروا مثل هذا القول ، ولولا أنهم ذكروه كما قلته لك لم يتجاسر أحد أن ينقل عن أوروبا مثل هذا لئلا يعد ذلك خروجا عن الدين . والأمة اليوم في مبدأ نهضة جديدة ، فلن تقبل حديثا إلا إذا وصل بقدمها ثم تأتي أجيال يستقلون بالرأى ويكونون أوسع حرية إذ يرون الجوفسيجا والعلم منتشرا ، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وصلى الله على نبينا وآله وصحبه وسلم .

﴿الفصل الرابع: في الطلقة قبل الدخول، وفيما يحل للنبي صلى الله عليه وسلم من النساء . وفي بعض الأحكام المناسبة لذلك من قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات » إلى قوله « واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا »

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن (تجامعهن) فمالم عليهن من عدة تعتدونها) تستوفون عددها . وليس تخصيص المؤمنات مخصصا للحكم بل هو عام وذكرهن بفائدة تغير النطق لانحصيص الحكم (لتموهن) أى أعطوهن ما يستمتعن به ، وقد تقدم إيضاحه في [سورة البقرة] وذلك التحريم إما فرضا إذا لم يكن مسمى لها مهرا وإما ندبا إذا كان مسمى لها المهر فيكون التخصيف وجوبا والتحريم سنة (وسرحوهن) أخرجهن من منازلكن لأنهن ليس عليهن عدة (سراحا جميلا) من غير ضرار ولا منع حق .

﴿الطينة﴾

إذا طلق الرجل امرأة قبل النكاح لا يقع الطلاق لظاهر الآية لأنه سبحانه قال « إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن » ولم يقل طلقتم ثم نكحتم ، فلو علق الطلاق قبل النكاح عليه سواء أكان لامرأة معينة أم لكل امرأة فإن الطلاق لا يقع ، وهذا رأى الأكثرين كابن عباس وطى وجابر ومعاذ وعائشة والشافعي ، وقال ابن مسعود وأصحاب الرأى والنخعي يقع الطلاق ، وقال مالك وريصة والأوزاعي : إن عين امرأة وقع وإلا فلا .

ثم قال تعالى (يا أيها النبي إنا أحلنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن) مهورهن لأن المهر أجر على البضع ، وليس التقييد بآباء المهر معجلا إلا لإيتاء الأفضل وإلا فالحل ليس متوقفا على ذلك التمجيل كما لا يتقيد إحلال الملوكة بكونها مسبية في قوله (ولما ملكت يمينك مما آفاه الله عليك) من السبي مثل صفة وجورية ، وإنما كان القيد بذلك لأن للشرأة لا يعرف بدء أمرها وما جرى عليها ، وقوله (وبنات عمك وبنات عماتك) وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك) العبة هنا ليست للقرآن بل لوجودها بحسب كقوله تعالى حكاية عن بلقيس « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » فيحل له صلى الله عليه وسلم بنات العم والعمة من بني عبد المطلب وبنات الحلال والحالة من بني عبد مناف بن زهرة بشرط أن يكن هاجرن من مكة إلى المدينة ، والتقييد بالمهجرة إما للحل وإما للأفضل ، ويؤيد الأول قوم أم هانئ بنت أبي طالب « خطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فغدرني ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأنى لها هاجر معه » ثم عطف على ماسبق قوله (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) يقول الله أحلناك حل امرأة مؤمنة تهب لك نفسها ولا تطلب مهرا كأم شريك بنت جابر العامرية أو ميمونة بنت الحارث أو زينب بنت خزيمه الأنصارية أو خولة بنت حكيم وذلك مشروط بأن يريد النبي نكاحها فإن لم يقبله فلا محل ، وقوله « خالصة لك » أى بلا مهر وهى حال من الضمير فى وهبت . وقوله « لك من دون المؤمنين » أى أنه يجب المهر على غيرك وإن لم يسمه أو نفاه .

﴿حكم من تهب نفسها﴾

إذا وهبت امرأة نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فالأمر ظاهر أنه يتعقد نكاحا بلا ولى ولا شهود ولا مهر لقوله تعالى « خالصة لك » وأيضا له الزيادة على الأربع ويجب عليه تخيير النساء وحده . وقال بعض العلماء بل لا يتعقد له إلا بلفظ النكاح والزواج كما فى حق سائر الأمة لأنه عبر بلفظ الاستنكاح ، فالاختصاص إنما هو

في رك المهر، فأما من وهبت نفسها لغيره صلى الله عليه وسلم فإنه لا ينعقد نكاحها بل لا بد من لفظ الإنكاح أو التزويج وهو قول سعيد بن المسيب والزهرى وربيعة ومالك والشافعي . وقال النخعي وأهل الكوفة ينعقد باللفظ التملك والهبه، وقوله تعالى (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم) أي من شرائط العقد ووجوب القسم والمهر بالوطء إذا لم يسم (وما ملكت أيمانهم) أي ما أوجبتنا من الأحكام في ملك اليمين . وهذه الجملة معترضة بين قوله تعالى «خالصة لك من دون المؤمنين» وقوله (لكن لا يكون عليك حرج) أي أحلنا لك أزواجك وما ملكت يمينك وللوهوبة، واختصاصك بذلك لكيلا يكون عليك ضيق والجملة الاعتراضية تفيد أن ذلك ليس للتوسيع عليه وحده والتضييق على المسلمين بل هناك معان تقتضي التوسيع عليه والتضييق عليهم تارة وبالعكس أخرى «سترى إيضاحه في [رسالة تعدد الزوجات] لللاحقة بهذه السورة . وقوله (وكان الله غفورا) أي لما حصر التحرز منه (رحبا) بالتوسعة في مظان الحرج (ترجى من تشاء منهن) أي تؤخرها وتترك مضاجعها (وتؤوى إليك من تشاء) وتضم إليك وتضاجعها (ومن ابتغيت) طلبت (ومن عزلت فلا جناح عليك) أي ومن دعوت إلى فراشك وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالأرجاء فلا ضيق عليك في ذلك (ذلك) التفويض إلى مشيئتك (أدنى أن تفر أعينهن ولا يحزنن ويرضين بما آتيتهن كلهن) أي أقرب إلى قررة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعا لأنهن إذا علمن أن هذا التفويض من عند الله اطمانت تنوسهن وذهب التغاير وحصل الرضا وقرت العيون (والله يعلم ما في قلوبكم) وهذا وعيد لمن لم يرض منهن بما دبر الله في ذلك (وكان الله عليما) بما في القلوب (حليما) لا يعاجل بالعقوبة فعلى الناس أن يحذروه .

روى عن أبي رزين قال « لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقن قتلن يأنى الله أجعل لنا من مالك وتفسك ما شئت ودعنا على حالنا فأرجأ منهن خمسا وأدى إليه أربعا » انتهى باختصار، وسنوضحه في رسالة [تعدد الزوجات] الآتية . وكذا ما بعده مفصلا هناك وهو قوله تعالى « لا يحل لك النساء من بعد » من بعد التسع (ولا أن تبدل بهن من أزواج) فتطلق واحدة وتتسكح مكانها أخرى (ولو أعجبك حسنهن) حسن الأزواج المستبدلة وهي أسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبي طالب لما استشهد جعفر أراد صلى الله عليه وسلم أن يعطها فنهى عن ذلك (إلا ما ملكت يمينك) وقد ملك بعد هؤلاء مارية القبطية (وكان الله على كل شيء رقيبا) أي حافظا وهذا يدل على جواز النظر إلى من يريد الإنسان نكاحها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل » أخرجه أبو داود . وعن للغيرة بن شعبة قال « خطبت امرأة فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم هل نظرت إليها ! قلت لا قال انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » .

هذا، وقد تقدم حديث أنس بن مالك . وقوله في الحديث ما ملخصه « إن القوم طعموا في وليمة زينب بنت جحش وخرج قوم وبقى آخرون . فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وخرج معه أنس حتى جاء حجرة عائشة ورجع فإذا هم جلوس فرجع حتى بلغ حجرة عائشة وظن أنهم خرجوا فرجع ورجع معه أنس فإذا هم قد خرجوا فضرب النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين أنس بالستر وأزل الحجاب وسمع أنس النبي صلى الله عليه وسلم يقول (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم) أي إلا وقت أن يؤذن لكم (إلى طعام) متعلق بيؤذن حال كونكم (غير ناظرين إن شاء) أي غير منتظرين نفضه ووقت إدراكه (ولكن إذا دعيت فادخلوا فإذا طعمتم فانتصروا) تفرقوا ولا تمكثوا والآية لأولئك الذين يتجنبون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخلون ويقعدون منتظرين لادراكه فهي لهم ولأمثالهم ولولا ذلك لمنع من يدخل بيته بالأذن لغير الطعام ومن يمكث بعد الطعام لهم ولا قائل به فافهم (ولا) تمكثوا (مستأنسين لحديث) لحديث

بصم بعضاً أو لحديث أهل البيت بالتسمع له (إن ذلكم) البت (كان يؤذى النبي) لتضيق المنزل عليه (فيستحي منكم) من إخراجكم (واقه لا يستحي من الحق) يعني أن إخراجكم حق فينبغي أن لا يترك حياة كما لم يتركه الله ترك الحي فأمركم بالخروج (وإذا سألتوهن متاعاً) شيئاً يتنفع به (فاسألوهن) المتاع (من وراء حجاب) ستر. روى «أنت» عمر رضى الله عنه قال يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فزلت هذه الآية (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) من الخواطر الشيطانية (وما كان لكم) وما صح لكم (أن تؤذوا رسول الله) أى تفعّلوا معه ما يكرهه (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً) من بعد وفاته أو فراقه ، وخص التي لم يدخل بها لما روى أن أשת بن قيس تزوج المستعينة في أيام عمر رضى الله عنه فهم برجمها فأخبر بأنه صلى الله عليه وسلم فارقها قبل أن يمسه فترك من غير تكبير (إن ذلكم) أى إبداءه ونكاح أزواجه (كان عند الله عظيماً) ذنباً عظيماً ، ثم بالغ في الوعيد لحرمته صلى الله عليه وسلم فقال (إن تبدوا شيئاً) ككنكاحهن على أنفسكم (أو تخفوه) في صدوركم (فإن الله يأن بكل شيء علياً) فيعلم ذلك فيجازيكم به (لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخوانهن ولا نسائهن) يعنى النساء المؤمنات (ولا مملكت إيمانهن) من العبيد والإماء أو من الإماء خاصة . انظره في [سورة النور] (والذين الله) فيها أمرت به (إن الله كان على كل شيء شهيداً) لا يخفى عليه خافية . روى « أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب يا رسول الله أو نكلمهن من وراء حجاب فزلت » ولم يذكر العم والحال لأنهما بمنزلة الوالدين . انتهى الفصل الرابع .

﴿ الفصل الخامس : في وجوب تعظيمه صلى الله عليه وسلم ومن تعظيمه أن يصلى عليه ، وأن لا يؤذى في أهله ، وضرب مثل بالدين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وذكر التكليف الذى لم يكاف بها أحد إلا الانسان لشهوته وغضبه ونوازعه الكثيرة وهى الأمانة ، وهو من قوله تعالى
« إن الله وملائكته يصلون على النبي » إلى آخر السورة ﴾

أعلم أن العالم الشاهد كله منتظم ، فالأعلى يسبغ النعمة على الأدنى ، والأدنى مطيع للأعلى . ومثال ذلك الملوك والوزراء والأمراء ومن دونهم . فكل من هؤلاء يستمد الأمر ممن هو فوقه ثم يصل الأمر إلى الزارع والتاجر والعامل . فهؤلاء جميعاً يعطون مالا للمحافظين عليهم ويعيشون في أمن بتدبيرهم . فالأمراء يتناولون أجورهم من الرعية والرعية محفوظة بتدبيرهم . فالأمة كالجسم . فالعين تستحسن أزهار الربيع فيساعد القدم والساق على الثقل إلى هناك في الحقول والبساتين . فالعين والرجل تشاركنا في العمل . هكذا الأمة عليها وسافلها متشاركون وإن كانوا لا يملكون بل الأمم كلها فوق الأرض مشتركة ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

إذا عرفت هذا في العالم الشاهد فانظر إلى ما نحن فيه وتأمل . ألم تقرأ فيما مر في هذه السورة ان الله يصلى علينا وملائكته . أليس معنى ذلك أنه سبحانه يرحمنا وملائكته يستغفرون لنا . ورحمة الله العامة تشمل البهائم والكافر . وإنما القصد رحمة الهداية . فأنه يهدينا ورسوله ، فأما للملائكة فهم للمهموم لنا بلا واسطة كالألهامات التي يحس بها كل منا . وهذه الإلهامات لا بد لها من قانون ولا قانون إلا الدين والدين بالوحي والوحي من الملائكة إلى الأنبياء . فإذا قال الله إنه يرحمنا وملائكته وسائط في إيصال رحمة الهداية لنا فذلك يدخل فيه الأنبياء ، ألا ترى إلى قوله تعالى « ليخرجكم من الظلمات إلى النور » فلم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم اكتفاء لوضوح المقام وإلا فمن المخرج لنا من الظلمات إلى النور المصريح بها غير مرة في القرآن سوى الأنبياء فإذا نزل الله وملائكته برسوله يصلون علينا . فالنور من الله والملائكة وسطاء والأنبياء مبعوثون

وهكذا الطاء بدم إلى أن يصل إلى جميع المسلمين كما قال تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو واللائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ». إذا علمت هذا فانظر في قوله تعالى هنا (إن الله وملائكته يصلون على النبي) كما صلوا عليكم وصلى هو عليكم أيضا ، وعلى من أنعم عليه بنعمة أن يشكرها وشكر النعمة أن تدعو له . فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، وخير الناس للنعيمين الأنبياء ولذلك قال (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) لأنه صلى عليكم: أي أعلمكم بوحى اللائكة ، والعلم بوجب مغفرة الذنب إذا عمل به وبمخرج الناس من ظلمة المادة إلى نور عالم الأرواح فتكون الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أي الدعاء له شكرا على نعمة العلم التي جاءت على يديه . فإذا أضيف إلى ذلك اتقياد السلم وتسليمه لما جاء على لسانه من الشرائع كان قائما بالشكر خير قيام ولذلك قال (وسلموا تسليما) أي اتقادوا لأوامره اتقيادا كما قال تعالى « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا الملوذة في القربى » أي التقرب لله . ولا جرم أن امتثال أمر الله في شريعته وصلاة للسلم على نبيه قيام بالشكر لأن ذلك هو المطلوب . إن مقصود الأنبياء رقي أممهم باتقيادهم للأوامر والنواهي ، وتجوز الصلاة على غيره تبعاله وتكرهه استقلالاً لأن الصلاة في العادة شعار الرسل كما لا يقال « محمد عز وجل » ثم وجوب الصلاة إما في المعز مرة أو في كل صلاة في التشهد الأخير أو كلما ذكر ، والأول قول الأبي بكر والثاني قول الشافعي وإحدى الروايتين عن أحمد ، والثالث قول الطحاوي من الحنفية والحلي من الشافعية وهو ضعيف . والجمهور أن هذا مستحب ، والواجب « اللهم صل على محمد » وما زاد سنة . والمعنى الآخر في السلام التحية أي حيوة بنحية الإسلام . يقول الله ادعوا له بالرحمة وحيوة نحية الإسلام أي قولوا « السلام عليك أيها النبي » .

إن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والاتقياد لأوامر الله والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم بما رغب البصدرات ، كيف لا وهو في حال الصلاة عليه قد ترك النية ولا تمت روحه ذكر نفس طاهرة في عالم الكمال ، إن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عمل من الأعمال الحميدة له حسنات مذكورات مشهورات في الأحاديث ، إن الدعاء للنبي صلى الله عليه وسلم بالرحمة التي هي معنى الصلاة يزيد رضة وهو ومن تبعه متواصلون في عالم الأرواح ، وكلما زادت رضة ازداد أتباعه لملافة الرابطة ، إن بين الأرواح عالمها وسافلها لصفة متناسبة كالصلة بين الكواكب والشموس ، ويتبع جميع ما حولها ، إن تذكر الأنبياء والسلام على الصالحين وعلى آل الأنبياء كل ذلك تذكرة لملافة النفوس الطاهرة بعد الموت في العالم الروحي ليؤهل نفوسنا إلى اللقائ معهما هناك حتى لا تستوحش النفس عند مفارقة الدنيا ، إن كل هذا يطلب به الاستيقاض من هذه المادة والانتقال بعالم الأرواح ، يقول السلم « السلام عليك أيها النبي » ثم يسلم على نفسه وعلى الصالحين من جميع الأمم ويصلى على نبينا ويذكر إبراهيم وأمثال ذلك ، كل هذا ليأنس بتلك الأرواح ، إن عالم الأرواح عالم الحياة كما أن عالم المادة عالم الموت ، ولذلك يختم السلم الصلاة فيستعيد من عذاب القبر وعذاب النار وقتة الحياة وقتة للمات وقتة الدجالين والكاذبين ، وهذه كلها من علائق الدنيا ولذاتها ، فأما عالم الأرواح فهو عالم الجمال والبهاء والكمال . ولما كان إعظام النبي صلى الله عليه وسلم يقضى بالأولى ألا يؤذى أحده بقوله (إن الذين يؤذون الله ورسوله) بأن يرتكبوا ما يكرهانه من السكر والمصابي ومنهم من كسر رباعيته ، ومنهم من قال هو شاعر ومجنون (لعنهم الله) أبدم من رحمته (في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا) بينهم مع الأيلام (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا) بغير جنابة استحقوا بها (فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا) ظاهرا وذلك كما حصل في مسألة عائشة وكابناء على رضى الله عنه ، وكما كان الزناة يعيشون في طرق المدينة يقعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حاجتهن ولم يكونوا يعرفوا الحرة من الأمة . ولذلك نزل قوله تعالى (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) جمع جلابيب وهي الللعة التي تشتعل بها المرأة فوق الدرع والحمار

أو هو كل ما يستر به من كساء وغيره . قال ابن عباس « أمر نساء المؤمنين أن يطينن رؤوسهن وجوههن بالجلابيب إلا عينا واحدة ليعلم الناس أنهم حرائر » وذلك قوله تعالى (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) أى لا تعرض لمن أحد (وكان الله غفورا) لما سلف (رحما) بعباده إذ براعى مصالحهم فى الجزئيات كما فى السكيات (لئن لم ينته المنافقون) عن فراقهم (والذين فى قلوبهم مرض) ضعف إيمان (والمرجعون فى المدينة) رجفون أخبار السوء مثلا إذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوقعون فى الناس أنهم قتلوا أو هزموا ، أو يقولون قد أتاكم العدو ونحو ذلك (لتعربنكم بهم) لنحربنكم بهم ولنسلطنكم عليهم (ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا) أى إلا زمانا قليلا حال كونهم (ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) سن الله ذلك (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) من الأمم الماضية وهو أن يقتل الذين ناقضوا الأنبياء وأرجفوا أينما ثقفوا (ولن نجد لسنة الله تبديلا . يسألك الناس عن الساعة) تعتنا (قل إنما علمها عند الله) لم يطلع عليها ملكا ولا نبيا (وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) شيئا قريبا (إن الله لمن الكافرين وأعد لهم سعيرا) نارا شديدة الانتقاد (خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا) يحفظهم (ولا نصيرا) يدفع العذاب عنهم (يوم تقلب وجوههم فى النار) تصرف من جهة إلى جهة كاللحم يشوى على النار (يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) فى الدنيا (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) وهم رؤوس الكفر الذين زينوا لهم (فأضلونا السبيلا) أى عن سبيل الهدى (ربنا آثم) أى السادة والكبراء (ضعفين من العذاب) أى ضعفى عذاب غيرهم (والعنهم لعنا كبيرا) لعنا متتابعا (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) فطهره الله مما قالوه فيه (وكان عند الله وجها) كريما ذا جاه وقدر . أو حظيا عنده لا يسأل شيئا إلا أعطاه فهو مستجاب الدعوة . فقد آتمه قوم بقتل هارون لما خرج معه إلى الطور فمات هناك فعملته الملائكة ومرروا به عليهم حتى رأوه غير مقتول أو أحياء الله فقال لهم ذلك . وأيضا قد مر فى [سورة الشعراء] أن نارون حرض بنيا على قذفه بنفسها فصصمه الله من كذبها ، أو قذفوه بيب فى بدنه كبرص أو أدره وكان كثير التستر حياء فأطعمهم الله عليه ، فبرأه الله مما قالوا ، وقوله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) فى ارتكاب ما يكرهه فضلا عما يؤذى رسوله (وقولوا قولا سديقا) صوابا عدلا صدقا (يصلح لكم أعمالكم) يتقبل حسناتكم (ويغفر لكم ذنوبكم) ومن يطلع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) أى نافر بالحجر العظيم .

جاء فى رواية البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال لما كان يوم حنين آثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ناسا فى القسمة كالأقرع بن حابس مائة من الأبل ومثله عيينة بن حصن ، وأعطى ناسا من أشرف العرب وآثرهم فى القسمة فقال رجل والله إن هذه قسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم تغير وجهه كأنه الصرغ بكسر الصاد وهو صبغ أحمر يصبغ به الأديم ، ثم قال لمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ ثم قال يرحم الله أخى موسى قد أودى بأكثر من هذا فصره انتهى ملخصا ، ثم قال تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) حفن منها (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) اعلم أن للفسرين [رأيين مشهورين] فى هذه الآية [أولهما] أن الله خلق فى هذه الأجرام فهما وقال تحملن هذه الأمانة بما فيها وذلك أنسكن إن أحسنن جوزيتن وإن عصيتن عوقبتن ، فلن يارب نحن مسخرات لأمرك لا تزيد ثوابا ولا عقابا . وتلك الأمانة هى الوفاء بالعهود والودائع وجميع ما حمله المكلف من التكاليف القولية والفعلية وهذا القول يناسب قوما [الرأى الثانى] أن هذا القول من المجاز المركب ، يقول الله إن هذه السموات والأرض والأنهار والجبال والدواب والنبات كلها وكذلك الملائكة . كل هؤلاء مسخرون لأعمال على مقدار الاستعداد ، فالشمس والقمر والجبال والأنهار والأرض

كلها قائمات بما خلقت له لا تعيد عنه شعرة « إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » والبهائم ليس عندها من العقل بابها بصح التكليف ، فهذه مخلوقات كلها تأبى طاعتها أن تسكف بعمل ما ، وإنما عملها يكون على حسب جيلاتها ، والجلبات والفرارز غير عاصية ، فإن النحل والنمل والعنكبوت والطيور كل جماعة من هذه قائمات بأعمالهن بلا خلل في النظام كما ترى في مسدسات النمل وفي نسيج العنكبوت وفي تربية الطيور لأفراخها ، وفي أن كل طائر إذا خرج من البيضة اتبع أمه وسار معها كأنه تعلم ذلك قبل خلقه وهكذا تسير الكواكب كلها وكذا الأرض لا اختلاف لسيرها ولا اختلال لنظامها فليس شيء من ذلك كالإنسان « بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » ويخرج من بطن أمه ضعيفا ثم يتعلم شيئا فشيئا حتى يبلغ أشده وله اختيار في الأعمال يتصرف بعقله في الأمور ولذلك تختلف أفراده اختلافا كثيرا لتنوع تعاليمهم وقدرهم وتهذيبهم وأخلاقهم واجتهادهم وإنما كلفناه لأنه ابتلى بقوى الغضب والشهوة اللذين هما صفتا الهائم وهو بعقله يرقى عنها إلى ذروة الكمال ، فالشهوة والغضب يصرفانه في أمور كثيرة ، ويوقمانه في الفجور والكبرياء وغيرهما وتتنازعه الأهواء ، فاذن كلفناه بالشرائع لأنه كان ظلوما بأنواع الشهوات وفنون الغضب التي تمذف به في الهاوى ، جهولا بما يجب عليه ، فهذه الأمانة وهي التكاليف والأمانات والودائع كالحواس الخمس والأعضاء والمواهب كلها حملها الإنسان لحاجته إليها في ردع ظلمه وجهله ، وتكون نتيجة ذلك أمرين تعذيب المنافقين والكافرين والمنافقات والكافرات لأنهم لم يقوموا بحمل الأمانة حق القيام وإثابة الله المؤمنين والمؤمنات وأن يتوب عليهم وهذا قوله تعالى « ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما » حيث عفا عن فرطانهم وأتاب على طاعتهم . وههنا [سبع لطائف] :

(اللطيفة الأولى) في سر تعدد الأزواج وتعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهي رسالة الله المؤلف وطبعت سنة ١٣٣٣ هجرية للرد على قوم اعترضوا على الإسلام .

(اللطيفة الثانية) في قوله « وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما » .

(اللطيفة الثالثة) في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا »

(اللطيفة الرابعة) في قوله تعالى « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا » .

(اللطيفة الخامسة) في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم »

(اللطيفة السادسة) في ملخص السورة كلها وفيما قبلها وما بعدها .

(اللطيفة السابعة) في معنى « وحملها الإنسان » .

(الطيفة الأولى : في سر تعدد الأزواج في الإسلام ، وتعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهي رسالة ألفها المؤلف للرد على قوم اعترضوا على الإسلام في هذا المقام وهذا نصها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المجلس الأول

(محاورة دارت بيني وبين صديقي محمود أفندي طلعت أبو مسلم القاضي بالهاكم الأهلية)

(المدّره) أيها الأستاذ . كثر القيل والقال في أمر تعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ونحن معاشر المسلمين ولاسيما علماء القانون لا يزال بعضنا في شك مرّيب بما ذكر ويذكر في كل آن في السألة ، ولقد تربصنا قولاك فلم نحس لك من خبر ، ولم نسمع لك من ركز ، فأقبل بعضنا على بعض متسائلين متخافتين بيننا قائلين : لولا أن الأمر عسير عليه ليس له فيه مقنع ، وعقبة كأداء . ليس لديه لها مطلع ، ما أغمض الجفن على القندي ، ولا بقي في عطاء عن الأمر مع كثرة الطلب والإلحاح المتوالي عليه من الفرق المختلفة عزين .

(الأستاذ) لم أذكر القول فيما مضى إلا لأعمال متراكمة ، ودروس مترادفة ، يتخللها سامة ، تتبعها كلاله . ولم أشأ أن أقف موقف الراد على فريق معين ، أو قائل منهور ، أو مدع يتبين جهله . فالقرين لقرينه منسوب والثى يذكر بضده ، والمرء يتحدث مع نده . إنما تربصت هذه المدة حتى تبين الحقيقة واضحة ناصعة وتكون رسالتى قائمة بنفسها : ولأقف على أكثر ما يجوز في الحواطر حتى يكون الدواء على مقدار الدواء والجواب على مقدار السؤال .

(المدّره) كيف تزوج النبي صلى الله عليه وسلم تسعا وقد حرمت الشريعة ما زاد على الأربع ، وأنت خير بأن من مرّن على القانون يختلجه الشك والريب إذا رأى أن الشرع قد اختص بما لم يجهه لغيره ؟ وكيف يتزوج تسعا ويمنع غيره بما زاد على الأربع وسنن الأنبياء تأتي ذلك . ألم تر إلى ما حكى الله تعالى عن شعيب « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » وههنا المخالفة واضحة ؟ إنا معشر المعلمين يستصعب علينا أن نفهم جواز مخالفة القانون ولو بحجة الخصوصية التي كثيرا ما سمعناها من شيوخنا وقرأناها في الكتب فنبينا صلى الله عليه وسلم يقبضه نحو خمس النوع الإنساني وسيرته قدوة للأمة . (الأستاذ) لعل النبي صلى الله عليه وسلم تزوج هؤلاء السيدات قبل تحريم ما زاد على الأربع وهن عائشة وميمونة وصفية وحفصة وهند وزينب وجويرية ورملة وسودة .

(المدّره) مامنته أن يفعل معهن مثل ما أمر الحارث بن قيس ، قال « أسلت وعندي ثمان نسوة فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اختر منهن أربعة » أخرجه أبو داود . وهلا فعل هو كما أخبر غيلان بن سلمة التميمي ؟ أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية فأسلمن معه فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختار منهن أربعة أخرجه الترمذي ، وروى « أن نوفل بن معاوية أسلم ونحته خمس نسوة فقال عليه الصلاة والسلام أمسك أربعة وفارق واحدة » والنبي صلى الله عليه وسلم كان عنده تسع فهو وسط بين ابن قيس وبين ابن سلمة . أما كان الأجدر أن يفارق خمسا ويبقى أربعة ؟

(الاستاذ) قد أعددت ثلاث إجابات لك في كلهن (١) شاهد مقنع .
(الدره) هات أولها .

(الأستاذ) لقد حرم الله عليه أن يزوج غيرهن وأن يستبدل بهن من أزواج ، فكان للمسلم بكل من الأربعة غيرها بحيث يزوج غيرها ويطلقها والرسول محرم عليه ذلك ، قال الله تعالى « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك » . قال البيضاوي لا يحل لك النساء بعد اليوم حتى لو ماتت واحدة لم يحل له نكاح أخرى « ولا أن تبدل بهن من أزواج » فتطلق واحدة وتنكح مكانها أخرى . وقال ابن عباس : إن النبي صلى الله عليه وسلم لما خيرهن فاخترن الله ورسوله شكرن لهن الله ذلك وحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال بهن ، فيتين منه أن القانون قد اشتدت وطأته عليه فجعل لهن أن يأمن الطلاق والاستبدال وسواهن لا يأمن طلاقا ولا استبدالا ، ففكرة المدد له تقابل الحصر والنوع ، وقلة العدد عند المسلمين مقرونة بالتوسعة استبدالا وطلاقا ، فلئن ضيق على المسلمين في الكم فقد ضيق عليه في الكيف ، ولئن وسع عليه في الكم فقد وسع عليهم في الكيف . فالمساواة متعادلة ضيقا وسعة .

(الدره) لقد قال هذا القول قبلك أحد الكتاب ولم يكن لدينا واقعا موقع الماء من ذي الغلة الصادي ، فالقانون لم يزل كالمحترم وهو عند الله والناس المحترم ، فليكن منهيح المساواة أقرب من هذا وأدعى للطمانينة ، فانا قد أصبحنا في زمن لا نعرف فيه للحجابه معنى ولا نعد مثل هذا إلا تلمسا لجواب من أي باب . نعم هذا فيه مساواة في الحقيقة ولكن يصبح القانون نوعين لاقانونا واحدا .

(الأستاذ) لو طلق نساءه صلى الله عليه وسلم لكان ذلك خلا في السياسة . وسوءا في التدبير ، وتفريقا للكلمة ، وبغلا بالجاء على مستحتمه ، والأنياء أحق الناس بالكياسة والفضل والساحة . من ذا ترى أحق بالطلاق من نسائه ، عائشة بنت أبي بكر . أم حفصة بنت عمر بن الخطاب ، أم زينب ابنة جحش الأسدية . أم سلمة بنت أبي أمية المخزومي ، أم أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، أم صفية بنت حيي بن أخطب ، أم ميمونة بنت الحارث الهلالية ، أم سودة بنت زمعة بن الأسود ، أم جويرية بنت الحارث المصطلقية ؟ فوالله لئن طاق عائشة بنت أبي بكر لزلزلت القلوب ولكان ذلك أمرا إذا تكاد الأئمة تنفطر منه وتنشق الرائر ، أن يكون ذلك وأبو بكر رفيقه في النار ، وداعي أهل الضلال والكفر للإسلام ، وصاحبه الأول ، ومؤاسيه بنفسه وماله . لئن فعل ذلك لكان أسوة سيئة لنا ، ولكان التندر بالأصحاب ، من خلال أولى الألباب ، ولئن طلق حفصة بنت عمر بن الخطاب لكان ذلك نقطة سوداء في جبين الشرف . وسبة شنعاء في وجه الأدب وكفرانا للنعيمين ، وطفيانا على الصحابة الصادقين . فيالها من فضيحة يجبل لها وجه الزمان ، ويسود لها الحدتان ، ويندى لها جبين الفضيلة ، وينتصر بها جنود الرذيلة ، ويشمت لها جماعة الأعداء ، ويتمزق بها عن الصلح شمل الأخلاء . ألم تر إلى ما ورد في السيرة الحلبية ومثله في البخاري بزيادة وحذف في مختلف الروايات عن عمر رضي الله تعالى عنه أنه ذكر أن بعض أصدقائه من الأنصار جاء إليه ليلا ففرق عليه بابه وناداه قال عمر فخرجت إليه ، فقال حدث أمر عظيم ، فقلت : ماذا ؟ أجاءت غسان ، لأنا كنا حدثنا أن غسان نعل الخيل لفزونا ، فقال لا بل أمر أعظم من ذلك وأطول . طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ، فقلت خابت حفصة وخسرت ، كنت أظن هذا كائنا حتى إذا صليت الصبح شدت علي ثيابي ودخلت على حفصة

(١) كلمة بضم الكاف وتشديد اللام للمؤنث في بعض اللغات .

وهي بسكى ، قلت أطلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت لا أدري هو هذا معزلاً في هذه الشربة .
 وفيه أنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات وفي كل منهن يجيبه القلام بقوله ذكركم له فصمت ،
 قال فلما كانت المرة الرابعة وقال لي مثل ذلك وليت مدبراً . فلما الصلوات يدعوني ، فقال ادخل قد أذن لك
 فدخلت فسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما هو منكى . على رمل حبير قد أتر في جنبه صلى الله
 عليه وسلم ، قلت أطلقت يا رسول الله نساءك؟ قال فرقع رأسه إلى وقال لا . قلت الله أكبر الحديث مطولاً .
 وفيه قال عمر قلت أستأنس يا رسول الله . قال نعم ، جلست وقلت يا رسول الله قد أتر في جنبك رمل هنا
 الحبير وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يبدون الله فاستوى صلى الله عليه وسلم جالساً وقال : ألى شك
 أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قد عجلت لهم طياتهم في الحياة الدنيا قلت : أستخرف الله يا رسول الله (ولقد
 انتظنا من الحديث ما يليق بالمقام) لا نظرك كيف كان حمراً صاحبه يظن أن طلاق نساءه أشد من غزوة الأعداء
 وحاول البلاء ، ثم يفرق ويدهن ويستأذن ، ثم يمد وهو يوجس في ضمه خيفة وكأنه ظن أن غضب الله
 ولسته ، وجهن وخزتها ، والزبانية وسلطنها تحيط به وابتته لو طلقها النبي . وروى « أنه كانت حفوة بين
 حفصة والنبي صلى الله عليه وسلم فبلغ أبها عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم طلقها فحشا التراب على رأسه وقال
 ما يبأ الله بامرئ وابنته بعدها . فنزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم من القدر وقال : إن الله يأمرك أن
 تراجع حفصة رحمة لمرءى أى صالحها . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « أراد النبي أن يطلقها فقال له جبريل
 عليه السلام إنها صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة فهل ترى بعد هذا طلاق عائشة أم حفصة ؟ فقال أما هاتين
 فطلاقهما فتنة ومحنة ومفسدة أى مفسدة .

(الأستاذ) فهل ترى طلاق أم سلمة للمائة هذا زوج أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عمه النبي صلى
 الله عليه وسلم وهي برة بنت عبد المطلب وكان زوجها أخاه من الرضاع ، مات أبو سلمة ومعها أربع بنات برة
 وسلمة وعمرة ودرية فأواها النبي صلى الله عليه وسلم إليه وتزوجها بعد أن اعتذرت إليه وقالت إنى امرأة مسنة
 وإنى أم أيتام ، وإنى شديدة الغيرة فأجابها على لسان رسوله بقوله : الأيتام أضممهم إلى وأدعو الله
 أن ينهب عن قلبك الغيرة ، ولم يبا بالسن بل كانت تلك الزهدات والعقبات من أقوى الدواعى للإسراع
 في طلبها علقها عليها ، ورحمة بيناتها ، وصلة لرحمها ، ومعرفة بحق أخيه من الرضاع ، وإبواه لصغاره من بعده
 أقرام يطلق بعد ذلك ، ولو أنه فعل لكان أمراً نكراً ، واستضعافاً للأيتام ، واستخفافاً بصلة الأرحام ، واحتقاراً ،
 لشأن اللاتعات إليه اللان يستحقن معوته ؟ أم يطلق زينب ابنة جحش امرأة زيد الذي تبناه صلى الله عليه
 وسلم وتزوجها بعد طلاق زيد رمزا إلى ما يقع في بلاد المسلمين كل آن من بعده ، إذ يصطفى الدعوى بعد النسيب
 ويقضى القريب ، فيكون الخلل في السياسة والخلل في الرياسة ، والاسلام وإن سوى بين الناس وجعلهم
 أخوة في أعمالهم الدينية والدينية فقد نظر من وجه آخر إلى الكياسة في السياسة ، فلقد يصدق للولى ، ولقد
 يكذب ، ثم صدق زيد وصدق ابن زيد أسامة ، ثم هؤلاء وأضرابهم كانوا من أجل الأنصار بل قواد الجيوش
 للدافعين عن حوزة الاسلام ويضته بالقنا والسيب ، كل ذلك مسلم ولكن نظر النبي نظراً أدق وعلمه إله
 بالوحى ما جهله الملوك الباسيون كالمتمصم والترك فجعلوا للوالى أولى بالمنصب ، وأحق بالكراسى ، وأجدر
 بحفظ السياسة ، والاستبداد بالرياسة ، حتى القول على أكثرهم فهم يجهلون . نظر ذلك كله النبي فأمره
 الله أن يتزوج زينب وألقى في روعها بغضب زيد فلما شكها زيد أنفثها منه ، وجفوتها له ، وشمخها بأضها خيلاء
 وكبراً ، إذ كانت من صميم قريش وهو مولاهم قال له « أمسك عليك زوجك واتق الله » ولامه الله على ما كنتم

في نفسه من أنه أمر قبل ذلك وأخبر بأنه سيتزوجها فقال له « ونحني في نفسك ما الله مبدية ونحني الناس والله أحق أن نحشا » .

ذلك لأن صدع بالأمر ولا يخاف في الله لومة لائم فكيف يجعل من تغير ما ظهرت عواقبه الوخيمة بعد ذلك واستبان ضرره ، فلقد كان للترك في دولة بني العباس من الفتن بالملوك ، وتسميل الميرون ، وقطع الرقاب حاشش منه الجلود ، ولكم شدخوا الرءوس واستزلوا قرابة النبي جد عز من مراتهم بشهوة عرضت ، وعيدت بدت ، وضغينة كاذبة يتدعونها وأغراض ذميمة يتبعونها ولأنهم يفترونها . وكذلك أولئك الجنود المختلفون والفرق المنشاكسون للسمون الانكشارية علموا أنهم من وشيجة غير الترك ومن عنصر لا يتصل معهم ولا يلتزم فأخذوا للنفعة ثم أتوا صفا وأهلكوا الحرث والنسل في أنحاء الدولة وقد استقام الترك لتلك العقارب والحيات كما استقام العرب قباهم لعلمان المتصم الذين تناسلوا وتكاثروا وأرقموا الدولة في حيص بيص ، فتفرقت شذمطر ، ومزقت كل بمزق ، وأصبحوا أحاديث للأمم الحاضرة والغابرة ، ذلك ما كان يرمز إليه زواج زينب ابنة جحش ، ذلك هو السر للصون ، والجواهر للكنون ذلك أصل سياسة الله في الاسلام جهلها الناس ، ولئن علموا لفظد غشى على أعينهم الطمع ، وذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون .

وها هنا قال للمدره للأستاذ : آن أوان الانصراف ، فلنعد غدا صباحا ، وإن موعدنا الصبح ، « اليس الصبح بقريب » .

المجلس الثاني

جاء الأستاذ والمدره وقال الأستاذ هانحن أولاء فرغنا من الكلام على زينب ابنة جحش أم المؤمنين رضي الله عنها ، فنقول اليوم أترى أن يطلق أم حبيبة وهي رملة بنت أبي سفيان بن حرب أو هي التي تبذت دين أمها هند وأبيها أبي سفيان فخل قريش زعيم القوم وكبير العشيرة أبي معاوية . هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة المهجرة الثانية فولدت له حبيبة وبها كانت تكنى فتنصر زوجها هناك وثبتت هي على الاسلام ، فانظر كيف رزئت بهجر أبويها ثم بفراق أهلها وقومها وعاشرت قوما سود الألوان مخالفتونها في العقيدة وهم الحبشان ثم تنصر زوجها فهل بعد ذلك من محن تصب وإحن وعذاب واصب ؟ فإذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم فيكافئها ؟ أرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي رحمه الله ، فزوجه صلى الله عليه وسلم إياها ، وأصدقها النجاشي عن النبي صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار ، والذي تولى عقد النكاح عثمان بن عفان ، وجهرها النجاشي من عنده وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة فهل يكافئها بمثل هذا ويرفع عنها الضيم الذي توالى عليها بسبب الاسلام ويشرفها ويرفع رأسها بين قومها ثم بعد ذلك يفارقها ؟ إن هذا لعار وأى عار ، بل إثم كبير ، وزلة لا يخفها الدهر ، ولا يرضاها الصعلوك الغر ، فما بالك بمن هو القدوة الأعظم ، والسيد الأكرم ؟ أم يطلق جورية بنت الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق واسمها برة التي تزوجها صلى الله عليه وسلم بعد أن اعتقها ، ولما رأى المسلمون أنه صلى الله عليه وسلم تزوج جورية قالوا في حق بني المصطلق أصهار رسول الله فأعتقوا ما بأيديهم منهم ، قال في الإمتاع : ولما تزوجها صلى الله عليه وسلم خرج الخبر إلى الناس وقد اقتسموا رجال بني المصطلق وملكوهم ، ووطئوا نساءهم ، فقالوا أصهار رسول الله فأعتقوا ما بأيديهم من ذلك السي فهل يطلقها بعد أن شرفت قومها بزواجه فرقموا رءوسهم بين القبائل ؟ أفيجوز في شرعة الفضيلة أن ينكسوا رءوسهم بين اللأصاغرين ، وجيروا بالحية والتعاسة خاسئين ؟ .

(اللدرة) هذه للماذير التي ذكرتها إقاعية لا تروى من غلة ولا تنفي من علة ولكنها تقوم حجة وقية ، ويجترى بها أواسط الناس ، فأما الأذكيا ، فإنهم يقولون وعندهم بعض ريب وقلق واضطراب .
(الأستاذ) ولماذا ؟

(اللدرة) إن ما جاز أن يكون شأنه مع نسائه يجوز أن يكون مع سراة العرب وأشرفهم ، فلقد محتج كل بما برزأ نساءه من المصائب ، وما ينتابهن من النوائب ، وما يترى أحبابهن والحبايب : من تنكيس الرءوس ، وحلول البؤوس ، وذل النفوس ، وشماتة الأعداء ، وحزن الأخلاء .

(الأستاذ) ليس شأن سراة العرب وصاليكهم كشأن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا وقائعهم كوقائمه ، فالطامة هنا كبرى وهي متوجهة للأمة ونظامها كما أوضحته لك فيما مضى ، وكيف تزدى عمر وما حثا من التراب على رأسه وهو ركن مهم في الإسلام . وكيف قال هو وصاحبه إن طلاق نساءه أشد من احتدام وطيح الحرب وضرب الهام ، وإعمال السيوف ، والقنا بقرع القنا ، وأمواج الناي تتلاطم .

ثم قال الأستاذ فإذا كنت تفعل لو كنت مكان النبي صلى الله عليه وسلم ؟

(اللدرة) أنتهج خطة الحيلة بحيث أسلط القانون على الناس ثم لا أمس شرف هؤلاء السيدات بسوء .
(الأستاذ) وكيف ذلك ؟

(اللدرة) أملكهن زمام أنفسهن ، وأخيرهن . فأكون قد مهدت لنفسي العذر ، وقطعت لسان العلة ، فلو طلقت إحداهن نفسها لم يسود وجهها بما يقول الناس إن النبي أبغضها فبئذها وليس مقام النبوة بحسب سوء من فراق سيده لم تختره .

(الأستاذ) قد فعل النبي ذلك إذ قال الله له (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتكئن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) . فبدأ بجائشة فقال يا عائشة إني أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك ، قالت وما هو يا رسول الله ؟ فلا عليها الآية ، قالت أفيك يا رسول الله أستشير أبوي ؟ . بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك ألا تخبر امرأة من نساءك بالذي قلت ، قال لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها ، إن الله لم يعثني معتنا ولا متعتنا ، ولكن بشئ معلما ومبشرا .

(اللدرة) هذا كلام حسن ، فإذا كان بعد ذلك ؟

(الأستاذ) اختاره نساؤه كاهن ، وحرّم عليه استبداهن وطلاقهن كما تقدم ، وسمين أمهات المؤمنين ، وأعطين هذه المنزلة السامية في التاريخ والأهم جيلا بعد جيل إلى يومنا هذا .

(اللدرة) هل كان نساء النبي يقدرن هذا المجد قدره . وهل يرين أن المجد والشرف والاسم والسيات فضلا عن المجد الآخرة أرقى وأرفع وأعز من اللب والشموات الحيوانية . وهل من حوادث تؤيد ذلك حتى نقول إنهن كن يردن الله والعزة والشرف والآخرة ؟ وحتى تضرب الله كرفصها عما نعله من أنهن كن يطلبين منه النفقة وأن ذلك كان من أسباب هجره لمن شهرا كاملا لمغاضبتهن له ، فكان ذلك من أسباب نزول آية التحيير .

(الأستاذ) نعم كن يقدرنه حتى قدره ، ألم تر إلى أخت دحية التي ماتت من الفرح لما علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج بها . ولما نزلت آية التحيير أشفقن أن يطلقن قتلن باني الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ودعنا على حالنا . ألا إن للنساء نفوسا كالرجال : يحببن الشرف كما يحبون ، ويسمين للحياة والله كالأجر وعلا المهمة كما يسمن . لقد برهنت النساء في كل زمان على أن فيهن من تفشل الموت على العار بل إنهن أرقى

عمورا ، وألطف أخته ، وأشد قبولا لموعظة ، وأكثر تقديرًا لفضيلة ، وأولى ذماما إذا صدق الشير .
فانظر كيف قضت أخت دحية الكلبي نهبها لما فاجأها من خبر زواجها بالنبي ، نقل لي رعاك الله . أكان ذلك
لمال والنبي صلى الله عليه وسلم كان ينأى عن حصر ، وبأكل الشير ، ولا يبالى بالحطام ، ونساءه يطلبن منه
النفقات ، ويقلن له كل يوم هات . أم لشهوة وعنده كثير من العقيلات القريبات وهو قائد حرب ، ومعلم
تطبيق وقائم قبل ، وصائم نهار ، وقاض بين خصوم ، ومفجع هموم . فإذا يكون حظ النساء منه . كلا ، وإنما
ذلك الشرف وللزلة الرفيعة في الدين والدنيا ، فلا عجب إذا قالت سودة بنت زمعة دعيني حتى أموت تحت كعبك
وقالت هي والباقيات لا تقتلنا بالفراق والطلاق ، رضينا بالقوت ورضينا بما تصنع معنا من ترك قسمة على أننا
أسهات للؤمنين وأنا لا تسكح بعدك حتى نزل قوله تعالى (رجى من تشاء ممنن وتؤوى إليك من تشاء ومن
ابضيت بمن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تفر أعينهن ولا يحزنن ورضين بما آتيتن كاهن والله
يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليا حليما) قال البيضاوى : رجى من تشاء ممنن تؤخرها وترك مضاجعها وتؤوى
إليك من تشاء وتضم إليك وتضاجعها . وهناك أقوال أخرى غير هذا لاحاجة لها فى موضوعنا . وقال مخاطبا
للؤمنين (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تتكفروا أزواجه من بعده أبداً) مكان له بعد ذلك
على ما ارتضى واشترطن معه أن يترك القسمة لمن يشاء ، ورضين منه بما يرضاه فكانت الآية على وفق
ما اشترطن وعلى ما رضين عليه لما نلن من شرف ، وما أجزته من عثر ، إلى أبد الدهر .

(الدره) « لم حرمت أزواجه على المسلمين من بعده . وهلا أباح الله زواجهن أسوة بالناس ؟

(الأستاذ) إن من الحكمة التى أودعت ذلك أن فى التحريم سدا لباب الفتنة وحفظا للسياسة وتوحيداً
للكلمة . فلو أن إحداهن تزوجت رجل لتطاول للتدخل فى السياسة ولتفعل بأذى سبب ولأى وسيلة ما فعلته
عائشة فقد أداها اجتهادها إلى محاربة على مطالبة بدم عثمان يوم الجمل ، ولانافقة لها فى الخلافة ولا حمل ، ولكنها
رضى الله عنها أداها اجتهادها إلى النهى عن النكر فى نظرها واجتهادها . فلو أن إحداهن تزوجت رجل
لتطاول للرياسة بحجة زوجية أم للؤمنين . ولكان له قدم صدق فى الخلاف فى مواطن السياسة . هذا فضلا
عن إكرام النبي صلى الله عليه وسلم وتنظيمه . فكان التحريم لحكمة بالغة وحجة نيرة وآية باهرة وبينة ، لا باطل
دافعة ولا حق جامعة . فهل بقى فى صدرك أيها الدره حرج ؟ ألم يعذر الله والنبي وقد فعل مالا مطمع بعده
إعذار ولا بقيت سبيل لعالم نطاسى وخربت لوذعى فيختار . بل قطعت الأسباب ، ولا ملجأ لعاقل بعد ذلك
أن يلبغ من أى باب ؟

(الدره) لم يبق لى إلا باب واحد ألجه ، ومحجة واحدة أسلكها . فهلا اتخذ ذلك فرصة ونهى منهن جماعة
للمباينة . خاصة والمراعاة العلم والحكمة . واسطفى ممنن أربعا ليكون حامعا للخصلتين مؤدياً لفرضين محميا
للمستين . فالتروقات للدين والعبادات وذكر القرآن بهما رسته وفهم الأحاديث وحفظها على أن يقمن بهداية
الخلق . وإرشاد الناس إلى الحق . والصلقيات يكن على عدد الزوجات لسائر الناس ليكون ذلك قاطعا للسنة
للحدين ، وإرشادا للضالين . وحجة فى هذا الزمان .

(الأستاذ) قد كان كل ذلك ، واختص النبي بأربع ولم يزد عليهن . وأبقى الباقيات يتسدا كرن القرآن
والحكمة . فى النسق والحازن والسيرة الحلية ما يغيد ذلك . قال فى السيرة الحلية مانسه [وقد كان أربعا
النبي صلى الله عليه وسلم من نسائه خمساً سودة وصفية وجويرية وأم حبيبة وميمونة . وآوى إليه أربعا عائشة
وزينب وأم سلمة وحفصة . ألا تصعب لم اختار أربعا ولم يزد عليهن ؟ فأما فى ذكرهن الحكمة واحتراسهن
وهباتهن فاقرا ما قال الله وقرون فى ميوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقن الصلاة وآتين الركة

وأطمئن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، واذكرن ما يتلى في ميوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا . إن السليبين والسلمات وللمؤمنين وللمؤمنات والقائتين والقائات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصامتين والصائمات والحافظين لزوجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما . أمرهن بالصلاة والزكاة وأن يملن الحكمة ويذكرنها عسى أن يملن الناس ويكن قدوة كما كانت أم سلمة وعائشة يعرفن كثيرا من الأحاديث وتروى عنهن . وكما كانت زينب بنت جحش صناع اليد ماهرة في الحرز وصنع الخفاف ، فكانت بعدة صلى الله عليه وسلم تخرز وتديغ الجلود وتديع وتتصدق بالثمن على الفقراء والمساكين فكانت قدوة [ويايت بنات المسلمين يملن ذلك، لينهن يملن أن بعض الصناعات كانت مما قام به زوجات النبي صلى الله عليه وسلم كما تفعل الأمم للتمدنية الآن في أوروبا والشرق واليابان .

(الدره) عجب . إذن كانت تلك مدرسة ؟

(الأستاذ) نعم هما مدرستان ، فأول مؤسس لمدارس المعلمين والمعلمات في الإسلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وهنا انقض الاجتماع وانصرفا على أن يعودا من القد .

المجلس الثالث

(الأستاذ) ذكرنا أمس أن أول مؤسس في الإسلام لمدرسة المعلمين والمعلمات النبي صلى الله عليه وسلم وهذه مدرسة السيدات أما مدرسة الرجال فهو المسجد والرجال هم الطلاب وهم أهل الصفة منهم أبوهريرة وصهيب وسلمان وعمار وأمثالهم ، ويقال إنهم يبلغون أربعمائة يأخذون الصدقات ويحفظون القرآن ويتعلمون الدين عسى أن يكونوا معلمين كما كانت أمهات المؤمنين معلمات فبا بعد : فهل بقي بعد ما تقدم قول لقائل ؟ أليس في إبعاد تلك السيدات عنه بحجة أو بغير حجة بعد ما ذكر قسوة وشدة لاجل لها . ؟ ألم يبين للشعب أن لا مطمع له في الاختصاص ولو كان جائزا له فساوأم في الأربع وأرضى الباقيات أن يرجأن اختيارا منهن وقصرهن على المادة والتعليم ، فالطلاق إذن طريق وعر ومسلك خبيث بل معرة يأنف منها العاقل والجاهل فضلا عن الصالح والعالم ، والنبي صلى الله عليه وسلم لو أنه فاجأهن بالطلاق قسرا لكان ذلك أشبه بما صنع عمر من بعده إذ فاجأ حلة بن الأبيهم آخر ملوك القسائين بالشام ، وقال له لنقتص منك لهذا الأعرابي السلوك فلنكسر سنك كما كسرت سنه ، ولم يتند عمر في ذلك ولم يترقب حتى يجد له مخرجا من عفو أو قبول أرثن ، ولم يطاوله فقر حلة ومعه ستون ألفا من رجاله إلى بلاد الروم فتنصروا ، ذلك لصرامة عمر في القانون ولم يترص حتى يتبع له الفرص مخرجا . فما فعل النبي صلى الله عليه وسلم لا مفر منه ولا مجلس . فليس في الإمكان أبعد مما كان .

(الدره) واهالك ثم واهها واهها . لقد أنيت بالمعجب . وعلمت منك ما لم يكن ليخطر على بال . وإن

في بيانك لسحرا . فما الجواب الثاني ؟

(الأستاذ) أما الجواب الثاني فقيل : إن أولئك نفر وهم غيلان ونوفل بن معاوية والحارث بن قيس أسلموا بعد نزول آية التحريم فيكونون قد اعتنقوا الدين بجميع نواحيه وأوامره ، فزديد العمد واجب عليهم . فأما أولئك الذين أسلموا قبل التحريم وهم حموع وافرة وألوف مؤلمة ورييون كثير . فما قرأنا ولا

ولمّا إن أحدا منهم فارق مازاد على الأربع . ولو كان ذلك لنقل إلينا واتصل بنا . وأمر تعدد الزوجات ليس يسيرا وإنما هو أمر اجتماعي يؤثر في أحوال الأمة ونظام الأسرات . بل نظام الاجتماع ليس يصح إلا بعد نظام الأسرات . فلو أنه أمر فراق مازاد على الأربع جميع من أسلموا قبل التحريم ماخفي علينا ولتعدد النقل وكثرت الشواهد والدلائل ، وعليه يكون صلى الله عليه وسلم واحدا من جمّة غفير من السليمن أسلموا وعندهم جمع الكثرة من النساء ولم يطلقوهن فليس يعقل أن تكون تلك الألوف المؤلفة والجموع المختلفة والفرق للفرقة المنتشرة في جزيرة العرب يتمتعون عما زاد على الأربعة قبل التحريم من القحطانيين والزاريين ويختص بذلك أربع النبي وأولئك الثلاثة ويكون كل أولئك الذين أسلموا قبل نزولها غير متجاوزين الأربع وفيهم السراة الثورون والشجعان الجحاجيح والقروم القماقيم والسادة الصماميم وذوو البأس والشدة الذين هم أقدر الناس على الشهوات وإحراز القبيلات القاتات ، فهذا كاف وحده لمنع هذه الشبهة .

ثم قال الأستاذ : أما الجواب الثالث فلتضرب الله ذكر صفحا عما تقدم ، وكأن الجوابين السابقين لم يكونا لاسبا أن الاجماع قام على أن ذلك خاصة له صلى الله عليه وسلم والاجماع حجة فيسقط الجواب الثاني بذلك وتقول : إنه مامن دين إلا وقد أحاطت بالقائم به شكوك في لفظه أو فعله أو نتائجها ، فانظر في سير الأنبياء السابقين واللاحقين تر أن لكل واحد منهم ولكل قائم بعمل من سائر الناس في أحواله وأعماله [وجهين] وجه يتلأ نوراً وتستبين فيه الحقائق واضحة جلية . وآخر تتعكس فيه الحقائق على طائفة من الناس وتسود وجوههم فيلج الشك . في قلوبهم ولا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم ، وهذا في الشهادات معلوم . يرى الناس الأشجار على شواطئ البحار ذات ظل في الماء منعكس أعلاه أسفله وأسفله أعلاه ولا حقيقة لهذا وإنما ظله مرتمس على سطح الماء فيخيل للناس أنه يتدل إلى أسفل ويرون النار المتقدة من بعيد كبيرة وهي صغيرة ، ويرون الشبج فوق الجبل صغيرا وهو كبير ، ويرون الزجاج الصدوع أبيض ولا يباين وإنما هو ضوء الشمس أو غيره ، وتبين الحقائق عند التدقيق ومثل هذا في السموع عن الأنبياء . ألا ترى إلى قصة الخضر عليه السلام إذ اقتلع لوحا من السفينة فلامه موسى عليه السلام ، فلما أن تبينت الحقيقة أدرك أن « فوق كل ذي علم عليم » وأن الوجه الذي تراه له أسود ، وأن المقصد إغاثة اليتامى بعب السفينة لئلا يأخذها الملك غصبا .

وما كان ذلك إلا للأخذ بظواهر الأمور ، وانكاس الحقائق في الرويات كما عكست في المراتب . وفي قصة داود وسليمان معتبر فقد كان لأولهما (٩٩) امرأة ولآخرهما الثبات من الحور الحسنان « كأنهن الياقوت والرجان » مما ماج به قصره . وازدانت بهن حجره ، وحكم سليمان ومزامير داود عمت أرجاء العمورة ، وأنت تعلم أن اليهود والنصارى والمسلمين يعمرن الأرض نحو نصف النوع البشري نحو سبعمائة مليون ، يؤمنون بدادود وزبورهم ومزاميرهم ، وترى اليهود والنصارى يتلونها آتاء الليل وأطراف النهار ، يناجون ربهم بكرة وعشيا ، متضرعين بما في اللزائم من الآيات ، ولا يجدون في صدورهم ما يمجّد الناس اليوم مما تخرج به بحار الأنفس ، وقواميس العقول ، وتغلي به مراحل التعصب اليوم لبضع من النساء كن عند آخر الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، علمت الأنفس بفطرتها أن الديانات وللللات تصدع بمثل هذه التشابهات التي قد يموزها الدليل والبعث فلا يباون بمثل تلك الشكوك ، إذ هو مما يبدو لبعض النفوس وجها أسود بادي الرأي ، ولو حقق الأمر الأديب ، ودقق الأريب ، لوجد العالم كله ليس يخلو من الوجهين في ظواهر الأمر وعند التحقيق يتجلى لا عوج فيه ولا شبه « مآري في خلق الرحمن من تفاوت » ولأضرب لك مثلا بالشمس ترسل أشعها الذهبية فيكون منها حياة الحيوان ، وقوام النبات ، واستضاءة الطرق والمسالك ، وجري الأنهار بحررتها ، ومع ذلك لاتعدم زاريا عليها ، عابثا لها لوجهها السود في نظره لحكمة لم يفقهها ، وآية لم يدركها

لهجرة لدمته ، أو ربح سموم آذته ، أو ضربة شمسية في رأسه أصمته ، أو زيادة حرارة في عينه أعمته .
لاستمداد في نفسه ، وضمف في جسمه ، وخلة في الزواج .

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرها به للساء الزلالا

فلا عيب على الشمس المضيئة ، إنما العيب على القوابل الرديئة ، فيعمى إذ ذاك عن فضائلها ، ويحكم بالجزئي
للهووم على السكلى والعموم ، وقد دق ذلك الجزئي فلم يحط به علما ، فكان النظر جزئيا لا كليا ، بل وهما
لا عفتيا . فالأنبياء والصلحون كالشموس ، وعلومهم كالأنواء والأنوار ، ولللحدون أصابهم حرها لضعف
عقولهم وإدراكهم .

ومن يتطلب جاهدا كل عثرة يجدها ولم يسلم له الدهر صاحب

فلا ضرورة إذن لما صح من الجوايين السابقين إلا ردا لما يقال على ألسنة أولئك الثرثارين وإلا فبأنه
قل لى كتاب الله بين أيدينا ومالتا ولهذه الأضاليل والسخافات . مضت الرسل وكانوا يتزوجون العدد الجهم
من النساء ولا اعتراض عليهم حسب شرائعهم وأزمانهم وأنهم لا نعترض ولا نسخط . قتل الإنسان ما أهله .
قتل الإنسان ما أظله . قتل الإنسان ما أفل علمه ، وما أتمس نفسه ، بتركون مآلديهم ، ويأتون بخيلهم ورجلهم
وصفوفهم ليحاربوا ديننا في مشقة عرضية لاجوهرية ، وثانوية لا أولية اللهم إن عبادك في الأرض يصلون
وأكثرهم فاسقون ؛ يتبعون الشهوات في لهجة . فوا لله لا يريدون وجه الله ، إنما هو وجه الشيطان وخبت
النفوس ، وجهل العامة . اللهم إن أكثر الناس ظلمون كفار . اللهم إنا خلقنا في أم يسير سوادهم مع الأهواء
يساقون كما تساق الأنعام . ما حجبهم إلا الغالطات . كل يسعى لماء بطنه ، وسد نهيمته ، وشهوة فرجه ،
وسلخ جلود الأمم الضعيفة وذبحها على أنصاب الأمم القوية ، فصلاح العلم أذكى سلاح وأمضاء ، وهو طلبية
جيش الدافع والسهام .

(المدرة) قد تجت الحقيقة ، وتلا نورها ، ووضع الحق ، واستبان السبيل ، وإنى أريد الكلام على
تعدد الزوجات وجعلها أربعا .

(الأستاذ) لها وقت آخر ، وانصرفا وهما فرحانان مستبشرين .

المجلس الرابع

(المدرة) قد اتفقنا في الاجتماع القائل أن نأخذ بأطراف الأحاديث بيننا في أمر تعدد الأزواج للمسلمين
ولكنى اليوم تبدت لى شبهة فلا قدمها بين يدي ذلك السؤال .

(الأستاذ) أنا لا أفهم أنت مؤمن أم كافر ؟ فان كنت كافرا فلا شأن لى معك ، وإن كنت مؤمنا فلندع
المقال . ألا وإن نبوته ثابتة عقلا ، ألا ترى إلى مقاله كارليل المؤرخ الانجليزى فى كتاب الشجاعة والشجعان
وكيف برهن كما برهن شراح العقائد النسفية بالتأنيخ والنترات . قال كارليل . [رجل بنى بيتا حسن البنيان
متين التركيب . قائم الجدران منتظم الأركان ، ثم بقى البيت ألفا ومائتى سنة لم ينهدم منه ركن ، ولم تسقط
من أعلاه شرفة ، وهو لا يزال يزداد جدة مهما تقدم عهده ، وبعد أمده ، فهل يبنيه دعى فى البناء] البانى
محمد صلى الله عليه وسلم والبيت الاسلام ، فاذا ثبتت لديك نبوته فاضرب بالشكوك عرض الحائط ، وهناك أدلة
التجربة تجرب قوله فى الحديث وفيها أنزل عليه من القرآن وانظر هل تكون النتيجة كما أخبر الدين أو ماذا
تكون ؟ فان صدقت النتائج فالقول حق ، فاذا قال «والدين جاهدوا فىنا لتهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين»

فاعمل بها وانظر النتائج ، هذه أمور قد فرغ العلماء والكتاب منها ، وجربوها وصدقوها ، فكن على آثارهم
واقعد بأعمالهم تفر كغوزم .

(الدره) أنا مؤمن ولكن أسألك ليطمنن قلبي ولأحاج الجاهدين .

(الأستاذ) الجاحدون إذا لم يؤمنوا فلنترك الجدال معهم .

(الدره) حقا ، ولكن بعض الشبان يحار فيها لعموم المضلين ، أذئاب الأورويين في بلادنا . إذ قد أتوا
صفا ، وقالوا لند أفلح اليوم من استعل .

(الأستاذ) وغلا دمه ، ماذا يقول أذئاب الأورويين .

(الدره) يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم كان مغرما بشهوة النساء وقد استدلوا بحديث في طبقات
ابن سعد أنه جرى له بقدر فأكل منها فأعطى قوة أربعين رجلا في الجماع وهذا الكتاب يسمى كتاب الطبقات
الكبير تصنيف محمد بن سعد كاتب الواقدي رحمهما الله وطبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل وهو خمسة عشر
جزءا وصححه علماء المانيون بأمر من الجمعية الكبرى الأكاديمية اللوكية البروسانية سنة ١٣٢٢ فيه أن المؤلف
روى عن محمد بن عمر عن رجل يسمى موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه قال إن النبي صلى الله عليه وسلم
قال كنت من أقل الناس في الجماع حتى أنزل الله علي (الكفيت) تفسير الكفت لما أريده من ساعة إلا وجدته
وهو قدر فيها لحم . وفي رواية لقيني جبريل بقدر فأكلت منها فأعطيت الكفت قوة أربعين في الجماع .

(الأستاذ) تبسم ضاحكا وقال : أهذا حديث النبي ؟

(الدره) نعم . ضحك الأستاذ ثم استهزأ بالقول وسخر . وقال إما أن تصدق ما في القرآن من آيات :
وإما أن تصدق هذا الكلام . يقول الله «وإنك لعلى خلق عظيم» ويقول «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» ثم يأتي
أذئاب أوروبا . وصغار العقول وذبان العلماء . يقولون إنما جاء يعلم الناس قوة الجماع بأكل لحم في قدر . وفي
للثال العامي : إذا كان للتكلم مسلوب العقل فالسامع فؤاد بعقل ونهى وارب . يميز الحق من الباطل . نبي
يقول الله على لسانه «أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون» ثم يقول كان
يعلم الناس علم الشهوات . هذا ضلال مبين .

(الدره) ماقلت معقول ، فماذا تصنع في الحديث .

(الأستاذ) الحديث مزور مكذوب وقد أخطأ ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير .

(الدره) إن هذا الكتاب أجمع وأحسن كتاب في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين ، وإذا

لم تتق به فم تتق .

(الأستاذ) الحديث مكذوب موضوع .

(الدره) غضب غضبا شديدا كيف تقول مكذوب وما برهانك ؟

(الأستاذ) تبسم ضاحكا ، هذا الحديث مروى عن عمي نزار بائع الفول للمدس أمام باب الصعايدة بالأزهر

(الدره) أخرج من الجد إلى المنزل .

(الأستاذ) ما قته لك حق .

(الدره) الحديث في طبقات ابن سعد . وهو في القرن الثالث وهذا الرجل في أوائل هذا القرن

الرابع عشر فليس ما تقول مقبولا .

(الأستاذ) اسمع أيها الصديق ، إذا أثبت لك أنه مروى عن رجل يشابهه في صنعه أراد أن يشهر

ببيع المريسة ، القمح للدقوق للطبوح في القذور كالمدس فماذا تقول ؟

(الدره) أقول : إن أذئاب الأورويين جميعا قوم لاخلاق لهم ، وإنهم صمالك الأمم يريدون بنا شررا

ولسنا نعلم إلا السكديين الضالين منهم . فأما حكماؤهم وعظماؤهم وأجلاؤهم فلم عندنا مقام عظيم .
(الأستاذ) أعطيتني عهدا ؟

(الدره) قال نعم .

(الأستاذ) قال العقيلي : حدثنا معاذ بن الثني ، حدثنا سعيد بن اللعي ، حدثنا محمد بن الحجاج عن عبد الملك بن عمير عن ربي بن خراش عن معاذ بن جبل قال : قلت يا رسول الله هل أوتيت من الجنة بطعام؟ قال نعم ، أوتيت بهريسة فأكلت فزادت في قوتي قوة أربعين وفي نكاحي نكاح أربعين . قال وكان معاذ لا يعمل طعاما إلا بدأ بالهريسة . قال العقيلي : هذا حديث وضعه محمد بن الحجاج اللخمي وكان صاحب هريسة وغالب طرفة تدور عليه وسرقه منه كذابون . أليس يا صديقي هذا نصا على أن هذا الرجل هو المخترع وأخذه كثير عنه بأسانيد اخترعوها وألفاظ غيرها . أو لم أكن صادقا في قولي لك إنه مثل عمي نصار بائع الدمس ، فهذا اشتهر بالدموس ، وذلك اشتهر في هريسة فكسب مالا عظيما بهذا الكذب . وذبان أوروبا يتبعون ذلك الفحش والحقارة والدناءة ليضحكوا على عقول الجهال . وقال ابن عدى : هذا الحديث روى عن سلام بن سليمان عن نهشل ونهشل وسلام متروك حمري وأن أحدهما سرقه من محمد بن الحجاج وركب له إسنادا . وقال الأزدي : هذا حديث روى من طريق إبراهيم بن محمد وإبراهيم هذا ساقط . فترى أنه سرقه وركب له إسنادا .

(الدره) الآن قد اكتفيت فلك الشكر والثناء على ما أوفيت ، إذ قد حصص الحق . وانقشعت غياهب الشك « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » وإني لأعجب كيف يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(الأستاذ) للوعد غدا في المجلس الخامس إن شاء الله تعالى .

المجلس الخامس

(استظم المجلس وتناجى الأستاذ والدره)

(الدره) وعدت أنها الأستاذ أن تفيض في الكلام على الأحاديث الموضوعية وكيف تنسى لأمري أن يكذب على رسول الله ﷺ .

(الأستاذ) لا تعجب من قولي . فكيف من عجب في هذا الإنسان ، فلقد طغى وبغى وكذب قديما وحديثا ، ولم يذر من شيء إلا أحاطه بشروبه وألبسه من أثواب زوره ، ونسج بناكب بهتانه على حقائقه ، ولم أنبت في طيب أرض الحقائق من شوك قتاده وحسك عناده وعضاء اخلاقه . فإذا رأيت الأمم الحاضرة والجرائد السائرة تخنلق إفسكا وتفترى إنما فهكذا كانت . فرق من السابقين وعزوز من الأولين يقولون على النبي صلى الله عليه وسلم لأغراض يقصدونها وآثام يجترحونها ومقاصد يؤمونها ومناسب يرتقونها وبمالك يحكمونها وظلمات يقترحونها . ألم تر إلى ما روى عن عبد الله بن يزيد القرني قال :

(١) رجع رجل من أهل البدع عن بدعته فجعل يقول : انظروا هذا الحديث عمن تأخذونه فإننا كنا إذا تراءينا رأيا جعلنا له حديثا .

(٢) وعن ابن لهيعة قال : سمعت شيخا من الحوارج تاب ورجع فجعل يقول : إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فإننا كنا إذا هويتنا أمرا صيرناه حديثا .

(٣) وعن حماد بن سلمة قال : حدثني شيخ من الرافضة . قال : كنا إذا استحسنا شيئا جعلناه حديثا

(٤) وعن أبي أنس الحراني قال : قال المختار لرجل من أصحاب الحديث : ضع لي حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان بعدة خليفة مطالبا بيرة ولده وهذه عشرة آلاف درهم وخلعة ومركوب وخدام ، فقال له الرجل : أما عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا ، ولكن اختر من شئت من الصحابة وحط من الثمن ماشئت (الدرر) إن شئت أن توضح هذا الأخير فإني لفي حاجة إليه .

(الأستاذ) إن المختار كان أميراً على الكوفة مطالبا بأثر الحسين رضي الله عنه ظاهراً طالباً للملك باطناً . وفي الثلث « أسر حسوا في ارتقاء » وفيه أيضاً « بيلة الورشان يأكل رطب اللشان » وفي الثلث أيضاً « فلان محز نبق لينباع » أي يطرق ليثب . ولقد كان من خدعته أنه يخلق إفسكا ويتظاهر بخوارق العادات . وكان من حديثه أنه يوماً ما كان محارباً فقال لقومه ستفرون من العدو بذنوبكم ، فإذا كانت المزرعة فسأني اللاتكة في صورة الحمام البيض دون السحاب فيها تنصرون ، ثم أعطى بعض خواصه تلك الحمام البيض التي رباها فلما كان الغد وقعت الواقعة وانشقت جموعهم وكانت واهية لكثرة العدو فأطلق أصحاب الحمام البيض فاجتمعوا وأتوا صفاً وغلبوا العدو ومزقوه شر ممزق ، وكان من جملة احتياله ونصب شركه ورصد غلخته ومبرم جبال أشراكه أن جعل لذلك العلامة في الحديث مالا وافرا وهدايا ثمينة توافق مرماه وتوأنى أن يقول إنه خليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم مطالب بأثر ولده (يعني سيدنا الحسين رضي الله عنه وأرضاه) فأبى الشيخ عليه ذلك حفظاً للدين ورضاه لله عز وجل .

(٥) ومن الوضاعين قوم وضعوا الأحاديث في الترغيب والترهيب ليحثوا الناس بزعمهم على الخير ويزجروهم عن الشر ومضمون هذا أن الشريعة ناقصة وتحتاج إلى تمنة بزعمهم . ففن عبد الله التهاندي قال : قلت لغلام خليل ، هذه الأحاديث التي تحدث بها من الرقائق ، من أين أتيت بها ، فقال وضعناها لترقق بها قلوب العامة . قال ابن الجوزي : غلام خليل كان يتزهّد ويهجر الشهوات ويتقوت بالاقلاء صرفاً وغثقت أسواق بغداد يوم موته فحسن له الشيطان هذا الفعل القبيح . وسئل عبد الجبار بن داود النخعي فقال كان أطول الناس قياماً بابل وأكثرهم صياماً بنهار وكان يضع الحديث وضعا . وكان أبو بشر أحمد بن محمد البقيع للروزي من أصلب أهل زمانه في السنة وأذهب عنها وأخفهم لمن خالفها ، وكان مع هذا يضع الحديث ويقبله . وعن أبي عمار الروزي قال : قيل لأبي عصمة بن أبي مريم المروزي من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة وليس عند أصحاب عكرمة هذا ؟ قال إني رأيت الناس أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقّه أبي حنيفة ومغازي ابن إسحاق فوضعت هذا الحديث حسبة . وكان وهب بن حفص من الصالحين مكث عشرين سنة لا يكلم أحداً . قال أبو عروبة كان يكذب كذبا فاحشا . وعن يحيى بن سعيد القطان : ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن ينسب إلى الخير . فإذا كان هذا حال الزاهدين والأنبياء فما بالك بالمعجزة الأشرار ؟

ومن الوضاعين قوم كانوا يتقربون للملوك والأمراء كغياث بن إبراهيم ، فإنه حين دخل على المهدي وكان للمهدي يحب الحمام فقيل له حدث أمير المؤمنين ، فقال حدثنا فلان عن فلان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا سبق إلا في خوف أو حافر أو جناح ، فأمر له المهدي بيدر . فلما قام قال المهدي إنه كذاب وأنا حملته على ذلك ثم أمر بذيخ الحمام ورفض ما كان فيه .

ومن الوضاعين من كان يضع الحديث في ذم من يريد أن يذمه كما حكى عن سعد بن طريف أنه رأى ابنه ييكي فقال مالك ؟ فقال ضربني المعلم فقال أما واقه لأحدثهم حديثي عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مقلو صبيانكم شراركم وقيل لمأمون بن أحمد الأتري إلى الشافعي وإلى من تبعه مخرسان ؟

فقال حدثنا أحمد بن عبد الله بن معدان عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون في أمي رجل يقال له محمد بن إدريس أضرم على أمي من إبليس . وقيل لحمد بن عكاشة السكرماني : إن قوما يرفعون أيديهم في الركوع وبعد رفع الرأس من الركوع فقال أنبأنا للبيب بن واضح حدثنا عبد الله بن المبارك عن يونس عن يزيد عن الزهري عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رفع يديه في الركوع فلا صلاة له .

(أقسام الوضاعين)

إن الوضاعين ثمانية أقسام :

- (١) الزنادقة قصدوا إفساد الشريعة وإيقاع الشك في قلوب العباد والتلاعب بالدين كعبد الكريم بن أبي العوجاء . قال ابن عدي لما أخذ ابن أبي العوجاء إلى محمد بن سليمان بن عامر فأمر بضرب عنقه قال : والله لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحللت فيها الحرام وأحرمت فيها الحلال . وعن جعفر بن سليمان قال سمعت المهدي يقول عندي رجل من الزنادقة وضع أربعين حديثاً فهو تجول في أيدي الناس .
- (٢) قوم كانوا يقصدون بوضع الحديث نصرة مذهبهم كما تقدم عن عبد الله بن يزيد المقرئ .
- (٣) قوم وضعوا للترغيب والترهيب كما ذكرته لك إجمالاً فيما تقدم والمثال في ذلك ما يروى عن ابن عدي حدثنا أحمد بن حفص السعدي حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا خاقان السعدي حدثنا أبو مقاتل السمرقندي عن عبد الله بن نافع عن ابن عمر مرفوعاً من زار قبر أبيه أو أمه أو عمته أو خاله أو أحد من أقربائه كانت له كحجة بيرورة ومن كان زيارتهم زارت الملائكة قبره ، قال ابن حبان ليس لهذا الحديث أصل وأبو مقاتل حفص بن سليم يأتي بالأشياء للسكر . وقال ابن عدي حدثنا عبد الرحمن بن عبد المؤمن حدثنا أحمد بن صالح السكي حدثنا علي بن عباس المصفي حدثنا سليمان بن أرقم عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حسنوا أكناف موتاكم فانهم يزاورون في قبورهم قال بعض العلماء هو موضوع وصححه آخرون من طريق غيره . وقال عبد الوهاب بن المبارك الحافظ أنبأنا شهر بن حوشب بن عبد العزيز الجبلي أنبأنا أبو حامد محمد بن همام حدثنا محمد بن سليم حدثنا إبراهيم بن هذبة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيع جنازة فلما صلى عليها دعا بثوب فبسط على القبر وهو يقول : لا تطلعوا في القبر فانها أمانة فلعل وعسى تحمل القمد فينجلي له وجه أسود ولعله يحمل القمد فيرى فيه حبة سوداء مطوية في عنقه فانها أمانة وعسى أن يقبله فيعود إليه دخان من تحتها فانها أمانة . هذا موضوع وأكثر رواته مجهولون وإبراهيم بن هذبة كذاب . وقال الخطيب أخبرني أبو الفرج الطنجيري أنبأنا عبد الله بن عثمان الصغار أنبأنا أبو محمد بن الحسن بن أبي الحسين بدر بن عبد الله مولى العزم بالله حدثنا أبو القاسم أنس بن محمد بن علي الطحان حدثنا محمد بن بشر الأربطاني حدثنا محمد بن معمر حدثنا حميد بن حماد عن مسعر بن كدام عن عبد الله عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دفن البنات من الكرمات . قال لا يصح ، وحميد يحدث عن الثقات بالمناكير وروى من طريق آخر وهو منكر قال الشيخ السيوطي سمعت شيخنا عبد الوهاب بن الأعملى الحافظ يخلف بالله عز وجل إنه ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من هذا قط .
- (٤) قوم استجازوا وضع الأسانيد لكل كلام حسن كما حكى عن محمد بن سعيد أنه قال : لا بأس إذا كان كلام حسن أن تضع له إسناداً .

(٥) قوم كان يعرض لهم غرض فيضمون له الحديث كالتقرب للدلو كما تقدم عن غياث والهدى
 (٦) قوم وضعوا أحاديث قصدا للأغراب ليطلبوا ويسمع منهم، قال أبو عبد الله الحاكم منهم إبراهيم بن
 اليسع وهو ابن أبي صبة كان يحدث عن جعفر الصادق وهشام بن عروة فيركب حديث هذا على حديث ذلك
 فتغرب تلك الأحاديث بتلك الأسانيد .
 (٧) قوم شق عليهم الحفظ أو رأوا أن المحفوظ معروف فأتوا بما لا يعرف مما يحصل مقصودهم وهؤلاء
 منهم القصاصون الذين لا ربح لهم إلا بالأحاديث الموضوعية .

(٨) الشحاذون وأغلبهم يحفظون لموضوع، وروى الدارقطني عن أبي حنيفة البستي دخلت تاجردان
 [مدينة بين الرقة وحران] فحضرت الجامع فلما فرغنا من الصلاة قام بين أيدينا شاب فقال حدثنا أبو خليفة
 حدثنا الوليد حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قضى مسلم حاجة
 فعل الله به كذا وكذا فلما فرغ من دعوته قلت له رأيت أبا خليفة ؟ قال لا ، قلت له كيف تروى عنه ولم تروه
 فقال إن المناقشة معنا من قلة المروءة أنا أحفظ هذا الاسناد الواحد وكلما حفظت حديثا ضممته إلى هذا الاسناد .

﴿ فصل ﴾

قال ابن الجوزي والوضاعون خلق كثير من كبارهم وهب بن وهب القاضي ومحمد بن السائب الكوفي
 ومحمد بن سعيد الشامي المصلوب وأبو داود النخعي وإسحاق بن يحيى اللطفي وعباس بن إبراهيم النخعي والثيرة
 ابن شعبة الكوفي وأحمد بن عبد الله الجويباري ومأمون بن أحمد الهروي ومحمد بن عكاشة الكرماني ومحمد
 ابن القاسم الطائفي ومحمد بن زياد اليشكري .

وقال النسائي : الكذابين المعروفون بوضع الحديث أربعة : ابن أبي يحيى بالمدينة . والواقدي ببغداد .
 ومقاتل بن سايان بخراسان . ومحمد بن سعيد المصلوب بالشام . وقال الحافظ سهل بن البراء ، ثم وضع أحمد بن
 الجويباري ومحمد بن عكاشة الكرماني ومحمد بن تميم الداري على رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من
 عشرة آلاف حديث .

﴿ اعتراف الكذابين ﴾

قد أقدم جماعة من الكذابين على كذبهم وتصلوا من ذلك . عن ابن أبي شيبة قال كنت أطوف بالبيت
 ورجل ورائي يقول : اللهم اغفر لي وما أراك تفعل . قلت يا هذا قنوطك أكثر من ذنبك ، فقال دعني فقلت
 له أخبرني فقال إني كذبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسين حديثا فطارت في الناس وما أقدر أن
 أرد منها شيئا . وقال ابن لهيعة دخلت على شيخ وهو يكي فقلت وما يكيك ؟ قال وضعت أرجفائة حديث أدخلتها
 في الناس فلا أدري كيف أصنع فمئذ ذلك قال :

(للدره) : كفي قد شربنا من هذا النهر حتى ارتويينا فغبتنا ما علنا .

﴿ الكلام على تعدد الزوجات بين المسلمين ﴾

وإني أرجو أن تفيض الكلام على تعدد الزوجات عند المسلمين فليس على الإسلام والمسلمين أشد اعتقاداً
 ولا أمرت مذاقاً ولا أعظم وقفاً من هذه ، فهي التي أطالت السنة القادحين وأطمعهم في هذا الدين فأوضح القول
 فيه إيضاحاً والنس في القول نهجاً وسطاً لا رمزا ولا شططاً بين ذلك متخذاً المساواة سبيلاً ، وإن شئت فليكن
 الإيجاز أحسن تأويلاً .

(الأستاذ) لقد غصت المجالس بهذه الكلمة واستفاض بها الحديث من الشريفيين والقرينيين ولن تجالس
 امرأ من بني التميمي أو السبيعي أو الطوينة أو من الألمان أو الطليان وكان من المغمرين بالديانات إلا فاجأك بهذا

الحديث، ولقد والله عجبت لهذا الإنسان كيف يتعالى حتى يصل مستوى القضية والشرف وينحط حتى يستزل عن دركات البهائم والدواب والحشرات . هذا الإنسان أيها العزيز مخلوق غريب ؛ ترى الأوروبي عالما بكثير من الشئون طائرا في الجو جاريا على الأرض بالصناعات عاتما في البحر ساجحا فيه بجملة حتى إذا دخل في مجادلات الدين هالك أمره فأبغيت أن هذا الإنسان المسمى بالمتدين مقلد يستتلي كما تستتلي الجنية .

عاب الإسلام بمسألة عمرانية من آلاف المسائل الصحيحة، وبألت شعري لو أنها كانت ثلثة في الدين لم تكن فتيل في الاعتذار ولم تقم حجة على ضعفه ولم يكن ثمة سبيل لاعتقاد وهنه فكيف وهي كما سنوضح من مستلزمات الاجتماع ومقومات هذا النوع الإنساني . التعدد المعتدل على ما سترى من أعمدة المدينة للقبلة ومن عقاير الأمراض الاجتماعية المزمنة تعدل مزاج هذا النوع أيما تعديل . وتقومه أحسن تقويم ، فمزاج الإنسان اليوم منحرف من الضرر وإصابة الحمى من تغفن الأخلاط وتراكم أدراجه وتتابع آلامه ومسألة اجتماعه المعزى من عويصات المسائل وكبرياتها، فلا فاض في القول ولتسمع ولتع ولأقدم المقدمة قبل ذلك فأقول :

(١) أعلم أن المقرر في الطبيعة كما هو المعلوم في سائر الدول والممالك أن عدد الذكور في الميلاد يساوي عدد الإناث تقريبا كما أوضحت في كتابنا [أبن الإنسان] وعليها بنينا نظام الأمم للقبلة إن صححت عزيمة الإنسان وأراد التخلص من حطته والتخلص من شططه وخطيئته، فلو أنك استقصيت مواليد الأمم أمة أمة والبلدان ببلدة ببلدة لرأيت هذه العجبية القرية وهي النساي بين الجنسين محكمة مطردة صادقة، فلنقرأ مواليد بلدتك أو أي بلدة نجاورك أو أي مملكة أحصت ذكورها وإناثها نجد التساوي تماما إلا قليلا لحلل عرض ، وضف ومرض وأحوال استثنائية وأمور فجائية، هذا هو القانون العام وهذه أس بنينا عليه ما لهذا الإنسان من نظام طبيعي في أخلاقه وسياسته وصناعاته وحكومته وكيف زاعت الحكومات وضلت السياسات واضمحللت الجماعات واكفهرت الأجواء واختلفت الأنواء وتوالت الشبات وتفضت العهود والأمانات كل ذلك لجهل الإنسان بفطرته وزيفه عن جدته فاقراء في كتاب « أبن الإنسان » تر العجب العجيب بما لا يحل له كره هنا وإنما تريد من ذلك أن هذا الإنسان تساوت ذكرانه وإناثه فلم تتطلب أمة من أخرى نساءها اضطرابا ولم يكن من زلة طبيعية واحدة من هذا السبيل بل كل ذلك بمقدار، فلم نسمع أن أمة من الأمم القديمة أو الحديثة مهما طال عليها القدم كانت مواليدها يوما ما جميعا إناثا أو ذكورا بل العدل مستمر دائم فهذه أول مقدمة .

(٢) المقدمة الثانية إنى قرأت في إحدى صحائف (اللورد كرومر) التي كان عاملا للانجليز في مصر في صحيفته السنوية أن تعداد الزوجات بين المسلمين لا يزيد عن خمس في المائة ثم نقل عن آخر من السامعين من بعده فقال إنهم لا يزيدون عن ثلاثة في المائة ، هذان هما الأعلان اللذان أبني عليهما النتائج الآتية . فإذا قررت هذان الأعلان تقول : منذ سنين معدودة عدت أمة الإنسكيز نساءهم فزاد مقدارهن خمس عشرة امرأة في كل ألف رجل وامرأة فتكون من هذه الزيادات آلاف ومن الآلاف مئات الآلاف وصاحوا وولولوا وندبوا حظهم من الطبيعة وقسطهم من العدل وقالوا إن هذا الإلتياب، أين تضعهن ومن يعولهن وماذا تصنع فيهن وزلزلت أرض نادى العموم زلزالها وأخرجت أرض المموم أنفقالها وقال سادات الانجليز ما لها؟ فيومئذ حدثت الجرائد أخبارها أن عدد النساء ازداد وما تغنى المدافع والجنود. هذا ما كان من أمة الانسكيز في تعداد العام، ولعمرك مامن أمة إلا أصابها موت الأبطال في ساحات الوغى وقعد الرجال بما يقل تعداد رجالها عن نساءها وهذه الحرب للسنرة الآن شاهد عدل فكف من نساء أيمات قد فقدن النصار وأعزهن العشير قفلت الرجال وكثرت النساء، وقد بلغنا عن التعايشي خليفة للهدى السوداني أنه ذبح الرجال واستجبا النساء فكانت ترى في القرية الواحدة بضعة شيوخ وأطفال وآلاف من النساء وقد صح في الحديث عن سيد الرسل صلى الله عليه وسلم إذ

قال في أشراف الساعة: «وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون للخمسين امرأة القيم الواحد» عجب امر النبوة يذكر أيام المسيح الدجال، وإن أول أيامها يساوي سنة وثانها يساوي شهرا وثالثها يساوي أسبوعا الخ مشاركة لحال الكرة الأرضية حذو القذة بالقذة كما في رسالتنا على هلال رمضان فانظرها، وها هنا تذكر أشراف الساعة ويذكر أنه يكون للخمسين امرأة القيم الواحد مطابقا لحالنا الحاضرة في هذه الأيام السود، إذ يخفى الرجال ويبقى النساء ولا عائل لمن ولقد علا عراخ الانكباب وعويلهم من خمس عشرة امرأة زادت في كل ألف رجل، وامرأة لمة عارضة في النسل وطاري من الضر على أرحام النساء وأصلاب الرجال ومناهج التربية وطرق الأغذية وماشا كل ذلك لما بالك بهذه الحروب الطاحنة والأضغان الظاهرة وقد جندل الأبطال وعم النكال واصطدم أعظم الأمم قوة وأشدهم بأسا في المراك والتال فطاحت تلك القهائم الجحاجيح وبادت تلك الصناديد القوانك والصماصيم الصوائل فأصبحوا لا ترى إلا ماساكنهم وحرهم القوان الحرائر والبوار العوانس .

(المدرة) لقد أطلت في هذا المقام وخرج القول إلى الإيهام، فإن حاصل الأمر يرجع إلى أن الرجال وإن سادوا النساء عددا فقد يتقصون عنهن بالطبع كما حصل نادرا باجتمعا، وقد يكون بالمصائب في الحروب والأحوال العارضة العامة لسائر الناس وأنا لا أرى هنا مجيزا لتعدد الزوجات فإن القانون العام لا يكون مثل هذه الأحوال العارضة والأمور الطارئة على أنه لو أن ذلك يكنى في التشريع لعارضة تشمت الأسرات وتفرق الجماعات بتعدد الأمهات في الأسرة الواحدة . وهل أذاك حديث الأزواج وبؤسهم والزوجات ونكد عيشهن وأبناء الضرائر وضغفهم وسوء العيش والشجار والعراك والتقاضى في المحاكم وسوء العشرة . كل ذلك الشر لا يقاوم الخير الناجم من زواج تلك الأيام اللاتي مات أزواجهن ، وإذا اجتمعت علتان يتبع الأخف وهذه الشرور الكثيرة في الأسرات أنسى من ضرر عدد من النساء فقدن العائل وعشن على غير طائل وهن أرامل .

(الأستاذ) لقد تمجلت ولم تحمل حتى أتم القول فاصغ لما أقول موجزا: إن أكثر الرجال سارون على هذا النهج الطبيعي يتزوجون بامرأة واحدة والليل انقسموا قسمين فقريب أصبح شديد الشهوة قوى البنية كثير اللال مغرما بالنساء بالطبع . وفريق ترك النساء إما زاهدا دينيا كالرهبان، وإما ضعفا عارضا، وإما قفرا مدقما، وإما غما وها . وهذا صنف دائم ثابت في نوع الإنسان فضلا عن الحرب والنكال في الأمم ، فهذا يدحض ما أشرت إليه من أنه نادر أو عارض يزول فلا مناص من جواز التعدد لأن النساء اللاتي لا عائل لمن يقابلن الفريق الأول من التسمين السابقين وهم الشهبانيون؛ فلو أنا حرمتنا التعدد لأصحبنا وجها لوجه أمام الخطر الدائم الذي طغى سبيله وطم وعم فساده من أوروبا فأغرق الشرق سبيله الجارف ألا وهو الزنا الرسمي كما هو في مصر الآن وسعى له سائر الممالك للتمدية لأن ذلك الغنى يطلب أكثر من امرأة وتلك النسوة البائسات الجيلات يتطلبن الرجال للقوت والشهوات ، فلو حجبنا عليهم وعلمن وجب أن تخصص أماكن للفجور كما هو حاصل الآن فطاحت العفة وضاع الشرع وذهبت الروءة . أما الإسلام فنتعجب ولتظنر أباغ تعدد الزوجات فزال الخطر المحقق وكانت العفة والشرف والنسل الشريف . انظر أليس التعداد كان خمسة في المائة أو ثلاثة في المائة أي ثلاثين في كل ألف ومن عجب أن هذا العدد الاحصائي يواتى ما قدمناه فإن هذا التقدير في الألف يقابل للتفاعدين في كل أمة من الزواج وهو التقدير الذي يجتمع فيه الحصال الثلاثة الشباب والفراغ والجدة وهي مفسدة للمرأة أي مفسدة .

فانظر وتعجب كيف جعل الإسلام هذه الفسدة مصلحة واستبدل الزوجات بالبغايا وأبناء الرجال الأشراف للتولين العالمين بأبناء الزنا المتردين والمحنوقين والعفة بالحنا والأمانة بالحيانة والصيانة بالإهانة، أباغ الإسلام تعدد

الزوجات فسادا جرى ؟ تقدم أولئك الأقوياء أولئك الأغنياء السرفون فدوا أيديهم إلى من عندنا من النساء اللاتي لاقين لمن قزوجهن وأقفلوا بيوت الحنا ومحال المهمل والفحش . شهد (اللورد كرومر) في تقريره أن هذا العدد يزد . جعلته لكل رجل امرأة فضف بعض الرجال أو مات ققام غيره فأتخذ نظيره من النساء وعالمهن ؛ وهل جل السليين يعددون أو كلهم وهل المعدون استوعبوا النساء حتى قد عددهم ؟ كلاً من كلام لسبيين : الأول أنه لم يخلق الله إلا امرأة واحدة نظير كل رجل ، فالمتروكات نظير المالكين والضعفاء . الثاني أنا لم نسمع أن رجلاً ما أراد أن يتزوج فوق واحدة من النساء فلم يجدها ، لم نسمع هذا في تاريخ أمة من الأمم حتى التي أباحت العدد المطلق إلى ما لا يحصى فعلنا أن الحكمة الإلهية حفظت نظام العالم .

أما ما يقال من سوء العشرة وفساد للنازل بين الإخوة فهذا كلام ناشئ من جهل القائلين به وعدم تبصرهم ، فليس كل أخوين من أمين متشاكسين ولا كل أخوين من أم واحدة متحابين . إن واحداً من ذوي قرابتي رأيت يحب أخاه لأبيه ، ولما مات ذلك الأخ بكى عليه قريبا أكثر من أخى الليت الشقيق فمجت لكذب القوم الصراح وجهلهم الفاضح ، على أن الحسد في الإخوة أمر طبعي وإنما يهذب العلم والتربية والأدب والدين ، ولو كانت المشاجرة والعداوة بين الأسرة علة لمنع التعدد لقلنا فليرز نوع الانداز من فوق سطح الكرة الأرضية فالأم كلها في ضغائن والأفراد متشاكسون ، ولو سلمنا جدلاً أن العداوة كائنة بالأبناء خير والنشر العارض لا يمنع الخير العظيم وهو ازدياد عدد الأمة وظهور الرجال فيهم ، على أن أكثر من نراهم في الأمة هم أبناء أولئك الأقوياء للترفين الأغنياء الذين يعيشون ليلداً ، كما أن آخرين يعيشون ليعلموا ويؤلفوا . قوم يلدون أجساماً وآخرون يلدون عقولاً ، كم من رجل في البلاد المصرية خلف ثلاثين ذكراً أو أربعين ومنهم من بلغ أبناءه وأبناؤهم عدداً وافراً فأخلطت عليه الأسماء . ما أسوأ الأمم التبية الجاهلة التي تقول لأقويائها لا تزوجوا علنا وتزوجوا سراً لتموت أبناؤكم في الراحيض ما أجهل تلك الأمم ، ما أقل علمهم ، ما أكثر جهلهم ، ما أوضح العلم وما أجهل أولئك في علم الاجتماع . فالحق والحق أقول إن العالم الانساني اليوم يعوزه الفلاسفة والحكام يعرف كيف يعيش ، فإن نظرياته ضئيلة ضعيفة يحيا ويموت على عادات موروثية ومناهج مرسومة يقلدها تقليد العميان ويتبعها اتباع الصبيان ويذم ما ليس من عادته ، وفي التنزيل « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » يقولون تعدد الزوجات أفسد المجتمع الاسلامي ويا للعجب لو أن التعدد إفساد لم يكن الثلاثون في الألف شيئاً مذكوراً حتى يفسد الألف ومن ذا الذي ضل عقله وزاغ بصره حكم بفساد الألف إذا فسد منهم ثلاثون ، هذا قول من في قلبه مرض وعلى عينه غشاوة فكيف وقد استحال الفساد صلاحاً وأضحى الثلاثون في الألف أو الخمسون منها إصلاحاً لباقيها يلدون لهم البنين والبنات ومخرجون القواد والعلماء والعقائل والفتيات وهم أقدر في الغالب على التربية والتعليم لما أحرزوا من ثروة وما أوتوا من مال فياليت شعري كيف تسقى للأمم أن يقولوا للمرأة افضلي الحنا إذا اخترته سييلاً وكوفي زانية إذا راق لديك وصفا وقتك وبأبيها الرجل أبعنا لك الزنا واخترنا لك الحنا وآتيناك منا قوة القانون على أن تنازل من تشاء من الفتيات فأى فتاة فضحتها وأفرعتها ، وأى امرأة أزلت صوتها ومددت يديك إلى سترها فزقتة وإلى بيت شرفها فهدمته وكان ذلك على اختيار منها ورضا فانا لكم معينون وإن أمر ذلك وأد البنين والبنات وقلة النسل العام في الأمة وإن طاق أعداؤها عدداً فاعتلوا عليها عند الغلبة بكثرة عددهم وصفوف جيوشهم ثم تقول تلك الأمم أنفسها أيتها المرأة وبأبيها الرجل إياك أن تجتمعا اجتماعاً شرعياً فلا يكن عندك أيها الرجل منهن ثلاث أو أربع احذروا ذلك فانها عادة للتوحشين ولو صينت الأعراس وأقلت بيوت الحنا وقت أيها الرجل على امرأتك فأقتها وكسوتها ورحمتها ونحن نحرم عليك ذلك وعليك أيتها المرأة نحرمة

مهرما بانا ولكننا في الوقت نفسه نبيعه على سبيل الفجور والحنا فاجمع يارجل من شئت من النساء ولو ألفا مادام ذلك سفاحا وإياك أن تجتمعا اجتماعا شرعيا ولو أدى ذلك إلى حياة البنين والبنات وكثرة القواد وللؤلئين والعلماء وتكاثر النسل حتى يغلب العدو المفاجيء الدائم رضينا بالحنا رضينا بالثنا رضينا بقلة النسل وكثرة العقم رضينا أن يكون نسبتنا إلى عددنا العام كنسبة عدد الفرنسيين إلى الألمانين لما في الأولين من إهمال أمر الزواج وفي الآخرين من الحرص عليه وإنما علينا إذا حكنا أمة من الأمم ورأيناها تتكاثر ولادة بقوانين بلادها علينا أن نحدها وتنظير منها ونشفق ونسرمهم سوء العذاب ونوجس سرا من كثرة نسلها ونرسل رسلنا وطلائع استعمارنا ونصطفى الحكام من صفار النفوس للتواضعين ونوحى إليهم أن يقبوا لهم هذه الشريعة البيضاء سودوها في وجوههم افعوا أفتدتهم بالسوء والجدل والمناقشة وهوشوا عليهم لعنهم بجمعون عن التعدد بل لعنهم بزنون ولعله يقل نسلهم فتمكن من حكمهم كما قال هنري الفرنسي في كتابه عن الجزائر إذ قال :

[قعدنا لهؤلاء للسلمين كل مرصد وسددنا عليهم السبل وأحطناهم بسراديق من نار لعنهم يقولون فلم تقدر حتى الحمر سلطناها عليهم وهي السلاح القذ مخاربة الشرقيين فتمتة الاسلام أن يشرب جبه في قلوبهم أو يفتت أ كبادم فهم يتناسلون والفرنسيون لا يتناسلون] حارت والله تلك الأمم . حارت في محاربة النسل في الأمم للمستعمرة ، حسدوها على الفضيلة وعلى النسل وعلى السعادة ، ولقد أخبرني صديق أن إحدى الأمم لما رأت الزوج الإفريقيين والوثنيين يزوج الرجل نساء كثيرات وليس عليه إلا أن يجلس في خيمته طول نهاره يتمتع بما تسكب النساء له من كدهن وعملهن وهو قوى البنية ولا يصرفها إلا في إقبالهن وإبلاهن وإنجاب القرية فكفر النسل ولم يقدر الأوروبي أن يحاربه . ضربت الحكومة على الزوجين من هذا القبيل الحراج عسى أن يقل نسلهم فما أشأم هذا الإنسان « قتل الإنسان ما أ كفره - إن الإله ان لظلم كعاد - ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لهم يرجعون » .

(الدره) والله لقد شغيت صدري وأزلت الغمة وكشفت النقاب عن وجه الحقيقة الجليل . تمت الرسالة في صباح يوم الأحد ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١٤ في ميدان القلعة بالقاهرة ، ولما أضيفت هذه الرسالة إلى المودة تمت في يوم السبت ٢٢ مارس سنة ١٩٣٠ م و ٢١ شوال سنة ١٣٤٨ هـ بقسم السيدة زينب .

الإسلام وتعدد الزوجات

جاء في [مجلة الرشد] مانصه :

إن قوانين الاقتصار على زوجة واحدة أ كثررت فرائس المزوجة في القرب ، وزيادة عدد الإناث على الذكور أوقعت العقلاء في مشكلة ينادون منها بالويل والثبور ويطلبون الخلاص «ولات حين مناص» .

جاء في المجلد السابع من العرفان مانصه : إن عدد النساء في إيطاليا يزيد على عدد الرجال بمليون نسمة وفي ملزمة (٣٤) من [المهلال] في ضمن مقال بقلم (أميل زيدان) عن جريدة اللتان الافرنسية عن الأستاذ (بيتار) الطبيب الكبير الذي هو اليوم عضو مجلس النواب في فرنسا إنه يقول [إن في فرنسا الآن ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ فناة لن يجدن لمن أزواجا على اقتراض أن كل شاب افرنسي يزوج بفتاة واحدة . وفي أقول بصراحة ما أنا واثق من صحته أن المرأة لا تتمتع بصحة جيدة مالم تصبح أما ، وفي اعتقادي أن القانون الذي يحكم على تلك الفرقة الكبيرة بأن تعيش على تقيض ناموس الطيعة إنما هو قانون وحشي بل منافع لكل عدالة]

وفي م (٣٧) منه أيضا [يزيد عدد الإناث على الذكور في إنجلترا بمليون ونصف مليون ، أما زيادة الإناث على الذكور في ألمانيا فتبلغ مليونين ، ولكن هذا الفرق أقل من النسبة الحاضرة في عدد الزوجين ، ففي إنجلترا نحو ثلاثة أو أربعة ملايين فتاة غير متزوجة مع أنها في سن الزواج] وقال (شوبنور) الفيلسوف الألماني الشهير في رسالته [كلمة عن النساء] تعريب حسن رياض مانصه : [إن قوانين الزواج في أوروبا فاسدة البني بمساواتها للمرأة بالرجل فقد جاملتا تقتصر على زوجة واحدة فأفقدتنا نصف حقوقنا وضاعت علينا واجباتنا ، على أنها مادامت أبحاث للمرأة حقوقا مثل الرجل كان من اللازم أن تمنحها أيضا عقلا مثل عقله] إلى أن قال [ولا تعدم امرأة من الأمم التي تجيز تعدد الزوجات زوجا يشكفل بشئونها ، والزوجات عندنا نزر قليل وغيرهن لا يحصين عدا تراهن بغير كفيل بين بكر من الطبقات العليا قد شاخت وهي هامة متحصرة ومخلوقات ضعيفة من الطبقات السفلى يتجشمن الصعاب ويتحملن مشاق الأعمال وربما ابتذلن فيعشن تميمات مثلثبات بالحزى والعار ، ففي (مدينة لوندرة) وحدها ثمانون ألف بنت عمومية سفك دم شرفهن على مذبحه الزواج ضحية الاقتصار على زوجة واحدة ، ونتيجة تعنت السيدة الأوروبية وما تدعيه لنفسها من الأباطيل ، أما أن لنا أن بعد ذلك تعدد الزوجات حقيقة لتوع النساء بأسره إلى أن قال [على أنه من البعث الجدال في أمر تعدد الزوجات مادام منتشرا بيننا لا ينقصه غير قانون ونظام] أمعن النظر في هذه الفقرة ، إلى أن اعترف بقوله [بل إننا لا نكسر أننا في بعض أيماننا أو معظمها كلنا أو جلنا نتخذ كثيرا من النساء ، ومادام الرجل محتاجا لزوجات كثيرة يجب أن يكفل شئون هذه النساء] .

وعن مؤلف كتاب [المشقة الشرعية] الذي حاز سبق في مضمار الزواج في فرنسا وغيرها وطبع منه أكثر من (٥٠٠٠٠٠) نسخة [أنه ذهب إلى أن يكون لكل رجل إلى جانب زوجته خلية تكون لها صفة قانونية فلا تخضع ولا تختمن في نظر الشريعة أو في نظر الرأي العام . قال : هذا هو الأمر الواقع اليوم في آدابنا الاجتماعية ، ولم يبق علينا إلا أن نعترف بهذه الحالة وندخلها رسميا في عرفنا] . قلت من هذا نعلم أن القوم لا يأتون من تعدد الزوجات ومعترفون باباحته الشرعية ولكنهم يطالبون بقانون يبيح لهم جدان ذاقوا مرارة الاقتصار على زوجة واحدة ورأوا للفساد الناشئة منه كالتعدد غير المشروع وأمثاله . هذا ولا يخفى أن التعدد الذي يبيح الجاهلون اليوم قد أباحه بالأمس الصلح الكبير في النصرانية (لوتر) فسمح لأمبرالمان (هس) بأن يتزوج ثانية لأن امرأته كانت شوهاء ، (وادلورد السابع) وهو من علمت أصدر في أواخر أيامه منشورا يبيح فيه تعدد الزوجات ، وكانت أمه من قبيل معارضة لهذا الرأي أشد المعارضة ، وسيأتي يوم يدرك فيه الناس فوائد التعدد (١) فيميلون إليه مية واحدة ويعترفون بفضل القرآن الكريم . اه ما جاء في المحلة المذكورة .

في يوم الثلاثاء (١٤) يناير ١٩٣٠م سألتني أحد المدرسين بمدرسة عابدين الخيرية . فقال : قد حصل بيني وبين ناظر المدرسة جدال في أمر تعدد الزوجات ، وأن في الاسلام هذا ضد الدنية . قال وأنا أجبته بأن العدل

(١) من فوائد التعدد تكثير النسل وتقليل الزنا والتكفل بمن ليس لها كفيل والمحافظة على الأعراض عند ازدياد النساء وقلة الرجال ، وحفظ الزوجة الأولى لدى عقمها أو مرضها مثلا . وأما قول إن التعدد ينص العائلة فهو غير مقبول لأن قلب الرجل يسع التعدد سيما مع استعمال العدل المطلوب .

إذا لم يتم فإنه يتمتع التعدد بمقتضى الآية وهكذا . فقلت له أريد أن تسمع مني ما أقوله لك بعقلك وتتخلى عن كل ما لديك من الآراء المحفوظة وتغلى بيني وبين عقلك وحده . ثم لتكن حرا في أن تعترض بما تشاء والعقل هو الحكم . فقال أحب ذلك ، فقلت أولا إن هذا المقام مستوفى فيما تقدم قريبا ، فلندع هذا الآن ولأقل لك اعلم أن بنى آدم على وجه هذه الأرض قد وضع لهم نظام لاختلال فيه وهو أن يكون الذكور والإناث متساويين وهكذا كل حيوان لأن اختلاف العدد خلل في النظام ، ولذلك تجسد الناس في كل بقعة من بقاع الأرض يكادون يتساوون في عدد الرجال والنساء والذي يمنع هذه المساواة عوارض تعرض للحياة فتختل هذه الموازنة اختلالا يسيرا . قال نعم . قلت إن المسلمين أطلق لهم العنان فيما مضى فزوجوا ما يشاءون . أتندري ماذا حصل قال لا ، قلت لم يعدد من الرجال في الإسلام إلا (٣) في المائة أو (٥) في المائة ، وهذا القدر صغير جدا . قال نعم والله . قلت وهنا نسأل : إذا أراد رجل أن يتزوج امرأة في أى قطر من أقطار الإسلام فهل يجب امرأة يتزوجها مع هذا العدد ؟ قال نعم والله يجب ، قلت فهل جاء في تاريخ الأمم أن الناس بحثوا عن النساء فلم يجدوا لأن الآخرين قد استحوذوا عليهن . قال كلا ورب الكعبة . قلت إذن المسألة واضحة تساوى الرجال والنساء عددا ولكن قد يموت بعض الرجال في الحرب أو بالمرض أو لا يتزوج الآخر للفقر فيلهم الله بعض الأغنياء الأقوياء أن يتزوجوا بعض الباقيات . فقال هذا والله عجب ، فقلت إذن النوع الانساني اليوم مقلد كالطفل ، فلولا اتباع الانسان لتقاليد الجاهلة لم تبق النساء البائسات بلا أزواج في أمة من الأمم ، فالمسألة كلها مسألة القسيين الذين ملأوا الأمم صياحا والأمم لانفكر بل تتبع آراءهم ولا يفكر إلا العقول الكبيرة عندهم (كما تقدم قريبا) فالنوع الإنسانى اليوم لا يزال في حال المراهقة وسيأتى يوم يعرف الحقائق . فقال هذا والله حق وليس لى عليه رد . فقلت الحمد لله رب العالمين . تم الكلام على اللطيفة الأولى .

(اللطيفة الثانية : في معنى قوله تعالى «وخاتم النبيين»)

(الجواب الكافي)

وهو ما أجاب به (عبد الله كويليام) الانجليزى المهتدى للإسلام عن سؤال أحد علماء أوروبا في الشريعة المحمدية الغراء . وقد أتى في الجواب بالأدلة القنية والبراهين العقلية على أن الديانة الاسلامية أكمل الأديان وأرجح الشرائع وناسخة لجميع ما سبقها وأنه لن ينسخها شيء بعدها أبدا مادامت الأكوان وبقى الإنسان .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(السؤال) ماهو البرهان العقلى والدليل القنى على أن الشريعة المحمدية أفضل الشرائع وأكملها وأنها ناسخة لكل ما سلفها ولا ينسخها شيء بعدها أبدا ؟

(الجواب) لو أنعمنا النظر ذات ليلة (وكان الهواء صافيا والجو من النسيم خاليا) في الفضاء الذى لا يتناهى لرأينا لأول وهلة شموسا تدور حولها سيارات كثيرة كمنظومتنا الشمسية ، تظهر لأبصارنا من أبعد المواقع في هذا الفضاء تسير متفاداة كل الانقياد للقانون السنون لها لا تحيد عنه مادامت ، فإذا انقضت تلك الليلة نرى الشمس تطلع من الشرق . وما أسرع ما تنتشر أشعتها على هذا العالم فيتمثل بين تلك الأشعة صور متتالية بديعة الجمال ، ولو لفتنا النظر إلى الكرة الأرضية التى نحن عليها ، التى إذا نسبت إلى سائر الأجرام العلوية لاتسكون إلا كذرة صغيرة ، تراها كتلة تألفت من البحار والأنهار ، من الأودية والبراكين والجبال ، من الصحارى

والعوات ، من الأتربة والمعادن والرمال ، من الأشجار والأزهار والأثمار ، من النباتات والجمادات وذوى الحياة ، من الانسان والوحوش والحشرات .

وإن عقل البشر على ما بلغ من الارتقاء وما وصل من الدرجات العالية لعاجز عن اكتناء هذه الأجناس التي تألفت منها الكتلة الأرضية وما يتورها من الأشكال والهيئات وقاصر عن إدراك حقيقتها لما بين أشخاصها من الاختلاف وبين خواصها ونفعها وضررها من التباين والانحراف .

كثيرا ما يكون جو السماء صافيا ، والهواء راكدا ساكنا ، فيفاجئنا هبوب ريح شديدة تثير السحاب ثم تحيط بالأمطار حتى نظن أننا في وسط البحار ، وإذا بحثنا في هذه الحادثة الجوية ولخصناها ننظر على خصوصها بمقتضى القواعد الفنية نرى أن حرارة الشمس قد مست وتدخلت برطوبة الأرض فتجعل تلك الرطوبات بخارا ثم تتصاعد تلك الأبخرة إلى الجو كما هو شأنها وتجتمع وتتكاثف حتى تصير سحابة ثم تتحلل فتصير ماء وتساقط مطرا ، وأيضا لما كان في بعض ذلك السحاب بالضرورة كهربائية سالبة وفي البعض الآخر كهربائية موجبة كما هو الحال في سائر الأجسام يحصل في الهواء من احتكاك تلك السحب بعضها ببعض صوت يقال له الرعد ، ولا ريب أن الحكمة في هذه التحولات والتركيبات الجوية هي حصول المطر ليزدان الأرض وتنشط الحيوانات وتروى النباتات وبالإجمال لتحيى الأرض بعد موتها . ولو أردنا أن نبين ما في هذا الفضاء الذي لا نهاية له من العجائب والغرائب بيانا يشفى الصدور وتفصلها حق التفصيل لوجب علينا أن نغلا الأسفار . ولحرجنا عن بيان المقصد فيكفينا ما تقدم ذكره ، ولترجع إلى ما نحن بصدده ، ماذا يخطر لنا عند مشاهدة هذه الصنوعات بما فيها من عجائب الترتيب وبدائع النظام ، لا ريب أن أول ما نجد في نفوسنا هو الميل إلى البحث عن مظهرها من العدم إلى الوجود ، عمن جعلها متقادة وخاضعة للقوانين والسنن القطرية التي لا يعترها تغير ولا يشوبها خلل ولا تشويش ، عمن جعل كل فرد من أفراد هذه الكائنات مخصصا وممتازا بخاصة من الخواص وسر من الأسرار الطبيعية ، عمن يحفظ على هذه الكائنات تأثيراتها وتأثيراتها في كل آن وزمن . فإذا سرنا وراء تلك الخواطر القلبية وتأملناها كل التأمل ، فلا يحصى لنا من أن نصدق بالقلب والوجدان ونقر وننطق باللسان بأن ما نشاهده من العوالم وما لا نشاهده [وما لا نشاهده أكثر] ليست إلا آثارا للذات القدسة ، ألهي ذات واجب الوجود جلت قدرته وعظم سلطانه وأن هذا التصديق ينادينا نداء بليغا ظاهرا وباطنا بقوله : إن ظهورى بين هذه الكائنات بين ما لا نهاية له من الآيات البينات لدليل واضح على أننا من آثار قدرة ذلك القاطر العظيم ، وبراهين جلية على وجود الخلاق الذى يفعل ما يريد .

وبعد أن ندرك وجود ذات الواجب على هذه الصفة نجد بأنفسنا سائقا وجدانيا يسوقنا لمعرفة كيفية تكون الكرة الأرضية التي نحن عليها ، وهنا نحس أنه يجب أن نرجع إلى الفن فقط إذ الفن إنما هو قوانين وقواعد مستنبطة بالعقل للوهوب للانسان من القوانين التي اندمجت في هذه الكائنات . فإذا رجعنا إليه رأينا أن ما يوجد فيه من النظريات الفنية في تكون العالم ترشدنا إلى أن الخلاق الأزلى واللوجد الحقيق أوجد هذه الأرض من البخار فجعلها مائعا ناريا واستمرت أزمانا كثيرة على حالها هذا تنتشر حرارتها وكانت حرارتها تنقص زمانا بعد زمان وكما تناقصت الحرارة تبردت الأرض وكتابت بردت تكاثفت حتى حصل عليها قشرة وصارت صلبة على كر الأزمان ثم بدأ الخلق فيها فأول ما خلق النباتات ثم سائر المخلوقات وكان يعرض التبدل والتغير على النباتات والحيوانات على ممر العصور وتعاقب الأزمان ، فسكنا أن ازدياد تصاب الأرض يوما فيوما سبب انقاص الحرارة فكذلك تناقص الحرارة سبب لتغير القوة الانبائية . ولهذا التبدل والتغير تختلف أصول الخلقة والقوانين الطبيعية دائما . نعم إن هذه الدعوى صحيحة فانه كما أن حياة المخلوقات التي وجدت في بداية

تكون الأرض مستحيلة بعد مرور عصور وأزمان على تلك البداية فكذلك حياة ما وجد من المخلوقات في العصر البدائية خارجة عن حيز الامكان أيضاً بعد ذلك، فان ما يعيش في الماء من المخلوقات لا يعيش في التراب وما يعيش في التراب لا يعيش في السماء إذ ليس لها إلا ذلك الاستعداد وتلك القابلية التي وهبت لها . وخلاصة القول أن أشكال طبائع المخلوقات ومهاياها كانت ولا تزال تتغير بتغير الأزمان والأحوال والأمكنة .
ومما لامر به فيه أن المخلوقات بقسميها النامي والجماد خاضعة لناموس طبيعي في تكونها ونشؤها ونموها وتكاملها ويقائها وفنائها ، فلا يخطر بالبال أن ما يشاهد في الحلقة من التكامل آتى . كلاً (١) إن ما يحصل جميعه ليس إلا تدريجياً وتابعا لناموس التكامل السنون في هذا العالم ومع هذا فلا ريب في فناءه إذا بلغ الغاية في كماله لوجوب زوال كل شيء عند انتهائه . وفي هذا يقول الشاعر :

إذا تم أمر بدأ قصه ترقب زوالا إذا قيل تم

فالشرع يقول لهذا الزوال « القيامة » والحسكاه يعبرون عنه بالانقراض . ثم إن كل شيء إذا فنى وزال لا بد أن يتكون ثانياً إذ ليس هناك ما تنعدم أجزاءه كلياً فإنا نعلمه قد فنى وزال من المخلوقات إنما استحال شكله الأول وماهيته الأولى فيظهر في شكل آخر وماهيته أخرى . وأيضاً فإنه كما أن الأحوال الطبيعية التدريجية كالتسكون والنمو والمرض والموت تعرض للحيوان والنبات، فكذلك تعرض تلك الأحوال للأجرام السماوية وهذا الذي يقول له أرباب الفن ناموس التكامل وبالفرنسية « نه وولسيون » والانكليزية « نه ووليش » . وإلى هنا أكتفي بما ذكرته من اللقدمات لما للسائل الفاضل من التبحر وطول الباع فيها وما ذكرتها إلا لتوقف الجواب عليها فأرجع إلى المقصد وأقول .

إن ظهور الانسان في هذا العالم متأخر عن تكون سائر المخلوقات كما هو مشاهد لنا ومع هذا ينبغي أن لا يرتاب في أنه أشرفها وأفضلها خلقه وطبعاً مادة ومعنى، إذ أن قانون التكامل يقضى بأنه آتياً من حيث توجه الأشياء نحو الرقي إلى الكمال . فالانسان في الظاهر جرم صغير وفي الحقيقة عالم كبير . الانسان مهبط السجاياء القدسية وقطب الحصال البهيمية ومركز الخير والشر وقرارة الأُنس والوحشة ، فهو مجتمع الأصدقاء ومكمن القرائب، فهما كان الانسان مدنيا بطبعه لا بد أن تقضى عليه حيوانيته باتباعه القانون الطبيعي ضرورة فلا يقضى له أن يخرج نفسه من حضيض القلة والوحشية ودرك السفالة والجهالة إلى منصات العلم وذرى السعادة . على أن الانسان في بداية الحلقة كان كسائر الحيوانات والبهائم متوحشا يضرب في الأرض عارى الجسم مكتسباً ثياب القلة . الجهل رفيقه والهمى قائده . يتجول صباح مساء في الصحارى والقفار . لا يفقه من الحقائق شيئاً ، ولا يفرق بين القبيح والحسن وبين القث والسمين . تتجاذبه شهواته حيث توجهت فهو مغلوب لها خاضع لقيادتها . لا يعرف الليل إلا بغروب الشمس ولا النهار إلا بطلوعها ولا يدرك ما هو الأكل والشرب والنوم والقيام والعمود . كان يتجول في مواقع كثيرة وأمكنة متعددة من الأرض وهو لا يدرك أين يتجول وأين يوجد وما هي ذاته . نعم إنه كان يشاهد ما لا يقنأه ولا يحسد بالبصر من الصحارى والقفار والبحار وسائر الحيوانات والطيور لكنه لا يفرق بين الحيوان والنبات وبين النبات والجماد وبين الجماد والانسان . ترى هل كان الانسان إذ ذاك يتخيل شيئاً عند ما يرى ما تمثله الأجرام السماوية كل ليلة من الناظر العجيب والأشكال البديعة أو كان يلفت نظره ما يراه من صور القمر حينما يظهر هلالاً ثم يكون بدرًا ثم يتناقص حتى يمحى ثم رجوعه إلى منواله السابق أو كان يعمن نظره فيفكر في كسوف الشمس وخسوف القمر ؟ كلا . إنه لم يكن

(١) هذا هو مذهب النشوء وقد أبطله علماء القرن العشرين (انظره في أول سورة المؤمنون) .

يدور في خياله أو يخطر بباله شيء من ذلك . إذن ماذا كان يتصور الانسان ، وحول أي شيء كان يجول فكره ؟ إنه كان لا يفكر في شيء سوى أن يفترس كل ما يصادفه من الحيوانات الضعيفة ليدفع بها بلية جوعه وأن يهرب مما هو أقوى منه من الحيوانات لئلا يكون غذاء لها فيلتجئ إلى الكهوف والغارات ومقمرات الأشجار لينجو بنفسه منها ، ومع هذا لم يكن همه وفكره منحصرًا في ذلك بل كان لا ينسى أيضاً التعارف بين يلاقيه ليسكن شهوته إذا تارت عليه . وخلاصة القول أنه كان لا يتوانى في التوسل بما يفضى إلى قضاء حاجاته الحيوانية والشهوانية فكان لا يهجم عن قتل أخيه الشقيق في هذا السبيل . ليتختم إذن احتياج الانسان لقانون آخر غير القانون الطبيعي ليهتدى به إلى الصراط المستقيم في معاشه وبعون من الحلال نظام حياته ويسلك أعدل السبل في واجباته وكل شئونه ويعلم علو شرفه على سائر الحيوانات وبكأنه فضله فإن الانسان من حيث هو حيوان مبال بالضرورة لاتباع المهوى وترتيب للكائد والحيل والكذب والظلم والعدوان وغير ذلك من الأخلاق الذمومة ، فلو ترك الانسان وشأنه لبق حليف التوحش أليف الجهل ألد الأبدن ودهر الدهرين لكنه إذا وجد من يرشده إلى النافع والصواب في أمره ، لا ريب أنه يصعد إلى ذرى درجات المدنية لغلبة السجايا القدسية فيه على الطبايع البهيمية . إن كل ذى عقل سليم وفكر مستقيم يدرك مما سبق حتماً أن ما نشاهده في عصرنا من الترقيات العظيمة وما نراه يوماً فيوماً من الاكتشافات الجديدة ، وما نحمار فيه العقول من الاختراعات العجيبة ، وما امتاز به الانسان على غيره من إدراك آثار الصانع المختار البديعة لمو بقانون وراء القانون الطبيعي وبسائق غيره وهو الذي يقول له الحكماء [القانون المدني] ويسميه أهل الشرع (الدين) .

وقد اختار الحق تعالى أناساً [متصفين بوفرة العقل وجودة الفكر يفوقون معاصريهم بسلامة الفكر والتصور والمواطف الوجدانية واتباع الحق والتزام الحقيقة] ليؤسسوا هذا القانون المدني وينشروه بين البشر لحفظ سلامته وإقامة سعاده . هؤلاء الرجال هم الذين أرسدوا البشر إلى ما يوجب الزمان والسكان وتقتضيه المصلحة والحاجة ، هم الذين بلغوا بالبشر تدرجاً إلى ما نشاهده من الأحوال المستحسنة والأخلاق الفاضلة ، هم الذين أخرجوه من الوحشة إلى التمدن بقدر ما اخصوا به من الحس الصادق للتناسب باستعدادهم وما امتازوا به من القدرة . وبعبارة أخرى بقدر ما أوتوه من الوحي الإلهي والتور القدسي .

فهؤلاء الرجال هم الذين يقال لسكل واحد منهم « مؤسس المدينة » عند الحكماء ، ونبي لدى الشرائع والأديان ، ومن هذا يتضح أن الفن والشرع متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فالشرعية مجموع فنون كثيرة لا تخالف الفن بل الفن شعبة منها .

إن أول نبي أو مؤسس للمدينة أتى ليسوق البذر إلى نهج الهداية قد جعل فاعمة أعماله وبأكورة إرشاداته الأمر بستر الجسم والنهي عما كان عليه الإنسان من كشف البصرة وأكل كل ما يصادفه كسائر الحيوانات ، وقد جد في سبيله حتى تمكن أن يسن عادة التستر بين البشر ولو بأوراق الأشجار ويحصر الغذاء عليها فإن المجتمع البشري كان محروماً إذ ذاك من كل حاجات المدنية ولوازم الإنسانية ، فالمعامل مفقودة والصناعة والتجارة مجهولة ، فلم تكن الأقمشة والأصواف ولا شيء من المنسوجات ، ثم اتسعت الأفكار بمرور الزمان فوجد في الإنسان قابلية التعلم والتعليم واستعداد لمعرفة الأمور الحسنة ومنافعها ، فأتى النبي الثاني والعالم في حاجة شديدة إلى ظهوره فيوسع ما وضعه سلفه المحترم من القانون ويعلم البشر ما عجز عن إدراكه بعبارة أوسع من سابقتها فتوسع ساحة الإدراك حتى تصير أمة النبي الثاني نهزاً من الأمة السالفة كلها تذكرت وحشيتها وضيق إدراكها ، وهذا من أحكام التكاملات الأرضية والترقيات الزمانية فإنها تولد في الأفكار انتباهاً بين النبي

الثاني على تبليغ كثير من الأحكام وتلقين كثير من الحقائق التي لم يتسن تبليغها للسابق لعدم الاستعداد ، فإذا زاد توسع الأفكار على مرور الأزمان ينتظر ظهور نبي آخر ، فإذا أتى ذلك النبي سهل عليه تبليغ الأحكام التي لم يبلغها النبي السابق أيضا لضعف إدراك البشر حينئذ ، ومع هذا لم يكن مفقودا من له قابلية الأخذ واستعداد القبول لمسا آتى به النبي إلا أن هذا الفريق كان لا يجب دعوة النبي لعناده وتمرده جبا في البقاء على التوحش والمهمجية وهؤلاء هم الذين أطلقت عليهم الكتب المقدمة اسم الكفار ، ثم يفيض العالم نورا بظهور النبي الرابع فيقسم الحيوانات لما يركب وما يؤكل ويأمر بقتل المضر منها ويترك غيرها على حالها ، وعلى هذا للنوال قد جاءت أنبياء كثيرة ساروا بالبشر تدريجا إلى ما نراه من الترقيات العظيمة وقطع المراحل في سبيل المدنية الفاضلة ، ولما جاء موسى عليه السلام اتسع نطاق المدنية بالنسبة للأزمان العابرة وتكاثرت أفراد الجمعية للتمدنة ووجدت الصناعة والتجارة . وفي زمن عيسى عليه السلام تقدمت الجمعية تقدما يفوق ما قبله بالضرورة ، ويمكن أن يقال إن زمن هذين النبيين العظيمين كان متفوقا على أزمان سابقتهما ، وهذا التفوق لا يعط من قدر الأنبياء السابقين ولا من شرفهم لأن الأنبياء صلوات الله عليهم لم يكونوا يبلغون في زمن رسالتهم إلا ما كان ملائما لقول المرسل إليهم ، فإذا أهمل أحدهم الأمر بشيء أو النهى عنه ثم جاء نبي آخر وقرر فيه حكما فليس من الصواب أن يقال أن النبي الأول حرم ذلك الشيء أو حله . فإن قال قائل لماذا إذن ترك ذلك النبي ولم يشرع فيه حكما وإعلام يحمل ذلك أجنبناه بأن عدم تكلم النبي الأول في أمثال ذلك الشيء لا اشتغاله إذ ذلك بالأهم منه والأعظم نفعا [مثاله] أن عدم تحريم الخمر في زمان نبي وعدم النهى عن نكاح الأخت في زمان آخر لا يدلان على أن الخمر أحسن مباحة ، وأن نكاح الأخت جائز عندهما ، وإنما لم يرد النهى في ذلك لعدم استعداد القوى العقلية لأدراج مضرات تلك الأشياء ، فلو حرم شيء منها قبل وقته لنجم عنه فتن عظيمة ومنازعات طويلة ومقاتلات شديدة ولذلك لم تحرم ولم تمنع حينئذ ، فلا يفهم من هذا الكلام أننا نعتقد أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متساوون فضيلة وعرفانا ، فإن من الحقائق التي لا تنسك أن بعضهم مفضل على بعض حيث كان تجدد الزمان من العوامل في نمو وازدياد القوى المدركة ، فالتبلي للتأخر أعظم تكاملا من السابق وهذا قطعي لا سبيل للارتياب فيه ، وقد يقول بعض من استولى عليهم الوهم واستسلموا له [إن الحق والسذاجة التي عند البعض في عصرنا لمهي أعظم وأشد منها في بعض من كان في العصور الأولى] فيقال لهم [إن هذا صحيح ولكنه لا يقتض مدعانا فإن الحكم دائما يكون على الأغلب ، فاستيلاء التوحش على مدينة لا يقتضي عدم التمدن في إقليم آخر ، وارتقاء المدنية وعدم خلو إقليم منها في يومنا هذا هو ارتقاؤها من حيث العموم وإلا فليس المراد أن المدنية عممت كل مكان ولم يبق للتوحش أثر في كل الجهات ، فإنه لا يستبعد وجود من هو أغش توحشا ممن سبق في الأعصر الحالية] .

ولما تشرف العالم بظهور سيد البشر [الذي هو الوسيلة العظمى ، والواسطة الكبرى ، لارتقاء الإنسان إلى أعلى درجات المدنية] محمد صلى الله عليه وسلم أكمل للإنسان حاجاته الضرورية على نهج مشروع ، وما أسرع ما وصل به إلى أرفع مراتب السعادة ، إذ كل من ينم نظره ويحكم وجدانه فيما كان عليه الإنسان قبل بعثته صلى الله عليه وسلم من الضلالة والنوابة والسفاهة والجهالة ، ثم يتأمل في حال الإنسان وترقياته منذ البعثة لاشك أنه يرى ما بين الحالين من البون العظيم والفرق الذي لا يتأتى معه القياس والتقريب .

نعم ، إن محمدا صلى الله عليه وسلم قد عرف الناس بخالفهم وزجرهم عن عبادة الأوثان والشمس والنجوم والنار وما أشبه ذلك وهداهم إلى سبيل النجاة والقلاح ، وكانت دعوته باللطف واللين تارة والعنف والشدة أخرى حسب ما يقتضيه الحال حيث كان بعض الناس للعاندين يستعمل أنواع التهديد مرة ومحاربه أخرى ليثني

عزمه وبرجمه عن دعوته ، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يعامل بعضهم بالترغيب وبعضهم بالإرهاب والتخويف كما توجهه المصلحة ويتنضيه الحال . فما لبثت أنوار المدينة الإسلامية أن سطعت في جميع أنحاء العالم وأزاحت ظلمات التوحش عن كل ما وصلت إليه ، ولعمري إن انتشار تلك الأنوار بسرعة برقية وتكاثر أتباعها في أزمان قصيرة لما أدهش أولى الألباب ، وإذا بحثنا عن سر ذلك التقدم السريع والنجاح العاجل لآثرى له سببا إلا كون أوامر الإسلامية ونواهيها موافقة للعقل ومطابقة للحكمة ، فما هو القرآن المبين الذي كل كلمة منه عين الحكمة ، من يتم نظره في إعجازه وأسلوبه وبدائعه وأحكامه يرى نفسه مضطرا للحكم بأنه قد أنزل في يومنا هذا رغما عن نزوله قبل ثلاثة عشر عصرا فإنه بليغ معجز مع سهولته ومفيد لجميع ما يرمى إليه من المقاصد مع إعجازه ، وموافق لأسلوب كل زمان ، ومهما ارتفعت الكتابة وارتفع شأنها لا يزال في أعلى مراتبها ، يعلم ذلك كل من له دراية بالمزايا القرآنية ، وإنه كما أعجز البلغاء وتركهم يتبهون في مهامه الحيرة فكذلك قد جمع أسباب سعادة الدارين ، سعادة الدنيا والآخرة ، ولو بحثنا في الأحكام التي جاء بها وأدركنا ما فيها من النافع والحكم لوجدناه جامعا لكل ما يحتاج إليه البشر في بقاء حياته وتهذيب أخلاقه وبلوغه الكمال ، فهو يأمر بالأخلاق الحسنة والحصل العالية وبكل ما يكفل للبشر سعادته في الدنيا والآخرة ، وللبيان أذكر نبذة من أوامره :

يأمر بالعدل والتواضع وحسن العاشرة والتعاون وحسن الخلق وترك المرء ما لا يرضيه وقدر النعمة حق قدرها والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ذات البين والاحسان بالوالدين والترغيب في طلب العلم والسعي وراء المعيشة وعبادة المريض وقبول النصيحة والاعتراف بالجهل واحترام أهل العلم واتباع الحق والتأني في الأمور وملاطفة الأيتام ومجانبتهم وإعانة المحتاجين وحب الخير والشجاعة والعفو والاحسان والاعتناء بالطهارة والنظافة وإطاعة أولى الأمر وعدم اللبالة بالحياة الشخصية لأجل الحياة العمومية ، والحلم والصبر وعدم الغش وعدم الغدر والسخاء ومعرفة الحقوق والالتزام عند مشكلات الأمور ، والقناعة وحفظ الأمانة والتعلم والتعليم والاستقامة والعفة والصدق والبرورة وصفاء النية وعلو الهمة والاعتراف بالتقصير والاذعان للحق والانصاف والرافة وصيانة العرض والشرف والدلالة على الخير وفصل الدعوى ومجانبة الهزل والسعي لتهذيب النفس وصلة الرحم وحفظ المحبة والوفاء بالوعد وإيفاء الدين والشورى والتزام الحقيقة وتوقير الكبير والرافة بالصغير وغير ذلك من الأمور المستحسنة التي كل واحد منها ركن عظيم من أركان سعادة البشر .

وأما ما نهى عنه فهي الأفعال القبيحة والأخلاق السيئة التي قد ثبت بالتجارب العديدة أنها مضرّة بالإنسان ومفسدة لمعاشه ومعاده . ومن تلك النهيات الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا والظلم والظلم والكبر والحسد والبغض والحقد والحرم والكذب والغيبة والنميمة والرشوة وسوء النية وقتل النفس والعناد وعقوق الوالدين وإكثار الكلام فيما لا فائدة فيه والليل للقبائح والرياء والخبث وإعانة الظالم والحيلة والغرور والنصب وكنم شهادة الحق وشهادة الزور والتجسس وسوء الظن واليسر (لعب القمار) والتفاخر وتطفيف الكيل والميزان واحتكار الطعام وعدم إعانة المحتاجين وقطع المودة والتعادي والقذف في عرض الناس ونقض العهد وخلف الوعد .

وفي القرآن أحكام أخرى جليلة لا يمكن إنكار فوائدها : منها ما يتعلق بسياسة الملك والدولة وعمران البلاد ورقبها . ومنها ما يحفظ أمن الرعايا واستراحتهم ، ومنها ما يتعلق بتقسيم الموارث وإيتاء كل ذي حق حقه ، وفيه أحكام غير هذه لم تكن في غيره من الكتب النبوية ، وأن كل ذي عقل وإذعان يعلم أن أحكام الشريعة المحمدية واسعة بقدر سعة العقل وامتداد الفكر متكفلة بصيانة كل حقوق متبعيها أحياء وأمواتا .

وكم في القرآن من أحكام غامضة ومعان دقيقة ولما يكشف الفن نقابها رغما عما بلغه من الرقي ، ولم تستلفت تلك الأحكام أنظارنا فضلا عن إدراكنا، وسبب ذلك أن عقول البشر لم تزل غير كافية لفهمها حتى إذا ارتقت الأفكار وبلغت كمالها واتسعت العلوم والفنون ووصلت غايتها لا يرب أنها تنجلي أيضا [مثال ذلك] حركة الكرة الأرضية لم يتسن لنا إدراكها وثبوتها إلا لزمان قريب من زماننا . والقرآن للبين قد رفع حجاب هذه للسألة قبل ألف وثلاثمائة سنة ولكننا معشر الانسان لم نكن لتدرك تلك الحقيقة حتى كشفت بعد ما مضت عليها العصور وتعاقبت القرون .

وفي القرآن من أحكام حفظ الصحة ورعاية أسبابه، ومن أحوال الأمم الماضية وأخبارها ما يخول لنا الحكم عليه بأنه قانون طبي وكتاب تاريخي أيضا . فاذا قرأنا ما فيه من القصص والحكايات نشاهد أنه ذكرها بأدب أسلوب وأعلاء بلاغة وإعجازا وأنه يؤثر على نفوس البشر تأثيرا لا ينفك في الكتب الأخلاقية والتاريخية والروايات الأدبية سواء كتبت بالعربية أو التركية أو الافرنسية أو غيرها . وإنه يصور الحقائق بكلام موجز كأن تلك الحقيقة مشاهدة وملوسة وغير ذلك مما يعلن أن هذا الكلام العجز منزل من لدن حكيم عليم .

ثم إن جلّ للباحث القرآنية لم توجد في غيره من الكتب المقدسة وهذا أمر ضروري فان الانسان في تلك الأزمنة السابقة كان محتاجا لما هو أهم من هذه الأحكام بداهة ولم يكن من هم المرشد حينئذ أن يشتغل بتبليغ غير ذلك الأهم حتى إنه لو بلغ الأحكام التأخرة لم يكن ليفهمها أحد فتبليغها إذن عبث وأن كثيرا من اللطالِب الرفيعة والفنون العالية ذكرت في القرآن ولما تدركها العقول وستدركها مع ما حوتها من الأسرار على مرور العصور والأزمان . وقد ذكرت آتفا قاعدة تفيد أن قانون التكمال تدريجي ليس آتيا فيعلم بالضرورة أن القانون المذكور مفتقر إلى كتاب سماوي كالقرآن الحكيم إذ شريعة النبي الأول أتمت بشريعة الثاني وشريعة الثاني بشريعة الثالث وهكذا حتى جاءت شريعة موسى فأتمت بشريعة عيسى عليهم الصلاة والسلام ثم أتمت الشرائع السابقة كلها بشريعة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، وقد ظهر أن شريعة موسى عليه السلام أكل وأرجح مما سبقها وشريعة عيسى أكل من شريعة موسى عليهما السلام ، فلم يبق مجال للشك في أن الشريعة المحمدية أكل الشرائع السابقة وأنها ناسخة لها . فقد أتى الانجيل بأحكام جمّة لم تكن في التوراة حيث كان بعدها ولهذا كان الانجيل أرجح من التوراة، وللسبب عينه كان القرآن أرجح من الانجيل. فلو عكسنا القضية وزعمنا أن التوراة أرجح من الانجيل والانجيل أرجح من القرآن لملنا أنفسنا كلفة القول بأن عقل البشر قد أصيب برجة قهرية . وبهذا القول الذي لا يتفق مع المنطق تركب خطيئة لا تنفر ونظّم النوع البشري رغما عما يدعش أبصارنا وعقولنا من الترقيات الجديدة والاختراعات الحديثة . ولهذا الأسباب كلها كان التأخر ناسخا للتقدم . وبموجب هذه القاعدة كانت الشريعة المحمدية ناسخة لكل ما تقدمها من الشرائع ولن تنسخ بشريعة أخرى فهي باقية إلى الأبد . فان نسخ الشريعة بأخرى لم يكن إلا لأن أحكام الشريعة الأولى غير كافية لسد عوز البشر واحتياجاته التي يولدها الزمان وتزداد يوما فيوما . ومهما تكثرت حاجات الانسان وازدادت لوازمه فلا يحتاج إلى شريعة أوسع من الشريعة المحمدية .

قد ذكرت لك قسما من الأحكام القرآنية . ولو أنعمت فيها نظرك قليلا لرأيت أن حاجات الانسان ولوازمه الدنية مهما كثرت لا تخرج عن دائرة الأحكام القرآنية . فالقرآن كافل لكل احتياجات البشر في كل عصر . وأن العقل البشري مهما ارتقى وتكامل لا يمكنه أن يخرج عن حدود الأحكام التي اشتمل عليها القرآن فأصبح من الضروريات اللازمة التي لا يحصى للعقل عنها أن يتبع البشر الشريعة المحمدية الغراء في كل زمان ومكان .

وظهر مما قررناه آتفا ظهورا لا غبار عليه أن القرآن المبين قانون إلهي ونظام سماوي ومحكم أزلي لن ينسخ أبدا ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأن اتباعه في كل زمان والعمل به في كل مكان لهو السعادة والنجاة والقوز والفلاح ومخالفته لهي الذلة والمسكنة والحسران العظيم وأن من أتى به لهو خاتم الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » . انتهى بالحرف الواحد من [رسالة الجواب السكافي] لعبد الله كويلم التي ترجمها إلى العربية الأستاذ (زهدي الحفاس) أستاذ علوم الدين بالمدرسة السلطانية في (بيروت) .

ويحسن بنا أن نتم بما كتبه للترجم الفاضل ترجمة حياة المؤلف . قال :

﴿ نبذة من ترجمة المؤلف ﴾

هو عبد الله ويليم كويلم الانكليزي الهامى بالمهكمة العليا (بمدينة ليفربول) يبلغ من العمر نحواً من الخمس والخمسين (حينئذ) نحيف الجسم ربة وله ولدان اسم أحدهما بلال والآخر أحمد . نشأ الرجل بين التمدهين بمذهب (الويليان) وكان من رؤسائه وواعظا لشيعته ، كان يتنى بالعلوم الرياضية ، وله الباع الطويل فيها ، وفي سنة ١٨٨٣ ميلادية للواقعة لسنة ١٣٠٠ هجرية أصيب بمرض عضال جعله طريق الفراش نحو سنة ، فأوصاه الأطباء بالسفر إلى (أسبانيا الجنوبية) لتبديل الهواء فتوجه إلى (جبل طارق) ثم إلى (طنجة) وأقام حيناً من الزمان يشاهد محاسن الدين الاسلامي وصفاء المسلمين وإخلاصهم ويتعلم العقائد الاسلامية فكان يزداد بالاسلامية حبا وشغفا كلما ازداد علما . ولما رجع إلى بلاده أخذ نسخة من القرآن مترجمة للانكليزية فكان يقرؤها بتدبر وإيمان وقرأ كل ما يصل إليه من الكتب الاسلامية ، فلم علم اليقين أن الاسلاميه هي الشريعة الحققة التي لا شك فيها ولا ارتياب، ولم يجعل في اعتناقها بل أخذ يبحث في الشرائع الأخرى وذلك مما زاده إيمانا ويقينا ، فحسم على اعتناق الاسلاميه إلا أنه كان يحول بينه وبين ذلك كثرة العيال وما أهمه من الأشغال ، ولما تمكنت تلك العقيدة من نفسه وخالطت حلوة الايمان مجامع قلبه فآح أحد أصدقائه بما عزم عليه ، فأجابه ذلك الصديق [إن حكنت تأخف أن تعتقد بالتالوث وأزمنت على تركه فادخل في مذهب اللوحدين من النصارى] فقال له . كلا ! إنه يتخذ على الوقوف بمنتصف طريق التوحيد ولا بد لي من ترك النصرانية بتاتا ، فاعتنق الاسلاميه وأقر بالشهادتين ، وأفضى إسلامه بين أقربائه وذويه فسحروا منه وزعموا أنه مجنون ، ثم جعل ينظم أحوال معيشته على القواعد الاسلامية ، ولم يأل جهدا في دعوة بنى جلدته إلى طريق الهداية والسعادة إلى القوز الأبدى والفلاح السرمدي فهدى الله بدعوته من ألهمه الاجابة ؛ ولم يزل يشتغل بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ولما اجتمعت كلمته مع من تبعه اتخذوا لهم مسجدا لاقامة الصلوات الخمس والجمعة والعيدين وهو الآن شيخهم ومرشدهم ، ولما اتصل نبؤه بالخليفة الأعظم دعاه إليه وأناله من التفاته ماقرت به عينه وتلج صدره وقد اجتمع بمشاهير العلماء والأفاضل بدار السعادة ، فكل هنأ بما ناله من السعادة والمجد باهتدائه لهذا الدين المبين ، ثم رجع إلى بلده (ليفربول) ولم يزل عاكفا على الواجبات الدينية والشعائر الاسلامية . وقد ترجم محمود أسعد أفندي زيد فضله كتاب [دين الإسلام] للموسى إليه . فقال بعد ما ذكرنا من ترجمة حاله [وقد شاد للسلمون هناك مدرستين اسلاميتين إحداهما للذكور والأخرى للإناث يقبل فيهما كل من يأتي من أطفال المسلمين من الخارج بأجرته ، ولهم مجتمع منتظم فيه رئيس وأعضاء ولهم أئمة وخطباء ومؤذنون ، ويحتضنون

في كل سنة اجتماعا عموميا ينتخبون فيه من يستخدمونه في مصالحهم، وقسم الله أجمعين لما فيه الخير والصلاح،
إنه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير .

من آثار كونه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين (١) أن دين الإسلام لا يبيح أن يفضل أحد أحدا إلا بالتقوى ، أما الأنساب فلا . (٢) وأن أهل الديانات شربوا من منهل الإسلام فارتقوا ، وسترى مثل ذلك في [سيرة موسى بن ميمون] و [اعترافات جاسوس] أو [ثلاثون عاما في الإسلام] .
الإنسانية الآن جاهلة متعصبة لكل شيء حتى للون . ألم تر إلى ما جاء في جريدة الأهرام بتاريخ يوم
الثلاثاء ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٩ وهذا نصه :

معاملة الزوج في لندن

عاد المستر (ابوت) صاحب الجريدة اليومية في (شيكاغو) وهو زنجي واسع الثروة إلى الشكوى من معاملة
الإنكليز لغير البيض فأبرق إلى المستر (مرلي) العضو البرلماني يشتكى أنه منع هو وزوجه من حضور حفلة
على ظهر إحدى البواخر البريطانية في دعوتها إلى أمريكا . وقال المستر (مرلي) إن عددا معلوما من غير
البيض كلفوا أخيرا أن يخرجوا من حفلة راقصة في لندن فرفعوا شكواهم إلى (اللورد باسفيلد) وقد صمم المستر
(مرلي) أن يثير هذه المسألة في مجلس العموم . وقال إنه ورد عليه كتاب من (المستر مكدونلد) عن مسألة تحريم
الفنادق على المستر (ابوت) الصحفي الزنجي قال فيه مانصه : [إن هذا من الأمور الزعجة جدا ولا تتفق مع
العادات المرعية في الفنادق البريطانية ، ولكن لا أرى أية مصلحة من مصالح الحكومة مستولة عن هذا الأمر
ولست قادرا أن أجد أية طريقة تخول الحكومة حق التدخل] اهـ .

فأين النوع الإنساني الجاهل من قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا
وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقد أذن بلال في الكعبة بحضرة قريش عند فتوح مكة بل
أين هذا النوع الإنساني الكافر بالنعمة من النعجات والسكيات والثيران والحير فأنها تمشي معا ولا تبالى
باختلاف الألوان ، فإنا نرى الهرة والسكبة والنعجة والحمار والبقرة ذوات اللون الأبيض تصاحب القط
والسكب والحمار والحروف والثور ذا اللون الأسود أو الأحمر فلا ملازمة بين الألوان والأخلاق ، إذن هذا
الإنسان جهول كفار ، نسي القطرة فذكره الله بالإسلام وأصبح المسلم في مصر لا يفرق بين لون ولون
في صلته ومجالسه ، إذن النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين والإنسان جهول كفار ، وأما كون أهل
الديانات شربوا من منهل الإسلام وارتقوا فهالك منه مثلا وهو ما جاء في جريدة القطم تحت العنوان التالي
وها هو ذا .

موسى بن ميمون

(رسالة الحاخام الأكبر)

إنني مغتبط بأن أوفق الآن إلى تحقيق الرغبة التي أبداها أحد الأفاضل في القطم في الاطلاع على نبذة من
حياة موسى بن ميمون وسيرته وها أنا أبر بوعدي السابق موجزا مقالتي على قدر الاستطاعة ذلك لأن الشروع
في بحث أصله ونسبه يؤدي حتما إلى بحث حياته الشخصية وعلو أخلاقه ومكونات صدره وحدة ذهنه وعلومه

وأدائه ثم تأليفه وتأثير كل ذلك في الهيئة الاجتماعية وهذه كلها من الأمور التي يتمدر شرحها في مقال واحد مهما روعى الإيجاز والاختصار، فقد كتب عنه أكثر من مائة وخمسين عالما من إسرائيليين وغير إسرائيليين ولو جمعت كل الكتب التي أتى ذكره فيها لتألفت منها مكتبة كبيرة، ولذلك أترك جانباً كل ما يختص بالوجهة الإسرائيلية من تعالجه ومؤلفاته، وهذا ليس بالشيء القليل بالنسبة لما في علومه الدينية والفقهية من الأهمية، وأقتصر على الكلام عن المكانة العليا التي بلغ ذروتها في تاريخ الفلسفة ولاسيما تأثير الآداب الإسلامية فيه باتصاله بعلماء الإسلام المعاصرين له مكتفياً بذكر الدور العظيم الذي مثله هذا العالم الجليل في القاهرة مدة (٣٧) سنة بصفته حجة دينية ورئيساً روحياً للإسرائيليين وطبيباً في البلاط الأيوبي والمجتمع البشري.

﴿ أصله ونسبه ﴾

ولد أبو عمران موسى بن ميمون بن عبد الله يوم (٣٠) مارس (١١٣٥) م. في مدينة قرطبة عاصمة الأمويين بإسبانيا وتوفاه الله يوم (٢٠) ديسمبر ١٢٠٤ في مدينة القاهرة. وبعد أيام من وفاته نقل جثته إلى مدينة طبريا بفلسطين حيث دفن. وقد حفظت التقاليد الإسرائيلية أسماء أجداده حتى السابع منهم وأسماء ذريته حتى النسل السابع فيهم. وبين محفوظات الإسرائيليين الأثرية في القاهرة مخطوط على جانب عظيم من الأهمية كتب بالعبرية والعربية، وفيه ذكر لأحد أفراد ذريته من الجيل السابع يدعى داود ميموني كان كجده صاحب الترجمة رئيساً روحياً للطائفة الإسرائيلية في القاهرة سنة (١٤٠٤) م ويطلب على الظن أنه هو الذي قصد في أواخر حياته إلى دمشق الشام ليستوطنها مع عائلته.

وبعد ذلك تشتت تلك الدرية في أنحاء مختلفة. وقد ورد في التاريخ ذكر اسمين أحدهما عالم يدعى ميمون القاسي نسبة إلى فاس وذلك في سنة (١٤٣٨) والآخر في سنة (١٥٦٨) كان عائشاً في بلدة مورانو بإيطاليا ويكنى بالباز، وفي أيامنا هذه ترى عائلات إسرائيلية كثيرة من أصل إسباني تحمل هذا الاسم إلا أن كلمة الميموني لم تكن في الأصل اسماً لعائلة بل لشخص. فوالد صاحب الترجمة كان يدعى ميمون بن عباديا أمي عبد الله وكثيرون من إسرائيليين المغرب والجزائر يدعون بهذا الاسم كميمون الدهان وميمون البريلي. والثابت عن أسلاف الميموني أنهم كانوا قد رحلوا من مراكش إلى قرطبة مع غيرهم من الإسرائيليين، وكان ذلك في عصر الخليفة عبد الرحمن الثالث.

﴿ سباه ودروسه الابتدائية وأسفاره ﴾

تولى والده تربيته وتثقيفه وكان منذ حداثة يبت في نفسه محبة العلم، ثم سلم زمامه إلى أشهر الأساتذة في قرطبة. فكان يدرس أصول الدين الإسرائيلي على أساتذة إسرائيليين والعلوم على أساتذة مسلمين وكانت العربية والعبرية لسانه القويم. وعدا تعلقه من العلوم العبرية يدرس العلوم اليونانية والعربية والرياضيات والطبيبات والطب والفلسفة. على أنه لأسباب سياسية اضطر والده للهجرة مع أسرته فنادروا قرطبة أيام كان صاحب الترجمة في الثالثة عشرة من سنه. وبعد أن تجولوا مدة اثني عشر عاماً في مدن الأندلس عقدوا النية على التوطن في مدينة فاس سنة (١١٦٠) فقصدوا إليها وإذ لم يجدوا فيها راحتهم شددوا رحالهم إلى فلسطين ومنها إلى الإسكندرية حيث أقاموا شهوراً ثم جاءوا إلى القاهرة واستقروا فيها. وكان صاحبنا قد بلغ الثلاثين من سنه، على أن كل هذه الأسفار وما كان يتخللها من مشاق وأخطار فضلا عن العذاب اللادي والأدبي الذي كانوا عرضة له في كل آن. كل ذلك لم يوقف صاحب الترجمة عن متابعة سيره نحو النفاة العلية التي كان يسعى لها، غيانه من هذه الوجهة يحدر تشبيهاً بحياة ابن سينا، كما أنها من حيث الجهود والتأليف والشهرة

أشبهه شيء بحيلة الغزالي . وبالفعل أنه لم يبلغ العشرين من سنه إلا وكان قد ألف كتابا في التوفيق الفيلسفي وكتابا آخر دعاه مقالة في صناعة للنطق .

أما مؤلفاته العلمية فيمكن حصرها في ستة أقسام وهي :

- (١) علم التفسير .
- (٢) علم الفقه .
- (٣) علم الكلام .
- (٤) الفلسفة وعلم ما فوق الطبيعة .
- (٥) علم التصوف أو الأخلاق .
- (٦) الفتاوى والرسائل .

﴿ علم التفسير وعلم الفقه ﴾

لا تعرض لبحث مذهب في علم التفسير العربي لأن ذلك من الموضوعات التي تهتم رجال التفسير الاسرائيليين دون سواهم ، إلا إنه لامندوحة من القول إنه ألزم في كل تأليفه خطة الوضوح والدقة في التفسير وهي الخطة التي ينبغي أن تتوافر شروطها في علم العقليات . أما فيما يختص بعلم الفقه فيوسعنا أن نقول إنه كان أول مهندس شرعي فكر في ترتيب وتبويب جميع أقسام التشريع الاسرائيلي وقد كانت حينذاك مبهمه ومختلطة بموضوعات أخرى لاعلاقة لها بالتشريع وواردة في التلمود ، وهو سفر مؤلف من ستين جزءا عدا التفسيرات الكثيرة ، فقد كان كالمهندس يبدأ بوضع رسم البناء ثم يقسمه إلى طبقات ومساكن وغرف بحيث يتيسر للزائر الدخول والمخروج من غير صعوبة . وكانت هذه خطته في تأليف كتابه الشهير للمروف باسم [اليد القوية] وهو مؤلف من ١٤ جزءا ويقسم إلى فصول وبنود وأبواب ، ولتفازرة مادته وتضلعه في جميع العلوم واكتسابه شهرة عظمى لقب بالنور العربي والنسر الأكبر كما لقب الغزالي بحجة الإسلام . والآن نترح للقارىء السلم الكبير مكانة هذا العالم الكبير فيما يختص بعلمه الدينية والفلسفية والأخلاقية .

﴿ علومه الدينية وفلسفته ﴾

إن هذه العلوم مع شدة اتصالها بعلم التفسير مرتبطة به كل الارتباط لأنها ترجع في أحكامها وأدلتها إلى النصوص المقدسة . فانك تجد في كتاب [أنوار التنزيل في أسرار التأويل] لليضاوى البادى الدينية كما تجد مبادئ الزمخشري في كتاب الكشاف فيما يختص بالعلوم الدينية والفلسفية والعقلية ، وتعلم أيضا من أبحاثه في كتابه [دلائل الحارثين] أنه وقف على أسرار فلسفة أفلاطون وأرسطوطاليس وعلى علوم الصوفية وإخوان الصفا وأصحاب العدل والتوحيد ، وأنه لم يخف عليه شيء من مبادئ هذه الفرق . وإذا تراء يذكر الزمخشري فلا بد من الاعتراف بأنه كان مطلعا على كل الاطلاع على كتاب [للل والنحل] كذلك في كتبه التي بحث فيها عن العزلة ومؤسستها واصل بن عطاء . ومن الأمور التي تستوقف الأنظار وجود شبه كافي بين مؤلفاته ومؤلفات الغزالي من حيث الأسماء والموضوعات . ففي كتابه [مقالة في التوحيد] نجد شبا بينه وبين كتاب [العقيدة] وكتابه [دلالة الحارثين] كثير الشبه بكتاب [المنقذ من الضلال] وكذا مقالاته في الأخلاق . انتهى الكلام على موسى بن ميمون .



أما ماجاء في مجلة [الرشد] فهذا نصه :

اعترافات جاسوس

أو

(ثلاثون عاما في الإسلام)

ندبت الحكومة الفرنسية في القرن الماضي المسيو (ليون روش) ليكون جاسوسا على الأمير عبدالقادر الجزائري وأوعزت إليه أن يتظاهر عنده بالإسلام وأن يتوصل إلى أن يكون موضع ثقته ومحل أماته، ففعل ذلك ونجح وأقام في ديار المسلمين ثلاثين عاما تعلم في أثنائها اللغة العربية وفنونها والإسلام وعلومه ، واختبر الأوطان الإسلامية المهمة (الجزائر وتونس ومصر والحجاز والقسطنطينية) ثم ألف كتابا اسمه (ثلاثون عاما في الإسلام) قال فيه مانصه :

اعتنقت دين الإسلام زمنا طويلا لأدخل عند الأمير عبد القادر دسيسة من قبل فرنسا وقد نجحت في الحيلة فوثق بي الأمير وثوقا تاما واتخذني سكرتيرا له ، فوجدت هذا الدين (الذي يعيه الكثيرون منا) أفضل دين عرفته ، فهو دين إنساني طبيعي اقتصادي أدبي ، ولم أذكر شيئا من قوانيننا الوضعية إلا وجدته مشروعا فيه ، بل إنني عدت إلى الشريعة التي يسميها (جون سيمون) الشريعة الطبيعية فوجدتها كأنها أخذت عن الشريعة الإسلامية أخذا ، ثم بحثت عن تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالا وكرما ، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به من الفلاسفة من نفوس الخيروالرحمة والمعروف في عالم لا يعرف الشر واللعو والكذب ، فالمسلم بسيط لا يظن بأحد سوا ، ثم هو لا يستحل محرما في طلب الرزق ، ولذلك كان أقل مالا من الاسرائيليين ومن بعض المسيحيين ، ولقد وجدت في الاسلام حل للمسألين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طرا : الأولى في قول القرآن « إنما للؤمنون إخوة » فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية . والثانية في فرض الزكاة على كل ذي مال ونحويل الفقراء حق أخذها غصبا إن امتنع الأغنياء عن دفعها طوعا وهذا دواء الفوضوية .

إن الاسلام دين المحامد والفضائل ، ولو أنه وجد رجالا يطمونه الناس حق التعليم ويضرونه تمام التضوير لكان المسلمون اليوم أرق العالمين وأسبقهم في كل الليادين، ولكن وجد بينهم شيوخ محرفون كله ويمسخون جهاه ويدخلون عليه مالميس منه . وإني تمكنت من استغواء بعض هؤلاء الشيوخ في القيروان والاسكندرية ومكة فكتبوا إلى المسلمين في الجزائر يفتونهم بوجوب الطاعة للفرنسيين وبأن لا ينزعوا إلى الثورة وبأن فرنسا خير دولة أخرجت للناس . وكل ذلك لم يكلفني غير الآنية الذهبية اه .

﴿ جوهرة في قوله تعالى «ولكن رسول الله وخاتم النبيين» مع قوله فيماني « يا أيها النبي

إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا » ﴾

أقول : ومن شأن الدراج للنير وهو الشمس أن تم أشعتها ، ويضم إلى ذلك آية « يا أيها النبي إنا أحلنا لك أزواجك » الخ وإنما جعلنا هذه الجوهرة مشتركة في هذين الموضوعين موضوع عموم شريعت

وجواز تعدد زوجاته فوق الأربعة لأن ذلك كله جاء في المقال الذى عنوانه بهذه الجوهرة من كتاب العلامة (الكونت هنرى دى كاسترى) المسمى [الاسلام . خراطير وسوانح] قال تحت عنوان الفصل السادس مانصه :

(انتشار الإسلام أيام الفتوحات العربية)

تخطيط ممالك الاسلام . انتشاره في أفريقيا الوسطى . تجار المسلمين ومستكشفو الأوروبوا وبين .
الاسلام في مبدئه وبعد ذلك . أسباب الانتشار . المرسلون للمسلمون . الفولبوسيون والحواصة
أسباب انتشار الاسلام الإلهية

قد كشفنا العطاء عن العطل التي انحلوها سببا في انتشار الاسلام انتشارا عظيما وبيننا فسادها ووعدنا بيان الأسباب الحقيقية عند البحث عن تقدمه في هذه الأزمان لأننا نعتقد أن استطلاع حال هذا الدين في العصر الحاضر لا يبقى أثرا لما زعموه من أنه إنما انتشر بعد الحسام كافتدناه من قبل ، ولو كان دين محمد صلى الله عليه وسلم انتشر بالنعف والإجبار للزم أن يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين مع أننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه في جميع أرجاء المسكونة وهذه الحركة المستمرة في هذه الأيام تحمل على الاعتقاد بأن الاسلام هو الدين الذي جاء موافقا لطبيعة البشر . وظن آخرون بأن الاسلام كان تابعا لتمدن العرب وحضارة الخلفاء التي كانت تأخذ بالنفوس في دمشق وقرطبة وبغداد وأنه انقضى بانقضاء ذلك قال (بارتلى سانت هيلير) ما عاد أحد من الناس يمتنق الاسلام . والواقع أنهم أخطأوا في معرفة حقيقة الأمرين : انتشار الاسلام وتمدن العرب . فأما التمدن فهو أمر يعتبر لغوا في الاسلام أو هو تقيض له وعلى كل حال فهو عارض فيه وساعدت الظروف على نموه بجانب القرآن ولو أنه استمر لأطفأ نور دين النبي العربي بسقوط الأمراء في مهواة عدم التصديق وقلة الإيمان وانحياز الأمة إلى عالم التخيل والأوهام . وبيننا كان هذا حال مدن الخلفاء الآهله بالعمران فلا تخصى شعراؤها ولا تعد الأدباء ، وفيها الفلاسفة يتناظرون والعلماء في المعارف يتناقشون كانت صحارى العرب وليبيا وأفريقيا محتفظة على الدين الاسلامى في كلاله الأصلى ولم تمسه فيها يد أجنبي عن تعالجه أو خارج عن شراعه ، هنالك كان منبع رسل ذلك الدين الذين انتشروا في الأصقاع كما تدل عليه قبورهم البيضاء التي نشاهدنا الآن في أفريقيا الشمالية .

وسنحصر كلامنا في انتشار القرآن على قارة أفريقيا وإنما نذكر على سبيل العرض أن له في الصين عشرين مليونا (١) من النفوس وأن للمسلمين ويقال لهم عندهم (هوى هوى) منزلة عليية في الملكة الوسطى قال موسيو (وأزيليف) وهو من الذين اشتغلوا بالاسلام في تلك النواحي أن مصيره القيام مقام مذهب (ساكيامونى) (٢) وأن لمسى الملكة السماوية اعتقادا جازما بأن الاسلام لا بد أن يسود حتى يزول به تلك الديانة القديمة البودية وهي مسئلة من أهم المسائل إذ الصين أهلة بثلاث العالم أو تزيد ، فلو صاروا كلهم

(١) كلا . بل م ٧٠ مليوناً الآن (طنطاوى جوهرى) .

(٢) هو أحد ملوك الصين ، تخلى عن الناس في التاسعة والعشرين من عمره وعكف على العلوم حتى برع فيها ومضى نفسه (بودا) ومعناه العالم أولالتور ، ووضع المذهب الذى اتخذته الصين والهند دينا وكان ظهوره في القرن الحادى عشر قبل المسيح ، وقيل في القرن السابع وهو الأرجح .

مسلمين لأوجب ذلك تميرا عظيما في حالة تلك البلاد بأجمعها فيمتد شرع محمد من جبل طارق إلى المحيط الأبر الهادي ويغشى على الدين المسيحي مرة أخرى ، ومعلوم أن أمة الصين عاملة وإن هدأت أخلاقها وجميع الأمم تستفيد الآن من عملها فلو جاءها التعصب الاسلامي ذو البأس القوي لحثيث بقية الأمم من السقوط تحت سلطانها (١) وقال موسيو (مونظيط) لقد صار من المحقق أن الاسلام ظافر لامحالة على غيره من الأديان التي تتنازع البلاد الصينية (٢) والاسلام قليل في أوروبا ومع ذلك نراه في شمال تركيا ليطنوية وهو أيضا في أمريكا حيث أدخله الزنوج وغيرهم إلا أن أفريقيا لا تزال بلده للمصطفاة فهو فيها كالديانة المسيحية في أوروبا قال موسيو (بولنيك) يسكن المسلمون جميع الشواطئ من (سياراليون) إلى موزنبيق البرتغالية مارا بمراكش وولايات البربر (الغارية) وقنال السويس ، وأما في الوسط فيمتد الاسلام من البحر الأحمر إلى المحيط الاطلنطقي ومنه إلى البحر الأبيض للتوسط إلى الدرجة السادسة من العرض الشمالي وتقدم أنه في الساحل يمتد إلى موزنبيق البرتغالية، أعنى أنه يقرب من الدرجة العاشرة من العرض الجنوبي وفي (مدغسكر) كثير من المسلمين حتى إن بعض المستشرقين ذهبوا إلى أن اسم الجزيرة (مدغسكر) أصله مأخوذ عن العرب قال موسيو (مونظيط) وأكثر انتشار الاسلام في أفريقيا فهو يتقدم فيها تقدما سريعا وينجح نجاحا كبيرا لأن أزر المسلمين فيها مشدود بما لهم من المسكنة في الجهة الشمالية وهم آمنون على سلطتهم الدينية في تلك البقاع التي تضيء في الصحراء حتى تبلغ بلاد السودان الواسعة فلا ينازع الدين الاسلامي دين غيره لذلك يكثر عددهم وينمو الدين على الدوام .

وقد تخطى سيره السودان واشرب نحو أرجاء خط الاستواء وكان له مقر يقرب من أملاك فرنسا في بلاد النيجر لذلك عرفه ضباط الطلائع وإن كانت معرفة سطحية ولكننا لم نقف على سيره تماما إلا عندما استولينا على الكونغو وشاهدنا القوافل الاسلامية تهرب أمامنا كمن يريد أن يخفي سرا عن أجنبي ، والمسلمون اليوم محصورون بين أملاكنا في شمال أفريقيا ومراكزنا في الكونغو وسنغال حتى كأنهم في قراصة نشدها أو نفعس فيها حسب ما تقتضيه سياستنا .

ولانتشار الاسلام في وسط أفريقيا منبعان الأول في الغرب وهو قديم امتد أثره إلى الشاطئ الاطلنطقي حيث دخل القرآن واعتقده سكان تلك الجهات ولكنه انتهى أمام تقدم الفرنسيين من ناحية سنغال إلى بلاد النيجر ولم يزل ينثى آنا فأنا حتى خرج من (تنيكتو) وهي منبعه الأصلي إلى (سقطو) ومنها إلى (كانو) ثم إلى (كوكا) والظاهر أنه استقر فيها ، وأما النبع الثاني ففي الشرق وهو حديث العهد ويصل أثره بين (وادي) ودارفور بمحركين هما للهدى ورئيس الطائفة السنوسية ويفصل بين هذين النبعين أنهار (شاد) و (اشاري) و (لوغوني) الجنوبية وأهل الشرق أهل حروب متعصبون أمام قوم الغرب فيميلون إلى التجارة والسلمة ، وكان الفريقان يتقدمان بالاسلام بين الوثنيين المجاورين لهم على امتداد اثني عشر ألف كيلومتر حتى تلاقوا بالفرنسيين قبيل الكونغو نواحي نهر شاد فلم تقم أعينهم لهذه اللقيا لأنهم كانوا هجروا البلاد التي هاجمها الكفار وظنوا أنهم يأمنون لقاءهم في الجنود فلا يجحدون غير الوثنيين ممن لم يعرفوا للأوروبيين خيرا ،

(١) راجع كتاب موسيو دابري للسمى الديانة الحممدية في الصين وتركستان الشرقية للطبع في باريس

سنة ١٨٧٨

(٢) راجع مجلة تاريخ الديانات في شهر مايو ويونيو سنة ١٨٨٣

ويقال إن الأوروبين الذين التقوا معهم أتوا من أقطار بعيدة في الجنوب حيث تمت لهم فيها السيادة ولهم
جهاً مركباً ومدركات تروح وتغدو في أثمار واسعة تجري من الشرق إلى الغرب .

ومن الأمور ذات الأهمية الكبرى بالنظر إلى انتشار الإسلام توسط الأوروبين في أفريقيا وحولهم
في نهر الكونغو، لأنهم بذلك قسموا القارة الأفريقية من طرف إلى طرف وربما يخشى على حركة الإسلام الذي
كان يمتد رويداً رويداً معطشاً من الشمال إلى الجنوب كما يخشى على التجارة التي كانت تروح وتغدو مع القوافل
الإسلامية فيتمكس مجراها فتميل إلى الغرب نحو نهر الكونغو لذلك اشتغل رؤساء المسلمين بهذا الأمر اشتغالا
لا مزيد عليه حذراً من انقلاب الحال في تلك البلاد ، وقد يفيد التأمل أن يعرف كيف كانت نتائج مقابلة
الأوروبين القادمين من جبهة الكونغو مع المسلمين النازلين من السودان لولا أن هذا البحث يعيدنا عن
مقصدنا فلتقتصر على البحث عن العلة في حياة الدين الإسلامي تلك الحياة القوية وما السبب في انتشاره هذا
الاتشار العجيب .

وهنا يجب البحث فيما إذا كان الإسلام ديناً عمومياً بطبيعته أو هو دين خاص بأمة من الأمم وهو بحث طرق
بابه من قبل (موسيو كينان) والجواب عليه صريح لا شك فيه من الجهة العلمية فالإسلام دين عام بغير شبهة
لأننا نشاهد للمسلمين في كل أمة على اختلاف الأجناس والبلدان، فمنهم الشرقي والشرقي والهندي والمهمدي
والترنجي ، ببق علينا أن نعرف مع (موسيو كينان) إن كانت هذه الحالة العمومية ناشئة من طبيعة الدين أو
متولدة من أسباب أخرى وهو يرى أن الأمة العربية ليست مهددة الطبيعي وإنما هو ينتهي إليها وليس في طبيعة
هذا الدين أنه دين عمومي وهو قيد ناشئ عن نظر في الموضوع من إحدى جهاته فقط لأن الدين الإسلامي
الذي منشؤه القرآن والسنة هو الذي تولد عنه ذلك الإسلام الذي يعترف المؤلف للشار إليه بأنه دين عام، لا محالة
انتقاله من حالته الأولى إلى الثانية حصل تدريجاً بطريقة يتعذر ضبطها وذلك بتأثير الزمان والأمم المختلفة التي
اعتنقت به حيث تعمس التفريق بين تقدير تأثيره من حيث هو في أصله وتأثيره بعد أن صار كما نراه في هذه
الأيام فلا يفتن (موسيو كينان) إذا حذفت تقسيمه الإسلام إلى أولى ولاحق وقلت فيه كله كما قال في كتابه
إنه دين عمومي على أن الانتقال من حالة أولية إلى غيرها ليس عرضاً خاصاً بالدين المهمدي بل تشترك فيه
جميع الأديان .

فما يرمى إلى حالة الإسلام الحالية انتشار مذهب الزهد والاعتقاد بالأولياء وبعض الأموات وكثير من
التعبات الأخرى ، وسببه أن للرء طماع في الدين بأصل الخلقه ولكل أمل خاص ومن هنا تولدت تلك
الذاهب والأفكار إرضاء لشهوات تشتد ظهوراً كلما تقدم العهد عليها ولم ينبج الإسلام من لوازم هذه الضرورة
بل خضع إليها وأداها حقها وهذا من أكبر أسباب تقدمه ولكنه أيضاً سبب من أسباب تناقضه لأن تلك
للذاهب تخالف مبداءه، ولقد تجرد النفوس التي رفضت أعنتها إلى السماء ومالت إلى التجرد عن الحواس ورغبت
في مشاهدة الحضرة الربانية طريقاً مسلوكة في مذهب التصوف يسهل عليها النسك والتعبد وقلما يلوهم بعض
المقشدين من الطماء وإن كان الزهد بهذه الصفة أي الاعتقاد بالوصلة بين العبد والله مما يخالف مذهب التوحيد
ومن الناس من يرى نفسه بعيداً عن ربه فلا يستطيع أن يرفع دعائه إليه وهو في بعض الأحيان يغرير
كقوله إلهي ارزقني من الأبناء ذكورا ولا تجعل ماشيق تلد إلا إناثا ومثل تلك الأفهام وجد في الإسلام
مذهب الواسلين والذين صار يدمم توزيع كثير من اللبرات في اعتماد العامة وإلهم مار يرحل الجمع العديد
من القوم الذين ضلوا سواء السبيل فيجتمع إليهم قطاع الطريق والشحاذون والنسوة العاقرات وشبان
يريدون الثروة أو الجاه وشيوخ ضب عود قوامهم مع أننا لو رجعنا إلى القرآن لرأينا التصديق بالأولياء غير

شرعى ولو وجدنا أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم الاعتقاد بهم « والذين أخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون » والواقع أن الاسلام في مبدأ ظهوره ما كان يقبل غير الاعتقاد بالله الواحد الأحد، وقد بقى هذا المذهب كما بدأ فهو اليوم جامعة تلك المذاهب وإليه ينتهى كل اعتقاد .

ومن مزايا الاسلام أنه دين رحيم، فهو يعد الجنة والنعم لكل مؤمن من دون تمييز على التقريب، فالهارب يموت شهيدا والعالم يكتبنى بتلاوة القرآن والائتان مقبولان عند الله وللفقير مكان على وللغنى درجة رفيعة . ولقد كان فكر النبي في الألوهية من أرفع الأفكار وأسامها ولكنه تساهل كثيرا في تقدير الإنسانية لذلك تسامح الناس كثيرا في رغباتهم وما كانوا إليه يميلون . نعم يجب على الرجل أن يعتقد ويعبد الله ولكن لا يجب عليه أن يحارب نفسه ويعذبها العذاب الأليم ليقهرها إذ لا ينبغي له أن يطلب لنفسه الكمال وإن يصل إليه لأن من أراد الكمال فكأنه أراد أن يساوى الإله في جلاله وهو أسوأ الأعمال وأخبت الرغبات وكان رسول الله يعيل إلى بعض ما يعيل الناس إليه من التشبهات فكان يقول على أسلوب بسيط « حيب إلى من دنياكم ثلاث النساء وطيب وقرة عيني في الصلاة » ولقد يصر الجمع بين هذا التفضيل وبين الليل إلى النساء حتى يكاد العقل أن يرى في الأمر تهكما ، ولكن هذه الجملة لا تحتوى في الحقيقة على معنى حتى بل ما يفهم من لفظها هو الذى قصد منها، ومن وعها فقد عرف الاسلام كما ينبغي وقد ورث المسلمون عن نبيهم ميلهم إلى ما كان يعيل إليه فللصلاة في قلوبهم منزلة سامية وليس التعبد بها عندهم خاصا بالنساء والأطفال كما هو عند المسيحيين بل هي مزية من مزايا الرجال وإحدى جهات فضاهم على النساء ولا يواظب عليها الصبي أو المرأة إلا نادرا لاعتبارها عند المسلمين من أعظم الأمور التى تلزم فيها صفات الرجل التام^(١)

ومع ذلك فمن الشهوات ما نهى النبي عنه وأمر بجاهدة النفس فيه، فقد حرم على المسلمين شرب الخمر وكل شراب يؤثر مثله ، وقد بالغ المسلمون في العمل بهذا النهى فكان من وراء ذلك أن نجت الأمم الاسلامية من مرض السكرات وهي الداهية التى تفجع اليوم أما كثيرة من المسيحيين وكانت إحدى الأسباب في اضطراب المجتمع الانسانى وظهور مذهب الفوضويين مما تجهله الأمم الاسلامية .

هكذا جذب الاسلام فيما عظميا من العالم بما أودع فيه من إعلاء شأن النفس بتصور الذات الإلهية على صفات فوق صفات البشر تذكرها خمس صلوات في كل يوم وبما اشتمل عليه من الترفق بطبيعة البشر حيث أتاح للناس شيئا مما يشتهون، وأعظم عامل في انتشار الاسلام خصوصا عند الأمم الزنجية (السود) بساطة منجبه وسذاجة تعاليمه وهو سبب موجود في القرآن نفسه، فهو بذلك يلائم طباع الهمج كثيرا الذين لم يعرفوا ديننا من قبل ذلك . ديننا لأسرار فيه ولكنه أى كلمة الشهادة يتناض عنها عند الاحتضار بإشارة تدل عليها كرفع السبابة إلى السماء إشارة إلى وحدانية الله تعالى، فكلما وجد الرجل الجاهلى أمامه دينين متحدين في حقيقتين وحدانية الله وخلود الروح وهما الاسلام ودين عيسى تراهم يختار الدين الذى لا يزيد شيئا عن دينك الحقيقتين ويعتق الاسلام بالإحالة وهى قوة يفضل بها القرآن الديانة المسيحية في الانتشار وكانت معروفة عند القرن السابع عشر لذلك تقرأ في كتاب القس (مارانى) الذى سماه (الرد على القرآن) [ولا يفتين عن ذهن القارىء أن تلك الطائفة الشريرة أو المنرفة أو ماتشاء من الأسماء لا تزال حافظة لكل ما في الدين المسيحى من الأمور الظاهرة والوضوح القرينة التصديق مضافا إليه ما يوافق نظام الكون وقانون النشأة الدنيوية ، فقد أجد عنه

أحاجي الأنجيل التي نغالبها في أول الأمر غير صحيحة لاتدركها العقول؛ كما أنه جرد تعالجه من كل قاعدة يشد بها الخناق على البشر مما جاء في ذلك الكتاب وبهذه الوساطة تمكن من رفع العقبتين اللتين يحس كل واحد منا بأنهما الحاجز بينه وبين الدين الحق الصحيح وهما عقبة الروح وعقبة الجسم وهذا هو السبب في أن الوثنيين الذين يريدون ترك دينهم في أيامنا هذه يتناضون عنه بالاسلام دون الديانة المسيحية .

بقي علينا أن نستقصى الأسباب والوسائل المستعملة الآن لانتشار الإسلام، وهنا أيضا نجد سببا عظيما من أسباب انتشار القرآن فرفضوا راية الإسلام هم في العادة تجار بلد واحد تضافروا على جلب الرزق من بلاد قاصية فالبشر الاسلامي [وللاحظ أن هذا الاسم غير صحيح عند اللسليين إذ ليس لدينهم مبشرون منقطمون لهذا الأمر كالسليين] لا يوجب عند الأمم الجاهلية خوفا منه ولا فرقا لمقدمه كما يحصل لهم ذلك من البشريين للسليين وهم كما قال موسيو (موتيل) يعتقدون دينه لأنه لم يعرضه عليهم ، فما أشبه الأمم بالأطفال ترغب عما يقدم إليها وترغب فيما تحسبه ممنوعا عليها، أما الطرق المستعملة في انتشاره فكثيرة متنوعة وأحسن موقع نبعث فيه عنها جهات أفريقيا بجانب الأملاك الفرنسية قرب خط الاستواء، فليس من جهة يشاهد المرء فيها تقدم الاسلام أحسن منها .

والقائمون بهذا العمل هم (الفولبوسيون) وهم الجنس الأبيض في السودان وله الأولوية على غيره . وهو أعرق في الاسلام وإلهم أشرنا عندما قلنا بأن أحد منبغى الاسلام أقاليم نهرشادو وقد شاهدتم المكتشفون الفرنسيون في (شاري) و (لوغونه) والفولبوسيون يقصدون نشر الإسلام وتوسيع متاجرهم ثم هم يرمون إلى غرض آخر هو اتساع نطاق سلطتهم فلهم خطط سياسية في الاستعمال مثل أوروبا يعملون لأجلها في أفريقيا قال موسيو (مستران) إن الذي لفت ذهننا كثيرا لما قدمنا إلى جهات شاري هو النظام السياسي الذي تمكنت ملوك الإسلام في أواسط أفريقيا من إيجاده بين الأمم التي دانت لسكلمتهم، والفولبوسيين مساعد كبير من عشائر يقال لها الحواصة وهم من الجنس الأبيض وأقرب عهد بالاسلام وأقل منهم منزلة فنسبتهم إليهم كنسبة اليهودي للعربي ، ولقد شبهنا باليهودي لأنه تشبه قال به جميع الرواد والمكتشفين من الأوروبيين فالحواصة أمة لازمة لسكلمتها محقرة كما هو شأن اليهودي يجب المال ويتكهن طرق اكتسابه ولا يخاطر بتجره فيسير خلف (الفولبوس) وهو رجل الحرب والفتوح ولا يستقر به القرار إلا إذا آمن وتمكن والحواصة هم أهل المعارف والعلوم في السودان حتى كأنهم احتكروها إلا أن علمهم قاصر على شيء يسير كالقراءة والسكلمة في اللغة العربية وهو كاف لنبوذهم في الوثنيين لأن هؤلاء يعظمون السكلمة والقارى إلى درجة العبادة تقريبا ومع ذلك فلا يزال الحواص وضع الدرجة في عين متبوعه الفولبوس ، فالفولبوسيون هم أنصار الاسلام في الحقيقة والحواصة منهم بمنزلة الوعاظ والفقهاء، ويعزى امتداد سطوة الفولبوس ديننا وسياسيا إلى تدخلهم في الخصومات التي تتكرر بين القبائل الوثنية المجاورة إليهم لما تخاصم الأهالي إلا وتدخل الفولبوسيون ، أما الجهات التي اجتمعت فيها قلوب الوثنيين وخفت وطأة الشقاق لديهم فلا يدخلون بينهم وسياستهم إلا بالعناء ويتوصلون إلى غرضهم في الغالب عند ما ترتكب جرعة قتل أو سلب حيث يوجد قوم من السليين لأنهم يرسون إليهم السكلمة لتقتص منهم وبذلك ينتشر دينهم وتعلو كلمتهم ، ومهما تنوعت أسباب تدخلهم فان طريقة سياستهم تدل على حذق واقتدار فيها ومرجعها إلى مبدأ الحماية الذي توصلوا إلى وضعه بين الأمم المميج كما رواه موسيو (مستر) فمن احتسى بهم فقد أمن ومن خرج عن طاعتهم أصبح مهدداً ، ومضى احتمت بهم قبيلة ذهب رؤساؤها إلى ملوك الاسلام في السودان فيولونهم المناصب ويلبسونهم الخلع ويردونهم إلى أوطانهم يحكمون فيها باسم سلاطين المسلمين وتحت رعايتهم ، فان كانت القبيلة أو القرية عظيمة أرسل السلطان إليها

رسولا من قبله ليلاحظ حكومتها بالنيابة عنه والسفراء كلهم من الخواسة يكونون بجانب الحكام مستشارين ذوى كلفة وضوء ومعارفهم وما تعلموه من الأحكام بالقرآن تؤهلهم إلى القضاء لمنفعة اللاجئين إليهم وهم كالعالم مجتمع حوله التجار الوافدون من السودان ، وقد يتفق أن بعض القبائل الوثنية لا تخضع من أول ظهور الفولبوسيين بينهم هنالك تسطو عليهم قبائلهم فنسلب منهم وتأخذ أبناء الرؤساء فتبعث بهم إلى السودان حيث يتربون على مبادئهم ومبادئ الخواسة ، وبعد زمن يرجعونهم إلى بلادهم فيقومون فيها ككتاب عنهم مثل الحكام الذين ترسلهم الممالك الأوروبية في مستعمراتها ، وفي تلك الأثناء ينتشر الاسلام بمجرد الاختلاط والمعاشرة وحب التقليد بدون أدنى إكراه ولا تعيين رسل أو مبشرين ، إذ بمجرد أن يشتري الوثني خرقة القطن من أحد الخواسة ويستربها عورته يأخذ في تقليد البائع في الصلاة كالقردة ويتعسر بيان اللحظة التي يصير فيها مسلما حقيقيا لأن إسلامه يأتيه تدريجا ، ومتى كثر عدد المسلمين في بلد أقام فيها الفولبوسيون مدارس يتولى الخواسة التعليم فيها ولكنهم لا يتدخلون في نشر الاسلام مباشرة بين البقية بل يتركون ذلك للخواسة أولأهالي أنفسهم .

ونذكر من الوسائل الناجحة في يد الفولبوسيين لانتشار الاسلام الزواج ، فإن سلاطين السودان يتزوجون من العائلات الوثنية لهذه الغاية ولا تمسك النساء وأولادهن حتى يصير الكل من أقوى الأسباب على انتشار الدين الاسلامي ، وقد أشار موسيو (رونان) إلى ذلك في بعض حكاياته حيث يقول [من الصعب أن يصم المرء أذنه إذا تقدمت إليه النساء والأطفال ومدرك يديه إليه وطلب منه أن اعتقد بمن نعتقد] .

على أن الزواج هو السبب في وجود أنصار الاسلام الأولين ، وكثيرا ما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم لخدمة دينه لالشهوة في نفسه ، فقد صرح بأن الله أماح له الجمع بين عشرة نساء خلافا لما فرضه لجميع المسلمين وهو اختصاص تدرك غايته لمن تأمل في الأمور لأنه كان معصوما عن النساء حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره وتزوج بالسيدة خديجة بعد وفاة زوجها الأول وقضى خمسة وعشرين سنة بعد ذلك مع هذه الزوجة وكانت تلهه ولم يعل إلى ما أباحته العرب قبل الإسلام وأباحه القرآن بعد ذلك من تعدد الزوجات ولم يقترن ثم توفيت خديجة سنة ٦١٩ م وعاش بعدها اثنتي عشرة سنة تزوج خلالها بعشر نساء ليس بينهن إلا اثنتين كانتا بكرى والباقيات مطلقات أو مترملات . قال (رولان) إن كثرة زواج النبي كانت ليزيد في نشر أوامره وهو قول يقصد به قائله القدح ولكنه حجة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن في تعدد الزوجات شهويا .

هذه هي أهم الأسباب في انتشار الاسلام ولست أدري أكانت تكفي لادراك سر هذا الدين في انتشاره أو أنه يجب البحث معها عن أسباب سماوية ؟ غير أن الاسلام خرج من ذرية إسماعيل وسرى في الأرض كما خرجت المسيحية من ذرية إسحاق ، وقد بارك الله في أبناء الخادمة كما بارك في أبناء السيدة ، ونحن نعلم أن يهوذا قال لإبراهيم عن إسماعيل إنه سيبارك فيه ويكثر من نسله كثيرا وكرراه ذلك بقوله إنه سيبارك له في ابن الخادمة فتخرج من صلبه أمة كبرى لكونه من أولادك ، وأعاد يهوذا هذه البشرية مرة ثالثة لوالدة ذلك الطفل الذي نجما في الصحراء حيث رمى ليموت عطشا ، وقصة ظهور الملك إلى هاجر من أجمل الروايات ووصف بادية الظما ولطف الأم على ولدها من أطف ما يقال [نضب الماء في الزرق ورمت هاجر الطفل تحت شجرة وابتعدت قليلا ثم جلست أمامه على مسافة مرمى النبل وقالت لست أصبر أن أرى ابن يموت ثم رفعت صوتها بالبكاء وقد كان بكاء الطفل قد سبقها إلى السماء فناجها الملك من قبل الله : مالك يا هاجر ، لا تخافي فقد سمع الرب صوت الطفل من المكان الذي وضعت فيه فقومي وساعديه على القيام وليشدد ساعدك على حمله فيسكون من ذريته أمة كبرى] .

وقد ارتعشت يدي عندما مددتها لأزيل الغطاء عن الكتاب المقدس كي أقتل الآيات التي سطرتها ولولا ما قاله الأب بروغلي من أن تقدم الإسلام أمر مندرج تحت ما بشر به أبو المؤمنين لما تجرأت أن أطبق تلك الآيات على الإسلام ولا ذهبت إلى أن في انتشار هذا الدين سرا من الأسرار الربانية . انتهت اللطيفة الثانية

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا » إلى

قوله تعالى « وأعد لهم أجرا كريما »

في هذه اللطيفة أربعة فصول :

- (١) في الذكر الكثير . (٢) والتسبيح .
(٣) وصلاة الله وملائكته على المؤمنين . (٤) وفي التحية والسلام .

﴿ الفصل الأول : في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا » ﴾

إنى لأعجب كيف أقرأ نفس هذا المعنى في كتاب [راجايوقا] ومعناه الحكمة الثامنة المترجم سنة ١٨٩٦ في أمريكا وقد ألقاه المترجم عدة محاضرات في تلك الأقطار بعد أن ترجمه من اللغة الهندية القديمة وقد أشرت إلى هذا الكتاب فيما مضى من التفسير مرارا ونقلت عنه ما يناسب الآيات . إن في الكتاب مسألة لذكر الكثير وقد أوضحها المتنود فيه إيضاحا عجيبا ، يقولون منذ آلاف من السنين قبل النبوة الحمديّة ماملخصه [إن الإنسان لا يعيش إلا بالتنفس ، والدورة التنفسية لها الحكم على الدورة الدموية ، وعلى مقدار الآثار في الدورة التنفسية تكون الآثار في الدورة الدموية والدورة الدموية تؤثر في الأعصاب والأعصاب توصل الآثار إلى العقل ، ولو أن امرأ حكيم أمر تنفسه فأخذ يدخل الهواء ويخرجه بالتدرج شيئا فشيئا ثم يحفظه في الرئة قليلا قليلا بقدر إمكانه ، ثم يخرجه بالتدرج عدة مرات ويكرر ذلك في اليوم والليلة عدة دفعات بشروط خاصة فإن ذلك يعطيه قوة في العزيمة والارادة ، ومعنى ذلك أن زمام العقل والتفكير والارادة في يد أعصابنا وأعصابنا في يد الدم والدم في يد التنفس ، فإذا أحكمتنا التنفس وذلناه لنا ذل ما بعده وخضع لنا ، وهناك تكون الارادة والعزيمة طوع تفكيرنا]

ولست أقول لك إن هذا القول يمكن العمل به بمجرد هذا البيان ، ولكني أقول يمكنك أن تتنفس كل يوم عدة مرات في الحلاء بحيث تدخل النفس بالتدرج وتحبسه وقتا ما على قدر طاقتك ثم تخرجه وتقبل الفم بقدر طاقتك ثم تتنفس مرة أخرى ، فهذا نافع جدا في الصحة والقوة الجسمية ، وهذا يمنع الزكام وكثيرا من الأمراض ، وليس هذا مقام الاطمنة في هذا التنفس فإن علم التنفس نقله الفرنسيون عن علماء الهند وقد قصدوا به التداوي ونجحوا واستغنوا به عن كثير من الأدوية ، وإنما هذا المقام مقام ذكر الله كثيرا وذكر الله كثيرا إنما يكون بالكلام والكلام بالتنفس والتنفس يصل حكمه إلى الأعصاب والواصلات إلى النخاع الشوكي الآتي بيانه في [سورة فاطر] عند قوله تعالى « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا . تحمل من أنثى ولا تضع إلا بطنه » الخ . والأعصاب هناك ﴿ قيمان ﴾ أعصاب حس وأعصاب حركة خارجات كلها من الحبل الشوكي التصل بالمش والحبل الشوكي والمخ هما المركز الأمثل للاحساس والحركة ، وقد وزعت أعصاب الحس وأعصاب الحركة على جانبي الفقرات توزيعا عادلا وهي (٣١) زوجا والزوج عصبان عصب للحس وعصب للحركة ، وهذه الأعصاب تتجه إلى أطراف الجسم كاليدن والرجلين وظواهر الجلد ،

ومق أحست تلك الأعصاب بطاري ما وصلت خبره إلى النخاع الشوكي والنخاع الشوكي يطير خبره إلى المخ
 وتلغ حالا يأمر الأمر فيه أعصاب الحركة بالعمل لما يناسب ذلك الدارء جليا أو دعاء أما المخ ففيه (١٢٣)
 زوجا من الأعصاب كلها موصلات للحواس التي في الرأس كالعينين والأذنين والنخريين ، وكل هذا استراه
 في [سورة فاطر] كما قلته لك الآن مرسوما مشروحا وهو الذي أجمله علماء الهند في ذلك الكتاب الذي قرأته
 بالإنجليزية مترجما عن اللغة الهندية لشرح ذكر الله كثيرا . قالوا إن الأعصاب للذ كورة هي للوصلات للأخبار
 الدوائغ للحركات ، وليس لهذا الإنسان ولا الحيوان إلا أمران حس وحركة وجبارة أخرى علم وحمل ،
 وهذان النوعان قد تجليا في أعصابنا وأعصابنا خارجات من النخاع الشوكي والنخاع الشوكي متصل بالمخ
 وهو مقر للملك وهو العقل المدبر فالمرجع كله لهذا الرئيس المدبر للمستوى على عرش مملكتنا ، ولكن هذا
 الرئيس يتأثر بهذه الأعصاب سلبا وإيجابا ، فإذا أكثرنا من ذكر الله وكررنا مرارا فإن الكلام حركات
 في النفس والنفس يؤثر في الدورة فيصل الأثر إلى هذه الأعصاب وينقل بحكم المجاورة إلى الأعصاب فيحصل الحلب
 ويكون الوصول لله . إذن الذكر الكثير لله يقرب إليه .

وهذا ما أوضحه القوم في ذلك الكتاب ولكنهم يقولون [إن حب الله ربما يزيد الإنسان ، ولكن
 مادام محبا للدنيا فإنه يكون ناقص النفس فليس كل من أحب الله ووصل إليه وصولا ما يكون كاملا ، فحب
 هذه الحياة نقص عظيم] .

أنا لست الآن أقول إن هذا القول كله حق ، ولكني أقول : العجب أن العرب في جزيرتهم لا يعرفون
 ما هو ذكر الله والقرآن جاء فيه « واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » والعقل ليس عنده براهين تدل على
 أن الإنسان إذا ذكر الله مرارا يكون له الفلاح وهذا إنما جاء بالوحي وظهور أم قبلنا كانت عندها هذه
 للباحث وعلوها وفكروا فيها أمر عجيب ، وهذا معنى قوله تعالى « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا
 العلم » . فهؤلاء القوم سبقونا ، وقد تقدم أن كتاب القيدا الهندي الذي سبق الإسلام بشرات آلاف السنين
 بل جاء في آثار الهند كتاب لعالم منهم ألف منذ نحو (٦٠) ألف سنة يقول : إن كتاب القيدا لا يعلم متى وجد
 فهو مجهول التاريخ والبلد . إذن هذه معجزة لدين الإسلام ، وكما في الإسلام من معجزات ، وهنا في هذا
 المقام معجزة ثانية ، ذلك أنهم يقولون [إن في الفقرات أمرين النخاع الشوكي (الحبل الشوكي) للوصل
 للحس والحركة وفراغ لامادة فيه وذلك الفراغ تمتد من الصمصم للتحكم الذي لا فراغ فيه إلى المخ] قالوا
 وهذا الفراغ السطيل الواصل بين هاتين الهاتين ملقى لا عمل له عند أكثر الناس ولكن هناك أناس قد
 قويت عزائمهم وعظمت مواهبهم بالأعمال العظيمة وممارسة الذكر والفكر أو التنفس للتقدم أو ذكر الله
 فهؤلاء بهذه الأعمال القويات لمزائمهم تجعل جميع قوى العقل تحت إرادتهم ، ويقولون إن كل عمل من أعمال
 الناس أعوه يفتح لهم فتحا جديدا في تلك العظمت الثلثة التي في آخر تلك العظمت وتسمى (اللوتس)
 وهذه يقولون إن فيها سر الإنسان وعلمه وحكمته ، وللإنسان (في نظرم) حالان الحال للعادة وهي ما نحن
 عليه من وصول الآثار من الخارج إلى نفوسنا بطريق هذه الأعصاب كما هو حاصل للحيوان فلنا وله حس
 وحركة بهذه الأعصاب الواصلات للنخاع الشوكي الموصل للدماغ . والحال الحارقة للعانة بأن يفتح ذلك للثالث
 وهو (اللوتس) الذي فيه عجب الذنب . ومق فتح اتصلت العلوم الخزونة فيه بالمخ والوصل بينهما الفراغ
 الذي في فقرات الظهر . وهناك يعرف الإنسان علم كل شيء فلا يحتاج إلى تلك الأعصاب حتى يعرف العلوم
 الخفية . فكيف هذا وقد أصبح محيطا بالعلوم التي يقدر عليها الإنسان بحسب روجه هو لا بحسب ما توصله
 إليه الحواس كما في الحيوان .

هذا ملخص ما قرأته في ذلك الكتاب أوضحته إضاحا تاما ولم أَدع منه شيئا . فهذا هو المشار إليه بسبب الذنب في الشريعة الإسلامية ، فإن في الآثار والأخبار ما يدل أن الروح باقية وعجب الذنب باق لما معنى هذا ولماذا يحيى ذلك في الأخبار ؟ ولماذا ينزل الله ذلك على لسان رسولنا صلى الله عليه وسلم ونفس هذا المعنى جاء في كتب الهنود بطريق آخر وهو أن هذا هو سر الإنسان وعلمه . فإذا ورد أن عجب الذنب باق ببقاء الروح ووجدنا أن علماء الهند قبل عشرات الألوف من السنين يقولون [إن عجب الذنب متى اتصل بالمخ من طريق هذا الفراغ فإن العلوم المخزونة هناك يفرقها العقل] فمعناه أن ذلك للكان في نظرم مستودع العلوم .

ومستودع العلم يمد العقل فكأنه غدة العلم كما أن البنكرياس غدة للمادة الهاضمة والغدد الست في الفم جعلت لهضم المواد النشوية والصفراء وغدد المعدة والأمعاء كلها لهضم المواد الكربونية والدهنية وهكذا وكالغدة السبابة بالنخامية والسبابة الصنوبرية في الدماغ فإن لهما تأثيرا على نظام الأعضاء الجسمية ، وسيأتي أيضا في [سورة فاطر] .

ولست أقول إن مقال الهنود مبرهن عليه في هذا أيضا ، ولكني أقول العجب أن يتكلم الهنود في عجب الذنب . وأنه غدة العلم فيما كان وما يكون ويحيى في ديننا أمثال قول علماء التوحيد .

عجب الذنب كالروح لكن حققوا وصوله إلى البلى ودققوا

فالعلماء قولان : قول إنه باق كالروح ، وقول إنه فان كما يفنى الجسد وليس هذا هو المقصود ، إنما المقصود أن يرد هذا في ديننا ويوازن بالروح تارة وبالجسد تارة أخرى ، فبالأول يحكم ببقائه وبالثاني يحكم بغيابه ، وعلاؤنا رحمهم الله معذورون في هذا ولهم الحق أن يرجحوا فناءه لأنه من نوع الأجسام ولكن كلام أهل الهند أرجحه إلى العلم المخزون ، وهذه أمور فوق عقولنا لا برهان عليها ولكن المهم أن هذا معجزة ثانية والله يقول « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » فهذه علوم عند أم خلت وربما كانت لها أسرار لا نقلها الآن ووردت في الإسلام ليعقلها قوم بعدنا وشرحوها « والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » وبهذا تم الكلام على الفصل الأول في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا » .

﴿ الفصل الثاني : في قوله تعالى « وسبحوه بكرة وأصيلا » ﴾

اعلم أن الإنسان إذا ذكر الله كثيرا فتحت بصيرته ، وقد علمت أن أهل الهند سبقوا الإسلام بذلك في الفصل الأول ، وهذا هو معنى قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » الآية ، وقوله تعالى « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » وقد تبين لك أن هذا معجزة إسلامية من حيث تلازم الديانات في الأصول وإن كانت مهجورة جيدة لدى ، ومن اطلع على طرق الصوفية في العالم الإسلامي وجد بينها وبين طرق أهل الهند ملامة ترجع كلها إلى ذكر الله تعالى ولكن بصيغة الإسلام لا بصيغة كتاب (الفيدا) الهندي .

ولقد حقق علماء الإسلام أن هؤلاء التذاكرين لربهم لا يصل إلى المعرفة التي يقول بها علماء الصوفية إلا النادر جدا بل كثير منهم يحسب الجنون فلا تنتفع بهم الأمة وهذه إحدى نكبات الأمم الإسلامية . كثرت فيهم طرق الصوفية وعاشوا عيشة روحية كأهل الهند ولكنهم في الوقت نفسه لم يصل جميعهم إلى العلوم التي بشرم بها أسيادهم ، بل ران على قلوبهم التقليد ، وهناك يحصل لهم شكوك وأوهام فيقول الأذكاء فيهم [كيف يكون الله أرحم الراحمين وهو يرضنا ويميتنا وأهل الشرق والغرب في نضال و قتال مستمرين وأصحاب الأسلحة النارية من أوروبا يهجمون على الشرق فيذلون الأمم . ثم ما هذه النظم الأرضية . وما هذه الحرارة

والبرودة والتناقضات في الأرض . وكيف يكون زيد الصالح قتيلا وعمرو الطالح غنيا . إن هذا شيء عجيب [يقال لهم في القرآن « وسبحوه بكرة وأصيلا » والتسبيح تزيين عظيم في سبحانه من أنه ترك العوالم تتخبط كأنه لم يكن هو صغيرها وكبيرها بل هي دائرة بلا نظام ، ولو كان صانع العالم مطلقا على جلائل الأمور ودقائقها لم نجد ناسكا أحرق ثوبه وعجوزا هدم البيت عليها وطفلا ولد مشوها وامرأة مات طفلها فاحترق فؤادها، ولا طفت أمة على أمة ولا طغى طوفان الأنهار وحريق النار على فريق من الناس فأهلك الحرث والنسل وهكذا مما لا حصر له . فذكر التسبيح في الآية بعد ذكر الله كثيرا ليكون في الأمم الإسلامية [فريقان: الفريق الأول] فريق العباد (بتشديد الباء) الذين يسبحون الله بكرة وأصيلا إذ يسمعون قوله تعالى « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » وقوله تعالى أيضا « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » وقوله « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ويسمعون « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » وقوله « وتسبحوه بكرة وأصيلا » وقوله « سبح اسم ربك الأعلى » وقوله « فسبح باسم ربك العظيم » .

فهذا الفريق السبح يكون تكرار التسبيح منها لما يعلق بنفسه من تلك الشبهات ، فكأن الذكر يفرحه ربه ويقربه له ، فإن التسبيح بتكراره بكرة وأصيلا يبرن النفس على أن تتباعد عن تلك الشبهات وتوطن الضمير على أن يعتقد أن الله منزه عن الشرور أو الغفلة ، وأن ما نشاهده من تلك المصائب في هذا العالم هو يعلم نتائجها وله فيها حكم عجزنا عنها ، فالتسبيح إذن أشبه بالحارس الذي يحرس العقل من التعرض لهذه الشبه . فهنا (أبرام عجيبان) : التذكر بقوله « اذكروا الله ذكرا كثيرا » وذلك لاستحضار للذکور وتكون النتيجة حبه ، ولكن الحبيب الذي يغسد الواشي حبه معرض حبه للذهاب فتكون القطيعة فجأة بعد ذكر التسبيح وتكراره يحصل ما يشبه التوهم المغناطيسي فتذهب تلك الوسواس فيبقى الحب على حاله حتى إذا فارق الانسان هذا العالم فهناك يدخل في عوالم يفهم فيها ما جهله هنا . فالتذكر تخليية والتسبيح تخليية ولذلك نسمع الله يقول « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم » فالحمد نوع من الذكر والتسبيح تخليية عن تلك الشبهات . ويقول « دعواهم فيها سبحانك اللهم » فجعل التسبيح مع الحمد . وبعبارة أخرى التخليية مع التخليية . هذا هو الفريق الأول وهم العباد (بتشديد الباء) .

(الفريق الثاني في الأمم الإسلامية)

الفريق الثاني في الأمم الإسلامية هم الذين يسبحون الله بكرة وأصيلا كالفريق الأول ولكنهم لهم عقول راجحة فلا يقفون عند الشبهات التي ترد عليهم بتكرار التسبيح لأن العابد درجته محدودة ولكن العارف بالله أرقى من العابد . فيقول هذا الفريق . نحن قرأنا في (سورة آل عمران) « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » فيقولون ههنا معناه ذكر النار وعذاب النار بعد الذكر والفكر . وههنا يقولون الذكر للعباد ولكن العارفين بالله لا يقفون عند الذكر فهذه مرتبة ضعيفة بل يفكرون في جمال ربهم وصنعتهم .

وهذا معنى قوله « ويتفكرون في خلق السموات والأرض » . نعم نحن نسبح في الركوع والسجود وبعد الصلوات . ففي الأولين (١١) مرة وفي الثالث (٣٣) وعند النوم كما في الحديث (٣٣) أيضا ، ونسبح بكرة وأصيلا ، ولكننا لا نقف مكتوفي اليدين أمام عظمة ربنا وجلاله . وهذه الطائفة هي التي ستظهر بعد انتشار هذا التفسير . وسيكون في الأمم الإسلامية فطاحل الحكماء الذين لم يخلق في أمة مثلهم وهؤلاء هم

عماد هذه الأمة بل هم عماد الأمم . فهؤلاء يلبثون محبين لربهم ولخلقهم ومحبون حياتهم كلها في درس نظام الطبيعة وجمالها ولا معنى لهذا كله عندهم إلا أنهم أحبوا وعشقوا مبدع الكائنات وأحبوه لما نشأ وزوق وأبداع وأحكم ونوع وصنف . وهذا الفريق فقط هو الذي يفهم لم كان للرض وللوت والفقير والطوفان والحرب واحتلال الأقوياء أرض الضعفاء في هذه الأرض . ومستحيل أن ينال هذا الانسان في الأرض إلا بدراسة مجمل العلوم الرياضية والطبيعية لأنها آثار المصانع الحكيم فان لم ندرس آثاره واكتفينا بقراءة كلامه كنا أهله بمن قرأ كتاب الملك الذي نشره في رعيته ولم يعمل به . وغاية الأمر أنه يكرر الكلمات التي أرسلها في ذلك الكتاب للنشور . وهذه وإن كانت سخافة وقلة عقل وجهل في كتب المهلوقين فهي ليست كذلك في كتاب الخالق لأن كتاب الخالق عز وجل له مزية خاصة . فانظر رزاق الله إلى أجسامنا وأجسام حيواننا وإلى نباتنا فانك ترى أكثر نوع الانسان يعيش ويموت وهو لم يدرس هذا الجسم ولا عقل من عجائبه شيئا . وهكذا يأكل من الحب والفأكة وهو لم يدرس ولم يعرف عجائب النبات كما لم يعرف عجائب جسمه ومع ذلك يتفجع بالفأكة وبالحب وبجسمه المجهولات عنده جهلا تاما . أكثر هذا الانسان هكذا حاله ، جسمه المأثور من الجمال في نظام ، وكل ما حوله من مطعوم ومشروب مجهول جماله عنده ، وهذا الجهل لم يمنعه أن يعيش بحسنه عمرا طويلا ولا أن يتفجع بالنبات والحيوان ، وأقل هذا النوع الانساني هم الذين أدركوا جمال أجسامهم وجمال طعامهم وشرايبهم من حيث النظام والابداع . فاذا صح هذا في أجسامنا وفي كل ما حولنا وكله من حسن الابداع وسعة الرحمة من اللبذ الحكيم . فهكذا صح في تسييحنا . فالمسيح بقوله « سبحان الله » وهو من العابدين قد نال أثر ذلك التسييح في نفسه فتباعدت عنها تلك الشبهات كما انتفع الانسان بجسمه أمد الحياة وبما حوله من طعام وشراب وهو جاهل بذلك كله . فأجسامنا وتسييحنا وذكرنا أشبه بما قيل في كتاب كلية ودمنة « وقد لئل الأمل » فهو للجهال حكايات تفرحهم وهو للخواص حكمة وعلم وسليمة . هكذا أجسامنا وما حولنا للجاهلين حياة في الدنيا وللحكما دراسة بهجة جميلة . فهكذا التسييح هو للجهل عبادة تشرح الصدر وللحكيم حث على العلم والحكمة [مثال ذلك] أن ينظر في جسم الانسان مثل ما تقدم في سور كثيرة ، ومثل ما ستره في (سورة فاطر) كما أنبأتك في أول هذا القال إذ قلت لك إنني سأفصل عجائب الجسم الداخلية هناك .

فسترى هناك الدورة التنفسية مرسومة ، ومثلها الدورة الدموية . ثم أعصاب الحس والحركة . وتعجب جد العجب من (غدغ) جمع غدة موضوعة في اللحم وهي ست وأخرى في المعدة وغيرها في الأمعاء وتدهش أيها الذكي من هذه الجنود المجددة التي تقف في طريق الغذاء معدة لاصلاحه مخرجات من خزائنها تلك السوائل للوزعات على أنواع الطعام ، فمنها ما أعد لإذابة المواد النشوية والسكرية كالتى في اللحم ، ومنها ما أعد لإذابة المواد الفحمية أو المواد الدهنية أو المواد الأوزوتية كالتى في المعدة والأمعاء ، وسترى إيضاحه هناك مع هذه المادة التي يسمونها (الكيموس) أولانهم تصير كيوسا بعد ذلك وهي مادة أرق وألطف من الأولى ، قراها تنتقل من حال إلى حال وتجد لها هناك نوعين من العروق . فالنوع الأول عروق تأخذ السائل الدموي أى الذى استحال من الحلال الأخيرة وهي الكيوس إلى الحلال الجديدة وهي الدم ، فترى هذه العروق هناك تحت التشاء المخاطى في الأمعاء فتجذب تلك المادة اللطيفة المستخرجة من الطعام ، وتأتى عروق أخرى فتجذب السائل المتخلص من الدهن فيكون هناك دورتان : دورة دموية ، ودورة ليثاوية والثانية تشابه الأولى بعض المشابهة من حيث تفرغ عروقها في الجسم . ولا أشبه الدورة الليمفاوية إلا بقلع الجنود وثكنات المسافر ، وللإسادة التي فيها ليست حمراء ولا فرق بينها وبين الدم إلا أن هذه

ليست فيها كرات حمراء بل تخلق فيها الكرات البيضاء التي تدخل مع السائل الليمفاوي إلى البهورة الدموية، وهذه الكرات البيضاء هي الجنود التي أعدت لمساعدة الكرات الحمراء في الدم التي لونت باللون الأحمر باجتماعها معا يحاربان الجيوش الجرارة الداخلة على جسم الإنسان والحيوان من الخارج لإحداث الجديري والحصبة والطاعون وأنواع الحميات المختلفة، إذن دهن السمسم وزيت الزيتون وزيت بذر القطن والسكران والقرطم وشحم الحيوان . كل هذه أعدت لخلق هذه الكرات البيضاء المحاربات لأعدائنا الداخلة في أجسامنا فإذا كنت منذ أيام قد توجهت إلى بلدة (الحانكا) من أعمال مديرية القليوبية وشاهدت الآلة الطاحنة للسمسم وهي آلة بخارية وبها يحصر الزيت وهكذا أمثلها في غيره . فهذا معناه أن هذه الآلات البخارية الفاصلات بين العجينة للساة (الكسب) واللواذ الزيتية التي يأكلها الناس مساعدات لنا على حفظ حياتنا من حيث إن هذا الزيت وأمثاله هو المساعد على خلق الكرات البيضاء في الدم للهلكات للجيوش القاتلات لنا بالأمراض المختلفة . فيا سبحان الله . شمس تشرق على الأرض ، وحب يسذر فيها ، وماء ينزل عليها . وذلك الحبّ ينبت فيصير حبا مثل الأول وهو السمسم . ثم تلتف تلك الآلات العاصرة فيكون زيتا . لم هذا كله ؟ ليكون لنا حافظا إذ تأكله الكرات البيضاء التي جعل لها في أجسامنا عروق ليمفاوية سيأتي شرحها وما هي إلا ثكنات عسكرية . يا سبحان الله : أيكون في أجسامنا ثكنات كشكنات الجنود التي تحمل البنادق والمدافع والغازات الحارقة لتقتل الأعداء . أهذا الزيت المستخرج من السمسم أمامي معدة لثكنات السكر في جسمي .

الله أكبر . هذا معنى « وسبحوه بكرة وأصيلا » انتهى الكلام على الفصل الثاني والحمد لله رب العالمين
 ﴿ الفصل الثالث : في قوله تعالى « هو الذي يصل عليكم وملائكته » إلى قوله :

« وكان بالمؤمنين رحيما »

ولا جرم أن هذا الفصل مرتب على ما قبله . إن صلاة الله رحمة . وصلاة للملائكة استغفار . وقد أبان الرحمة بقوله « ليخرجكم من الظلمات إلى النور » وصرح بها بقوله « وكان بالمؤمنين رحيما » . ذكر للسلم ربه كثيرا فأجبه بذكره الكثير كما نرى بني آدم يحملون نظام الجند بتسليم رجالهم على منابهم وتبلييتهم نداءهم واصطفافهم وقولا أمامهم وتمزيهم على ذلك وعلى كثرة التنظيم لهم من موجبات انتظام الجيش وحسن تدريبه لما يحصل من الآثار بهذه الأقوال والأفعال في الأئس . ونرى للوك يزور بعضهم بعضا فترفع أعلام الدولتين متجاورات كما اتفق لملك البلجيك أيام طبع هذه السورة في شهر مارس سنة ١٩٣٠ م فيحدث ذلك في نفوس الأمتين مودة .

فهذا ضرب مثل دنيوي لذكر الله عز وجل وآثاره في النفوس . وهذا الذكر كما تقدم له حارس وهو التسييح لتزيه الذكور عن خلق العالم عينا لعدم قدرتنا على إدراك جميع الحقائق . وهذا وذلك لا يتان إلا برحمة الله ولذلك قال « هو الذي يصل عليكم » الخ . فرحمة الله هنا جلبت لنا منعمة الذكور وصرفت عنا الشكوك والأوهام للهوشات على ذلك . انتهى الفصل الثالث .

﴿ الفصل : الرابع في التحية والسلام ﴾

وهل بقي بعد ذلك إلا التحية والسلام ؟ وبيانه أن الإنسان لا مساعدة له حقيقة إلا بأمر واحد كما اتضح سابقا في مواضع وهو الثقة بالحقة بنظام هذه الدنيا وبأن كل ما يصنع في هذا العالم إنما هو خير أو أيل للخير وهذا لن يتم ويشق به الإنسان يقينا إلا بالأطلاع على العجائب دواما كالتي ذكرنا في الفصل الثاني من عجائب جسم الإنسان ، وهناك يحس الإنسان بالأمان والسلام في نفسه في الدنيا والآخرة ، ذلك لأنه إننا حصل

ما ذكرناه في التصل الثاني وزاد على ذلك أن ينظر في الدائرة العصية فإنه يرى أمرا عجبا؟ يرى مثلا أن هناك غدتين في السماغ وغدتين بجانب العينين . فالأولان لتنظيم أحوال الجسم والآخران لإفراز الماء الملح الذي يحفظ العين لئلا تتلف ويرى غدة في الرقبة وأخرى تسمى (التيموسية) وأخريين فوق الكليتين ، ويرى الأثني في الرجل والبيضين في الأنتى ، وهناك يجب جدا من أن بعض هذه الغدد لو أزيل لم يتميز الذكر من الأنتى في المظاهر كشعر اللحية في الرجل وانسجام عظام الصدر في المرأة وحفظ اللون ، فإن بعض الصد لو أزيل لصار لوننا كلون البرز أو النحاس ، وبعض الغدد بازالته تكبر العظام جدا فتصير كأنخلة والعين كالبطيخة ، وبعضها لو أزيل لحصل للانسان تشنج واختلال عقل ، وبعضها لو أزيل لحصل للانسان البول السكري أو غيره من الأمراض كما سيأتى تفصيله في [سورة طاهر] .

هذا هو العلم للوجب لليقين الذي عرفنا تنزيهه الله وتسميته ، وهو الذي عرفنا تاهيه في الرحمة والنعمة بنا وبغيرنا وهناك نوحى بالسلامة في الدنيا والآخرة . هذا هو قول السلم « التحيات لله » فهو يحيى الله أولا ثم يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول له مناديا : يا أيها النبي إن الله آمنك فأنت عليم برحمته الواسعة وأيقنت بذلك ، ومن أيقن بالرحمة فلن يصاب بعباب . ثم يقول السلام علينا ويجمع عباد الله الصالحين في الأرض وفي السماء . وفي الحقيقة إن الوجود منحصر في الوجودات المدركة فأما هذه العوالم فهي كلها كما ظهر في هذا التفسير أضواء متحركات تبدت لحواسنا على هذا المنهج الشاهد .

السلون يسلم بعضهم على بعض . ويسلمون في الصلاة على كل صالح . ويسلمون في آخر كل صلاة فإن كانوا دارسين لسجائب الحكم الإلهية كما في هذا التفسير الذي تكفي دراسته كل عاقل في الأرض فإنهم فضلا يكونون قد آمنوا بالعباب من الآن على سبيل الرجاء . وإن كانوا مؤمنين ليسوا من المطلعين على العجائب أو اطلموا عليها وهم لا يفتنون جمالها كعظماء علماء التشريح وعلماء الطب إذا كان معلوم غافلين عن الابداع في التركيب مثلا ، فالسلام لم يعط إلا بمجرد العبادة ولهم عليها ثواب مؤجل .

ومن هذا القبيل أنك تسمع الناس يقولون عند التعزية : لأراك الله سويا ، فهذا مستحيل في المظاهر ولكن في الحقيقة لا سوء لأن مصائب الناس سبب في إسعادهم بل هي سلام ارتقاؤهم والموت من منازل ارتقاؤهم . فهم يقولون في العيد : أبقاك الله لكل عيد ، أو : جعل الله جميع أعيادك سعادة ، وكل هذه أدعية مطابقة للحقيقة لأن الناس لا يفتنون بالموت بل هم أحياء . إذن السلام والأمان موجودان وإن حجب عنهما الناس . والأولون ثوابهم معجل لأنهم شاهدوا جمال الصانع بمجرد مشاهدة جمال الصنعة وعقلوا حكمة الحكيم في مظاهر حكمته وذكروه عند مشاهدة بدائمه وصار ذلك سجية لهم . فهؤلاء في الدنيا سعداء لما بالك بهم بعد الموت ؟ هذه أقصى سعادة لأهل الجنة . انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة . كتب صباح يوم الأحد (٢٣) مارس سنة ١٩٣٠ م .

اللطيفة الرابعة

(سر من أسرار التنزيل قد أظهره الله في آياته هذه بالعلوم الطبيعية مع موازتها بمحوادث التاريخ في تفسير قوله تعالى « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا »)

جاء في آية أخرى « وجعل الشمس سراجا » وهنا يشبهه صلى الله عليه وسلم بالسراج . إذن هو قمر وهذا كلام الله عز وجل . فإذا سمعنا النابتة يقول قنعمان :

كأنك قمر واللؤلؤ كواكب إذا طلعت لم يند منهن كواكب

فانا نقول هذا تشبيه لم يكن له أثر في الوجود . ولا جرم أن أعذب الشعر أكذبه وهذا مستفيض فان
الأدب في جميع اللغات إنما تكون نتاجه الانتباض والانبساط ، وعلى مقدار تباعد القول عن الحقيقة بالباسه
لباس الخيال يكون أوقع في النفس . إن نفوسنا المحبوسة في هذه الأجسام تريد أن تنال الحرية ولو في خيالها
فتفرح بأنواع التشبيه والمجاز والسكناية . تفرح أن تسمع قول القائل :

فضض الطرف إنك من نمير فلا كبا بلمت ولا كلابا

فهذا خض قوم بعد الرضة بمجرد هذا التخيل . وقول القائل في بني أنف الناقة :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الدنيا

وتفرح بقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبها

لمجرد هذا التخيل من بشار رفقه على امرئ القيس القائل يصف عقابا :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

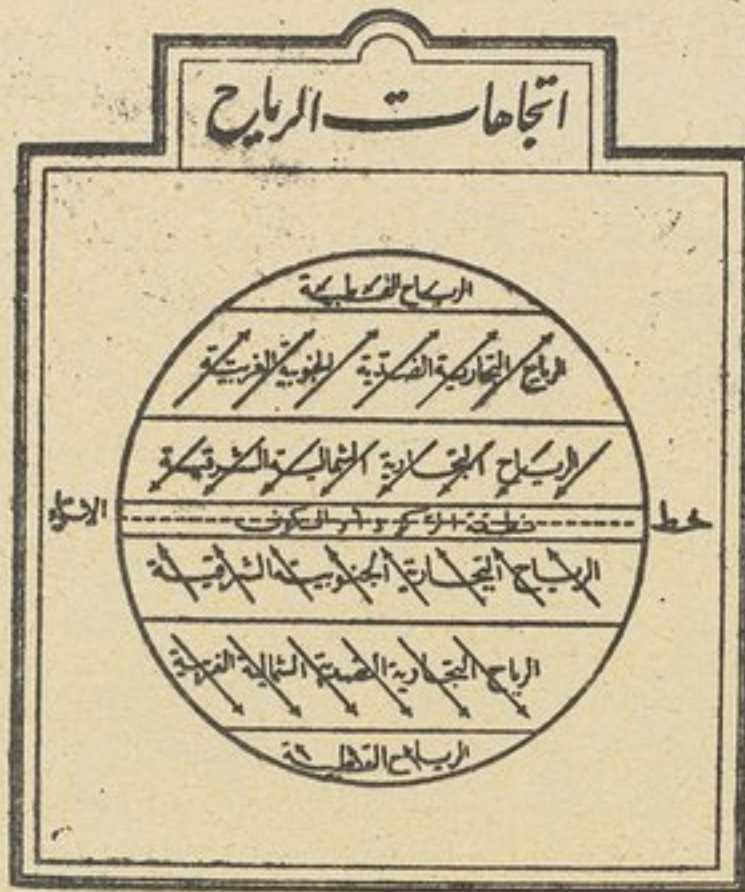
هذه صورة آثار التشبيه عند العرب . فهل قول الله عز وجل « وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا »
كقول النابغة : كأنك شمس الخ ؟ تنظر في آثار النعمان فلا نجد له أثرا يشبه آثار الشمس . إن للشمس
آثارا تراها وهي معروفة عند أهل الشرق والغرب . فهل هكذا آثار النعمان . كلا . ثم كلا . إن التشبيه
والاستعارة والمجاز والسكنايات كلها ترجع إلى أمر خيالي . وكلما كان الخيال أكذب كان أعذب . هذا هو
اصطلاح علماء اللغة العربية ولذلك تبحر الشاعر أيام مجد الأمة العربية كالمتنبي وأبي تمام والبحراني وأضرابهم
لا يبتدئون القصيدة إلا بالنزل ويصفون فتاة بالجمال والحسن وأنهم هاموا صباة ووجدوا وغراما والسامع
يظن أن كل ما يقوله مكذوب ورواة القصائد جميعا يظنون ذلك . إذن التشبيه وجميع أنواع التخيل التي
فصلت في علم اللغوي ليست تراد بها الحقائق وة . جعل هذا في علم للنطق ركنا من أركان مادة البرهان الخمسة
وجعل هذا الخامس مقصودا لإحداث الاشمزاز أو السرة والقائل والسامع شريكان في العلم بكذبه . إذن
لتنظر في هذه الآية . ما آثارها في الوجود ؟ وما مناسبة النبوة لآثار الشمس ؟ لتدرس الشمس من علم
الطبيعة وآثارها في الأرض . لتمثل هذا اللقمان برجل ماهر في اللب أراد إظهار براعته فوقف في مكان متنح
وقسمه (١٨٠) قبا وعلم الأقسام بعلامات وذلك في أرض العباسية بمصر ثم وقف في وسطها بحيث يكون
(٩٠) عن اليمين و (٩٠) عن الشمال وكل (٩٠) قسمها ثلاثة أقسام بحيث يكون القسم الذي يليه من كل
منهما يبعد بنحو (٣٥) درجة عن موقعه والقسم الذي عند النهايتين قريب من هذا في اتساعه فيكون مكان
الغرب من ناحيتين (٦) أقسام ثلاثة عشرة يمينه وثلاثة عشرة شماله ، فلما رتب هذه الأقسام قال مخاطبا الواقفين
[أيها الناس أنا سألب لعبة تدهشكم ولا تقدرون أن تأتوا بمثلا فقالوا وما هي ؟ قال أرمي بكرتين
من يدي اليمنى واليسرى [أولاً] تذهب إحداها إلى الشمال وتأتيهما إلى المطوب ولا تقمان إلا عند نهاية القسم
الأول من كل ناحية بحيث لا يحصل خطأ من مدة حياتي [ثانياً] متى وصلت الكرتان في الجهتين تنقسم كل
منهما إلى قطعتين قطعة ترجع إلى أسفل وقطعة تذهب إلى القسم الثالث من الجهتين ، ومتى وصلت هاتان
القطعتان إلى القسم الثالث يرسل رجلان واقفان على آخر اللب من الجهتين كرتين أخريين فيرميان بهما
فيحلان محل هاتين القطعتين المرتفعتين في القسمين اللذين كورين وهذه الحركات متعاقبة مستطيات ، فإنا
رأينا لاعبا فعل هذا فانه لا محالة يدهشنا لأننا نرى كثيرا من الناس يلعبون لعبة (البلياردو) ولقدار فيها على
أن الكرة المقروبة بالصا تصيب كرة أخرى بشروط خاصة ، فهناك يحكم للاعب أو عليه ، أما هذا اللاعب
فان حركاته متى صدق فيها تكون من أدهش اللب الذي لا يأتي الزمان بمثله .

هذا اللؤلؤ الذي ضربته تقريب لما ستراه، فالملعب القسم (١٨٠) قسما هو نصف الكرة التي نحن فيه
 ووسطها خط الاستواء، فالشمس مثلنا لما باللاعب وحرارتها مسلطة على خط الاستواء والرياح تخف هناك
 فترفع كما يرفع الهواء في منازلنا بسبب الحرارة في تانيرنا، ومثي خف هواء منازلنا هبت رياح شديدة من
 أبواب تلك المنازل داخلة على ساحاتها مع أن الجو في جميع القرية وما حولها ساكن هادي ولا رياح إلا هنا
 لأجل الحرارة.

فهذا اللؤلؤ الصغير هو الذي يحصل بسبب الشمس، فهي تجعل الريح عند خط الاستواء يخف فيرفع
 فيذهب إلى الجنوب والشمال وهو الذي مثلنا له بالكرتين، ومثي وصل هذان التياران إلى نحو نصف و ٢٠
 درجة من الجانبين، قلت الحرارة الرافعة للهواء فأرادا النزول إلى الأرض كما تنزل الطيارة إذا قل ما فيها من
 (البزير) عنك ينزلان في تلك السافة فيقابلان سطح الأرض فتقابلهما حرارتها فيرفع كل منهما كرة أخرى
 إلى أعلى ثانيا وهو قسمان، كما أن الكرة للتقدمة ارتفعت وهي مقسمة قسمين فيرجع قسم منه إلى خط الاستواء
 ليحل محل ما ارتفع هناك من الهواء بخفته وقسم يذهب إلى الدائرة القطبية من الجانبين، ومثي وصل هناك
 وقابل وجه الأرض خف ثانيا بسبب الحرارة فيرفع وهناك يحل محله رياح تأتي من القطبين وهو الذي عبر
 عنه باللاعب في آخر الملعب من الناحيتين والرياح التي من جهة القطبين إنما أتت لتحل محل الرياح الصاعدة
 في الدائرتين للثقتين.

هذه حال الشمس والهواء والبرد والحرارة، اللهم إن الحرارة والبرودة جنديان ساتقان لهذه العوالم
 وكرة الهواء حولنا هي ميدان العمل، فهاهي حياتنا ياربنا؟ حياتنا راجعة لتدبير حكيم لو كشف لنا لاحتفت
 قلوبنا من الحب والبهش، أمور بديعة، مالهذه الأعاجيب؟ شمس وحرارة منها سلطت على خط الاستواء
 فحرت الرياح قتالبت الأرض حوالى دائرتي الجدي والسرطان قتالبتها الحرارة فارتفعت ثانيا ثم وقعت عند
 الدائرتين القطبيتين وحلت محلها رياح أخرى، ثم إن هذه الحركات لامقطوعة ولا ممنوعة.

إن الهواء ساعة وسلكها الذي هو (الزمبلك) هي الشمس. وهذه الساعة لا تفتأ تدور ليلا ونهارا والناس
 ظافلون تأنهون. الناس جميعا يألفه يعيشون ودواليب هذه الساعة تجري فوقهم وتحتمهم وهم يعيشون فيها وغاية
 الأمر أنك أنت علمتهم صناعات ليعشوا بها وما هي إلا ضرب مثل لهذه المجالب المحيطة بهم ومن أجلها
 حرارة الشمس وتأثيرها في الهواء الذي لولاه لم تكن هذه الحركات فيه ولم يكن سحاب ولا مطر ولا أنهار
 ولا حيوان ولا إنسان ولا علماء، فلو أن هذا اللاعب في اللؤلؤ للتقدم زاد على مقاله فقال إن هذه الحركات
 يستتج منها مخلوقات حية وغير حية لكان هذا من أعجب العجب (انظر شكل ١ في الصفحة التالية).



(شكل ١ - قلا من الأطلس الحديث)

إنما رسمت هذا الشكل لك أيها الدكي ليزيد فهمك بهذا الموضوع وما هو ؟ هو المشبه به في الآية لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم سراج بنفس الآية والسراج يطلق على الشمس ، فتريد أن نبين آثار الشمس العالمة ثم تبعه بآثار الإسلام والقرآن في الأرض ، ثم نبين آثار أعظم الفلاسفة لملا في أرضنا ، وهناك فقط فهم أن قول الله هنا «وسراجا منيرا» ليس كقول شعراء العرب في الجزيرة وفي البوادي لثعمان بن النضر :

﴿ كأنك شمس وللوك كواكب ﴾

إن حرارة الشمس تقع على خط الاستواء فيرفع الهواء نحو (٢٠) ميلا، ومعلوم أن الحرارة تعدد الأجسام فتخف كما قدمت لك، ومق ارتفع الهواء بسبب الخفة تحمل معه رياح من الشمال والجنوب ثم هو يتأثر بالحرارة ثانيا ويرتفع وهكذا ، فترى الرياح المرتفعت عند خط الاستواء تجرى إلى الجهتين ويرتفع أخرى تجرى من تحتها من الناحيتين إلى خط الاستواء فهي دائرة دائما أبدا . وهذه أشبه شيء بالبولاب يجرى ليلا ونهارا وكالنجوم والشمس والقمر ، والتي تهب إلى خط الاستواء من الناحيتين تسمى الرياح المنتظمة أو الرياح التجارية ، والرياح المرتفعة إلى الشمال والجنوب تسمى الرياح التجارية الضدية ، والرياح الآتية من القطبين

تسمى بالرياح القطبية . فهنا رياح تجرى من القطبين ورياح تجرى من خط الاستواء ورياح تجرى من بعد مخصوص إلى خط الاستواء وإلى الدائرتين القطبيتين . هذا هو التدبير والنظام البديع .

يقول الله هنا «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً» .

ها أنت ذا أيها الذي عرفت للشبه به وهو الشمس وعرفت آثارها وأنها بمرارتها حركت هواءنا فلما ارتفع ثم انخفض ثم ارتفع ثم انخفض وهو في ذلك دولاب يجرى والمحرك للدولاب هي الشمس . الله أكبر . ماذا كانت نتيجة هذه الحركات والدواليب الدائرات نتائجها بديعة وجديدة ، نتائجها سحب يجرى بجمري الرياح والسحاب أتى بآثار الحرارة في الماء ، فالحرارة أثارته الرياح من البحار والحرارة أثارته الهواء . فهذان الأثران يلتقيان ويتماثلان وهما أخوان البخار والهواء الجاري كلاهما بسبب الحرارة فترامهما يتماثلان ويحمل أحدهما وهو الهواء أخاه وهو البخار ويجرى به ، لماذا يجرى به ؟ ليسقى الأرض فيكون الزرع وكل حي ، غريب جداً ، حرارة تنبعث منها حركتان . حركة تيار يؤخذ من الهواء وحركة البخار من الماء ، فيجري هذان الطائران يلتقيان ويحمل أحدهما وهو الهواء أخاه وهو البخار الذي صار سحباً فيحط على الأرض فتكون الأنهار والزرع والثمار والحيوان ، للشبه به جميل جداً بهي حسن . فلماذا نقول في الشبه وهو النبي صلى الله عليه وسلم .

(الكلام على آثار النبوة وهي الشبهة بالشمس)

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبي ققرأ ما كتبتة الآن فقال : إن ما كتبتة الآن قد تقدم في هذا التفسير . أفلا يكون هذا تكراراً ؟ مسألة الرياح القطبية . والرياح التجارية المنتظمة ، والرياح التجارية الضدية . كل هذا قد تقدم في هذا التفسير وأزيد على ما ذكرت هنا الرياح الموسمية ، ذلك أن الأرض تتأثر بالحرارة أكثر من الماء فيصعد الهواء من فوقها إلى الجو والماء طبعاً محيط بالقارة فيجئ الهواء الذي فوق البحار ليحل محل الهواء المرتفع فيحمل البخار فيكون المطر على السواحل فتكون إذن حرارة الصيف في القارة سيلاً ارتفاع الهواء وحلول هواء البحار محل الهواء المرتفع وقد حمل معه البخار فكانت الحياة فيحصل المطر صيفاً على الشواطئ كالذي يحصل في جنوب آسيا وجنوبها الشرق وهذه تعيش أم وأم . وهذه هي الرياح الموسمية ، أما في الشتاء فإن الهواء يخرج من وسط القارة إلى البحار لأنها إذ ذاك تكون أدفاً من الأرض ، وهذه الرياح تهب ستة أشهر إلى جهة تهب بالعكس ستة أشهر أخرى وهي في ذلك كنسيم البر والبحر فإن النسيم عند شواطئ البحار بالليل يهب من البحر إلى البر ويسمونه نسيم البر . لماذا ؟ لأن الأرض أسرع برودة من الماء وفي النهار يهب الهواء من البحر إلى البر ويسمى نسيم البحر لأن الأرض أسرع حرارة فيرتفع هوائها ويحل محله الهواء الذي فوق الماء فتم هناك دائرة كالدوائر الحاصلة من الرياح الموسمية والرياح التجارية ونحوها . ثم قال : هذا القول منك تكرار لما تقدم . قلت . كلابل يجب إيضاحها (لسببين : السبب الأول) إن كثيراً من الأذكياء لم يتصوروا ما كتبتة سابقاً حق تصويره لذلك رسمت هذا الرسم حتى يعرفوا الحقيقة العلمية التي تعيش بنظامها ، فعادة القول هنا ليعقلها من صعبت عليه هناك ، والرسم هنا لم يكن له نظير فيما تقدم ، وأيضاً هذا الزيادة التثبيت وتذكير بحمال الله وإيداعه وحسن صنعه وجماله وإن لم يكن التذكير تدوم الفظة ، ومعلوم أن الله يكرر القصة على أنحاء شتى في القرآن ليكون ذلك أدعى للاعتبار والحكمة إذ في كل مرة تظهر حكم ليست في غيرها ، فهنا لا بد من ذلك (السبب الثاني) في أننا هنا نريد أن نفهم الحكمة في جملة سراجنا منيراً ، ولسنا نعرف للشبه إلا بعد إدراك الشبه به فإذا لم تفصل الكلام

فيه لم ندرك المشبه بقدر طاقتنا ، فإذا فصلنا الكلام في المشبه به هنالك ندرك للشبه ، ولا جرم أن هذا من التشبيه المركب ، وأعظم التشبيه للمركب مقاله بشار وغفر به وهو :

« كان مثار النفع فوق رءوسنا الخ »

فالتشبيه للمركب الذي قاله محمله أن غبار الحرب المحيط بالشجيمان تتخلله السيوف اللوامع ذاهبات آيات مرتفعات منخفضة . مشبه هذا كله بليل داج حالك تساقطت فيه الشهب من السماء . تتخلل أكنافه لامعات متقابلات كثيرة الحركات .

هذا أعظم تشبيه عند العرب كما يقول علماء البيان . فلو لم نعرف للمشبه به هنا لم يمكننا إدراك المشبه . قال : حسن هذا ولكن للقيام هنا صعب كيف نصل إلى أن يكون النبي ﷺ كالشمس في هذه الحركات . فقلت إن الله شبه القرآن بالصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق . فهذا التشبيه للمركب أرقى من تشبيه بشار للتقدم ألا ترى أن القرآن شبه بالمطر وهو الصيب . والوعيد في القرآن شبه بالرعد . والبرق شبه بالحجج . ومن يمرض عن سماع الوعيد يشبه بمن يضع أصبعه في أذنه خوفاً من الرعد ، ومن يسمع الحجج في القرآن ثم يمرض عنها كمن يمتنى في البرق وإذا أظلم وقف ولم يتحرك . فهذا التشبيه للمركب أوسع نطاقاً من تشبيه بشار . وقد تقدم هذا في (سورة البقرة) .

هنالك قال صاحبي : « أسمع جسيمة ولا أرى طحنا » . ماذا أفدتنا بهذا التشبيه ؟ أنا أعرض عليك من (وجهين : الأول) إن الآية هنا أنه ﷺ سراج منير . ولكن أنت تذكر أن القرآن مشبه بالمطر ورجت في قولك إلى ما ذكرته أنت في أول البقرة (الوجه الثاني) إن أول كلامك أفهمنا أنك ستظهر لنا سرا مصوناً من تاريخ النبوة يشبه ذلك السر للصون الذي ظهر في الشمس لأنها بحرارتها وحدها كانت منها الرياح الموسمية ونسيم البر والبحر والرياح الاستوائية والرياح التجارية المنتظمة والرياح الضدية والرياح القطبية . وكل هذه حاملات سحبا وسفنا ونعما . فأنت لم تأت لنا بهيئة في النبوة تناسب المشبه به ، وغاية الأمر أنك رجعت إلى علم التشبيه الذي أنت نهيت عن الوقوف عنده لأنه أمر لفظي . والأم الإسلامية الآن قد عرفت من آثار النبوة ما لم يكن فيها مضي في الزمان الأول . وقد نقلت أنت عن العلامة السيوطي في كتابه « الاتقان في علوم القرآن » في (سورة العنكبوت) أن الأنبياء كانت معجزاتهم كلها حسية . أما معجزته ﷺ فهي راجعة إلى ما سيظهر في القرآن للأمم والأجيال من المعاني التي تتجدد بتجدد الأمم والأجيال . وملخص اعتراضى (أمران) أنك لم تذكر النبي ﷺ في التشبيه بل ذكرت القرآن . وأنت لم تأت بما كنا نترقبه . فقلت له : أليس عندك اعتراض بعد هذا ؟ فقال لا . فقلت من عجب أنك في هذا الاعتراض أشبه هؤلاء الذين يقال إنهم يقرءون الأفسار . إن كل ما قلته هو الذي ستسمعه وغاية الأمر أني أتيت بهذا التشبيه مقدمة فقط للجواب الشافي ، فلو أنك صبرت على لوجدت الجواب على النحو الذي ترضاه فقال :

« أنتم برد جواب ما أنا سائل عنه ففار العلم ذات تشعشع »

فقلت إن النبي صلى الله عليه وسلم في جزيرة العرب وهناك أرسل الجيوش هو وأبو بكر وعمر وبقية الخلفاء إلى أطراف جزيرة العرب والفرس ومصر وبلاد المغرب والأندلس والسودان وهكذا في جهة الشرق إلى بلاد الهند والصين ، فهذه الجيوش كالرياح والقرآن معها كالسحاب ، فإذا كانت الشمس أرسلت بحرارتها رياحاً في الهواء عند خط الاستواء وكانت لها فروع وفروع وكانت الرياح الموسمية ونسيم البر ونسيم البحر وهكذا وحملت تلك الرياح السحب فأمطرت الأرض ، هكذا هذه الجيوش الجرارة المجاهدة والعلماء والفقهاء والحكام الإسلاميون هؤلاء كلهم هم رياح مختلفة الأشكال يسمون بأسماء مختلفة ، هؤلاء يحملون السحاب ، فالقرآن منزل عليه

صلى الله عليه وسلم والجهاد بتعالجه . ثم إن الدين انتشر بالدعاية ، فلننظر إلى رياح الجهاد الواسعة إلى الأندلس
لنجعلها مثالا لنا لنستدل على الباقي ، أليس الاسلام بقي في الأندلس (٨٠٠) سنة ؟ أليس هو كالرياح التي
وصلت إلى أحد للدارين (الجدى والسرطان) وقد قلنا إن الرياح هنالك انقسمت قسمين قسم رجع إلى خط
الاستواء ، وقسم ذهب إلى الدائرة القطبية ، فانظر الشكل السابق ، هكذا السحب الاسلامية التي وصلت مع
رياح الجهاد إلى الأندلس قابلها القوم أيام (ابن رشد) بحرارة التعصب ضد العلم لأن العلم عند هؤلاء قد
اعتقدوا أنه يناقض الدين فارتفع عنهم إلى أهل أوروبا وأخذ يرقى القوم وقد نام للسلمون إذ ذاك نوما عميقا .
ولأذكرك بمسألة وهي أن اقرب العالمين لارب المسلمين وحدهم ، وإذا خلق الشمس فلم يخلقها للمسلمين وحدهم
بل خلقها لأمة ولكواكب كثيرة إذن نبينا صلى الله عليه وسلم جاء لإيقاظ أهل الأرض مهما كانت تخلفهم
وأديانهم كما أن الشمس لأهل الأرض جميعا لأن الله رحيم ورسوله رحمة للعالمين .

إذا فهمت هذا عرفت السر في أن أوروبا لما أخذت علم (ابن رشد) كما عرفته في غير هذا المكان قامت
من رقدتها وهنالك حصلت هناك شعبتان شعبة توجهت إلى أمريكا في أيام اضطهاد المسلمين للعلم ففتحت أمريكا
وشعبة رجعت إلى الشرق بالحروب الأوروبية ، فها نحن أولاء نرى أهل أوروبا لما أيقظتهم الحروب الصليبية
التي تشبه من كل وجه الرياح التي تأتي من الدارين إلى خط الاستواء رجسوا إلى بلادهم ووجهوا مهمهم إلى
أمريكا من جهة وإلى أمم الإسلام والشرق من جهة أخرى . فهم فتحوا أمريكا فارتقت وهم جازرا بلادنا
بحاربوتنا ومعهم تلك العلوم التي تصرفوا فيها وبقوا بها بعد أن أخذوها من آباؤنا . أليس هذا بعينه هو الحاصل
من الشمس ؟ شمس تشرق على خط الاستواء فتشير الرياح فنصل إلى مداري (الجدى والسرطان) فتكون
هنالك ريحان : إحداهما تتجه إلى خط الاستواء . والأخرى تتجه إلى جهة ضدها . فهنا كذلك أتجه الاسلام
إلى بلاد الأندلس ، ولما استقر هنالك العلم مدة كره السلمون العلم فعمله اليهود إلى أوروبا فدعشت من هذه التعاليم
فأخذت ترتقي ، وتوجه منها قوم إلى أمريكا وطردوا السلمون من بلادهم لأنهم جهلوا العلم والدين ، وهام أولاء
بمخرون وراهم في شمال أفريقيا وفي آسيا . فهذا نفسه هو الذي حصل في الرياح بحرارة الشمس إذ توجه
منها تياران مختلفان لما وصلت الرياح إلى الدارين . فهكذا هنا تياران مختلفان . فأما أمريكا فقد ارتقت وبقى
أمر أمم الإسلام فهذا دورهم ولا عيب لنا في ذلك فإن الرياح الجارية من خط الاستواء تحمل معها الرياح
الآتية من الدارين . وإذا كان هذا طبيعة ملك الله فالنسر على نظامه ولعلم أن هذا هو وقتنا وأيام رقتنا ، ومماثل
هذه الأمم الإسلامية مع دينها إلا كمثل أرض نزل عليها الغيث فأبنت نباتا حسنا ولكن تركت بركا ومستنقعات
هنا وهناك لعدم الصلحين للأرض وهذه البرك أخذت تكثر وتزداد على مدى الأيام فبعد أن كانت الأرض
أخذت زخرفها وازينت أصبحت كلها حشائش ومياها مرة قنرة . وأرضا مستوحمة كثرت فيها الأمراض
والجدري والحصباء بجمل أصحابها .

هذه حال المسلمين لما نسوا الشمس المحمدية وناموا على كلام شيوخهم المنفرقين وظن كل شيخ طريقة
أو عالم مذهب من مذاهب الإسلام أن الدين هو ما يعرفه وما عداه لا يجب عليه ولا على الناس حار الناس
كأنهم في مستنقعات وبرك ، ولذلك ترى المتدينين والحارجين وأصحاب المذاهب السقيمة كثروا في الإسلام فهؤلاء
كألاء الراكد أضروا بتلاميذهم وحججهم عن العلم فدلوا ، وكما أن الشمس تطهر الأرض هكذا النور المحمدي
بالرجوع إليه يستيقظ المسلمون .

فلما سمع صاحبي ذلك قال هذا حسن ، ولكن من المسلمين من منع عنهم المستعمرون العلم . فقلت
ولكن لا يمنعون القرآن ولا هذا التفسير ، وهذا التفسير وأمثاله في أمم الإسلام كثير منه يفهمه كثير من
العقلاء وإن لم يكونوا متعلمين العلوم الحديثة ، وهل للمسلمين عذر بعد الآن ؟

فأمر أيها الذي مذهبك الذي تعلته في العبا ، فليس يناقض هذا التفسير لأن المذاهب كلها في أمور عملية جزئية وهذا في الأمور العامة ، ومنه تظهر لك بعض أنوار الشمس المحمدية التي بها تعرف أن وقوف المسلمين في هذه البرك والمستنقعات المملوءة من الحيوانات الذرية الفسكية الضارة بالمسلمين هلاك لهم وهم أجبر بالسعادة والرفق من جميع أمم الأرض .

فقال صاحبي : الآن فهمت ولصكن أين موازنة نبينا صلى الله عليه وسلم بأعظم الفلاسفة . قلت إن أفلاطون ألف جمهوريته وهي أعظم كتاب ألّفه عالم في الأرض كلها ، وهذا الكتاب علم عرف الأمم كيف تنظم الحكومات والجنود والعامة وما الذي يرقبها ، وما الذي يخفضها ، وتقدم تلخيصها في هذا التفسير ومع ذلك لم نجد لهذا الفيلسوف دولة ، بل إنه مع شهرة كتابه الآن وانتفاع الأمم به لم يحدث جزء مما أحدثه هذا النبي العربي الذي استحق بمقتضى التاريخ ونتائج أعماله أن يسمى « سراجا منيرا » لأنه حرك الكرة الأرضية كلها حتى إن الحركة وصلت إلى اليابان والصين ، فاليابان ما حركها إلا تعاليم أوروبا والصين كذلك ، فحركات الإصلاح توجه شرقا وغربا وجنوبا وشمالا بسبب الحركة الإسلامية . إذن هو صلى الله عليه وسلم نفس منير حقا وبه ارتقت أوروبا وأمريكا واليابان والصين والسلطنات الحالية التي جنى عليهم جهل آباءهم المتأخرين سيأخذون دورهم في الرقي وتهب رياح سعدم إلى الأمم ككرة أخرى تحمل لهم علما غزيرا .

فقال صاحبي : إن هذا البيان عجيب وأنا أحمد الله عليه . قلت الحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الأحد ٨ ديسمبر سنة ١٩٢٦ م

﴿ زيادة إيضاح في بعض أسرار قوله تعالى « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا » ﴾

لقد تم الكلام على تفسير هذه الآية وإيضاحها ولكن لا بد من إيفاء المقام حقه من حيث العمل بهد العلم في بلاد الإسلام . لاجرم أن ضوء الشمس له منافع حمة في علم الطب . ولقد أكثر الأطباء من تعداد منافع التعرض للهواء والشمس نابذين تعاطى الأدوية من الصيدليات في أنحاء العالم . ومعنى هذا أن الأطباء في العالم اليوم رجعوا فعلا إلى منافع ضوء الشمس والهواء والتداوى بما هو طبيعي وهام أولاء ينكرون كل الإنكار ما يزاوله الأطباء غالبا من اللداواة بالمعاقير المشهورة ويقولون إنها تحدث أمراضا وأمراضا . وهذا القول نقلته في (سورة البقرة) عند قوله تعالى « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير » وهكذا ترى كثيرا منه (سورة الأعراف) عند آية « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » وفي (سورة الحجر) في أوائلها عند الإشارة إلى قصة آدم وفي (سورة طه) عند قصة آدم أيضا وفي (سورة الشعراء) عند آية « وإذا مرضت فهو يشفين » .

فقرى في هذه المواضع ما يغنيك في علم الطب ويرجعك إلى المعالجة الطبيعية ومن أهمها ضوء الشمس . هذا في شمس السماء وهي الشبه بها ، أما الشبه في الآية وهو رسولنا صلى الله عليه وسلم فإنا نريد أن نعرف لماذا كان هذا التشبيه وما فائدته لنا معاصر المسلمين الآن بطريق أجلى بحيث نعرف من هذا التشبيه ما عرفه الأطباء في علمهم ، فإذا كان الأطباء رجعوا إلى ضوء الشمس ونحوه في طبهم وهم مصيرون فهل أمراض المسلمين الاجتماعية يكون الشفاء منها بنفس هذا التشبيه وبقوله تعالى « وسراجا منيرا » هذا ما أريد بحسه اليوم فأقول : اللهم إني أحمدك حمدا كثيرا على نعمة العلم وبهجة الحكمة . اللهم إنك أنت الذي أعنت ووفقت

وشرحت الصدر ودبرت الأمر ووعدت ونصرت وأوفيت العهد، فأنا أسألك اللهم أن تجعلنا وافرين بمهدك حتى نستحق منك هذا الوفاء وهذا الجليل وهذه النعم العلية التي نحن نقرّ بها ونحمدك عليها .

أيها اللذي : أكتب هذا صبيحة يوم الخميس ١٩ ديسمبر سنة ١٩٢٩ م ذاكرا مااتفق لي أمس الأربعاء (١٨) منه ، ذلك أني أحسست بألم من البرد في كفتي اليسرى ولقد اعتدت أن أتعرض لضوء الشمس متى أحسست بهذا الألم منذ سنين طويلة فيذهب ذلك المرض ، ومن أعجب العجب أني قبل أن أعرف بالضوء الشمس من الفوائد ولم أقرأه في كتب الأطباء ، وبعد ماجرته صح عندي .

أقول : إذ ذاك قابلت طبيبا مصريا فسألته : لم لم يظهر الأطباء فضل حرارة الشمس مع أني أنا عرفت منفعتها في شفاء جسمي ؟ فكان جوابه : لقد وضعوا الأدوية الحارة وهي من نوع حرارة الشمس فسكت ورضيت بهذا الجواب ، ثم بعد ذلك اطلعت على فوائد الضوء التي تقدم في هذا التفسير مشروحا شرحا مستفيضا من أقوال نفس الأطباء فدل ذلك على أن ذلك الطبيب الذي سألته قبل ذلك كان مقصرا أشد التقصير في جهله الأمور العامة وحصر فكره في العقايق الطبية فمثل كمثل كثير من علماء الإسلام في القرون التأخرة الذين حصروا عقولهم وأضاعوا مهجهم ووضعوا نبوغهم في المسائل الجزئية من الطلاق والبيع والحبض والنفاس ولم يرفعوا رؤسهم إلى الشمس للشرقة المحمدية فيدرسوا نفس القرآن ونفس السيرة المحمدية وسير الصحابة والتابعين ليستخلصوا من ذلك رقى الأمم الإسلامية للسكينة . إن نسبة هؤلاء في علومهم المحصورة كنسبة الأطباء في حصر عملهم في العقايق المشهورة ونسبتهم في رجوعهم إلى القرآن وتفسيره بالهيئة الحديثة التي رأيتها كنسبة رجوع الأطباء إلى التداوي بالماء وبضوء الشمس وبالهواء النقي .

أقول : لما أحسست بذلك البرد توجهت إلى الحلوات خارج القاهرة وجلست في مكان قصي نحو ساعتين متعرضا للشمس على عادتي ، وبينما أنا كذلك إذ صاحني قد تتبع خطواتي فسمعت نبأه خلني فسلم وحبا وجلس وقال فم تفكر الآن ؟ ققلت وإذا عرفت أني أفكر فلماذا قصدت قطع التفكير ؟ فقال قصدتك بعد مدة كافية تمام الفكر ، ققلت أنا أنظر إلى الشمس وإلى السحاب وأعجب من مهرجان وعرس وأفراح في هذا الجو . أنظر : ألت ترى السحاب يحيط بالآفاق شرقا وغربا . ها أنا ذا جالس على هذا الرمل وأرفع طرفي فأرى قبة زرقاء تحيط بي مهندسة الشكل بديعة الوضع حواشها موشاة بالسحب الملجلة لآفاقها ، وها هي ذه تنابل ذات اليمين وذات الشمال وتتقارب وتتباعد . أفلمت ترى أن هذه هي عين مايفعله الناس في أعراسهم وأفراحهم وولائمهم في عقود زواجهم ، الناس شرقا وغربا قديما وحديثا يصنعون الولائم فيضربون الطبول ويطلقون الرصاص من البنادق بل القنابل من مدافعهم . ولهم أغان ينشدونها ومجالس ابتهاج مجموعهم وأنعام يذبعونها وصدقات يوزعونها وأعلام يرفعونها . لم هذا كله ؟ لاقران قتي بفتاة أو ولادة وله . والمظاهر عادة تتبع في ضعفها وقوتها العسر واليسر والفقر وكل امرئ بقدره .

فإذا كانت هذه طبيعة الإنسان فهي مجمع عليها وإجماع الإنسان على عمل واحد يكون له شأن الفطرة والفطرة صادقة . فلم هذا كله ؟ نظرنا فوجدنا هذا الاقتران نتيجته الولادة والولادة ترجع إلى وجود حي على الأرض .

إذن هذا الانسان إنما يكون فرحه بالوجود ، فلا فرح إلا بوجود ولا حزن إلا على مفقود ، ثم ننظر فترى أن الثرية التي فرح بها الإنسان ربما تموت وربما يموت الأب قبل كبر الابن ، فدلنا ذلك على أن هذا الفرح فرح جزئي لا كلي لأنه ليس بدائم ، وماليس بدائم لاقيمة له ، إذن عواطف هذا الانسان وهذا الحيوان عواطف جزئية جعلت غرائز لأعمال جزئية لا دوام لها ، فلننظر إذن في العوالم التي منها خلق هذا

الإنسان ترى هذه الأفراح والأعراس تقام في السماء دائماً في يوم أن خلقت السموات والأرض ، ولن تقام تلك الأعراس إلا ابتهاجاً بالوجود العام كما أقامها الإنسان للوجود الخاص ، وعظمة أفراس السماء مناسبة لعظمة الوجودات التي أقيمت الأفراح لها .

انظر أيها التركي : ألسنت ترى هذه الشمس تحتفي تارة وراء هذه السحابة وتارة تظهر كأنها تفعل فعل الناس في أعراسهم يظهرون أفانين اللاب ، وبعد الاختفاء يظهر وجهها كرة أخرى وقد رفعت تقابها تحييني أنا وتحيك بالسلام وهي بسامة ، ثم إن أفراس السماء عامة ، فها هي ذه أمامك في جميع جوانب السماء لأن هذا الفصل فصل المطر وقد جعل المطر للحياة . فأفراس السماء ترى :

(١) السحاب (٢) والرعد والبرق .

(٣) وأصوات الرياح الغنيات بأعواد الأشجار .

(٤) والأعشاب والزروع الرافعات على تلك النعمات وفيها الطيور المرددات بأنواع النعمات .

(٥) وهل فعل الإنسان غير ذلك في أعراسه .

مدعون كالسحاب كثرة وقلة وإطلاق الرصاص من البنادق والمدافع يحدث صوتاً مشاكلة للرعد وضواً مشاكلة للبرق وضرب الدفوف والطبل مشاكلة لأصوات الرياح والرقص والغناء كرقص الأشجار وغنائها وغناء الأطياف .

ولكن الفرق بين العرس الذي أقامه الله وأعراس الناس أن عرسه دائم بدوام السموات والأرض يراه الآباء والأبناء وعرسنا ذاهب جزئي مقدر بمقدار عواطفنا وأحوالنا . ثم إنما مثل المسلمين السابقين بعد العصور الأولى الذين هم خير العصور للتصديق على دراسة القشور من دين الإسلام في اقتصارهم على كتب خاصة في المذاهب المعروفة كمثل أهل الأرض في إقامة الزينات وإعداد الولائم في أعراسهم الجزئية وحال المسلمين الذين يقرءون اليوم أمثال هذا التفسير وينظرون في القرآن ويفهمون هذا الوجود فهما حقاً ، إنهم يرون ما أراه أنا وأنت اليوم أيها التركي فقال وما هو ذلك ؟ قلت إنني أنظر فأرى أن هذه الأعراس والزينات المقامات في هذه الآفاق مقصودة لدعوتنا أهل الأرض أن نشاهد العرس الأعلى والأوسع نطاقاً . فهمة العاقل تتجه إلى النبل الأعلى والثل الأعلى هنا أن نعرف لم دامت هذه الزينة السماوية دائماً ؟ فقال لدوام الوجود من حيث الكليات كالسكواكب ومن حيث الجزئيات كالمواليد على الأرض . قلت إذن سينتج نظر المسلمين بعدنا إلى هذه الأعراس العامة ولا ينحصر نظرهم في الأعراس الخاصة . قال إن شاء الله فيدرسون الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والهواء . وهناك يفرحون ويفرحون « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » وهناك يفهمون لماذا قال الله هنا في الآية « وسراجاً منيراً » .

ومنى برزت الشمس قتل ضوءها كل السكروبات (الحيوانات الذرية) وأزال العفونات من الأرض . فهكذا متى درس المسلمون أمثال ما نكتبه في هذا التفسير زالت تلك العفونات العلية والأخلاق الوراثية التي خلفها أناس من قبلنا لم يرفع شيوخهم أعينهم إلى معرفة نفس القرآن ونصوصه ولا إلى جمال الله وإبداع تركيبه . وهناك سينتج الجميع وجهة واحدة فيعرفون الجمال الأسمى والحكمة في هذا الوجود . وهناك يفرحون بالوجود الأعلى وهو الوجود الدائم ، وجود رافع هذه الزينات ومرسل الرياح في الآفاق ومعلم الطيور أنواع الغناء . ومطلق في الجوارح أصوات الرعود ولألاء البروق والجمال فبدل ، أن يفرح الناس بمولود يموت وبزوجات ستفارق وبنم سزول . يفرحون بوجود هو الحاضر الدائم الذي لا يفارقهم ،

وهناك يطون أن تلك الأعراس وتلك الزينات الجزئية ما هي إلا مدرسة صغرى ومتممات لنهم الأعراس الكبرى، ومتى عرفوا أن هذه الأعراس والأبناء كلها فانية توجهوا للعرس الأكبر ولبن أقام زينته ونصب خيمته وهو الوجود الذى لا ابتداء له ولا غاية . هناك يرتقى السلمون ارتقاء لاحد له وتضمحل تلك الحزازات الحقيمة الصغيرة التى ولدها قصر النظر الذى طال أمده إذ يرون دراسة الوجود كله دراسة القرآن وما الخلاف فى الإسلام إلا كاختلاف الأشجار ورقا وطعما وجمالا لا غير .

وهذه العقول الاسلامية بعدنا "تق يكون فرحها وعلومها كلها متجهة إلى نظام هذه الدنيا بسمعون فى الدنيا وفى الآخرة لأنهم يعرفون الرحمة التى تقدم تفسيرها فى أول (سورة الروم) وما جسدتها للبتحة ويوتون بأن من جعل هذه العوالم خادمت لكل إنسان ليس يرسل آلاما مخلوق إلا لفائدة ذلك المخلوق وهو لا يدرك حكمها، ولأنهم يوقنون بعد دراسة ما تقدم بذلك كل الإيقان . وهناك فقط يعرفون معنى قوله تعالى « يدبر الأمر بفصل الآيات لعلمكم بقاء ربكم توقنون » فلا إيقان باللقاء ولا فرح بذلك اللقاء إلا بعد تفصيل الآيات التى جاء بعضها فى هذا التفسير وبدون ذلك لا إيقان بل هو إيمان . فانه أخذ يفصل الآيات اليوم فى الكرة الأرضية . وها نحن أولاء ذكرنا بعضها وسبقنا بياقها من بعدنا . وها هي ذه أيام اليقين قد أقيمت ، ويدرس السلمون نظام الدنيا ويرفعون شأنها ويرجعون إلى ربهم فرحين به مستبشرين .

فقال صاحبي: فاذا كرر لنا كلتين فيما رأيت اليوم من الأفراح كلمة عامة وأخرى خاصة حتى يكون ذلك نموذجا لتفكيرك اليوم . قلت أما الكلمة العامة فإني أقول لك إنك بحق لك أن تقول إن هذه القبة السهوية والأرضية وما بينهما . وهذه الأعراس الطبيعية القائمة الآن هي لك أنت . قال وهل الوجود ليس فيه غيري ، قلت إنها لك أنت . فقال ما البرهان ، قلت أنت من الأمة المصرية البالغة ١٤ مليوناً وارتناؤها بنفسك وضمها يضرك . قال حقا هذا . إذن كلهم نافعون لك إجمالا . قال هذا حق . قلت والأمة المصرية بينها وبين الأمم علاقات التجارة والبريد والطرق الجوية للطائرات والبريد الجوي والبحري وهكذا ، قال حقا . قلت فكل الأمم نافعات لها . قال نعم . قلت ولك ؟ قال ولى . قلت الشمس والهواء والسحاب كلها نافعات لك ولأمتك وللأمم والحيوان والنبات الخ . إذن هذه الشمس وهذا الهواء مسخرات لك لأنها نعمت الأمم النافعات لأمتك النافعة لك . إذن العوالم كلها تخدمك ولا ينافي هذا أنها تخدم غيرك لأن هذا نظام الهى يحار فيه العقل . فكما خدمت الأمم كلها والعوالم تفك هكذا أنت تخدم خادما لأمتك ولأمم غيرها بطريق غير مباشر . هذه هي الكلمة الكلية العامة .

أما كلتي الخاصة فإني أقول إن هذا الإنسان لن ينال السعادة التامة إلا بعد معرفة الحقائق معرفة تامة والمعرفة التامة فى هذه الدنيا مستحيلة لأنه محبوس فى جسده بل هو محبوس فى مجن مظلم ولم ينل من العلم إلا قليلا لأنه محوط بالأم داخلة وأخرى خارجة كالمسجونين فى سجون المجرمين فى عالم الأرض ولكنه وهو هنا قد يتلصق بعض الجمال من خلال نوافذ السجن كما سأوضحه هنا فأقول :

إني اليوم لما توجهت لتقاء الغراء وفسبح الخلاء لم أجد هاديا يهدينى إلى الطريق إلا ضوء الشمس ، هذا الضوء لولاه لم أعرض الطريق . وهذا الضوء هو نفسه الذى بسببه امتص الورق فى الأشجار مواد الكربون (الفحم) البائع جزءا من ألف جزء من الهواء كما استراه موضعا مشرقا فى (سورة يس) عند قوله تعالى « سبحان الذى خلق الأزواج كلها » الخ . فالضوء به كان هذا الورق فى الأشجار المحيطة بنهر النيل حولي

وسترى هناك فتحات الورقات مصورة بالمصور الشمسي وقد شرحها العلماء فقالوا : إن كل فتحة توصل إلى حجرة ذات حوائط شفافة مغطاة بستة يديع وفي داخلها مادة سائلة يعوم فيها مادة خضراء بها تكون خضرة النبات ، وفي الورقة الواحدة قد يكون نحو مائة حبة أو مائتين وقد يكون فيها ألوف بل ألوف ألوف في نفس الورقة الواحدة وكلها بهذا الصنع للتفنن ، فإذا أيقن المسلم بذلك وهو لا شك يوقن لأنه يشاهد بينه تلك الحجرات ويقرأ شرح العلماء لها .

فهذا الإيقان الذي منحه الله لقراء هذا الكتاب ستخرج به طبقات ممتازات في بلاد الاسلام يرضون أهمهم إلى أعلى درجة في السكال ، وهل يفكر الجاهل في ضوء الشمس ؟ وأنه نعمة ؟ . كلا إن أكبر هذا الإنسان لا يرى نعمة إلا ما اختص به أو كان ممنوعا عنه فبذل له كالغني بعد الفقر .

إن من عرف ربه بهذه الرحمة أيقن أن الآلام والمصائب المحيطة بالانسان لم تخرج عما تفضله الحكومات الأرضية في الناقصين من بني آدم إذا سجنوم ، واستنتج من ذلك أن هذا الحكيم لن يفعل ذلك فينا إلا لنلحق بعالم أهل من هذا العالم الناقص كما تفعل حكوماتنا في الناقصين منا حتى يصلحوا لأن يبشوا معنا غير مفسدين لأنما ، وهناك تخرض هذه الطبقات الممتازة أمم الإسلام على الاعتراف من الحكمة والعلم . وهذه الطبقات الممتازة في بلاد الإسلام للؤمنة بهذه الرحمة الواسعة تكون صفاتهم للممتازة أنهم يحبون أهمهم بل كل أهل الأرض ويسعون لرتبهم ويفرحون ببقاء ربه .

فهم إن عاشوا عاشوا سعداء مسعدين ، وإن ماتوا ماتوا فرحين ببقاء ذلك الحبيب الذي أسعدهم بالحجرات وهذبهم بالنعم ، فالتم والنعم سيات عند قراء هذا التفسير وأمثاله .

واعلم أيديك الله أيها الذي أن كل ماورد من صفات هذه الأمة ونخلها وأنها خير أمة أخرجت للناس قد تم بضعه أيام النبوة وفي عصر الراشدين ومن نحوهم . وسينم باقيه بعد نشر أمثال هذا التفسير إذ يتبوا للمسلمون متبوا العلم والحكمة وحب الله للبي على الإيقان وإدراك الجمال والحسن والبهاء والاشراق وإسعاد العالم الإنساني . وسيكون نبراسهم « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا » إلى قوله « وسراجا منيرا » فهذا تفسير هذه الآية وسيظهر أثره للعالم الانساني « والله هو الولي الحميد » اه .

آثار النبوة وانتشارها في أوروبا

(وكيف نرى العلماء فيها هم الذين يعتقدون هذا الدين وذلك من آثار كونه

صلى الله عليه وسلم «سراجا منيرا»)

ذكرنا فيها تقدم قريبا رسالة عبد الله كويليام الانجليزي الذي أسلم مع نبذة من ترجمة حياته وهي الرسالة السنية [الجواب الكافي] وقد ترجمها إلى العربية الأستاذ زهدى الخماش ، وتزيد على ذلك الآن ما جاء في جريدة الأهرام بتاريخ (١٠) يناير سنة ١٩٣٠ م ، وهذا نصه :

المستشرق الفرنسي الميسو ايتان دينيه

(السيد ناصر الدين دينيه)

للسلم الفرنسي وللصور الشهير

مات هذا للمستشرق النابه وقد احتشد حوله لتوديعه الوداع الأخير العدد العديد من كبار قومه الرميمين ومن أصدقائه وعارفي فضله من أهله ومن غير أهله من ممثلي الشعوب الشرقية التي أحبا وخدمها، وقد وجب علينا وإن كنا لم نقف هناك في باريس مع الواقفين خاشعين أن نبعث إلى روحه الطيبة تحيات السلام والاعتراف بالجميل .

أحب للميسو دينيه حياة العرب وهو ذلك الفنان الكبير فأخذ له بينهم مقاما محمودا في بلاد الجزائر في تلك الواحة السعيدة الهادئة الجميلة (بوسعادة) ينتقل إليه يسكنه نصف العام كاملا . يرتاح للعرب وجيرتهم ويروح عن نفسه بينهم وينعم بما في حياتهم من جلال تلك اللواقب الماثورة عنهم وتلك للكارم المعروفة بهم والتي لا يميل إليها إلا عشاق الحيال السامى ولا ينشدها إلا أهل الفضائل العالية ، وقد وضع في حياة العرب كتابا جميلا جليلا ملاء باللوحات البديعة من ريشته القادرة ذات البلاغة في تصويرها والبيان في صمتها .

واللسيو دينيه يبلغ من العمر سبعين عاما . وهو من كبار أهل الفن ورجال التصوير ، وصاحب اللوحات الكبيرة النفيسة القيمة ، زدان بها جدران المارض الفنية وتحفظ بها للتاحف الفرنسية الكبيرة وغيرها من متاحف العالم، وله في متحف لو كسبرج (وهو متحف كبار المصورين المصريين بباريس) عدة صور منها الصورة الشهيرة المعروفة باسم (غداة رمضان) وكذلك له صور في متحف (بو) وكذلك في متحف (سدني) بأستراليا وغير ذلك كثير .

وجميع صورته تدل على القدرة الفنية الكبيرة في رسم الصحراء وتصوير حياة الصحراء ، كما تدل على دقة التعبير عن الحالات النفسية المختلفة . وهو ذو مركز خاص مشهود به بين إخوانه المصورين وامتاز عنهم بتخصصه في تصوير الحياة الاسلامية وبالأخص ما كان منها في بلاد الجزائر .

وقد درس الروح العربية وفهمها الفهم الصحيح حتى قيل عنه إنه الصور الفريد بين إخوانه الذي يستطيع تمثيلها بالريشة والألوان والأصباغ أحسن تمثيل، وهم يقولون عنه إنه الصور (العربي) .

وقد جاءت ترجمة اللسيو (دينيه) وأعماله في معجم (لاروس) الكبير وفي معمله (هاشيت) للفنون الجميلة وله عدة مؤلفات منها كتاب حياة العرب الذي ذكرناه ومنها كتاب السراب، وكتاب حياة الصحراء، وكتاب ربيع القلوب، وكتاب الشرق كما يراه العرب . وكلها تشير إلى مافي طبيعته من الخلق الطيب وما يعمل في قلبه من الحب والتقدير للشرق والشرقيين .

ومن أم كتبه ما جعله تاريخا لحياة الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو السيرة النبوية في مجلد كبير جليل وضعه باللغة الفرنسية وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة للتعدده ، من ريشته الخاصة يمثل فيها للناظر الاسلامية ومشاهد الدين ومعامله . وطبعه طبعا غاية في الاتقان والعناية حتى إنه بعد تحفة من تحف الطباعة كل ذلك تقديرا منه لموضوعه . ثم إنه قدمه لأرواح الجنود الإسلامية التي استشهدت في الحرب الكبرى وهي تحارب في صفوف الفرنسيين . ونشره كذلك باللغة الإنجليزية بنفس الحجم الكبير والاتقان التام :

والكتاب في طبعته قد تحل بمختلف أنواع اللوحات الزخرفية الملونة ذات الأشكال العربية غاية في الدقة ، والإبداع . وهي اللوحات التي قام بعملها خاصة لهذا الكتاب السيد محمد راسم الجزائري أشهر رجال الزخرفة العربية ، والذي أشار إليه السيّد الأستاذ بجامعة الجزائر ومدير متحفها وذلك في المحاضرة التي ألقاها في النادي الفرنسي بالقاهرة في شهر مارس سنة ١٩٢٩ ويبلغ ثمن النسخة الواحدة من هذا الكتاب خمسة جنيهات مصرية .

وما نظن أن العالم العربي قد قرأ للسيد (دينيه) شيئا بالعربية قبل تلك الرسالة التي عربناها له (أشعة خاصة بسور الإسلام) والتي نشرت بمصر في هذا العام ، وهي التي جعلها بحثا عصريا في مبادئ الدين الإسلامي وأراد إظهار هذه المبادئ واضحة جلية وأنها تفضل مبادئ المدنيات الحاضرة ، ولعل هذه الرسالة هي آخر ما كتب اللهم إلا إذا كان قد فرغ من (رحلة الحج) التي كان قد ذكر لنا أنه يشغل بتدوينها بهمة ونشاط وذلك عقب عودته من بلاد الحجاز هذا العام بعد أن أدى فريضة الحج ، وإذا سمحت لنا الحقيقة أن نقرر شيئا فإنه ذكر لنا في كتابه علينا أنه لاقى من التعب والشاق الكثير ، الكثير رغم ملاقاته من التكرم والعناية الخاصة ورغم نسيانه للشفعة في سبيل الله وهو يدعو إلى إصلاح وسائل النقل والصحة وتنظيم الحياة لأولئك الألوف من الحجاج الذين يأتيون رجالا (وعلى كل ضامر يأتيين من كل فج عميق) .

والسيد دينيه كاتب رقيق العبارة واسع الاطلاع لذلك هو صحيح الحجة ناهض البرهان ثم هو شديد المحوم شديد الدفاع ، ذلك لأنه غيور على مبدئه الذي لم يتخذه إلا بعد بحث وتفكير . وقد أعلن إسلامه رسميا بالجامع الجديد بمدينة الجزائر في اجتماع حافل عام ١٩٢٧ وطالب أن يدفن في قبره مسلما حنيفيا . وهو القبر الذي شيده لنفسه في بلدة (بوسعادة) بالجزائر وقد ذكرت الأهرام في تفرقاتها الخصوصية أمس أنه سينقل إليها من فرنسا وفق وصيته ، ويقول إنه لم يسلم اطعم أو مغم (والرجل غنى موسر الحال) وإنما أسلم إرضاء لقيمه وضميره وأنه ناقض الناصرين والظالمين فخرج من (دينيه) إلى (ناصر الدين) .

وله في بيان فضائل الشرقين عامة والدفاع عنهم جولات قلبية ولوحات تصويرية تشهد له باخلاصه في حب الشرق وتقوم دليلا على حبه للعدل والإنصاف . وقد استغفنا بعضهم عن أمر الشرق والغرب فكتب يقول إن الغرب عظمى النظر إلى الشرق مع أن للشرق على الغرب أفضالا متواصلة في مدينته ، تغافلته في حياته ذلك من أثر الدينيات التي هو مدين فيها للشرق ومن أثر المعاملات والاقتصاديات التي منشؤها اليهودية الشرقية . ومن أثر الحياة الشريفة والهمة القعساء التي منشؤها أنظمة القروسية العربية . ومن أثر علم البحار وعلم السماء وعلم الأبدان وعلم الكيمياء التي ابتدعت أصولها العقول الشرقية .

ويقول إن الشرق لم يضر للغرب الإساءة ، وإن الغرب يخطئ إذ يظن أن الشرق لا يستحق العناية مع أن الشرق قد عرف كل دخائل الغرب وأنه مع ذلك لا يجعل له إلا السلامة .

وهكذا يقوم السيد ناصر الدين دينيه رسولا للسلام بين الشرق والغرب ، وهو المثل الطيب لكل فرنسي يحب بلاده الأصلية ويحب الشرق الجميل النبيل . ومع أنه قد اعتنق الإسلام وعاش مسلما ومات مسلما فإن ذلك لم يمنعه من أن يكون مقبلا على العهد والإخلاص لبلاده المحبوبة وأن يجتمع حول نفسه رجال فرنسا للرمحيون من الوزراء يذكرون حسناته ويؤنبونه أحسن التأنيب . ذلك لنبالة قصده وسنانه إنسانيته .

(راشد رسم)

هذه هي المقالة التي كتبها الأستاذ المذكور ، وإنما كتبنا تاريخ (السيو ايتان) لأنه توفي أثناء تقدم هذه السورة للطبع فكتبناه هنا تذكيرا لقراء هذا التفسير ، ومحسن بنا أن نذكر شذرات من رسالته السبابة [أشعة خاصة بنور الإسلام] وهي التي ترجمها الأستاذ المذكور . وإليك ياتها :

(الشذرة الأولى)

بما لا نزاع فيه أن التربة والسكان والواقع لها الأثر الكبير الفعال في نشأة الأمور وحياتها . وأن الشجرة الطيبة التي تزرع في أرض خيثة تخرج ثمرا أضف مما تخرج الشجرة الحبيثة التي تنبت في أرض طيبة ، كذلك كان الشأن مع المسيحية : فهي وإن ظهرت أنها تحكم العالم في وقتنا الحاضر فليس ذلك مرجعه إلى تاليها دون غيرها ، بل إن مرجع ذلك هو إلى ما تستفده من القوة للمادية التي أوجدتها الستيكشافات التي قام بها العلماء « الفرييون » ومن القريب أن أغلب هؤلاء في ذلك هم من اليهود ، أو من للأحادة والمطلين أو الشركين . بل إن منهم من حاربهم للمسيحية واضطهدتهم . خذ مثلا (جاليلة) الفالسي الإبطالي و(أبين دولية) الكاتب الناشر الفرنسي وغيرهما كثيرون ممن ذهبوا ضحية التعصب القديم . وأمر غريب آخر . ألم تجد الأمم الأوربية التي تأصت بها المسيحية أن الضرورة قضت عليها بالتباعد عن روح مسيحيتها في سبيل المحافظة على مملكتها ومستعمراتها . انتهت الشذرة الأولى .

(الشذرة الثانية . للمعجزات)

إن نبي الإسلام هو الوحيد من أصحاب الديانات الذي لم يعتمد في إتمام رسالته على المعجزات ، وليست عمدته الكبرى إلا بلاغة التنزيل الحكيم . وفي ذلك يقول تعالى « وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » .

وقد نسي رينان أن محمدا صلى الله عليه وسلم مع عدم اعتماده على مثل هذه المعجزات التي ينكرها قد جاء بأكثر المعجزات مما هو شاذ في تاريخ الديانات كلها ، جاء بذلك الدين الحنيف الذي لم ينفك يزداد أنصاره كل يوم منذ ثلاثة عشر قرنا حتى بلغوا اليوم ثلاثمائة مليون من النفوس دون أن يكون له دعاة أو مبشرون .

على أن المعجزات التي تنسب إلى محمد ليست من نصوص القرآن ، وإنما قد نسبها إليه مؤرخو العصور التأخرة تقليدا للمعجزات التي تنسب إلى المسيح ، فهي ليست من الدين في شيء .

وأما تلك الحرافات والمعتقدات الغريبة التي نشاهدها في بلدان الإسلام المختلفة فهي غريبة عن القرآن ودخيلة على الدين ولا تتفق مع شيء مما عرف عن رسول الله ذاته ﷺ . فقد جاء في الأثر أنه لما مات إبراهيم حزن عليه محمد حزنا عظيما . وحدث أنه ساعة دفنه كسفت الشمس فقال الدين من حوله إنها لمعجزة يا محمد فقد شاركك الشمس في حزنك على ولدك . ومع أن النبي كان مأخوذا بالحزن الشديد فقد أنب القائل وقال « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته » .

ومن ذلك يتضح لنا أن الإسلام منذ البداية في أيامه الأولى قد أخذ في محاربة الحرافات والبدع . وهو نفس العمل الذي يقوم به العلم إلى يومنا هذا . انتهت الشذرة الثانية .

(الشذرة الثالثة -- التسامح والرفق في الدين)

إن القرآن ، دون الكتب المقدسة الأخرى ، هو الكتاب الوحيد الذي يأمر بالرفق والإحسان في الدين . جاء إلى الرسول أحمد بنى سالم بن عوف واسمه الحسين ، وقال له يا رسول الله إن

لى وللمؤمنين مسيحين بأيمان الدخول في دين الله وإني لخيرها على ذلك ، قال له النبي صلى الله عليه وسلم
« لا إكراه في الدين » .

وفي هذا الباب ما جاء في سورة الكافرون : « ولكم دينكم ولي دين » كذلك ما جاء في سورة الضحى
« لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » .

ومن الحقائق التاريخية أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى (أهل نجران للبيجين نصف مسجده
ليقيموا فيه شعائرهم الدينية) .

وها نحن أولاً نرى المسلمين إذا جروا بدينهم فإتهم لا يفعلون مثل ما يفعل للمسيحيون في الدعوة إلى
دينهم ولا يتبعون تلك الطرق المستغربة التي لا تتحملها النفس والتي يجلبها الذوق السليم .

وقد أنصف (القس ميشون) الحقيقة في كتابه (سياحة دينية في الشرق) حيث يقول : إنه لمن المهرن
أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن العاملة وها أقدم قواعد الرحمة والإحسان
عند الشعوب والأمم (١) .

زد على ذلك أن المسلمين يحملون لعيبي في نفوسهم التبجيل والتنظيم ، في حين أن أنصار المسيح يحطون
بمحمد وأبلا من اللغات والسخطات ، الأمر الذي يدعونا إلى الدهشة والفرابة ، ذلك لأنهم أتباع يسوع
صاحب عظة الجبل والقائل بالنعو والإحسان !

بل كيف يكون موقف المسيحية أمام هذا الدامع الإسلامي الشريف إذا ما ذكرنا رسالة القديس (أغسطس)
إلى الحاكم (بوتيفاس) وهو يبرر له فيها اضطهاد المخالفين وقتلهم متندرا لذلك بأن الديانات الأخرى تفعل مثل
ذلك قائلاً إنه خير أن تقوم الكنيسة نفسها بذلك « لأن الكنيسة إن هي اضطهدت أحداً ، فإنما هي لا تتقدم على
ذلك إلا مدفوعة بماطفة الهبة » فما أعظم محبة الكنيسة ! وما أكرمها لأولئك الملايين الذين راحوا ضحية
« القديسة » محاكم التفتيش . وضحية القديس بارتلمي وغيرهما من « القديسين والقديسات » الذين يستيحيون
المذامح والمجازر البشرية . انتهت الشذرة الثالثة .

(الشذرة الرابعة - العلم)

رفع النبي محمد قدر العلم إلى أعظم الدرجات وأعلى المراتب وجعله من أول واجبات المسلم . وفي ذلك يقول
« اطلبوا العلم ولو بالعين » يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء . شرار العلماء الذين يأتون الأمر
وخيار الأمر الذين يأتون العلماء . فضل العلم خير من فضل العبادة (٢) .

وقد نظر المسيو (كاز أنوفا) أحد كبار أساتذة كولييج دي فرانس بباريس في هذه الكلمات القائلات
كيف يقولها أحد أصحاب الديانات فملق على ذلك يقول : « يتفقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون
تمثل آرائنا وهضم أفكارنا . يتفقدون ذلك وينسون أن نبي الإسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل
العبادة . فأى رئيس ديني كبير ، وأى قس من القساوسة العظام كانت له الجرأة أن يقول مثل هذه القول القوي
الفاصل للتين ؟ هذا القول الذي هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة .

نعم إن هذا هو مبدؤنا اليوم ولكن أليس العهد بقرين يوم كانت الكافة عندنا من أهل العقول تنظر
إلى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار ومجلبة الشار .

(١) نقل عن الكونت دي كلستري في أبحاثه عن الإسلام (٢) الجزء الأول من كتاب الإحياء الفزالي .

كما أنه سوف يقال إن أوضاع مبادئ الحرية الفكرية قد كشفت أمثال (لوثير) و (كالفين) وعاد الفصل فيها إلى رجل عربي من رجال القرن السابع . ذلك هو صاحب شريعة الإسلام . انتهت الشذرة الرابعة .

(الشذرة الخامسة - الحجر)

ذلك هو الداء الفتاك وهو أحد الأمراض الاجتماعية الوبائية في عصرنا الحاضر ، على أن محمدا هو الشمس الوحيد الذي أحس بالأثر السيء الشديد للخمر في النفوس ففاز به حتى حرمه تحريما تاما وقد فاز في ذلك فوزا كبيرا (١) .

« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر واليسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر واليسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » سورة المائدة .

ثم إن من المسلمين من لم يجعل بذلك فهو يخالف الدين في تحريم الخمر تحريما قاطعا . غير أن الكثيرين من هؤلاء قد تركوها ثم تابوا وأتابوا وهم لم يفعلوا ذلك إلا بتأثير الدين نفسه وبما جاء فيه من النهي عن الخمر والأمر بالتحريم في حين أننا لم نسمع أن أحدا من المسيحيين الذين يدمنون الخمر قد تركوها أو عادوا عنها . ولا يخفى أن الأناجيل للسيحية ذكرت أن لليسع في أفراس (قانا) ملاء من النبيذ ستا من قدر الملاء تسع كل واحدة منها ما يقرب من سبعين إلى تسعين لترا بمكيالنا الحاضر .

كما أن الكنيسة قد جعلت (مونيكا) الأفريقية في عداد القديسات ، مع أنها كانت من مدمنات الخمر كما ذكر عنها ذلك ولها نفس القديس (أغسطين) في اعترافاته (٢) انتهت الشذرة الخامسة .

(الشذرة السادسة - الوسيلة)

الوسيلة هي إحدى كبريات المسائل التي قال بها الإسلام جميع الأديان ، إذ ليس بين الله وعبده وسيط ، وليس في الإسلام قساوسة ولا رهبان .

إن هؤلاء الوسطاء هم شر البلايا على الأديان ، وإنهم لكذلك مهما كانت عقيدتهم ومهما كان إخلاصهم وحسن نياتهم .

وقد أدرك لليسع نفسه ذلك . ألم يطر: [بالمسيح الهيكيل] غير أن أتباعه لم يفعلوا مثل ما فعل ، واليوم إذا عاد عيسى فكيف يطر من أمثال بالمسيح الهيكيل ؟

كذلك ما أكثر البلايا والصلاب بل ما أكثر اللذائع والمجازر التي يكون سببها هؤلاء الوسطاء سواء كانت بين العائلات وبعضها أو بين الشعوب والشعوب . وهم في ذلك كله يصيحون : باسم مجد الله .

ثم إنهم قد عكسوا الآيات وبدلوا النيات ، وغيروا الأوامر والنواهي ، ولم يدركوا قصد عيسى ولا مراده النبيل العالی ولا فهموا معناه الحقيقي حين يقول : [جئت لألقى ناراً على الأرض . فلماذا أريد لو اضطرمت ؟ أنظنون أني جئت لأعطي سلافا على الأرض . كلا أقول لكم : بل انفساما ، لأنه يكون من الآن خمسة في بيت واحد منقسمين ثلاثة على اثنين ، واثنان على ثلاثة . ينقسم الأب على الابن والابن على الأب . والأم على

(١) وأما تجربة الولايات المتحدة في أمريكا في تحريم الخمر فلم تظهر نتائجها بعد ، إذ لم يمض على ذلك إلا بضع سنين .

(٢) عن الدكتور بينه سنجليه ، في كتابه [جنون يسوع] .

البيت والبيت على الأمم^(١).

وقد حرم الإسلام نظام هذه القداة ومحا الولاية، فنى بذلك الحرافات الضارة والمضتدات الفاسدة وأزال آثارها وتأنجها .

وليس للمسلم أن يدعو الرسول ويتضرع إليه، وإنما له أن يدعو الله وحده لا شريك له . وقد يكون للمسلم أن يدعو الله للرسول ، ولكن لا يدعو الرسول لله ولا لذاته .

كذلك يحرم القرآن الشفاعة وينكر الشفعاء . ويوم القيامة لا تسأل نفس إلا عن نفسها .
وأما ما نراه من الزوايا وأضرحة الأولياء فان ذلك لم يتم إلا بعد الهجرة بنحو قرنين من الزمان تقليدا للسيجة . على أن ذلك لم يقبله العبيدون كما ألفاء الوهابيون أخيرا من مكة والدينة وما إليها . انتهت الشذرة السادسة :

﴿ الشذرة السابعة - الإله ﴾

الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الإله شكلا بشريا ، أو ما إلى ذلك من الأشكال . أما في المسيجة فان لفظ (الله) تحيطها تلك الصورة الأدمية لرجل شيخ طاعن في السن قد بان عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والأعلال [فن نجاعيد بالوجه فأثرة إلى طيبة يضاء مرسله مهمة تثير في النفس ذكرى الموت واقناء] .

ونسمع القوم يصبحون (ليحيي الله) فلا ترى للفرابة عملا ، ولا نوجب لصيحتهم وهم ينظرون إلى رمز الأبدية السائمة وقد تمثل أمامهم شيئا هرما قد بلغ أرذل العمر . فكيف لا ينجشون عليه من الهلاك والفناء وكيف لا يطلبون له الحياة ؟

كذلك (ياهو)^(٢) الذي يمثلون به طهارة التوحيد اليهودي فهم يجعلونه في مثل تلك المظاهر المتهاككة وكذلك تراه في متحف الفانتيكان وفي نسخ الأناجيل للصورة القديمة .

أما (الله) في دين الإسلام الذي حدث عنه القرآن فلم يجرؤ مصور أو نحّات أن تجرى به ربشته أو ينحته إزميل . ذلك لأن (الله) لم يخلق الخلق على صورته ، وتعالى سبحانه فلم تكن له صورة ولا حدود محصورة ، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد ولم يكن له كيفوا أحد .

وقد يقال لنا إن تلك الصورة التي وصفناها ، والتي يمثل بها المسيحيون الإله عندهم هي مما لا يرضى عنه أهل الدين السليم منهم . على أننا لو سلمنا بهذا الاعتراض جدلا فإذام قائلون؟ وليس في الكنيسة كلها إلا صلاة واحدة وقصيرة ينجسون بها الإله (الأب الأزلى الدائم) . وأما الابن والأم وزوج الأم والصلب وقلب يسوم للقدس فلها كل الصلوات ولها آلاف الصور والتماثيل ذات الاحترام والإجلال . وكلها مقدمة عندهم مثل تقديس الوثنيين لأصنامهم التي تمثل مجيوداتهم . انتهت الشذرة السابعة .

﴿ الشذرة الثامنة - علو الهمة ﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « علو الهمة من الإيمان » وذلك أنه لما كانت الشريعة النراء قد ساوت بين الناس ، ولما كان لا بد للناس من مراتب ودرجات ، لم تجعل لأحد منهم فضلا على أحد إلا بعلو

(١) أنجيل لوقا . الاصحاح الثاني عشر . ٣٩ - ٥٣ .

(٢) (ياهو) أي الله . وعى الأصل العبري .

الحمة في حكارم الأخلاق والنبيل والباركاه . وفي هذا فليتنافس التناسون . وأما ماجاه في الإنجيل من قوله :
 [من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا] ففلك ضرب من ضروب الحطة بالنفس والنزول بها
 والذهب بكرامتها ، كما أنه تشجيع ضمني لأهل السوء والحباثة في أن يظهرُوا ويسودوا . وفكرة التسليم
 هذه والتساهل في شأن النفس وعدم الأخذ لها بالشدة ترجع إلى أصل هندي . ولقدك تسكن في طياتها تلك
 الأسباب للتأصلة التي أخضعت الهند الكبيرة لثير إنجلترا الصغيرة ، وليس عجيبا بعد ذلك أن ترى الأنجلز
 يخرجون على تماثيل الكنيسة ولا يعملون بأوامر للشيخ في عظة الجبل من السكون وعدم التمدي . انتهت
 الشفرة الثامنة .

﴿ الشفرة التاسعة - المساواة ﴾

لقد حقق الإسلام نظرية المساواة هذه بين القبائل والشعوب ، وهي النظرية التي لم تأت أخيرا إلا على
 يد الثورة الفرنسية . وهذا بلال الحبشي ألقاه الرسول مؤذنا للمسلمين فكان العرب ، وهم من الشعوب
 التي تفتخر بالأجداد والأنساب ، تسمع له وتسمى إلى الصلاة إذا ما أذن فيهم هذا العبد الحبشي . انتهت
 الشفرة التاسعة .

﴿ الشفرة العاشرة - مسايرة الطبيعة ﴾

لا يتمرد الإسلام على الطبيعة ، التي لا تغلب ، وإنما هو يسار قوانينها ويزامل أزمانها ، بخلاف ما تفعل
 الكنيسة من معالطة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شئون الحياة : مثل ذلك الفرض الذي تفرضه على
 أبنائها الذين يتخذون الرهبنة ، فهم لا يزوجون وإنما يعيشون أعزبا . على أن الإسلام لا يكره أن يسار الطبيعة
 وأن لا يتمرد عليها وإنما هو يدخل على قوانينها ما يحلها أكثر قبولا وأسهل تطبيقا في إصلاح ونظام ورسالة يسور
 مشكور ، حتى لقد سمى القرآن لذلك (بالهدى) لأنه للرشد إلى أقوم مسالك الحياة ولأنه الدال على أحسن
 مقاصد الخير والأمثلة العديدة لا تميزنا ، ولكننا للفصد نأخذ بأشهرها ، وهو التساهل في سبيل تعدد الزوجات
 وهو الموضوع الذي صادف النقد الواسع ، والذي جلب للإسلام في نظر أهل الغرب مثالب جمّة . ومطاعن كثيرة
 وما لاشك فيه أن التوحيد في الزوجة هو المثل الأعلى ، ولكن ما العمل وهذا الأمر يمرض الطبيعة ويصادم
 الحقائق ، بل هو الحال الذي يستحيل تنفيذه . لم يكن للإسلام أمام الأمر الواقع ، وهو دين اليسر ، إلا
 أن يستبين أقرب أنولع العلاج فلا يحكم فيه حكما قاطعا ولا يأمر به أمرا باتا . والذي فعله الإسلام أول كل
 شيء أنه أتمسك عند الزوجات الشرعيات ، وقد كان عند العرب الأقدمين مباحا دون قيد ، ثم أشار بعد ذلك
 بالتوحيد في الزوجة في قوله تعالى « وإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة » وأي رجل في الوجود يستطيع أن
 يعدل بين زوجاته للتعدّدات ! ولذلك كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ ، ولكن انظر كيف وضعه الإسلام
 وضعا هو غاية في الرقة والدقة واللفظ مع الحكمة . ثم انظر هل حقيق أن اللبانية المسيحية بتفريدها الجبري
 لفردية الزوجة والتوحيد فيها وتشديدها في تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات ؟ وهل يستطيع شخص أن
 يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه ، وإلا فهو لاء . مثلا ملوك فرنسا (دع عنك الأفراد) الذين
 كانت لهم الزوجات التعددات والنساء الكثيرات وفي الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تنظيم وإكرام . إن
 تعدد الزوجات قانون طبيعي ، وسابق ما سبق العالم . ولذلك فإن ما فعلته المسيحية لم يأت بالفرض الذي أرادت
 فالعكس الآية معها وصرنا نشهد الاغراء بجميع أنواعه . وكان مثلها في ذلك مثل الشجرة للقمونة التي
 حرمت ثمراتها فكان التحريم إغراء . على أن نظرية التوحيد في الزوجة وهي النظرية الآخذة بها المسيحية
 ظاهرا تنطوي تحتها سيئلت متعددة ظهرت على الأخص في ثلاث نتائج واضحة شديدة الخطر حسية البلاد .

تلك هي الدعارة ، والمعانين من النساء ، والأبناء غير الشرعيين . وأن هذه الأمراض الاجتماعية ذات
السيئات الأخلاقية لم تكن تعرف في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق . وإنما دخلتها
واقتضرت فيها بعد الاحتكاك بالمدينة المغربية . ومن الأمثلة القائمة على ذلك ما كان من أمر وادي (ميزاب)
حيث تسكن القبيلة التي بهذا الاسم في بلاد الجزائر إذ لم تدخلها الدعارة إلا بعد ضمها إلى فرنسا عام ١٨٨٣
وقد وصل بها الحال اليوم أن أربع بلدان من مجموع كله سبع بلدان قد ابتليت بهذا الداء الويل . وبما تزويه
من هذا القبيل ما جاء في كتاب « الإسلام » تأليف (محمد مولان) [إنه عند ما طار الدكتور مافرو كورداو
الأستاذ سنة ١٨٢٧ إلى برلين لدراسة الطب لم يكن لمصحة العناية كلها بيت واحد للدعارة . كما لم يعرف
فيها داء الزهري (وهو السفليس المعروف في الشرق بالمرض الأفريقي) فلما عاد الدكتور بعد أربع سنين
أي سنة ١٨٣١ تبدل الحال غير الحال] . وفي ذلك يقول الصدر الأعظم الكبير رشيد باشا في حيرة موجبة
[إننا نرسل أبناءنا إلى أوروبا ليتعلموا المدينة الفرنسية فيعودون إلينا مرضى بالداء الأفريقي] على أنه من
جهة أخرى نرى أن الطلاق قد يخفف بعض الشيء من أضرار هذا التعت في القصر على زوجة واحدة .
ولكن من جهة ثانية نرى أن الطلاق سيئة من السيئات . إذن ماذا ؟ إذن أي الأدواء قد خلا تماما
من بعض السيئات ، على أن الكنيسة قد أساءت كذلك في مسألة الطلاق بمثل ما أساءت في أمر التوحيد
في الزوجة . وذلك بمخالفتها أيضا لقوانين الطبيعة . انظر هل أشد من الحكم على زوجين شابين لم يستطيعا عن
بعضهما صبرا ، وقد خاب ظنهما في الزواج ولم يدركا السعادة التي طلباها من وراء ذلك ، هل أشد من الحكم
عليهما بأن يغلظا يقضيان بقية أيامهما في عذاب ونكد وشقاء ، كذلك إذا كان أحدهما عاقرا أو كان غير كفء
لزميله ، هل يحرم الآخر من أن يبي لنفسه بآخر وأن يقيم له عائلة من جديد ، وأتينا ونحن في سدد الطلاق
لا نضوتنا حكمة التشريع الإسلامي وهو يرى السوء في فوضى الطلاق فيسمع النبي الكريم يقول « أبغض الحلال
إلى الله الطلاق » . انتهت الشفرة العاشرة .

﴿ الشفرة الحادية عشر - بساطة الصلاة والنظافة ﴾

إن الحركات والإشارات في الصلاة الإسلامية هي ذات بساطة واطلقة وبساطة لم يسبق لها مثل من نوعها
في صلاة غيرها . كما أنها لا تدعو الوجوه بالتظاهر والتكلف ، ولا العيون بالشغوص إلى السماء واستئزال
الدموع التي تذكرنا بالدموع الجائسين التي يصطنعها ممثلو السينما في عصرنا الحاضر . حقا إن الصلاة
الإسلامية خالية من تلك الأمور الشائنة التي خصها المسيحيون بالصور المسيحية مما جعلها في غير جلال ولا جلال
ولا وقار حقا إن الأقوال والحركات التي في الصلاة الإسلامية هي ذات دلالة على الرزامة والمدوء والاطمئنان ،
وهي خالية من مبالغات الورع وتكلفات الخضوع والتظاهر بذلك مما هو غريب في العبادات ، لأن الله
سبحانه وتعالى عليم بما في الصدور وهو النبي المرز . ثم إن من الأمور الغريبة تخصيص وجود الإله في السماء
عند دعوته . وهذه الحال تحمل في طياتها إلحادا ، إذ تجعل السماء . منفاه ، وتتنى بذلك عنه صفة الوجود
في كل مكان وحركات الصلاة الإسلامية ، فوق تمييزها اتام عما تحمل نفوس المؤمنين من العاطفة النبيلة
نحو الولي الكريم . تقوم للجسم بأعظم مزايا الحركات الرياضية . فهي مفروضة الأداء خمس مرات في اليوم
الواحد . وكل من شيع كبير وبدن سمين يستطيع كلاهما السجود والركوع والوقوف دون كبير عناء ولا مشقة
علا يستطيعه مسيحي في مثل هذه السن أو في مثل هذه الحال ما لم يكن قد استراض على ذلك من قبل .
انتهت الشفرة الحادية عشر .

(انشودة الثانية عشر — الأذان)

يتميز الاسلام في الدعوة إلى الصلاة بأن الإنسان هو الذي يدعو إخوانه إلى تأدية هذه الفريضة . وأن صوت الإنسان صوت طبيعي وهو أدمى إلى حمل العاطفة الإنسانية الصادرة من قلب المؤمن إلى إخوانه المؤمنين للقيام بأهم أركان الاسلام من أى آلة صناعية ومن القلب إلى القلب رسول الله . هذا ما أردته من رسالة (السيوايتان دينيه) السلم الفرنسى والمصور الشهير . ثم انظر إلى ماجاء في جريدة الأهرام بتاريخ يوم السبت أول فبراير سنة ١٩٣٠ م وهذا نصه :

المؤتمر الدينى الدولى

(لخدمة السلام فى العالم)

منذ نحو ستين قام جماعة من رجال الأديان فى (أمريكا) يسمون لانشاء مؤتمر دينى دولى يمثل مختلف الأديان والمذاهب فى العلم بقصد خدمة السلام العام بواسطة الدين وعقدوا اجتماعهم الأول فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ م فى جنيف تحت رئاسة الدكتور (شابلمرمايو) رئيس الكلية الدينية فى جامعة (شيكاغو) فى الولايات المتحدة ، وكان الحاضرون ١٩١ مندوبا من بلدان مختلفة وأديان شتى ، وقد قرر المجتمعون إذ ذلك انتداب لجنة مؤننة لتنظيم أعمال المؤتمر برئاسة الدكتور (مايو) للشار إليه وألفت تلك اللجنة من خمسة وعشرين عضوا وجعل سكرتيرها الدكتور (اتكنسون) من نيويورك ، وكان (١٢) من أعضائها يمثلون المسيحية وعضو واحد يمثل الإسلام ، وعضو يمثل الهندوس ، واثنان يمثلان دين (كونفوشيوس) واثنان لليهودية ، وعضو يمثل البهائية ، وعضو يمثل الشنتوا فى اليابان . وعضو للبوذيين فى سيلان . وعضو للتبوصوفية هولاندا . وعضو للديجوس فى الهند .

وقد تقرر إذ ذاك عقد مؤتمر عالمى للإسلام يبنى عمله ومسايعه على مبادئ الأديان التى ينتمى إليها أعضاؤه بدون أن يجر ذلك إلى الفاصلة بين مزايا هذا الدين على ذلك على أن يكون غرض الجميع واحدا . وأن يبنى هذا الغرض على المبادئ الآتية :

- (١) أن يذكر كل ممثل لدين من الأديان تعاليم ذلك الدين فيما يتعلق باستقرار السلام ووجوب إحلاله محل الحسام فى العالم .
- (٢) ذكر مجهودات الهيئات الدينية فى سبيل نشر لواء السلام فى العالم .
- (٣) وضع القواعد التى يمكن السير عليها بصفة عامة لإزالة العقبات الحائلة دون استتباب السلام وانتصار الحق وضمان العدل بين الدول وازدياد محبة الخير العام .
- (٤) انتهاز كل فرصة لاستثارة الشعور الدينى فى كل طائفة ضد روح العدوان والحسام وكل ما يؤدى إلى الشحنا بين الأمم .

وقد عقدت بعد الاجتماع المتقدم اجتماعات متعددة فى أنحاء مختلفة ولاسيما فى أمريكا إذ يظهر أن فكرة المؤتمر الدينى العالمى نشأت من هناك .

وآخر اجتماع للجماعة عقد فى شهر أغسطس الماضى فى مدينة مانسكفورت فى ألمانيا تحت رئاسة الدكتور (شابلمرمايو) حامل لواء المؤتمر . وقد حضره (٦١) عضوا يمثلون جميع الأديان الحية فى بلدان العالم .

وفي هذا الاجتماع ذكر السكرتير الأمريكي أنه ساه في بلدان الشرق الأقصى وقابل فيها زعماء الأديان والذاهب المختلفة وباحثهم في مسألة أعقاد المؤتمر الديني العام لمقاومة الحسام وإحلال السلام محله بين البلدان فأيدوا المشروع وجذوه .

وقد تقرر في اجتماع (فرانكفورت) انتخاب لجنة لتنظيم المؤتمر القادم وعقدته على أن يكون له ستة رؤساء وثلاثة عشر وكيلا انتدبت للتنفيذ ، وأنشئت للمؤتمر سكرتيرية رئيسية مركزها في (نيويورك) وأنشئت لها ثلاثة فروع في لندن وباريس وبرلين . وتقرر تعيين سكرتير في اليابان وسكرتير في الصين وواحد في الهند وواحد في الشرق الأدنى وواحد في البلقان وسكرتير لأوروبا الجنوبية ، ثم أصدرت الهيئة القرار الآتي :

قررت أن يهد إلى اللجنة اتخاذ التدابير اللازمة لعقد المؤتمر الديني الدولي في سنة ١٩٣١ في إحدى بلدان الشرق وأن يدعى لحضوره ممثلو الأديان الحية في العالم .

وقد انتهى إلى حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون باشا الذي أصبح علما من أعلام الشرق وقطبا من أقطابه كتاب من للستر عبد الله يوسف على الهندي الذي كان وزيرا للمالية في حكومة نظام حيدر آباد يلتبس فيه من سموه باسم لجنة المؤتمر أن يقبل رئاسة المؤتمر فيكون في مقدمة الرؤساء الستة الذين تقرر اختيارهم من كبار الرجال لرئاسته ويكون ممثلا للإسلام في الرئاسة ، وتلقى سمو الأمير أيضا كتابا من سكرتير المؤتمر الدكتور (نكتسون) الأمريكي ييسط فيه لسموه الأغراض النبيلة التي يسمي إليها القائمون بأمر هذا المؤتمر الديني الجديد ويقول إن البارون (ساكيتاني) الياباني والدكتور طاغور الشاعر الهندي الشهير سيكونان من الرؤساء الستة ، وإن الكنيسة الكاثوليكية ستختار عظيما من عظمائها ليكون من الرؤساء وأن الأستاذ (اينشتين) الألماني العالم للشهور سيكون رئيسا ممثلا لليهود ، والفهم أن الأمير الجليل لم يقرر حتى الآن شيئا بهذا الشأن اه .



ومما يناسب قوله تعالى أيضا «وسراجا منيرا» ماجاء في جريدة الأهرام بتاريخ يوم الثلاثاء ٢٨ يناير . ١٩٣٠ م وهذا نصه :

حالة العميان في مصر

وجهت جمعية العناية بالعميان في سان فرانسيسكو إلى وزارة الخارجية المصرية أسئلة طالبة الجواب عاها وأنها أحالتها إلى الجهات المختصة ، وفيما يلي نص الأسئلة وإجابة وزارة المعارف على كل منها :

(س) هل يأخذ العميان إعانة ؟ وما مقدارها ؟ وما وجه استحقاقها ؟ .

(ج) تدفع الحكومة الاعانات المختلفة لبعض معاهد العميان حسب درجة تقدم كل منها كما يأتي :

٧٠٠ جنيه لمدرسة العميان بالزيتون و ٢٥٠٠ جنيه لمدرسة العميان بالاسكندرية التابعة (لكونتس ميث) و ١٥٠٠ جنيه لمدرسة العميان الأهلية بالطيارين و ١٥٠٠ جنيه لمدرسة الكفيفات بالزيتون ، ويدفع بعض أعضاء الجالية البريطانية إعانات لسد نفقات ثمانية تلاميذ بمدرسة الزيتون بمعدل ١٢٠ قرشا في الشهر لكل تلميذ ، وتدفع سيدتان مصريتان إعانات لسد نفقات تلميذين آخرين بهذه المدرسة .

(س) كم عدد العميان تحت إشراف الحكومة ؟

(ج) يوجد (٨٠٠) طالب تحت إشراف الحكومة منهم (٢٠٠) بمعهد الأزهر بالقاهرة و ١٠٠ بمعهد أسيوط و ١٠٠ بمعهد الاسكندرية و ١٠٠ بمعهد طنطا و ١٠٠ بمعهدى دسوق والزقازيق و ٥٠ بمدرسة الزيتون للعميان و ٥٠ بالاسكندرية . أما الإناث فيوجد منهن ١١ تلميذة بقسم العميان السكائى بمدرسة تمرين معلقات بولاق التابعة لوزارة المعارف و ٣ بمدرسة الكفيفات بالزيتون . أما العميان الذين ليسوا تحت إشراف الحكومة فهم ٢٠٠ طالب بمدرستين فى القاهرة إحداها بيولاق والأخرى بشارع البيطار بالأزهر تحت إشراف لجنة إنكليزية برئاسة (الطران جون) و ٩ طالبات بكلية البنات الانكليزية بيولاق تحت إشراف اللجنة المذكورة و ٥ طالبات بمدرسة الأمريكان بالزقازيق و ٥ طالبات بمدرسة الأمريكان فى الصورة و ٤ طالبات بمدرسة الأمريكان بدمهور و ٩ طالبات بمدرسة الأمريكان بأسيوط و ٨ طالبات بمدرسة الأمريكان بالأقصر وكلهن تحت إشراف كلية الأمريكان ، ويبلغ مجموع العميان بالقطر المصرى ١٥٥٠٠٠ منهم ١٠٥٠٠٠ ذكور و ٥٠٠٠٠ إناث منهم نحو ١٠٠٠ تحت إشراف الحكومة و جماعات مختلفة والباقي يحترف قراءة القرآن فى المنازل والجانبات إذا كانوا مسلمين ومرتلين فى الكنائس إذا كانوا مسيحيين .

(س) هل بذلت الحكومة مجهودا لتعليم العميان صناعة ، فإن كان كذلك فما درجة نجاحهم ؟

(ج) ابتدئ فى تعليم العميان الصناعات سنة ١٨٩٦ ولكن نجاحهم فى المتوسط بالنسبة إلى قلة الإعانات .

(س) هل توجد مصانع يقدم فيها العميان على غيرهم ؟

(ج) لا توجد صناعات مشتركة بين الأعمى والبصير بل توجد مصانع خاصة بالعميان فقط وهذه المصانع هى مصنع للسلال والكراسى بالمدرسة الاكثريكية القبطية بمهشة ، ومصنع السلال والكراسى والسجاد بمدرسة العميان بالزيتون ، ومصنع للسلال والكراسى والفرش بالاسكندرية تحت رعاية (السكونتس ميث) ومصنع للسلال فقط بالاسكندرية تابع لجمعية أهلية ، ومصنع للشيلان والجوارب والسلال التى تصنع من الحرز والسلك بكلية البنات الانكليزية بيولاق وهو خاص بالبنات فقط ومصنع للسجاد والكراسى والسلال بقسم العميان بمدرسة معلقات بولاق التابعة لوزارة المعارف .

(س) ما نوع الأشياء التى ينتجونها ؟

(ج) الأصناف للنتجة هى السلال ، وهى تصنع من الغاب الهندى والصفصاف والكراسى الخيزران المصنوعة من الغاب الهندى والصفصاف والكراسى التى تصنع من قلب الخيزران وقش الباسم وقش الأرز

(س) أى الأصناف من أعمالهم وجدت رواجاً فى الأسواق ؟

(ج) الأصناف الرائجة هى السلال بجميع أنواعها والكراسى وأطقم القش والفرش .

(س) ما هى الطرق التى تتبع فى عرض منتجات العميان فى السوق ؟

(ج) تعضد الحكومة هذه المصانع بشراء ما يلزم لها من السلال وغيرها لمصالحها وتعرض هذه المصنوعات فى العروض الدائم لمصلحة التجارة والصناعة .

(س) أى النسبتين أكثر فى العميان نسبة الذكور أم نسبة الإناث ؟

(ج) تزيد نسبة الذكور على نسبة الإناث كما هو مبين فى الإجابة عن السؤال الخاص بعدد العميان .

(س) أى الجنسين أكثر استعدادا لتحصيل الكسب ؟

(ج) الذكور أكثر استعدادا للكسب بما يندل من المجهودات لتعليمهم ، وعند الحكومة مشروع لتوسيع نطاق العميان بالقطر المصرى ، وقد أنشأت الوزارة فعلا بما لتخريج معلقات لهذا النوع بمدرسة

الملفات الأولية الراقية يولاق في سنة ١٩٢٧ م وأتم الدراسة في هذا القسم (١٣) طالبة سيتخرجن في نهاية هذا العام وألحقت بهذا القسم فرقة من الضربات ليكن بمثابة أداة تمرين للطالبات وعلى ذلك أرسلت الحكومة إلى إنجلترا بعثة للتخصص في فن تعليم العميان مؤلفة من طالب وطالبة .

(س) مامقدار متوسط ما يكسبه أحدهما في الأسبوع أو الشهر .

(ج) يبلغ متوسط كسب الذكور في الشهر أربعة جنيهات والإناث جنيهين .

(س) هل تمدون العميان بالاعانة ، وإن كان كذلك فما هي الطريقة التي تتبعونها ؟

(ج) توزع الحكومة إعانات حسب مقدار نجاح كل مدرسة من مدارس العميان .

(س) هل توجد ملاجئ للعميان وأى الجهات تنفق عليها ؟

(ج) لا يوجد للعميان سوى ملجأين أنشأتهما الحكومة للأيتام أحدهما بطره ، والآخر بالقرية يقبل فيهما العميان ، وملجأ للعجائز بشبرا تابع للحكومة الإيطالية يقبل فيه العميان أيضا وملجأين للاناث تابعين لسكياة الأمريكان أحدهما في فم الخليج والآخر بأسيوط يقبل فيهما العميان .

(س) أى الصناعات وجدت أكثر فائدة على العميان الذين دربوا تدريبا راقيا ؟

(ج) صناعة الفرش والسلال والكراسى .

هاتان الرسالتان رسالة المؤتمر الدينى ورسالة جمعية العناية بالعميان توجبان دقة النظر والملاحظة (أولا)
إن خدمة السلام العام لم تقرأها في التاريخ قبل النبوة المحمدية ، فإن الإسلام هو الذى أبغظ الأمم شرقا وغربا وبنشأط جركته حرك الأمم في اختراع الآلات والقطارات والطيارات فتقاربت الأمم ، وهذا من أسرار كونه صلى الله عليه وسلم سراجا منيرا ، وأيضا يذكرنا هذا بآية - حتى تضع الحرب أوزارها - وإن علماء الإسلام يقولون « إن الحرب سيقضى عليها » (ثانيا) إن إرسال جماعة من أمريكا رسالة للمحافظة على العميان في مصر المسئلة يدل دلالة واضحة أن إشراق النور النبوى قد أثر بطريق غير مباشر في أمم غير مسلمة والأمم للسلة نائمة وهذا عار فكان الأحرى بهذه الأمم الاسلامية أن تكون هي آباء للأمم كلها لا أن يكونوا أذنانا . وسيكون في أمم الاسلام بعد الآن نهضة فكرية يرقى بها نوع الانسان . تم الكلام على اللطيفة الرابعة .

(اللطيفة الخامسة)

(في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم »)

اعلم أن بين القول والعمل مناسبة وصلة تظهر أن في هذه الآية ، إن الإنسان يحقل الأشياء وتصدر عنه تلك الأشياء من منفذين : منفذ اللسان ، ومنفذ الأعمال ، فهما فرعان لأصل واحد ، ونظام أحدهما يؤثر في الآخر ، فما من قول تقوله إلا وله آثار في أعمالنا ، وكلما كان القول أحكم كانت الأعمال إلى الصواب أقرب ، لأن الدربة على الفضائل تكون في النفس ملكة تكون مصدرا لها من بعد ، فكل فضيلة في اللسان أو في الأعمال تحدث في القلب أثرا وتبوال الآثار تتأسس لللكات ، ومن لللكات الفاضلة تكون الأعمال الشريفة وملكة اللسان في الصدق وفي حسن القول تؤثر في النفس آثارها فيتمدى ذلك الأثر إلى الأفعال فتنتظم ، إن الأعمال والأقوال فرعان للنفس والقول أسهل وزعانه أشد وجراحاته أنكى وسهامه أفتد وخطره عظيم . وفي الحديث « وهل يكب الناس في النار على وجوههم يوم القيامة إلا حساند ألسنتهم » انتهت اللطيفة الخامسة .

﴿ اللطيفة السادسة ﴾

(في معنى قوله تعالى « وحملها الإنسان »)

جاء في الفيروز آبادي ما نصه : قوله تعالى « فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » أي أن
نحنها وخانها الإنسان . قال : والإنسان هنا هو الكافر والنافق اه .
وهذا المعنى واضح والحمد لله رب العالمين . انتهت اللطيفة السادسة .

﴿ اللطيفة السابعة ﴾

(هذه اللطيفة عامة في السورة كلها وفيها قبلها وبعدها)

ذلك أن الله تعالى يقول فيها « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود » الخ .
ذكر الله للؤمنين بنعمة الله عليهم إذ نصرهم في غزوة الأحزاب ، كما ذكر قوم موسى بنجاتهم من فرعون
وهذا تذكر جزئي وإلا فكيف من نعم ؟ إن الناس يتقبلون فيها صباحا ومساء ، فأجسامهم ملئت حكمة وهم
مغمورون في ضياء الشمس ونور القمر والكواكب والهواء وعندهم نبات وحيوان وما لا يعد ولا يحصى
وإنما هذه يعرفها العامة والخاصة لأن أكثر الناس لا يشكرون الله إلا على النعم الخاصة كالنصر في هذه الغزوة
وإلا فالنعم لانهاية لها ولذلك أردف هذه السورة بسورة سبأ البدوءة بالحمد لله ، وعلل الحمد بأن له ما في
السموات وما في الأرض وأنه يحمد في الآخرة وحده ، ومقتضى هذا أن نعم الدنيا والآخرة له وهو يمد عليها
لأنها كلها واصله إلينا ، فليس الحمد لله خاصا بالنصر في الأحزاب (انظر هذا اللقاع في أول السورة الآتية)
ثم تفسير سورة الأحزاب يوم الثلاثاء ٢٤ مارس سنة ١٩٢٥ م ٢٨ شعبان سنة ١٣٤٣ هـ والحمد لله
رب العالمين .

﴿ تفسير سورة سبأ ﴾

(هي مكة)

(إنا قوله تعالى « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل يبشكم إذا مزقتم كل ممزق

إنكم لفي خالق جديد » الآية)

آياتها ٥٤ — نزلت بعد لقمان

(هذه السورة قبان)

[القسم الأول] في تفسير البسملة .

[القسم الثاني] في تفسير السورة كلها .

﴿ القسم الأول : في تفسير البسملة ﴾

لك الحمد اللهم على ما أوليت من نعمة العلم وأوفدت من آثار العرفان ، وهديقنا إلى ما نحن بسدده من تفسير آيات كتابك ، وألهمتنا أن نذكر أنفسنا والأمم الإسلامية برحمتك الواسعة التي كررتها في أول كل سورة من كتابك تفتح بصائرنا إلى عجائب حكمتك وبدائع صنعتك وبواهر خافتك وجواهر نظمك ، فحمدناك على ما في سمواتك وأرضك ، وعلى ما فتحت من بصائر هذه الأمم الإسلامية الحاضرة والمستقبل بما أنزلت في هذه السورة من غرائب ما تخرج من أرضك في زماننا من أنواع العادن وأصناف الخزائن التي أودعتها أم قبلنا كأهل سبأ ذوى الجذ والتشمير وأصحاب الجنتين اللتين عن يمين وشمال وأنهم لما حفظوا نعمتك وحافظوا على هبتك أبقيتهم ، ولما كساوا عن ذلك الحفظ وتقاطعوا أروايتهم في حفرة الهلاك وأذقهم سوء النكال والذي يدلنا على ذلك تلك الرسوم للصورة التي أخرجت من أرض سبأ في زماننا تذكيرا للملوك اليمن وعلماء اليمن وعظماة أن في بلادكم تما إن استخرجتموها أبقيت بلادى بأيديكم وإلا فأرضي أعطها لمن يستخرجون منافعها ويحفظون نعمها ويسعدون بها عبادى ، فليس من العدل أن يكون أتباع خاتم الأنبياء أقل شكريا لكم من أولئك الذين كانوا يعبدون الشمس من دون الله ، كل ذلك الإيقاظ والتحذير من رحمتك الواسعة التي صاحبها العلم بكل جليل ودقيق .

ومن رحمتك الواسعة المذكورة في البسملة أنك أفدتنا في قصة داود وسليمان أن شكر نعمتك والقيام بخدمتك ليس قاصرا على العبادة ولو كانت الجبال مؤيات مع العابدين ، مرددات لتلك الصلوات ، مرتلات لتلك التسيجات ، فمن حق الشاكر أن يقوم بما يقدر عليه من الصناعات ويتقنها كإذابة الحديد وصناعة الدروع واستخدام الريح ، ومن أجل الرحمتك على المسلمين اليوم أن يعلموا أن ما تلقى الأرواح من الأقوال لأهل الأرض أثناء تحضيرها ليس حجة قاطعة فهم لا يعلمون القيب وليس يدعيه منهم إلا أرواح صغيرة ضيقة العطن قليلة العطن ، ومن الرحمة التي ظهرت آثارها في الأرض بعد النبوة أنك أعلنت في هذه السورة أن نبينا صلى الله عليه وسلم مرسل للناس كافة بشيرا ونذيرا وإن أكثر الناس لا يعلمون وأنت المختص بعلم ذلك ولقد ظهرت تلك الآثار لنا عيانا وصدق وعد الله . ومن اطلع على مؤلفات الفرنجة في انتشار الاسلام في أفريقيا عند خط الاستواء وفي شماله وجنوبه يدعش إذ يسمعون يرهنون على أن هذا الدين لا ينتشر بالسيف بل بالهبة

واللودة والاخلاص وأن اتهام قومهم في أوروبا بأن انتشر الاسلام إنما كان بالسيف ضلال مبين، ولقد وجدوا في أفريقيا ملوكا عظاما وأعظمهم قبائل يعض الوجوه لهم السلطان والسيطرة وهم في احتلالهم أرض غيرهم وحماتهم لهم سياسة أشبه بسياسة الأوروبيين ، فلم الأمم الإسلامية بهذه المزايا وبما انطوت عليه آيات السورة في زماننا من أجل النعم التي ستثير العزائم وترفع الأمم الحالية إلى أوج العلاء ويخرج جيل إسلامي جديد أعز نفوسا وأرقى عزائم وأعلم بما أبدع الله في أرضه وما خلق في سمائه ، هنالك تصلح الأمم الإسلامية لعارة الأرض ولحب ربهم والهيام به والفرام بعبده ، هنالك يشكرونه فلا يكفرونه ويذكرونه ولا ينسونه ويصبح خاصتهم بما يرون من المعجائب في هذه الطبيعة الأرضية والسموات ناطقين في قلوبهم بمثل ما ذكره (الكونت هنري دي كاستري) عن بعض علماء الاسلام [رب إن الجنة لا ترجى إلا لرؤيتك فيها ، ولولا نور ذاتك البهية لعفاها] وما نقله هو أيضا عما يؤثر عن (الشيخ القشيري) في القرن الرابع الهجري [إلهي إنك تهديني بفراق بحرمني على الدوام من تجلياتك البهية ، فيارب اصنع بي ما تشاء ولا تحرمني من مشاهدتك العلية ، فليس سم أمر مذاقا وأشد قتلا من ألم هذا الفراق ، وما حيلة النفس بغير ربها إلا أن تعيش في فزع وتبقى في حيرة واضطراب . رب إن النفس لترضى بأن تذوق الموت مائة ألف مرة ولا تذوق حرقة فرقتك مرة واحدة . رب إن مصائب الدهر وجميع الأمراض القتالة لو اجتمعت على لاحتمائها غير متوجع من موقعها ولكن لا طاقة لي على احتمال بعدك عنى ، رب لو احتجبت عنا برهة أقفلت أرضنا وغاضت أنهارنا فلماذا يكون حالنا لو دام هذا الاحتجاب ؟ لولاه لما أحرقت نار الجحيم واشتد لهبها ، رب إن في تجليك حياتنا وكال سعدنا ونعيمنا وفي احتجابك عذابنا وجحيمنا] اه الكلام على تفسير البسملة وهو القسم الأول .

﴿ القسم الثاني في تفسير السورة ﴾

(مقدمة)

اعلم أن في مبادئ السور حكما غالية وإشارات عالية ورموزا شريفة ، ألم تر إلى (سورة الفاتحة) كيف ابتدأها بعد البسملة بالمحمد فقه على تربيته للعالمين وقد شرحت الترية هناك ونظامها وتناسقها وعمومها في العوالم كلها ، فهناك ترية العوالم إجمالا ، وأما (البقرة) ونحوها فهناك نكتة لطيفة وهو ابتداء السورة بحروف (الم) ولها فضلا عما ذكر أول آل عمران [إشارتان بديعتان : الأولى] أن الحروف الهجائية هي العناصر الأولى لكل كلام نظم أو نثر ، ولن يفهم الكلام حق فهمه إلا بالرجوع لحروفه وتحليله وتقطيعه حرفا حرفا ، فلن تكون علوم البلاغة ولا الصرف ولا النحو ولا سائر العلوم العربية إلا بارجاع الكلمات لأصلها وبغنها وتقاييسها على جميع وجوهها بالتصريف وغيره . وإذا كان ذلك كذلك في علوم اللغة فأحرى أن يكون في علوم السكون . من الطبيعيات والرياضيات فلا هندسة إلا بتحليل البراهين والرجوع لأصولها . ولا حساب ولا جبر ولا فلك إلا بتحليل الأعداد ومعرفة الأولية وغير الأولية فيقال عدد (٥) أولى و (٤) زوجي و (٧) أولى وهكذا تعرف جميع الأعداد وبمعرفتها يعرف ما تركب منها وهكذا في الكيمياء والطب فكل تعرف المركبات من الحيوان والنبات إلا بتحليلها . وهل يعرف الناس مركبا صناعيا إلا بارجاعه إلى عناصره الأولى .

هذا هو الذي يشير له ذكر الحروف في أول السورة كسورة البقرة وآل عمران والرعد والروم والعنكبوت وغيرها وهذه النكتة عامة . وهناك لطائف خاصة كأن يقال في البقرة مثلا (الم) هذه حروف جاءت في قوله تعالى « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف » الخ ، وقوله « ألم تر إلى اللذان من بني إسرائيل من بعد موسى » وقوله « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه » .

فانظر كيف أتى بقوله «الم» للاستغناء الإقرارى في مسألة الحرب والقطاع عن البلاد وفي مسألة النظر في العوالم ونظامها وتحليلها كما حلل إبراهيم الطير وركه وذلك هو العلوم الطبيعية فكان (الم) تنبيه على ذلك ، فكان الله يحث المسلمين بهذه الحروف على معرفة الكائنات محنا وتدقيقا وتفكيراً وتحليلاً وتركيباً .

هذا ما ذكره لك في البقرة وفي كل سورة مبدوءة بالحروف المقطعة كما تقدم بمضه في الروم وما قبلها وما بعدها . فانظر إلى الابتداء بالحمد . قد رأيت الابتداء بالحمد في سورة الفاتحة ثم في سورة الأنعام ، ففي الفاتحة بحمد الناس ربهم على الترية الاجمالية لأن السورة افتتاح للقرآن ولكن في الأنعام الحمد لله على نعمة السموات والأرض والظلمات والنور ف فيها بعض التفصيل وإظهار الجمال وبدائع النور البهيج البديع للشرق في العالم كله والحمد في أول (الكهف) على نور العلم كما كان في الأنعام على نور السكواكب وإشراقها . وههنا ابتداء السورة بالحمد على أن لله ما في السموات وما في الأرض وليس الحمد خاصا على النجاة من الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله والمؤمنين ونصر الله للمسلمين عليهم . يقول الله : إن لى ما في السموات وما في الأرض وأنا محمود عليهما . إن كل عبده انتفاع بجميع العوالم . فالنعم المشتركة ينتفع بها الجميع . إن إدراك نعم الله وعمومها أعظم سعادة للدرس لأنه يرى مالا يراه غيره . ولذلك يكون سعادة أهل الجنة باصطلاحهم على خزانة إبداعه ويدركون الحقائق تامة وهو قوله «وله الحمد في الآخرة» الخ ، وأما قوله « يعلم ما يبلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » فاعلم أنه كما يشير في أول سورة الروم والعنكبوت والبقرة بالحروف الهجائية إلى أمور هامة في السورة كعجائب التحليل المذكورة في قصة إبراهيم في سورة البقرة وكيف بدأ الله الخالق في سورة العنكبوت ونحوها . هكذا هنا قال الله « يعلم ما يبلج في الأرض وما يخرج منها » يشير بذلك إلى ما سيذكر في هذه السورة من الكشف الحديث . يريد الله أن يقول للمسلمين أنا لم أهتم لعبادى أيام مجد الأوائل من سبأ وقحطان والتابعة أن يكتبوا على الأحجار ويظمروها إلا لعلى أنها ستخرج لعبادى في هذا الزمان . إني أهتم الأوائل أن يدخلوا في الأرض مصنوعاتهم ويكتبوا أخبارهم على أحجارهم لأخرجها لعبادى للتأخرين فيعرف الآخرون ماترك الأولون عظمة واعتبارا وحكمة .

ستقرأ أيها التلميذ ما كشفه العلماء الألمان والنمساويون والانجليز وغيرهم في أصقاع (سبأ) والسلمون لايشعرون . دفن الله ذلك هناك ليرينا آثارهم فقال « يعلم ما يبلج في الأرض » كذلك الآثار التي أولها في أرض (سبأ) وما يخرج منها كما تخرج تلك الآثار اليوم كما استراه في هذه السورة . فانظر لماذا ابتداء هنا بذلك . انظر أنه لم يذكر كذلك في أول سورة إلا هذه . انظر كيف بدأ بالحمد على أن له ما في السموات وما في الأرض ليدلنا على أنه ليس النصر على الأحزاب هو النعمة وحدها . إن النعم كثيرة فاحمدوا الله عليها . ثم ذكر الولوج والخروج في الأرض ومنها ليدلنا على ما سيأتى ذكره في السورة من علوم تلك الأمم في أرض اليمن . وأما قوله « وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » فإنه يشير به إلى نكتة أدق وحكمة أنصرف ونور أسنى وعلم أعلى وبهاء أجلى وجمال بهيج .

ذلك أنه قد ذكر في (سورة النور) أن من الحيوانات ما يمشى على رجلين . ومنه ما يمشى على أربع وذكر النمل بعد ذلك وهو يمشى على ست ، وذكر العنكبوت بعد ذلك وهو يمشى على ثمانية أرجل ولم يذكر العدد لأن أكبر الناس لا يظنون لذلك ولكن جعل ذلك خزائن مخزونة في القرآن حتى يأتي هذا الجيل الاسلامي الجديد القبل قيتغلغل في الحكمة والعلم ويدرس الوجود ويقول انظر يا أخى . انظر كيف خبا لنا ربنا

المعجائب في القرآن . انظر كيف جعل (٢) و (٤) من أرجل الحيوان في سورة النور و (٦) في سورة النمل و (٨) في سورة العنكبوت بالترتيب ولم يعلن ذلك لعلهم جهل الناس وخبأه لنا لتعرفه . ثم انظر كيف جاء في هذه السورة وقال « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها » وقد عرفت رمزه . ثم قال « وما ينزل من السماء وما يجرج فيها » وما ينزل من السماء ويخرج فيها لللائكة . وسيأتي في (سورة فاطر) بعد هذه أنهم ذوو أجنحة مثنى وثلاث ورباع ثم قال « يزيد في الخلق ما يشاء » .

لم يذكر الله فوق الرباع في القرآن لأن الناس لم يعرفوا من الأجنحة فوق الأربع ولا من الأرجل فوق الأربع لأنهم لم يدرسوا ولم يفتنوا إلا قليلاً فذكر أنه « يزيد في الخلق ما يشاء » كأنه يقول إن لللائكة أجنحة فوق الأربع لاعد لها والزيادة في الخلق لا تختص بأجنحة اللائكة فهكذا في أرجل الحيوان التي ذكر منها أربع يزيد فيها ما يشاء .

ومعلوم لك أن هناك من الحيوان ماله أربعون رجلاً فأكثر فهذا من زيادة الخلق كما يشاء الله تعالى . انتهى الكلام على المقدمة .

﴿ تفسير السورة ﴾

فلاشروع في تفسير السورة ولأجله فصولاً ثلاثة [الفصل الأول] في تفسير الألفاظ بطريق الإيجاز . [الفصل الثاني] في جعل السورة ستة مقاصد وتفسيرها تفسيراً عاماً كنت كتبت منذ عشر سنين في بعض المجلات العلمية [الفصل الثالث] في معجزات القرآن التي أظهرها العلم الحديث في مسألة الجن وأنهم لا يعلمون النيب، ثم كيف كان سد العرم لا تزال آثاره باقية للآن وكيف أظهر أسرار تلك البلاد علماء أوروبا والمسلمون ناثمون هائمون ، إن ذلك كله معجزات للقرآن ، وكيف ظهرت مسألة الجن في علم الأرواح ولا علم للمسلمين بذلك ، ولملك تعجب حين ترى خريطة السد المذكور في القرآن كشفها الأوروبيون (مع أن القرآن كتابهم والبلاد ملكهم) وهم لا يعلمون بذلك ولا يشعرون، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الفصل الأول في تفسير ألفاظ السورة كلها

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَمَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ

أَلِيمٌ * وَيَرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ
 الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مَزَقْتُمْ كُلَّ
 مُمزِقٍ لَأُنْكُمُ لَنِي خَلَقِي جَدِيدٍ * أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ * أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا يَتَّيْنُ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَاءُ نَحْطِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ
 فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ
 وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *
 وَلِسَلْمَانَ الرِّيحَ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ
 بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ
 مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَايِلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا
 وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ * فَلَمَّا فَضِنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ
 تَأْتِيهِمْ مِنْ دَسَّاتِهِ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ
 الْمُهِينِ * لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ
 رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ
 وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ
 بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافِرَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
 قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيُّهَا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ
 بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَا لَهُمْ أَصْحَابِيَةً وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمزِقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ
 الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَأْتِيهِ بِالْحَرِيقِ مَنْ هُوَ مِنْهَا
 فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ * قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ
 مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ *

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ
 قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ • قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ
 وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَنَلِيُّ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ • قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرِمْنَا وَلَا
 نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ • قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ • قُلْ
 أَرُونِي الَّذِينَ أُخْلِقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الذَّيُّبُ الْحَكِيمُ • وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً
 لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ • وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ
 إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ • قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ •
 وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نَرَىٰ إِذِ
 الظَّالِمُونَ مَوْفُوقُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْجَعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ الَّذِي يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِيفُوا
 لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ • قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِيفُوا
 أَنْحُنُّ صَدْدًا كُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ • وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضِيفُوا
 لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْمَلَ لَهُ أَنْدَادًا
 وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ تَمَّارًا أَوَّا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُحْزَنُ
 إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ • وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
 كَافِرُونَ • وَقَالُوا أَنْحُنُّ أَكْثَرُ أَمْوَالٍ وَأَوْلَادًا وَمَا أَنْحُنُّ بِعَمْدٍ • قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ
 الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ • وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا
 أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا ذُلًّا إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ
 الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي التَّرْفَاتِ آمِنُونَ • وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُجْرِمِينَ أُولَٰئِكَ
 فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ • قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا
 أَهْتَفْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ • وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ
 لِلنَّارِ كَيْفَ أَهْوَأَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ • قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا

يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ * فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بِنَفْسِكُمْ لِنَفْسٍ نَفَقًا وَلَا ضَرًّا
 وَتَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
 آيَاتُنَا يَتَّبِعْتُمْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ أَبَاؤُكُمْ وَقَالُوا
 مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ *
 وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَذُرُّونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِمَّا كَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * قُلْ
 إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ
 إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ
 إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنْ رَبِّي يَهْدِ لِيَ الْإِسْلَامَ الْغَيْبِ *
 قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ * قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ
 اهْتَدَيْتُ فَمَا يُوجِي إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ * وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُوا
 مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ
 مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ
 بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ *

(التفسير اللفظي)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض) أي إن كل نعمة من الله فهو الحقيقي بأن بحمد ويشي
 عليه من أجلها (وله الحمد في الآخرة) كما هو له في الدنيا لأن النعم في الدارين كلها منه ، وحمد أهل الآخرة
 راحع لانكشاف الحقائق لهم فيكون الحمد على مقدار العلم وهو غريز ، ويرمز إليه ما ورد « إن أهل الجنة
 يلهمون التسبيح والحمد كما تلهمون النفس » (وهو الحكيم) الذي أحكم أمور الدارين فاستحق الحمد لذلك
 (الحبير) بيوطن الأشياء (يعلم ما يلج في الأرض) كالغيب ينفذ في موضع وينبع في آخر وكالكنوز والدفائن
 والأموال (وما يخرج منها) كالحيوان والنبات والغازات وماء العيون وما استخرجه علماء أوروبا من بلاد
 [سبأ] الآتي ذكرها ، وذلك ما أشار به العالم الألماني ميخائيلس التنوفي سنة ١٧٩١ على ملك الدانمارك أن
 يرسل بعثة إلى بلاد اليمن ففعل سنة ١٧٥٦ وأرسلها فعرفت بعض النقوش وقال إن اليهود والعرب لا يتقدرون
 على قراءتها ، وأول من فكر في ذلك الألمان فالانكلز فالفرنساويون ومنهم العلامة أرنو كان في اليمن سنة
 ١٨٤٣ وعاد معه ٥٦ نقشا نقلها عن آثار صنعاء والحريمية ومأرب وحرم بليقيس ، وأيضا أحضر خريطة
 سد مأرب وهو أول من تمكن من مشاهدة آثار ذلك السد ، فلماذا ذكر الله هنا ما يلج في الأرض وما

يخرج منها لعله بما سيحصل في بلاد الاسلام وأن الأمة الاسلامية سيتولاها الأعطاط وتصبح غيبة جاهلة
ويأتي القرنجة يبحثون عن أسرارها وأهلها نائمون عاشون جاهلون جامدون كما حصل في هذه القرون إذ
يكون تفسير هذه السورة ومعجزاتها وسد مأرب المذكور فيها والجنان كل ذلك مطمور مخزون في الأرض ،
ومن المسلمين من يقرأ القرآن وهو جاهل « كالخار يحمل أسفارا » والقرنجة يأتون فيقرءون ويتلمون
تاريخ أسلافنا و يرون أنهم كانت لهم مدينة عظيمة و يرون أبناءهم التاجين لأعظم نبي أصبحوا جاهلين بكل
شئ ، بتاريخ أسلافهم ، بماني كتابهم ، علم الله ذلك كله قبل وقوعه فقال « يعلم ما يبلغ في الأرض وما
يخرج منها » مشيرا إلى ما سيأتي في هذه السورة ، يقول الله إنهم ما أولجوا آثارهم في الأرض إلا بلى ولا
أخرجها القرنجة إلا بلى لأنى لا أفضل إلا الحكمة ، انظروا النعم كيف خزنت في الأرض قبل أيكم آدم
وأخرجته لكم الآن . هكذا خزنت عجائب سبأ وثقوشهم وأمرت أهل أوروبا فاستخرجوه ووضعتم هذه
الآية في أول هذه السورة لأنه للمسلمين أن يستيقظوا فيتملوا علوم الأمم ويبحثوا على ما خبأته في الأرض
إلى خبأت في الأرض عجائب طبيعية وصناعية ، فلئن لم يفتن لها المسلمون ويستخرجوها فوعزتي وجلالي
لأخرجنهن منها ولأملكها لغيرهم ، إني لا أعطى النعمة إلا لمن يستحقها فان نام المسلمون فلأمنعن عنهم نسيم
الحياة وأسلط عليهم الأمم ، أنا كترت هذه الكنوز كما كترت لليتيمين في المدينة كترًا ولما بلغا أشدها أخرجته
لها ، هكذا المسلمون كانوا أيتاما جهالا فاذا بلغوا الرشد في هذا الزمان سلمتهم الأمانة المخزونة في الأرض
حتى يعرفوا مجد القدماء ويستفيدوا من علومهم ويزيدوا عليها وتكون لهم مدينة أرقى من مدينة أولئك
الأقوام ، وإلا أسكنت الأرض غيرهم ويكونون خيرا منهم ، إني عدل ووف رحيم حكيم عليم ، ما خلقت خلقى
عبثا ، أنا الحكم العدل لا أجد ولا أميل وأعطي النعمة لمن يفهمها وأطرد عنها من لا يعقلها .

يقول مؤلف الكتاب : إن هذا التفسير وأمثاله جعل تشبيها للمسلمين حتى يفتنوا وهو أشبه بمبته عام ،
فلى كل ذكي أن يسير على هذا التوال ويوقظ الأمة فان كل من قرأ هذا القول مشلول عن أمته فليتواصوا
بالحق وليتواصوا بالصبر ، وإني لملئ رجاء عظيم أن يهدي الله بهذا التفسير أمتا وبعي قلوبا ويشرح صدورا
ويسد دولا إنه هو النقي الحميد وقوله تعالى (وما ينزل من السماء) كالملائكة والكتب والقادر والأرزاق
والنظر والأنوار والصواعق ، وبالجملة أكثر ما جاء في علم الآثار العلوية من علوم الفلسفة الطبيعية وعددها
ثمانية مذكورة في كتاب الفلسفة الذي جملته عنصرا للناشئين (وما يخرج فيها) كالملائكة وأعمال العباد والأبغرة
والأدخنة والطيارات والناطيد الجوية (وهو الرحيم الغفور) للفرطين في شكر نعمه مع كثرتها (وقال الذين
كفروا لا تأتينا الساعة) إنكارا لها واستبطاء واستهزاء (قل بلى) ردة لكلامهم (وربى لتأتينكم عالم الغيب)
لا يفوت علمه شئ من الخفيات (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا
أكبر إلا في كتاب مبين) الكرة أصغر نملة ، والكتاب المبين اللوح المحفوظ ، وقد تقدم تفصيل الكلام على
هذه المعاني في أول [آل عمران] وفي سورة [يونس] وغيرها فارجع إليها . وقوله (ليعزى الذين آمنوا
وعملوا الصالحات) متعلق بقوله « لتأتينكم » وقوله (أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) أى لاتب فيه ولا من عليه
(والذين سعوا في آياتنا) بالإبطال وتزهيد الناس فيها (معاجزين) مسابقين كي يفوتونا (أولئك لهم عذاب من
رجز) سبب العذاب (أليم) مؤلم (وبرى الذين أتوا العلم) أى ويسلم أولو العلم من مسلمي أهل الكتاب
(الذى أنزل إليك من ربك) القرآن (هو الحق) بالرفع والنصب (ويهدي إلى صراط العزيز الحميد) وهو دين
الله (وقال الذين كفروا) أى قال بعضهم لبعض (هل ندلكم على رجل يبشكم) يحذركم بأعجب الأعاجيب (إذا
مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد) إنكم تنشئون خلقا جديدا بعد أن تمزق أجسادكم كل تمزيق وتمزيق

بحيث تصير ترابا (أقرى على الله كذبا أم به جنة ؟) جنون يومه ذلك ويلقيه على لسانه (بل الذين لا يؤمنون
 بالآخرة في العذاب والضلال البعيد) أى عن الحق في الدنيا (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من
 السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء) أى أعموا فلم ينظروا إلى
 السماء والأرض وإنما حينما كانوا وأبنا ساروا أمامهم وخلفهم ميطان بهم لا يقدر أن ينفذوا من أقطارها
 ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفا لتكذيبهم لآيات الله (إن في ذلك) النظر إلى السماء
 والأرض والتفكير فيها ودلائلها (آية) لئلا (لكل عبد منيب) راجع إلى ربه مطيع له إذ النبي
 هو الذى ينظر لآيات الله ويعرف أنه قادر على البعث (ولقد آتينا داود منا فضلا) وقلنا (يا جبال أوتينا معه)
 من التأييد أى رجى معه التسييح : إما مخلق صوت مثل صوته ، وإما بأنها تحمله على التسييح إذا تأمل
 هجائها ففى له مذكرات كما يذكر السبح مسيحا آخر ، وقوله (والطير) معطوف على محل الجبال وكان
 الأصل « ولقد آتينا داود منا فضلا » تأويب الجبال والطير فيدل به هذا النظم لتخامته (وألنا له الحديد)
 وجعلناه فى يده كالشمع يصرفه كيف يشاء (أن) بمعنى أى (اعمل ساجدات) أى دروعا كوامل واسمات
 تسحب فى الأرض (وقدر فى السرد) ضيق فى تسيح الدروع ، أو اجعل النسيج على القصد وقدر الحاجة
 (واعملوا) يادود وآل داود (صالحا إني بما تعملون بصير ، و) سخرنا (لسليمان) لريح غدوها شهر ورواحها
 شهر) جربها بالقدرة مسيرة شهر وبالغنى كذلك (وأسلنا له عين القطر) النحاس للذباب إسالة من
 معدنه فتبع منه نبوع الماء من ينبوع فذلك سماه عينا (ومن الجن من يعمل بين يديه) من يعمل
 معطوف على الريح ، وقوله « من الجن » حال متقدمة (بأذن ربه) بأمره (ومن يزغ منهم عن أمرنا)
 ومن يعدل منهم عما أمرناه من طاعة سليمان (نذقه من عذاب السمر) عذاب الآخرة (يعملون له
 ما يشاء من محارِب) قصور حصينة ومساكن شريفة ، سميت بذلك لأنه يحارب عنها (وحمائل) وصورا
 أو حمائل لللائكة والأنبياء على ما اعتادوا من العبادات ليراهم الناس فيجدون على عادتهم . يقال إنه كان
 له أسدان فى أسفل كرسيه وسران فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعهما ، وإذا قصد أظله
 السران بأجنحتها (وجفان) فصاع (كالجواب) كالجياض الكبار جمع جاية من الجياية وهذه من الصفات
 الغالبة كالذابة (وقدر راسيات) ثابتات على أثنائها لا تحرك ولا تنزل عن أماكنها لمظلمين وكان يصعد إليها
 بالسلام وقلنا (اعملوا) يا (آل داود شكرا) أى اعملوا بطاعة الله شكرا على نعمه والراد بآل داود إما هو
 وحده أو هو وسليمان وأهل بيته وليس بهمنا تحقيقه (وقليل من عبادى الشكور) أى قليل العامل بطاعتى
 شكرا لتمنى (فلما قضينا عليه الموت) أى على سليمان (ما دلهم على موته) ما دل الجن أو آله (إلا ذابة
 الأرض) أى الأرض ، أضيفت إلى فعلها ، والأرض بسكون الراء أو فتحها ، يقال أرضت الأرضة الحشبة أرضا
 فأرضت أرضا فالعمل الأول كضرب والثانى كفجرح (تأكل منسأته) عصاه ، تقول نسأت البعير إذا طردته
 وهى يطرد بها (فلما خرت) وقع سليمان (تبينت الجن) علمت الجن كلمهم علما بينا بعد التباس الأمر على
 عامتهم وضعفهم (أن لو كانوا يملكون الصيب ما لبثوا) بعد موت سليمان (فى العذاب الهين) أى لو كانوا
 يملكون الصيب كما يزعمون لموتوا موته حينما وقع فلم يلبثوا بعد موته حوا فى تسخيره . روى أن داود أسس
 بيت للقدس فى موضع فسطاط موسى عليه السلام فمات داود قبل تمامه فوصى به إلى سليمان فاستعمل الجن
 فلم يتم ودنا أجله فأعلم به فأراد أن يصى عليهم موته ليتنوه فدعاهم فبنوا عليه صرحا من حواير ليس فيه
 باب فقام يصلى متكئا على عصاه قبض روحه وهو متكئ عليها ، فبقى كذلك حتى أكلتها الأرضة غر ثم
 عثوا عنه فوجدوا بحسب مقادير أكل الأرضة أنه قد مات منذ سنة وكان عمره ٥٣ سنة وملك وهو ابن ثلاث
 عشرة سنة ، وابتدأ عمارة بيت القدس لأربع مئين من ملكه .

هذا ماجاء في كتب المفسرين رحمهم الله وسيأتي في الفصل الثالث مقصود هذه القصة وأنها من المعجزات النبوية لأن هذا المقصود هو نفسه الذي شرحته الأرواح في الوقت الحاضر وهو عجيب وهذا داخل في قوله تعالى - يعلم مايلج في الأرض وما يخرج منها .

ثم قال تعالى (لقد كان لسبأ) لأولاد سبأ من نسل قحطان (في مسكنهم) أو مساكنهم قراءتان أى في مواضع سكنهم وهي اليمن يقال لها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة فراسخ (آية) علامة دالة على وجود الصانع المختار ، والآية المذكورة (جنتان) جماعتان من البسانين (عن يمين وشمال) جماعة من يمين بلدم وجماعة عن شماله كل واحدة منها في تقاربها وتضايقها كأنها جنة واحدة أو لكل رجل بستانان بستان عن يمين مسكنه وبستان عن شماله ، قد أظهر الكشف الحديث الآتى الرأى الأول فقال لهم الله على السنة أنبيائهم : هذه البلدة التي فيها رزقكم (بلدة طيبة) وربكم الذي رزقكم (رب غفور) لمن شكره . قال ابن عباس وكانت سبأ على ثلاثة فراسخ من صنعاء ، يقال انها كانت أخصب البلاد ، وأما طيبها فليس بها بعض ولا ذاب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية وسترى تحقيق أم هذه الأمور (فأعرضوا) عن الشكر (فأرسلنا عليهم سيل العرم) أى السد وهو جمع عرمة وهي الحجارة الركومة كالخزان في وادى النيل عند اصوان يعبر الماء وكان ذلك بين زمن عيسى ومحمد عليه السلام ، وهذا السد له ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض والمطر يجتمع أمام ذلك السد فيسقون من الباب الأعلى ثم الذي يليه ثم من الأسفل (وبدلناهم بحنثيم) المذكورين (جنتين) سميتا جنتين للشاكلة (ذوات أكل مخط) الأكل الثمر ، والمخط كل نبت أخذ طعمها من الحرارة وشجر الأراك وكل شجر ذى شوكة (وأثل) هو العبل وهو أكبر من الطرفاء وأعظم منه (ونهى) من سدر قليل) وهو شجر معروف يتفتح بورقه في التسلسل ونعمه التبق وهما معطوفان على أكل لاعلى حتمله ، ألا ترى أن الطرفاء لا تمر لها فلا تكون في حيز الأكل وفي أكل مخط قراءتان الإضافة والتثوين وعلى الثاني يكون بدلا أو عطف بيان (ذلك جزيتهم بما كفروا) أى بكفرهم (وهل يجازى إلا الكفور) وفي قراءة « وهل يجازى » (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها) بالتوسمة على أهلها وهي قرى الشام (قرى ظاهرة) متواصلة يظهر بعضها لبعض أوراكبة متن الطريق ظاهرة لأبناء السبيل (وقدرنا فيها السبيل) بحيث يقبل العادى في قرية ويبقى الرايح في قرية إلى أن يبلغ الشام وقيل لهم بلسان الحال (سيروا فيها ليالى وأياما) متى شئتم من ليل أو نهار (آمنين) لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) أى أنهم بطروا النعمة وملوا العافية كبنى اسرائيل فسألوا الله أن يجعل بينهم وبين الشام مفاوز ليتناولوا فيها على الفقراء ركوب الزواجل وتزود الأزواد فأجابهم الله بتخريب القرى للتوسمة (وظلموا أنفسهم) حيث بطروا النعمة ولم يتدوا بها (فجعلناهم أحاديث) يتحدث الناس بها تعجبا وضرب مثل فيقولون تفرقوا أيدي سبأ أى كما تفرق أبناء سبأ في البلاد كما سيأتى تفصيله (ومزقناهم كل ممزق) وفرقناهم غاية التفريق (إن في ذلك) فيها ذكر (لآيات لكل صابر) عن المعاصي (شكور) على النعم (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه) بالتشديد أى حقق ظنه أو وجدته صادقا ، وبالتخفيف أى صدق في ظنه (فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين) أى إلا فريقا من المؤمنين لم يتبعوه (وما كان له عليهم) على التبعين (من سلطان) تسلط واستيلاء بالوسوسة والإغواء (إلا لعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك) أى لتمييز المؤمنين من المشاك (وربك على كل شئ حفيظ) محافظ رقيب . واعلم أن هذه الآيات من قوله « ولقد صدق عليهم ابليس ظنه » جرى بها كما هي عادة القرآن بعد ذكر القصص لاستنتاج العلم من أحوال الأمم لأن المراد تعليم المسلمين لا مجرد القصص وسردها . يقول الله إن ابليس لا سلطان له على قلوب الناس وإنى أسلطه عليهم كما أسلط الشياطين على

اليون القذرة والوباء على البلاد التي تستحق لتعفن جوها، فلست أفضل إلا الحكمة لمن سمع وسوسة اللوسوس فهو المذنب وحده، فإذا حلّ الوباء بأرض مات من لا قدرة له على الحياة لاستعداده للموت وبقي من له استعداد للحياة هكذا في الوسوسة يفرق الله بها بين الثابت العقيدة ومترزها وهكذا جميع حوادث الدنيا من اللغات والنسك منها والحوادث للثمة وحلولها ليثبت القادر ويستقل الضعيف وهكذا الأمم الأوروبية جعلها الله محكا لأهل الشرق فمن صادمهم وصبر على مكارهتهم فاز بالاستقلال، ومن جزع منهم وخاف وهلع وخضع أصبح أسير لهم وأذاقوه سوء السكال. هذا ما يفيد الآية إذ يقول تعالى « وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم » المع ثم قال تعالى (قل) يا محمد للشركين (ادعوا الدين زعمتم) أي زعمتموه آلهة (من دون الله) ليكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم في سنى الجوع. ثم أفاد هجر الآلهة فقال (لا يملكون مقال ذرة في السموات ولا في الأرض) يعني من خبروشر وضع وضر (وما لهم) أي للآلهة (فيهما) في السموات والأرض (من شرك) من شركه (وما له) الله (منهم) من الآلهة (من ظهروا) معين بيته على تدبير أمرها (ولا تنفع الشفاعة عنده) أي لا تنفعهم شفاعتهم أيضا عنده تعالى فلا شفاعة عند الله (إلا لمن أذن له) أي إلا لمن أذن الله له أن يشفع والله لا يأذن أحدا أن يشفع لهؤلاء الكافرين فيخرون صعقون عند الموت (حتى إذا فزع) كشف وجلي (عن قلوبهم) الخوف والفزع (قالوا ماذا قال ربكم) أي قالت للملائكة لهم : ماذا قال ربكم في الدنيا لإقامة الحق (قالوا الحق) أي قال للشركون الحق فأقروا به حين لم ينفعهم الإقرار (وهو العلي الكبير) أي ذوالعلو والكبرياء ، وللآية وجه آخر في التفسير وهو أن الله تعالى لما قال « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » ذكر حالا من أحوال الذين يؤذن لهم بالشفاعة وهم للملائكة لا الأصنام لأن الملائكة وسائط الوحي ، وقد تقدم في [سورة البقرة] أن التلميح بذر الشفاعة فقال إن الملائكة ينتظرون الإذن خائفين فزعين حتى إذا فزع عن قلوبهم بالإذن قال بعضهم لبعض ماذا قال ربكم في الشفاعة ؟ قالوا : قال القول الحق وهو الإذن بها لمن ارتضى وهم المستدون لها ، وهذا المعنى فصله حديث الترمذي « إن الله إذا تكلم بالوحي سمع أهل السموات صلصلة جبر السلسلة على الصفا فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل فاذا جاء فزع عن قلوبهم فيقولون يا جبريل ماذا قال ربك ؟ فيقول الحق ، فيقولون الحق »

واعلم أن حال العلماء والحكماء في الأرض فيها بعض الشبه بذلك . ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم عند الوحي كان كأنه مغشى عليه ويتنابه العرق ثم يكشف عنه ذلك فينطق بما أوحى به إليه . ألا ترى أن الانسان لا يعرف علما إلا إذا سرف كل قواه العقلية إلى الفكر وحصر كل همه في الفهم حتى يعقل ما هو بصدده . إن هذا الذي ذكر في الآية والحديث يشير إلى أن العلوم والحكمة من عالم مغاير لعالمنا فلا يزال ملك ولا نبي ولا عالم شيئا منه إلا بأن تكون كل قواه محصورة في العالم الروحي ، وأقل الناس في ذلك العلماء وأعظم منهم الحكماء وأرق منهم الأنبياء والملائكة فاستغرق هاتين الطائفتين أشد والله أعلم .

﴿ الكلام في محاجة الكافرين والمجاندين والترفين والمرءوسين وما هو من هذا النحو ﴾

لما تقدم قوله تعالى « لا يملكون مقال ذرة » المع آتى هنا بتقريره فقال (قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟ قل : الله) فلا جواب سواه (وإنا أو إياكم لعل هدى أو في ضلال مبين) أي ما نحن وأتم على أمر واحد ، بل أحد الفريقين مهتد والآخر ضال وذلك على طريق الإلزام والانصاف في الخجاج ، إذ يقول القائل أحدنا كاذب وهو يعلم أنه صادق وصاحبه كاذب فكذبهم من غير تصريح بالكذب (قل لا تسألون عما أجرنا ولا نسأل عما تعملون) وهذا أدخل في الانصاف إذ أسند الإجرام لأنفسهم والعمل للمخاطبين (قل يجمع بيننا ربنا) يوم القيامة (ثم يفتح بيننا بالحق) يحكم ويفصل بأن يدخل الحقين الجنة والباطنين النار

(وهو القناع) الحاكم الفصل (العليم) بما ينبغي أن يقضى به (قل : أروني الدين الحقم به شركاه) لأرى
بأي صفة الحقنوم بالله في استحقاق العبادة ، استغفر عن شبهتهم بعد إتمام الحجبة عليهم في تبكيهم (كلا)
ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال القايمة أي ارتدعوا (بل هو الله العزيز الحكيم) للوصف بالعلية وكال القدرة
والحكمة ، فأما من الحقنوم به فلا قبول للعلم عندهم ولا للقدرة (وما أرسلناك إلا كافة للناس) إلا إرساله
عامة لهم فهي كفتهم أي منعهم أن يخرج منها أحد منهم أو إلا حال كونك جامعاً لهم في الإبلاغ والتناء للبالغة
(بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون) فيحملهم جهلهم على مخالفتك (ويقولون) من فرط جهلهم
(متى هذا الوعد) ينعون للبشر به والنذر عنه (إن كنتم صادقين) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم
والمؤمنين (قل لكم ميعاد يوم) أي وعد يوم (لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) إذا فاجأكم وهو
جواب معطوف على التهديد مطابق لما قصدوه من التعتن والإنكار (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن
ولا بالذي بين يديه) ولا بما تقدمه من الكتب ، وذلك أن أهل مكة سألوا أهل الكتاب عنه صلى الله عليه
وسلم فأخبروهم أنهم يحدون نعتهم في كتبهم فضنبوا وقالوا ذلك (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم)
في موضع المحاسبة (يرجع بعضهم إلى بعض القول) يتحاورون ويتراجعون القول (يقول الذين استضعفوا)
يقول الأتباع (للذين استكبروا) للرؤساء (لولا أتم لكنا مؤمنين) فأنتم الذين منعتمونا عن الإيمان (قال
الذين استكبروا) أوجب التبوعون في الكفر (للذين استضعفوا : أنحن صددناكم) منعناكم (عن الهدى) عن
الإيمان (بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين) بترك الإيمان (وقال الذين استضعفوا الذين استكبروا : بل مكر الليل
والنهار) أي مكركم بنا في الليل والنهار أي لم يكن إجرامنا الذي صدنا بل مكركم لنا دائماً ليلاً ونهاراً حتى
غيرتم علينا رأينا (إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) وذلك أن القادة يقولون للأتباع إن ديننا الحق
وإن محمداً كذاب ساحر فإذن طاعة الكفار بعضهم لبعض تكون سبباً لعداوتهم في الآخرة كما هو مشاهد
في قطاع الطرق والفسقة إذا وقعوا في أيدي الحكام والقضاة فانهم يتعادون (وأسرروا الندامة لما رأوا العذاب)
أي وأضرم الفريقان الندامة على الضلال والإضلال (وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا) أي في أعناقهم
(هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أي لا يفعل بهم ذلك إلا جزاء على أعمالهم (وما أرسلنا في قرية من نذير
إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) ذلك تسلياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن المتعنين للنعسين
في الشهوات هم الذين يحملهم التكبر والفاخرة بزخارف الدنيا على التفور من الكمال والحكمة والعلم والإيمان
لأن الضدين لا يجتمعان فمن هو منه س في الشهوات والذات كيف يخلص عقله للكمال ، ثم أخذوا بربطون
الكمال النفسي بالكمال المادي (وقالوا : نحن أكثر أموالاً وأولاداً) ولم يكن ذلك إلا لرضاء الله علينا ولو كان
ديننا باطلاً ما منحنا هذه النعم فمنح مكرمون (وما نحن بمعذبين . قل) ردوا لزعيمهم (إن ربي يبسط الرزق
لمن يشاء ويقدر) يوسع ويضيق امتحاناً وابتلاء فلا علاقة للكمال الروحي بالكمال الجسمي (ولكن أكثر
الناس لا يعلمون) أنها كذلك فيخلطون في أحكامهم ويلقون أحد الأمرين على الآخر (وما أموالكم ولا
أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى) أي بالتي تقرّبكم عندنا تقريباً (إلا) لكن (من آمن وعمل صالحاً) أي إيمانه
وعمله يقربه مني ، فالأموال والأولاد لا تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله ويعلم ولده
الحير ويريه على الصلاح (فأولئك لهم جزاء الضعف) أي أن يجازوا الضعف إلى عشر إلى سبعائة فأكثر (بما
عملوا وهم في الفرفرة آمنون) من المكارة (والذين يسعون في آياتنا) بالرد والطمع فيها (معاجزين) مسبقين
لأنبيائنا أو ظانين أنهم يفوتوننا (أولئك في العذاب محضرون . قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده
ويقدر له) هذا في الإنسان الواحد في وقتين مختلفين وما تقدم في شخصين مختلفين (وما أنفقتم من شيء فهو

يخلفه) عوضا إما عاجلا أو آجلا (وهو خير الرازقين) ولا رزق من غيره إلا أن يكون واسطة في ذلك فالرازق حقيقة هو الله (ويوم يحشرهم جميعا) المستكبرين والمستضعفين (نم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) تقريرا للشركين وتبيكتنا لهم وإفراط لهم من توقع شفاعتهم (قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم) أي الذي تواليه من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم (بل كانوا يعبدون الجن) أي الشياطين إذ كانوا يعبدون غير الله بوسوستهم أو يعبدونهم هم أنفسهم، إذ يفهمونهم أنهم هم الملائكة تضليلا فيستغيثون بهم في قضاء حوائجهم كما هو مشهور عند أرباب العزائم والسحرة، فأما نحن فإنا ندعوا الناس إلى الخير والفضل، لجواهر نفوسنا وتناجها مخالقات لجواهر الجن وتناجها (أكثرهم بهم مؤمنون) أي مصدقون للشياطين إما باستحضارهم بطرق التحضير، وإما بالوسوسة (فاليوم لا يملك بعضهم لبعض نفعا ولا ضرا) بالشفاعة والعذاب أي إنهم عاجزون لا نفع عندهم ولا ضرر لأن الأمر في ذلك اليوم لله الواحد القهار، لا يملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد (وقول للذين ظلموا) بوضع العبادة في غير موضعها (ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) في الدنيا (وإذا تلى عليهم آياتنا) أي قرأ القرآن عليهم (بينات) واضحات (قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا) أي القرآن (إلا إفك مفرى وقال الذين كفروا) إظهار في موضع الإضمار للانكار عليهم أي قالوا (للحق) للقرآن أو لأمر النبوة (لما جاءهم) وعجزوا عن الايمان بمثله (إن هذا) أي الحق (إلا سحر مبين) أي بين ظاهر فكل عاقل يتأمله يسميه سحرا (وما آتيناكم من كتب يدرسونها) تدلم على صحة الاشرار (وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) يدعوهم إلى الشرك وينذرهم على تركه فمن أين هذه الشبهة؟ ثم أخذ يهددهم فقال (وكذب الذين من قبلهم) كما كذبوا (وما بلغوا معشار ما آتيناكم) أي وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال (فكذبوا رسلنا فكيف كان نكير) أي عفين كذبوا رسلنا فكيف كان نكيرهم (وما آتيناكم من كتب يدرسونها) (قل إنما أعظكم بواحدة) أي أرشدكم وأنصح لكم بخصلة واحدة هي ما دل عليه قوله (أن تقوموا لله مثنى وفردى) أي هو القيام والانتصاب في الأمر والنهوض بالهمة فتقوموا لوجه الله خالصا ثم تفكروا في أمر محمد صلى الله عليه وسلم اثنين اثنين أو فرادى، فأما الاثنان فيعرض كل واحد منهما رأييه على الآخر، وأما الفرد فيفكر في نفسه أيضا بعدل ومنصفة هل رأينا في هذا الرجل جنونا. وهذا قوله تعالى (ما بصاحبك من جنه) أي تفكروا هل بصاحبكم من جنون أو ما بصاحبكم من جنون؟ (إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) قدمه لأنه مبعوث قبيل الساعة (قل ما سألتكم من أجر) أي أي شيء سألتكم من أجر على الرسالة (فهو لكم) وهذا وما قبله يرجعان إلى أن دعوى النبوة بلا حقيقة لها إما أن يكون الجنون أو لتوقع نفع دنيوي، فأما الجنون فلينظر فيه بالفكر مثنى وفردى، وأما النفع الدنيوي وهو الأجر فممتنع أيضا (إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد) مطلع يعلم صدق وخلص نيق (قل إن ربي يقذف بالحق) يقول بعد نفي كل من الجنون وتوقع الأجر في الدنيا. قل لهم إن ربي يأتي بالوحي من السماء فيقذفه إلى الأنبياء (علام الغيوب) خفيات الأمور (قل جاء الحق) أي القرآن والاسلام (وما يبدى الباطل وما يعبد) أي ذهب الباطل وزهق فلم يبق منه بقية تبدي شيئا أو تعيده (قل إن ضللت) عن الحق (فإنما أضل على نفسي) فوبال ضلالي عليها (وإن اهتديت فبأمر يوحى إلي) ربي) فإن الاهتداء بهدياته (إنه مسمع قريب) يدرك قول كل ضال ومهتد (ولو ترى إذ فرغوا) عند الحوادث العظام من هلاك في الدنيا كما حصل في حرب بدر وغيرها أو عند الموت أو يوم البعث لرأيت أمرا عظيما (فلا فوت وأخذوا من مكان قريب) من ظهر الأرض إلى بطنها، أو من الموقف إلى النار، أو من صحراء بدر إلى القلب هناك (وقالوا آمنا به) بمحمد حين عاينوا العذاب

عند اليأس (وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) أى كيف لهم تناول ما بعد عنهم وهو الإيمان والتوبة وقد كان قريبا منهم فى الدنيا فضيعوه ، فإذا سألوا الرد إلى الدنيا يقال : وأنى لهم الرد إلى الدنيا ؟ (وقد كفروا به) بمحمد صلى الله عليه وسلم (من قبل) من قبل ذلك أوان النكاي (ويغذفون بالغيب) ويرجمون بالظن ويشكمون بما لم يظهر لهم من الرسول صلى الله عليه وسلم (من مكان بعيد) من جانب بعيد عن الصدق والحق والصواب كقولهم هو شاعر وساحر الخ فهذا منهم تكلم بالغيب والذى لم يشاهدوه فهو من جهة بعيدة عن حاله الشريفة صلى الله عليه وسلم (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) من نفع الإيمان والنجاة به من النار بعد ما فاتت فرصته فى الحياة الدنيا وهم كافرون وقاذفون بالقول بلا روية ولا فكر فى أمر التوبة (كما فعل بأشياعهم من قبل) أى بأشباحهم من كفره الأمم الدارجة (إنهم كانوا فى شك مررب) موقع فى الريبة والتهمة وهو وصف للشكك وصف به الشك مبالغة . انتهى الفصل الأول وهو تفسير ألفاظ السورة كلها .

(الفصل الثانى)

نذكر فى هذا الفصل ما كنت كتبتة ملخصا لتفسير هذه السورة منذ أكثر من عشر سنين ليجمع المعنى بسهولة عند الأذكياء .

اعلم أن هذه السورة تشتمل على [ستة مقاصد : الأول] إثبات الوجدانية [الثانى] إثبات علم الله . [الثالث] إثبات يوم البعث بما يشاهد من العجائب [الرابع] آراء العلماء فى القرآن وآراء الجهلاء [الخامس] ذكر أمتين عظيمتين غنيتين إحداهما أطفاها الفنى فكفرت وهى سبأ وأخرى شكرت وهى آل داود وسليمان وجوزى كل بما فعل [السادس] تعليم الناس الاستقلال فى الرأى ونبذ الأوهام حتى لا تخدعهم صورة ممثلة ولا رئيس ضليل ولا يفرم مال ولا يظفهم ترف ولا يعبدون ملكا ولا جنا ولكن يكونون أحرارا خالصين مخلصين فينالون السعادة فى الدنيا والآخرة كداود وسليمان عليهما السلام وكالنبي صلى الله عليه وسلم كما ذكر فى سورة الأحزاب .

(المقصد الأول والثانى والثالث)

من أول السورة إلى قوله « من رجز أليم »

ابتدا السورة بمحمد الله عز وجل وبيان اختصاصه بملك العالم العلوى والسفلى وليس فى الآخرة من نعمة إلا من فيض فضله وتعام نعمته فهو الم محمود فى الدارين المشكور على التعمتين توطئة لما سيذكر فى السورة من ملك داود وسليمان إذ عرفا لله حق النعمة واعترفا أنها من الله وشكرا عليها وإلماغا إلى سبأ بكفرهم بالنعمة وإعراضهم عن الحمد وتقطيعهم الأرحام وتمزيقهم شمل الأمة « جزاء وفاقا » بما عملوا ومزقوا كل ممزق لما أعرضوا ، وإيدانا بأن من خدعوا بالأصنام أو اغتروا بالرؤساء الذين استكبروا أو عبدوا لللائكة أوقلوا للضعفاء نحن أكثر أموالا وأولادا فان أولئك غافلون وجزاؤهم المقت والغضب والارتظام فى أحوال الشبهات والفرق فى غمرة الجهل واستعباد الرؤساء لهم وتمزيقهم لما غفلوا عن مسبب النعمة ومسببها . ثم أفاد أنه يعلم أجزاء السادة وإن دقت وصغرت وصفاتها من حركة وسكون وولوج وخروج ونزول وصعود ويعلم ما فوق ذلك من ملك .

كيف لا ونحن نشاهد عجائب الكيمياء فتعجب كيف وزن الدررات وزنا بديما حتى إنك لترى الأكوحين والأدروحين في الماء مثلا لا تزيد ذرة منهما أو من أحدهما عما رسم لها في تركيب الماء وتلك الدررات دقيقة لا ترى بالمنظار المعظم . وهكذا العناصر الداخلة في تركيب الأشجار والزررع ، فلقد وضع أن تألف منها النبات بمقدار معلوم فترى الجبر مثلا في القطن وفي القمح وله مقام معلوم في كليهما لا يتعداه . وهذا هو السر المصون العجيب للعبر عنه بقوله « ولا أصغر من ذلك » .

فإن ذرات الكيمياء أصغر من ذرات الهباء صفرا لا حذله . ولا جرم أن الذي يعلم دقائق الأشياء كما نشاهده لا يغفل عن أفعال العباد . فإذا وزن الدررات في تركيب النبات فما أحراه أن يزن أفعال العباد ليوم العباد فذكرنا الله بقوله « وربى لتأتينكم » وهذا قسم للتأكيد على نهج البلاغة ، ثم أتبعه بالبرهان العلمي والدليل الطبيعي والكيمياء للحكماء على سبيل الارتقاء فقال « ولا يعزب عنه مثقال ذرة » . الخ فتعجب وتأمل وادرس العلم واقرا الحكمة حتى تفهم السر المصون وذلك قوله تعالى « يعلم ما يبلغ في الأرض إلى قوله من رجز ألم » .

(المقصد الرابع)

إن عقلاء الأمم وعلماء الديانات يرون أن هذا القرآن يوافق ما أوتوا وأنه هدى . وأما الجهال فأنهم تائهون في أودية الضلال لا حجة لهم إلا الاستبعاد . ولا دليل لهم إلا الاستهزاء والابتداء بما يهرفون من جنة يدعونها وكذبة يفترونها . ذلك لتقصير نظرهم عما أبدع في الأرض والسماء وما وزن في المركبات من الدررات مما لا يفهمه إلا علماء دارسون لهذا النظام . فما أحرى السماء أن تنزل عليهم كسفا وما أجدر الأرض أن تخسف بهم خسفا فأنهم يعيشون عليها وهم لا يفلحون وبأكلون خيرها وهم لا يدرسون قال تعالى « ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد » إلى قوله تعالى « إن في ذلك لآية لكل عبد منيب » .

(المقصد الخامس)

فيه غرضان الأول : من أوتى مالا وعلمنا وحكمة فعرف وشكر وآمن بالبعث وهدى الناس .
والثاني : من أوتوا النعمة ففرحوا وأحجوا واستكبروا وطفخوا فهلكوا هما أمتان ذكرهما الله عز وجل كانتا في جزيرة العرب فبنوا إسرائيل بالشام ومنهم داود وسليمان عليهما السلام وسبأ كانوا في اليمن وما أنسب ذكرها بسورة الأحزاب وما أعجب قصص القرآن ! ألم تركيب أنعم على النبي بنعمة النصر والفتح والهدى . وهل أنسب لذلك من أمر داود وسليمان عليهما السلام وبلاد سبأ وبلاد الشام علاقة متينة قوية .
ألم ترى قصة بلقيس وسليمان عليه السلام أيام شباب الدولة الاسرائيلية فإن بنى إسرائيل كان لهم أدوار ثلاثة .
(الدور الأول) ذلهم في مصر نحو أربع مائة سنة وعشرات (الثاني) ملكهم تحت حكم الشيوخ السبعين نحو من ذلك بالشام . (الدور الثالث) دور الملك والعظمة وذلك في زمن داود وسليمان عليهما السلام .
وذلك أيام بلقيس . ولذلك الإشارة بقصة طالوت وجالوت وداود في البقرة وقصة بلقيس في النمل . وأما قصص فرعون معهم لما أوضح ما ذكر في أول الشعراء في ذلك . ولقد كانت دولة الحميريين والتباجة قوية ذات مجد

وسلطان وعظمة لما أشبهها بدولة بني إسرائيل في زمن سليمان وداود . [والسكل من الدولتين قدم راسحة في صناعة التماثيل وبناء المحاريب والأبهاء والجلال والعظمة] ولقد أصبح القطران في حوزة الأمم الإسلامية الآن ، فالبحر معروفة أخبارها مشهورة آثارها حاوية من الصناعة فارغة من العلم إلا قليلا ، وكذلك أرض الشام . ملك الله المسلمين القطريين منذ أيام العصر الأول وقص عليهم قصص الأمم التي سكنتها والأجيال التي قطنتها والملوك التي دبرتها ليذكر المسلمون ويعتبروا وليعلموا أن النقاطع سفير العذاب ونذير الخراب وأن هذه البلاد سيملكونها ، فإياكم أن تكونوا كسبا إذ أهدقنا عليهم النعم وملكناهم العن وجعلنا بلادهم من الماء والحصب كأنهما جنتان بحيث يراها الداهب إليها جنتين عن يمينه وشماله أو لكل مسكن جنتان هو قائم بينهما على النظام الأوروبي المصري الذي حرم منه الثرون عندنا وتمتع به صفار العملة هناك ، وهل كان ذلك النظام البديع إلا باقتان علم الزراعة والابداع في فن الصناعة ودرس علم الصحة وكيف تنظم المساكن وكيف تحاط بالبساتين إلا بالهندسة المدروسة وتقويم الصحة ، وكيف بنى السد للسمى بالعم أو السكر أو النجف أو السنة ليحجر الماء إلا باقتان فن الهندسة والبناء وعلم الري ونظام الجسور . وهل تلك الطبقات الثلاث في السنة أو العرم التي تنزل الماء بقدر معلوم فالمنفذ الأعلى يليه الأوسط فالأسفل إلا بحكمة وعلم . وهل تستطيع الأمم الوحشية ذلك ؟ كلا .

لقد كان العمران متواصلا مارا في تلك الصحارى القفرة الآن . والآثار الدارسة حتى يصل بلاد الشام التي بارك الله لأهلها من بني إسرائيل وغيرهم . ألا تنجب . كيف دمر ملكهم وهل ينزل البلاء ويستعصى الداء . ويموز الدواء ، إلا إذا جهلوا ما به الحياة وانصرفوا عن الحكمة للوروثة وتقاطعوا وتميزوا طرائق ، وتباينوا خزائني ، لجفوا الهندسة وتركوها ، وأغفلوا الصناعة ونبتوها وضلوا عن الزراعة فلم يتمهدوها ، وأعرضوا عن علوم الري فلم يتدروسها ، وانصرفوا عن نعم الله فلم يشكروها ، واتبعوا ما يقول الجاهلون ، ويتبعه لهم الدجالون فيقولون [سيفتح العرم فأرة فاربطوا هرة تحفظه وترعاه كما فعل المصريون أيام قنبر إذ أحجموا عن ضرب الفارسيين خوف المهر أن تصاب] « قتل الإنسان ما أكفره » . فلما أن أهملوا سدم ، وتركوا أرضهم ، سال الوادي بالماء وبدلوا بالجنتين ما لا ينفع الإنسان من أثل لا تمر له وشجر مرّ الثمر ونبق قليل ، وتباعدت أسفارهم ، وتنامت ديارهم ، وخربت القرى المتواصلة للنظمة في طريقهم إلى الشام ، فأصبحوا مثلا في القابرين قبيل تفرقوا أيدي سبا : أبناء سبا عشرة تشام منهم أربعة ، لحم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة : وتيا من سته : الأسديون والأشعريون ، وحمير ، وكندة ، ومذحج ، وأعمار ، ولما تفرقوا لحقت غسان بالشام والأزد إلى عمان ، وخزاعة إلى تهامة ، وصر الأوس والخزرج إلى يثرب ولحق آل خزيمه بالعراق .

﴿ موازنة ملك سليمان بملك سبا بن يعرب بن يشجب بن قحطان ﴾

فوازن رعاك الله هذا الملك العظيم بملك بني إسرائيل وكيف زال الأول بسيل العرم بعد الأبهاء والجلال . والمز واللمعة . والشرف . والفضل العظيم وكيف عظم بنو إسرائيل فبنى داود وسليمان عليهما السلام بيت القدس إذ رفع على أعمدة بلورية وبنى بالرخام الأصفر والأبيض والأخضر . وسقف بأنواع الجواهر وقضض سقفه وحيطانه باللاتي ، واليواقيت وسائر الجواهر وبسط أرضه بأنواع الفيروز وسخر العملة . فبنوا المحاريب وصنعوا التماثيل لكل صنف من الحيوان المثل للثورة كالأسد والصقر أمام كرسيه وفوق رأسه . واللطيف الشكل كالنزاع وغيره . ألم تركيب زال هذا الملك إذ طفوا وبنوا وسلط عليهم مختصر من أرض بابل فأخذهم ووضعهم بأرض فارس وما والاها كما في أول سورة الاسراء . إن ذلك لبرة للمسلمين كما في قصص

هود وعاد ونمود وقوم لوط وأصحاب مدين . فما كن هؤلاء جميعا إسلامية اليوم . وقد أعطاهما الله المسلمين فتمت وعفوا أيام شباب دينهم فلما أدبروا وأعرضوا أصبحت البلاد عرضة للدمار آيلة للخراب إن لم يتم فيها مصلحون ويسعدوا المرشدون وذلك قوله تعالى « ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي » إلى قوله « لسكل صبار شكور » .

المقصد السادس

(الاستقلال والحرية في الآراء)

خراب الأمم وذهاب الدول وخراب بلداتها لا يدعو إليه إلا الجهل ولا يحدته إلا ترك العلم بتابع أخس الآراء وتصديق الترهات كما يحدث في بلادنا من أكاذيب الجهلاء وأضاليل بعض السفهاء من اللطيفين الفاوين ، وكما حدث في سبأ من نيز علوم أسلافهم واتباعهم أهواءهم وربط المهرج بجانب سدوم كأنهن مهندسات ومنظمات ، ويتبع الجهل خلة الظلم والتقاطع والتدابير وذلك هو المعبر عنه في القرآن بالكفران . وشعب الأوهام كثيرة وأوديتها ناسعة وخروق فجائها واسعة ولكن ترجع إلى ثلاثة أصول ضعف في بصيرة . اغترار برياسة . وضلال يبطر القنى . فأما ضعف البصيرة فذلك ما ذكره الله عقب قصص سبأ من الأصنام للصوبة والأشباح الخالية من الأرواح وكيف صور الوهم للناس عبادتها وكيف يعدونها شفعاء ومن يشفع إلا بعض المصطفين الأخيار فيخرجون فزعين ويفشى عليهم صعقين ، فإذا زال الفزع تسألوا فما بينهم ماذا أنزل ربكم قالوا إنه قال الحق (وهذه الأصنام لا حياة لها فضلا عن الشفاعة) وليس عباد الملائكة بأحسن حالا من عباد الأصنام فسلكهم مخلوق وكلهم مربوب . بل يقف للملائكة يوم القيامة ويتبرءون ممن يعبدون ويقولون إن عبدوا إلا الأوهام ، وما اتبعوا إلا الجان لضعف بصائرهم . وذلك قوله تعالى « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه » إلى قوله عذاب النار التي كنتم بها تكذبون .

(الاغترار بالرؤساء)

وأما الاغترار بالرؤساء ، والخضوع للكبراء فهو الطامة الكبرى والصلية العظمى وداية الشرقي . وداية اتساع الحرق . وغرور الجهال . وضياح الأموال ودمار البلدان . ولقد قطع الله الحجة وأعذر . وقرر الذنب على الرؤساء والمحكومين كالحاكمين . وتأمل كيف يقول الضعفاء للمتكبرين أتم أضلائتمونا فهل تنفمونا ؟ فقال للمتكبرون كلا فأنكم مجرمون ولم تفكروا أفلا تمقلون ؟ فقال الضعفاء كم من حيلة نصبتموها . ومكيدة دبرتموها باذاعة الأخبار ونشر الآثار بالليل والنهار فقال الله : لسكل ضعف من العذاب ذلك كما نشاهده اليوم في الأمم التي ذهب مجدها وقاب سعدها وحضر جهدها إذ يقولون على الرؤساء تبعنا ونحن لآمال بأيدينا ولا سلاح ولا جند فقطع الله الحجة وأوضح المهجة وأناط بكل عملهم وأوجب عليهم أن ينظروا مفكرين ولا يقتروا بالمتكبرين فكيف يسمع الرؤساء جمجمة ولا يرى طحنا ، فالصعلوك كالملك في الإسلام على كل التفكير « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ومصداق ذلك ما تراه الآن في بلاد الإسلام من قولهم : ظلم الحكام فباد الأنام وتقول كلنا والله مستولون وعلينا أن تفكر للجموع وإلا حقت كلمة العذاب وذلك قوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون » إلى قوله « هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » .

(الضلال بالقنى)

وأما الضلال بالقنى والبطر بالمال فما أشبهه إلا عبادة الأصنام ولن يجادل الأنبياء ويقاوم الرسل وللصلحين إلا الأغنياء لثافتوت رباستهم ويعلوم غيرهم ذلك شأن الإنسان في كل زمان إلا أن عابد الصنم متبع خياله

وخبائه والقر بالمال أعظم شهوته وخضع للذات كالمجموعات وذلك قوله تعالى « وما أرسلنا في قرية من نذير - إلى قوله آمنون » فالمال كالصحة والسلطان والولد وسائر النعم لادلالة لوجودها على الشرف ولا لعدمها على الضعة فهي تكون للبار كما تكون للفاجر فليست تقرب بعيدا ولا تبعد قريبا ، ولا ترفع وضعا ولا تضع رفعا لذاتها ولكن هذه الأعراض أشبه بالسيف ، ينفع إن أمسكه العاقل الشجاع ويضر إن تناوله المجنون . هذه أهم مقاصد السورة الشريفة وما عدا ذلك فتثبيت لحجة أو تأييد لحكمة كقوله تعالى « قل من يرزقكم من السموات والأرض - إلى قوله لا تستقدمون » .
هذا وقبل أن ندخل في مباحث الفصل الثالث لا بد أن نوضح المقام في قوله تعالى « يعلم ما يابح في الأرض وما يخرج منها » إلى آخره وهو ما يأتي

(جوهرتان)

(الجوهرة الأولى) في قوله تعالى « الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير » .

(الثانية) في قوله تعالى « يعلم ما يابح في الأرض » الخ .

(الجوهرة الأولى في قوله تعالى « الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض » الخ)

(كتب في ليلة الأربعاء ٢٠ رمضان سنة ١٣٤٨ هـ)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

اللهم فك الحمد على أنك أسعدتني بالحكمة وحبوتني العلم ، إنك أنت الحكيم الخبير ، فما أنا ذا الآن أصبحت على يقين أن من عبادك في أرضنا أناسا أشهدتهم هذه الأرض وهذه السموات في حياتهم الدنيا فراديس وجنات النعم ، إن هذه العوالم في ظواهرها تمثل الشر ، فيها الموت والحياة والمرض والظلم والقسوة والتجوهر والقسوة والحسرة والحسرة والغرام والتندمة والحروب والدفاع والبارود والديناميت والاهلاك والتدمير ، فهذه تشبه أن تكون ركنا من أركان جهنم ، اللهم إنك أنت حكيم ، هذا قصرك للشيد أرض وسماء ومشاهد بينهما تمثل فيها القظائع والألام والأرزاق والحياة والسرور والفرور ولكنتك أنت مع هذا كله جعلت نفس هذه للشاهد روضة من رياض الجنة للحكام والقسرين ، أفليس من العجب أن تكون مبادئ النار والجحيم هي بينها فراديس الجنان ؟ كلا . بل هي مشاهد الحق ومظاهر الجلال والجمال ومبادئ مشاهدة الحق تبارك وتعالى . في الأرض أقوام معذبون بهذه الحياة وإن كانوا لا يعلمون أنهم معذبون ، مسخرن وإن كانوا لا يعلمون ، أشقياء وإن كانوا لا يفقهون ، وهؤلاء هم أكثر هذا النوع الإنساني ، هم في داخل أنفسهم في شقاء آلام الأمراض والمواطف والنم ومواجع الأعداء والحساد والحكام والوحوش والحشرات وروذائل الأصدقاء والأقارب والحزن على مصائبهم الحاله بهم والنكته المتعدية منهم ، الحق أن الناس جميعا في الأرض مسوقون بخاص من حديد ، هم مسوقون كما تساق الأنعام ، قرية الولد وكسب العيش وتناول الطعام كلها بيوعات وزواجر يحس بها الناس وما هي إلا عصى من حديد تسوقهم وهم مرغمون .

التم إن هذا حال أكثر نوع الإنسان ، ولكن النادر منهم ينظرون هذه المشاهد وهم يسمعون كلاما ليس بحرف ولا صوت بل يقرءونه في نفس الشاهد ويفقهونه والناس من أمرهم متعجبون هازئون وهم في أنفسهم للناس راحمون ، العالم برحم الجاهل والجهال هم أكثر نوع الإنسان . فهذه الجموع تستمد من الحكماء والحكام . هم الراحمون لأن الآباء يشفقون على الأبناء ، فالحكيم أب لأمنته لأنه أقرب إلى نبيها فإذا استمدت منه الناس فهو بهم رحيم ، فإذا يسمع حكما الأمة من خطاب الله الذي ليس بحرف ولا صوت ؟

يسمعونه يقول : أرى عبادي أنا رحمن رحيم ، رحمتي سبقت غضبي ، ألم تسمعوا أني ابتدي كل سورة باسمي الرحمن الرحيم ، أنا لم أنزل مزار في الأرض إلا لسعادة ونعمة ، وغاية الأمر أن أكثر الناس لا يعلمون ، هذا العالم الأرضي عالم يسير إلى السكال ولا كمال إلا بالعلم ولا يتم علم إلا بتقدمتين مقدمة المحبوب ومقدمة للمكروه ، فكأن الناطقة منكم يقولون لا نتيجة إلا بتقدمتين هكذا حكمتي قضت أن لا أعلم لكم إلا بسابقة مقدمتين ولكن المقدمتان عندي هما المحبوب والمكروه ، أتم يا أهل الأرض عبيدي وأنا أرحمكم أكثر من رحمة أبويكم آلاف آلاف المرات ، ولن تستطيعوا أن تعقلوا هذه الرحمات إلا بدراسة جميع العلوم ودون ذلك خرط القناد .

فهاكم أمثلة مما شاهدون [الأول] حب الصور الجميلة طلبا للنسل ، أتم جميعا تحبون الحكمة والأشكال الجميلة . فأول ما يصادفكم في حياتكم حب الوجوه الجميلة فيري الرجل أو المرأة أن سعادة كل منهما في الاقتران بالآخر والاجتماع به وغير ذلك لأن صورة خاصة مقبولة في نظره ، ولا معنى لقبولها إلا بأن يكون الحدان والأمينان والأنف والشم على مناسبة مقبولة عند هذا الحب .

• إن الطيور على أشكالها تقع •

فهذا التناسب هو الذي يولع به الذكور والإناث فتكون التربية . إذن الحكمة والنظام وحسن الإبداع هنا جعلت للشهوة البيهية وبقاء التربية وكان المقصد في ذلك كله هو إتقان تلك الصورة في نظر ذلك العاشق . [الثاني] حب الأعمال الصالحة . فإذا جاوز الناس الدرجة الأولى وهي الخضوع للشهوة البيهية التي تنتج بقاء التربية اعتلوا إلى درجة أرق وهي مزاوله الحكمة العملية فهناك يكون التعاون في الأعمال المنزلية والقيام بما يوجه الدين والعرف والعادة من المحافظة ماديا وأدبيا على إراحة أهل المنزل من الزوجين والصفار وبلى ذلك نظام القرية ونظام سياسة الجمعية الإنسانية كلها بالنظام العام ، ولا عام لذلك إلا بالصناعات والأعمال العظيمة فهذا تمرين لكم أيها الناس على أن تكونوا خلقا في أرض [المثال الثالث] في الشوق إلى فهم الصناعات الإنسانية المتقدمة وهو أعلى مما قبله ، إن نفوسكم تشرب للحكمة العملية لأن الحكمة العملية بالسياسة المنزلية والأخلاق الإنسانية والنظم السياسية العامة مقدمات ومدرجات لعقولكم حتى تشتاق إلى أن ترقى إلى فهم حكمتي في خلقي ولكن حكمتي فوق حكمة المهندسين ومهارة الصناع في أرضكم ، فأول ما يصادف العقول الشريفة من الشوق العلمي أن تهرع إلى مشاهدات الصناعات الغربية المتقدمة إتقانا أتم فوق ما تصنعون لغرابتها بالنسبة لما نقص من صناعاتكم ، إن أجسامكم هي الحاملات لأرواحكم وأنواع النبات والحيوان كل هذه متقنات الصنع حولكم ، وهذه الشمس وهذه النجوم كلهن باهرات الصنع ولكن لما كانت نفوسكم أرضية [وقد هجرت عن أن تعقل جمال تركيب النبات وإن كانت من عذائه ، وبهجة تركيب أصفر الحشرات وإن كانت من دارسيه ودقة صنع أجسامكم وإن كانت هي الحاملة له] أخذت تسمى إلى صنعة الإنسان لأنها إليه أقرب وعقولكم إلى حكمة أمثالكم أميل ، ألم تروا كيف أقبل علماء أمريكا وأوروبا « من كل حدب يسيلون » على البلاد المصرية لما فتح الباب المحتوم بنجم الملك (توت عنخ أمون) يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٢٣ وشاع الخبر في الكرة الأرضية أن العرفة الثالثة قد وجد فيها صندوق بديع داخله جثة الملك المذكور وجواهره الثمينة وهو مذهب ومزخرف ومرصع بالأحجار الكريمة ويبلغ طوله نحو ستة أمتار وعرضه نحو أربعة أمتار وارتفاعه أربعة أمتار تقريبا ، وبعد ذلك وجدت العرفة الرابعة وهي مملوءة بأثاث من أغزر الفاخر مرتبة ترتيبا حسنا يفوق منظرها في بهائها وعظمتها مارأوه في العرفتين الخارجيتين ، وحضر لمشاهدة ذلك بعض ملوك أوروبا كملك البلجيكي والملكة لمشاهدة صنعة الخلق لأن صناعاتهم أقرب إلى عقول أهل الأرض وأخذت الوفود تترى على مصروحي عشرات الألوف بل أخذ الناس في دور الصناعات بأوروبا وأمريكا يظهرون

الصناعات التي ظهرت في القطر المصري ، ويطلبون نماذج للأزياء المصرية الأثرية كالملابس وأثاث المنازل والأواني ليصنعوا نظيرها وهم بصرف الأثوف ومثالث الأثوف من الجنيئات ، وابتدأت النساء الأمريكيات والأوربيات يلبسن ملابس كالتى ظهرت في عهد (نوت عنخ أمون) فإنه في صباح (٨) مارس سنة ١٩٢٣ ظهر في شارع (قفت أفينو) وهو أعظم شوارع نيويورك ثلاث سيدات يبرن معا وقد لبسن من فة الرأس إلى أحمس القدم ثيابا مصنوعة على مثال ثياب ملكات مصر القديمة واحتدين أحذية على شكل (الصندل) فكان بياهن هذه موضع إعجاب وقبلة أنظار الجميع ومثلهن في إنجلترا . وأخذ الناس في أوروبا وأمريكا يقرءون تاريخ قدماء المصريين . فلقد هالم تلك الصناعات العظيمة من :

- (١) سرير بديع لذلك الملك من الذهب اللطروق .
- (٢) وآنية من المرمر منحوتة من قطعة واحدة للروائع العظيمة لذلك الملك .
- (٣) وآنية أخرى من المرمر أيضا .
- (٤) ونوع من الحلى الذى يزىن الصدور من الذهب الخالص ، هيئته تشبه هيئة السفينة .
- (٥) وتمثالين داخل الغرفة الخارجية بحرسان باب الغرفة الثالثة المحتومة التى بها جثة الملك .
- (٦) وصندوق للملابس وعليه صورتان تمثالان شكل (أبى الهول) يظا أعداء الملك تحت قدميه وعليه نقوش غاية في الإبداع والدقة تفوق سائر ما فى المدفن من الإتقان والدقة والجمال .
- (٧) وكرسى (عرش الملك) وهو مصنوع من الأبنوس والعاج ومجلى بنقوش جميلة قوائمه على شكل أسد من الذهب .

- (٨) ومراة من الفضة منقوش عليها اسم الملك .
- (٩) ولوحة قد كتب عليها تاريخ انتصارات القائد (هوس) النائب عن ملك مصر .
- (١٠) وصورة للملك وهو يتلقى أخبار انتصارات القائد المذكور .
- (١١) وصور الهدايا والأسرى من بلاد الحبشة .
- (١٢) وحذاء الملك المصنوع من الذهب وهو مزين بشكل زهرة (اللونس) الجميلة .
- (١٣) وبرنس من نسيج كتان مصر اللتين مع ملابسه ، وقفاز كتانى النسيج وهو أول قفاز مصرى قديم كشف ، صنع منذ (٣٠٠٠) سنة .

هذا نموذج من مصنوعات العباد وهى التى يفرح بها الناس ويرغمون على السفر وترك الأهل والوطن وصرف الدرهم والدينار ، كل هذا لحب الصنعة والحكمة الإنسانية التى هى أقل إتقاناً وبهجة من الحكمة فى السموات والأرض . ذلك لأن عقل الإنسان إلى عقل الإنسان أقرب ولهم صناعته أسرع مع أنه هو نفسه فى جسم أبعد صنما وأتقن وضما وأبداع حكمة وأبهج نقوشاً وأنم نظاماً من ملابس وصنادل وعروش وتمائيل (نوت عنخ أمون) « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها » إذن هؤلاء العلماء السامحون من أقطار العالم لم يتعجبوا إلا بما يناسب عقول الإنسان من صناعته لا من صناعات الخالق جل وعلا فإن تمثالاً يعقل ويبصر وينطق ويسمع أنم وأكل من تمثال جاهل أعمى أخرس أصم ، فهذا التمثال الأنم وهو الإنسان لا يفرح بحسبه ولا بما فيه من النقوش ولا بما فى الحشرات والحيوانات والنباتات حوله لأنه متقلب فزيراً صباحاً ومساءً فسقط وقعها من قلبه وهرع إلى مشاهدة ما لم يره من قبل قفرح به لغرابته لأنه مما يناسب عقله من حيث إنه منتهى ما يصل إليه الإنسان (التمثال الرابع) وهو أعلى من سابقه . هنالك أقوام فى هذا النوع الإنسانى وهم أعلى ممن تقدمهم لهم إدراك أنم وعقول أكمل ، فهؤلاء يقولون هذه الدرجات الثلاث اثنتان منها إنسانية وواحد منها حيوانى إنسانى وهو الأول ولكنا نحن

زبد مثلاً أعلى وهو مثل الملائكة فليكن نظرنا نظراً لكل نوع هذا الإنسان فنكون آباء للدرجات الثلاث
 فهؤلاء يلدون ويعيشون في المنازل والمدن ويدرسون الصناعات ويدركون الجمال وكل منهم في أثناء بحثه
 يعثره النحس والسعد والفرح والحزن . ففي المنازل وفي المدن وفي الأسفار لمشاهدة الآثار أفرح وأترح ، فقد
 يعيش العاشقان في هنا ، وقد يفترقان فيموت أحدهما كذا ، وقد يعثر الإنسان الدهش من هذه المنوعات
 (المباحث في دين قديما النصرين المحرم بعضها على الرجال في دين الإسلام) فيغيره جمالها فيقلدها فيبيع
 الطارف والتلبد من مقتنياته ويصبح خاوي الوفاض بادي الانفاض ، لا يملك شروى تغير ولا يكون في العير
 ولا التفير قد مسه الضر وملسه الفقر ، إذن هذه الدرجات الثلاث أبتأؤنا فلنبحث نحن عن حكمة هذا الوجود
 ولن تظهر حكمته إلا في دراسة السموات والأرضين ، فننظر حولنا في الحشرات والدواب والنبات وفوقنا
 في السموات والأرضين . هل هذه الآلام ، وهذه اللذات التي تمرينا لها نتائج صادقة ، أم هي مصادفات كالتى
 رأيناها في الأمثلة الثلاث ، فهؤلاء يحسون بحطاب نفسى بلا حرف ولا صوت وكأن الله يقول لهم : أى
 عبادى ها أنا ذا أخاطبكم وقد تأهلتهم للفهم عنى وبذمهم السابقين من بنى آدم أرباب الأمثلة الثلاثة ، انظروا :
 ألم تعلموا أن اللذات والآلام مقدمات للمعلوم فلو كانت اللذات وحدها والآلام وحدها لم تقم للعمل قائمة ، وهل
 عسى الإنسان على رجل واحدة ؟ أم نحاق له يد واحدة أم عين واحدة وأذن واحدة وطاقة أنف واحدة ؟
 فكل واحد من هذين الزوجين مكمل للآخر ، فمكذبا هنا الآلام واللذات زوجان يكفلان القيام بتعليمكم
 وإرشادكم ولكن ليس كل إنسان أهلاً للفهم عنى . كلا . وإنما الذين يعقلون هم الذين ارتقوا عن الطوائف
 الثلاث السابقين ، وهذه الطائفة الرابعة لا أحشمها مشاق السفر ولا يعوزها اتعال الحجر ولا توسد المدر
 ولا يبدل البدر وإن كان شعارها (لسكل مبتداً خبر) و (لسكل نبأ مستقر) بل هؤلاء ينظرون في منازلهم
 وفي قراهم فيجدون أنواع الحيوان كالحشرات وهي تطوف عليهم صباحاً ومساءً فإذا يرون ؟ يرون مثلاً أن هذه
 الحشرات ونحوها ما هي إلا أسانذة ومعلون بطوفون على الناس ويقولون : أيها الناس نحن فريقان فريق
 يؤذيك كالجراد والزناير ، وفريق يقديك ويشفيك وينفعك كالنحل ، فأكثر بنى آدم ينظرون للنساء وس
 الجراد نظر الخوف من نقص الأنفس والأموال ، وينظرون للنحل ودود القز نظر الرجاء أن يشتاروا العسل
 وينسجوا الحرير ، وهذه هي المرتبة الدنيا الحيوانية ولكن حكماكم أيها الناس وهم في ذروة الراتب يتشبهون
 بالملائكة في مباحثهم ، فهؤلاء يقولون عجباً عجباً ، نظام النحل كنظام الزناير كنظام الجراد كنظام الأرضة
 التى سترى رسمها قريباً ، فملكسة النحل وملكسة الأرضة هاهما تان ذاتهما مرسومتين أمامك وحولهما
 جنودهما وخدمتهما وحشمهما . وهذا نظام محيب . وإحدى الملكتين مؤذية والأخرى نافعة لنا ، فإذا لم يعقل
 الإنسان النافع ولم يفكر عند أكل العسل فى حسن نظامه ودقة صنعه ليدرس الوجود فصى أن يفكر إذا
 لدغه زنبور فينظر فى قرصه ويفكر فى مدينته ونظامها وإذ ذاك يفهم « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم
 تذكرون . فعروا إلى الله » فهنا زوجان مؤذ ونافع وأحدهما ضد للآخر كالليل والنهار ولولا الليل لم نعرف
 قيمة النهار ولولا النهار لم نعرف قيمة الليل ، ففهم الضدين يدرك الإنسان الفرق بينهما وهناك تسكون السواغ
 العقلية وإدراك العجائب الحكيمية .

فإذا شاهد أمثال النحل والنمل والأرضة والجراد وعرف نظامها ألفاها كلها على قاعدة واحدة وإن
 اختلفت فروعها ، وإذن يفهم معنى « له مافى السموات وما فى الأرض » لأنت هذه الجملة تقتضى الاختصاص
 بالخالق لأن تقديم الخبر يفيد ذلك ولكن تقديم الخبر يفيد إفادة لفظية . أما هنا فإن قارىء هذه النظامات
 يقول إن القاعدة واحدة لافرق بين ما يضرنا وما ينفعنا . كلها ممالك مؤسسات على نظام واحد . فملكسة
 النحل وملكسة النمل وملكسة الأرضة كلهن ذوات أوامر لا تزد وما نظامها إلا كنظام أجسامنا وإن كنا إلى

فهم هذه الحشرات أقرب منا إلى فهم أجسامنا وكأن البوابين والضباط والجنود والراضع في جنود ملكات
الخل أشبه بما فينا من قلب وكبد وطحال ومعدة وأمعاء وأعضاء حركة وأعضاء حس الخ كل له
عمل يخصه .

ولما كان هذا اللقار يستلزم إعادة رسم صور تقدمت في هذا التفسير وهي صورة ملكة النحل وصورة
ملكة الأرضة وصورة جسم الانسان رأينا أن نرسمها إنمما للعائدة انظر شكل (٢ و ٣ و ٤)



(شكل ٢ - ملكة النحل)



(شكل ٣ - الأرضة الملكة وأبناؤها)

رسمها العلامة الألماني أزرليك كما لها . الكنتة البيضاء الضخمة هي الملكة وإلى جانبها الملك ،
ومن حولها العمال يقبلونها ويحسونها ؛ فالقائمون بتغذيتها يتألبون عند قدمها ويبقى في الطرف
الأخسر من وكل إليهم التناط البيض . وبين العمال جنود من البوليس صغير الحجم وفي الصف
الأول في شكل نصف دائرة الجنود الكبير القائم بحراستها ضد هجمات عدو مفاجيء .



ثم يرفع هؤلاء طرفهم إلى السماء بعد أن يعرفوا أن العالم السفلي على وتيرة واحدة فهاذا يرون؟ يرون شمسا يحيطها نباتون وأورانوس وزحل والمشتري والريخ والأرض وازهرة وعطارد وأكثر هذه حولها أقمار . كل هذه ذوات حول الشمس فدهش هذا القريب إذ يرى أن ملكة النحل وملكة النمل وملكة الأرضة كلهن سواء في النظام وهن متشابهات تمام التشابه للشمس مع سياراتها وأقارها وهكذا مع (النيازك) التي لاحصر لمدتها وبعضها صغير جدا كالبلطة في منازلنا وبعضها أكبر وأكبر وهي التي نراها في الليالي المظلمة تنزل كسحاب مضيئة نسميها (شهب) جمع شهاب وهكذا ذوات الأذنان كلهن دائرات حول الشمس كما تدور الشهب (النيازك) وكما تدور السيارات . وهالك يرون أن الشهب والسيارات إن هي إلا أعضاء الجسم الإنساني أو كأفراد من ممالك النحل وممالك النمل . لنا نحن بني آدم أوامر

نلقها على أعضائنا وأعضائنا تمثل تلك الأوامر . وللوصل لتلك الأوامر (شكل ٤ - جسم الانسان) من عقولنا إلى أعضائنا هي الأعصاب فبين قائمات مقام البريد البرقي (التلغراف) وسرعة الفكر في العصب ميل في الثانية وبعض العلماء يقول [إن القوة الحاكمة تشعر باللمس على الوجه وتجب عليه بتحريك اليد في سبع ثانية من الزمان . وتشعر بالمسوحات وتجب عليها في سدس ثانية . وبالمرئيات وتجب عليها في خمس ثانية] فبالمتجان ظهر أن للمسوحات أسرع حركة من المسوحات وهذه أسرع من المرئيات . ولقد حار الناس فلم يعرفوا كم من الزمن يمر حتى تصدر القوة الحاكمة حكما . وقد عرف هذا أحد العلماء بآلات دقيقة جدا فقال [إن حركة الفكر تستغرق في الاحساس والحكم ثم الاجابة خمساً وسبعين جزءاً من (١٠٠٠) جزء من الثانية الواحدة وتستغرق الارادة في إصدار حكمها (٤٠) جزءاً من ذلك ولقد جربوا ذلك في رجل كهل والشاب أسرع في ذلك من الكهول] .

إذن في الإنسان قوة حاكمة ، وأوامر تلقى ، وأعضاء تأمر ، وهذه الأعضاء كثيرة جدا كأنها دولة أو كأنها مملكة النحل أو مملكة النمل أو مملكة الجراد أو الأرضة . فهناك تشابه وتماثل بين أعضائنا مع نفوسنا وبين ممالك النحل والنمل والشمس مع سياراتها وتوابع سياراتها . أفليس هناك اتصال ما بين الشمس وما حولها من السيارات والنيازك وذوات الأذنان كالانصال للقدم بين النفس وأعضائها وبين ملكة النحل مثلا وأفراد مملكتها، إذ هناك صلة وثيقة بين الملكة والأفراد لا علم لنا بها . ولنا الحق أن نتصور الصلة بين الشمس وسياراتها الخ كالصلة التي بين نفوسنا وأعضائنا ويكون عالم الأثير قائما مقام أعصابنا . ذلك العالم الذي يقرب من العالم الخيالي أو الروحي الذي قد ثبت أنه وإن يكن غير مادي فيه ثقل لا يحسب بجانبه الحديد ولا الذهب شيئا مذكورا فهو أمتن من كل مادة ولولا هذا لم يتحمل قوة الجاذبية التي تقوم به بين الكواكب .

تبين بهذا أن مافي السموات ومافي الأرض من الممالك على وتيرة واحدة . فاذا رأينا ممالك الحشرات لها نظام سياسي عجب : ملكة أمرة ورعية مطيعة . وإذا رأينا أعضاءنا هكذا مع نفوسنا . وإذا رأينا السيارات وما معها هكذا مع الشمس . فلنهم إذن الآية هنا فان اختصاص الملك بأفه المفهوم من تقدم الخبر يعرفه العقلاء بالبحث . فإنك ترى الجبير بفن الشعر أو اللوسيقى أو النقش أو التصوير أو علم النبات أو صناعة التجارة أو الحدادة إذا رأى نموذجاً منها عرف أن هذه من صنع فلان . فترى من يسمع شعر شاعر أو شاعر ناثر وهو من علماء أدب اللثة يحكم حاله كما لا شك فيه أن هذا من شعر العصر الأول أو الخامس وهو من قول

فلان كما أخبرني مرة الأستاذ (ادوارد براون) العالم الإنجليزي المستشرق للدرس في (كلية كمبرج) إذ قال
[لما أرسلت الحكومة الإنجليزية ثياب رؤساء المشائر القنوليين أيام حرب السودان وكانوا نحو ثمانين أسيرا
أخذت أمراً خطوطهم ونماذج إنشائهم فوجدت منهم من تزحوا إلى السودان في العصر الأموي ومنهم من تزحوا
في العصر العباسي ، واستدللت على ذلك بمشابهة الخطوط للخطوط والإنشاء للإنشاء] .

هذا ما قاله وهكذا كل أصحاب صناعة يدركون لأول وهلة متى رأوا أي نموذج في أي عصر هو ولأي أمة
وهكذا ، إن من ينظر إلى نظام الدجاجة وأمرأها والراة وأولادها والحكومة وأفراد شعبها وملكة النحل
ونظام أمرادها والشمس وما حولها يجزم بأن الصانع لم يتغير لأن الطراز واحد لم يتغير وأسلوب الصنعة هو
هو بينه ، وإلا فبأنه أي فرق بين هذه الممالك كلها . فهذا يعرف الحكما ، اختصاص مافي السموات والأرض
به ، وإذا عرفوا ذلك الاختصاص بهد البرهان العقلي العملي انشروحت نفوسهم وفرحوا بالصانع بعد فهم
صنعتهم واشتاقوا إليه وأحبوه ، إذ لا حب إلا بعد المعرفة كما أن أهل أمريكا وأوروبا منذ يوم (١٦) فبراير سنة
١٩٢٣ إلى الآن يفتدون زرافات ووحدا على بلادنا المصرية إذ عرفوا قيمة الحكمة التي كشفت في للصنوعات
الأثرية ، فهؤلاء يفارقون الأهل والوطن ويصرفون للمال ويتجشمون للشاق غراما بالجمال ولا جمال إلا
تبع الحكمة أي النظام التتبع في الصنعة . إذن هذا النوع الانساني متى عرف الجمال والنظام والحكمة
سارع ليرى ذلك ، ويشاهد ذلك الحكيم كما يشاهد أولئك الزائرون تلك الصناعات ويشاهدون من عملت في
زمانه وهو الملك (توت عنخ أمون) ويكتفون بمشاهدة جثته الهامدة وإن لم يروه هو لأنه هو
وعلاؤه وصناعه ليسوا هذه الأجسام بل هم أرواح كانت في هذه الأجسام ، فهؤلاء العلماء اكتفوا
بما أمكن لهم وهو مشاهدة الجسم وإن خرجت الروح ، فهذا مثال ضربه الله مثلا للناس في الأرض
فهو يقول [يا أهل الشرق ويا أهل الغرب إن نظامي جميل في الأرض وفي السماء ومتى فهمتموه فهما
يؤدي إلى شوقكم لي كما اشتاق علماء الأمم عندكم إلى مشاهدة آثاركم والدين عملت في زمانهم فان
ذلك يحملكم على حبي والشوق إلى مشاهدتي ، فالمعرفة تمت الشوق والشوق يمت على السعي للمشاهدة ،
وهناك لا تكروهون الموت في حبه] وهذا هو معنى الحديث « من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن
كره لقاء الله كره لقاءه » .

أقول : وليس معنى هذا أن السبيل لحب لقاء الله وعدم كراهة الموت محصور فيما قلناه . كلا . بل هذه
إحدى السبل التي نحن بصددها وهذا الحب الذي كانت المعرفة بسببه هو الحامل للحامد على حمده ، فان متغن
الصنعة محبوب والحب يوجب اتياد الأعضاء للعمل وانطلاق اللسان بالثناء . هذا هو السر في قوله بعد ذلك
« وله الحمد في الآخرة » وإنما خص الحمد لله بالآخرة لأن النفس تكون مجردة عن الجسم فيكون
إدراكها أنتم لتعمل الحقائق فزيد حيا . أما في الدنيا فهي تحمد الخالق والمخلوق وتشاهد أعمال
الناس وتمدحهم . ولما كان ذلك كله راجعا للحكمة ختم الآية بقوله « وهو الحكيم الخبير »
فالحكمة بها النظام وبالنظام والاثقان كان الحب والحب انطلق اللسان بالحمد . هذا هو تفسير الآية
بالعلوم المعروفة اليوم .

فما اطلع بعض العلماء على ذلك وهو من قراء هذا التفسير قال لي : لقد أحسنت في شرح نظام هذه
الكائنات العلوية والسفلية وفي ترتيب الحمد على معرفتها في بيان أن الحكمة هي الأصل الذي بني عليه
هذا النظام ولكن العقل لا يكاد يفقه المناسبة بين مملكة النحل مثلا والمجموعة الشمسية فهي عظيمة القدر
جدا حتى إن الشهب وذوات الأذنان الجاربات حولها لا تكاد تحصى . يقول علماء العصر الحاضر إنها كمدد

السلك في الماء . ثم إن المجررة التي منها مجموعتنا الشمسية قد علم أن فيها (٢٢٤) ألف ألف نجم وكل نجمة منها شمس كشمسنا ولها مجموعة شمسية أكبر أو أقل من مجموعتنا الشمسية . فهذه كلها تكون مجرة واحدة وشمسنا منها ، وفوق ذلك المجرة لها أخوات كثيرات كلهن مجرات مثلها فيبين شمسوس تعد بمئات الملايين ، وفوق ذلك أيضا قد كشف الناس اليوم مجرات أخرى تسمى بالسدوم جمع سديم ووجودها أنواعا : فمنها السدم اللولبية ، ومنها السدم الحلقيه ، ومنها السدم المتذبذبة ، ومنها التي هي غير منتظمة . وإذا كانت هذه السدم مجرات كمجراتنا المحتوية على شمسوس تعد بمئات الملايين كشمسنا التي لها مجموعة لا حصر لعددتها وإذا كان الذي عرف الآن من السدم اللولبية وحدها بالمنظار للعظم (١٢٠) ألف وأوصلها الأستاذ (بيرن) إلى خمسمائة ألف ، ومن رأيه أنه قد يرى منها أكثر من مليون سديم إذا زادت آلات التصوير إتقاناً ، فإذا كان هذا للقدر في انسدوم اللولبية وقدرنا السدم الأخرى بهذا القدر كانت مجاميع المجرات اللولبية أربعة ملايين مجرة غير المجرات المعروفة ، وكل مجرة من تلك المجرات لها أبعاد ولا يكاد يصدقها العقل ، مثلا مجرتنا التي منها شمسننا تمتد إلى نحو مائتي ألف سنة نورية من جهة ومن جهة أخرى أقل من ذلك فكيف يباقي المجرات وكيف عظمت سعتها فهل بعد ذلك تقاس هذه بمملكة النحل أو بجسم الإنسان ؟

قلت له : إن ماهلك من هذه العوالم الساوية يرجع كله إلى ما يشبه جسم الانسان . فالمجموعات الشمسية التي تعد بألاف الألاف في كل مجرة من المجرات التي تعد بألاف الألاف أيضا أشبه بجسم إنسان واحد أو بمملكة من ممالك النحل ، وكل كوكب سيار في كل مجموعة شمسية أشبه بعضو من أعضاء الإنسان وسكان الكواكب أشبه بما في جسم الإنسان من الحوصلات الحية التي كل حويصلة منها لها حياة مستقلة ، ومن لطف الله أنه جعل النظام واحدا متشابهيا لتسهيل دراسته ، ومتى درس الإنسان جسمه فكأنه درس العوالم كلها وعرف نفسه ومتى عرف نفسه عرف ربه فاشتاق إليه . ومن عاش في الدنيا وهو ظائف لم يشق الحكيم للدبر للعوالم ومات فإنه يسكن في عوالم على مقدار درجته ولا يلقى ربه إلا من أحبه ولن يحبه إلا المدارس لصنعه وغيرهم يتسكعون في عوالم لا تؤهل للفائه إلا قليلا على مقدار ما اكتسبوا من الحب .

إن الحياء لا سعادة فيها إلا بالحب ولا حب إلا بالمعلم ولا علم إلا بالبحث في نظام الأرض والسماوات للديرات بتدبير الحكيم الخبير .

اتتهت الجوهرة الأولى والحمد لله رب العالمين .

جمال هذا الموضوع

(كتب تبيل فجر يوم الخميس ٢٧ مارس سنة ١٩٣٠)

يا الله . ما أجمل ما صنعت اوما أبديع ما أنصنت ا بهرتنا بجلال أعمالك . وسعرت عقولنا في دقائق وضئك . وغشيت على هذا الجمال بحجاب من حوادث الأيام ودخان الآلام والصلائب . ولولا ما ضاب به من فواجع الأيام رحمة منك وفضلا لتفطرت قلوبنا وتمزقت أجسامنا واحترقت بشرق أنوارك الجليلة . هذه هي الشمس وهذه سياراتها .

فهذا عطارد الجاتم حول الشمس تجذبه إليها وتمتطف عليه حتى لا يتبدد في أطراف هذا الجو الواسع ولا يقبه في فسيحات المجهل . ها هو ذا يجري حولها جريا حثيثا فلا يغفل نظامه . جريا متواصلا جذبته إليها

جذبا رقيقا بحيث لا يلتصق بها لكلا يهلك سكانه من شدة حرها ولا يظلم وجهه من شدة بردها « إنا كل شيء خلقناه بقدر » بحيث كانت سفته مقدرة بمدة (٨٧٩٦٩) يوما . فهذه الأيام وأجزاؤها هي المقدرات بمدة الدورة الكاملة حول الشمس منذ خلقت السموات العللى إلى الآن وإلى الأبد . وهذه الزهرة سفنها الكاملة (٢٢٤٧٠١) يوما والأرض سفنها الكاملة (٣٦٥٢٥١) يوما والمريخ (٦٨٦٠٩٨٠) والمشتري (٤٣٣٢٥٨٥) وزحل (١٠٧٥٩) وأورانوس (٣٠٦١٦٨٢١) ونبتون (٦٠١٢٦٧٢٠) .

هذه هي المدد التي تسير فيها هذه السيارات حول الشمس وهي لها جاذبة ، إنهن لمطبات صادقات في مواعيدهن ، وإن أمهن الشمس لهما لمن المفرط ورائتها تجذبهن جذبا لطيفا لكلا يتفرقن ويتبددن في باحات الفراغ الواسع كما تفعل البطة والذئبة « بأبائهما » ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت « والله إن رأيتك يا أمه بهذه المخلوقات وحكمتك لا حد لهما . فهذا حساب سير السيارات لو اختل ثانية واحدة لأضر ضرورا بليغا فهذه الأرض الجارية حول الشمس لو أنها اختل نظام سيرها وقد عاق عليه جرى قطراتنا براوسفنا بحرا لأورث ذلك خلافا في أعمالنا لجرى القمر في غير حينه ، وفتحت الميناء بحرا في غير وقتها فتحطمت السفن بحرا وهشمت وطاحت العربات والركاب برا « تبارك الله رب العالمين » .

ويجبني يا حكيم يارحيم يا بديع دقة صنعك ، وبهجة المبال ، وبحجاب الاتقان ، وبدائع التصوير في النحلة والأرضة اللرسومتين ها وفي جسم الإنسان ، فها هو ذا النخاع الشوكي هو ومنبعه الرئيسي وهو اللغ في الدماغ قد جعلتهما أسا لهذا الجسم الحى بحيث تكون الأعضاء المفصلة حولهما العاملات بما يصل لهما من أوامرهما جامعات حولهما جنوم الأرضات والحلات والنلات والشمس . إنما مثل السيارات مع شمسهما كمثل الأعضاء مع الجسم في الحيوان والإنسان ومثل النمل والنحل ونحوهما مع ملكاتها ، ألا وإن عنايتك بالضعفاء يا أمه لقوية متينة إذ كيف تخاق للنحلة في العين الواحدة من عينها المركبتين الموضوعتين في مقدم الرأس (٢٠٠) عين كما تقدم في (رسالة عين النحلة) في سورة النمل وتخاق للذباب الواحدة (٤٠٠) عين بسيطة في عينها للمركبتين ؟ .

إن حكمتك ورحمتك لانهاية لهما فيكون حسا لك لانهاية له ، ولكن رحمتك الواسعة وإتقانك البديع وحبك لحقك قد عميت الوجود كله ومنها نوع الإنسان ، فسترت عن عقله هذا الجمال بأنواع المصائب والحوادث والأمراض والموت والحياة والقمر والقن والعرز والقل تقضى على عقله فلم يدرك فأخذ يتلسه من العالدين ومن السكب كما تفعل الآن في هذا التفسير ، ولو أن هذه الرحمت ظهرت للناس فوعتها عقولهم لعرفت الأحشاء من إدراك ذلك الجمال فتقطعت القلوب ، ولكن الرحمة عامة والحكمة شاملة باهرة وأكثر الناس لا يعلمون ، ومن الغرابة بكان ما تراه من الاتقان في جماعات الحيوان المجتمعات اللاني تكون أمة واحدة وجماعات الكواكب اللواتي تكون في مجموعة واحدة ، فإن النحل إذا اجتمعن في بيت واحد وجمعت الملكة من ذكر من غير مملكها ألينا النحل الذي في مملكها قام قومة واحدة واتمس على ذكران تلك الملكة فأهلكها لأنها لا عمل لها ، فلا هي تجمع العسل ولا هي تصيد في أن تكون سيبا في حمل للملكة ، هكذا ترى جموع الأرضة اللاني الكلام عليها في هذه السورة والتقدم بفضه في سورة النحل أيضا فإن الملكة لها جنود يحمونها ، وهؤلاء الجنود لهم عدد مخصوص ، فإذا زاد التقدير رأينا الجماعات اللاني تقدم لجميع الملكة الطعام تمتنع عن تقديم الطعام لما زاد عن العدد المحدد حتى يموت . هذا في عالم الأرض . أما في عالم السماء فاننا ترى نفس الاتقان في تقابل الأرض والشمس والقمر . ذلك أننا ترى القمر الذي يدور ٢٧ يوما و٧ ساعات و٤٣ دقيقة و١١ ثانية ونصف ثانية وذلك في دورته النجمية أى التي تمضي بين رجوع عين مستالين للقمر إلى نجمة واحدة بحيث إننا إذا لاحظناه يوما وقت الغروب في دقيقة معينة موجودا بجانب نجمة خاصة من النجوم التوابت إننا نجد مضى (٢٧) يوما و(٧) ساعات و(١٣) دقيقة و(١١) ثانية ونصف ثانية تراه

موجودا في ذلك المكام عينه بجانب تلك النجمة . فهذا القمر المنتظم السير البديع الصنع والنظام إذا قابل الأرض والشمس فما يظهر للرائي في نقطة واحدة فانه يحصل هناك خسوف تارة وكسوف تارة أخرى فان كان القمر بين الأرض والشمس حصل كسوف ، وإن كانت الأرض بين القمر والشمس حصل خسوف ، وللهم في هذا المقام أن تقول إن الخسوف والكسوف في مدة (١٨) سنة و (١١) يوما يكون مجموع مرات الكسوف (٤١) ومجموع مرات الخسوف (٢٩) والمجموع (٧٠) ما بين كسوف وخسوف ، وهذه المدة لن تغير ولم تتغير ، فهذا هو الإبداع في الحساب ، غراب الحشرات على وجه الأرض لن يعطه حساب الكواكب في السماء ، فلم تعطل يا أمة أعمال النحل أي إنك لا تمنع إلهامك لها أن تقتل اللد كور لأنها لا تعمل لها متى حملت للكمة ولا أعمال الأرضة ، فلم تمنع إلهامك لحاملات الطعام منها أن تقتل ما زاد من الجود بحرمان الزائدات طعامهن ، فإلهامك للطائفتين وتغيرهما مستمر منظم كنظام الخسوف والكسوف في العوالم العلوية بحيث لا تختل أوقات الخسوف بوقوع الأرض بين القمر والشمس ، ولا أوقات الكسوف بوقوع القمر بين الأرض والشمس بل النظام هناك لا يختل ، والنظام في أصغر الحيوان لا يزول ، فأنت تحب الدورات الفلكية بالثانية ونصف الثانية ولا تتغيره ، وهكذا تفعل في الحشرات فتحسب لها حسابها وتلهمها .

هذا هو الذي تفهم به معنى قولك « الحمد لله الذي له مافي السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير . يعلم ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يرجع فيها وهو الرحيم الغفور » .

فهذه هي الحكمة ، وهذا هو العلم ، وهذه هي الرحمة ، وهذا هو الفجران ، فأى حكمة بمد هذه الحكمة في الإتيان والخبرة في الحساب . وأى رحمة ورأفة بهذه المخلوقات أعظم من هذه ! ثم إذا كان هذا الإنسان يعيش في الأرض وأكثره جاهل هذا النظام البديع وهو غافل عنه بل أكثره كافر أي غير شاكر لأن الشكر مبدؤه العلم بالنظام وأكثر الناس لا يعلمون هذا النظام البديع فلولا تجاوزه عن غباوته التي هي مقتضى جبلته الأرضية الطينية لمناه من الأرض ومنعه الوجود فيها غباوته ولكنه غفور ستر ذلك الذنب الطبيعي وعفا عنه ، وأحيا الإنسان في الأرض لأنه يعلم أن له مستقبلا في عوالم أخرى وهناك يفهم هذا الجمال من استعداد له .

(تذكرة)

إن هذا الإبداع نراه لا يزول وهو محيط بنا ونجد أنفسنا في هذه الأرض مغمورين في أنواع الحروب الدولية وللطامع الشخصية والأحقاد القلبية والأمراض الجسمية فنكون مبعدين عن السعادة في الدنيا ، ولكن متى لمنا الجمال من خلال تلك السحب القاتمة نرى مصائبنا وأدركنا جمالا في ضوء الشمس ونور القمر وبهجة النجوم وهناك نرى مصائبنا الوقتية ونفرح بهذا النعم وهو العلم والحكمة والاتقان الذي نراه دائما لا يتغير ويري قلوبنا به فرحة ، هنالك نسمع في نفس الحياة الدنيا ونرى أنفسنا أشبه بالمراهقين الذين لم يبالغوا السن وقد فرحوا بأنهم قريبا سيلقون السن القانونية والرشد وتسلم لهم أموالهم . هذا ما خطر لي في تفسير هذه الآية والحمد لله رب العالمين . تم الكلام على الجوهرة الأولى .

(الجوهرة الثانية في قوله تعالى « يعلم ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها » الخ)

اعلم أن هذه الآية لم تكن في أول هذه السورة وفي أول سورة الحديد إلا الحكمة ، فهذا كلام الله وهو موزون كما وزن كل نبات وكل حيوان وكل كوكب ، يقول الله « يعلم ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها » وقد علم سبحانه ما يبلغ في الأرض من الآثار التي تركها الأولون كما ستعرف ثمره في (قصة سبأ) وترى

ما فعله علماء أوروبا في بلاد اليمن وأهم استخرجوا منها صورا وعرفوا بها علوما ، فهذا بعض ما ولى في الأرض قديما وما خرج منها حديثا ، وهكذا يقول تعالى « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل » والتماثيل قد تكون من المعادن ، فهذه مما يخرج من الأرض ، وهكذا في [سورة الحديد] ذكر الله الحديد وابتدأ السورة بما يفيد هذا المعنى ، إذا عرفت هذا السر العجيب فاسمع الآن لما في هذه الدنيا من العجائب المناسبة لهذه الآية .

(تفصيل الكلام على الأرض)

لأجمل الكلام في « مقامين : المقام الأول » وصف نفس الأرض « المقام الثاني » ما يقوله علماء الاقتصاد في مباحث المعادن والفحم وما أشبه ذلك .

(المقام الأول . وصف الأرض)

لقد جاء الحمد في أول الفاتحة والأنعام والسكف وهذه السورة ، أو ليس من العجب أن يكون مقرونا بالترية للعالمين تارة ، وبذكر الأنوار والظلمات تارة أخرى ، وبزول القرآن آونة ، وبظهور نتائج الأرض والسماوات في حال أخرى ؟

فقال صاحبي : هذا كلام غامض ! قلت : اعلم أن الحمد مقى ذكر في أول سور القرآن نجد ذكر العوالم بعده ، فالحمد لله رب العالمين في الفاتحة ابتدئ بذكر الله في البسملة وأنه موصوف بالرحمة وأن الرحمة تستوجب الشاء بالجميل وأنه مرب العالم كله ، فهنا ذكر مبدأ الوجود وصفته وتربيته وكل ما ربه ، وفي الأنعام ذكر الثلاثة الأول وأبان كيفية الترية بجعل الظلمات والنور ، وبعبارة أخرى دوران الأفلاك ؛ فدوران الأفلاك سبب في الترية المذكورة في أول الفاتحة ، فهنا إيضاح للترية ، وفي السكف نجد الحمد على العلم الذي رمز له بالقرآن . إذن هنا نور ظاهر لترية الأجسام ونور باطن لترية العقول : الأول في الأنعام والثاني في السكف فلم يبق إلا نتائج تلك الترية الجسمية والعقلية للعوالم وهذا هو قوله « يعلم ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يمرج فيها وهو الرحيم الغفور » ولا شك أن ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها لا يختص بالأجسام ولا بالعقول بل هو علم فنور الكواكب ونور العلم يصلان للأجسام كما في سورة الأنعام وللعقول كما في سورة السكف . ومن الأرض يخرج الزرع ونحوه وهو جسمي وترفع الأعمال وهي عقلية . وملخص هذا كله أن هذه السور الأربعة جاء الحمد فيها مرتبا ترتيبا جعلنا نعتقد أنه يفتح لنا بابا لدراسة تواريخ العلوم .

فاذا رأينا الله أول ما يبدأ يذكرنا أوائل الوجودات ثم توابعها وهو مرتب لها . فننقل هذا هي آخر طرز في نظام التعليم وهو أن العلم الذي يدرس كالفقه والنحو والأصول والتفسير ولا يدرس الناس تاريخه إجمالا ولا يعرفون سلسلة التأليف في ذلك العلم يكون طلابه فاقدي القرائح كاسدى الأفهام . ألا ترى أن الفلاسفة اليونانية المنتشرة في بلاد الإسلام قديما قد أحدثت آراء وشها وبدعا وكل ذلك للجعل بتاريخها ، فنقد ذكرت لك فيما مضى أن الأوربيين لما ترجموا فلسفة اليونان رأوا طباوس يحكم وسقراط يعزم بأن العالم حادث كما هو الرأي الحديث في أوروبا مع أن من قرأ الفلسفة القديمة النقلة عن اليونان لا يجد فيها غير القدم مذهبها وهذا من الجهل بتاريخ الفلسفة ومن عدم الاطلاع على جميع آراء الفلاسفة هناك . وقد قام كتاب [كشف الظنون] للكاتب القدير (ملاجلبي) بما ينفع في هذا الصدد .

إذا صح هذا أفلا يجب على أن أقدم للأذكياء صورة الأرض وما قاله العلماء فيها حتى لا تكون تراوهم جامدة جمود من قرءوا العلوم ولم يدرسوا تاريخها .

لقد أطلعني أحد الفضلاء على موضوع بديع في وصف الأرض والأقوال التي قيات في هيئتها منذ القدم أدرج في « مجلة الجريد » فأجبت أن أذكره هنا ليكون ذلك تاريخاً لمعرفة هيئة الأرض ولتقف على ما يقوله الناس فيها . فإظالمًا خطر لي خواطر فكنت أقول : يا ليت شعري . ما فائدة باطن الأرض إذا لم تسكن فيه نفوس حية ؟ فوجدت هذه الهواجرس والخواطر والظنون هجست لقوم في أمريكا كما ستراه وهذا هو اللوضوع :

في زوايا التاريخ

(ليست الأرض كروية)

كان أول تصور للانسان في شكل الأرض أنها بساط عظيم هائل لانهاية لعمقه ، يعتمد عليه قبو السماء كالسقف المرفوع . ولما تقدم في اللاحة وقطع البخار الواسعة أخذ بتصور أن الأرض سابعة في أوقيانوس من الماء لانهاية له كما في (شكل ٥) وكان ذلك خطوة لتصور أن الأرض محوطة بدائرة وترتكز على جذور طويلة مثل الشجرة كما في (شكل ٦) .



(شكل ٦)



(شكل ٥)

وساد كذلك اعتقاد قديم بأن الأرض بساط مستدير يقوم على اثني عشر عموداً كما في (شكل ٧) ولكن على أي شيء . تقوم هذه العمدة ؟ فيجب مساواة أوروبا في القرون الوسطى بأنها تقوم على الضحايا البريئة من أهل القضيبة والتقوى الذين لولا وجودهم هنالك لدكت الأرض وزهبت هباء في الفضاء ، وقد كان (أناكسيا ندر) الإغريقي في القرن السادس قبل الميلاد يرى أن الأرض كالاسطوانة كما في (شكل ٨) وأن قطرها يساوي ثلاثة أمثال ارتفاعها ، وأنها سابعة في مركز القبول السماوي . وأنه لم يسكن منها إلا وجهها الأعلى . وتوجد أوروبا في النصف الشمالي وليبيا أو أفريقيا وآسيا في النصف الجنوبي .



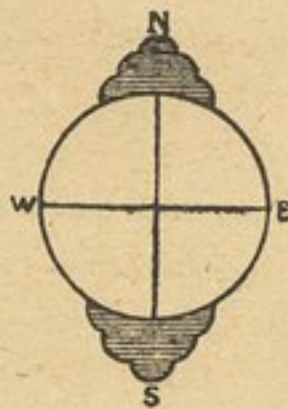
(شكل ٨)



(شكل ٧)

ثم جاء من بعده بقليل الفلاسوف أفلاطون وقال [إن الأرض مكعبة] (انظر شكل ٩) لأنه كان يعتقد أن للكعب أكل الأشكال الهندسية فيجب أن يكون موطناً لأفضل الكائنات وهو الإنسان . وأنه قبل أن يقول علماء العرب بكروية الأرض سبقهم إلى ذلك من عهد بعيد علماء الشرق حيث تخيلوا أن الأرض

كروية وتنتهى شمالا وجنوبا بجبال عظيمة الارتفاع كما في (شكل ١٠) ونرى كذلك في هذا الشكل إدراكهم لعمود عظيم تعتمد عليه الأرض وهو الذى تطور فيما بعد إلى مايسمى الآن (المحور) .



(شكل ١٠)



(شكل ٩)

وذهبوا إلى أن جبال النصف الشمالى تخرج من أوقيانوس عظيم وترتفع حتى تبلغ مقر الآلهة فى السماء بينما تتدلى جبال النصف الجنوبى حتى تبلغ الجحيم ومقر الشياطين . ونجد مثل هذه النظرية فى علم الفلك فى الهند مع اختلاف فى السميات حيث يذكر أن جبل العالم يرتفع فى القطب الشمالى للأرض ليصل ماينها وبين السماء وهو مثل محور تدور حوله الأجرام السماوية (انظر شكل ١١) . ووجدت أيضا نظرية فى بلاد (الهند والسكندان) تقول : [إن الأرض مثل محارة كبيرة مستديرة (انظر شكل ١٢) تقوم على أربعة أقبال] ويرمزون لذلك بالعناصر الأربعة أو الرياح . وتقوم الفيئة على ظهر ساحفة كبيرة . ويرمزون بها للقوة والبقاء والصبر والجلد والحلود .



(شكل ١٢)



(شكل ١١)

وانتقل إلى الغرب منذ (١٥٠٠) سنة نظرية تقول . [إن الأرض بيضاوية وأنها سابحة فى الأثير] انظر (شكل ١٣) وقال الإدريسى وهو أحد الجغرافيين من العرب فى القرن الحادى عشر للميلاد [إن نصف هذه الأرض البيضاوية مغمور فى الماء] وذلك ليحل مشكلة النصف المجهول ، وكان (بطليموس) فى القرن الثانى للميلاد وهو من أشهر الفيلسوفين يرى أن الأرض مثل كرة مفرطحة من جانبيها كحبة القوطة انظر (شكل ١٤) .



(شكل ١٤)



(شكل ١٣)

وجاء (أبيانوس) في سنة (١٥٢٠) ميلادية فقال [إنها تشبه القلب] انظر (شكل ١٥) وصادفت نظريته ميلا في قلوب قساوسة الدين في أوروبا فأيدوه قائلين [إنها قلب الله] وإن هذه الكرة القلبية تشبه أرض المكتشف العظيم (كولبوس) حيث تصورهما مثل الكعكة ، فالنصف الكروي هو الشرق والنصف المستطيل هو الغرب ، والتمدد الذي أوجده فيه هو (العلم الجديد) الذي اكتشفه ، وأما (دانت) فقد تصورهما قبل ذلك بقرن في مثل هذا الشكل جاعلا هذا التمدد لحجمه الذي صورته فكانت جبال المطهر تحت خط الاستواء بثلاثين درجة انظر (شكل ١٦) بينما جعل (أورشليم) أو (ريون) في الجهة المقابلة ليحفظ التوازن .



(شكل ١٦)



(شكل ١٥)

وظهر في سنة ١٨١٩ في (سنت لوز) بالولايات المتحدة القبطان (جون كليفرسيمس) بنظرية عجيبة تعرف باسمه أو بنظرية السكرات المتداخلة ، وهي أن الأرض أو أي كوكب يتكون من عدة من السكرات المتلاصقة والمشاركة في مركز واحد كما في (شكل ١٧) و (شكل ١٨) وبين كل كرة والتي تليها فاصل مملوء بالهواء ، وعند القطبين فتحة كبيرة في جميع هذه السكرات . ويرى أن الأرض تتركب من خمس طبقات أو سكرات متداخلة وأن فيها فتحتين كبيرتين عند القطبين يبلغ قطر الشمالية أربعة آلاف ميل وقطر الجنوبية ستة آلاف ميل . وأن سطح كل كرة أو طبقة مسكونان فتوجد سكان في الأرض على السطوح المحدودة والسطوح المقعرة . وطلب إلى المجلس النيابي بالولايات المتحدة أن يجهزه بسفينتين ليسافر إلى أحد القطبين ويدخل من الفتحة الموجودة هناك ليدخل إلى سكان السطح للقصر الذي نعيش فوقه .



(شكل ١٨)



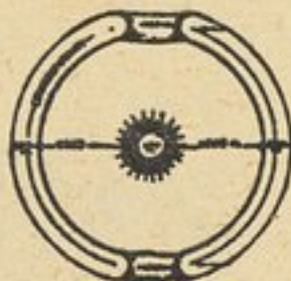
(شكل ١٧)

وطبع للارشال (جاردنر) في سنة ١٩١٣ م في الولايات المتحدة كتابا عنوانه [سياحة إلى داخل الأرض] ذهب فيه إلى أن الأرض مجوفة ويبلغ سمك طبقتها التي نعيش عليها ثمانمائة ميل ، وأنها مفتوحة عند القطبين . ويوجد في داخلها شمس انظر (شكل ١٩) ويبلغ قطر كل فتحة قطبية ألفا وأربعمائة ميل .

وقال (موريه) في كتابه [علم الفلك اليوم] إن الأرض على شكل هرم انظر (شكل ٢٠) وهو يرى أن نظريته تبين اختلاف أنصاف أقطارها وتحمل كثيرا من النقط المضلة في هذا الصدد التي لا يمكن أن تفسرها أية نظرية أخرى .



(شكل ٢٠)



(شكل ١٩)

وهذه النظرية التي نشرها (تيوفيل موريه) العالم الطبيعي الفرنسي إن هي إلا شرح وتأيد لنظرية (لوئيان جرين) العالم الإنكليزي التي كانت مثارا لجدال كبير في سنة ١٨٧٥ م وهو يذهب إلى أن الأرض هرمية الشكل وأن البحار تشغل بطوننا في سطوحه الأربعة بينما أركان هذا الهرم عبارة عن القارات الخمس وقد بث (موريه) هذه النظرية الهرمية للوجود بعد رفضها في ذلك العهد ليحلها العلماء من جديد في نور ما استكشف من العلم الحديث . والجدال قائم الآن في كل مكان على قدم وساق . ويقال إنها أحسن نظرية في بيان حقيقة شكل الأرض . وأن مالا شك فيه أن نظريات كروية الأرض لا يؤيدها أحد اليوم من علماء الجيولوجيا والفلك . انتهى للقلم الأول في وصف الأرض .

(المقام الثاني)

(فيما يقوله علماء الاقتصاد في مباحث المعادن والقصم الخ)

اعلم أن علماء الاقتصاد استقصوا مباحث المعادن والقصم وتربة الأرض ، فلا ذكر خلاصة مايقولون في هذا القلم إقامتا للسليين وتعليقا للجاهلين .

اللهم إنا نحمدك حمدا يوافق نعمك ، أنت الذى علمت وألممت ، وأنت الذى جعلت الأمم كلها يخضع بعضها بعضا وكل يساعد كلا وإن كانوا لا يقصدون ، فها نحن أولاء نتنفع بجم الأمم ، فالعالم كله مرتبط بفضه يعض بطريق الجاذبية التى بين الكواكب والسيارات ، وهكذا الناس مرتبطون بالمصالح والعلوم شاء أم أبوا « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض اتبيا طوعا أو كرها - وثه يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها . »

(التربة)

إن التربة قد تكون سوداء وهى التى جلبها (الفرين) أى ما يسمى فى مصر بالطمي ، وقد تكون نباتية ، وقد تكون بركانية كأراضى الدلتا . فالسوداء هى التى تجلبها الأنهار كنهرا النيل بمصر وهذه لا تحتاج إلى سقى كثير والرملية تحتاج إلى سقى كثير ، وبزرع فى الأولى أمثال الأرز والقصب وفى الثانية الشعير والقول السودانى والبطيخ . ومن أحسن الأراضى السوداء الهندية فى مقاطعة بنجاب فقد زرعت آلاف السنين بغير سماء . وأما التربة الثانية فهى التى امتزجت تربتها بما تحلل من النباتات قديما فصار ذلك غذاء للزراع التى تزرع فيها . قالوا ومن أحسن أنواع التربة الحصىة فى العالم التربة البركانية وتقع عادة فى جوار البراكين الحية أو الخاملة وتتكون من بعض الصهورات أو الرماد الذى ينبعث من جوف البركان فتحمله الريح وتشره على مسافات واسعة حول البركان فيكسبها الحصىة الكثيرة . ومن أمثلة ذلك الأراضى البركانية القديمة الواسعة فى مقاطعات (الولايات المتحدة) و (شنجتون) و (أريغون) انتهى .

أقول : فإذا كان أحسن أنواع التربة هى التربة البركانية . فهنا ظهر بعض معنى قول الله تعالى هنا « وما يخرج منها » فهو الذى قدر الزلازل والبراكين ليستخرج لأهل الأرض تربة أصلح وأضع من التربة التى يعيشون بها . إذن الصائب التى يأتى بها البركان والزلازل أقل جدا من المنافع . هذا من معنى قوله « يعلم ما يبلغ » الخ . وقد آن أن أبين لك الكلام على الهزات الخفيفة والزلازل العنيفة من كتاب [الجغرافيا الرشيدة] لمحمد حمدى بك ، فقد جاء فيه ما يأتى :

(الهزات الخفيفة والزلازل العنيفة)

الاهتزازات فى القشرة الأرضية كثيرة حتى يكاد يقع منها نحو ٣٠٠٠٠ هزة فى السنة ، ولكن هذه الاهتزازات النافهة لا يلتفت إليها ، ولا يكاد يدونها السيسموغراف الذى يقضى الشهور الطويلة أيضا الصحيفة لا يعيد فيها عن الخط المستقيم ، ثم تأتى المفاجأة المائلة فيهب القلم ويرتجف على الورقة ارتجاج الطائر الحائر حتى ينقض القدور وينتهى المسطور . ويظهر أنه على قدر مدة السكون تكون شدة الزلازل القبل ، إذ أن أشد الزلازل خطورة كانت تعقب أطول الفترات سكونا .

(التغيرات المترتبة على الزلازل العنيفة)

إن حركات القشرة الأرضية الهادئة المستمرة أبعد مدى فى تدمير معالم وجه الأرض من التغيرات الصغائية التى تحدثها الزلازل ، وأهم ما ينشأ عن الزلازل ارتفاع أراض كانت واطئة فجأة ، وانخفاض أراض أخرى وتغير مجارى المياه بما لذلك ، وتخطيط القشرة الأرضية وتمزيقها بالشقوق والفتوق الطويلة المرصعة فى أقرب وقت .

غير أن الزلازل وإن كانت بمفاجأتها وأهوالها تلفت النظر إليها وإلى آثارها هى من الحوادث الصغيرة فى تاريخ القشرة الأرضية ، وليست شيئا بجانب ببيان الجبال وتغير صورة وجه الأرض شيئا

بهواء واستمرار . وسرعان ما تتسلط عوامل التعرية على ما تخلفه الزلازل من الآثار فتحوها وتحيرها
كان لم تكن .

﴿ نشأة البركان ﴾

قد علمت أن جوف الأرض مكون من مواد شديدة الحرارة جدا درجة يوسطها محفوفة بضغط القشرة
الأرضية عليها . وفي أثناء تقلص الأرض والتواء قشرتها يحدث أحيانا أن يخف الضغط فجأة على تلك المواد
فتنصهر لوقتها وتحول ، ويهيئ وجود فتق أو شق بعيد الغور فرصة لخروج المواد المنصهرة الجائشة فينشأ عن
ذلك البركان . وهو جبل مخروطي الشكل ، في قلبه قسبة مجوفة ، على رأسها فوهة وعائية الشكل تخرج
منها الأبخرة والصخور والانسهارات . ويشيد البركان من الأناقض التي تخرج من فوهته سواء أسالت على
جوانبه أم تساقطت من الجو بعد الارتفاع مخروطا بركانيا .

﴿ الحمم البركانية ﴾

تسمى الصخور المنصهرة التي تخرج من فوهة البركان حمما . وقد تبرد أحيانا فتكون سدادا يد القسبة
فتخرج الحمم من الشقوق النافذة إلى أحد جوانب البركان وتعمل لها فوهة صغيرة يشيد حولها مخروط صغير
على جانب المخروط البركاني . وتسيل الحمم على جانب البركان في كل ناحية فتشيد فيه وتزيد في بنيانه . وعند
ما تبرد الحمم تتشقق كما تتشقق الأرض الثرائي فتكون منها أشكال منتظمة كاتري في أعمدة البازلت . ويحدث
أن يتحات المخروط البركاني تاركا سدادا القسبة وحشو الفوهة فتبقى صخرة منعزلة .

﴿ الثوران البركاني ﴾

يخرج من فوهة البركان سحب من بخار الماء للتولد من المياه التي تتسرب إلى جوف الأرض وتختلط
بالصخور المنصهرة ، فيطرد البخار الصخور المتخلفة في قسبة البركان بعد أن يمزقها كل ممزق ، ثم تخرج
سحاب من التراب البركاني الذي يجعل الجو مظلما وينتشر في الآفاق إلى مسافات هائلة ، وتخرج من بعده الحمم
والمواد المنصهرة ، فتسيل على الجوانب . ولذلك نجد المخروط البركاني مشيدا من طبقات من الحمم ، وأخرى
من الرماد البركاني الذي تنزل به الأمطار للوحة على البركان . وكما تكرر ثوران البركان تكرر تكوين
الطبقات وتشيد الجبل . ومن أعظم الثورات البركانية ثوران بركان كركنتوا في سنة ١٨٨٣ . وجزيرة كركنتوا
هذه في أرخبيل الملايوين سومطري وجاوي ، تكرر فيها حدوث الزلازل ، وفي صباح ٢٧ أغسطس سنة ١٨٨٣
بدأ الثوران البركاني العظيم ، فسمعت أصوات فرقة الغازات في جنوب استراليا ، وخسف ثلثا الجزيرة غل
عمل الجبال العالية بحر عمقه ألف قدم ، وهاجت الأمواج الهائلة قطعت على سواحل الجزائر القريبة ، وهلك
٣٦٠٠٠ نسمة وخربت نحو ٣٠٠ قرية ، وصار الجو مظلمًا كالليل في الجهات المجاورة من كثرة التراب البركاني
التي كان يرتفع إلى علو ٢٠ ميلا من الفوهة . وقد انتشر هذا التراب في أجواء العالم فجعل للشفق منظرا
شديد الاحمرار حتى في غرب أوروبا . وقد علمت أن في قرار المحيطات طينة حمراء مشتبهة على بقايا الحيوانات
البحرية ، فهذه الطينة مكونة في الغالب من الرماد البركاني . انتهى ما أردته في هذا المقام من كتب
الجزائريا الرشيدة .

فانظر وتعجب ! إن علم الله بما في السموات والأرض لا يحتاج إلى بيان فكل متدين يعلم ذلك ولكن
الله كرره في القرآن كثيرا في كل مناسبة وهو إذا علم كل شيء فهو يعلم ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها الخ
ولكن لما قرأنا علوم أهل زماننا وجدنا أن ذلك التخصيص بالنص لحكم ظهر بعضها وسيظهر باقيا . علم الله
أن المسلمين سيقروا بالقرآن وينامون عن العمل ويتروكون الأرض لغيرهم فقال لهم [أيها المسلمون :

أنا أعلم ما يلبح في الأرض وما يخرج من الأرض ولولا نفعه لكم ما أخرجه منها . هذه البراكين مهلكة ولكنها نعمة لأن وجه الأرض كلما ضعفت الزراعة فيه فلم تأت بالعرض للطلوب . سسلطت عوامل سرية على تربة قوية فأظهرت للسكنون في باطن الأرض فظهر على وجهها بالبركان ثم أمرت الرياح فجرت به وفرشته وفرقته على الجهات المجاورة . إذن هذا الخروج بعلم وحكمة وتقدير . هكذا الفحم والبتروول والحديد ونحوها] .

(الفحم)

خزن الله الفحم في الأرض أجيالا وأجيالا . وما الفحم إلا مواد نباتية احتجبت في طبقات الأرض عن الهواء دهورا طويلة فجرت عليها سلسلة من التغيرات الكيميائية أدت إلى فقد مقدار عظيم من الأيدروجين والأكسجين وبقاء مقدار من الكربون . والكربون يكون في الحطب المعتاد بمقدار نصف ما يكون في الفحم العادي ، ولقد يكون منه في الفحم بنسبة (٨٥) أو (٨٨) في المائة .

هذا كلام علماء الاقتصاد ، ومعنى هذه العبارة أن الحطب يحتوي على ماء ، (الأكسجين والادروجين) للتقدم ذكره ويحتوى على مادة غمية وهى الكربون ، فبقاء المواد النباتية مئات القرون تحت الأرض يذهب منها أكثر الماء ونحو نصف المادة الكربونية (الفحم الخالص) والباقي من ذلك كثير في الفحم ، وقالوا من أنواع الفحم :

(١) انتراسيت ، وهو لماع صعب الاشعال لا تنسخ منه اليد ، لهبه قليل أو عديم اللهب ، شديد الحرارة عند الاشتعال .

(٢) الفحم البخارى ، وهو قليل الدخان كثير الحرارة يحفظ للأساطيل .

(٣) فحم الغاز .

(٤) فحم الكوك ، نافع في العامل والسكك الحديدية والبواخر ، وفي التنانير لاستخلاص المعادن وصهرها ومعامل الغاز .

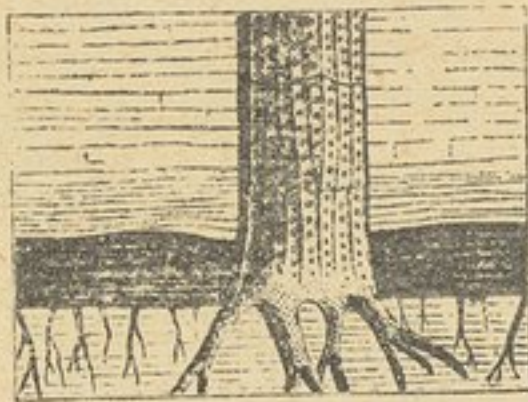
(٥) الفحم على وجه العموم هو المادة الأولية لمئات من الصناعات مثل الكوك للتقدم ، ومنه القار الفحمى ، ومنه زيت القار وهو وقود جيد ، ويعمل من الأول مستخرجات تستعمل في الصباغة وعمل الفتالين والتطهير ، ومنه البترول وغاز النشادر ، وتصنع منه الأسمدة ، ويستخرج من الفحم أيضا بعض الكيمياويات الداخلة في صناعة الطب مثل (السكرين) وهى العطريات والفرقتات وهلم جرا .

فأعجب أيها الدكي لفحم أسود اللون منبوذ يكون وقودا وسامادا وعطرا وأداة حريرة نهد الحصون وتخرب البلدان وصباغة للثياب وتطهيراً ودواء ، فلئن داوى الريض فقد نما به الزرع وإن صبغ الثوب فقد أهلك المدن « إن الله لطيف خبير » .

فهاك أربع صور للفحم انظر (شكل ٢١ و ٢٢ في الصفحة التالية) و (شكل ٢٣ في صفحة ١٤٥) و (شكل ٢٤ في صفحة ١٤٦) .



(شكل ٢١ - منظر رسم هندسي للفحم منظور من معدنه أثناء العمل)



(ج)
(ب)
(ا)

(شكل ٢٢ رسم هندسي بديع)

- (ا) هذا هو الجزء الذي تحت الطين مع الجذور الممتدة فيه .
(ب) فرش الفحم وهو أسفل طبقة .
(ج) سقف الفحم مختلطاً بالرمل وينوع من لوح .

هذا هو الفحم الذي خزته الله في الأرض وأبقاه مئات الألوف من السنين ثم أبرزه اليوم للناس بعد ما أنضجته وجعله مدار رقي الأمم في الزراعة والصناعة والعلم والحكمة ، ألا ترى أن العقول تزداد بسيرة بمزاولة هذه العجائب ، أبرزه للناس فعرفوه بقولهم واستخرجوه من الأرض ، ولما علم أن المسلمين سينامون طويلاً كما نام الذين من قبلهم من الأمم قال سبحانه « يعلم ما يلج في الأرض » (كالأشجار والنباتات في قديم الزمان) « وما يخرج منها » (فهي قد استخرجت اليوم وانتفع بها الناس) لالمسلمين ، فهو يقول إنها بعلمى دفنت في الأرض بالزلازل والحوادث الكثيرة وبعلمى تستخرج الآن ، فعلمى متعلق بها في الحالين وهي التي خزنت فيها ضوء الشمس الذي أشرق عليها أيام نموها ، ثم أنا الآن أظهره لكم لتجنوا نمره وتعرفوا خبره ومثل الفحم البترول .

(زيت البترول)

(أنواعه ومستخرجاته ومناقبه : أشهر جهات العالم به - الفوقاز . الولايات المتحدة . وغيرها)

(مصر وزيت البترول فيها)

سبحانك يا الله ! أدهشنا صنعك ، وهرنا وضعك . جعلت في الأرض ماء ، سلكته ينابيع فيها ومنها
الينابيع الحارة التي رسمت في [سورة الكهف] في أولها عند قوله تعالى « إنا جعلنا ماء على الأرض زينة
لها » فهناك من زينة الأرض قد رسم نوعان من العيون الحارة المرتفع ماؤها عن الأرض : نوع ينبع وسط
الثلج . ونوع ينبع وسط الحجارة الصفراء . وهكذا تراك جعلت في الأرض أيضا المعادن والفحم المتقدم ذكره .
وهكذا تراك أجريت منها سائلا تنتفع به في أعمالنا . فلم يقتصر عملك على الفحم الذي هو جامد بل خلقت لنا
جسما سائلا وخزنته في الأرض . أليس هذا من العجب ! تخلق الزيت في الزيتون وفي السمسم وفي برة القطن
وفي غيرها وتجعله نافعا لنا مضيئا لمانزلنا وهكذا شحم الحيوان . كل ذلك فوق الأرض مشاكلة لما أبدعته من
الأنوار التي أرسلتها من علياء سمواتك .



(شكل ٢٣ - رسم الأعشاب في مدة الفحم الحجري)

(٢) صنف خفيف يسمى (كبروسين) وهذا مستعمل للاضاءة .

(٣) وصنف آخر ثقيل يستعمل للوقود .

(٤) وصنف آخر يستعمل للصقل لأثقل منها . وتسمى الزيوت المستخرجة من الولايات المتحدة باسم

(٥) زيوت البرافين .

(٦) ومن عجب أن هذا الاسم لا يطلق في انكلترا إلا على نوع الزيوت التي يستخرجونها بالتقطير .
وبينا أنا أكتب هذا إذ حضر بعض الأصدقاء فقال : كيف يكون التقطير هنا ؟ أيقطر من نبات ؟ قلت :
كلا . قال أيقطر من باطن الأرض . قلت : كلا . قال إذن مم يقطر ؟ قلت يقطر من صخور . قال وكيف ذلك
قلت قد كشفه رجل إنجليزي يسمى (الستر جيمس بانج) عثر عليه وهو يبحث عن الزيت الطبيعي المتقدم .
ذلك أنه رأى ذلك الزيت يسيل من سقف أحد المناجم بمقاطعة (در بشير) بإنجلترا فلاحظ له فكرة أن
يستخرج هذا من الفحم الخالص فاستقطره فنجح وأحرز رخصة بمزاولة هذا العمل سنة ١٨٥٠ فاستخرج
زيت البرافين المذكور ثم استخرج مادة البرافين المشهورة . ثم إن هذه الصخور الفحمية تكون بإنجلترا
وألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا والهند وأستراليا ، وزيتها كما عرفت يشبه البترول ويستعمل مثل استعماله . وليست
طريقة استحضاره بالآلات الماصة كما في الزيت الآخر . كلا . بل الطريقة هنا أنهم يصهرون الصخور في أوعية
حتى يتبخر زيتها فيستقبلونه ويكثفونه فيكون زيتا خالصا . ومن العجب أن زيوت البترول والبرافين
أصبحت ذات شهرة واسعة بل إنها أغنت عن الزيت النباتي والحيواني . لماذا ؟ لأن الله نور السموات والأرض
ولأنه واسع علم ولأنه لطيف لما يشاء . هو الذي خزن ذلك في الأرض ووضع على (غمطين) غمط هو
سائل وهو البترول . وغمط هو جامد وهو زيت البرافين . فيستنبط الناس الأول من الأرض ويستنبطون
الثاني من الحجارة والنتيجة واحدة . وقد أصبحت تلك الزيوت المستنبطة من الأرض أو من حجارة الفحم
تسمى عن زيت الزيتون الذي كانت تفخر به إيطاليا ومعظم ممالك البحر الأبيض الشهيرة من قديم لكثرة أشجاره
فيها ، فترى الناس يختارون زيت البترول للصقل لأنه يبقى مدة طويلة بلا تجمد أو لزوجة كما يحصل للزيوت
النباتية والحيوانية فإنها بهذا السبب تلتصق بالمواد التي يراد صقلها ولا يتم الانتفاع بها الآن على الوجه الأكمل
الأحسن إلا إذا مزجت بمقدار من زيت البترول . إذن الله يقول لنا « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها »
والإخراج قد يكون بالآلات الماصة وقد يكون بالاستقطار من الأحجار ، فهو يعلم أن مثل هذا النوع المستنبط
يساعد في الأحوال العملية كالصقل المذكور إذ الزيت الذي خلقته على ظهر الأرض فيه نقص فاحتاج إلى الكمال
فأخرجت لكم زيت البترول من باطن الأرض لأدلكم على ما وراء ذلك وكذلك أنزل قطرات من الفحم الحجري
ليدلكم على ما فيه وأنتم لا تستكملون ذلك بعملكم . إذن هذه مخازن الله خزنها في أرضه وصخوره ودلنا عليها
وعلم منفعتها ثم قال للمسلمين استخراجوها كما استخراجها الأمم قبلكم لأن هذا من فروض الكفايات وفروض
الكفايات لها مقام عال في الإسلام ، وأيضاً أنا سخرت لكم ما في السموات والأرض وهذا مما في الأرض أفلا
تشكرون نعمتي أيها المسلمون ؟ وشكر النعمة بفهمها أولا وقبولها ثانيا ، أما الفهم فما هو ذا وأما القبول
فبالعمل وبالعمل قد استخرج الناس من زيت البترول ما يأتي :

(٧) زيت الفازولين : وهو زيت خفيف جدا يتولد منه غاز سريع الاحتراق يسمونه (بترول) فقط

وهو المستعمل في تسيير السيارات وما شاكلها .

(٨) والبتزين يحتاج إليه كثيرا في صناعة اللطاط (والقوطايرشا) لما فيه من خاصية إذابتها .

(٩) والقازولين ويستعمل دهانا ومنافسه شق في الشئون الطبية .

(١٠) والريولين وهو أكثر زيوت البترول تطايرا ، ويستعمل أحيانا في الطب للتخدير المحلى الذى يحدث في الضو من البرودة الشديدة التى تعقب تطايره .
(١١) والنفثالين (النفط) وغير ذلك من المواد النافعة .

ثم إن أشهر جهات العالم في استخراج زيت البترول إنما هي بلاد القوقاز لدى شطوط البحر الأسود وعلى جوانب بلاد القوقاز على حدود فارس عند (مرو) وأشهر مراكزه [الوردان : للورد الأول] على جانب القوقاز الجنوبي وميناؤه (باطوم) على البحر الأسود (المورد الثاني) على بحر قزوين وميناؤه (باكو) . وآبار هذه الجهة معروفة من قديم الزمان وكان الفرس يزورونها ليعبدوا النار في غازاتها المثبتة للندلمة من جوف الأرض ، ولقد تقدم في (سورة طه) عند قوله تعالى « وقل رب زدنى علما » الكلام على اندلاع النار في تلك الأقطار فارجع إليه واقرا صور ذلك هناك واعجب من حكم تجت في هذه الدنيا . ثم إن هذا المورد لم ينفع الناس منفعة تامة إلا حين خرج من قبضة الفرس إلى الروس في أوائل القرن التاسع عشر ، وليس في الأرض مكان فيه من كثرة الزيت مافى هذه الأمكة إذ يتدفق الزيت هناك على جوانب الآبار من غير حاجة إلى استنباطه بالآلات ، وتنبت البئر في اليوم الواحد (مليون غالون) وقد يتدفق الزيت بشهة فينتزع الأجهزة المركبة على فوهات الآبار ويقذف بها في الجو مسافات .

وبلى هذه الجهات في استخراجه (الولايات المتحدة) وفيها الآن (٢٠٠٠٠) بئر وفيها نحو (٤٠٠٠٠) برميل من الأنايب لتقل الزيت إلى المصافي في بلاد مركزية . ومن هذه يوزع في طول البلاد وعرضها أو ينقل إلى الموانئ للتصدير ، ثم إن صناعة الحديد والصلب والزجاج وغيرها تقوم بجوار تلك البنايع . هذه أشهر البلاد التى يستخرج منها الزيت ، ومن البلاد التى يستخرج منها الزيت المذكور مصر ولكنه قليل ، فبها (شركة زيت إنجليزية مصرية) جنوب السويس عند البحر الأحمر وانتظم العمل بها سنة ١٩١١ وتحت إمرتها (آبار حمسة) و (آبار هر غادة) .
ويستخرجون منه بترول السيارات وبترول الإضاءة وسائل الحريق وزيوت الصقل وغير ذلك اه .

(عبرة)

اعلم أيها الحكيم أن بلاد المسلمين قد خزن الله فيها للناس خيرات . فهل الله عز وجل يمنع النعم عن خاقه لأن المسلمين يجهلونها « إن الله لطيف لما يشاء » حكيم الصنع جزيل الإحسان . هذه دولة روسيا لما ملكت منابع البترول استخرجته ، ولما كانت ملك بلاد الفرس كانت محجوبة عن الأمم .
أيها المسلمون : اعلوا أن الأرض خالق الله وأنا عبيد الله والله عز وجل الذى خلقنا وخلق الأمم حولنا لا يمكن أن يرضى بتعطيل منافع ملكه لأجل جهل بعض عباده ، فهل يظن المسلمون أنهم إذا عطلوا نعم الله يرضى هو بذلك . كلا . بل هو ينزع الأرض منهم ويعطها لغيرهم ، وهل خلق القمح وزيت البترول مثلا وهكذا المعادن ؟ هل هذه كلها خلقها الله ليحببها عن الناس . كلا . فأنه خلق النافع وبها في الأرض ومق خلق من يستحقها لا يمنعها عنه كما لم يمنع الله كور عن زواج الإناث لما في ذلك من النافع ، فإذا جهل المسلمون منافع أرضهم سلط عليهم عليها فأخذوها وانتفعوا بها وهو القائل « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لأعين » . لو خلق الله هذه النافع ثم هو يمنعها إلى الأبد لسكان ذلك عبثا والله يعجل عن العبث وهو الحكيم ، هو الذى يقول « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها » أى ويعلم من يمنع منافعها فينه ومن يستخرجها فيساعد لانه حكيم عليم ، والحكيم لا يخلق إلا للحكمة ، ولا يعطى النعمة إلا لمن يستحقها . فليعلم المسلمون مركزهم من الإنسانية حتى ينطبق عليهم قوله تعالى « خير أمة أخرجت للناس » انتهى .

جمال العلم

في قوله تعالى « وما يخرج منها »

جاء في كتاب « الجغرافيا الرشيدة » تحت العنوان التالي مانصه :

الينابيع المحجرة

كثيرا ما يجرى الماء مذابا فيه الجير فيكسوا كل ما يصادفه من الأشياء بطبقة قد تغير الآثار الحية فتجعلها متحجرة ، ولا شك في أن الغابة المتحجرة في هليوبوليس تكونت بتأثير ينابيع حارة مذاب فيها الرمل .

﴿ الصخور الرسوبية الكيميائية ﴾

فالجبس الذي رأيت في الأعمدة من الصخور الرسوبية للتكونت بتأثير كيميائي ناتج من ذوبان الصخور الجيرية . ومثله صخور الملح . وفي فكلكرة بالقرب من كراكو في تشيكوسلوفاكيا أعظم مناجم للملح في العالم ، فهناك مدينة بنامها منحوتة تحت الأرض في صخور الملح .

﴿ أنواع الصخور الرسوبية ﴾

فمن أنواع الصخور الرسوبية الطين والحجر الرملي وهما من الرواسب العادية ، والجير والارجان من البقايا الحيوانية ، والفحم من البقايا النباتية ، والجبس والملح من الصخور التي تكونت بعوامل كيميائية .

﴿ الصخور الرسوبية للتحولة ﴾

وقد يطرأ على بعض صنوف هذه الصخور تحوّل بسبب الضغط أو الحرارة أو حركات القشرة الأرضية ، فيغير شكل الصخر ومميزاته ويزداد صلابته ولما نأ ، فمثلا الاردواز أصله الطين والرخام أصله الطباشير .

﴿ الصخور غير الرسوبية والصخور النارية ﴾

هاك نوعا آخر من الصخور مختلفا عن كل ما وصفنا لك إلى الآن . هذا حجر الجرانيت الذي سمعت عنه كثيرا في الآثار المصرية كالمسلات والنماثيل . خذ قطعة منه وانصها تجد أنه ليست له جيات مستديرة ، بل يتكون من ثلاثة أنواع من الصخور البلورية المختلفة الشكل : فمنها الفلسيار بلون اللحم الأحمر ، والليكا ذات اللون الأسود اللامع اللغض ، والكوارتز الذي تكونت منه جيات الرمل . وليس لوضع أجزائه أي نظام ، وليس له طبقات ولا فيه حزوز بل هو من صنع الطبيعة ذاتها . وبريق أجزائه يدل ذلك في الحال على تكونه بالحرارة فهذا الصخر ناري من الصخور الأصلية التي تكونت منها قشرة الأرض قبل الصخور الرسوبية . والصخور الرسوبية كلها مشتقة في الأصل من هذه الصخور النارية . وهالك نوعا آخر من الصخور النارية وهو الطفح الذي يخرج من البراكين وترى فيه ثقائب غازية ويسمى صخرا بركانيًا ، تميزا له عن مثل الجرانيت الذي تكون بهدوء تحت سطح الأرض . وهذا جدول يلخص لك تقسيم الصخور على أكمل وجه :

﴿ الصخور ﴾

(١) متحولة (ب) ومائية (ج) ونارية

(١) الصخور للتحولة (١) مائية الأصل كالاردواز من الطين (٢) ونارية الأصل كالنييس من الجرانيت

(ب) الصخور المائية (١) تكون عضوية كالجير والفحم (٢) وكبائية كالملح والجير (هكذا بالأصل)

(٣) ورسوبية كالطين والحجر الرملي .

(ج) الصخور النارية (١) البركانية كالبازلت (٢) والباطنية كالجرانيت اه .

نموذج التمارين التي اعتاد المدرسون أن يسألوا التلاميذ فيها

- (١) صف مجموعة من الحفريات التي تجدها في جبال القطم . ما الذي تستنبطه من وجود هذه الأصداف عالية في الجبال !
- (٢) أغلب الآثار المصرية مطمورة بالطين إلى علو أربعة أمتار ، فإذا كان عمر الآثار أربعة آلاف سنة ، فما سمك طبقة الترسب التي ترسب على أرض مصر سنويا من الفيضان ؟
- (٣) من أي أنواع الصخور البازلت والرخام ؟ علل وجود الرخام في جهة أبي زعبل تحت طبقات البازلت .
- (٤) في شرق هليوبوليس غابة متحجرة . ماذا تظن السبب في وجودها ؟
- (٥) بمحاور ساحل البحر الأبيض المتوسط في مصر ملاحات عظيمة . وضع كيف يحصلون على الملح منها وبأي كيفية تكونت صخور الملح العظيمة في فكلكزة ؟
- (٦) ما الذي تعرفه عن أصل الفحم الحجري ؟ وماذا في هيئة الفحم يؤيد نظريتك ؟
- (٧) ما الأدلة على حرارة جوف الأرض وماذا تعتقده بشأن أصل هذه الحرارة ؟
- (٨) أي أنواع البحار يلائم النمو المرجاني ، كيف تتعلل وجود الجزائر والحوجز المرجانية في البحار العميقة ؟
- (٩) ما سبب تكوين المغارات في الصخور الجيرية ، أي نوع من أشكال التضاريس يخلف المغارة الطويلة إذا سقط سقفها على أرضها ؟
- (١٠) كيف تكونت عمدة الجيس في المغارات الجيرية ؟
- (١١) اذكر أمثلة من الصخور النارية الباطنية والبركانية والمتحولة .

حركات القشرة الأرضية

﴿ الزلازل والبراكين والناפורات ﴾

قد اتضح لك أن الصخور الرسوبية تكونت في قرار الماء ، وأن وجودها فوق ظهر الأرض مثير للعجب ومشوق لمعرفة السبب ، وبالأخص لوجود هذه الصخور في أغلب بقاع اليابس . فالسبب لا يمكن أن يكون إلا أحد أمرين : فإما أن ماء المحيط كان في العصور الحالية فوق جميع اليابس ، وإما أن قشرة الأرض هي التي تتلوى وتنتفي في مختلف الاتجاهات . وسنبين لك حالا أن السبب الأخير هو الصحيح .

﴿ السواحل الطالعة والسواحل النازلة ﴾

للمحيط الأطلسي ساحلان : ساحل شرقي وهو المجاور لأوروبا وأفريقية ، وساحل غربي وهو المجاور لأمريكا ، فإذا زرت الأقاليم الشرقية في الولايات المتحدة تجد السهل المجاور للمحيط الأطلسي مكونا من الصخور الرسوبية الحديثة العهد ، حتى إذا وصلت إلى شرق جبال اليبني وجدتها محززة بمحزوز أقيية متوازية تشبه المحزوز التي تعملها الأمواج في صخور الشواطئ البحرية في أيامنا هذه ، وتجد في الجبال كهوفا ومغارات لا يشبهها إلا الكهوف والمغارات التي تنحتها أمواج البحار . ولا يريب عنك وجود الحفريات من أشكال القواقع والأصداف والسمك التي تميمش في المحيط الأطلسي حتى الآن . فلا يمكن أن يبقى في نفسك أي شك في أن هذا السهل الساحلي قد برز من أعماق البحر . فهل انحسر عنه الماء ، إذا كان ذلك كذلك فينبغي أن يكون للماء قد انحسر أيضا عن شواطئ أوروبا الغربية فترداد علوا عن سطح الماء ، ويكون انحسار الماء عن السواحل علما مآله انتهاء الماء من هذه الدنيا . ولكن هذا غير صحيح ، والواقع يكذبه ، لأن سواحل أوروبا الغربية

أخذت في الهبوط التدريجي تحت سطح الماء، فقد كان الرومان مبان في غرب إيرلندا، وكانت هذه المباني مشرفة على ساحل المحيط الأطلسي ولم يكن للماء يطنى عليها طبعاً، وقد أصبحت الآن غائرة تحت مستوى ماء المحيط، فلا تظهر إلا وقت جزر البحر، وتغيرها المياه وقت المد. فيقين لك من ذلك أن البحر لا ينقص ماؤه وأن قشرة الأرض هي التي تلتوى وتنتفي، وليس ذلك في جهات قليلة من وجه الأرض بل هي حركات آثارها ظاهرة في كل موضع على اليابس وتحت الماء.

﴿ الجبال الحديثة والجبال القديمة ﴾

تأمل في خريطة الدنيا تر أعظم سلاسل الجبال الحالية موجودة في اتجاهات معينة :- فهي في الشمال على حافة المحيطات الكبرى، أو عند مجمع القارات (كما هو الحال في حوض البحر الأبيض المتوسط). وفي هذا الوضع المنتظم دلالة على العوامل التي أوجدتها. فالقشرة الأرضية تلتوى وتنتفي فيظهر أثر هذا الالتواء في أضعف جهاتها. فأعظم جبال الدنيا مثل روكي وأندو والألب وهمالية من الجبال الحديثة التي برزت من قرار البحر في أزمنة قريبة. والأزمنة الجيولوجية لا تقاس بالسنين ولا بالقرون، ولكنها أحقاب طويلة يكمل عن إدراكها الحاسب.

﴿ عامل الوجود وعامل القضاء وعملية التوازن ﴾

لا يمكن أن تبرز الجبال والسهول من البحر فتريد مسطح اليابس وحجته بلامقابل، فإن من السلم به في كل معاملة الموازنة بين الوارد والنصرف وإلا انتهى الأمر بإفلاس أحد الطرفين للتعاملين، فما الذي يكسبه البحر عوض ما يخرج منه من الأراضي الجديدة والجبال الحديثة؟ إن الذي يستفيدة في مقابل ذلك ما تجلبه له الأنهار، يساعدها في ذلك عوامل القضاء الأخرى المعروفة بعوامل التعرية التي تتسلط على الجبال من وقت ظهورها بمحاول القضاء فتحتها وتجرفها ولا يهدأ لها بال حتى تكشطها من على وجه الأرض وتبحث بأقطابها مع الماء الجاري إلى المحيط، تدفع بذلك عن الأراضي الجديدة التي تبرز منه.

﴿ أسباب حركات القشرة الأرضية ﴾

(١) علت أن الأرض تدور على محورها باستمرار، وهذا الدوران من شأنه أن يغير شكل الأرض كما تغير أوضاع جوب القمم وقت هز الكيلة، وأن هذا الدوران هو الذي أعطى الأرض شكلها الخامس بها والذي جعل القطر الاستوائي أطول من المحور، ففي القديم الناب لما كانت الأرض كلها سائلة أولية كان هذا التغير سهلاً ولكنه قد صعب الآن بعد أن جمدت الأرض وتصلبت قشرتها فلا يتم بدون طي الصخور المرنة وكسر الصخور الشديدة الصلابة.

(٢) كانت الأرض قبل أن تفقد شيئاً من حرارتها أعظم حجماً وكلما نقصت الحرارة يتقلص قلب الأرض فتضطر صخور القشرة أن تنتفي وتنكسر لكي تنطبق عليه كما تنتفي ملابس الرجل البدن إذا هزل جسمه بسبب المرض، ويدفعها لذلك (أمران : الأول) جذب مركز الأرض لها من تحت (والثاني) ضغط الطبقات الهوائية عليها من فوق.

(٣) إن متوسط الثقل النوعي لصخور الكرة الأرضية أكثر من خمسة أضعاف الثقل النوعي للماء على حين أن الثقل النوعي لصخور القشرة لا يزيد على الضعفين إلا قليلاً، ومعنى ذلك أن الصخور الخفيفة هي الموجودة على وجه الأرض في حين أن الصخور الثقيلة موجودة في قلبها وذلك بدسهي، إذ أن الخفيف من طبعه أن يطفو فوق الثقيل، وقد حصل هذا الترتيب أيام كانت الأرض في حالة سائلة والصخور مرتبة على وجه الأرض بشكل يحفظ التوازن بمعنى أن الصخور التي في قرار المحيط ثقيلة النوع وصخور الجبال المنهورة

خفيفة ، وبذلك أمكن قيام الأخيرة محمولة بضغط الأولى ، لكن عوامل التعرية التي أثرتنا إليها أيضا دائمة في إثناء الجبال والأنهار تحمل الأتقاض إلى البحر أول فأول ، فيزيد الضغط في قرار البحر ويغف على جبال اليابس باستمرار ويختل التوازن لولا حركات القشرة الأرضية التي تعيده إلى حاله كما تزعم .

﴿ نتائج حركات القشرة الأرضية ﴾

ينتج من حركات القشرة الأرضية بتيان السلاسل الجبلية الحديثة وطفيان البحر التدريجي على جهات بارزة كما ينتج منها كسر الصخور الصلبة وتشققها وازلاق طبقاتها بعضها على بعض فتنشأ عنها تضاريس جديدة وتتغير اتجاهات المياه الجارية وقد تنشأ كسور متقاربة فيترتب عليها وجود أخاديد غائرة أو هضبات مدفوعة .

﴿ بتيان الجبال ﴾

قد رأيت أن أهم السلاسل الجبلية في الدنيا واقعة في اتجاهات معلومة فهي من جبال الطي . ومن جبال الطي أيضا سلاسل أصغر منها في القارات . فاذا أخذت طبقات تلك الجبال رأيتها منحنية تمد على التواء . ثم تنشأ ثلاث طبقات من الصخور الرسوبية مرتكزة على طبقة من الصخور النارية في وضعها الطبيعي قبل الالتواء ، ومفهوم طبعا أن الصخور العليا هي الحديثة وأن التي تحتمها هي القديمة . فالطبقة الثالثة أحدثت من الطبقة الثانية وهذه أحدثت من الطبقة الأولى والطبقة التي تحت الجميع من الصخور النارية الأصلية . ولكن عوامل التعرية لا تثبت أن تعبت بهذه الجبال فتكشط سطحها ونحتها وتجرف منها .

فاذا رغبت في ارتقاء الجبل تصادف أولا الطبقة الثالثة ثم الطبقة الثانية ثم الطبقة الأولى حتى إذا ارتقيت إلى أعلى الجبل وصلت إلى الصخور القديمة النارية . ومن ذلك تعرف كيف أن الصخور التي كانت بييسة عن وجه الأرض قد ارتفعت بحركات القشرة الأرضية ثم انكشف عنها غطاؤها بفعل التعرية فأصبحت ظاهره قريبة للإنسان لينتفع بها في أغراضه .

﴿ كسر الصخور الصلبة ﴾

يصادف المدآون أحيانا وهم يتعقبون عرفا من فلزات المعادن أو طبقة من طبقات الفحم عينا في الطبقات ؛ أي كسرا ، إذ ينتهي العرق أو الطبقة فجأة فيوجد بدلها صخور أخرى كان ينبغي وجودها فوق العرق أو تحتها .

﴿ الأخاديد الغائرة ﴾

في الصخور التي تصاب بصيوب متعددة قد يحصل أن تنزلق قطعة من القشرة الأرضية فتسقط إلى عمق كبير وينشأ عن ذلك أخدود غائر ، وفي شمال أفريقيا أخدودان غائران يقع البحر الأحمر بأكمله ضمن واحد منهما

﴿ الهضبات الرفوعة ﴾

وقد يحدث أن تغور الأرض من جوانب جزء من القشرة الأرضية وتزلق عليه نازلة على حين أنها تدفعه صاعدا فيظل قائما بنفسه على شكل هضبة مدفوعة ، وهضبة (مزينة) للتكون منها أرض إسبانيا والبرتغال من هذا الطراز .

﴿ الجبال المختلفة ﴾

والهضبة إذا شققها الأنهار والوديان يتخلف منها سلاسل جبلية تفصل أحواض الأنهار ، فهذه السلاسل الجبلية مختلفة من صخور الهضبة ، وسلاسل جبال شبه جزيرة إيبيريا من هذا الطراز .

﴿ الزلازل ﴾

قلما يمر العام من غير أن نسمع بوقوع زلزال في جهة من جهات الدنيا؛ فمرة نسمع عنه في غرب أمريكا أو جزائر الهند الشرقية. ومرة نسمع عنه في اليابان أو في إيطاليا. ولا يمر خبر للزلزال يهدوء كباقي الأخبار لما يقترن به من الحسائر الفادحة والأهوال الكبار وهلاك الأتقى والأموال. وقد وقع زلزال في ليلة (٢٦) يونيه سنة ١٩٢٦ م شعر به أهل القطر المصري في الساعة التاسعة والدقيقة ٤٨ مساءً ومكث نحو (٤) دقائق هلمت له قلوب الأهالي وحدثت بعض إصابات من سقوط المنازل القديمة. ووردت التلغرافات في الأيام التالية منبهة عن مركز الزلزلة الكبرى في (بحر الأرخيل) وهي التي انتشرت هزاتها إلى مصر. وكان من الآثار الهامة لذلك الزلزال انفجار ينبوع كبريتي جديد في مدينة حلوان على بعد (٩) أمطار من ينبوع القديم. ومن الزلازل التاريخية العظيمة ما يأتي بيانه:

(١) زلزال (سان فرانسكو) في سنة ١٩٠٦ م وفيه وقعت من هول الرجفة الأولى العمارات والمنازل فأصبحت بعد التضارة والعمران خرائب وأطلالا. وما زالت روادف هذه الرجفة تهب القشرة الأرضية طول ذلك اليوم العصيب حتى بلغت أدوار الأرحاف اثنين وثلاثين دورا. وهاجت أمواج البحر ثم فطرت الأرض فها لتبلغ آثار العمران. واشتعلت النيران في الحطام وهلكت ألف نفس بشرية وبنات مائتا ألف بلا مأوى.

(٢) زلزال (لشبونة) في سنة ١٧٥٥ وفيه نشأت أمواج عالية طفت على الشاطئ من ارتفاع عشرين قدما فطاحت بالسفن الراسية في البناء إلى جهات داخلية بعيدة وبخرتها كما يندر الزارع الحب على الأرض وأهلكت ستين ألف نسمة غرقا.

(٣) زلزال (مسينا) في سنة ١٩٠٨ م وفيه تحربت المدينتان (مسينا) و (رجيو) والقرى المجاورة لهما وهلك ثمانون ألف نسمة.

(٤) زلزال (اليابان) في سنة ١٩٢٣ م وفيه تحربت المدن الكبرى وقامت الحرائق في (يوكوهاما) و (طوكيو) فأكلت المون والأقوات وبنات الناس بلا مأوى ولا طعام، وهلك فيه مائتا ألف نسمة. وتبارت الدول العظمى في مواساة (اليابان) فأرسلت إليها الهدايا من الأقوات والملابس. انتهى ما أردته من الكتاب المذكور، وانه أعلم.

(جمال هذا المبحث العام)

(في قوله تعالى « يعلم مايلج في الأرض وما يخرج منها » الخ)

لاختم هذا المقال بالكلام على الفهم المخزون في القطب الشمالي، وعلى الكهروباة المخزون الآن في شمالي ألمانيا فأقول:

سبحانك اللهم، أنت أدرت الأرض وجعلت لها قوانين وحكمت على خط الاستواء قديما أن يصير قطبا كما حكمت على القطب أن يصير خط استواء، إن جميع أهل الأرض الآن يعلمون أن القطبين لا يصلحان لظهور النبات ولكن العلم والكشف أثبتا أن القطبين قد خفي الفهم في باطنهما، ولكن كيف خفي ذلك الفهم، لا وسيلة لظهور الفهم إلا بالشجر ولا ظهور للشجر إلا بحرارة الشمس الكثيرة، والقطبان لاحرارة فيهما بل الثلج هو الذي يغطي تلك الأقطار، فلئن تحلى خط الاستواء بالأشجار والمزارع الخضراء لنحلين القطبان بالثلج، تشع حوله الأنوار البديعة للتقدم ذكرها ورسمها في أول (سورة الكهف) أنك ما شاع وذاع من أن باطن الأرض عند القطبين مملوء حفا، أفلا تعجب من ذلك وكيف خزنه الله قبل مئات الألوف من السنين؟ ثم هو الآن قد أخذ يدل الناس عليه ويلهمهم إلهاما، يقول لهم: أيها الناس، إن في القطبين حفا فهلا ذهبتم إلى القطب الشمالي وانتفعتم به، وهلا جعلتم لكم محطة للطائرات والبالونات

في القطب الشمالي تكون ملتقى الخطوط الموازية بين أفريقيا وآسيا وأوروبا ، وإذا كنت في شك من ذلك فاصح ما كتبه بعضهم ناقلا عن المجلات الافرنجية وهذا نصه :

(حلم علمي)

(القطب الشمالي ملتقى الخطوط الموازية)

القطب الشمالي هو قمة الأرض ، وكان يجب أن يكون ملتقى اللواصلات لولا أنه لا يصلح للملاحة أو للسكك الحديدية فإنه مغمور بالثلج الذي لا يذوب طول السنة ، وقد خطر ببال أحد المهندسين أن يجعل القطب الشمالي ملتقى الخطوط الموازية بين القارات الثلاث أفريقيا وأوروبا وآسيا ، وبذلك تختصر المسافة اختصارا كبيرا ، فالذي يريد الذهاب إلى اليابان يحتاج الآن إلى أن يقطع نحو نصف الأرض حتى يبلغها ، ولكنه إذا ركب طائرة وصعد إلى القطب الشمالي وأخذ منه إلى اليابان قصرت مسافة السفر ، وفي القطب الشمالي مناجم كبيرة للفحم يمكن منها استنباط الكهرباء لتدفئة والإضاءة فينازل القطب وتبني فيه العنابر الكبيرة لايواء الطائرات وتزويدها بالبنزين وتشيد الفنادق الكبيرة للمسافرين . وهناك يلتقي المسافرون فيبدلون طياراتهم وينهب كل منهم في طريقه ، فهل يحقق العلم هذا الحلم ، ولظالمنا حقق ما هو أشد منه غرابة . انتهى .

هذا بعض سر قوله تعالى « يعلم ما يليح في الأرض وما يخرج منها » فما هو ذا الفحم قد أدخله الله في الأرض ، وما هو ذا يخرج منها وينتفع الناس به .

ومن عجائب المهزوز في الأرض [الكهرياء . الكهرمان] لقد كنت أيام الصبا أرى الناس يدخلون في الأعواد بحيث يضعون ورق التبغ في حق صغير متصل بعود مجوف ينتهي بفم من (الكهرمان) وهذا الفحم هو الذي يمتصون به الدخان للستمد من ذلك التبغ المحترق في ذلك الحق الصغير ، فكنت أتأمله فلا أعرف من أين جاء هذا الكهرمان ، ولا كنت أدري أن الله خزنه في الأرض قديما كما خزن الفحم في الأقطاب الشمالية ، أفلا يجب على أن أحمد الله على العلم بذلك ، فهناك ما رأيته من القالات العلمية تحت العنوان التالي :

(الكهرياء . الكهرمان)

الكهرياء هو ما يسميه العامة عندنا بالكهرمان وهو ذلك الحجر الأصفر اللامع الذي يصنع منه خرز السابج ويتزين به النساء ، وقد كان الإغريق يعرفون الكهرياء وكانوا يعرفون منه أيضا (الكهريائية) وهي تلك القوة الخفية التي نستعملها الآن في دفع الترام والتلفون والتليفون ، ولم يكن الإغريق يعرفون كيف ينتفعون بالكهريائية كما نتفع ولكنهم كانوا يعرفونها وقد أطلقوا عليها هذا الاسم لأن من خواص حجر الكهرياء إذا حكت به شيء أن يجذب إليه الأجسام الصغيرة ، فالقاري يرى الآن أن هنالك فرقا بين الكهرياء الذي يصنع منه الخرز وبين الكهريائية إذ هي القوة الخفية التي يسير بها الترام ولكن يوجد لسوء الحظ من يخلط اللفظتين .

وقد قلنا إن الكهرياء حجر ولكن الحقيقة أنه صمغ . أو نقول بعبارة أدق إنه لثي ، والثلي هو ما ينزل من الشجر إذا جرحت قشرته كالمادة اللبنية التي تخرج من (شجرة الجوز) عند ما تقطع إحدى أوراقها ، ولكن هناك أشجار الآن يستخرج منها الكهرياء ، وإنما الكهرياء يوجد الآن مدفونا في الرمال تحت طبقات الأرض فقد عاشت منذ آلاف السنين أشجار ثم طمرتها الرمال فصارت لحما . وهناك أشجار أخرى أيضا كانت تنزل الكهرياء فيقع منها طريا ثم يجف وبعضه كانت تطمره الرمال وبعضه لا يزال قريبا من سطح الأرض

كثيرا ما تنكسحه الأمطار وتخرجه إلى السطح ، أما أشجار الكهرياء فقد انقرضت من العالم كما انقرضت من قبلها بألاف القرون الأشجار التي استجالت إلى فحم . ومعظم بل كل ما يوجد تقريبا من الكهرياء الآن يرسل من شمال ألمانيا على شواطئ بحر البلطيق ، ففي كل عام يصدر من هذه الشواطئ إلى أسواق العالم نحو مائتي ألف رطل . وقد كان المصربون والإغريق والفينيقيون يستوردون الكهرياء من شمال ألمانيا وكانت طرق الكهرياء معروفة في أوروبا محروسة من القبائل . وكان القدماء يخالون به حتى قال (بليني) الكاتب الروماني الذي عاش في القرن الأول للميلاد [إن تمثالا صغيرا من الكهرياء يزيد ثمنه على ثمن عبد ضخم قوي] وكان شعراء الإغريق يستسلمون للخيال في كلامهم عن الكهرياء . ومن أجل ما قاله بعضهم عنه إنه الدموع المتجمدة للطيور . وقد بلغ من شغف الامبراطور الروماني (نيرون) بالكهرياء أنه أرسل بعثة إلى شاطئ بحر البلطيق فجلبت معها (١٣٠٠٠) رطل من الكهرياء . انتهى وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني .

الفصل الثالث

(في مبحثين عظيمين)

(الأول) مبحث الجن وهل يعلمون الغيب ؟

(المبحث الثاني) في سيل العرم وسبأ ، وما جاء في العلم الحديث مصداقا لهذا كله .

(المبحث الأول : في مقامين)

(المقام الأول) في قوله تعالى « ما دهم على موته إلا دابة الأرض » الخ .

(المقام الثاني) في المبحث الأول في قوله تعالى « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا

في العذاب المهين » .

(المقام الأول في قوله تعالى « ما دهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته »)

(الكلام على الأرواح)

اعلم أن هذه الآية قد أعطينا (ثلاث فوائد : الأولى) أنها أبانت أن الجن لا يعلمون الغيب (الفائدة الثانية) أن أهل الأرض خاضعون للنواميس سواء أ كانوا أنبياء أم غيرهم (الفائدة الثالثة) أن من أضر الحشرات ماله سلطان في هذه الأرض عظيم . يقول الله تعالى « وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » فنحن لولا تدبير الله لانطبق أن نركب الدواب بل لانطبق هذه الحشرات التي أكلت عصا نبي عظيم من الأنبياء ، فإذا كانت هذه الحشرة هذا شأنها فذلك فتح باب لمعرفتها لنحترس منها . اللهم إن القصص في القرآن لم يكن إلا لتعليمنا لاغير ، وإلا فماذا يفهم الناس في قصة بلقيس ؟ إذ تقول لقومها « ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » وفي قصة فرعون إذ يقول له اللأ من قومك في موسى وأخيه هرون حين استشارهم في أمرهما « أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين » .

أقول : فهل يفهم الناس من ذلك إلا الإشارة إلى الحكومة الشورية وأن الأمة لها القول الفصل ، وما للملوك إذا كانوا فيها إلا منفذين كما يقول « وأمرهم شورى بينهم » فهكذا هنا يقول « ما دهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن » الخ . وتقول أيضا فلما خر تبينا أيضا أن للأرواح سرا عجيبا فلا بد من البحث عن أمرها واستقصاء خبرها ، فأكل الأرض لعصا ساجان أفهم الجن أنهم لا يعلمون

الغيب فيقللوا من كبريائهم ويرجموا عن غيبهم ويتزلوا عن عتومهم ويخلعوا عنهم لباس الكبرياء والعظمة والتباهى والافتخار ، هكذا يعرفنا أن للأرض عملا منكرا إن لم نخترس منه خررنا صقطين في هذه الحياة الدنيا بتدميرها وإهلاكها ، وأيضا هي من آيات الله تعالى وعجائب صنعها ، فوجب إذن البحث في أمرها واستقصاء سرها على قدر الإمكان ، وقد تقدم الكلام عليها في [سورة النحل] ورسمت للملكة من هذه الحشرة والملك بجانبها وحولهما جنود الملكة والضباط والعساكر . وتقدم أيضا رسمها هنا (وكذا ملكة النحل) شكل ٢ و ٣ وهى مأخوذة من كتاب (مملكة الظلام) أو (حياة الأرض) تأليف (مترلك) تعريب الدكتور (نقولا فياض) وهالك شذرات من الكتاب لنقف على سر ما أشار له القرآن في هذه الآيات . قال :

(الأرض أو النمل الأعمى)

الأرض (١) أو النمل الأعمى . ويقال له الأبيض وما هو بالأبيض يرجع تاريخه إلى مائة مليون سنة قبل الانسان على زعم علماء الحشرات والجيولوجيا أى طبقات الأرض . غير أنه من الصعب تحقيق هذا الزعم والإتيان بأدلة ناصعة على صحته . على كل حال هذه الحضارة التى تعد أرقى من حضارة النمل والنحل هى بلا ريب قديمة العهد جدا أى أنى عليها بضعة ملايين من السنين . ولو تفحصنا المكتوب عنها لما وجدناه شيئا بالنسبة إلى ما قيل وكتب عن النحلة والنملة مع أنك لآ ترى على هذه البسيطة كائنا أقرب إلينا وأبعد عنا فى آن واحد من هذه الحشرات التى تتمتع بأنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية كأنها عالم إنسانى يؤاخذنا فى الآمانا وشقايتنا . وهنا مجال واسع للشعراء الذين يعملون شكلا جديدا للاجتماع البشرى ويسمو بهم الخيال والتصوير إلى خلق مثار، خاص للأجيال الآتية فى نظامها وأحكامها فما عليهم إلا أن يفتبروا من هذه الملكة الهائلة فيجدوا من القرابة مثل ما فى أحلامهم وأغرب مما تصوره فى عطارده والريخ والزهرة .

يقال إنه يوجد على الأرض ألف وثمانمائة نوع من الأرض وللشهور منها لا يتجاوز الأربعين وكل نوع يمتاز عن سواه بصفات خاصة به ؛ ففنه البناء الذى يقيم هضبا فوق الأرض ، ومنه ما يعيش مكشوفاً ويمتاز السباب فى خطوط طويلة بين صفيين من الجنود تختمى بها العمال ، ومنه ما تسلى الطبيعة جنوده بما يشبه الحقنة ومنه ما يفتك بالأشجار الحية وينقها وجنده كالكواسر أو الضواري على جانب عظيم من المساواة ومنه ما تشبه مشافره (٢) قرون التيس فتتمدد كالزبرك وتقذف به إلى مسافة عشرين سنيمترا إلى آخر ما هنا لك .

ثم قال بعد كلام طويل مانصه [بعض هذه الحشرات يعيش فى جذوع الأشجار التى يحفرها ويمد فيها مسالك وأسرابا تنهب كل مذهب وتخرقها من كل ناحية حتى الجذور وبعضها يبنى عشه فى الأغصان ويوطده حتى يقوى على مقاومة الأعصار وحتى يمتنع على الإنسان الاستيلاء عليه فيضطر إلى نشره بالمنشار إلا أن الغالب فيه أن يتخذ مسنه تحت الأرض ، وبناء هذا السكن من أغرب ما عرف وهو يتغير حسب

(١) الأرض دودة يضاء تبنى على نفسها بيتا مستطيلا ولها مشفران تنقرهما الحشب والآجر والحجارة جمعها أرض وهى هنا ترجمة كلمة (ترميت) بالفرنسية لا كلمة (ميت) أى السوسة أو العثة التى تلصص الصوف والثياب .

(٢) الشافر جمع مشفر: وهى من البعير كالشفة من الانسان وقد تستعمل للناس فاستعملناها هنا على المجاز وترجمنا بها كلمة (منديبول) ويمكن أن تسمى أيضا الأحناك .

البلدان والسلال والأحوال الموضعية والأدوات التي يتاح للحشرة استعمالها بما ركب في طبيعة الأرض من التوسع في الاستنباط والقدرة على ملائمة الأحوال والاصطباغ بصغة البيئة التي توجد فيها . وأم هذه المساكن يعزى إلى الأرض الأسترالية فيكون تارة شبه نبكة (١) تملو عن الأرض نحو ٤ أمتار ومحيط قاعدتها ٣٠ قدما كأنها قالب ضخيم من السكر وطورا كما كأم من الوحل أو صلصال في حال التليان هبت عليه ريح الجليد فجمدته فجأة وحينا كرهط من الحلايا التي تخزن فيها النحل الحوشى عسله وقد كبرت مائة ألف مرة وآونة كطبقات من الفطر أو الاسفنج أو كما كداس من التبن الذي طال عليه سقوط المطر إلى ما شا كل ذلك . وأعظم هذه البنى التي لاتراها إلا في أستراليا تختص به الأرض المناطيسية وقد سميت كذلك نسبة إلى الابرة للمناطيسية فان ماتبيه يتجه أبدا من الشمال إلى الجنوب فيتسع في أوله ويضيق في الآخر . وقد تعدد الاقتراض في تمثيل هذا الاتجاه دون الوصول إلى حل صحيح شاف « انظر شكل ٢٥]



(شكل ٢٥ - قرية الأرض)

- (١) غرفة الفطر .
(ب) خلية للسكة .

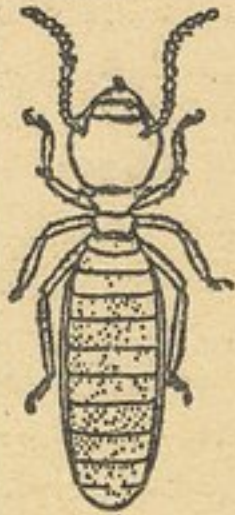
« وأعظم ما شوهد من هذه المساكن هو في أفريقيا الوسطى ولا سيما في كونغو البلجيكي حيث يبلغ الملو من ستة إلى ثمانية أمتار . وفي « مونونو » قبر أقيم على أحد هذه البيوت كأنه على رابية فيشرف على ما حوله من الجهات ، وفي أحد الشوارع الكبيرة في مدينة اليزابت من أعمال « كاتانجا » العليا قرية عالية شطرها الشارع إلى شطرين . وقد اضطر عمال سكة حديد سكانيا أن ينسفوا بالديناميت بعضا من هذه الأبنية فكانت أبقاضها تجاوز في ارتفاعها مدخنة القطار . ومن هذه المساكن التي خربت ما صار أشبه بالبيوت ذات الطبقتين ولا يتعد على الإنسان أن يقعد فيها . وقد بلغ من متانة هذه البنائيات أن سقوط الأشجار الكبيرة وهو أمر كثير الوقوع في تلك النواحي لا يلقفها ولا يضعف من جانبها وإن قطع الغم يتساقط ليرعى العشب النامي فوقها دون أن يؤثر فيها . ونمو العشب فوقها راجع إلى خصائص الطين الداخلة في تركيبها فهو يحزن الرطوبة فضلا عن أنه كثير الحصب زكي اللبث لأنه مكون من براز الحشرة وفضلاتها . وقد ينمو مع العشب الشجر . والغريب أن الأرض التي تهدم كل شيء في طريقها تحترم هذا الشجر كأنه مقدس .

(١) النبكة : أكمة محدة الرأس جمعها نباك .

وبعض أنواع الأرضة يستعمل قسما من الطبقات العليا في الوكر لزراع واستنبتات الفطر الخصوصي الذي يقوم مقام الطفيليات (وسيأتي الكلام عنها في الفصل التالي) وله وظيفتها من تحويل الحشب القديم أو العشب اليابس إلى كتلة صالحة للهضم والتمثيل . وبعض الأنواع الأخرى تقيم مقابر حقيقية في أعلى العمارة ووجود هذه المقابر يدعو إلى العجب لما نعلمه من أن الأرض يأكل موتاه ويتغذى بها إلا إذا افترضنا أنه في أيام الوباء (أو طارىء آخر) قد يقصر عن مجارة اللوت لأكل كل ما يجده له من الرمم فيجمعها ويكدسها حين الحاجة على سطح المنزل حتى إذا جففتها الشمس أحاطها إلى مسحوق وجعلها ماثونة يتغذى بها شباب القرية . ومن هذه الأنواع من يذهب إلى أبعد من ذلك فيتخذ ماثونة حية . وذلك أن القوة الحفوية تدبر أمور هذه المملكة قد ترى لسبب لا نعلمه أن عدد الرعية قد جاوز الحد المطلوب فتفرز الزائد منها في غرف خصوصية بعد أن تقطع قوائمها حتى لا تهزل بالحركة ثم تؤكل بالتدريج تبعا لحاجة المجتمع . وهذا النوع له عناية خاصة بالنظام الصحي فإن فضلات الدودة وبرازها يجمع في موضع على حدة ويترك إلى أن ينشف ويقسو ويصير ألد طعاما . هذا هو نظام الوكر كما يبدو لعين الباحث على أنه قابل للتغير لأنك لا تجد في الكائنات حيوانا مثل هذا يكره التقليد ويعرف أن يكون كالإنسان في لينه وخضوعه للأحوال ومجاراته لها وسيحتاج لنا غير مرة في عرض هذا الحديث أن نتحقق ذلك .

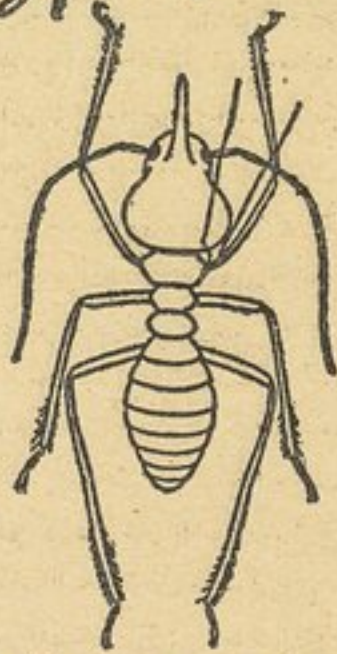
ثم قال وهذا النفق العظيم الممتد تحت الأرض والمرتعق فوقها يتشعب منه أسراب لانهاية لما تنتهي إلى حيث الأشجار والأدغال والعشب ومنازل الناس فتجد الدودة ما تحتاج إليه من الخلاوز وهي المادة الحوصلية الجامدة التي تتركب منها خلايا النبات وأليافها . وعلى هذا الوجه تنمو أحياء بأسرها كما ترى في أستراليا وبعض أنحاء جزيرة سيلان فتعد مساكنها إلى كل صوب وتجعل تلك الأرض غير صالحة لسكنى الإنسان . وقد عملا البلد من جانب إلى جانب كما في الترنسفال ونامال حيث بلغ عدد القرى نحو ما من ١٦ في مسافة لا تزيد على ١٣٥ مترا وفي كاتاشكا العالية نثر في كل هكتار من الأرض على قرية يبلغ علوها ستة أمتار . والأرضة بخلاف الخملة التي تعيش على سطح الأرض وهي حرة طليقة لا تغادر ظلمات قبورها الرطبة الحارة ولا تسير إلا في الحفاء فتعيش وتموت دون أن ترى ضوء النهار فهي دودة الظلام الأبدى ، وإذا مست الحاجة أن تجتاز للتموين حواجز لا قدرة لها على خرقها فأنها تقوم بتعبئة الجنود والمهندسين وهؤلاء يبنون ممراتنا مركبا من بقايا الحشب المضغوطة ومن البراز ويجعلونه على شكل الأنبوبة ولا يدعون فرصة تفوت دون الاستفادة منها اقتصادا في الوقت والعمل والنفقات فإذا أصابوا شقوقا فيها فائدة أصاحوها وملسوها وجمعوا بينها ، وإذا فتحوا ممرم على جدار جعلوا شكله كمنصف أنبوبة بالاستفادة من الجدار أو على زاوية مؤلفة من جدارين اكتفوا بضموها (١) غف عليهم ثلثا العمل . وهذا الممر الذي يفتح فيكون على مقياس الحشرة بالضبط يتسع من حين إلى حين ليتسنى لحامل المؤونة إذا ما تلاقوا أن يفسحوا المجال بعضهم لبعض بدون عائق وإذا كانت الحركة شديدة والأزدحام عظيما فإن الممر يكون أوسع ويجعل منه مدب للذهاب وآخر للإياب . وليسمح لنا القارىء قبل الخروج من هذا النفق أن نلفت نظره إلى خاصة من أغرب وأخفى ما في هذا العالم الكثير الغرائب والأسرار ، فقد أشرنا فيما سبق إلى الرطوبة التي لا تتغير في الوكر على الرغم من جفاف الهواء والأرض المحروقة وعلى الرغم من حرارة الصيف الطويل في تلك الأقاليم التي تفيض فيها الينابيع ويؤكل الزرع وينشف كل

(١) غما البيت يعموها ضموا : غطاءه بالطين والحشب .



(شكل ٢٦ رسم أرضة عاملة)

ذو حياة حتى جذور الأشجار الكبيرة . والحق أن بقاء هذه الرطوبة في الأحوال التي ذكرناها لما يدهش له العقل ويقف دونه للفكر وقد أسقط في يديه حيرة وذهولا حتى إن لونستون العالم الرحالة تساءل هل هناك طرق مجهولة تتمكن بها الأرضة من أخذ أو كسجين الهواء وجمعه إلى الهيدروجين الموجود في غذائها النباتي ليتكون بهما الماء الذي يحتاج إليه؟ ذلك افتراض لم يثبت العلم بعد ولكنه غير بعيد الإمكان وسنرى فيما يلي أن للأرضة من العلم بالكيمياء والبيولوجيا مكانا محسدا عليها « (انظر شكلا ٢٧) و (شكل ٢٨) .



(شكل ٢٧ - جنديان من الأرض)

فوق : جندي يقاتل بكفيه - تحت :

جندي يقاتل بمحفته

ثم قال [الخنزيرة العدو الأرضة الألد ، وهي عداوة قديمة يرجع عهدها إلى ثلاثة ملايين سنة ولولاها لكانت الأرضة قد اجتاحت القسم الجنوبي من الكرة الأرضية إلا إذا صح الرأي القائل إن مامتازت به من ثقب الأرض وحفر الأنفاق هو ابن الحاجة والضرورة دفاعا عن نفسها وهربا من الخنزيرة . ومن الأرض مالا يعرف البناء فيجعل سكنه في الأشجار وهو من النوع البسيط في تركيبه وارتفاعه ولا فرق في وظائفه أو تمييز بين أعماله فيكتفي بسد الثغرة ببقايا الخشب والطين على أن منه ماخلق لنفسه جندا خاصا وهذا الجند يمتاز برأس كبير يستعمله لسد الفتحة كأنه صمامة من القلين . وتزود الخنزيرة قربة الأرض دائرة حولها ليل نهار باحثة عن صدع أو شق تنسل منه إليها ولهذا كانت الحبيطة لها بالغة أقصى المستطاع وكانت مراقبة الشقوق شديدة ولا سيما الشقوق المصنوعة لتجديد الهواء فإن هذه المنازل تحتاج إلى الهواء المتجدد وقد لذلك هندسة ونظام ليس من أقيم ورائهما لعلماء الصحة اليوم مأخذ لعائب أو معلق لطاعن . وإذا أتبع العدو أن يصيب أحد هذه الشقوق فإن أول ما يرى هو رأس أحد الجنود للدافعين وقد أخذ يضرب الأرض بمشفره إنذارا وتنبها فيسرع الحرس ثم الفرقة بأسرها وتسد بجماعها الفتحة وهي تحرك في الهواء أحنا كها الهائلة كأنها أذغال من الشوك أو نهجم على غير هدى هجوم الكلاب الضارية حتى تصيب العدو فتعض عليه عشا شديدا ولا تتخلى عنه إلا حاملة قطعة منه] .

وجنود الأرض تبقى بعد تفهم العدو حينما أمام الثغرة ثم تعود إلى قشلاقاتها وترجع العمال الهاربة طبقا لناموس توزيع العمل الذي يضع البطولة في جانب والحكمة في جانب شارعة في ترميم ماخرب بسرعة هائلة

مقدما كل منها كتلة برازه، وقد حسب أن ساعة من هذا العمل السريع تكفي لسد ثلثة بحجم الكف فتأمل.
وقد روى سلاج أنه دمر منزلا للأرض في السماء ولما عاد عند الصباح وبده قد أصلح وتم ترميمه وعلى بطيخة
جديدة من الطين، ولا عجب فإن السرعة في مسأله حياة أو موت وأقل إهمال في ذلك هو دعوة لأعداء، كشار
وخاعة ذلك الاستعمار.

إن هناك قوة خفية تخضع لها جمهورية الأرض فإذا زاد عددها مثلا عن الطبيعي وهو خمس عدد سكان
القرية فإن تلك القوة المحجوبة التي لا يحفل قواعد الحساب على ما يظهر تتكفل حالابازاة العدد الزائد وإرجاع
النسبة إلى ما كانت عليه من قبل ولا تحتاج في ذلك إلى مذبحه كما يجري في ذكور النحل فإن مائة عامل
لا تقوى على جندي واحد من هذه الضواري التي لاتنال إلا من التسم الحلقى الضعيف، بل تفعل ما هو أبسط
وأهمل وذلك بامتناع العمال من إطعام الجنود قهلك هذه جوعا. أما الطريقة التي يتم بها تعداد الجنود
المحكوم عليها بالموت وفرزها ووضعها في مكان منفرد فلا تزال غامضة كالكثيرة من أمور هذه الأحياء،
العجيبة. وقبل أن نتم هذا الفصل عن جندي مملكة الظلام نذكر للقارى بعض حالات لها غريبة من
الاستعداد أو الميل للموسيقى، فهناك أصوات خاصة تكون تارة إنذارا وطورا استنجادا أو نحيبا أو غير ذلك
وكلها ذات إيقاع موزون تجيب عليه جماعة الأرض بزجل خاص (١) كما حمل بعض العلماء على القول بأنها
تتخاطب لبالقرون فقط نظير النمل بل بلغة نطق خاصة.

وبديه أن مثل هذا النظام الواسع الدقيق وما فيه من توازن في القوى وتضامن في الأعمال لا يمكن أن
يكون غير تفاهم بين أبنائه، وحسبنا دليلا على وجود هذا التفاهم انتشار المستعمرة الواحدة في جذوع كثيرة
قد تكون متباعدة بعضها عن بعض ولكنها ملتفة حول عرش واحد أي ليس لها إلا زوج ملكي فإذا زالت
في أحد الجذوع فرقة الاحتياطي التي يحفظها الأرض للتعويض من الملكة في حال الموت أو العجز تدبر سكان
الجذوع المجاور إلى إعداد فرقة جديدة بدلامنها. وسنعود إلى الكلام عن هذا الأبدال أو التغيير الذي هو من
أغرب وأبدع أشكال السياسة الأرضية.

وليست هذه الأصوات من غيبة واحتكاك أو صغير وإنذار وإيقاع يتم على إحساس موسيقى كل ما عند
الأرض. فإن لها أيضا حركات موزونة يشترك بها الجمهور ما خلا المولود الجديد كأنها صادرة عن جوقة رقص
وأقام مما وقف عنده العلماء موقف الدهش والعجز وهي نوع من الرقص الاختلاجي تثبت فيه القدم ويتهادى
الجسم متايلا من الورا إلى الأمام وعلى الجانبين. ويدوم هذا الاختلاج ساعات مع فترات من الراحة قصيرة.
وأكثر ما يكون قبيل طيران العرس كأنه حفلة صلاة أو تقديس تفتح الباب لأعظم ضحية تقوم بها الأمة.
ومن السهل مرأى هذه الحركات إذا خفضت أو أثرت فجأة أنابيب الزجاج التي تحبس فيها الأرض في
المتغيرات على أن ذلك شاق صعب لندورة بقائها طويلا في الأنابيب فانها تحرق الصمامة من فلين أو معدن
وتصل كأحسن الكميئين إلى خرط الزجاج.

الملك والملكة في حجرة مستطيلة الشكل ملساء الأرض منخفضة السقف منبعا الجوانب يعيش هذا الزوج
الحزين للنقول إليه حفظ النوع دون أن يستطيع من موضعه حراكا. أما الملك فهو ملك بالاسم لأنه زوج
الملكة، ضعيف حقير صغير جبان خجول لا ينفك محتبنا تحت بطن زوجته. وأما الملكة فهي من أعرب ما يرى
في هذا العالم الكثير الثرائب لأن لها بطنا ضخما هائلا متفخفا بما فيه من البيض يكاد يتغزر لفرط تمدده،

(١) الزجل : اختلاط الأصوات.

وقد يبلغ طولها به نحو ١٠٠ مليمتراً حالة كون العامل لا يتجاوز ٧ مليمتراً طولاً . وهي عاجزة عن الحركة لأنها لا تملك غير قوائم صغيرة في صدر غارق في الدهن ، ومتوسط ما تضعه من البيض هو واحدة في الثانية أي ٨٦ ألفاً في اليوم وثلاثين مليوناً في العام . ولا ينقطع وضعها ليل نهار مدة الأربع أو الخمس السنوات من حياتها كإدراك الاختبار والملاحظة .

(فصل) إذا ولي الحريف ودنا موعد المطر دقت ساعة الحرية فإذا بالقلعة الحصينة المحسكة السود المنفصلة عن العالم الخارجي كل الانفصال والتي لا منافذ لها إلا ما كان تحت الأرض أو ما هو لتجديد الهواء قد أصابها نوع من الجنون فافتحت في جوانبها فجأة نخاريب (١) لا تحصى ومن وراء هذه النخاريب وقفت الجنود تحمي برءوسها الدخول والخروج . هذه النخاريب تتصل بأسراب وأتفاق قد ازدحمت فيها المنجحات وهي تنتظر بفروغ صبر إفلاتها من الأسر . حتى إذا صدرت الإشارة الخفية وأمرت القوة الحاكمة المجهولة انسحبت الجنود من مواقعها فانكشفت الثغور وشق للعرائس طريق القضاء . وحينذاك يبدو للعين مشهد يفوق مشهد النحل روعة وجمالاً فإن البناية العظيمة نبكها كانت أو هرماً أو قلعة تصير كالمرجل العالي يكاد يتفجر . ومن شقوقها العديدة يرتفع ضباب كثيف مؤلف من ملايين الأجنحة الشفافة المضطربة في الهواء ساعة وراء الحب سعياً يساوره الريب وتصفعه الخيبة . منظر جميل غير أنه قصير العمر ككل ما هو حلم أو دخان فلا يلبث الضباب أن يهبط بأجمعه إلى الأرض جاعلاً لها غطاءً من تلك الأشلاء وهكذا ينتهي العيد وقد نكث الحب بعموده وحل الموت محله . ولا يكاد يسدل الستار على هذا المشهد حتى تعقبه مأساة أخرى أشد هولاً فإن الاستعدادات السابقة وإلهام السليقة الذي لا يخدع يدعون كل مشتاق إلى تلك المأدبة السنوية التي تقسمها عرائس الأرض فتحشد العصافير والحيات والمهررة والكلاب وسائر الحشرات ولا سيما النمل وتهاجم على هذه العرائس المهرومة من الدفاع والتي تغطي أحياناً ألوفاً من الأمتار وتبتدى الهزيمة الهائلة كل على قدر



جشعه وشهوته ، بل ربما أفرط بعضها في الأكل كالعصافير فخرجت من الوليمة وهي لا تستطيع إقبال منافرها والإنسان نفسه يشترك في اقتسام الغنيمة فيجتمع بالمخرفة ويأكله بعد التحميص أو يمجنه بالسكر فيصير كاللوز ويبيعه في السوق كما في جزيرة جافا . وبعد الطيران وخروج آخر مجنح من القرية تغفل هذه بأمر القوة المحجوبة للدبرة وتسد النخاريب في وجه الخارجين كأنما حكم عليهم بالنفي للؤيد انظر (شكل ٢٨) .

(شكل ٢٨) أرضة بالغة وقد بسط جناحها اللذان باليمين (تخريب الأرض)

إن قرى الأرض بانتشارها وتعددتها وشرعها القاسية البالغة منتهى النظام وبحوثها وتناقلها الهائل قد تكون

(١) جمع نخروب: وهو الشق في الحجر، أو الثقب في كل شيء .

خطرا عظيما على البشر وربما غطت وجه البسيطة لولا معاندة الأقدار لها وجعلها سريعة العطب شديدة التأثير من البرد ، فهي لا تحتل من الحرارة إلا ما كان تحت درجة ٣٦ سنتغرادو وفوق ٢٠ وهذا ما جعل بقية المناطق في مأمن منها . على أنها حيث أقامت كانت عاملا للهدم والتخريب وما أقلت الأرض في البلاد الحارة حشرة مثلها في حرب دائمة مع الإنسان فتأكل بيوته من أساساتها وتغني ما عنده من فراش وكساء وورق ومثونة وخشب ونعال ونبات ولا ينجو شيء من موجوداته من هذا التخريب الفظيع الذي يتم في الحفاء فعمده من خوارق الوجود . وإنك لتجد أشجارا كبيرة سليمة في الظاهر فلا تكاد تمد إليها يدك حتى تنهار لتأكلها من الباطن .

تلك هي عادة أعمال الأرضة في التخريب المنزلي وقد يتسع نطاقها فيشمل مدينة بأسرها . ففي عام ١٨٤٠ أسرت إحدى السفن المعدة لتجارة الرقيق فأدخلت إلى عاصمة سنت إلن (جامستون) نوعا من الأرض البرازيلي الصغير ذى الجنود المسلحة بالهاقن فهدم قسما من المدينة وفعل بها فعل الزلازل . وعام ١٨٧٩ نشب الأرض بسفينة حربية اسبانية في ميناء (فرول) فلم يبق ولم يذر . وزعم الجنرال لسكرك أن جزر الأنتيل الفرنسية لم تقو في سنة ١٨٠٩ على رد الانجليز لأن الحشرة الهدامة كانت قد خربت المنازل وتركزت المدافع والدخيرة في حالة لا تصلح للعمل . ويطول بنا الشرح لو أردنا أن نعدد الجرائم التي يرتكبها هذا العدو الشديد الحول على منفعه ، وقد سبق قتلنا إنه غلب الإنسان على أمره في بعض نواحي اوستراليا وجزيرة سيلان فأمسك عن الزراعة . وفي جزيرة فورموزا أرضة تحرط حتى الهاون وتلك الجنود إن إذا لم تمسك بالطين إمساكا شديدا .

وقال أيضا : لو أعطى للنحل أن يتصور الجحيم لما كان في نظره أشد هولاً من هذا لأنه يجوز لنا أن نتفقد أن النحلة لا تشعر بنفاسة حياتها ولا تعمد لذة الحبور عند ما تنوى من ندى ، الفجر وتعود نحلة من الزهر فتستقبل باكرام في قصرها العسل العاطر . أما الأرضة اللاصقة بالتراب تدب ديبيا في ظلمة خباياها القدر فمن أين لها الراحة أو السرور؟ وأية مكافأة تنتظرها أو استسامة تنسبها عملها الشاق؟ وهل عاشت هذه الأحقاب الطوال فقط لتبقى كما هي أو بالأحرى كي لا تموت فتسكأ بدون لذة وتحل بلا أمل صورة من أحقر صور الوجود وأشقاها . من يدري الأسرار الروحانية أو الحيوية أو الأثيرية أو الكهربية التي تختبئ في هذه القرى ولا نصل إلى حل طلاسمها ؟ والحق يقال إن الإنسان كلما تقدم في إدراكه أدرك أنه من أجهل المخلوقات وأضيقها علما .

إن اللبدي التي تدبرها هي أممي وأمتن نظاما من أحسن اجتهاع بشري ولا يمكن التلاعب بالألفاظ للقول بأن حركات الأرض ليست حرة وأنه لا يستطيع الخروج على نظامه الأعمى ، فإن العامل الذي يرفض العمل أو الجندي الذي يهرب من القتال يجازى بالطرد أو على الأظهر يقتل ويؤكل ، أفليس هذه الحرية نظير حريتنا ؟

ثم هل كان الذكاء البشري القالب الوحيد الذي تفرغ فيه قوى الوجود الروحية والعقلية ، وهل كانت أعظم وأعرب وأعمل وأدق هذه القوى لا تظهر فينا إلا بواسطة الذكاء الذي نعتبره نتاج الأرض والعلم . إن أم شيء في حياتنا أي سرها العميق هو غريب عن الذكاء معادله ، وما الذكاء إلا اسم نعطيه لإحدى القوى الروحانية التي لا نفقهها ، وفي المعنى :

إنما نحن في اختلاف عقول مثلما نحن في اختلاف وجوه

فرمما كان للذكاء كما للحياة صور متعددة ، وليس لنا ما يدل على أفضلية بعضها على بعض ، وما الإنسان

إلا قناعة عدم يريد أن يقبس بها العالم . وبعد هذا كله فإننا لاندرك كل ما اخترع الأرض لأنه يقطع النظر عما ذكرنا من عمرانه ونظامه في الاقتصاد والاجتماع وتوزيع العمل والتموين والكيمياء والصناعة وتوليد الماء وتحويل الصور والأشكال فان هناك أشياء لم يعط عنها اللثام . لقد تقدمنا الأرض في هذا الوجود بملايين من السنين فليس يعبئ أن يكون اعترضه في طريقه من العقبات ماسعترضنا يوماً فنتحتاج مثله إلى تذليله كذلك أن تكون تقلبات الجو والإقليم في الأعصار الحيولوجية أيام كان يقطن شمال أوروبا كما دلت آثاره المكتشفة في إنجلترا وألمانيا وسويسرا قد اضطرتته إلى المعيشة تحت الأرض فأفضى به ذلك إلى تساؤل بصره وكفه عند السواد الأعظم منه . من يدري إذا كانت هذه الرزايا لانتظرنا في المستقبل البعيد عند ما يجبرنا البرد على الالتجاء إلى السكوف والقيران في بطن الأرض أو إذا كنا نقوى عليها مثله . ثم إننا نجعل طريقة المعاملة عند هذه الحشرات ولا نعرف كم اقتضى لها من الوقت والتجربة قبل الوصول إلى هضم السليوز . أما نحوها العجيب الذي نستطيع به أن نخلق هذا الشكل أو ذاك فهو فضلا عن غموضه يعد خطوة واسعة في طريق الابتكار والابداع ، لم يتسن بعد للإنسان أن يخطوها . الأثرى أننا لانستطيع تحديد الجنس وتكوين الجنين كما نشأ بل نجعل حتى ساعة الولادة أكان ذكراً أو أنثى . فلو كان لنا علم الأرض لاستطعنا أن نوجد عند الحاجة والضرورة أبطالاً وعمالاً ومفكرين لا يكون من عندنا اليوم من أهل البطولة والعمل والتفكير بالقياس إليهم شيئاً مذكوراً . ما الذي يمنعنا من الوصول يوماً إلى تضخيم السماغ آلتنا الوحيدة للدفاع في هذا العالم كما وصل الأرض إلى تضخيم مشافر جنوده ومبيض مسكاته؟ وهل يتمثل للخاطر ما يستطاع عمله يومئذ فان رجلاً يبلغ من الذكاء أضعاف أضعاف ما بلغه (نيوتن) و (باسكال) مثلاً فهو يقطع من مسافة العلم في ساعات ما يحتاج نحن إلى عصور لاجتيازه . ولعله يصل إلى كشف الحجاب عن أسرار هذا الكون فنضم لماذا كل هذا الشقاء الذي يحيط بنا وهذه الآلام اللازمة لبلوغ الموت .

هذا الإنسان الجديد قد يصل إلى اكتشاف حياة أخرى ، تلك الحياة التي يجذبنا سراها منذ القدم وقد وعدت بها كل الأديان دون أن تؤيد بالبرهان وجودها ، ومهما يكن دماغنا اليوم ضئيلاً فإنا نشعر أحياناً أننا على صفة هاوية العلم بعيدة الغور وأن دفعة صغيرة قد تكفي لتلقينا في عياها ، ولعل هذا التضخم الدماغى يكون خشية الخلاص في الأعصار الجليدية التي تهدد البشر ، على أنه يحق لنا أن نفترض أن هذا الإنسان وجد في سالف الأدهار وأنه كان أوفر ذكاء من إنسان اليوم بما لا يقدر ، غير أننا نبحث عنه فلا نجد له أثراً .

لنعد إلى الأرض ، من يحسر على القول أن الخاصة التي تتكلم عنها لم تتلها إياها الطبيعة . فالطبيعة هي الهادى الوحيد لكل مخلوق قال (أرنست كيب) [كل مخترعاتنا وأدواتنا هي تقليد لعمل الطبيعة من غير أن نشعر ، فمخترعاتنا منقولة عن مضخة القلب ، وآلة التصوير هي غرفة العين المظلمة ، والتلغراف هو جهازنا العصبى ، والأشعة المجهولة رؤية الأجسام من خلال الحجب كقراءة الكتاب دون أن يفض عنه الغلاف ، واللاسلكى مناجاة الأرواح بواسطة موجات غير منظورة ، وفي تحريك الأجسام بدون أن تمس (وهذا غير محقق) دلالة على ما يمكن عمله من تغيير شرائع الجاذبية والتقل والاتصار عليها] .

ثم قال [يجوز لنا أن ننسب غريزة الحشرات ولاسما النمل والأرض والنحل إلى الروح للشركة الحاملة ، فقد قلت فيما مر إن هذه الشعوب هي كذات واحدة أو كائن حى مستقبل أعضاؤه مؤلفة من خلايا كثيرة متفرقة في الظاهر مجتمعة في الواقع حول الشعرة المركزية . وهذا الخلود المشترك هو السبب الذى من أجله يموت للثلاث والألوف من الأرض دون أن يؤثر في الذات أو الجسم الواحد المستقل لأن غيرها يقوم مقامها؛

كما أن اندثار ألوف الخلايا فينا لا يغير حالة ما نبرعته بكلمة «أنا» ولهذا تظل الأرض عائشة كما هي منذ القدم دون أن يضيع لها اختبار أو يفصل لها وجود ولا تنسفت تذكاراتها لأن هناك ذاكرة واحدة للجميع . وهذا ما يفسرك كيف أن ملكات النحل لا تنفك تبيض منذ ملايين من السنين ومن دون أن تزور زهرة أو تجمع لقاحا أو تمتص عسلا تستطيع أن تخرج عاملات تعرف ما جهلته أمهاتها كل هذه العصور، والدقيقة الأولى من طيرانها تفهم كل أسرار الطريق وجمع العسل وتربية العذارى وكيمياء القفير . تعرف ذلك لأن الجسم الذي هي إحدى خلاياه يعرف ذلك قراها منبعثة في الفضاء وهي متفرقة الشمل في الظاهر ولكنها مربوطة بالوحدة المركزية . فهي تكلابا جسمنا نعوم في سائل إلا أن هذا السائل أوسع مدى من سائل الجسم البشرى وأكثر ليونة وخفة وروحانية .

هل يمثل الأرض لنا نموذجا للنظام الاجتماعي الآتي ؟ من يدري ما يحته لنا الغيب مما لا يمر له خيال في في تصوراتنا ، قد يكفي أحيانا شيء لا يذكر ليقب نظام الأدب ومقدرات الشعوب . إن غاية ما نصبو إليه اليوم هو حياة جمال ورخاء وسلام وعين ، وقد آتى على الإنسان ساعات من الدهر قارب بها هذه الغاية في أئينا أو الهند أو بعض أدوار المسيحية . فمن يؤكد لنا اليوم إذا كانت الإنسانية تمتشى حقيقة في هذه الطريق لافي الطريق الما كسة لها .

إن ما لا يرب فيه أن السعادة الكاملة الثابتة لا نجد لها إلا في حياة روحية بحته فهل هذه الحياة ممكنة ؟ نظريا نعم ، أما عمليا فمن السحيل ذلك لأننا لانرى من حولنا إلا المادة وبسوى المادة لا نشعر . ودماغنا نفسه مادة فكيف نرجو أن نفهم به غير السادة ؟ كلا جرب الواحد منا أن يقلت من قيود هذه المادة أصابه الدواخ وهبط إلى الحضيض . إن المادة عدو الإنسان الوحيد ، وقد انفقت الأديان على ذلك سواء سمى هذا العدو شرا أم خطيئة ولهذا كانت حاة البشر محزنة على الأرض لأنه لا سبيل إلى الخلاص من المادة . وكيف الخلاص وكل ما في العالم هو منها والقوة نفسها والحياة إن ها إلا صورة من صور المادة وشكل من أشكالها ، بل الجسم الجامد الذي لا حراك به أو المادة الضخمة الميتة فيها حياة أكثر روحانية من أفكارنا . تلك الحياة الهائلة الخالدة ، حياة الكهارب التي لاتصب متحركة كالسيارات حول نواتها المركزية . كيفما أجلنا الفكر نرى شيئا وهذا الشيء هو غير العدم ، فاما أن يصير « أنا » عظيما إلى حد أن يندى معه ذلك الحيوان الصغير الذي كان يقال له الإنسان أو يبق حقيرا خاملا على مدى العصور وهي لعنة لا يوازها أكبر عذاب من حجيم المسيحيين . على كل حال يقول ابسكت الفيلسوف : لا يبنى أن نحاول تفسير طبيعة الأشياء فليس هذا بمستطاع ولا بمجد . ولكن على قبولنا بها لتعلم أن نطبق تصرفاتنا على نوااميسها عشرون قرنا مرت على الإنسان منذ رفت في أذنه هبته الكلمات ولم تصل به بعد إلى نتيجة ترضيه . انتهى (يقول المؤلف عمل الطبيعة يريد عمل خالق الطبيعة) ٥١ .

(خطاب للمسلمين)

أيها المسلمون : هذا اخترته من كتاب [مملكة الظلام] أو [حياة الأرض] الذي عربية الله كتود (نقولا فياض) نعم أنا أفقت في الكلام على (الأرض) ومعيشتها وسياستها ونظامها ، وإعما حركتي لذلك قوله تعالى « ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته » ياسبحان الله : مالنا وللأرض ، وما لنا ولنفسأه سلطان ، وما لنا ولأكل الأرض لها ، وما لنا ولكون سليمان لم يعلم اليهود موته إلا بعمل الأرض ، عجيب والله هذا القرآن ! عجيب والله أن تكون هذه الكلمات باعثة لى على تضب أحوال الأرض ، فإذا عرفنا منها ؟

عرفنا أن لله جنودا وجنودا. وتلك الجنود لها ملوك ولها سياسات ونظم اجتماعية بحجة ، وعرفنا أن في أمم أوروبا من يدرسون هذه الحشرات ليستخرجوا منها علما عسى أن يرتقى به الإنسان في مستقبل الزمان ، ولقد ظنوا أن هذه الحشرة الحقيرة قدرت أن تستخرج الماء من المواد التي حولها . يا الله : أنا أتوجه إليك وأسألك أن تبث في نفوس قراء هذا التفسير حبا للعمل وحبا للعلم والحكمة حتى يكون للمسلمين نظام مع الأمم حولهم به يعيشون في حبور وحياة منتظمة ، فأنت الولى الخبير .

أيها المسلمون : إن الناس تمنوا الطيران فطاروا ، وهام أولاء يتمنون عقولا أرقى من هذه العقول ويسعون لكسبها فسبروا مع الناس بل أنتم أولى فإن إشارات القرآن تبث المسلم على الفعل ، أولا ترون أيها المسلمون الصادقون كيف كان سليمان في هذه السورة هو سليمان في سورة النمل ، ويا عجبا يا الله وألف عجب ! اللهم إنك أنت العلم ، أنت اللهم ، أنت الحكيم ، كيف كان سليمان في [سورة النمل] يتبسم ضاحكا من النملة ، ونفس سليمان في هذه السورة تدل على موته دابة الأرض .

يا عجبا إكأن الله يقول لكم : أيها المسلمون إن بين النمل والأرضة علاقة فلتدرسوها ، ففلقها في القرآن قصة سليمان وعلاقتها في العلم اشتراكهما في المدنية والسياسة وأن بينهما عداوة فالدرس بالدرس .

الله أكبر : قصة سليمان في هذه السورة وفي سورة النمل يفهمها العامة والخاصة ، شارحة للصدور وهي باب لدراسة النمل ودراسة الأرضة ، فلئن عجب العامة والخاصة من قصة سليمان مع النمل وقصته مع الأرضة فوالله ليكون عجبهم أكثر وأكثر حين يدرسون العجائب التي أبدعها الله فيهما « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » انتهى المقام الأول في البحث الأول .

المقام الثاني في البحث الأول

(في قوله تعالى « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين »)
اعلم أن طائفة من الناس يفرعون عزائمهم ودعواتهم كفرية أو دينية أو غيرها بزعمهم أنها تقضى حاجاتهم بها وينادون أسماء شيطانية ويبتلون إليها ، وهذا في الحقيقة نوع من العبادة ، وما الفرق بينهما وبين الأصنام ؟ فالأصنام شعفاء وهؤلاء شعفاء فليحذر المسلمون من هذا ، إن الإيمان بالله يعلى المهيم ويرفع النفوس إلى المستوى الرفيع الشريف كما كان الصحابة رضوان الله عليهم . فقلوا المهمة هو الذي يرفع الإنسان عن العوائم كلها إلى بارئها فينال ما يريد إذا كان ذا عزمة صادقة . ثم إن الذين يحضرون الأرواح في هذا العصر يطلقون آمالا عليها في أمورهم الدنيوية أو في معرفة الغيب وهذا كله خروج عن القضايا الدينية ثم لا يفيد فاعله ويكون ذلك أشبه بالعبادة ويحجب الإنسان عن ربه . ومن ذلك ما تقدم في هذا التفسير من الأوقات التي كان يستعملها قدماء المصريين كالمثلث والمربع والخمس إلى المسح للكواكب السبعة . والمسلمون اليوم هكذا يستعملها بضمهم وهؤلاء يدري أنها كالشرك بالله تعالى . ولأورد لك أسئلة من كتاب الأرواح ألقاها العلماء على الأرواح في أوروبا لما استحضروها . وهالك بيانها :

(س) هل من أسئلة تكرهها الأرواح الناقصة ؟

(ج) لا تكره إلا الأسئلة التي تزيح النقاب عن جهلها وخبثها .

(س) ما قولك فيمن يتخذون الخابرة الروحانية بابا للهو والهزل أو لاستنباء أمورهم صوالهم الزمنية ؟

(ج) هؤلاء تسر بهم جدا الأرواح الناقصة لمداعبتهم وخبثهم .

(س) هل تستطيع الأرواح أن تكشف لنا أمر المستقبل ؟

(ج) كلا : إذ لو عرف الإنسان المستقبل لأهمل الحاضر .

(س) ما هي أخص دلائل النبوات الكاذبة ؟

(ج) هي التي لاتأتي بفائدة عامة أو يكون مرجعها النفع الخاص .

(س) لماذا تكون الأرواح الرصينة عند تنبئها عن أمر لاتعين زمن حدوثه ؟

(ج) يكون هذا إما عن عمد منها أو عدم معرفة، إن الروح يستشعر أحيانا وقوع أمر إنما زمن وقوعه

يكون في الغالب متعلقا بحوادث لم تتم بعد ولا يعلمها إلا الله ، أما الأرواح الطائشة فلا يهتد بها أمر الحقيقة وتحدد الأيام والساعات من دون التفات إلى صحة النبوءة وعدمها ، ومن الواجب هنا أن أكرر عليكم القول أن غاية رسالتنا إنارة بصيرتكم وترقيكم الروحي لا العرافة وفتح القفال ، فمن أحب هذا تألفه الأرواح للأكثرة وبصبح ألعوبة بين أيديها . انتهى المقصود من كتاب الأرواح . .

وهذا يكفيك من ذلك فإن الأسئلة توضح الآية هنا إيضا كافيا ، إن هذا من أعظم معجزات القرآن كيف لا ونحن نجد أن أوروبا التي لم تسمع أن في القرآن هذه القصة لعدم إيمانها به تكون نتيجة حديثها مع الأرواح أن الجن لاتعرف خبر الغيب ، ولامعنى للجن إلا النفوس الناقصة ، كما لامعنى للملائكة إلا الأرواح الكاملة وكل منهما درجات ، إن هذا معجزة وأي معجزة ، إن المسلم يمر على مثل هذا مرارا ويكتفي بالإيمان أما اليوم فإنه يرى اليقين في العلم ، فإن كذبت أيها الفطن الفرنجية فدونك العلم فاستعمل الطرق التي أوضحتها في كتابي [الأرواح] واجعل نصب عينيك الحقائق لا الأمور الدنيوية وهناك تعرف بنفسك لا بأوروبا لكن مع الصبر والجد ، وإن أردت إلا الزيادة فليكن بصحابة الأرواح ، وإن شككت فاستقل بالعلم . واعلم أن الله جعل هذا الزمن هو الزمان الذي فيه يظهر سر القرآن « وقل الحمد لله سبريكم آياته فتعرفونها » .

فالسلمون إن لم يدرسوا فليرحلوا من العالم ويأتى الله بأمر أخرى لهذا الدين أرقى من هذه الأمم النائمة فأما الكسل والتكذيب والاستهزاء فليس يجدى في زمن العرفان والعلم والحكمة والارتقاء . وبهذا تم الكلام على البحث الأول بمقاميه معا .

﴿ لطيفة في قوله تعالى « فلما خر تبينت الجن » الخ ﴾

(تذكرة في ليلة الخميس ١٣ يناير سنة ١٩٣٠)

في هذا اليوم حضر عندي رجل عظيم ذكى عالم وقال لي : ألم تطلع على « مجلة الدنيا للصورة » في هذا الأسبوع : فقلت ماذا فيها ؟ فقال إن فيها أمرا عجبا ، وقص على ما يأتي :

﴿ يد خفية تكتب من وراء المجهول ﴾

(يعمر البرلمان المصري عاما واحدا ، وتعد المعاهدة في خلال ستة أشهر)

بين للنجمين وقراء الطوالع اللذين هبطوا مصر رجل هندي له طريقة مدهشة في الإجابة عن المستقبل بخار العقل في تحليلها ، وهل هي سحر ساحر عليهم ، أم شعوة مشعوذ ماهر في خداع العقول والأبصار ، ونحن نسردها فيما يلي بعض أعمال هذا الرجل الخارقة للعادة كما شاهدناها مندوبنا وتركا للقارىء تحليلها .

في شقة بسيطة الرياض يقم رجل هندي لا يبتك مظهره عن خبره ، وكانت زيارتي لهذا الرجل حافلة بالمدحشات ، ولو أتى حاولت أن أدرك خفي أمره وأستطلع وسيلته التي يتوسل بها لتأدية أعماله فلم أوفق في حصولي مع يقينى بأن الأمر مهارة خارقة لاعلاقة لها بالأرواح . لآثرى في وقتها مظاهر التأثير والروعة التي تحضب عادة منازل للنجمين وعلماء الروحانيات بل هي ذات فرائض بسيط أشبه بمكتب وكيل أعمال أو محام مبتدى

ورأيت في صيف السن هادي النظرات حليق الوجه يتحدث في ابتسامه صغيرة وبسيطة . سألتني بالانجليزية :
أريد أن تعرف شيئاً عن مستقبلك ؟ أجبت : نعم . ودخلت حجرة مكتبه وليس فيها إلا مكتب واحد عليه
أوراق متناثرة وأقلام ودفاتر عادية وقد طليت جدران الحجرة باللون الأسود ، ولما رأيت أنظر لهذا الطلاب
الأسود القائم مستغرباً قال لي في هدوء : إنني أهين الحجرة لاستحضار الأرواح فإنها لا تظهر إلا
في الظلام وسألته : وفي أي ثوب تظهر الأرواح . فأجاب : تظهر متشكلة بشكلها الأرضي قراها كما عهدتها
على سطح الأرض في الجسم نفسه والملابس نفسها ، ثم طلب مني أن أكتب أربعة أسئلة على أربع ورقات
صغيرة عما أود معرفته من شئون المستقبل ، وتناولت ورقة صغيرة قطعها على أربع أقسام وبينما أنا أقطعها
بنأن وبطء استأذن مني لينيب دفتين وترك الحجرة وانصرف ، ومضيت أنظر حولي فلم أجد في الحجرة
ما يريب ، وتناولت قلبي فكشيت على كل ورقة سؤالاً ثم طويت الورق وأودعته يدي ، وعاد الرجل بعد قليل
وجلس إلى مكتبه وسألني : هل كتبت الأسئلة ؟ فأجبت : نعم . وجلس يسطر جداول ورموزاً والورق
في يدي اليسرى مطوى طيات عديدة وقد أطبقت كفي عليه ، ثم طلب مني أن أكتب فكشيت يدي اليمنى
على ورق أمامي وأغمض عيني ثم أملاني السؤال الأول فالثاني فالثالث فالرابع كلمة كلمة وما زالت الأوراق
مطوية في يدي ، وكان يمل على الكلمات وكان نظره للتمض يخترق كفي ويخترق الأوراق المطوية ويتلو ما فيها .
وكان بين الأسئلة سؤال كتبت فيه كلمة ومحوتها وكتبت كلمة محلها ، فلما أملاني هذا السؤال ذكر الكلمة
الأولى ثم طلب مني أن أمحوها بالقلم وأكتب بدلها الكلمة الثانية . كتبت الأسئلة وأنا أبتسم وأغالب دهشني
ثم ناولني القلم من يده وطلب مني أن أضعه فوق الورق في كفي فوضعتهم استعاده مني وقال لي ، افتح الورقات
فإن الأجوبة مكتوبة فيه . فتفتحت الورق فرأيت في أسفل كل سؤال الجواب عليه مكتوباً بالقلم الرصاص وكانت
الأوراق لم تخرج من كفي وهي مطوية فيه طياً محكماً . وكانت حقاً مفاجأة لطيفة مدهشة . وقلتها : لتحدث
كما يتحدث الأصدقاء . ما سر هذه القدرة العجيبة ، أجابني بهدوء : سرها بسيط فلاي متصل بالأرواح أسخرها
لخدمتي وأستطلع أبنائها ، فهي توحى إلي ما ينبغي أمره على الناس . ولكني لم أشاركه القول بأن هذا السر
أمر بسيط وإنما أعدت سؤالاً : ومن أين لك هذه القدرة ؟ وصمت طويلاً وكأنا أستعيد ذكريات قديمة
ثم قال : سأحدثك بما لم أحدث به أحداً . كنت وأنا في التاسعة عشرة من عمري طالباً في (لاهور) يلاذ
البنجاب في الهند وكنت أقيم وحدى في شقة استأجرتها فأقضي نهاري في الجامعة وليلي في منزلي أراجع
دروسي . وفي هذه الأيام تمارفت بفتاة هندية حسنة كانت طفلة صغيرة ولكنها جمعت كل معاني الأنوثة القاتنة
وأسرار الجمال الآخذ . همت بحبها وطمع غرامها على كل حواسي حتى أصبحت ولا تشغلي إلا فكرة واحدة
مستولية على كل مشاعري ومائلة كل رأسي وهي هذه الفتاة . ولكن الحجاب القاسي كان يحرمني من لقائها
ورؤيتها . وكانت تمر بي الأيام دون أن أراها فأذوب وجداً وتضطرب أفكارى وتختل مصابي . وفي
فات ليلة جلست في منزلي وحيداً وأنا أفكر فيها بكل قواي ، أفكر فيها وأرغب في رؤيتها وأحصر كل
أفكارى وحواسي في هذه الرغبة القوية . وخيل لي أن كل قوى العالم اجتمعت في ذهني ثم تركزت في هذه
الرغبة القوية وإذا ذلك خيل إلى أن قوة تفكيرى وشدة الرغبة الصادرة من روحي تخترق الحوائط والجدران
والحوائل وتصل إلى هذه الفتاة في خدرها وتستدعها وأنها نجى مليحة دعوتى الحارة وأنها تقرب من منزلي
وأنها تسير تحت نوافذي وأطلت من النافذة فرأيتها تسير في الطريق وهي تنظر إلى نوافذ حجرتي . وحدث ذلك
مراراً فكنت كلما فكرت فيها رأيتها أمامي . ولا ريب أن في تلك إحدى معجزات الترام والرغبة القوية . ولكني
لم أهنأ بحبيبتى فقد اختطفها الموت وهي في زهرة صباها وحزنت عليها حزناً شديداً فهجرت الجامعة والدروس
وأهملت نفسي ورحمت كالمجنون لا أريد من حياتي إلا أن أراها بعد موتها . وكنت أعلم أن بين جبال الهند

وغيابها يعيش جماعة الفقراء والدرأويش الذين يقال عنهم إنهم من طائفة قضت أيامها في التمسك والعبادة حتى أزيلت عنها الحجب واتصلت بعوالم الأرواح وتجردت من شوائب السادة الدنيوية فبلغت نفوسها درجة طائفة من القداسة . ودعاني شفقي بحبيبي البتة وجنوني ورغبتي في رؤيتها إلى الهيام في الغابات والجبال وإلى غشيان مجامع الدرأويش الفقراء في العراء أملا بأن أستطيع أن أرى روح حبيبي وأخذت عهدا على بعض شيوخهم وكان لا بد لي من قضاء مدة التجربة بينهم . ولا أزال أذكر تلك اللبالي الطويلة والمهن التي قاسيتها فيها حيث كنا نجلس حلقة كبيرة في وسط الغابة تحت ضوء النجوم نتلو آيات معينة من القرآن الكريم ونكرر تلاوتها آلافا وآلاف من المرات حتى تتجرد أرواحنا عن أجسامنا ونسبح في عالم كله هدوء وسكينة وكنت أرى بعض وحوش الغابة تنسلل نحونا، فهذا فهد ضار يقف عن بعد يحمق إلينا وكأن عينيه شعلتان تتقدان في ظلام الليل، وهذا أفعوان ضخم يزحف بين الحشائش ويبدو حولنا ، وكان الفرع يتولاني في أول الأمر ، ولكني أرى الدرأويش في ذكركم وتلاوتهم لا يشعرون بتلك الضواري ولا يقيمون لها وزنا فأجمع قواي وأشد على قلبي وأستمر في القراءة والتذكر . وفي صباح اليوم التالي أسأل أحد رفاقي عن هذه السكواسر فيجيبني إنها الأرواح مشككة في أشكال مخيفة تحاول قطع قراءتنا حتى لا نتسلط عليها وتسمى لايقاع الرعب في قلوبنا ولهمزمتنا قبل أن نهزمها ، وقضيت أربعين يوما على هذه الحالة وأنا لاأتناول طعاما ولا أرتدى ثيابا ولا أنطح وفقى إلا بالتلاوة والتذكر ، وفي ختام اليوم الأربعين شعرت بأني بلغت ما بلغ أساتذتي الدرأويش وأنتى أصبحت سيدا على الأرواح أنادى بها فتلى ندائي . وسألته : ومن كانت أول روح استحضرتها؟ قال بهدوء : روح حبيبي طبعاً وقد لبثت ندائي وحادثتها وحادثتني .

ومما يذكر عن نبوات رجل الأسرار واسمه الحقيقي (مبر عبد الحميد) أن أحد النواب الوفديين ذهب إليه ليسأله في أمور سياسية وكتب الأسئلة وطواها وكان بينها هذان السؤالان :

(١) - كم يعمر البرلمان ؟

(٢) - هل تعقد بين مصر وإنجلترا معاهدة في بحر ستة أشهر قادمة ؟

فكان الجواب على السؤال الأول « يعمر سنة واحدة » والجواب على السؤال الثاني « نعم » ولم يجد النائب في هذين الجوابين ما يشفي غليله فان حل البرلمان لا يمكن أن يحدث إذا أبرمت المعاهدة .

وسأل سؤالا ثانيا : إذا كان البرلمان سوف يعمر عاما واحدا فما هو نظام الحكم الذي يتلوه ؟ وكان الجواب « يكون الحكم في يد حزب الأغلبية ويبقى في يده طويلا » وكان هذا الجواب يدل على أن الحكومة الوفدية سوف تحل البرلمان بعد سنة واحدة ثم تعود الانتخابات فيخرج حزب الأغلبية وهو الوفد فأثرا ويتولى الحكم مدة طويلة ، والله أعلم اه .

فما قال صاحبي ذلك وقد قرأه في المهلة بنصه . قلت له : وهل لهذا علاقة بالتفسير . قال نعم : أذكرك بما تقدم في (سورة النور) ألم تذكر هناك الأسئلة التي وجهها الناس إلى الشيخ أحمد بن المبارك تنفيذ الشيخ الدباغ في أمر السحاب والطر والبرق والجبال التي في السماء ، ولما رأى الشيخ ابن المبارك أن علماء الإسلام قبله لم يعرفوا أغلب تلك العجائب هرع إلى الشيخ الدباغ فأجابه وشرح مسائل لم يظهرها إلا العلم الحديث فكان ذلك معجزة إذ ظهر أن في الجو جبلا من تلج ينزل منها برد وقد رسمتها أنت هناك ، وأنت قلت إن طبيعة دين الإسلام أن يسأل الناس علماء عن كل شيء لأن القرآن يذكر أمورا كثيرة ، فإذا قال الله لنا إن

الجن لا يعلمون الغيب لما بالنأ ترى رجلا هنديا في هذه القصة يخبرنا نحن المصريين بأن المعاهدة ستكون بعد ستة أشهر وأن البرلمان يغير البرلمان آخر بعد سنة، وكيف قدرت روحه أن تحضر محبوبته إلى منزله من وراء الجدران والحيطان . وكيف يخاطبها بعد الموت ؛ وإذا لم يكن تفسير القرآن هو الذى يوضح ذلك فمن أين نعرفه ، ثم هذا الفق الهندي يتمتع الآن بهذه اللزبة . فهل من الصلحة أن نسمى لنظيرها؟ لأن الناس جميعا عندهم استعداد لأمثال هذا وإن كانوا فيها مختلفين ، فقلت له إن قولك يتضمن ما يأتي :

(١) كيف قويت روح الهندي على أن ينظر الفتاة من وراء حجاب ؟

(٢) كيف قدر أن يحدث الأرواح ؟

(٣) كيف علم الغيب والله يقول إن الجن لا يعلمون الغيب وهو يقول إن الأرواح تعلم ذلك الغيب؟

(١) أما قوته على رؤية الفتاة من وراء حجاب فذلك يرجع إلى قوة في نفوس جميع الناس وهذه القوة لا تتجلى إلا نادرا جدا لأن قوانا في الأرض موزعة على أعمالنا ، ألا ترى أن أرواحنا موزعة قواها على الحواس الخمس الظاهرة والحواس الخمس الباطنة وعلى ما فيها من قوى شهوية وقوى غضبية وعواطف وعادات وأحوال لا حصر لها . وكل هذه مفرعات عن النفوس ، فإذا حصر المرء فكره في أمر ما نال منه على مقدار ما قسم له وهذا الفق حصر فكره في الفتاة وجميع السحرة في العالم من هذا الباب دخلوا ، فنفسهم حصروها في أمور خاصة بطريق خاص بهم نفقوه عن غيرهم وقد قللوا الشهوات فأثر على مقدار عزيمتهم ، وهذا الفق ما حصر فكره إلا الحب الذى استحوذ على جميع قواه ، فصار هذا الجسم وحواسه الظاهرة والباطنة كأنها مغلقة لا تعمل لها ، وهذا تقدم تقرره في مواطن من هذا التفسير .

(٢) وأما محادثته الأرواح فهو مفرع على ما قبله ، وقد تقدم تقرره في هذا التفسير كثير او هو مشروح شرحا تاما في كتابي [الأرواح] الذى ألفته لذلك . إن النفس متى انصرفت عن أحوال هذا العالم اطلعت على عوالم أخرى .

(٣) وأما جواب السؤال الثالث وهو المذكور سابقا وهو أن الأرواح لا تعلم الغيب سواء أكانت في أجسامها أم كانت مجردة منها بعد الموت ، وهذا الفق الهندي إما أن يكون إخباره بالغيب في أمر البرلمان من قوة نفسية فيه . وإما أن يكون بإخبار الأرواح . وكلاهما ينبغي البحث فيه .

نحن الآن لانعلم هل يصدق ذلك التنبؤ أم يكذب ؟ ولم نعلم الستة الأشهر ولم نعلم السنة حتى نعلم بصدقه أو كذبه . والذى ثبت في علم الأرواح أنها لا تقدر أن تعرف الأحوال المهمة في الأرض . وإذا أخبرت وقع الصدق والكذب فيها إلا إذا كانت أرواحا عالية تسخر بأمر لغرض شريف فهذه يباح لها ذلك الإخبار ، فأما الأرواح الصغيرة فإنها طائفة تخبر بما لاحظ له من الصدق استهزاء بالسائل لأنها تحب المزح والسخرية .

هذا ، ثم إن منزلة هذا الفق الهندي في النوع الإنساني وأمثاله من أولئك التنبئين ليست هي المنزلة السامية . نحن خلقنا هنا في الأرض ولنا أعضاء وقوى وعقول فلا بد أن نعطيها حقا من العمل وحوالنا عوالم أرضية وسماوية فلا بد أن نعطيها حقا من الدرس وحوالنا نوع الإنسان فلا بد من أن نكون ناعمين له بقدر طاقتنا ، أما تعطيل قوانا وانكالتنا على الأرواح فهذا نقص فينا كما هو مفسر في [كتاب الأرواح] وليس للإخبار بالغيب في عالمنا مزية شريفة إذا صدق ، ولذلك قل الصدق في الإخبار بالغيب لأن الإنسان إذا علم المستقبل أهمل الحاضر فنام وكسل ، وهذه هي سنة العوالم الأرضية . الأرواح الصغيرة تخبر صدقا وكذبا ، والأرواح العالية لا تخبر إلا بالأمر العاليه للنافع العامة وذلك قليل ونادر ، إن عالمنا يضر به العلم بالمستقبل فالجهل به هو السنة الصالحة في أرضنا ، وهذا الفق الهندي هو وأمثاله اليوم لا يفيدون الإنسانية أمورا عملية .

نعم ربما كانت حياتهم مذكرة للناس بعوالم الأرواح ، فهم من هذه الوجة قد أدوا خدمة وإن لم يقصدوها ، ولكن المعرفة والإخبار بالغيب أكثرها كذب لا يصح التعويل عليه ، ولو صح ذلك لكان وبالا على الناس إذ يعلمهم الكسل والانتكال على المستقبل ، ومن عجب أن يقول [إن الأرواح تظهر للنسك في أشكال خفيفة خشية التسلط عليها لهذه العبادات] وهذا دلالة على أنها أرواح من عوالم منعطة ليست راقية ، فإذا سخرت لهؤلاء النسك فهي أشبه بالاستعمار في الأرض . فالأمم التي عندها أسلحة تفزوا التي لأسلحة لها وهؤلاء ضعاف . إذن ظهورهم وإخافتهم لهؤلاء النسك وقت القراءة أشبه بمحاربة لإحباط أعمالهم ؛ فإذا تغلب النسك على تلك الأرواح استخدموها . إذن هذه الأرواح صغيرة ضعيفة يسخرها كل من قدر عليها وهذه هي الأرواح التي تكذب تارة وتصدق أخرى وإخبارها بالغيب مشكوك فيه لأنها محجوبة عن المستقبل ، إذ العلم بالمستقبل لا يعطى إلا لأرواح عالية إلى حد مخصوص ليساعدها فيما تزاوله من إصلاح العوالم الأرضية . هذا ما يعطيه علم الأرواح . فأما هذه الوهبة التي أعطيها الشاب الهندي فليست مزينة شريفة في الإنسانية .

وإذا قرأت ما تقدم في [سورة الحج] في (صحيفة ٤٧) وما بعدها من الجزء الحادى عشر واطلعت على كلام الشيخ الدباغ والشيخ الحوّايس والشيخ الشعراى وجدت هذا المقام موضعاً كل الإيضاح ، وأن أهل الصلاح الذين اطلعوا على الأمور الغائبة ليس لهم حظ في الآخرة لأنها شهوة نفسية ، وربما يموت الصالح مفلساً لأنه أخذ حظه في الدنيا . ولذلك ترى الشيخ الحوّايس يقول : [إياك أن تصل القنوح والاطلاع على الغيبات بل استعذ بالله من ذلك] وترى الشيخ الدباغ فسر لنا آيات وأحاديث بما لم يتفهّم غيره من العلم والحكمة العالية وهو نفسه يقول [إن الدين يبدن الله ويقصدون بالعبادة هذه الأمور يصبحون أحسن نوع الانسان] فاقراً هذا المقام هناك وفي سورة الكهف عند قوله تعالى « وما كنت متخذ المضلين عضداً » وفي موضع آخر قبله في نفس السورة . وإذا كان العباد والصالحون إذا قرءوا القرآن وعبدوا الله لهذه المقاصد مذمومين ، فما بالك بهذا التقى الذى قصد من التجرد أن يخاطب محبوبته . ثم إن القرآن لم ينزل لمثل هذا . كلّا ثم كلا . على أن حصر النفس وإحضار الأرواح لا يتوقف على القرآن ولا على كتاب سماوى بل حصر النفس يحصل بأمور كثيرة ومنها اتصاله بذلك الشيخ ومنها تلك العزائم التي تشتمل على ألفاظ لا يفهمها القارى وهو مشغول بقراءتها ، فليس المقصود من قراءة القرآن أمثال هذا بل هو نزل لتهديب النفوس وإصلاح الأمم لإخراجنا من الجسمية إلى حال الروحية مرة واحدة . هذا ما أعلم في هذا المقام « وفوق كل ذى علم عليهم » نقلت الحمد لله رب العالمين .

كتب نصف الليل يوم ٢٣ يناير سنة ١٩٣٠ م

فلما أتممت هذا المقال جاء إلى أحد الإخوان وقال انظر انظر إلى ما جاء في مجلة « الدنيا المسورة » بتاريخ يوم الأحد ١٣ إبريل سنة ١٩٣٠ م وقرأ ما نصه :

(قوة الإرادة تنتج أعمالاً خارقة)

(كيف يسلط للشعوذون قوى إرادتهم فيأتون بالفرائب والمدهشات)

ذلك أن في الانسان من القوى العنوية المجهولة ما لم يستطع العلم بعد الوقوف على سرها أو كشف حقائقها ، ففى الناس من سمعنا عنهم أن نافورة من المياه التدفقة تخرج من بين أصابعهم ساعات وأياماً بلا انقطاع ، إلى أن يبلغ حجمها أضعاف حجم الجسم الذى تخرج منه لو فرضنا أنه استحبال كله ماء . ومنهم من يضع نفسه

في صدوق عجم الفلق ويبقى فيه . سدود الأنف والنفاس عدة أيام وليال ، ثم يخرج منه كأن لم يكن في الأمر شيء ، ومنذ آلاف السنين عرفت قوة الادارة واستعملت ولكن في دوائر محدودة وبين أفراد قلائل حدا ، على النحو الذي يمارسه فقراء الهنود إذ ينامون على المسامير والحراش دون أن يشعروا بالألم ويعرفون جلودهم بالمدى والأسنة دون توجع أو آيئين .

﴿ عملية جراحية بدون مخدر ﴾

ويقول علماء هذا العصر : إن كل إنسان يملك هذه القوة التي ترى أنها حارقة ، وكل ما يعوزه هو تنميتها وتدريبها . فقد حدث أخيرا في أحد المستشفيات أن مريضا رفض أن يتعاطى مخدرا قبل إجراء عملية جراحية خطيرة ، وطالب إلى الطبيب أن يقوم بعمله رأسا ، بعد أن تمكن بقوة إرادته من أن ينام نوما لم يشعر في غضون بضع الجراح . وقد فحص الأطباء بعض ذوي قوة الإرادة فقررروا أنهم استطاعوا أن يزيدوا عدد النبض العادي أو يقللوه كما يريدون . بل تمكن بعضهم من أن يوقف دقات القلب زمانا ما .

﴿ طهرا بك في لندن ﴾

لقد كان الناس يعدون فقراء الهنود إلى عهد قريب دجاجة يغشون ويخدعون ويكذبون فيما يظهرهونه من الخوارق ، ولكن العلم الحديث يعترف بأنهم ليسوا كذلك ، إنعام قوم ذوو قوة إرادة نافذة وسيطرة عقلية على الجسم جميعه . ولعل القراء يذكرون ما عرضه « طهرا بك » في مصر من مدة قريبة . وقد عرض هذا الرجل كثيرا من أعماله الحارقة في لندن فلم ير الأطباء أن فيها شبهة الكذب والخدعة . ذلك أنه دعا أربعين طبيبيا إنجليزيا وأجلسهم معه على المسرح الذي كان يشتغل فيه ، ثم غرز سكيننا حادة في أجزاء من جسمه كان يسيل الدم منها وينحبس تبعاً لإرادته . ثم استلقى أمام الأطباء على لوحه من المسامير اللدبية ، وأوقف رجلا ضحكا على صدره دون أن يشعر بأى ألم ، ولما نزل الرجل جى ، بحجر كبير وضع مكانه ووقف رحلان يتناوبان ضرب هذا الحجر بفأس حتى تسكسر على صدر « طهرا بك » الذي قام بعد ذلك سليما معافى . وقد فحص الأطباء ظهره فوجدوا به آثار دخول المسامير فيه ، ولكنهم لم يروا أثرا لقطرة دم مفرقة . وقد ظهر في برلين في العام الماضي رجل قام بأعمال هذه الأفعال جميعا ، وزاد عليها أنه كان يظهر للحمهور صليبا داميا على أديم ظهره ، ثم يخفيه ويهود إلى إظهاره حسب إرادته . وقد قال هذا الرجل إنه رسم بموسى حلقة صليبا على ظهره بحيث لا يمكن أن تراه العين . حينما كان يريد إظهاره للناس يتسلط بقوة إرادته على الدورة الدموية فتدفع الدم إلى خطوط ذلك الصليب ، فيظهر للناس داميا رهيبا ، ثم يأمر الدورة الدموية بقوة إرادته فتمتص الدم من الصليب فتتمحى آثاره .

﴿ يشق نائم ﴾

وقد أمكن تحليل مكان عدم الشعور بالألم باستعمال قوة السيطرة العقلية على الجسم ، بما تراه في التنويم المغناطيسى حيث لا يشعر التنويم بأى ألم تحدثه به أو توجع لما يصاب به أثناء نومه . وأغرب من هذا ما حدث في مدينة شيكاغو ، إذ شق شاب اسمه هارفى شيرش وهو نائم ، فقد حوكم هذا الشاب من أجل حادثي قتل فظيعتين ثبتت إدائته فيهما وقضى عليه بالاعدام شقا . وقد غلب الحزن والفرح ذلك السفاح ، فعمد إلى السيطرة على نفسه ببطء إلى أن غدا لا يشعر بشيء مطلقا مما حوله ، ولبت نائما في سبات عميق عدة أيام قبل تنفيذ الحكم . وأخفقت كافة المحاولات لإيقاظه . وسجل يوم التنفيذ غائب الوعي إلى الشنقة حيث شق وهو في غيبوبة وعدم شعور تامين . وهذا مما يعجز صدق الأفعال التي يقوم بها فقراء الهنود وغيرهم ، إذ أن السيطرة على الجسم بقوة الإرادة ، وتركيز القوى

المنوبة الحفية ضد الشعور بالألم ، كل هذا يزعم اعتقادنا بأن هناك قوة غير طبيعية ، وخوارق شاذة ليس في مقدور البشر حل مبهمتها .

(نخونه إرادته)

وقد حصلت لجنة طبية في بومباي « الهند » فقيرا استطاع أن يوقف النبض في أحد ذراعيه دون الآخر ويمكن من أن يوقف دقات قلبه لمدة ستة ثوان حيناً أمر قلبه بذلك . وقد استطاع أيضا أن يوقف حركة النفس بضع دقائق وبقي بعد ذلك حيا . على أن قوة الإرادة التي تمهد لهؤلاء الناس التغلب على هذه الأشياء الخطيرة قد نخونهم في أخرج المواقف فلا يكون نصيبهم منها أقل من الموت ، كما حدث للفقير « بلا كان » . فقد مارس هذا الرجل لعبة المكوث مدفونا تحت الرمل في أحد المسارح دون تنفس بضع ساعات ، وأجرى هذه اللعبة عشرات ومئات المرات كان يقوم بعدها دون أن يصاب بشيء . ولكن حدث مرة وهي الأخيرة أن أخرجوه بعد المدة المقررة وقد قارق الحياة . فقد خانت الرجل قوة إرادته في أرهب موقف ، وأخطر ساعة .

(الموت والحياة بالإرادة)

ومن الممكن أن تتأثر الحياة والموت بالإرادة ، ويعزز هذا القول مارواه أخيرا للاجور سميت حكمدار بوليس مستعمرة الساحل الذهبي في أفريقيا ، ذلك أن أحد كبار الوطنيين التعلين ، تأثر من مشادة وشجار حدثا بينه وبين أحد مواطنيه فأعمل إرادته في نفسه ومات في اليوم التالي ، دون أن يكتشف الأطباء أي سبب لوفاته أو أي أثر لمرض فيه . انتهى .

فقلت له : إنك لن تفعل شيئا . ما هو إلا تكرار لما كتبناه هنا وهو ملخص ما كتبناه في نفس هذا الموضوع في [سورة الإسراء] وشرحنا نفس هذا الشرح في (طهرا بك) المذكور وفي الرجل الألماني . فقال : حقا أنت قلت نفس هذه المعاني . فقلت . فاحمد الله على العلم والحكمة . اللهم إنا نحمدك على الحكمة والعلم وإنارة أمم الإسلام في هذا الزمان .

(المبحث الثاني)

(من الفصل الثالث)

(في سبأ وسيل العرم ومجائب العلم والكشف الحديث)

قد ذكرت لك في أول السورة أن قوله تعالى « يعلم ما يبلغ في الأرض وما يخرج منها » واختصاص ذلك بهذه السورة إيدان بما حدث في هذا العصر من العلم والحكمة وظهور آثار عربية في البلاد السبئية فبعده نزلت في أرض سبأ وخيبت في أرضها وبعده سبحانه استخرجت من أرضها وأظهرت النقوش في أحجارها . سبحانه ربنا ، قد كنت كتبت الفصل الثاني من تفسير هذه السورة منذ سنين وهو موجز السورة ولم أكن إذ ذاك لأطلع على ما عرفه الأوروبيون عن بلاد سبأ فكان القول إجماليا والعلم استنتاجيا . ثم إن العوائق وقفت في طريق إتمام التفسير ونشره نحو عشر سنين فاطلمت في أنشائها على الكشف الحديث المصدق للقرآن العجيب البيان . فلما أن أذن الله بالتفسير الآن أخذت أكتب ما رأيته وألخص ما علمته .

علم الله بخزائن الأقدمين من أمنا العربية وطمرها في الأرض أجيالا وأجيالا فاعلمنا معاملة الأيتام مات عائلهم والجهال غاب سائهم وكثر اليتيم لا يسلم له إلا عند بلوغه . لقد مضى على المسلمين زمن كانوا فيه غير راشدين

جد الحلفاء الراشدين بأجيال فعميت عليهم آثار آبائهم وناموا في كهفهم لاثلاثة سنين وازدادوا تسعا بل سبعمائة سنين وازدادوا ثمانية عشر .

نام المسلمون واستيقظ الفرييون وأخذوا يحلون الرموز ويكشفون السكروز وقرءوا التوراة، قرءوا فيها آثار الجن فهاموا بالآثار والمسلمون قرءوها في سبأ فلم يلقوا لها بالا ، فهم كالغلامين في المدينة والسكز تحت الحائط ، فأمر الحضرة عليه السلام أن يظهر السكز وهو مال مخزون وعلم منقوش ، هكذا المسلمون اليوم يتامى وقد خزن في بقاعهم العلم والمال فلم يسلمه أفقهم، ولكنه اليوم أراد سبحانه أن يسلم إليهم الأمانة فأرسل أولا علماء الفرنجة فجلسوا خلال البلاد الجنية واطلعوا على الحزائن الخفية والنقوش الجيرية والكتابة للهارية فرجعوا بلادهم ناشرين ولصور أعمال أجدادنا مظهرين وها هو ذا سبحانه أراد ولاراد قضاء أن يظهر القرآن بالمظهر العلمي للعالم الإسلامي ويعلم أبناء المسلمين أن كتابنا الكريم يحضنا على بحث أعمال الأقدمين وأن من لم يشكر النعمة بتقبلها وحفظها يسلبها الله منه ، بل أقول فوق ذلك إن ذكر هذا القال في التفسير الآن من علامات إقبال الدهر على أمة الإسلام ، سيقرا هذا الثبان للمسلمون والشيوخ الشرقيون فتعدتهم نفوسهم أن يرجعوا مجددم ويحفظوا كنزهم ويدرسوا ما كن في أرضهم ، سيكون ذلك في مصر وفي سوريا وفي العراق وفي اليمن . وستتولى الحث على هذا علماء الدين ، كيف لا . ألم تسم السورة باسم سبأ . ألم يذكر الله قصتها هنا ، نعم فبعل الله وضعت السكروز ورسمت النقوش ، ويعلم الله أخرجت وستخرج وبالوحى على رسول الله أنزل القرآن وفيه هذا السر للصون ، ويعلم الله جاء أمثال هذا التفسير ، فليشر للمسلمون باقبال الأيام وظهور الحكمة والعلم في الإسلام ، فلا تشرع في التصود في هذا القال ولأجله ثلاثة مقاصد : (الأول) في الكاشفين لآثار سبأ (الثاني) في الكلام على مدينة مأرب (الثالث) في الكلام على سد العرم .

(المتصد الأول : في الكاشفين لآثار سبأ)

قد ذكرت لك في أول السورة أن أول من خطر له ذلك العالم الألماني (ميخائيلس) وهو عالم بالفلسفة واللاهوت ومات سنة ١٧٩١ م وكان يميل إلى نبذ التقليد ومحب أهل النظر وهو المقترح على ملك الدنبارك إرسال البعثة إلى اليمن سنة ١٧٥٦ ليحقق ما في التوراة من المسائل المتعلقة بجغرافية الشرق وعادات الشرقيين يا عجبا : انظر كيف أهتم الله الأمم أن تحفظ التوراة التي هي مجموع حوادث وقصص وكم فيها من خلط ، ولكن الله لا يبق شيئا إلا لحكمة . فانظر كيف كانت التوراة سببا في حب هذا العالم لكشف آثار اليمن . انظر كيف أحب القوم دينهم ولو دخل قصصه التحريف . ومن حب الدين واللطالعة أحب كشف بلاد آياتنا . فإذا يقول المسلم بعد هذا ؟ المسلم الذي يقرأ سورة سبأ والعربي السلم ربما كان من نسل سبأ . بل العرب في مصر والشام والعراق وشمك أفريقيا والحجاز يمتون بالنسب والجوار واللغة إلى سبأ إذ الجميع عرب فهذه الأمم كلها لم تفكر في آياتها ولا في بلادها ولا في آثار دينها . يحيى . (ميخائيلس) فيقول (لقرينديريك الخامس) ملك الدنبارك : [شكل لجنة وبحث عن آثار سبأ] فأجابه الملك وأرسل خمسة علماء رئيسهم عالم اسمه (كارستن نيوهر) لماذا ؟ لتحقيق ما في التوراة عن اليمن . فماذا تم لهذه اللجنة ؟ سافرت في سنة ١٧٦١ إلى الاستانة ومررت بمصر ووصلت اليمن سنة ١٧٦٢ م . فإذا حصل ! مانوا بالتدرج من المشاق والنطب إلا الرئيس فرجع وألف كتابا ونشر في أوروبا وقال إنه عثر على (مدينة ظفار) و (حدافة) وفيها نقوش يعهد اليهود والعرب حلها . ثم سافر (زتسن) الألماني إلى اليمن سنة ١٨١٠ فمثر في ظفار

على ثلاثة نقوش وفي (مخا) على خمسة وهو في كل ذلك معرض للموت من عرب اليمن . ثم سافر ضابط
انجليزي اسمه (ولستد) سنة ١٨٣٨ م فعث على نقوش حميرية في قلعة يقال لها (حصن غراب) ووجد هو
ومن معه نقوشا من نفس مدينة مأرب التي كان فيها السد المشهور . ثم ذهب العالم (ارنو) الفرنسي سنة
١٨٤٣ وعاد معه (٥٦) نقشا كما تقدم من صنعاء والحيرية ومأرب وحرمة بلقيس ، وكان (ارنو) هذا
صديليا لإمام صنعاء فأشار عليه أحد أصحابه أن يحتمل للوقوف على آثار مأرب التي يتحدث الناس عنها
في أوروبا والمسلمون لا يعلمون عنها شيئا مع أنهم في أرضها ، فاحتمل بحيلة : وذلك أنه أظهر الفقر والسكنة
للبدو واصطحب مع قافلة فقاسى في تلك الرحلة العذاب والشدائد من الخوف والتعب ، وذلك أنه مع غناه
وتروته الطائلة قد تواضع لهؤلاء ، وهم يحلمون أمره فكانوا يسكفونه ما لا يطبق من الأعمال والمشاق ، ولم
يتكواله فرصة ينسخ فيها النقوش أو يطبعها فكان يفعل ذلك سرا تحت خطر القتل حتى أصيب برمد فعاد
إلى صنعاء ، أعمى فأرسل ما كان نسخته إلى صديقه (فرستل) فحصل فرنسا بحمد الذي أشار عليه بذلك ، وقد
نشرت أخبار تلك الرحلة بالمجلة الآسيوية ، وفي بعض الأجزاء خريطة سد مأرب ، وهو أول من تمكن
من مشاهدة تلك الآثار وقد حل العلماء نقوش (ارنو) سنة ١٨٤٥ م .

ثم شكلت [جمعية الآثار السامية] واهم بذلك ناظر المعارف ياريس فأرسل للمستشرق (هالبي)
سنة ١٨٦٩ مهتديا بمن قبله فرجع معه (٦٨٠) نقشا وهو في ذلك خائف وجل من العرب ، وكان يتظاهر
وهو ينقل النقش بأنه راقد أو بأنه يصلي صلاة الإسلام . كل ذلك خوفا أن يقتله العرب . واطلع (هالبي)
على بلاد الجوف مع أن علماء الجغرافيا مجهلون أهل صنعاء لا يعرفونها مع قربها منهم . ثم اطلع على بلاد
(مسين) عاصمة دولة العيينيين ولم يأت ذكرها إلا في كتب اليونانيين .

ثم سافر العالم الألماني (ادوفارد غلازر) ونقل ألف نقش من مأرب وغيرها وفي بعضها تاريخ سد مأرب
وإصلاحه . ثم سافر إلى اليمن غير هؤلاء علماء فماتوا من فرنسا والنمسا . وبالجملة فإن في متاحف أوروبا الآن
عددا كبيرا من آثار اليمن منها ما هو منقوش على البرونز والألواح والأحجار تزيد على ألفين قد نشر منها
كثير في المجلات الألمانية والفرنسية والانجليزية .

هذه صورة ما كشفه الأوروبيون من آثار اليمن ذكرتها ليفطن المسلمون ويقوم فيهم النخوة والحمية
وليكونوا أمة عالية الشأن وليغاروا على مجدهم ودينهم . انتهى المقصد الأول .

(المقصد الثاني في الكلام على مدينة مأرب)

اعلم أن اليعقوبي في القرن الثالث الهجري ذكر محاليف اليمن التي كانت في عصره . وجاء الحمداني
في كتابه « وصف جزيرة العرب » فصل تلك المحاليف وقرأها وأوديتها وجبالها وهذا الكتاب أوثق مصادر
الكتب العربية وأوطاها ، ولعلك تريد فهم المحاليف فأقول لك :

إن الخلاف وجمعه محاليف أشبه بما يقال له (مديرية) بالقطر المصري كالكورة عند قدمائنا أو الرستاق
ومحكمة ملك صغير يسمى (قيل) جمعه أقيال . والخلاف يشتمل على محافد جمع محفد أشبه بالمركز في بلادنا
المصرية ، فكل مخلاف مقسم إلى تلك المحافد والمحفد الواحد عبارة عن قصور والقصر الواحد كالقلعة أو الحصن
ويعرف صاحب المحفد بلفظها (ذو) فيقال ذو محمدان وذو معين وهؤلاء الحكام يسمون الأذواء أو الذوين
كاللوردات في أوروبا ، وقد يتغلب رجل منهم فيسمى نفسه ملكا عليهم جميعا ويتوارث الملك بنوه والذي عرف
الآن ثلاثة الدول للمينة والسبئية والحيرية وهي الدول الكبرى . أما الدولة للمينة فلا شأن لنا فيها .

ها أنت ذا رأيت خريطة مدينة مأرب عاصمة سبأ التي ذكرها الله في القرآن ، ثم انظر في كتب التاريخ العربية هل تجد لدولة سبأ ذكراً ؟ هل هناك دولة اسمها سبأ . كلا . انظر كيف يقولون [إن عرب اليمن ينسبون إلى يعرب بن قحطان] ويعرفون بالعرب المتعربة لأنهم تعربوا أى اقتبسوا اللغة العربية من العرب العاربة وهي البائدة ، ويقولون : إن بنى قحطان لما نزلوا اليمن كان فيها بقية من العرب العاربة والملك والقحطانيون كانوا لا يعرفون الملك والترف ثم كثروا وزاحموا العرب العاربة فأبادوهم وأنشؤا الدولة القحطانية على أنقاض البائدة . ويقولون إن أول ملوكهم يعرب بن قحطان غلب على قوم عاد في اليمن والمخالفة في الحجاز وولى إخوته على جميع أعماله ، فولى جرهما على الحجاز وعاد بن قحطان على الشعر وحضرموت ابن قحطان على جبال الشعر وعمان بن قحطان على عمان (انظر ابن خلدون) وبعده ابنه يشجب بن يعرب ثم عبد شمس وهو سبأ لأنه كان كثير السبي ، وهو الذى بنى السد للشهور في أرض مأرب ، وخلف سبأ المذكور أولاداً منهم حمير وكهلان ، ولما مات سبأ خلفه ابنه حمير مؤسس دولة حمير ودولة حمير [طبقتان] السلوك والتبابعة ، وملوك حمير آخرهم (الحارث الرائس) وهو أول التبابعة ، ويقول بعضهم إن بين حمير والحارث الرائس (١٥٠) أباً ، وفي القصيدة الحميرية عددهم جميعاً (١٦) فقط وجعلها أبو القداء (١١) وابن خلدون (٨) والمسدودى (٥) .

وأما التبابعة عند مؤرخى العرب قدمائنا فأولهم الحارث الرائس وآخرهم (ذوجدن) وعددهم (٢٦) تبعاً حكوا (١٧٠٠) سنة .

وهناك خلط وخبط في هذه السنين والأعداد كما قاله نفس المؤرخين . ولعلك تقول مالنا ولهذا التحقيق والتدقيق وما لتفسير القرآن وأمثال هذه الجدائل . أقول على رسلك : فسرك في أسماء الدول ، رأيت هناك دولة تسمى (دولة سبأ) . كلا . وإنما هي دولة حمير التى أبوه سبأ ودولة حمير بعد قرون انقلبت إلى التبابعة ، قائمة كلها تقرب من أربعة آلاف سنة ما بين حميريين وتبابعة ، والتبع هو الملك الذى تبعه ملوك كالأمر بطور الآن ، وليس هناك في تاريخ أسلافنا دولة سبأ التبعة ، انظر كيف ذكر القرآن (سبأ) ولم يذكر حمير ؟ خالف القرآن قول المؤرخين ، خالفهم كل المخالفة وجاءنا بدولة (سبأ) إظهاراً للحقيقة ، ولقد ظهرت الآن وتبين أن دولة سبأ هي التى أغارت على أمة يقال لها (معين) لم تذكر في التاريخ وهذه الدولة سمحت طويلاً كما رأيت وانتقلت العاصمة من مأرب إلى ريدان وهى ظفار بتغلب الحميريين على الملك . من هنا تبين لك أن القرآن يوافق الكشف الحديث ، وقد كان ذلك مجهولاً (١٣) فرنا وظهر الآن فهو من المعجزات للقرآن . انتهى المقصد الثانى .

المقصد الثالث في الكلام على سد العرم

قد عرفت مدينة مأرب وأنها كانت عاصمة دولة عظيمة وهى دولة سبأ ، ورى في الجنوب العربى من مأرب سلسلة جبال متشعبة من جبل السراة عند مئات الأميال نحو الشرق الشمالى ، وبين هذه الجبال متسع عظيم يتجه إلى واد كبير يقال له (الميزاب الشرقى) فإذا أمطرت السماء على تلك الأقطار انتهت أخيراً إلى وادى (أدنه) وهو يعلو (١٢١٠٠) متراً عن سطح البحر فتسير فيه المياه إلى مكان قبيل مأرب بثلاث ساعات وهو مضيق بين جبلين يقال لكل منهما بلق : أحدهما الأيمن والآخر الأيسر كما عبر القرآن ، وأخذها عنه المرحوم (جورجى ريدان) والمسافة (٦٠٠) خطوة بينهما ، والسيل يجرى بينها من الغرب الجنوبى إلى الشرق الشمالى في واد هو (وادى أدنه) .

ولما كان هذا الماء يجرى من الجنوب إلى الشمال بلا فائدة فكر السبيون في ذلك فنوا (سد العرم) في اللصيق بين جبلي (بلق) وبين اللصيق والمدينة (٣٠٠) ميل مربع فأصبحت جنات بسبب هذا السد ، وهذا السد طوله من الشرق إلى الغرب ثمانمائة ذراع وعلوه بضعة عشر ذراعاً وعرضه (١٥٠) ذراعاً .

وثلاثة العرى وهو الأيمن لا يزال باقياً للآن معجزة للقرآن (انظره في الخريطة) والثلاثان الباقيان فاض الماء منهما وعجزوا عن ترميمهما . وترى النقط في الخريطة لحدبهما . وما مثل العرم إلا كمثل الخزانات التي تصنع اليوم في مكوار على النيل الأزرق وجبل الأولياء على النيل الأبيض وخزان (أسوان) فيعلو الماء فيسقى الأرض . وإذا ترك ذهب إلى البحر الأبيض المتوسط كما يجرى الماء بين الجبلين هناك وينهب في الشمال وارمال بلا فائدة .

هذا ، وقد عثر الباحثون على نقشين : أحدهما على الصدف الأيمن . وهو [أن يشمر بين بن سمهلي بنوف مكرب سبأ خرق جبل بلق وبني مصره رحب لتسهيل الري] والنقش الثاني على الصدف وهو [إن سمهلي بنوف بن ذمر على مكرب سبأ اخترق بلق وبني رحب لتسهيل الري] فأحدهما ابن الآخر وكانا في القرن الثامن قبل الميلاد وهكذا يتوالى ملوك سبأ ثم بناؤه . ولما أعياهم حفظ السد تفرقوا في البلاد كما ذكره القرآن .

قال الأصفهاني [إن السد تهدم قبل الاسلام بأربعمائة سنة] وقال ياقوت [إنه هدم في نحو القرن السادس للميلاد] أي قبيل الاسلام ، ويؤخذ من كلام ابن خلدون أنه تهدم في القرن الخامس للميلاد ولاطائل في هذا النقل إلا معرفة ما قاله المؤرخون .

(الهمداني وسد مأرب)

إن وصف الهمداني لسد مأرب مطابق للكشف الحديث وربما كان يقرأ السند . قد ذكر الآية « لقد كان لسبأ » إلى قوله « ورب غفور » . قال : إن سبأ كثيرة العجائب والجنات عن يمين السد ويساره وهما اليوم غامرتان أي لا زرع فيها . وإنما غفنا لما اندحق السد فارتفع عن أيدي السيول . وذكر أنه وجد جذع نخلة أسود قتال من معه له إنه بقي من مزارع الجنتين . فأما هو فقال لا أظن ذلك . قال ورأيت مقاسم الماء من مداخل السد فيما بين الضياع قائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالأمس . ورأيت بناء أحد الصدفين وهو الذي يخرج منه الماء قائماً بحاله على أوتق ما يكون ولا يتغير إلا إن شاء الله . قال وقد بقي من العرم شيء مما يلي الجنة اليسرى يكون عرض أسفله (١٥) ذراعاً .

وقال تبارك وتعالى « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حنط وأنثى وشيء من سدر قليل » قيل الحنط الأراك ، والأثل الطرفاء ، والسدر المعروف وهو العلب وهما من الأراك ماليس بيلد . ومن الحمام اللطوق في الأراك ما يحل عن الصفة . وكان السيل يجمع من أماكن كثيرة ومواقع حجة باليمن [من عروش وجوانب ردمان وشرعة وذمار وجهران وكومان واسيل وكثير من مخاليف خولان] والوادي اسمه (أذنة) وفي هذا السد يقول الأعشى :

كني ذلك للمؤتى أسوة ومأرب قفى عليها العرم
رخام بنسائه حمير إذا جاء مأؤم لم يرم
فأروى الحروث وأعتابهم على ساعة مأؤم ينقسم

فصاحوا بذلك في غبطة فجار بهم جارف منهزم

فطار القيول وقيلها بهما فيها سراب يطم

وكان العرم مسندا إلى حائط ما بين عضاد بالمذخر بمعاذيب من الصخر عظام ملحة ملى الأساس بالقطر .
انتهى كلام الهمداني .

وظل الناس مع ذلك في شك من أمر هذا السد حتى تمكن للمستشرق الفرنسي أرنو من الوصول إلى مأرب سنة ١٨٤٣ وشاهد آثاره ورسم له خريطة نشرت في المجلة الآسيوية الفرنسية سنة ١٨٧٤ وزار مأرب بعده هاليني وغلانز ووافقاه في قوله وصادق على وصفه وهو يطابق ما قاله الهمداني من أكثر الوجوه ، وعثروا في أثناء ذلك على نقوش كنيانية في خرائب السد وغيره تحققوا بها خبره وأكثروا اشتغالا في هذا السيل غلانز ، وبين الأساطير التي وقف عليها اثنتان جاء فيهما خبر ترميم السد في زمن الأحباش بالقرن السادس للميلاد فبدل ذلك على أنه ظل قائما إلى قرب ظهور الإسلام . ولعل السبب في نسبة بنائه وتهدمه إلى عصور مختلفة وأشخاص مختلفين كثرة تصدعه وترميمه فكانوا يعدون كل تصدع تهدما وكل ترميم بناء . وبعد ما قدمناه من أقوال المؤرخين والتقاين بشأنه يحسن بنا الاتيان على أصل وضعه وما هو عليه الآن ويوضح ذلك (شكل ٣٠ و شكل ٣١) الآتيان في صحيفة ١٨١ .

﴿ أصل وضع سد مأرب ﴾

في الجنوب الغربي من مأرب سلسلة جبال هي شعاب من جبل السراة الشهير تمتد مئات من الأميال نحو الشرق الشمالي . وبين هذه الجبال أودية تصب في واد كبير يعبر عنه العرب بالميزاب الشرقي وهو أعظم أودية الشرق تميزا له عن ميزاب مور أعظم أودية الغرب المتشعبة من جبل السراة المذكور . وشعاب الميزاب الشرقي كثيرة تتجه في مصابها ومنحدراتها نحو الشرق الشمالي . وأشهر جبالها ومواضعها في ناحية رداغ العرش وردمان وقرن والجبال المشرفة على سويق وفي ناحية ذمار بلد عنس جميعا وهو مختلف واسع وبه بينون وهكر وفيها المحافد العنسية وبلد كومان وبلد الحدا وجبل أسيل ورجمة وجبال بني وابش من مراد وغيرها ومختلف ذى جرة وجهران وهراو ومساقط بلد خولان من جنوبية وما تيامن من القحف^(١)

فشعاب هذه المواضع وأوديتها إذا أمطرت السماء تجمعت فيها السيول وانحدرت حتى تنتهي أخيرا إلى وادي أذنة وهو يعلو نحو (١٠٠٠) متر عن سطح البحر ففسر فيه المياه نحو الشرق الشمالي حتى تنتهي إلى مكان قبل مأرب بثلاث ساعات هو مضيق بين جبلين يقال لكل منهما بلق عبرنا عن أحدهما بالأيمن وعن الآخر بالأيسر والمسافة بينهما ستائة خطوة (أو ذراع) ويسمى بهما الهمداني مأزى مأرب يمرى السيل الأكبر بينهما من الغرب الجنوبي إلى الشرق الشمالي في واد هو وادي أذنة .

واليمن مثل سائر بلاد العرب ليس فيها أنهر وإنما يستقى أهلها من السيول التي تجتمع من مياه المطر . فإذا أمطرت السماء فاضت السيول وزادت مياهها عن حاجة الناس فيذهب معظمها ضياعا في الرمال . فإذا انقضى فصل المطر ظمى القوم وجفت أغراسهم فكانوا إما في غريق أو في حريق فلما ينتفعون حتى في أيام السيل من استتار البقاع العالية على منحدرات الجبال . وقد فيض السيل حتى يسطوي المدن والقرى فينالهم من أذاه أكثر مما ينالون من نفعه . فساقتم الحاجة إلى استنباط الحيلة في احتزان الماء ورفعها إلى سفوح الجبال

وتوزيمه على قدر الحاجة . فاختار السبتيون الضيق بين جبل بلق وبنوا في عرضه سورا عظيما عرف بسد مأرب أو سد العرم الذي نحن في صده لرى مايجاور مدينتهم (مأرب) من السهول أو سفوح الجبال .

والجبلان المذكوران بعد أن يتقاربا عند بلق ينفرجان ويتسع الوادى بينهما . وعلى ثلاث ساعات منهما نحو الشمال الشرقى مدينة (مأرب أو سبأ) في الجانب الغربى أو الأيسر من وادى أذنة . فاذا جرى السيل حاذى بابها الشرقى (راجع الخريطة شكل ٣١) وبين الضيق والمدينة متسع من الأرض تبلغ مساحة مايحيط به من سفوح الجبال نحو ٣٠٠ ميل مربع (١) كانت جرداء قاحلة فأصبحت بعد تدير المياه بالسد غياضا وبساتين على سفحى الجبلين وهى للمرع عنها بالجنتين بالشمال واليمين أو بالجنة اليمنى والجنة اليسرى .

﴿ رسمه وكيف ينصرف الماء منه ﴾

والسد المشار إليه عبارة عن حائط ضخم أقاموه في عرض الوادى على نحو ١٥٠ ذراعا (أو خطوة) نحو الشمال الشرقى من الضيق وسموه [العرم] وهو سد أصم طوله من الشرق إلى الغرب نحو ثمانمائة ذراع وعلوه بضة عشر ذراعا وعرضه ١٥٠ ذراعا . لا يزال نحو ثلثه الغربى أو الأيمن باقيا إلى الآن كما ترى في الخريطة شكل ٣١ (ج د هـ) وأما الثلثان الباقيان فهما اللذان تفجرا وفاض الماء منهما وعجزت الدولة عن رميمهما ونجرت السيول أفضاضهما . وقد نطقنا حديثنا بالحارطة ليظهر امتداد السد على طوله كما كان في أصله بعرض الوادى ويظهر مما شاهدوه في جزئه الباقى أنه مبنى بالتراب والحجارة ينتهى أعلاه بسطحين مائلين على زاوية متفرجة تكسوها طبقة من الحصى كالرصف يمنع انجراف التراب عند تدفق المياه ولو قطعت ذلك الحائط أو النور قطعنا عرضيا لكان شكل مقطوعه على هذه الصورة .



فالعرم يقف في طريق السيل كالجبل المستعرض ويصده عن الجرى فتجتمع مياهه وترتفع مثل ارتفاعها في خزان أسوان بأعلى النيل . وينتهى العرم في طرفيه بمصارف للماء يختلف شكلها وأساؤها عن مصارف خزان أسوان . وذلك أن الذين هندسوه جعلوا طرفيه عند الجبلين أبنية من حجارة ضخمة متينة فيها منافذ ينصرف منها الماء إلى إحدى الجنتين اليمنى أو اليسرى .

فأنشأوا عند قاعدة الجبل الأيمن (الشرقى الجنوبي) وهو جبل بلق الأيمن بناء من بشكل المخروط المقطوع (١ و ٢) علوه كل منهما بشفة عشر ذراعا سموها الصدفين أحدهما (١) قائم على الجبل نفسه والآخر (٢) إلى يساره وبينهما فرجة عرضها خمس أقدام . وقاعدة الأيمن منها تعلو قاعدة الأيسر ثلاث أقدام (انظر رسمهما في طرف الخريطة إلى اليسار) والأيسر مبنى من حجارة منحوتة يمتد منه نحو الشمال والشرق جدار طوله ٤٠ ذراعا ينتهى في العرم نفسه ويندغم فيه ، وعلو الجدار المذكور مثل علو الصدف ومثل علو العرم .

(٢) هذا من كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام ناقلا عما رمز له بحروف (أم) صفحة ١٢٧ :

وفي جانب كل من الصدفين المذكورين عند وجهيهما للتقابلين ميزاب يقابل ميزابا في الصدف الآخر .
والميزابان مدرجان أى في قاع كل منهما درجات من حجارة كالسلم الدرجة فوق الأخرى . ونظرا لشكل
الصدفين المخروطى ولما يقتضيه شكل الميزاب السلس أصبحت المسافة بينهما عند القاعدة أقصر منها عند القمة
وقد مثلنا الميزاب في الحارطة بشكل (ع غ) كأنك تنظر اليه بجانب الصدف .

ويظهر من وضع المخروطين أو الصدفين على هذه الصورة أن أصحاب ذلك السد كانوا يستخدمون المسافة
بينهما مصرفا يسيل منه إلى سفح جبل بلق الأيمن فيسقى الجنة اليمنى . وإنهم كانوا يقفلون للمصرف بموارض
ضخمة من الخشب أو الحديد تنزل في الميزابين عرضا كل عارضة في درجة فتكون العارضة السفلى أقصرها جميعا
فوقها عارضة أطول منها فأطول إلى العليا وهي أطولها جميعا . والظاهر أن تلك الموارض كانت مصنوعة على
شكل تراكب فيه أو تتداخل حتى يتألف منها باب متين يسد للمصرف سدا محكما يمنع الماء من الانصراف إلا
عند الحاجة . فاذا بلغ الماء في علوه إلى قمة الصدفين رفعوا العارضة العليا فيجرى الماء على ذلك العلو إلى سفح
الجبل في أقبية معدة لذلك ونهر أو أحواض لحزن الماء أو توزيعها في سفح ذلك الجبل ، فلا يزال الماء ينصرف
حتى يهبط سطحه إلى مساواة العارضة الثانية فيقف حتى أرادوا ربا آخر نزعوا عارضة أخرى . وهكذا
بالترتيب وعلى قدر الحاجة .

وفي الطرف الأيسر من العرم وهو الغربي الذى ينتهى بالجنة اليسرى بناء كالحائط (س ط م) دعواته
السد الأيسر عرضه عند قاعدته ١٥ ذراعا وطوله نحو ٢٠٠ ذراع وبجانبه من اليمين مخروطان أو صدقان
أيمينان (٣ و ٤) أحدهما (٣) متصل بالعرم نفسه والآخر (٤) بينه وبين السد الأيسر فيتكون من ذلك مصرفان
(٦ و ٧) مثل للمصرف الأيمن لسكل منهما ميزابان مدرجان متقابلان تنزل فيهما الموارض وتنزع حسب الحاجة
لصرف الماء إلى الجنة اليسرى . وينتهى العرم من حده الغربي بمخاطب منجلى الشكل (د ف) مبنى بحجارة
منحوتة صلبة لعله الذى يسميه الهمداني (العضاد) .

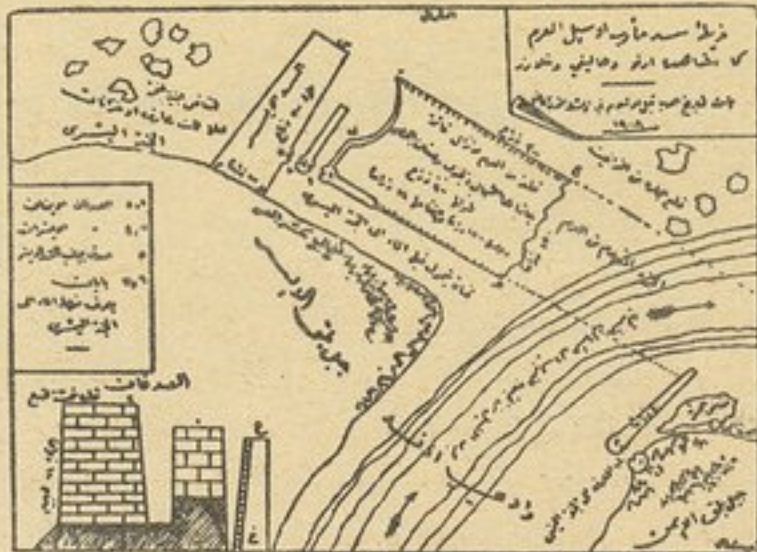
فكان السيل إذا جرى في وادى أذنة حتى يتجاوز المضيق بين جبلى بلق صده العرم عن الجرى فيتعالى
ويتحول جانب منه نحو اليسار إلى السد الأيسر . فاذا أرادوا رى الجنة اليمنى رفعوا من الموارض بين
الصدفين الأيمنين على قدر الحاجة ، وإذا أرادوا رى الجنة اليسرى صرفوا الماء من المصرفين (٧ و ٨)
بنفس الطريقة فيجرى الماء في أقبية وأحواض في سفح الجبل الأيسر حتى يأتي مأرب لأنها واقعة إلى
اليسار كما تقدم .

وسترى في (صحيفة ١٨١) وهي الصفحة التالية رسم (خريطة بلاد العرب) في أيام دول اليمن من القرن
الرابع عشر قبل الميلاد إلى السادس بعده ، وسترى أيضا في الصحيفة المذكورة رسم خريطة سد مأرب أو سيل
العرم (انظر شكل ٣٠) و (شكل ٣١) .



(شكل ٣٠)

(رسم خريطة بلاد العرب في أيام دول اليمن من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى السادس بعده)



(شكل ٣١)

ها أنت إذا أيها الذي اطلعت على سد مأرب وهو سد العرم وعرفت مدينة مأرب وعرفت أن دولة سبأ لم تكن معروفة في تاريخ أسلافنا، فانظر كيف جاء الكشف الحديث كما في القرآن، وانظر في كتب التفسير التي وصلت إلينا كالتاريخي والرازي والبيضاوي وأمثالها التي ألفها الفحول من العلماء، كيف مروا عليها رحمهم الله ولم يذكروا غير تفسير يرجع أكثره إلى لفظ القرآن.

أفلا ترى أننا جئنا في عصر نسميه بحق عصر القرآن، هذا العصر الذي يظهر فيه بأجلى بيان هذا السد كما رأيت. فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. وانظر كيف يقول علماء التاريخ إن اليونان لم يعرفوا اسم حمير قبل السنة العشرين قبل الميلاد ولم يكونوا يعرفون إلا سبأ لشهرتهم. وانظر كيف كان أسلافنا لا يعرفون إلا الحميريين والتباجة وجاء القرآن بما هو حق في التاريخ.

عجائب القرآن في العصر المشركين

يقص الله علينا قصص طوفان نوح. ويقص علينا قصص سد العرم. ويقول إن سبأ أعرضوا وتارة يقول كفروا. فبماذا جازاهم؟ جازاهم بحراب الديار. لماذا هذا الجزاء؟ لتفريطهم في السد. سبحانك اللهم أنت الرب الحمود، فإذا هذا في دين الإسلام؟ هذا هو السبأ فرض الكفاية وما هو فرض الكفاية؟ هو أن يقوم في الأمة أناس لكل عمل من أعمال الحياة فيحسنونه وإلا عوقب الجميع. ويقول إمام الحرمين [فرض الكفاية أفضل من فرض العين] وأي منفعة للأمم أكثر من الماء والأنهار. فانظر ماذا كتبت بعض عجالات مصر لما نظمت التيل سنة طبع هذه السورة؟ إذ ذكرت أن نهر النيل كاد يهلك الأمة فاجتهدوا لدره خطره. أليس هذا هو الذي أئذره نوح قومه. وهذا هو الذي أهلك سبأ، إذن القرآن يجعل أعمال الدولة تارة كفرا وتارة إعراسا ومجازى بالهلاك. والمراد بالكفر كفر النعمة وجزاؤه في الدنيا الهلاك وفي الآخرة العذاب. إذن في القرآن أسرار تظهر اليوم بالعلم، فانظر المقال التالي وهالك نصه:

عبرة لمصر والمصريين

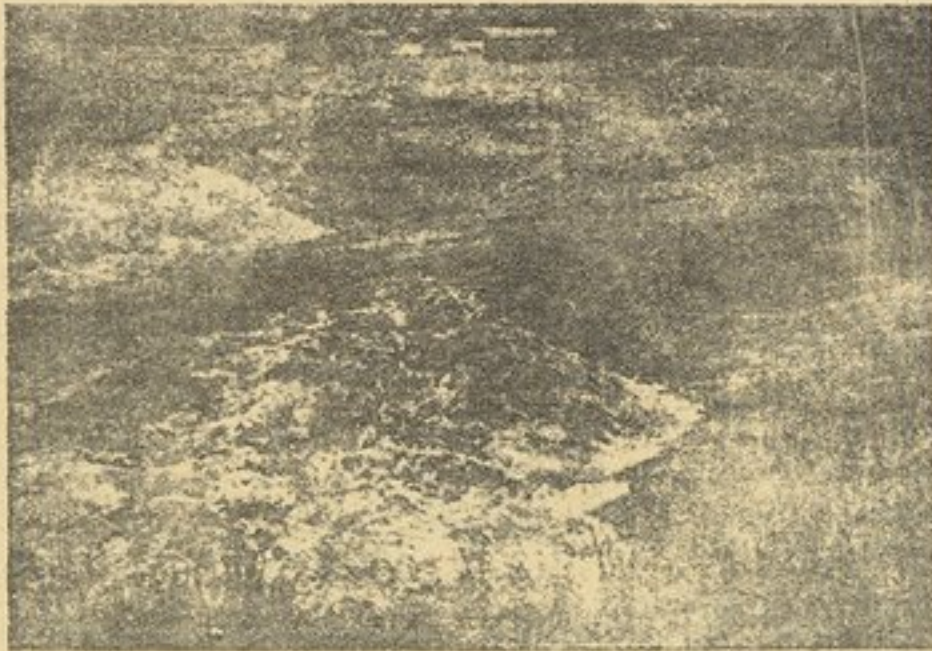
(كارثة فيضان نهر النيل - بمناسبة ارتفاع مياه النيل في نحو سنة ١٩٢٩)

مضت أسابيع والأبناء تترى بارتفاع مياه النيل ارتفاعا لم تألقه بصر من قبل وقد بات يهدد اللدائن والقرى والأرواح والأموال. ولقد اتخذت الحكومة لهذا الأمر الخطير أهبة بقدر ما تستطيع حكومة أن تفعل وإنما لفسر إذ تراها تعدد إلى بحث قانون (العونة) لحماية الجسور وإلى إنشاء خط دفاع ثان يقي البلاد غوائل الفيضان، ولكننا إلى جانب ذلك نحزن إذ نرى الأهالي يتبرمون بهذين الاحتياطين ورون في الأول تسخيرا للناس فيما لا يليق بكرامتهم أن يستغفروا فيه ورون في الثاني تبديدا لأموال طائلة في سبيل اتقاء خطر مزعوم ولاشك أن أولئك للتبرمين لا يدركون ما قد يصيبهم من الرزايا في أموالهم وأرواحهم لو فاض النيل وتقطعت جسوره وتدقت مياهه تفسد الأرض وتكسح الزرع والضرع ولا تبقى ولا تندر، ويجهلون أن جسور النيل الرخوة قد تكون أوهى جسور الأنهار الكبيرة في العالم وأن أراضي مصر سهل إذا جرى فيه الفيض لا يجد جبال يصد أو تلاجى وراه قرية أو مدينة. والواقع أنه أصبح من أوجب الأمور على الحكومة أن تنظم من الآن طرق وقاية البلاد بتدعيم الجسور تدعيا ضمن دفع ذلك الخطر كما أصبح من أوجب الأمور على سكان وادى النيل أن يلبوا دعوة الحكومة متى دعيتهم ليعاونوها بكافة ما يستطيعون لتقوية الشاطئين. ولكي يدرك الناس

أهمية ماندعو الحكومة وندعومهم إليه نصف لهم كيف حلت بالولايات المتحدة الأمريكية منذ عامين تلك الكارثة الهائلة التي ترتبت على فيضان نهر السيبي حتى إذا ما أدركوا مدى الأخطار التي تنجم من إهمال الجسور هرعوا إلى القيام بما عليه عليهم تلك الأخطار من الاحتياطات .

نهر السيبي أكبر أنهار الدنيا طولاً وعرضاً . يبلغ طوله خمسة آلاف كيلو متر : ويبلغ عرضه من ألف إلى ألف وخمسمائة متر ولكنه يتسع في بعض الأماكن حتى يبلغ خمسة وثلاثين كيلو متراً . وتسير مياهه سيراً وتبدأ من الشمال إلى الجنوب فتشطر الولايات المتحدة شطرين متساويين وتقطع الموجة السالمة بين النبع والمصب في ستة أسابيع وتتجمع هذه الكميات الهائلة من المياه عند المصب الضيق الذي لا يتجاوز عرضه سبعمائة وخمسين متراً ثم تنصب في خليج المكسيك بمعدل ثمانين ألف متر مكعب في الثانية الواحدة . أما الخطر الذي يهدد الولايات المتحدة كل عام فناشئ عن غزارة مياه النهر واتساع مساحة حوضه مع ضيق مصبه ضيقاً يجعل تلك الكميات العظيمة من الماء تتجمع بوفرة مخيفة عند هذا المصب فتصب ما وراءها فترتفع المياه وتفيض على الجانبين أحياناً وأحياناً لا تقوى الجسور على تحمل ضغطها فتقطع وعندئذ تندفق المياه بقوة تجرف كل ما تصادفه في طريقها . ولقد حدث في عام ١٩١٣ أن طام السيبي فبلغت الحسائر في (مقاطعة الاوهيو) وحدها أربعة وعشرين مليوناً من الجنيهات وهلك من الأُنس البشرية خمسمائة ، وهذه الكارثة مع فداحتها لاتعد شيئاً يذكر إذا قيست إلى الكارثة التي حلت بأمريكا عام ١٩٢٧ م والتي نحن بصدددها في هذا المقال :

لاحظ السكان في ربيع سنة ١٩٢٧ م أن الأمطار تهطل بغزارة لم يروا مثلها من قبل وأن التلوج تنهار من أعلى الجبال وتذوب بسرعة غير مألوفة ثم تهوى إلى نهر السيبي فتزيد مياهه ارتفاعاً ، ولاحظوا أيضاً أن فروع النهر قد علت مياهها بنسبة لم يعهدوا لها مثيلاً ولكنهم ظلوا رغم هذه العلامات الخطرة آمنين مطمئنين مصدقين على متانة الجسور وقوتها . والحقيقة أن جسور السيبي من أضخم وأقوى الشروعات التي حققتها يد الإنسان في العصور الحديثة . فهي تمتد على طول النهر وترتفع إلى عشرة أمتار فوق سطح الماء في الأوقات العادية وتتسع حتى يبلغ عرضها خمسين متراً . ويسهر على رعايتها ومراقبتها بضعة آلاف من العمال . وقد نصبت بين كل مسافة وأخرى آلات التلفراف والتليفون وأقيمت محطة رئيسية تتصل بجميع المحطات الأخرى في وقت واحد لتنهبها إلى الخطر في الوقت المناسب ، ولا يمر أسبوع إلا ويحطوف الهندسون يرتادون الجسور لفحصها . وقد خصصت الحكومة عدة ملايين من الجنيهات لتفتطها كل عام من ميزانيتها كحساب تلك الجسور ظل السكان آمنين مدة أربعة وعشرين عاماً حتى كانت سنة ١٩٢٧ غاب اعتمادهم على قوة منشآتهم وأيقنوا أن قوة الطبيعة أكبر من أن تغالبها قوة الإنسان ، ففي السادس عشر من شهر إبريل نقل البرق إلى واشنطن أن النهر قد خرج من مجراه فظن أولوا الأمر أن الخطب يسير وأملوا أن يتداركوه ، ولكن الفيضان كان يزداد من ساعة إلى أخرى حتى أضحت الوسائل للقامة لصيانة الجسور عديمة الجدوى لانفجدها ، وتحول الفيضان إلى كارثة لم يسمع بمثليها بنو الإنسان ، لم يمض يوماً حتى غمرت المياه سبع ولايات وحتى بانت مساحات كبيرة من اليلسوري والاركنساس وكتوكي وتينيسى ولوزيانا وتكساس تحت الماء ، ثم انحدرت مياه النهر على الأراضي الزراعية فغطتها وكونت فوقها طبقة مائية ذات ارتفاع يبلغ ثمانية أمتار ، وقد انجلى السكان عن ثلاثين مدينة وتركوا مئات من القرى نهياً للماء الذي ظل يرتفع ويغذى فروع النهر حتى انهارت جسورها هي الأخرى وعند ذلك جلّ الخطب وعظم المصاب (انظر شكل ٣٢) و (شكل ٣٣ في الصفحة التالية) .



(شكل ٣٢ - مياه نهر السيسى ترتفع على الجانبين بالقرب من [نيو أورليانز] وقد ارتفعت على المنازل وأغرقت القرى)



(شكل ٣٣ - سف أحد جوانب السيسى حتى تتدفق المياه من الفتحة التي يحدثها السف إلى سهل مجاور للنهر فيخف الضغط عن [نيو أورليانز] وتتجو من الفرق)

وكأنما أبت عناصر الطبيعة إلا أن تتعاون في التخريب والتدمير فقامت زوابع وهبت عواصف قطعت أسلاك التليفون والنظراف وعطلت وسائل المواصلات بين الولايات المنكوبة وجارأها ققضت على كل محاولة للاتقاذ، أفرغت الحكومة قصارى جهدها لحصر الكارثة وتخفيف آثارها فسيرت القطارات السريعة تحمل

فياق كاملة من الجيش تحفظ النظام بين المنكوبين وتعاون السكان والعمال فيما يحتاجون إلى المعاونة فيه . وسيرت أسراب الطائرات تحمل الأطباء والعقاقير والمؤن لإسعاف الضحايا والمصابين . ولكن الحالة تفاقمت باطراد ارتفاع الماء حتى أبلغ المهندسون حكومتهم [أنها إذا لم تبذل أكبر الجهود وأضخم النفقات لتحصار الفيضان فستبلغ الخسائر في الأرواح والأموال مبلغا لا يحصى الأرقام] .

وقد كان ما خاف المهندسون أن يكون وبلغ الفيضان أشده وتدفقت سيول النهر تنكسح في طريقها للدائن والقرى والكبارى والعمائر والجسور حتى بات أكثر من مائتي ألف نفس من سكان مناطق السيسى بلا مأوى ولا مأكل وطففت الجثث البشرية تغطي سطح الماء .

رأت الحكومة الأمريكية نفسها عندئذ عاجزة عن مقاومة هذه الكارثة إذا هي اقتصر على ما لديها من الوسائل فأصدر الرئيس (كوليدج) نداء ناشد فيه الشعب الأمريكى أن يهب بأسره ليشترك في عملية الانقاذ فتقاطر المهندسون والبناءون والعمال والأطباء والمرضون من كل صوب وأقبلوا جميعا يلبيون نداء الحكومة ويسعون إخوانهم المنكوبين وأشرف رئيس الجمهورية ووزراؤها على إجراءات المقاومة والاعانة وطن الناس أن هذا الجهد العظيم لا محالة منتج خير النتائج ، ولكن ما الذى تستطيعه جيل الانسان إذا تألبت عليه عناصر الطبيعة العمياء ؟

أخذت الأمطار تهطل طوفانا في المناطق الشمالية فزيد مياه النهر ارتفاعا ، والريح الصرصر العاتية تهب سبب فتعدم كل وسائل المواصلات بين المناطق المنكوبة وسائر بلاد الدولة ، فاشتدت وطأة الفيضان على الأرض ، واشتدت أيضا وطأة المجاعة على الناس وارتدت أسراب الطائرات على أعقابها بما حملت من أقوات وملابس وعقاقير وهى لا تقوى على مقاومة العواصف والأعاصير الهوجاء ، وهكذا بقيت مئات الألوف من الناس لا يجدون كهفا يلجئون إليه ولا لقمة يتبلغون بها ، وكأما أبت عناصر الطبيعة إلا أن تمنع في التكتيل بهم فأرسلت عليهم موجة من البرد أودت بحياة الكثيرين . ولقد كان السكان يفرّون أمام الماء والمساء يتعقبهم حتى التجأ ستة آلاف شخص إلى لسان من الأرض ظنوه يعصمهم من الطوفان الذى يظلمهم ولكن سرعان ما أحاط بهم الماء وكاد يتلهم لولا أن تداركتهم همة الحكومة بفيلقين من الجيش أنقذهم من بين براثن الموت . ولكي يدرك القارى ضخامة الوسائل التى عمد إليها الشعب لمعاونة الحكومة نقول : إن جمعية الصليب الأحمر وحدها استخدمت أربعين ألف سيارة وخمسين ألف سفينة ما بين تجارية وذات شراع ، وإن الأهالى قدموا للحكومة كل ما يملكون من سيارات وعربات وخيول وزوارق وسفن حتى أصحاب البيخوت الحيلة لم يبدوا بها ووضعوها تحت تصرف المنقذين ، ولقد كان المنقذون يحاطرون بأرواحهم كما زجوا بأنفسهم في المناطق العمورة بالمياه حتى إن سفينة كبيرة عرفت برأبها ونجارها وهى تحاول إزال كمية من الأسمت لمحاصرة الفيضان . وإلى هنا قدرت الخسائر للمادية بمائتي مليون من الجنيهات ، ولو وقف الحطب عندهذا الحد لمسان ، ولكن ما وافى اليوم السابع والعشرون من شهر إبريل حتى بدأ الفيضان يهدد المدن الكبرى فانقل رئيس الجمهورية ووزراؤه إلى مكان الفاجعة وهناك ألفوا مدينة أركنساس غارقة لا يبدو منها غير سطوح المنازل والقباب ألفوا المياه تنذر مدينة (نيو أورليانس) بنفس هذا الصير ، عندئذ استولى الذعر على النفوس ووجدت الحكومة نفسها بين [أمرين] إما أن تترك المدينة العظيمة فريسة لطغيان البحر ، وإما أن تحول جريان السيل إلى الأراضي الزراعية فتضحي بثمره لا تحصى وبمحاصيل إذا ضاعت آذنت البلاد بنقص فى الأقوات لا يقدر . وكان الفيضان يقرب والآفة تأزف ، وقد عجز مائة وخمسون ألف عامل عن تحويل مجرى الماء ، بدأت المنازل تهدم مئات مئات ، وارتفع الماء فوق سطح الأرض خمسة أمتار ، ورفرف الموت

بجناحه على (نيواورليانس) الزاهرة الغنية بما تحويه من الثروات وكنوز القنون ، عندئذ لم تتردد الحكومة في اختيار أخف المصيبتين فأصدرت الأوامر بنسف الجسور بالديناميت حتى تتدفق منها المياه إلى المزارع والحقول ولكن الحكومة إذ أصدرت تلك الأوامر لم تفكر فيما ستلقاه من مقاومة أصحاب هذه المزارع والحقول . لما اتصل بالزارعين والملاك نبأ اعتزام الحكومة نسف الجسور في سبيل المحافظة على مدينة لا زرع لهم فيها ولا ضرع حتى هبوا صقوا مسلحة يندرون حكومتهم بالحرب إذا هم لم تعدل عن عزمها الخطير . ولكن الحكومة بادرت فأنخذت لهذا الطارىء الجديد عدته فأرسلت الجنرال (باركر) على رأس جيش كبير . وأعلنت الأحكام العرفية ونصبت قائد جيشها بما كما بأمره بحكم بما يقتضيه الموقف من الحزم والصرامة وصرحت أنها ستحل النظام محل القوضى مهما كلفها الأمر وأمهلت الثوار نصف يوم ليلقوا السلاح . ولكن ذهبت كل هذه الاجراءات سدى وهب المزارعون يدافعون عن أموالهم ففتشت بين الفريقين معارك حامية استعمل فيها الفلاحون القنابل والترابيزات وانتهى الأمر بانتصار جيش الحكومة ونسفت الجسور في ثمانية وأربعين مكانا وطى طول بضعة كيلو مترات وقد استخدم في هذه العملية وحدها عشرة آلاف من العمال . وهكذا استطاع أولو الأمر أن يتقدوا مدينة (نيواورليانس) بتضحية مائة وخمسة وسبعين ألف كيلو متر مربع من الأرض ملاءى بالمحاصيل والخيرات وبحرمان خمسمائة ألف من الأقوات والأرزاق وبمحو عشرات من المدن ومئات من القرى من فوق سطح المعمورة وبتحويل هذه المساحات الشاسعة العامرة الآهة إلى بحر ما كان نوح ليجراً أن يجرى عليه بسفيته ، وها قد مرت طى القاجمة سنتان وقد أقلمت السماء وبلعت الأرض ماها وعاد الناس يستوون على هذه الأرض التي كانت بالأمس غمرا فقدت فقرا يحاولون أن يصلحوا ما أفسد الدهر ولكن كم يمضي من السنين حتى تسترد هذه الخرائب عزها البائد وزهوها الزائل وكم تنفق أمريكا من المال لتحيي بيد الانسان ما أودت به عناصر الطبيعة العمياء . اتسى ماجاء في المجلة المذكورة والله أعلم .

فلما اطلع على ذلك صاحبي الذي اعتاد أن يسألني في هذا التفسير . قال لقد جعلت طوفان أمريكا كطوفان سد العرم ، وأبنت أن أهل أمريكا قوم ذوو جد ونشاط وأن الحكومة قوية ومتينة وأن حكومة سبأ كانت ضعيفة جاهلة قهتدم سدها . وإني والله لني عجب أن تكون الحكومات الاسلامية في بلاد اليمن وغير اليمن لم تفكر كما فكر أهل سبأ فضلا عن أن تكون كأهل أمريكا . فهل لك أن تفيض القول في أمر سد العرم فتبين لي [أمرين : الأول] هل هناك أسداد غير سد العرم ببلاد اليمن [الثاني] من هذا الذي بنى سد العرم بطريق أوضح مما تقدم ؟ .

إذا ذكرت لي ذلك فانك تكون خدمت أمم العرب المسلمين إذ يعلمون أن الكافرين قبلهم كانوا أعمر لبلاد الله منهم فيفسكرون إذن ويجهدون في ذلك . قلت : أما الأسداد فاسمع مقالته مؤلف كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » وهالك .

﴿ الأسداد ﴾

ومن أدلة العمارة في (بلاد اليمن) الأسداد وهي جدران ضخمة كانوا يقيمونها في عرض الاودية لحجز السيول ورفع المياه لرى الأراضي المرتفعة كما يفعل أهل التمدن الحديث في بناء الخزانات ، وإنما عمد العرب إلى بناء الأسداد لقلعة المياه في بلادهم مع رغبتهم في إحياء زراعتها ، فلم يدعوا وادبا يمكن استئثار جانبيه بالماء إلا حجزوا سيله بسد ، فتكاثر الأسداد بتكاثر الأودية حتى تجاوزت اللثات ، وذكر الهمداني في محصب العلو

من مخاليف اليمن وحده ثمانين سدا وإلى ذلك أشار شاعرهم بقوله :

وبالبقعة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سدا تغذف الساء سائلا

وكانوا يسمون كل سد باسم خاص به أو بالإضافة إلى بلده ، فمن كبار هذه الأصداد قسعان وربوان وهو سد قناب وشهران وطمحان وسد عباد وسد لحج وهو سد (عرايس) وسد سحر وسد ذى شهاب وسد ذى رعين وسد نقاطة عند قرية ذى ربيع وسد نضار وهران وسد الشعباني وسد المليكي وسد النواصي وسد الهباد وباقيها لطاف .

وأشهر أصداد اليمن (العرم) وهو سد مأرب الشهير الذي تقدم الكلام عليه ، وسد الحائق بصعدة بناء نوال بن عتيك مولى سيف بن ذى يزن في القرن السادس للميلاد ومظهره في الحنفريين من رحبان . وقد خرّبه إبراهيم بن موسى العلوي بعد هدم صعدة ، وسد ريعان لابن ذى مآذن وسد سيان . وأصداد بلاد عنس منها سد خيرة وسد بيت كلاب في ظاهر همدان وآخر في ظاهر دعان وسد شبام قرب صنعاء على ثمانية فراسخ منها ، ولم يقتصر بناء العرب للأصداد على ما بنوه في جزيرة العرب . ففي مكران وبلوتستان في عدوة خليج فارس الشرقية آثار أصداد كثيرة لا يعرف عنها أهل تلك الناحية شيئا ففعل بعض العرب زحوا إلى تلك البقاع قديما وابتنوا فيها تلك الأصداد .

وأما الذي بنى سد العرم بطريق أوضح مما تقدم فاسمع ما جاء في الكتاب المذكور وهاك نصه : وقد عثر النقبانيون في أنقاض سد مأرب على نقوش كتابية بالحرف المسند استدلوها منها على بانيه أهمها نقشان أحدهما على الصدف الأيمن الملاصق للجنة اليمنى تفسيره إن يشمر بين بن سمهلي بنوف مكرب سبا خرق جبل بلق وبن مصرف رحب لتسهيل الري والآخر على الصدف الآخر تفسيره « ان سمهلي بنوف بن ذمر على مكرب سبا خرق بلق وبن رحب لتسهيل الري » وسمهلي هذا هو والد يشمر المذكور وكل منهما بنى صدفا أو حائطا وكلاهما من أهل القرن الثامن قبل الميلاد . فهما مؤسساه ولم يتمكننا من إتمامه فأعنه خلفاؤها وبنى كل منهم جزءا نقش اسمه عليه . فعلى المخروط أو الصدف في اليسار نقش قرءوا منه « كرب أيل بين بن يشمر مكرب سبا بنى » وعلى جزء آخر من السد اسم « ذمر على ذرح ملك سبا » وفي محل آخر اسم « يدع ايل وتار » وعلى السد الأيسر مما يلي الجنة اليسرى عدة نقوش يمثل هذا المعنى مما يدل على أن هذا السد لم يستأثر ببناؤه ملك واحد تلك هي العادة في تشييد الأبنية الكبيرة بكل زمان .

أما تهديمه ، فالعرب يقولون إنه حدث حجة ففرقت قبائل الأزدي وغيرها في جزيرة العرب بسبب ذلك . ويؤخذ من مجمل أقوالهم أن ذلك وقع حوالي تاريخ الميلاد أى نحو ظهور دولة حمير (ملوك سبا وريدان) وانتقال عاصمة السبائين إلى ظفار . فالظاهر أن السد تصدع حينئذ للمرة الأولى فرمموه وظلوا خائفين منه فتحولت عنايتهم إلى تعمير ظفار وقل تمسكهم بالبقاء في مأرب فصاروا يزحون بطونا وأنقادا لأسباب مختلفة ومنها القحط وغيره ، وأخذت مأرب بالتقهقر وكلما انفتق العرم من ناحية رعموه إلى قبيل الإسلام قهتدم وأهملوه .

ووفق غلازر في أثناء زيارته أنقاض ذلك السد إلى اكتشاف أثرين عليهما كتابة مطولة تتعلق بتهدم السد بعد دخول اليمن في حوزة الأقباش أحدهما مؤرخ سنة ٥٣٩ م والآخر سنة ٥٦٥ م وهما من أهم ما وقفوا عليه من آثار تلك الدولة لما فيها من الإشارات التاريخية والاجتماعية والعلائق السياسية أحدهما كتبه أبرهة الحبشي وهذه خلاصة : « بنعمة الرحمن الرحيم ومسيحه والروح القدس ان أبرهة عزيز الأقباش الاكسوميين ملك أراحميس زيبان ملك سبا وذوريدان وحضرموت وبخت وأعراهم في نجد ونهامة قد نقش هذا الأثر

تذكارا لتغلبه على يزيد بن كبشة عامه الذي كان قد ولاء كندة وديء وعينه قائدا ومعه أقبال سبا الصحاريين
 وهم مرة وثمامة وحنش ومرند وصنف ذو خليل والزنيون أقبال معدى كرب بن السميع وهفان وإخوته
 أبناء الأسلم فأخذ الملك إليه الجراح دازنبور قتلته يزيد وهدم قصر كدار وحشد من أطاعه من كندة وحرير
 وحضرموت وفر هجان الدمارى إلى عبران . وبلغ الملك الاستصراخ فنهض بجنده الأجاش والحميريين
 الوفا في شهر ذو القباط ٦٥٧ (من تاريخ اليمن) فزلا أودية سبأ . جاء يزيد وبابح وخضع للملك بين
 يدي القواد . وهم في ذلك جاءهم التبا بنهدم السد والحائط والحوض والقصر في شهر ذو المدرج سنة ٦٥٧
 فأمر بالقو . وبعث إلى القبائل باقذا الحجارة للأساس والحجر الحام والأخشاب ورماس الصب لترميم
 السد في مأرب فتوجه أولا إلى مأرب صلى في كنيستها ثم عمدا إلى الترميم فنبشوا الانقاض حتى وصلوا
 إلى الصخر وبنوا عليه ، وعلم وهو في ذلك أن القبائل تضايقت من العمل ورأى إعدامهم يعود بالضرر فضا
 عنهم أجاشهم وحميرهم وأذن بانصرافهم . ورجع الملك إلى مأرب بعد أن عقد تحالفا مع الأقبال الآتي
 ذكرهم : اكسوم ذو معاهر ابن الملك ومرجرف ذوفرنانح وعادل ذو فائش وأذواء شولمان وشعبان ورعين
 وهمدان والسكلاع الخ . وجاء إليه وفد النجاشي ووفد ملك الروم ورسول من اللندى وآخر من الحارث
 بن جبلة وآخرون جاءوا بعون الرحمن يخطبون مودته . في أواخر شهر داوان وبعثوا إليه من غلة أراضيهم
 لترميم ما انصدع من البناء فرمموه ووسموه حتى بلغ طوله ٤٥ ذراعا وارتفاعه ٣٥ ذراعا (ثم ذكر ما أنفق فيه
 من الحجارة والأطعمة للعملة والحيوانات للعمل واستغرق العمل في ذلك ٥٨ يوما و١١ شهرا وكان الفراغ
 منه في شهر ذو معان سنة ٦٥٨ . »

وهذه السنة في حساب الحميريين تعدل سنة ٥٤٣ للميلاد لأنهم كانوا يسمون تاريخهم سنة ١١٥ قبل الميلاد
 ولتلازم كلام في هذا الشأن سنأق عليه في الكلام عن التوقيت عند العرب ونكتفي هنا بالإشارة إلى تاريخ
 الفتح من شش حصن غراب . فقد رأيت أنه سنة ٦٤٠ حميرية أو حبشية ، وللمول عليه أنه كان سنة ٢٢٥ ميلادية
 والفرق بينهما ١١٥ سنة . انتهى من كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام .

(تذكرة)

أما أن للمسلمين أن يستيقظوا . إيه يا أمة الإسلام . إيه يا أمة الإسلام . أهكذا يكون للمسلمون . هاتم
 أولاء رأيتم أعمال الأمم القابرة والدول الفاتحة وشاهدتم سد العرم صنع الجاهلية الأولى ، صنع أهل سبا
 قبل الميلاد بنحو ثمانية قرون ، هل بهذا أمر القرآن ؟ يجعل في دين الرواة والنجدة والشرف أن يكون
 الجاهليون يعمرون أرض الله أكثر من المسلمين ، هل لهذا جاء نبينا صلى الله عليه وسلم ؟ ألم يجىء
 نبينا رحمة للعالمين وكيف يحفظ الجاهلية الماء بين البقيين ويسقون به الأرض والجنتان هناك عن بين وبين
 فأتمتان ثم يجىء الإسلام فلا يساوى أهله في العمران الجاهلية مع أنهم كانوا الأولى يحفظ ثم الله ، ثم الأولى
 بشكر النعمة ، وشكرها بحفظها والقيام بها لا لا ، إن أمة الإسلام ستأخذ دورها عن قرب ، أمة
 الإسلام الناعمة قد انقضت دورها . وستأق أمة الإسلام اليقظة التي تحفظ نعمة الله فلا تصيب الساء يذهب
 في الرمال .

أيها المسلمون : إن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم لم تنف رسالته عند هذا الحد . كلا .
 إن لرسالته شأنا بعد أيامنا هذه ، ومن دلائلها ما تزونه في هذا التفسير من عجائب القرآن ، وإنه يعلم المسلم
 شكر النعم وحفظها .

بأيت شعري : لم ذكرت سورة سبا ، ألقصة تذكر . كلا . والله ذكرت لنا الآن ، ذكرت لمن

يتعظون دفن الله المال والعلم في الصخور والألواح وعلى الجدران ، ثم أخرج ذلك الآن كأنه يقول للسليبي :
 هاكم اقرأوا كتابيه ، انظروا في علوم آبائكم ، هل تقومون بالأمر ، هل تحفظون النعمة ، هل تقومون
 بالشكر هل تبشون عن نعمي فوق الأرض وفي باطنها ، إن لم تعملوا بعد هذا كله فما هم أولاً ، الفرنيجة
 أحاطوا بكم من كل جانب ، فإن لم تقوموا من غفلتكم وتمموا التعليم لاخذن منكم أرضكم
 وأسلمها لهم كما فعلت مع بني إسرائيل ، إذ سلطت عليهم بختصر فأخذهم إلى فارس ودولة الرومان فأسروهم
 في بلاد الروم .

أنتظون يا أهل الجبن أني سلط لكم الأرض لتمموا نعمي فيها عن عبادي انظروا حولكم في قسي
 وقرى وكواكب وهوائى ومائى . ألم أجعل الموالم كلها متجاذبة بحيث تجرى الأرض حول الشمس وهكذا
 كواكب أخرى وهكذا الموالم تجاذب ، فهكذا فليكن نوع الإنسان . لتكن كل أمة مستخرجة
 من أرضها كنوزها وزراعة أرضها ليعيشوا بذلك وليسواوا ما فضل بالتجارة لغيرهم وهكذا غيرهم
 يضلون ، فان غفلت أمة عما لديها أو عزت إلى غيرهم فسلطتهم عليهم لأنى عدل ولأنى رحيم ومن
 رحمتي أن الناس يخدم بعضهم بعضا ، وهذا المطر النازل في بلادكم إذا لم تحفظوه فقد ضيقت نعمتي فأعجبكم
 على ذلك الضياع .

هنا ، وإن آية سد الغرم تدل على أن الأمة كلها معذبة إذا فرطت فيما لديها من النعم . والآية الآتية وهي
 وهي « ولو ترى إذ الظالمون » التي مثلها في أن الرؤساء لا ينفعون للرؤسايين إذا تركوا مواهبهم لا في
 الدنيا ولا في الآخرة ، قلصة سبأ وآيات التقليد متقاربتان من حيث إن كلاهما ينذر بالويل والمهلك
 لمن تواكلوا .

هنا ما أفهمه من ذكر هذه السورة التي ظهر أثرها في هذا الزمان ، والحمد لله على نعمة العلم والحكمة
 والدين ، والحمد لله رب العالمين .

(جوهرة يتيمة)

(في آية - ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم - الخ)

(بيان خطر التقليد والاعتقار به)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

اللهم إني أحمدك على نعمة العلم والحكمة ، وأسألك جبر الخلق واجتباب الزلل وإجابة الدليل وفهم التأويل
 وصدق القول وحسن العمل .

اللهم إني أرى اليوم في بلاد الإسلام حالاً أحسن ، ورجالا أكمل ، وعقولاً أجهى وأبهر ، نام
 المسلمون قروناً وقروناً بعد الصدر الأول والقرون الثلاثة الأولى خير القرون ، ثم جاء هذا الزمان الذي امتدنت
 فيه الإلحاح وكثرت المن وظهر المظفر والحطل وزالت الخلافة النفضية من البلاد التركية وقد أنامت الأمم
 العربية نحو أربعة قرون فلم تنم لهم فيها قائمة ولا سمعت لهم فيها كلمة ، ولكن ها أنا ذا الآن في هذا اليوم
 ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٩ أسمع أن بلاد العراق رفضت الصوت جهاراً نهائياً إلى الأمم الغربية قائلة : أيتها الأمم
 اسمي . إياكم أن تهينوا إخواني في فلسطين وتمدموا عليهم اليهود الذين وعدتمهم بالوطن القومي ، وهام
 سكان شرقي الأردن وبلاد سوريا وجميع المسلمون في الشرق والترب يطلبون بلسان واحد إزاحة الكابوس

والظلم عن أهل فلسطين . سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت الذي أخذت تغير حال المسلمين من ضعف إلى قوة ومن ذلة إلى عز ومن جهل إلى علم ، أليس هذا مصداق قولك في التنزيل « ويزيد أن نحن على الدين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » وقولك « ليظهره على الدين كله » إن هذا زمانه وهذه أيامه ، وكما تجلت أنوارك في قلوب الأمم الاسلامية برابطة الجأش وقوة البأس وعزة النجدة وعلو الشمع ورفق المعصم ، هكذا أخذت التأليف تتغير أساليبها وتتجدد أصولها وتختط خططا جديدة وأحوالا سديدة وأقوالا مفيدة وانتشرت الصحافة وقامت الخطابة وظهرت بوادر جيل جديد وقد تقدمه أمثال هذا التفسير ليكون فيه لقطه عجلان ويقظة وسنان وبهجة ندمان وحدث خلان ، ومجالسة علماء وأنس حكماء وصبر فضلاء وهدى وبشرى للمؤمنين ولقد بسطت لي فيه القول وشرحت لي الصدر وبسرت لي الأمر ، لأن الأمم الاسلامية اليوم أجدر بالفهم وأقبل للعلم وأحق بالإقبال ، فأسألك اللهم أن أكون لك من الشاكرين .

أما بعد : فإني أريد إفاضة القول في التقليد ، ذلك الذي خيم على عقول كثير من الأمم الإسلامية في الأحقاب الغابرة والأيام الحالية وأضل سعيهم وأجبط كثيرًا من أعمالهم .

كانت الأمم الاسلامية في القرون الأولى طفلا ترعرع وتنمى بألبان النبوة المحمدية ، إذ أقرن في حياة الأمم سنة واحدة في حياة الفرد . وعلى هذا الحساب صارت هذه الأمة الآن في سن الرابعة عشرة كما أشرت إليه في السور السابقة فهي كإنسان مراهق شارف البلوغ ، ومتى بلغ بالسن أو بالقوة أخذ يظهر على الأمم الأخرى .

كان للمسلمون في القرنين الأولين يتغذون بلبن النبوة فرضعوا أفوايق أيام الصحابة والتابعين فتبعوا عباد الله من بلاد الصين إلى جنوب بلاد فرنسا ، فدانت لهم أمم من آسيا وأوروبا وأفريقيا . ذلك أنهم كانوا محمديين . ثم لما كان القطام بعد الحوليين (هما قرنان) تحولت الحال شيئا فشيئا وخدمت جذوة الحماسة وأخذوا يفكرون بأنفسهم فمل الصبي بعد سنى الرضاعة يلتبس الطعام بنفسه . هنالك يحضر له المؤدبون والمعلمون والمربون ، وفي هذه الأجيال التي اعتبرناها ستين لم تسكن هذه الأمم إلا عائلة على الملوك والعلماء ورجال الدين وشيوخ الطرق . فهم كانوا كأيام إن أحسن الوصى الصيام عليهم استقاموا وإن أساء التصرف ولم يقم بالأمانة ناموا ، فقامت دول فارسية وأخرى ركية وثالثة إمارات عربية . ولا زالوا يتدهورون المرة بعد المرة . ولقد مضى في هذا التفسير نبأ من بعض أماراتهم وممالكهم ، وكيف اختلت الحكومات وبارت التنظيم وضاعت الأمم . لماذا هذا ؟ لأنهم كانوا بعد سنى القطام قبل سنى المراهقة والبلوغ . ولا جرم أن الطفل في تلك الأيام يعطيه الربون بالآمال ويوارون عنه الحقائق ويغفلون له مستقبلا سعيدا وعمرا مديدا ويعطونه الحلوى والمضرب والسكره ويقولون له أقوالا لذيذة ويغرونه بكل ما له وطاب فيسقتهم لأقوال المريرين وتسهيويه أكاذيب الواعيد وتخدعه خرافات الأسانيد وهذه السن حنيفة بذلك . لذلك كثرت الفرق وتباينت الطرق وظهرت الخواارج ، وأدعى المهدوية كل من أحس من نفسه بقوة اللسان وسعة العقل ورجاحة القطن . ومن قرأ كتاب (الفرق بين الفرق) عرف تلك الأضاليل أو قرأ ما تقدم في (سورة الشعراء) من أكاذيب الدجالين في الاسلام واستوائهم على عرش الإمارة ، عرف كيف تخدع كواذب الأقاويل واحتيال المحتالين . ذلك كله لأن الأمة كانت لاهي في سن الرضاعة من أفوايق النبوة المحمدية . ولا هي بلغت السن التي تؤهلها لتسلم زمام أمرها والقيام بشؤونها . فلا يحص لها من التقليد ولا مفر لها من اتباع من تتوسم فيه غايل النجاة فتسلم زمامها أقوام منهم الصادقون ومنهم الخادعون وكل يعاملهم معاملة ذلك الطفل الصغير .

لذلك كثرت فيها الحرافات وشاعت الضلالات واتكفوا على الشيوخ فطلعت العقول وسادت النقول فجاء جيلنا الذي نحن فيه فماذا أقول؟ أقول: أحدثكم أيها المسلمون بحديث أحد المهديين في الإسلام أجبه مثلا من أمثال أسلافنا السابقين أريد بذلك استنارة الشبهة الإسلامية، ومتى عرفت الشر أقلعت عنه أو الحير اجتلبته فأقول:

لقد كان يوسف بن تاشفين أمير المرابطين قد استوثق له الأمر في الأندلس بعد القبض على أبي القاسم ابن عباد المعتمد على الله بعد أن تولى الملك ٣٠ سنة وذلك سنة (٤٨٤) هجرية. ولقد قام بالأمر خير قيام إذ أثر الجهاد والتزو وقمع ملوك الروم والحرس على الصلحة في جزيرة الأندلس إلى أن توفي سنة ٤٩٣، وقام بالأمر بعده ابنه علي بن يوسف بن تاشفين وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين وسمى أصحابه المرابطين جفري على سنن أبيه في إظهار الجهاد وإخافة العدو وحماية البلاد. وكان حسن السيرة. جيد الطوية. نزيه النفس. بعيدا عن الظلم حتى كان إلى الزهاد والتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك التغلبيين. وأخذ بكرم الفقهاء والعلماء ولا يفعل أمرا إلا بمشاورتهم ولكنه عماد في العفلة واختلت حال أمير المسلمين بعد الجهاد اختلا شديدا فظهرت في بلاده مناكير كثيرة. وأخذ أكابر المرابطين يدعى كل منهم صريحا أنه أحق بالإمارة منه واستولى النساء على الأحوال وصارت كل امرأة من أكابر (لمتونة) تخمي شريرا وقاطع طريق وصاحب خمر وماخور وأمير المؤمنين يزداد غفلة، واكتفى بامرأة المسلمين وبصيام النهار وقيام الليل. فإذ افعل الله للمسلمين إذ ذاك؟ قوم لا قوام لأمرهم إلا بالأمراء فان صاحبا صلحت الأمة وإن فسدوا فسدت. فهم على حسب من يديروهم. ألم أقل لك أيها الذي لهم فطموا من الرضاة أولا فهم الآن في السنة الخامسة وهي سن الطفولة وهذه سن العفلة واليتم ولم يصلوا لسن الرشد. لما طفى أمراء الأندلس وشربوا الخمر وأولعوا باللهو والزهو أرسل الله لهم يوسف بن تاشفين فأدخل ملكهم تحت إمرته، ولما قام ابنه أصناع الأمة من طريق الاشتغال بالعبادة كما أصاعها أولئك من طريق الفسوق والخمور والجهالة. هنالك قبض الله لهم رجلا آخر يأمروا بالمعروف وينهى عن المنكر. فبينما عمال الأمير علي بن يوسف بن تاشفين يشنون في الأرض فسادا وبهتكون أعراض الرعية علنا بلا احتشام جهارا بعد الجهاد إذ ألهم الله رجلا يقال له (محمد بن تومرت) ينتسب إلى الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب من أهل (سوس) من قبيلة تسمى (هزغة) من أقوام شرفاء هناك أحب العلم فرحل إلى المشرق سنة ٥٠١ هـ أي في السنة التي ابتدأ فيها فساد الدولة وانتهى إلى بغداد أي كما ينتهي المسلمون اليوم إلى أوروبا، ولقي أبا بكر الشاشي فدرس عليه الفقه والأصول وسمع الحديث على أكابر الشيوخ، ويقال إنه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام زهده وذكر له ما فعله أمير المسلمين بكتبه التي وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها وابن تومرت حاضر ذلك المجلس فقال الغزالي [ليذهبن عن قريب ملكه] وأشار إلى أن ذلك يتم على يد حاضر بالمجلس أي ابن تومرت، وهذه الحكاية سواء صحت أم لم تصح لا حرج في روايتها، ويقال إن هذه الإشارة قوت طمعه في ذلك فرجع إلى الإسكندرية ثم إلى بلاد المغرب. وبينما محمد بن تومرت كذلك إذا رجل آخر هناك يسمى عبد المؤمن يعلم الصبيان في موضع اسمه (فزارة) من بلاد (متيجة) وانفق أنه رأى في النوم كأنه يأكل مع أمير المسلمين (علي بن يوسف بن تاشفين) في صحفة واحدة ثم زاد أكله على أكل أمير المؤمنين ثم زاد فيه الشره فاختلفت الصحفة وانفرد بها وحده، وفسرها له المفسر بأن هذه تكون لرجل غيرك يكون أهلا لأن يشارك في الملك ثم ينفرد به. فهذه الأحاديث والرؤى قد أعدت الرجلين لعمل عظيم فتلقيا، فيقال إن محمد بن تومرت عرف عبد المؤمن بعلامات رسمها في نفسه وعربها من كتب المتقدمين. وقد كان عبد المؤمن عند القابلة متوجها إلى المشرق في طلب العلم فاستصعبه محمد بن تومرت

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأقاما بمدينة (ملالة) أشهراً ، ورحلا ورحل معهما رجل آخر اسمه عبد الواحد ، وقد كان محمد بن تومرت شديد الصمت كثير الانقباض لا ينطق إلا في مجلس العلم . وحل مع صاحبيه في (تلسان) وقضى بها مدة ثم توجه إلى (فاس) فأظهر عقيدة الأشعرية في التوحيد وأخذ يحفظ الناس فاجتمع الفقهاء عليه فوجدوه رجلاً قوياً العارضة فأشاروا على الوالي باخراجه لئلا يفسد عقائد العوام فأخرجه . وإنما فعلوا ذلك لأنهم كانوا جميعاً صائمين عن جميع العلوم ما عدا الفقه فتوجه إلى مراکش وكتب إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين . ولما دخل عليه أحضر له الفقهاء فناظروه فغلبهم ومنهم رجل يقال له (مالك بن وهيب) له معرفة بعلوم كثيرة حتى الفلسفة فأشار على الملك بقتله لأنه فصيح حسن العبارة وهو مفسد لا تؤمن غائلته فلم يقتله الملك خوفاً من الله فقال له اسجنه حتى يموت فقال الملك لا ذنب له . هناك نفاه عن أمر مراکش وهناك كانت الطامة الكبرى فتوجه إلى (سوس) فشرع في تدريس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأخذ يذكر المهدي ويسوق إليه (كافعل المهدي السوداني محمد أحمد في زماننا سواء بسواء) فكلاهما ابتداء أمره بالتشويق للمهدي من غير أن يذكر نفسه وجعل له أنصاراً يستميلون له رؤساء القبائل . هناك تقرر في نفوسهم فضل المهدي ونسبه ونعته . فلما تم ذلك قال أنا محمد ابن عبد الله ورفع نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصرح بأنه معصوم وأنه المهدي المنتظر . فلما استقر لهم ذلك بايعوه على أنه المهدي وألف لهم كتباً في العلم وعلمهم فكان يظن التشيع . وأول درجة من أصحابه كانوا عشرة وهم المهاجرون الأولون سماهم الجماعة وهم أول من صدقوه والطبقة الثانية سماهم الحسين . ثم قال لهم : ما على وجه الأرض من يؤمن بإيمانكم وأنتم العصاة المعنيون بقوله صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة بالغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله » وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ويقتل الدجال ومنكم الأمير الذي يصلي جيسى ابن مريم . ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة . ويقال إنه كان غير بعيد بعض الحوادث فتبع . وكان يقول [لو شئت لعددت خلفاءكم خليفة خليفة] ولقد جاء هذا القول في نظر رجل من أهل الجزائر من مدينة من أعمال (بجاية) وقد وفد على أمير المؤمنين أبي يعقوب وهو (بتينملل) فقام على قبر محمد بن تومرت بمحضر من أتباعه الموحدين وأنشده قصيدة بليغة وهاك نصها :

سلام على قبر الإمام المجدد	سلالة خير العالمين محمد
ومشبهه في خلقه ثم في اسمه	وفي اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحبي علوم الدين بعد ماتها	ومظهر أسرار الكتاب المسدد
أنتنابه البشرية بأن عملا الدنيا	بقسط وعدل في الأنام مخلد
ويفتح الأمصار شرقاً وغرباً	ويملك عرباً من مغرب ومنجد
فن وصفه أفنى وأجلى وأنه	علاماته خمس تبين لمهتدي
زمان اسم والمكان ونسبه	وفعل له في عصمة وتأيد
ويلبث سبعا أو تسعاً يعيشها	كذاهاء في نص من النقل مسند
فقه عاش تسعاً مثل قول نبينا	فذلكم المهدي بالله بهتدي
وتبعه لتنصر طائفة المهدي	فأكرمهم إخوان ذى الصدق أحمد
هي التلة المذكور في الذكر أمرها	وطائفة المهدي بالحق بهتدي
وبقدمها المنصور والناصر الذي	له النصر حزب إذ بروح وبغدي

هو المنتقى من قيس عيلان مفعرا
 خليفة مهدي الإله وسيفه
 . جمع الله الجباية الأولى
 . قطع أبناء الجباية التي
 ويعززون أعراب الجزيرة عنوة
 ويقتحون الروم فتح غنيمة
 ويقدون للدجال يعزونه ضحى
 ويقتله في باب لدا وتجلي
 وينزل عيسى فيهم وأميرهم
 يصلى بهم ذلك الأمير صلواتهم
 فيمسح بالكفين منه وجوههم
 وما أن يزال الأمر فيه وفيهم
 فابلغ أمير المؤمنين نحية
 عليه سلام الله ما ذر شارق
 ومن مرة أهل الجلال الموطن
 ومن قد غدا بالعلم والحزم مرتدى
 يصدون عن حكم من الحق مرشد
 أبادت من الإسلام كل مشيد
 ويعززون منها فارسا وكان قد
 ويفتسمون المال بالترس عن يد
 يذيقونه حد الحسام المهند
 شكوك أمالت قاب من يوحد
 إمام فيدعوهم لمحراب مسجد
 يتقدم عيسى المصطفى عن تعمد
 ويخبرهم حقا بعز محمد
 إلى آخر الدهر الطويل المرمد
 على النأي مني والوداد المؤكد
 وما صدر الورد عن ورد مورد

فهذه حال (محمد بن تومرت) الذي هو المهدي المنتظر وأصبح القوم مفتونين به حتى لوقال لرجل اقتل
 أباك أو أخاك لقتله . وكان إظهاره المهديوية سنة ٥١٥ هـ وفي سنة ٥١٧ هـ جهز جيشا عظيما من المصامدة حلهم
 من أهل (تينمال) ومعهم قوم من أهل (سوس) وأمرهم بحرب المرابطين وأن يدعوهم إلى الأمر بالمعروف
 والنهي عن المنكر واتباع المهدي المعصوم ، فإن أحببوا فهم إخوانكم وإلا فقاتلوهم . وأمر عليهم عبد المؤمن
 وقال أنتم المؤمنون وهذا أميركم ، وقاتلوا المرابطين قريبا من مراكش بموضع يسمى (البحيرة) وأمير
 المرابطين الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين ، فدنا الموحدون المرابطين لما التقى الجيشان إلى ما أمروا به
 فردوا عليهم أسوأ رد ، وهكذا كتب عبد المؤمن إلى علي بن يوسف بما عهد إليه محمد بن تومرت فرد عليه
 ردا يحذره فيه من سفك الدماء . ولما التقى الجمعان قتل من المصامدة خلق كثير ، وانهمزم الجيش ولكن نجح
 عبد المؤمن . ولما رجعوا إلى ابن تومرت هو أن عليهم أمر الهزيمة وبشرهم بالشهادة والجنة . ومن ذلك
 الوقت أخذ المصامدة يشنون الغارات على نواحي مراكش وهو بزاد تقى وصلاحا وتشددا في دينه وإقامة
 للحدود كلها حتى مات سنة ٥٣٤^(١) وقام بالأمر بعده عبد المؤمن فبايعه المصامدة ، ولد بضيفة من بلاد تلمسان .
 وقد ولد سنة ٤٨٧ وتوفي سنة ٥٥٨ وقد ملك بلاد المغرب وأكثر بلاد الأندلس . وقد خلفه في الملك ابنه
 أبو يعقوب يوسف ومات سنة ٥٨٠ هـ . وخلفه ابنه أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، وتوفي سنة
 ٥٩٥ هـ الذي أهان الفيلسوف ابن رشد وجبسه ثم عفا عنه ، ولم تقم للحكمة بعد ذلك قاعة في الإسلام . وبعده
 ابنه محمد بن أبي يوسف أمير المؤمنين وتوفي سنة ٦١٠ ، وتولى بعده ابنه أبو يعقوب يوسف بن محمد .

(١) هذا التاريخ لا يوافق ما جاء في القصيدة التي أنشئت على قبره أنه عاش (٩) سنين مع أنه أظهر
 المهديية سنة (٥١٥) ومن عجب أن المؤلف أهدى إليه كتابا فيه تاريخ (ابن تومرت) وأن وفاته كانت
 سنة (٥٣٣) وهذه أقرب إلى الصواب فلعله مات سنة (٥٣٣) هـ ، والله أعلم .

هذا ملخص كتاب تاريخ الأندلس المسمى [بالمعجب في تلخيص أخبار المغرب] تأليف الشيخ محي الدين عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي .

أقول : إن هذا العالم كان في زمان تلك الدولة ، فلم تطل مدته إلى انقضاءها حتى يعرف ما آل إليه أمر هذه الدولة ، وأيضا أنه كان تحت حكم ملوكها فلم تسكن له الحرية التامة في إبانة الحقائق الناصعة عن المهدي (ابن تومرت) ووظيفة هذا التفسير امتحان الحوادث العامة وعرض نتائج الامتحان على أمم الاسلام بعدنا ، أما مجرد سرد التاريخ بقيمته زهيدة ضئيلة ونحن الآن في تفسير آيات قرآنية تنبذ التقليد وهذا التاريخ الذي سردته هنا مسوق لتبيان أن الوقوف على التقليد بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير هو الشؤم الأكبر والخطب الجلل وللوت الزؤام .

فلأذكر إذن في هذا الصدد ما عثرت عليه في الكتب الأخرى وما ذكره أيضا العالم الفرنسي (سديو) ليحق الحق ويبطل الباطل . وإذن يفرح المؤمنون والعلماء المحاصون والأمم الحمديون بنصر الله بالهداية العلية ، والله هو الولي الحميد .

جاء في كتاب [خلاصة تاريخ العرب] للعلامة سديو ماملخصه :

إن العرب بإسبانيا انشقوا على المرابطين أيام علي بن يوسف الذي ظهر محجزة كما تقدم القول عنه ، وأنه كان مشغولا بالصلاة والصيام وكلا أمر الرعية للنساء مع إكرامه للعلماء . وقد كان هؤلاء العرب لا يفكرون إلا في محاربة أمرائهم المرابطين ولم يعرفوا كيف يتحدون ويتخذون لهم مركزا عاما حرييا لصد النصارى الهيطيين بهم من أسائر الجهات ، وغاية الأمر أن الفرص قد سنحت لأناس منهم استقلوا بالامارة من سنة ١١٤٤ في مرسية ووالنسة وغرناطة وأشبيلية وقرطبة وغيرها فادعى كل هذا النصب بلاحق وانفصل عن الآخر فذهب المرابطون من إسبانيا سنة ١١٤٦ وغاية الأمر أن عبد الله بن غانية بقي تحت يده جيش ضعيف وقد اضطر إلى مساعدة النصارى له فساعدوه حتى أخذ قرطبة وأشبيلية حتى إذا ماجاه جيش عبد المؤمن قتل ابن غانية وذهب أمر المرابطين . ثم إن الأميرين يوسف ويعقوب التقدم ذكرهما ألبيا بلا حسنا في منع غارات النصارى عن مدن الاسلام ثم بعد ذلك أغاروا على من جاورهم من النصارى ، وهناك تجدد الرونق والعز في بلاد الأندلس . وقد راد ذلك النصارى وعز المسلمين بما فعله الأمير يعقوب حتى مات وخلفه ابنه محمد الناصر سنة ١١٩٩ م .

هذا ، وقد هزمه النصارى في واقعة (طولوسة) سنة ١٢١٦ م وهناك ضعف أمر الموحدين فانقطعوا عن محاربة النصارى ، ولما مات الأمير محمد خلفه أبو يعقوب وقد عصته الأقاليم بالمغرب وإسبانيا لأنه غير كفء . ثم إن أرباب المشورتين الذين أنشأهم المهدي كما تقدم (وهم العشرة الذين سماهم المهاجرين الأولين والحسين الذين سماهم الجماعة) كانوا متشوقين إلى الاختصاص بالحكم لما رأوا فساد الأمر في البلاد فهددم المأمون ، وقد قام بشد أزره حزب ذو قوة ويطش وجعلوه أميرا عليهم ، فنصب أرباب المشورة المذكورين يحيى بن ناصر فتعاب عليه وعليهم المأمون وعلق رءوس هؤلاء الشيوخ على أسوار مراكش وألقى المشورتين وفسخ سياسة المهدي ومنع ذكره في الخطب وعامل أهل المغرب بقسوة لم يقدرها بعدها على العيصان سنة ١٢٢٨ ثم إن محمد بن هود من ذرية قديما ملوك سرقسطة أوقع البغضاء بين مغاربة إسبانيا ومغاربة أفريقيا وأخذ منهم جيشا جرارا هزم به المأمون سنة ١٢٢٩ قرب (مدينة طاريف) وأزم للمأمون الإقامة بمراكش .

هنالك اضطلعت دولة الموحدين شيئا فشيئا ، فانهم لما انتزعت منهم الأندلس أخذت بلاد المغرب تنساع منهم شيئا فشيئا ، فقد عصى الموحدون في أيام خلفاء المأمون والي تونس سنة ١٢٤٢ م وعائلته هم بنو حفص

وفي سنة ١٢٤٨ أسس بنوزيان في تلسان والجزائر سلطنتهم الممتدة إلى نواحي فاس ، وكذلك بنومرين في جهات كثيرة و« لله الأمر من قبل ومن بعد » .

هذا ملخص ماجاء في كتاب سديو ، وأزيد عليه ماقرأته سابقا في المطولات من أخبار ابن تومرت ثم أتبعه بالنتائج العملية التي هي المقصودة بالذات في تفسير هذه الآيات فأقول :

إن محمد بن تومرت كما قالت جملة الله لهذه الأمم أشبه بمرابي الأطفال ، وقد قلنا إن الأمم الإسلامية في القرون الأولى كانت في أيام الرضاعة فكل قرن سنة واحدة في عمر الأمة. ولما كان الفطام أخذ الناس ينظرون شئونهم بأنفسهم ولكنهم لفتة العلم سخر الله لهم أناسا يفعلون معهم فعل المرابي مع الطفل . فماذا فعل محمد بن تومرت ؟ لزم الحلوة كما تقدم ، وإني أقول أنا معتقد في الرجل حسن مقصده وأنه يريد للمسلمين في تلك الأصقاع خيرا ، ولقد رأى أن يسوسهم بالدعوة المشهورة وهي الهدوية . فماذا يفعل ؟ نصب له دعاة وأعلن العصمة كما أعلنها غيره من الفاطميين بمصر وأعلنها أيضا (أغا ميمون) بالهند في زماننا وغيره ، ولقد كان من أمر (محمد بن تومرت) أن يث الأرصاد والعيون والجواسيس ليستطلعوا أسرار القلوب ومن المصدق للمهدي ومن للكذب ؛ وأخذ يوازن بين الشهادات الواردة إليه عن عطاء أتباعه ، فمن ذكائه وفطنته لم يحكم على أحد بالكفر بمهدويته إلا إذا توافرت الشهادات المختلفة بذلك من بطائنه الذين جعلهم عيونا عليهم . أما الذي اختلف فيه الشهود ومعلوم أن أحدهم لا يعلم مايقوله الآخر فإنه لا يحكم بكفره به . فهناك اجتمع له من أسماء أتباعه جدول حفظه عنده لوقت الحاجة .

وبينا هو يث الأرصاد والعيون والجواسيس لمعرفة أسرار أتباعه كان قد أسر لرجل من أتباعه يدعى علي ماذكر (الوثنري) فهذا الرجل كان عالما فأظهر الجذب وأخذ بهم على وجهه وجر في المجالس فلا يابه له أحد لأنه مجذوب لا يمي . وكان إذا مر على (محمد بن تومرت) يقول إن في هذا الرجل لسرا . وبقى الأمر هكذا إلى أن كان ذات يوم محمد بن تومرت يصلي الفجر نظر فرأى رجلا وراءه يصلي وعليه ثياب بيض بهيئة جميلة فأظهر السهش إذ سأله من أنت ؟ فقال أنا الوثنري . إني في هذه الليلة أتاني النبي ﷺ يقظة وعلمني كذا وكذا وعرفني العواقب وأهل الجنة وأهل النار . ولا جرم أن هذه هي الحيلة التي تكررت كما تقدم في هذا التفسير إذ ذكرت نظيرها في [سورة الشعراء] عند آية السحر فليفتطن المسلمون وليستيقظوا ، فقال ابن تومرت له بدهشة ولهفة : سبحان الله . أخبرنا بأمرنا من أنا ؟ فقال أنت المهدي ومن كذب بك في النار [ولا جرم أن الجدول الذي فيه الأسماء قد سلم إليه سرا حتى عرف جميع الكفار بأشخاصهم] فهناك قال له المهدي : أخبرنا بأهل النار وأهل الجنة . فأمر المهدي فأجتمع القوم وصفهم الوثنري صفي صفا أمام صف فنظر إلى صف اليمين فقال هؤلاء أهل الجنة وصف جهة اليسار فقال هؤلاء أهل النار . ثم قال ليقتل أهل الجنة أهل النار فضرب صف اليمين صف اليسار حالا بالسيوف واستولوا على ما علىكون ، ولكن هؤلاء المقتولون وإن كان أمر قتلهم مماوينا على حسب الاعتقاد بقي له أثر سيء في النفوس فشغلهم المهدي بالحروب للتقدم ذكرها ضد الرابطين أيام (علي بن تاشفين) كما عرفت وصار يمدم وعينهم بملك فارس والروم وأنهم هم الذين يقون حتى أيام نزول المسيح إلى آخر ما تقدم . هذا هو الذي وعته الذاكرة بماقرأته من الكتب ، والله أعلم .

(امتحان هذه السير والأحوال)

سبحانك اللهم وبمحمدك . أنت ناظم الأمم والجماعات ومعط كل ذي حق حقه . أنت الذي علمت أن هؤلاء قوم جهال مشتتون فهيات لهم محمد بن تومرت ليجنح الظلم عنهم فقام وادعى المهديوية . اللهم إن المهديوية قد تقدم السلام عليها في أول (سورة الحج) وقد ذكرنا هناك أمر المهدي وأن الأحاديث كلها مطعون فيها . سبحانك اللهم وبمحمدك . إن أحاديث المهدي قد سرت إلى نفوس أكابر الأمة ، وإن عبي الدين بن عربي قد وقع فيها وقع فيه غيره وسرت عقيدة المهدي في الأمم الاسلامية وقات هناك إنها لا تزال باقية لم ينقص منها شيء حتى ظهور المهدي السوداني . فما نتيجة ذلك كله ؟ نتيجة ضعف العقول والانتكال على الشيوخ ونوم القوى العاقلة ، نام المسلمون آمادا وآمادا ، تركوا مواهبهم ، تركوا عقولهم ، كما تركت الحيوانات للفرية تدبير أنفسها للانسان بخلاف الحيوانات البرية الوحشية كالغزلان . إذن المسلمون للتكلمون على المهديين أو على الشيوخ والذين استناموا لمن ملكوا قيادهم من الظالمين مسلمين وغير مسلمين أصبحوا كالغزاة والبقرة اللتين ضعفتا عن تدبير أنفسهما وفاقتهما الغزاة والبقرة الوحشية ، فصارت الأمة ذليلة والعضو الذي لا عمل له يضمحل ويضعف ، وليس الأمر قاصرا على محمد بن تومرت ، فهو رجل نفع القوم بأسلوبه ومنهجه واستعان بالسكتان والصبر وعلوم السعيا وبإيادهم أنهم خير أمة أخرجت للناس وأنهم هم الذين يقفون إلى نزول عيسى عليه السلام وقد فعل ذلك معهم ولكنه في الوقت نفسه علمهم الصدق والاخلاص والشجاعة والعلم على حسب زمانه ، الرجل مزج الحق بالباطل وقد أفاد القوم . ولا يزال بعض شيوخ الطرق الآن في أمم الاسلام يرفعون نفوسهم إلى مقام العظيمة ويحلمون أنفسهم وسائط بين الله وبين خلقه . وقد أنام كثير منهم المسلمين ، إذ أفهموهم أنهم يتعالجهم مع جهلهم الفاضح ينجون من العذاب يوم القيامة .

تعليم ابن تومرت وغير ابن تومرت نافع وضار . النفع مؤقت على مقدار همته . انظر الفرق بين هؤلاء الصالحين وبين الأنبياء . أنظر إلى الأنبياء كيف دامت ديانتهم آمادا وآمادا . كثر المهديون في الاسلام ولكل مدى أيام تنقضي ولكن الاسلام باق لم ينقص منه شيء وما يفعله هؤلاء الشيوخ بحموة كروار الأيام لأنه لا نبات له وهل تغير العلم نبات ؟ الأمم الاسلامية يجب تعليمها وترقية عقولها ونشر التعليم والثقافة العامة فيها ليكن التعليم إجباريا في جميع الأقاليم ليتعلم الرجال والنساء .

هذا هو المهدي . فأما إنى أو من بغلان أنه المهدي ومق ذهب ذهب ذلك الايمان (كما فضل للأمن فأبطل اسم المهدي ونسخ تعاليمه وقتل الشيوخ) فان الدولة تضمحل وتذهب كما رأيت في دولة الموحدين .

لا لا ، أيها المسلمون : (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا — قال موسى ماجئتم به السحر إن الله سيظهر إن الله لا يصلح عمل المفسدين) .

تذكر أيها التقي ما جاء [في سورة طه] وأن بنى إسرائيل لما رأوا العسا قلبت حية آمنوا وهم في مصر ، ثم لما خرجوا منها ومروا على قوم يعكفون على أصنام لهم « قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون » ولما رأوا عجل السامري المصنوع من الذهب « قالوا هذا إلهمكم وإله موسى » فهذا الايمان الشثوم الذي لا يرجع إلى تمام العلم يكون عرضة للتقلب فان من رأى عسا انقلب حية لحري أن يكفر إذا رأى عجلا له خوار مصنوعا من ذهب فانه أجمل وأبهي وأعظم هيئة من الحية .

وهل وردت تلك القصة في القرآن إلا لهنه النتائج . ألم يقل الله تعالى « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك

الكتاب يتلى عليهم » وهو القائل « وما معنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا
 نمود الناقة مبصرة فظفروا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » والآيات المذكورة هي خوارق العادات .
 إذن القرآن في ناحية وجمهور المسلمين في ناحية . القرآن يدعو إلى التقبل والعلم وتعليم الناس . وإذا
 كنت قد خلقت في الرمز الميتة دودا وسلطت على الأحياء منها الأسود والنمور الخ رحمة مني وعدلا وحكمة
 أفلا أخلق في رمم الأحياء بالهند وبلاد الاسلام ما يشبه هذا الدود ويشبه الأسود والقهود والنمور من
 رجال الدين ومن الأمم المستعمرين ؟ أولا ترون أني أخلق العنكبوت تنصب الحيام لاصطياد الذباب .
 أفلا أفضل كذلك في الانسان الذي أشبه الذباب . فأسلط عليه عنكبوت الشيوخ والبراهمة والدجالين . هذا فعل
 وأنا الحكم العدل . أنتم أيها الناس جميعا اليوم في حال تشبه حال الأطفال من حيث مجموعكم والأطفال
 لا يستعدون غالبا لما يعقله البالغون . ملأت أرضكم بالأصنام وبالخرافات لأنكم لا تفكرون سواها .
 ثم أرسلت رسلا وآخرهم خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم فمرت دعوته في الأرض ووصلت الهند وفيها نحو
 خمسين مليوناً من المسلمين وهم أرقى الجميع . وهذا العدد لم يسلم إلا بعد حروب دامت قرونا وقرونا .
 ثم مضت فترة ولم يقدر المسلمون على إزالة الأذى عن عباد البقر والأصنام هناك فأرسلت دول أوروبا فأخذوا
 ينعون بعض تلك العادات تنميا لما فعل المسلمون قبلهم . وكل ذلك اليوم تمهيد للزمان المقبل القريب
 إذ يظهر الجيل الجديد من المسلمين لاسيا قراء هذا التفسير . وهؤلاء هم الذين يرون أن الناس جميعا
 إخوانهم وأنهم خلفاء الله في أرضه . فهؤلاء هم الذين يرقون الانسانية كلها بعلمهم وحكمتهم وامتراجهم
 بالأمم وهناك يزيلون الخرافات أولا من بلاد الاسلام وثانيا من بلاد غير المسلمين من أهل الهند وغيرهم .
 هنالك يفهم المسلمون معنى قولي في القرآن « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وقولي « وكذلك جعلناكم
 أمة وسطا » وقولي « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

هنالك يفهم الناس لماذا ذم الله التقليد في هذه الآيات التي نحن بصدد الكلام عليها ، وما فوائد الهدى
 والعلم والاستبصار .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : والله لقد شفيت ما في نفسي . فقلت الحمد لله رب العالمين . كتب يوم
 الأربعاء ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٩ .

جمال العلم وبهجة الحكمة

في ذم التقليد

أيها المسلمون : إنني بينا أنا أكتب هذا الموضوع يوم الاثنين (١١) نوفمبر سنة ١٩٢٩ وقد اختمرت
 هذه الفكرة في نفسي طلع « الأهرام » وفي صدره هذه المقالة الآتية من بلاد الهند ، فأدهشني صدور
 هذا القول اليوم وفكرت في أمر الإسلام وأمة الإسلام وقلت إن هذه من اللسافات العجيبة . كيف
 يظهر اليوم هذا المقال وقد ظهرت فيه أحوال الهند المقسمين إلى أربع طبقات وأن البراهمة أو هموم أنهم
 نواب الله الأرض وعاشوا عالة على الشعب ، وأن هذا هو أكبر سبب في خضوع الهند التي تعد بمئات الملايين
 إلى عشرة آلاف من الانجليز . اللهم إن هذه المقالة سيتجلى بها هذا القام حقا وصدقا كيف لا والبراهمة قد نبخوا
 في احتقار الشعب وإدخال النغلة عليه ، وبعض النصارى والمسلمين قد قلدوهم في ذلك الاحتقار ،
 فيا للعار ، ويا للشار .

أبليق بخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وأتباع النبي العربي صلى الله عليه وسلم (ذلك الذي قال « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » والذي أمر بلالا أن يؤذن على الكعبة بمحضر من قريش والذي نزل عليه « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم » ذلك النبي الذي منع الاستتار وبذكل خوارق العادات وحكم عليها بأنها كهانة ، وجاء بالانصاف والعدل ، وأتى بمدينة تحقر بجانبها مدينة بعض الأوروبيين ، أولئك الذين يحقرون أن يكونوا مع السودانيين في مكان واحد كطعم أو ملبس ، ذلك هو الذي سمعناه اليوم عن بلاد الانجليز أن يكونوا كالبراهمة فيفسدوا عقول الشعوب الاسلامية بمهدويتهم أو بمشيتهم . كلا والله لا يلبق .

فهذا هو القال الذي به نعرف معنى قوله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ووصفه صلى الله عليه وسلم بأنه سراج منير وأنه خاتم الأنبياء ، فقد ضرب اللدنيات القديمة ضربة زلزلة للأرض ولكن لا تزال الأمم في حاجة إلى إرشاد المسلمين الذين سيظهرون بعد ظهور أمثال هذا التفسير ، فالاسلام لا تزال أمامه مشاق وأعمال ملقاة على عاتق الأجيال المقبلة قراء أمثال هذا التفسير .

إن أكثر المسلمين يهوش على عقولهم قوم بظواهر أحوال أو بأخبار بالغيب صدقا أو كذبا أو بالتشفيف والزهد ، كل ذلك أمره قد مضى في حال طفولية الأمم الإسلامية ، ولقد قلت لك أيها الذي إن الأمم الاسلامية اليوم في القرن الرابع عشر قد أرف زمان بلوغها بالسن وقد صارت كمن بلغ بالحلم ولعلها ترى الحقائق في زماننا هذا وتخرج من حضنة أولئك الذين لا يرون لها سياسة إلا بالايهام وحجهم على الحقائق وإعدام عن سواء السبيل .

أيها المسلمون : لا عطر بعد عروس . ولا عجا بعد بوس . هذا كتاب التفسير (الجواهر) هاهذا بين أيديكم ففكروا فيه وقلبوا صحائفه وسيظهر جيل جديد سائر على منواله . فويل لمن تركوا مواهبهم وعقولهم واتكأوا على شيخ من غير تعليم ، وويل لمن نسوا نعم الله عليهم بالعقل والحواس والنم الجليلة ثم انتظروا عجيء المهدي ليهدي أبناء أبنائهم وهم لا يهتدون كأن الله عز وجل ليس هاديا للناس الآن مع أن من أممائه تعالى (المهدي) وكان النبي صلى الله عليه وسلم ليس من أممائه المهادي . الله جعل المهدي في الأرض في كل زمان ومكان ولا يحجبه إلا التقليد الذي ذمه الله في هذه الآيات إذ يقف المستضعفون أمام المستكبرين ويقولون لهم أنتم سبب جهلنا فيقول المستكبرون . كلا . بل أنتم قوم مجرمون أي لأنكم لو كانت لكم عقول ما أطعتمونها ، وكيف تركتم مواهبكم وعقولكم ؟ .

اللهم إنا نحمدك على ظهور حقائق القرآن في التاريخ الذي جعل نبراسا ونورا لمن بعدنا . فانظر أيها الذي إلى أهل الأندلس كيف قصرت أنظارهم أيام علي بن يوسف بن تاشفين ، إذ أنهم بعد أن عصوا همال الرابطين لم يفتنوا أن الفرنجة من خلفهم بل استقل كل بمملكته . لماذا هذا ؟ لأن العقول خدمت بسبب الجهل . ثم انظر إليهم بعد أن طردوا للوحدين من بلادهم كما تقدم فانهم تفرقوا شيئا وذاق بعضهم بأس بعض وذلك من نفس النعم والنفلة إما بالسوق والاكتفاء بالشعر كما تقدم ، في (سورة الشعراء) . وإما بمجمود القرائح بتعليم شيوخ يحملونهم بالأمانى قاصين وعلى الرؤساء متكئين « والله لا يهدي القوم الظالمين » .

إن الله قد أذن في هذا الزمان بظهور الحقائق ونشر المجلات والصحف سهلت على مؤلف هذا التفسير الأمر واستبان حقائق كثيرة كانت مطوية التفصيل عن أنظار الجمهور . فهذا القال الذي سأذكره هنا عن المنود يريك أيها المسلمون مضار التقليد بأوضح سبيل وهذا عار على أم الاسلام الذين بعدنا النارسين المعارفين أما أكثر الأمم الاسلامية للتأخرة فان شيوخهم فعلوا معهم بعض فعل البراهمة مع المنود وكان من حقهم

أن يكونوا مرشدى جميع الأمم لا أنهم هم يتبعون الشهوات كأولئك البراهمة القدماء والحاليين . فهاك نص المقال المذكور .

حديث الهند

(من عرف العلة في جسم غيره دفع شرها عن جسمه)

مصرع العالم تنظر إلى الهند وتصفى بأسماعها لشكواها . ومصر دون العالم بهم بأمر الهند لأن شأن تلك البلاد شأنها ولأنها تشاركنا بآلامنا كما تشاركنا بآلامها . وتنمى خلاصها كما تنمى خلاصنا وإذا قلنا الهند فقد أردنا الهند المفكرة العالمة الناهضة ، ولكن ماهى الهند ؟ أمهى كمصر أمة واحدة بلغة واحدة وعنصر واحد بجو واحد وتقاليده واحدة وآداب واحدة ؟ وهل هى نحميا حياة ديموقراطية كمصر لا يفضل فيها المصرى للمصرى إلا بعمله وبما يقدمه لوطنه ؟ لا . إنها ليست مثلنا ولا نحن مثلها فماهى الهند إذن ؟ وماهى أدواؤها لدفع شر تلك الأدوية عن أنفسنا إذا نحن أحسننا بها . إن أصدق الجواب على هذا السؤال هو بالأرقام . فالهند التى أسماها الإغريق باسم أحد آلهتها ليندرا كعادتهم فى التسمية إذا كانت شطرا من القارة الآسيوية فهى تكاد تكون بيسا منفصلا عن العالم بالماء من جهات البحار وبالجبال الشاغمة جدا حتى لا تجاز من جهات البر . مساحتها ٤٩٢٤٥٥٩ كيلو مترا مربعا يسكنها ٣١٩ مليوناً منهم ٢٤٧ مليوناً هم المستعمرة الانكليزية والآخرى ١٢ إمارة خاضعة للانكليز ، وهذا المجموع من الأهالى مؤلف من ٣٠ عنصرا وهم يتكلمون ب ٢٢٢ لغة أو لهجة وليس لهذا المجموع لغة عامة وللغاتهم ٥٠ نوعا من الكتابة ولكل كتابة من ٢٠٠ حرف إلى ٢٥٠ حرفا كذلك تعدد أديانها . وجو بلادهم يختلف باختلاف المناطق فعلى مقربة من السواحل يهبط مستوى الأرض ٢٠٩ متر فوق سطح البحر فيكون الجو محرقا بدرجة ٤٧ بميزان ستيفراد وفى أعلى القمم على ارتفاع ٨٨٩٠ مترا يجمد البرد الدم بالعروق ، جميع الفاتحين الكبار غزوا تلك البلاد وملكوها ، من سرزوستريس الفرعون المصرى إلى الاسكندر المقدونى إلى غزاة التبت الآريين الذين ملكوا ناصية تلك البلاد وأسماوا أهلها بالبارسيين النجسين ثم تفرقوا بعد ذلك قبائل وصلت إلى أوروبا وملكها وإلى العرب إلى الهولنديين والبرتغاليين الذين فتح قائدهم البحرى فاسكودى غالما طريقها سنة ١٤٩٨ إلى فرنساويين إلى الانكليز الذين ملكوا ناصيتها من فرنساويين واتخذوها مزرعة لشركة من شركاتهم إلى أن ابتاعها حكومتهم من تلك الشركة فى سنة ١٨٣٣ وأخذت بتوسيع حدودها . وظلت حتى الآن لتلك الدول التى تقدمت انكلترا أملاك وجزر فى جوانها .

والانكليز يستعمرونها للرزق والتجارة ، لأن مبادلاتها التجارية من الصادر والوارد لا تقل فى السنة عن ٥٠٠ مليون جنيه وكل استعمار للرزق ولرخاء العيش . وأقدر الدول على الاستعمار من قل رزقها فى وطنها ولا يتعب الانكليز كثيرا فى حكمها وجيشهم باحصاء ١٩٢٦ لا يزيد فيها على ستين ألفا . وكبار الموظفين على ٣٤٣٣ موظفا ورجال البوليس منهم على أربعة آلاف ، كما أن عدد الأوروبيين وأكثرهم من الانكليز لا يزيد على ٢٠ ألف ، فهل من المعقول أن يحكم هذا العدد القليل مثل ذلك العالم الضخم ؟ إن الجواب على ذلك يجده الباحث فى حياتهم الاجتماعية والأدبية : فالمسلمون وهم أرق العناصر كانوا عضد الدولة الحاكمة وهم خمسون مليوناً ، لأن حكم التفريق كان سائدا بينهم ثم الجهل الذى ترك فيه الأهالى ولا يزيد الآن عدد الذين يعرفون القراءة على ٨ بالمائة . ولأنهم يقسمون الأمة إلى طبقات يحكم شرائعهم القديمة ، فالطبقة العليا هى طبقة البراهمة نواب (الإله الأرضى) فى خلقه ، وهم فوق الجميع . ثم طبقة الكشاشرياس أى المجاهدين والمقاتلة ثم طبقة

الفاسياس أى الفلاحين والزراع . ثم الطبقة الأخيرة الحقيمة النجسة وهى السودرا التى خلقها الله لخدمة الآخرين . وعند البراهمة نص فى شريعة (باها كافلا) بأن من قتل برهانا حوله الله إلى حشرة من حشرات الأقدار إلى أن يولد ثانية بعد موته فىأتى من عنصر باريا أى السودرا ويظل أعمى عدد شعر البقرة من السنين ولا يقهر له ذنبه إلا إذا أطمع ٤٠٠ ألف برهاني، أما إذا قتل أحد البراهمة واحدا من السودرا فيكفى للفران أن ترتل العويالى وهى من أناشيدهم القدسة ليظهر . فانظر إلى قيمة هذا وذلك فى شريعهم القدسة ثم اسأل أين المساواة ؟ البرهمة من آفة الهنود منذ عهد بعيد لا يقل عن ستة آلاف سنة . كان العلم محصورا بهم دون سواهم قبل دخول الغزاة بلادهم ، لذلك زادوا على الكتب المقدسة ماجزز نفودهم ويوصفهم وكلا . (إله الأرض) وجد البغاء القدس فى المياكل لأجلهم . وحكم على الناس أن يقدموا لهم جميع حاجاتهم دون أن يقوموا بعمل ، فإذا ولد الطفل الهندى أعطوا الجعل وإذا بلغ اليوم السادس عشر من عمره أعطوا الأناوة ليظهره من رجس الولادة، وإذا بلغ الشهر الثالث أعطوا الأجر لقص شعره . وإذا بلغ الطفل الشهر السادس أعطى البرهانا الأجر عن فطامه . كذلك إذا أتم السنة . ومن السنة الواحدة الى السنة السادسة عشرة وهى سن الزواج يعقد البرهانا الزواج مقابل الأجر وكذلك فى حالة اللوث واحتراق الجثة ووضع الرماد بالحق وفى كل شهر من السنة الأولى بعد الوفاة يقدم للبرهانة كل ما هو عزيز على الميت على اعتقاد أنه يتمتع به فى آخرته وفى كل حفلة من هذه الحفلات يسلون أقدام البرهانة ويشربون ماء الغسل . تلك طبقة ليست عاطلة فقط بل كالعلق تمتص دم الأمة وتقتل همها ونفوسها لما ابتدعتها من الأحكام والشرائع . كذلك تقديس القرحتى إنه لا يموت منهم ميت إلا إذا هو أمسك بذيل بقرة من تلك الأبقار القدسة . وهم فى الصحة والمرض ياتقطنونها ويولها ويمزجونها بلبنها ويضعونه فى أحقاق ليؤكل ويشرب فيشفي من كل داء ويدخل الأكل والشارب إلى الجنة وقد بلغ عدد البقر فى سنة ١٩٢٠ مليوناً ١٤٦٦ ألف بقرة، وبلغت النفقة عليها ١١٧٦٠٠٠ (١) جنيه أى أربعة أضعاف غلة الأرض، ومن هذه الأبقار ٧٠ ألف بقرة لايجوز الانتفاع بلحمها وعظمها وجلدها، وفى كل سنة تقوم العارك بين المسلمين والهندوسيين من أجل ذبح البقر والذين يزورون الهند قد يشاهدون تلك الأبقار المحترمة القدسة والناس يترأفون لانقاط بولها بأوعينهم . بلى ذلك فى زعزعة رقى تلك الأمة ما يؤخذ أيضاً من إحصاء ١٩٢٠ أن عدد الشحاذين والدجالين خمسة ملايين و ٨٠٠ ألف وعدد الدراويش والأولياء ٤٥٢١٧٤ شخصاً فأى جسم يتحمل مثل هذا العلق ويظل توباً ؟ الهنود يقدمسون الزواج والأطفال يصلحون له عندهم من سن الواحدة فصاعداً فإذا أتم الطفلان فعل الزواج قبل البلوغ قدمت الهدايا **لوكلا** «إله الأرض» أى البرهانا. وإلهمم «سيفا» بصورونه فى كل مكان بصورة أحد أعضاء التناسل وإلهمم «فيشو» بصورة فعل الزواج . فلما قرر مؤتمر جنيف فى سنة ١٩٢٣ أن تحرم الدول نشر الصور العابرة للأداب وأن تنص قوانينها بالعقاب الشديد قابل مسلمو الهند هذا القرار بالارتياح بل بالفرح والسرور . وقابله الهنود بالسخط والغضب، فنص فى القانون الذى يحرم نشر الصور القدرية على اشتراط مخالفة الدين وسن قانون الزواج بعد ذلك على أن يكون سن الشابين بين العاشرة والثانية عشرة ونادى غاندى بهذا الإصلاح ولم يكف به وأعلن تاغور شاعرهم حرباً على هذا القانون الذى عدّه فوزاً للعادة على الروح وأصر على ترويض الأتى قبل أن

(١) هذه العبارة نقلتها من الأصل وهذا الأصل خطأ لأن غلة الأرض أضعاف هذا بعكس ما جاء فى هذه

تصير بالغة بحجة أن الأتقي في هذه الحالة لا تعرف أنها أتقي إلا وهي مبروجة . أما حجة غاندى فكثرة الوفيات وضعف النسل وشيخوخة الرجال وهم في الخامسة والعشرين ووهن النساء في سن الشباب وكانت حربا شعواء وانتهت بأن اقترح مجلسهم في سنة ٢٥ رفع سن الزواج إلى ١٤ سنة ودل الإحصاء على أن البنات اللاتي يمتن في سن الطفولة بسبب الزواج يبلغ متوسط عددهن في السنة ثلاثة ملايين و ٢٠٠ ألف وقد عرف الناس أنهم رفعوا السن في تشريع هذا العام إلى ١٦ سنة ، أما الأرامل وعددهن في الهند ثلاثون مليوناً فلا يمكن أن يتصور الإنسان على ما وصف داس وغاندى ، والس مابو الأمريكية حالاً أسوأ من حالهن مرضاً وسقماً وضعفاً . فالمرأة إذا مات زوجها كانت تحرق نفسها على قبره أو تمحرق نفسها إلى أن أبطل الإنجليز ذلك بعد جهد جهيد . أما اليوم فإنها تحلق شعر رأسها ولا تطعم إلا العيش اليابس مرة في اليوم ولا تحاطب إلا عبارات التحقير والازدراء ولا تقابل أحداً ، وقد نادى غاندى بالهنديات الرقيقات لينشرن الدعوة لزواج الأرامل ولإكرامهن وكانت فكرة هذه الجمعية موجودة منذ سنة ١٨٩١ ولكنهم لم يفلحوا حتى الآن ، كما أنهم لم يفلحوا بإبطال البغاء المقدس ، وهو أن يقدم الرجل بنته وهي طفلة للاله فيقوم وكيل الإله الأرضى مقامه وهكذا تصير الفتاة بغيا مقدسة لمن يدخلون الهيكل . وفي معبد كالى إلهة الدم المساة كالكونا باسمها ألوف منهن . ومن أسباب انحطاط الهند طبقة السودرا أى الطبقة النجسة وعددها ٦٠ مليوناً فهم في نظر الطبقات الأخرى الثلاث دون الناس فلا يجوز لهم دخول المدارس ولا دخول الهياكل ولا المحاكم ولا المخازن ولا المستشفيات ، حتى إنه لا يجوز لهم امتياز المياه من الآبار العمومية ، وفي بعض الجهات لا يجوز لهم السير بالطرقات العمومية ، وإذا وقع ظل واحد منهم على شيء أو على إنسان نجسه ، وإذا وقع على ما أكل أو مشرب حرم أكله وشربه . وإذا رأى أحدهم برهمانا مقبلاً وجب عليه الابتعاد عن طريقه نحو مثنى متر على الأقل . كما أنه يجب عليه الابتعاد عن الطبقات الأخرى نحو ٣٠ متراً ولم يتعرض الإنجليز لهذه الحالة احتراماً لأمر ملكهم في ٢ ديسمبر سنة ١٨٥٨ بالألا يتعرض أى الإنجليز لأحكام الدين والعقائد ، وهؤلاء النساء يعتقدون أن ذلك حكم الله عليهم . ولكن غاندى هب للدفاع عنهم بحجة أن الدين لم يحرم رفع هذه الطبقة إلى مصاف الطبقات الأخرى ، فمن الواجب أن ترفع إليها فقدوا في بجاي مؤتمراً ضخماً لمخاربة هذا البدأ . ولما صدر القرار في مارس بأن يكون تعليم الهنود جميعاً إجبارياً خصصوا ٦٩ مكتبة لأولاد هؤلاء النجسين وعينوا ٨١٥٧ مكتبة للآخرين وفي سنة ١٩٢٦ أصدر مجلس الشورى بيومباى قراراً بقبول أطفالهم بالمدارس وبالساح لهم بتناول الماء من الآبار العمومية ، ولما أوفدت إنكلترا المستر مونتاغو إلى الهند في سنة ٩١٧ ليسأل الهنود عما يريدون لبلادهم جاءه أناس من هذه الطبقة وقد تنورت أذهانهم من الاحتكاك بالأجانب وقالوا إنهم يرفضون الحكم الذاتي لأنه لا يكون إلا أداة لتسليم الضفدع للثعبان ، ولما نزل ولي عهد إنجلترا في يومباى سنة ١٩٢١ وأذاع غاندى رسالة قال فيها إن هذه الزيارة إهانة للهنود واحتقار لأضرب الناس عن مقابلة الأمير وسادت الاضطرابات في شوارع تلك المدينة مدة أربعة أيام فقتل ٥٠ وجرح ٤٠٠ ولكن لما أراد الأمير السفر من يومباى إلى دلهى ركب من القصر إلى المحطة وهي تبعد ثلاثة كيلومترات فاجتمع ألوف الألوف على طريقه يحبونه وسبقه ألوف إلى دلهى للعرض ذاته وكان هؤلاء جميعاً من طبقة السودرا لأنهم يحبون رجلاً قوياً وكل قوى إله وهكذا حملهم جماعة منهم على نحية ذلك الأمير فهل رأى القارى ما هي الأمراض الاجتماعية التي تجعل ٣١٩ مليون إنسان خاضعين خائفين لستين ألفاً وهم هم الذين كان من أبنائهم ٩٨٥ ألفاً في ميادين القتال للدفاع عن الامبراطورية فظهروا في ذلك الدفاع أبطالاً أشداء ، تلك أمراضهم ومن عرف مرض سواه وفي نفسه . وإذا أردنا وصفاً للهند جامعا وجدنا هذا الوصف الجامع

بين شقي قلم غوستاف ليون القائل : إن المهند حلقات أولها مع أول عهد الإنسانية وآخرها مع آخر مرحلة وصلت إليها المدنية . فهي سجل صادق لتاريخ الإنسانية وأديانها . وتقاليدها وأطوارها وضعفها وقوتها وتدبيرها ورقبها اه .

هذه صورة أهل الهند قد وضحت الآن في هذه المقالة وظهرت حقائق يتوق لمعرفة العقلاء في الإسلام . ولقد تقدم في هذا التفسير ما فعله (ابن الصباح) في قلعة اللوت وكيف تعلم تلاميذه شرب الخشيش فصاروا حشاشين وخيل لهم أن الجنة تحت أقدام رؤسائهم . وهكذا ما فعله كثير من رؤساء الصوفية . وكيف كان التدليس في أمم الإسلام . ألا إنما مثل هذه الأمم كمثل نوع من الطير يعيش في بعض الفصول في بحيرات مصر بالوجه البحري وسياسته هكذا : ينام الطير ليلا ويحرسه أربعة طيور من الجهات الأربع والتقدم هو الرئيس ، وهذه الطيور النائمة لا تطير إلا بأمر ذلك الرئيس إذا صرخ عليهن . وقد اعتاد الصيادون أن يقتلوا ذلك الرئيس بطريقة ، وهي أن يلبس الرجل على رأسه ما يشبه وجه هذا الطائر ومنقاره وهو مخنف وراء تلك الصورة وتعمم هذه الصورة على وجه الساء فيظن الطير أن هذا من جنسه حتى إذا وصل إلى ذلك الرئيس جره من رجليه تحت الماء فقتله ، فإذا أحس بذلك أحد القواد في اليمين واليسار والحلف من الحراس الأربعة أسرع وصار رئيسا بدله ، وعليه يأتي الصيادون أربعة رجال فيقتلون هؤلاء الأربعة مرة واحدة وتبقى تلك الطيور بلا قائد ، ثم يأتون إلى أرجل تلك الطيور النائمة فيكسرونها تحت الماء حتى لا تطير .

هذا فعل الصيادين في بحيراتنا كبحيرة النزالة مع ذلك الطائر ، وهذا العمل عينه هو الذي حصل في تلك الأمم الإسلامية المحكومة برجال أناموا عيونهم وأقفلوا قلوبهم . ألم تر إلى ما فعله المرابطون؟ إذ أحرقوا كتب الغزالي واقتص له محمد بن تومرت . ألم تر إلى الموحدين في آخر دولتهم لما حرموا الفلسفة وأهانوا ابن رشد كما تقدم في غضون هذا التفسير وبعد ذلك لم تقم للعلم قائمة حتى أوائل هذا الزمان .

ولقد أذن الله عز وجل بالاقبال والعز والنصر للبين . لقد نصر الله أمم الإسلام ، والدليل على ذلك نشر هذا التفسير ، فانتا والحمد لله نكتب فيه آراء الأمم قديما وحديثا ولم ندع حكمة قلت أو جلت مما نفتخر به الأمم قديما وحديثا إلا أدرجناه فيه ومع ذلك قبله المسلمون جميعا في أقطار الأرض إلا طوائف ضئيلة لا يعتد بهم ، وإني أقول بأعلى صوتي : إن المسلمين في هذا القرن الرابع عشر قد صاروا أشبه بخلام بلغ بالحلم . ذلك لأن الحروب والحوادث المرعبة في الشرق والغرب أيقظتهم وإن لم يبلغوا القرن الخامس عشر الذي اعتبرناه السنة الخامسة عشرة ، فجدير بأن تسمى هذه الأمة قد بلغت الحلم والله أذن لها بالارتقاء والسعادة ، والحمد لله رب العالمين . كتب مساء يوم الثلاثاء ١٢ نوفمبر سنة ١٩٢٩ .

نور على نور

(الكلام على البراهمة)

تفسيرا لقوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم » الخ
التي تخص على التفكير ونبذ التقليد

(بسم الله الرحمن الرحيم)

حضر صاحبي اليوم (الأربعاء) بعد الظهر (١٣) نوفمبر سنة ١٩٢٩ واطلع على ما كتبت وأخذ يقرأ طوائف البراهمة والظلم والحيف والحرافات . فقال : إن هذا التفسير قد عودنا أن يبحث في الشبه التي تعرض لنا في أثناء المباحث العلمية ، وهامى ذه الشبه ترى عند قراءة مقال البراهمة ، ذلك القال الممتع فأقول :

إن قراءتي لأكثر هذا التفسير قد جعلتني لأرى طائرا ولا حشرة ولا غزالة ولا كوكبا ولا شمسا ولا قمرأ إلا تمثل أمامي كأنه حكمة مجسمة وقبسة نورية وبهجة للأبصار، ينظر الانسان فيرى الحشرات الطائرات مملوءة حكمة مزدانة بالانقان . أليس من أعجب العجب أن يمر في هذا التفسير تقلا عن علماء الأمم في الأرض بلانسكر أن للذباب أربعة آلاف عين كل عين منها مستقلة . ألم يتقدم في (سورة النحل) أن للنملة خمسة أعين منها عينان مركبتان كل عين منهما مركبة من نحو مائتي عين . فيا ليت شعري ما هي النملة ، وما هي عيناها ؟ وما هي الذبابة ؛ وما هي عيناها ؟ وما هذه الحكم البديعة الجميلة الكثيرة التي لاحصر لها في مخلوقات منبذات قدرات محقورات ؛ وما هذه العناية بها حتى سمعنا الله في القرآن يقول : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » ثم أعقب ذلك بما يفيد أن الناس [قسيان] قسم يعلم أن هذا حق ، وقسم جاهل مستهزئ . وأيضا سمعنا سبحانه وتعالى يسمى سوراء بأسماء الحشرات من نمل ونحل وعلكبوت .

هذه عناية الحكمة الإلهية بأقدر المخلوقات وأحقها الحشرات ، فكيف عمت رحمته هذه المخلوقات كلها ثم هو نفسه سبحانه يدع دائما من نوع الانسان في الضلال والووال والحسار والجهالة العمياء ، وإذا منح الذبابة أربعة آلاف عين باصرة قد ثبتت فعلا ورؤيت بالمنظار العظيم بشهادة جميع العلماء في الأرض ، أفليس من رحمته أن يمنح أمثال هؤلاء المنود قوى عقلية ترفعهم عن هذه الجهالة والتدل والحرمان وضلال العقول التي أورثهم ذل الأبد وضيق البلد والحزى اللين .

قلت : حياك الله . لقد أجدت في إيراد هذا السؤال وحسن منك أنك أوردته لأنك فتحت لي بابا واسعا من الحكمة لولا سؤالك لم يخطر بنفسى معناه . إن الله فعل مع هؤلاء المنود من الرحمة أكثر مما منح تلك الحشرات وأعطى كل ذى فضل فضله . فقال أريد الايضاح . قلت : إن الله بهذه الأحوال الهندية كأنه يخاطب الناس قاطبة يقول : أى عبادى ، أنا حكم عدل في الدنيا والآخرة ، فهل أخرت الشمس ثانية واحدة عن موعدها ؟ أم سيرت القمر في غير طريقه ؟ أم أخلت بأى جسم من الأجسام الساجدة ؟ هل نسبت حقيرا لحقارته ، أم حايت عظيمها في نظركم لعظمتها ؟ أما ماتظنون بما يشبه الجور منى في هذه الأمم الإنسانية فذلك ليس جورا منى وإنما هي الحجب أسدلت على عقول أكثركم فلم تفهموها ، وظلمات الذنوب غشت على أفئدة أكثركم فلم تعقلوا ما نحن بأهل الهند وبغيرهم صانعون .

« أيتها الناس : أنا لا أعطى ولا أمنع إلا بحق : فلست أعطى الأطفال علم السماء ولا أمنع مستحق
 الحكمة علم الحكماء ، والناس في الأرض ليسوا على شاكلة واحدة بل هم طوائف وفرق وأصناف لكل
 طائفة شأن يضيها وحال توأمتها . إن هذه المادة قد قبلت الصلابة والسيولة والحلالت الغازية كالحديد واللآه
 والهواء فم أبجل عليها بجميع هذه الأحوال ، هكذا الحيوان اختلفت أجناسه وأنواعه وأصنافه . فله بقية
 ومنه فيل ومنه حيوان ذرى لا تزونه بأعينكم ومنه حمل كبير . أنا واسع . أنا حكيم ، وكل طائفة من هذه
 الحيوانات سعيدة بحالها فرحة بحياتها شاكرة لحالها فتكون المخلوقات كلها خوادم لي ، فهل من العدل
 أن أوسع نطاق الحيوان والمعادن والنبات والجمادات ثم أعمد إلى أرقى حيوان وهو الإنسان فأجعله في دوائر
 ضيقة . كلا . أنا واسع . أنا حكيم . تتعجبون أيها الناس من قوم عبدوا البقر وهذا البقر يطوف عليهم آتاه
 الليل وأطراف النهار . تتعجبون أنهم تركوها في سبلهم وحقولهم ترتع وتأكل ما تريد . تتعجبون من ذلك كله
 وتقولون أيضا إن البراهمة استحوذوا على عقول القوم وغشوا على أوصارهم واستبدوا (٦٠) مليوناً وحقروهم
 وعدوهم في الأذنين وهم الفريق الرابع . كلا . لا ظلم اليوم ولا ظلم في المخلوقات كلها من حيث النظام العام ، هؤلاء
 أناس استعبدواهم بيوتهم وأخلاقهم وتركيب عقولهم لا يسع أكثر من هذا . نظرت إلى تركيب عقولهم وإلى نظام
 أمورهم فوجدتهم لم يتجاوزوا المحسوسات وهذا لا عيب فيه ولا ظلم ، ألم أخلق في البراري والقفار مالا يحصى
 من الحيوان ؟ ألم أخلق في الغابات في خط الاستواء طوائف من الحيوانات والطيور ولكل منها مكان خاصي ؟
 إما في أسفل الشجرات وإما في أواسطها وإما في أعلاها ، وكل سعيد في مكانه ، مقيم في بيته ، راض عن
 ربه . فهكذا من نوع الإنسان طوائف ارتقوا عن الحيوان ولكنهم لم يصلوا منتهى الكمال وأجوا القرب
 مني ، ولكني أنا لست كمخلوقاتي . وإذا كنتم أتم لاترون الهواء ولا السكر بهاء فكيف ترونني أفن رحمتي
 إذن أن أقبض لهم أناسا يضربون لهم الأمثال المحسنة إما بالأصنام وإما بالحيوان ومنه هذا البقر . فإذا رأيتم
 البقر يطوف عليهم ليلا ونهارا وهم يعظمونه فما هذه إلا أصنام متحركة ، بمنظرها يخضعون لما يتوهجون فيها من
 القوة القدسية فيعيشون معا بسلام وأمان لأنهم يتذكرون الحلال والحرام في نظركم بالأصنام في اللدن والبقر
 في الخقول والسبل . أصنام متحركة اخترعوها ومجول سائلة عظموها . فهؤلاء ليس في طائفتهم ولا في إمكانهم
 أن يفكروا في جمال شمس وقرى وكواكب ولا في تركيب نفوسهم تفكيراً جدياً ويعرفوا بذلك مقدار عظمي
 فأعظام رؤسائهم تلك الصور والأشكال لتكون تذكرة لهم كما قلت لكم في القرآن حاكياً عن الكفار
 « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وإذا كنت أنا قد سلطت الباب على قدرى العيون وتمسخت الأجسام
 وأرسلت طوائف الكروبوات (الحيوانات الدرية) على ضعيفي الأجسام ليفارقوا الحياة في هذه الأرض رحمة
 بهم ، وخلقتم الدود وسلطته على أجسام الناس في قبورهم فذلك لأنني حكيم أضع الأشياء مواضعها ولا أعطل
 موجودا ، وكيف أعطل الأجسام اليتيمة وهي جديرة أن تكون قوتا لأمة من أمم الحيوان ، وتمطيل للنافع
 إخلال بحكمة الوجود ، فهكذا إذا ضلت أمة من أمم الإنسان على مقتضى سنن الكون وأخذت تقترب من
 أخلاق الحيوان فأنا أعطيها ما يشبه العلم رحمة بها ويكون ذلك أشبه بالهواء الفاسد يعيش فيه الناس والحيوان
 إذا لم يكن سواه ، وهواء فاسد خير من الاختناق واللوث السريع بدمم الهواء ، وبعض الشر أهون من بعض .
 وليس في طاقة أرضكم وعواملها بحسب النظام أن تكون على غير هذا النظام . ألم تروا يا مشرر للسليين
 أنكم في حال جهالتكم (كان ذلك منذ خمسين سنة وأنا مجاور بالجامع الأزهر وحصل في قريتنا كثر عوس الله
 حجازي شرقية وشاهدته بنصي) إذا قل العلم وكثر الجهل تضلوا فعل المنود مع أنكم مسلمون وأتم بذلك

فرحون ، ألم تميموا عجولا من البقر ومن الجاموس وتطلقوها في الحقول والنبطان باسم ولي من أوليائي
عندكم ذلك كان فضلا في بلادنا فيقولون هذا العجل للسيد البدوي وهذا للعزب وهكذا ، فما كان الناس ليقدروا
على طرد تلك الدواب من حقولهم خوفا من السيد ومن العزب بل اللصوص جعلت لا يجرون على
سرة تلك العجول لا خوفا من بل خوفا من عبادي اللتين (ولقد تورث بلادنا اليوم بالعلم والتبصير
تلك الأحوال) .

« تقولون أيها المسلمون إن المراهمة غشوا على عقول الهند ، أو لستم ترون شيوخ الطرق والتشبهين
بهم يذنون وبروحون في طول بلاد الاسلام وعرضها لشدة جهالة المسلمين وقلة العلم عندهم ، وهؤلاء الشيوخ
أنتم تصدقون النعم عليهم وتطلبون منهم الدعاء كأنى أنا أطلب منكم وسطاء بيني وبينكم مع أن النمل والنحل
والدباب أنتمت عليها بلا واسطة بيني وبينهم ، ألم تروا بأعينكم في جميع أقطار الاسلام في جهاتها (ذلك رأيت
بفسي في قرينتنا أيضاً منذ خمسين سنة) شيوخا مغممين بطوفون على منازلكم وينصبون حلقات الذكر
ويضي مغنيهم وأنتم تعطونها (المائة) من أموالكم (وهذا اليوم قد أتى ، إذ تور أهل بلادى الآن) وإنما
طاف عليكم هؤلاء لأنكم لما حرمت من العلم سخرت لكم قوما يعطونكم ما يشبه العلم من القصص الخرافية
وجعلت هيئاتهم تدل على الصلاح لتمبشوا في بلادكم بسلام على قدر الإمكان ، فإذا كان جهالة الشيوخ عندكم .
أيها المسلمون يأكلون من أموالكم ولا عمل لهم إلا هذا ، وإذا كان المراهمة يحقرون الشعب وينسبون عقوله
وليس لهم عمل إلا هذا ويعيشون من أموال مريديهم فذلك أن هؤلاء الشيوخ وهؤلاء المراهمة أشبه بالحكام
الظالمين الذين أسلطهم على الأمم المجرمة فيكون نفعهم أكثر من ضررهم في الحياة الدنيا لئلا يقتل بعضهم
بعضا إذا لم يكن لهم حاكمون ، قوم جهلاء لم يستمدوا للعلم فلتكن لهم صورة الصلاح يرونها بأعينهم وليأخذ
أولئك الشيوخ من أموالهم ليرزؤهم عسى أن يفكر مفكر فيخرجهم من الجهالة إلى مرتبة العلماء ، هذا هو
نظامكم في الدنيا أيها الناس .

أما نظام الأرواح ومهاتبا بعد الموت فأمره عنكم مستور ، ولكنى أقول : أيها الناس إن الأعمى هنا
أعمى هناك ، إني خلقت (حشرة الأرضة) ذات المللكة الواسعة وهي عمياء ، أفلا أخلق إنسانا أرقى منها بما
لا حده وأضعه في مرتبته بعد الموت لا يستحق سواها ، فإن كان أعمى البصيرة هنا أعمىته له هناك ، وإن
كان مفكرا هنا جملته مفكرا هناك . إذن لا ظلم اليوم . أنا خلقت النمل وخلقت الأرضة وما قالت إحداها
لما لم تخلفي كالأخرى بل كل جعل على شاكلته . هكذا أهل الهند الذين ضلوا بيقدم وأصنامهم وجمال
المسلمين الذين اتكلموا على شيوخهم وأتباع (أغانمون) في الهند من الاسماعيلية الذين قدسوا رئيسهم .
وكذلك رجال البهائية اليوم الذين انتشروا في القرس وفي غيرها وأمريكا وأوروبا . وكذلك أتباع (غلام
أحمد) بالهند وغيرها . فهؤلاء وأمثالهم يقولون إن رئيس مذهبهم هو المسيح . وعزى وجلالى لأن لم يفته
المسلمون عن التواني والكسل لأسلطن عليهم أقل الرؤساء الحكام عدلا وأجهل الوعاظ علما ، وهذا
في الحقيقة عذاب الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . أهل الهند معذبون بشيوخهم . معذبون
بيقدم وهم لا يعلمون أنهم معذبون . والمسلمون معذبون بجهالة شيوخهم وبأساطيرهم وهم لا يعلمون
أنهم معذبون . »

فلما سمع صاحبى ذلك قال : لقد وفيت القام حقه وأزاح الله عز وجل بقولك خرافات أسدلت على العقول
عينا ، ولكن أرجو أن تبين هذا للقام (أولا) أن تفيض القول في أمثال هؤلاء الذين خضعوا للمراهمة فتضرب
مثلا ما أضرم من التقليد (ثانيا) أن تبين لى نموذجاً من كتب أكابر المسلمين تدعو إلى ما يشبه بعض

الشبه ما فعله البراهمة حتى يظهر لنا بامتاحتها أنها لا تصلح لهذا الزمان ، ومتى فعلت ذلك انصرف المسلمون عن هذه الأحوال (وثالثا) أرجو أن تضرب مثلا لما تفعله بعض الأمم التي لم يقتلها التقليد في زماننا حتى يوازن للمسلمون بين من قتلهم التقليد الجاهل وبين من أحيام العلم . فقلت : إذن ذلك (ثلاثة فصول : الفصل الأول) في بيان الضرر الفعلي في بلاد الهند من سوء التقليد (الفصل الثاني) في نموذج من كتب منسوبة لبعض عظماء الاسلام تدل على الطريقة التي كانت متوارثة فيما بين الملوك ورجال الدين (الفصل الثالث) في ضرب مثل لمن صاروا أحرار الآراء وماذا فعلوا . وهالك بيانها .

الفصل الأول

(في بيان المضار الحاصلة في بلاد الهند في هذه الأيام بسبب سوء التقليد تفسيراً لهذه الآيات)
جاء في جريدة « الأهرام » بعنوان (رسالة الهند بالبريد الجوي) من مدراس بتاريخ (١٧) أكتوبر سنة ١٩٢٩ م ما نصه :

كانت الجمعية الهندية التشريعية في خلال الأسبوع منهمة بمشروع إصلاح اجتماعي نال الشيء الكثير من اهتمام أعضاء الحكومة والرعماء الوطنيين وهذا المشروع هو من اقتراح رامي (هريلاس سردا) أحد الأعضاء الخصوصيين وهو عبارة عن مشروع قانون عقوبات على زواج الذكور قبل سن الثامنة عشرة والاناث قبل الرابعة عشرة وقد اجتاز هذا المشروع الصاعب الأولية بفوز ونجاح . وذهبت جميع مساعي المدافعين عن تقاليد المذهب الهندي وبعض المسلمين أدراج الرياح ، وتقرر النظر في المشروع مادة مادة . ولا ريب أن ما لقيه هذا الموضوع من التأكد العظيم سيقنع العالم الخارجي أن الرأي العام في الهند قد بدأ يتور على العادات القديمة وهذه علامة تبش على الرجاء . إن الزواج في الهند يكون عاما للنساء والرجال . فالهندو يكونون يكررون في الزواج أما عنصر البارسي فلا يتزوجون إلا كبارا وهناك شعبة من الهندو كيين تميز تعدد الزوجات وطائفة السكوليين من مذهب البراهمة يتزوجون أكثر من زوجة واحدة والمسلمون وإن كانت ديانتهم تبيح زواج أربع نساء فانهم لا يتزوجون عادة أكثر من زوجة واحدة . ولا تزال عادة الزواج بالأسير شائعة في طائفة الحول في أواسط الهند . والهندو كيون يعتبرون الزواج سرا مقدسا والزوجة الهندوكية تعتبر شريكة مساوية لزوجها . ولا تزال سينا زوجة رامنا بطل لاما يانا لدى الهندو كيين المثل الأعلى للزوجة . وحسبنا أن نقبس هنا ما وصف به جنكا والسينا ذلك الملك الحكيم ابنته عندما زفها إلى عروسها البطل (السرراما) فجاء وصفه مطابقا لما بعده الهندو كيون المثل الأعلى للزوجة في كل عصر ، وقد قال مخاطبا (السيرراما) شعرا مؤداه : (هذه هي سينا ابنة جنكا التي هي أعز عليه من الحياة . وستكون من الآن فصاعدا شريكة فضيلتك أيها الأمير وزوجك الأمين . وستشاركك في السراء والضراء في كل بلاد . فأكرم مشاها وتلطف بها في الهجة وفي الأحران وضع يدك في يدها . إن الزوجة الآمنة يجب أن تكون كالظل لزوجها لا تفارقه . وبنق سينا خير النساء ستبصك في الموت والحياة .

إن مراسم الزواج في الهند بديعة يعقها الشيء من الأفراح والسررات ، والطلاق نادر عند الهندو كيين ولكنه شرعي جائز عند المسلمين . أما البارسيون سواء من المسيحيين أو البوذيين فنسبة التزوجين منهم إلى غير التزوجين هي ٤٣٨ في الألف من الذكور و ٤٦٧ في الألف من الإناث . وتكاد تكون هذه النسبة ذاتها في الطوائف الأخرى . والزواج المبكر شائع لدى بعض طوائف الهندو كيين والاقتران قبل سن العاشرة أكثر شيوعا في باهار وأوريسا وبنجاب وأواسط الهند وحيدر آباد ، وهو نادر جدا في عسام وبورما وولايات الحدود الشمالية الغربية والسند ، ولكنه على كل حال قاصر على الطبقات الدنيا غير المثقفة . فكثيرا ما يتفق أن يقترن شيخ فان بضاعة في ربيع العمر وهذا بنوع خاص عند الهندو كيين . فالوالد الذي يهب بنته لقاء قبضة من الذهب للشيخ بقية أيام حياته معدودة يكون بعبارة أخرى قد ابتاع لها الترميل الأبدي وهو نوع من قتل الأطفال ،

ولسوء الحظ لا ينهى عنه القانون إلا في ولاية ميسور الراقية حيث لا يجوز قانونا أن يقترن رجل في الخمسين من العمر بفتاة دون الرابعة عشرة من عمرها وفي بارودا قانون يمنع زواج البنات دون الثانية عشرة من العمر والغلام دون السادسة عشرة. وهذه الأعمار ليست طبعاً آخر ما يقال ولكن بقية الولايات الهندية حتى الهند البريطانية لم تقند بهاتين الولايتين الراقيتين اللتين بحكمهما أمراء متورون أحرار البادية من الهندوكيين ولم ينسج على متوالها عدة أسباب ، والذي زاد هذا النظام ضرراً هو ما يتبعه الهندوكيون في مسألة الأرامل لأن مذهبهم لا يجيز زواج الأرملة وإن كانت في زهرة صباها حتى ولو كان الزواج لم يعد عقد الحنطة . ويبلغ عدد النساء الأرامل في الهند ثلاثين مليوناً ، ومعنى ذلك أن بين كل مائة امرأة ١٩ أرملة مع أن نسبة الأرامل في أوروبا لا تزيد على ٩ في المئة ، ولكن بينما لا يوجد بين أرامل أوروبا سوى ٧ في المئة دون سن الأربعين من العمر يوجد بين أرامل الهند ٢٨ في المئة دون هذه السن ، وما يدهش قراءكم أن هناك ١٦٠٠٠ أرملة في الهند لا تتجاوز سنهن خمس سنوات ، وهناك نحو ألف أرملة لا تزيد سنهن على سنة واحدة . فالقضاء على هذه المخلوقات البرية أن تفضى العمر في الترميل مع ما فيه من الحرمان عند الهندوكيين سخافة جنائية .

وقد اهتمت الطبقة المتعلمة أخيراً وبذلت كل مافي وسعها لإلغاء هذا النظام المتعلق بالأرامل . وتبدل الآن مساع عظيمة من عدة مصادر لتشجيع مشروع زواج الأرامل الذي أيسح قبل الآن بفضل جهود الصالحين ومن مجموع أرامل الهند عشرون مليون أرملة من الهندوكيين فهذه المسألة وغيرها من المسائل الاجتماعية كزواج الأطفال والأمومة المبكرة قد انتقدت أشد انتقاد ولاسيما من الكتاب الغربيين ، وأخص بالذكر منهم (لس مابو) الكاتبة الأمريكية الشهيرة التي صورت هذه المسائل تصويراً مجسماً وأفاضت في وصف هولها وشاعتها ، وقد ذكرت في رسائلها الماضية الجهود التي يبذلها زعماء الهند لتحسين حالة المرأة الهندية . والحقيقة ترغمني على القول أنه حتى نهار أمس كانت حكومة الهند أكر حليف للرجعيين الذين يابون إصلاح النظام الاجتماعي من جميع الطوائف . وبالرغم من هذا كله فإن الحوادث سائرة سيراً سريعاً وشعرت الحكومة بأنها مرغمة لأن تعين لجنة تمثل الهندوكيين والمسلمين للنظر في مشروع تحديد سن الزواج . وقد كان العضوان المسلمان في هذه اللجنة كلاهما من معارضي المشروع ولكن أحدهما وهو منان شاو وأخا ن رأى نفسه أخيراً مرغماً بالأدلة الساطعة التي قدمت إلى اللجنة على أن يغير اعتقاده فاعترف في الساعة الأخيرة أن زواج الأطفال المتبع حتى الآن يجب أن يحرم وتغرض على مرتكبيه العقوبات وأن معارضة المتمسكين بحرفية أصول المذاهب يجب ألا يأبه بها بتاتا . وكانت سيدة هندية ضمن أعضاء هذه اللجنة . وقد أصدرت هذه اللجنة قرارها قبل انعقاد جلسة الجمعية التشريعية الحالية . وبما استوقف الأنظار في أثناء التحقيق الذي كانت تقوم به اللجنة هو ازدياد الرأي العام الذي يؤيد فكرة وجوب تغيير مشروع قانون عقوبات زواج الأطفال واعتبار البغاء الخارج عن دائرة الزواج جريمة خطيرة قبل سن الثامنة عشرة وهي السن التي يمكن اعتبار المرأة فيها راشدة وأن ما ارتكبه يكون برضاها . وفوق ذلك فإن البعض طلبوا بالحلف أن يعتبر البغاء جنائية بصرف النظر عن سن المرأة . وقد أوصت اللجنة بوضع قانون يحدد النهاية الصغرى لسن زواج البنات ١٤ سنة ، وأوصت بأن يكون سن الرضا بدخول الزوج على عروسه ١٥ سنة . وأن يكون سن الرضا لصيانة البنت من إغواء شخص غير زوجها الشرعي ١٨ وأن يعتبر دخول الزوج على عروسه قبلما تبلغ سن الخامسة عشرة جريمة تدعى سوء استعمال حقوق الزواج . وأنه لما كان كل شيء يتوقف على سن البنت أوصت اللجنة بوجوب اتخاذ تدابير فعالة لتسجيل المواليد وتسجيل عقود الاقتران وإصدار شهادات بالولادة والزواج . في جو مثل هذا عقدت الجمعية التشريعية جلستها أمس للنظر في مشروع قانون زواج الأطفال المعروف بمشروع سردا . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني

﴿ في ذكر نموذج من نماذج الكتب الإسلامية التي تدعو إلى ما يشبه بعض الشبه
مافعله البراهمة في الهند ﴾

ها هو ذا أمانى كتاب [سر العالمين] لأستاذى وأستاذ للسلمين جميعا (الإمام الغزالي) وهذا الكتاب
بخالجي في نسبه إليه شكوك بل جمود لأن فيه ما يخالف طريقته ، ولكن الكتاب فيه آراء هي التي
ظهرت في كل زمان ومكان بأمثال للهدويين كابن تومرت التقدم ذكره وشيوخ الطرق ، الكتاب صفحة
واضحة بها يتجلى للشبان بعدنا كيف كان رجال الصوفية ، وكيف كان الملوك يوهمون الشعب ويخضعونه ،
ويغفلون بعض ما يفعله البراهمة أيام أن كان آباؤنا في أزمان طفولية الأم الإسلامية فحببوا عن العلم ، الكتاب
كله يرجع إلى جملة واحدة ذكرها العلامة (ابن القفج) في كتاب [كليلة ودمنة] الذي ترجمه من الفارسية
إلى العربية وهي : يجب أن تكون أحد رجلين ملكا عظيما أو ناسكا عابدا ، وهذه الآراء بانتشارها في الاسلام
أضلت الأمة ، فكل متعلم يتعالى على الشعب إما بالعظمة العلية وإما بالعظمة الروحية والزهد . وهذه العظمة
يأبأها الاسلام . فالأمة كلها متعاونة . وطى كل أن يكون له عمل يوائى قدرته فتكون الأمة كجسم واحد هفا ،
ولأصمك شذرات من الكتاب تبين مقاصده . وهاك نصها :

قال السيد الامام زين الدين حجة الاسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي قدس الله روحه ونور
ضريحه : لما رأيت أهل الزمان همهم قاصرة على نيل للقاصد الباطنة والظاهرة وسألني جماعة من ملوك الأرض
أن أصنع لهم كتابا معدوم المثل لنيل مقاصدهم واقتناس المالك وما يعينهم على ذلك استخرت الله فوضعت
لهم كتابا ، وصميت بكتاب [سر العالمين] ، وكشف مافي الدارين [وبوته أبو ابا ، ومقالات وأحزابا . وذكرت
فيه مراتب صوابا . وجعلته دالا على طلب الملكة وحاتا عليها ، وواضعا لتحصيلها أساسا جامعا لمعانها .
وذكرت كيفية ترتيبها وتديرها . فهو يصلح للعالم الزاهد ، وللعالم المالك بتطبيب قلوب الجند وحثهم إليه
بالمواعظ . فأول من استحسنته وقرأه على بالمدرسة النظامية سرا من الناس في النوبة الثانية بعد رجوعى من
السفر رجل من أرض المغرب ، يقال له محمد بن تومرت من أهل سلمية ، وتوسمت منه الملك ، وهو كتاب
عزيز لا يجوز بذله لأن تحته أسراراً تفتقر إلى كشف إذ طباع العالم نافرة عنها ونحته علوم عزيزة وإشارات
كثيرة دالة على غوامض أسرار لا يعرفها إلا غول الحسك ، فأنه يوفقك للعمل به فانه دال على كل ما يريد
إن شاء الله تعالى .

وقال أيضا [فاركب بسر علو الهمة وحصل الانتهاء لئيم لك كباؤها وصبر عندك ندما كاتما مطلقا على كتبها
أعنى بها كتب سر العالمين ، ثم حصل أرباب صناعة التقلب الذين هم علماء تقلب السكيا . فادربن على صبيغ
الأحمر والأبيض ، فان كنت قليل الرجال ضعيف العزذ وقليل المال ، فكن كثير الفضل والعلم واتخذ لنفسك
زاوية على طريق الزهد واجذب إليك تلاميذ وكثر عددهم واتخذ طريق السكرامات لينصبوا إليك واسهبوا
السكيار واسلك طريق الصلاح وزنها لنفسك واختل . فاذا هب نسيم سعادتك فاكشف لتلاميذك ما للناس
عليه من الفسق والفجور وارتابك مالا يجوز من كل أمر منكر ، وأمر أمحبابك تستهوى وتجدب كل طائفة
منهم قوما آخرين] .

وقال أيضا : وقد شاهدت محمد بن الصباح إذ تزهد تحت حصن الموت . وكان أهل الحصون يشتهون

أن يطلع إليهم فلم يفعل وهو يحصل للمريدين ويعلم طريق الإرادة والتلذذة وشيئا من الجدل . ثم جعل بمهضر
بكلام على قدر عقولهم . ثم جذب الناس وجعل يقول للمريدين : أما ترون الناس قد تركوا الشريعة ، فلما
كبر الأمر خرج إليهم بطريق الأمر المعروف والنهي عن النكر ، فصبا إليه خلق كثير . وخرج صاحب
القلمة إلى الصيد والتلذذة أكثرهم أهل القلعة فتحتوا الحصن ودخله وقتل الملك في الصيد وقتل أمره ومذهبه
حتى صفت في الرد عليهم كتابا وسميته [قواصم الباطنية] ومنتظرهم فلا بد في آخر الزمان أن يهجروا الشرائع
ويبيعوا الحرمات .

وقال أيضا « ولما مات هارون استغلت الأيمن وفرّ المأمون إلى مدينة أصفهان ومعه الحسن بن سهل
وكان للمأمون ظنون وعلوم وآداب فقه المأمون في المسجد الجامع وقد فرشه بالبلد زهدا والناس يهرعون
إليه لتعلم العلوم ، وابن سهل يؤمهم إلى الطوائف ويقول لهم اليس هذا هو الخليفة حقا فبايعوه ويقول لهم سنة
هذا سنة الأولين الطاهرين : فلم يزل يستدرك الناس حتى حوى عسكره ثمانين ألفا ، وكانت الأعاجم تسمع
بطريق الأيمن الفوائد ففروا وطلبوا للمأمون حتى عقد الجيوش لظاهر بن الحسين فدخل على الأيمن فقتله
واستولى للمأمون . فكم من هذه الحير النغولة وإنما نسمعك بعضها تقوية وإعانة لهنتك » .

ها هو ذا حين ما في الكتاب . وقد يذكر إظهار الكرامات وذكر حسن بن الصباح . وأنت إذا قرأت
الجزء الأول من الكتاب أتقت أن ما فيه هو ما فعله محمد بن تومرت . وأذكرك بما مر في : (سورة الشعراء)
من أن كثيرا من الأمراء كانوا مشغوفين والأمم تتبعهم بالتقليد . وانظر نبذة مما جاء في الجزء الثاني من
كتاب (سر العالمين) المذكور هناك صها .

واعلم أن لك من حبيب أهله وطائفة تخرع لها مذهبا في الناموس بطريق الزهد كالسبع والرفعات
وجلود النعم والبرانس وأذان الليل والانتطاع في الكهفان وكبر الأمور بحيث أن يقول لصاحبه اذهب في
الوضع القلاني كذا وكذا وطائفة تظهر النور وأخرى تعبد بين القبور وإظهار الحزبيلات والبرنجيات
بمرض الكرامات ودهن الأقدام والحوض في النار وإظهار الحرق من سمندل الصين التي يذهب وسخها
النار ومد أشعة وضرب طلسم على النمل فيعبر الماء ووقوف المجادة في الهواء وشعلة القناديل وإشعال السراج
بالماء دون الدهن وكثير من ذلك لا عدد لها . والفرق بين المعجزة والسحر والكرامة هو دوام الشيء
وإظهاره للناس كالقرآن المجيد فهو المعجز الأكبر والناموس الأعظم [اه] .

إن هذا الكتاب أكثره أو كله مدخول على الامام الغزالي . وقد قلت لك إنه صفحة من تاريخ المهديين
وأكثر من الأمراء والرؤساء الروحانيين وغيرهم .

فقال صاحب : يا سبحان الله . إنك إذن تنكر كرامات الأولياء (وبجارية أخرى) إن كتابك هذا
إنكار لأعز شيء عند المسلمين وهي الولاية . فقلت حاشا لله أن أنكر الولاية والله سبحانه وتعالى يقول
« ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا
وفي الآخرة » . فقال نعم وسكتك وازنتهم بالبراهمة وقلت إن هؤلاء الأكارب يسيطرون على الشعوب بأحوالهم
وبأعمالهم . فقلت : أنا أقول لك إن هذه الحياة غير ثابتة ونحن على الأرض أباما معدودات ولا بد لنا
من السفر منها وتوديع أهلها والحياة بدون حب حياة محولة ، والمهبة للجمال والجمال وللولد والملك والوصيت
والذكر الحسن لا تدوم ، لأن الجمال وما بعده في الأرض كلها زائلات سريعات العطب ، والعلماء لما فكروا
لم يجدوا مهربا : أجل من كل محبوب إلا من هو منبع للجمال والجمال والملك والوصيت ، وليس يحظى الجمال
ولا الملك إلا من يملكه فلولا أن صانع العالم أجل من كل جميل ، وأحكم من كل حكيم ، وأعظم من كل عظيم

ما خلق الجمال ولا الحكمة الخ لأن فاقد الشيء لا يعطيه . هنالك جعلوا حياتهم كلها وقفل على [أمرين] العلم بذلك الجميل المحبوب بدرس مصنوعاته ، والعمل لاسعاد أشرف من على الأرض وهو نوع الانسان . فالولي هو الذي انتصف بهاتين الصفتين وهما العلم بهذه العوالم حتى يحب الصانع والشمى في إسعاد الأمم ، إن ذلك الولي يرى أن محبوبه الذي عرفه بمصنوعاته له عناية تامة بكل مخلوق على الأرض ، فهو إذن يحب ما أحبه ويسعى في إسعاد عباده وأقربهم إليه بنو آدم ، فأنه علم وحكيم في صنعه ، فهذا أيضا يعلم وتسكون له أعمال سالحة متقنة إتقاناً تاماً بنظام بديع . وكل صانع متقن صنعه سواء أكانت الصنعة تأليفاً أو آلة نافعة للناس كان قربه على مقدار إتقان صنعه بمقتضى درجته .

قال صاحبي : هذا حسن ، ولكن ما تقول في الكرامات ؟ قلت : هذا هو بيت القصيد . لقد تقدم في هذا التفسير ما نقلته عن الشيخ الخواص والشعراني والديبغ من كبار الأولياء في الإسلام إذ أجمعوا أن الكرامات ليست مقصودة لذاتها . وأن الصالح إذا ظهرت على يده خوارق العادات إن فرح بها واطمأن كانت سبباً في حرمانه وإذلاله وطرده ، لأنه لا فرق بين المال وبين تلك الكرامات حتى قال الشيخ الديبغ : [إن من كشف له عن العوالم العلوية يكون في خطر شديد ، وهذا الفتوح أكثره عذاب واستدراج وبعد عن الله فالحجاب خير من هذا لأن هذا الفتوح يخر النفس فتقف عن الرقي فيكون استدراجاً قال الله تعالى « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » فهذا القول إجماع من القوم] .

فقال صاحبي : ولكن النفوس الإنسانية يدهشها أن ترى إخباراً بالغيب أو أموراً خارقة للعادة ، فمن حقها أن تتبع أولئك الذين ظهرت على أيديهم تلك الخوارق : قلت : هذا هو الذي جاء الرسل لئله وإنكاره . إن خوارق العادات المنقولة عن الشيوخ أكثرها كاذب ، والذي صدق منها ليس يدل على الفضيلة لأن الفضيلة كما قدمت في العلم والعمل ، وأما هذه الخوارق فليست من خواص دين الإسلام بل هي أمر عام عن المجوس واليهود والنصارى وعباد الأوثان . فكيف في البراهمة من مجبرين بالغيب . وكف في الأمم الوثنية من لهم أعمال خارقة للعادة . وهؤلاء وهؤلاء يموتون ولا فضل لهم إلا أن الناس يهدونهم الهدايا ويقدمون لهم القرابين . فجزاؤهم قد أخذوه في الدنيا . وقد قدمت لك قول الشيخ الخواص للشعراني [إن الولي يحب عليه أن لا يأخذ من الناس شيئاً] وأنه إذا أقبل الناس عليه كان هذا الأقبال جزاءً معجلاً في الدنيا فيموت مفلساً لا له ولا عليه ، وربما مات مديناً ولا ثواب له بعد الموت .

وإنما ذكرت لك كلامهم (وأيضاً أحبك على كتبهم) لأن أعلم أن الأمم الإسلامية توقن اليوم إتقاناً تاماً بما يقوله نفس هؤلاء الأولياء رحمهم الله ولئن يقدر أحد أن يقول . كلا . وأعظم الكرامات العلم وإحساس النفس بحب صانع العالم ثم الشوق إلى لقائه . ومن لم يدل هذه للرتبة وهي الشوق إلى لقاء ربه وجهه والقرام به واستظار الموت لفقائه فهذا ليس ولياً . ومن تعدت به همته عند إعظام الناس له بسبب كراماته فهذا رجل جاهل مسكين أحب الدنيا وانقطع لها بقلبه والناس من غفلتهم يقبلون يده . فقال : وما دليلك ؟ قلت قوله تعالى « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبشكم بما كنتم تعملون » .

قال صاحبي : إن هذا القول منك حسن وأنا نظرت ما نقلته أنت في هذا التفسير عن هؤلاء الأولياء ، ولكن لماذا لم يقل القرآن ولا النبي ﷺ هذا ؟ القرآن مملوء بخوارق العادات غسبنا ذلك فيها وفيمن ظهرت على أيديهم . فقلت القرآن هو الذي نزل لإقفال هذا الباب ، ألم ترى إلى عجل السامري إذ عبده بنو إسرائيل إذ رأوه أفضل من عصا قلبت حية وإلى سحرة فرعون كيف آمنوا الأنهم علماء ، إذن المدار على العلم

لا على هذه الخوارق والله يقول «أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم» الخ وأذكرك بحديث الدجال ذلك الذي تظهر على يديه خوارق العادات ، فانظر حديثه الذي رواه البخاري بسنده عن الغيرة بن شعبة «أن الغيرة قال له يا رسول الله إنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء قال هو أهون على الله من ذلك» ويقول الشيخ عبيد الدين النووي عن القاضي عياض [إنه شخص ابتلى الله به عباده فأقدره على أشياء من القدورات من إحياء الميت الذي يقتله ومن ظهور زهرة الدنيا والحصب معه وجنته وناره واتباع كنوز الأرض له] . إلى آخر ما قاله انظره فيما نقله الحازن في تفسير آية «خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون» في تفسير (سورة المؤمن) وهي سورة غافر .

وأنا أقول: إنما جاءت مسألة عجل السامري في القرآن وجاء أمر الدجال في الحديث وحذر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين منه وأفادهم أن الأنبياء حذروا قومهم منه . أقول إنما جاء ذلك كله ليعرف قراء هذا التفسير وأمثاله أننا نحن الآن قد خدعنا الدجالون في داخل الإسلام وفي خارجه ، وقد يكون الرجل دجالا ولا علم له بحاله . وكل من صد الناس عن الحكمة والعلم وأرجعهم إلى طريقته وحده فهو دجال علم أو لم يعلم . فإذا يصنع الله للمسلمين بعد هذا . ذكر لهم في القرآن أن المدار على العقل والفهم . إن عجل السامري عبده الجهال وأما العلماء فلا . وأخبرهم صلى الله عليه وسلم أن الدجال تكون على يديه خوارق العادات ، وأن جنته يجب الاحتراس منها ، وأن ناره تصير بردا وسلاما على داخلها .

وأنا أقول كما قلت في مواضع كثيرة من هذا التفسير [العلم والعمل صعبان على الناس والجهل والحلوة والتذكر مع إهمال أعمال الحياة سهلة على الناس] فليزج المسلم بنفسه في العلم والعمل وإن كانا شاقين عليه فهما سعادة له في الدنيا والآخرة . أما الكسل فإنه معطل للمواهب وهو جنة ظاهرا وجهنم حقيقة . وإذا وجدنا أن عيسى قتل الدجال فلنقتل نحن الدجالين في [أم الإسلام قتلا أدبيا بأن نعم التعليم في ديار الإسلام ، فالعلم وحده يقضى على الحرافات وحبى النفوس . فالمسيح رمز للعلم والدجال رمز لأولئك الذين أضلوا الأمم وهم جاهلون . لادجل أكثر من الجهل . انظر إلى الأمير عبدالقادر الجزائري . ذلك الرجل الحكيم كيف حارب الفرنسيين سنين وسنين . ولكن لما عم الجهل بلاده جاء عالم فرنسي وصار مطلعا على أسراره . ومن هنا غلب المسلمون على أمرهم لأنهم لم يقرءوا تواريخ الأمم قتل احتراسهم . ثم انظر إلى محمد أحمد المهدي السوداني ظهر للناس بالكرامات ولكن لنقص العلم بأحوال هذه الدنيا لما أسلم رجل نساوى كان في الجيش الإنجليزي (اتمنه) وبه وحده فتح السودان ، ولقد كان ينام على باب المهدي ويبيت به يقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله الله محمد أحمد المهدي ولي الله) وهكذا .

فقال صاحبي: أنا الآن اكتفيت أن تلك الخوارق لا تقيم أمة وأن المدار على العقل . فهل لك أن تحذني عما رأيت أنت منها؟ فقلت انظر كتاب الأرواح تأليني . فلقد مر في هذا التفسير منه كثير وهو مملوء بجانب الخوارق السجية على يد الأرواح المحضرة من إحضار الفاكهة في غير أوانها ومن الإخبار بالغيب الخ . وإن أحدثك حديثا حصل في مصر . وذلك أني يوما كنت جالسا مع المرحوم صديقي حسن باشا جلال في منزله بالاسكندرية فحضر صدفة مستشار كبير في محكمة الاستئناف وقال أنا أريد أن أحدثكما حديثا عجيبا أنا كنت قاضيا في قنا بصعيد مصر فحضرت عند عمدة البلدة وكان هناك رجل يسمى الشيخ سليم فقالوا له أظهر شيء (البك) أي القاضي فرفض وأبى فألحوا عليه ثم قالوا للبك اطلب شيئا فقال أطلب منك أن تحضر لي زجاجة (فيها روائح عطرية) قال وهذه لا تكون إلا بالاسكندرية ، فقال له : حالا أعطني (٢٥) قرشا فأعطيتها له فرماها في الجو وصار يضرب على عجب ذنبه في مؤخر ظهره ثلاث دقائق . ثم قال ضع يدك

في حبيك قال فوضعت يدي في جيبى فوجدت الزجاج قد هشت وقرأتها وهي باللغة الفرنسية وعجت أشد العجب ،
 فقال للرحوم حسن باشا جلال ديبى يمنع ذلك وكنت لم أطلع على علم الأرواح الحديث اطلاقا تاما ولم أولف
 كتاب الأرواح . فقلت إن كتاب الاشارات لابن سينا فيه أن بعض النفوس الانسانية تقدر على أعمال عظيمة
 وعلى إخبار بالغيب ، وضرب مثلا لذلك بأن الترك يأتون برجل يعرفونه ويربطون حبالا في رقبته وينهبون
 به ويحبثون فيغشى عليه فيخبر بالغيب . وهكذا يقول : إن قوما يضمنون قطرة حبر في زجاجة فيها ماء
 ويأمرمون شخصا مخصوصا فينظر إلى تلك النقطة نظرا طويلا فيخبر بالغيب [وانتهى المجلس على ذلك . ثم إن
 الشيخ سلما المذكور سمعت بعد ذلك عنه من كثير من القضاة والمستشارين والمحامين والعلماء والمدرسين
 غرائب تفوق التصور ومع ذلك كان رجلا جاهلا . ثم إننى لى أصحاب من شيوخ الطرق أخبرنى عبر واحد منهم
 أنهم يتظاهرون بالإخبار بالغيب إيهاما للعامة واستحوذا على عقولهم .

فقال صاحي : أنت الآن علمتى علما إقناعيا أن هذه الخوارق ليست مقصودة ولا نافعة بل قد تكون
 ضارة فهل يوافقك علماء الاسلام على ذلك ؟ فقلت إنهم يقولون [إن خوارق العادات كما تكون على أيدي
 الأنبياء تكون على أيدي العامة وعلى أيدي السكاذبين والفاسقين وتسمى على يدولى كرامة وعلى يد النبي
 معجزة وعلى يد الجاهل معونة وعلى يد الفاسق استدراجا] فقال والله هذا عجب فأرجو الآن أن نختم هذا
 القول بمحادثة تكون مدونة في الكتب موثوقا بها عند الأمم التي تعيش معنا حتى تكون مقوية لما ذكرته
 أنت لأن ما ذكرته أنت يسمى خيرا لإنسان واحد ولكن ما ذكره عن أهل العصر يكون قد اطلمت عليه
 الأمم وأقرته . فقلت : أحدثك عما جاء في [مجلة الجديد] تحت العنوان التالى وهذا نصه :

أشموذة أم علم ؟

اعلم أن (هودينى) رجل ساحر أمريكي كان يعيش في عصرنا هذا واشتهر بأفعاله الغريبة التي برّ بها
 كل ساحر سبقه حتى إذا مات منذ سنوات دفن معه سر كثير من أعماله التي لم يجد لها الناس تعليلا ، فمن
 ذلك أنه يأتي بكرة ضخمة يدخل فيها رجلا ثم يربط شرائط السكر إلى بعضها ويطلب من الرجل أن يخرج
 من الكرة دون أن يمزقها ودون أن يفك الشرائط ، وهذا العمل مستحيل كما هو ظاهر ، ولكن هودينى
 استطاع أن يفعله بكل بساطة وسهولة ، ويحبس (هودينى) نفسه في تابوت من الرصاص أحكم إغلاقه ثم يدفن
 على عمق ستة أقدام من سطح الأرض فاذا بك تراه أمامك بعد لحظة ، وقد يدخل أيضا إلى الخزائن الحديدية
 المائلة التي تستعملها البنوك الكبيرة وتوصد الأبواب النخمة عليه ولكنه لا يلبث أن يبدو لك كأنما هبط
 من السماء ، وهزأ (هودينى) بجميع سجون أمريكا وأوروبا كما أن الأعلال لا تستمر في يديه إلا ربنا بعض
 توان معدودة فاذا بداه طليقتان وإذا هو حر يرحل ، والآن بعد أن مات يتساءل الناس : كيف تسنى له
 أن يمارس كل هذه العجائب ؟ ويقول (السر ارثر كونان دويل) إنه يعلم هذه الظواهر الغريبة بأن لهودينى
 القدرة على التحلل من الحالة المادية ، ولكن هودينى نفسه سحر من هذا الرأى الذى يريد أن يقرره (السر
 ارثر كونان دويل) فقد كتب هودينى يقول :

[لست أتحلل أو أتحد ، وكل ما فى الأمر أنى أحكم فى إرادتى وأسيطر على الأشياء المادية على طريقة
 أفهمها وحدى ولا يستطيع أن يفهمها سوى ممن قد أبوح لهم بأسرارى ، على أنى أرجو أن أدفن بأسرارى
 معى لأنها لا تفيد الإنسانية ، وإذا عرفها بعض عديمى القمة تسنى لهم بواسطتها أن يسبثوا إخوانهم] .
 ولقد بلغ من ركون (هودينى) إلى كفايته وقدرته الشاذة أنه سجن نفسه فى سجن (سيبريا) الشهر

الذي يفخر به البوليس الروسى باستحالة الهرب منه على أى سجين، ولكن (هودينى) استطاع أن يرى الضوء بلا مشقة، ولقد قيد (هودينى) بالسلاسل الضخمة وربط إلى فوهة مدفع تنطلق منه قنبلة بعد ربع ساعة ولكن هودينى تخلص من قيوده فى ست دقائق .

وجملة القول أن (هودينى) أتى بعجائب عجز فيها العقل ومازلنا حتى الساعة نجعل شأنها . انتهى ماجاء فى المجلة المذكورة ، والله أعلم .

فلما سمع صاحبى ذلك قال : لقد وضع الأمر وسرفنا لماذا ذم الله التقليد ؟ والله لقد كنت فى حيرة وشك فى أمر أمة الإسلام ، فبينما أنا أقرأ تاريخ النبى ﷺ وأصحابه فأجدهم قد تضافوا فى خدمة النوع الإنسانى وهدايته فمات عمر مقتولا وعثمان كذلك وعلى كل هؤلاء كانوا صادقين صالحين لم يحبوا الدنيا، ومع ذلك لم تنقل عنهم هذه الحوادث المدهشة . أقول : فبينما هؤلاء ، كذلك إذ أنا أجد جميع مشايخ الطرق الإقبالية وكذلك المهديين كابن تومرت وغيره ، كل هؤلاء تنقل عنهم أحوال لم ترد عن الصحابة والتابعين فيحار الإنسان . أرجع إلى الصدر الأول وإلى فعل رسول الله ﷺ فيكون بلا كرامة ولا يقبل عليه الناس إقبالا روحيا ، أم يترك الدنيا ويزهدها عسى أن يتبعه الناس ويقبلوا عليه ويكونوا له أعوانا وأصحابا ؟ فإن لم يصل لهذا فقد أراح نفسه من الناس واستراح فى منزله وتعبد لربه وصار وليا وانتهى الأمر . قال : فأقول الآن إن هذا كله أصبح فى نظرى جهالة ، وأنا أقول أنا الآن مطمئن لقولك وسأرفع صوتى بين المسلمين قائلا لهم بالبرهان لا بالتقليد .

« أيها المسلمون جميعا : نحن اليوم مغرورون فكونوا جميعا عاملين علماء مفكرين ، وإياكم أن تخذعكم قوم عن طريق النبى ﷺ وأصحابه وصلوا بالليل لتقربوا من ربكم ، ولا تشغلوا أنفسكم بما لا يفيد دنيا ولا أخرى . فقلت له : لقد فتح الله عليك وأرشدك يقينا بأن هذه الطرق القديمة ضارة بالمسلمين فأتت لهم وإنما طرق دجل وخداع وإن كان بعض أصحابها مخلصين على مقتضى تعليم شيوخهم كحسن بن الصباح وأمثاله . أذكرك بأمبراطور اليابان وهو جد الأمبراطور الحالى فإنه كان من أسرار ديانتهم أن جدته التى مضى عليها أربعة آلاف سنة كانت امرأة نازلة من السماء فكان يستبره اليابانيون نصف إله باعتبار أمه وهى إلهة وعلى ذلك كان لا يراه أحد لأن من رآه احترق بالنار . فماذا فعل ؟ نظر الرجل فوجد أن أوروبا أكلت الشرق (أكلاما) . فماذا يصنع ؟ نزل إلى الشعب وسار فى الشوارع وقال للناس أنا الأمبراطور انظرونى لا تخافوا فأزال هذه الخرافة . ثم إنه أمر بالتعليم العام وقرأ الشعب علوم أوروبا كلها وحاربوا الروس فاتصروا فظلموا هم وعظم الشرق فى أعين أهل أوروبا . فهل يليق لعظماء الإسلام وشيوخ الطرق أن يتقوا على هذه التقاليد العتيقة التى أهلكت المسلمين والتى هى فعل المسيح الدجال . فليعلموا أن من الجهالة أن ينتظر المسلمون ذلك الدجال والمسيح الذى يقتله وإن كان هذا لا مانع منه ولكن المهم لنا الآن أن نقتل الدجل والكذب بالعلم كما فعل الصحابة والتابعون ، أولئك الذين رأوا الفروس والروم حولهم وهم أولو حول وطول فناموا فأضاعوا الدولتين ليرجعوا العالم إلى الصلاح .

فليعلم المسلمون قاطبة الآن أن الدجل والكذب الخالين فى بلاد الإسلام يجب محوهما وذلك بالروح العلمية العامة وبغير ذلك لا سبيل لإسعادهم . لهذا جاء ذكر الدجال ، ولهذا جاء ذكر عيسى قائله ، بل لهذا جاء رسول الله ﷺ ولهذا ألف هذا التفسير فى الزمان الملائم و (لله الأمر من قبل ومن بعد) .

(تذكرة)

المهديون وبعض شيوخ الطرق وماذا يفعل المسلمون بعدنا إذا لقوم ؟
لقد ذكرت فيما تقدم في هذا التفسير في (سورة مريم) ما سطره صديقنا (اللورد هيدلي) الإنجليزي
الذي يقول في كتابه [إيضاح القرب للإسلام] ما يأتي :

« إن جماعة من الألمان عثروا على كتاب في بلاد آشور تاريخها قبل المسيح بنحو (٩) قرون
مسطورة في الألواح، ملخصها : أن ابن الله البكر قد صلب، وهذا الصلب يشبه صلب المسيح من كل وجه .
فقال لأهل القرب : بأي أبناء الله أقتدى ؟ أبا بن الله الذي كتب تاريخ صلبه قبل المسيح بتسعة قرون منقولا
عما كتب عنه قبل ذلك بأكثر من ألفي سنة ، أم بابن الله الذي حدث بعد ذلك وهو المسيح ابن مريم ؟
فأنا لا أتبع هذا ولا ذاك بل أقول إن عيسى نبي الله وروحه وأتبع دين الإسلام لاغير . هذا هو أول الأمر
وآخره » اهـ .

هذا لحوى ما تقدم في (سورة مريم) وأقول الآن : يظهر لي أن العالم الانساني عالم كله مقلد جامل
إلا قليلا « وقليل من عبادى الشكور - وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون
إلا الظن وإن هم إلا يحرضون - قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الذى له ما فى السموات وما فى الأرض إن
عدكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون » تبين لي من أحوال هذا الانسان أنه يشبه :

كرة طرحت بصوالجة فتلقها رجل رجل

فإنه قبل الاسلام أدخلت عليه الغفلة في جميع أنحاء الكرة الأرضية فقال له الأخبار والرهبان وأمثالهم
« إن لله ابنا فاتبعه » وكما تقدم العهد جددوا له ابنا آخر . وفي الاسلام حوَّروها وقالوا هذا هو المهدي . فمن
السفاح وهو أول خليفة عباسى أزال الدولة الأموية وأخذ بتأر الحسين رضى الله عنه واستمر ملكهم عدة
قرون إلى المهدي الفاطمى الذى ظهر في بلاد القرب وجاء مصر . والمهدي بن تومرت . والمهدي السودانى .
والمهدي الفارسى وهو بهاء الله . والمهدي الهندى وهو غلام أحمد وغير هؤلاء كثير .

ويقول الأستاذ (هنرى دى كاسترى) الفرنسى قريبا في هذا الكتاب : « إنه لمثل هذه الأنفهام وجد
في الاسلام (مذهب الواسلين) والذين يبدم توزيع كثير من الميراث في اعتقاد العامة وإلهم صار يرحل
الجمع العديد من القوم الذين ضلوا سواء السبيل الخ » أنظره في (سورة الأحزاب) عند الكلام على أنه
سلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأنه سراج منير .

أقول : فإذا رأينا هؤلاء الأوروبيين يمرّ علماءهم وهرب حكماؤهم من دين اخترعته عقول للأمم إذ
كانوا أطفالا . فهكذا سيقول المسلمون بعد قراءة هذا التفسير « بأي المهديين نقتدى ؟ أبا المهدي السودانى
أم بالمهدي الفاطمى ؟ أم بالمهدي (محمد بن تومرت) ؟ أم المهدي الميسوى البهائى ؟ أم المهدي الذى انتهى
أمره من ولد العباس ، أم المهدي الهندى ؟ لاهؤلاء ولا هؤلاء بل أقرأ القرآن وأخلق بأخلاقه وأهتدى بهديه .
هذه هى الأمة الاسلامية المستقبلية . أما تلك الفرق للتشاكسة والأقوال للتضاربة فانما هى من اتباع أمة
الاسلام الأمم كما فى الحديث «لنتبعن سنن من قبلكم شيئا بشير وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب
لدخلموه » وبما يحزننى وآسف له أنك إذا قرأت القصيدة المقدمة التى قرئت على قبر (محمد بن تومرت)
وأنه هو المهدي المنتظر وأن أتباعه يبقون إلى زمان عيسى بن مريم وأن الحديث الوارد فى المهدي أنه يبقى
سبعاً أو تسعاً وأنه هو ببق تسعاً محمول عليه .

أقول: إذا قرأت ذلك فإنك تجد هذا بينه هو الذي يكرهه الإمام « يحيى الدين بن عربي » في الفتوحات بعد موت (محمد بن تومرت) بشرات السنين . ولا يعتبر رحمه الله بما تم له وأن ملكه زال وأتباعه انقضوا من حوله وبشر هو بمهدى آخر وعين زمانه وظهر اليوم عدم صحته « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .

واعلم أيها الذي أتى أكتب هذا وأنا أعلم أن كثيرا تحدثهم أنفسهم بأنهم للمهدى المنتظر ومنهم واحد كان صديق في مدرسة (دار العلوم) ولكنه عاقل فإنه بعد أن أراد إظهار أنه المهدى ترك ذلك . إن هذه الأمة الإسلامية بعد اليوم ستقرأ التاريخ والعلوم الرياضية والطبيعية وسياسة الأمم وأحوالها . وهناك سيظهر فيهم مصلحون مجددون حقا . وهؤلاء هم الذين سيملكون الحرفات واللسان من بلاد الإسلام وسيكون ظهورهم عقب تمام نشر هذا التفسير . وهؤلاء هم الذين يظهر الإسلام ظهورا أتم على أيديهم فيبش لهم من لا يعرف دين الإسلام ويبش لهم من يتبعه ولكنه متعجب في أمره فيجد البلاد قد ملأها الشيوخ :

« وكل له غرض يسمى ليدركه »

هذا آخر ما خطر لي في تفسير آية « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم » الخ حوالي شهر يوم الأربعاء (٢٣) إبريل سنة ١٩٣١ م . والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع صاحب ذلك قال : لقد انضحت آية « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا » الخ . هذا هو أهم سرها ومقصودها في زماننا وكل من قرأ هذا من المسلمين يصبح وقد صار موقفا بهذه الفكرة عاشقا للعلم مكبا على العمل والله هو الولي الجيد . قنت الحمد لله رب العالمين .

فقال هذا قد أفهق أمر خوارق العادات وأن التقليد ليس مفيدا ، فهل تذكر لي شيئا من التقليد في أمور أخرى كالطب ولو حادثة واحدة . فقلت له : أذكرك بما مضى في (سورة الشعراء) عند قوله تعالى : « وإذا مرضت فهو يشفين » . انظره هناك فإنك تجدني نقلت من كتاب فيه تراجم الأطباء لابن أبي أصيبعة : أن المرة كانت تقاقل أضي وكلا لدغتها رجعت إلى نبات فتمرغت فيه فيزول ألمها فترجع كرة أخرى وتقاقل قال في الكتاب المذكور (وهو الذي نقلته هناك) إن ذلك الذي رأى هذا قلع هذه الشجرة ، فلما رجعت المرة لم تجد تلك الشجرة فماتت . أقول لك : لما ظهر ذلك (في الجزء الثالث عشر من هذا التفسير) كتب كاتب في [جريدة الأهرام] يقص هذا القصة بنفسه ويدعي أنه رأى ذلك رأى العين وهو كاذب ، لأنه قرأه في هذا الكتاب وطلب من الأطباء بحث هذا الموضوع فبحثوا وردوا عليه وقالوا إن هذا النبات هو السم في مصر (رعراع أبوب) وليس فيه هذه الخاصية مع أنه هو يقص نفس ما كتبت في هذا الكتاب بطريق النقل ، فهذا القول عن الأقدمين غير صحيح وليس هناك بحسب ما عرف الناس نباتا على هذه الشاكلة ، فهنا كذبان بحسب ما ظهر ، كذب القدماء في ذكر هذه الحكاية ، وكذب هذا الشاب الذي ادعى أنه رأى وهو ما رأى إلا ما كتبتاه هنا . وبعد أن كتبت هذا عثرت على نفس المقالة المكتوبة في الأهرام فيها نصها :

يقول فيمن قلده في الطب أو في السياسة أو غيره بل يجب البحث حتى تسقين الحقيقة . فبحث الفتح الكبكاري
المصري (أمير براده) في هذه المسألة قد أظهر لنا الحقيقة فيما قرأناه في كتاب (ابن أبي أصيبعة) فكذلك نفعل
في كل علم . اه والحمد لله رب العالمين .

فقال صاحبي : وهل تذكر لي مسألة واحدة أيضا في نظام الأمم قلده الناس فيها وهم مخطئون كالمسألة الطيبة
قلت : قلده أمان الله خان مصطفى كمال باشا منذ سنة واحدة في أنه قتل علماء الدين الذين عارضوا في الإصلاح
فقام الشعب عليه فنزل عن الملك إذ اغتصبه رجل كان ابن سقا بحجة المحافظة على الدين ثم قام عليه الشعب
فأزروه عنه وقتلوه ، وتولى الإمارة (نادرخان) الذي كان قائد الجيش أيام أمان الله خان ، فأمان الله قد
مصطفى كمال في إدخال الإصلاح بدون تدرج ولكن التقليد خطأ لأنه هناك فرقا بين الأمتين ونفس مصطفى
كمال انتقده المنتقدون في تسرعه وتغييره نظام تركيا سريعا ، فانه بينا هو يترك الحروف العربية ويكتب الشعب
كله باللاتينية ترى أوروبا تتبرم من الحروف اللاتينية وهذا عجب أن يقلد الناس بلا برهان . وهاك ما جاء
في إحدى المجلات العلمية وهي [مجلة الجديد] فقد جاء فيها مانعه :

الحياة الاجتماعية

(تبرم أوروبا من حروفها الكتابية)

ظهرت في الشرق من هذا العهد نزعة إلى مجازاة الغربيين في حروفهم الكتابية، ويعرف القراء أن تركيا
بأجمعها قد دخلت المدرسة من جديد لتتعلم الحروف الأوروبية كما أمر الغازي مصطفى كمال ولا فرق بين العجوز
والفتاة والمهرم والفلان . فان العقوبة الزاجرة تترقب من يتوانى في تنفيذ هذا الأمر المشدد ويذكرون أيضا ماتعززه
فارس من تركيا للحروف العربية واعتناق الحروف الأوروبية وما كان ينويه جلالة الملك المخلوع أمان الله خان
في بلاد الأفغان ، ولو نظر مقتبسوا الإصلاحات الأوروبية إلى الجوهر دون المظهر لرأوا أن نقل المظاهر الشكلية
لا يفيد شيئا في تقدم الأمم وفي وسعهم أن يحتذوا مثال اليابان التي أبقت تراثها القديم وأدخلت في بلادها
الإصلاحات الجوهرية كالتعليم والصناعات والفنون والزراعة والتجارة وإعداد الجيوش البرية والبحرية . ولقد
كان من رأينا من زمن أن الحروف العربية تفضل الحروب الأوروبية من عدة وجوه لأنها في الحقيقة نوع
من الخط المنزّل الذي يدل على الكلمات بأقل رسم وأوجز حروف . وقد كان الأوروبيون ينشدون مثل
هذا الخط لكتابة كتاباتهم فأوجدوا الخط المنزّل ولكن طريقة ابتكاره لم تكن ناصحة ولم يتيسر استعماله
للدلالة على الكلمات بالضبط ولذلك قل من يكتب به على كثرة ما يعانيه متعلمه من آلام دراستها ومشاقها .
ولذلك لا يزال الأوروبيون ينشدون نونا مختصرا من الخط لأنهم يرون أن استمرارهم على الكتابة بحروفهم
القديمة ضياع للوقت الثمين وعبء ثقيل ينأى دونه كاهل المعلمين . ونسوق للقراء فقرة مما كتبه رئيس تحرير
مجلة (النيشن) الانكليزية في هذا الصدد .

وإن أسأل لماذا يستمر أبناء هذا العصر في حمل هذا العبء الثقيل وهو الكتابة بالحروف المطولة ؟
يقال إن الكتابة من أعظم الاختراعات التي توفى إليها الإنسان . ولكن هل يلزم من هذا أن نلبث إلى الأبد
ما كعين على ما اخترعه الإنسان الأول في مسور التآخرو ثم نزعهم أننا شعوب الثقافة في المدنية ؟ ألا بعد ذلك من
أكبر وأشنع سقطات مدنيتنا الحاضرة التي لا يقوم مظهر حضارتها وجوهرها إلا بالكلمات المكتوبة فهناك
حيوان لا يمكن أن نحصى من الرجال أو النساء لانكتسب أقواتها إلا بالأعمال الكتابية ولا يمكن أن نجد

أحدا في دوائر الأعمال تخلو يده من قلم الحبر أو الرصاص ليدون ماهو منوط به من الأشغال . وربما كانت مدة الكتابة تستغرق على الأقل نصف الوقت . ويرى المستر اسبندر أن ما يكتبه الصحفي في اليوم لا يقل عن ٢٠٠٠ كلمة .

هذا ما يقوله الناس اليوم في التقليد في أمور النظام العام . ولو شئنا لشرحنا التقليد في العلوم كدوران الشمس حول الأرض الذي كان يقوله الناس قديما وكيف دحضه العلماء بعد ذلك وكسألة الكواكب السيارة وأنها سبعة فظهر بعد ذلك أورانوس ونبتون ولم يكن يعرف الناس إلا شمسا واحدة حتى عبدها فعرف الناس اليوم آلاف آلاف الشمس وشمسنا بالنسبة لها كأنها برتقالة أو أصغر فان كوكب الجوزاء أكبر من الشمس (٢٥) ألف ألف مرة . إذن التقليد جرمه ولهذا نزلت هذه الآيات «ولو ترى إذ الظالمون موقنون عند رحمة» الخ انتهى الكلام على الفصل الثاني .

الفصل الثالث

(في ضرب مثل لمن صاروا أحرار الآراء وماذا فعلوا)

أذكر في هذا الفصل [حادتين : الحادثة الأولى] الحربة السياسية . فانظر ماجاء في جريدة الأهرام بتاريخ يوم الاثنين (١٨) فبراير سنة ١٩٢٩ م وهذا نصه :

(رجل إنجليزي يفعل في السياسة ما فعله مؤمن آل فرعون في سورة غافر)

(مظاهرة ضد الكولونيل لورنس في إنجلترا)

نظم المستر (سكلانغالا) العضو الشيوعي في مجلس العموم البريطاني مظاهرة كبيرة في لندن ضد (الكولونيل لورنس) المعروف على أثر الاشاعات التي راجت بأنه أضرم نار الثورة في قبائل الأفغان ضد الملك (أمان الله) فسارت للمظاهرة مسافة طويلة تحمل صورة (لورنس) وأخيرا أضرموا النار فيها على صوت الخطباء الذين وصفوه بأقبح الأوصاف ، انتهت الحادثة الأولى .

الحادثة الثانية نبذ التقليد في الزراعة

(البحث عن السعادة الزراعية بطريق خارج عن التقليد الذي ذمه الله في القرآن)

اعلم أيها الذكي أن هذا قد أشرنا إليه سابقا في هذا التفسير ، ونزيد عليه الآن ماجاء في جريدة الأهرام يوم الخميس (١٣) أكتوبر سنة ١٩٢٩ م وهذا نصه :

الزراعات في الماء

(طريقة جديدة لانماها)

ظهر في الولايات المتحدة اقتراح عظيم الشأن ينتظر أن يخلص الفلاحين وزراعي الفاكهة والأزهار من متاعب الزراعة وخدمة الأرض ومن قيود المواسم والأحوال الجوية وأجور الأقطان ، ويحدث انقلابا عظيما في فن الزراعة . فقد أعلن قسم فسيولوجية النبات في جامعة كلفورنيا أنهم توصلوا إلى إنتاج غلال وخضروات من مزروعات روعوها في حياض رقراقة الماء ، وتعمدها بأقراص كيميائية أسموها (أقراص النبات) في جو جاف حال من الرطوبة أشبه بجو الصحراء وتسمى لهم إنتاج الفاكهة والخضروات الشبيهة بالفاكهة قبل أوانها للنتاد . كذلك زرع أنواع مختلفة من الأزهار التي لا تنبع إلا في أواسط الصيف فازدهرت وقطفت أزهارها

في غرة فصل الشتاء . وتبين أن القمح والشعير والأرز إذا زرعت على هذا النمط يزيد محصولها من ٢٥ في المئة إلى ٥٠ في المئة ، أما البنجر والجزر والسكرن وغيرها من الخضروات التي من فصائلها فقد نمت نموا أسرع من نموها المعتاد بمدة تتراوح بين عشرين وثلاثين يوما . وقد زاد متوسط حجمها العادي ٦٠ في المئة بغير أن تفقد شيئا من رصمها وضارتها . وزرعت (الطماطم) بهذه الطريقة الجديدة فزاد محصولها ٤٠ في المئة وتسمى زرع الورد في جو المنازل في فصل الشتاء القارس فقا وازدهر في مدة لا تزيد على الستين يوما . وزرعت (الباذلة) في فصل الشتاء داخل المنزل ودرجة الحرارة في الخارج دون الصفر فتمت وبلغ طول أصولها خمسة أقدام وازدهرت وأنت ثمارها في مدة تتراوح بين الستين والسبعين يوما . وقد بلغ عدد التجارب التي أجريت نحو خمسة آلاف تجربة في خلال خمسة أعوام أسفرت عن هذا الاكتشاف العجيب الذي وصفه الدكتور جاريك رئيس قسم تشريح النبات في جامعة كلفورنيا بأنه أعظم منحة وأفضل هبة لفرن الزراعة منذ بدء تطبيق علم تسميد للزروعات حتى الآن ، وتؤيده في هذا الرأي كلية الزراعة في تلك الجامعة وعدد كبير من الخبراء في الزراعة وخريجي كلية الزراعة وتجار الأزهار الذين ساعدوه في تجاربه ، وخلاصة السر في هذا الاكتشاف المؤدى إلى سرعة الأتماء وزيادة المحصول هي إعطاء النبات مقادير مركبة تحوى العناصر السبعة التي يتألف منها غذاء النبات وإعطاء كل نوع ما يلزمه من الغذاء بالدقة والضبط ، وهذه العناصر مركبة في أقراص اسطوانية الشكل تذاب في الماء أو في التربة التي ينمو فيها النبات ، وهي تجمع معا في أنبوبة قصيرة أو اسطوانة بمادة كلسية تشبه الحوصيين ، وتحتوى هذه الأقراص على أجزاء معلومة من التروجين والفوسفور والقرنيز والحديد والبوتاس والكبريت والكلس (الجير) . وقد وجد في أثناء إجراء هذه التجارب والاختبارات أن كل نوع من الشجر والحبوب والخضراوات والأزهار يتطلب تركيبا مخالفا من حيث الكمية من العناصر السبعة كلها أو بعضها .

فالتركيب الذي يغذى (الباذلة) ويعجل نموها ويزيد إنتاجها مثلا لا يفيد الورد وفصيلة البنفسج . وقد دلت التجارب على أن عدد التراكيب اللازمة يمكن حصره في عشرين نوعا . ومع أن أقراص النبات استعملت بنجاح للزروعات في التربة ، فقد أسفرت التجارب أن خير وسيلة للأتماء هي الماء بمقدار لتر لكل نباتة . فقد جرى بشتلة ورد زرعت حديثا في الأرض ولم تسكد جذورها تمتد ، ووضعت في الكمية اللازمة من الماء بعد أن أذيب فيه المقدار اللازم من أقراص النبات المختصة بفصيلة الورد ، فتمت وترعرعت وتفتحت أكمامها عن ورد نضير كبير الحجم في خلال ثمانين يوما . وأجريت مئات من التجارب من هذا القبيل في الحبوب والخضراوات وشجيرات الفاكهة وأشجارها فكان النجاح في زراعة الحبوب والخضراوات عظيمًا جدا ، فتبين أن حجم الهليون (أسبارجوس) قد تضاعف تقريبا من غير أن يطرأ أى تغيير في غضاسته أو عدد فروخه ، وكذلك البطاطس زاد حجم محصولها خمسين في المئة بغير أن يزيد نمو شجيراتها . وتبين أيضا أنه إذا زرعت النباتات الغذائية في الماء بدلا من زرعها في التراب يزداد معدل نموها نحو مئة في المئة ويزداد حجمها ويتسنى زرع عدد كبير منها في مساحة واحدة . وأسفرت التجارب في زرع القمح وافية . وختم الدكتور جاريك حديثه قائلا « إن أهم ما في اكتشافه هذا أنه يمكن ملايين من الناس أن يعيشوا على محاصيل تنتجها المياه في أراض كانت لا تنتج سوى الشوك » والقطن والتبغ لهما نتائج باهرة . فقد نما القطن من البذور حتى طرح اللوز في مدة تسعين يوما . وظهر أن القمح إذا زرع في الماء اللذابة فيه أقراص النبات يزيد نموه خمسين في المئة أكثر منه إذا زرع في التراب المغذى بأقراص النبات . وحملت نتائج هذه التجارب الدكتور جاريك ومساعديه على الشروع في إجراء تجارب زراعة النباتات الغذائية في الماء لمعرفة تفقاتها إذا زرعت على قياس تجارى فوجد

أن الحياض التي عمقها من ست إلى ثمان بوصات هي أفضل ما يكون لزراعة الجيوب والخضروات ، وقد استعملت حياض طول كل منها عشرون قدما وعرضها خمسة أقدام مصنوعة من الخشب ومبطنة بورق مدهون بالقار وترك الورق زائدا من كل جهة ليصلح غطاء للحوض وجعل في هذا الغطاء ثقب صغيرة قريبة بعضها من بعض وأدخل في كل ثقب منها شتلة من النباتات بحيث تصل جذورها إلى الماء الذي وضع فيه عدد من أقراص النبات ، وقد تبين أنه يتسنى بهذه الطريقة زرع صنفى أو ثلاثة أضعاف ما يزرع في المساحة ذاتها من الأرض مع سرعة النمو وزيادة المحصول كما ذكرنا آنفا . وقد أدت مواصلة هذه التجارب الاقتصادية إلى أن هذه الحياض الخشبية المسقوفة بالورق والدهون بالقار أو بالأسلاك الوثيقة هي خير الوسائل وأقرب نفقة لزراعة الجيوب والخضروات في الماء ، وقد رأى الدكتور جاربيك ومساعدوه أن نفقة حياض من هذا النوع تغطي مساحة فدان مع ترك طرق بينها تبلغ على الأكثر ٢٥٠ ريالاً في أية ناحية من أنحاء الولايات المتحدة حيث المواد غالية الثمن وأجرة العمل باهظة . أما في الأنحاء الأخرى من العالم فالمعتقد أن النفقة لا تزيد على ١٥٠ ريالاً وإذا زادت المساحة إلى خمسة أفدنة أو أكثر فإن نفقة الحياض اللازمة لتغطيتها لا يمكن أن تزيد على مئتي ريال في الولايات المتحدة ، وهكذا تبلغ نفقة حياض خمسة أفدنة ألف ريال أو ثلاثة أضعاف ما يلزم لتصلح الأرض للزراعة كل عام ، ولكن متى أنشئت هذه الحياض فإنها تعمر على الأقل خمسين عاماً ولا تحتاج إلى حرارة أو ري ولا عزق أو تنظيف من العشب وكل ما هنالك أن الحياض تملأ ماء وتوضع الأقراص السكبائية فيها مع سرعة النمو وزيادة المحصول ، والتخلص من آفات الزراعة التي تنشأ من الأرض .

وعلى هذا النوال يتسنى للزارع أن يربح نفقة صنع الحياض في عامين . ثم إن مسألة المناخ ورطوبة الهواء أو جفافه وخصب الأرض أو عدم خصبها كل هذه العوامل الهامة في زراعة الأرض يظهر أن لاتأثير لها في التجارب التي قام بها الدكتور (جاربيك) ومع أن طريقة الزراعة في الماء لا يمكن بها زرع نباتات في غير إقليمها فإنها تعجل نمو النباتات وتزيد محصولها في منطقتها الخاصة بها . فقد قام الدكتور (جاربيك) ومساعدوه بتجارب اكتشافه في جو درجة حرارته ورطوبته مضارعة لدرجة حرارة ورطوبة جو صحراء الأريزونا والمكسيك الجديدة والجنوب الشرقي من كاليفورنيا فرزعا الفجل واللفت والبنجر والخس والسبانخ والطماطم والباذنجان وغيرها من النباتات الغذائية فتبين أنه في الامكان زرع ٢٠٠٠٠ شجرة من شجيرات الطماطم في حياض مساحتها تعادل فدانا بمحصول يزيد على محصول عدد مثلها في الأرض من خمسة وعشرين في المئة إلى ستين في المئة . ويرى الدكتور (جاربيك) أن أهمية اكتشافه الحقيقية هي استخدام طريقة زراعة الحياض في المناطق القاحلة القفرة في جميع أنحاء العالم إذ يمكن أن يزرع فيها الكثير من النباتات الغذائية . ويقول الدكتور (جاربيك) إنه يعلم أن رمال الصحراء يمكن جعلها صالحة للزراعة إذا تسنى ربيها بالماء العذب ربا وافيا ، ولكن يوجد ملايين وألوف الملايين من الأفدنة التي لا يمكن أن تصل إليها المياه العذبة لريها وزرعها ، على أن كمية ضئيلة من الماء تكفي لاستعمال طريقته وزرع النباتات الغذائية في صميم أجذب الصحارى وأقفرها فأى نوع صغير أو بئر ارتوازية أو صهريج يجتمع فيه ماء للطر ويكفي لتغطية قاع حوض طوله عشرون قدما وعرضه عشرة أقدام يكفي مئة قدم مكعبة من الماء ، وهذا الحوض يمكن أن يزرع ١٧٠ شجيرة من الطماطم ، وإذا فرضنا أن نصف هذه الكمية تلزم لتعويض ما تمتصه الشجيرات في أثناء النمو وما يتبخر منه ويتسرب منافذ الحوض كان مجموع كمية الماء اللازم لهذا الحوض طول موسم الزراعة ٣٠٠ جالون أو ثلثائة صفيحة من حجم صفيح البترول مع أن هذه الكمية من الماء لاتكاد تكفي لرى نصف هذه المساحة من الأرض موسما واحدا مع العلم أن مساحة من الأرض معادلة لهذه المساحة إذا عهدت بالرى الوافى لاتتسع لزراع أكثر

من خمس مايزرع في الحوض وكل نباتة تزرع الأرض لا تنتج من المحصول إلا ستين في المئة مما تنتجه النباتة التي تزرع في الحوض وينظر الدكتور (جاريك) إلى مستقبل اكتشافه لهذا فيرى أن كل نبيغ مثيل أوبير أو صهريج في الصحراء والأراضي القفرة القاحلة سيكون محوطا بجياض فيها ماء وقران يغطي قيعانها إلى ارتفاعها ثلاث بوصات أو أربع وكل منها مزروع نباتا ذا محصول غذائي وما تنتجه زراعة هذه الجياض كاف لمعيشة عدد كبير من السكان . ويرى سطوح المنازل المرتفعة بدلا من أن تترك بلا نفع ولا فائدة حدائق غناء بالرياحين والأزهار أو بسائين تزرع فيها الفاكهة والخضراوات ، ويرى كل صاحب منزل في المدينة يستعمل جزءا من فناء داره أو حديقته لانتاج ما يلزمه من الخضراوات والأزهار بريح وافر وأنه يصبح في وسع أي إنسان مقيم في أقصى بقعة من بقاع الأرض القاحلة أن يزرع كل ما يلزمه ومن معه من الخضراوات والنباتات والأشجار المثمرة التي يلائمها الإقليم . والعمل الذي يتطلبه الزرع على هذه الطريقة الجديدة لا يبلغ عشر معشار ما تتطلبه خدمة الأرض هـ .

﴿ تذكرتان ﴾

[الأولى] تذكرة في سورة الأحزاب في قوله تعالى «والصائمين والصائمات» [والثانية] تذكرة في سورة سبأ في قوله تعالى «يعلم ما يبلغ في الأرض» الخ وسر من أسرار الصم المستخرج من الأرض .

[التذكرة الأولى] في قوله تعالى «والصائمين والصائمات» وهي سر من أسرار الطب في الصيام المذكور في الآية فوق ما تقدم في (سورة البقرة) من المسائل الطبية والصحية في آية «أستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير» وفي سورة الأعراف عند آية «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» وفي سورة الحجر عند التسليم إلى قصة آدم ، وفي سورة طه عند قصة آدم أيضا ، وفي سورة الشعراء عند آية «وإذا مرضت فهو يشفين» .

فهم هذه المواضع من التفسير أهم ما في علم حفظ الصحة من التجافي عن الأدوية المشهورة والاكتفاء بالمداواة الطبيعية ، وكذلك مر في سورة القصص عند قوله تعالى «ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار» الخ بيان كيف يكون الهواء الطلق وضوء الشمس جيورا وسعادة وصحة ، وهكذا في أول (سورة العنكبوت) عند ذكر الجهاد كيف كان الصوم أصبح نافعا في العلاج بإضاح تام ، أما هنا فإني أقول : جاء في سورة الأحزاب في هذا المجلد أنه صلى الله عليه وسلم سراج منير بنص الآية وأن ضوء الشمس هو الذي يفتك بالحوانات القدرية للهلكة الحادثة من العفونات للسايطات على أهل الأرض ، فهكذا آتى القرآن التي هي أشعة من نور الله أشرفت على أهل الأرض يجب أن يرجع إليها المسلمون اليوم مع أمثال هذا التفسير لتزول من بلاد الإسلام تلك الغفلة التي استحكمت بالآراء المنحرفة عن إدراك جمال هذا الوجود الذي حرمة للمسلمون أجيالا وأجيالا ولا جرم أن ما ذكرته هناك في القرآن على هذا النحو يمثل له في الحياة المادية الدنيوية بما يفعله أهل أمريكا اليوم من التعرض للشمس والصوم أي ترك الطعام مع شرب الماء أمد أربعين يوما فيزول من أبدانهم قشر الدم ، فإذا كان الصيام الطبي (الذي له شبه ما بالصيام الشرعي وليس من كل الوجوه) قد انحدر مع ضوء الشمس والهواء النقي على إعادة الصحة وإزالة قتر الدم والمرض الناشئ عن اللدومة بأكل اللحم في ذلك المرض هكذا أم الإسلام باعتبارها عن الحرافات والبدع وتمسكها بنفس كتاب الله الذي يحرضهم على معرفة ما في هذه الدنيا من الجمال والابداع يرجع لها مجدها وشرفها القديم العظيم ، فهناك ما جاء في إحدى المجلات الطبية وهي (الصورة) بتاريخ (٢٨) مارس سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان التالي وهذا نصه :

فقر الدم ومعالجته بالصوم

جاء في بعض الصحف الأمريكية أنه طرأ تحول في الطب عند كثيرين من الأطباء ، فإنهم بعد ما كانوا يصفون اللحم الدامي لفصايين بفقر الدم أصبحوا يصفون لهم الصوم الآن ، وفي الولايات المتحدة مستوصفات ومستشفيات يعالج فيها من يصف لهم الأطباء الصوم . ومن أوصافها وقوعها في مكان تطلق الهواء تقيه ، تعرض غرفها وسطوحها للشمس وإحاطتها بمحذائق تعطر الهواء بأريجها الطيب ، ولا يتغذى في المستشفى إلا بالماء ومع ذلك لا يكون ما يطلب منه في مقابل إقامته في المستشفى مبلغا يستهان به ، وتتفاوت مدة المعالجة بين (٤٠) يوما و ٥٠ يكون للمستشفى في خلالها تحت مراقبة الطبيب ، أما نتيجة هذا الصوم فتكون جلاء بصر من يشكو ضعف البصر وزوال أسبابه من فقر الدم ، وشفاؤه من مرض البول السكري واندمال قروح معدته وعودة القوة إلى الذين هجرتهم من جراء الإفراط في العمل ، ويكفي الإنسان مدة ثلاثة أيام ليعود الصوم ويتخلص الجسم من السموم العالقة به بعد ستة أسابيع أو سبعة ، ويقول العارفون (إنه إذا لاحظ الإنسان الحيوانات وجد أنها حين تكون مريضة تمتنع عن تناول الطعام ، وعند الانسان نفسه يكون فقدان الشهية للطعام دليلا على اضطراب صحته ، وعلى كل حال ينبغي للمرء ألا يعتمد على الصوم بدون أن يستشير الطبيب انتهى .

هذا ماجاء في مجلة [المصور] وبه تم الكلام على التذكرة الأولى والحمد لله رب العالمين .

﴿ التذكرة الثانية ﴾

(خواطر في صلاة العصر في قوله تعالى « يعلم مايلج في الأرض وما يخرج منها »)

(كتب يوم ٩ رمضان سنة ١٣٤٨ هـ)

لقد علمت فيما ذكرناه مشروحا ومرسوما موضعا أن أكثر الألوان التي تصبغ ثياب الناس في الشرق والغرب اليوم إنما تكون من القطران ، وذلك القطران من الفحم والفحم مما يخرج من الأرض . ومن صعب أن هذا الفحم مكث مئات الآلاف من السنين وهو يتلظى ويتقلب ويحترق في النار الحامية في جوف الأرض ، فهناك حرارة عظيمة جعلت الحشيب لحما ، فلما أن أخرجه الناس اليوم كنفوا أمره فوجدوا فيه مئات الألوان فصبغوا بها الثياب فأكب عليها الناس في الشرق والغرب وكان غذا التهلك سببا في هلاكهم في الدنيا وعذابهم « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

وقد كنت نجد جميع الأمم التي استعمرها الفرنجة مكبين على الزخارف والزينة التي تبهرهم ويريقها ولعابها فتزول ثوبهم وتصبح بلادم . مثال ذلك بلادنا المصرية أيام للفضول له إسماعيل باشا ، فإنه استدان واستدانت البلاد فكثرت دين الأمة وكثرت دين الحكومة . فقد ضلت الأمة ودخل الانجليز البلاد بحجة المحافظة على الدين وهل هذا كله إلا بتلك الثياب التي صبغت بالقطران المستخرج في تلك الدول العظيمة من الفحم الحجري ؟ أو ليس هذا هو ما تشير له قصة السيخ الدجال إذ يأتي بجنة ونار وقد أمرنا أن نترك جنته وندخل ناره فتكون جنته نارا وناره جنة ، فهذه الأمم للتأخرة الاسلامية لما بهر بها بهرج الفرنجة استحلته فوقت في الدل وساءت الحال ، ومتى دلت الأمة ذهبت منها الأمانة والشرف والشجاعة والفة فصاروا عبيد الفاتحين وصعبا جزا تدرره الرياح فاذا ماتوا كانت أرواحهم ناقصة ، وهل لناقص إلا جهنم لأن جهنم لناقصين

والمسلم الناقص يكون في جهنم يتم مدة عذابه ، أليس هذا هو سر قوله تعالى « سرايلهم من قطران وتضى وجوههم النار » . أو ليس هذا هو سر القرآن ظهر الآن ؟ وإن كنت في شك عما قررت لك الآن وقلت هذا القول غامض بيد من الصدق . أقول : أفلا أذكرك بما نقلته لك في آخر (سورة آل عمران) عن الزعيم الهندي (غاندى) عن مجلة الجامعة الهندية ، إذ يقول فيها في الفقرة الثانية مانسه : (إن الولوع بالمنسوجات الأجنبية يجلب المبودية الأجنبية والفقر المدقع وما هو أقبح من هذا ألا وهو المار على كثير من العائلات) اه .

فيها هوذا (الزعيم غاندى) من المعاصرين لنا يقول : إن المنسوجات الأجنبية تجلب العبادية وماتبها ، (وجبارة أخرى) أنها تكون مثارا لأنواع الدل والشقاء ويتبع ذلك الحسة وهذه تجمع أنواع العاصي أفليس هذا من أسرار القرآن ؟ إذ ذكر أن سرايل أهل النار من قطران ؟ وما هي ذه السرايل ملونات بألوان من القطران الفحمي قهافت الناس عليها كما يتهاقنون على حنة السيخ الدجال وهذا التهافت أمرت ضياع البلاد والاسراف والله لا يحب السرفين قهتلك الأمم وتضيع البلاد ، فهذه النفوس الناقصة تعذب (عذابين) عذابا في الدنيا وعذابا في الآخرة لأن ذلك هو استعدادها ، وذلك كله سر آية « سرايلهم من قطران » وهو مستخرج من الفحم الحجري وهذا الفحم مما يخرج من الأرض في قوله هنا « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها » الخ . ثم الكلام على التذكرة الثانية والحمد لله رب العالمين .

خاتمة السورة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

أيها المسلمون : انظروا معي نظرة عامة إلى هذه السورة ، هي مبتدأة بسم الله الجزيلة وبأنه مستحق للحمد عليها وبأنها من السماء ومن الأرض والجنة خارجة نازلة صاعدة وهي مع ذلك لا تعزب عن علمه ، وأن هذه الحياة لا تقف عند حد الموت فهي ممتدة لتسكون أو آخرها نتائج أوائلها ونهاياتها مبنية على بداياتها ، وأن علم العناء في جميع القرون وكشف الكاشفين للمعلومات في الأرض يبين لهم أن هذا القرآن حق وهاد إلى صراط العزيز الحميد .

هذا مبدأ السورة ، ثم إنه أخذ يبين لنا حال أمتين شرقتين أمة اليهود وأمة العرب ، فهما أمتان متحاورتان . فأما أمة اليهود فإنها ازدهرت بالعلوم والعرفان وال عمران أيام داود وسليمان عليهما السلام وكان ذلك الازدهار والعز موجبين لشكر الله على من أعطوا هذه النعم ، فأما أمة العرب وسياً فإنهم بطروا النعمة وكفروها فلم يشكروها لحاق بهم العذاب وساعدوا إبليس على تلبسه عليهم وإضلاله فكفروا لحق عليهم الوعيد . لذلك أرسل الله النبي صلى الله عليه وسلم لجميع الناس من عرب ويهود وعجم فانتشر دينه في أقطار المعمورة وازدهر العمران .

ثم أخذ يقص علينا نبأ النوع الإنساني من حيث التقليد واستقلال الرأي وأن التقليد الحاملين لا ينفعهم عند الله الاحتجاج بأنهم غرهم الرؤساء ، فسكل عن عمله مشلول وأن الرؤساء الضالين أشبه بالذباب يطوف على الوجوه والعيون فيبيض في القذرة منها فيخرج فيها بيضه دودا فيحصل الرميد لهم . فالعيب على من أصابه الرميد لأنه مستعد لوقوع الذباب على عينه وهذا هو قوله تعالى « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون » وقوله هنا « وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا نحن صدقناكم عن الهدى بعد إذ

جاءكم بل كنتم مجرمين» ردا على قولهم «لولا أتمم لكننا مؤمنين» كما تقول العين الرمضاء للذباب لولا أنت لكنت سليمة من المرض ، فتقول الذبابة : إن استعدادك لوقوعى عليك أغرائى بذلك فأصبت بالرمد بسبب يضى الذى وضعته فيك ، فأنا وقعت عليك لأضع البيض فيك وهذا طبعى اللوافق لطبعك ، فجنح معاشرتك فى خلق واحد ، بيننا جامعة نجمننا ، فأنت مرتضى الحصب ، وأنا الراتمة فيه ، فأى فرق أيها العين بيننا وبين الأنعام ، ترى فى الرياض النضرة والحقول الخضرة ذات الأزهار البهجة ، ألسنت أنت روضى وجنى ونسيمى لأن القنطرة محبوبة لى وأنا بها قريرة العين سعيدة .

فهذه المناورات بين الذبابة وعين الأرمد أشبه بالمهاورة بين الرؤساء والملوك وسين إذ يقبله الآخر الأولين كما اتفق فى أم الإسلام للتأخرة إذ استسلم المجموع الإسلامى لبعض من قل علمهم وضعف يقينهم فاستغلواهم بعد عز من مراتبهم حتى عموا عن آيات القرآن كالذى جاء فى هذه السورة ، وغاية أحدم أنه ربما يقرأ فى أمثال هذا التفسير فيفرح بمجزاته صلى الله عليه وسلم التى ظهرت فى هذا الزمان كأنه ساء العرم للرسومة فيما تقدم وأن ذلك يوجب تصديق أهل العلم ، فإن من يقرأ هذا ويعلم أن المؤرخين كانوا يشكون فيه فظهر لهم الحق بكشف أولى العلم فإنه لا محالة يصدق بالقرآن وعن أنزل عليه ، ولكن أيها المسلمون ليس التصديق بأن القرآن حق هو كل ما يطلب منا ، فهذه مرتبة الرجس للبخوس المذلة الضئيل المعرفة ، فبلاغة القرآن ومعجزات العلم كل منهما يرشد قوما إلى صدق القرآن ، ولكن التصديق بالقرآن بعد هذا الجهد يشاركنا فيه العاصى والصبي فهما مؤمنان والایمان شىء والتشهير لمتضى الإيمان شىء آخر ، يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : (إن من لم يكن له حظ من القرآن إلا لفظه وتفسيره واعتقاده بالقلب فهو مبخوس الحظ نازل الدرجة فإن ادراك اللفظ يسلمة حاسة السمع وفهم المعنى يكون بمعرفة اللغة العربية التى يشارك العارف بها الأديب اللغوى بل النبى البدوى ، وأما التصديق بأن كلام الله حق فهذه مرتبة يشاركنا فيها العاصى الجاهل بل الصبي . قال : وهذه درجات كثير من العلماء فضلا عن غيرهم) اه .

إذن فلترنى أذنك أيها الذكى ولتجلس معى دقائق أحدثك فيها حديثى عن أم الإسلام التى أعيش معها مدة ما تم أترك الأرض ومن عليها وأتوجه إلى لقاء ربى . فأقول :

يارب أنت أرسلت نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم للناس كافة وقلت لنا « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وأسكنتنا فى مساكن الدين ظلموا أنفسهم وتبين لنا فى آثامهم كيف فعلت بهم وضربت لنا الأمثال ، ومن الأمم المذكورة أهل سبأ وقد ملكتنا أرضهم . فماذا فعل المسلمون لما ملكوا ؟ هاهم أولاء تركوا مواهبهم العقلية والجسمية وتركوا نعمك التى أنعمت بها عليهم ولم يبالوا بنعم المطر النازلة عليهم من السماء . فهاؤه يجرى بلا سد يصد ولا عرم يحفظه فمطلوا نعمك . نعم إن جمهورهم اليوم لا يعلمون إلا ما ورثوه عن آباءهم من العلم وهذا تقليد والتقليد مذموم . وهاهم أولاء يا الله يقرءون فى سورة سبأ فى التى أنزلتها باسم بلادهم التى أهمها (مدينة مأرب) التى تقدم رسمها والتى تسمى باسم سبأ أيضا . وقد قلت فيها لا فى صنعاء كما يقول الجمهور من القسرين « بلدة طيبة ورب غفور » وقرءوا أن هؤلاء الوثنيين لما أعرضوا عن حفظ السد وترميمه أنزلت عليهم عقابك فى الدنيا ففرقتهم فهم لم يشكروا النعمة ولم يحفظوها كما حفظها داود وسليمان عليهما السلام . فهم قوم غير شاكرين . والذى لا يشكر النعمة يحفظها تزول عنه . ثم أقول يا الله : قرء المسلمون هذا فى القرآن ولكنهم وقفوا على العشور وجمدوا على الألفاظ ولم يفتنوا أكثرهم لما نزل من هذه الحكمة وهى أن يعمروا أرضك ليكونوا « خير أمة أخرجت للناس » كما كان سلفهم الصالح أيام الصحابة والتابعين لا أن يكفوا على جمع المال وادخاره وعلى الملك والاكتفاء بالمجد الكاذب الذى هو كسر اب بتيمة

يحسبه الظلماء ما، حتى إذا جاءه لم يجد شيئا « ووجد الأمم المحيطة بنا تغلب على أطراف البلدان الإسلامية الجهل أهلها وقلة تبصرهم وعدم تعقلهم أمثال هذه الحكمة في القصص القرآنية حتى إنك ألهمت محمد بن ومرت في بلاد الغرب فظهر لهم بهيئة المهدي الذي يتبعون قوله أمد ما ثم دالت دولتهم بعد مائة سنة وكانت هذه سنة تلك الأمم إذ اقتعدوا غارب التليد الأعمى بمن سيطروا عليهم من الرؤساء الذين سخرهم الله لهم لها عمية البصائر عن القرآن الهادي إلى طرق الحقائق وأخذوا يتخطون في ديجور الظلام الحالك حتى جاء زماننا فوجدنا بلادك التي سلمتها لنا خاوية على عروشها، فهامى ذه بلاد شمال أفريقيا في القرون المتأخرة نصب معين الحضارة منها فأرسلت لها أم أوروبا أمة بعد أمة، وهامى ذه بلاد العرب التي كانت منبع حضارة الأمم شرقا وغربا قد حل بها البوار ولحقها الكال، وهامى ذه بلاد اليمن وحضرموت وما والاها من البلدان لم نجد فيها ملكا اليوم يعادل ولا يقارب ملك السبئيين الوثنيين الذين عبرتهم بأنهم أعرضوا عن نعمك وضربت لهم مثلا بإهمال سد العرم الذي هو واحد من مئات الأسداد في تلك البلاد، فلم يظن عالم من علمائهم إلى هذه العبر وقد أحاطت بهم النذر من كل جانب، وهامى ذه أوروبا واقفة لهم بالمرصاد، أنت يا أمة خاطبت المسلمين بكلامك القديم اليوم منذرا ومحفذا. فكلامك القديم لا يتسنى لنا أن نعرفه إلا بأحد طريقين إما بألفاظ ترد على لسان نبي كالتى جاء في هذه السورة، وإما بفعلك أنت لأن اللغوى تظهر بالقول تارة وبالفعل أخرى، فأما القول في القرآن، وأما الفعل فهو ما ظهر اليوم في العالم قاطبة. فكلم يا أمة من نعم بيلاذ العراق ونجد والحجاز واليمن وحضرموت محبوبة فيها. وكم من سحائب مطرات مطرا يحيى الأرض بعد موتها ثم ترك ذلك كله وشأنه فلم يحفظ في زمن الإسلام بالاستخراج وبالأسداد كما حفظ أيام الجاهلية فانتفع الناس به] .

هذه حال المسلمين اليوم يا أمة. وما هو ذا التفسير قد كتبتهم وهم يقرءونه وهو آخر إنذار للمسلمين، فان فكروا فهموا وانتصموا وإن أغمضوا أعينهم عن الحق أهلكتهم الأمم .

أيها المسلمون : ها أناذا أنذرتكم وحذرتكم . ويا أبناء العرب إخوانى وأصدقائى فكروا في قصص هذه السورة ، فكروا في قول ربكم « فأعرضوا » ولما أعرضوا أرسل عليهم سد العرم أليس هذا إصلاحا دنيويا . ألم يكن خراب سبأ أو (مدينة مأرب) من نتائج الجهل الذى وقعنا فيه الآن . أنتم يا أبناء العرب إخوانى قد أزيل الغطاء عن أعينكم فأخذتم تفكرون وهذا كتابى بين يديكم وأنا أعلم أنكم تقرءونه ومستحيل أن يمر هذا القول بلا نتائج . بل أقول فوق ذلك إنكم سترجمون المجد القديم الذى يملككم « خير أمة أخرجت للناس » كما كان آباؤكم الأولون ، وإنما خصصت الخطاب لكم الآن لأن مدينة مأرب وهى سبأ لا تزال في حوزتكم . فالفرصة سانحة لكم جميعا في العراق والحجاز ونجد وغيرها من البلدان . أنا أذكركم بقول الله تعالى في (سورة الأعراف) « لتندب به وذكرى للمؤمنين » فالقرآن إنذار لقوم وتذكير لآخرين . وجاء في نفس السورة « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتنا وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون » إلى قوله « أو لم يهد للذين يرتون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصنامهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » .

لما من أمة من أمم الإسلام إلا حلت محل أمم بائنة . وأهل اليمن حلوا محل أهل سبأ وأولئك أهملوا الماء فلم يحفظوا السدود وكفروا . وهؤلاء المسلمون أذنبوا وأعرضوا عن حفظ هذه النعم أفلا يحق لى وأنا أكتب هذا أن أخاف عليهم . فأنا أنذركم وأقول لهم إن الذنوب على [قسمين] ذنوب ترجع إلى إهمال

النظام في الدولة وهذه جزاؤها الهلاك في الدنيا أو النذل . وذنوب جزاؤها في الآخرة غالبا وهي الأمور الاعتقادية . ويانه أن أكثر الأمم التي هلكت قرآم في القرآن كانوا غير منتظمين في أمور الحياة . ونسبح الله يقول «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» فإذا أسلحوا نظام بلادهم وهم كافرون فلاهلاك يلحقهم ، فالكافرون المعمرون لبلاد الله العادلون يكون عذابهم في الآخرة غالبا . انظر إلى أمة الصين وأمة اليابان . فهؤلاء ذاقوا عذاب الحزى في الحياة الدنيا لما كانوا غير مفكرين في أمر نظام مدنهم العام ، فلما أن عرفوا ذلك ونظموا البلاد خرجت أوروبا من بلادهم هاربة .

فيا أبناء العرب ، وبأهل اليمن ، هذا كتاب الله وهذا فعله . يعذب الأمم في الدنيا بجملها وإهمالها كما جهلت وأهملت سبأ وأتم ورتم الأرض من بعدهم ، فوعيد الله لكم ظاهر واضح . ولا سبيل لكم من النجاة إلا بصرف آخر درهم من أموالكم في تعليم الشبان تعليما عاليا وهم هم الذين يقومون بنظام البلاد . والله لقد أنفرت وحذرت وأنت يا الله تشهد «وكفى بالله شهيدا» . فهل لكم أن تسمعوا ماجاء في كتاب [التجارة الاقتصادية والجغرافية البشرية] قد جاء فيه ما يأتي :

الانسان ونهضة الاستعمار

(هذه تقط الموضوع)

- (١) معنى الاستعمار .
- (٢) أقسام العالم الطبيعية طبقا لنظرية هيررتسن ممثلة بخريطة .
- (٣) الهجرة .
- (٤) موقف المستعمرين . الأمم المستعمرة وميزاتها .
- (٥) أنواع المستعمرات .
- (٦) ما يجب على المستعمر معرفته .
- (٧) أوروبا بعد الحرب الكبرى .

يدل معنى لفظ الاستعمار على عمران الأقطار وسكنى البوادي جد إصلاحها واستيطان القفار جد استنباتها واستثمارها ، فيقبل وحشها أنسا ويستحيل جدها خصبا فينعم أهلها ببسطة في الرزق ووافر من الحيرات والتمرات ، ثم يرقى المجموع الانساني تباعا باستكاله أسباب الراحة المعيشية وهي كل مراميها في حياته الدنيوية .

قام الإنسان في عصور الكشف الجغرافي بنهضة جلي كان غرضه منها التعرف جهات العالم جميعها ففرج نفسه في المحيطات واخترق ظلمات القارات واستهدف للخطر وركب القرقر فهللك من هلك ولكن نال بيته وأصبحت الأرض جميعا قبضته فانقسمت إلى أقسام سياسية ترجع إلى مختلف المجهودات وما احتدم من قتال وما شجر من خلاف ، ثم تربث وأمعن فانكشف العالم أمامه أقساما طبيعية لا تحول ولا تحور .

عمد إلى كل جهة جديدة وأقبل عليها بحيله ورجله يحدث فيها من الحرف والأعمال بما دلته عليه تجاربه في الجهات القديمة للمائة لها والتي أقام عمرانها من قبل ، فأثبت القمح في أمريكا في الجهات الصالحة لزراعة وفي الأرجنتينية وأستراليا وزيلنده ، وأوجد القطن بالنيجر والسكر بالبرازيل وناخال وأستراليا والبن والكاكاو والتبغ والفاكهة أشكالا واللوانا . غرس كلا في اللبب اللامم له . ثم استثمر الغابات والأحراج الجديدة على نمط القديمة ، وسبرغور الأراضي وانتزع من معادنها ، وطاس أعماق البحار وانتفع من لآلتها فعمت هذه الحيرات العالم وأترى للمستعمر وأترى فزعت النفوس إلى العوالم الجديدة الفاضلة لبناوعسلا وخفت إليها الرحال وأنجحت إليها الآمال فأنتم بالاستعمار ؟ هاجر الناس من مواطنهم على حبها وشدة تعلقهم بها فاتجمعوا هذه الأقسام طمعا في المال أو فرارا من شدة التزاحم ووطيس النضال وأقبلوا يزفون على مزارع عنداء ومناجم لم تطمت

وأرض لم توطأ فسالوا وجالوا وطبق صيتم الحاققين وأصبحوا قدوة لبني جلدتهم فأهتروا جميعا بحب الهجرة وأشربوها في نفوسهم وجرت منهم مجرى الدم حتى ليهذى بها الصغير في غضاضة الإهاب ويصبو إليها العليل القوي في زمن الشباب ويحن إليها شيخهم إذا هرم وشاب .

إلى أن قال : فإذا لم يكن في الاستعمار غير تدمير أجزاء الأرض قاصبها ودانها والأخذ بيد الشعوب للتأخرة للهوض بها إلى مستوى الحضارة لسكنى لأن كثيرا من المستعمرات قد بلغ من التروة الطبيعية أخصاها ولكن أهله الوطنيين للأسف غير قادرين عليه وعلى الانتفاع به لتأخر حالهم العلمية والكثير منهم همج وحشيون يعيشون على الفطرة ، فوقف المستعمرين في ذلك حرج . فلامم بمنصفين إذا تركوا هذه الكنوز الثمينة طلام في يد من لا يعرف أن يرعاها ، ولامم بمنصفين إذا تدخلوا فلا يسلون من الثلب والقدرح ورميمم بالطمع والجشع والتصدى لغير شأنهم والتدخل فيما لا يعنهم . وإذن فليتدخل المستعمرون لا للامتلاك بل لمرض الإصلاح وإرشاد الوطنيين حتى يبلغوا بهم من المستوى المسمى والأدبى ما يؤهلهم إلى الانتفاع بمالمهم وبلادهم ، فإذا تم ذلك كان الاستعمار نعمة ، والمستعمرون ملائكة الرحمة ، ولكن الإنسان وما فطر عليه من حب الذات والسعى لها كثيرا ما يبعد عن المبادئ القومية العالية ويخف عن واجبات الانسانية السامية فتشوهت صفة الاستعمار وخرج عن معناه إلى معنى الاستعباد والاذلال .

امتازت الأمم المستعمرة : (أولا) بشدة البأس والسطوة والجيروت . فهي تعد الجيوش وتبني الأساطيل لتحضى ذمارها وتحفظ حقوقها وتضرب بها العصاة الوطنيين إذا جنحوا إلى العداة ورفضوا منهج الاستعمار الذى وضعت . وامتازت (ثانيا) بكثرة المال تنفقه فيما تشاء وعلى من تشاء فتفتح به الناجم والمصانع وبزهو به الزرع ، وتشق القنوات . وتذلل الطرق . بل تذلل كل صعب . وامتازت (ثالثا) بأنها الأمم العاملة المتحررة للتفتنة فى أساليب الرقى والحضارة . فمنها المهندسون والزراع والصناع والكيميائيون والأطباء ولفيف العالم الرافى جميعا . فأى قطر يحمله هذا النوع من الانسان وما وهب من اللزايا ثم لا يرقى إلى معارج الفلاح والتجارج أو لا يفيض على المستعمر والمستعمرة أرضه بالحيرات والبركات .

وللستعمرات (قربان) نزلية واستغلالية . فأما الأولى فينزل فيها الأجنبي لفرض الاستيطان إذا كان جوها بما يلائم مزاجه وطبيعته لوجه الشبه بينه وبين بلاده الأصلية فيقتضى له إذا استوطنها أن يقوم بالعمل الجسبانى فيها ويرتزق من هذا الطريق إن شاء . ويقع عادة مثل هذه الستعمرات فى الأصقاع المعتدلة . فمنها كندا واستراليا وزيلاندا وأمثالها . وأما الثانية فهي التى يقد عليها الأوروبيون لالاستيطان بل لفرض الاستغلال والاستفادة من طيب أرضها وصيب خيرها حتى إذا جمع ما يكفيه قفل إلى وطنه الأول وعاش فيه بقية حياته منعبا بما كسبت يدها ، فهو لا يستطيع القيام بالعمل الجسبانى فى ذلك الوطن الثانى لعدم صلاح جوه له ولذا يضطر إلى استخدام أهله الوطنيين فى ضروب الاستغلال والاستثمار على أجر معلوم بينما تكون له الزعامة العليا بفضل مامتاز به من العدة والمال والعلم . انتهى ما أردته من كتاب (الجغرافيا التجارية الاقتصادية) والمجد لله رب العالمين .

أيها المسلمون : أليس هذا فعل ربكم سبحانه وتعالى . جاء نبينا صلى الله عليه وسلم فقام معه العرب ونشروا العلم والأمن فى الأرض ثم حمد للمسلمون إلا قليلا وناموا فلم يتركهم بلا مندرين .

فها هوذا القرآن يدرسه . ولما غفلوا وقلدوا آثار الله أهل أوروبا وحركهم لاستخراج ثمرات أرضه التى جهلها المسلمون فأحاطوا بهم من كل جانب . إتهم من مخلوقات الله تعالى وهو الذى أوعز إليهم أن يحصلوا

الستعمرات (قسمن) نزلية واستتلاية ، ولا جرم أن بلادكم أيها المسلمون بلاد استتلاية ، فهم ينزلونها للاستتلال لا للاستيطان . فدوّنسكم كلام الله ودوّنسكم فعله . فان لم تفهموا القول أفلا تعقلون الفعل ؟ فإياكم أيها المسلمون أن تدرؤا النعم في بلادكم لئلا يستمرها قوم غيركم . وإياكم يا أهل اليمن أن تركوا القابلات والأشجار كأشجار الخروع الكثيرة في بلادكم فلا تتفمؤا بها . وكذلك الكنوز والآثار للطمورة ، فقد حذرت وأنذرت وبينت « وقت عاقبة الأمور » .

كتب في صباح يوم الاثنين الموافق (٢١) إبريل سنة ١٩٣٠م ، وبهذا تم الكلام على (سورة سبأ)
والحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء السادس عشر من كتاب (الجواهر)

في تفسير القرآن الكريم

وبله

الجزء السابع عشر : وأوله تفسير سورة فاطر

فهرس

الجزء السادس عشر

من كتاب الجواهر في تفسير القرآن الكريم

صحيفة

- ٢ تفسير سورة الأحزاب وتقسيمها إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول في تفسير البسمة وأن ماتقدم في معنى البسمة في أول السجدة يرجع إلى الفرق بين صفة الرب وصفة العبد مع ضرب مثل بالبرول والشمس ، وبيان الرحمة في الطيور والأشجار الخ وأن الثمر لا يكون بالقصد الأول وأن المداوات والمواد الفاسدة وجدت ليترق الناس فيسعدوا بالمنافع .
- ٧ أم ما يدور البحث عليه في سورة لقمان (ثلاث مسائل : الأولى) خلق الانسان (الثانية) موته (الثالثة) بعثه . بيان أن الكلام على البسمة في (سورة الأحزاب) قد بدى* بذكر السبب في تكرارها في أول كل سورة ، وكيف نام المسلمون في تلك القرون وجهلوا الحكمة في تكرارها فجمدوا على اللفظ ونسوا رحمة الله كلمهم .
- ١٣ بيان أن رحمة الله تعطى للعبد على مقدار ما يدرك منها ويطلبه ولا طلب الابد العلم . (كتاب الرحمة) وفيه ثلاثة فصول ، (الفصل الأول) في الحث عليها .
- ١٤ (الفصل الثاني) في ذكر رحمة الله .
- ١٤ (الفصل الثالث) فيما جاء من رحمة الحيوان وأن رجلا سقى كلبا فغفر له وهكذا البني غفر لها لما سقت الكلب ، وذكر الجمل الذي شكا بلسان حاله من التعب للنبي صلى الله عليه وسلم ودمعت عينه ، والتي عن اتخاذ ظهور الدواب مجالس . والكلام على رحمة الفمل .
- ١٦ (القسم الثاني) من السورة وأولها « يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين » إلى قوله « قديرا » ثم تفسير هذا القسم اللفظي .
- ١٩ تفسير قوله تعالى « وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم » وبيان أن غزوة الخندق ذات ثلاثة فصول :
- ٢٣ (الفصل الأول) في ملخص الكلام عليها .
- (الفصل الثاني) في تفسير قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم » إلى قوله « وكان الله على كل شيء قديرا »
- (الفصل الثالث) في اتصال هذه القصة بما تقدمها في أول السورة الخ .
- ٢٥ (القسم الثالث) من السورة من قوله : « يا أيها النبي قل لأزواجك » إلى آخر السورة .

٢٨ بيان أن هذا القسم فيه ضلوع : (الفصل الأول) في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لأزواجه بالزهد في الدنيا وتفسير قوله تعالى « إن كنتن تردن » إلى قوله « إن الله كان لطيفاً خبيراً » .

٢٩ لطيفة : في ذكر سبب نزول آية التخيير . وحكم الآية ، وأن المرأة إذا خيرت فاخترت زوجها لا يقع شيء عند بعضهم وتقع طلقة واحدة عند الآخر . وإن اختارت نفسها تقع طلقة رجعية أو بائة أو ثلاث طلقات على الخلاف .

(الفصل الثاني) في أحسن الأخلاق التي يكون عليها الرجال والنساء في الإسلام وهي عشر : الإسلام والإيمان الخ .

٣٠ ذكر أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها الخ . وتفسير « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة » إلى قوله « وكان أمر الله قدراً مقدوراً » .

٢٩ بيان أن عتاب الله على نبيه في مسألة زيد وزوجه وأن المسلمين أحق بالعتاب في عدم إظهار الحقائق التي يعرفونها .

٣١ (الفصل الثالث) في فضل النبي صلى الله عليه وسلم وعموم رسالته وتفسير ذلك من قوله تعالى « ما كان محمد » إلى قوله « وكفى بالله وكيلاً » .

٣٣ لطيفة : في أن السراج تقتبس منه السراج . فهذه كالأبوة النبوية فهي ولادة نورية .

٣٥ (الفصل الرابع) في اللطيفة قبل الدخول . وتفسير الآيات من قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات » إلى قوله « إن الله كان على كل شيء شهيداً » . ذكر حكم من تهب نفسها .

٣٧ (الفصل الخامس) في وجوب تعظيمه صلى الله عليه وسلم ومن تعظيمه أن يصلى عليه الخ .

٣٩ بيان معنى آية « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض » الخ وههنا سبع لطائف :

٣٨ اللطيفة الأولى : في سر تعدد الأزواج وتعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وكيف تزوج النبي صلى الله عليه وسلم تسعاً مع أن غيره يتزوج أربعاً .

٤١ المجلس الأول : في محاورة دارت بين الأستاذ وصديق له .

٤٢ بيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يطلق ما زاد على الأربع لأنه حرم عليه أن يستبدل بهن من أزواج وأن يتزوج غيرهن ، فهذا الحجر عليه في مقابلة إباحة الطلاق والاستبدال ، فهذه الخصوصية إذن ظاهرة .

٤٣ بيان أنه لو طلق عائشة لكان ذلك خلافاً في سياسة الأمة وهكذا حفصة الخ .

٤٤ (المجلس الثاني) في طلاق هند بنت أبي سفيان إذ أصيبت بتنصر زوجها في غربتها وبعد أبوها فلا محيص من زواجه صلى الله عليه وسلم بها ، وجورية من بنى الصطلق أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي بنت سيد قومها ، ثم بيان أن رؤساء القبائل ليس لهم ماله من هذه السياسة الزوجية وأن النساء يقدرن نعمة الزوجية الشريفة حتى قدرها جبا في الشرف .

٤٦ بيان أن تحريم أزواجه على المؤمنين بعده لسد باب الفتنة وحسم الأمور السياسية لئلا يتناول زوج أم المؤمنين بذلك إلى التدخل في السياسة . وبيان أنه اختص صلى الله عليه وسلم بأربع وترك باقيهن

لمذاكرة الحكمة والقرآن وأن هذه أول مدرسة نسائية في بلاد الاسلام ومدرسة الرجال كان تلاميذها أهل الصفة .

٤٧ (المجلس الثالث) في بيان رجال الصفة ، وأهم أربعمائة يحفظون القرآن ويتعلمون . وبيان أنه صلى الله عليه وسلم لوفاجاً نساءه الباقيات بعد الأربع بالطلاق لقامت فتنة كالفتن التي قامت في زمن عمر إذ تنصر (جيلة) ومعه ستون ألفاً لأجل مفاجأته بالتصاوص لأجل الأعرابي . وبيان أن غيلان ومن معه إنما اعتنقوا الإسلام بعد التحريم فوجب عليهم ألا يزيدوا عن الأربع .

٤٨ بيان أن هذا النوع الانساني يحكس الحقائق عكسا وإلا لما بالنا نرى داود وسليمان عليهما السلام كان عندهما زوجات كثيرات ومعظمهما جميع المسلمين والنصارى واليهود . فكيف إذن يعترض الكابرون على نبينا صلى الله عليه وسلم إذ تزوج نساء .

٤٩ (المجلس الرابع) في ذكر مقاله (كارليل) الانجليزي . وتبيان أن البناء الجاهل لا يدوم بناءه . وهذا الدين دام (١٢) قرناً فكيف يدوم بناء بانية دعوى في البناء . وأتمام الكلام في أن الأحاديث التي ألصقت به الفرام بالنساء كلها أحاديث كاذبة كحديث ابن سعد أنه صلى الله عليه وسلم جيء له بقدر فأكل منها فأعطى قوة أربعين رجلاً في الجماع وتبيان كذبه بالدليل .

٥١ (المجلس الخامس) وفيه استطراد في كيفية الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٥٣ أقسام الوضاعين .

٥٤ الكلام على تعدد الزوجات في الاسلام . وبيان أن أهل أوروبا وان برعوا في العلوم الصناعية لم يزالوا مقلدين في أمور كثيرة ومنها هذه للسألة وهو تعدد الزوجات عند المسلمين . وبيان أن كتاب (أين الإنسان) الذي ألفته لنظام الأمم العام قد أثبت فيه أن تعداد الذكور والإناث في الأمم كلها متقارب وأنتا لم نسمع أن أمة قل نساؤها فأخذت تطلب نساء من غيرها وبالعكس .

٥٨ بيان ماجاء في (مجلة المرشد) من أن عدد النساء في ايطاليا يزيد على عدد الرجال مليونين . وفي جريدة للسائتان الفرنسية أن عضو مجلس البرلمان الفرنسي قال : إن في فرنسا مليوناً ونصف مليوناً فتاة غير متزوجات . وقال ان الفتاة لاصحة لما بغير الزواج . وأثبت أن هذا مغاير لقانون الطبيعة .

٦٠ (اللطيفة الثانية) في معنى قوله تعالى « وخاتم النبيين » وذكر جواب عبد الله كويليام الانكليزي السلم القصد من الرقى إنما هو في العموم والافني كل عصر أناس متوحشون حتى في عصرنا هذا .

٦٤ بيان أنه لما جاء محمد صلى الله عليه وسلم أصبح الانسان أرقى من الانسان الذي كان قبل بعثته بمراحل وهو في تعليمه يدعو للترغيب والترهيب . وذكر جميع محاسن الإسلام كالمعدل والتواضع الخ . وهي تقرب من الثمانين عدداً .

ذكر للنبيات وهي تقرب من الأربعين . وكل هذه الباحث لم توجد في الكتب الهجائية . وهناك أمور ستعلم في المستقبل وهذا الدين لم يكن هكذا طرفة فهو آخر الأديان وهو ناسخ لما قبله من الشرائع لأنه أكلها ولا ينسخه غيره .

٦٢ نبذة من ترجمة عبد الله كويليام المذكور وسبب إسلامه .

٦٨ من آثار نبوته صلى الله عليه وسلم أن أتباعه لا يهتمون باختلاف اللون . ومن تلك الآثار الإسلامية أيضاً أن اليهود دخل في دينهم بعض الإصلاح في التوحيد على يد موسى بن ميمون وأدخل في كتب

اليهود خلاصات من علوم كتابه للبل والنحل وإخوان السفاء ، وتحقيقات الغزالي وغيره من علماء الإسلام .

٧١ من الدلائل الساطعة على أنه صلى الله عليه وسلم سراج منير ماشهد به الجاسوس الفرنسي الذي أرسلته فرنسا لبعيد القادر الجزائري وقد صار من خواصه وقرأ الإسلام فأفاد أن دين الإسلام حق ولكن العلماء لا يصلحون لبثه بين الناس .

٧٤ بيان أن الإسلام دين عمومي .

٧٥ من مزايا الإسلام أنه دين رحيم ، فهو يعدد بالجنة أصحاب الأعمال الصالحة المختلف الأشكال والألوان لافرق بين عابد وعالم وتال للقرآن الخ . وقد حرم السكرات لحفظ المسلمين من عوائلها التي منها طوائف الفوضوية وأعلى شأن النفس الانسانية بالصلوات الخمس . وهو دين ذو بساطة يلتم كل نفس حتى أبسطها وهم الزنوج .

٧٨ (اللطيفة الثالثة) في قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله الخ» وفيها أربعة فصول :

(الفصل الأول) في الذكر وبيان أن فضائل الذكر عرفها الهنود قبل آلاف السنين وهذا من المعجزات والقرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم .

٨٠ (الفصل الثاني) في قوله تعالى «وسبحوه بكرة وأصيلا» .

٧٨ (الفصل الثالث) في قوله تعالى «هر الذي يصلي عليكم الخ» ولاجرم أن الصلاة من الله الرحمة فلولا الرحمة ما كان نظام تلك الدورات بانواعها وهكذا .

(الفصل الرابع) في التحية والسلام .

٨٤ (اللطيفة الرابعة) في قوله تعالى «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا» إلى قوله «وسراجا منيرا» وبيان أن تشبيه النبي صلى الله عليه وسلم بالشمس ليس كتشبيه النابغة النعمان بالشمس .

تشبيه النبي صلى الله عليه وسلم بالشمس والشمس بها حياة كل شيء . ولكن في مخلوقات ما حجت عنه الشمس خلقت فيه حيوانات ضارة ولا يقتلها إلا التعرض للشمس كما هو الطب الحديث .

٩٥ آثار النبوة وانتشارها في أوروبا .

٩٦ الكلام على السيد ناصر الدين (دينيه) السلم الفرنسي وللصور الشهير الذي مات وهو يبلغ من العمر ٧٠ سنة .

٩٨ بيان أن الإسلام لا يبالي إلا بالعقل وينبذ خوارق العادات فهو بهذا خالف جميع الأديان . والمسلمون أشد الناس تسامحا والسيحيون اليوم يتعلمون التسامح من المسلمين .

إن السلم يحظم عيسى والسيحي يذم محمدا ، إن أصل حريتنا العملية فضائها للنبي العربي .

ومن فضائل الإسلام منع الخمر وأنه لا واسطة بين الله وعباده ولا يبالي الإنسان إلا عن نفسه .

١٠٤ المؤتمر الديني الدولي لخدمة السلام العام .

١٠٥ الكلام على حالة العميان في مصر وسؤال تلك الجمعية للحكومة المصرية في أمر العميان وهل لهم اعانة؟ وكيف عددهم؟ وكيف ساعدتهم الحكومة؟ وما أنواع مصنوعاتهم؟ وما الرائج في السوق منها؟ وهكذا .

- ١٠٧ الطيفة الخامسة : في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا » النع .
معنى « وحملها الإنسان » من القاموس . لطيفة عامة للسورة كلها .
- ١٠٨ الطيفة السادسة : في معنى قوله تعالى « وحملها الإنسان »
الطيفة السابعة : وهي لطيفة عامة في السورة كلها وفيها قبلها وما بعدها .
- ١٠٩ تفسير سورة سبأ . القسم الأول في تفسير البسملة ، وبيان أن رحمة الله في هذه السورة موجهة إلى
السليمن من حيث إنه يذكرهم بأمر خلت في بلاد اليمن كانوا ذوى علم وجدّ وتشمير .
- ١١٠ (القسم الثاني) في تفسير السورة كلها . وبيان حكم فوائج السور كالمجدلة وكالحروف المجهائية (الم)
وهكذا ، وأن الحمد في القاتحة والأنعام والكهف وهذه السورة ، كل لحكمة خاصة ، والكلام على
أرجل الحيوان وعددها بمناسبة السور .
- ١١٢ (فصول ثلاثة : الفصل الأول) ذكر السورة كلها مشكاة .
- ١١٥ التفسير اللفظي .
- ١١٩ الكلام في محاجة الكافرين والمعاندين النع من قوله تعالى « قل من يرزقكم من السماء » إلى
آخر السورة .
- ١٢٢ (الفصل الثاني) في أن هذه السورة ستة مقاصد .
المقصد الأول والثاني والثالث من أول السورة إلى قوله « رجز أليم » وبيان أن السورة ابتدئت
بالحمد توطئة لما سيذكر في السورة من ملك داود وسليمان عليهما السلام الذي استوجب شكر
النعمة عليهما .
- ١٢٣ (المقصد الرابع) في التهديد والوعيد للمستهزئين .
(المقصد الخامس) في بيان أدوار ملك بنى إسرائيل الثلاثة بمصر وفي حكم الشيوخ ودور عظمة الملك
أيام داود وسليمان .
- ١٢٤ موازنة ملك سليمان بملك سبأ بن يعرب بن يشجب بن قحطان .
- ١٢٥ (المقصد السادس) الاستقلال والحرية في الآراء . الاعتزاز بالرؤساء الضلال بالنفي .
- ١٢٦ (جوهرتان) الأولى : في قوله تعالى « الحمد لله » وبيان أن الناس ثلاث درجات . منهم من
يعشقون الصور الجميلة ، ومنهم من يعشقون الصناعات الانسانية ، ومنهم من يعشقون الصناعات
الكونية .
- ١٣٠ سورة ملكة النحل والأرضة وجسم الإنسان من حيث إن هذه الممالك قد أحدثت في أن لكل مركز
رياسة وأتباع بطيعونها من النحل والأرضات والسيارات وأعضاء الانسان .
- ١٣٢ بيان أن كل من حذق في صناعة وشاهد شيئا منها أدرك سرها وعرف فاعلها .

- ١٣٥ (الجوهرة الثانية) في قوله تعالى « يعلم ما يلج في الأرض » الخ . البحث في الأرض وبيان الصور التي رسمها بعض العلماء في أدوار فهمها المختلفة .
- ١٣٦ القام الأول : وصف الأرض .
- ١٤٠ (القام الثاني) فيما يقوله علماء الاقتصاد في مباحث للمعادن والقعم الخ .
- ١٤١ بيان أن التربة إما سوداء جلبها الفرن (الطمي) وإما نباتية وإما بركانية ، فالسوداء كأرض بلاد النيل جلبها الطمي لا يحتاج إلى سقي كثير بخلاف الرملية وضدها البركانية في الولايات للتحدة .
- الكلام على الهزات الخفيفة والزلازل العنيفة التي تبلغ (٣٠) ألف في السنة لا يشعر الناس بها تحدث ارضاطا وانخفاضنا .
- ١٤٢ نشأة البركان الذي هو جبل مخروطي تخرج منه مواد مصهورة وحمم بركانية .
- ١٤٣ بيان أن القعم مخزون قديم في الأرض ومنه يكون اثرا سبت ، والقعم البخاري ، وقعم الكوكب وهكذا ، وهاك صورة في الأرض (انظر شكل ٢١) و (شكل ٢٢) .
- ١٤٥ وجود زيت البترول في بلاد القوقاز والولايات المتحدة وغيرها (شكل ٢٣) فيه صورة الأعشاب في حدة القعم الحجري .
- ١٤٦ (شكل ٢٤) فيه ما تفرع عن القعم من الكوكب والقطران والقار وزيت القار والنفط وغاز النشادر والأصباغ وهكذا ، وهذه في الرسم نحو (٦٠) نوعا تقريبا .
- تفصيل بعض ما في هذا الشكل مثل الزيت الطبيعي والكيروسين والبرنتين والغازولين .
- ١٤٧ الكلام على البزير والزيولين .
- ١٤٩ جمال العلم في قوله تعالى « وما يجرح منها » مثل البنايع المحجرة بسبب ما فيها من الجبر الذباب في الماء كغابة هليوبوليس السكونية من بنايع حارة فيها أذيب الرمل ومثل الصخور الرسوبية الكيميائية من ذوبان صخور جيرية أو من صخور الملح التي ترمي في (تشكوسلوفاكيا) الخ .
- ١٥٠ الكلام على حركات القشرة الأرضية . الزلازل والبراكين والنافورات . السواحل الطالعة كساحل المحيط الأطلسي الغربي وهو المجاور لأمريكا المكون من صخور رسوبية حديثة العهد الخ .
- بيان أن الجبال تكون غالبا على حافة المحيطات الكبرى وعند مجمع القارات وتخرج بسبب التواء الأرض من أضف الجهات . الأنهار تجلب للبحار مواد تسكون بها جبلا جديدة في باطن الأرض بدل الجبال التي تبرز بالسلاسل أو بحركة القشرة الأرضية .
- ١٥٢ الأخاديد العائرة . الهضبات للرفوعة . الجبال المختلفة . الزلازل .
- ١٥٤ بيان أن باطن الأرض عند القطبين مملوء فغما به يكون القطب الشمالي ملئ الخيطوط الجوية .
- (الفصل الثالث) في مبحث الجن وسيل العرم .
- ١٥٦ تعريف الأرض وأنها عمياء غبشاء الخ .
- ١٥٧ بيان أن الأرض تطرد الانسان وتبني مساكن في أرضه كما بنت في استراليا (١٦) قرية في مساحة (١٣٥) مترا ولها مهندسون وجنود يصنعون لها كل ما تريد (انظر شكل ٢٦) وهو رسم الأرض العاملة (شكل ٢٧) الجنود وعدو الأرض هي الخلة الخ .
- ١١١ بيان أنه متى آن فصل الشتاء تفتح للنافذ المحرم فتحها طول السنة في ساعة خاصة ، وتخرج حشرات

- من هذه الملكة ذات أجنحة تعد بالملايين وتنشئ في الجو ما يشبه السحاب بمنظر جميل قصير المدى .
(شكل ٢٨) وهو رسم أرضة بالغة بسطت جناحها .
- ١٦١ الكلام على تخريب حشرة الأرض للأرض .
- ١٦٢ بيان أن حشرة الأرض تقدمتنا بملايين السنين .
- ١٦٤ خطاب للمسلمين ، وكيف درس القوم حشرة الأرض وأنهم لم تدرسوها وهي في القرآن .
- ١٦٥ (القام الثاني) ولما خر تبينت البرية الخ . وبيان أن العزائم والدعوات الكفرية وغيرها تذكر فيها أسماء الشياطين فيها نوع من العبادة . وبيان أن الأرواح الصغيرة تكذب وأن الروحانية لا يصح أن تكون بابا للرزق ولا علم للأرواح بالمستقبل في الكشف الحديث .
- ١٦٦ لطيفة في الكلام على آية «فما خر تبينت الجن» الخ . وتبيان ما قاله الرجل الهندي بمصر الخ .
بيان أن هذه الأرواح ناقصة وأن هذا العمل لم يخلق الإنسان لأجله في الدنيا وأنه لا يرقى هذا الهندي ولا كل من فعل مثله الخ ، وأن هذه الأحكام قالها الشيخ الدباغ والشعراني والحواص في الجزء الحادي عشر من هذا التفسير صفحة ٤٨ .
- ١٧٠ بيان أن قوة الإرادة تنتج أعمالا خارقة للعادة . مثل الهنود الذين اشتهر عنهم أنهم ينامون على السامير ولا يألمون .
- ١٧٢ (البحث الثاني من الفصل الثالث) في سبأ وسيل العرم الخ ، وبيان أن المسلمين اليوم أشبه بالبيمين الذين حفظ الله لها كنزها باقاة الحائط عليه .
- ١٧٤ مخالفين الذين يحكمها الأقبال أي الملوك الصغار . وبيان أن المخالف يشتمل على عاقد أي تصور حولها مساكن يحكمها أدواء (جمع ذو) وأنه إذا تغلب رجل على مخالفين سمي ملكا فهو ملك على هؤلاء الأقبال الحاكمين لهؤلاء الأدواء ، وملك الملوك هو التبغ أي ملك يحكم ملوكا . إذن هنا أربع درجات : أدواء أقبال ، ملوك ، تبابعة .
- ١٧٥ (خريطة مدينة مأرب بعد خرابها) وهي عاصمة (سبأ) وهي نفسها تسمى (سبأ) وهي للعبية بالبلدة الطيبة في الآية .
- ١٧٦ الحظ والحبط في تاريخ تلك البلاد . وبيان أن المؤرخين ليس عندهم دولة اسمها سبأ ولكن الكشف الحديث كشف ذلك موافقا للقرآن مخالفا للتاريخ المشهور ، وهكذا سد العرم كان الناس يشكون في أمره وفيما كتبه عنه الهمداني حتى ظهر اليوم بالكشف ورسمت خريطة كارتومت هنا في هذا التفسير وهذا من أجل المعجزات النبوية .
- ١٧٧ بيان أن الناس يشكون في وجود سد العرم حتى تمكن المستشرق (ارنو) من معرفته ونشره في المجلة الآسيوية سنة ١٨٧٤ وزاره هاليقي وغلازر ، ووجدوا صدق وصف الهمداني له في كتابه (وصف جزيرة العرب) و (الأكيل) . وههنا بيان للبراب الشرقي والأودية التي تصب فيه وجبل السراة وغيرها وهكذا ميزاب مور ووادي أذنه الذي تسير منه المياه إلى ما بين الجبلين وهما البلق الأيمن والأيسر .

١٧٩ رسم سد العرم وكيف ينصرف الماء منه ، والسد عرضه (١٥٠) ذراعاً ، وطوله ثمانمائة ذراع ، وثلاثة الفرى وهو الأيمن باق والثلاثان الباقيان تهدما ، والأيسر عرضه عند القاعدة (١٥) ذراعاً وطوله (٢٠٠) ذراعاً ..

١٨١ خريطة بلاد العرب .

خريطة سد مأرب أو سد العرم .

١٨٢ عجائب القرآن فى القرن العشرين ، ويان أن ذكر سد العرم يذكرنا بطوفان نوح عليه السلام وبما حصل فى مصر سنة ١٩٢٩ وما حصل فى أمريكا سنة ١٩٢٧ م وبأن منعه فرض كفاية وأن ذلك الفرض عند بعض العلماء أفضل من فرض العين لاتساع فوائده . ويان أن نهر للسيسي أثار على الجسور فقطعها وأن هذا النهر سنة ١٩١٣ م فاض على مقاطعة (الاهيو) غمرت البلاد (٢٤) مليوناً من الجنهات ، فأما فى سنة ١٩٢٧ م فقد خرج البحر عن مجراه وأغرق سبع ولايات وارتفع على الأرض (٨) أمتار .

١٨٤ (شكل ٢٢) مياه السيبي ترتفع على الجانبين وشكل (٢٣) نصف أحد جوانب السيبي .

١٨٥ يان اشتراك الشعب كله فى درء الخطر ، وأن مئات ألوف من الناس باتوا بلا مأوى ، وأن الحكومة أغاثتهم بفيلقين من الجيش وبلغت الخسائر مائتى مليون .
تنمة الكلام على أسداد اليمن وإيضاح من بنوا سد العرم .

١٨٦ الأسداد وأنها تبلغ فى العدد مئات . ويان أن الذى بنى سد العرم أولاً سمعلى ، ثم ابنه بشمر ، ثم ابنه كرب ايل ، ثم ذمر على ذرح ملك سبأ ، ثم يدع ايل دثار ، وقد تهدم مرارا وأصلح ، ولما ملك الأحباش اليمن ظهرت لهم كتابة عليه سنة ٥٣٩ م وسنة ٥٦٥ م ونص إحدى الكتبتين التى كتبها أمير الحبش (بنعمة الرحمن الرحيم ومسيحه الخ) وفيه تاريخ تغلب ذلك الملك على الخارجين عليه .

١٨٨ (تذكرة) فيها إيقاظ المسلمين إلى هذه النعم المخبوءة فى أرضهم ، وكيف عرف قبعتها الوثنيون ولم يبا بها المسلمون ، وهذا فى الحقيقة انتكاس ، فأين شكر النعم إذن وقد أهملناها .

١٨٩ (جوهرة بريمة) فى آية « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم » وأن أم الإسلام اليوم استيقظوا وأحس العرب والعجم بما يصيبهم من الخطر ، وأن المسلمين كانوا فى القرنين الأولين يرضعون من أفابيق النبوة ثم فى القرون التى بعدها صاروا أيتاما وأوصياؤهم أمراء وشيوخ إن صلحوا صلحت الأمة والعكس بالعكس .

١٩٢ القصيدة التى قبلت فى ابن تامرته أنه المهدي المنتظر وأولها :

سلام على قبر الإمام للمجد سلاله خير العالمين محمد

والذكور هنا ٢٤ بيتا

١٩٣ الكلام على أبى يعقوب يوسف وعلى ابنه يعقوب الذى أهان ابن رشد وعلى ابنه محمد وابن يوسف والمأمون من هؤلاء .

- ١٩٥ بيان أن ابن ثومرت استعمل رجلا من أصحابه في طريقة الجذب وإظهار الكرامات وإدعاء أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه العساوم وأطلق لسانه قسم الأمة إلى قسمين . أصحاب الجنة وأصحاب النار بمقتضى قاعدة سرية يعرف بها المصدقون بالمهدى للمصوم والسكديون ، ثم أمر أصحاب الجنة بقتل أصحاب النار وأخذ نساءهم وأموالهم ، وبعد ذلك شغلهم المهدي بالحروب حتى لا يفتقدوا عليه بقتل رجالهم .
- ١٩٦ امتحان هذه السير والأحوال ، وأن الكلام على للهدوية تقدم في أول سورة الحج ، وأن أكثر أمم الإسلام تركوا مواهبهم وانكسروا على شيوخ جهلاء كما اتسكت العزلة على إطمائنا إياها فكان قصها عظيما بالنسبة لتظيرتها الغزاة في البادية .
- ١٩٧ جمال العلم وبهجة الحكمة في ذم التقليد .
- ١٩٨ حديث المند ، وبيان أنها أمة بلغ الرقي فيها أعلاه في بعض الأفراد وفي مؤخرتها أناس لا يزالون في أخريات الأمم كمهد الفطرة الأولى .
- ٢٠٣ (نور على نور) الكلام على البراهمة في آية « ولو ترى إذ الظالمون موقفون عند ربهم » . وأن الله الذي نظم عيون النمل والدياب لم يفتل عن أهل المند .
- ٢٠٦ (الفصل الأول) في بيان المضار الحاصلة في بلاد المند بسبب سوء التقليد ، وشرح أمر الزواج وتخفيف ضرره . وبيان نسبة الأرابيل إلى غيرهن ونبد العادات القديمة من قتل من مات زوجها .
- ٢٠٨ (الفصل الثاني) في عباد من الكتب الإسلامية التي تغري الملوك بالخداع وحبائل النصب ليخسروا على الشعب ، وهو كتاب (سر العالمين) المنسوب للغزالي كذبا ، وأن هذا الكتاب يأمر بإظهار الزهد والكرامات . ثم يظهر الداعي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضرب مثلا بابن الصباح والمؤمن أخى الأمين بن هارون الرشيد . وبيان أن الولي هو الذي لانتهم الحياة الدنيا وعجب لقاء الله فأما الكرامات وخوارق العادات فما هي إلا امتحانات للناس . وتبيان حديث المسيح الدجال . وأن خوارق العادات على يديه امتحان للناس .
- ٢١١ بيان أن العلم والعمل صبيان على الناس وما أسهل الزاخرة والنوم والكسل والجهل والالاكتفاء بالكرامات وتقبيل الأيدي وما أشبه ذلك .
- ٢١٢ (أشموذة أم علم ؟) (هوديني) رجل أوروبي في زماننا يدفن نفسه في الأرض على عمق بيده ثم يخرج وقبل ذلك في كل دولة وأخذ يهزأ بالسجون جميعها وخزائن الحديد التي تنقل عليه فيخرج حالا بحضور وزراء الأمم وعظماؤها وهو القائل : هذا سر لو عرفه غيري لأضر بالناس إذا لم يكن أمينا وهذا يؤيد قول علماء الاسلام : إن خوارق العادات لا تختص بالأولياء بل هي عامة .
- ٢١٥ ذكر حادثة دالة على ذم التقليد في الطب وهي المذكورة في سورة الشعراء .
- ٢١٦ حول ترياق سم الأفي ولباب القط .
- ٢١٧ الحياة الاجتماعية وتبرم أوروبا من حروفها الكتانية .
- ٢١٨ (الفصل الثالث) في ضرب مثل لمن صاروا أحرار الآراء وماذا فعلوا ؟ .
- الحادثة الثالثة بند التقليد في الزراعة أن الأشجار والزرع تنمو في نفس الماء في حياض وتوضع في اللاء أقراص محتوية على العناصر السبعة التي يتخذ منها النبات .

٢٢٠ بيان أن أي نبي أو بر في أرض قفراء يكفي ماؤه لغذاء أناس في أرض قفراء اليوم .

٢٢١ تذكرتان : الأولى في قوله تعالى « والصائمين والصائمات » .

٢٢٢ قفر الدم ومعالجته بالصوم .

(التذكرة الثانية) في أن قوله تعالى « يعلم ما يلج في الأرض » الخ يدخل فيه القطران الذي يستخرج

منه مئات الألوان الزاهية التي بها اغتر بعض الأمم الإسلامية حتى عليهم آثار قوله تعالى « سراويلهم

من قطران » وهذه أشبه بجنة المسيح الدجال التي تكون لنا جهنم ، وهذا عجيب القرآن ،

والاستدلال على ذلك بقول بعض العقلاء إن التهافت على اللباس الأجنبية يورث البودية

في هذه الدنيا .

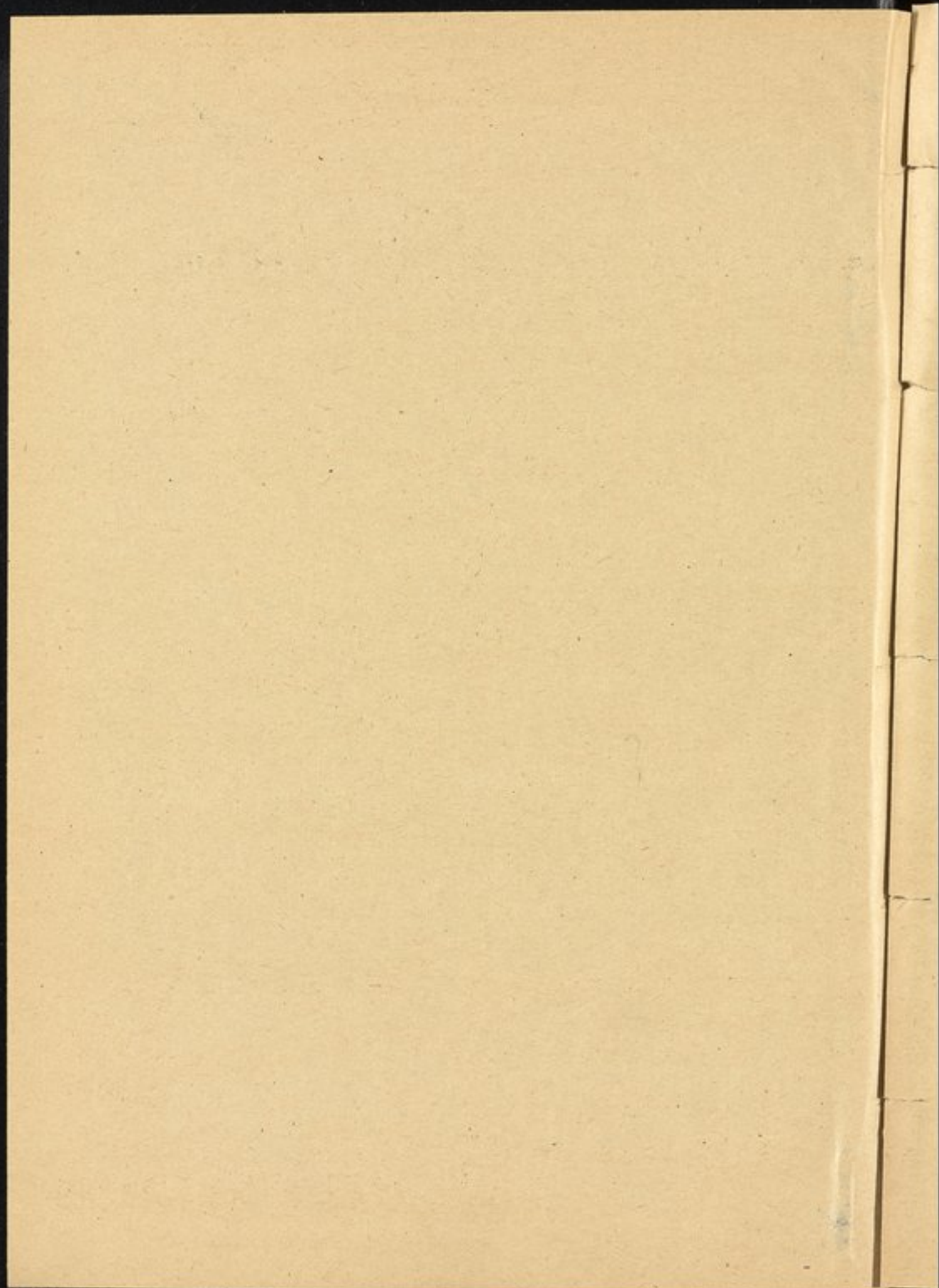
٢٢٣ (خاتمة السورة) وأنها مبتدأة بالعم الجزيلة وأن هنا أمتين شريقتين أمة اليهود وأمة العرب .

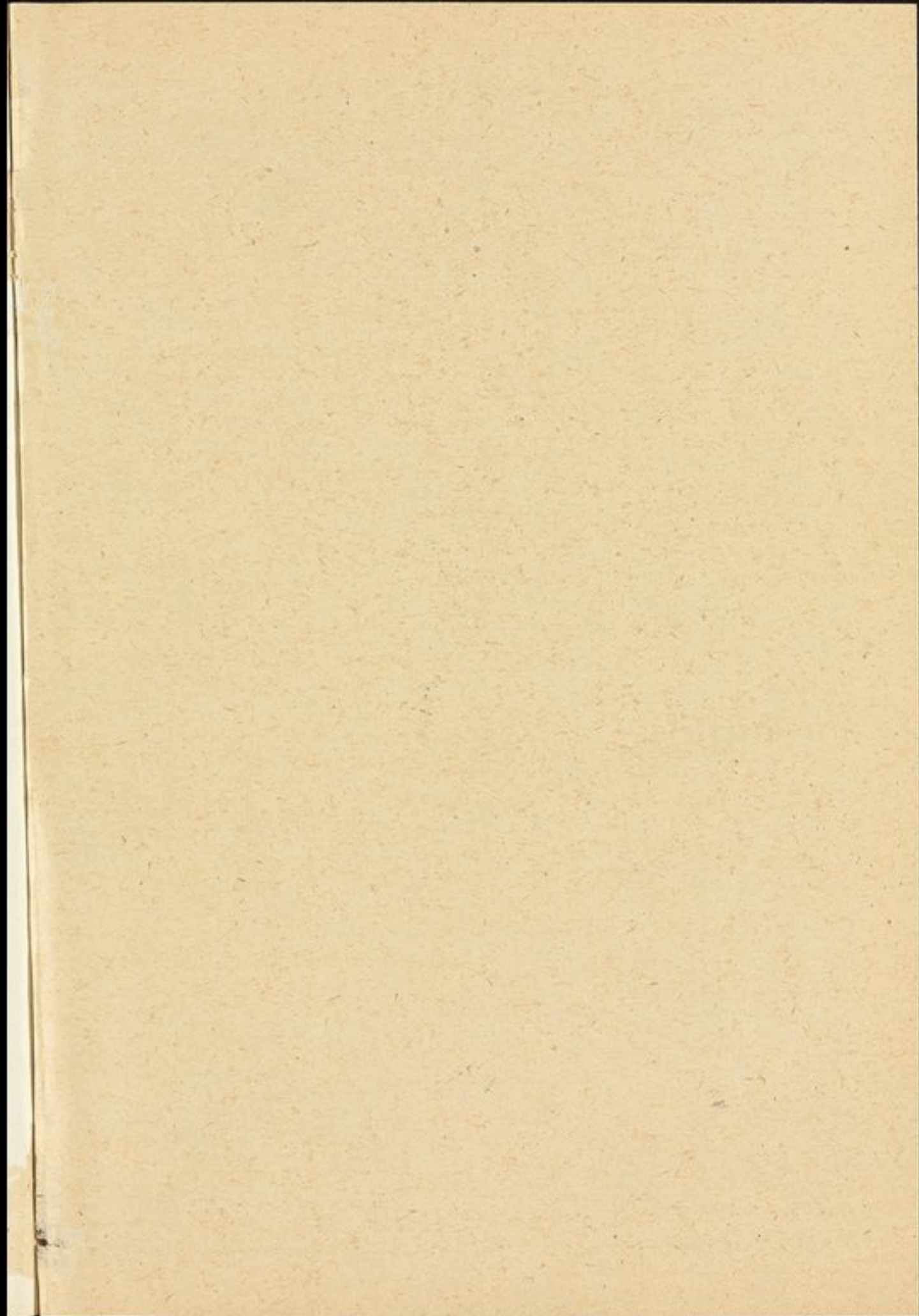
٢٢٦ الانسان ونهضة الاستعمار . وبيان أن الأمة العالمة تبحث عن الأرض التي نام أهلها عن إتيان العمل

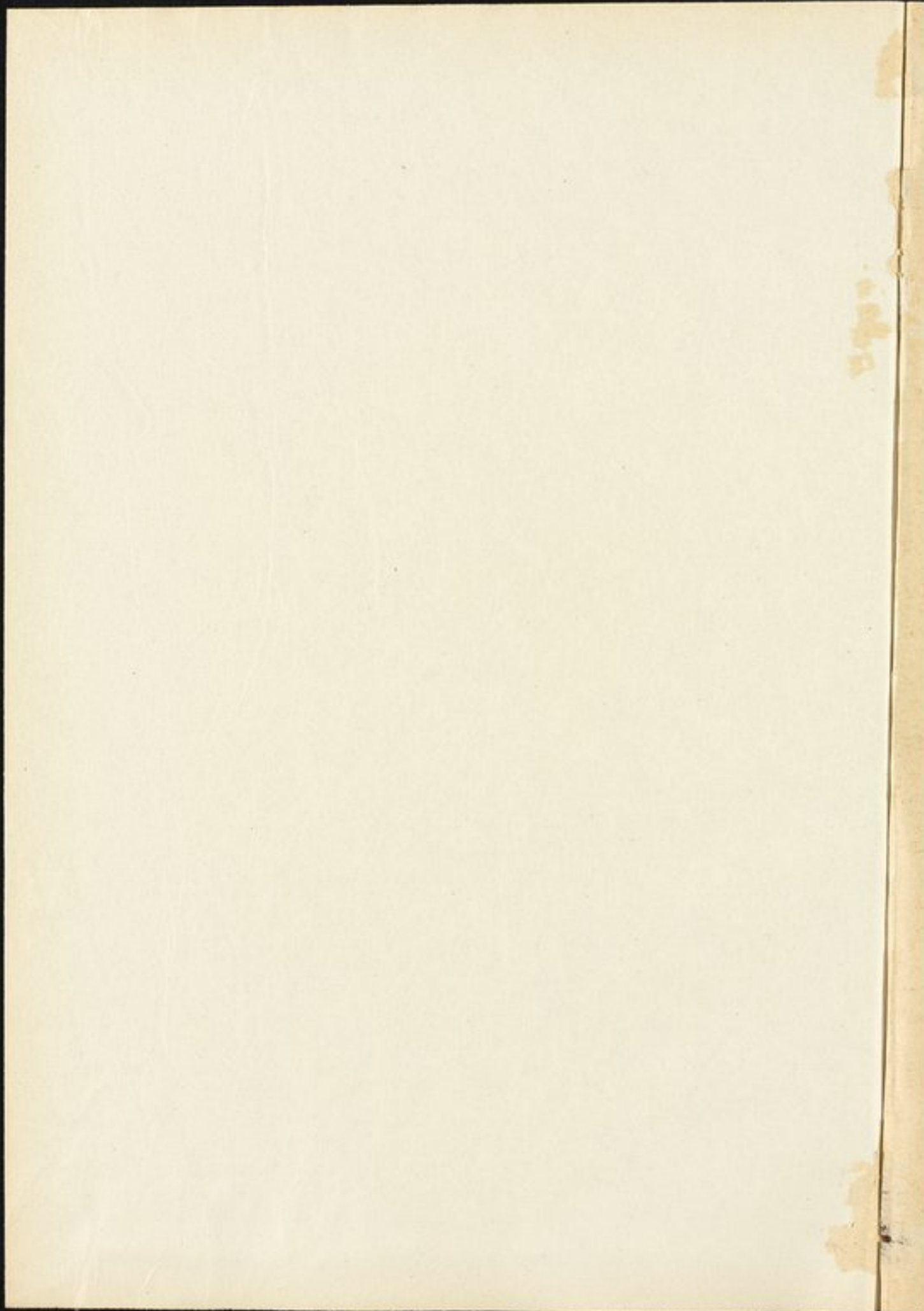
فيها فتسخر أهلها لمصلحتها وتارة يستوطنونها . وبيان أن هذا التفسير آخر إنذار للمسلمين .

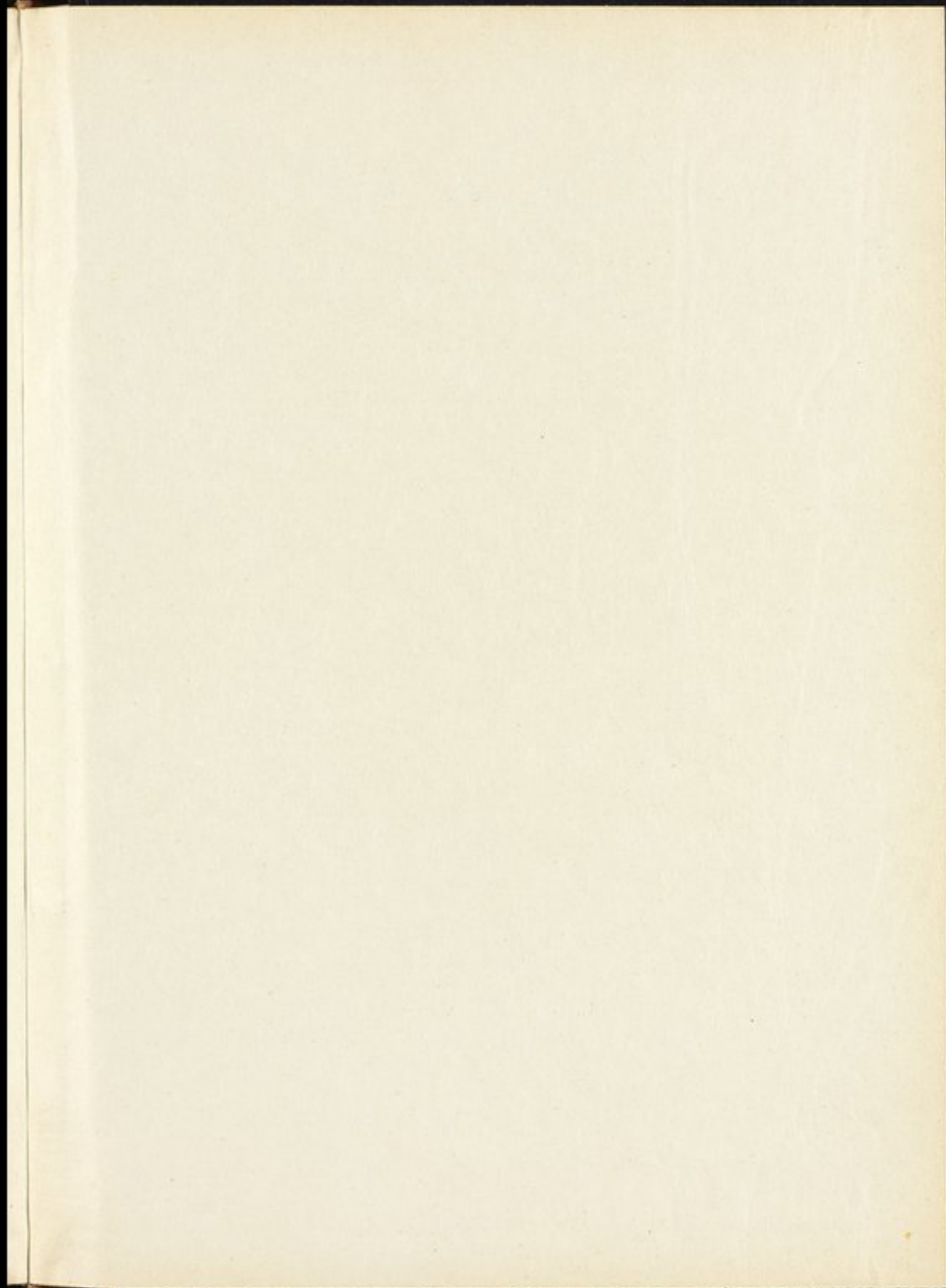
(تمت)

فهرست تفسير الجزء السادس عشر من كتاب الجواهر



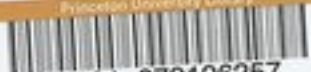








Princeton University Library



32101 079196257